

البلاغة العربية

أسسها، وعلومها، وفنونها

وصورها من تطبيقاتها، بصيغ جديدة من طريف وتليد

تأليف وتأمل

عبد الرحمن محمد بن محمد المنذاري

الجزء الأول

الدار الشامية
بيروت

دار القلم
دمشق

الطبعة الأولى

١٤١٦هـ - ١٩٩٦م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

دار القلم

دمشق - حلبوني - ص.ب. ٤٥٢٣ - هاتف: ٢٢٢٩١٧٧

دار الشامية

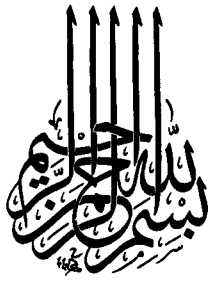
بيروت - ص.ب. ١١٢/٦٥٠ - هاتف: ٣١٦.٩٢

تطلب جميع منشوراتنا في المملكة العربية السعودية

من دار البشير بجدة

جدة: ٣١٤٦٣ - ص.ب. ٢٨٩٥ - هاتف: ٦٦٠٨٩٠٤ - ٢٦٥٧٦٣١

البلاغَةُ العِربِيَّةُ
أَسْسُهَا، وَعُلُومُهَا، وَفُنُونُهَا



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مَقْدَمَةُ الْكِتَابِ

الحمد لله رب العالمين الذي أتقن كلَّ شيءٍ صنعاً، وفطر النفوس على حبِّ الجمال، وزين ما خلقَ بزِيناتٍ روائعٍ تميلُ إليها النفوس، وتأنسُ بها وترتاح إليها، وهي تدلُّ على إبداع خالقها وإرادته الحكيمة، في كلِّ ما خلق من ظواهر وبواطن.

هو الذي أنزل كتابه القرآن معجزاً، وآيةً عظيمةً تدلُّ عليه، ومن إعجازه ما فيه من جمالٍ بيانيٍّ وبلاغةٍ رائعةٍ لا ترقى إلى مثلها بلاغةٌ جميع البلغاء، ولا فصاحةٌ جميع الفصحاء.

والصلاة والسلام على رسولنا محمدٍ خاتم النبيين والمرسلين، وإمامهم، مَنْ خَصَّه الله بالدِّينِ الخاتم، والكتاب الخاتم المعجز، فأنزله عليه مُتَكَفِّلاً بحفظه مِنْ التَّغْيِيرِ والتبديل والزيادة والنقصان، بقصدٍ أو نسيان، فهيأ له من وسائلِ الحفظ ما جعله باقياً كما أنزله في السُّطُور والصُّدُور وأدواتِ التسجيل الصوتي.

وبعد:

فخدمةٌ للقرآن كتاب الله المجيد، وحرصاً على إبراز بعض جوانب إعجازه البيانيِّ، اجتهد علماء المسلمين بحثاً، وتَنْقِيياً واستخراجاً، حتَّى وَضَعُوا علوم البلاغة الثلاثة: «المعاني - والبيان - والبديع» وما يزال الباحثون يَبْحَثُونَ

ويستخرجون ويكتشفون من عناصر إعجاز القرآن البياني ما لم يكتشفه السابقون .

على أن كتاب الله عزّ وجلّ أوسع من أن يُحصي كلّ عناصر إعجازه البياني الباحثون والمستخرجون والمكتشفون، مهما اجتهدوا ونقّبوا، لأنّ كثيراً من عناصر الجمال تُدرّك بالحسّ الجماليّ ولا يُستطاع تحديدها والتعبير عنها ولا اكتشاف عناصرها .

وس يظهر في كلّ عصرٍ من جوانب إعجاز القرآن البياني روائع ما توصّل السابقون إلى اكتشافها واستخراجها، فهو كتاب لا تفتني عجائبه، ولا يخلق على كثرة الردّ، كما جاء وصفه في كلام الرسول ﷺ .

وقد فتح الله عليّ بجملة طرائف ولطائف هي من عناصر إعجاز القرآن البياني، أردتُ أن أضيفها إلى علوم البلاغة التي استقرت منذ قرون على هيكلي لم يدخله من الإضافات والتعديلات إلاّ القليل، وبعض التطبيقات من الأمثلة .

وفتح الله على غيري من الباحثين متناثرات تتصل بموضوع إعجاز القرآن البياني، ويحسُن أن تُضاف إلى علوم البلاغة، كظاهرة التصوير الفني التي اهتدى إليها المرحوم «سيد قطب» وكالبحوث الطيبة حول القصة القرآنية التي نجدها لدى عدد من الباحثين المعاصرين .

فعرزمتُ مستعيناً بالله العزيز الحميد الوهاب أن أجمع ما انتهى إليه السابقون من علوم البلاغة، محاولاً التذليل والانتقاء واستيعاب الأمهات والمهمّات، متجاوزاً التفاصيل التي لا تُكسب ملكة تدوّق الجمال البياني، والتي دخلت في علوم البلاغة بتأثير الدراسات المنطقيّة والرياضيّة العقليّة الصّرف، ومتجاوزاً الإجراءات التي تُشبه التحليل الكيميائي في معامل الكيمياء، والتي تفقد النصّ روعته الجماليّة، كأنواع الاستعارات في الفعل والحرف وإجراءاتها، وأشباه ذلك .

وأرجو أن أوفّق لتحقيق ما عرزمتُ عليه من تقريب علوم البلاغة وفنونها

للأجيال المعاصرة من ناطقي اللّغة العربيّة، بالأُسلوب الذي يُسهّلُ عليهم فهمها،
ويُيسّرُ لهم تطّيق قواعدها على الأمثلة من القرآن، وأقوال الرسول، وغيرهما من
نثرٍ وشِعْرِ البُلغاء، ويُسجّعُهم على أن يقتدوا في بيانهم بالنماذج الرفيعة من
النُّصوصِ البليغة، وأن يبتكروا أشياءً بديعةً تهديهم إليها الفطرة الرّبّانية، بما أودع
الله فيما خلَقَ وفيما أنزل من جمال، وبما أودع فيهم من حِسِّ جماليّ.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين وصَلَّى اللهُ وسلَّم على سيّد البُلغاء
من الناس مُحَمَّدِ بن عبد الله وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

عبد الرحمن حَسَنَةُ المِيزَانِي

مكة المكرمة في ٩/٤/١٤١٤ هـ

١٩٩٣/٩/٢٥ م

مُقَدِّمَاتُ عَامَّة

في العناصر التالية:

- (١) الغرض من دراسة علوم البلاغة والأدب .
- (٢) نظرات تحليلية حول الغرض من الكلام .
- (٣) أسس البلاغة العالية والأدب الرفيع ،
ويأتي شرحها في ثلاثة فصول :
الفصل الأول : الجمال في الكلام .
الفصل الثاني : الفصاحة .
الفصل الثالث : البلاغة .

(١)

الغرض من دراسة علوم البلاغة والأدب

البلاغة بفنونها الثلاثة «المعاني - البيان - البديع» وسائر الفنون الأدبية التي نبه عليها أدياء العرب، وكذلك سائر المذاهب الأدبية المستوردة من الشعوب غير العربية ليست إلا بحوثاً وتتبعات لاكتشاف عناصر الجمال الأدبي في الكلام، ومحاولات لتحديد معالمها، ووضع بعض قواعدها، دون أن تستطيع كل هذه البحوث والدراسات جمع كل عناصر الجمال الأدبي في الكلام، أو استقصاءها، واكتشاف كل وجوها.

فالجمال كثيراً ما يتذوقه الحسّ الظاهر والشعور الباطن، دون أن يستطيع الفكر تحديد كل العناصر التي امتلكت استحسانه وإعجابه، وإن عرف منها الشيء الكثير، واستطاع أن يفرزه ويحدّد معالمه.

إن آفاق الجمال أوسع من أن تُحدّد أو تُحصّر بأطرٍ ومقاييس، ولكن يمكن اكتشاف بعض عناصر الجمال، وكلياته العامة، وطائفة من ملامحه.

والغرض من عرض الباحثين لفنون البلاغة وعلومها، وللمذاهب الأدبية المختلفة، وللأمثلة الأدبية الراقية المقرونة بالتحليل الأدبي والبلاغي، تربية القدرة على الإحساس بعناصر الجمال الأدبي في الكلام الأدبي الرفيع، وتربية القدرة على فهم النصوص الجميلة الراقية، والقدرة على محاكاة بعضها في إنشاء الكلام، والقدرة على الإبداع والابتكار لدى الذين يملكون في فطرتهم الاستعداد لشيء من ذلك.

وليس الغرض من دراسة هذه الفنون والعلوم والمذاهب والنصوص، الجمود في قوالب ما استُخْرِجَ من العناصر الجمالية، وما وُضِعَ من قواعد، دون اكتساب الإحساس المرهف بمواطن الجمال، لتقديم الأفكار، وصياغة الكلام صياغةً أدبيةً بليغة.

فَمَعَ ضرورة التَّسَلُّحِ بهذه الدراسة، والاطلاع الواسع على النصوص الأدبية الجميلة الراقية، ودراستها دراسةً تَحْلِيلِيَّةً تكشفُ من جوانب الجمال والإبداع فيها على مقدار استِطَاعَةِ الْمُحَلِّلِ، لا يَصِحُّ بحالٍ من الأحوال الجمود عندها دون محاولات الابتكار والإبداع والتجديد، بشرط أن يكون ذلك الابتكار قادراً على انتزاع إعجاب ذوي الإحساس المرهف والذُّوق الرَّفِيعِ في إدراك الكلام الأدبيِّ الجميل البليغ.

هذه الحقيقة لا بُدَّ من ملاحظتها دوماً لدى أيّة دراسةٍ بلاغيّةٍ وأدبيّةٍ، ولدى إنشاء أي نصٍّ أدبيٍّ جديد.

ومن الخير دوماً لكلِّ كاتبٍ أو مُنْشِئٍ أو شاعرٍ أن يَحْذَرَ من أن يَضَعَ الصورة الأدبيّة التي دَرَسَهَا بلاغيّاً أو أدبيّاً، وينشِئَ كلامه على قَالِبِهَا، فإذا فَعَلَ ذلكَ أَفْسَدَ كلامه، وشوّه روح القاعدة البلاغيّة أو الأدبيّة، وإن التزم بصورتها.

إنّ تربية الذوق والملكة البيانيّة، مع تلقائيّة الأداء التعبيريّ لدى إنشاء الكلام كتابةً أو ارتجالاً، عند من يَمْلِكُ الاستعداد لأن يكون أدبياً بليغاً، هي الكفيلة بتفجير الإبداع المطلوب في الأدب، بشرط عدم الخروج عن ضوابط قواعد اللّغة وأصول البيان.

ومن جيّد ما قرأت في التعريف بخير الكلام، قول «خالد بن صَفْوَانَ» وهو من فصحاء العرب المشهورين، كان يجالس عُمر بن عبد العزيز، وهشام بن عبد الملك، توفي نحو (١٣٣ هجرية):

«خَيْرُ الْكَلَامِ مَا طُرِفَتْ مَعَانِيهِ، وَشُرِفَتْ مَبَانِيهِ، وَالتَّدَهُ آذَانِ سَامِعِيهِ». عن
لسان العرب في مادة «طرف».

* * *

(٢)

نظرات تحليلية حول الغرض من الكلام

الغرض من الكلام التعبير عما في الفكر ومشاعر النفس وأحاسيسها بألفاظٍ
دالة على ما يريد المتكلم التعبير عنه.

والكلمات رموز اصطلاحية في الأوضاع اللغوية الأولى، وفي الاستعمالات
اللاحقة للأوضاع اللغوية والناجمة عن استخدام الناس لمختلف الأساليب والحيل
الكلامية القائمة على التوسع في دلالات الألفاظ، والانتقال بها من الحسيات إلى
ما وراءها، حتى العقليات المجردة.

● فمن أمثلة ذلك في الحسيات:

التَضَرُّعُ: كان بمعنى خَفَضَ رَأْسَ الرَضِيعِ من صغار البهائم كَحَمَلٍ أو عِجَلٍ
أو سَخْلَةٍ، ونحو ذلك، لِيَرَضَعَ مِنْ ضَرَعِ أُمِّهِ، فصار في التوسُّع اللُّغَوِيِّ بمعنى الدَّلِّ
والانكسار، ونزلت التعاليم الربانية المبيِّنة للصور المثلِّ من درجات العبادة لله
تبارك وتعالى، فَعَلَّمْتَنَا أَنَّ أُمَّثَلَّ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مَا كَانَ بِتَضَرُّعٍ لَهُ، أي: بذلِّ
وانكسار استجداء لرحمته وحنانه، ويُعبَّرُ عن حالة الدَّلِّ والانكسار في النفس
بالركوع والسُّجود لله جلَّ وعلا.

● ومن الأمثلة في العقليات:

الحدّ - والحدود: فأصل الحدّ في اللغة الحاجز بين شيئين ماديين مُدْرَكَيْنِ
بالحسّ الظاهر، كالإعلام والفواصل التي تُوضع في نحو آخر الأرض التي يملكها
إنسان ما، لثبوت انتهاءها وانفصالها عن غيرها من ممتلكات الآخرين.

ثُمَّ صَارَ تَوْشُّعٌ فِي كَلِمَةِ «الْحَدِّ» وَجَمَعَهَا «الْحُدُودُ» فَصَارَتْ تَدُلُّ عَلَى مَا يَفْصَلُ الْمَعَانِيَ الْفِكْرِيَّةَ بَعْضَهَا عَنْ بَعْضٍ، مِنْ بَيَانِ جَامِعٍ لِكُلِّ عَنَاصِرِ الْمَحْدُودِ، مَانِعٍ مِنْ دُخُولِ غَيْرِهِ فِيهِ.

وَبِالْحُدُودِ الْبَيَانِيَّةِ تُحْمَى الْمَعَانِيَ مِنْ أَنْ يَتَدَاخَلَ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ، أَوْ يَخْتَلَطَ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ.

وَتُسْتَحْدَمُ فِي الْكَلَامِ الْأَشْبَاهُ وَالنَّظَائِرُ، وَدَلَالَاتُ اللَّوْازِمِ الْفِكْرِيَّةِ، لِإِفْهَامِ الْآخِرِينَ مَا يُرِيدُ ذُو الْكَلَامِ التَّعْبِيرَ عَنْهُ، كَمَا هُوَ فِي ذَهْنِهِ، أَوْ فِي مَشَاعِرِ نَفْسِهِ، أَوْ فِي إِحْسَاسَاتِهِ الْجَسَدِيَّةِ، أَوْ الْوَجْدَانِيَّةِ الْبَاطِنَةِ.

فَلَدَيْنَا إِذَنْ كَلِمَاتٌ مُفْرَدَةٌ، وَجُمْلٌ مُرَكَّبَةٌ مِنْ كَلِمَاتٍ، وَجَمِيعُهَا ذَوَاتُ أَلْفَافٍ وَذَوَاتُ دَلَالَاتٍ، وَأَلْفَافُهَا ذَوَاتُ حُرُوفٍ مَجْتَمِعَةٌ تَنْطِقُ بِهَا الْأَدْوَاتُ النَّاطِقَةُ، وَهِيَ تَصْدُرُ بِأَصْوَاتٍ فَتَفْرَعُ آذَانَ السَّامِعِينَ بِمَخْتَلِفِ أَشْكَالِهَا وَصُورِهَا.

وَأَصْوَاتُ الْحُرُوفِ الَّتِي تُرَكَّبُ مِنْهَا الْكَلِمَاتُ لَهَا نَعَمَاتٌ وَحُدُودٌ مُخْتَلِفَاتٌ، فَمِنْهَا مَا يَقْرَعُ السَّمْعَ بِرِقَّةٍ وَلِينٍ فَيَسْتَحْلِيهِ، وَمِنْهَا مَا يَقْرَعُ السَّمْعَ بِغِلْظَةٍ وَخُسُونَةٍ فَيَمُجُّهُ كَارِهًا لَهُ، وَمِنْهَا مَا يَنْفِرُ مِنْهُ السَّمْعُ وَتَفَرُّزُ مِنْهُ النَّفْسُ، سِوَاءِ أَكَانَ ذَلِكَ مِنَ الْكَلِمَةِ الْوَاحِدَةِ مُفْرَدَةً، أَمْ مِنْ اجْتِمَاعِ عِدَّةِ كَلِمَاتٍ أَحْدَثَ اجْتِمَاعُهَا مَا لَمْ يَكُنْ عِنْدَ انْفِرَادِ كُلِّ مِنْهَا.

وَكَأَنَّ أُمَّةً تَضَعُ مَا تَلَقَّتْ مِنْ كَلِمَاتِ أَجْدَادِهَا، وَمَا تُضَيِّفُ مِنْ كَلِمَاتٍ تَضَعُهَا لِعُبْرٍ بِهَا عَنْ أَفْكَارٍ وَمَشَاعِرٍ وَأَحَاسِيْسٍ قَامَتْ فِي أَنْفُسِهَا، مَوْضِعَ التَّجْرِبَةِ، لِاخْتِبَارِ مَدَى لِينِهَا وَسُهُولَةِ النُّطْقِ بِهَا، أَوْ مَدَى التَّأَثِيرِ النَّفْسِيِّ لَدَى النُّطْقِ بِهَا فِي أَنْفُسِ السَّامِعِينَ، وَلاخْتِبَارِ مَدَى اسْتِحْسَانِ الْأَسْمَاعِ لَهَا، أَوْ اسْتِقْبَاحِهَا، وَاسْتِغْلَظِهَا، وَالثُّقَرَةِ مِنْهَا، وَتَفَرُّزِ النَّفْسِ لَدَى سَمَاعِهَا.

وَخِلَالَ التَّجَارِبِ الطَّوِيلَةِ تَشِيْعُ غَالِبًا الْكَلِمَاتُ الَّتِي تَوَاضَعُ مُعْظَمُ النَّاسِ عَلَى

قبولها واستحسانها، لأداء المعاني التي يُعبّرُ بها عنها، مع ملاحظة الشعور بالتلاؤم بين اللفظ والمعنى في كثير من الكلمات، في المجتمع البشري الذي درجت على السنة أفراده.

وتُعزّلُ في الغالب الكلمات القاسية الصعبة، والكلمات المستقبحة المستغلظة، والتي تتقرّزُ منها النفوس، إلا ما كان منها مقصوداً لبيان قبح المعنى، أو ما كان منها مقصوداً للشنائم، ونحو ذلك.

ويتّقي أصحاب الأذواق الرفيعة من الكلمات التيها في التُّطق، وأحلاها في الأسماع، أو أوفقها وأكثرها ملاءمةً للمعاني التي تدلُّ عليها، ويخصّون بها أقوالهم ذوات الشأن، من خطب، ورسائل، ومقالات، وشعر، وقصة، وغير ذلك من موضوعات الكلام المحرّر المنتقى، الذي صار يُسمّى فيما بعد «أدباً» لأنه في الكلام يُشبه أدب السلوك في الأعمال.

وتظلُّ كلمات مستقبحات شائعات، لدى من لهم هوى في أن يستخدموا ألفاظاً قاسيةً خشنّةً، تنفرُ منها الأسماع، إذ يرونها نافعةً لهم في إزعاج الآخرين بها، أو في لفت أنظار الناس إليهم عن طريقها، كما يفعلون مثل ذلك في ألبستهم، وما يحملون من أسلحةٍ مستهجنة، وما يمارسون من حرّكاتٍ وأعمال، إلى غير ذلك من أمورٍ يبتعدُ عنها المتأدّبون من الناس بالآداب الحسنة، وذوو الأذواق الرفيعة، والسلوك الجميل الفاضل بين الناس.

وقد تتدخّلُ عوامل أخرى في بقاء كلماتٍ صعبةٍ ثقيلةٍ في التُّطق ضمن الكلام الدارج المستعمل في اللغة، وهذه العوامل يصعبُ تحديدها، وتبقى هذه الكلمات حيّةً في الاستعمال بحكم الإلف والتقليد والمحافظة على الموارث اللغوية.

ومن هذه العوامل تفاخرُ الأمةِ بقدرتها ألسنتها على الانفراد بالنطق ببعض الحروف أو الكلمات، ومنها المحافظة على إحدى الصفات القومية للأمة.

وَتَظَلُّ كَلِمَاتٌ يَسْهُلُ نَظْفُهَا عَلَى النَّاسِ بِالتَّداوُلِ فِي تَعَامُلَاتِهِمُ اليَوْمِيَّةِ، وَلَوْ لَمْ تَكُنْ رَاقِيَةَ النِّغْمَاتِ فِي تَرْكِيبِ حُرُوفِهَا، وَلَا عَذْبَةً فِي الْأَسْمَاعِ، وَلَكِنْ بَقِيَتْ فِي التَّداوُلِ بِتَأْثِيرِ الْعَادَةِ، وَالْحَاجَةِ إِلَى تَدَاوُلِهَا اليَوْمِيَّ فِي تَعَامُلَاتِ النَّاسِ.

وهذه الكلماتُ يبتعدُ عنها أدباءُ القومِ وشُعراؤهم وخُطباؤهم وكُتَّابُهم لدى إنْشاءِ كلامهم المَجوودِ المُحَسَّنِ الذي يحرصونَ على أن يكونَ له شأنٌ بينهم.

فظهر بسبب ذلك صنف من الكلماتِ ضَمَنَ اللُّغَةَ الواحدة، يوصفُ بأنه فصيحٌ، وصنَّفَ آخَرُ يوصفُ بأنه غيرُ فصيحٍ.

ثمُ لدى تَرْكِيبِ الكلماتِ فِي الجُمَلِ التي تدلُّ على المعاني التي يرادُ تعريفُ المخاطبين بها، قد ينشأُ من التَرْكِيبِ قساوةٌ أو صعوبةٌ فِي التُّطْقِ، أو استقباحٌ واستغلاظٌ ونُفْرَةٌ منه فِي الْأَسْمَاعِ، فلا يكونُ الكلامُ فِي هَيْئَتِهِ التَرْكِيبِيَّةِ فصيحاً، على الرغم من فصاحة مفرداته قبل اجتماعها فِي هَذِهِ الْهَيْئَةِ التَرْكِيبِيَّةِ الْخَاصَّةِ.

فظهر بسبب ذلك ما يُسَمَّى بِهِ الْكَلَامُ الْمَرْكُوبُ فَصِيحاً أَوْ غَيْرَ فَصِيحٍ.

لذلك نلاحظ أن من يختار لكلامه مفرداتٍ فصيحةً، وينظمها فِي كَلَامِهِ نِظْمًا مَلَائِمًا فَصِيحاً، مع التزامة بضوابط قواعد اللُّغَةِ وَأَحْكَامِ أَهْلِ اللِّسَانِ النُّحُوِّيَّةِ وَالصَّرْفِيَّةِ، فَإِنَّهُ يَصِحُّ أَنْ يُسَمَّى نَاطِقًا فَصِيحاً.

فصارت الفصاحة بهذا التحليل وصفاً للكلمة، وللکلام، وللمتكلم.

● فيقال: كلمة فصيحة، ويُقابِلها: كلمة غير فصيحة.

● ويقال: كَلامٌ فَصِيحٌ، ويُقابِله: كَلامٌ غَيْرُ فَصِيحٍ.

● ويقال: متكلِّمٌ فَصِيحٌ، ويُقابِله: متكلِّمٌ غير فصيحٍ.

وتختلف الأمم فِي أوضاعها اللغوية، وفي أساليب كَلامِها، وتعبيراتها، وفي أذواقها، وما يلين من الكلمات والحروف فِي ألسنتها، وما يصعبُ ولا يلين عليها،

وما هو مستنكر مستهجن في أسماعها، وما هو مألوف محبب أو مقبول لديها، وهذه من ظواهر فطرة الله للناس، كما قال الله عز وجل في سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

﴿ وَمِن آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَفَ لِسَانَكُمْ وَأَلْوَنَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴾

* * *

أما دلالات الألفاظ على المعاني المرادة، فتعرض لأحوال:

(١) إما أن تكون قاصرة الدلالة غير وافية بتأدية المعنى المراد.

(٢) وإما أن تكون وافية الدلالة بشرط وجود مُسَاعِدٍ لها من عبقرية المتلقي أو ذكائه المتفوق، فإن لم يكن المتلقي كذلك كانت الدلالة قاصرة بالنسبة إليه.

(٣) وإما أن تكون وافية الدلالة لدى الإنسان المتوسط الذكاء. فإن كان المتلقي دون ذلك كانت الدلالة قاصرة بالنسبة إليه، وإن كان المتلقي فوق ذلك رأى فيه زيادة مُمَلَّة.

(٤) وإما أن تكون وافية الدلالة لدى الإنسان الذي هو دون متوسط الذكاء. فإن كان المتلقي فوق ذلك كان الكلام بالنسبة إليه مُمَلًّا مطوّلاً، ولا سيما بالنسبة إلى متفوق الذكاء.

(٥) وتعرض أيضاً دلالات الألفاظ على المعاني المرادة لأحوال أخرى، في الموضوعات التي يُراد توصيل مضمونها إلى المتلقي، أو إقناعه بها، إلى ما يقتضي البسط، أو التوسط بين البسط والإيجاز، أو الإيجاز.

أو يقتضي الابتعاد عن التوجيه المباشر، بدرجة أو أكثر بحسب ذكاء المخاطب أو المتلقي، فيبلغ إليه المعاني التي يريد تعريفه بها إبلاغاً حسناً.

فما يطابق حالَ المخاطب أو المتلقي من الكلام مع فصاحة مفرداته،
وفصاحة جُمَلِهِ المركَّبَةِ هو الكلام البليغ .

والمتكلم الذي يكون كلامه من هذا القبيل يقال له : متكلمٌ بليغ .

ويرتقي الكلام البليغ بأساليبه في سُلَّمٍ ذي درجات متفاوتات فيكونُ بعضُهُ
أبلغ من بعض، ضمنَ الطبقة التي هو منها، والملائمة للمُتَلَقِّي الذي يُراد إبلاغ
المعاني المراد توصيلها إليه، مزيّنةً بزِيناتِها التي تُعجِبُهُ وتُمتِعُهُ، وتَهْزُ مَشَاعِرَهُ،
وتَسْتَأْثِرُ بجوانِبِ فِكْرِهِ ونفسه من الداخِلِ والخارجِ .

فيختلف الإعجابُ بالكلام من كلامٍ بليغٍ إلى كلامٍ بليغٍ آخرَ، بحَسَبِ نِسْبَةِ ما
فيه من مرضياتٍ للفكر والمشاعرِ والأحاسيس .

وهنا تبرز بلاغةُ الكلام، ومستوياتُ درجات هذه البلاغةِ صعوداً ونزولاً .

ولا يكون الكلامُ بليغاً في اللِّسانِ العربيِّ لدى علماء البلاغة، ما لم يكن مع
تأثيره في المخاطب به تأثيراً بالغاً، كلاماً فصيحاً في مفرداته وجمله .

* * *

(٣)

أسس البلاغة العالية والأدب الرفيع

باستطاعة الباحث المتفكر اكتشاف أن مقادير الارتقاء في درجات سُلَّم
البلاغة العالية والأدب الرفيع في اللِّسانِ العربيِّ تعتمد على نصيب الكلام من
عناصر الأسس الثلاثة التالية :

الأساس الأول: الجمالُ المؤثر في النفس الإنسانية، المفطورة على الميل
إلى الأشياء الجميلة، وحُبِّها، والارتياح لها، والتأثر بها، والانفعال السَّارِ
بمؤثراتها .

الأساس الثاني: كون الكلام في مفرداته وجمليه فصيحاً وفق ضوابط وقواعد
ومنهج اللسان العربي، ولا يخلو هذا الأساس من مؤثرات جمالية أيضاً.

الأساس الثالث: كون الكلام بليغاً، أي: مطابقاً لمقتضى حال المخاطب به
فرداً كان أو جماعة، وبالغاً التأثير المرجو في نفسه، ولا يخلو هذا أيضاً من
مؤثرات جمالية.

ولشرح هذه الأسس الثلاثة يتطلب البحث المتأنّي عقد ثلاثة فصول:

الفصل الأول: الجمال في الكلام.

الفصل الثاني: الفصاحة.

الفصل الثالث: البلاغة.



الفصل الأول

الجمال في الكلام^(١)

(١)

حبّ الجمال

حبّ الجمال فطرةٌ في النفس الإنسانيّة، فهي بقوة فطرية قاسرة تميل إليه، وتنجذب نحوه، وليس بمستطاع النفوس أن تغيّر فطرها التي فطرها البارئ المصورّ عليها.

والجمال شيء يصعب تحديده، ولكن باستطاعة النفوس أن تحسّ به وتتذوّقه متى أدركته، وعندئذ تميل إليه وتتجذب نحوه، وتأنس به، وترتاح إليه، وتسعّد بالاستمتاع بلذّة إحساس المشاعر به ولو تخيلاً، ويتفاوت الناس في قدراتهم على تذوّق الجمال والإحساس بدقائقه كشأن تفاوتهم في سائر قدراتهم المادّية والمعنوية: مثل القوى الجسمية، وقدرات الذكاء، وقوى الإبصار والسمع والشمّ والذوق واللمس.

والجمال يكون في كل المجالات التي تدركها الحواس الظاهرة والباطنة،

(١) هذا الفصل هو من البحث الذي كنت كتبه للندوة العالمية للأدب الإسلامي، التي انعقدت في أواسط شهر جمادى الثانية من سنة «١٤٠١ هجرية» والتي نظمتها دار العلوم لندوة العلماء في مدينة لكهنؤ بالهند، ونشرته في كتابي: «مبادئ في الأدب والدعوة» واقتضى تكامل بحوث كتاب «البلاغة العربية» أن أضيفه إليه.

حتى مجالات الأفكار، والتخييلات، والوجدانيات، والطباع، والأخلاق، وأنواع السلوك الإرادي النفسي والظاهر.

ففي ساحة المرئيات تشاهد الأبصار مرئيات جميلة تتفاوت فيما تحظى به من نسب الجمال تفاوتاً كبيراً، وتشاهد مرئيات قبيحة تتفاوت فيما لديها من نسب القبح تفاوتاً كبيراً، وتشاهد وسطاً فاتراً لا يجذب بجمال، ولا ينفر بقبح. وفي ساحة الأصوات يسمع السامعون أصواتاً جميلة تتفاوت فيما تحظى به من نسب الجمال تفاوتاً كبيراً، ويسمعون أصواتاً قبيحة تتفاوت فيما لديها من نسب القبح تفاوتاً كبيراً، وتسمع أصواتاً فاترة لا تجذب بجمال ولا تُنفر بقبح.

ونظير ذلك في ساحة الروائح، وفي ساحة الطعوم، وفي ساحة الملموسات التي فيها ناعم وخشن، وصلب ولين، وقاسٍ ولَدَن، وحارٌّ وبارد.

وفي المشاعر الوجدانية ندرك أنّ لدينا مشاعر وجدانية جميلة لذيدة، كمشاعر الحب، ومشاعر الإحساس بفعل الخير، ومشاعر الأبوّة والأمومة، والشعور بطمأنينة القلب، وبالأمن. وندرك أنّ لدينا مشاعر وجدانية قبيحة تتألم بها، كالشعور بالذلة والصغار، وكالحقد والحسد، وكالشعور بالخوف والقلق. وندرك أنّ لدينا مشاعر وجدانية فاترة لا تُحدث لذة نفسية ولا تُحدث ألماً، كمشاعر الانتماء إلى أسرة مغمورة ليس لها مجد يُحدث في النفس لذة الافتخار، وليس لها فضائح وقبائح تُحدث في النفس ألم الصغار.

وفي الساحة الفكرية ندرك أفكاراً جميلة حلوة، وأفكاراً قبيحة مرّة، وأفكاراً فاترة لا تُحدث انفعال استحسان ولا انفعال استقباح. إنّ الفكرة الذكيّة المبتكرة فكرة جميلة، وإنّ الفكرة الغبيّة المستنكرة فكرة قبيحة، وإنّ الفكرة العادية المكررة دون غرض فنّي أدبي فكرة فاترة تمرّ دون أن تثير أي انفعال، وكذلك الفكرة الغامضة التي لا يستطيع من تُعرض عليه أن يدركها. ويمرّ في أذهاننا شريط أفكار

طويل فلا يُحدث فينا أيّ انفعال من لذة أو ألم، إنها أفكار فاترة، ورب فكرة تمرّ فتثير إعجاباً وانفعالاً عظيماً نحوها، وقد تمرّ فكرة فتتقزّز النفس منها وتصرفها بسرعة وتتجاوزها.

وفي ساحة التخيل تمرّ أخيلة جميلة حلوة لذيدة، وتمرّ أخيلة قبيحة كريهة، وتمرّ أخيلة في شريط طويل، فلا تُحدث أيّ انفعال.

وفي ساحة التعبير البياني عن الأفكار والمطالب والتخيّلات والمشاعر النفسية والوجدانية تُوجد تعبيرات بديعة جميلة جذّابة، تتملّك المشاعر، وتؤثّر في القلوب، وتتفاوت فيما بينها بما تحظى به من نسب الجمال تفاوتاً كبيراً. وتوجد تعبيرات قبيحة منقرّة، وهذه تتفاوت فيما بينها بما فيها من نسب القبح تفاوتاً كبيراً، وتُوجد تعبيرات فاترة تمرّ دون أن تُحدث في النفوس أيّ انفعال محبوب أو مكروه.

* * *

(٢)

مجالات الجمال

من المعلوم لدى ذواقي الجمال أنّ الزينة من الجمال، وأنّ كثيراً من المقاصد والمطالب إذا قُدّمت إلينا مغلفة بزیناتها أو مقرونة بزیناتها كنا أكثر قبولاً لها، وانسجاماً معها، لأنّ جمال الزينة قد جذبنا إليها، وأقنع عواطفنا وانفعالاتنا بقبولها، لنحظى بلذّة الاستمتاع بالجمال، فتتحقّق من وراء ذلك المقاصد الأساسية والمطالب.

وهذه الحقيقة تشمل الأفكار، فإذا قُدّمت بعض الأفكار المقصودة وما اشتملت عليه من مطالب اعتقاد أو عمل ممتزجة أو مقرونة بزینات جميلة فكرية أو لفظية كانت النفوس أكثر انجذاباً إليها، وقبولاً لها، ثمّ تمسكاً بها أو عملاً بما طلب فيها.

إنَّ شأنَ الأفكارِ كشأنَ المآكلِ والمشاربِ والأدويةِ، وسائرِ المطالبِ والحاجاتِ، فمنها ما هو حلو بطبعه، ومنها ما هو حامض، ومنها ما هو مرّ، ومنها ما هو لين، ومنها ما هو قاس، ومنها ما هو ناعم، ومنها ما هو خشن، ومنها ما هو مُهَوَّعٌ مثيرٌ للغثيان، ومنها ما هو محرّكٌ للشهوةِ مثيرٌ للعباب.

حتى الطيبات من المآكلِ والمشاربِ وغيرها يزيدُها حسناً وجمالاً وتطريةً وتحريكاً لشهواتِ النفوسِ نحوها إذا قُدِّمت في أطباقِ جميلةِ نفيسة، وعلى مائدةِ جميلةِ أنيقة، وفي أيدٍ نظيفةٍ رشيقةٍ حلوةٍ لِخَدَمٍ مكتملي الأناقةِ حَسَنان، وفي مكانٍ منمَّظٍ مليءٍ بالأشياءِ الحسنةِ الجميلةِ، من منظورٍ ومسموعٍ ومشمومٍ وملموسٍ ونحو ذلك.

فالفكرةُ المرّةُ قد تحتاجُ غلافاً حلواً جميلاً يزيئُها حتى يبتلعها مَنْ توجّه له. والفكرةُ الشديدةُ الحموضةُ قد تحتاجُ مخالطاً يعدّلُ حموضتها حتى يستسيغها من توجّه له.

والفكرةُ القاسيةُ بطبعها قد تحتاجُ أسلوباً يليئُها ويعدّلُ قساوتها. والفكرةُ الخشنةُ بطبعها قد تحتاجُ أسلوباً ناعماً يغلّفُها ويهوّنُ ابتلاعها. وكما أنَّ الحسّياتِ الجسديةَ يحتاجُ كثيرٌ منها إلى ما يجمّله ويحسّنه ويزيئُها للنفوسِ حتى تستسيغها، كذلك الأفكارُ التي نريدُ تقديمها إلى الآخرين قد يحتاجُ كثيرٌ منها إلى ما يجمّله ويحسّنه ويزيئُها للنفوسِ حتى تستسيغها، وهذا التجميلُ والتزيينُ والتحسينُ هو من عناصرِ الأدبِ الرفيعِ لا محالة.

ولكنْ ليس من الضروري لكلِّ فكرةٍ مقصودةٍ بالذاتِ أن تُصنَعَ لها مزيّباتٌ جماليّةٌ لا يكون الكلامُ ذا أدبٍ رفيعٍ إلّا بها. فكثيرٌ من الأفكارِ جمالها ذاتي، وإذا قُدِّمت مجردةً من كلِّ الزيناتِ والأصباغِ والألوانِ في أحوالٍ ملائمةٍ لهذا التقديمِ كانت أرفعَ أدباً، وكانت النفوسُ أكثرَ تقبُّلاً واستساغةً لها، فهي تزدردها أو ترتشفها بشهوةٍ بالغة.

وهذا نظير تقديم سيّد المائدة العظيم لضيفه العزيز قطعة مقشّرة من الفاكهة، أو قطعة منتقاة من أطيب اللحم، مجردة من أيّة زينات مرافقة أو مغلفة لها.

وقد يكون من رفيع الأدب تقديم الفكرة المرّة من غير تغليف ولا تحلية لتقديمها لمن يحسن مذاقته مرارتها، كأن يكون عدوّاً مجاهرّاً بعدواته مواجهاً بثتائمه، وفي بعض الحالات التربويّة نلاحظ أنّه كما يحسن الضرب يحسن ما هو نظيره من الكلام.

* * *

(٣)

حول تعريف الجمال

والجمال في الوجود مع إدراك الناس له وإحساسهم بكثير من صورته، دقيق العناصر متشابكها فهو شيء يصعب جداً تحديده، ويصعب قياسه، ولا تنحصر ألوانه.

وبما أنّ الأدب لون من الجمال، فهو إذن تنطبق عليه قواعد الجمال العامّة. إنّ من الجمال أحياناً أن تتصنّع الحسناء، ومن الجمال أحياناً أن لا تتصنّع، بل أن تظهر على طبيعتها. ومن الجمال أحياناً أن تلبس الثياب الجميلة الساترة لكثير من مفاتن جسمها بطرائق خاصّة، ومن الجمال أحياناً أن تلمح بعض مفاتن جسمها إلماحاً ثمّ تسترها، ومن الجمال أحياناً أن تتعري على طبيعتها من غير ابتذال ثمّ تعود إلى سواترها.

ومن أبداع صور الجمال التنوع فيه والتنقل من لون إلى لون آخر منه، أمّا الثبات والتكرار للصورة الواحدة في كل الأوقات فهو مُملٌّ للنفوس مهما كانت هذه الصورة جميلة.

باستثناء تكرار المقاطع في بعض ألوان صُور الجمال، كشجرة الورد على رأس كل زاوية عند منعطف الطريق، أو على رأس كل مسافة، لتكون بمثابة الدلالة.

وكذلك حال الأفكار وأساليب عرضها الأدبي، ومثل شجرة الورد المتكررة على رأس كل مسافة أو على الزوايا، آية: ﴿فَيَأْتِيءَ آءَآءَ رِيكُمَا تَكْذِبَانِ﴾ في سورة الرحمن عروس القرآن. لكنّها صورة قدّمت لونا من ألوان الجمال الأدبي ومثالا من أمثله، قلّما يوجد في سائر القرآن نظير مطابق لها، بل فيه ألوان أخرى.

ومع وجود قسم من الجمال لا يختلف اثنان في استحسانه، وقدر من القبح لا يختلف اثنان في استهجانها، فكم توجد أوساط مشتهبات تختلف فيها أذواق الناس، وتختلف وجهات أنظارهم إليها.

فما يستحسنه بعض الناس منها قد لا يراه غيرهم حسناً، وما يستقبّحه بعض الناس منها قد لا يراه غيرهم قبيحاً، وتتدخل النظرات الذاتية الشخصية في قسم المشتهبات بشكل واسع، ويصعب فيها تحديد النظرة الموضوعية.

ويخضع الأدب لهذا القانون العام.

فقد يُرْضِي كلام ممدوحاً مغروراً بنفسه بحبّ المديح، فيراه أدباً رفيعاً مستحسناً، لكنّه في الوقت نفسه يُسْخِط حاسداً له، فيراه تزلفاً تافهاً، وأسلوباً في المدح سخيفاً مستهجنأ، ويسمعه فريق ثالث فلا يرى فيه ما يحرك النفس بإعجاب ولا ما يحرك النَّفْس بتقرّز واستهجان.

وقد تُرْضِي تعبيرات حبّ معشوقة، فتراها أدباً رفيعاً مستحسناً، فتحفظها وترويتها بإعجاب، لكن هذه التعبيرات قد أسخّطت في الوقت نفسه أترابها، فأينها تعبيرات سخيفةً مبتذلة. ثمّ يسمعها حياديوّن فلا يرون فيها رأي المعشوقة المعجبة، ولا رأي أترابها الساخطات، بل يرون فيها أدباً عادياً.

وهكذا تختلف وجهات أنظار الناس إلى هذه الأوساط المشتبهات، التي لم يتمخض فيها الجمال، ولم يتمخض فيها القبح، وتدخل عوامل نفسية في الاستحسان، أو في عدم الاستحسان، وربما تدخل عوامل أخرى تتصل بمدى القدرة على الإحساس بالجمال، أو بمدى الخبرة بفنونه وألوانه وأشكاله ونسبته، أو بمدى دقة الملاحظة التي قد تقع على النقص فتقف عنده، وتجسّمه حتى يملأ الساحة، أو تقع على لمحة جمالية فتقف عندها مُعجبةً وتعظمها، وتدخل الوهم في مدها حتى تملأ كل الساحة. وهكذا.

* * *

(٤)

عوامل اختلاف نظرات الناس إلى الجمال

لدى تحليل العوامل التي تجعل الناس يختلفون في نظراتهم الجمالية إلى الأشياء اختلافاً كبيراً، حتى إن الشيء الواحد قد يستحسنه فريق، وقد يستقبحه فريق آخر، ويجعله فاتراً واقفاً على الحياد فريق ثالث، والمستحسنون له قد يتفاوتون في درجة استحسانه، والمستقبحون له قد يتفاوتون في درجة استقباحه. لدى هذا التحليل نلاحظ العوامل التالية:

العامل الأول: التلاؤم أو عدم التلاؤم بين أجهزة الإحساس في الإنسان والأشياء التي يُدركها ويحس بها.

والأمزجة والأذواق البشرية تختلف في هذا اختلافاً فطرياً لا يُنكر، وبسبب هذا العامل قد تختلف أحكامهم في هذا المجال.

العامل الثاني: تدخل أهواء أو مصالح شخصية مرافقة.

وبسبب هذه الأهواء أو المصالح تختلف وجهة نظر أصحابها عن وجهات أنظار الآخرين الذين ليس لهم أمثال هذه الأهواء أو المصالح.

العامل الثالث: حكم العادة والإلف، فكثير من الناس إذا اعتادوا لوناً من ألوان الجمال آثروه تلقائياً على غيره، وحكّموا بأنه أحسن وأجمل، وربما لم يكن كذلك في حقيقة الأمر.

العامل الرابع: مؤثرات البيئة، فقد تتواضع بيئة ما على استحسان لون جمالي، وربما كان عادياً جداً وابتدائياً في سلّم الارتقاء الجمالي، إلا أن تأثير البيئة يجعل الناشئين فيها يقتبسون منها الأذواق الجمالية، فيتأثرون بأحكامها الناقصة، أو أحكامها التي لا تنم عن ذوق رفيع، وكذلك البيئات الراقية تمنح الناشئين فيها أذواقاً رفيعة، والبيئات تتفاوت تفاوتاً كبيراً في هذا المجال.

العامل الخامس: مدى القدرة على تصيّد نقاط الجمال والإغضاء عمّا سواها، وجعله أرضية لا تثير الانتباه. وقد يكون العكس، فتكون القدرة النقدية ذات إحساس مفرط تجاه تصيّد نقاط النقص أو القبح فقط، أمّا سواها فتغضي عنه، وتجعله أرضية غير مثيرة للانتباه.

وبسبب هذا العامل بشطريه وتفاوت نسبة كل منهما في الناس تظهر أحكام متباينة أو متخالفة.

العامل السادس: سعة التجارب وضيقتها في اكتساب ذوق الإحساس بالجمال، وتفاوت نسبه.

فدو الخبرات الطويلة الباحثة والناقدة يكون أقدر على تذوّق الجمال، وإدراك درجاته المتفاوتات، من الإنسان العادي غير ذي الخبرة، أو السائر في طريق البحث والنقد، ولم تكتمل بعد لديه القدرة على تذوّق الفروق الجمالية.

* * *

(٥)

عناصر الكمال والجمال الأدبي

لا بُدَّ أولاً من توافر الأركان الأساسية للكلام البليغ، وهي:

(١) مطابقته لمقتضى حال المخاطب به.

(٢) التزامه بقواعد اللّغة وضوابطها في مفرداتها وتراكيب جملها.

(٣) خلوّه من التعقيد اللفظي، والتعقيد المعنوي.

وبعد توافر هذه الأركان الأساسية توجد عناصر كثيرة تُكسِبُ الكلام ارتقاءً أدبيّاً، وتُعْطيه جمالاً وإبداعاً، ورونقاً وحياءً، وقدرةً على التأثير والهيمنة على النفوس والأفكار والقلوب.

وبمقدار ما يُمكنُ أن يجتمع في الكلام من هذه العناصر، متلائمةً غير متنافرة، متوائمة غير متشاكسة، مُتْحَابَّة غير متباغضة، مطابقةً لمقتضى حال المخاطب، يكون تسامي الكلام في سلّم الكمال الأدبيّ الرفيع، الَّذِي يحتلُّ قمّته لدى التحليل المُجْهَرِيّ الدقيق كلام الله المعجز، ثم يأتي من دونه كلامُ الناس، مع المسافات الشاسعات بينه وبين قمّة كلام الناس.

وكما نقتبس عناصر الجمال والكمال من لوحات الطبيعة التي خلقها الله، فنعمل الأعمال الفنيّة الرفيعة بمحاكاة الفنون المختلفة فيها ضمن قدراتنا البشريّة، ونتلمذ على الأمثلة الجمالية الكمالية التي تقدّمها لنا، فنكتسب منها الذوق، وفنون الصنعة الرائعة، بأشكالها وألوانها وأنغامها وملامسها وأنظمتها وحركتها وحياتها وعواطفها ولذاتها وآلامها وذكرياتنا وتحسّراتنا وآمالها ومخاوفها، إلى سائر الظواهر الطبيعيّة في كل جامد ومتحرّك ونام وحيّ.

كذلك يقتبس أهل البصيرة عناصر الجمال والكمال الأدبي من اللّوحات

البيانية البديعة المنزلة من لدن حكيم عليم، والتي نتدبر ما نتدبر منها في كتاب الله المجيد على مقدار قدراتنا البشرية.

وهذا التدبر الواعي يحتاج إلى بصيرة نفاذة لِمَاحَة، وصبر طويل، ومعالجات متكررات، ومعرفة بما توصل إليه المتدبرون السابقون، ويحث مستمر لاستنباطات جديدة، ثم تكون أنصبة الباحثين بعد كل ذلك على مقدار مواهبهم، لا على مقدار البحر المحيط الذي يغترفون منه، ويغوصون في أعماقه، ليستخرجوا من روائعه وبدائعه.

الكلام لفظ ومعنى :

ومن البَدَهِيَّاتِ الأساسية أن الكلام ذا الدلالة اللغوية إنما هو لفظ ومعنى.

● أما اللفظ، فينحل إلى قسمين :

١ - مفرد.

٢ - مركب.

أما المفرد في المنظار الأدبي، فيمكن أن نقسّمه إلى أربعة أقسام :

القسم الأول: اللين السهل، وتتفاوت في ذوق الأديب درجات هذا القسم، فمن هلامي رجراج، مثل الكلمات الخفيفة التي يستطيع الأطفال الصغار المبتدئون بالنطق أن ينطقوا بها صحيحة سليمة، وهي غالباً تتألف من الحروف الشفوية والصوتية، ثم الحروف اللثوية والصوتية، مثل: «بابا - ماما - دادا - لولو» وتدرج النسبة ارتقاءً، مع المحافظة على صفة اللين والسهولة، ولكن بالنسبة إلى نطق الكبار العاديين، مثل: «نَسْمَة - بَسْمَة - رَنَّا - دَنَّا - وَهَى - وَشَى» ومن السهل اللين في القرآن قول الله تعالى في سورة (الرحمن ٥٥):

﴿الرَّحْمَنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝٤ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۝٥ بِحُسْبَانٍ ۝٦ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٧﴾ .

القسم الثاني: القويّ الجزل، وتتفاوت في ذوق الفصيح ذي الحسّ المرهف درجات هذا القسم.

ومن أمثلة القويّ الجزل المفردات التالية من سورة (الشمس ٩١):

«ضُحَاها - جَلّاها - يَغشاها - طَحّاها - بِطَغواها - إذا انبَعَثَ أشقاها - فَعَقروها - فدَمَدَمَ عليهم - عَقباها».

القسم الثالث: الحُوشيّ الغريب، وتتفاوت درجات هذا القسم. والحوشيّ الغريب ما قلّ في العرب استعماله، لثقله على الألسنة، حتى يكاد بعضه يُهمل في الاستعمال عند معظم العرب، مثل المفردات التالية:

الحَنْطَبَة: بمعنى الشجاعة.

والْحَيْزَبُون، والشَّهْرَبَة: بمعنى المرأة العجوز.

طَخّا الليل: بمعنى أظلم.

تَطَشَّى المريض: بمعنى برىء.

الثُّقَاخ: وهو الضرب على الرأس بشيء صلب.

الْهَيْبَخَة: وهي الجارية باللّغة الحِميريّة.

الْهَيْبِخُ: وهو الرجل الأحمق، والوادي العظيم، والنهر العظيم.

الْقُدْمُوس والقُدْمُوسَة: وهي الصخرة العظيمة.

العَقَنْقَسُ والعَقَنْقَسَة: هو السيّء الخلق.

القسم الرابع: الصعب الجموح، وتتفاوت درجات هذا القسم. ومن الصعب

الجموح ما هو حوشيّ غريب، ولكن ليس كل صعب جموح كذلك، فقد لانت في السنة العرب كلمات صعاب، وبقيت مستعملة دارجة بين أدبائهم إلاّ أنّها صعبة على الألسنة لها جُموح ونفور، مثل الكلمات التالية:

عَضَنْفَر: من أسماء الأسد.

مُسْتَشْنَر: أي مفتول.

عَقَقَ: اسم لطير.

والأديب رفيع الأدب، مرهف الحسّ في ذوق الكلمات، يختار في كلامه من القسمين الأولين:

● اللين السهل.

● والقوي الجزل.

ويضع ما يختار في موضعه مراعيّاً حال المخاطب وما يسرّه من المفردات، وما يلائم ذوقه، ولغة قومه.

ويحسن به أن يختار لبعض الموضوعات مفردات ذات جرس موسيقي وإيقاع رشيق.

ويختار أيضاً من الكلمات ما يلائم المعنى من لين وسهولة أو قوّة وجزالة.

ويختار أيضاً من الكلمات ما هو أليق بالمناسبة، وبالموضوع العام للكلام، وأكثر ملاءمة لهما.

ويبتعد عن الحوشي الغريب، إلّا في مجال التعليم، أو لنكتة أدبية خاصّة.

ويجعل الصعب الجموح مقصوراً على مواطن خاصّة تستدعي النكتة الأدبية اختيار بعض منها، مثل كلمة: (ضيزي) في وصف القسمة الجائرة غير العادلة، لما لهذه الكلمة بحروفها وصيغتها من إيحاءات تلائم التشنيع على القسمة الجائرة.

والدّعاة إلى اللّهِ مطالبون بالتزام هذا المنهج الأدبي في دعوتهم.

* * *

وأما المركب في المنظار الأدبي: فله تقسيمات من ثلاث جهات:

١ - جهة السبك.

٢ - جهة الكثافة .

٣ - جهة تواصل الجمل بأدوات الربط أو تفصلها .

أولاً - فمن جهة السبك :

ينقسم اللفظ المركب إلى أربعة أقسام :

القسم الأول : المتلائم المتناسق ، المتوائم السهل حسنُ السبك .

القسم الثاني : المتنافر الصعب العسر النطق .

القسم الثالث : سيئ السبك ضعيف الإنشاء .

القسم الرابع : معقد الترابط صعب الفهم .

والأديب البليغ رفيع الذوق ، ذو الحس المرهف ، المتمرس بصناعة القول الرفيع ، يحاول أن يكون كلامه سليماً من أن يكون سيئ السبك ، ضعيف الإنشاء ، ومن أن يكون معقد الترابط صعب الفهم .

ويتحرى أن يكون كلامه من القسم الأول (المتلائم المتناسق المتوائم السهل حسنُ السبك) .

ويبتعد جهداً مستطاعه عما هو متنافرٌ صعب عسر النطق ، ويولي عناية للعناصر الجمالية التالية :

(١) صياغة الجملة صياغة فنية سهلة الفهم ، لا توقع فكر المخاطب بارتباك في ربط مفردات الجملة ، ولا تكلفه مشقة ، حتى يفهم المراد منها .

(٢) رصف الجمل رصفاً يثير الاستحسان والإعجاب لدى المخاطب . وقد يحتاج هذا إلى التفنن في الجمل ، ما بين متوازنات طولاً وقصراً أحياناً ، وبين طويلة ومثل نصفها أو ثلثها أو ثلثيها أحياناً أخرى ، وبين ترك التوازن ليذهب الكلام مناسباً . وقد يحسن التكرير في بعض هذه العمليات .

ولا ضابط لمواطن الجمال فيها إلا الحسن المرهف الذواق للجمال الأدبي .
(٣) وقد يَجْمُلُ بعض السجع غير المتكَلَّف ولا المتصنَّع، بشرط عدم
الالتزام به في كل الكلام .

(٤) المحسِّنات البديعية اللفظية التي تأتي مناسبة محببة غير متكلفة ولا
متصنعة .

(٥) فنون الشعر الذي له تأثير في أساليبه وموسيقاه على مشاعر كثير من
الناس .

ورجال الدعوة إلى الله مطالبون بالعناية بهذه العناصر الجمالية الأدبية في
دعوتهم، إذا خطبوا، أو حضروا، أو تحدثوا، أو كتبوا، أو نظموا شعراً، أو ألفوا
مؤلفات علمية، أو توجيهية، أو أدبية . وأن يُسَخَّرُوا أدبهم في خدمة الدعوة إلى
الله .

ثانياً — ومن جهة الكثافة :

ينقسم الكلام إلى ثلاث مراتب، تُعرف عند علماء البلاغة بالإيجاز،
والمساواة، والإطناب، كما سيأتي بيانها إن شاء الله في علم المعاني .
ولكل من هذه المراتب درجات متفاوتات .

وأشرح الكثافة في بناء الكلام وأشرح مستوياتها في تحليل أدبي فكري،
فأقول :

تخضع التعبيرات الكلامية عن المراد لنسب متفاوتة من الكثافة .

فمن الكلام ما هو شديد الكثافة، وقد تشتد فيه حتى يكون بمثابة قطعة من
الصخر، لا تُعرف عناصرها حتى تُكسر وتُطحن، وتُفرَّق الأجزاء عن بعضها،
وتحلل بوسائط .

وبعض متون العلم المكثفة المختصرة هي من هذا القبيل، وقلّما يسلم التكثيف الشديد في الكلام من الإخلال في الدلالة على المراد.

وفهم المكثّف من الكلام يحتاج إلى ملكات ذهنيّة عالية، أو إلى تدريب وممارسة طويلة، وتعلّم على أيدي أهل العلم.

وتخفّ الكثافة ببسط الكلام وتمديده، ويتدرّج ذلك في سلّم كثير الدرجات، ولكنّ ليس لدينا ميزان نزن به كثافة الكلام، شبيه بميزان الكثافة الذي توزن به السوائل، فالمرجع في تحديد الكثافة أذواق العلماء والأدباء، وملاحظة سهولة استساغة الكلام من قبل العامة أو عدم ذلك.

وباستطاعتنا أن نقسّم مستويات الكثافة في الكلام إلى ثلاث مراتب، ولكلّ من هذه المراتب الثلاث درجات متفاوتات:

المرتبة الأولى:

هي مرتبة الكلام الموجز المختصر. ولهذه المرتبة عدّة درجات ما بين شديد الكثافة، أي شديد الإيجاز والاختصار حتى مستوى الرمزيّة، وما بين كثافة يتحمّل الإنسان العادي فهمها ولكن بشيء من الممارسة والتدرّب والتأمّل.

وعنوان هذه المرتبة عند علماء البلاغة: (الإيجاز). وتستخدم هذه المرتبة لدى اختبارات الذكاء، ولدى مخاطبة الأذكىاء وكبار القوم وأمرائهم، بشرط أن يكون المخاطب بها قادراً على فهم المراد ولو بتأمّل يسير، وبالنسبة إلى أحوال هؤلاء تداول الأدباء قديماً عبارة (البلاغة الإيجاز).

وتستخدم هذه المرتبة في الخلاصات العلمية التي يعدها طلاب العلم للحفظ، وتذكّر المسائل العلمية بها.

المرتبة الثانية:

هي مرتبة الكلام الذي هو متوسط البسط، وضابطه فيما أرى أن يكون لكلّ

فكرة يراد الدلالة عليها لفظ يدل عليها، أو صيغة تدلُّ عليها، أو تركيب خاصٌّ يدل عليها، بشرط أن يكون المخاطب عارفاً بذلك ويفهمه دون كدٍّ ذهنيٍّ، ودون حاجة إلى تأملٍ طويلٍ.

وقد يبدو أنّ هذه المرتبة ليس فيها درجات متفاوتات، إلاّ أنّني أرى خلاف ذلك، فلها فيما أرى درجات، وتختلف هذه الدرجات وتتفاوت، باختلاف أحوال المخاطبين وتفاوتهم في قدراتهم على الفهم، واستيعاب دلالات الكلام، وفي معرفة دلالات الصيغ والتراكيب، وفي التمرّس بمتابعة فهم المعاني من الكلام.

فمتوسّط البسط من الكلام بالنسبة إلى المبتدئ ليس هو كذلك بالنسبة إلى الذي تقدّم أشواطاً في معرفة دلالات الكلام وفهمها. وكبار القراء لهم متوسط يناسبهم، والأذكىاء لهم متوسط يناسبهم، والأطفال لهم متوسط يناسبهم.

فيدخل في تحديد نسبة التوسّط اعتبار حال المخاطب.

وعنوان هذه المرتبة عند علماء البلاغة (المساواة) ولكن ربّما كان تحديدي لها يختلف مع تحديد علماء البلاغة.

ويحسن استخدام هذه المرتبة في معظم الأحوال، ولا سيّما لدى كتابة صكوك العقود والمعاهدات، وكتابة المواد القانونية، وكتابة متون العلوم، والتعريف بالمبادئ في نصوص معدّة للحفظ والتداول بين الناس، ومن ذلك كثير من أحاديث الرسول ﷺ، مثل قوله:

«اجتنبوا السبع الموبقات».

قالوا: يا رسول الله وما هنّ؟.

قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرّم الله إلاّ بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولّي يوم الزحف، وقذف المُحصنات المؤمنات الغافلات».

رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة

المرتبة الثالثة:

هي مرتبة الكلام المبسوط، والكلام المبسوط هو ما لو حذف منه شيءٌ بالنسبة إلى حال المخاطب به لفهم المراد من الكلام فهماً تاماً، دون كدٍّ ذهني، ولا تأملٍ طويل، ولَمَّا حدث لديه أيُّ ارتباكٍ فكريٍّ أو غموض، ولَمَّا نقص لديه من الفهم شيءٌ.

والكلام المبسوط له حدود دنيا، يمثلها ما زاد على نسبة التوسط ولو قليلاً، ثم تزداد درجات البسط كلما زاد بسط الكلام، ولا حدٌّ لأكثرها، وبإستطاعة الثرثار أن يُمَدَّ كلاماً تكفي صفحة واحدة لفهم المراد منه فهماً كاملاً تاماً، دون إرباك ولا كدٍّ للذهن ولا تأملٍ طويل، فيؤلَّفَ كتاباً من مئات الصفحات ثم لا يخرج قارئها بأكثر ممَّا فهمه قارئ الصفحة الواحدة، ونلاحظ أمثلة كثيرة لهذه الثرثرات في كُتب الشيوعيين، وكُتب اللذين نَسَجُوا على منوالهم، والغرض من الثرثرة تغطية عيوب المضامين الفكرية، والإيهام والتعمية على الغوغائيين من المراهقين والمراهقات في أعمارهم أو في أفكارهم، ولا سيَّما إذا اقترنت هذه الثرثرات بعبارات غامضات ومصطلحات تُوهِمُ أن وراءها فلسفة وعلماً عظيماً.

وعنوان هذه المرتبة عند علماء البلاغة: (الإطناب). إذا كانت الزيادة في الألفاظ ذات فائدة، وإلَّا كانت الزيادة من قبيل الإسهاب والتطويل.

وقد يحسن استخدام ما يدخل في هذه المرتبة من الكلام في دروس التعليم، وفي مجالس الوعظ العامة، وفي الخطب التي تُلقى على الجماهير، وفي بعض مجالس المؤانسة والمحادثة، وفي إلقاء القصص أو كتابتها، ولكن يشترط في ذلك أن لا يصل المتكلم بالمخاطبين أو بالقراء إلى مستوى السأم والمَلَل، فبعد السأم والملل يكون الضجر، ثم النفور، وعندئذٍ يثمر الكلام عكس المقصود منه، ويشترط أيضاً أن لا يكون بسط الكلام عن طريق الاستطرادات الخارجة عن أصل موضوع الكلام، ومعلوم أن الاستطرادات تجرُّها أدنى مناسبة.

ثالثاً — ومن جهة تواصل الجُمْل بأدوات الربط وتفاصلها :

فقد حرّر علماء البلاغة ضوابط ذلك في مبحث «الفصل والوصل» كما سيأتي بيانه في علم المعاني إن شاء الله تحريراً كاملاً فيما أرى الآن، إلا أن ضوابطهم تحتاج إلى تطبيقات واسعات على الأمثلة، لتدريب المهتمين بفنون الأدب وصناعة الكلام.

فعلى رجال الدعوة إلى الله أن يكونوا على بصيرة بمحاسن الفصل والوصل بين الجمل في الكلام، حتى يكون كلامهم أرفع أدباً، وأعظم تأثيراً. وأعظم معلّم لمحاسن الفصل والوصل بين الجمل كتاب الله ثم أقوال الرسول ﷺ.

* * *

● وأما المعنى فالنظر إليه يكون من جهات ثلاث:

الجهة الأولى: جهة كَوْن المعنى له لفظ لغوي موضوع أو مستعمل في عُرْف النَّاس أو في مصطلحاتهم للدلالة عليه، أو ليس له لفظ يدلّ عليه.

الجهة الثانية: جهة الدلالة على المعنى عن طريق الأسلوب الكلامي المباشر، أو عن طريق الأسلوب الكلامي غير المباشر.

الجهة الثالثة: جهة المعاني أنفسها وقيمها الفكرية والجمالية.

والبحث العلمي الشامل المتمعن يأخذ بأيدينا إلى النظر الثاقب في المعاني من هذه الجهات الثلاث.

* * *

وبنظرة عَجَلِيّ ويبحث أولي متواضع أعقد لكل جهة من هذه الجهات الثلاث مقولة خاصّة بها.

أولاً — مقولة الجهة الأولى حول المعنى :

وهي كون المعنى له لفظ يدلّ عليه أو ليس له لفظ يدلّ عليه .

إنّ المعاني التي يمكن أن يحيط بها علم الإنسان، أو يصل إليها إدراكه الذهني، أو تخيُّلاته، تنقسم إلى قسمين :

القسم الأول: هي المعاني التي لها ألفاظ لغوية تدلّ عليها .

القسم الثاني: هي المعاني التي ليس لها ألفاظ لغوية تدلّ عليها .

● مثل بعض الوجدانيات والمشاعر النفسية التي لا يجد الشاعر بها ألفاظاً تدلّ عليها .

● ومثل بعض المركبات التخيلية التي ليس لها أمثلة في الواقع .

● ومثل الغيبيات التي لم يصل إلى حسّ الناس أية صفة من صفاتها، ولكن أدركوا بعض آثارها، كالجاذبية قبل أن يتنبّه العلماء إليها ويضعوا لها اسماً .

● ومثل كثير من عناصر الأرض ونباتاتها وحشراتنا وأجزاء الأجسام المركبة التي لم يحدّد الناس بعد أسماء لها .

● ومثل كثير من الطعوم والروائح التي لا تُحصّر فروعها، وإن عرفت أصولها، وكذلك الأصوات وما بينها من فروق وما لأصول أنغامها من فروع .

● ومثل كثير من الأعمال ذات الحركات المركبة المتداخلة التي صار الناس يشاهدونها بعد اختراع الآلات واكتشاف الطاقات .

وكلّنا نلاحظ أنّه كلّما وضع في أذهان الناس معنى من هذه المعاني، وصاروا بحاجة إلى تداوله والتعبير عنه بدأوا يضعون له لفظاً منقولاً أو مرتجلاً يدلّ عليه، ومع تداول هذا اللفظ مشيراً إلى المعنى الذي وُضِع له يغدو رمزاً معروفاً،

فكُلِّمًا ذُكِرَ هذا اللَّفْظَ رِبطَ به الذَّهْنُ معناه، مستخرِجاً له من خزائن المعاني عنده، ووضعه في ساحة التَّصوُّرِ الحاضر.

وتعجُّ كُتُبُ العِلْمِ بالألفاظِ المُستحدثة التي هي من هذا القبيل، وتُعرَفُ بالمصطلحات العِلْمِيَّةِ.

وتتزايد في تداول النَّاسِ ضمن لغاتهم الدَّارِجاتُ ألفاظٌ تدلُّ على معانٍ لم يكن لها من قبل ألفاظٌ تدلُّ عليها، لأنَّ هذه المعاني لم تكن موضوعة من قبل موضع التداول العام، إذ لم تكن الحاجة ماسَّةً إلى تداولها بين النَّاسِ.

وفي المقابل تموت ألفاظٌ دالَّةٌ على معانٍ لأنَّ هذه المعاني لم تعد الحاجة ماسَّةً إلى تداولها، كأسماء بعض الأدوات التي أهمل النَّاسُ استعمالها.

ومن الملاحظ أنَّ اللِّغَاتِ يسرق بعضها من بعض معانِي وألفاظاً فتغدو متداولة في غير مواطنها الأصليَّة بعد أن لم تكن كذلك.

وكثيراً ما يحتال الإنسان ليدلَّ الآخرين على معنى لا يجد له في اللِّغَةِ لفظاً يدلُّ عليه دلالة واضحة، إذ يُلحِظُ شَبهاً قوياً أو ضعيفاً بينه وبين شيء ممَّا له في اللِّغَةِ لفظ يدلُّ عليه، فيستخدم اللَّفْظَ الدالَّ على هذا الشبيه فيضرب مثلاً منه، وإذا كان هذا المعنى الشبيه قابلاً للتعميم، ثم التجريد من الحدود الحسِّيَّة إذا كان من الحسِّيَّات، فإنَّ الإنسان يلجأ عادة إلى التعميم بملكة التعبير اللِّغويَّة الموجودة في فطرته والمكتسبة من مجتمعه، وعندئذ ينقل اللَّفْظَ الموضوع أساساً في عرف النَّاسِ للمعنى الحسِّي، ويعمِّمه ثم يجرِّده من الحدود الحسِّيَّة.

لقد كان الباب لفظاً دالاً في الحسِّيَّات على المدخل المخصَّص وسط حاجز أو سور، والذي يمكن فتحه وإغلاقه عند الحاجة، فيدخل منه الإنسان هو وأشياؤه إلى دار أو بستان أو مدينة أو مغارة أو نحو ذلك، أو يخرج منه...

ثم لاحظ النَّاسُ أنَّ هذا المعنى إذا عمِّم وجرِّد من الحدود التي عرفوها عند

الإطلاق الأول كان لفظ الباب قابلاً لأن يدلّ على المنفذ الذي يدخل منه الطائر إلى عشّه ويخرج منه، والذي يدخل منه الحيوان إلى جُحرِهِ ويخرج منه، وعلى الثقب الذي تدخل منه النحلة إلى خليّتها وتخرج منه.

ثم اتسع التعميم فصار قابلاً لأن يدلّ على حَوَاجِزِ في السحاب تحجز الأمطار عن الهطول، وربما تكون هذه الحواجز طاقات ذات أنظمة خاصّة، فإذا حُرّكت هذه الحواجز تحريكاً يسمح بهطول الأمطار هطلت الأمطار. ومنه التعبير القرآني في سورة (القمر ٥٤):

﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّثَمَّرٍ ﴾ (١١)

ثم انتقل الذهن من التعميم إلى التجريد، فصار للرزق أبواب وهي أبواب معنويّة، وصار للعلم أبواب وهي أبواب معنويّة، ومن ذلك التعبير القرآني في سورة (الأنعام ٦):

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمَ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فُوحُوا بِمَاءٍ أُتُونَا أَخَذْتَهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ (٤٤)

مُبلِسون: أي يائسون مبهوتون متحيرّون ساكتون قد انقطعت حجّتهم وهيمن عليهم الخزي والندم.

ونظير الباب المفتاح والمفاتيح، ومن التعميم والتجريد مفاتيح الرزق، ومفاتيح العلم، ومقاليد السماوات والأرض، قال الله تعالى في سورة (الشورى/ ٤٢ مصحف/ ٦٢ نزول):

﴿ لَهُمْ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (١٢)

أي له مفاتيح السماوات والأرض.

ومن احتيال الإنسان للدلالة على مشاعر شوقه العنيف إلى محبوبه تشبيهه هذه المشاعر بالنار التي تلذع بحرارته وتؤلم، وتجفف رطوبة الجوانح، وتداول العشاق والشعراء هذا التعبير حتى قال الشاعر:

بِنْتُمْ وَبِنَا فَمَا ابْتَلَتْ جَوَانِحُنَا شَوْقاً إِلَيْكُمْ وَلَا جَفَّتْ مَاقِينَا

ثانياً — مقولة الجهة الثانية حول المعنى:

وهي جهة الدلالة على المعنى بالأسلوب المباشر أو غير المباشر.

المعنى:

(أ) وإما أن ندلّ عليه في الكلام بالأسلوب المباشر السافر.

(ب) وإما أن ندلّ عليه في الكلام بالأسلوب الملامس بساثر.

(ج) وإما أن ندلّ عليه في الكلام بالأسلوب غير المباشر.

فالأسلوب المباشر السافر:

هو الأسلوب الذي تكون الدلالة فيه على المعنى المراد:

● باللفظ الموضوع له لغة، وهو ما يسمى (حقيقة لغوية).

● أو باللفظ الدال عليه في الاستعمال العام الدارج وهو ما يسمى (حقيقة في

العرف العام).

● أو باللفظ الدال عليه عند أهل علم من العلوم، أو فنّ من الفنون، أو في

الاصطلاح الشرعي، وهو ما يسمى (حقيقة في الاصطلاح الخاص).

والأسلوب المباشر السافر في الكلام قد يكون في كثير من الأحوال هو

الأسلوب الأوقع والأكثر تأثيراً، أو الأنفع والأجدي، أو الأكثر ضبطاً.

والأصل في الكلام هو الأسلوب المباشر السافر، وله النسبة الأكبر من كل

الكلام.

ومن الأحوال التي يكون فيها الأسلوب المباشر السافر أوقع وأكثر تأثيراً، أو أنفع وأجدي، أو أكثر ضبطاً، الأحوال التالية:

(١) خطاب الذين يصعب عليهم الفهم بأسلوب غيره، كالصغار وضعفاء التفكير.

(٢) حينما يكون المخاطب في حالة انفعالية أفقدته الهدوء والصفاء الفكري، فالإنسان في مثل هذه الحالة لا يروق له إلا الكلام الذي يدل على المقصود بطريقة مباشرة.

(٣) لدى بيان الحقائق الكبرى العقديّة، كالكلام الذي يحدّد قضايا الإيمان، فهذه يجب فيها التصريح المباشر السافر، مثل: لا إله إلا الله محمد رسول الله. آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

(٤) لدى بيان المبادئ التي تعلنها الشعارات، فهذه ينبغي فيها التصريح الذي يدل على المعاني دلالة مباشرة سافرة.

(٥) لدى كتابة نصوص التشريع أو التقنين، فالأدب الرفيع فيها هو التعبير بالأسلوب المباشر السافر، لئلا يكون في الأفكار احتمالات تسمح بصرف الكلام عن دلالاته المقصودة.

(٦) لدى التعبير عن الأحكام القضائيّة، فالنصوص ذات الدلالة المباشرة السافرة فيها هي أكمل الأدب وأحكمه، عملاً بما توجه مقتضيات هذه الأحكام.

(٧) في معظم مواقف الدعاء لله تعالى، فالتعبير المباشر السافر الموجز فيها كثيراً ما يكون هو الأدب الأرفع، مثل: رب اغفر لي، وارحمني، واهدني، وسدّدني، وعافني، وارزقني حلالاً طيباً مباركاً فيه.

(٨) في كثير من صور التعليم المنهجي.

(٩) في ذروات التعبيرات العاطفية، فالتعبير المباشر السافر فيها عند التصافي وانعدام الرقبا هو من أرقى الأدب وأرفعه. إنه قد يكون أوقع عند وصول الحبيين إلى التكاشف الصريح أن يقول كلُّ منهما لحبيبه: إنِّي أحبُّك، أو يا حبيبي.

والأسلوب الملامس بساثر:

هو الأسلوب الذي يُستخدم فيه للدلالة على المعنى المراد طريق التشبيه والتمثيل، أو الاستعارة، أو المجاز المرسل، أو المجاز العقلي إذا قلنا به.

فحين نقول: «وجهه كالقمر» فإنَّ السامع أو القارئ يلمس أن المراد وصفه بأنه جميل، ولكنَّ حسَّ اللَّمس يقع على ساثر التشبيه بالقمر، ولا يباشر الملموس المراد، وإنما يباشر الساثر، فبين اللَّمس والملموس فاصل الساثر، وهو هنا التشبيه.

ويتكاثف الساثر في التشبيه البليغ.

ويزداد الساثر كثافة في الاستعارة التصريحية.

ويزداد الساثر كثافة أخرى في الاستعارة المكنية.

مثلاً: حين نقول للولد: كنْ مع والديك كفرخ الطير الذي يخفض جناحيه تذلاً تحت صدر أمه أو جناحها. فإنَّ الولد يلمس أن المراد مطالبته بأن يتواضع لوالديه كتواضع الذليل ذي الحاجة إلى الأمن والدفء والرزق، ولكن يلمس هذه المعاني مع فاصل ساثر التشبيه.

فإذا حذفنا أداة التشبيه، وجعلناه تشبيهاً بليغاً، لَمَس المراد نفسه، إلاَّ أنه شعر قليلاً بزيادة كثافة الفاصل.

ثم إذا قلنا له كما جاء في القرآن في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/

٥٠ نزول):

﴿ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴾ على طريقة الاستعارة المكنية، فإنه يلتمس المراد نفسه أيضاً، لكنه يشعر بأن كثافة الفاصل قد زادت من جهة، وازدادت بحلاوة ملامس خاصة بها، مع جس المراد من ورائها.

ونلاحظ نظير ذلك في المجاز المرسل، وفي المجاز العقلي إذا قلنا به.

فقول الله تعالى في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ يَجْعَلُونَ أَصْبَعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوْتِ حَذَرَ الْمَوْتِ... ﴾ [الآية ١٩].

هو من المجاز المرسل بإطلاق الكل وإرادة البعض، ونحن حين نسمع هذا القول، ويسرع إلى تصوّرنا أنّ الإصبع كلّها لا تدخل عادة في الأذن، إنّما الذي يدخل منها رأس الأنملة فقط، نعلم أنّ المراد أنّهم يجعلون رؤوس أناملهم في آذانهم، ولكنّ لمسننا ذلك من وراء فاصل، وهو هنا ساتر المجاز المرسل.

ومع لمس المراد من وراء الساتر أحسننا بزينة خاصة في هذا الساتر نفسه، وبفكرة مضافة، وهي أنّهم يبالبغون بضغط أصابعهم على آذانهم، فلو كان الواقع يسمح بدخولها كلّها في آذانهم لفعّلوا من شدّة ذعرهم وحذرهم، وهذا معنى بديع يضيف على الكلام زينة حلوة.

وقول الله تعالى في سورة (الرعد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول):

﴿ فَسَأَلَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا... ﴾ [الآية ١٧].

أسند فيه السيلان إلى الأودية، مع أنّ السيلان للماء فيها، ولكننا حين نقرأ أو نسمع هذا الكلام نلمس المقصود به من وراء فاصل وهو ساتر المجاز، إذ أسند السيلان للمحلّ، وهو هنا الأودية، ومع لئس المراد من وراء الساتر نحسّ بزينة خاصة في هذا الساتر، وبفكرة مضافة، وهي أنّ الناظر إلى تدفق الماء في الأودية، وتدفق أمواجه، يتوهّم في لحظات الانبهار أنّ الأودية تجري أيضاً مع

الماء، وهذا معنى بديع يضفي على الكلام زينة حلوة، ويصوّر حالة التخيل التي تعترى الناظرين المندهمشين.

إنّ هذا الأسلوب الذي هو وسط بين الأسلوب المباشر السافر، والأسلوب غير المباشر، أسلوب يتّسع لإضافة زينات أدبيّة كثيرة، تضيفي على الكلام جمالاً، ورؤنفاً وبهاءً، مع ما في هذه الزينات من أفكار ودلالات يمكن إضافتها، ومن تصوير فنّي بديع يمكن أن يقدمه الأديب البارِع عن طريقها.

الأسلوب غير المباشر:

والأسلوب غير المباشر يكون بالتعبير عن فكرة لتفهم معها فكرة أخرى، عن طريق اللّوازم العقلية القرّية، أو متوسّطة القرب، أو البعيدة، أو شديدة البعد. وهذه الفكرة الأخرى إنّما يريد المتكلّم الإشارة إليها من طرف خفي، ولا يريد التعبير عنها بأسلوب مباشر، لغرض بياني أو غرض تربوي، أو أي غرض آخر يقصده البلغاء.

فمع ما في هذا الأسلوب من دلالة على ذكاء من يستعمله، ومع ما فيه من مجال واسع لتفنن أدبي لا حصر له من قبّل نوابغ الأدباء، وعباقرة البلغاء والشعراء، فهو مجال لتحقيق أغراض كثيرة، منها الأغراض التالية:

(١) عدم مواجهة المخاطبين بما يراد إعلامهم به لدواعٍ تربوية، أو لدواعٍ نفسية، كعدم المواجهة بالتكليف، وعدم المواجهة بالتقّد، وعدم المواجهة بالعتاب، وعدم المواجهة بالتلويح، وغير ذلك.

(٢) إرضاء نفس من يخاطب به، إذ يشعر بأنّه محترم مقدّر من قبّل من يخاطبه، فهو في نظره من مستوى الأذكاء وكبراء القوم الذين يخاطبون بإشارات الكلام وكناياته، ولا يحتاجون إلى صريح القول.

(٣) إخفاء المراد على جمهور المستمعين، وإشعار المخاطب وحده بالرمز، لأغراض سياسيّة، أو عسكريّة أو تربويّة، أو نحوها.

كما وقع في غزوة الخندق، إذ بلغ الرسول ﷺ أن بني قريظة نقضوا عهدهم، فأرسل وفداً من الأنصار فيه سيّدا الأوس والخزرج إلى كعب بن أسد القرظي سيّد يهود بني قريظة ليستطلعوا الخبر، وقال لهم: انطلقوا حتّى تنظروا، أحقّ ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟ فإن كان حقاً فالحنّوا لي لحنأ أعرفه، ولا تفنّوا في أعضاء القوم (أي: تكلموا بالرمز ولا تتكلموا بصريح القول).

وكذلك فعلوا لما علموا أنّ بني قريظة قد نقضوا عهدهم حقاً. إنهم لما عادوا إلى رسول الله ﷺ، سلّموا عليه، ثم قالوا له: عَضَلُ والقارة. ففهم الرسول المراد، وعلم أنّ القوم قد غدروا كما غدرت عَضَلُ والقارة بأصحاب الرجيع.

(٤) التوصل عن طريق اللوازم العقلية إلى معان قد لا يكون لها ألفاظ تدلّ عليها دلالة مباشرة.

(٥) تزيين الكلام ليكون أكثر تأثيراً في نفوس المخاطبين.

(٦) وقد يكون الأسلوب غير المباشر مقرّباً للفكرة الغامضة، أو مقدّماً لها مقترنة بحجّتها المُقنعة بها.

(٧) إمكان التهرّب من إرادة المعنى عند الإحراج، وذلك إذا كانت إرادته تسوء المخاطب به، أو تسوء غيره من أنداده أو حسّاده أو غيرهم.

ومن أمثلة ذلك مَنْ يُشير بطرفٍ خفيّ إلى حبه، أو يلمّح إلماحاً خفياً، لأنّ أمامه رُقباء من الأنداد أو الحُساد، أو مَنْ لا يرضى بهذه العلاقة غيراً أو نخوة أو مخافة العار، والمتكلّم لا يريد إثارة هؤلاء نحوه لئلاّ يكيّدوه.

وفي كثير من الأحوال يكون خطاب النَّاس بالأساليب غير المباشرة هو الأجدى، لأنّه أوقع في نفوسهم، وأكثر إرضاءً لغرورهم، أو أوفق لظروف أحوالهم.

ولكن لا يصح أن يكون كلّ الكلام جارياً وفق الأسلوب غير المباشر، فالأصل في الكلام هو الأسلوب المباشر، وهو بمثابة الخبز الذي تؤكل معه ألوان الأطعمة، إنّ الأسلوب غير المباشر ينبغي أن لا يزيد في الكلام كثيراً حتى لا يفقد الكلام قواعده وأركانه الأساسيّة.

إنّ الأسلوب غير المباشر ينبغي أن يكون في غضون الكلام الجاري على الأسلوب المباشر، وبمقدار الأغراض البلاغيّة، وبمقدار الحليّات التي تترنّن بها الحسان عادة.

وينبغي أيضاً أن يكون الكلام متنوعاً، لا ملازماً لوناً واحداً من ألوان الأساليب غير المباشرة.

إنّ أبداع الكلام وأحلاه ما كان متنوعاً كثير الألوان، غير مقتصر على نمط واحد. ومع ذلك فليس هذا في كل مائدة كلاميّة. إنّه قد تجمل في بعض الأحيان وفي بعض المناسبات مائدة كلاميّة من لون واحد من الكلام فقط.

إنّ طبائع النفوس عجيبة، وينبغي أن يكون ميزان الأديب تُجاهها شديد الحساسية، يتتبعها بالمؤثرات الآنية عليها.

ويُعرف الأسلوب غير المباشر عند علماء البلاغة باسم (الكناية) ويدخل فيه ما يعرف عند علماء أصول الفقه باسم (المفهوم) أو باسم (الفحوى) فيقولون: «منطوق اللفظ ومفهومه» سواء أكان المفهوم موافقاً أم مخالفاً. ويقولون: «فحوى الكلام» وهو عندهم كالمفهوم المقابل للمنطوق.

والمعنى المدلول عليه بهذا الأسلوب غير المباشر:

(أ) إمّا أن يكون معنى قريب التناول لا يحتاج إلى متابعة لوازم عقليّة متعدّدة مثل قولنا للدلالة على طول إنسان: «لا يدخل الأبواب إلّا وهو يخفض رأسه أو يتقاصر بجسمه».

ويمكن أن نمثّل له بقول الله تعالى: ﴿وأحسنوا إنّ الله يحبّ المحسنين﴾ أي: ويشيهم ويدخلهم جنّات النعيم. لأنّ من أحبّه الله أكرمه وأدخله في رحمته، فهذه من لوازم المحبّة. ونظيره في القرآن كثير.

ويدخل فيه مثل قول الله تعالى في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول) في بيان واجبات برّ الوالدين:

﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آيٌ وَلَا نَهْرُهُمَا...﴾ [الآية ٢٣].

أي: ولا تفعل أيضاً ما هو أشدّ، وهذا يفهم بداهة لأنّ من نُهي عن القبيح الأخفّ فهو منهى عن القبيح الشديد والأشدّ لزوماً عقلياً.

(ب) وإمّا أن يكون معنى متوسّط البعد، يدركه الذهن دون تأمل عميق، وينتقل مع لوازم منطوق اللفظ إليه بغير مشقّة فكرية.

مثل الكناية عن كثرة إطعام الضيفان عند البدو، أن يقول قائلهم فلان: «كثير الرّماد» أي: مضياف جواد. لأنّ كثرة الرّماد عندهم من كثرة إيقاد النّار، وكثرة إيقاد النّار من كثرة الطبخ عليها، وكثرة الطبخ تدلّ على كثرة الضيوف بحسب العادة.

(ج) وإمّا أن يكون معنى بعيداً، بسبب كثرة لوازمه العقلية، أو بسبب أنّ هذه اللّوازم تحتاج إلى تعمّق في التفكير حتّى يدركها الذهن، وغالباً لا يدركها إلاّ الأذكياء والعلماء.

ونُمثّل لهذا بقول إبراهيم عليه السلام حين رفض عبادة الأصنام وكلّ ما في الأرض، وبدأ يبيح عن ربّه في السماء. كما جاء في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ ﴿٦٦﴾

أي: إنَّ غياب الكوكب ظاهرة حدوث، وصفة الحدوث لا تكون من صفات الرَّبِّ الخالق، فالكوكب لا يصلح لأن يكون ربًّا، فأنا لا أحب عبادة الآفلين الذين ليس أحد منهم يصلح لأن يكون ربًّا خالقاً، إنَّما أحبَّ عبادة ربِّي الحقّ.

فجملته ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ في معرض البحث عن الربِّ الخالق، تستدعي لدى أهل الفكر والنظر وأذكياء التأمل كل هذه اللوازم.

(د) وإمّا أن يكون معنى يُلمح لمحا، أو يشم شمًّا، ويتطلّب إدراكه حسًّا مُرَهَفًا، وممارسة لإدراك مشاعر النفوس من وراء تعبيرات اللسان.

وقد لا تظهر لوازم فكرية تدلُّ عليه، بل قد تكون الإشارة إليه من قرائن الأحوال، أو من التصريح بشيء وعدم التصريح بقرينه أو مُقَابِلِه، مع وجود الدواعي لهذا التصريح.

ويعمل الذكاء وقوة الحدس في هذا المجال لاكتشاف ما يختلج في النفوس من معانٍ لم يُفصِح عنها اللسان، لسببٍ من الأسباب، كالاستحياء، أو الكبر، أو العفة، أو الخوف، أو غير ذلك.

ونستطيع أن نمثّل لهذا القسم بالأمثلة التالية:

(١) قول موسى عليه السلام بعد أن سقى لابنتي الشيخ الصالح عند ماء مدين ثم تولى إلى الظل، كما جاء في سورة (القصص / ٢٨ مصحف / ٤٩ نزول):
﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾.

فهو في هذا يشير باستحياء إلى حاجته إلى الزوجة إشارة خفية لا تُعرف إلا من قرينة الحال.

(٢) قول أيّوب عليه السلام بعد أن طال به المرض ثمانية عشر عاماً: يا ربّ إنّي مسني الشيطانُ بنُصْبٍ وعذاب. قال تعالى مبيّناً دعاءه في سورة (ص / ٣٨ مصحف / ٣٨ نزول):

﴿وَأَذَكَّرَ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾﴾ .

بُنُصْبٍ وعذاب: أي بتعب وبلاء ومؤلمات جسدية ونفسية، فهو في دعائه هذا يشير باستحياء إشارة خفية إلى طلب الشفاء، معللاً ذلك بأثر وساوس الشيطان في نفسه من جراء طول المرض، فهذه الوسواس قد زادت متاعب جسده وآلامه وعذبت نفسه.

(٣) قول امرأة عمران حين وضعت جنينها الذي كانت قد نذرته محرراً لبيت المقدس، وكانت تنتظر أن يكون ذكراً، فجاء أنثى وأسمتها مريم، قالت كما جاء في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿رَبِّ إِنِّي وَصَّعْتُهَا أَنْثَىٰ﴾ . وقالت: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ...﴾ [الآية ٣٦].

فهي تشير بقرينة الحال إلى مشاعر التحسر التي تشغل قلبها ساعتئذٍ.

(٤) قول ذي النون عليه السلام وهو في بطن الحوت لربه، كما جاء في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ .

فالقول توحيد وتسييح واعتراف بالذنب، إلا أنه يشير باستحياء شديد من طرف خفي إلى طلب النجاة.

* * *

الخلاصة:

فالمعاني:

(١) إمّا أن تُسْتَفَادَ مِنْ دلالة الكلام المباشرة السافرة.

(٢) وإمّا أن تُسْتَفَادَ مِنْ دلالة الكلام الملامسة بساتر.

(٣) وإمّا أن تُستفاد من دلالة الكلام غير المباشرة، ويكون ذلك في حدود ظلال الكلام.

ولهذه الحالة ثلاث مراتب: قريبة، ومتوسطة، وبعيدة. ولكل من هذه المراتب الثلاث درجات متفاوتات.

ويلحق بالأسلوب غير المباشر أن تُستفاد المعاني من قرائن الأحوال، ومن الإشارات الخفية الضمنية.

وهذه المعاني يتوصّل إلى إدراكها بالذكاء والتفرّس والحُدس، ومعرفة القرائن والملابسات.

فهي تُتصيّد ممّا وراء ظلال الكلام، والإلماح إلى هذه المعاني ذو نسب متفاوتة في الظهور والخفاء.

وعلى الدعاة إلى الله أن يكونوا على بصيرة بفنون دلالات الكلام على المعاني، وأن يتمرسوا بألوان التعبير البليغ ويُدربوا أنفسهم على تذوّق آداب القول، وعلى معرفة أحوال التلاؤم بين أسلوب الكلام ومقتضى حال المخاطب به، حتّى يكون كلامهم أكثر تأثيراً، وتكون متأسيّة بمنهج القرآن في الدعوة، ومنهج أنبياء الله ورُسُلِهِ في دعواتهم إلى سبيل ربّهم.

ثالثاً — مقولة الجهة الثالثة حول المعنى:

وهي جهة المعاني أنفُسها وقيَمها الفكرية والجمالية.

(أ) إنّ المعاني أنفُسها في أذهان الناس ومقولاتهم تنقسم إلى أقسام

خمسة:

(١) فمنها ما هو حقُّ بلا ريب.

(٢) ومنها ما هو باطل بلا ريب.

(٣) ومنها ما يترجّح في الظن أنه حق، وتختلف نسبة الرّجحان.

(٤) ومنها ما يترجّح في الظن أنه باطل وتختلف نسبة الرّجحان.

(٥) ومنها ما هو واقف في المنطقة المتوسطة تماماً، وهي الأمور التي

تكافأت قوتا النفي والإثبات بالنسبة إليها، فلا هي راجحة إلى جانب الحق، ولا هي راجحة إلى جانب الباطل، وهذه الحالة الذهنيّة بالنسبة إلى الأمور التي هي من هذا القبيل، يُطلَق عليها علماؤنا كلمة (الشك) في اصطلاحهم، لكنّ كلمة الشك في التعبير القرآني تعني غير هذا: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ أي: أفي إثبات وجود الله أي احتمال مهما كان ضعيفاً يُفترَضُ معه أن لا يكون للكون ربٌّ خالق فاطر؟ إن هذا مرفوض بدهاءة.

(ب) وإن المعاني أنفُسها تختلف بالنسبة إلى أفهام الناس بُعداً وقُرْباً.

● فمنها ما هو قريب من مدارك الناس، سهّل المأخذ، سهّل الفهم.

● ومنها ما هو بعيد نسبياً لا تتوصل إليه أفهام الناس ومداركهم إلا بالتأمل

ودقّة الملاحظة، أو بقسط من البحث.

● ومنها ما هو عميق بعيد الغور لا يصل إليه إلا الأذكياء والثّبهاء والعباقرة،

أو الباحثون المنقّبون.

● ومنها ما لا تستطيع مدارك الناس الوصول إليه أو الإحاطة به، وقد

أصبحت الآلات الإلكترونية تقدّم للعقول نتائج لا تستطيع العقول بأنفسها التوصل إليها. وهنالك في الغيب علوم لم يُؤتِ الناس وسائل الوصول إليها، نبتت على

بعضها الوسائل الحديثة، ودلّ على بحورها العميقة. قول الله عزّ وجلّ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿وَمَا أُوْتِيْتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾

ودلّ عليها قول الله عزّ وجلّ في سورة (لقمان/ ٣١ مصحف/ ٥٧ نزول):

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ
كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .

إنَّ المعاني كبحور عظيمة لها سطوح وشواطىء، وتحت السطوح أعماق،
وتحت الأعماق أعماق أخرى، وتحت الأعماق أغوار، وتحت الأغوار أغوار
سحيقة .

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَأْخُذُ مِنَ الْمَعَانِي مَا يَصِلُ إِلَى الشَّوْطِئِ، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ
يَرْكَبُ بَحَارَ الْمَعَانِي وَيَجْرِي عَلَى سَطُوحِهَا، وَيَتَنَاوَلُ مِنَ السُّطُوحِ أَوْ مِنَ الْعُمُقِ
الْقَرِيبِ . وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَغْوِصُ إِلَى بَعْضِ الْأَعْمَاقِ، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَغْوِصُ إِلَى
بَعْضِ الْأَغْوَارِ، وَيَتَفَاوَتُ النَّاسُ فِي نِسْبِ غَوْصِهِمْ، وَكُلٌّ مِنْهُمْ يَسْتَخْرِجُ مِنَ بَحَارِ
الْمَعَانِي عَلَى مِقْدَارِ غَوْصِهِ، وَعَلَى مِقْدَارِ اسْتِعَابِهِ .

عناصر الجمال في المعاني :

أما عناصر الجمال في المعاني فمتنوعة، منها العناصر التالية:

العنصر الأول: تناسق الأفكار وترباطها بوشائجها المنطقية دون إعنات
للفكر، ثم تكاملها ولو مع طي بعض العناصر التي يمكن أن تفهم ذهنياً، ولا يشترط
التعبير عن وشائج الترابط، بل ربّما يكون طي ذلك أحلى وأكثر جمالاً أدبيّاً .

العنصر الثاني: الانتقال من الجذور والأصول في الأفكار إلى الفروع الكبرى
فالصغرى فالأوراق والثمار . أو من الفروع إلى الأصول . أما الخلط من غير ترابط
منطقي فهو قبيح تنفر منه الأذهان، لأنها لا تستطيع أن تجرّه في جداولها المنطقية
الفطرية، ولأنّه يتنافى مع أسلوب الطبيعة المنظمة بأبداع نظام .

العنصر الثالث: محاكاة الواقع بتصوير فنيّ يُبرِزُ الحركة والحياة والمشاعر،
ويعبّر عن مختلف أبعاد الواقع، ولا يقتصر على التصوير الجامد للأشكال والرسوم
الظاهرة .

العنصر الرابع: الصدق في التعبير عن الحقيقة، أو عن المشاعر والأحاسيس، أو عن الآمال والرغائب، أو عما يسبح فيه الخيال متأثراً بمطالب النفوس، وشهواتها، ومطامحها.

العنصر الخامس: ما تشتمل عليه المعاني مما يحرك في الناس المشاعر الوجدانية أو النفسية الحلوة، والعواطف الوجدانية أو النفسية الحلوة، أو يرضي شهوات النفوس.

العنصر السادس: ما يُعجب الأذهان من إشراقات ذكاء، وأفكار جديدة مبتكرة، بشرط أن لا تكون قبيحة بطبيعتها.

العنصر السابع: ما يسرُّ الخيال ويعجبه ويُمْتَعُه مما يرضي الرغبات النفسية التي يتمناها الإنسان ويعجز عن الوصول إليها وتحقيقها:

(أ) فمن الحق والصدق ما هو جميل جداً:

إنَّ التصوير الفني الذي يُبرز في الكلام صورة الواقع المتحدّث عنه، حتّى كأنه مُشَاهِدٌ ملموس بحركته وحياته ورونقه وجماله هو من أرفع الأدب وأجمله، وكم من واقع هو أجمل وأكمل من الخيال.

وإنَّ الكلام الذي يعبرُّ عن الحقائق الفكرية المجرّدة بطريقة مفهومه سهلة ليّنة طيّعة في الفكر وفي اللسان، هو من أرفع الأدب وأجمله.

وإنَّ الكلام الذي يحدّد الأحكام الشرعية أو الأحكام القانونية أو مسائل العلوم بوضوح، ودقّة تامّة، ورشاقة وعدوبة لفظ، هو من أرفع الأدب وأجمله.

وإنَّ الكلام الذي يعبرُّ تعبيراً صادقاً عن مشاعر النفس الوجدانية أو التخيّلية لدى مُشَاهِدَةٍ طبيعية أو حادثة إنسانية هو من أرفع الأدب وأجمله.

وإنَّ الكلام الحلو الذي يُرضي الآمال والمطامع النفسية، بإقناعات صادقات، أو بإقناعات توهم بأنّها صادقات، فتستر بها عورات التلفيق والكذب، هو من أرفع الأدب وأجمله.

أما الكلام الذي تنكشف فيه عورات التلفيق والكذب فهو كلام قد تمجُّه النفوس، ولو سيق لإرضاء الآمال والمطامع النفسية.

وإنَّ الكلام الذي يَصْنَعُ قصصاً مقبسة ممَّا يجري في الواقع نظائرها، هو من أرفع الكلام القصصي وأجمله.

دعوى «أعذب الشعر أكذبه»:

أما دعوى: «أعذب الشعر أكذبه» فهي دعوى لا أساس لها من الصحة، لدى التحليل والبحث عن العناصر الجمالية في الأدب.

إنَّ الحقَّ إذا لبس ثوباً أدبيّاً جميلاً كان أجمل من الباطل لا محالة، مهما لبس من أثواب جميلة مزخرفة.

إنَّ الحُلَّةَ والحِلَّةَ الأدبيَّةَ اللَّتَيْنِ يرفل بهما قول الله تعالى في سورة (الرعد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول):

﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَهُۥ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّبِيلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ بَثَلٍ لِكُلِّ شَيْءٍ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَبْتَغِي النَّاسُ فَيَمْكُتُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ .

للفكرة الحقُّ التي تبيِّن واقع انتصار الحقِّ والمحقِّين بعد أحداث الصِّراع بين الفريقين، أجمل من كل أدب يُزيِّن فكرة باطلة لتكون مقبولة محببة.

ربما يكون تضخيم الحقِّ وتجسيمه في الصورة الأدبية عملاً أدبيّاً جميلاً، لأنَّ التضخيم والتجسيم في مفاهيم النَّاس لون من ألوان البيان والشرح للحقيقة، وبعد الشرح ترجع الحقيقة في تصوُّر النَّاس إلى حجمها الطبيعي.

إنَّ الفكرة المشتملة على كذب سخيف ممجوج قد يستعذبها الذهن لطرافتها، ولكن يمجِّها الذُّوق والحسُّ المرهف العارف بألوان الجمال لسخافتها ومجافاتها للحقيقة مجافاةً واسعة المسافة.

في قول المتنبي:

كفى بجسمي نحولاً أنني رجل لولا مخاطبتي إياك لم ترني

وفي قول الآخر:

ولو أن ما بي من جوى وصباية على جملي لم يدخل النار كافر

قد نلاحظ فكرة غريبة لا يتصيدها إلا شاعر ذكي، فنُعجبُ بطرافتها، ولكننا مع ذلك نمجُّها، لأنها تشتمل على دعوى كاذبة سخيفة.

أما حين تكون الفكرة مبتكرة حلوة، وتكون الدعوى صادقة في أصلها، مضخمة مجسمة مبالغاً بها في صورتها الأدبية، فإن الكلام يكون حينئذٍ أرفع أدباً، وأعلى كعباً، وأوقع في النفس.

هلمَّ فلنلحظ اجتماع الصدق والأدب الرفيع في قول الله تعالى في سورة (ق) / ٥٠ مصحف / ٣٤ نزول):

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾

إن في هذه الآية حلاوة فكرة السؤال والجواب. وحلاوة الجواب الذكي الذي لم يكن مباشرة بصيغة: (لم امتلأ) أو بصيغة (لا) مع كثرة الذين ألقوا فيها. وإنما جاء على صيغة سؤال النهم الشره طالب المزيد: ﴿هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾!!؟.

وما دام باستطاعة الإنسان أن ينتقي من الحق والصدق عناصر جمالية لأدبه فما أوفر الحق والصدق في بيانات الإسلام أمام الدعاة إلى الله، وما عليهم إلا أن يغترفوا.

(ب) ومن الأفكار الجديدة المبتكرة ما هو جميل جداً:

وكلنا نلاحظ أن الناس تُعجِبُهُم وتحلو لديهم المعاني الجديدة المبتكرة، ويقولون في عباراتهم الدارجة: لكل جديد لذة.

فاشتمال الكلام على المعاني الجديدة المبتكرة - دون أن تكون قبيحة في ذاتها - هو من عناصر الجمال الأدبي، والزينة الجوهرية في الكلام.

على أن كل فكرة جديدة مبتكرة يستعذبها الناس ويُعجبون بها، قد تسمي مبتذلة مزهوداً فيها، متى تداولها الناس واستعملوها كثيراً، باستثناء الأفكار التي هي بمثابة الخبز في الأكل، أو الملح في الطعام، أو الماء والهواء.

وما أوفر المعاني الجديدة التي يمكن استنباطها من كتاب الله عز وجل، ويمكن إرضاء عقول الناس بها، وما على الدعاة إلى الله إلا أن يحسنوا الاستفادة منها.

ومن المبتكرات في المعاني ما تكون جدته في الجمع والتركيب.

مثلاً:

إن التعبير الساذج عن عدم العدل في مجال الحب الذي يعاتب به الإنسان العادي أميراً ذا مكانة، أن يقول له: يا سيدي إنني أحبك حباً عظيماً مع المحبين ولكنتك لا تعامل حبي بالعدل كما تعامل الآخرين.

إن مشاعر هذا الإنسان وقفت عند هذا الحد فأعطى هذا التعبير.

لكن المتنبي بذكائه تجاوز هذه المشاعر الساذجة، فأدرك أن سيف الدولة أعدل الناس، وأدرك أنه هو الحكم لو شاء أن يشكوه إلى حكم، ثم رجع فأدرك أنه هو الخصم، ثم استدرك ليكشف أن الخصومة على حبه وما يقتضيه هذا الحب.

كل هذه الأفكار والمشاعر قد اجتمعت وتراكبت! وتدخل الذكاء فأحاط بها معاً، وتدخلت القدرة البيانية على التعبير عنها مجتمعة بطريقة تفهم بلا تعقيد ولا كد للذهن، فقال المتنبي لسيف الدولة:

يَا أَعْدَلَ النَّاسِ إِلَّا فِي مُعَامَلَتِي فِيكَ الْخِصَامُ وَأَنْتَ الْخِصْمُ وَالْحَكْمُ

(ج) وإشراقات الذكاء في الأدب تأثير عظيم جداً في ارتفاع المستوى

الأدبي:

إنّ التعبيرات غير المباشرة أو المباشرة بسائر عن الأفكار المقصودة بالذات لا تكاد تُحصَر.

ويتفاوت النَّاس فيها بمقدار تفاوتهم في القدرة على تصيّد المعاني التي لها بالأفكار المقصودة صلة يمكن عن طريقها الإشارة إليها، أو الدلالة عليها، ولو إلماحاً، أو من جانب خفي.

ومن الأسباب الجوهرية في ارتقاء المستوى الأدبي للكلام ما يكون لدى المتكلم أو الكاتب من قدرة في هذا المجال.

كالقدرة على تصيّد الأشباه والنظائر، واستخدام بعضها لبعض، في الأمثال والتشبيهات، والاستعارات، وأنواع المجاز التي يكتفي بها الأديب عن مراده، وكالقدرة على معرفة الروابط بين الأفكار، والانتقال فيها بين اللوازم والملزومات، والأجزاء والكل الذي يجمعها، والخاصّ والعام، والمتناقضات والأضداد، وغير ذلك من المعاني ذات الترابط فيما بينها في الواقع أو في الفكر، فهي تتخاطر معاً ولو كانت متناقضاتٍ وأضداداً، ويستدعي بعضها بعضاً.

ولا بدّ مع ذلك من توافر الذوق الفني، والحسّ الجمالي الرفيع، لوضع هذه الأشياء في مواضعها، بحسب مقتضى حال المخاطب، فرداً كان أو جماعة.

مثلاً:

اعتاد الأديباء والشعراء أن يُشَبِّهوا الجواد بالبحر، لأنّ البحر ماؤه كثير، وعطاؤه وفير، فهو لا يمنع أخذاً منه، لكن إشراقات الذكاء مكّنت الشاعر من أن يعطي هذا التشبيه المتداول زينةً جديدةً مُحَبِّبةً بتقسيم البحر إلى لُجَّةٍ وساحل، فقال في ممدوحه:

هُوَ الْبَحْرُ مِنْ أَيِّ النَّوَاحِي أُتِيَتْهُ فَلَجَّتْهُ الْمَعْرُوفُ وَالْجُودُ سَاحِلُهُ

(د) ولتحريك المشاعر الوجدانية والنفسية الحلوة تأثير عظيم في ارتفاع

المستوى الأدبي:

ولا ريب في أن الناس تُعجبهم وترضيهم وتحلو لديهم المعاني التي تحرك لديهم المشاعر الوجدانية والنفسية الحلوة، والعواطف الوجدانية والنفسية الحلوة، أو تذكّرهم بها.

مثل: مشاعر الحب، ولقاءات الأحبة، وعواطف الحنان والشفقة، ومشاعر الشوق لدى العشاق، ومشاعر الإيمان وأحاسيسه العميقة لدى المؤمنين، ومشاعر العبادة الحلوة لدى العباد الصالحين، ومشاعر الفخر والاعتزاز بالأمجاد، ومشاعر الإحسان وفعل الخير، ومشاعر الأخوة والصدق والوفاء، ومشاعر الأبوة والأمومة وسائر القربان، ومشاعر العطف على الأيتام، ومشاعر التوبة والندم والرجعة إلى الله، ومشاعر الزهد في الدنيا والتطلع إلى النعيم المقيم في الآخرة، ومشاعر التضحية والبطولة والفداء، ومشاعر الإيثار، ومشاعر البر والتقوى، ومشاعر التحدي والصمود وآمال النصر على الطغاة والبغاة وعُباد الشيطان.

وما أوفر المعاني التي تحرك هذه المشاعر الحلوة لدى الدعاة إلى سبيل الله، وما عليهم إلا أن يُحسِنُوا الاستفادة منها.

ثم إن المشاعر النفسية والوجدانية منها ما هو ساذج بسيط، ومنها ما هو مركّب متفاصل، ومنها ما هو مركّب متداخل معقد.

ويرتقي مستوى الكلام الأدبي لدى علية الأدباء، ولدى العامة أيضاً، بقدر ارتقاء المشاعر التي يأتي التعبير عنها ولو بطريقة مباشرة.

ويصلح مثلاً لهذا سمو المشاعر في قول المتنبي لسيف الدولة:

إِنْ كَانَ سَرَكْمُو مَا قَالَ حَاسِدُنَا فَمَا لِيْجْرَحَ إِذَا أَرْضَاكُمُو أَلَمْ

يَا مَنْ يَعِزُّ عَلَيْنَا أَنْ نُفَارِقَهُمْ وَجَدَانُنَا كُلَّ شَيْءٍ بَعْدَهُمْ عَدَمٌ
ومركب المشاعر في قوله له :

يَا أَعْدَلَ النَّاسِ إِلَّا فِي مُعَامَلَتِي فِيكَ الْخِصَامُ وَأَنْتَ الْخِصْمُ وَالْحَكْمُ

المشاعر الوجدانية والنفسية في الدعوة إلى الله :

وإذا كان للمشاعر الوجدانية والنفسية هذا الأثر في ارتقاء مستوى الكلام الأدبي، وفي تأثيره القوي على النفوس، فإن لدى الدعاة إلى الله كنزاً عظيماً من المشاعر التي تيسر لهم الانتفاع منها في تحقيق أهداف الدعوة، وفي رفع مستوى كلامهم الأدبي.

ولكن لا بد من أن ننبه على عنصر مهم جداً، ألا وهو أن يكون المتكلم منفعلاً حقاً في عمق وجدانه ونفسه، بالمشاعر التي يريد التعبير عنها، ويحرص على تحريكها في أعماق سامعيه أو قارئيه.

إنه كلما كانت مشاعر الداعي حول ما يدعو إليه من دين الله أعمق، وكان إحساسه بها أعنف وأوضح، كان تأثيره في سامعيه أكثر وأعمق، ولذلك نجد تأثير المخلصين عظيماً.

وحين تقترن بهذه المشاعر الصادقة العميقة قدراتٌ أدبية على البيان، وتجارب مختلفات في ميادين التعبير الأدبي عن الأفكار وعن الأحاسيس والمشاعر النفسية أو الوجدانية، فإن القدرة على التعبير عن هذه المشاعر تكون أكمل وأوفى، ثم يكون الكلام أكثر نفاذاً إلى أعماق سامعيه أو قارئيه، وأكثر تحريكاً لمشاعرهم.

ويرتقي الداعي إلى سبيل الله في تعبيراته الأدبية البليغة ضمن دعوته بمقدار ارتقاء تجاربه الإيمانية، وتجاربه الوجدانية، ومشاعره النفسية الحلوة، في مجالات

الصَّلَة بالله، والطاعة له، والتوبة والتَّوْب، وعطاءات الخير، والتطبيقات الإسلامية
المسعدة للنفوس، والمريحة للضمائر، والمُمدِّة للقلوب بالطمأنينة...

* * *

منثورات في عناصر الجمال الأدبي

أولاً - الأسلوب البياني :

من عناصر الجمال الأدبي في الكلام ملاءمة أسلوبه البياني للأمر التالفة :

(أ) للهدف العام من الكلام.

(ب) للمضمون الفكري في الموضوع العام الذي يجري فيه الكلام، وفي
الفكرة الخاصة التي يتحدّث عنها.

(ج) لوضع المخاطب وحالته الفكرية والتفسيّة والاجتماعية.

(د) للمُنَاخ النفسي العام الذي يُلقى فيه، أو يوجّه له، فالمناخات النفسية
كثيرة، ولكلّ منها أسلوب بياني يلائمه.

وللتوصل إلى الملاءمة المطلوبة التي هي عنصر مهمّ جداً من عناصر الجمال
الأدبي لا بدّ من ملاحظة الأمور التالفة بعناية ودقّة :

(١) ملاحظة حال المخاطبين أو الذين يُوجّه لهم الكلام وذلك بصفة عامة.

ويدخل في هذا ملاحظة بيئتهم العامة، ومفاهيمهم السائدة بينهم.

(٢) ملاحظة الحالة التفسيّة والفكرية والاجتماعية التي يكون عليها

المخاطبون بصفة عامة.

ويدخل في هذا ملاحظة حالات السلم والحرب والأمن والخوف، وسعة
الرزق والجوع، والنصر والهزيمة، والإيمان والكفر والتفّاق، والطمع واليأس،

والمسرة والحزن، والصفاء والكدر، ونحو ذلك من الأحوال النفسية الخاصة، التي يستدعي كلُّ منها ما يلائمه من أساليب البيان.

ويدخل في هذا أيضاً ملاحظة حالات الذكاء والغباء، وطمأنينة الفكر واضطرابه، والعلم والجهل، ونحو ذلك من الأحوال الفكرية التي يستدعي كلُّ منها ما يلائمه من أساليب البيان.

ويدخل في هذا أخيراً ملاحظة الحالات الاجتماعية، كالبداءة والتحضر، والرفعة والضعفة، والقوة والضعف، والقيادة والانقياد، ونحو ذلك من الأحوال الاجتماعية التي يستدعي كلُّ منها ما يلائمه من أساليب البيان.

(٣) ملاحظة الطرفين الزماني والمكاني اللذين يُقالُ فيهما أو يُعدُّ لهما الكلام.

فمن الأساليب البيانية ما يلائم ظرفاً من الظروف الزمانية أو المكانية، في حين أنه قد لا يلائم ظرفاً آخر.

إنَّ ما يلائم في مواسم الأعياد، قد لا يلائم في أوقات التحريض على الجهاد، وما يلائم في مكان الفرح، لا يلائم في مكان الترح، وما يلائم في مواطن تأدية الشُّك، قد لا يلائم في أسواق البيع والشراء، وكذلك العكس، وقس على هذه المتخالفات.

(٤) ملاحظة المُناخ النفسي العام، فالمناخات النفسية كثيرة، ولكلِّ منها أسلوب بياني يلائمه.

ومن أمثلة المُناخات النفسية: المناخ الخطابِي، المُناخ الحربي، المناخ العاطفي، مناخ السفر، مُناخ الحضر، مُناخ الخوف، مناخ الطمع، مناخ القلق، مناخ الهدوء والسكينة، مناخ الغضب، مناخ الرضا، مناخ التربية والتعليم، مناخ الموعظة والإرشاد، مناخ الخصومة والجدل، مناخ الطلب والاستجداء، مناخ الدُّعاء، وهكذا إلى مُناخات كثيرة أخرى.

الشرح:

منّ المعلوم أنّ المتكلّم الحكيم لا بدّ أن يكون ذا هدف من كلامه، وللوصول إلى الهدف المقصود من القول أساليب بيانية كثيرة، ولكل هدف أساليب تناسبه.

وملاءمة الأسلوب البياني للهدف من الكلام هي فيما أرى ركن أساسي وجوهري لارتفاع مستوى الكلام الأدبي البليغ.

● فحين يكون غرض الكلام مثلاً أن يُحدّث تأثيراً إقناعياً، يكون الأسلوب البياني الأكثر إقناعاً وتأثيراً في هذا المجال هو الأكثر أدباً، والأرفع منزلة في هذه الحالة.

● وحين يكون غرض الكلام أن يُحدّث انفعالاً حماسياً، ويستثير خلق الشجاعة والبسالة والإقدام، يكون الأسلوب البياني الأكثر إثارة للحماسة واستشارة للبسالة والشجاعة والإقدام هو الأكثر أدباً، والأرفع منزلة في هذه الحالة.

● وحين يكون غرض الكلام أن يُثير الغضب أو يُحدّث الغيظ، يكون الأسلوب البياني الأكثر إثارة للغضب أو إحداثاً للغيظ، هو الأكثر أدباً، والأرفع منزلة في هذه الحالة.

فمن أرفع الأدب في هذا المجال قول الله تعالى في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف / ٨٩ نزول) بشأن المنافقين الذين إذا خلّوا عضواً أناملهم غيظاً من المؤمنين:

﴿ قُلْ مَوْتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (١١٤)

وقول الله تعالى بشأن المشركين الذين يكرهون ظهور الإسلام وانتصاره في سورة (الصف/ ٦١ مصحف / ١٠٩ نزول):

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ (١)

ولكنّ الإسلام قد عزل السباب والشتائم عن أدبه، وأوصى المسلمين بذلك، فقال الله تعالى في سورة (الأنعام/ ٦ / مصحف/ ٥٥ / نزول):

﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ... ﴾ [الآية ١٠٨].

كما عزل عن أدبه ما يسمّى بالأدب المكشوف أو أدب الفراش، وسرّ القرآن عورات هذا المجال بالكنايات والعمومات، مثل:

﴿ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ ﴿ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ ﴿ وَقَدْ أَفْضَنَ بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ ﴾ ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ ﴾ ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّأَ ﴾ ﴿ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ ﴾ ﴿ فَلَمَّا تَمَشَّطْنَا ﴾ ﴿ هُنَّ لِيَاسٍ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَاسٍ لَهُنَّ ﴾ .

● وحين يكون غرض الكلام تحقير من يوجّه الكلام ضده، أو السخرية منه، يكون الأسلوب البياني الأكثر تحقيقاً لهذه الغاية هو الأكثر أدباً، والأرفع منزلة في هذه الحالة، بشرط أن لا يعكس الأثر على موجّه الكلام.

● وحين يكون غرض الكلام أن يستعطف من يوجّه له، فيحرّك لديه عاطفة الشفقة، أو الرحمة أو يحرك لديه خلق الجود، أو نحو ذلك، يكون الأسلوب البياني الأكثر تحقيقاً لهذه الغاية هو الأكثر أدباً، والأرفع منزلة في هذه الحالة.

● وحين يكون غرض الكلام التودّد والتحبّب لمن يوجّه له الكلام، يكون الأسلوب البياني الأكثر تحقيقاً لهذه الغاية هو الأكثر أدباً والأرفع منزلة في هذه الحالة.

● وحين يكون غرض الكلام استرضاء من يوجّه له الكلام صراحة أو ضمناً، في دافع من دوافع نفسه، كالكبر، أو العجب بالنفس، في جمال، أو علم أو حسب، أو نسب، أو مكانة اجتماعية، أو قدرة إدارية، أو حكمة أو حنكة، أو غير ذلك، يكون الأسلوب البياني الأكثر تحقيقاً لهذه الغاية هو الأكثر أدباً والأرفع منزلة في هذه الحالة.

وهكذا في سائر أغراض الكلام .

ولكلّ غرض من أغراض الكلام أساليبٌ تُناسبه، فما يصلح في مجال الحماسة لا يصلح في مجال الإقناع، وما يحلو في الخطابة لا يحسن في مقام التعزية، وما يحسن في الجدل لا يحسن في مقام الاعتذار، وما يلائم بثّ الوجود، قد لا يلائم استجداء الرُّفد، وما يُناسِبُ المدح قد لا يناسب الهجاء .

وذوق الأديب البليغ يُحسُّ بوجوه الملاءمة أو عدمها بين أساليب الكلام وبين الأهداف منه، فيتحرّى أفضل الأساليب مُلاءمةً للهدف الذي يقصده من كلامه .

ولا غرَوَ أن بعض الأساليب الملائمة للهدف أكثر ملاءمة وأعظم تأثيراً من بعض .

ثمّ لكل صنف من أصناف المخاطبين، ولكلّ حالٍ من أحوالهم الفكرية والنفسية والاجتماعية أساليبٌ ملائمة، وأساليبٌ غير ملائمة، وعلى المتكلّم البليغ أن ينظر في صنف من يريد توجيه كلامه له، وأن ينظر في حالته الفكرية والنفسية والاجتماعية، ويُحسن اختيار الأسلوب الكلامي الذي يلائمه ويؤثر فيه فرداً كان أو جماعة .

فمن أصناف النَّاسِ: عامّة وخاصّة، وجاهلون وعلماء، وأغبياء وأذكياء ودَهْمَاء وأمرء، وبُدَاة جفأة ومتحضّرون، وأهل حِلْمٍ وعقل، وأهل خِفّة وطَيْشٍ، ومنهم من يُملِكُ من طريق عاطفته، ومنهم من يُملِكُ من طريق عقله .

وهكذا تختلف أصناف النَّاسِ اختلافاً كثيراً، ولكل صنف منهم أساليب من القول تلائمه، وتكون أكثر تأثيراً فيه من أساليب أخرى .

ونظير اختلاف النَّاسِ اختلاف أحوالهم الفكرية والنفسية والاجتماعية، فما يلائم الإنسان وهو هادئ الفكر قد لا يلائمه وهو مشوّش الفكر مضطربه، وما يلائمه وهو في حالة الرضا قد لا يلائمه وهو في حالة الغضب، وما يلائمه وهو

فقير ذليل قد لا يلائمه وهو في سعة من المال وعزّ، وما يصلح له من الخطاب وهو وحده قد لا يصلح له وهو بين الناس .

وهكذا إلى سائر اختلاف الأحوال، ولكل حال أساليب من القول مناسبة، وبعضها أكثر مناسبة وملاءمة وتأثيراً من بعض .

وفي هذا المجال الذي تختلف فيه أهداف الكلام، وتختلف فيه أصناف المخاطبين، وتختلف فيه أحوالهم، تتفاوت مراتب البلغاء والبيانيّين .

ما هو المراد من الأسلوب البياني؟

قد لا نستطيع حصر الأساليب البيانيّة وإن حاولنا ذلك، ولكننا نستطيع توضيح المراد من الأسلوب البياني بذكر طائفة من الأساليب الكلاميّة التي إذا كانت ملائمة للغرض العام من الكلام، والوضع العام للمخاطب، والحال الخاص له، والمُنَاح النفسيّ العام، كانت أسلوباً بيانياً مُرْتَقِياً في معارج البلاغة الراقية، والأدب الرفيع .

فمن الأساليب الكلاميّة ما يلي :

(١) أسلوب العَرَضِ المباشر الصريح للفكرة المراد الإعلام بها، أو العرض الملامس بساتر .

(٢) أسلوب العرض غير المباشر الذي يُعْتَمَدُ فيه على مقدار ذكاء المخاطب، ويدخل في أسلوب العَرَضِ غير المباشر التعريض والتلميح، ومعارض الأقوال، والإشارة الخفيّة، وفحوى الكلام، ولهذا الأسلوب صُور كثيرة جداً .

(٣) أسلوب الإطناب وعرض الفكرة مبسّطة موضّحة من كل جوانبها، ولهذا الأسلوب مراتبٌ وصُورٌ كثيرة، وهذا الأسلوب يناسب أصنافاً من الناس، وأغراضاً معيّنة من الكلام، وأحوالاً خاصّة للمخاطبين .

(٤) أسلوب الإيجاز والاختصار، ولهذا الأسلوب أيضاً مراتب وصور كثيرة، وأسلوب الإيجاز والاختصار يناسب أصنافاً من الناس، كالأذكياء، والأمراء، وأهدافاً معينة من الكلام، وأحوالاً خاصة للمخاطبين.

(٥) أسلوب الترغيب، وله مراتب وصور كثيرة، وهو في الغالب يلائم معظم النفوس الإنسانية، لما أودع الله فيها من مطامع.

(٦) أسلوب التهيب، وله أيضاً مراتب وصور، وهو كأسلوب الترغيب يلائم في الغالب معظم النفوس الإنسانية، لما أودع الله فيها من حذر وخوف.

(٧) أسلوب العنف والقسوة، وهو يلائم بعض الناس وفي بعض الأحوال.

(٨) أسلوب الرقة واللين.

(٩) أسلوب الإثارة للعواطف والانفعالات، وكثيراً ما يكون هذا الأسلوب نافعاً ومجدياً في الحماسة والخطابة.

(١٠) أسلوب الإقناع الفكري الهادئ.

(١١) أسلوب الجدل.

(١٢) أسلوب الكتابة التثقينية، والكتابة العلمية المحررة، والمحددة للمقاصد بنصوص بعيدة عن الاحتمالات الأخرى.

وهكذا تختلف أساليب الكلام، وكلُّ منها يناسب أهدافاً معينة، وأصنافاً معينة من الناس، وأحوالاً خاصة للمخاطبين، ومناخاتٍ نفسية عامة، وقد يجتمع عدد من أساليب الكلام في كلام واحد حينما لا تكون متنافية، أو حينما يلائم بعضها بعضاً.

مثال:

ولتقريب فكرة اختلاف الأساليب البيانية التي يُتوخى منها تحقيق الغرض من

الكلام، ويُزاعَى فيها أوضاع المخاطبين وأحوالهم، نضرب المثال التالي:

نضع في هذا المثال مطلباً من المطالب التي قد يراد الإعلام بها، بغية تحقيقها، ثم ننظر إلى طائفة من الأساليب الكلامية التي يمكن أن يُتوصَّل بها إلى الإعلام بالمطلوب.

وهنا لا بدّ أن نرى من الأساليب ما هو ساذج صريح، يتناول الطلب مباشرة، ثم نرى من الأساليب ما يدلّ على المطلوب دلالة غير مباشرة، ويُعتمدُ فيها على ذكاء المخاطب وقدرته على إدراك المطلوب من خلال إشارات القول ومعاريفه.

ومن المسلّم به أنّه كلما كان المخاطب أكثر ذكاء ورغبةً في تلبية الطلب، كان إخفاء الإشارة إلى الطلب في أسلوب القول الدالّ عليه لدى مخاطبته أعلى منزلة من الناحية البيانية، وأكثر بلاغة، هذا في غير التصوص التي يُقصد منها تثبيت أحكام بعيدة عن الاحتمال الذي قد يُفهم منه غير المراد.

وهنا تتكاثر الأساليب التي تشير في خفاء إلى المطلوب، وبعضها أرقى من بعض، أو أعذب وأحلى، أو أبداع أو أكثر نفعاً وتأثيراً.

ولنفرض أنّ عدداً من الناس كلُّ واحد منهم يُريدُ الحصول على كأس ماء يروي ظمأه، وهم متفاوتون في قدراتهم البيانية، وحاول كل واحد منهم الإعلام بما يريده.

أمّا الساذج منهم فيأمر أمراً بإحضار كأس الماء الذي يريد بطريقة لا لينَ فيها ولا حليّة، وقد يكون هذا الأسلوب هو الأبلغ في مخاطبة بعض الناس، وفي بعض الأحوال والأوضاع، لا سيما في طلب الأكبر من الأصغر، فالأسلوب البياني الأبلغ حينئذٍ هو الطلب بالأمر المباشر، والأوامر العسكرية من القادة إلى الجنود قد لا ينفع فيها إلّا مثلُ هذا الأسلوب المباشر الجاف، لمقتضيات التدريب على الانضباط العسكري، وكذلك شأن القرارات والمراسيم والأوامر التي توجهها

سلطات الحكم، ومن هذا الباب التكاليف الشرعية التي فيها أوامرٌ ونواهٍ، مثل: «أقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وافعلوا الخير، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلاّ بالحق، ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل، ولا تسرقوا، ولا تزنوا» ومع ذلك فإننا نلاحظ معظم التكاليف الشرعية تقترن بتطرية الترغيب والترهيب، وبيان الحكمة، والتمهيد بالمقدّمات، والتلطّف بالنداء التكريمي، مثل: ﴿يا أيّها الذين آمنوا﴾ ومثل: ﴿يا عبادي﴾.

وترتقي من فوق الأمر المباشر الجاف أساليب الإعلام بالطلب، فيأتي أسلوب الطلب المقترن بما يشعر بتكريم المخاطب، ومن أمثلة ذلك في موضوع طلب كأس الماء «من فضلك أعطني ماء».

ثم يأتي فوقه أسلوب الشكر على تحقيق المطلوب قبل تحقيقه، ومن أمثلة ذلك: «أشكرك على كأس الماء الذي ستقدّمه لي».

ثم يأتي من فوق ذلك أسلوب التلميح والتعريض، ولهذا الأسلوب صور كثيرة، ودرجات بعضها أرقى وأعذب من بعض ومن أمثلة هذا الأسلوب:

(١) ماؤكم عذب لا يشبّع منه الشاربون.

(٢) الحرُّ شديد يورث الظمأ.

(٣) طعامكم طيبٌ ولذيذ أكثرنا منه فألهب الأكباد.

وهكذا من أمثلة المعارض التي لا تحصر.

ألننا نلاحظ أنّ الهدف المطلوب تحقيقه واحد في كلّ الأساليب السابقة، إلاّ أنّ الأساليب البيانية للإعلام بالهدف قد تفاوتت تفاوتاً كبيراً.

ومع تفاوت الأساليب البيانية وارتقاء بعضها فوق بعض، نؤكد أنّه ربّما كان الأدنى منها أصلح وأجدى من الأساليب التي هي أرقى، مع بعض المخاطبين، أو في أوضاع وأحوال خاصّة، أو في موضوعات معيّنة أو بالنسبة إلى أهداف

خاصّة من الكلام. وعندئذ يكون الأدنى في أسلوبه البياني هو الأبلغ لتحقيق الهدف، كشأن أساليب التريية.

ومن أجل ذلك لا بدّ من النظر إلى الأسلوب البياني ومرتبته من جهة، وإلى ما يقتضيه الهدف وإلى وضع المخاطب وحاله من جهة أخرى.

ومن هذا تبيّن لنا أنّ الأساليب البيانية تختلف أنواعها اختلافاً كثيراً، وأنّ الأهداف من الكلام، وأوضاع المخاطبين وأحوالهم، والموضوعات العامة التي يجري فيها الكلام، والمضامين الفكرية التي يراد الدلالة عليها، والمُنَاخات النفسية والاجتماعية التي يوجّه فيها الكلام، تختلف اختلافاً كثيراً أيضاً.

والبلّغ حقاً هو الذي يُحسّنُ الملاءمة بين أسلوبه البياني وبين الهدف الذي يقصده، والموضوع الذي يتحدّث فيه، ووضع المخاطب الذي يوجّه له كلامه، وحاله التي هو عليها، وسائر الأمور التي يمكن أن يلائمها أسلوب من الكلام ولا يلائمها أسلوب آخر.

ولا بد من الإشارة هنا إلى أنّ هذه الملاءمة في الأسلوب البياني، ليست هي كلّ شيء في تحديد الجمال الأدبي، بل توجد عناصر جمالية أخرى كثيرة، قد يشتمل عليها الكلام أو لا يشتمل عليها مع مراعاة الملاءمة في الأسلوب البياني.

ونظرةً في مختلف الأساليب البيانية تجعلنا نمرّ على أسلوب العرض المباشر الجاف، فأسلوب العرض المباشر المغلّف بما يلطّفه ويخفّف جفافه، ونمرّ على الأسلوب الساذج البسيط، فما هو قريب منه. وقد يلطّف العرض المباشر التشبيه والتّمثيل فيجعلهُ ملموساً بساثر، والمحسّنات اللفظية، وأنواع من الزينة المعنوية، ودعّم الخبر بالمؤكدات والشواهد، ودعّم الطّلب بالمبررات والترغيب والترهيب.

ثمّ نمرّ على أساليب العرض غير المباشر التي يدخل فيها التعريض،

والتلميح، والكناية، والقصة، وضرب الأمثال، وتَرْكُ صِيغِ الطلب إلى صيغِ الخَبَرِ الذي يراد منه الطلب، إلى غير ذلك من الأساليب البيانية الكثيرة التي لا يُعرض فيها المطلوب بشكل مباشر، وقد يقترن أسلوب العرض غير المباشر بما يؤكد الخبر الذي تضمّنه الكلام، أو بما يحرّض على تحقيق المطلوب في الكلام، كالترغيب والرهيب.

وأصحابُ الذوق البياني الرفيع يُحسنون استخدام الفنون البلاغية التي يذكرها علماء البلاغة، وفنوناً أخرى يبتكرونها، فالفنون البيانية لا تُحصَر، والفكر الإنساني مؤهل لأن يبتكر فيها بدائع وروائع جديدة، تهديه إلى خصائص الإبداع الفني التي وهبها الله للإنسان.

والدعاة إلى الله مطالبون بتدريب أنفسهم لاكتساب هذا الذوق البياني، ولاكتساب المهارة في صناعة الكلام الرفيع، ثم هم مطالبون بتسخير أدبهم في دعوتهم إلى سبيل ربّهم، اقتداءً بنبيّهم ورسولهم محمد ﷺ، واقتباساً من المنهج القرآني في بلاغته العظيمة.

ثانياً — التنويع والتنقل والتلوين :

ومن عناصر الجمال الأدبيّ الذي يزيد الجمال جمالاً، والحسن حسناً وبهاءً، التنويع والتنقل والتلوين بين الصور والأشكال الجمالية في الكلام.

إنّ التزام الأديب لطريقة واحدة من الجمال الأدبيّ يكرّرها باستمرار في كل كلامه أو في معظم كلامه، ممّا يجعل مشاعر سامعيه أو قارئيه تتبدّل تجاه هذا اللون من الجمال، فتفقد ما كانت تحسّ به من استعذاب وحلاوة وطلاوة، ويدبّ السأم إليها، ولو أنّ أدبه كان كالمنّ والسلوى، لأمست مشاعرهم أمام التزامه الوتيرة الواحدة كنفوس بني إسرائيل.

لَمَّا أَكثَرَ طَه حَسِينِ مِنْ اسْتِخْدَامِهِ لِلْوَنِ جَمِيلِ فِي الْكَلَامِ هُوَ اسْتِغْفَادُهُ مِنْ

عكس الكلام للدلالة على فكرة أخرى، غدا هذا اللون بعد حين مادة لتندّر بعض المقلّدين الساخرين .

وهذا العكس في الكلام هو ما كان على وزن العبارة المشهورة: «كلام الأمير أمير الكلام» ونقول في نظائرها:

«الجمال الأدبيّ وأدب الجمال» – «الطَّبْعُ الحَسَنُ والحُسْنُ المطبوع» .

«شعراء العلماء وعُلماء الشعراء» – «روائع النَّثرِ ونثرُ الرّوائع» .

ومن التزام الوتيرة الواحدة المملّة ما نجده في مقامات الحريري على الرّغم من حلاوة بعضه لأول مرة، لكنّ التثقل في الألوان الأدبية، والتنوع في استخدام العناصر الجمالية في الكلام، من الأسباب التي تجدد إثارة الانتباه للإحساس بالجمال، وتجدد الاستمتاع بلذّة الأدب الجميل، وترفعه إلى مستوى الروائع، وتَمْنَعُ تسلّل السّام والمَلَلِ إلى نفوس المستمعين أو القراء .

إنّ التثقل مثلاً في النَّثر من المتوازنات القصيرة، إلى المتوازنات الطويلة، إلى المتفاوتات الرشيقة ضمن نسق معجب جميل، أحبُّ إلى النفوس الحضارية الذواقّة للجمال من الثبات على وتيرة واحدة منها .

ثم إذا استطاع الأديب أن يُلَاقِمَ بين المضامين الفكرية وبين الأسلوب الذي اختاره كان ذلك أكثر إعجاباً وإبداعاً .

وكذلك التثقل من الخبر، إلى التساؤل، إلى الجواب، إلى التمنيّ فإلى الخبر، فإلى الحوار والمناقشة، فإلى الجدل، فإلى الحماسة، فالمنطقية العقلية، فالعاطفة، فالحديث الهادئ، إلى غير ذلك من ألوان وفنون بيانية، مع شرط الملاءمة، وعدم التنافر الجمالي .

ومع التثقل ينبغي للأديب أن يكون قادراً على الإحساس بالتحوّلات النفسية لدى من يُوجّه له كلامه، ليختار من أساليب القول ما يلائم الحالة النفسية التي

وصل إليها. إنَّ هذه القدرة على هذا الإحساس، مع القدرة على التكيّف السريع والانتقال إلى الأسلوب الأدبيّ الجديد الملائم، هي الوسيلة البارعة الموصلة إلى امتلاك الألباب والقلوب والنفوس بأدب رفيع.

ومهما كان الأديب أقدر على هذا التكيّف، مع اختيار اللون الأدبيّ الملائم، وأقدر على استخدام مختلف الأساليب في كلامه، والتثقلُ البارع بينها من غير تكلف ولا قفزات منفّرات، كان أكثر أدباً، وأرفع أسلوباً، وأقدر على امتلاك من يُوجّه له كلامه.

ولنا في هذا بكتاب الله العظيم أسوةً رائعة، فمن خصائص الإعجاز القرآنيّ التنوع البديع الرائع في الأساليب، مع ملاءمة كلّ نوع من أنواع الأساليب للمضمون الفكريّ الذي يُرادُ بيانه في النظم القرآنيّ المنزّل.

* * *

ثالثاً — تزيين الأفكار المقصودة بالذات بأفكار أخرى :

ومن عناصر الجمال الأدبيّ تزيين الفكرة المقصودة بالذات بأفكار أخرى عن طريق التمهيد أو المقارنة أو التذييل.

(١) فالتمهيد يكون بعرض أفكار تمهّد للأفكار المقصودة بالذات، وتزيينها وتجعلها مقبولة.

كالتمهيد بمقولة إقناعيّة تتضمّن ضرورة العناية بالصحة، والمحافظة عليها، قبل التحذير من شرب الخمر، أو من شرب الدخان، أو نحو ذلك من الأمور الضارة بالصحة.

وكاستشارة عناصر الإيمان قبل توجيه التكليف.

وكالتمهيد بعبارات تشعر بتكريم المخاطب والتلطف معه، بحسب مكانته

الاجتماعية بين قومه، ومن ذلك الديباجات التي يُقدّم بها الناس خطاباتهم للملوك والعظماء والرؤساء.

وأمثلة هذا التمهيد كثيرة في القرآن العظيم ومنها:

(أ) قول الله لرسوله في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِن لَّهْتُمْ وَلَوْ كُنْتُمْ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾.

فقول الله لرسوله: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِن لَّهْتُمْ﴾ تمهيد حلو في ثناء وتكريم، لتحذير ضمني من شيء غير واقع حتماً، ألا وهو الفظاظة وغلظ القلب الذي جاء بصيغة: ﴿وَلَوْ كُنْتُمْ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾.

ثم نلاحظ أن الجملتين معاً كانتا تمهيدين رائعين لتوجيه التكليف بقوله تعالى لرسوله: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾.

(ب) قول الله تعالى في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٦٦﴾﴾.

إن هذه الآية بمضامينها قد كانت تمهيداً يهيئ نفوس المؤمنين لتقبل تلويهم على ما بدر منهم من تذمّر واستنكار لبعض المصائب التي أصابتهم في أعمالهم الجهادية، بأسباب من عند أنفسهم، وهو ما جاء في الآية التالية للآية السابقة:

﴿أَوَلَمَّْا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٦﴾﴾.

(ج) وقد علم الله موسى أن يُمهّد لفرعون بمقدّمات العرض الرفيق جداً،

قبل أن يوجّه له الدّعوة المقصودة، وهي أن يتزكّى أي يتطهّر من الكفر والطغيان والظلم والعدوان.

فقال له كما جاء في سورة (النازعات / ٧٩ مصحف / ٨١ نزول):

﴿ أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَنْ تَزَكَّى ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَنَخَسْ ﴿١٩﴾ .

فأدب الدعوة لعظيم بلغ به الأمر إلى ادّعاء الربوبية، قد اقتضى اتّخاذ الحكمة في دعوته، بتقديم مقدمات العرض الرفيق المهذب جدّاً، دلّ عليها في النص: ﴿هل لك إلى أن﴾.

لقد كان يكفي أن يقول له: أدعوك أن تزكّى. أو يكرمه قليلاً بصيغة العرض الاستفهامي: هل تزكّى، أو يكرمه أكثر فيقول له: هل ترى أن تزكّى، أو نحو ذلك.

لكنّ الله علّم موسى أن يفرش لفرعون مقدمات تكريم أكثر تناسب مكانة فرعون في قومه، وقد جاء التعبير عن هذه المقدمات الطويلة نسيباً بقوله: ﴿هل لك إلى أن تزكّى﴾.

فأطال المقدمات بحسب عادات القوم، واختصر المطلوب الأساسي، فقال ﴿تزكّى﴾ بدل ﴿تتزكّى﴾.

(٢) والمقارنة تكون بإلباس الفكرة المقصودة ثوباً من فكرة أخرى يتقبّلها المخاطب أكثر من تقبّله الفكرة المقصودة عارية مجردة.

وتطبيق ذلك يكون باستخدام الأساليب غير المباشرة التي سبق شرحها بتفصيل.

(٣) والتذليل يكون بعرض الأفكار المقصودة بالذات أولاً، وإتباعها بما يُزيّنُها ويجعلها مقبولة.

كالإتيان بالفكرة ثم بإتباعها بالاستدلال عليها استدلالاً برهانياً أو دون ذلك .
 أو بإتباعها بالوعد المحبوب ترغيباً بها، أو بالوعيد المكروه ترهيباً منها وتحذيراً .
 أو بإتباعها ببيان دواعيها المنطقية، أو دواعيها الالتزامية، ومن الدواعي الالتزامية
 التذكير بعهد الإيمان والإسلام، أو بسوابق الوعود والعهود، ونحو ذلك .
 والأمثلة القرآنية على هذا النوع كثيرة جداً .

فمنها قول الله تعالى في سورة (النور / ٢٤ مصحف / ١٠٢ نزول):

﴿ وَلَا يَأْتِلِ أَوْلُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ
 اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١٧) .

فأمَرَ الله عزّ وجلّ بالعفو والصفح، ثمّ أتبعه بعرض فيه الوعد بالمغفرة لمن
 يعفو ويصفح . ونجد في القرآن آيات كثيرة مختومة بنحو قوله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ . ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ . ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ
 الْمُقْسِطِينَ ﴾ . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمَفْسِدِينَ ﴾ . ﴿ إِنَّ
 اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ ممّا يشير إلى الوعد أو الوعيد بعد بيان المطلوب من فعل
 أو ترك .

* * *

رابعاً — ضرب الأمثال :

ومن عناصر الجمال الأدبي الرفيع في الكلام ضرب الأمثال، بشرط أن
 تتوافر فيها الشروط الفنيّة للأمثال، وتستجمع الشروط الأساسية العامة للكلام
 البليغ .

ويشترط في ضرب المثل أن يكون له غرض بيانيّ، لا أن يكون مجرد عبث
 في القول .

ولدى تتبُّعي للأمثال القرآنيَّة وجدتُ أنَّ أهمَّ الأغراض التي يحسن أن يقصدها البلغاء هي الأغراض الأخلاقية والتربوية التي هدفتُ إليها الأمثال القرآنيَّة، وتتلخَّص بالأغراض الست التالية^(١):

الغرض الأوَّل: تقريب صورة الممثل له إلى ذهن المخاطب عن طريق الممثل.

الغرض الثاني: الإقناع بفكرة من الأفكار، وهذا الإقناع قد يصل إلى مستوى إقامة الحجَّة البرهانيَّة، وقد يقتصر على مجرد لفت النظر إلى الحقيقة عن طريق صورة مشابهة.

الغرض الثالث: الترغيب بالتزيين والتحسين، أو التنفيرُ بكشف جوانب القبح، فالترغيب يكون بتزيين الممثل له وإبراز جوانب حسنة، عن طريق تمثيله بما هو محبوب للنفوس مرغوب لديها. والتنفير يكون بإبراز جوانب قبحه، عن طريق تمثيله بما هو مكروه للنفوس أو تنفر منه.

الغرض الرابع: إثارة محور الطمع، أو محور الخوف لدى المخاطب، ففي إثارة محور الطمع يتجه الإنسان بمحرَّض ذاتيِّ إلى ما يَراؤُ توجيهه له، وفي إثارة محور الخوف يبتعد الإنسان بمحرَّض ذاتيِّ عما يَراؤُ إبعاده عنه.

الغرض الخامس: المدح أو الذم والتعظيم أو التحقير.

الغرض السادس: شحذُ ذهن المخاطب، وتحريك طاقاته الفكرية، أو استرضاء ذكائه، لتوجيه عنايته حتَّى يتأمل ويتفكَّر ويصل إلى إدراك المراد عن طريق التفكُّر.

والأمثال التي يدفَعُ إليها هذا الغرض إنما يُخاطب بها الأذكياء، وأهل التأمل والنظر والبحث العلمي، وكبراء القوم.

(١) انظر كتاب «أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع» للمؤلف.

أما الأغراض غير الأخلاقية فقد تجافت الأمثال القرآنية عنها، كالسخرية في مثل ابن الرومي إذ قال:

قَصْرَتْ أَخَادِعُهُ وَطَالَ قَدَالُهُ فَكَأَنَّهُ مُتَرَبِّصٌ أَنْ يُضْفَعَا

ومن شاء أن يتعلّم فن ضرب الأمثال، فليهدت بهدي خصائص الأمثال القرآنية.

ولدى تنبّعي للأمثال القرآنية اكتشفت من خصائصها الخصائص الست التالية:

الأولى: دقة التصوير مع إبراز العناصر المهمة من الصورة التمثيلية.

الثانية: التصوير المتحرّك الحيّ الناطق، ذو الأبعاد المكانية والزمانية، والذي تبرز فيه المشاعر النفسية والوجدانية، والحركات الفكرية، للعناصر الحية في الصورة.

الثالثة: صدق المماثلة بين الممثل به والممثل له.

الرابعة: التنويع في عرض الأمثال، مرّة بالتشبيه، ومرّة بالعرض المفاجيء وبالتمثيل البسيط، وأخرى بالتمثيل المركّب الذي يطابق كل جزء منه جزءاً من الممثل له، وأخرى بالتمثيل المركّب الذي يُنتزَع منه وَجْهُ الشبه بنظرة كلية عامة.

الخامسة: البناء على المثل والحكم عليه كأنه عين الممثل له، على اعتبار أنّ المثل قد كان وسيلة لإحضار صورة الممثل له في ذهن المخاطب ونفسه، وإذ حضرت صورة الممثل له ولو تقديراً، فالبيان البليغ يستدعي تجاوز المثل، ومتابعة الكلام عن الممثل له، وتسقط صورة المثل لتبرز القضايا المقصودة.

السادسة: قد يحذف من المثل القرآني مقاطع اعتماداً على ذكاء أهل

الاستنباط، وقد تُحذف من الممثل له مقاطع أيضاً، ويبقى في دلالات الألفاظ أو لوازم المعاني ما يدلّ على المحذوف.

واجب الدّعاة:

وعلى الدّعاة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة أن ينتفعوا من هذا العنصر من عناصر الجمال الأدبي، ويهتدوا بهدي كتاب الله وهدي سنة رسول الله ﷺ في ذلك، فكم فيهما من أمثال رائعات. وللقرّاء أن يرجع إلى كتابي: «أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع».

* * *

خامساً — السطح والعمق:

ومن عناصر الجمال والكمال الأدبي الرفيع في الكلام أن يكون له سطح تفهمه العامة دون غموض ولا ارتباك ذهني، وأن يكون له مع ذلك عمق تفهمه الخاصة بالتأمل والتعمق وإعمال الذكاء.

ولا يستطيع تقديم بيان رفيع مثل هذا البيان الذي له سطح وعمق إلا نوابغ البلغاء الأذكياء.

والقدوة الهادية لهؤلاء النوابغ بلاغة القرآن المعجز. إن المتدبّر لكلام الله عز وجلّ في القرآن يلاحظ عجباً، إنه ينظر إلى آية فيفهمها، ويأخذ منها دلالة صحيحة ينتفع منها انتفاعاً عظيماً.

ثم تأتي نفحات في تدبّر آخر، فيفهم من الآية معاني جديدة لم ينتبه إليها في التدبّر الأول، وهذه المعاني لا تتعارض مع ما فهمه في التدبّر الأول إذا كان تدبّراً صحيحاً. بل تعطيه إضافات متممة لما كان قد تدبّره من قبل.

ثم كلما تعمق في التدبّر تواردت عليه مفاهيم جديدة تتكامل بها لديه المعرفة المتعلقة بدلالة الآية.

والعمق في الكلام يتكوّن من أسباب، منها ما يلي:
الأوّل: عدم الإشارة باللفظ إلى الترابط المنطقي بين المعاني، أو إلى الترتيب الزمني أو المكاني بين الأحداث، أو غير ذلك من أمور مع إبقاء كل جملة في محلّها الطبيعي.

ولو أنّه جاءت الإشارة الصريحة إلى هذا الترابط، أو هذا الترتيب بلفظ دالّ، لخرج المعنى من العمق إلى السطح.
ولكن يفقد النصّ بذلك عاملاً من عوامل جدّته في نفس القارئ عند كل تدبّر.

الثاني: الكنايات البعيدة ذوات الدلالات المتتابعات.

الثالث: المحاذيف التي تُحذف للإيجاز، ويقتضيها معنى النصّ، أو يستدعيها التوازن والتناظر والتكامل فيه، أو غير ذلك، ويبقى المعنى بعد حذفها صحيحاً، إلّا أنّه جزء من المعرفة التي يدلّ عليها السطح والعمق معاً.
والعمق القرآني عمقٌ معجز، لهذا سيظلّ في القرآن جديد يفهمه المتدبّرون المتعمّقون.

والسطحُ والعمقُ في القرآن شيءٌ غير الظاهر والباطن الذي تدعيه الباطنية كذباً وبهتاناً وافتراءً على الله ورسوله، إنّ الذي يقولون به خرافةٌ يُقصدُ بها تحريف نصوص كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

ومن ميزة السطح والعمق في القرآن أن العمق يُكمل السطح، ولا ينقضه، ولا يتنافى معه.

وشأن المتدبّر في القرآن كشأن الباحث في سطح البحر وعمقه.
ومن بلغاء البيان من يكون لبعض كلامهم سطح وعمق، إلّا أنّ العمق لديهم سهل الاستخراج وقد يتنافى مع السطح.

إنّ قول المتنبي لكافور الإخشيدي:
«لقد كنت أرجو أن أراك فأطرباً».
له سطح يمدح به كافوراً، لكنّ له عمقاً يسخر به منه.

* * *

سادساً — أوجه النّص :

ومن عناصر الجمال والكمال الأدبي الرفيع في الكلام أن يكون له عدّة أهداف، وهذه الأهداف كلّها مقصودة به، ويظهر هذا بجلاء حينما يكون المخاطب بالكلام جماعة ذات فئات مختلفة، وعناصر متباينة.

فمن أمثلة النّص ذي الهدف المزدوج أن يوجّه ذو سلطان عام تهديده الشديد للذّين يخالفون أوامر مبعوث من قبله للقيام بمهمّة من المهمّات السلطانية، إنّنا نلاحظ في هذا النّص التهديدي هدفين معاً:

أحدهما: تهديد الذّين يخالفون.

وثانيهما: رفع معنويّة المبعوث، وشدُّ أزره وشحذُ همّته للقيام بما بُعث به على أفضل وجه.

وقد يكون الكلام مثلث الهدف، أو أكثر من ذلك، وكل صاحب علاقة يأخذ من النّص ما يناسب حاله، ويكثرُ هذا في النّصوص القرآنيّة، فقد يكون الكلام تهديداً وتوعّداً للكافرين، ووعداً للمؤمنين، وتربيّةً وتأديباً وتسليّةً للرسول صلوات الله وسلامه عليه.

ومن الأمثلة القرآنيّة على تعدّد الهدف من النّص قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنفال / ٨ مصحف / ٨٨ نزول):

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾

ففي هذا النصّ هدف إلقاء الوهن في قلوب الكافرين، ولو عظمت قوّاتهم. وهدف رفع مستوى القوى المعنوية في قلوب المؤمنين، وشحذ همّتهم لإعداد القوى المادية التي يسبقون بها الذين كفروا تمهيداً للتكليف بإعداد المستطاع من القوة الذي جاء في الآية التالية لهذا النص.

* * *

سابعاً — الشعر وفنونه :

ومن عناصر الجمال في الكلام أن يُرضي الحسّ الموسيقي في الإنسان، ويدغدغه بإمتاع.

إنّ للموسيقى وموازينها تأثيراً مستعذباً في النفوس، فإذا جاء الكلام موزوناً على بعض موازينها الحلوة المستعذبة اكتسب حلاوة مُحبّبة.

ثم إذا توافرت في الكلام مع ذلك عناصر متلائمة من عناصر الجمال والكمال الأدبي ازداد الكلام حسناً وقوة تأثير في النَّاس.

إنّ الأشياء الجميلة التي تلامس مشاعر الإنسان بمؤثراتها الحلوة من جانبيين، هي أكثر تأثيراً فيه من التي تلامس مشاعره من جانب واحد. وكلّما ازدادت الجوانب ازدادت قوّة التأثير، حتّى تصل إلى محاصرة الإنسان من كل مشاعره الجسديّة والنفسية والفكرية والوجدانية، فيفقد عندئذٍ كل مقاومته، ويستسلم استسلاماً تاماً، مستغرقاً في لذات المشاعر الحُلوة.

إنّه إذا اجتمع المنظر الجميل، والصوت الحَسَن، والرائحة الزكيّة، والطعم اللذيذ، والملبس الحلو الممتع، والرّاحة النفسيّة، وكان الحديث أدباً جميلاً ربيعاً، موضوعاً بقالب موسيقي شعري، فقد حاصر الجمال معظم مشاعر الإنسان، وأخذ يهيمن عليها بمؤثراته الحُلوة، حتّى يسلبها كل مقوماتها، فتستسلم استسلاماً تاماً.

ولمّا كانت النَّفسُ الإنسانيّة تَطَرَّبُ للموسيقى، وترتاح لموازينها الحُلوة، وكان الشُّعرُ كلاماً يجري في بعض جداولها، وعلى بعض موازينها، كان للشُّعر تأثير حلو على النفوس الإنسانيّة، ويظهر هذا حتى على الأطفال الصغار، الذين يظهر شعراً طفليّاً على بعض جملهم التي يردّدونها أو يغنّون بها.

ويتفاوت النَّاسُ في مدى إحساسهم بهذا النَّوع من أنواع الجمال في الوجود، وفي تذوّقهم له، لذلك نلاحظ أنّ بعض النَّاس يتأثرون بالشُّعر أكثر من بعض، مع وجود أصل التأثير عند كل النَّاس إلا نادراً.

وبعض النَّاس لديه بالتكوين الفطري فِطْرَةٌ نَظْمُ الكلام على ميزانٍ شعري.

وكلّنا يعلم أنّ الكلام الموضوع في قالب ميزانٍ شعري أسرع إلى الحفظ، وأثبت في الذاكرة، وأسهل استدعاءً عند الحاجة.

فلا غَرَوَ إذن أن يكون الشُّعرُ عنصراً من عناصر الجمال في الكلام.

وهنا نقول: إنّ على أصحاب الأهداف النبيلة والدّعوات الخيريّة أن يُحسِنوا استخدام هذا اللون الجمالي من ألوان المؤثرات على النَّفس الإنسانيّة، وأن لا يدعوا ساحته للشعراء الذين يتبعهم الغاؤون، الذين هم في كل وادٍ من أودية أهواء النَّفس وشهواتها، وأودية الضلال والفساد في الأرض يهيمون، والذين هم يقولون ما لا يفعلون.

إنّ الشُّعر سلاح من أسلحة الأدب، وهو وسيلة حياديّة بذاتها، إن استُخدمت في الخير كانت خيراً، وإن استُخدمت في الشرّ كانت شرّاً.

وبوسع المصلحين ودعاة الخير ممّن لديهم القدرة على كتابة الشُّعر الرفيع أن يلبسوا درع قول الله تعالى في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسِعَلَهُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيُّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

بعد أن وصف الله واقع حال معظم الشعراء بقوله تعالى فيها:

﴿ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٧٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٧٧﴾ وَأَتَّهَمُ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٨﴾ ۝﴾

فالشعراء الذين يهيمون في كلِّ وادٍ من أودية الضلال والهوى، والكذب والظعن في الناس ظلماً، والمدح لبعض الناس استجداء، والانتصار بغير حق، ويتبجحون بشعرهم كذباً وزوراً، فيصفون أنفسهم بالشجاعة وهم الجبناء، وبالكرم وهم البخلاء، وبالعقل وهم السفهاء، وبالعفة وهم الفساق، ويتحدثون عن مغامرات غرامية لم تحدث، فيفضحون بأكاذيبهم محصنات عفيفات، ويفتخرون بالحسب والنسب وهم صعاليك لا حسب لهم ولا نسب، ويعدون ولا يقون، ويُعاهدون ويعُدُّون، ويظهرُونَ صدق الحبِّ وهم الطامعون، فهم يقولون ما لا يفعلون.

هؤلاء بزخرف الشعر الذين يملكون القدرة على صناعته والتأثير بفنونه إنما يتبعهم من الناس الذين سفهوا نفوسهم، فخدعتهم الكلمة المزخرفة ولو كانت باطلاً وزوراً، ودعوة إلى الشرِّ والفساد في الأرض.

ومن هؤلاء شعراء الحانات، والمواخير، والليالي الحمراء، وشعراء الإباحية، وشعراء المذاهب الضالة الهدامة.

أما الشعراء الذين يلبسون درع الاستثناء القرآني فقد برز منهم في عصر الرسول ﷺ «حسان بن ثابت - وعبد الله بن رواحة - وكعب بن مالك».

وأتخذهم الرسول ﷺ أسلحة بيانية أدبية ضدَّ شعراء أهل الكفر والشرك بالله، وكان يستحثُّهم أحياناً لمجاهدة الكافرين والمشركين بشعرهم.

وظهر في العصور الإسلامية التالية شعر إسلامي كثير، ولكن ظلت نسبة المبدعين من فحول الشعراء في جانب الذين يتبعهم الغاؤون هي النسبة الأكبر، أما

الذين لبسوا دُرْعَ الاستثناء القرآني فقد كان فيهم موهوبون ذوو قدرات عالية تؤهّلهم لأن يكونوا من فحول الشعراء، إلّا أنّهم فيما أرى آثروا الإبداع في العلوم الإسلاميّة والاشتغال بها عن توجيه كل اهتمامهم للشعر، فلم يُبرّزوا به كما برّز الآخرون.

وفي ظنّي لو أراد الإمام الشافعي أن يكون شاعراً لبزّ أبانواس في الشعر. ولكنّه أثر أن يكون عالماً فقيهاً.

وقد تكون شدّة الحذر من الانزلاق بالشعر إلى فئة الذين يتّبِعهم الغاؤون قد كفّت كثيراً من الذين يملكون في فطرتهم القدرة الشعريّة العالية عن أن يخوضوا بحور فنونه، ويستخدموه للدّعوة ويبلغوا فيه إلى مستوى فحول الشعراء.

ثامناً — الغرض الفكري البياني من الصورة البلاغيّة المختارة:

ليس يكفي إيراد الكلام وفق صورة من الصوَر البلاغيّة التي يذكرها علماء البلاغة، بل لا بدّ من ملاحظة غرض فكريّ بياني تؤدّيه هذه الصورة المختارة. إنّ نسبة الجمال في الكلام ترتقي جداً حينما ندرك أن الأديب قد اختار الصورة البلاغيّة التي أوردّها في كلامه لغرض فكريّ زائد على مجرد اختيار صورة جماليّة بلاغيّة يذكرها علماء البلاغة.

إنّ الصورة البلاغيّة مهما كانت جميلة في ذاتها تغدو كجسد بلا روح إذا كانت خالية من غرض فكريّ بياني تهدف إليه في البيان، باستثناء عناصر الجمال اللفظي أو الموسيقي، والزّيّنات التي لا تحتمل أداء غرض فكريّ بيانيّ.

ولدى بحث أيّ جانب بلاغي في كلام رفيع من كلام البلغاء ينبغي البحث لاستجلاء الغرض الفكري من الصورة البلاغيّة، فليس المهم مجرد الإشارة إلى الصورة البلاغيّة، إنّما المهم بعد ذلك هو استجلاء الغرض الفكري البياني من ورائها.

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿فَسَأَلَتْ أَوْدِيَةَ بِقَدْرِهَا﴾ إِنَّ الصورة البلاغية في هذا النَّصّ تتلخَّص بإسناد السيلان إلى الوادي، مع أنّ المراد سيلان الماء فيه. فهل انتهينا من البحث؟.

إنّ الذي يملك الحسّ الأدبي الرفيع يقول: لا. لأنّه يتساءل: ولماذا أسند السيلان إلى الوادي بدل إسناده إلى الماء؟ وما الدّاعي إلى ذلك وما هو الغرض منه؟.

وبالتأمّل يجد الجواب على تساؤله، إذ يرى أنّ الغرض الفكري البياني من هذا الإسناد هو إعطاء السامع أو القارئ صورة تُشعِرُ على سبيل التخيّل بأنّ الوادي يسيل فعلاً لكثرة تدفقّ الماء وارتفاع نسبته في جانبي الوادي.

وهذه الصورة قد تحدث في وهم الإنسان أو في تخيّلاته حينما يشاهد هدير الماء الكثير الذي يغمر قدراً كبيراً من الوادي.

فالتعبير إذن تصوير صادق لما يَجْرِي في التخيّل لدى مشاهدة الحدث المادي.

إذن ينبغي للأديب أن يراعي ذلك في كلامه، وعليه أن يلاحظ باستمرار أنّ كبار البلغاء حينما يعطفون في كلامهم عن مجراه إلى صُور بلاغية يختارونها إنّما يفعلون ذلك لأغراض فكريةً بيانيةً يهدفون إليها، ولا يكتفون باختيار الصُور البلاغية لمجرد أنّها صور بلاغية، وهذا ما يعطي كلامهم ارتقاءً أدبياً عظيماً، وجمالاً مكثفاً مضاعفاً.

* * *

تاسعاً — الجمع بين الأشياء المتضادة:

وقد يكون من عناصر الجمال الأدبي في الكلام الجمع بين الأشياء المتضادة في صورة كلامية متناسقة.

وذلك لأنَّ الأضداد سريعة التخاطر في الأذهان، فأيرادها قد يُحدِّث ارتياحاً جماليّاً في النَّفس .

وفي الصُّور الحِسيّة مَشَاهِدٌ للتضاد أمثال ذلك، فمن المشاهد الحِسيّة الجميلة مشهد جبل أجرد إلى جانب وادٍ أخضر فيه جنّات ألفاف . ومشهد قصر راسخ ثابت البنيان ضمن عاصفة هوجاء تقتلع ما على الأرض من أشجار وأكواخ وأشياء كثيرة . ومشهد سفينة ثابتة كالطَّوْد في خِضَمِّ بحرٍ هائج وعاصفة بحريّة ثائرة . ومشهد وجه منير كالبدر ضمن شعر منساب كالليل .

والحسن الدِّوَاق للجمال يتحكّم بإدراك التناسق أو التنافر في الصورة التي تجمع بين المتضادات، إذ ليس كلُّ جمع بين المتضادات يُحدِّث هذا الارتياح النَّفسي .

فمثلاً: لا ترتاح النَّفوس لدى ذكر ما يثير تقزّزها ونفورها، وإن كان ذلك في مقابل ذكر ضده أو نقيضه، إنَّ ذكر المُخزّنات لدى ذكر المُفْرِحَات أمرٌ مستنكر تنفر منه الطباع، ما لم يكن عَرَضاً لمبادئ عامّة لها طابع التأمل الفلسفي، وإنَّ ذكر المستقدرات في مقابل ذكر الطَّيِّبات أمرٌ مستهجن تنفر منه النَّفوس ولا ترتاح له . وهكذا .

فمن أمثلة الكلام المزدان بعنصر الجمع بين الأضداد الذي يُحدث إعجاباً وارتياحاً في النَّفوس، ولا يُحدث نفوراً ولا انزعاجاً ولا تقزّزاً، ما يلي :

(١) قول الله تعالى في سورة (النجم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول):

﴿ وَأَنْتُمْ هُوَ أَضْحَكٌ وَأَبْتَكُمُ ﴿١٣﴾ وَأَنْتُمْ هُوَ أَمَاتٌ وَأَعْيَا ﴿١٤﴾ وَأَنْتُمْ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴿١٥﴾ مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى ﴿١٦﴾ ﴾ .

(٢) وقول الله تعالى في سورة (الحج/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول):

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَبِتَوَجُّعٍ كُلِّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ ﴿٣﴾ كَذِبَ عَلَيْهِ أَنْهٌ مِنْ قَوْلِهِ فَآنَهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٤﴾ ﴾ .

(٣) وقول الله تعالى في سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ ﴿٧﴾﴾ .

(٤) وقول الله تعالى في سورة (الأعلى/ ٨٧ مصحف/ ٨ نزول):

﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾ .

* * *

عاشراً — مسايرة المخاطب في تداعي أفكاره:

وقد يكون من عناصر الجمال الأدبي في الكلام مسايرة المخاطب في تداعي أفكاره، بالمقدار الذي يُحدِث الارتياح ولا يُورث الملل.

إنَّ ممَّا يُحدِثُ المسرَّةَ والارتياحَ في الكلام أن يُتَّابِعَ الأنفُسَ فيما تسترسل به من أفكار تداعي، وَيَجْلُبُ بعضها بعضاً، وَيُتَّسِكُ بعضها بأعناق بعض، بشرط عدم الاسترسال الممل. إنَّ المملَّ متى بدأ يدبَّ إلى النَّفس بالاسترسال مع أفكارها المتعانقة، كان قطع هذا الاسترسال والانتقال إلى عنصر المفاجأة هو الأرفع أدباً والأكثر تأثيراً، لأنَّه يقدِّم صورة جمالية جديدة، بشرط أن تكون المفاجأة حلوةً، لطرافتها أو غرابتها أو بُعد خطورها في الأذهان، أو غير ذلك.

وكثيراً ما يكون قطع الاسترسال وترك النَّفس لتستكمل بذاتها بقية العناصر هو الأجل لديها، والأحبِّ لمشاعرها.

والأديب ذو الحسِّ المرفه يستطيع أن يُدرك متى يحسن الاسترسال مع تداعي أفكار المخاطب أو القارئ، ومتى يحسن قطع الاسترسال، ومتى يحسن الانتقال لأمر مثير بالمفاجأة الحلوة المعجبة.

فمن أمثلة المسائرة الحلوة لتداعي الأفكار قول الله تعالى في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول):

﴿الْقُرْآنَ اللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّكَ اللَّهُ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ .

إن الحديث عن اختلاف الألوان في الثمرات يستدعي في الأفكار تصوّر اختلاف الألوان في الجبال، لأنها هي التي تبرز في اللوحة الفنية أولاً بعد النظر إلى الثمار في أشجارها، فيخطر اللون الأبيض منها على اختلاف درجاته، فالأحمر على اختلاف درجاته، ثمّ الأسود، ثمّ ينتقل الذهن بالتداعي الفكري إلى الألوان في الدوابّ والأنعام. هذا هو الأمر الغالب بالنسبة إلى واقع أحوال الناس.

ولا يخفى أنّ متابعة الأفكار في تداعياها الذاتي كثيراً ما يكون مريحاً للنفوس، ومُعجِباً لها، فهو إذن من عناصر الجمال الأدبي، إذا استوفى شروطه، وخلا من المنفّرات أو المزعجات، ولم يُطلّ حتى يُحدِث المَلَل والسَّام.

ومن الأمثلة أيضاً قول الله تعالى في سورة (الغاشية/ ٨٨ مصحف/ ٦٨ نزول):

﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١١﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٢﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٣﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢١﴾﴾ .

ففي هذه الآيات تصوير للوحة فنية متحرّكة، تبدو بالتتابع كما هي في النَّص، بالنسبة إلى الناظر الجالس في الصحراء، إذا مرّت بعيداً عنه قافلة من الإبل.

إنّ أوّل ما يلفت نظره لدى مشاهدة هذه اللوحة من مشاهد الطبيعة، أنّ يتركز انتباهه في مشاهدة قافلة الإبل، وتكون القافلة بالنسبة إليه هي بؤرة المشهد، لأنها

هي المتحرك الأسر الجالب للانتباه، وتلقائياً ينتقل نظره بعد ذلك إلى الأفق، من مستوى نظره إلى أسنمة الجمال إلى الأفق، حتى إذا ملأ نظره من الأفق نزل ليرى الجبال من بعيد، ثم بعد ذلك ينخفض نظره ليركز انتباهه في مشاهدة الأرض المنسطة.

وعلى وفق هذا المشهد الذي يتكرر لدى كثير من سكان الصحراء في خيامهم ولدى عابريها جرى تصوير الصورة الكلامية، وقد وافق التسلسل فيها التسلسل الذي يحدث غالباً عند الناس، لدى مشاهداتهم لمثل هذه اللوحة في الصحراء. وهذا من عناصر الجمال الفني لا محالة.

* * *

حادي عشر — نقل الأسماء أو الصفات من مواضعها الطبيعية وإضافتها على غيرها:

● قد يكون من عناصر الجمال الأدبي في الكلام نقل الأسماء أو الصفات من مواضعها الاصطلاحية أو الطبيعية وإضافتها على غيرها، لوجود ما يستدعي في التخيل هذا النقل، وإن لم يكن في الواقع كذلك.

فمن ذلك نقل صفة الحال في الشيء وإضافتها على ذلك الشيء كقولنا: «جرى النهر» مع أن الجريان هو للماء في النهر، ولكن التخيل ربما أحسن لدى مشاهدة جريان الماء في النهر أن النهر يجري أيضاً مع الماء.

ومن بديع هذا النقل قول الشاعر:

وَسَأَلْتُ بِأَعْنَاقِ الْمَطِيِّ الْأَبَاطِحُ

فقد أضفى صفة السيلان على الأباطح، وهي لما يمرّ فيها، بعد أن أضفاها على أعناق المطي وهي للماء، لأن التخيل يلحظ صفة سيلان الماء حينما يشاهد أعناق الإبل تتموج وهي تسير على الأباطح.

ومن بديع هذا التَّقل أيضاً قول الله تعالى: ﴿فَسَأَلَتْ أَوْدِيَةَ بِقَدَرِهَا﴾ فيه إضفاء السيلان على الأودية، وهي لماء السيول فيها، لأنَّ الأودية حينما تسيل فيها السيول العارمة تُوقِعُ في خيال المُشَاهِدِ المندهِش أنَّ الأودية والجبال أنفُسُهَا تسيل مع حركة المياه الجارفة فيها.

ومن بديع هذا التَّقل أيضاً قول الرسول ﷺ:

«وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ».

فيه إضفاء صفة التبطيء على العمل، وهي في الأصل صفة للكسل أو التقصير في العمل، ولكنَّ التخيُّل إذا رأى العامل المقصِّر الكسول تصوّر أنَّ عمله هو الذي بَطَّأَ بِهِ، إذ العمل هو الحركة المشهودة، أمَّا الكسل أو التقصير فهما لا يُشَاهِدَانِ نظراً، وإنَّمَا يُدْرِكَانِ فكراً. وفيه إضفاء صفة الإسراع أو عدمه على النَّسَبِ! لأنَّ النَّاسَ يتخيَّلون أنَّ من لم يتلَّ السبق بعمله ربَّما ناله بنسبه، فيُعْطَى ذو النَّسَبِ الكريم مَنزِلَ السبق لمجرد نسبه.

ويدخل في هذا العنصر نقل صفة الحيِّ وإضفاؤها على الذي لا حياة له، ونقل صفة الذي لا حياة له وإضفاؤها على الحيِّ، لأنَّ التخيُّل يلاحظ في المنقول إليه لمحات من صفة المنقول منه، ومن هذا استنطاق الجماد الذي لا ينطق، ومخاطبته كأنَّه ناطق يتكلَّم.

والأمثلة على ذلك كثيرة في أبلغ الكلام، ومنها الأمثلة القرآنية التالية:

(١) قول الله تعالى في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول):

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾

(٢) وقول الله تعالى في سورة (فصلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول):

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا

طَائِعِينَ ﴿١١﴾﴾.

ففي هاتين الآيتين استنطاق الجماد ومخاطبته، وهذا من نقل صفة الحي وإضافتها على الذي لا حياة له .

(٣) وقول الله تعالى في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول) في سياق قصة موسى والخضر عليهما السلام:

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أُنِيَٰ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَمَّٰ أَهْلُهَا فَأَبَوْٓا أَنْ يُصَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَآقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٦٧﴾﴾ .

ففي هذا نقل صفة الإرادة التي هي للحي المرید، وإضافتها على الجدار الذي لا حياة له ولا إرادة، لأن صورة الجدار هذا تُحدث في تخيل الناظر إليه أنه كعجوز من الناس هَرِمَ، وهو يريد أن يستريح من قيامه ويسقط إلى الأرض انقضاضاً كانهضاض الطائر راکعاً أو ساجداً أو مستلقياً، فأعطاه صفة الإرادة وصفة انقضاض الطائر .

(٤) وقول الله تعالى بشأن المنافقين في سورة (المنافقون/ ٦٣ مصحف/ ١٠٤ نزول):

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنْهُمْ خُشْبٌ مِّنْ سِنْدَةٍ يُحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤١﴾﴾ .

ففي هذا النص نقل صفة الجامد الذي لا حياة له عن طريق التشبيه الصريح، وإضافتها على المنافقين الأحياء الجالسين المستندين إلى جدار مجلس الرسول بأجسامهم المهيبة، لأن حالتهم النفسية المنصرفه كلياً عما يجري حولهم تُوقِعُ في التخيل أنهم بمثابة الخشب المستندة .

● وقد يكون نقل الصفة لغرض الإيجاز، أو الإيجاز مع التعميم، كنقل الصفة من أهل المكان إلى المكان، ومن أهل الزمان إلى الزمان، ومن أمثلة ذلك ما يلي:

(١) قول الله تعالى في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكٌ مُصَدِّقٌ لِّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا...﴾

[الآية ٩٢].

أي: لتنذر أهل هذا البلد ومن حولهم من أهل الأرض.

(٢) وقول الله تعالى في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول):

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾ [الآية ٣٦].

أي: وكم أهلكتنا قبلهم من أقوام في قرون مضت هم أشد منهم بطشاً.

(٣) وقول الله تعالى في سورة (يوسف/ ١٢ مصحف/ ٥٣ نزول) حكاية

لقول إخوة يوسف لأبيهم:

﴿وَسَأَلَ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾

أي: واسأل أهل القرية التي كنا فيها، وأصحاب العير التي أقبلنا فيها.

● من استعراض أمثلة هذا العنصر، والصُّور التي يمكن أن تدخل فيه، لا بد أن يظهر لنا أن ألواناً بلاغية كثيرة تدخل فيه، كأنواع التشبيه، والاستعارات، والمجاز العقلي، والمجاز المرسل، لأنها قائمة على نقل الأسماء أو الصفات من مواضعها، وإضافتها على غيرها، استناداً إلى أن خيال الأديب يَسْمَحُ له بهذا النقل، إما للشبه بين المنقول منه والمنقول إليه، أو للتجاور، أو للارتباط السببي، أو لغير ذلك.

ولا بد أن نعلم بأنه ليس كل نقل من هذا القبيل يقدم صورة جمالية تُزِين الكلام، وترفع قيمته الأدبية، بل لا بد مع ذلك من أن تكون الصورة نَفْسُهَا برئية مما يُشَوِّه جمال النقل، وأن يتضمّن النقل فكرة تثير الإعجاب والارتياح النَّفْسِي،

وأن يكون ذا هَدَفٍ بلاغي، فالأعمال اللفظية الشكلية الخالية من الأهداف البلاغية بمثابة رسوم ساكنة لا حياة فيها ولا حرارة.

* * *

ثاني عشر — البراعة في إبراز وتصوير الأحاسيس والمشاعر النفسية :
ومن عناصر الجمال الأدبي في الكلام البراعة في إبراز وتصوير الأحاسيس والمشاعر النفسية والأفكار. وقد تكون هذه البراعة بتقديم الفكرة من خلال نظير حسي، أو بالمبالغة في تصويرها، أو تصوير آثارها، أو غير ذلك.

أمثلة:

(١) قول الله تعالى بشأن المنافقين في سورة (المنافقون/ ٦٣ مصحف/
١٠٤ نزول):

﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ...﴾ [الآية ٤].

ففي هذا إبراز بارع جداً، وتصويرٌ بديع لحالة الدُّعر الشديد الذي يعانون منه في داخل أنفسهم، وقد دلّ على هذه الحقيقة المبالغة، لأن الخائف المدعور جداً قد يسمع صياح المُنجد له فيتصوره صياحاً ضده.

(٢) وقول الله تعالى في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) يصف حال
أناس داهمهم مطر شديد فيه ظلمات ورعد وبرق:

﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾.

ففي المبالغة بأنهم يجعلون أصابعهم في آذانهم إبرازٌ لصورة حالتهم النفسية، التي تدفعهم إلى سدّ مسامعهم بكلّ أصابعهم، فلو أنهم استطاعوا إدخال كلّ أصابعهم في آذانهم لفعلوا.

(٣) وقول الله تعالى في سورة (مريم/ ١٩ / مصحف/ ٤٤ / نزول) حكاية لقول زكريّا عليه السلام إذ نادى ربه نداءً خفياً:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤١﴾ ﴾

ففي تصوير تسارع انتشار الشيب في رأسه حتى عمّ الرأس بحالة الاشتعال الذي يسارع انتشاره في الهشيم، براءة تدلّ على الحالة التفسّية التي أخذ يعاني منها، والتي بدأت تكويه بنار اليأس التي أخذ لهبها ينتشر شيئاً في شعر رأسه.

(٤) وقول الله تعالى في سورة (القمر/ ٥٤ / مصحف/ ٣٧ / نزول):

﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّثَمَرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدٍ ﴿١٢﴾ قَدِرًا ﴿١٣﴾ ﴾

ففي هذا النصّ تصويرٌ بارع يُبرِزُ مشهدَ انصباب الماء من السماء، حتى كأنّ أبواباً فيها هي بمثابة سُدودٍ قد فتحت فانصبّ الماء المنحصر وراءها. ويُبرِزُ مشهدَ تفجّر الماء من مواضع لا تحصى من الأرض، حتّى لكانّ الناظر إلى الأرض يرى أنّها كلّها قد صارت عيوناً يتفجّر الماء منها تفجّراً، ليلتقي في بحرٍ طامٍ خِصَمٌ لا يُبقي ولا يذر.

ومن البراعة في إبراز وتصوير الأحاسيس والمشاعر التفسّية، والأفكار، تجسيدها في أمثلة حسيّة ماديّة، كتمثيل العلم بالنور، والجهل بالظلمات. وكتمثيل الكفر بالعمى، والإيمان بالبصر. وكتمثيل القرآن بقلب المؤمن في هدايته بمشكاة فيها مصباح، المصباح في زجاجة، الزجاجة كأنّها كوكب دري.

قال الله تعالى في سورة (النور/ ٢٤ / مصحف/ ١٠٢ / نزول):

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكُورٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُّبْرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ

تَمَسَّهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ .

ففي هذه الآية ضرب الله مثلاً لنور القرآن المعنوي بمصباح أرضي من صنع الناس، ذي نور صافٍ من آيةٍ شائبة، وهذا النور يتلألاً كالكوكب الدرّي، والقرآن بالنسبة إلى سائر كلام الله كقطرة من بحر، وكذلك نور المصباح بالنسبة إلى سائر ما خلق الله من نور في الكون الكبير.

ومن تجسيد المعاني والمشاعر والأحاسيس في أمثلة حسية مادية ما في الاستعارات التالية: إعصار الهوى. عبير الوجدان. برد اليقين. نار الحب. رياح العاطفة الشجية. حلاوة الإيمان... إلى غير ذلك من تعبيرات.

* * *

ثالث عشر — احترام فكر المخاطب وتقديره بترك استخدام الأسلوب المباشر:

وقد يكون من عناصر الجمال الأدبي في الكلام احترامُ فكر المخاطب وتقديره بترك استخدام الأسلوب المباشر، اعتماداً على أنه لَمَّا حُ تكفيه الإشارة الخفيفة والخفية، أو بترك الإطناب والشرح، واللجوء إلى الإيجاز والرمزية. ويدخل في هذا الكنايات، ورموز الأقوال، والتلميحات، والمعاريف، ونحو ذلك.

ولا ريب أن من احترام فكر المخاطب وتقديره الإيجاز له في الأشياء التي يمكن أن يفهمها بنفسه، إذا كان أهلاً لذلك، ويحسُنُ هذا الإيجاز جداً إلى حدّ الرمز في مواقف خاصّة، منها أن يتطلب الموقف إعلام المخاطب وحده، مع إخفاء الأمر عن حاضري مجلسه.

ومن روائع التلويح إلى المعاني بالإشارات التي لا تفهم إلاً بذكاء لَمَّا حُ،

استعمال لفظة الكفار المرادفة للفظة الزراع في قول الله تعالى في سورة (الحديد/ ٥٧ مصحف/ ٩٤ نزول):

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهَوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهْبِجُ فَتَرِبُهُ مُمْصِغًا ثُمَّ يُكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ الْعُرُورِ ﴿٢٦﴾﴾.

فقد استعملت هذه اللفظة «الكفار» المرادفة في معناها هنا للفظة «الزراع» بدل استعمال لفظة «الزراع» تلويحاً بأنّ مقابل الزراع في المثل هم الكفار في الممثل له، فالمعجبون بزينة الحياة الدنيا المغرورون بها هم الكفار، ويقابلهم في المثل الزراع الذين يعجبهم النبات إذا نزل عليه الغيث فاخضر وأنبت.

ولما كانت تطلق في اللغة لفظة «الكفار» على «الزراع» لأنهم بزراعهم يدفنون الحب في الأرض فيسترونه، والكفر في اللغة هو الستر، اختيرت لفظة «الكفار» هذه بالذات، لتدلّ على الزراع في مكانها التي استعملت فيه، ولتلوِّح بأنّ مقابلهم في الممثل له هم الكفار بيوم الدين.

وزيدنا ثقة بأنّ اختيار هذه اللفظة هنا كان مقصوداً، لتحمّل هذا التلويح الذي لا يتنبّه له إلاّ بذكاء لِمَاح اختيار كلمة «الزراع» في موقع آخر من القرآن، لأنّ ذلك الموقع لا حاجة فيه إلى مثل هذا التلويح، وهو ما جاء في وصف أصحاب محمد ﷺ في الإنجيل، كما روت لنا سورة (الفتح/ ٤٨ مصحف/ ١١١ نزول) إذ قال الله تعالى فيها:

﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَرُبْعٍ أَخْرَجَ شَطْرَهُمْ فَتَازَرَهُمْ فَاسْتَقَلَطُوا عَلَى سَوْقِهِمْ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الآية ٢٩].

فقد استعملت هنا لفظة «الزراع» لأنّ مقابلها في الممثل له ليسوا بكافرين، بخلاف «أعجب الكفار نباته».

* * *

رابع عشر — تقريب الصورة الغائبة بوضعها في صورة مشهودة النظير
أو متخيّلة :

ومن عناصر الجمال الأدبي في الكلام تقريب الصورة الغائبة، وذلك
بوضعها في صورة مشهودة النظير، أو في صورة متخيّلة في أذهان المخاطبين .

فمن تقريب الغائب بوضعه في صورة مشهودة النظير ما جاء في القرآن والسنة
من تمثيل أو تسمية لما في الدار الآخرة من أحوال وأحداث ومكونات .

ففي الصحيح عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال :

«لَيْسَ فِي الْجَنَّةِ مِمَّا فِي الدُّنْيَا إِلَّا الْأَسْمَاءُ» .

ومن تقريب الغائب بوضعه في صورة متخيّلة في أذهان المخاطبين، وصف
طلع شجرة الزقوم بأنه يُشْبِهُ رُؤُوسَ الشَّيَاطِينِ، وهو ما جاء في سورة (الصفات/
٣٧ مصحف / ٥٦ نزول) بقول الله عزَّ وجلَّ فيها :

﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿١١﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿١٢﴾ ﴾ .

طلّعها : أي ثمرها .

ففي أخيلة الناس صورةٌ بشعةٌ مرعبة لرؤوس الشياطين، فجاء تقريب صورة
طلع هذه الشجرة الخبيثة، بأنه يشبه أشبع وأقبح صورة تتخيلونها، وهي رؤوس
الشياطين .

* * *

خامس عشر — الإلتقان في إبراز دقائق الصورة :

ومن عناصر الجمال الأدبي في الكلام الإلتقان في إبراز دقائق الصورة، مادّيّة
كانت أو غير مادّيّة، وذلك لدى رسمها في الصورة الكلاميّة، مع استيفاء العناصر
اللازمة لإبراز الحقيقة بشكل جميل وواضح .

ويزيد الصورة جمالاً ترك جوانب فيها يتابعها الفكر وحده، ويستكملها الخيال بنفسه، مع إيجاد المنافذ أو الإشارات التي يُمكنُ الانطلاق منها إلى هذه الجوانب المتروكة، كالرمز، والإشارة الخفية، وما يستتبعه الكلام باللزوم الذهني، وغير ذلك.

ونلاحظ هذا العنصر الجمالي في قول الله تعالى في سورة (النور/ ٢٤ مصحف/

١٠٢ نزول):

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوهُمْ كَسْرَابٍ بِقَيْعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَلِيًّا إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُمْ فَوْقَهُمْ حِسَابًا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٦﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرُهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴿٤١﴾ ۞ .

القيعة: كالقاع وهو ما استوى من الأرض.

لُجِّيٌّ: أي عظيم عميق.

وفي قوله تعالى عقب النص السابق بايتين:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُمْ يَمْجَعُهُمْ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقُهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ ﴿٤٢﴾ ۞ .

يُرْزُقِي: يسوق برفق.

رُكَامًا: أي: بعضه فوق بعض.

الْوَدْقُ: المطر.

سَنَا: ضوء.

ألسنا نلاحظ في هذه الأمثلة الثلاثة إتقاناً عجبياً في إبراز دقائق الصورة، مع استيفاء العناصر اللازمة لإبراز الحقيقة بشكل واضح وجميل، ومع ترك جوانب في الصورة يتابعها الفكر وحده، ويستكملها الخيال بنفسه.

فالصورة في المثال الأوّل قدّمت أعمال الكافرين على شكل سراب، يراه الظمآن السائر في الصحراء وهو بعيد عنه ماءً، فيسعى إليه ليشرب من مائه، ويُظفَى ظمأه، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً، لأنّه كان انعكاس أشعةٍ تُخيّل للناظر إليه من بعيد أنّه ماء .

وكذلك حال الكافر الذي يقَدِّم أعمالاً يَظُنُّ أنّها تُسعدُه في دنياه، أو تنفعه في آخرته، وما هي في الحقيقة إلاّ بمثابة سراب، وهو إذا وصل إلى موطن المحاسبة والجزاء على الأعمال، لم يجد أعماله شيئاً، لأنّها لم تكن ثمرة إيمان بالله واليوم الآخر، بل وجد الله عنده هو الذي له الحكم والأمر، وبيده الحساب والجزاء، فوفاه حسابَه بعدله وحكمته، فحاسبه على كفره، فسقط بالمحاسبة على الكفر كلّ عمل صالح كان قد عمله، لأنّه لم يكن قائماً على أساس مقبول عند الله .

والصورة في المثال الثاني صوّرت الحالة النفسيّة والفكريّة والقلبيّة للذين كفروا، بعد أن تركوا نور الهداية الربّانيّة، بحالة من هو في ظلماتٍ قاعٍ بحرٍ عميق، فوقه أمواج في العمق تزيد الظلمة، فوقها أمواج في السطح تضاعف الظلمة، فوقها سحب يزيد الظلام ظلاماً، ظلمات بعضها فوق بعض، إذا أخرج يده لم يقارب رؤيتها لشدّة الظلمة .

ومن كان كذلك فلا بدّ أن يسلك مسالك المهالك .

وكذلك حال الذين كفروا في أعمالهم، وفي تحديد الغاية من أعمالهم، وفيما يقرّرون من أسباب لذلك . إنّهم يطلبون سعادتهم في الظلمات، فقلوبهم مظلمة بالكفر، ونفوسهم تائهة في بحرٍ لُجّيٍّ من ظلمات الأهواء والشهوات، وأفكارهم تسبح في ظلمات أسباب لذات الحياة الدنيا، وإراداتهم تتخبّط تحت كلّ هذه الظلمات .

والصورة في المثال الثالث رسمت حركة السُّحب الخفيفة الموزَّعة، وكيفية سوقها الرفيق، ثم رسمت التآليف بينها وتجميعها، حتَّى تُغَطِّي ما فوقها من سماء، ثم رسمت تكديس بعضها على بعض حتى تتراكم وتكون كالجبال القائمة بين السماء والأرض.

ثم انتقلت الصورة إلى رسم خروج حَبَّات المطر من خلال السحاب المتراكم، وتركت للخيال سائر الظواهر التي تحدث، لِيتمَّها بنفسه من رعد وبرق ورياح.

ثم انتقلت إلى ظاهرة نزول البَرَد بدل المطر، وألمحت إلى أن السحاب المتراكم يكون في هذه الحالة بمثابة جبالٍ من بَرَد اجتمع بعضه إلى بعض، إذ قد جمَّدت البرودة وحدات مائيَّة فيها فكانت بَرَدًا.

ولمَّا كان المطر أقرب إلى أن يكون ظاهرة رحمة، والبَرَد أقرب إلى أن يكون ظاهرة عذاب مع احتمال خلاف ذلك في كل منهما، ربَّبت الآية على كُلِّ منهما قوله تعالى:

﴿فِيصِيبُ بِهِم مِّنْ سَيْئَةٍ وَيَصْرِفُهُمْ عَن مَّنْ سَاءَ﴾ . أي: رحمةً كان أو عذاباً.

ثم رسمت الصورة لمحة من ظاهرة البرق، فقال تعالى:

﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ .

فكم في هذه الأمثلة من إتقان في إبراز دقائق الصورة، مع استيفاء العناصر اللازمة لإبراز الحقيقة بشكل واضح وجميل، ومع ترك جوانب منها يستطيع الخيال أن يستكملها بنفسه دون عناء.

● ومن ترك ما يستكمله الفكر بنفسه في الكلام، ما نلاحظه في الأمثلة

القرآنيَّة التالية:

١ - قول الله تعالى في سورة (الرعد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول):

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَةٌ بِهِ الْمَوْتُ بَلِ اللَّهُ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ [الآية ٣١].

أي: لكان هذا القرآن. فقد ترك في هذه الآية جواب «لو» لأن المخاطب أو القارئ المتدبر سيستكمله بنفسه، إذ يعلم أن هذا القرآن العظيم هو أعظم كتاب أنزل، وقد اشتمل على كل فضائل الكتب السابقة.

٢ - وقول الله تعالى في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [٣٩].

أي: لو يعلمون ذلك ما كفروا. فقد ترك في الكلام جواب «لو» وبقي مكانه فارغاً، ليستكمله المخاطب أو القارئ المتدبر بنفسه.

ووصفهم بالكفر مع تلويهم عليه في السياق وترتيب صور العقاب عليه يومئ إلى ما يملأ هذا الفراغ في الكلام بالجواب المناسب.

٣ - وقول الله تعالى في سورة (الرعد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول):

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ...﴾ [الآية ٣٣].

أي: أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت كشركا لهم الذين لا يستطيعون أن يدفعوا عن أنفسهم ضرراً، أو يجلبوا لأنفسهم نفعاً!

فقد ترك التصريح بهذا، وأبقي مكانه في النص فارغاً لأمرين:

الأول: ليستكمله المخاطب أو القارئ المتدبر بنفسه.

الثاني: لعدم استحقاق شركائهم الذكر والمقارنة بالله الخالق الحكيم، الذي هو قائم على كل نفس بما كسبت.

* * *

سادس عشر — لفت النظر إلى معانٍ دقيقة لا يتنبه لها الذهن العادي من أول وهلة:

ومن عناصر الجمال الأدبي في الكلام لفت النظر إلى معانٍ دقيقة لا يتنبه لها الذهن العادي من أول وهلة، لكنه إذا لفت نظره إليها، أو انتبه لها بنفسه أُعجب بها، وربما أحس أنه امتلك أمراً طريفاً لم يكن يخطر على باله. ومن أمثلة هذا قول الرسول ﷺ في الحديث الصحيح:

«ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه».

وقوله ﷺ في الحديث الصحيح:

«لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ».

وقوله ﷺ في الحديث الصحيح:

«أَنْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا» قيل: كيف أنصره ظالماً؟ قال: «تَحْجُزُهُ عَنِ الظُّلْمِ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ».

فنبه الرسول ﷺ في هذه الأقوال على أفكار طريفة قلما يتنبه لها الذهن العادي، وقلما تخطر على البال، لا سيما ما جاء في بيان نصر الظالم، فمن المشير للاستغراب دعوة الرسول ﷺ إلى نصرة إخواننا الظالمين، لكن من المريح والمشير للإعجاب تفسير ذلك بحجزهم عن الظلم، وكفهم عن ممارسته والقيام به، لئلا يوقعهم في المهالك.

ومن الأمثلة أيضاً قول المتنبي:

يَا مَنْ يَعِزُّ عَلَيْنَا أَنْ نُفَارِقَهُمْ
وَجَدَانَا كُلَّ شَيْءٍ بَعْدَهُمْ عَدَمٌ

إن صدر هذا البيت يشتمل على معنى مبذول، يتداوله الناس، وتستعمله
الخاصة والعامة.

لكن لما جاء عجز البيت: «وَجَدَانَا كُلَّ شَيْءٍ بَعْدَهُمْ عَدَمٌ». ارتقى الكلام
ارتقاءً عالياً، إذ جعل حيازته لكل شيء بعد مفارقة ممدوحه عدماً أو بمثابة العدم،
وهذا معنى دقيق قلماً يخطر على البال، فَنُدْرَةُ خُطُورِهِ على البال لدى معظم الناس
أغلى قيمته الأدبية.

ونظير ذلك قوله في القصيدة نفسها:

إِنْ كَانَ سَرَكُمُو مَا قَالَ حَاسِدُنَا فَمَا لِيُجْرِحَ إِذَا أَرْضَاكُمُو أَلَمٌ

فالفكرة التي تتبادر إلى كل الأذهان، أن يقول المحبّ للمحبوبه: إنني أصبر
على ألم الجرح الذي يَسْرُكُ، لأنها هي التي تعبر عن واقع حال معظم المحبين
الصادقين في حبهم، لكن فكرة انعدام وجود الألم كلياً، بتأثير سرور المحبّ بما
يُسْرُ به محبوبه فكرة تَقِلُّ خطوراً على البال، لأنها نادرة الوجود في الواقع،
فاكتسب النصّ بذلك إضافة جمالية أغلى قيمته الأدبية.

* * *

سابع عشر — تصوير الواقع بالصورة المتخيّلة منه لدى مشاهدته:
ومن عناصر الجمال الأدبي في الكلام تصوّر الواقع بالصورة المتخيّلة منه
لدى مشاهدته، ولو في بعض الأحيان، أو في بعض اللّمحات.
ففي هذا التصوير عنصر المبالغة الخيالية في الدلالة على الحقيقة.

وفيه أيضاً التأثير النفسي على السامع أو القارئ، إذ يُرْسَمُ له في التعبير
الكلامي مثل ما أحسّ هو به، دون أن يُعبّر عنه، أو دون أن يستطيع التعبير عنه،
أو جاء أمر طريف حلواً كان غافلاً عنه، فلما نبّه عليه أعجبه فتمثّل له في الخيال،
ورأى أنّه كان ينبغي له أن يتخيّله.

وأستطيع أن أمثل لهذا العنصر بما يلي:

(١) بقول الله تعالى في سورة (الرعد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول):

﴿... فَسَأَلَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا...﴾

(٢) ويقول الشاعر:

«وَسَأَلَتْ بِأَعْنَاقِ الْمَطِيِّ الْأَبَاطِحُ».

(٣) ويقول الله لنوح عليه السلام في شأن ولده الذي أبى أن يركب معه في

السفينة، كما قصَّ تعالى علينا في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿... إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ...﴾ [الآية ٤٦].

فالصورة التي قد تتركز في الخيال لدى مشاهدة إنسان ليس له عمل صالح،

أنه كتلة من عمل غير صالح، وتنعدم الذات وسائر أعمالها، ولا يبقى في التَّخَيُّلِ إلا صورة العمل غير الصالح ومن كان كذلك فهو لا يستحق الشفقة عليه.

(٤) ويقول الله تعالى في سورة (الحج/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول):

﴿... وَرَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ

نَوْعٍ بَهِيمٍ ﴿٦٥﴾

هامدة: أي ميّنة يابسة.

رَبَّتْ: أي نمت وانتفخت.

بَهِيمٍ: أي حسن يسر الناظرين.

ففي هذا النص أسند الاهتزاز إلى الأرض مع أنه للنبات، لأن الناظر إلى

الأرض المنبته إذا مرّت عليها الرياح فهزّت نباتها، قد يتخيّل أن الأرض هي التي تهتزّ، مع أن المهتزّ هو ما نبت فيها، وربّما فوقها.

وكذلك «رَبَّتْ» أي ربا النبات فيها.

* * *

ثامن عشر — حُسْنُ تركيب الجمل وانتقاء المفردات ذوات الدلالات الأدق:

ومن عناصر الجمال الأدبي في الكلام حُسْنُ تركيب الجمل، بتنظيم مفرداتها على وفق نَسَقٍ متلائم لا تنافر فيه ولا تشاكس، كتنظيم حَبَاتِ عقد اللؤلؤ من قبل منظم ماهر، وكتنظيم الجواهر على حلية نفيسة، من قبل صائغ بارع، مع العناية بالتزام أصول دلالات التراكيب التي نبّه عليها علماء المعاني.

وكذلك انتقاء المفردات الجميلة التي تحمل أقوى وأحلى وأدق دلالة على المعنى المراد، مع توافر عنصر الملاءمة بينها وبين مضمون الكلام بوجه عام، وحال المخاطبين به.

والقرآن الكريم كله هو النموذج الأعلى لذلك، ثم روائع أقوال الرسول ﷺ، ثم من بعد ذلك كلام كبار البلغاء والفصحاء.

* * *

تاسع عشر — احترام المخاطب بالتأدب معه ورعاية مشاعره:

ومن عناصر الجمال الأدبي في الكلام احترامُ المخاطب بالتأدب معه، ورعاية مشاعره، وذلك بالابتعاد عما يشمئز منه، وبعدم مواجهته بالألفاظ الصريحة الدالة على المستقذرات، أو المعاني التي يَجْمَلُ التستر بها مع أنها معلومة.

والأديب ذو الحس المرهف يُلقِي على المعاني التي لا يجمل التصريح بها سِتْرًا كلاميًا، إذ يدلُّ عليها بالكنائيات والإشارات والتلميحات ومعاريض الألفاظ.

ومن أمثلة ذلك ما يلي:

(١) قول الله تعالى في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿وَأَن كُنْتُمْ مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا غَفُورًا ﴿٤٣﴾﴾ .

من الغائط: أي من المكان المنخفض الذي يذهب إليه عادة من يريد قضاء حاجة الإنسان، والتعبير بقوله تعالى:

﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ﴾ . فيه كناية عن قضاء الحاجة الناقضة للوضوء .

أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ: فيه كناية عن الجماع وهو عمل يجب ستره وإن كان مباحاً، فَحَسُنَ في الكلام ستره بالكناية .

(٢) ما حُكي عن أم المؤمنين عائشة عن حالها مع الرسول في عدم النَّظَر إلى العورات: «ما رأيت منه ولا رأى مِنِّي» تعني العورة المغلظة^(١) .

* * *

عشرون — تخصيص بعض المترادفات بما فيه خَيْرٌ وبعضها بما فيه شرّ:

ومن عناصر الجمال الأدبيّ في الكلام تخصيص بعض المترادفات ذات الدلالة اللغوية العامة بما فيه خير ورحمة، وتخصيص بعضها الآخر بما فيه شرّ وعذاب .

وهذا من الأدب القرآني الرفيع، ومنه ما يلي:

(١) قول الله تعالى في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

(١) ما أعلم أنّ المحكيّ ثابت برواية صحيحة .

﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ .

ففي جانب الشفاعة الحسنة استعملت كلمة «نصيب» وفي جانب الشفاعة السيئة استعملت كلمة «كفل» مع أن الكفل والنصيب مترادفان في اللغة، ويستعملان في الخير والشر، والرحمة والعذاب، ولكن تباين النصيبين في الحقيقة اقتضى في أدب اللفظ التغاير في الكلمات الدالات على المراد ضمن النص الواحد.

فالتغيير هنا جاء بتغيير اللفظة كلها مادة وصيغة.

(٢) وقول الله تعالى في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ . . .﴾ [الآية

. [٢٨٦].

فاختار النص كلمة «كَسَبَتْ» لجانب العمل الصالح، واختار كلمة «اكتسبت» لجانب العمل السيئ، مع أن كلا من اللفظين يستعمل في كل من المعنيين، ولكن لما اجتمع المعنيان في نص واحد مفرقين في موضعين منه، دعا الجمال الأدبي أن يوجد تفريق في اللفظين، ولو في الصيغة فقط مع اتحاد المادة الكلمة. يضاف إلى ذلك ما في كلمة (اكتسب) من معنى التكلف الذي يناسب حمل الوزر.

وفي آيات أخرى اجتمع المعنيان، ولكن غير مفرقين في موضعين من النص، أو انفرد كل منهما في النص بنفسه، فجاء التعبير تارة بكسب في العمل الصالح والعمل السيئ، أو في أحدهما، وتارة بـ «اكتسب» فيهما أيضاً أو في أحدهما.

والمتدبر للقرآن عندئذ لا يلاحظ في صيغة «اكتسبت» أكثر من زيادة معنى التكلف، وأن العمل قد كان فيه عطاءً يزيد على العطاء في العمل العادي.

(٣) ومن ذلك ما جاء في القرآن من تخصيص لفظة «الريح» غالباً في التي تأتي بعذاب وهلاك. وتخصيص لفظة «الرياح» في التي تأتي بنعمة ورزق وخير. فالتفريق هنا جاء بتغيير اللفظة بين الإفراد والجمع، ومنه قول الله تعالى في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ [الآية ٥٧].

وقوله تعالى في سورة (الأحقاف/ ٤٦ مصحف/ ٦٦ نزول):

﴿ ... بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

وقد يكون للريح الواحدة أثر في التدمير والعذاب، بحسب تواترها وشدتها، أما التي تأتي بُشْرًا بين يدي رحمة الله، فإنها قد تكون أنواعاً من الرياح تحمل الخير ويدفع الله شرَّ بعضها ببعض. أو نقول: اختار الله عزَّ وجلَّ لفظ الجمع «الرياح» للتي تأتي بنعمة ورزق وخير لأنها هي الأعظم والأكثر في واقع الحال، إذ رحمته سبحانه سبقت غضبه، واختار لفظ المفرد «الريح» للتي تأتي بعذاب، لأنها هي الأقل في واقع الحال، فدلَّ على الكثرة بالجمع وعلى القلة بالإفراد. والله أعلم.



الفصل الثاني

الفصاحة

الفصاحة في اللغة :

الفصاحة عند أهل اللغة: البيان، والإفصاح: الإبانة. يقال لغة: فَصَحَ الرَّجُلُ فَصَاحَةً فَهُوَ فَصِيحٌ، إِذَا كَانَ فِي كَلَامِهِ قَادِرًا عَلَى أَنْ يُبَيِّنَ مُرَادَهُ بِوَضُوحٍ دُونَ عَجْزٍ، وَلَا تَلَكُّوْ، أَوْ تَعَثُّرٍ، فِي نُطْقِ الْأَلْفَاظِ، أَوْ فِي اخْتِيَارِ الْكَلِمَاتِ الدَّلَالِيَةِ عَلَى مَا يُرِيدُ إِضَاحَهُ مِنَ الْمَعَانِي لِلْمُتَلَقِّينَ .

وَيُجْمَعُ «فَصِيحٌ» عَلَى فَصَحَاءَ، وَفِصَاحٍ وَفُصْحٍ. وَالْأُنْثَى فَصِيحَةٌ، وَهُنَّ فَصَائِحٌ.

ويقال: كَلَامٌ فَصِيحٌ، إِذَا كَانَ الْمُرَادُ مِنْهُ بَيِّنًا وَاضِحًا.

ويقال: لِسَانٌ فَصِيحٌ، إِذَا كَانَ طَلْقًا فِي نُطْقِ الْكَلَامِ مُبَيِّنًا لَا يَتَعَثَّرُ.

والرجلُ الفصيحُ هو المنطلق اللسان في القولِ، الَّذِي يَعْرِفُ جَيِّدَ الْكَلَامِ مِنْ رَدِيئِهِ.

ويقال: أَفْصَحَ الصُّبْحُ إِذَا بَدَأَ ضَوْؤُهُ وَاسْتَبَانَ. وَأَفْصَحَ الْمُتَحَدِّثُ عَنْ مُرَادِهِ إِذَا بَيَّنَّهُ وَلَمْ يُجْمَعْ.

وَكُلُّ مَا وَضَحَ فَقَدْ أَفْصَحَ، وَكُلُّ وَاضِحٍ هُوَ مُفْصِحٌ.

وَفْصَحَ اللَّبَنُ إِذَا أُزِيلَتِ الرَّغْوَةُ مِنْ سَطْحِهِ فَبَانَ وَظَهَرَ.

الفصاحة في اصطلاح علماء البلاغة :

ذكر علماء البلاغة أن الفصاحة تأتي وصفاً للكلمة الواحدة، ووصفاً للكلام، ووصفاً للمتكلم، فيقال: كلمةٌ فصيحة، وكلامٌ فصيحٌ، ومتكلمٌ فصيح.

* * *

فصاحة الكلمة

أما الكلمة الفصيحة: فهي الكلمة العربية التي تَخْلُو من أربعة عيوب وهي: التنافر، والغرابة، ومُخَالَفة القياس، وكراهة السَّمْع لها.

أولاً:

شرح العيب الأول: وهو تنافر حروف الكلمة. التنافر في الكلمة صفةٌ فيها تجعلها ثقيلة على اللسان، يصعبُ التُّطْقُ بها.

وهذا التنافرُ منه ما هو شديدٌ غايةً في الثقل، ومنه ما هو دون ذلك، ويحسُّ به الذوق السليم، ومن علامات التنافر في حروف الكلمة أن يصعبُ على معظم ألسنة الناطقين بالعربية التُّطْقُ بها.

ومن أمثلة ما هو شديد التنافر ما يلي:

● كلمة «صَهْصَلِق» يقال لغة: رَجُلٌ صَهْصَلِقُ الصَّوْتِ، إذا كان ذا صوتٍ شديد، ويقال: امرأةٌ صَهْصَلِقُ وصَهْصَلِق، أي: شديدة الصوتِ صَخَّابة.

● كلمة «طَسَاسِيج» جمع «طَسُوج» اسم للناحية، واسمٌ لمقدار من الوزن يعدلُ رُبْعَ دَانِقٍ، فالدَانِقُ أربعة طَسَاسِيج، وهو سُدُسُ الدَّرْهَمِ.

● كلمة «اطْرَغَشَّ» يقال: اطْرَغَشَّ المريضُ، إذا برىء من مرضه، وإذا قام وتحرك ومشى.

ومن أمثلة ما هو غير شديد التنافر ما يلي:

● كلمة «الثَّقَاح» يقال لغة: ماءٌ نُقَاحٌ، إذا كان ماءً عذباً.

● كلمة «مُسْتَشْرِزَات» بمعنى منفتلات، وقد جاءت في شعر امرئ القيس،

إذ قال:

وَفَرَعَ يَزِينُ الْمَتْنَ أَسْوَدَ فَاحِمٍ أَيِثِ كَفَنُوا النَّخْلَةَ الْمُتَعَنِكِلِ
عَدَائِرُهُ مُسْتَشْرِزَاتٌ إِلَى الْعَلَا تَضِلُّ الْمَدَارِي فِي مِثْنَى وَمُرْسَلِ

الْفَرْعُ: الشَّعْرُ الثَّامُّ الَّذِي لَا نَقْصَ فِيهِ. الْمَتْنُ: الظَّهْرُ. الْفَاحِمُ: الشَّدِيدُ السَّوَادُ. الْأَيِثُ: الْكَثِيرُ. كَفَنُوا النَّخْلَةَ: عَدَقُهَا بِمَا فِيهِ مِنَ الرُّطْبِ. الْمُتَعَنِكِلُ: الْكَثِيرُ الشَّمَارِيخِ، وَهِيَ الْعِيدَانُ الْحَامِلَةُ لِلثَّمْرِ. عَدَائِرُهُ: أَي: ذُؤَابَاتُهُ الْمَضْفُورَةُ، مُفْرَدُهَا غَدِيرَةٌ. مُسْتَشْرِزَاتٌ: أَي: مُنْفَتِلَاتٌ، يُقَالُ: اسْتَشْرَزَ الْجَبَلُ، إِذَا انْفَتَلَ. تَضِلُّ الْمَدَارِي: أَي: تَضِيغُ الْمَدَارِي، وَهِيَ جَمْعُ مِدْرَاةٍ، وَالْمِدْرَاةُ مَا يُعْمَلُ مِنْ حَدِيدٍ أَوْ خَشَبٍ عَلَى شَكْلِ سِنِّ مِنْ أَسْنَانِ الْمُشْطِ، وَأَطْوَلُ مِنْهُ، يُسْرَّحُ بِهَا الشَّعْرُ الْمُتَلَبِّدُ. وَالْمِثْنَى: الْمُنْعَطِفُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ. وَالْمُرْسَلُ: الْمَتْرُوكُ عَلَى طَبِيعَتِهِ دُونَ ضَنْفَرٍ وَلَا تَنْبِيَةٍ وَلَا تَجْعِيدٍ.

● كلمة «الْعَشَنْزَر» وهي بمعنى الشَّدِيدِ الْخَلْقِ الْعَظِيمِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَيُقَالُ:

ضَبِعُ عَشَنْزَرَةً، أَي: سَيِّئَةُ الْخَلْقِ.

● كلمة «الابْرَغَشَاشِ» بمعنى الْبُرِّ مِنَ الْمَرَضِ.

● كلمة «الْخَنْشَلِيلِ» بمعنى الْمُسِنَّ مِنَ النَّاسِ وَالْإِبِلِ، وَبِمَعْنَى الْجَيْدِ الضَّرْبِ

بِالسَّيْفِ.

* * *

ثانياً:

شرح العيب الثاني: «الغرابة» الغرابة في الكلمة كونها غير ظاهرة المعنى ولا

مألوفة الاستعمال عند فصحاء العرب، وبلغائهم، في شعرهم ونثرهم، لا عند

المولدين ومن بعدهم، فأكثر الكلام العربي الفصيح غريب عند غير فصحاء العرب وبلغائهم.

والغرابة إما أن تكون بسبب نُدرة استعمال الكلمة عند العرب، وإما أن تكون بسبب أن التوصل إلى المراد منها في الكلام يحتاج إلى تخريج مُتكلّف بعيد.

ومثّلوا للغريب النادر بما يلي:

- كلمة «مُسْحَنَفَرَة» بمعنى «متسعة».
- وكلمة «بُعَاق» بمعنى «مطر».
- وكلمة «جَرَدَحْل» بمعنى «الوادي».
- وفُلانٌ جَحِيشٌ وَحِدِه، أي: عَيْيُ الرَّأْيِ يَسْتَبِدُّ بِهِ، وهذا ذَمٌّ.
- وكلمة «مُشَمَخِرَة» إذا استعملت في الثَّوْر، وهي بمعنى «العالي».

ومثّلوا للغريب الذي يحتاج إلى تخريج مُتكلّف بعيد لمعرفة المقصود به، بقول رؤية بن العجاج يصفُ الأنفَ بكلمة «مُسْرَج» فقال ابنُ دُرَيْد: هو من قولهم للشيوف سُرَيْجِيَّة، أي: منسوبة إلى حدادٍ يُسَمَّى سُرَيْجاً، فهو يريد تشبيه الأنفِ في دَقَّتِه واستوائِه بالسَّيْفِ السُّرَيْجِي، وقال ابنُ سِيده، صاحبُ المحكم: هو من السُّرَاج، فهو يريد تشبيه الأنفِ في بريقه ولمعانه بالسُّرَاج.

أقول: ويكثر هذا التكلّف الممجوج عند كثير من الشعراء والكتاب المبتدئين، فلا يُعرَفُ المُراد من مفرداتهم، إلاّ بسؤالهم عن مقاصدهم منها.

* * *

ثالثاً:

شرح العيب الثالث: «مخالفة الكلمة للقياس» أي: سوقُ الكلمة مخالفةً للقياسِ النحويِّ أو الصّرفيِّ، ومن أمثلة ما هو مخالف للقياس في الكلمة فكُّ

الحرف المضعف في الكلمة التي يقتضي القياس فيها إدغامهما بحرفٍ مُشَدِّدٍ،
نحو:

● كلمة «الأجلل» والقياس أن يُقالَ فيها الأجلّ.

ومنه قول أبي النجم بن قدامة:

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْأَجَلِّ أَنْتَ مَلِكُ النَّاسِ رَبًّا فَاقْبَلِ

ومما هو مخالف للقياس جمع «فاعل» وصفاً لمذكر عاقل على «فواعل»

قالوا: ومنه استعمال الفرزدق نواكس جمعاً لناكس وصفاً لمذكر عاقل في قوله:

وَإِذَا الرَّجَالُ رَأَوْا يَزِيدَ رَأَيْتَهُمْ خُضَعَ الرَّقَابِ نَوَاكِسَ الْأَبْصَارِ

أقول: ما في شعر الفرزدق ليس مخالفاً للقياس، لأنه يريد أن يصف الأبصار

بالنواكس، أي: هي منكسرة ذليلة، لا أن يصف الذكور العقلاء، على أن جمع

ناكس على نواكس، مما استعمل شاذاً عن القياس عند العرب، كما قالوا في فارس

فوارس، وفي هالك هوالك.

ومما هو مخالف للقياس استعمال همزة القطع بدل همزة الوصل، واستعمال

همزة الوصل بدل همزة القطع، ويكثر مثل هذا في الشعر لمراعاة الوزن.

ومنه قول جميل:

أَلَا لَا أَرَى «إِثْنَيْنِ» أَحْسَنَ شِيمَةً عَلَى حَدَثَانِ الدَّهْرِ مِنِّي وَمِنْ جُمْلٍ

فقطع همزة «اثنين» مع أنها همزة وصل، وحدثان الدهر نوابه، وأراد بكلمة

«جُمْلٍ» فرسه أو جمله.

* * *

رابعاً: شرح العيب الرابع: «كون الكلمة مكروهة في السمع» أي: كونها

مموجة في الأسماع، تأنف منها الطباع، خشنة وحشية.

ومثلوا لهذا العيب، بنفور السمع عن كلمة «الجِرشى» بمَعْنَى «النفس» فعابوا على أبي الطيب المتبني استعمالها في قوله يمدح سيف الدولة:

مُبَارِكُ الاسْمِ أَعْرُ اللَّقْبِ كَرِيمُ الْجِرْشَى شَرِيفُ النَّسَبِ
كَرِيمُ الْجِرْشَى: أي: كريم النفس.

أقوال مأثورة اشتملت على مفرداتٍ غير فصيحةٍ لِعَيْبٍ ما فيها:

(١) كتب بعض أمراء بغداد رُفْعَةً طرحتها في المسجد الجامع حين مَرَضَتْ أُمُّهُ، جاءَ فيها:

«صَيْنَ امْرُؤٌ وَرُعي، دَعَا لِامْرَأَةٍ انْقَحَلَةَ مُقْسِنَتَهُ، فَقَدْ مُنِيَتْ بِأَكْلِ الطَّرْمُوخِ، فَأَصَابَهَا مِنْ أَجْلِهِ الاسْتِمْصَالُ، أَنْ يَمُنَّ اللَّهُ عَلَيْهَا بِالاطْرَغْشَاشِ وَالابْرَغْشَاشِ».

انْقَحَلَةَ: أي: مُسِنَةٌ هَرِمَةٌ يَبِسَ جِلْدُهَا وَسَاءَ حَالُهَا.

مُقْسِنَتَهُ: أي: كبيرة السن، ليس لها قدرة على الحركة.

الطَّرْمُوخُ: الخَفَّاشُ.

الاسْتِمْصَالُ: إسهال الطبيعة.

الاطْرَغْشَاشِ وَالابْرَغْشَاشِ: كلاهما بمعنى البرء من المرض.

(٢) جاء في خُطْبَةٍ لابنِ نُباتَةَ، يَذْكُرُ فِيهَا أَهْوَالَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، قَوْلُهُ:

«اقْمَطَرٌ وَبِالْهَاءِ، وَاشْمَخَرٌ نَكَالُهَا، فَمَا سَاعَتْ وَلَا طَابَتْ».

اقْمَطَرٌ وَبِالْهَاءِ: أي: اشْتَدَّ وَعَظُمَ ثِقَلُهَا.

وَاشْمَخَرٌ نَكَالُهَا: أي: اشْتَدَّ وَارْتَفَعَ وَعَظُمَ عِقَابُهَا.

فَمَا سَاعَتْ وَلَا طَابَتْ: أي: فَمَا سَهَّلَتْ وَلَا كَانَتْ طَيِّبَةً.

(٣) قال امرؤ القيس حين أدركته المنية، وكان قد ذهب إلى ملك الروم

يَسْتَنْجِدُهُ عَلَى قَتْلَةِ أَبِيهِ:

«رُبَّ جَفْنَةٍ مُتَعَنِّجِرَةٍ، وَطَعْنَةٍ مُسْحَنْفِرَةٍ، وَخُطْبَةٍ مُسْتَحْضِرَةٍ، وَقَصِيدَةٍ مُحْبِرَةٍ، تَبْقَى غَدًا بِأَنْقِرَةٍ».

رُبَّ جَفْنَةٍ مُتَعَنِّجِرَةٍ: أي: رُبَّ قِصْعَةٍ طَعَامٍ مَلَأَى.

وَطَعْنَةٍ مُسْحَنْفِرَةٍ: أي: وَرُبَّ طَعْنَةٍ بِرُمُحٍ فِي الْقِتَالِ وَاسِعَةٍ.

(٤) رُوِيَ أَنَّ أُمَّ الْهَيْثَمِ الْأَعْرَابِيَّةَ قَالَتْ لِأَبِي عُبَيْدَةَ الرَّائِيَةِ، حِينَ عَادَهَا فِي

عَلَّةٍ أَصَابَتْهَا:

«كُنْتُ وَخَمِي سِدْكَ، وَشَهَدْتُ مَادُبَةً، فَأَكَلْتُ جُبْجُبَةً مِنْ صَفِيفٍ هِلَعَةٍ،

فَاعْتَرَتْنِي زُلْخَةٌ».

فَقِيلَ لَهَا: أَيُّ شَيْءٍ تُقُولِينَ؟

قَالَتْ: أَوْ لِلنَّاسِ كَلَامَانِ، وَاللَّهِ مَا كَلَّمْتُكُمْ إِلَّا بِالْعَرَبِيِّ الْفَصِيحِ.

كُنْتُ وَخَمِي سِدْكَ: وَحَمَتِ الْحُبْلَى، إِذَا اشْتَهَتْ شَيْئًا عَلَى حَبْلِهَا، فَهِيَ

وَخَمِي. سِدْكَ: أَي: مُوَلَعَةٌ بِنَوْعِ طَعَامٍ لَوْحِمِهَا. وَشَهَدْتُ مَادُبَةً: الْمَادِبَةُ: الطَّعَامُ

الَّذِي يُصْنَعُ لِذَعْوَةٍ. جُبْجُبَةٌ: الْجُبْجُبَةُ: الْكَرْشُ يُجْعَلُ فِيهَا اللَّحْمُ الْمُقَطَّعُ، وَيُعْلَى

ثُمَّ يُقَدَّدُ. مِنْ صَفِيفٍ هِلَعَةٍ: الصَّفِيفُ: رِقَاتُ اللَّحْمِ تُشَوَّى. وَالهِلَعَةُ: الْأَثْنُ مِنْ

أَوْلَادِ الْمُعْزِ وَالْغَنَمِ. فَاعْتَرَتْنِي زُلْخَةٌ: الزُّلْخَةُ: دَاءٌ يَأْخُذُ فِي الظَّهْرِ وَالْجَنْبِ.

* * *

فصاحة الكلام

وَأَمَّا الْكَلَامُ الْفَصِيحُ: فَهُوَ عِنْدَ عُلَمَاءِ الْبَلَاغَةِ مَا كَانَ سَهْلَ اللَّفْظِ، وَاضِحَ

الْمَعْنَى، جَيِّدَ السَّبْكِ، مُتَلَامِ الْكَلِمَاتِ، فَصِيحَ الْمَفْرَدَاتِ، غَيْرَ مُسْتَكْرَهٍ وَلَا

مَنْجُوجٍ وَلَا مُتْكَلَّفٍ، وَلَا مُخَالَفٍ لِقَوَاعِدِ الْعَرَبِ فِي نَحْوِهَا وَصَرْفِهَا، وَغَيْرِ خَارِجٍ

عَنِ الْوَضْعِ الْعَرَبِيِّ فِي مَفْرَدَاتِهِ وَتَرَائِكِيهِ، وَلَيْسَ فِي كَلِمَاتِهِ تَنَافُرٌ، وَلَيْسَ فِيهِ تَعْقِيدٌ

لَفْظِيٌّ، وَلَا تَعْقِيدٌ مَعْنَوِيٌّ.

قالوا: ولا بُدُّ لكون الكلام فصيحاً من أن يكون خالياً من أربعة عيوب، مع شرط فصاحة مفرداته، وهي:

العيبُ الأول: تنافر الكلمات عند اجتماعها، ولو كانت مفرداتها فصيحة.

العيبُ الثاني: ضعف التأليف.

العيبُ الثالث: التعقيد اللفظي.

العيبُ الرابع: التعقيد المعنوي.

أولاً:

شرح العيب الأول: «تنافر الكلمات عند اجتماعها» وهو وصفٌ يعرض للكلام من جزاء اجتماع كلماتٍ فيه تجعل التُّنْقُ بها ثقيلاً ممجوجاً حال اجتماعها، مع كون كلِّ كلمةٍ منها ليّنة سهلة النطق بها.

ويُحسُّ بهذا الثقل الممجوج أصحابُ الذوق السليم في نطق الكلام العربي، ومن علامات التنافر في الكلام أن يَصْعُبَ على معظم ألسنة الناطقين بالعربية التُّنْقُ به.

الأمثلة:

(١) من الأمثلة التي ذكروا أنّ فيها هذا العيب بشدّة، ما أورده عمرو بن بحر الجاحظ من شعر بشأن قَبْرِ حَرْبِ بن أميّة بن عبد شمس:

وَقَبْرُ حَرْبٍ بِمَكَانٍ قَفْرٌ وَلَيْسَ قُرْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرٌ

رُفِعَ لفظ «قفر» مع أنه نعتٌ للفظ «مكان» لضرورة الشعر، وخرّجوه على أنه من قبيل الصفة المقطوعة عن موصوفها.

وقد جاء الثقل من تكرار الراء والباء في البيت.

(٢) ومن الأمثلة التي ذكروا أنّ فيها هذا العيب دون شدّة، قولُ أبي تمام:

كَرِيمٌ مَتَى أَمَدَحَهُ أَمَدَحُهُ وَالْوَرَى مَعِي وَإِذَا مَا لُمْتُهُ لُمْتُهُ وَحَدِي

وقد جاء ثِقَلُهُ من تكرير لفظ «أَمَدَحُهُ» بما فيه من حاء وهاء .

وكذلك قول أبي الطيب المتنبّي:

أَتْرَاهَا لِكثْرَةِ الْعُشَّاقِ تَحَسَّبُ الدَّمْعَ خِلْقَةً فِي الْمَاقِي
كَيْفَ تَرْتِي الَّتِي تَرَى كُلَّ جَفْنٍ رَاءَهَا غَيْرَ جَفْنِهَا غَيْرَ رَاقِي

«راءها» أي: رآها، قَدَّمَ وَأَخَّرَ لضرورة الشعر .

«راقِي»: اسم فاعل من رَقَا الدَّمْعُ إِذَا انْقَطَعَ .

ومعنى البيت الثاني: كيف تَرَحَّمْ هَذِهِ الْمَعْشُوقَةُ عَاشِقَهَا وَهِيَ تَرَى كُلَّ الْأَجْفَانِ بَاكِئَةٍ غَيْرِ جَفْنِهَا، فَتَحَسَّبُ أَنَّ الْعَيُونَ تَدْرِفُ الدَّمْعَ بِالْخِلْقَةِ لَا مِنَ الْعَشَقِ، لِذَلِكَ فَلَا تُسْتَثَارُ فِيهَا الرَّحْمَةُ عَلَى الْعَشَّاقِ .

وفي هذا البيت مع عيب الضرورة عيب تكرير الجيم والراء في كثير من كلماته، الأمر الذي أكسبه بعض الثقل .

(٣) ومن الأمثلة التي ذكروا فيها عيب التنافر في الكلام، أو ثِقَلِ التُّطْقِي بِهِ، أَوْ مَجَّ الدَّوْقِ لَهُ، قول عبد السّلام بْنِ رُغْبَانَ المعروف بِدِيكِ الْجَنِّ:

أُحِلُّ وَأَمْرُزُ وَضُرٌّ وَانْفَعٌ وَلِنٌ وَآخِشَنٌ وَأَبْرُزُ ثُمَّ انْتَدَبَ لِلْمَعَالِي .

وعِلَّتْهُ تَكَرُّرُ أَفْعَالِ الْأَمْرِ فِيهِ .

وأشدّ من هذا قول أبي الطيب المتنبّي إِذْ جَمَعَ أَفْعَالَ أَمْرٍ دُونَ عَاطِفٍ بَيْنَهَا، مِنْ قَصِيدَةِ يَمْدَحُ فِيهَا سَيْفِ الدَّوْلَةِ:

أَقْلُ أَنْبُلٍ أَقْطَعِ أَحْمِلَ عَلَّ سَلِّ أَعْدُ زِدْ هِشَّ بِشَّ تَفَضَّلْ أَدْنِ سُرِّ صِلِ

دفعه إلى هذا ولَعُهُ بِالْإِغْرَابِ وَالْإِبْدَاعِ .

أَقْلُ: فعل أمرٍ من الإِقَالَةِ. أَنْلُ: من الإِنَالَةِ وهي العطاء. أَقْطَعُ: من الإِقْطَاعِ بِمَنْحِ الأَرْضِ. أَحْمِلُ: من قولهم: حملتهُ على فَرَسٍ. عَلٌّ: من التَّعْلِيَةِ والرَّفْعِ. سَلٌّ: من التَّسْلِيَةِ والترويحِ عن النفس. أَعِدُّ: من الإِعَادَةِ، أي: في العَطَاءِ. زِدُّ: من الزيادة في العطاء الثاني. هَشٌّ: من قولهم: هَشَّشْتُ إلى كذا أَهْشُ. بِشٌّ: من البشاشة وهي طلاقة الوجه. تَفَضَّلُ: من الإِفْضَالِ وهو عطاء الفضل. أَدْنِ: من الإِدْناء وهو التقريب. سُرٌّ: أي: افعلْ ما يَسُرُّ. صِلِ: من الصَّلَةِ، وهي العطيَّة.

وهذا أشبهُ بمنظوماتِ مُتَوْنِ العِلْمِ، وعلتهُ تَكَرُّرُ أفعالٍ فيه دون حرف عطف بينها، فزاده ثقلاً.

(٤) ومن الأمثلة أيضاً، قول أبي الطيب المتنبي، في قصيدة يمدح فيها عبیدَ الله بنِ خراسان الطرابلسي:

دَانٍ بَعِيدٍ مُحِبِّ مُبْغِضٍ بِهَجِّ أَغْرَ حُلُوِّ مُمِرٍّ لَيْنِ شَرِسِ
شَرِسٍ: الشَّرْسُ في اللُّغَةِ العَسِرُ السَّيِّئُ الخُلُقِ، ويريد أَنَّهُ عَسِرٌ غير لَيْنٍ بالنسبة إلى الأعداء في الحرب.

بعض هذه الصفات يُعامل بها أولياءه، وأضدادها يعامل بها أعداءه.

وعلته إيراد صفاتٍ متعدّدة على نَسَقٍ واحدٍ.

(٥) ومن الأمثلة أيضاً، قول أبي تمام يصفُ ممدوحه:

كَأَنَّهُ فِي اجْتِمَاعِ الرُّوحِ فِيهِ لَهُ فِي كُلِّ جَارِحَةٍ فِي جِسْمِهِ رُوحُ
أي: هو يقظ دوماً بكلِّ جوارحه.

وعلته تَعاقُبُ الأدواتِ فيه.

ونظيره قول أبي الطيب المتنبي يصفُ فرساً:

وَتُسْعِدُنِي فِي غَمْرَةٍ بَعْدَ غَمْرَةٍ سَبُوحٌ لَهَا مِنْهَا عَلَيْهَا شَوَاهِدُ

في غَمْرَة: أي: في سِدَّة. سَبُوح: أي: فرسٌ شديد الجري. لَهَا مِنْهَا عَلَيْهَا
شَوَاهِدُ: أي: لَهَا عَلَى كرمها شَوَاهِدٌ مِنْ صفاتها. على أن تعاقب الأدوات قد
لا يكون ثقيلاً مستكرهاً، والحكمُ ذوق الفصحاء.

(٦) ومن الأمثلة أيضاً قولُ ابنِ بابك:

حَمَامَةٌ جَرَعَى حَوْمَةَ الْجَنْدَلِ اسْجَعِي فَأَنْتَ بِمَرَأَى مِنْ سَعَادَ وَمَسْمَعِ
يَخَاطِبُ الشَّاعِرُ حَمَامَةَ جَرَعَى حَوْمَةَ الْجَنْدَلِ، فَيَطَالِبُهَا بِأَنْ تَسْجَعَ لِتَسْمَعَهَا
مَعْشُوقَتُهُ سَعَادَ، وَالسَّجْعُ هَدِيلُ الْحَمَامِ.

جَرَعَى: مُؤَنَّثٌ أَجْرَعٌ، وَهِيَ رَمْلَةٌ لَا تُنْبِتُ. حَوْمَةٌ: مُعْظَمُ الْجَنْدَلِ:
الحجارة.

وَعِلَّتُهُ تَوَالِي الإِضَافَاتِ، إِذْ أَضَافَ أَوَّلًا حَمَامَةَ إِلَى جَرَعَى وَأَضَافَ أَيْضاً
جَرَعَى إِلَى حَوْمَةَ الَّتِي أَضَافَهَا إِلَى الْجَنْدَلِ، فَتَوَالَتِ الإِضَافَاتُ، وَمِنْ هُنَا كَانَتْ عِلَّةُ
الاستكراه، على أن توالي الإِضَافَاتُ قَدْ لَا يَكُونُ مَسْتَكْرَهَاً.

* * *

ثانياً:

شرح العيب الثاني: «ضعفُ التَّأْلِيفِ» وهو أن يكون تأليف الكلمات في
الجملة أو إجراؤها الإِغْرَابِي على خلاف المشهور المتَّبَع من قواعد النحو، أو فيه
لحنٌ نحويٌّ أو صرفيٌّ، واللَّحْنُ فِي اللُّغَةِ لَيْسَ مِنْ فِصِيحِهَا، بَلْ هُوَ مِنْ عَامِيَّهَا،
أَوْ مِنْ نَطْقِ الدِّخْلَاءِ عَلَى أَهْلِهَا مِمَّنْ لَيْسُوا مِنْهَا، أَوْ مِنْ نَطْقِ أَطْفَالِ الأُمَّةِ الَّذِينَ لَمْ
يَتَمَرَّسُوا بِقَوَاعِدِ لُغَتِهِمْ، وَمِنْ أَمْثَلِ مَا فِيهِ ضَعْفُ التَّأْلِيفِ:

● عَوْدُ الضَّمِيرِ عَلَى مُتَأَخَّرٍ لِفِظاً وَرُتْبَةً، بَيْنَمَا الأَصْلُ أَنْ يَعُودَ الضَّمِيرُ عَلَى
مُتَقَدِّمٍ فِي اللفظ أو الرتبة.

● استعمال الضمير المنفصل مع إمكان استعمال الضمير المتصل،
واستعمال الضمير المتصل في حال وجوب استعمال الضمير المنفصل.

● نصبُ الفعل المضارع أو جزؤه بدون ناصبٍ أو جازمٍ.
تقديم غير الأعراف في الجملة الاسمية على الأعراف.

● تقديم المعمول على عامله مع عدم جواز ذلك، أو مع عدم وجود مقتضٍ
لَهُ بلاغياً.

● مجيء الضمير المتصل بعد أداة الاستثناء «إلا».

الأمثلة:

(١) قول حسان بن ثابتٍ يرثي مُطعمَ بنِ عديٍّ أحدِ رؤساءِ المشركينَ، وكان
يُدافع عن الرسول ﷺ:

وَلَوْ أَنَّ مَجْدًا أَخْلَدَ الدَّهْرَ وَاحِدًا مِنْ النَّاسِ أَبْقَى مَجْدُهُ الدَّهْرَ مُطْعِمًا

فأعاد الضمير في «مَجْدُهُ» على متأخرٍ لفظاً ورتبة وهو «مُطْعِمًا» على خلاف
قانون التاليف المتبع المشهور في العربية، وهذا من العيوب المخلة بالفصاحة.
والمعنى: ولو أن مجداً مهما كان عظيماً جعل من يتصف به يخلد طوال
الدَّهر، لكان مَجْدُ مُطْعِمِ بنِ عديٍّ جعله خالداً.

(٢) قول زياد بن حمَل التميمي:

وَمَا أَصَاحِبُ مِنْ قَوْمٍ فَأَذْكُرُهُمْ إِلَّا يَزِيدُهُمْ حُبًّا إِلَيَّ هُمْ

أي: وما أصحابٌ من قومٍ بعدَ قومي فأذكرُ لهم قومي، إلا بالغوا في الشناء
عليهم حتى يزيدوهم حُبًّا إليَّ.

فلم يأتِ بالضمير المتصل الذي هو «واو» الجماعة في: «يَزِيدُونَهُمْ» بل

فصله، وجاء به ضميراً منفصلاً في آخر البيت، لضرورة الشعر، وهو لفظ «هُم» وهذا من العيوب المخلة بالفصاحة.

(٣) قول الفرزدق:

بِالْبَاعِثِ الْوَارِثِ الْأَمْوَاتِ قَدْ ضَمِنْتُ إِيَاهُمْ الْأَرْضُ فِي دَهْرِ الدَّهَارِ
فجاء بالضمير المنفصل «إيَاهُمْ» مع إمكان مجيء الضمير المتصل، لضرورة الشعر، وهذا من العيوب المخلة بالفصاحة.

والمعنى: أحلف بالله الباعث الوارث الأموات قد ضمنتهم، أي: احتوتهم الأرض في دهر الدهارير.

في دهر الدهارير: أي: في سالف الأزمان، كلمة «الدهارير» تأتي بمعنى أول الدهر في الزمان الماضي «لا واحد لها من لفظها».

(٤) قول أبي الطيب المتنبي، يمدح بدر بن عمار:

خَلَّتِ الْبِلَادُ مِنَ الْغَزَالَةِ لَيْلَهَا فَأَعَاضَهَاكَ اللَّهُ كَيْ لَا تَحْزَنَا
الغزالة: الشمس.

يقول المتنبي لمدوحه: خلت البلاد من الشمس في وقت ليلها، فجعلك الله لها عوضاً عن الشمس، لكيلا تحزن البلاد على فراق ضوء الشمس.

قال النحاة: إذا اجتمع ضمير المخاطب والغائب فالواجب تقديم ضمير المخاطب على ضمير الغائب، وهذا ما نصّ عليه سيويه.

وكان على المتنبي أن يقول: «فأعاضكها» بدل «أعاضهاك» ولكن ضرورة الشعر ألجأته إلى ما قال.

بيد أن العباس محمد بن يزيد المبرد يجيز ما فعل المتنبي.

(٥) قول الشاعر:

أَنْظَرَا قَبْلَ تَلُومَانِي إِلَيَّ طَلَّلَ بَيْنَ النَّقَا وَالْمُنْحَى
فَحَذَفَ «أَنْ» النَّاصِبَةَ لِفِعْلِ «تَلُومَانِي» وَأَبْقَى التَّضْبِ فِي الْفِعْلِ، إِذْ حَذَفَ
النون.

الطَّلَلُ: ما بقي من آثار الديار.

النَّقَا — وَالْمُنْحَى: اسمان لموضعين.

(٦) قول الشاعر:

وَمَا نُبَالِي إِذَا مَا كُنْتُ جَارَتَنَا أَلَّا يُجَاوِرَنَا إِلَّا كِ دِيَارُ
فجاء بالضمير المتصل بعد «إلَّا» والأصل أن يقول: إلَّا إِيَّاكَ، ولكن خالف
القاعدة لضرورة الشعر.

* * *

ثالثاً:

شرح العيب الثالث: «التعقيد اللفظي» ويكون بجعل الكلمات في جملة
الكلام مرتبة على غير الترتيب الذي يقتضيه نظام الكلام وتأليفه في اللسان العربي.
كتقديم الصفة على الموصوف، والصلة على الموصول، وكالتشتيت في
الروابط بين عناصر الجملة الواحدة، أو بين عناصر الجمل في الكلام الواحد.

وهذا العيب أشد نكارةً وبعداً عن فصيح الكلام من عيب «ضعف التأليف»
ولا يُعني عن ذكره وبيانه ذكرُ عيبِ «ضعف التأليف» وإن كان الصنفان يلتقيان في
كون كل منهما يخالف نظام الكلام في اللسان العربي، لأن ضعف التأليف قلما
يؤدي إلى ما يُسيء في الدلالة، بل هو مُجرّد خروج عن المشهور من فصيح كلام
العرب.

أما التعقيد اللفظي ففي الغالب يؤدي إلى الإلغاز، أو الغموض، أو التشويش، أو الدلالة على معانٍ غير مرادة.

والكلام المُعَيَّبُ بِعَيْبِ «التعقيد اللفظي» مرفوضٌ غيرٌ مقبولٍ عند أهل البيان، لأنه يُفْضِي إلى اختلال المعنى المراد واضطرابه، وذلك مُبَايِنٌ للفصاحة التي تقوم على الإبانة وتوضيح المعاني المرادة.

قال العتابي^(١): «الألفاظُ أجسادٌ، والمعاني أرواح، وإنما نراها بعين القلوب، فإذا قدّمت منها مؤخرًا، أو أخرت منها مقدّمًا، أفسدت الصورة، وغيّرت المعنى، كما لو حوّل رأسٌ إلى موضع يد، أو يدٌ إلى موضع رجل، فإن الخلقَةَ تتحوّل، والحليّة تتغيّر».

قالوا: والفرزدق أكثر من استعمل التعقيد اللفظي في شعره، وكأنه كان يقصدُ إلى ذلك، لأنه لا يجري على لسانٍ عربي إلا متكلّفًا مضموعًا، والفرزدقُ عربيٌّ أصيلٌ لا يشكو من عجمة حتى تؤثر عليه.

الأمثلة:

(١) من أمثلة التعقيد اللفظي قول الفرزدق، يمدح إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي خال هشام بن عبد الملك:

وَمَا مِثْلُهُ فِي النَّاسِ إِلَّا مُمْلَكًا أَبُو أُمِّهِ حَيٌّ أَبُوهُ يُقَارِبُهُ

أي: وما مثل إبراهيم في الناس حيٌّ يشبهه في فضائله غير ملكٍ أبو أمّه أبوه.

أصلُ ترتيب الكلام: وما مثله في الناس حيٌّ يقاربه إلا مملكا أبو أمّه أبوه، فقدّم وأخر في الكلمات، فالغزّ إلغازاً سيّئاً.

(١) هو كلثوم بن عمرو بن أيوب التغلبي متوفى (٢٢٠هـ) له عدة مصنفات، منها: «فنون الحكم» و«الآداب» و«الألفاظ».

(٢) وقولُ الفَرَزْدَقِ أيضاً يَمْدَحُ الوليدَ بن عبد الملك :

إِلَى مَلِكٍ مَا أُمُّهُ مِنْ مُحَارِبٍ أَبُوهُ وَلَا كَانَتْ كُليْبٌ تُصَاهِرُهُ

يريد: إلى مَلِكِ أبوه ليست أمه من مُحَارِبٍ، فقدم وأخر فأبهم المعنى والغز وأفسد.

(٣) ومن أقيح أمثلة هذا التعقيد اللفظي، قول أحدهم يصفُ دياراً دَرَسَتْ

وعفَّت آثارها:

فَأَصْبَحَتْ بَعْدَ خَطِّ بَهْجَتِهَا كَأَنَّ قَفْرًا رُسُومَهَا قَلَمًا

أي: فأصبحت بعد بهجتها قفراً، كأنَّ قَلَمًا خطَّ رُسُومَهَا.

ويبدو أنَّ هذا البيت مصنوعٌ لإبراز قباحة التعقيد اللفظي، إذ ليس من

المعقول أن يقوله ناطق عربي له فكرٌ ما.

* * *

رابعاً:

شرح العيب الرابع: «التعقيد المعنوي» ويكون باستخدام لوازم فكرية بعيدة،

أو خفية العلاقة، أو استخدام كنايات من العسير إدراك المراد منها، لعدم اقترانها

بما يشير إلى دلالاتها المرادة، فيَنجُم عنه خفاء دلالة الكلام، وصعوبة التوصل إلى

معرفة المراد منه من قِبَلِ أهلِ الفكر والاستنباط، أو من قِبَلِ المخاطبين به إذا كان

المخاطبون به دون مستوى أهلِ الفكر والاستنباط.

الأمثلة:

(١) ذكروا من الأمثلة على التعقيد المعنوي قولَ العباسِ بن الأحنف:

سَأَطْلُبُ بَعْدَ الدَّارِ عَنْكُمْ لِتَقْرُبُوا وَتَسْكُبُ عَيْنَايَ الدُّمُوعَ لِتَجْمُدَا

أي: سأطلبُ بعد الدار عنكم وأتحملُ آلامَ الفراق وأصبرُ عليه، لأن عاقبة

الألم والصبر الفرَجُ، وحين يأتي الفرَجُ يكون قُرْبُ دائم، ووصلٌ مستمرٌ مصحوبٌ بسرور لا ينقطع، وقد أبعِد في هذه الكناية لكثرة لوازمها الذهنية التي لا تُدْرِكُ إِلَّا بِإِجْهَادِ ذَهْنِيٍّ، على أَنَّ هذا المعنى حَسَنٌ طَرَفُهُ الشعراء والأدباء وأهل الفكر، ومنه ما أجاب به الربيع بن خيثم، وقد صَلَّى لَيْلَةً حَتَّى أَصْبَحَ، إِذْ قِيلَ لَهُ: أَتَعَبْتَ نَفْسَكَ. فقال: رَاحَتَهَا أَطْلُبُ. أي: أَطْلُبُ رَاحَتَهَا الدائمة يوم الدين بِإِتْعَابِهَا في العبادة في الدنيا.

ونظيره في المعنى، قول أبي تمام:

أَلْفَةَ النَّحِيبِ كَمِ افْتِرَاقِ أَلَمٍ فَكَانَ دَاعِيَةَ اجْتِمَاعِ

وقولُ عُرْوَةَ بن الورد:

تَقُولُ سُلَيْمِي: لَوْ أَقَمْتَ بِأَرْضِنَا وَلَمْ تَدْرِ أَنِّي لِلْمُقَامِ أَطْوَفِ

لكنَّ العباس بن أحنف عبّر بعد ذلك بجمود العين كنايةً عن حالة السُرور التي سَيَأْتِيهَا حينما يأتي الفرَجُ بالوصل بعد كثرة البكاء، في حين أَنَّ جُمُودَ العين يُعَبِّرُ بِهِ كنايةً عن شُحِّهَا بالدموع عند حاجة النفس إلى البكاء، ليكون في البكاء تخفيفٌ مِنَ الآمِ النفس بالفراق، أو مِنَ الحزن والكمَد والتَّعَبِ والتَّصَبُّبِ، فالشُّحُّ بالدمع يزيد في آلام النَّفْسِ، وليس من العلامات الدالّات على سرورها حَتَّى يُكَيِّئَ به عنه، ومن هُنَا رَأَوْا أَنَّ في كلامه تعقيداً معنوياً.

(٢) وَيُمْكِنُ أَنْ نُمَثِّلَ لِلتَّعْقِيدِ المَعْنَوِيِّ بِأَنَّ نَقُولَ: فَتَحَ السُّلْطَانُ أَبْوَابَ

السُّجُونِ.

ونحن نقصد بهذه العبارة أَنَّهُ نَشَرَّ جُنْدَهُ لملاحقة خصومه حتى يُودِعَهُمْ في السجون، مع أَنَّ المتبادر المتعارف في مثل هذه العبارة، أَنَّ تُقَالُ لِتَكُونُ كنايةً عن أَنَّهُ أَخْرَجَ المَسَاجِينَ مِنْهَا بِإِصْدَارِ عَفْوٍ عَامٍّ عَنْهُمْ، فَاعتبارها كنايةً عن المعنى المضاد لهذا المعنى تعقيدٌ معنوي.

وقس على هذا.

* * *

فصاحة المتكلم

المتكلم الفصيح هو من كان كلامه فصيحاً، وكان ذا ملكة يقتدر بها على التعبير عن مقصوده بكلام فصيح، دون تلعثم، ولا تلتكؤ، فما شاء من معنى استطاع التعبير عنه بيسر وسهولة، وبكلام فصيح المفردات، وفصيح الجمل والتراكيب.

ومع الهبة الفطرية لا يكون المتكلم فصيحاً في اللسان العربي، حتى يكون مُلمّاً باللّغة العربيّة، عالماً بقواعد نحوها وصرفها، واسع الاطلاع على مفرداتها ومعانيها الدقيقة، كثير النظر في كتب الأدب، مطلعاً على أقوال كبار الفصحاء، له دراية بأساليب العرب في شعرهم ونثرهم وأمثالهم وكنياتهم ومجازاتهم، حافظاً لطائفة جمّة من عيون كلام فصائحهم وبلغائهم من أهل النثر وأهل الشعر، وأن يمارس موهبته بالتطبيقات العملية، حتى يكتسب مهارة التعبير عن مقاصده وما يجول في نفسه من معانٍ بكلام فصيح.

• • •

الفصل الثالث

البلاغة

البلاغة في اللغة:

البلاغة عند أهل اللغة هي حُسْنُ الكلام مع فصاحته وأدائه لغاية المعنى المراد.

والرجل البليغ هو من كان فصيحاً حَسَنَ الكلام يَبْلُغُ بعبارة لسانه غاية المعاني التي في نفسه، ممَّا يُرِيدُ التعبير عنه وتوصيله لمن يُرِيدُ إبلاغه ما في نفسه. وأصل مادة الكلمة في اللغة تدور حول وُصُولِ الشيء إلى غايته ونهايته، أو إيصال الشيء إلى غايته ونهايته.

تقول لغة: بلغ الشيءُ بُلُوغاً وبلاغاً، إذا وصل وانتهى إلى غايته.

وتقول: أبلغتُ الشيءَ إبلاغاً وبلاغاً، وبلغتُهُ تَبْلِيغاً، إذا أوصلته إلى غايته ونهايته.

وبلغَ الغلامُ وبلغت الجارية، إذا وصلا إلى انتهاء مرحلة ما دون التكليف، ودخلا في مرحلة التكليف، ويكون ذلك باحتلام الغلام وحيض الجارية، ويُقال: ذكَّرُ بالغ، وأنثى بالغٌ وبالغة.

والأمر البالغ، هو الأمر الذي وصل إلى غايته فكان نافذاً.

والبلاغة تكون وصفاً للكلام، ووصفاً للمتكلم.

بلاغة الكلام في الاصطلاح :

هي مطابقة الكلام لمقتضى حال من يُخاطبُ به مع فصاحة مفرداته وجُمَله .

فيشترط في الكلام البليغ شرطان :

الشرط الأول : أن يكون فصيح المفردات والجمل .

الشرط الثاني : أن يكون مطابقاً لمقتضى حال من يُخاطبُ به .

ولمّا كانت أحوال المخاطبين مختلفة، وكانت كلُّ حالةٍ منها تحتاج طريقةً من الكلام تلائمها، كانت البلاغة في الكلام تستدعي انتقاء الطريقة الأكثر ملاءمة لحالة المخاطب به، لبلوغ الكلام من نفسه مبلغ التأثير الأمثل المرجوّ .

الأحوال التي تستدعي اختلافاً في طرائق الكلام وأساليبه :

أما الأحوال التي تستدعي اختلافاً في طرائق الكلام وأساليبه، فتكاد لا تُحصَرُ .

- فمنها ما يستدعي من الكلام إيجازاً .
- ومنها ما يستدعي من الكلام بسطاً متوسطاً .
- ومنها ما يستدعي من الكلام بسطاً مطوّلاً .
- ومنها ما يستدعي خطاباً بصورة مباشرة .
- ومنها ما يستدعي خطاباً بصورة غير مباشرة .
- ومنها ما يستدعي تنكيراً، أو يستدعي تعريفاً .
- ومنها ما يستدعي إطلاقاً، أو يستدعي تقييداً .
- ومنها ما يستدعي ذكراً، أو يستدعي حذفاً .
- ومنها ما يستدعي وصلاً بحرف العطف، أو يستدعي فصلاً .

● وخطاب الذكي يُخالف خطاب الغبيّ.

● وحال الوعظ يستدعي خطاباً غير حال البيان العلمي.

● وحال الدعاء والتماس مطلوب، يستدعي خطاباً غير حال التكليف من ذي سلطان.

● وخطاب أهل العلم والمعرفة يخالف خطاب الذين لا علم لديهم.

● وخطاب الملوك والأمراء والرؤساء يخالف خطاب العامة.

● وخطاب أهل الحضر يُخالف خطاب أهل البداوة وأهل المدر.

● ولكل أهل صنعة خطابٌ يلائم صناعتهم.

● والصغارُ وأحداثُ الأسنان لهم ألوان من الخطاب تلائم حدائهم، وصِغَر

أعمارهم.

● إلى غير ذلك من أصناف المخاطبين، وأحوالهم النفسيّة والاجتماعية،

وأحوال المتكلّم وظروف الكلام.

واختيار الأسلوب من الكلام الملائم للمخاطب، أو الأكثر ملاءمة له يحتاج

فطنة عالية، وذكاءً حاداً، وخبرات كثيرات بخطاب الناس.

ويُلحَقُ بمطابقة الكلام لمقتضى حال المخاطب وجوهٌ أُخرٌ كثيرةٌ تورثُ

الكلامَ حُسناً.

وكُلُّما كان الكلام مع فصاحة مفرداته وجمله أكثر مطابقة لحال المخاطب

وتأثيراً في نفسه، كان أعلى حُسناً، وأرفع منزلةً في مراتب البلاغة ودرجاتها.

وتتنازلُ الدرجات وتنحطُّ بمقدار بُعْدِ الكلام عن مطابقتها مقتضى حال

المخاطب، وضعف تأثيره في نفسه.

وللكلام البليغ حدٌّ أعلى رفيعٌ، وهو حدُّ الإعجاز، وما يقربُ منه. وله حدٌّ أسفلٌ مُنحطٌ إذا نزلَ عنه درجةٌ واحدةٌ التحقَّ عند البلغاء بأصواتِ الحيوانات.

وبين الحدَّ الأعلى والحدَّ الأسفل مراتب ودرجاتٌ كثيراتٌ يتعدَّدُ على الناس إحصاؤها.

بلاغة المتكلم في الاصطلاح:

هي ملكةٌ «أي: صفةٌ ثابتةٌ مستقرّةٌ في ذاتِ المتكلم» يستطيع بها تأليفِ كلامٍ بليغٍ.

ولمّا كان كلُّ كلامٍ بليغٍ لا بدّ أن يكون فصيحاً المفردات والجُمَل كان كلُّ كلامٍ بليغٍ كلاماً فصيحاً، وكان كلُّ متكلمٍ بليغٍ متكلماً فصيحاً.

لكن قد يكون الكلام فصيحاً ولا يكون بليغاً، لأنّ الفصاحة أعمُّ، والبلاغةُ أخصُّ دائماً، فكلُّ بليغٍ فصيحٌ، كلاماً أو متكلماً، وليس كلُّ فصيحٍ بليغاً^(١)، فالكلام الفصيح لا يكون كلاماً بليغاً حتّى يكون مطابقاً لمقتضى حالِ المخاطب به.

عناصر البلاغة في الاصطلاح:

مما سبق يتبيّن لنا أنّ البلاغة ترجع في أصولها العامة إلى تحقّق العناصر السّتّة التالية:

العنصر الأول: الالتزام بما ثبت في متن اللّغة وقواعد النحو والصرف، واختيار الفصيح من المفردات والجُمَل والقواعد.

العنصر الثاني: الاحتراز عن الخطأ في تأدية المعنى المراد.

العنصر الثالث: الاحتراز عن التعقيد في أداء المعاني المرادة، سواء من جهة اللفظ أو من جهة المعنى.

(١) بين الفصاحة والبلاغة عمومٌ وخصوصٌ مُطلقٌ، بحسب اصطلاح علماء المنطق.

العنصر الرابع: انتقاء الكلمات والعبارات الجميلة، التي يُدركُ جمالها الحسُّ المرهف، والدُّوقُ الرفيع لدى البلغاء.

العنصر الخامس: تصيُّد المعاني الجميلة، وتقديمها في قوالب لفظية ذات جمالٍ.

العنصر السادس: تزيين الكلام بالمحسنات التي تستثير إعجاب المخاطبين. والمحسنات التي تُزيِّنُ الكلامَ وتزيِّدُه جمالاً لا تُحصِرُ، وباستطاعة الموهوبين أن يبتكروا فيها دوماً أشياء جديدة لم يتوصَّلْ إليها البلغاء السابقون من الناس.



علم المعاني

وفيه خمسة أبواب:

- الباب الأول : مدخل إلى علم المعاني .
الباب الثاني : أحوال عناصر الجملة من الذكر والحذف ،
والتقييد وعدمه ، والتعريف والتنكير ،
والتقديم والتأخير ، ومخالفة مقتضى الظاهر
في التعبير .
الباب الثالث : القَصْر .
الباب الرابع : الفَضْلُ والوَصْلُ .
الباب الخامس : الإيجاز والإطناب والمساواة .

البَابُ الْأَوَّلُ

مدخل إلى علم المعاني

وفيه أربعة فصول:

- الفصل الأول : مقدمات حول الكلمة والجملة العربية،
ونشأة علم المعاني .
- الفصل الثاني : بناء الجملة في اللسان العربي وتقسيمها .
- الفصل الثالث : الجملة الخبرية وأحوالها .
- الفصل الرابع : الجملة الإنشائية وأقسامها .

الفصل الأول

مقدمات حول الكلمة والجملّة العربيّة

ونشأة علم المعاني

(١)

مقدمة

● النحويّ يبحث في الكلام العربي من جهة إعراب مفرداته وجملته، وما يجب في تراكيب الجمل البسيطة والمركّبة كجمل الشرط، وما يجوز فيها من تقديم أو تأخير، وما يجوز في الكلام من ذكر أو حذف أو نيابة، مع تحديد أصول المعاني التي تدلّ عليها صيغ الأسماء والأفعال ومشتقاتها، ومتعلقات الفعل، وأصول المعاني التي تدلّ عليها حروف المعاني.

● والصّرْفِيّ يبحث في الكلمة العربيّة من جهة بنائها وضوابطه في اللسان العربي، وفي المعاني الأصول التي وُضعت صيغ الكلمات للدلالة عليها.

● ويشارك النحويّ الصرْفِيّ في بعض ما هو مختصّ به، وقد يشارك الصرْفِيّ النحويّ في بعض مسائله الخاصة به.

● أمّا عالم البلاغة فيوجه اهتمامه حول الكلمة والجملّة العربيّة للمعاني التي تدلّ عليها صيغ الكلمات، وأصول التراكيب وفروعها، وللمعاني التي يدلّ عليها التقديم والتأخير في مواضع الكلمات عمّا هو الأصل في التراكيب، وللمعاني التي

يَدُلُّ عليها الذِّكْرُ والحذف، والاختصارُ، وَوَضَعُ نوع من الكلام بدلَ نوعٍ آخر، كظاهر بدل مضمَر، ومُضْمَرٍ بدلَ ظاهِر، واسمٍ موصول بدل اسم جنس، أو اسمٍ عَلَمٍ، وغير ذلك ممَّا فيه دلالةٌ على معنىٍ يمكن بحسب الاستعمال العربي أن يُدَلَّ به عليه، ممَّا قَصَدَ به بُلْغَاءُ أهل اللسان الدلالةَ به عليه.

وقد وجَّه علماء البلاغة اهتمامهم لهذه الأمور ضِمْنُ أمورٍ أخرى احتفلوا بها، بغية التنبيه على معالم المنهج الأمثل للناطق العربي، كَيْمًا يُحَسِّنَ تدبُّرَ النصوص الرفيعة، وفَهْمَ صُورِ الآداب الراقية ونقَدَها، وكَيْمًا يتدرَّبَ المؤهَّلُ للارتقاء في إنشاء وارتجال الكلام الفصيح البليغ الراقِي بعناصره الأدبيَّة، حتى يكون أديباً فصيحاً بليغاً منضبطاً مع أساليب اللسان العربي، في الذكر والحذف، والتقديم والتأخير، والإظهار والإضمار، واختيار نوعٍ دون غيره من أنواع الكلام، وانتقاء المفردات بعناية، وتجويد التراكيب وتحسينها، وتصنيف الكلمات والجُمَلِ بدقَّة، لتَبْلُغَ الْمَبْلُغَ المطلوب من التأثير في الَّذِينَ يَتَلَقَّوْنَ كلامه، مع دلالته على ما يريد من معانٍ بحسب قواعد دلالاتها الصريحة أو الضمنية أو اللزومية، حتَّى مُسْتَوَى الإِشَارَةِ وَالرَّمْزِيَّةِ.

ومن هذا نشأ عند البلاغيين ما يسمَّى بعلم المعاني.

* * *

(٢)

تعريف علم المعاني

هو علمٌ يعرف به أحوال الكلام العربي التي تهدي العالمَ بها إلى اختيار ما يُطابِقُ منها مقتضى أحوال المخاطبين، رجاء أن يكون ما يُنْشِئُ من كلامٍ أدبيٍّ بليغاً.

ويدور هذا العلم حول تحليل الجملة المفيدة إلى عناصرها، والبحث في أحوال كلّ عنصر منها في اللّسان العربيّ، ومواقع ذكره وحذفه، وتقديمه وتأخيرها، ومواقع التعريف والتنكير، والإطلاق والتقييد، والتأكيد وعدمه، ومواقع القصّر وعدمه، وحول اقتران الجمل المفيدة ببعضها، بعطف أو بغير عطف، ومواقع كلّ منهما ومقتضياته، وحول كون الجملة مساوية في ألفاظها لمعناها، أو أقلّ منه، أو زائداً عليه، ونحو ذلك.



الفصل الثاني

بناء الجملة في اللسان العربي وتقسيمها

(١)

تعريف الجملة

الجملة المفيدة كلامٌ تامٌّ يدلُّ على معنى أقله نسبةً شيءٍ إلى شيءٍ إثباتاً أو نفيًا، أو إنشاءً ربطٍ بين شيءٍ وشيءٍ آخرٍ يكفي لإنشائه القول، مثل أمر التكوين، أو الأمر بفعلٍ ما.

والجملة المفيدة تسمى عند علماء المنطق «قضية» وأقلُّ ما تتألف منه الجملة عنصراً يُعبَّرُ عنهما باللفظ، وهما:

(١) مُسندٌ إليه، ويُسمى محكوماً عليه، ويُسمى عند علماء المنطق موضوعاً.

(٢) ومُسندٌ، ويُسمى محكوماً به، ويُسمى عند علماء المنطق محمولاً.

ويلاحظ بين المسند إليه والمُسند شيءٌ ثالثٌ هو الإسناد، وهو الرابط المعنويُّ بينهما، وقد يوجد في اللفظ ما يدلُّ عليه، كحركة الإعراب، وكضمير الفصل بين المبتدأ والخبر.

(٣) ويُلاحقُ بالجملة المفيدة توابعُ المسند إليه والمُسند إن وجدت، فمنها المفاعيل، والأدوات، وما يدلُّ على القيود لأركان الجملة، كالصفات والأحوال والقيود الزمانية والمكانية.

ولا تتم جملة مفيدة بأقلّ من مُسْنَدٍ، ومُسْنَدٍ إليه، وإسنادٍ يُلاحظُ ذهنًا بينهما.

* * *

(٢)

تحليل بناء الجملة على اختلاف وجوها

الجملة الكلامية بناءً من كلمتين فأكثر من أصول الكلمات الثلاث: «الاسم والفعل والحرف ذي المعنى».

ودلالة الكلمة في بناء الجملة تكون بواحد من الأمور التالية:

الأول: الوضع اللغوي الأوّل، أو الوضع الاصطلاحي كمصطلحات العلوم.

الثاني: ما تطوّر إليه الوضع باستعمال أهل اللغة، أو في العرف العام.

الثالث: ما يجري في الكلمات من استعارات ومجازات جرى بها أو بنظائرها لسان أهل اللغة.

الرابع: ما تحمّله الكلمات من دلالات لزومية ذهنية، تُدرّك بالذهن من معانيها، كالأمر بالعلم الذي يستلزم ذهنًا اتّخاذ وسائله.

الخامس: ما في الكلام المذكور من إشارات تدلّ على محذوفٍ يقتضيه الكلام، كحرف عطف ليس في الكلام المذكور ما يُعطفُ به عليه.

السادس: نيابة مذكور عن محذوف، بدلالة قرينة ذهنية أو لفظية، كنائب الفاعل مع قرينة بناء الفعل على الصيغة الخاصة بما لم يُذكر فاعله.

السابع: اقتران كلمة بكلمة مع حركة إعرابٍ ظاهرة أو مقدّرة، كحال المبنيّات من الأسماء، أو دون حركة إعراب كحال الحروف التي لا محلّ لها من الإعراب، عاملةٌ بغيرها أو غير عاملة.

* * *

أصول المعاني التي يُدَلُّ عليها بالألفاظ في الجملة الكلامية

بعد ملاحظة إرادة التعبير في الجملة الكلامية عن ربط شيء بشيء لعلاقة ما قامت بينهما، كالأكل والآكل، والنوم والنائم، والجمال والجميل، والفدَم والقَدِيم، والحدوث والحادث، والوجود والموجود، والعدم والمعدوم، وأية صفة والموصوف بها، وأي حدث ومَنْ فعله أو قام به، وزمان الحدث، ومكانه، وآلته، وسببه، والباعث إليه، والغاية منه، وحدود كل شيء يُشار إليه بالعبارة الكلامية من كل ذلك، وقيوده الوصفية الثابتة والمتحوّله، تظهر لنا من أصول المعاني التي يرادُ الدلالة عليها بالألفاظ طائفة يسهلُ تمييزها وإحصاؤها، وتبقى طائفة أخرى يصعبُ وضعها في مواضعها من الشجرة الفكرية لأصول المعاني.

وأكتفي هنا بتوجيه نظرات تحليلية لبعض أصول هذه المعاني، ونفرعها من شجرتها الفكرية.

وأرى أنها تبدأ من تلاقي زَوْجَيْن: الشيء الذي يُتَصَوَّرُ أَنَّهُ يقوم بنفسه، وهو ما يطلق عليه في اصطلاح الفلاسفة «الجوهر» والوصف الذي يُتَصَوَّرُ أَنَّهُ لا يقوم بنفسه، وهو ما يُطلق عليه في اصطلاح الفلاسفة «العرض».

وتدعو الحاجة في الكلام إلى أن يُعَبَّرَ به عن الشيء والوصف الذي قام به، أو عن الوصف والموصوف به، وهنا تظهر لنا أدنى النَّسَبِ التي يُعَبَّرَ عنها بالكلام، فذكر شيء ما يستدعي ذكر الصفة التي دعت إلى ذكره، وذكر وصف ما يستدعي ذكر الموصوف به.

فظهر لنا بهذا عنصران أساسان هما من أصول المعاني التي يُعَبَّرَ عنها بالكلام.

● الشيء. « = الجوهر » وهو يشمل الفاعل والمفعول به من حيث المعنى.

● ووصفه. « = العرض ».

ويتم ربط العلاقة بينهما بإسناد أحدهما إلى الآخر في الجملة الكلامية، وهذه هي أدنى التَّسْبِ التي يُعَبَّرُ عنها بالكلام.

ثم قد تدعو الحاجة البيانية إلى تحديد الشيء « = الجوهر » بالقيود التي تميِّزه عن غيره قَبْلَ أو مع إسناد الوصف إليه، لتُعْرَفَ حقيقة الموصوف، وكذلك قد تدعو الحاجة البيانية إلى تحديد الوصف « = العرض » بالقيود التي تميِّزه عن غيره.

فظهر بهذا ما يُعْرَفُ بقيود المسند إليه، كالوصف، والحال، والتمييز ونحو ذلك.

وظهر أيضاً ما يُعْرَفُ بقيود المُسْنَدِ، فعلاً كان، أو خبراً أو نحوهما، كالحال، وقيود الزمان والمكان.

ثم نلاحظ أن الوصف « = العرض » قد يكون ملازماً للموصوف « = الجوهر » وقد يكون حَدَثًا طارئاً، كالحركة والسكون، والحرارة والبرودة، والحدث لا بدَّ له من ظرف زمانٍ حَدَثَ فيه، أو يَحْدُثُ فيه، ومفاصل الزَّمن الكبرى التي يُعَبَّرُ عنها بصيغ الأفعال هي: «الماضي والحاضر والمستقبل» وهنا ظهرت الحاجة في الكلام إلى بيان الظرف الزمني بصيغة الكلمة، كالفعل الماضي والمضارع.

وظهرت الحاجة أيضاً للتعبير عن الزمان بمادة الكلمة، كالزمان، والحين، والدهر، والساعة، واليوم، والشهر، ونحو ذلك.

ثم نلاحظ أن كل شيء من الأشياء المخلوقة ومعها أوصافها القائمة بها، والأحداث الجارية فيها أو الصادرة عنها، لا بدَّ أن تكون في ظرفٍ مكاني. وهنا ظهرت الحاجة في الكلام إلى بيان الظرف المكاني.

وبالظرف الزماني والظرف المكاني وُجد في الكلام ما يُسمّى المفعول فيه زماناً أو مكاناً.

ثم نلاحظ أنّ إحداث الحدث قد يكون بسبب أو بآلة، وبهذا ظهرت الحاجة في الكلام أحياناً إلى بيان السبب أو الآلة، ومن ثمّ جاء في الكلام ما يدلّ على السبب والآلة.

ونلاحظ أيضاً أنّ الحدث المقصود إنّما يكون بباعثٍ ولغايةٍ، ومن هذا ظهرت الحاجة في الكلام أحياناً إلى بيان الباعث للحدث، والغاية منه، فجاء في الكلام ما يدلّ على ذلك، ومنه ظهرَ في الكلام ما يُسمّى «المفعول لأجله».

ونلاحظ أنه قد يقترن الحدث بحدث آخر، وقد تدعو الحاجة أحياناً في الكلام إلى بيان الحدث المقارن للحدث المراد بيانه أصلاً، ومن هذا ظهر في الكلام ما يُسمّى «المفعول معه».

وتفعل النفس الإنسانية بأحاسيس مختلفة يُريدُ الإنسان التعبير عنها بالكلام، فظهر في الكلام ما يدلّ على بعض هذه الأحاسيس الأصول، مثل: التَّوَجُّع، التَّفَجُّع، التَّعَجُّب، المَدْح، الدَّم، التَّحْذِير، الإِغْرَاء، الاستِفْهَام، الإِثْبَات، النْفِي، التَّأْكِيد.

إلى غير ذلك من أحاسيسٍ ومعانٍ أصولٍ يراهُ التعبير عنها بصيغٍ خاصّة، أو كلماتٍ خاصّة، كعبارات التوجع والتفجع، وفعلّي التعجب، وأفعال المدح والدّم، وصيغ التحذير والإغراء، وأدوات الاستفهام، وأدوات النفي، والمؤكدات.

* * *

ترتيب الجملة في اللسان العربي

إذا أردنا أن نصوغ جملة نبين فيها طلوع القمر أو عدمه، وجدنا أنفسنا أمام عددٍ من الاحتمالات، مثبتين أو نافرين:

(١) طَلَعَ القمر، ما طلع القمر.

(٢) القَمَرُ طَلَعَ، القَمَرُ ما طلع.

(٣) القَمَرُ طَالَعُ. القمر غير طالع، ليس القمر طالعا.

(٤) ما طالعُ القمر.

ولكن هل هذه الصيغ تقع في درجةٍ واحدةٍ من البيان، أم هي مختلفة، مع جوازها جميعاً في اللسان العربي؟

يقول النحوي هذه كلها جائزة، ولكلٌ منها عندي تخريجٌ إعرابي.

لكنّ البلاغيّ يقول: إن صِيغَ «طَلَعَ القمر - ما طَلَعَ القمر - ما طالعُ القمر» تقال في مقام الإخبار الابتدائي الذي لا حاجة فيه إلى تأكيد، أما صِيغَ «القَمَرُ طَلَعَ - القمرُ ما طَلَعَ - ليس القمرُ طالعا» فتقال في مقامٍ يحتاج فيه الخبر إلى نوع تأكيد، فإذا لم تكن حال المخاطب تقتضي تأكيداً فلا داعي لاستخدام هذه الصيغ، إذ جاء فيها إسناد الطلوع إلى القمر مرتين، فالقمر فيها مبتدأ أو أصله مبتدأ، وفعل طَلَعَ مُسْنَدٌ إلى ضمير يعود على المبتدأ، والجملة هي خبر المبتدأ، واسم الفاعل «طالعا» كالفعل يحمل ضميراً يعود على القمر.

فتغيير الترتيب في أركان الجملة نَجَمَ عَنْهُ إضافةٌ دلالة، فَعَلَى الْبَلَاغِيِّ أَنْ يُلاحظها لدى إنشاء الكلام، ولدى فهم النصوص البليغة الرقيقة.

ولركني الإسناد الرئيسين في الجملة الكلامية توابع، منها المفعول به،

وموضعه الأصلي في الجملة العربية بحسب ترتيب الكلام المعتاد يأتي بعد الفاعل،
على الوجه التالي:

(٣)	(٢)	(١)
مفعول به	فاعل	فعل
الْحَمَلُ	الذئبُ	مثل: أكل

قال النحاة: ويجوز تقديم المفعول به على الفاعل، ويجوز تقديمه أيضاً على
الفعل، إلا عند اللبس.

فيقال: أَكَلَ الْحَمَلُ الذَّئْبُ.

ويقال: الْحَمَلُ أَكَلَ الذَّئْبُ.

ويقال: رَفَعَ سَعِيدٌ طناً من الحديد.

ويقال: طناً من الحديد رفع سعيد.

لكنّ البلاغيين قالوا: إنّ مخالفة الأصل في ترتيب بناء الجملة، واستخدام ما
يجوز فيها بحسب استعمال العرب، هو في الغالب لغرض تأدية معنى من المعاني،
لا لمجرد استخدام احتمالات جائزة، باستثناء حالة الضرورة الشعرية، أو حاجة
توازن الجمل وتناسقها، ومراعاة السجع أو القوافي، ضمن أغراض جمالية في
الكلام.

فتقديم المفعول به عن رتبته، ولا سيما تقديمه على الفعل الذي هو صدرُ
الجملة الفعلية ينبغي أن يكون لغرض، وهو الدلالة على معنى ما، كالتخصيص،
أو الحصر، أو بالغ الاهتمام، أو نحو ذلك.

ورُتِبَ عناصر الجملة تشبه رُتَبَ جلساء رئيس القوم، فإذا قدّم الرئيس إلى
جواره من هو في العادة يجلس بعيداً عنه بحسب رتبته، فإنما يُقدّمه لغاية يفهمها
الظنّاء، فإذا وضعه في موضع وزيره الأول، أدرك أهل الظنّاء أنّه مُهتَمٌّ به
وبتكريمه، أو أنّه سوف يستوزره.

معالم الترتيب في عناصر الجملة عند النحاة

قال النحويون:

الأصل في الفاعل أن يتصل بفعله لأنه كالجُزء منه، ثم يأتي بعده المفعول به، وقد يُعكسُ الأمر، وقد يتقدّم المفعول به على الفاعل والفعل معاً، وكلُّ ذلك: إمّا جائزٌ، وإمّا واجب، وإمّا ممتنع.

● فيجوز تقديم المفعول به على الفاعل وتأخيره عنه في نحو: «كتب زهيرٌ الدرسَ - كتبَ الدرسَ زهيرٌ».

● ويجب تقديم أحدهما على الآخر في خمسة أحوال:

(١) إذا خشي الالتباسُ والوقوعُ في الشكِّ، بسبب خفاء الإعراب، مع عدم قرينة، فلا يُعلمُ الفاعل من المفعول به، فيجب تقديم الفاعل، مثل: «علّمَ موسى عيسى - أكرّمَ ابني أخي - غلبَ هذا ذاك».

فإذا أمِنَ اللبسُ لقرينة دالة جاز تقديم المفعول به، مثل: «أكرّمتَ موسى سلمى - أضنتَ سعدى الحمى».

(٢) أن يتصل بالفاعل ضمير يعود على المفعول به، فيجب تأخير الفاعل وتقديم المفعول به، مثل: «أكرّمَ سعيداً غلامه - وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّه بكلماتٍ فاتمهنَّ - يومَ لا ينفعُ الظالمينَ معذرتُهُمْ».

وما ورد على خلاف ذلك فضرورة شعرية.

(٣) أن يكون الفاعل والمفعول به ضميرين، ولا حصر في أحدهما، فيجب تقديم الفاعل وتأخير المفعول به، مثل «أطعمته وسقيته».

(٤) أن يكون أحدهما ضميراً متصلاً والآخر اسماً ظاهراً، فيجب تقديم الضمير منهما.

● فيَقَدَّمُ الفاعلُ وجوباً في نحو «أكرمت عليّاً».

● ويَقَدَّمُ المفعولُ به وجوباً في نحو «أكرمني عليٌّ».

(٥) أن يكون أحدهما محصوراً فيه الفعل بحرف «إلاً» أو بحرف «إنما» فيجب تقديم ما حُصِرَ فيه الفعل، سواءً أكان مفعولاً به، أم فاعلاً، مثل: «ما أكرم سعيدٌ إلاً خالداً» - «ما أكرم خالداً إلاً سعيدٌ» - «إنما أكرم سعيدٌ خالداً» - «إنما أكرم خالداً سعيدٌ».

* * *

وقال النحويون:

يجوز تقديم المفعول به على الفعل والفاعل معاً، في نحو: «عَلِيّاً أَكْرَمْتُ»
ومنه قول الله تعالى: ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ (٤٧).

ويجب تقديمه عليهما في أربعة أحوال:

(١) أن يكون المفعول به اسم شرط، مثل: أَيَّهْمُ تَكْرِمِ أَكْرَمٍ - ﴿وَمَنْ يُضِلِلْ
اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (٣٣) [الرعد: ١٣].

أو مضافاً إلى اسم شرط، مثل: هَدْيِي مَنْ تَتَّبِعْ يَتَّبِعْكَ بَنُوكَ. والسبب أن اسم
الشرط له الصدارة في الجملة.

(٢) أن يكون المفعول به اسم استفهام مثل: مَنْ أَكْرَمْتُ؟ - مَا فَعَلْتُ؟ -
كَمْ كِتَابًا اشْتَرَيْتَ؟ - ﴿فَأَيُّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾ (٨١) [غافر: ٤٠].

أو مضافاً لاسم استفهام مثل: كِتَابَ مَنْ أَحَدْتَ؟

والسبب أن اسم الاستفهام له الصدارة في الجملة.

(٣) أن يكون المفعول به لفظ «كم» أو «كأين» الخبريّين، مثل: «كم كتاب ملكتُ - كم علمٍ حَوَيْتُ - وكم عُلَمَاءَ تخرُجُوا في مَدْرَسَتِي - وكأين من قَصِيدَةٍ شعري كَتَبْتُ».

أو مضافاً إلى «كم» الخبرية، مثل: «ذَنبَ كَمِ مُذْنِبٍ غَفَرْتُ».

(٤) أن ينصب المفعول به جوابُ «أما» وليسَ لجوابها منصوبٌ مُقَدَّمٌ غيره، مثل: «فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ - وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ».

وإنما وجب تقديمه في هذه الحالة ليكون فاصلاً بين «أما» وجوابها، فإذا وُجد فاصلٌ غيره فلا يجب تقديمه، مثل:

لَقَدْ كُنَّا نَخَافُ عَصَاكَ يَوْمَآ
فَأَمَّا الْيَوْمَ فَاَفْعَلُ مَا بَدَأَ لَكَ

* * *

وقال النحويون:

إذا تعددت المفاعيل في الكلام فَلَبَّغْضِهَا الْأَصَالَةَ فِي التَّقَدُّمِ عَلَى بَعْضِ.

● إما بسبب كونه مبتدأ في الأصل، كما في باب «ظن».

● وإما بسبب كونه فاعلاً في المعنى، كما في باب «أعطى».

فمفعولا «ظن» وأخواتها، أصلهما مبتدأ وخبر، فإذا قلت مثلاً: «عَلِمْتُ اللَّهُ رَحِيمًا» فالأصل: «اللَّهُ رَحِيمٌ».

ومفعولا «أعطى» وأخواتها ليس أصلهما مبتدأ وخبراً، غير أن المفعول به الأول هو فاعل في المعنى، فإذا قلت مثلاً: «الْبَسْتُ الْفَقِيرَ ثَوْبًا» فالفقير فاعلٌ في المعنى، لأنه هو الذي لبسَ الثوبَ، والثوبُ ملبوسٌ.

بناءً على هذا فالأصلُ تقديم ما أصله المبتدأ في باب «ظن» وما أصله الفاعل

في باب «أعطى» مثل: «ظننتُ البدرَ طالماً - أعطيتُ سعيداً الكتابَ - كسوتُ الفقيهَ جبَّةً».

قالوا: ويجوز العكس إن أمن اللبس.

ويجب تقديم أحد المفعولين على الآخر في أربعة أحوال:

(١) أن لا يؤمن اللبس، فيجب تقديم ما حقه التقديم، وهو ما كان مبتدأً أو فاعلاً في المعنى، مثل:

● «ظننتُ سعيداً خالداً» إذا كان سعيداً هو المظنون أنه خالد، وإلاً وجب تقديم خالد. «وهو من باب ظن».

● قول ذي السلطان: وهبتُ الأبَّ ابنته، إذا كان الابن هو مستحق العقاب فعفا عنه من أجل أبيه، وإذا كان الأب هو مستحق العقاب، قال: وهبتُ الابنَ أباه. «وهو من باب أعطى».

(٢) أن يكون أحد المفعولين ضميراً والآخر اسماً ظاهراً، فيجبُ تقديم ما هو ضميرٌ وتأخيراً ما هو ظاهر مثل: «أعطيتُك فرساً - فرساً أعطيتُهُ سعيداً».

(٣) أن يكون أحد المفعولين محصوراً فيه الفعل، فيجب تأخير المحصور سواءً أكان المفعول الأول أم الثاني، مثل: «ما أعطيت سعيداً إلا دِرهماً - ما أعطيتُ الدرهمَ إلا سعيداً».

(٤) أن يكون المفعول الأول مشتملاً على ضمير يعودُ على المفعول الثاني، فيجب تأخير الأول وتقديم الثاني، مثل: «أعطِ القوسَ باريتها».

إذ لو قدّم المفعول الأول في هذه الحالة لعاد الضمير على متأخر لفظاً ورتبةً، باعتبار أن المفعول الثاني رتبته التأخير عن المفعول الأول.

ولا يصحُّ في اللسان العربي عوْدُ الضمير على متأخر لفظاً ورتبةً معاً، إلا في نحو ضمير الشأن والقصة.

هذه مقرّرات علماء النحو بالنسبة إلى ترتيب عناصر الجملة فيما يتعلّق بالفعل والفاعل والمفاعيل.

* * *

وقال النحويّون:

يجب تقديم المبتدأ في ستة أحوال:

(١) أن يكون المبتدأ من الأسماء التي لها صدرُ الكلام، مثل:

● أسماء الشرط.

● أسماء الاستفهام.

● «ما» التعجبية.

● «كَمْ» الخبرية.

(٢) أن يكون المبتدأ مُشَبَّهًا باسم الشرط، مثل: «الذي يجتهد فله جائزة» -

كلُّ تلميذٍ يَجْتَهِدُ فَهُوَ مؤهَّلٌ للنجاح».

(٣) أن يضاف المبتدأ إلى اسم له صدرُ الكلام، مثل «غلامٌ من هو؟ - زمامٌ

كَمْ مَدْرَسَةٍ في يَدِ وزير التربية؟».

(٤) أن يكون المبتدأ مقترناً بلام التأكيد، وهي لام الابتداء، مثل: «وَلَمَبَدُّ

مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ» [البقرة: ٢/٢٢١].

(٥) أن يكون كلُّ من المبتدأ والخبر معرفةً أو نكرةً، ولا تُوجدُ قرينة تُعَيِّنُ

أحدهما، فيجب تقديم المبتدأ خشية التباس المُسَنَدِ بِالْمُسَنَدِ إِلَيْهِ، لأنَّ الأصل في

ترتيب المبتدأ أن يكون قبل الخبر، مثل:

● «أخوك عليٌّ» إذا أردت الإخبار عن الأخ.

● «عليّ أخوك» إذا أردت الإخبار عن عليّ .

(٦) أن يكون المبتدأ محصوراً في الخبر، مثل :

● ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ . . . ﴾ [آل عمران : ١٤٤/٣] .

● ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ ﴾ [هود ١٢/١١] ، أي : ما أنت إلا نذيرٌ .

فالمبتدأ في المثالين محصورٌ في الخبر .

* * *

وقال النحويون :

يجب تقديم الخبر على المبتدأ في أربعة أحوال :

(١) إذا كان المبتدأ نكرةً غير مفيدةٍ ومُخْبِراً عنها بظرفٍ أو جارٍ ومَجْرُورٍ، مثل : «في الدار رجلٌ - عندك ضيفٌ - لَدَيْنَا مَرِيدٌ - على أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ» .

(٢) إذا كان الخبرُ اسْمَ استفهام، مثل : «كَيْفَ حَالُكَ؟» أو مضافاً إلى اسم استفهام، مثل : «ابنُ مَنْ أَنْتَ؟ - صبيحةُ أَيِّ يَوْمٍ سَفَرُكَ؟» .

(٣) إذا اتَّصَلَ بالمبتدأ ضميرٌ يَعُودُ على شيءٍ من الخبر، مثل : «في الدار صاحبها - ملءُ عَيْنٍ حَبِيبِهَا - أمٌ على قلوبٍ أَقْفَالُهَا» .

(٤) أن يكون الخبر محصوراً في المبتدأ، مثل :

● «ما خالقٌ إلا الله» .

● «إنما محمودٌ مَنْ يَجْتَهِدُ» أي : ما محمودٌ إلا مَنْ يجتهد .

● «إنما الخالقُ الله» أي : ما الخالقُ إلا الله .

هذه مقررات النحويين بالنسبة إلى ترتيب عنصري الجملة الاسمية .

* * *

وقال النحويون:

الأسماء التي لها الصدارة في الجملة، فلا يتقدّمها إلا جازاً لها، أو مضاف إليها، أو حُرُوفُ العطف؛ هي:

(١) أسماء الاستفهام.

(٢) أسماء الشرط.

(٣) «ما» التعجبية.

(٤) «كم» الخبرية.

* * *

وقال النحويون:

إذا اجتمعت التوابع في جملة واحدة قُدِّمَ منها:

(١) النعت.

(٢) فعطف البيان.

(٣) فالتوكيد.

(٤) فالبديل.

(٥) فعطف النَّسَقِ، وهو ما كان بحرف عطف.

مثل: «بعثَ اللهُ الرَّسُولَ العَرَبِيَّ مُحَمَّدًا نَفْسَهُ أَخَا بَنِي إِسْحَاقَ والرَّسُلَ والنَّبِيِّينَ مِنْ قَبْلِهِ».

* * *

(٦)

نظر الأديب البليغ حول مراعاة ترتيب عناصر الجملة

إذا كان نظر علماء النحو إلى ترتيب عناصر الجملة هو على النحو الذي سبق بيانه، فإن نظر الأديب البليغ لا يكتفي بالتقيّد بما يجوز في التراكيب العربية،

فيستخدمها كيفما اتفق، بل يُنظر إلى دلالاتها، وإلى المعاني التي تُؤدّيها مُخْتَلَفَاتُ التراتيب، والتركيبات، فيستخدِمُ منها ما يدلُّ على ما يُريدُ التعبير عنه في كلامه بأخَصَرِ عبارة، ويُحاول دوماً أن يطابق بين اختياره منها وما يُريدُ التعبير عنه.

* * *

(٧)

دوائر عطاء الجملة الكلامية

الدائرة الصغرى:

أصغر دائرة عطاءٍ بيانيّ تقدّمه الجملة الكلامية يظهر بنسبة شيء إلى شيء.

● كنسبة الوجود إلى الأرض، فنقول: الأرض موجودة، أي: لها صفة الوجود، ففي هذه الجملة نَسَبْنَا الوجود إلى الأرض.

● وكنسبة العدم إلى شريك الباري، فنقول: شريك الباري معدوم، ففي هذه الجملة نسبنا العدم إلى شريك الباري.

● وكنسبة الطلوع أو الأفول إلى القمر، فنقول: طَلَعَ القمر — أفل القمر.

● وكنسبة الموت إلى إنسان كان حياً فمات، فنقول: مات فيصل.

من هذه الأمثلة نلاحظ أنّ ركناً من رُكْنَيْ كُلِّ جَمَلَةٍ فيها يتضمّن معنىً هو شيءٌ منسوبٌ، وأنّ الرُكْنَ الآخر من ركنيها يتضمّن معنىً هو شيءٌ منسوبٌ إليه معنى الركن الأول، وأنّ الألفاظ دوائاً على المعاني.

فبالتحليل يظهر لنا ثلاثة عناصر:

العنصر الأول: منسوبٌ.

العنصر الثاني: منسوبٌ إليه.

العنصر الثالث: نسبةً بينهما ذهنية، وقد يُدُلُّ عليها بلفظ، أو بحركة، وهذه النسبة هي الرابطة بين رُكْنِي الجملة الكلامية.

والنسبة في الجملة قد تكون بالإثبات كالأمثلة السابقة، وقد تكون بالنفي، وذلك حين تدخل على الجملة أداةً من أدوات النفي، فنقول مثلاً: ما طلع القمر، وما مات إبليس، وصوت الحمار ليس جميلاً، ولَا يَمْشِي الجماد.

وللتفريق بين رُكْنِي الْجُمْلَةِ الرَّئِيسِيْنِ والنسبة الرابطةِ بينهما ظَهَرَتْ عِدَّةُ مصطلحات عند العلماء على اختلاف تخصصاتهم.

فقالوا:

(١) المسند: وهو الخبر أو ما يَسُدُّ مَسَدَهُ في الجمل الاسمية، والفعل في الجمل الفعلية، أو ما يَعْمَلُ عَمَلَهُ.

(٢) المسند إليه: وهو المبتدأ في الجمل الاسمية، أو ما أصله المبتدأ، والفاعل أو ما ينوب عنه في الجمل الفعلية.

(٣) الإسناد: وهو الرابطة الذهنية بين المسند والمسند إليه، وقد يُدُلُّ على الرابطة بنحو ضمير الفصل وحركة الإعراب.

ويوجد هذا الاصطلاح لدى علماء اللغة العربية.

* * *

وقالوا:

(١) محكوم به «أي: مسند».

(٢) محكوم عليه «أي: مسند إليه».

(٣) والنسبة الحكمية «أي: الإسناد» وثمره الجملة «الحكم» ويوجد هذا الاصطلاح لدى علماء أصول الفقه.

* * *

وقالوا:

(١) موضوع «أي: مسند إليه».

(٢) محمول «أي: مسند».

(٣) النسبة بينهما «أي: الإسناد».

والجميع «قضية» وثمره القضية «الحكم» إيجاباً أو سلباً. ويوجد هذا الاصطلاح لدى علماء المنطق.

هذه مصطلحات متعدّدة ومُؤدّاهها لدى الجميع واحد.

ومن الجُمَل في حدود هذه الدائرة الصغرى ما يكون المسند فيها باعتبار مادته لا يتحقق إلاّ باجتماع مُسندٍ إليه متعدّد، مثل:

«اشْتَرَكْ زَيْدٌ وَعَمْرُو - اجتمع خالد وسعيد - جُمِعَ الشَّمْسُ والقمر - تقاتل المسلمون والمشركون».

وهكذا كلُّ ما يقتضي بمادّته المشاركة بين فريقين من أفعالٍ وغيرها.

الدائرة الثانية:

وهي الجملة التي تشتمل على دائرة عطاءٍ بياني يظهر بنسبة شيءٍ إلى شيءين، أَحَدُهُمَا هو الذي اتَّصَفَ بالشيء من جهة كونه مؤثراً به «أي: فاعلاً». والآخر هو الذي اتَّصَفَ بالشيء من جهة كونه متأثراً به (أي: مفعولاً به)، مثل: «ضَرَبَ زَيْدٌ عَمْرًا».

دلّت هذه الجملة على نسبة الضرب إلى زيدٍ ووصفه به من جهة كونه مؤثراً بالضرب (أي: ضارباً) ونسبة الضرب نفسه إلى عمروٍ ووصفه به من جهة كونه متأثراً بالضرب (أي: مضروباً).

فبالتحليل الفكريّ يظهر لنا أن الضربَ ذو نسبتين:

(١) نسبته إلى فاعله المؤثّر به فهو ضارب. «لذلك سمّوه فاعلاً».

(٢) نسبته إلى الواقع عليه المتأثر به فهو مضروب «لذلك سَمَّوهُ مفعولاً به».

ومثل: «خلق الله عزَّ وجلَّ الكون» فالخلق ذو نسبتين:

(١) أمَّا فاعله والمؤثرُ به فهو الله عزَّ وجلَّ. «وهو الخالق».

(٢) وأمَّا الواقعُ عليه والمتأثرُ به فهو الكون. «وهو المخلوق».

هذا تحليل قول علماء العربية: الفعل قد يتعدى إلى المفعول به. وأضيف أنه لا فرق من جهة المعنى بمقتضى هذا التحليل أن يكون تعدّي الفعل بدون وساطة، أو بوساطة حرف جرٍّ، مثل: عَلِمَ فلانُ المسألة، وَعَلِمَ بها.

الدائرة الثالثة:

وهي الجملة التي تشتمل على دائرة عطاءٍ بيانيٍّ يظهر بنسبة شيءٍ إلى ثلاثة أشياء.

الأول: هو الذي اتّصف بالشيء من جهة كونه مؤثراً به (أي: فاعلاً).

الثاني والثالث: هما اللذان اتّصفاً بالشيء من جهة كون كلٍّ منهما متأثراً به (أي: مفعولاً به) مع اختلاف صفة التأثير.

مثل: «كَسَى الأبُ ولَدَهُ ثوباً» فالكَسُو ذو ثلاثِ نِسَبٍ:

(١) نسبته إلى فاعله المؤثر به فهو كاسٍ.

(٢) نسبته إلى الواقع عليه المتأثر به فهو مَكْسُوٌّ، وهذا المكسو له جهتان

مختلفتان:

الجهة الأولى: كون المكسوَّ آخذاً للكسوة، لا بساً لها.

الجهة الثانية: كون المكسوَّ مأخوذاً، مَلْبُوساً، وهو نفسه الكسوة.

فصار بهذا للكسوِّ في الجملة ثلاثِ نِسَبٍ مَقْصُودَةٍ بالبيان.

وقس على هذا المثال أشباهه، مثل «عَلَّمَ الأُسْتَاذُ تَلْمِيذَهُ عِلْمَ النُّحُو - أعطى المُحْسِنُ الفَقِيرَ صَدَقَةً - وهَبَ اللهُ أَيُّوبَ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ».

الدائرة الرابعة :

وهي الجملة التي تشتمل على دائرة عطاءٍ بيانيٍ يظهر بنسبة شيءٍ إلى أربعَةِ أشياء .

الأول: هو الذي اتَّصَفَ بالشيءِ مِنْ جهة كونه مؤثراً به (أي: فاعلاً).

الثاني والثالث والرابع: هي الأشياء التي اتَّصَفَتْ بالشيءِ مِنْ جهة كون كلِّ منها متأثراً به «أي: مفعولاً به» مع اختلاف صفة التأثر في كلِّ منها.

مثل: «أَعْلَمَ اللهُ النَّاسَ مُحَمَّدًا رَسُولًا» فالإعلام في هذه الجملة ذو أَرْبَعِ نِسَبٍ:

(١) نِسْبَتُهُ إِلَى فاعله المؤثر به، فهو مُعْلِمٌ بِكَسْرِ اللام.

(٢) نِسْبَتُهُ إِلَى الواقعِ عليه المتأثر به فهو مُعْلَمٌ بفتح اللام، وهذا المعْلَمُ لَهُ ثلاث جهاتٍ مختلفات:

الجهة الأولى: كَوْنُ المُعْلَمِ مُسْتَفِيداً كاسباً لِلْعِلْمِ.

الجهة الثانية: كَوْنُ المُعْلَمِ أَحَدَ رُكْنِي القضيّة التي جرى الإعلام بها، وهو فيها مُسَنَدٌ إليه، وهو: «مُحَمَّدًا».

الجهة الثالثة: كون المُعْلَمِ أَحَدَ رُكْنِي القضيّة التي جرى الإعلام بها، وهو فيها مُسَنَدٌ، وهو: «رَسُولًا».

وأصلُ القضيّة التي جرى الإعلام بها هي: «مُحَمَّدٌ رَسُولٌ».

فظهر بهذا التحليل أن الإعلام ذو أربع نِسَبٍ.

* * *

الاقْتِصَارُ عَلَى بَيَانِ بَعْضِ النَّسَبِ :

بعد بيان هذه الدوائر الأربع لعطاء الجملة الكلامية، نلاحظ أنه قد لا يستدعي موضوع الجملة أكثر من الدائرة الأولى، وقد يستدعي موضوعها الدائرة الثانية، أو الدائرة الثالثة، أو الدائرة الرابعة.

ومع استدعاء موضوع الجملة أكثر من الدائرة الأولى، فقد يتعلّق غرضُ المتحدث بالاقْتِصَارِ عَلَى بَعْضِ النَّسَبِ وإغفال بيان ما يتعلّق بالنَّسَبِ الأخرى، وله ذلك متى أفاد بحديثه ما يريد إبلاغه من الإسناد، وأدناه الدائرة الأولى، ويكون فيها إسنادُ شيءٍ إلى شيءٍ بجملةٍ تُقدِّمُ فائدةً ما. ودون ذلك يكون الكلام ناقصاً ولغوياً.

ولا بُدُّ من ملاحظة أن المحذوف المقدر الذي يُمكن إدراكه وتصوّره ذهنياً لوجود قرينة تدلُّ عليه لفظية أو غير لفظية، هو كالمذكور، ولدى علماء العربية والبلاغيين ضوابط لذلك.

* * *

(٨)

نظرة حول ما يُسمّى فضلةً في الجملة عند النحويين

لعلّ ما يصفه النحويون في الجملة الكلامية بأنه فضلةٌ يقصدون به أنه عطاءٌ فكريٌّ زائدٌ على أصغر دوائر الجملة الكلامية المفيدة.

فالذي أراه أنه لا توجدُ في الجملة الكلامية كلمةٌ تؤدّي معنىً مقصوداً بالبيان، لا تؤدّيه كلمةٌ أخرى غيرها تأديّةً مباشرةً، يصحُّ أن تُسمّى لدى التحقيق فضلةً في علم المعاني، لأنّ الفضلةً يُبغى أن تُطلق على ما في الكلام من ألفاظٍ تدلُّ على معنىٍ هو زائدٌ على المطلوب بيانه والتعريفُ به.

فإذا قال النحويون أو البلاغيون تبعاً للنحويين: إن ما زاد على ركني

الإسناد «المسند والمسند إليه» في الجملة الكلامية هو فضلة، كالمفاعيل وسائر متعلقات الفعل، فَقَصْدُهُمْ من ذلك فيما أَرَى أَنَّ الجملة المفيدة لا بُدَّ فيها حَتْمًا مِنْ رُكْنِي الإسناد، وإلَّا كان الكلام غير مفيد، فما زاد على ذلك يعتبرُ زائداً على أذني ما يَجِبُ أَنْ تُبْنَى بِهِ جملةٌ كلاميةٌ مفيدة، لا أنه زائد على ما يَقْصِدُ المتكلمُ بيانه.

إذ كُلُّ فِكْرَةٍ دَلَّ عليها لفظٌ في الكلام — مهما دَقَّتْ هذه الفكرة — إذا كانت مقصودة بالبيان، فإنه يُمكنُ أَنْ تُصَاغَ لِأَجْلِهَا جُمْلَةٌ مفيدة من «مُسْنَدٍ وَمُسْنَدٍ إِلَيْهِ» وأن تكون هذه الجملة منفصلة مستقلة، إلاَّ أَنْ الاقتصَادَ في التعبيرِ جعلَ الجُمْلَةَ تَسْتَوْعِبُ بتعلقاتِ الإسنادِ في المفاعيلِ، وبقيودِ الإسنادِ، وبقيودِ المُسْنَدِ، وبقيودِ المُسْنَدِ إليه عِدَّةَ جُمَلٍ، وهي لَوْ حُلِّكَتْ وَفُصِّلَتْ لكانت في بعضها جملتين، ولكانت في بعضها ثلاثَ جُمَلٍ، وفي بعضها أَرْبَعَ جُمَلٍ، وخَمْسَةٌ وَسِتَّةٌ وأكثر من ذلك، بَعْدَ المتعلقاتِ والقيودِ.

بهذا البيان التحليلي لا يَصِحُّ أَنْ نعتبر في مثل عبارة: «ضَرَبَ زَيْدٌ عَمْرًا» أَنَّ «عَمْرًا» فضلة، لأنَّ فِكْرَةَ وَقُوعِ ضَرْبِ زَيْدٍ عَلَى عَمْرٍو فِكْرَةٌ مقصودةٌ بالبيان، تُصَاغُ لَهَا جُمْلَةٌ خَاصَّةٌ مفيدة، نَقُولُ فِيهَا: «ضَرَبَ عَمْرٍو» أو «عَمْرٍو مَضْرُوبٌ»، وهكذا سائرُ متعلقاتِ الجملة الكلامية وقيودها.

أما الفضلة الحقيقية فهي الكلمة التي لا تُضِيفُ إلى معنى الجملة معنى مقصوداً بالبيان، كالمترادفات المتتابعات في الجملة، وكزوائد التأكيد في الجملة التي لا يُرْفَعُ بِذِكْرِهَا تَوْهْمُ المِجَازِ أو العَلَطِ وَسَبْقِ اللِّسَانِ، كَأَنَّ تَقُولَ: «جاء القومُ أجمعون أكتعون أَبْصَعُونَ» فالمترادفاتُ الإطنابية، والمؤكداتُ الإطنابية زوائد لم تُضِفْ جديداً، ولم ترفَعِ تَوْهْمًا.

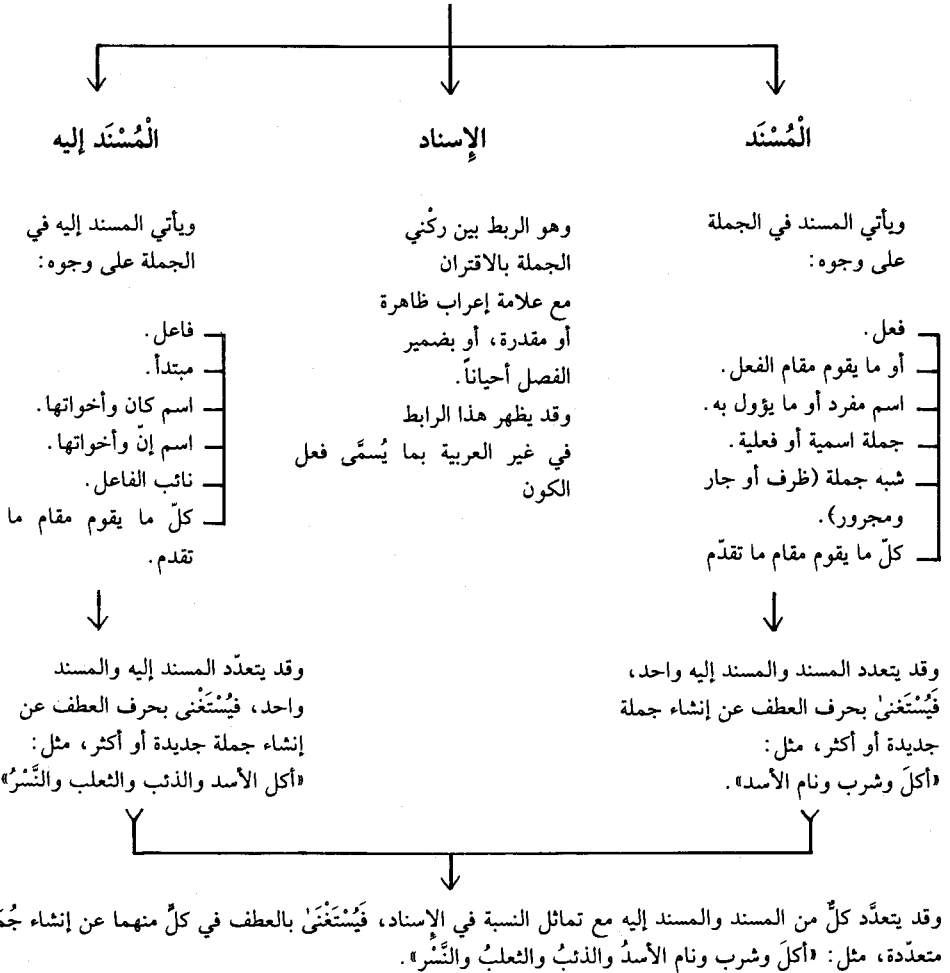
* * *

(٩)

مشجرات تحليلية للجملة الكلامية

(١)

الجملة الكلامية



(ب)

تابع تقسيمات المُسند

المسند بحسب إطلاقه وتقييده

ما ينوب مناب المسند

المسند بحسب نَسْبِهِ

← مطلق:

مثل: «مرض الحصان».

← مقيد بالوصف:

مثل:

● «مرض الحصان مرضاً

شديداً».

● «نام الأرنب نوماً

عميقاً».

← مقيد بحرف الجر:

مثل:

● «مرض الفاسق بمرض

الزهري».

● «قتل القاتل بالسيف».

● «أكل الرسول بيده».

● «انطلق المسافرون من محطة

القطار».

● «تجاوز الله للعاصي عن

سيئاته الصغرى».

← مقيد بقيد الغرض في المفعول

لأجله:

مثل: «حضرتُ إكراماً لك».

أي: حضوري مقيد بأنه لأجل

إكرامك.

← مقيد بقيد الظرف الزمني

أو المكاني:

مثل:

«وُجِدَ في داره يومَ السبت

صباحاً».

← ما يعمل عمل الفعل:

● كالمصدر، مثل:

«ضربي العبد مسيئاً»

● واسم الفعل، مثل:

«هيئات لما تُوعدون».

← الظرف:

مثل:

«الجزاء الأمثل يومَ الدين».

← الجار والمجرور:

مثل:

● «زيد في الدار».

● «إبليس من الجن».

● «متأ الصالحون ومتأ

دون ذلك».

← لازم:

وهو ذو نسبة واحدة.

فليس له إلا فاعل أو

ما يقوم مقامه.

← متعدّد ذو نسبتين:

فله فاعل ومفعول به

أو ما يقوم مقامهما.

← متعدّد ذو ثلاثِ نَسَب:

فله فاعل، ومفعول به

أول، ومفعول به ثان،

أو ما يقوم مقامها.

← متعدّد ذو أربعِ نَسَب:

فله فاعل، ومفعول به

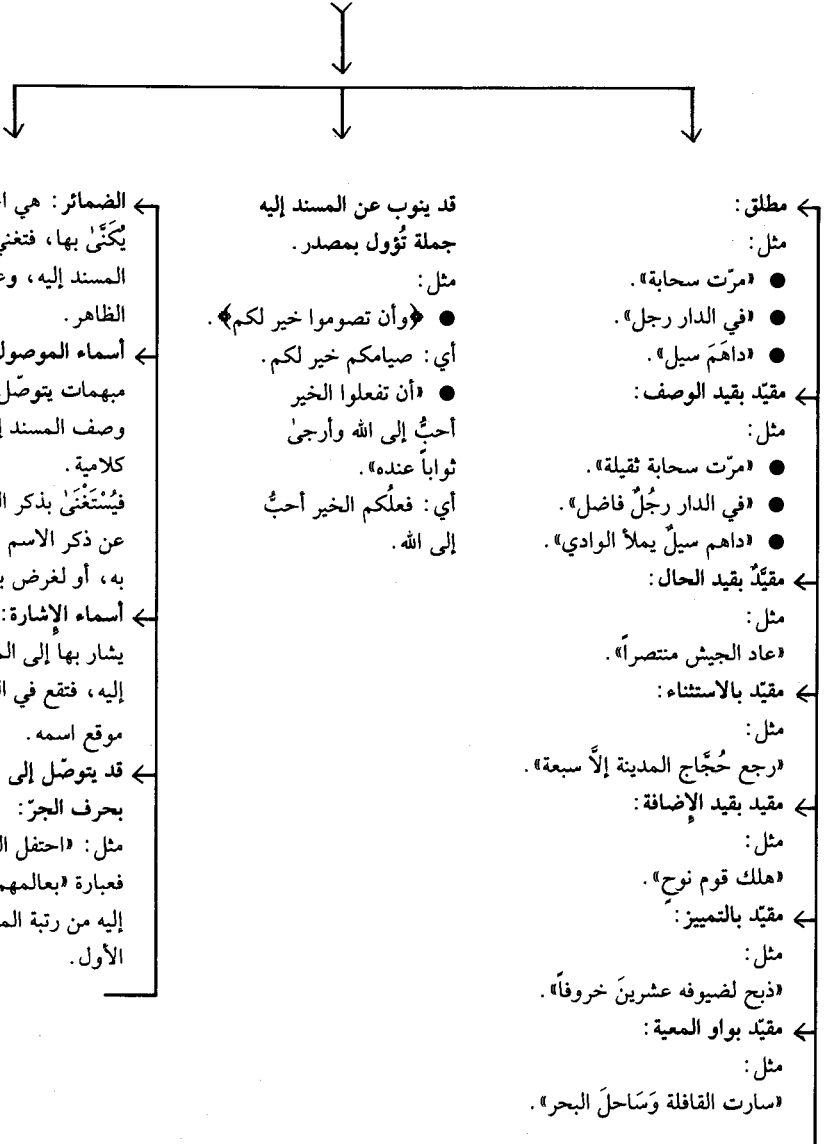
أول، ومفعول به ثان،

ومفعول به ثالث، أو ما

يقوم مقامها.

(ج)

تابع تقسيمات المسند إليه



(د)

تابع تقسيمات الإسناد

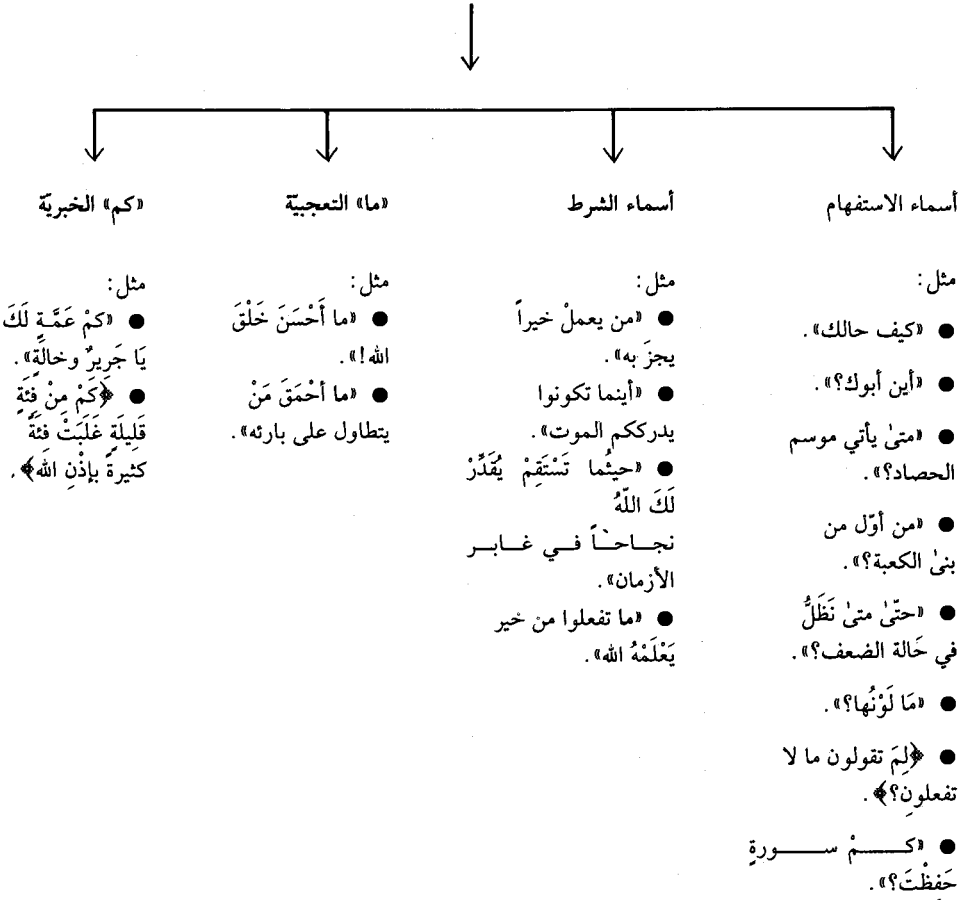
النسبة بين المسند والمسند إليه
مطلقة ومقيدة



(هـ)

الأسماء التي لها الصدارة في الجملة

توجد في اللسان العربيّ أسماء لها الصدارة في الجملة العربية، فلا يصحّ أن يتقدّم عليها إلاّ جارٌّ لها، أو مضاف إليها، أو حروف العطف، وهي:



تقسيم الجملة إلى خبرية وإنشائية

استقر رأي الحدّاق من النحويّين وعلماء أصول الفقه وغيرهم، وعلماء البلاغة، على أنّ الكلام ينحصر في قسمين: «الخبر، والإنشاء» وأنّه ليس له قسمٌ ثالث.

وقبل استقرار الرأي على هذا التقسيم كان للباحثين في هذا الموضوع أقوال، فقيل: أقسامُ الكلام عشرة، وقيل: تسعة، وقيل: ستة، وقيل: خمسة، وقيل: أربعة، وقيل ثلاثة، على اختلاف وجهات أنظار أصحاب هذه الأقوال.

والدليل على انحصار الكلام المفيد في الخبر والإنشاء، أنّ الكلام:

- إمّا أن يحتمل لذات الكلام لا لمقتضياتٍ أخرى — أن يُقال فيه هو مطابق للواقع أو غير مطابق للواقع، فهو الخبر.

- وإمّا أن لا يحتمل أن يقال فيه ذلك باعتبار منطوقه، لا باعتبار دلالاته اللزومية، فهو إنشاء.

فالجملة المفيدة تنقسم إلى قسمين:

القسم الأوّل: الجملة الخبرية، وهي الجملة التي اشتملت على خبرٍ ما، فَمَضْمُونُهَا إخبارٌ عن أمرٍ ما، إيجاباً أو سلباً.

والقصدُ منها الإعلامُ بأنّ الحُكْمَ الَّذِي اشتملت عليه له واقعٌ خارج العبارة الكلامية مطابقٌ له.

القسم الثاني: الجملة الإنشائية، وهي الجملة التي لم تشتمل على خبرٍ، وإنما أنشأ التُّطْقُ بِهَا حَدَثًا ما، كإنشاءِ طَلَبِ الفعل، إِذَا قُلْتَ لَابْنِكَ: اسْقِنِي، أَوْ قُلْتَ لَهُ: اجْتَهِدْ، أَوْ لَا تَكْسَلْ، وكإنشاءِ طَلَبِ الفَهِم، إِذَا قُلْتَ للفقهاء: هل يجوز أن أفعل كذا؟ أو ما حكمُ كذا شرعاً؟ ونحو ذلك.

فليس القصد من الجملة الإنشائية الإعلامَ بنسبةٍ حكميةٍ تحققت أو لم تتحقق في الواقع، وإن كان يلزم عقلاً من إيراد الجملة الإنشائية فهِمُ قضايا وجُمَلِ خبريةٍ أُخْرَى لا تَدُلُّ عليها الجملة الإنشائية بمنطوقها دلالةً مُبَاشِرَةً، بل تَدُلُّ عليها باللُّزوم الذهني.

كدلالة الجملة الاستفهامية على أنَّ المستفهمَ جاهلٌ يطلبُ الفهمَ، وكدلالة جملة التَّمَنِّي على أنَّ من أنشأها يتمنى في نفسه ما دَلَّت عليه عبارته، وكدلالة جملة المدح على أنَّ المادح بها يُعَبِّرُ بِصِدْقٍ عَمَّا في نفسه.

إلى غير ذلك من دلالات خبرية تُستفاد باللُّزوم الذهني من الجُمَلِ الإنشائية.

تعريف الخبر:

الخبر: هو الكلام الذي يحتمل الصِّدْقَ والكذِبَ، باعتبار كونه مجرد كلام، دون النظر إلى قائله، ودون النظر إلى كونه مقترناً بما يدُلُّ على إثباته حتماً، أو نفيه حتماً، ومُدْلُولُهُ لا يتوقف على التُّطْقِ به، ويدخُلُ فيه الوعدُ والوعيدُ، لأنهما خبران عَمَّا سيفعله صاحب الوعد والوعيد.

مثل: طَلَعَتِ الشَّمْسُ – نَزَلَ الغَيْثُ – بعثَ اللهُ مُحَمَّدًا رَسُولًا – سيأتي الدِّجَالُ في آخر الزمان – سينزل عيسى ويقتل الدجال – سَنَلِقِي في قلوب الذين كفروا الرعب – وَعَدَّ اللهُ الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض – والكافرون لهم عذابٌ أليم.

تعريف الإنشاء:

هو الكلام الذي لا ينطبق عليه تعريف الخبر، ولدى تحليل حقيقته أقول: هو الكلام الذي يَتَوَقَّفُ تحقُّقُ مدلوله على التُّطْقِ به، كالأمرِ والنهي، والدعاء، والاستفهام، والمدح والذم، وإنشاء العقود التي يتم تحقُّقُها بالتُّطْقِ بالجُمَلِ التي تدلُّ عليها، مثل: بِعْتُكَ - اشتريتُ منك - زَوَّجْتُكَ - أَنْتِ طالق - أعتقتُكَ.

* * *

(١١)

هل التعجب من الخبر أو من الإنشاء؟

اختلف العلماء في التعجب هل هو من أقسام الخبر أو من أقسام الإنشاء، ورجح الكثيرون أنه من أقسام الخبر، لأنه إخبارٌ عن حالة التَّعَجُّبِ القائم في النفس.

والقائلون بأنه من أقسام الإنشاء لاحظوا أنه صيغةٌ كلاميةٌ يُطَلَبُ بها تعظيم الأمر في نفس السامع.

وللعلماء في تعريف التعجب أقوال:

قال ابنُ فارس: هو تفضيلُ شيءٍ على أضرابه.

وقال ابن الصائغ: هو استعظام صفةٍ خرج بها المتعجب منه عن نظائره.

وقال الزمخشري: معنى التعجب تعظيم الأمر في قلوب السامعين، لأنَّ التعجب لا يكون إلا من شيءٍ خارج عن نظائره وأشكاله.

وقال الرماني: المطلوب في التعجب الإنباه، لأنَّ من شأن الناس أن يَتَعَجَّبُوا ممَّا لا يُعْرَفُ سَبَبُهُ، فكلَّمَا اسْتَبْهَمَ السَّبَبُ كان التَّعَجُّبُ أَحْسَنَ... وأصلُّ التعجب إنما هو للمعنى الذي خفي سببه، والصيغة الدالة عليه تُسَمَّى تَعَجُّباً

مجازاً... ومن أجل الإبهام لم تعمل «نعم» إلا في الجنس، من أجل التّفخيم،
ليقع التّفسير على نحو التّفخيم بالإضمار قبل الذكر.

والتعجب يكون بصيغ تدلّ عليه من لفظ المتعجب منه، وبصيغ أخرى من
غير لفظه:

فالصيغ التي يتعجب بها من لفظ المتعجب منه تأتي على وزان: «ما أفعله»
مثل: ما أكرمه - ما أحسنه - ما أشجعه. وعلى وزان: «أفعل به» مثل أكرم به -
أحسن به - أشجع به.

ومنها:

● قول الله عز وجل في سورة (مريم / ١٩ مصحف / ٤٤ نزول):

﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدٍ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا...﴾

أي: ما أشدّ سمعهم وما أشدّ بصرهم يومئذ.

● قول الشاعر:

ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا وأقبح الكفر والإفلاس بالرجل

● قولنا: ما أجمل الصدق - أكرم بالعفيف الشريف.

استخدام الاستفهام للتعجب:

وقد يُستخدَم الاستفهام للتعجب، مثل قول الله عز وجل في سورة (البقرة /

٢ مصحف / ٨٧ نزول):

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ

تَرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾!؟

أي: كُفْرُكُمْ مع هذه الأدلة الداعية إلى الإيمان أمرٌ مستغربٌ يُشِيءُ التعجبُ

منهُ.

استخدام عبارات مختلفات في التعجب:

وتُستخدَم عباراتٌ أخرى في التعجب، مثل:

«سُبْحَانَ اللَّهِ — اللَّهُ دَرُّ فُلَانٍ — مَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ» .

لفظة «كَبْرٌ» مثل :

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول):

﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ .

● وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الصف/ ٦١ مصحف/ ١٠٩ نزول):

﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ .

وَتُسْتَعْمَلُ فِي التَّعَجُّبِ كَلِمَةٌ: «وَيْ» وهي كناية عن جُمْلَةٍ تَعَجُّبِيَّةٍ .

وَتُسْتَعْمَلُ أَيْضًا كَلِمَةٌ: «وَاهَا» فِي التَّعَجُّبِ مِنْ طِيبِ الشَّيْءِ، فَهِيَ بِمَعْنَى: «مَا

أَطْيَبَهُ» .

وَتُسْتَعْمَلُ أَيْضًا كَلِمَةٌ: «هَيْتَ» فِي التَّعَجُّبِ، تَقُولُ الْعَرَبُ: «هَيْتَ لِلْحَلْمِ»

و «هَيْتَ لَكَ» .

عبارات التعجب الواردة في كلام الله :

قال المحققون: إذا ورد التعجب في كلام الله صُرفَ إلى المخاطبين، ولهذا

يُعَبَّرُ بِبَعْضِ الْعُلَمَاءِ بِالتَّعَجُّبِ بَدَلِ التَّعَجُّبِ، أَي: هُوَ تَعَجُّبٌ مِنَ اللَّهِ لِلْمَخَاطَبِينَ .

● قول الله عزّ وجلّ بشأن أهل النار في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/

٨٧ نزول):

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى

النَّارِ ﴿١٧٥﴾ .

أي: هؤلاء ينبغي أن تتعجبوا من شدة صبرهم على عذاب النار .

● وقول الله عزّ وجلّ السابق آنفاً: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ .

أي: تعجبوا من شدة سمعهم ومن شدة بصرهم .



الفصل الثالث

الجملة الخبرية وأحوالها

(١)

الصّادق والكاذب من الخبر والمُخبر به

لا بد من التفريق بين الخبر والمُخبر به، من جهة الصدق والكذب، لتنحل إشكالات قد تُوجّه للتعريف وبعض النصوص.

أولاً: الخبرُ الصّادقُ، أو الخبرُ الصّدقُ، هو ما كان من الكلام مطابقاً للواقع في حقيقة الأمر.

ثانياً: والخبرُ الكاذبُ، أو الخبرُ الكذبُ، هو ما كان من الكلام غير مطابق للواقع في حقيقة الأمر.

ثالثاً: أمّا المُخبرُ الصّادقُ فهو المُخبرُ بخبرٍ يدّعي أنّه صادقٌ فيه، وهو يُعتقد أنّه حقٌّ وصدقٌ، ولو كان ما أخبر به كذباً غير مطابق للواقع في حقيقة الأمر. وحين ينفي الحقّ وهو يُعتقد صحّة ما يقول فإنه يُسمّى نافياً، ولا يُسمّى جاحداً للحق، إذ هو يقول ما يعتقد.

رابعاً: وأمّا المُخبرُ الكاذبُ فهو المُخبرُ بخبرٍ يدّعي أنّه صادقٌ فيه، وهو يُعتقد أنّه باطلٌ وكذبٌ، ولو كان ما أخبر به صدقاً مطابقاً للواقع في حقيقة الأمر، ونفيه للحقّ يُسمّى جحداً وجحوداً، فالذي ينفي أمراً وهو يرى أنّه أمرٌ ثابت هو جاحد، ويقال له نافي بمقتضى الإطلاق العام.

فالمناق الذي يقول بلسانه: «مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ» هو كاذبٌ في قوله، لأنّه يقولُ خلافَ ما يَعْتَدِ، وكلامُهُ حَقٌّ وصدَقٌ، لأنّه مطابقٌ للواقع، وقد دلّنا الله عزَّ وجلَّ على هذا التفريق في قوله في سورة (المنافقون) / ٦٣ مصحف / ١٠٤ (نزل):

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ ﴾ .

وبهذا التفريق بين الحَبْرِ والمخْبِرِ به تنحلُّ إشكالاتٌ واعتراضاتٌ موجهةٌ على التعاريف التي ذُكرت للصدِّقِ والكذب (١).

وفي بيان أنّ النافيّ المستيقن من الأمر جاحِدٌ قال الله عزَّ وجلَّ في سورة (النمل) / ٢٧ مصحف / ٤٨ (نزل):

﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَحَمَدُوا بِهَا وَأَسْتَيْقَنَتَهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ .

ووصف الله بالجحود الذين يُذركون آيات الله ثم ينكرون دلائلها الدامغات، ومن ذلك قوله تعالى في سورة (الأنعام) / ٦ مصحف / ٥٥ (نزل) خطاباً لرسوله:

﴿ قَدْ نَعَلِمَ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ .

* * *

(١) انظر بحث «الصدِّق» في كتاب «الأخلاق الإسلامية وأسسها» للمؤلف . الجزء (١) ص ٥٢٦ الطبعة الثانية .

(٢)

أغراض توجيه الخبر

(١) الأصل في توجيه الكلام الذي يتضمّن خبراً ما أن يكون الغرض منه الإعلام بالخبر الذي دلّ عليه الكلام، أي: إفادة المخاطب الحكم الذي تضمّنته الجملة أو الجمل الخبرية.

ويُسمّى هذا عند علماء البلاغة «فائدة الخبر».

(٢) وقد يراد من توجيه الكلام الذي يتضمّن خبراً ما، إعلام المخاطب بأن المتكلّم عالم بالحكم الذي تضمّنته الجملة الخبرية، ولا بُدّ عندئذٍ من أن يكون المخاطب عالماً به.

ويُسمّى هذا عند علماء البلاغة «لازم الفائدة».

(٣) وقد يُنزّل العالم بالخبر منزلة الجاهل به لأنه لا يعمل بمقتضى علمه.

(٤) وقد يراد من توجيه الخبر إعلان الفخر بما تضمّنه الخبر، كقول

الشاعر:

أنا أفتأئذ الحامي الدّمار وإنّما يُدافع عن أحسابهم أنا أو مثلي

الدّمار: ما تجب حمايته، كالأهل والعرض.

الأحساب: ما يعده المرء من مناقب وشرف الآباء.

(٥) وقد يراد منه المدح والثناء، مثل أن نقول: اللّهم أنت خالق السماوات

والأرض العليم القدير الحكيم الرحيم الغفار، ناصيتي بيدك، أنت قيوم السماوات والأرض الذي لا تأخذه سنة ولا نوم.

(٦) وقد يراد منه التحسّر والتأسّف، كقول الشاعر:

ذهب الذين يعاش في أكتافهم وبقيت في خلف كجلد الأجرَب

(٧) وقد يُرادُ منه الاسترحامُ والاستعطافُ، كقول الشاعر:

رَبِّ إِنِّي لَا أَسْتَطِيعُ اصْطِبَارًا فَأَعْفُ عَنِّي يَا مَنْ يُقِيلُ الْعِثَارَا

(٨) وقد يرادُ منه إظهارُ الضَّعْفِ، كقول الشاعر:

قَدْ كُنْتُ عُدَّتِي الَّتِي أَسْطُو بِهَا وَيَدِي إِذَا اشْتَدَّ الزَّمَانُ وَسَاعِدِي

(٩) وقد يُرادُ مِنْهُ التوبيخُ، كجواب المؤمنين للمنافقين في موقفِ الحشر

بَعْدَ أَنْ يُضْرَبَ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ، بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ
الْعَذَابُ، فِي الْحَوَارِ بَيْنَهُمَا الَّذِي عَرْضُهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الحديد/
٥٧ مصحف/ ٩٤ نزول):

﴿يَأْتِدُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانَةُ
حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّتْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿١١﴾﴾

وكالمقالة التي تُوجِّهُ للذين يكتزون الذَّهَبَ والفِضَّةَ حين يُعَدَّبُونَ بِصَفَائِحِهَا
الْمَحْمِيَّةِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، إِذْ يُقَالُ لَهُمْ كَمَا جَاءَ فِي سُورَةِ (التوبة/ ٩ مصحف/
١١٣ نزول):

﴿... هَكَذَا مَا كَفَرْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾

(١٠) وقد يُرادُ منه إظهارُ الفرحِ، كقولِ أَهْلِ الْجَنَّةِ مظهرين الفرحِ من خلال
ثنائِهِمْ عَلَى اللَّهِ بِمَا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ، كَمَا جَاءَ فِي سُورَةِ (الزمر/ ٣٩ مصحف/
٥٩ نزول):

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدُّهُ وَأَوْثَقَنَا الْأَرْضَ نَتَّبِعُ مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ
فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾

(١١) وقد يرادُ منه الوعظُ، بتحريكِ النَّفْسِ مِنْ مَحَاوِرِ مَطَامِعِهَا وَمَخَافِهَا،
كَاسْتِعْرَاضِ نَعِيمِ الْجَنَّةِ لِاسْتِثَارَةِ مَطَامِعِ النَّفْسِ، وَاسْتِعْرَاضِ عَذَابِ النَّارِ لِاسْتِثَارَةِ
مَخَافِ النَّفْسِ، حَتَّى تَلْتَزِمَ صِرَاطَ التَّقْوَى.

(١٢) وقد يُراد منه الشتيمة، كأن يُقال لِلْقَيْطِ: أَنْتَ وَكَدُّ زَنَا.

(١٣) وقد يُرادُ منه التذكير، كأن يُقالَ عِنْدَ الْمُحْتَضِرِ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ.

(١٤) وقد يراد منه إعلامٌ غير المخاطب، على طريقة: إِيَّاكَ أَخاطَبُ وَاسْمَعِي يَا جَارَةَ.

إلى غير ذلك من أغراض.

* * *

(٣)

خروج الخبر عن أصل معناه للدلالة على الأمر والنهي والدعاء
قد يَخْرُجُ الخبر عن أصل المعنى الذي وُضِعَتْ له صِيغُهُ، فَيُكَدَّلُ به على الأمر
والنهي والدعاء.

(١) فقد يُرادُ من الخبر في الجملة الخبرية الأمر، ومِنْهُ:

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنَمِّمَ الرِّضَاعَةَ... ﴾ [الآية

. [٢٣٣]

أي: ولْيُرْضِعِ الوالِدَاتُ أَوْلَادَهُنَّ.

● وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول):

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ
وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيَطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ
حَكِيمٌ ﴾

أي: ليكن المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض... إلى آخر الآية.

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ...﴾ [الآية ٢٢٨]. أي: ليتربصن.

أقول: والسبب في دلالة الجملة الخبرية على الأمر أحياناً بمساعدة القرائن، ليس من استخدام الصيغة الخبرية في معنى الأمر، ولكن هذه الدلالة آتية من دلالة اللزوم الفكري.

فوصف الله المؤمنين بأن بعضهم أولياء بعض، وبأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، إلى آخر ما جاء في الآية، يدلُّ باللزوم الفكري على أنهم لا يتحلَّون بهذه الصفات إلا بدافع من إيمانهم وخوفهم من ربهم، وحرصهم على طاعته فيما أمرهم به، ولو لم تكن هذه الصفات مما أمر الله به لما كانت أثراً من آثار إيمانهم الصادق.

ثم إن مثل هذه الصيغة الخبرية الواردة في الآية والمحفوظة بالقرائن، تدلُّ على أن الأمر بما جاء فيها من صفات للمؤمنين، قد كان أمراً بالغ الشدة والجزم، فلم يكن في وسع المؤمنين الصادقين إلا الالتزام بطاعة الله فيه.

(٢) وقد يراد من الخبر في الجملة الخبرية النهي، ومنه:

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ ۖ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ...﴾ [الآية ١٩٧].

أي: فمن فرض فيهنَّ الحجَّ فلا يرْفُثُ ولا يفسُقُ ولا يجادلُ في الحجِّ.

وأقول هنا نظير الذي قلته في دلالة الخبر على الأمر إذا حُفَّ بما يُخرجه عن الخبرية من قرائن.

ورأى ابنُ العربي أن ما ذُكِرَ من خروج الخبر إلى التَّهْيِ غَيْرُ مقبول،
لاحتِمَالِ حَمَلِ الكلام على معنى آخر غير ما ذكروا.

فقال في قوله تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ...﴾ ليس نفيًا
لوجودِ الرَّفَثِ، بل هو نفيٌ لمشروعِيته، فإنَّ الرَّفَثَ يوجَدُ من بعض الناس، وأخبارُ
الله تعالى لا يجوزُ أن تقع بخلاف الواقع، وإنما يَرْجِعُ النفيُّ إلى وُجُوده مشروعاً،
لا إلى وُجُوده مَحْسُوساً، قال: وهذه هي الدفينة التي فاتت العلماء فقالوا: إنَّ
الخبر يكون بمعنى النهي، وما وُجد ذلك قطُّ، ولا يصحُّ أن يُوجَدَ، فإنَّهما مختلفان
حقيقةً، ويتباينان وصفاً.

أقول: ما ذكر ابنُ العربي وجهٌ يُمكن أن يُقصد، لكن استعمالَ التَّهْيِ بمعنى
التَّهْيِ أمرٌ متداولٌ بين الناس، ويدعو إليه عدَّة دواعٍ بلاغية، منها التلطفُ
بالمخاطب^(١).

(٣) وقد يراد من الخبر في الجملة الخبرية الدعاء، وهذا كثير، منه:

● قولنا: يَرْحَمُ اللَّهُ موتانا وَيَغْفِرُ لَهُمْ.

أي: اللهم ارحمهم واغفر لهم.

وفي استخدام الخبر في الدَّعاء معنى التَّفَاوُلِ باستجابةِ اللَّهِ الدَّعاء، وتحقُّقه
في الواقع حتَّى يكون خبراً.

● قولُ يوسف عليه السلام لأخوته فيما حكى الله في سورة (يوسف)

١٢ مصحف/ ٥٣ نزول):

(١) كأن يقول صاحبُ الدار لضيوفه: لا نَوْمَ على الأرائك (= الكَنَب) ولا طعام إلا في غرفة
الطعام، ولا دخول بالأحذية إلى الغرف المفروشة، إنَّه ينهَى ولكن بأسلوب الخبر ترفُّقاً
وتلطفاً بضيوفه. ويقول حاجبُ الأمير: لا دُخُولَ على الأمير اليوم، أي: لا تدخلوا عليه
فقد منع من الدُخُولِ عليه.

﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (١٧) .
 يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ: جملةٌ خبريةٌ أُريدَ منها الدُّعاءُ لهم بأن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ .

● وكان من دعاء الرُّسُولِ ﷺ لبعضِ أصحابه: «غَفَرَ اللَّهُ له» بأسلوبِ الخيرِ، والمعنى: اللَّهُم اغْفِرْ له، وكان هذا الدُّعاءُ مشعراً بقربِ وفاةٍ من دعا الرُّسُولَ له .
 به .

* * *

(٤)

التأكيد وعدمه في الجملة الخبرية

الإخبار الابتدائي:

الأصل في الجملة الخبرية مثبتة كانت أو منفية أن يؤتى بها خالية من المؤكدات، حين لا يكون حال المخاطب يستدعي تأكيد الخبر له، وذلك إذا كان خالي الذهن، ليس في نفسه ضدُّ مُقدِّم الخبرِ عواملُ شكٍّ أو إحجامٍ عن قبُولِ أخباره .

ويحسُن في ابتداء الإخبار بالخبر إيرادُه غيرَ مُقتَرِنٍ بأيةٍ مؤكِّداتٍ، ومن الأمثلة قولُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ لرَسُولِهِ في أوَّلِ ما أنزلَ عليه من تنزيلٍ في سورة (العلق) / ٩٦ مصحف / ١ نزول):

﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤ ﴾ .

فالجملةُ الخبريةُ في هذا النَّصِّ خاليةٌ مِنَ المؤكِّداتِ، لعدم وجودِ الدَّاعي إلى اقترانها بما يقتضي تأكيدها .

الإخبار الطلبي:

وحين يكون لدى المخاطب شك في الخبر، أو عوامل شك أو إحجام عن قبول الخبر، فإن حاله تكون حال طالب يسأل عن صحة الخبر، فيحسن أن يؤتى له بالجملة الخبرية مقترنة بما يؤكد صحة مضمون الخبر، ويؤتى فيها بمقدار من المؤكّدات يلائم نسبة التشكك لديه وعوامل الإحجام عن قبوله الخبر.

فإذا كانت عوامل الشك والإحجام غير قوية حسن في الكلام إيراده مقترناً ببعض المؤكّدات من درجة دنيًا.

● وكلما زاد الشك وقويت عوامل رفض قبول الخبر، كان من بلاغة الكلام الخبري زيادة المؤكّدات فيه، بمقدار حالة نفس المخاطب.

وقد ينزل غير الشاك منزلة الشاك إذا بدت عليه أمارات الشك منذ بداية التلويح له بالخبر.

الإخبار الإنكاري:

● وحين يصل المخاطب إلى حالة الإنكار ورفض قبول الخبر، يكون من بلاغة الكلام الخبري وجوب اقترانه بالمؤكّدات التي تلائم حالة الإنكار والرفض في نفس المخاطب به ضعفاً وشدةً.

وقد ينزل غير المنكر منزلة المنكر إذا بدت عليه أمارات الإنكار.

أمثلة:

المثال الأول:

حذر الله عز وجل الذين كفروا من أن ينزل بهم الإهلاك الشامل الذي أنزله بكفار أهل القرون الأولى، مبيناً لهم أنه إنما أهلكهم ضمن مجرى سنته الثابتة في معاملة عباده.

● فكان البيان الإخباري في أول الأمر بأسلوب التساؤل عن إهلاك المكذبين الأولين، لانتزاع الاعتراف بحصول المستفهم عنه، فقال الله عز وجل في سورة (المرسلات / ٧٧ مصحف / ٣٣ نزول):

﴿الْمُتَكِّبِينَ الْأُولِينَ﴾ .

فإهلاك المكذبين الأولين لرسل ربهم قضية معروفة لدى الناس الموجه لهم هذا السؤال، لذلك اكتفى النص في بدء الأمر بتوجيه السؤال لهم عن إهلاك الأولين.

● ثم جاء البيان الإخباري مقترناً بمؤكد واحد ابتدائي، فقال الله عز وجل في سورة (ق / ٥٠ مصحف / ٣٤ نزول):

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا...﴾ .

أي: هم أشد بطشاً من كفار أهل مكة، وكان هذا في الربع الأول من العهد المكي من نشأة الدعوة المحمدية.

فجاء في هذه الآية جرّ تمييز «كم» الخبرية بحرف الجرّ «من» للتأكيد، مع أنه يجوز مجيء هذا التمييز غير مجرور بمن.

● ثم جاء البيان الإخباري حول الموضوع نفسه مقترناً بمؤكدين اثنيين، فقال الله عز وجل في سورة (ص / ٣٨ مصحف / ٣٨ نزول):

﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلا تِلْكَ حِينِ مَنَاصِرِ﴾ .

فأضيفت في الجملة كلمة «من» داخلية على لفظ «قبلهم» مع جرّ تمييز «كم» بحرف الجرّ «من» فهذه الزيادة في اللفظ قد جاءت لزيادة التأكيد على ما جاء في سورة (ق).

● ثم جاء البيان الإخباري حول الموضوع نفسه مقترناً بتأكيد زائد على

النَّصِيْنِ السَّابِقِيْنَ، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (يُونُسَ / ١٠ / مَصْحَفِ / ٥١ نَزُولِ):
 ﴿وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا...﴾ [الآية ١٣].

فجاء الخبر في هذه الجملة مؤكداً بثلاثة مؤكّدات:

(١) لام الابتداء في «لقد».

(٢) حرف «قد» الذي من معانيه التحقيق، ويؤتى به للتأكيد.

(٣) إدخال حرف «من» على لفظ «قبلهم» مع أن الكلام يتم بدونها^(١).

المثال الثاني:

في سورة (يس / ٣٦ / مَصْحَفِ / ٤١ نَزُولِ) قَصَّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ قِصَّةَ الرُّسُلِ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ أَرْسَلَهُمْ إِلَى أَهْلِ قَرْيَةٍ يُقَالُ: إِنَّهَا إِنطَاكِيَّةٌ، وَيُقَالُ: إِنَّ الرُّسُلَ الثَّلَاثَةَ هُمْ مِنَ الرُّسُلِ السَّبْعِيْنَ الَّذِينَ أَرْسَلَهُمْ عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى الْأَقَالِيمِ، لِئِنْشُرَ دِينَ اللهِ فِي الْأَرْضِ.

فقال الله عز وجل فيها:

﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا مِّنْ أَصْحَابِ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٧﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ ﴿١٨﴾ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٩﴾ قَالُوا رَبَّنَا عَلَّمْنَا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا الْكُفْرَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَا عَلَّمْنَا إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿٢١﴾﴾.

● ففي ابتداء الأمر عرّض الرسولان على أصحاب هذه القرية أنهما رسولان يُبَلِّغانِ تعاليم الدين، فكان بيانهما من قبيل الإخبار الابتدائي غير المقرون بمؤكّدات لفظية.

(١) يرى الكوفيون والأخفش من البصريين أن حرف «من» يُزاد للتأكيد دون تحقيق الشروط التي ذكرها البصريون لزيادته، وهي أن يكون مسبوقةً بنفي أو نهي أو استفهام بحرف «هل» وأن يكون مجرورها نكرة، وفاعلاً أو مفعولاً به أو مبتدأً. ويرى ابن مالك أن «من» الداخلة على «قبل» و«بعد» زائدة. والنظر في النصوص القرآنية يرجح رأي الكوفيين في هذه القضية.

● فلما كذَّبهما القومُ عزَّزهما اللهُ برسولِ ثالثٍ، وقالوا لهم: ﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ﴾ فجاء الإخبارُ مؤكِّداً تأكيداً متوسطاً، لأنَّ إنكارِ القومِ كانَ في بدايته.

والتأكيدُ في هذهِ الجملةِ الخبريةِ قد جاء بحرفِ التأكيدِ «إنَّ» ويمكنُ أن نفهم من تقديمِ [إليكم] على عامله [مُرْسَلُونَ] تأكيداً آخر، لأنَّ فيه معنى القصر، أو زيادةَ الاهتمام، وكلاهما يفيد تأكيداً، والمؤكد الثالث كون الجملة جُملةً اسميةً.

● ولما أصرَّ القومُ على تكذيبِ الرُّسلِ الثلاثة، زاد الرُّسلُ جملتهم الخبرية تأكيداً، فقالوا: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾.

والمؤكدات في هذه الجملة هي:

(١) ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ﴾ فهذه العبارة بمثابة القسم.

(٢) «إنَّ» وهو حرف تأكيد.

(٣) اللام المرحقة للخبر في عبارة ﴿لَمُرْسَلُونَ﴾.

(٤) كون الجملة جُملةً اسميةً.

مخالفة مقتضى الظاهر:

إذا أوردنا الخبر لخالي الذهن مجرداً من المؤكدات، وللمتردد الشاك مقروناً ببعض المؤكدات استحساناً، وللمنكر مقروناً بالمؤكدات بحسب درجة إنكاره وجوباً بلاغياً، كان إيرادنا الخبر جارياً على مقتضى الظاهر، وهذا يُسمَّى «إخراج الكلام على مقتضى الظاهر».

وقد تقتضي حالة المخاطب الخفية غير الظاهرة تأكيد الخبر له، مع أنَّ توجيه الخبر له كان بصورة ابتدائية لا تستدعي بحسب الظاهر تأكيد الخبر له، فحين نُؤكِّدُ له الخبر ملاحظين حالته الخفية، فإنَّا نُوجِّه له الخبر مؤكِّداً على

خلاف مقتضى الظاهر، وهذا يُسَمَّى: «إخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر».

ولإخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر عدّة صور:

الصورة الأولى: أن يُنَزَّل خالي الذهن منزلة المتردّد السائل الذي يَطْلُبُ تأكيد الخبر له، وذلك إذا شَعَرَ من مقدّمات الكلام بما يُشير إلى مضمون الخبر، فاستشرفت نفسه وتطلّعت تطلّع المستغرب المتردّد في قبول الخبر، أو الطالب لما يُؤكّده له.

● فمن أمثلة هذه الصورة قول الله عزّ وجلّ بشأن نوح عليه السلام، في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿وَأَوْحَىٰ إِلَيْكَ نُوحٌ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا بَتَّيْسَ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (٣٦) وَأَصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ (٣٧).

من الظاهر أنّ مقدّمات الكلام تُشعرُ بأنّ الله عزّ وجلّ قضى أن يُغرق مَنْ لم يؤمن مع نوح من قومه، إذ الإخبارُ بأنّه لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِهِ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ، والأمرُ بصناعة الفلّك التي لا تتسع إلاّ للمؤمنين ولما يحتاجون في رحلتهم البحريّة، يدلُّ على أنّ سائر القوم مُغرقون، فاستشرفت نفس نوح عليه السّلام لطلب تأخير إهلاكهم إمهالاً، أو صرفِ النظر عن إهلاكهم إهلاكاً عامّاً شاملاً، فبادره الله عزّ وجلّ بقوله: ﴿وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾. وأكدّ له ما قضاه سبحانه من إهلاكهم بالغرق، فقال له: ﴿إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ (٣٧). فاشتملت هذه الجملة على مؤكّدين: «إنّ» و«الجملة الاسميّة».

● ومن الأمثلة قول الله عزّ وجلّ لرسوله في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول) بشأن الذين اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً:

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١١٣).

وَصَلَّ عَلَيْهِمْ: أي: واذن لهم بالرحمة، مُسَمِعاً دُعَاءَكَ لَهُمْ.

بعد هذا الأمر للرسول بأن يُصَلِّيَ عليهم، استشرفت نفس الرسول ﷺ للسؤال عن فائدة هذه الصلاة الَّتِي يُسَمِعُهُمْ بِهَا، فقال الله له مؤكداً: ﴿إِنَّ صَلَوَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾. فاشتَمَلَتْ هذه الجملة على مؤكدين: «إِنَّ» و«الجملة الاسمية».

● ومن الأمثلة قول بشار بن بُرْد:

بَكْرًا صَاحِبِي قَبْلَ الْهَجِيرِ إِنَّ ذَاكَ النَّجَاحَ فِي التَّبْكِيرِ

الْهَجِيرُ: نصف النهار في القَيْظِ عند شِدَّةِ الْحَرِّ.

لَمَّا قَدَّمَ الأَمْرَ بالتبكير كانت نفس المخاطب مستشرفةً للسؤال عن السَّبَبِ، طالبةً تأكيد مضمون الجملة التعليلية التي تجيب على سؤالٍ يُلَاحِظُ ذَهنًا، فقال: «إِنَّ ذَاكَ النَّجَاحَ فِي التَّبْكِيرِ». فأكد بمؤكدين: «إِنَّ» و«الجملة الاسمية».

ونظيره قول بعض العرب يستحث على حُدَاءِ إبله لِتُسْرَعِ فِي السَّيْرِ:

فَغَنَّهَا وَهِيَ لَكَ الْفِدَاءُ إِنَّ غَنَاءَ الْإِبِلِ الْحُدَاءُ

الصورة الثانية: أَنْ يُنْزَلَ مَنْ لَا يُنْكَرُ مَا سَيَقْدَمُ لَهُ مِنْ خَيْرٍ مَثْرَلَةً مَنْ يُنْكَرُهُ، إذا ظهرت عليه بعضُ أماراتِ الإنكارِ في داخل نفسه.

● فَمِنَ الأمثلة التي ذكرها البلاغيون لهذه الصورة، قول «حجل بن نضلة

القيسي» بشأن ابنِ عمِّه «شقيق»:

جَاءَ شَقِيقٌ عَارِضًا رُمَحَهُ إِنَّ بَنِي عَمِّكَ فِيهِمْ رِمَاحُ

مجيء «شقيق» واضعاً رُمَحَهُ عَرِضاً يُشْعِرُ بِأَنَّهُ يُنَافِسُ بِشَجَاعَتِهِ وَسِلَاحَهُ، فَكَانَهُ يُنْكَرُ أَنَّ أَبْنَاءَ عَمِّهِ لَدَيْهِمْ أَسْلِحَةٌ وَأَنَّهُمْ شَجْعَانُ، فَاقْتَضَى حَالُهُ تَأْكِيدَ الْخَبَرِ الْمَوْجِهَ لَهُ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ عَمِّهِ مُؤَكِّدًا: «إِنَّ بَنِي عَمِّكَ فِيهِمْ رِمَاحُ».

فيهم رماح: أي: في حوزتهم وفي ملكهم رماح كثيرة.

الصورة الثالثة: أَنْ يُنْزَلَ الْمُنْكَرُ مِنْزَلَةً غَيْرَ الْمُنْكَرِ، فَلَا يُعْتَدَّ بِإِنْكَارِهِ وَلَا يُلْتَمَسَ إِلَيْهِ، وَذَلِكَ إِذَا كَانَ لَدَيْهِ مِنَ الْأَدَلَّةِ الْوَاضِحَةِ وَالْبَرَاهِينِ الْقَاطِعَةِ، مَا يَكْفِي لِإِقْنَاعِ أَهْلِ الْفِكْرِ الْمُنْصَفِينَ الَّذِينَ يَنْشُدُونَ الْحَقَّ.

● فَمِنَ الْأَمْثَلَةِ عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ، أَنْ يَأْتِيَ وَاحِدٌ مِنْ صِغَارِ الْمَلَائِكِينَ فَيَتَطَاوَلَ عَلَى شَخْصٍ لَا يَعْرِفُهُ بِذَاتِهِ، وَلَكِنْ يَعْرِفُ اسْمَ الْبَطْلِ الْعَالَمِيِّ لِلْمَلَائِكَةِ، فَيَتَحَدَّثُ هَذَا الْمَلَائِكُ الصَّغِيرُ هَذَا الشَّخْصَ، فَيَقُولُ لَهُ: «أَنَا فُلَانٌ» دُونَ أَنْ يُؤَكِّدَ كَلَامَهُ بِأَيَّةِ مُؤَكَّدَاتٍ، عِنْدئذٍ يَنْخَلَعُ قَلْبُ الْمَلَائِكِ الْمُتَحَدِّثِ وَيَنْهَزِمُ.

الصورة الرابعة: أَنْ يُنْزَلَ الْعَالِمُ بِفَائِدَةِ الْخَبَرِ وَبِلَازِمِ فَائِدَتِهِ مِنْزَلَةً الْجَاهِلِ بِالْخَبَرِ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ غَيْرُ عَامِلٍ بِمَقْتَضَى عِلْمِهِ، فَيُقَدِّمُ لَهُ الْخَبَرَ كَمَا يُقَدِّمُ لِلْجَاهِلِينَ بِهِ.

● فَمِنَ الْأَمْثَلَةِ عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ الْمَوَاعِظُ الَّتِي تُقَدَّمُ عَلَى أَلْسِنَةِ الْوَعَاظِ لِلْعَالَمِينَ بِهَا، تَنْزِيلاً لَهُمْ مِنْزَلَةً الْجَاهِلِينَ بِهَا، لِأَنَّهُمْ لَا يَعْمَلُونَ بِمَقْتَضَى مَا يَعْلَمُونَ.

وُيَسَمَّى هَذَا تَذْكَيراً، أَوْ تَنْبِيهاً لِلْمَخَاطِبِينَ مِنْ غَفَلَاتِهِمْ.

* * *

(٥)

مؤكّدات الجملة الخبرية

التوكيد:

التوكيد في اللغة: أضلهُ شدُّ السَّرجِ على ظهر الدابةِ بالسُّيُورِ حتّى لا يسقط، وتسمّى هذه السُّيُورُ توكيداً وتأكيداً.

ثم استعمل التوكيد في توثيق العهود.

ومن هذا المعنى اللُّغوي أَخَذَ لِتَقْوِيَةِ صِدْقِ الْكَلَامِ الْخَبْرِيِّ بِمَا يُوَكِّدُهُ مِنْ أَلْفَاظِ اسْمٍ «التوكيد».

والغرض من توكيد المتكلم كلامه، إِعْلَامُ الْمَخَاطَبِ بِأَنَّهُ يَقُولُ كَلَامَهُ جَازِماً، قَاصِداً لَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ كَلَامُهُ، مُتَّبِعاً مِنْهُ، لَا يَقُولُهُ عَنْ تَوَهُّمٍ أَوْ تَزْوِيرٍ أَوْ تَضْلِيلٍ أَوْ اخْتِرَاعٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ، كَمَا يَفْعَلُ صَانِعُو الْقِصَصِ بِاسْتِعْمَالِ قُدْرَاتِهِمُ التَّخْيِيلِيَّةِ فِي تَأْلِيفِ قِصَصِهِمُ الْمَخْتَرَةَ.

والتوكيد في الجمل إنما يكون للإسناد «أي: الحكم» فيها، موجبة كانت أو سالبة.

مؤكدات الإسناد الخبري:

لكل من الجملة الفعلية والجملة الاسمية موجبة كانت أو سالبة مؤكداً تُؤكِّدُ إِرَادَةَ صِحَّةِ وَصِدْقِ الْإِسْنَادِ فِيهَا، أَوْ تُؤكِّدُ تَحَقُّقَ صِدْقِ الْإِسْنَادِ فِيهَا مُوجِباً كَانَ أَوْ سَالِباً.

والأصل في بناء الجملة في اللسان العربي الجملة الفعلية، خالية مما يدل على إرادة تأكيد النسبة فيها، مثل:

«اقتربت الساعة — وانشق القمر — وأهلك الله المكذبين الأولين — ولا تخفى على الله خافية — وما انتصر أولياء الشيطان على أولياء الرحمن».

ويؤكد الإسناد في الجملة الخبرية بمؤكدات، قد ينفرد بعضها، وقد يجتمع مع غيره بشروط، ويختص بعضها بالجملة الفعلية، وبعضها يختص بالجملة الاسمية، وبعضها يؤكد به الجملتان الفعلية والاسمية.

وفيما يلي بيان لما تم إحصاؤه منها:

المؤكد الأول: تقديم ما هو فاعل في المعنى على فعله، مثل: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ — وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

وسبب إفادة هذا التقديم التأكيد، أَنَّ المُسْنَدَ إليه وهو الفاعلُ قد أُسْنِدَ إليه الفعلُ مرَّتين .

الأولى: تظهر حينما نقول في نحو: «خالدٌ جاهدٌ في الله حقَّ جهاده» خالدٌ: مبتدأ، وخبرُهُ جملة: «جَاهَدَ...» .

والثانية: تظهر حينما نقول: «جاهدًا» فعل ماضٍ، وفاعله ضمير مستتر يعود على «خالد» .

فالجهاذُ أُسْنِدَ إلى لفظ «خالدٍ» أوْلاً، وأُسْنِدَ إلى ضميره ثانياً، واجتماع هَذَيْنِ الإسْنَادَيْنِ في الجملة هو بمثابة تكرير الجملة .

وتقديم ما هو فاعل في المعنى على فعله يجعل الجملة جملةً اسمية .

المؤكّد الثاني: اختيار الجملة الاسمية بدل الجملة الفعلية ابتداءً، والسببُ في كون الجملة الاسمية تحمل تأكيداً لا تحمله الجملة الفعلية، أَنَّ خبر الجملة الاسمية يحمل في التقدير الذي يُلاحَظُ في ذهن العربيّ ضميراً يعودُ على المبتدأ، أو ما أصلُهُ المبتدأ، فيكون حالُ الجملة الاسمية دوماً مثل حال تقديم ما هو فاعل في المعنى على فعله، قد جرى فيها الإسنادُ إلى المسندِ إليه مرَّتين :

الأولى: إسناذه إلى الاسم الظاهر .

الثانية: إسناذه إلى ضميره .

المؤكّد الثالث: كلمة «قَدْ» الحرفية، وتختصُّ بالدخول على الفعل المتصرف الخبريّ المثبتِ المجردِ من ناصبٍ وجازم، ومنْ حرف تنفيس، وتكونُ معه كالجزء منه، فلا تُفصلُ عنه إلاّ بالقسمِ أحياناً .

ولكلمة «قد» الحرفية خمسةُ معانٍ، هي: التوقُّعُ، وتقريبُ الماضي من الحال، والتقليل، والتكثير، والتحقيق .

هذا المعنى الأخير وهو التحقيق هو المقصود هنا، مثل:

● ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّهَا﴾ [٩/ الشمس/ ٩١] أي: نُؤكِّدُ إثباتَ فلاحِ مَنْ زَكَّى

نفسه.

● ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ [٤/ ق/ ٥٠] أي: نُؤكِّدُ تحقُّقَ هذا العِلْمِ.

● ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ [٣٣/ الأنعام/ ٦] أي: نُؤكِّدُ تحقُّقَ حصولِ

عِلْمِنَا بِكُلِّ مَا يَحْزَنُكَ حِينًا بَعْدَ حِينٍ مِمَّا يَقُولُ الْكَافِرُونَ.

● ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا﴾ [٦٣/ النور/ ٢٤] أي: نُؤكِّدُ

تحقُّقَ حصولِ هذا العِلْمِ.

المؤكِّد الرابع: القَسَمُ، مثل:

● وَاللَّهِ لَفَعَلْتُ - والضحي والليل إذا سَجَى ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وما قَلَى -

أَقْسِمُ لِأَفْعَلَنَّ، بالنون الخفيفة أو الثقيلة - أَحْلَفُ بِاللَّهِ لَفَعَلْتُ أَوْ لِأَفْعَلَنَّ بِالنون الخفيفة أو الثقيلة.

وقد يجتمع القَسَمُ وحرف «قد» مثل:

﴿وَالَّذِينَ وَالَّذِينَ وَالَّذِينَ﴾ [١] وَطُورِ سِينِينَ [٢] وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ [٣] لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ

تَقْوِيرٍ [٤] [التين ٩٥].

المؤكِّد الخامس: نونا التوكيد الثقيلة والخفيفة، ويؤكدان الفعل المضارع،

ويؤكدان فعل الأمر، مثل:

● ﴿وَلَيْسَ صُرْتُكَ اللَّهُ مِنْ يَبْصُرُهُ﴾ [٤٠/ الحج/ ٢٢].

● ﴿وَلَيْنَ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ لَيْسَجَنَّ وَلْيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾ [٣٦] [يوسف/ ١٢]

النون في «لَيْسَجَنَّ» هي نون التوكيد الثقيلة، وفي «لْيَكُونَا» هي نون التوكيد الخفيفة.

المؤكِّد السادس: لأم الابتداء، وهي التي تقع في صدر الجملة، وتفيد توكيد

مضمون الجملة، وتخليص المضارع للحال، ولا تدخل إلا على:

- (١) الاسم، مثل: ﴿لَأَنْتَ أَشَدُّ رَهَبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ﴾ [١٣/الحشر/٥٩].
 (٢) الفعل المضارع، مثل: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ
 وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [٨٢/المائدة/٥].

(٣) الفعل الذي لا يتصرف، مثل:

- ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [٦٢/المائدة/٥].
- ﴿لَيْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [٨٠/المائدة/٥].
- ﴿وَلَيْعَمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ [٣٠/النحل/١٦].
- ﴿فَلْيَعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ [٧٥/الصافات/٣٧].

المؤكد السابع: اللام المزحلقة، وهي لام الابتداء حينما تُزحَلَقُ عن صدر الجملة.

وهي تُزحَلَقُ بَعْدَ «إِنَّ» المكسورة عن صدر الجملة، فتدخُلُ على الخبر، مثل: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [٣٩/إبراهيم/١٤]. وتدخُلُ على معمول الخبر إذا كان صالحاً لدخول اللام عليه، مثل: إِنَّ اللَّهَ لَكُلِّ شَيْءٍ يَعْلَمُ. وتدخُلُ على اسم «إِنَّ» إذا كان متأخراً عن خبرها، مثل: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ [٤٤/النور/٢٤]. وتدخُلُ على ضمير الفصل، مثل: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ [٦٢/آل عمران/٣].

المؤكد الثامن: «إِنَّ» و«أَنَّ» بكسر الهمزة وفتحها، وهما من الأحرف المشبهة بالفعل، لأنها تَعْمَلُ فيما بَعْدَهَا شبيهة عَمَلِ الفِعْلِ فيما بَعْدَهُ، وتدخُلان على الجُمَلِ الاسميّة.

وكلُّ منهما يَنْصِبُ المبتدأ الذي لا يَلْزَمُ الصدارة دائماً، وَيُسَمِّي اسمها، وَيَرْفَعُ الخَبَرَ غَيْرَ الطَّلَبِيِّ والإنشائي، وَيُسَمِّي خَبَرَهَا. وتفيدان تأكيد النسبة بين اسمها وخبرها، مثل:

- ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [٣٨/الحج/٢٢].

● ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ [١٥ / طه / ٢٠].

● ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء / ٢٦].

● ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الحج / ٢٢].

المؤكد التاسع: «إن» المخففة من الثقلية، وتدخل على الجملتين الفعلية والاسمية، مثل:

● ﴿ وَإِن كُنتُمْ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ [يس / ٣٦].

● ﴿ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ﴾ [البقرة / ٢].

● ﴿ وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِیْنَا إِلَيْكَ ﴾ [الإسراء / ١٧].

المؤكد العاشر: ضمير الفصل، وهو الضمير الذي لا محل له من الإعراب، ويقع فصلاً بين المبتدأ والخبر، أو بين ما أصله مبتدأ وخبر، مثل:

● ﴿ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِن عِنْدِكَ ﴾ [الأنفال / ٨].

● ﴿ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾ [المائدة / ٥].

● ﴿ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾ [القصاص / ٢٨].

● ﴿ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلُّ مِنكَ مَا لَا وُلْدًا ﴾ [الكهف / ١٨].

وضمائر الفصل تُفيد التأكيد وتفيد الاختصاص أيضاً.

المؤكد الحادي عشر: «إنما» و «أصلهما «إن» و «أن» ضُمَّت إليهما الزائدة للتأكيد، فكفَّتهما عن العمل، وهيأتُهُما للدخول على الجمل الفعلية، فهما يدخلان على الجملتين الاسمية والفعلية، وبِضْمٍ «ما» إليهما اجتمع في لفظيهما مؤكداً، إذ أصلُهُما يُفيد التأكيد، وزاد التأكيد بضم «ما» إليهما، مثل:

● ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَلِمْ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ [الأحقاف / ٤٦].

● ﴿ إِنَّمَا تُوْعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴾ [الذاريات/ ٥١].

● ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ ﴾ [ص/ ٦٥/ ٣٨].

● ﴿ إِنْ يُوحَىٰ إِلَىٰ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [ص/ ٣٨].

المؤكد الثاني عشر: كلمة «أَمَّا» الشرطية، وهي حرف شرطٍ وتفصيلٍ وتوكيد.

أما كونها شرطية فيدلُّ عليه لزومُ الفاء بعدها. وأما كونها تفصيلية فهو الغالبُ من أحوالها. وأما كونها مؤكدة، فقد قال الزمخشري بشأنها كما ذكر ابن هشام: فائدة «أَمَّا» في الكلام أن تُعْطِيَهُ فضل توكيد، تقول: زيد ذاهب، فإذا قصدت توكيد ذلك وأنه لا محالة ذاهبٌ، وأنه بصددِ الذهاب، وأنه عزيزة، قُلْتَ: أما زيدٌ فذاهبٌ.

ويأتي بعدها المبتدأ، أو الخبر، أو جملة شرط، أو اسم منصوبٌ بالجواب.

ومن الأمثلة قول الله تعالى في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةٌ فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا... ﴾ [الآية ٢٦].

المؤكد الثالث عشر: أدوات التنبيه، ومنها «ألا» التي تردُّ للتنبيه في فاتحة

الكلام، وتدخلُ على الجملتين الاسمية والفعلية، مثل:

● ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [يونس/ ١٠].

● ﴿ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسٌ مَصْرُوعًا عَنْهُمْ ﴾ [هود/ ٨].

وقول لبيد:

ألا كلُّ شيءٍ ما خلا الله باطلٌ وكلُّ نعيمٍ لا محالة زائلٌ

ومنها «أما» الاستفتاحية، والتي تأتي بمعنى «حقاً» كقول أبي صخر
الهُذلي:

أَمَا وَالَّذِي أَبْكِي وَأَضْحَكَ وَالَّذِي أَمَاتَ وَأَحْيَا وَالَّذِي أَمَرُهُ الْأَمْرُ

المؤكد الرابع عشر: تكرير النفي، مثل قول الشاعر:

لَا. لَا أَبُوحُ بِحُبِّ بَنْتَةَ إِنَّهَا أَخَذَتْ عَلَيَّ مَوَائِقًا وَعُهُودًا

المؤكد الخامس عشر: الأحرف التي تُضاف في الكلام، وتُسَمَّى «زائدة»
ويدخل فيها كلُّ حرفٍ إذا حُذِفَ لم ينقص شيءٌ من المعنى المراد، فإيجاده في
الكلام يكون لغرض التوكيد، ومنها:

● «مَا» بعد «إذا»، مثل:

﴿ وَإِذَا مَا أَنْزَلْتَ سُورَةً نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ﴾ [التوبة/ ٩].

● «مِنْ» الجارة، مثل:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِيْبٍ مِّنْ نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾
[الأعراف/ ٧]. و ﴿ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْ نُنَاجِيهِ ﴾ [يونس/ ١٠].

● «الباء» الجارة، مثل:

﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [النساء/ ٤].

و ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة/ ٢].

و ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ [الزمر/ ٣٦].

المؤكد السادس عشر: السينُ وسوف الداخلتان على فعل دالٌّ على وَعْدٍ

أو وَعِيدٍ، مثل:

- ﴿سَتَفْرُغُ لَكُمْ آيَةُ الْفَلَاحِ﴾ [الرحمن / ٥٥].
- ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران / ٣].
- ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ [آل عمران / ٣].
- ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء / ٤].
- ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّبُهُمْ نَارًا﴾ [النساء / ٤].

المؤكد السابع عشر: «لَكِنَّ» وهي حرف ينصب الاسم ويرفع الخبر، قال ابن عصفور هي للتوكيد، ويصحَبُ التوكيد معنى الاستدراك. وقيل: للاستدراك فقط، وقيل تَرِدُ تارةً للاستدراك وتارةً للتوكيد، مثل:

- ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمَكْمَلِينَ﴾ [البقرة / ٢].
- ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام / ٦].

وقول الشاعر الحماسي:

لَكِنَّ قَوْمِي وَإِنْ كَانُوا ذَوِي عَدَدٍ لَيْسُوا مِنَ الشَّرِّ فِي شَيْءٍ وَإِنْ هَانَا

المؤكد الثامن عشر: «لَنْ» قال علماؤنا: وَلَا تَفِيدُ توكيدَ النَّفْيِ وَلَا تَأْيِيدُهُ خلافاً للزمخشرى.

أقول: أما التأييد فلا تُفِيدُهُ حَتْمًا، وأما التوكيد فالظاهر أَنَّهَا تُفِيدُهُ، لِأَنَّ لَفْظَ «لَنْ» زَائِدٌ عَلَى لَفْظِ «لَا» النَّافِيَةِ، وَالزِّيَادَةُ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ إِنَّمَا تَكُونُ غَالِبًا لِزِيَادَةِ الْمَعْنَى، وَظَاهِرٌ أَنَّ لَفْظَ «لَنْ» مُشَابِهٌ لِلْفَرْقِ «لَا» بِزِيَادَةِ نُونِ سَاكِنٍ فِي آخِرِهِ لَزِمَ مِنْ وَجُودِهِ حَذْفُ الْأَلْفِ، لِأَنَّهُ سَاكِنٌ مَدِّيٌّ لَيْنٌ، وَالنَّافِيَةُ ابْتِدَاءً يَقُولُ: لَا أَفْعَلُ، فَإِذَا أَلْحَقَ عَلَيْهِ طَالِبُ الْفِعْلِ قَالَ: لَنْ أَفْعَلُ.

* * *

تقسيم الإسناد في الجملة إلى حقيقي ومجازي (وهو المجاز العقلي)

الإسناد الحقيقي:

إذا جعل المتكلم الإسناد في جملته مبنياً على ما يعتقد أنه هو له في الواقع
فإسناده إسناد حقيقي لا مجاز فيه.

أمثلة:

● كقول المؤمن المسلم: الله خالق كل شيء - وهو الذي يُنبِت الزرع -
وَيُدِرُّ الضَّرْعَ - وَيُخَيِّبُ وَيُمِيتُ.

● وكقول النصراني: أحيأ عيسى الأموات - وخلق الطيور.

فإنه يعتقد أن عيسى هو فاعل هذا الإحياء والخلق باعتباره كما يعتقد أنه أحد
الأقانيم الثلاثة التي يتكوّن منها الله «الأقانيم»: هي في اعتقاد النصارى أشخاص
متفصلة مع أنها إله واحد.

● وكقول المشرك الوثني الذي لا يُلاحظ أفعال الله فيما يجري في الكون من
أحداث ذات أسباب، بل يرى الأسباب ذات فعل حقيقي في مسبباتها:
أُنبتَ مطرُ السماء الزرعَ في الأرض - أنزلَ نوءُ كذا المطرَ - أشعلتِ الرياحُ
السّمومُ النارَ في الغابة فأحرقتها.

● وكقولك لفلان رأيتُه قد قام بأعماله بيديه: حَفَرَ بئرَهُ - وحرثَ أرضَهُ -
وغرسَ شجرَهُ.

الإسناد المجازي:

وإذا جعل المتكلم الإسناد في جملة مبنياً على غير ما يعتقد أنه هو له في

الواقع، مُلاحِظاً علاقةً ما أو مُلابِسةً ما تَسْمَحُ لَهُ بأن يُسْنِدَ هذا الإسناد، دون أن يَتَّهَمَهُ أَحَدٌ بالكِذِبِ، فهو إسنادٌ مجازيٌّ، ويُسمَّى هذا «مجازاً عقلياً» لأنَّه وَقَعَ في الإسناد، لا في المُسْنَدِ، ولا في المُسْنَدِ إليه.

ويُلْحَقُ به كلُّ وَصْفٍ «صفة أو حال» إذا بنيت منه ومن الموصوف جملة مفيدة كان الإسناد فيها إسناداً مجازياً، كما سيأتي في الأمثلة.

الأمثلة:

● كقولنا: «رَبِحَتْ تِجَارَةٌ عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه» ففي هذه الجملة أُسْنِدَ الرِّبْحُ إلى التجارة، مع أن الرابِحَ هو صاحبها: «عبد الرحمن بن عوف».

وحين أسندنا الربح إلى التجارة لم نكن نعتقد أن التجارة هي التي ربحت، وإنَّما الذي ربح هو صاحبها، ولكنَّ أَرَدْنَا أن نُعَبِّرَ تعبيراً مجازياً قائماً على ملاحظة أثر الحركة التجارية الحكيمة الذكيَّة التي قام بها عبد الرحمن والتي حَقَّقَ بها الرِّبْحَ، فصَحَّ في تصوُّرنا أن نُسْنِدَ الرِّبْحَ إلى التجارة نَفْسِها، للإشعارِ بقيمة المهارة التي اشتملت عليها تجارته.

وبما أن التجارة هي عَمَلُ عبد الرحمن فيبينها وبينه مُلابِسةً قويَّةً، وعلاقةً واضحةً، هي علاقة العامل بعمله، أو نقول: هي علاقة الفاعل «وهو عبد الرحمن» بالمفعول به «وهي التجارة» إذ كان المفعول به سبباً في تحقيق الربح لعبد الرحمن «الفاعل».

● وكقولنا: «قَتَلَتِ الْمُتَهَوَّرَ حَمَاقَتُهُ» مع أنَّه قَدْ قُتِلَ بِيَدِ خصومه الذين نازلهم في تهوُّره بدون أن يحسب حساباً للنتائج.

ففي هذه الجملة قد أسندنا القتل إلى الحماقة، فجعلناها هي القاتلة، مع أن القاتل هو البطل الخصم الذي نازله، وهو غير كفيٍّ لمنازلته.

ولكن أردنا أن نُعبّر تعبيراً مجازياً قائماً على ملاحظة أثر الحماقّة التي دفعت
المتهور، فجعلته قتيلاً بيد قاتله البطل، فصحّ في تصوّرنا أن نُسنِد القتل إلى
الحمّاقّة، للإشعار بكونها سبباً في قتله، مع الاختصار في العبارة، وأصل الكلام:
قتلَ البطلُ مُنازِلَهُ الَّذِي تَهَوَّرَ بسبب حماقته التي دفعته إلى منازلة البطل، وهو غير
كُفٍّ لمنازلته.

ونظير هذا أن نقول: قَطَعَتِ السَّرْقَةُ يَدَ السَّارِقِ، إذ نُسنِد القطع إلى السَّرْقَةِ،
مع أن الَّذِي قطع يد السَّارِقِ مُنْفَذُ حُكْمٍ حدّ السَّرْقَةِ.

أحوال المسند في الجملة المشتملة على مجازٍ عقلي:

المُسْنَدُ في الجملة المشتملة على مجازٍ عقليّ قد يكون واحداً مما يلي:

● قد يكون فعلاً ماضياً، أو فعلاً مضارعاً، أو فعل أمر، مثل: «بني الأمير
المدينة - بني الأمير المدينة - يا هامانُ ابنِ لي صرْحاً».

● وقد يكون غيرِ فعلٍ، لكنّه في معنى الفعل، وهو ستة أنواع، هي:

« ١ - المصدر ٢ - اسم الفاعل ٣ - اسم المفعول ٤ - الصفة المشبهة

٥ - اسم التفضيل ٦ - الظرف والجار والمجرور».

الأمثلة:

أولاً - من المصدر:

● قولنا: «دوامُ الدولةِ عدلُها» ففي هذا المثال أسندنا العدل وهو مصدر

«عدَلٌ» إلى غير ما هو له، وهو دوام الدولة، فالعدل ليس هو دوام الدولة، لكنّه
سببٌ في دوامها.

● قول الخنساء من قصيدة ترثي بها أخاها صخرأ:

فَمَا عَجُوبٌ لَدَى بَوِّ تُطِيفُ بِهِ لَهَا حَيْنَانٍ إِعْلَانٍ وَإِسْرَارُ

أُودِي بِهِ الدَّهْرُ يَوْمًا فَهِيَ مُرْزِمَةٌ قَدْ سَاعَدَتْهَا عَلَى التَّحْنَانِ أَظَارُ
تَرْتَعُ مَا غَفَلْتَ حَتَّى إِذَا اذْكَرْتَ فَإِنَّهَا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارُ
يَوْمًا بِأَوْجَعِ مِنِّي يَوْمَ فَارَقْنِي صَخْرٌ وَلِلْعَيْشِ إِحْلَاءٌ وَإِمْرَارُ

عَجُول: أي: تُكَلِّي، ومُرَادُهَا: تُكَلِّي من النوق.

بَوّ: جِلْدٌ وَلَدِ النَّاقَةِ يُحْشَى تَبْنًا وَيُقَرَّبُ مِنْ أَمَةِ الثَّكَلِيِّ لِتَدْر عَلَيْهِ.

تُطِيفُ بِهِ: أي: تَدُور حَوْلَهُ.

أُودِي بِهِ الدَّهْرُ: أي: أَهْلَكَهُ.

مُرْزِمَةٌ: يُقَالُ: أَرْزَمَتِ النَّاقَةَ، إِذَا صَوَّتَتْ حَنِينًا عَلَى وَلَدِهَا.

أَظَارُ: أي: نُوقٌ تُرْضِعُ غَيْرَ أَوْلَادِهَا مِنْ حَنِينِهَا عَلَى أَوْلَادِهَا.

وَاللِّعِيشِ إِحْلَاءٌ وَإِمْرَارُ: أي: وَاللِّعِيشِ أَحْوَالٌ يُقَدَّمُ بِهَا حِلَاوَةٌ، وَأُخْرَى يُقَدَّمُ

بِهَا مَرَارَةٌ.

وَالشَّاهِدُ فِي قَوْلِهَا:

تَرْتَعُ مَا غَفَلْتَ حَتَّى إِذَا اذْكَرْتَ فَإِنَّهَا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارُ

أي: هَذِهِ الثَّكَلِيُّ مِنَ النُّوقِ تَرْتَعُ (أي: تَرعى) فِي أَوْقَاتِ غَفَلَتِهَا وَسُئِلَتْهَا عَنْ وَلَدِهَا، حَتَّى إِذَا تَذَكَّرْتَ وَلَدَهَا ثَارَ بِهَا الْحَنِينُ فَصَارَتْ تُقْبِلُ وَتُدْبِرُ عَلَى غَيْرِ هُدًى، لَكِنَّ الْخِنْسَاءَ لَمْ تَقُلْ هَكَذَا، وَإِنَّمَا جَعَلَتِ النَّاقَةَ كُلَّهَا هِيَ الْإِقْبَالُ وَالْإِدْبَارُ، فَقَالَتْ: «فَإِنَّهَا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارٌ».

الْإِقْبَالُ مَصْدَرُ «أَقْبِلُ» وَالْإِدْبَارُ مَصْدَرُ «أُدْبِرُ» وَمَرَادُهَا الْإِشْعَارُ بِأَنَّهَا صَارَتْ فِي التَّصَوُّرِ إِقْبَالًا وَإِدْبَارًا، لَطْفِيَانِ هَذَيْنِ الْوَصْفَيْنِ عَلَى الذَّاتِ وَسَائِرِ الصِّفَاتِ.

● قَوْلِي صَانِعًا مَثَلًا:

يَرَى السُّخْفَاءُ الْمُلْكَ عَرَشًا وَتَاجَهُ وَمَا الْمُلْكَ إِلَّا الْعَدْلُ وَالْجُودُ وَالْحَزْمُ

أي: سبب ظفر المَلِكِ بسلطانِه على شعبه واكتسابه المُلْكِ الحقيقي أن يقيم العدل، ويتخلق بالجدود وبالحزم.

● قول الشاعر:

سَيَذْكُرُنِي قَوْمِي إِذَا جَدَّ جِدُّهُمْ وفي اللَّيْلَةِ الظُّلْمَاءِ يُفْتَقَدُ البَدْرُ
فَسَبَّ فعل «جَدَّ» إلى المصدر المضاف إلى ضمير قومه، أي: إذا جَدُّوا،
والمرادُ الإشعارُ بأنَّ أمرهم الجدَّ إذا انضَمَّ إليه جدُّ آخرُ فوق المعتاد فأقلَقَهُمْ
وأحوجَهُمْ إلى معين، فَإِنَّهُمْ سَيَذْكُرُونِي حينئذٍ.

ثانياً — من اسم الفاعل:

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الحاقة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول) بشأن مَنْ
أوتي كتابه بيمينه:

﴿ فَهَوَّ فِي عَيْشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ ﴾.

راضية: اسم فاعل، وقد جاء في هذا التعبير القرآني إسناد الرضا في كلمة
«راضية» إلى العيشة، مع أنَّ الراضي هو صاحب العيشة، إذ يَرْضَى عن عيشته
الحسنة، فالعيشة في الحقيقة مرضية.

والعلاقة التي صحَّحت استخدام هذا المجاز العقلي كون العيشة محيطة بحياة
صاحبها، ورضاهُ بها يُشيع الرضا في كلِّ ما يحيط به.

والتحليل النفسي لهذا يكشف أنَّ من كان سعيداً فإنه يرى الدنيا كلها من
حوله سعيدة، ومن كان حزيناً فإنه يرى الدنيا كلها من حوله حزينة، وهكذا.

● قولهم: «طريق سائر» مع أنه مسيرٌ فيه، و«نهرٌ جارٍ» مع أنه مجريٌّ فيه،
للإشعار بأنَّ التَّصَوُّرَ يَرَى الطريق يسير لامتلائه بمن يمشي فيه، وبأنَّ حُفْرَةَ النَّهْرِ
تجري لامتلائها بالماء الجاري.

● قولهم: «نهاره صائم» و «ليله قائم» فإسنادُ الصَّيَامِ إلى النهار، والقيام إلى الليل، مع أنّ فاعل الصيام والقيام هو الرجل المتعبّد بداهة، يَعْتَمِدُ عَلَى مَدِّ فِي التَّصَوُّرِ لِلإِشْعَارِ بِأَنَّ النَّهَارَ وَاللَّيْلَ يَصُومَانِ وَيَقُومَانِ مَعَهُ بِمَشَاعِرِهِ وَوُجُدَانِهِ.

● ما جاء في دعاء الرسول ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَحْمَدُكَ عَلَى الْعِرْقِ السَّاكِنِ وَاللَّيْلِ النَّائِمِ».

أي: على العافية والنوم في الليل، فجاء وصف الليل بالنوم مع أنه وصف لمن ينام فيه، والوصف اختصار لنسبة بين رُكْنَيْ إِسْنَادٍ فِي جُمْلَةٍ مَفِيدَةٍ.

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (العلق/ ٩٦ مصحف/ ١ نزول) بشأن الذي ينهى عبداً إذا صلى:

﴿كَلَّا لَئِن لَّرَبَّنَا لَسَفَعْنَا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾﴾.

جاء في هذا النَّصِّ وصف الناصية باسم الفاعل: «كاذبة وخاطئة» مع أنّ الكاذب والخاطيء هو صاحب الناصية، لكنّ الناصية جزءٌ منه، فَجَذِبُهُ مِنْ نَاصِيَتِهِ لِإِذْلَالِهِ وَتَعْذِيْبِهِ يَكُونُ بِسَبَبِ كَوْنِهِ كَاذِبًا وَخَاطِئًا، وَالْمَلَابَسَةُ وَالْعِلَاقَةُ بَيْنَ النَّاصِيَةِ وَصَاحِبِهَا مِنَ الْأُمُورِ الظَّاهِرَةِ.

والوصف كما سبق هو اختصار لنسبة بين ركني إسنادٍ في جملة تامّة، إذ يُقَالُ فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ: «نَاصِيَةٌ كَاذِبَةٌ» وَ «نَاصِيَةٌ خَاطِئَةٌ».

لَسَفَعَنَّ: أَي: لِنَقْبِضَنَّ وَنَجْذِبَنَّ.

ثالثاً - من اسم المفعول:

● قولني ضارباً مثلاً:

دَارُهُ مَهْجُورَةٌ مِنْ جِبِّهِ وَنَعِيمُ الْوَصْلِ لِلْكَوْخِ الْبَعِيدِ

ففي هذا إسنادُ اسم المفعول وهو «مهجورة» إلى الدار، مع أنّ المهجور

صاحبها، ولكنّ المشاعرَ النفسيةَ مدّتْ أبعادَ الهجرِ، فجعلتْ الدارَ كلّها مهجورةً، مع أنّ المتكلّمَ يَعْلَمُ أنّ الهجرَ هو لصاحب الدار، لا للدار، فتجوّزَ في التعبيرِ لِيُشعِرَ الآخرينَ بما شعَرَ هو به.

● وقولهم: سَيْلٌ مُفْعَمٌ، ففي هذا إسناد اسم المفعول «مُفْعَمٌ» إلى السيل، مع أنّ المفعَمَ (أي: المملوء) هو الوادي الذي جرى فيه السيل، أمّا السيل فهو «مُفْعِمٌ» بكسر العين اسم فاعل.

● وقول الله عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ

مَشْهُودٌ ﴿١١٢﴾

الشهود: هو الحضور المصحوب بإدراك الحواس.

فجاء في هذا النصّ إسنادُ المشهوديةِ لليومِ، مع أنّ اليومَ اسمٌ لزمانٍ، وهو لا يُدْرِكُ بالحواسِ، لكنّ الذي يُشْهَدُ ويُدْرِكُ بالحواسِ هو ما يَحْصُلُ في اليومِ من أشياء وأحداثٍ تُرى أو تُسْمَعُ أو تُلْمَسُ. ولَمّا كان كلُّ شيءٍ في ذلك اليومِ سيكونُ مشهوداً محضوراً غير غائب، كان إطلاقُ المشهوديةِ على اليومِ دالاً على هذه المشهوديةِ الشاملة لكلِّ ما فيه بأخصرِ عبارة، فهو من المجازِ العقليّ.

رابعاً — من الصفةِ المُشَبَّهَةِ:

● قولنا: فلانٌ رداؤه شريف، وإزاره عفيف، ففي هذا القول إسناد الشرف إلى الرداء، والمراد أنه شريف الحسب والنسب، وإسناد العفة إلى الإزار، والمراد أنه ذو عفةٍ في فرجه الواقع تحت الإزار، والملابسة واضحة.

كلمتا «شريف وعفيف» هما صفتان مشبهتان، والصفة المشبهة، هي لفظ مصوغٌ من مصدر اللزوم للدلالة على الثبوت، مثل: أحمر وحمراء، وعطشان وعطشى، وحسن، وشجاع، وجبان، وفرح، ونجس، وطاهر، وبخيل، وكريم.

● وقولنا: فلان سَيْفُهُ جبان، وصندوق ماله بخيل.

ففي هاتين العبارتين إسناد الجُبْنِ إلى السيف وإسناد البخل إلى صندوق المال، والمراد صاحبهما، والملابسةُ أو العلاقة كَوْنُ المذموم مالِكُهُما أو المتصرفَ بهما.

● وكالوصف في: «الكتاب الحكيم» و«الأسلوب الحكيم» إذا قلنا: إن الحكمة صفة صاحب الكتاب والأسلوب.

خامساً – من أفعال التفصيل:

● قولنا: إزار فلانٍ أَعَفٌّ من إزار فلان، وسيفُهُ أشجع من سيفه، وصندوقه أكرم من صندوقه، ودارُهُ أكثر ترحيباً بالضيُوفِ من دارِهِ.

سادساً – من الظرف والجار والمجرور:

● قولنا: الشُّجَاعُ حينَ المبارزة، وعند اللِّقاء، وفي ساحةِ الوغَى.

أي: تُعْرَفُ وتُظْهَرُ شَجَاعَةُ الشُّجَاعِ في وقت المبارزة، ومكان اللِّقاء، وفي ساحةِ الحرب.

علاقات المجاز العقلي:

أما علاقات المجاز العقلي فهي كلُّ مُلابسةٍ أو علاقة تُصَحِّحُ التجوز في مفاهيم البلغاء والأدباء، في المجاز العقلي وفي المجاز المرسل الآتي بيانه في موضعه إن شاء الله.

وقد أحصى منها علماء البلاغة وعلماء أصول الفقه زائداً على عشرين علاقة، منها: «السببية – المسببية – إطلاق الكلّ على البعض – إطلاق البعض على الكلّ – إطلاق اللازم وإرادة الملزوم – إطلاق الملزوم وإرادة اللازم – إطلاق المطلق وإرادة المقيد – إطلاق المقيد وإرادة المطلق – إطلاق العام وإرادة الخاص – إطلاق الخاص وإرادة العام – إطلاق الحالّ وإرادة المحل – إطلاق

المحلّ وإرادة الحالّ - إقامة المضاف إليه مقام المضاف - إقامة المضاف مقام المضاف إليه - علاقة الجوار - اعتبار ما كان عليه الشيء - اعتبار ما يؤول إليه الشيء - علاقة الآليّة - علاقة البدليّة والعوض - إطلاق المعرّف باللام وإرادة واحدٍ منكر - إطلاق النكرة في الإثبات وإرادة العموم - علاقة التضادّ إلى غير ذلك من علاقات .

ومن هذه العلاقات ما يصلح في المجاز العقلي، ومنها ما لا يصلح، وذوق البليغ هو الذي يُحسِّنُ تصيّد العلاقة لما يصوغ من كلام يتجوّزُ فيه عن ذكر الحقيقة إلى مُلابِسٍ من مُلابِسَاتِهَا .

* * *

(٧)

الجملة المفيدة بين الإثبات والنفي

تنقسم الجملة المفيدة من جهة الإثبات والنفي إلى قسمين :

القسم الأول: الجملة المثبتة، وهي الجملة التي خَلَتْ من أداة من أدوات النفي، فالإسنادُ فيها بين المُسَنَدِ والمُسَنَدِ إِلَيْهِ (بين المحكوم به والمحكوم عليه) إسنادٌ مُثَبِّتٌ، ولو كان مضمون الجملة يمكن أن تُصاغ له جملة منفيّة .
مثل: «العنقاء طائرٌ معدومٌ» .

هذه جُمْلَةٌ مُثَبِّتَةٌ، ويُمكن أن يُصاغ لمضمونها جملةٌ أخرى منفيّة نقولُ فيها:
«لا وُجودَ لطائر العنقاء» .

القسم الثاني: الجملة المنفيّة، وهي الجملة التي دخلت عليها أداة من أدوات النفي دلّت على نفي نسبة المُسَنَدِ إلى المُسَنَدِ إِلَيْهِ فيها، ولو كان مضمون الجملة يُمكنُ أن تُصاغ له جملة مثبتة .

مثل: «لا وُجودَ لطائر العنقاء» و «لا يعلم الكفار أنهم إلى النار صائرون» .

هاتان جملتان منفيتان، وَيُمْكِنُ أَنْ يُصَاغَ لِمُضْمُونِهِمَا جَمَلَتَانِ أُخْرَيَانِ مَثْبِتَانِ
نقول فيهما:

«العنقاء طائر معدوم»، و «الكفارُ يجهلون أنهم إلى النار صائرون».

أدوات النفي التي تنفي الجمل:

أدوات النفي التي تنفي الجمل في اللسان العربي ثمان، هي: «لَا - لَات -
لَيْسَ - مَا - إِنْ - لَمْ - لَمَّا - لَنْ».

وفيما يلي بيانٌ حولَ هذه الأدوات:

شرح الأداة الأولى: كلمة «لَا» وتأتي حرف نفي على خمسة أوجه:

الوجه الأول: أن تكونَ عاملةً عملَ «إِنَّ» تنصبُ الاسمَ وترفعُ الخبرَ، وذلك
إذا أُريدَ بها نفيُ الجنسِ على سبيلِ التنصيصِ، ومن أمثلة هذا الوجه قولُ
أبي الطيبِ المتنبِّي يمدح عليَّ بنَ أحمدِ الخراساني:

وَلَا تُؤَبِّ مَجْدٍ غَيْرُ ثُؤَبِ ابْنِ أَحْمَدٍ عَلَى أَحَدٍ إِلَّا بِلُؤْمٍ مُرَقَّعٍ

الوجه الثاني: قد تكونُ بِقَلَّةٍ عاملةً عملَ «لَيْسَ» ترفعُ الاسمَ وتنصبُ الخبرَ،
ومن أمثلة هذا الوجه قولُ الشاعر:

تَعَزَّ فَلَآ شَيْءٌ عَلَى الْأَرْضِ بَاقِيَا وَلَا وَزْرٌ مِمَّا قَضَى اللَّهُ وَاقِيَا

وقولُ أبي الطيبِ المتنبِّي:

إِذَا الْجُودُ لَمْ يُرْزَقِ خَلَاصًا مِنَ الْأَدْيِ فَلَا الْحَمْدُ مَكْسُوبًا وَلَا الْمَالُ بَاقِيَا

الوجه الثالث: أن تكونَ عاطفةً بشروطِ ميِّنة عندِ النحويين، مثل: «جَاءَنِي
رَجُلٌ لَا امْرَأَةَ».

ومن أمثلة هذا الوجه قولُ امرئِ القيس:

كَأَنَّ دِئَارًا حَلَقَتْ بِلُبُونِهِ عَقَابٌ تَنُوفِي لَا عَقَابُ الْقَوَاعِلِ

دِثَار: اسْمُ رَاعٍ كَانَ يِرْعَى الْإِبِلَ .

حَلَّقَتْ: أَي: ذَهَبَتْ .

بَلْبُونَه: أَي: بَنُوْقَه ذَوَاتِ اللَّبَنِ .

العُقَاب: طائر من كواسر الطير قويّ المخلب، ولفظه مؤنث، ويُجمَعُ على «أَعْقِبٍ» و«عِقْبَانٍ» .

تَوَفَى: اسم جَبَلٍ عالٍ تَأْوِي إليه العِقْبَانُ الشديدةُ القويّة .

القَوَاعِل: صِغَارُ الجبال التي تَأْوِي إليها العِقْبَانُ الصِّغَارُ والضَّعَاف .

الوجه الرابع: أن تكون جواباً مناقضاً للجواب بلفظ «نَعَمْ» وهذه تُخذفُ الجُمْلُ بَعْدَهَا بِكثْرَةٍ .

الوجه الخامس: أن تكون على خلاف ما سبق:

فإن كان ما بعدها جملةً اسميّة صَدْرُهَا مَعْرِفَةٌ أو نكرة ولم تَعْمَلْ فيها، أو كان ما بَعْدَهَا فِعْلاً ماضياً لفظاً أو تَقْدِيرًا وجب تَكَرُّرُهَا، إلّا في الدَّعاء، وإرادةِ المُسْتَقْبَلِ في الفِعلِ الماضِي .

ومن أمثلة هذا الوجه:

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول):

﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا آتِلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (٤١)

● وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الصافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول):

﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَايَسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴾ (٤٥) بِيضَاءَ لَذَمٍ لِلشَّرِيبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ .

وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزِفُونَ: أي: ولا هم عن شربهم لها يسكرون حتى تذهب عقولهم، يقال لغة: شرب خمرأ فأنزف، أي: سكر أو ذهب عقله.

● وقول الله عز وجل في سورة (القيامة/ ٧٥ مصحف/ ٣١ نزول) بشأن

الكافر:

﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا سَلَٰٓءًا ۚ وَلَٰكِنَّ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ ﴿٣١﴾

* * *

شرح الأداة الثانية: كلمة «لآت» وهي حرف نفي، قال جمهور النحويين: هي مؤلفة من كلمتين: هما «لآ» النافية، و«التاء» التي لتأنيث اللفظة، كما في «ثمّت» و«رُبّت» وإنما وجب تحريك التاء في «لآت» لالتقاء الساكنين. وقال جمهور النحويين: إنها تعمل عمل «ليس» وهي خاصة بنفي الحين، ولا يُذكر بعدها إلا أحد معموليها.

ومن الأمثلة قول الله عز وجل في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول):

﴿كُرْهُلِكَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ ﴿٤﴾

* * *

شرح الأداة الثالثة: كلمة «ليس» وهي فعل لا يتصرف، ويدل على نفي الحال، وينفي غيره بقرينة، وهو يرفع الاسم وينصب الخبر، ومن الأمثلة:

● قول الله عز وجل خطاباً لرسوله بشأن الكافرين في سورة (البقرة/

٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَا كُنَّ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ...﴾ [الآية ٢٧٢].

● قول المتنبّي في مدح طاهر بن الحسين:

فَشَرَّقَ حَتَّىٰ لَيْسَ لِلشَّرْقِ مَشْرِقٌ وَغَرَّبَ حَتَّىٰ لَيْسَ لِلْغَرْبِ مَغْرِبٌ

* * *

شرح الأداة الرابعة: كلمة «ما» الحرفية، وتأتي حرف نفي، وتدخل على
الجملتين الاسمية والفعلية.

● فإذا دخلت على الجملة الاسمية أعملها الحجازيون والتهاميون
والنجديون عمل «ليس» بشروط.

● وإذا دخلت على الجملة الفعلية لم تعمل.

● وهي تخلص الفعل المضارع إذا دخلت عليه للحال عند جمهور
النحويين، ما لم توجد قرينة تدل على الاستقبال.

* * *

شرح الأداة الخامسة: كلمة «إن» وهي حرف.

فمن وجوه هذه الكلمة أن تأتي نافية، وتدخل على الجملتين الاسمية
والفعلية، ولا يشترط أن يأتي بعدها في الجملة «إلا» أو «لما» حتى تكون نافية،
وبعضهم اشترط ذلك.

ومن أمثلة استعمال «إن» حرف نفي ما يلي:

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (الملك / ٦٧ مصحف / ٧٧ نزول):

﴿... إِنَّ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾

أي: ما الكافرون إلا في غرور.

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (الطارق / ٨٦ مصحف / ٣٦ نزول):

﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾

أي: ما كل نفس إلا عليها حافظ.

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (يونس / ١٠ مصحف / ٥١ نزول):

﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحٰنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ إِنَّ عِنْدَكُمْ مِّنْ سُلْطٰنٍ بِهٰذَا أَنْتُمْ لَوٰقِنُونَ عَلَىٰ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ .

أي: ما عندكم من حُجَّةٍ ذاتِ سُلْطٰنٍ بهذا الذي تقولونه.

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) خطاباً

لرسوله:

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِن أَدْرِيٓ أَمۡ أَدْرِيٓ أَمۡ بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١١٩﴾ ﴾ .

أي: وما أدري أقریبٌ أم بعيدٌ ما تُوعَدُونَ.

* * *

شرح الأداة السادسة: كلمة «لم» وهي حرف نفي وجزمٍ يجزم الفعل المضارع، ويقلب زمنه فيجعلُه ماضياً.

الأمثلة:

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ وَإِن كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهْنَ مَقْبُوضَةً... ﴾ [الآية ٢٨٣].

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (البينة/ ٩٨ مصحف/ ١٠٠ نزول):

﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفِكِينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ ﴿١﴾ .

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِّنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٥﴾ ﴾ .

● قول المتنبي يمدح أبا عبادة بن يحيى البحري:

لَمْ أُجِرْ غَايَةَ فِكْرِي مِنْكَ فِي صِفَةٍ إِلَّا وَجَدْتُ مَدَاهَا غَايَةَ الْأَبَدِ

* * *

شرح الأداة السابعة: كلمة «لَمَّا» وَهِيَ حَرْفُ نَفْيٍ وَجَزْمٍ، يَجْزِمُ الْفِعْلَ الْمَضَارِعَ، وَيَقْلِبُ زَمَنَهُ فَيَجْعَلُهُ مَاضِيًا مِثْلَ «لَمْ»، لَكِنَّ «لَمَّا» تُفَارِقُ «لَمْ» فِي خَمْسَةِ أُمُورٍ:

الأمر الأول: أنها لا تقترن بأداة شرط، بخلاف «لم».

الأمر الثاني: أن منفيها مُسْتَمِرُّ النفي إلى زمان التكلم، بخلاف «لم» فقد ينقطع نفيها في بعض أزمان الماضي، مثل قول الله عز وجل في سورة (الإنسان/ ٧٦ مصحف / ٩٨ نزول):

﴿ هَذَا أَقْرَبُ عَلَى الْإِنْسَانِ حِينَ فِي الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا ﴾ (١)

أي: ثمَّ كان شيئاً مذكوراً في الزمان الماضي.

الأمر الثالث: أن الغالب في منفي «لَمَّا» أن يكون قريباً من الحال.

الأمر الرابع: قالوا: إن منفي «لَمَّا» متوقَّعُ ثبوتهُ بخلاف منفي «لم».

أقول: هذا مُعْتَرَضٌ عَلَيْهِ بقول الله عز وجل في سورة (عبس/ ٨٠ مصحف/

٢٤ نزول):

﴿ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرُوا ﴾ (٢٣)

إِذِ الْآيَةِ فِيهَا زَجْرٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلْعَاصِي الَّذِي لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ اللهُ بِهِ، وَقَدْ صَارَ أَمْرًا غَيْرَ مُمْكِنِ الْحَصُولِ، وَغَيْرِ مُتَوَقَّعٍ، بَعْدَ انْتِهَاءِ زَمَنِ الْإِبْتِلَاءِ.

الأمر الخامس: أن منفي «لَمَّا» جائز الحذف، فتقول: أنا قاصدُ الحجِّ إلى

بيت الله الحرام ولَمَّا، أي: ولَمَّا أَصِلْ. بخلاف «لم».

* * *

شرح الأداة الثامنة: كلمة «لَنْ» وَهِيَ حَرْفُ نَفْيٍ وَنَصْبٍ لِلْفِعْلِ الْمَضَارِعِ،

وَاسْتِقْبَالٍ.

قالوا: ولا تفيد توكيد النفي ولا تأييده خلافاً للزمخشري.

أقول: أما أنّها لا تفيد التأييد فهو حقٌّ، لأنّ في كثير من النصوص التي توجد فيها «لن» ما يدلُّ على أنّ التأييد غير مدلولٍ عليه فيها.

وأما التأكيد فأرى أنّها تُفِيدُه، لأنّ مَبْنَى حرف «لن» فيه زيادة لفظية على مبنى حرف «لا» فهي أكَّدُ منها.

* * *

رأْيُ لِلْحَوْفِي حَوْلَ أَدْوَاتِ النَّفْيِ

قال الحَوْفِي^(١): أصل أدوات النفي «لا» و«ما» لأنّ النفي إمّا في الماضي، وإمّا في المستقبل، والاستقبال أكثر من الماضي أبداً. قال: و«لا» أخفّ من «ما» فوضعوا الأَخْفَ للأكثر، ثُمَّ إِنَّ النَّفْيَ فِي الْمَاضِي إمّا أن يكون نفيّاً واحداً مستمراً، أو نفيّاً فيه أحكامٌ متعدّدة، وكذلك النَّفْيُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، فصار النَّفْيُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ، واختاروا له أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ: «ما» و«لم» و«لن» و«لا».

وأما «إن» و«لَمَّا» فليسا بأَصْلَيْنِ.

ف«ما» و«لا» في الماضي والمستقبل متقابلان، و«لم» كأنّه مأخوذٌ من «لا» و«ما» لأنّ «لم» نفي للاستقبال لفظاً، وللمضَى معنى، فأخَذَ اللَّامُ مِنَ «لا» الَّتِي هِيَ لِلنَّفْيِ الْمُسْتَقْبَلِ، وَالْمِيمُ مِنَ «ما» الَّتِي هِيَ لِلنَّفْيِ الْمَاضِي، وَجُمِعَ بَيْنَهُمَا إِشَارَةً إِلَى الْمُسْتَقْبَلِ وَالْمَاضِي، وَقُدِّمَ اللَّامُ عَلَى الْمِيمِ إِشَارَةً إِلَى أَنَّ «لا» هِيَ أَصْلُ النَّفْيِ، وَلِهَذَا يُنْفَى بِهَا فِي أَثْنَاءِ الْكَلَامِ، فَيُقَالُ: لَمْ يَفْعَلْ زَيْدٌ وَلَا عَمْرُو.

وأما «لَمَّا» فَتَرْكِيْبٌ بَعْدَ تَرْكِيْبٍ، كَأَنَّهُ قَالَ: «لَمْ» و«ما» لتوكيد معنى النفي في الماضي، وتفيد الاستقبال أيضاً، ولهذا تُفِيدُ «لَمَّا» الاستمرار.

(١) الحَوْفِي: علي بن إبراهيم بن سعيد أبو الحسن الحَوْفِي، نحويٌّ، من العلماء باللغة والتفسير.

أقول: كلامُ الحَوْفِي رَأْيِي في تحليل الوضع اللغوي، إلا أن اللغات يَصْعُبُ
الجزم بتعليل أوضاعها، إلا ما كان منها متبادراً لِلْفَهْم، أو خاضعاً لمقاييس
تجريبية.

* * *

قضايا حول النفي في الجملة

القضية الأولى: نفي الذاتِ الموصوفة قد يكون نفيًا للصفة دون الذات، وقد
يكون نفيًا للذاتِ والصفة معاً.

(١) فمن أمثلة نفي الصفة دونَ الذات، قول الله عزّ وجلّ في سورة
(الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) بشأن الرُّسُلِ من البشر:
﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾.

فالنفي في هذه الآية مُسَلِّطٌ على عدم أكلهم للطعام لا على كونهم جسدًا،
فهم جسدٌ ويأكلون الطعام.

(٢) ومن أمثلة نفي الذاتِ والصفة معاً:

● قولُ الله عزّ وجلّ بشأن الفقراء المتعفين عن المسألة في سورة (البقرة/
٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا...﴾ [الآية ٢٧٣].

أي: لا يسألون الناس مطلقاً فلا يحصلُ منهم إلحافٌ في المسألة.

أقول: لا مانع من أن يسألوا برفق دون إلحافٍ.

الإلحاف: الإلحاح في المسألة مع عدم الحاجة.

● قولُ الله عزّ وجلّ في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول) بشأن

الظالمين يوم القيامة:

﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ [الآية ٢٧٣].

أي: لَا يَكُونُ لَهُمْ شَفِيعٌ مُطْلَقًا وبذلك ينتفي الشفيعُ ووضْفُهُ، وفائدة ذكر الوصفِ قَطْعُ طَمَعِهِمْ بِأَنَّ الَّذِينَ يَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ أَوْ الصَّالِحِينَ سَيُشْفَعُونَ لَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ، فَلَوْ شَفَعُوا لَهُمْ لَمْ يَسْتَجِبِ اللَّهُ لشفاعتهم.

* * *

القضية الثانية: قد يُنْفَى الشَّيْءُ كُلُّهُ لِعَدَمِ كَمَالِ وَضْفِهِ، أَوْ لانتفاء ثمرته، فمن أَكَلَ طَعَامًا لَمْ يَنْتَفِعْ مِنْهُ يَقُولُ: مَا أَكَلْتُ، وَمَنْ شَرِبَ شَرَابًا لَمْ يَسْتَمْتِعْ بِهِ يَقُولُ: مَا شَرِبْتُ.

ومن الأمثلة على هذه القضية من القرآن، قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الأعلى / ٨٧ مصحف / ٨ نزول):

﴿ وَبَنَجْنَهَا الْأَشْفَى ﴿١١﴾ الَّذِي يَصِلُ النَّارَ الْكُبْرَى ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴿١٣﴾ ﴾.

فنفي عنه الموت، لأنَّ ما هو فيه لَيْسَ بِمَوْتٍ، ونفي عنه الحياة لأنَّ ما هو فيه لَيْسَ حَيَاةً طَيِّبَةً ذاتَ رَاحَةٍ مِنَ الْعَذَابِ.

* * *

القضية الثالثة: نفي الأعمِّ يَدُلُّ عَلَى نفي الأخصِّ، وإثبات الأعمِّ لَا يَدُلُّ عَلَى إثبات الأخصِّ. وإثبات الأخصِّ يَدُلُّ عَلَى إثبات الأعمِّ، ونفي الأخصِّ لَا يَدُلُّ عَلَى نفي الأعمِّ.

ونفي المبالغة في الفعل لَا يَسْتَلْزِمُ نفي أصلِ الفعل.

الأمثلة:

● إذا قلنا: «لا يوجد في الدار إنسان» فهو يَدُلُّ عَلَى أنه لَا يوجد فيها امرأة، لأنَّ لفظ «إنسان» أعمِّ، يَشْمَلُ الرَّجُلَ وَالْمَرْأَةَ وَالطِّفْلَ وَالطِّفْلَةَ.

● وإذا قلنا: «يوجد في الدار إنسان» فهو لا يدُّ على وجود رجلٍ حتماً، أو وجود امرأة حتماً، بل يمكن أن يكون الموجود واحداً غير مُعيَّن ممَّا ينطبق عليه لفظ «إنسان» الذي هو أعم من لفظ «رجل» ومن لفظ «امرأة».

● وإذا قلنا: «يوجد في الدار إنسان» فهو يدُّ على وجود حيوان فيها، لأن لفظ «إنسان» أحصُّ من لفظ حيوان، فالإنسان هو حيوان ناطق.

● وإذا قلنا: «لا يوجد في الدار إنسان» فهو لا يدُّ على عدم وجود حيوان مطلقاً، لأن لفظ «حيوان» أعمُّ من لفظ «إنسان» فقد يوجد فيها حيوان غير إنسان.

● وإذا قلنا: «ليس فلانٌ ظلاماً» لم يدُّ هذا القول على أنه ليس ظالماً مطلقاً.

وأما قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [١٨٢/ آل عمران/ ٣].
﴿وَمَارَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [٤٦/ فصلت/ ٤١]. ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [٢٩/ ق/ ٥٠].

فهو من دقة الأداء البياني لإجراء التقابل بين أفراد الظلم، وأفراد العبيد، فلو أنه تعالى ظلَّم كلَّ واحدٍ من عباده أقلَّ ظلَّم لكان بالنسبة إليهم جميعاً ظلاماً، لكنَّهُ لا يفعلُ ذلك فهو ليسَ بظلام.

فإذا قيل: فهل يظلم الله عزَّ وجلَّ بعضَ عبيده أقلَّ ظلَّم ولو شخصاً واحداً؟
فالجواب: أن الله عزَّ وجلَّ نفى ذلك عن نفسه في نصوصٍ أخرى، منها ما يلي:

● قول الله تعالى في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يَضْعَفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا

عَظِيمًا﴾.

● وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ ﴿٤٤﴾ .

● وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول):

﴿ ... وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ ﴿٤٩﴾ .

وبهذا تكاملت التُّصُوصُ في بيان كُلِّ عناصر الموضوع، من كلِّ جوانبه، وهذا من وجوه إعجاز القرآن، فمن أسلوب القرآن تجزئته مَوْضُوعَاتِهِ إلى عناصر جزئية، وتناول كلِّ عنصر منها بيانٍ خاصٍّ يحيط به، ولدى جَمْعِ كلِّ البيانات حول الموضوع الواحد يكون الموضوع قَدْ أُحِيطَ بِهِ من كلِّ جوانبه، وَأَوْضَحَ البيان كلَّ عناصره.

* * *

(٨)

دَلَالَاتُ الْجُمْلَةِ الْخَبَرِيَّةِ بِحَسَبِ أَحْوَالِهَا

لدى تقسيم الجملة إلى خبرية وإنشائية عرفنا أن الخبر هو الكلام الذي يحتمل الصدق والكذب، باعتبار كونه مجرد كلام، دون النظر إلى قائله، ودون النظر إلى كونه مقترناً بما يدلُّ على إثباته حتماً، أو نفيه حتماً، ومدلوله لا يتوقف على النطق به، وللجملة الخبرية أحوال ودلالات مختلفات:

أولاً

دلالات الجملة الخبرية الاسمية

التي لا يكون خبرها جملة فعلية

الجملة الخبرية الاسمية التي لا يكون خبرها جملة فعلية، تُفِيدُ بأصل وضعها الحكمَ بإثبات أو نفي نسبة المسند (= المحكوم به) إلى المُسْنَدِ إليه (= المحكوم عليه) فقط، دون إفادة حدوثٍ ولا استمرارٍ ولا تجددٍ، والأصل فيها التحدث بها عن الواقع عند إنشاء الجملة.

فإذا أَرَدْنَا الإِخْبَارَ عَنْ هَذِهِ النِّسْبَةِ فِي المَاضِي أَضْفَنَّا إِلَيْهَا مَا يَدُلُّ عَلَى الزَّمَنِ المَاضِي، أَوْ جَعَلْنَا مَعَ الكَلَامِ قَرِينَةً تَدُلُّ عَلَيْهِ.

وإذا أَرَدْنَا الإِخْبَارَ عَنْ هَذِهِ النِّسْبَةِ فِي المَسْتَقْبَلِ أَضْفَنَّا إِلَيْهَا مَا يَدُلُّ عَلَى الزَّمَنِ المَسْتَقْبَلِ، أَوْ جَعَلْنَا مَعَ الكَلَامِ قَرِينَةً تَدُلُّ عَلَيْهِ.

وإذا أَرَدْنَا إِفَادَةَ الاستِمْرَارِ وَالدَّوَامِ أَضْفَنَّا إِلَيْهَا مَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ، أَوْ اكَتَفَيْنَا بِالقَرَائِنِ اللَّفْظِيَّةِ أَوِ الفِكْرِيَّةِ الدَّالَّةِ عَلَيْهِ.

فَقَوْلُنَا: «سَعِيدٌ قَائِمٌ - سَعَادُ نَائِمَةٌ - اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ - نُوحٌ رَسولُ اللَّهِ - الجَنَّةُ دَارُ نَعِيمِ المَتَّقِينَ - النَّارُ دَارُ عَذَابِ المَجْرِمِينَ - الشَّمْسُ طَالِعَةٌ - الشَّمْسُ غَيْرُ طَالِعَةٍ - العِنْقَاءُ لَا وَجودَ لَهَا - النَّارُ مَحْرَقَةٌ».

كُلُّ هَذِهِ العُجْمَلِ لَا تَدُلُّ بِأَصْلِ وَضْعِهَا عَلَى أَكْثَرِ مِنْ إِثْبَاتِ النِّسْبَةِ أَوْ نَفْيِهَا بَيْنَ رُكْنِي الإِسْنَادِ.

وَالأَصْلُ فِيهَا إِرَادَةُ الحَالِ عِنْدَ إِنْشَاءِ هَذِهِ العُجْمَلِ، وَيُمْكِنُ أَنْ يُرَادَ بِهَا الدَّوَامُ بِقَرِينَةٍ عَقْلِيَّةٍ، فِي مِثْلِ: «اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ» لِلْعَلْمِ بِأَنَّهُ لَيْسَ لِلْعَالَمِينَ رَبٌّ غَيْرُهُ، وَلَا بُدَّ لِلْعَالَمِينَ مِنْ رَبٍّ دَوَاماً أَوْ بِدَلَالَةِ لَفْظِيَّةِ صَرِيحَةٍ فِي مِثْلِ: اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ دَوَاماً، أَوْ بِقَرِينَةٍ لَفْظِيَّةٍ غَيْرِ صَرِيحَةٍ.

وَيَصْرِفُ عَنِ إِرَادَةِ الحَالِ عِنْدَ إِنْشَاءِ العُجْمَلِ قَرِينَةٌ عَقْلِيَّةٌ فِي مِثْلِ: «نُوحٌ رَسولُ اللَّهِ» أَي: كَانَ رَسولُ اللَّهِ لِقَوْمِهِ فِي زَمَانِهِ، لِلْعَلْمِ بِأَنَّ نُوحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدِمَاتِ مِنْ آفَافِ السَّنِينَ. وَفِي مِثْلِ: «الجَنَّةُ دَارُ نَعِيمِ المَتَّقِينَ» أَي: سَتَكُونُ دَارُ نَعِيمِ المَتَّقِينَ بَعْدَ دُخُولِهِمْ فِيهَا يَوْمَ الدِّينِ، لِلْعَلْمِ بِأَنَّهُم الآنَ لَمْ يَدْخُلُوهَا مَعَ أَنَّهَا مَعْدَةٌ لَهُمْ. أَوْ دَلَالَةٌ لَفْظِيَّةٌ كَأَنَّ نَقولَ: «نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَسولُ اللَّهِ فِي زَمَنِه الَّذِي مَضَى» وَ«الجَنَّةُ دَارُ المَتَّقِينَ بَعْدَ الحِسَابِ وَفُضِّلِ القَضَاءِ يَوْمَ الدِّينِ»، أَوْ قَرِينَةٌ لَفْظِيَّةٌ غَيْرِ صَرِيحَةٍ.

ومن القرائن التي تدلُّ على الدوام المدح أو الذمُّ أو تقديم الجملة على أنَّها حِكْمَةٌ يُسْتَرَشَدُ بِهَا.

● ومن الأمثلة التي تدلُّ قرينة المدح فيها على الدوام والاستمرار قول الله عزَّ وجلَّ لرسوله في سورة (القلم / ٦٨ / مصحف / ٢ نزول):

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٦٨﴾﴾

● ومن الأمثلة التي تدلُّ قرينة الذمِّ فيها على الدوام والاستمرار، قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (فاطر / ٣٥ / مصحف / ٤٣ نزول):

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا... ﴿٦٨﴾﴾ [الآية ٦].

فقد جاء هذا النص في معرض التحذير من الشيطان وذمه.

● وسوقُ الجُمْلَةِ مَسَاقَ حِكْمَةٍ يَحْسُنُ الاسْتِرْشَادُ بِهَا لِيَكُونَ قَرِينَةً عَلَى الدَّوَامِ والاستمرار، نَجِدُ لَهُ أَمْثِلَةً كَثِيرَةً، مِنْهَا:

«رَأْسُ الْحِكْمَةِ مَخَافَةُ اللَّهِ - الصَّحَّةُ تَأْجُ عَلَى رُؤُوسِ الْأَصِحَّاءِ - فِي الْعَجَلَةِ النَّدَامَةُ وَفِي التَّأَنِّي السَّلَامَةُ - الْبَرَكَةُ فِي الْبُكُورِ».

* * *

ثانياً

دلالات الجملة الخبرية المشتملة على فعل ماضٍ

ولا تفيد الجملة الخبرية الإثباتية المشتملة على فعل ماضٍ أكثر من إثبات حدوث النسبة الحكيمية في الزمن الماضي، فلا تدلُّ على الاستمرار إلا بمساعدة من القرائن اللفظية أو العقلية.

فإذا قلنا: «خطبَ صالحُ ابنةَ الشيخِ عثمان - نام الخطيب عبد الرحمن على المنبر - صعد أبي إلى غار حراء» فإنَّ هذه الجُمْلَةُ لا تفيد بحسب أصل الوضع

أكثر من حدوث النَّسَبِ الحَكْمِيَّةِ الَّتِي دَلَّتْ عَلَيْهَا فِي زَمَنِ مَضِيٍّ، وَيَكْفِي لِتَحْقِيقِ صَدَقِهَا أَقْلٌ مَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ لَفْظُ الْفِعْلِ الْمَاضِيِّ مِنْ مَعْنَى يَدُلُّ عَلَيْهِ .

● لَكِنَّ الْقَرَائِنَ الْعَقْلِيَّةَ قَدْ تَجْعَلُ الْفِعْلَ الْمَاضِيَّ دَالًّا عَلَى الْإِسْتِمْرَارِ وَالِدَوَامِ، وَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ مِنَ الْأَزْلِ إِلَى الْأَبَدِ، كَفِعْلِ «كَانَ» فِي الْجُمْلَةِ الَّتِي تَتَحَدَّثُ عَنْ ذَاتِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ مِثْلُ:

«وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا — إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا — وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا»
أَي: هُوَ دَوَامًا عَلِيمٌ حَكِيمٌ سَمِيعٌ بَصِيرٌ غَنِيٌّ حَمِيدٌ .

● وَمِنَ الْقَرَائِنِ اللَّفْظِيَّةِ أَنْ نَقُولَ: «نُرْوَةُ بِلَادِنَا تَعْتَمِدُ عَلَى إِنتَاجِ الْحُبُوبِ وَقَدْ كَانَتْ بِلَادِنَا تُنتِجُ الْحُبُوبَ مِنْ قَدِيمِ الزَّمَانِ» أَي: فِيهِ مَا زَالَتْ تَنْتِجُهَا .

□ أَمَّا الْجُمْلَةُ الْخَبَرِيَّةُ السَّالِبَةُ الْمَشْتَمَلَةُ عَلَى فِعْلِ مَاضٍ أَوْ مَضَارِعِ مَنْفِيِّ بِحَرْفِ «لَمْ» أَوْ حَرْفِ «لَمَّا» فَهِيَ تَدُلُّ ذَهْنًا عَلَى اسْتِعَابِ الزَّمَنِ الْمَاضِيِّ بِمَقْتَضَى النَّفْيِ، لِأَنَّهُ لَوْ حَدَثَ الْمَنْفِيُّ فِيهَا وَلَوْ مَرَّةً وَاحِدَةً فِي الزَّمَانِ الْمَاضِيِّ لَمَا صَحَّ النَّفْيُ، لَكِنْ إِذَا وُجِدَ قَيْدٌ يُحَدِّدُ قَدْرًا مِنَ الزَّمَنِ الْمَاضِيِّ أَوْ قَرِينَةٌ تَدُلُّ عَلَيْهِ، فِي غَيْرِ نَفْيِ الْمَضَارِعِ بِحَرْفِ «لَمَّا» فَالنَّفْيُ عِنْدُنَا لَا يَسْتَوْعِبُ كُلَّ الزَّمَنِ الْمَاضِيِّ .

أَمَّا نَفْيُ الْمَضَارِعِ بِحَرْفِ «لَمَّا» فَقَدْ سَبَقَ أَنَّ الْمَنْفِيَّ بِهَا مُسْتَمِرٌّ النَّفْيُ إِلَى زَمَانِ التَّكَلُّمِ .

* * *

ثَالثًا

الجملة الخبرية المشتملة على فعل مضارع

يقول النحويون: الفعل المضارع يُسْتَعْمَلُ لِلدَّلَالَةِ عَلَى وَقْتَيْنِ: الْحَالِ وَالْإِسْتِقْبَالِ، أَي: لِأَحَدِهِمَا أَوْ لِكِلَيْهِمَا مَعًا، إِذَا دَخَلَتْ عَلَيْهِ «لَمْ» أَوْ «لَمَّا» انْقَلَبَ زَمَنُهُ إِلَى الْمَاضِيِّ، وَإِذَا دَخَلَتْ عَلَيْهِ «لَامُ التَّوَكِيدِ» أَوْ «مَا» النَّافِيَّةُ تَعَيَّنَ لِلْحَالِ، وَإِذَا دَخَلَتْ عَلَيْهِ «السِّينُ أَوْ سَوْفَ» تَعَيَّنَ لِلْإِسْتِقْبَالِ .

أما علماء البلاغة فيرون أنّ الجملة الخبرية المشتملة على فعل مضارع غير مقلوب الزمن إلى الماضي، وغير مُتَعَيِّن بالأدوات للحال أو للاستقبال، تفيد تجدد حدث النسبة الحكيمية فيها، بمقتضى دلالة الفعل المضارع، مع إفادة تتابع تجدد الحدوث، سواء أكانت الجملة مُثَبَّتة، أم منفية، ما لم يَصْرِف عن هذه الدلالة صارف.

فإذا قال قائل: «تَعْمَلُ أُسْرَتُنَا، أو أُسْرَتُنَا تَعْمَلُ: أنا أَعْمَلُ في التجارة، وابني يعمل في العمران، وبنتي تَعْمَلُ في الخياطة، وزوجتي تعمل في أعمال البيت». فظاهر هذا الكلام يدلُّ على أنّهم جميعاً يعملون في حركة متجددة تَمَلُّ بِحَسَبِ المعتاد في عُرْفِ الناس أوقات العمل التي يعمل فيها الناس لكسب أرزاقهم وتأدية وظائفهم، والقيام بمطالب حياتهم.

وكذلك إذا قال: «لا يَعْمَلُ أَحَدٌ من أُسْرَتِنَا» فإنه ينفي وجود العمل ذي الحركة المتجددة بتتابع، ولا ينفي وجود أي عمل ما.

وإذا قال قائل يَصِفُ وَاذِيًا فيه رياضٌ غَنَاءُ: «النهرُ يَجْرِي، والزمانُ يَسِيرُ دُونَ مَزْعَجَاتِ، والرياحُ تَعْبَثُ بِالْغُصُونِ، والطُيُورُ تَتَنَقَّلُ بين أغصانِ الشجرِ وَتَعْرُدُ، ونحن نَسْتَمْتَعُ بأنواعِ الطيبات» فإنه يدلُّ بِصِيغِ الفعل المضارع التي اسْتَعْمَلَهَا في الْجُمَلِ التي قالها على أنّ الأحداث التي أُخْبِرَ بها أحداثٌ متجددة متكررة في المكان والزمان اللَّذَيْنِ تَحَدَّثَ عنهما.

وحين نقول: «الأرض تدور - والشمس تجري - واللَّيْلُ والنهار يتعاقبان - ولا يُوجَدُ شركاءُ الله في ربوبيته ولا في إلهيته».

فإن هذه الجمل تدلُّ على دوام التجدد دون ملاحظة نهاية، ما لم تدلَّ قرينة عقلية أو لفظية أو نصٌّ صريح عليها.

هذا هو الذي يتبادر من الاستعمال في كل جملة خبرية تشتمل على فعل مضارع، سواء أكانت الجملة اسمية أم فعلية.

وعلى متدبر كتاب الله أن يلاحظ هذه الدلالة، حتى يكون على بصيرة في تدبره.

أقول: يلاحظ في النصوص القرآنية كثرة استعمال اسم الفاعل واسم المفعول دالين على ما يدل عليه الفعل المضارع من تجدد الحدوث وتكراره، ومنه قول الله عز وجل في سورة (الأعراف/ ٧ / مصحف/ ٣٩ / نزول) بشأن «عاد» قوم الرسول «هود» عليه السلام، إذ أنفذ الله قضاؤه بإهلاكهم ونجاة هود والذين آمنوا معه:

﴿ فَأَجْبَتَهُ الَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا

مُؤْمِنِينَ ﴿٧٦﴾ .

أي: كذبوا فيما مضى من عمرهم قبل لحظة إهلاكهم بآياتنا، وما كانوا مؤمنين بها مستقبلاً لو أمهلناهم، فحالتهم النفسية حالة ميئوس منها، إذ وصلوا إلى دركة التعتت والعدا والإصرار على الكفر، رغم وضوح الأدلة والبراهين التي دمغتهم، واستيقنتها قلوبهم.

* * *

رابعاً

الجملة الخبرية المشتملة على شرط

قد تُولفُ جملةٌ خبريةٌ مُركَّبةٌ من جملتين فأكثر، إذ يعقد الشرطُ بينهما أو بينها رابطاً لإثبات حكم أو نفيه، وللشرط أدوات تدلُّ عليه، فتصير كلُّ جملةٍ من عناصر الجملة المركبة بمثابة مفرد في جملة بسيطة.

والجملة الخبرية الشرطية تنقسم إلى قسمين:

- الجملة الشرطية المتصلة.
- الجملة الشرطية المنفصلة.

الجملة الشرطية المتصلة:

هي التي يكون الحكم في جملة جواب الشرط فيها مرتبطاً ارتباطاً شرطياً بالحكم في الجملة التي جُعِلَ حُكْمُهَا شرطاً، مثل:

١ - مَنْ مَاتَ عَلَى الْإِيمَانِ الْحَقُّ دَخَلَ الْجَنَّةَ.

هذه الجملة الشرطية المركبة من جملتين بسيطتين انعقد بينهما ارتباط شرطية، دلّت على قضية شرطية واحدة، هي الحكم بدخول الجنة بشرط تحقق الموت على الإيمان الحق.

٢ - إذا كانت الرّوح حالة في الجسد، كان الجسد حياً.

وهذه الجملة الشرطية كسابقتهما، وقد دلّت أيضاً على قضية شرطية واحدة، هي الحكم بحياة الجسد بشرط تحقق وجود الروح فيه.

الجملة الشرطية المنفصلة:

هي الجملة التي يكون الحكم فيها متردداً بين احتمالين فأكثر، وحين يلاحظ المتكلم الذي يريد إصدار الحكم انحصار التردد بين عدد من الوجوه أو الاحتمالات، فإنه يُعبّر عن ذلك بمثل قوله: إمّا أن يكون الأمر كذا، وإمّا أن يكون الأمر كذا، أي: لا يخلو عن واحدٍ منهما، أو لا يخلو عنهما، مثل:

(١) إمّا أن يكون العدد زوجاً وإمّا أن يكون فرداً.

(٢) جليس السوء إمّا أن يُغويك وإمّا أن يوقعك في التهمة.

(٣) إمّا أن تكون الشمس طالعة وإمّا أن تكون غاربة.

وإذا حللنا الجمل الشرطية التي من هذا القبيل فإننا نجد أنها ترجع من جهة المعنى إلى جملتين شرطيتين فأكثر.

فقولنا مثلاً: «إمّا أن يكون العدد زوجاً وإمّا أن يكون فرداً» ينحلّ من جهة المعنى إلى ما يلي:

إذا كان العدد زوجاً فهو غير فرد. وإذا كان العدد فرداً فهو غير زوج.

وإذا لم يكن العدد زوجاً فهو فرد. وإذا لم يكن العدد فرداً فهو زوج.

إذن: فهذه الجملة الشرطية المنفصلة بقوة أربع جمل شرطية متصلة من جهة

المعنى.

وقولنا مثلاً: «جليس السوء إما أن يُغويك وإما أن يُوقِعَكَ في التُّهْمَةِ» ينحلّ

من جهة المعنى إلى ما يلي:

إذا لم يُغَوِّكَ جليسُ السوء أوقِعَكَ في التُّهْمَةِ. وإذا لم يوقِعَكَ في التُّهْمَةِ

أغواك. أي: لا يخلو الأمر عن واحد منهما وربما يجتمع الأمران.

بهذا التحليل يتّضح لنا أنّ الجملة غير الشرطية تشتمل على حكم بين شيئين

دون ارتباط بحكم آخر، فهي بسيطة، وأنّ الجملة الشرطية المتصلة تشتمل على

حكم بين شيئين مرتبط بحكم آخر، فهي مركبة تركيباً متوسطاً، وأنّ الجملة

الشرطية المنفصلة تشتمل على حكم متردّد بين شيئين فأكثر، فهي تنحلّ من جهة

المعنى إلى جملتين شرطيتين متصلتين فأكثر، فهي مركبة تركيباً أعلى.

وفي الجمل الشرطية إيجازٌ لا يوجد في غيرها لو أُريد التعبير عن مضمونها

بجمل غير شرطية.



الفصل الرابع

الجملة الإنشائية وأقسامها

وفيه ما يلي :

(١) مقدمة .

(٢) ومقولتان :

المقولة الأولى : شرح الإنشاء غير الطلبي ، وهو خمسة أنواع :

النوع الأول : أمر التكوين .

النوع الثاني : إنشاء العقود وحلّها .

النوع الثالث : إنشاء المدح والذم .

النوع الرابع : إنشاء القسم .

النوع الخامس : إنشاء التوجع أو التفجع ونحوهما .

المقولة الثانية : شرح الإنشاء الطلبي ، وفيه ستة أنواع :

النوع الأول : الأمر والنهي .

النوع الثاني : التحذير والإغراء .

النوع الثالث : النداء .

النوع الرابع : التمني والترجي .

النوع الخامس : الدعاء .

النوع السادس : الاستفهام .

* * *

المقَدِّمة

لدى تقسيم الجملة إلى خبرية وإنشائية عرفنا أن الإنشاء هو ما لا ينطبق عليه تعريف الخبر، ولدى تحليل حقيقته أقول:

هو الكلام الذي يتوقف تحقُّق مدلوله على النطق به، كالأمر والنهي والدعاء والاستفهام، وإنشاء العقود، وإنشاء المدح والذم، وأمر التكوين، والقَسَم، ونحو ذلك.

وأضيف هنا أن الإنشاء في اللِّغة هو الإبداع والابتداء، وكلُّ من ابتدأ شيئاً فقد أنشأه.

والإنشاء في الجملة الإنشائية ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: الإنشاء غير الطلبي.

القسم الثاني: الإنشاء الطلبي.



شرح الإنشاء غير الطلبي

تعريفه:

الإنشاء غير الطلبي: هو ما لا يستدعي مطلوباً، إلا أنه يُنشئُ أمراً مرغوباً في إنشائه، وله أنواع وصيغٌ تدلُّ عليه، ومنها الأنواع التالية:

النوع الأول: وهو أعلاها، وهو ما يمكن أن نسميه «أمر التكوين» وجملته أمر التكوين هي لفظ «كُنْ» كما قال الله عزَّ وجلَّ في سورة (يس) / ٣٦ مصحف / ٤١ (نزل):

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾

* * *

النوع الثاني: إنشاء العقود، وحلُّ المعقود منها، مثل عقود البيع، وعقود الزواج، وأوامر ضربِ الرِّق، وقرارات تعيين الموظفين، وقرارات الإقالة من الوظائف ممن يملك ذلك، وكعبارات الطلاق والعتق، ومبايعة رئيس الدولة، وخلع البيعة عنه، ونحو ذلك.

وتأتي صيغُ العقود وصيغُ حلِّها بعباراتٍ مختلفاتٍ من الجمل الفعلية والاسمية، وما يقوم مقامهما اختصاراً، مثل:

(١) إنشاء عقود البيع والشراء بما يدلُّ عليها اصطلاحاً من عبارات:

«كَبَيْتُكَ، اشْتَرَيْتُ مِنْكَ - أَبِيعُكَ، أَشْتَرِي مِنْكَ - بَيْعِي، بَيْعُكَ - اشْتَرِ مِنِّي، اشْتَرَيْتُ مِنْكَ» ونحوها.

(٢) إنشاء عقود الزواج بما يدلُّ عليها اصطلاحاً من عبارات: «كَرَّوَجْتُكَ بَيْتِي، قَبِلْتُ زَوَاجَهَا - أَرْوَجُكَ ابْنَتِي، تَزَوَّجْتُهَا - زَوَّجْنِي ابْنَتَكَ، زَوَّجْتُكَهَا» ونحوها.

(٣) إنشاء عقد مبايعة أمير المؤمنين بما يدلُّ عليها من عبارات: «أَبَايَعُكَ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ - بَايَعْتُكَ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ» ونحوها.

إلى غير ذلك من عباراتٍ تتضمَّن في عرف الناس إنشاء العقود، وهي جُمَلٌ، أو مختصراتٌ تتضمَّن معنى جُمَلٍ إنشائية.

(٤) إنشاء الدخول في الإسلام بإعلان الشهادتين، فهو عَقْدٌ مع اللّهِ بالإسلام له، مع عقد النية على هذا الدخول.

(٥) إنشاء الدخول في نحو عبادة الصلاة، أو عبادة الحج والعمرة، فالدخول في الصلاة يكون بعقد النية مع تكبيرة الإحرام، إذ تكبيرة الإحرام تنوب مناب: عقدت الدخول في الصلاة وأنشأته، مع استحضار النية في النفس.

والدخول في عبادة الحج أو العمرة يكون بعقد النية مع التلبية، إذ عبارة «لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ» تنوب مناب: عقدت الدخول في الحج أو العمرة وأنشأته، مع استحضار النية في النفس.

(٦) حلُّ العقود بعبارات تدلُّ عليه، مثل:

«فَسَخْتُ الْبَيْعَ - خَلَعْتُ الْبَيْعَةَ - قَوْلُ الرَّجُلِ لَزَوْجَتِهِ: طَلَّقْتُكَ أَوْ أَنْتِ طَالِقٌ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ - قَوْلُ مَالِكِ الرَّقِيقِ لِمَمْلُوكِهِ: أَعْتَقْتُكَ، أَوْ أَنْتَ عَتِيقٌ، أَوْ قَوْلُهُ لَهُ: كَاتَبْتُكَ عَلَى كَذَا» ونحو ذلك.

النوع الثالث: إنشاء المدح أو الذم، ويأتي في أفعالٍ وصيغ:

● فيأتي المدح بفعل: «نعم» مثل: «نعم العبدُ إنه أوَّاب - ولنعم دار المتقين - فنعماً هي».

● ويأتي الذمُّ بفعل: «بئس» مثل: «بئس الشرابُ - فلبئس مشوي المتكبرين».

● ويحوّل الفعل الماضي الثلاثي عن وزنه فيصاغُ على وزنِ «فعل»، لازماً بضمّ العين، ويُسْتَعْمَلُ عندئذٍ قريباً من استعمال «نعم وبئس» للدلالة على المدح أو الذم، مثل: «وحسن أولئك رفيقاً - حسنت مستقراً ومقاماً - إنها ساءت مستقراً ومقاماً - وساءت مصيراً - وساءت مُرتفقاً - مُحمّداً عظماً رسولاً، وكرم أصلاً، وجملاً خلقاً، وجادَ عطاءً، وفاقَ بيانا».

أفعالُ «ساءَ وجادَ وفاقَ» في هذه الأمثلة هي على تقدير تحويلها إلى وزنِ «فعل» وإن شابهَ لفظها الذي حوِّلت إليه لفظها الذي حوِّلت منه، لأن لفظها الذي حوِّلت إليه هو «سوءَ - جودَ - وفوقَ» ولكن تحركت الواو وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً، فعادت إلى مثل ما حوِّلت عنه في اللفظ.

ونلاحظُ أنّ عبارات إنشاء المدح والذم من بدائع الصيغ والتركيبات في اللسان العربي.

ويمكن أن نُلحِقَ الشتائم بإنشاء الذم.

* * *

النوع الرابع: إنشاء القسم، وله صيغٌ كثيرة، منها: «أقسمُ بالله لَفَعَلْتُ أو لَأَفَعَلَنَّ - أحلفُ بالله لَأَفَعَلُ أو لَتَفَعَلَنَّ - أشهدُ لَأَفَعَلَنَّ - أشهدُ الله لَأَفَعَلَنَّ - عِلِمَ الله أو يَعْلَمُ الله لَأَفَعَلَنَّ».

ويختصر العرب عباراتِ الْقَسَمِ فَيَحْذِفُونَ منها فعل الْقَسَمِ، ويشيرون إليه بأداةٍ كحرف الْقَسَمِ، مثل: وَاللَّهِ - بِاللَّهِ - تَاللَّهِ أو بحركة إعرابٍ مثل: «اللَّهُ لَأَفْعَلَنَّ» على تقدير وجود حرف القسم الجارِّ، أو «اللَّهُ لَأَفْعَلَنَّ» أي: أَخْلَفُ اللَّهُ بالنصب، والنصب جاء على طريقة الحذف والإيصال، وهو حذف الجار ونصبُ المجرور به على أنه مفعولٌ به.

والغرض من إنشاء الْقَسَمِ تأكيد الجملة الخبرية كما سبق بيانه في مؤكداً الخبر.

* * *

النوع الخامس: إنشاء التوجع أو التفعج، أو الترحم، أو التثريب، أو تقيح الحال.

وتدُلُّ على هذه المعاني عبارات هي في الحقيقة اختصارٌ لجمل أو رمزٌ لها من جهة المعنى.

● ففي التوجع نلاحظ عبارات مثل: «يا عمراه - وأعمراه - وأمحمدها - وأحزناه - وأفجيعته».

ومثل: «آه - أوه».

● وفي الترحم أو التخوف من وقوع مكروه، مثل «ويحهُ - ويسه».

● وفي التقيح والتثريب، مثل: «ويئله - ويئيه» قالوا: وهما كلمتا عذاب، أي هما كلمتان لإنشاء التقيح والتثريب بسبب استحقاق العذاب.

● ● ●

شرح الإنشاء الطلبي

تعريفه:

الإنشاء الطلبي: هو ما يستدعي مطلوباً غير حاصل في اعتقاد المتكلم وقت الطلب، ويكون الإنشاء الطلبي بأنواع من الكلام: «الأمر والنهي - التحذير والإغراء - النداء - التمني والترجي - الدعاء - الاستفهام».

* * *

(١)

النوع الأول: الأمر والنهي

تعريف الأمر: هو طلبٌ تحقيق شيء ما، مادّي أو معنوي، وتدلُّ عليه صيغة كلامية أربع، هي:

«فعل الأمر - المضارع الذي دخلت عليه لام الأمر - اسم فعل الأمر - المصدر النائب عن فعل الأمر».

تعريف النهي: هو طلبٌ الكفّ عن شيء ما، مادّي أو معنوي، وتدلُّ عليه صيغة كلامية واحدة هي: «الفعل المضارع الذي دخلت عليه (لَا) الناهية».

أمثلة من الأمر:

(١) من صيغة «فعل الأمر»:

● ﴿ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ... ﴾ [آية ١٥٨]

(الأعراف / ٧ مصحف / ٣٩ نزول):

● ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ (البقرة / ٢ مصحف / ٨٧ نزول).

● وقول أبي الطيب المتنبّي:

عِشْ عَزِيزاً أَوْ مُتْ وَأَنْتَ كَرِيمٌ بَيْنَ طَعْنِ الْقَنَا وَخَفَقِ الْبُنُودِ^(١)

● وقول الشاعر:

إِذَا لَمْ تَخْشَ عَاقِبَةَ اللَّيَالِي وَلَمْ تَسْتَحْيِ فَاضِنَعِ مَا تَشَاءُ

(٢) مِنْ صِيغَةِ «المضارع الذي دخلت عليه لَامُ الأَمْرِ».

● ﴿ وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ

الْمُقْلِحُونَ ﴾ (آل عمران / ٣ مصحف / ٨٩ نزول).

● وقول البحترّي:

فَمَنْ شَاءَ فَلْيَبْخُلْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَبْجُدْ كَفَانِي نَدَاكُمُ عَنْ جَمِيعِ الْمَطَالِبِ

● وقول المتنبّي في مدح سيف الدولة:

كَذَا فَلْيَسْرِ مَنْ طَلَبَ الْأَعَادِي وَمِثْلَ سُرَاكٍ فَلْيَكُنِ الطَّلَابُ

● وقول الشاعر:

لِيَكُنْ بِرَبِّكَ كُلُّ عِزِّكَ يَسْتَقِرُّ وَيَثْبُتُ فَإِذَا اعْتَزَّزْتَ بِمَنْ يَمُوتُ فَإِنَّ عِزَّكَ مَيِّتٌ

(٣) مِنْ صِيغَةِ «اسم فِعْلِ الأَمْرِ»:

(١) الْقَنَا: الرَّمَاحُ الْجَوْفَاءُ، وَاحِدَتُهَا الْقَنَاةُ، وَهِيَ الرَّمْحُ الْأَجُوفُ.

وَالْبُنُودُ: هِيَ الرِّايَاتُ وَالْأَعْلَامُ، وَخَفَقَهَا تَحَرُّكُهَا بِالرِّيَاحِ وَاضْطِرَابُهَا.

● ﴿ فَهَلِ الْكَافِرِينَ أَهْلَهُمْ رَوَيْدًا ﴾ (الطارق / ٨٦ مصحف / ٣٦ نزول).

رَوَيْدًا: اسم فعل بمعنى «أمهل».

● ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كِتَابًا بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَٰؤُلَاءِ أَمْرَأَةٌ أُنْكَبِيَّةٌ ﴾ (الحاقة / ٦٩ مصحف /

٧٨ نزول).

ها: اسم فعل أمر بمعنى «خذ».

● وقول المعري:

أَبْنَاتِ الْهَدِيلِ أَسْعَدْنَ أَوْعَدَ نَ قَلِيلَ الْعَزَاءِ بِالْإِسْعَادِ
إِيهِ لِلَّهِ دَرُكُنَّ فَأَتْنَنَّ اللَّوَاتِي تُحْسِنَنَّ حِفْظَ الْوِدَادِ

إِيهِ: اسمُ فعل أمر، معناه طلب الزيادة.

الْهَدِيلِ: صوتُ الحمام – أو ذكر الحمام الوحشي.

فالمعري يطالبُ بناتِ الهديل، وهي أنعام صوت الحمام، بأن تُسَعِدَهُ بما لديها من ترجيع وترديد ألحان، وبأن تزيده من غنائها.

(٤) من صيغة «المصدر النائب عن فعل الأمر»:

● ﴿ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ (الملك / ٦٧ مصحف / ٧٧ نزول).

فَسُحْقًا: أي فَبُعْدًا شديدًا، وهو مُضَدَّر «سَحَقَ» بمعنى: بَعُدَ أَشَدَّ الْبُعْدِ، وقد ناب عن فعل الأمر، والمعنى: «اسْحُقُوا» أي: ابْتَعِدُوا ابتعاداً شديداً.

● قول قَطْرِي بن الْفُجَاءَةِ:

فَصَبْرًا فِي مَجَالِ الْمَوْتِ صَبْرًا فَمَا نَيْلُ الْخُلُودِ بِمُسْتَطَاعِ
فَصَبْرًا: أي: فاصْبِرْ.

أَمْثَلَةٌ مِنَ النَّهْيِ:

● ﴿يَتَأْتِيَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا...﴾ [الآية ١١٨] (آل عمران / ٣ مصحف / ٨٩ نزول).

بِطَانَةٌ: أي: أصحاباً يُخالطونكم ويطلعون على أسراركم وبواطن أموركم.
لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا: أي: لا يَقْصُرُونَ فِي إِفْسَادِ شُؤْنِكُمْ وَخَطَطِكُمْ وَأَفْكَارِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ.

● ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا...﴾ [الآية ٥] (النساء / ٤ مصحف / ٩٢ نزول).

● وقول المعري:

وَلَا تَجْلِسْ إِلَى أَهْلِ الدُّنْيَا فَإِنَّ خَلَائِقَ السُّفَهَاءِ تُعْدِي
● وقول المتنبي في مدح سيف الدولة:

فَلَا تُبْلِغَاهُ مَا أَقُولُ فَإِنَّهُ شُجَاعٌ مَتَى يُذَكَّرُ لَهُ الطَّعْنُ يَشْتَقِ
● وقول أبي الأسود الدؤلي:

لَا تَنْهَ عَن خُلُقٍ وَتَأْتِي مِثْلُهُ عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمٌ
دلالات صِيغِ الأَمْرِ والنَهْيِ:

(١) يُسْتَفَادُ مِنْ صِيغِ الأَمْرِ التَّكْلِيفُ الإِلْزَامِيُّ بِالْفِعْلِ.

(٢) وَيُسْتَفَادُ مِنْ صِيغَةِ النَهْيِ التَّكْلِيفُ الإِلْزَامِيُّ بِالتَّرْكِ وَعَدَمِ الفِعْلِ.

وكلٌّ من صِيغِ الأَمْرِ وَصِيغَةِ النَهْيِ قد تخرج عن دلالتيهما بقرائنٍ حالِيةٍ أو قوليةٍ إلى معانٍ كثيرةٍ، منها ما يلي:

«الدعاء - الالتماس - الإرشاد - التمني - الترجي - التئيس - التخير - التسوية - التعجيز - التهكم والإهانة - الإباحة - التويخ والتأنيب والتفريع -

الندب - التهديد - الامتان - الاحتقار والتقليل من أمر الشيء - الإنذار - الإكرام - التكوين - التكذيب - المشورة - الاعتبار - التعجب أو التعجيب إلى غير ذلك من معان.

أمثلة:

(١) من الدعاء ويكون عادةً من العبد لربه:

• ﴿... فَأَعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ ﴿١٤٦﴾ وَأَكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ...﴾ (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

• ﴿رَبَّنَا لَا تَوَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ، وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿١٨٨﴾ (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول).

(٢) ومن الالتماس، ويكون عادةً من الإنسان لمن هو أعلى منه،

أو لمساويه:

• قول هارون لموسى عليهما السلام: ﴿ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿١٥٠﴾ (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول).

• وكقول الصديق لصديقه: أعزني كتابك ولا تُخرجني أن أعيده قبل أسبوع.

• وقول الشاعر:

لَا تَطْوِيَا السَّرَّ عَنِّي يَوْمَ نَائِبَةٍ فَإِنَّ ذَلِكَ ذَنْبٌ غَيْرُ مُعْتَفَرٍ

(٣) ومن الإرشاد، ويكون عادةً في مجال النصيحة وإبداء المشورة:

• ﴿وَاسْتَشِهُدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ...﴾ [الآية ٢٨٢] (البقرة/

٢ مصحف/ ٨٧ نزول).

● وَقَوْلُ الْمَسْتَشَارِ فِي نَصِيحَتِهِ: تَزَوَّجْ بِكَرٍّ وَلَا تَتَزَوَّجْ مَنْ تَعَدَّدَ عَلَيْهَا الْأَزْوَاجَ.

● وقول المعري:

لَا تَحْلِفَنَّ عَلَيَّ صِدْقٍ وَلَا كَذِبٍ فَلَا يُفِيدُكَ إِلَّا الْمَائِمَ الْحَلِيفُ

(٤) ومن التَّمَنِّي، ويكون عادة في الميثوس من الحصول عليه، أو فيما هو بعيد المنال:

● تَمَنِّي أَهْلَ النَّارِ أَنْ يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ بِالْمَوْتِ وَهُمْ يَأْسُونَ مِنْ ذَلِكَ:

﴿وَنَادَا يَمَنَّاكَ لِيَقْضَ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَنَكُوتٌ﴾ (الزخرف / ٤٣ مصحف /

٦٣ نزول).

● وَطَلَّبَهُمْ مِنْ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ أَنْ يَفِضُوا عَلَيْهِمْ مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ.

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ...﴾

[الآية ٥٠] (الأعراف / ٧ مصحف / ٣٩ نزول).

● وقولي واضعاً مثلاً:

أَمْطِرِي يَا سَمَاءُ كُلَّ صَبَاحٍ فَوْقَ بَيْتِي مِنَ الدَّنَائِرِ أَلْفًا
لَا تَكْفِي مِنِّي مِنْ فَيْضِ جُودِكَ عَنِّي عَادَتِي لَا أَسُوءُ بِالْقَبْضِ كَفًّا

(٥) ومن التَّرَجِّي، ويكون في المطموع فيه، والمترقب الحصول عليه:

● قول امرئ القيس:

أَلَا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ أَلَا أَنْجَلِي بَصْبِحَ وَمَا الْإِصْبَاحُ مِنْكَ بِأَمْثَلِ

فَالصَّبْحُ مَرْجُوٌّ قَدُومُهُ بَعْدَ اللَّيْلِ الطَّوِيلِ.

(٦) ومن التيسيس:

● قول الله عز وجل في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزل) بشأن

المنافقين:

﴿ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ... ﴾ [الآية ٦٦].

(٧) وَمِنَ التَّخْيِيرِ:

● قولنا للطالب في الامتحان: أجب على أحد السؤالين التاليين:

● وقول الله عز وجل في سورة (الملك/ ٦٧ مصحف/ ٧٧ نزل):

﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّكُمْ عَلِيمُ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾.

● وقول المتنبي:

عِشْ عَزِيزاً أَوْ مُتاً وَأَنْتَ كَرِيمٌ يَبْنَ طَعْنِ الْقَنَا وَخَفَقِ الْبُودِ

القنا: الرماح. البود: الأعلام.

(٨) ومن التسوية:

● قول الله عز وجل في سورة (الطور/ ٥٢ مصحف/ ٧٦ نزل) حكاية لما

يقال لأهل النار يوم الدين:

﴿ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ ١٥ أفسحوا هذا أم أنتم لا تبصرون ﴿ ١٥ ﴾ أصلوها

﴿ فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَاءَ عَلَيْكُمْ ﴾ ١٦ إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴿ ١٦ ﴾.

● وقول الشاعر:

أَسِئِي بِنَا أَوْ أَحْسِنِي لَا مَلُومَةٌ لَدَيْنَا وَلَا مَقْلِيَةٌ إِنْ تَقَلَّتِ

تَقَلَّتْ: تَبَعَّضَتْ - أَوْ تَمَلَّمَتْ.

(٩) ومن التعجيز:

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الرحمن/ ٥٥ مصحف/ ٩٧ نزول):

﴿يَمَعَشَرِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنْ أَسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِإِذْنِ رَبِّكُمْ﴾.

● وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول): ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

● وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ آيَاتُ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ مِنَ الذِّكْرِ فَتَسْتَكْبِرُوا فِيهِ لِيُنزَلَ عَلَيْكُمْ لَوْلَا فَتَنُوهَا عَلَيْهِمْ لَيَبْغُوا فِيهَا وَمُنَافِقِينَ﴾.

(١٠) ومن التهكم والإهانة:

● ما يقال للمعذب في النار يوم الدين، كما جاء في سورة (الدخان/

٤٤ مصحف/ ٦٤ نزول):

﴿خُدُّوهُ فَاعْتَلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَبِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾.

ففي الأمر بفعل [ذُق] تهكم به.

● وما يقال جواباً لِمَنْ قُضِيَ عليهم بالخلود في النار حين يقولون:

رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ، كما جاء في سورة (المؤمنون/

٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):

﴿قَالَ اخْسَرُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾.

(١١) ومن الإباحة:

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِنَّمَا فِي الْأَرْضِ حَلْكَاً طَيِّباً...﴾ [الآية ١٦٨].

- وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):
﴿... وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا...﴾ [الآية ٢].

(١٢) ومن التوبيخ والتأنيب والتقريع:

- قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) خطاباً لأهل الكتاب:

﴿وَلَا تَلْسُوا الْحَقَّ بِالْبُطْلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْمُونَ﴾.

(١٣) ومن الندب ويقابله في النهي الكراهة:

- قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):
﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

دل على أن الأمر للندب قوله: ﴿لعلكم تُرْحَمُونَ﴾ ففي هذا ترغيب لا ترهيب.

- وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):
﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْحاً إِنَّكَ لَنْ تُخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾.

(١٤) وَمِنَ التَّهْدِيدِ:

- قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (فُصِّلَتْ/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول):
﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي بآيَاتِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

أي: فَسْتَلْقَوْنَ عِقَابَ أَعْمَالِكُمْ فِي النَّارِ.

(١٥) ومن الامتنان:

- قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ
وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَكِّبًا وَغَيْرَ مُتَشَكِّبٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ
حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ .

ففي الأمر بعبارة (كلوا) امتنان من الله على عباده .

(١٦) ومن الاحتقار والتقليل من أمر الشيء :

● قول موسى عليه السلام للسحرة: ﴿ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴾ كما جاء في
سورة (يونس / ١٠ مصحف / ٥١ نزول):

﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴾ .

لقد احتقر موسى عليه السلام وسائلهم واستهان بسحرهم ، فقال لهم: ألقوا .
أي: قبلي .

(١٧) ومن الإنذار :

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الزمر / ٣٩ مصحف / ٥٩ نزول):

﴿ ... قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴾ .

● وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (المرسلات / ٧٧ مصحف / ٣٣ نزول):

﴿ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كَلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرِمُونَ ﴾ .

(١٨) ومن الإكرام والتكريم :

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الحجر / ١٥ مصحف / ٥٤ نزول):

﴿ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ أَذْخَلُوهَا وَسَلِّمْ ءَامِينَ ﴾ .

(١٩) ومن التكوين :

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (يس / ٣٦ مصحف / ٤١ نزول):

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ .

(كُنْ): من الله أمرُ تكوين.

(٢٠) ومن التكذيب:

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿ قُلْ هَلُمُّوا شُهَدَاءَكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا... ﴾ [الآية ١٥٠].

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ جِلًّا لِنَبِيِّ إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ

تُنزَلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦﴾

(٢١) ومن المشورة:

● قول سيدنا إبراهيم لولده إسماعيل عليهما السلام كما حكى الله في سورة

(الصافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول):

﴿ فَمَا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَى قَالَ يَبْنَؤُا إِيَّيْ أَرَى فِي الْمَنَامِ آتِيَّ أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَكَابُتِ

أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٠﴾

فقول إبراهيم لإسماعيل عليهما السلام: ﴿فانظُرْ مَاذَا تَرَى﴾ قول طالب

مشورة في أمرِ الرؤيا.

(٢٢) ومن الاعتبار:

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿ ... أَنْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٩﴾

(٢٣) ومن التعجب والتعجيب:

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) خطاباً

لرسوله:

﴿ أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَلَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴿١﴾

● وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (مريم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول):

﴿... فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ
الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾ .

ذَكَرَهُ السَّكَاكِينِي فِي اسْتِعْمَالِ الْإِنشَاءِ بِمَعْنَى الْخَبَرِ، وَالْمَعْنَى: مَا أَشَدَّ سَمْعَهُمْ
وَبَصَرَهُمْ يَوْمَئِذٍ .

إلى غير ذلك من معانٍ أخرى، وعلى متدبر النصوص القرآنيَّة، ودارس
النصوص الأخرى أن يكون باحثاً ذاكاً للمراد من صِيغِ الأَمْرِ والنهي، مستفيداً من
قرائن الأحوال وسباقِ الكلام وسياقه .

* * *

(٢)

النوع الثاني: التَّحذِيرُ وَالْإِغْرَاءُ

التحذير والإغراء هما في المعنى من فروع الأمر والنهي، وينطبق عليهما ما
ينطبق عليهما .

● فعبارات التحذير هي في معنى: (احذر - أو تجنّب - أو توقّ -
أو تباعد - أو لا تقرب - أو لا تدنّ) .
أو نحو ذلك مما يلائم حال المُحذَرِ منه .

● وعبارات الإغراء هي في معنى: (افعل - أو الزم - أو اطلب -
أو أقبل - أو تقدّم - أو خذ -) أو نحو ذلك مما يلائم حال المُغْرَى به .

أمثلة:

(١) من التحذير:

قول الشاعر:

وَإِيَّاكَ وَالْمَيْتَاتِ لَا تَقْرَبِنَّهَا وَلَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ وَاللَّهَ فَاعْبُدَا

وقولي صانعاً مثلاً:

إِيَّاكَ وَالصَّبَوَةَ إِنِ أَفْبَلْتُ مُنْذِرَةَ الشَّيْبِ تَهَادَى إِلَيْكَ
زَلَّتْكَ الْيَوْمَ وَأَنْتَ الَّذِي قَدْ شَبْتُ تُرْدِيكَ وَتَقْضِي عَلَيْكَ

● وقول الشاعر:

فَلَا تَصْحَبْ أَخَا الْجَهْلِ وَإِيَّاكَ وَإِيَّاهُ

(٢) ومن الإغراء:

● قول الشاعر:

أَخَاكَ أَخَاكَ إِنَّ مَنْ لَا أَخَا لَهُ كَسَاعٍ إِلَى الْهَيْجَا بِغَيْرِ سِلَاحٍ
● وقول الداعي إلى الصلاة: الصَّلَاةُ جَامِعَةٌ.

* * *

(٣)

النوع الثالث: النداء

تعريف النداء: هو طلبُ الإجابة لأمرٍ ما بحرف من حروف النداء يُنوبُ منابَ «أدعو».

وأدوات النداء ثمان: «أ - أي - يا - آ - آي - أيا - هيا - وا».

● أمّا «أ - أي» فلنداء القريب.

● وأمّا «أيا - هيا - آ» فلنداء البعيد.

● وأمّا «يا» فالراجع أنّها موضوعةٌ لنداء البعيد حقيقةً أو حكماً، وقيل مشتركة.

● وتُسْتَعْمَلُ «وا» للندبة، وهي التي يُنَادَى بها المندوبُ الْمُتَفَجِّعُ عليه،

وتُسْتَعْمَلُ في النُّدْبَةِ أيضاً «يا» عند أَمْنِ الالتباسِ بالنداءِ الحقيقي.

تصرف البليغ في استعمال أدوات النداء :

(١) قد يستعملُ البليغُ أدوات النداء التي للقريب فينادي بها البعيد، لمعنى يُريدُ الإشارة إليه، كأن يُريدَ الإشارةَ إلى أن هذا البعيد في جسده هو قريب إلى قلبه ونفسه حاضر في تصوّره المستمر، وكأن يريد الإشارة إلى أنه لشدة سمعه وانتباهه وسرعة استجابته، كأنه قريب، فهو لا يحتاج أن ينادى بأدوات نداء البعيد.

(٢) وقد يستعملُ البليغُ أدوات النداء التي للبعيد فينادي بها القريب، لمعنى يُريدُ الإشارة إليه، كأن يُريدَ أنه رفيع المنزلة عالي المقام، فهو لارتفاع منزلته وبعد مقامه بمثابة البعيد إلى الأعلى في جسده، فاللائق به أن يُنادى بأدوات النداء التي للبعيد. وكأن يريد أنه مُنحطُّ المنزلة جداً، فهو لانحطاط منزلته بمثابة البعيد إلى الأسفل في جسده، فاللائق به أن يُنادى بأدوات النداء التي للبعيد. وكأن يُريدُ التعبير عن حالة تلهّفه وشدة طلبه، فهو بمثابة المستغيث الذي يمدُّ صوته في النداء، فيستعمل أدوات النداء التي للبعيد لما فيها من مدِّ الصوت وطول النفس معه. وكأن يريد أن المناذى غافل شارد الذهن أو غير مستعدٍّ للاستجابة فهو بمثابة البعيد.

(٣) وقد يخرج النداء عن المعنى الأصلي الموضوع له، فيستعملُ لدى البلغاء وغيرهم في أغراضٍ أخرى غير النداء، وهذه الأغراض تُفهم من قرائن الحال أو قرائن المقال، فكلُّ حركةٍ نفسية ذات مشاعر تدفع الإنسان إلى التعبير عنها بنداء ما بطريقة تلقائية، ولو لم يشعر بأن هذا النداء يحقق له مرجواً أو مؤمولاً أو يدفع عنه مكروها.

كأن يستعمل النداء في الزجر واللوم، أو التحسّر والتأسّف والتفجع والندم أو التذبة، أو الإغراء، أو الاستغاثة، أو اليأس وانقطاع الرجاء، أو التمني، أو التذکر وبث الأحزان، أو التضجر، أو الاختصاص، أو التعجب، إلى غير ذلك.

(٤) وكثيراً ما تُحذف أداة النداء ولا سيما في نداء الرَّبِّ ودُعائه، فتكون مقدرّة ذهناً، مثل: «رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمناً - رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي - رَبِّ زِدْنِي عِلْماً - رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَدَّبُونِ».

والأداة التي تُقدَّرُ عند الحذف هي: «يا» فيما ذكر النحاة.

أقول: إنّ حذف أداة النداء له دلالة في نفس البليغ، وهي أنّ المنادى هو في أقرب منازل القرب من المنادي، حتّى لم يحتج إلى ذكر أداة نداء له لشدة قربه، وهذا يليق بمقام دعاء الرَّبِّ جلّ وعلا، فإذا قال الداعي «يَا رَبِّ» فهو يعبر بذكر أداة النداء عن شدة حاجة نفسه لما يدعو به، أو يعبر عن ألمه أو استغاثته أو ضيق صدره، أو نحو ذلك من المعاني.

لذلك وجدتُ في القرآن أنّ كلّ نداءٍ فيه دعاءٌ للرَّبِّ قد حُذفتُ منه أداة النداء، باستثناء نداءَيْن ناداهُما الرسولُ محمدٌ ﷺ، فقد ذكر فيهما أداة النداء «يا» تعبيراً عن حالة نفسه الحزينة من أجل قومه الذين اتَّخذوا القرآنَ مهجوراً بعد أن بلغهم ما أنزل عليه منه، وأسمَعَهُمْ آيَاتِهِ، وأعادها عليهم مرّاتٍ ليفهموا دلالاتها، فأصرُّوا على كفرهم وعنادهم حتّى رأى أنّهم لا يؤمنون مهّمًا ذكرَهُمْ وأقنعهم وحذّرَهُمْ وأنذَرَهُمْ.

فالأول: ما جاء في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزل) بقول الله عزَّ وجلَّ فيها:

﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾

فذكر الرسول حرف النداء «يا» مع أنه يُنادي ربّه الذي هو أقرب إليه من حبل الوريد، ليعبر بمدّ صوته بأداة النداء عن حزنه من أجل قومه، وتلهّفه لاستجابتهم، وحرصه على نجاتهم من عذاب ربّهم في جهنم دار عذاب الكافرين يوم الدين.

والثاني: ما جاء في سورة (الزخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزل):

﴿ وَقِيلَ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

أي: تَصَلُّبُوا عَلَى العناد والكفر، فَهُمْ لَا يَتَحَرَّكُونَ حركةً جديدةً يُشْعِرُونَ فِيهَا باقترابهم من الإيمان، فعَبَّرَ بِأداةِ النداءِ عَن تَلَهُّفِهِ لِإِيْمَانِهِمْ وَنَجَاتِهِمْ، وَتَوَجُّعِ قَلْبِهِ مِنْ أَجْلِهِمْ.

فائدة:

قال الزمخشري: «كثُرَ فِي الْقُرْآنِ النِّدَاءُ بِـ [يَا أَيُّهَا] دُونَ غَيْرِهَا لِأَنَّ فِيهَا أَوْجَهًا مِنَ التَّأْكِيدِ، وَأَسْبَابًا مِنَ الْمُبَالَغَةِ، مِنْهَا:

(١) مَا فِي «يَا» مِنَ التَّأْكِيدِ وَالتَّنْبِيهِ.

(٢) وَمَا فِي «هَا» مِنَ التَّنْبِيهِ.

(٣) وَمَا فِي التَّدْرِجِ مِنَ الْإِبْهَامِ فِي «أَيُّ» إِلَى التَّوْضِيحِ.

والمقام يناسب المبالغة والتأكيد، لأنَّ كُلَّ مَا نَادَى اللهُ لَهُ عِبَادَهُ مِنْ أَمْرِهِ، وَنَوَاهِيهِ، وَعَطَائِهِ، وَزَوَاجِرِهِ، وَوَعْدِهِ، وَوَعِيدِهِ، وَمِنْ اقْتِصَاصِ أَخْبَارِ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا أَنْطَقَ اللهُ بِهِ كِتَابَهُ، أَمُورٌ عِظَامٌ، وَخُطُوبٌ جِسَامٌ، وَمَعَانٍ وَاجِبٌ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَّقِظُوا لَهَا، وَيَمِيلُوا بِقُلُوبِهِمْ وَبِصَائِرِهِمْ إِلَيْهَا، وَهُمْ غَافِلُونَ، فَاقْتَضَى الْحَالُ أَنْ يُنَادُوا بِالْأَكْثَرِ الْأَبْلَغِ».

* * *

أمثلة من استعمال أدوات النداء

على وفق أو على خلاف مقتضى الأصل من القرب والبعد

● نادى نوح عليه السلام ولده الذي كان في معزل عنه مستخدماً أداة النداء التي للبعيد، دلَّ على ذلك قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعزِلٍ يَبْنَئُ أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾

فاستعمل أداة النداء التي تُسْتَعْمَلُ للبعيد وفق مقتضى الأصل، إذ كان بعيداً في معزلٍ عن أبيه.

● ونلاحظُ أن هارونَ عليه السلام كانَ لَهُ مَوْفِقَانِ مَعَ أَخِيهِ مُوسَى عَلَيْهِ السلام، تُجَاهَ مَا كَانَ مِنْ مُوسَى إِذْ أَخَذَ بِرَأْسِهِ يَجْرُهُ إِلَيْهِ:

أَمَّا فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى فَحَذَفَ مِنْ عِبَارَتِهِ أَدَاةَ النَّدَاءِ لِإِسْعَارِهِ بِأَنَّهُ أَكْثَرُ مِنْ قَرِيبٍ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ، دَلٌّ عَلَى هَذِهِ الْمَرَّةِ مَا جَاءَ فِي سُورَةِ (الْأَعْرَافِ / ٧ مَصْحَفٍ / ٣٩ نَزُولٍ):

﴿ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعْفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾

فحذف أداة النداء مُسْتَعْطِفاً، لِأَنَّهُ كَانَ قَرِيباً مِنْهُ جَسَدِيًّا، وَأَشْعَرُهُ بِزِيَادَةِ الْقُرْبِ مِنْهُ نَفْسِيًّا، إِذْ هُوَ ابْنُ أُمَّهِ.

وَأَمَّا فِي الْمَرَّةِ الْأُخْرَى حِينَ أَخَذَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِرَأْسِ هَارُونَ وَلِحِيَّتِهِ مُحَاسِبًا، فَقَدْ نَادَاهُ بِحَرْفِ النَّدَاءِ «يَا» قَائِلًا لَهُ كَمَا جَاءَ فِي سُورَةِ (طه/ ٢٠ مَصْحَفٍ / ٤٥ نَزُولٍ):

﴿ قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿١١٦﴾ ﴾

أي: وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي السَّابِقَ لَكَ: إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعْفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي «هَذَا فِيمَا أَرَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ».

فأنزل هارون أخاه موسى في هذا النداء الثاني منزلة البعيد، لأنه لم يرقب قوله السابق له، أي: لم يضعه موضع المراقبة ليعمل بمقتضاه.

● ونلاحظ في خطاب الله لعباده في القرآن أنه يُنَزِّلُهُمْ مَنزِلَةَ البعيدين عنه،

فيناديهم بحرف النداء «يا» مع أنّه أقرب إليهم من حبل الوريد، مراعاةً لمقام الربوبية الرفيع، في الأمر والنهي والتوجيه، إذ هو سبحانه العليّ الأعلى.

فجاء في النصوص القرآنية: يا عبادي - يا معشر الجن والإنس - يا يحيى - يا عيسى - يا داود - يا زكريا - يا أيها الناس - يا أيها النبي - يا أيها المزمّل - يا أيها المدثر.

● وأنزل أبو العتاهية مخاطبته الذي يعظه منزلة البعيد، فناداه بأداة النداء التي للبعيد «أيا» ليشير إلى أنه غافل لاه في دنياه، فهو بمثابة البعيد الذي يحتاج إلى أداة النداء التي يُنادى بها البعيد، فقال:

أَيَا مَنْ عَاشَ فِي الدُّنْيَا طَوِيلًا وَأَفْتَى العُمَرَ فِي قِيلٍ وَقَالَ
وَأَتَعَبَ نَفْسَهُ فِيمَا سَيَفَنِي وَجَمَعَ مِنْ حَرَامٍ أَوْ حَلَالٍ
هَبِ الدُّنْيَا تُقَادُ إِلَيْكَ عَفْوًا أَلَيْسَ مَصِيرُ ذَلِكَ لِلزَّوَالِ؟

● وخاطب سوار بن المضرب قلبه الذي هو منه، فناداه كما يُنادي البعيد، ليشير بذلك إلى غفلته فكأنه بعيد، فقال:

يَا أَيُّهَا القَلْبُ هَلْ تَنهَاكَ مَوْعِظَةٌ؟ أَوْ يُحَدِثُنْ لَكَ طُولُ الدَّهْرِ نَسِيَانًا
● وكتب والد لولده البعيد عنه في سفر رسالة قال له فيها ناصحاً:

أَحْسِنُ إِنِّي وَعَظٌّ وَمُؤَدَّبٌ فَافْهَمْ فَإِنَّ العَاقِلَ المُتَادِبُ
فاستعمل أداة النداء «أ» التي هي للقريب على خلاف الأصل، ليشير بذلك إلى أنه حاضر في ذهنه لا يغيب عن باله.

● ونزل المتنبي سيف الدولة منزلة البعيد مُشيراً إلى ارتفاع منزلته مع الإشارة إلى أنه ابتعد عن معاملته بالعدل فناداه بحرف النداء «يا» في مخاطبته، فقال له مُعَاتِباً:

يَا أَعْدَلَ النَّاسِ إِلَّا فِي مُعَامَلَتِي فِيكَ الْخِصَامُ وَأَنْتَ الْخِصْمُ وَالْحَكْمُ
أُعِيدُهَا نَظْرَاتٍ مِنْكَ صَادِقَةً أَنْ تَحْسَبَ الشَّخْمَ فَيَمَنْ شَخْمُهُ وَرَمُّ

* * *

أمثلة من خروج النداء عن معناه الأصلي إلى معاني أخرى

الذي أراه أن النداء بمعنى رفع الصوت بحرف «أ» أو «يا» أو «وا» أو نحوها، عند تحرك النفس بأي شعورٍ داخليٍّ هو من مظاهر الفطرة التلقائية الموجودة لدى الأطفال عند مطالبهم وأوجاعهم وأحزانهم وفرحهم وسرورهم وتعجبهم وغير ذلك من مشاعر على اختلاف هذه المشاعر التي تتحرك في نفوسهم، وعلى تناقضها، فهم بالدافع الفطريّ يريدون التعبير عنها بأصواتهم، وقد يُستدلُّ على اختلاف المعاني باختلاف نغمات الأصوات، وما يقترن بها من بكاء أو ضحك أو مظاهر دهشة، أو تلهُّفٍ لمطلوبٍ يريدونه، أو انزعاجٍ من أمرٍ يكرهونه، أو حركةٍ تدلُّ على ألمٍ يعانون منه.

وبقي لهذا المظهر من مظاهر التعبيرات الفطرية التلقائية أثرٌ في اللّغة، وبدأ المفكر المعبر بالكلمة يتصرّف باستخدام أدوات النداء في غير طلب الإجابة لأمرٍ ما، كحال الطفل، إلاّ أنّه خصّصَ بعض الأدوات لبعض المعاني، وجعلَ القرائن القولية والحالية تدلُّ على مشاعره النفسية التي يريد التعبير عنها.

ونظر علماء اللّغة العربية، ثمَّ علماء البلاغة إلى خروج أدوات النداء عن غرض طلب الإجابة لأمرٍ ما، إلى معانٍ أخرى، فرأوا أنّه من الأساليب البلاغية التي يحسُن التّنبية عليها في علم المعاني، وعرضُ طائفة من أمثلتها.

وهي فيما أرى بمثابة الرُّجاج الشفاف الذي يتلوّن بلون الأشعة المسلّطة عليه أو المقارنة له، لا أنّ أدوات النداء تستعمل للدلالة على هذه المعاني التي نفهمها من القرائن، ولستُ أقول: إنّها مُطلَقُ أصواتٍ لا معنى لها، بل هي أصواتٌ تظهِرُ لها معانٍ بدلالات القرائن القولية والحالية.

وتمشياً مع مُدَوّناتِ البلاغيين أعرض طائفة من الأمثلة التي جاءت فيها أدوات النداء مستعملة في غير طلبِ الإجابة لأمر ما، الذي هو معناها الأصلي.

(١) ففي التحسّر يُستعمل النداء بمدّ الصوت تعبيراً عن تأوّه داخلي في النفس، فيقول المتحسّر مثلاً: «يا حَسْرَتِي - يا حَسْرَتَا - يا حَسْرَتَاه» ويرافق التحسّر الندم والتمني غالباً إذا كان المتحسّر يتحسّر من أجل نفسه.

وجاء هذا الاستعمال في القرآن تعبيراً عن حالة المتحسرين، جرياً على طريقة أهل اللسان العربي في ذلك.

● في سورة (يس / ٣٦ / مصحف / ٤١ نزول) عبّر الله عزّ وجلّ عما يشعّر به الذين يتحسّرون من أجل أهل الكفر الذين يعرضون أنفسهم بكفرهم لعذاب الله الشديد، فقال تعالى:

﴿يَحْسِرَةٌ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣٧﴾﴾!؟

● وفي سورة (الزمر / ٣٩ / مصحف / ٥٩ نزول) وصف الله عزّ وجلّ حالة نفس المُسْرِفِ بالمعاصي، إذ تُنادي بالحسرة على ما فرطت في جنب الله، حين ينزل بها العذاب الربّاني، فقال تعالى خطاباً للذين أسرفوا على أنفسهم:

﴿وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ بِغَتَّةٍ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتِي عَلَى مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

● وفي سورة (الفرقان / ٢٥ / مصحف / ٤٢ نزول) وصف الله عزّ وجلّ حالة الكافر يوم الدين إذ يُنادي بالحسرة مُتمنياً نادماً، فقال تعالى:

﴿وَيَوْمَ يَعْزُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَيْلًا ﴿٢٧﴾ يُؤْتِيكَ لِيَتْنَى لَمْ أَخَذْ فَلَا تَنَاخِلِيلاً ﴿٢٨﴾﴾.

● وفي سورة (الأنعام/ ٦ / مصحف/ ٥٥ / نزول) وصف الله عزَّ وجلَّ حالة المكذِّبين بلقاء الله حينما تأتيهم الساعة بغتة، إذ يُنادُونَ بالحسرة على أنفسهم، بسبب تفريطهم بما يجب عليهم تجاه لقاء الله وحسابه يوم الدين، فقال تعالى:

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ ﴿٦١﴾ ۝ ﴾ .

(٢) وفي التَّمَنِّي يُسْتَعْمَلُ التَّدَاؤُ بِمَدِّ الصَّوْتِ تَعْبِيرًا عَنْ مَشَاعِرِ النَّفْسِ الْمَتَمَنِّيَةِ أَمْرًا عَسِيرَ الْمَنَالِ أَوْ مُتَعَدِّرَةً .

أمثلة:

● نظر الذين يريدون الحياة الدنيا من بني إسرائيل في عهد موسى عليه السلام، إلى ما أتى الله قارونَ من مالٍ وزينةٍ في الحياة الدنيا، فتمنَّوا أَن يكونَ لَهُمْ مثلُ ماله من ذلك، فقالوا كما ذكر الله عزَّ وجلَّ في سورة (القصص/ ٢٨ / مصحف/ ٤٩ / نزول):

﴿ يَلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٦﴾ ۝ ﴾ .

فنادوا مُتَمَنِّينَ قائلين: يَا لَيْتَ لَنَا، كأنهم يُنادُونَ بِالْأَمْنِيَةِ .

● وتمنَّى الرَّجُلُ الْمُؤْمِنُ الَّذِي اسْتُشْهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ أَصْحَابِ الْقَرْيَةِ الَّتِي جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ الثَّلَاثَةَ، وَهُوَ يَتَقَلَّبُ فِي نَعِيمٍ مِنْ نَعِيمِ الْجَنَّةِ الْمُرْتَبِّ لِلشَّهَدَاءِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَن يَعْلَمَ قَوْمُهُ بِمَا غَفَرَ لَهُ رَبُّهُ وَبِمَا جَعَلَهُ مِنَ الْمَكْرَمِينَ، فنادَى مُتَمَنِّيًا، كما جاء في سورة (يس/ ٣٦ / مصحف/ ٤١ / نزول):

﴿ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٣٧﴾ ۝ ﴾ .

● وَبَثَّ عَنْتَرَةُ بْنُ شَدَّادِ الْعَبْسِيِّ أَحْزَانَهُ مَعَ الذِّكْرِيَّاتِ فَنَادَى دَارَ مَحْبُوبَتِهِ «عَبْلَةَ» فَقَالَ:

يَا دَارَ عِبْلَةَ فِي الْجَوَاءِ تَكَلِّمِي وَعَمِي صَبَاحاً دَارَ عِبْلَةَ وَسَلِّمِي

● وبثَّ أحدهم أحزانه على راحلٍ أخلى الديار فناداه قائلاً:

يَا رَاحِلًا أَخْلَى الدِّيَارَ - وَفَضْلُهُ - لَمْ يَرْحَلِ

(٣) وفي التعجب وفي التأسف يُسْتَعْمَلُ النداءُ برفع الصوتِ تعبيراً عمّا في النفس من حالةِ التّعجبِ المثيرة أو حالة التأسف.

● ففي التعجب من البشارة بالحمل لعقيم في سنِّ اليأس قالت «سارة» زوجة سيدنا إبراهيم عليه السّلام حين بشرتها الملائكة بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، كما جاء في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿قَالَتْ يَوٰئِلَيْهِ اَلدُّوۡاۡنَاۗءُ اَعۡجُزُۙ وَهٰذَا بَعۡلِيۙ شَيْخًاۙ اِنۡ هٰذَا لَشَآءٌ عَجِيۙبٌ ﴿٧٢﴾

● وفي التّعجب والتأسف من أحوال بعض الناس قال أبو العلاء المعري:

فَوَا عَجِبًا كَمْ يَدْعِي الْفَضْلَ نَاقِصٌ وَوَا أَسْفًا كَمْ يُظْهِرُ النَّقْصَ فَاضِلٌ

وفي التّعجب من طولِ بقاء أبي الهولِ أحدِ الآثارِ الفرعونية عصوراً كثيرة، ناداه الشاعرُ مع حذف أداة النداء بقوله:

أَبَا الْهَوْلِ طَالَ عَلَيْكَ الْعُصْرُ وَبُلُغْتَ فِي الْأَرْضِ أَقْصَى الْعُمُرِ

(٤) وفي الرثاء وبثَّ الحزن يُسْتَعْمَلُ النداءُ برفع الصوتِ تعبيراً عمّا في النَّفْسِ من مشاعرٍ تَنَدَفَعُ إِلَى بَثِّ صَوْتِي.

● ففي رثاء مَعْنِ بْنِ زَائِدَةَ أَحَدِ أَجْوَادِ الْعَرَبِ الشَّجْعَانَ الْفَصْحَاءِ، قال الشاعر مُنَادِيًا قَبْرَهُ، تعبيراً عن مشاعر الحزن عليه:

فَيَا قَبْرَ مَعْنٍ كَيْفَ وَارَيْتَ جُودَهُ وَقَدْ كَانَ مِنْهُ الْبِرُّ وَالْبَحْرُ مُشْرَعًا

وَارَيْتَ: سَتَرْتَ وَاخْفَيْتَ.

مُتْرَعًا: مُمْتَلِنًا، يُقَالُ لَعَةً: أُنْرَعُ الْإِنَاءَ إِذَا مَلَّاهُ.

● وَرَأَى «حافظ إبراهيم» ابنة عزيزٍ عليه، فوصفها بأنَّها دُرَّةٌ، وناداهَا، تعبيراً عن حُزْنِهِ من أَجْلِ أَيْبِهَا، فقال:

يَا دُرَّةَ نُزَعَتْ مِنْ تَاجِ وَالِدِهَا فَأَصْبَحَتْ حَلِيَّةً فِي تَاجِ رِضْوَانِ
رضوان: خازن الجنة.

● وَرَأَى أَحَدَهُمْ أَخَاهُ، فَنَادَاهُ تَعْبِيرًا عَنِ حُزْنِهِ عَلَيْهِ، قَائِلًا:

يَا ابْنَ أُمِّي وَيَا حُبِيْبَ نَفْسِي أَنْتَ خَلَفْتَنِي لِذَهْرِ شَدِيدِ
● وَبَثَّ الشَّاعِرُ أَحْزَانَهُ مَعَ الذِّكْرِيَّاتِ فَنَادَى مَنَازِلَ سَلْمَاهُ تَعْبِيرًا عَنِ مَشَاعِرِهِ
تجاه محبوبته، فقال:

أَيَا مَنَازِلَ سَلْمَى أَيْنَ سَلْمَاكِ مِنْ أَجْلِ هَذَا بَكَيْتَاهَا بِكَيْتَاكِ
(٥) وَفِي التَّضَجُّرِ يُسْتَعْمَلُ النِّدَاءُ تَعْبِيرًا عَنِ مَشَاعِرِ النَّفْسِ الَّتِي تُعَانِي مِنَ
الضجر.

● فَقَالَ امْرَأُ الْقَيْسِ مُتَضَجِّرًا مِنْ طَوْلِ لَيْلِهِ:

أَلَا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ أَلَا انْجَلِي بِصُبْحٍ وَمَا الْإِصْبَاحُ مِنْكَ بِأَمْثَلِ
أي: وليس الإصباح بأفضل حالاً منك ما دام لا يأتي بالمحبوب، وأداة النداء
محذوفة مقدرة، أي: أَلَا يَا أَيُّهَا اللَّيْلُ.

(٦) وَفِي الزَّجْرِ وَالتَّلْوِيمِ يُسْتَعْمَلُ النِّدَاءُ لِلإِشْعَارِ بِأَنَّ الْمَخَاطَبَ يُنَاسِبُهُ
النداء، ولا يكفيه مجرد الخطاب.

● فَقَالَ الشَّاعِرُ يِنَادِي فَوَادَ نَفْسِهِ:

أَفْوَادِي مَتَى الْمَتَابُ الْمَا تَصْحُ وَالشَّيْبُ فَوْقَ رَأْسِي الْمَا

(٧) وفي اليأس وانقطاع الرجاء يُسْتَعْمَلُ النداءُ تعبيراً عن مشاعر النفس

اليائسة .

● فقال الشاعر :

فِيَا صَاحِبِي رَحْلِي دَنَا الْمَوْتُ فَانْزِلَا بِرَايَةِ إِنْ ي مُقِيمٌ لِيَا لِيَا

(٨) وفي الاختصاص يُسْتَعْمَلُ النداء من أجل التنبية على تخصيص

المتحدث عنه .

ومنه قولي :

إِنَّا بَنِي الْعُرْبِ عَلَى طُولِ الْمَدَى لَمْ نَكْتَسِبْ فِي أَيِّ عَصْرِ سُودَدَا
إِلَّا بِإِسْلَامِ حَمَانَا وَهَدَى تَارِيخُنَا وَمَجْدُنَا لَقَدْ بَدَا
مُذَا أَرْسَلَ اللَّهُ لَنَا مُحَمَّدًا

صَلَّى عَلَيْهِ اللَّهُ

* * *

(٤)

النوع الرابع : التَّمَنِّي والتَّرَجِّي

ومن أنواع الإنشاء الطلبي التَّمَنِّي والتَّرَجِّي :

أما التَّمَنِّي : فهو طلب أمرٍ محبوبٍ أو مرغوبٍ فيه، ولكن لا يُرْجَى حصولُهُ في اعتقاد التَّمَنِّي، لاستحالة في تصوُّره، أو هو لا يطمعُ في الحصول عليه، إذ يراه بالنسبة إليه متعذراً بعيد المنال .

والأداة التي يَتَمَنَّى بها هي كلمة : «لَيْتَ» .

وأما التَّرَجِّي : فهو طلبُ أمرٍ محبوبٍ أو مرغوبٍ فيه، مما يَرَى طالِبُهُ أَنَّهُ مطموئعٌ فيه، وهو يترقبُ الظفر به، أو الحصول عليه، وقد ترد صيغته لمجرد

التوقع، ولو كان توقُّع أمرٍ محذورٍ منه، ويسمَّى حينئذٍ إشفاقاً، مثل [لَعَلَّ السَّاعَةَ قريب].

ويستعمل في الترجي كلمتان هما: «لَعَلَّ» و«عَسَى». وقد يُترجى بأداة الاستفهام «هَلْ» وبحرف «لو» فيما هو عزيز المنال مع إمكانه.

وعلى خلاف الأصل قد يُستعمل في التمني: «هل» و«لَعَلَّ» و«عَسَى» لغرض بلاغي، وهو إبراز التمني في صورة الممكن المطموع فيه، بغية الإشعار بكمال العناية به، والتلهُف على الحصول عليه، أو تحقيقه.

وقد يُستعمل في التمني حرف «لو» لإبراز التمني في صورة الممكن إلا أنه عزيز المنال يصعب تحقيقه، إذ حرف «لو» يُشعر بعزّة الأمر المرجو المطموع فيه.

وقد يُستعمل في الترجي لفظ «ليت» الذي للتمني، لغرض بلاغي، هو إبراز المرجو في صورة المستحيل أو المتعذر البعيد المنال، للمبالغة في بيان بُعد الحصول عليه أو تحقيقه.

ويلاحظ أنّ مجيء عبارات الترجي أو الدعاء في كلام الله عزّ وجلّ هو على معنى أنّ مقتضى الحال يلائمه من البشر الترجي أو الدعاء، فقول الله تعالى لموسى وهارون بشأن فرعون في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّنَا لَهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿١٨﴾ ۝ ﴾

ينبغي أن نفهم الترجي فيه على معنى: اذهبَا إلى فرعون راجيين وطامعين في أن يتذكر أو يخشى، إذ لو ذهبَا إليه وهما يائسان من استجابته، لم تندفع أنفسهما للقيام بمهمة رسالتيهما على الوجه الأمثل المطلوب منهما.

أمثلة وتطبيقات:

● سبق في بحث النداء عرض طائفة من الأمثلة القرآنية التي فيها التمني بأداة التمني «ليت» مسبوقاً بأداة النداء «يا».

● الذين اتخذوا دينهم في الحياة الدنيا لهواً ولعباً، ونسوا كتاب الله تاركين له إذ جحدوا به، وغرَّتْهُمُ الحياة الدنيا وزيناتُها، يَتَمَنَّوْنَ يوم القيامة أن يكون لهم شفعاء فيُشْفَعُوا لهم، أو أن يُرَدَّوا إلى الحياة الدنيا، ليعملوا غير الذي كانوا يعملون ممَّا يُرْضِي رَبَّهُمْ عليهم.

دلَّ على تمنِّيهم هذا قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) حكاية لمقاتلتهم يوم الدين:

﴿يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَيْنًا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

جملة «هل لنا من شفعاء» وجملة «أو نردّ فنعمل غير الذي كنا نعمل» هما من قبيل الإنشاء الطلبي، والمطلوب فيهما من نوع تمنّي أمرٍ محبوبٍ مرغوبٍ فيه لا يطمعون في الحصول عليه.

والأداة المستعملة هي «هل» الاستفهامية، إذ الاستفهام هنا مستعمل في التمني، لأنهم يعلمون أنه لا يشفع أحدٌ يومئذٍ إلاّ بإذن الله، ويعلمون أنهم لا يُرَدُّون إلى الحياة الدنيا، فقد طلبوا قبل ذلك الرجعة ساعة موتهم فزجروا ورُفِضَ طَلِبُهُمْ.

● ويتمنّى الضالون الأتباع الذين أضلّهم المجرمون وهم يُعَدِّبُونَ في الجحيم، أن يرجعوا إلى الحياة الدنيا ليؤمنوا، لكنهم يعلمون أنّ هذا المطلب ميؤوسٌ من تحقيقه.

دلَّ على هذا التمني ما جاء في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) حكاية لقولهم:

﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صِدِّيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

والأداة المستعملة في هذا التَّمَنِّي حرف «لو»؛ إذ لدى هؤلاء بعض أملٍ ضعيفٍ باستجابة طلبهم، أو أرادوا إظهاره في صورة الممكن عزيز المنال.

● وتمنّى ابن الرُّومي أن يكون ليلُ رمضان شهراً، وأن يمرَّ نهاره مرَّ السحاب، فقال:

فَلَيْتَ اللَّيْلَ فِيهِ كَانَ شَهْرًا وَمَرَّ نَهَارُهُ مَرَّ السَّحَابِ
والأداة المستعملة في هذا التمني لفظ «ليت».

● وتمنّى جرير أن يُشترى الشبابُ بالمال ليشتريه، أو أن يرجع كَرَّةً أُخرى، فقال:

وَلَيْ الشَّبَابُ حَمِيدَةٌ أَيَّامُهُ لَوْ كَانَ ذَلِكَ يُشْتَرَى أَوْ يَرْجَعُ
والأداة المستعملة في هذا التمني حرف «لو» وغرض جرير أن يُظهر أن عودة الشباب أمرٌ ممكن إلا أنه عزيز المنال، لئلا يعيش في اليأس الكامل.

● وعرض أحدهم بأسلوبه التخيلي على طير القطا أن يُعيره جناحه، مُتمنياً أن يطير به إلى محبوبه، فقال مخاطباً سِرْبَ القطا:

أَسِرْبَ الْقَطَا هَلْ مَنْ يُعِيرُ جَنَاحَهُ؟ لَعَلِّي إِلَى مَنْ قَدْ هَوَيْتُ أَطِيرُ
القطا: واحده «قطاة» وهو نوع من اليمام يؤثر الحياة في الصحراء، ويتخذ أفحوصه في الأرض، ويطير جماعات، ويقطع مسافات شاسعات، وبيضه مرقط.

والأداة المستعملة في هذا التمني لفظ «هل» في الجملة الأولى، ولفظ «لعل» في الجملة الثانية، وهاتان الأداتان تستعملان أصلاً في الترجي، إلا أن الشاعر استعملهما فيما هو متعذر، ليُظهر مطلوبه بأنه أمر ممكن مرجو في مشاعر نفسه.

● وتمنّى الآخر أن تدنو له الكواكب، لينظم منها عقود مدح لممدوحه فقال:

لَيْتَ الْكَوَاكِبَ تَدْنُو لِي فَأَنْظِمَهَا عُقُودَ مَدْحٍ فَمَا أَرْضَى لَكُمْ كَلِمِي
والأداة المستعملة في هذا التمني لفظ «ليت» والتمني في كلامه ظاهر.

● وترجى الشاعر أن يُفَرِّجَ اللهُ عنه الكرب الضاغط عليه، فقال:
عَسَى الْكَرْبُ الَّذِي أُمْسَيْتُ فِيهِ يَكُونُ وَرَاءَهُ فَرَجٌ قَرِيبٌ
هذا الكلام من قسم الإنشاء الطلبي، وهو من نوع الترجي، لأن الفرج أمرٌ
مترقبٌ مطموح فيه.

وأداة الترجي فيه كلمة «عسى».

● وترجى الشاعر الآخر أن تكون عاقبة العتب محمودة، فقال للذي عتبَ
عليه:

لَعَلَّ عَتْبَكَ مَحْمُودٌ عَوَاقِبُهُ وَرُبَّمَا صَحَّتِ الْأَجْسَامُ بِالْعِلَلِ
وأداة الترجي في هذا القول كلمة «لعل» وفق الأصل.

● وترجى البوصيري أن ينال من رحمة ربه على مقدار معاصيه، فقال:
لَعَلَّ رَحْمَةَ رَبِّي حِينَ يَقْسِمُهَا تَأْتِي عَلَيَّ حَسْبِ الْعِصْيَانِ فِي الْقِسْمِ
وأداة الترجي التي استعملها كلمة «لعل» وفق الأصل.

* * *

(٥)

النوع الخامس: الدعاء

الدعاء: هو في الأصل من النداء، يقال لغة: دَعَا فلاناً إذا صاح به وناداه،
فهو طلبٌ إقبال المدعو إلى الداعي. ويقال: دعا بالشيء، إذا طلب إحضاره،
ودعا الميت إذا ندبته، فقال مثلاً: وَأَوْلَدَاهُ، وَاحْبِيبَتَاهُ. ودعا فلاناً، إذا استعان به،
ورغب إليه.

ودعا المؤمن ربّه، إذا ناداه وطلبَ منه تحقيق نفع أو دفع ضرر، من أمور الدنيا، أو أمور الآخرة.

ودعا الوثنيّ مَعْبُودَه، إِذَا نَادَاه، وَطَلَبَ أَمْرًا مِنْ أُمُور الدُّنْيَا.

واشتهر الدُّعَاءُ بِأَحَدِ مَعَانِيهِ اللَّغَوِيَّةِ، وَهُوَ الْمَعْنَى الدِّينِيَّةُ لَهُ، مَعَ تَوْشُّعِ شَمَلِ كُلِّ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَثَنَاءِ عَلَيْهِ بِصِفَاتِهِ وَأَسْمَائِهِ الْحَسَنِيَّةِ، لِأَنَّ ذِكْرَ اللَّهِ يُرْجَى مِنْهُ رِضْوَانُ اللَّهِ وَثَوَابُهُ، فَهُوَ ذُو دَلَالَةٍ طَلِبِيَّةٍ، وَيَتَضَمَّنُ غَالِبًا نِدَاءَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِحَمْدِهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ.

روى الترمذي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه، أن النبي ﷺ قال:

«خَيْرُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَخَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

فمن دعاء الله ما هو مُطْلَقُ ذِكْرِ لَهُ، وَمِنْ دُعَاءِ اللَّهِ مَا هُوَ نِدَاءٌ لَهُ بِطَلَبِ يَتَضَمَّنُ اسْتِجْدَاءَ تَحْقِيقِ مَرْغُوبٍ فِيهِ مِنْ خَيْرَاتِ الدُّنْيَا، أَوْ خَيْرَاتِ الْآخِرَةِ، أَوْ دَفْعِ مَكْرُوهٍ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا أَوْ أُمُورِ الْآخِرَةِ.

ويكون الدُّعَاءُ بِصِيغٍ كَثِيرَةٍ تَشْمَلُ صِيغَةَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَصِيغَةَ الْجَمَلِ الْخَبَرِيَّةِ، وَالْأَصْلُ فِيهِ النِّدَاءُ مَعَ طَلَبِ بِصِيغَةِ الْأَمْرِ أَوْ النَّهْيِ، وَكَثِيرًا مَا يُحْذَفُ حَرْفُ النِّدَاءِ، مِثْلُ: رَبِّ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي. وَكَثِيرًا مَا يُدْعَى بِصِيغَةِ الْخَبَرِيَّةِ، مِثْلُ: رَحِمَ اللَّهُ فَلَانًا وَغَفَرَ لَهُ، أَوْ يَرْحَمُ اللَّهُ فَلَانًا وَيَغْفِرُ لَهُ.

والدُّعَاءُ الْمَوْجَّهَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ أَجْلِ الْعِبَادَاتِ، وَالدُّعَاءُ وَفَوْقَ الْمَعْنَى الدِّينِيَّةِ الْمَوْجَّهَ لِغَيْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ شِرْكًا بِاللَّهِ، وَاللَّهُ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ.

وقد يتأدّب الداعي مع ربّه، في طلب بعض حاجاته الدنيوية، كما فعل موسى عليه السلام، وهو عند ماء مَدِينِ، إِذْ قَالَ كَمَا جَاءَ فِي سُورَةِ (الْقَصَصِ/ ٢٨ مَصْحَفٍ / ٤٩ نَزُولٍ):

﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ (٢٤)

فاستجاب الله طلبه الذي ألمح إليه دون تصريح، فدعاه الشيخ والد المرأتين اللتين سقا لهما إلى منزله، وبعد أن قصّ عليه قصة خروجه من مصر، عرض عليه أن يُنكِحَهُ إحدى ابنتيه، فتمّ ذلك .

وتأدّب رسول الله محمد ﷺ مع ربّه، وفي نفسه أن يُحوّل الله القبلة إلى الكعبة المشرفة، فجعل يقلّب وجهه في السماء، فقال الله عزّ وجلّ له كما جاء في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ قَدْ تَرَى نُقْلَبَ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلْتَوَلَّيْنِكَ قِبَلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِظَلِيمٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ (١٤٤)

وتأدّب أيضاً صلواتُ الله ه مع ربّه في دعائه الصريح، فلم يشك ما يتعلّق بشخصه من عداء قومه له، وتُدبّرهم وسائل محاربتة وقمعه، واقتصر على ما يتعلّق بأمر تبليغ القرآن، ومُتّابعة تذكير قومه به، فقال كما جاء في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول):

﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾ (٣٠)

فجاء الجواب الربّاني متعلّقاً بما كتّمه الرسول ولم يُصرّح به، فقال الله عزّ وجلّ:

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ (٣١)

فبدأ العلاج القرآني بما كتّمه الرسول ﷺ في دعائه ولم يُصرّح به (١).

* * *

(١) انظر تدبّر هذا النصّ في كتاب «تدبّر سورة الفرقان» للمؤلف .

(٦)

النوع السادس : الاستفهام

تعريفه :

الاستفهام: هو من أنواع الإنشاء الطلبي، والأصل فيه طلبُ الإِفْهَامِ والإِغْلَامِ لِتَحْصِيلِ فَائِدَةٍ عِلْمِيَّةٍ مَجْهُولَةٍ لِدَى الْمُسْتَفْهَمِ.

وقد يُراد بالاستفهام غيرُ هذا المعنى الأصلي له، ويُستدلُّ على المعنى المراد بالقرائن القوليَّة أو الحالية، كما سيأتي بيانه إن شاء الله.

* * *

أقسام أدوات الاستفهام

للاستفهام طائفةٌ من الأدوات، وهي تقع في ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ما يُسْتَفْهَمُ به عن التَّصَوُّرِ والتَّصْديقِ، وهو «همزة الاستفهام» فقط، وهو حرفٌ لا يكون له محلٌّ من الإعراب في الجملة.

القسم الثاني: ما يُسْتَفْهَمُ به عن التَّصْديقِ فقط وهو لفظ «هَلْ» وهو حرفٌ أيضاً، لا يكون له محلٌّ من الإعراب في الجملة.

القسم الثالث: ما يُسْتَفْهَمُ به عن التَّصَوُّرِ فقط، وهي سائر أدوات الاستفهام، وهذه جميعها أسماء، وهي: «مَا - مَنْ - أَيُّ - كَمْ - كَيْفَ - أَيْنَ - أَنَّى - مَتَى - أَيَّانَ».

التَّصَوُّرُ: هو إدراكُ المفرد، ويُطلبُ بالاستفهام عن التَّصَوُّرِ إدراكُ المسندِ إليه، أو إدراكُ المسندِ، لتعيينه، ويكونُ الجوابُ بتعيينِ المسؤولِ عنه، مُسْنَدًا كان أو مُسْنَدًا إليه. مثل:

● أَضْرَبَ خَالِدٌ أَمْ أَكَلَ؟ والجواب: ضَرَبَ - أَوْ - أَكَلَ.

● أَضْرِبَ زَيْدٌ أُمَّ عَمْرٍو؟ والجواب: عَمْرٍو — أو — زَيْدٌ.

● متى يُفْطِرُ الصَّائِمُ؟ والجواب: إذا غربتِ الشمس.

التصديق: هو إدراك النسبة الحكمية بين المسند والمُسند إليه، موجبةً كانت أو سالبة.

مثل:

● هل بُعِثَ خَاتَمُ المرسلين؟ والجواب: نعم، بُعِثَ.

● هل ظهر المسيح الدجال؟ والجواب: لا، لم يظهر بَعْدُ.

ولكلِّ أداة من أدوات الاستفهام صفاتٌ وخصائص، وفيما يلي بيان ذلك إن شاء الله.

* * *

شرح أدوات الاستفهام وبيان ما يتعلق بكلٍّ منها

الأداة الأولى: همزة الاستفهام «أ» ويُستفهم بها كما سبق بيانه عن التصوّر والتصديق، وهي أصل أدوات الاستفهام كلها.

ويرى «سيبويه» أن العرب تركوا النطق بهمزة الاستفهام مع سائر أدوات الاستفهام لأنهم أمّنوا الالتباس، فاكسبت هذه الأدوات معنى الاستفهام بالتداول.

قال ابن مالك في «المصباح»^(١):

«ما عدا الهمزة نائب عنها، ولكونه «أي: الاستفهام» طلب ارتسام صورة ما في الخارج في الذهن، لزم أن لا يكون حقيقة إلا إذا صدر من شاكٍّ مُصدّقٍ بإمكان الإعلام، فإن غير الشاكِّ إذا استفهم يلزم منه تحصيل الحاصل، وإذا لم يُصدّق بإمكان الإعلام انتفت عنه فائدة الاستفهام».

(١) نقلًا عن السيوطي في «الإتقان في علوم القرآن».

● وتختص همزة الاستفهام عن سائر الأدوات بعدة خصائص، هي الخصائص التالية:

(١) جواز حذفها وتقديرها ذهنياً، مثل ما جاء في قول الله عز وجل في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) في حكاية قول فرعون لسحرتة بعد أن غلبوا وأعلنوا إيمانهم:

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أَسْتَفْهِمُ بِئْسَ بَدَأَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا... ﴾ [الآية ١٢٣]. أي: أأمتمم به؟

(٢) أنها أداة يُطلبُ بها التصوّر، ويُطلبُ بها التصديق، كما سبق بيانه.

ويكثرُ في طلب التصوّر بها أن يُذكر للمستفهم عنه معادلٌ بعد «أم» وتسمّى عندئذٍ همزة التسوية، مثل:

● أخالد بن الوليد فتح دمشق أم أبو عبيدة بن الجراح؟

● ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ شَيْءٍ سِوَا مَا أَخَذْتُ مِنَ اللَّهِ ﴾ [البقرة/ ٢].

● ﴿ وَاللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النمل/ ٢٧].

● ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [البقرة: ٢]. أي: سواءٌ

عليهم إنذارك وعدمه.

● أَلْحَمَّ عَجَلٍ أَطَعَمْتَنَا؟

فإذا طُلبَ بها التصديق (وهو إدراك النسبة الحكمية في الجملة) امتنع ذكرُ

معادلٍ للمستفهم عنه بها، مثل:

● ﴿ وَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴾ [الملك/ ٦٧].

● ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى ﴾ [العلق/ ٩٦].

● ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ﴾ [الضحى/ ٩٣].

● ﴿أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ جَعُونَكُمْ صَدَقْتُمْ﴾ [١٣/المجادلة/٥٨].

(٣) أَنَّهَا تَدْخُلُ عَلَى الْإِثْبَاتِ، وَتَدْخُلُ عَلَى النَّفْيِ، مِثْلُ:

● أَدْرَسْتَ مَادَّةَ التَّفْسِيرِ؟

● أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ؟

● أَبْعَدَ بَنِي عَمْرٍو أَسْرُؤَ بِمُقْبِلٍ مِنَ الْعَيْشِ أَوْ آسَىٰ عَلَىٰ إِثْرٍ مُدْبِرٍ

(٤) أَنَّهَا لَا يَلِيهَا إِلَّا الْمَسْئُولُ عَنْهُ، سِوَاءَ أَكَانَ مُسْنَدًا، أَمْ مُسْنَدًا إِلَيْهِ، أَمْ

مَفْعُولًا بِهِ، أَمْ حَالًا أَمْ ظَرْفًا أَمْ غَيْرَ ذَلِكَ مِنْ مَتَعَلِّقَاتِ الْفِعْلِ.

(٥) أَنَّ لَهَا تَمَامَ الصَّدَارَةِ، فَتَقَدَّمَ فِي الْجُمْلَةِ حَتَّىٰ عَلَى حُرُوفِ الْعَطْفِ،

مِثْلُ:

● ﴿أَوْلَعَيْنِظُرُوا...﴾ [١٨٥/النحل/٧].

● ﴿أَوْلَعِيَسِيرُوا﴾؟ [٩/الروم/٣٠].

● ﴿أَفْرَأَ إِذَا مَا وَقَعْنَا أَمْنُكُمْ بِهِ...﴾؟ [٥١/يونس/١٠].

أَمَّا سَائِرُ أَدْوَاتِ الِاسْتِفْهَامِ فَتَتَأَخَّرُ عَنْ حُرُوفِ الْعَطْفِ، وَتَتَأَخَّرُ عَنْ «أَمْ» الَّتِي

لِلْإِضْرَابِ، مِثْلُ:

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ؟ - فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ؟ - فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ؟ - فَهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ

الْفَاسِقُونَ؟ - فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ؟ - فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةً؟ - أَمْ مَنْ

يُجِيبُ الْمَضْطَّرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ؟﴾.

إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ خِصَائِصِ ذِكْرِهَا النَّحَاةَ.

الأداة الثانية: كلمة «هل» وهي أداة يستفهم بها عن التصديق فقط، فلا يُذكر

مع المُسْتَفْهَمِ عَنْهَا مَعَادِلٌ، بِخِلَافِ هَمْزَةِ الِاسْتِفْهَامِ، وَهِيَ «حَرْفٌ» كَالْهَمْزَةِ.

□ والأصل في كلمة «هل» أن تدخلَ على جملة فعلية، فيليها فعلٌ لفظاً أو تقديرًا مثل:

● قول الله عز وجل في سورة (النحل/ ١٦ / مصحف / ٧٠ نزول):

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ؟ ... ﴾ [الآية ٣٣].

● وقول الله عز وجل في سورة (الرعد/ ١٣ / مصحف / ٩٦ نزول):

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَةُ وَالنُّورُ؟ ... ﴾ [الآية ١٦].

● وقول الله عز وجل في سورة (النازعات/ ٧٩ / مصحف / ٨١ نزول):

﴿ هَلْ أُنذِرَكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿١٥﴾؟ ﴾.

□ فإذا عُديل عن الجملة الفعلية فأدخلت «هل» على الجملة الاسمية، فذلك

لنكتة يلاحظها البلغاء، وهي جعل ما سيحصل كأنه حاصل موجودٌ فعلاً، اهتماماً بشأنه، أو تأكيداً للرغبة بتحقيق وقوعه، مثل:

● قول الله عز وجل في معرض الحديث عن داود عليه السلام في سورة

(الأنبياء/ ٢١ / مصحف / ٧٣ نزول):

﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِيُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨١﴾؟ ﴾.

أي: فهل ستكوثون حقاً شاكرين، أو هو استفهام تضمن معنى الحضض على

الشكر.

● قول الله عز وجل في سورة (المائدة/ ٥ / مصحف / ١١٢ نزول) بشأن

الخمير والميسر، خطاباً للذين آمنوا:

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ

وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ ﴿٩١﴾؟ ﴾!

أي: فَهَلْ سَتَتَّهُونَ، أو هو استفهامٌ تَضَمَّنَ معنى الحِصْرِ على الطاعة.

□ ولا تدخل أداة «هل» على: [النفي – والمضارع الذي للحال – والشرط – وحرف «إن» الذي ينصب الاسم ويرفع الخبر – وحرف العطف].
بخلاف الهمزة في كل ذلك.

* * *

الأداة الثالثة: كلمة «ما» وتأتي اسماً من أسماء الاستفهام، ومعناها «أي شيء؟» وهي للاستفهام عن غير العقلاء، والمطلوب بها أحد أمور ثلاثة:

الأمر الأول: إيضاح الاسم وشرحه، مثل:

● ما التُّضَار؟ وجوابه: الذهب. أو الخالص من كل شيء.

● ما اللُّجَيْن؟ وجوابه: الفضة.

● ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنْ رَسُولُكُمْ أَلَّذِي أَرْسَلَ إِلَيْكُم لِمَجْنُونٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول).

في هذا النص نلاحظ أن سؤال فرعون عن رب العالمين هو سؤال عن شرح الاسم، أي: ما معنى «رَبِّ الْعَالَمِينَ».

إنه لا يجهل معنى كلمة «رَبِّ» ولا معنى كلمة «العالمين» لكنه سأل عن الاسم المؤلف من «رَبِّ الْعَالَمِينَ».

فشرح له موسى عليه السلام بقوله: «رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا». فاتَّهَمَهُ فِرْعَوْنُ بِالْجَنُونِ، لأنَّه ذَكَرَ أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا خَاضِعَةٌ لِسُلْطَانِ رَبِّ وَاحِدٍ، وَهُوَ يَتَصَوَّرُ أَنَّ الْكَائِنَاتِ يَتَحَكَّمُ بِهَا أَرْبَابٌ مُتَعَدِّدُونَ، وَهُوَ رَبُّ إِقْلِيمِ مِصْرَ.

فتنزل موسى عليه السلام إلى مستوى إدراك فرعون، فقال له وَلِمَلَكْتِهِ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ.

أي: هو المتصرفُ بعمليات الخلق والتدبير في هذه الأرض من مشرقها إلى مغربها، ومن ذلك حدود سلطانتك في مصر يا فرعون.

عندئذ استكبر فرعون حين فهم مراد موسى عليه السلام، فقال له: ﴿لَيْنَ اتَّخَذتَ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ (٢١).

أي: لئن اتخذت معبوداً غيري.

الأمر الثاني: بيان حقيقة المُسمَى، مثل:

● ما الحسد؟. وجوابه مثلاً: تَمَنِّي زَوَالِ النعمة عن المحسود.

● ما الكبر؟. وجوابه: «بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمَطُ النَّاسِ»^(١).

الأمر الثالث: بيان صفات المسؤول عنه وأحواله الخاصة أو العامة، مثل:

● ﴿وَمَا تَلَكَ بِبَيْمِينِكَ يَمُوسَى﴾ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَنْوَكَّوْا عَلَيْهَا وَأَهْسُ بِهَا عَلَيَّ

غَنِي وَلِي فِيهَا مَارِبٌ أُخْرَى﴾ (١٨) (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول).

● أَنْ تَقُولَ لِقَادِمٍ عَلَيْكَ وَأَنْتَ لَا تَعْرِفُ صِفَاتِهِ: مَا أَنْتَ؟

● قول المتبني في مدح سيف الدولة:

لَيْتَ الْمَدَائِحَ تَسْتَوْفِي مَنَاقِبَهُ فَمَا كَلَيْبٌ وَأَهْلُ الْأَعْصِرِ الْأَوَّلِ؟

أي: فَمَا صفاتُ كَلَيْبٍ بجانبِ صفاته، وكان العربُ يقولون: أعزُّ من

كليب بن وائل. وَمَا صفاتُ الملوكِ الأولين بجانبِ صفاته ومناقبه، ومراده التعظيم

من مناقبه وصفاته، والتقليل من صفات السابقين من سادة العرب.

(١) هكذا عرّفه الرسول ﷺ فيما روى مسلم عن عبد الله بن مسعود.

الأداة الرابعة: كلمة «مَنْ» وتأتي اسماً من أسماء الاستفهام، قالوا: وَيُطَلَّبُ بها تعيينُ أحدِ العقلاء، أو العلماء، مثل:

● ﴿قَالُوا يَتَوَلَّوْنَا مَنْ بَعَثْنَا مِنْ مَرْفِدِنَا؟...﴾ [الآية ٥٢] (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول).

● ﴿... وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ...﴾ [الآية ١٣٥]. (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول).

● قول الشاعر:

وَمَنْ ذَا الَّذِي تُرَضَى سَجَايَاهُ كُلِّهَا؟
كَفَى الْمَرْءَ نُبْلًا أَنْ تُعَدَّ مَعَايِبُهُ

* * *

الأداة الخامسة: كلمة «متى» وتأتي اسماً من أسماء الاستفهام، ويُسْتَفْهَمُ بها عن الزمان ماضياً كان أو مستقبلاً، فلها محلٌّ في الإعراب في الجملة، كسائر الأسماء، مثل:

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمِ الْبِاسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَرَزِلْوْا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾

● متى قَامَتِ الْحَرْبُ الْعَالَمِيَّةُ الثَّانِيَّةُ؟

● متى يُفِيضُ الْحَاجُّ مِنْ عَرَفَاتٍ يَوْمَ عَرَفَةَ؟

● وقولي صانعاً مثلاً:

وَقَالُوا: متى شَمْسُ الْهِدَايَةِ أَشْرَقَتْ؟ فَقُلْتُ: بِعَامِ الْفِيلِ فِي الْحَرَمِ الْمَكِّيِّ

* * *

الأداة السادسة: كلمة «أَيَّانَ» وتأتي اسماً استفهام، ويُسْتَفْهَمُ بها عن الزمان،

مثل «متى» ومعناها «أيُّ حين» وتختصُّ بالاستفهام عن الزمان المستقبل، وتُستخدَم في الموضوع الذي يَحْسُنُ فِيهِ التَّهْوِيلُ والتَّعْظِيمُ، وتضخيمُ أمره، مثل:

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَلُهَا؟...﴾ [الآية ١٨٧].

● وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (القيامة/ ٧٥ مصحف/ ٣١ نزول):

﴿كَلَّ يَرْبُدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴿٦﴾ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَمَةِ ﴿٦﴾؟﴾

● وقولي صانعاً مثلاً:

أَيَّانَ يَأْتِي الْحَدِيثُ الْعَجِيبُ وَيَرْتَضِي زُورَتَنَا الْحَيِيبُ؟

* * *

الأداة السابعة: كلمة «كَيْفَ» وتأتي اسم استفهام، ويُسْتَفْهَمُ بِهَا عن الحال،

ويُطَلَبُ بِهَا تعيينُ الحال مثل:

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿... وَأَنْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِئُهَا ثُمَّ نَكْسُوها لَحْمًا...﴾؟

[الآية ٢٥٩].

● وقول الشاعر:

إِلَى اللَّهِ أَشْكُو بِالْمَدِينَةِ حَاجَةً وَبِالشَّامِ أُخْرَى كَيْفَ يُلْتَقِيَانِ؟

* * *

الأداة الثامنة: كلمة «أَيْنَ» وتأتي اسم استفهام، ويُسْتَفْهَمُ بِهَا عن المكان،

وهي مبنيةٌ على الفتح في كلِّ حالاتها، مثل:

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (القيامة/ ٧٥ مصحف/ ٣١ نزول):

﴿إِذَا رَأَوْا الْبَصُرَ ﴿٧﴾ وَحَسَفَ الْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴿١٠﴾﴾.

● وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاءُكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

● قول الشاعر:

فَأَيْنَ إِلَىٰ أَيْنَ النَّجَاةُ بِنِعْلَتِي أَتَاكَ أَتَاكَ اللَّاحِقُونَ . أَحْبِسِ أَحْبِسِ
يخاطب نفسه بقوله: «أتاك أتاك» .

* * *

الأداة التاسعة: كلمة «أئني» وتأتي اسماً من أسماء الاستفهام بمعنى «من أين؟» وبمعنى: «كَيْفَ؟» وبمعنى «متى؟» وبمعنى «أين؟» فلها أربعة معانٍ .

أمثلة:

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) بشأن مريم عليها السلام:

﴿ ... كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرَأَتُ أَلَيْسَ لَكَ هَذَا ﴿١﴾] الآية

. [٣٧]؟

أئني لك هذا؟ : أي: من أين لك هذا؟ .

● وقول الله عزّ وجلّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) بشأن زكريّا عليه السلام:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرَ وَأَمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا

يَشَاءُ ﴿٤١﴾ ﴾ .

أئني يكون لي غلام؟ : أي: كيف يكون لي غلام؟

● وقول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ... ﴾ [الآية ٢٢٣].

فأتوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ؟ : أي : متى شِئْتُمْ؟ ، وكيف شِئْتُمْ؟ ولكن من مكان الحَرْثِ الَّذِي يُنْبِتِ الزَّرْعَ .

● وقول الله عزّ وجلّ في سورة (المنافقون/ ٦٣ مصحف/ ١٠٤ نزول) بشأن المنافقين :

﴿ هُمُ الْمَدُودُ فَاحْذَرَهُمْ فَتَلََّهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ ؟ .

أَنَّى يُؤْفَكُونَ : أي : أين يُصْرَفُونَ وَيَذْهَبُونَ؟

* * *

الأداة العاشرة : كلمة «كم» وتأتي اسماً من أسماء الاستفهام ، ويستفهم بها عن العدد ، ويطلب بها تعيين العدد ، ومعناها : أيّ عَدَدٍ ، مثل :

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) :

﴿ سَلِّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ ﴾ ؟ .

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول) في عرض قصة أهل الكهف :

﴿ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِنَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ... ﴾ [الآية ١٩].

● وقول الله عزّ وجلّ في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول) بشأن سؤال المبعوثين يَوْمَ الْبَعْثِ عَنْ مُدَّةِ إِقَامَتِهِمْ فِي الْأَرْضِ مَوْتَى :

﴿ قُلْ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴾ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسَلِّ الْعَادِينَ ﴿١١٧﴾
﴿ قُلْ إِنْ لَبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿١١٨﴾ .

● وقولي صانعاً مثلاً :

قُلْتُ لِإِنِّي: كَمْ زُرْتَنِي عَبْرَ عَشْرِ مُنْذُ فَارَقْتَنِي مَنْزِلِي؟ قَالَ: عَشْرًا
 قُلْتُ: يَكْفِيكَ أَنْ يَزُورَكَ أَبْنَا وَكَ فِي الْعَامِ مَرَّةً؟ قَالَ: عُدْرًا

* * *

الأداة الحادية عشرة: كلمة «أيّ» وتأتي اسماً من أسماء الاستفهام، ويُسْتَفْهَمُ بها لتعيين أحد المتشاركين في أمرٍ يَعْمُهُمَا، سواءً أكانا شخصين مِمَّنْ يَعْقِلُ، أم مِمَّا لَا يَعْقِلُ، أو زمانين، أو مكانين، أو حالين، أو عددين، أو غير ذلك، وتكون بِحَسَبِ ما تُضَافُ إليه، نحو: «أيّ الرجلين؟ - أيّ المرأتين؟ - أيّ الزمانين؟ - أيّ المكانين؟ - أيّ الحالين؟ - أيّ العددين؟».

أمثلة:

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ... ﴾ [الآية ١٩].

● وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) في حكاية محاكاة إبراهيم عليه السلام لمشركي قومه:

﴿ وَكَيفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (١١) ؟.

● وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الرحمن/ ٥٥ مصحف/ ٩٧ نزول) خطاباً

للجن والإنس:

﴿ فَيَا أَيُّهَا الْعَادِ كَذِبَانِ ﴾ (١٣) ؟ وهي مكررة فيها.

* * *

خروج الاستفهام عن أصل دلالته إلى معاني أخرى

كثيراً ما يخرج الاستفهام عن إرادة طلب الإفهام والإعلام إلى معاني أخرى

يُشار إليها به، ويُستدلُّ عَلَيْهَا مِنْ قرائِنِ الحالِ أو قرائِنِ المقالِ، إذْ يَسْتَعْنِي البُلْغَاءُ بعباراتِ الاستفهامِ عن ذكرِ الألفاظِ الدالَّةِ دلالةً صريحةً على ما يُريدون التَّعبيرَ عَنْهُ مِنَ المعاني، وبلاغةِ الدلالةِ على هذه المعاني بأسلوبِ الاستفهامِ آتيةً من التعبيرِ عنها بصورةٍ غيرِ مباشرةٍ وهي دلالاتٌ تُتَّصِفُ بالدكاءِ.

قال شمس الدين ابن الصائغ في كتابه «روض الألفهام في أقسام الاستفهام»^(١):

«وقد توسعت العرب، فأخرجت الاستفهام عن حقيقته لمعانٍ، أو أشربته تلك المعاني».

وقد أحصى البلاغيون معاني كثيرة خرج إليها الاستفهام عن حقيقته، إذ تَنَبَّهُوا إليها لدى دراسةٍ مُخْتَلَفِ النصوصِ، وهي ما يلي:

- ١- الإنكار ٢- التوبيخ ٣- التقرير ٤- التعجب أو التعجب
- ٥- العتاب ٦- التذكير ٧- الافتخار ٨- التفخيم والتعظيم ٩- التهويل والتخويف ١٠- التسهيل والتخفيف ١١- التهديد والوعيد ١٢- التكثير
- ١٣- التسوية ١٤- الأمر ١٥- التنبيه ١٦- الترغيب ١٧- النهي ١٨- الدعاء
- ١٩- الاسترشاد ٢٠- التَّمَنِّي والترجِّي ٢١- الاستبطاء ٢٢- العرض
- ٢٣- التحضيض ٢٤- التجاهل ٢٥- التحقير والاستهانة ٢٦- المدح والذم
- ٢٧- الاكتفاء ٢٨- الاستبعاد ٢٩- الإيناس ٣٠- التهكم والسخرية
- ٣١- الإخبار ٣٢- التأكيد إلى غير ذلك من معانٍ.

أقول:

من طبيعة الإنسان إذا لم يُرد التصريح بالمعنى الذي يقصده، فإنه يتخذ للإشعار به أسلوباً غير مباشر.

(١) نقلاً عن السيوطي في (الإتقان).

ومن الأساليب الذكيّة غير المباشرة أن يحاول جعل المخاطب هو الذي يعبر
بنفسه عن المعنى، أو يُدركه بنفسه ولو لم يُعبر عنه بكلامه.

والطريق السهل للوصول إلى هذه الغاية، أن يطرح على المخاطب جملةً
استفهاميّةً موجّهةً توجيهاً خاصاً، إذ يحيطها بقرائن تجعله يدرك المعنى بنفسه،
سواء عبر عنه بالجواب أو لم يُعبر.

ولمّا كانت المعاني التي يمكن الإشارة إليها من طرفٍ خفيّ كثيرة جداً،
ويمكنُ استدعاؤها إلى الذهن عن طريق طرح السؤال الذي لا يُصرّح فيه بالمراد،
كان من الأمر الطبيعيّ في الكلام أن يُصاغ فيه جُمْلٌ استفهاميّةٌ محفوفةٌ بقرائن الحال
أو المقال، بغيةً استدراج المخاطب لإدراكها، وقد يُصرّح في جوابه بما أدرك من
معنى، أو يكتفي بإدراك المراد، ويعلم أن السؤال قد طُرِحَ لمجرد إفهامه الغرض
من السؤال.

والمحققون من علماء البلاغة يروون أنّ معنى الاستفهام يبقى ولكن ينضم إليه
ما يُستفاد منه من المعاني التي يُدلُّ به عليها.

* * *

شرح المعاني التي يُدلُّ عليها بالاستفهام مع الأمثلة

(١) شرح الاستفهام المستعمل في الإنكار:

ويُسمّى استفهاماً إنكارياً، ويراد منه النفي، مع الإنكار على المثبت كيف
أثبت ما هو ظاهر النفي، وكان الواجب عليه أن ينفي، أو مع الإنكار على
المخاطب قضيته، وهي باطلة في تصوّر موجه الاستفهام.

وقد يأتي بعده الاستثناء كما يأتي بعد المنفي بأداة من أدوات النفي، وقد
يعطفُ عليه المنفي.

وكثيراً ما يصحبه التكذيب، وهو في الماضي بمعنى «ما كان» وفي المستقبل بمعنى «لا يكون» وقد يُشْرَبُ الإنكار معنى التوبيخ والتفريع.

أمثلة:

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأحقاف/ ٤٦ مصحف/ ٦٦ نزول):

﴿... بَلِّغْ فَهَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

أي: لا يهلك إهلاكاً عاماً شاملاً بعقوبة دنيوية معجلة إلا القوم الفاسقون، من مستوى فسق الظلم الكبير فلا يكونون فاسقين إلا وهم ظالمون، وكذلك العكس، ولذلك جاء في (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَدَابُ اللَّهِ بِفِتْنَةٍ أَوْ جَهْرَةً هَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾؟.

● وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٦ نزول) حكاية لمقالة قوم نوح عليه السلام له:

﴿قَالُوا أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾﴾؟.

أي: لا يكون منا إيمان بك وإسلام لك والحال أنه اتبعك الأرذلون.

● وقول الله عزّ وجلّ في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) حكاية لمقالة ثمود بشأن الرسول صالح عليه السلام:

﴿كَذَبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشْرًا مِثَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعْرٍ ﴿٢٤﴾﴾.

أي: لا نتبع بشراً مثاً واحداً لمجرد ادعائه أنه رسول من ربّه، إننا إذا اتبعناه كُتْنَا إِذَا فِي ضَلَالٍ فِي مَسِيرَتِنَا وَجَنُونٍ فِي عَقُولِنَا.

● وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

﴿فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ ﴿٢٩﴾

أي: لا أحد يحكم بالهداية لمن حَكَمَ اللهُ عليهم بالضلال، وما لهم من ناصرين ينصرونهم فيدفعون عنهم عذاب الله.

فجاء في هذه الآية عطف الجملة المنفية على الاستفهام الإنكاري، إذ معناه النفى.

● وقول الله عز وجل في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنْتَابًا إِنَّكُمْ لَنَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ ﴿٤٤﴾

أي: أفأثركم ربكم بالبنيين على نفسه...؟ والمعنى: ما فعل ذلك ولم يتخذ من الملائكة إناثاً لنفسه.

● وقول الله عز وجل في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) حكاية لمقالة هود عليه السلام لقومه:

﴿قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْتِهِ مِنْ رَبِّي وَهَ الْبَنِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعَمَّيْتُ عَلَيْكُمْ أَنْلِرُكُمْ مَوْهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَادِرُونَ﴾ ﴿٧٨﴾

أي: لا نجبركم بالإكراه على اتباع ما جئكم به، فاتباع الدين لا يكون إلا بإرادة اختيارية، إذ لا إكراه في الدين.

● وقول امرئ القيس:

أَيْقُنْ لِي وَالْمَشْرِفِيُّ مُضَاجِعِي وَمَسْنُونَةٌ زُرُقٌ كَأَنْيَابِ أَغْوَالٍ (١) ؟

* * *

(١) المشرفي: سيف يجلب من مشارف اليمن، وهي بلاد كانت تُصنع فيها السيوف. وَمَسْنُونَةٌ زُرُقٌ: أي: سهام مسنونة حادة النصال، صافية مجلوة فهي زرق من شدة صفائها.

(٢) شرح الاستفهام المستعمل في التوبيخ والتقريع:
ويسمى استفهاماً توبيخياً، أو تقريعياً.

التقريع: توجيه اللوم والعتاب الشديد الموجه، وأصلُ الْقَرْعِ الضَّرْبُ.
والاستفهام التوبيخي قد يُوجَّهُ للتوبيخ على فعل شيءٍ غير حَسَنٍ في نظر
موجِّه الاستفهام، أو تركِ فعلٍ كان ينبغي القيامُ به في نظر موجِّه الاستفهام.
أمثلة:

● قول موسى لأخيه هارون بشأن اتِّخاذ قومه العجل، فيما حكاه الله عزَّ
وجلَّ في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿ قَالَ يَهْتَرُونَ مَا مَعَكَ إِذْ لَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿١٦﴾ أَلَا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿١٧﴾ ۚ ﴾ .

فموسى عليه السلام يلوم أخاه بشدة على أمرٍ ظنَّ أنَّه ارتكبه، وهو معصيةُ
أمره، لكنَّ هارونَ عليه السلام اجتهد ولم يعص، والمعنى: ما منعك عن اتِّباعي
وحملك على ألا تتبعني.

● وقول إبراهيم عليه السلام لقومه بشأن أصنامهم التي يعبدونها، فيما حكاه
الله عزَّ وجلَّ في سورة (الصفافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول):

﴿ قَالَ اتَّعْبُدُونَ مَا تَحْتُونَ ﴿٥٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٦﴾ ۚ ﴾ .

فإبراهيم عليه السلام يوبخهم على أنهم يعبدون أوثاناً ينحتونها بأيديهم،
والله خلقهم وخلق أوثانهم التي يعبدونها، وهو الذي يجب أن تكون العبادة له
وحده.

● وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) خطاباً لبني
إسرائيل:

﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ۚ ﴾ .

الشاهد في الآية قوله تعالى: [أفلا تعقلون؟] وفي ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ... ﴾؟ معنى التعجيب من فعلهم كما سيأتي إن شاء الله.

● قول الله عز وجل في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَا لَهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾.

فالملائكة توبَّخُهُمْ وتُقرِّعُهُمْ لأنهم لم يُهاجروا من الأرض التي كانوا مستضعفين فيها، ورضوا بأن يكونوا ظالمي أنفسهم طاعةً للجبَّارين، مع أن أرض الله واسعة، وكان بإمكانهم أن يهاجروا إلى أماكن لا يُكرهون فيها على معصية الله.

● قول العجاج:

أَطْرَبًا وَأَنْتَ قَيْسِرِيٌّ وَالذَّهْرُ بِالْإِنْسَانِ دَوَارِيٌّ؟

القَيْسِرِيٌّ: الشيخ الكبير، أي: أنطرب وأنت شيخ كبير؟ ويُرَوَى «قَيْسِرِيٌّ» كما في اللسان. وهو الشيخ الكبير أيضاً.

* * *

(٣) شرح الاستفهام المستعمل في التقرير:

ويُسَمَّى استفهاماً تقريرياً، والمراد منه حَمْلُ المخاطب على الإقرار والاعتراف بأمرٍ قد استقرَّ عنده العلمُ به، أو هو أمرٌ باستطاعته معرفته حِسِّيًّا أو فِكْرِيًّا، موجِباً كان أو سالباً.

فمن ادَّعَى أَنَّكَ جِنَّتِه وَأَنْتَ لَمْ تَأْتِه، قد توجَّه له استفهاماً تقريرياً قائلاً: هل أنا جنُّتك؟ ومتى جنُّتك؟ وماذا كان حين التَّقَيُّنِ، لتتزعَّ منه الإقرار والاعتراف بأنك لم تأتِه.

ومن بدا عليه أماراتُ إنكارٍ أمرٍ وقع، قد توجَّه له استفهاماً تقريرياً، قائلاً:

أَلَمْ يَحْدُثْ كَذَا؟ أَلَمْ أَفْعَلْ كَذَا؟ أَلَمْ يَكُنْ مِنْكَ كَذَا وَكَذَا؟ لِيَتَنَبَّأَ مِنْهُ الْإِقْرَارُ
والاعتراف بالأمر الذي قد حدث ووقع فعلاً.

أمثلة:

● قول الله عزّ وجلّ لرسوله في سورة (الشرح / ٩٤ مصحف / ١٢ نزول):

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ
ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ .

● وقول الله له في سورة (الضحى / ٩٣ مصحف / ١١ نزول):

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿١﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٢﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٣﴾ ؟

● وقول الله للمكذّبين بيوم الدين في سورة (المرسلات / ٧٧ مصحف /

٣٣ نزول):

﴿ أَلَمْ تَخْلُقْنَا مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْتَهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِكٍ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ
الْقَادِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ .

● وقول إبراهيم عليه السلام لمشركي قومه بشأن أوثانهم لانتزاع إقرارهم،

فيما حكاه الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء / ٢٦ مصحف / ٤٧ نزول):

﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٦﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكَ أَوْ يُضُرُّونَ ﴿٧٧﴾ ؟

فإذا لم يُقَرِّوا بالسنتهم بأن أوثانهم لا تسمعهم، فإنهم لا بدّ أن يُقَرِّوا بذلك
في قلوبهم.

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (الفجر / ٨٩ مصحف / ١٠ نزول):

﴿ وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيْلٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَالْإِيلِ إِذَا يَسَّرَ ﴿٤﴾ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّدِي
حَجْرٍ ﴿٥﴾ ؟

الظاهر من الاستفهام في هذا النصّ أنّ الغرض منه انتزاع إقرار ذوي الفكر

والعلم والعقل بأن القسم بهذه الأشياء قسمٌ عظيمٌ يثبت صدق وعيد الله، وأنه بالمرصاد للمجرمين المفسدين في الأرض.

● وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الزمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ... ﴾ [الآية ٣٦].

● وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا... ﴾ [الآية ١٧٢].

فَمِنَ الظَّاهِرِ فِي هَذِهِ الْأَمْثَلَةِ أَنَّ الاسْتِفْهَامَ فِيهَا مُسْتَعْمَلٌ لِاسْتِدْعَاءِ الْمُخَاطَبِ إِلَى الْإِقْرَارِ بِقَضِيَّةٍ مُوجِبَةٍ أَوْ سَالِبَةٍ جَرَى حَوْلَهَا الاسْتِفْهَامُ.

فالجواب المستدعى في أمثلة: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ؟﴾ - أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى؟ - أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ؟ - أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ؟ - أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ هو: «بلى» وكلمة الجواب هذه تدلُّ على نقيض المستفهم عنه، أي: شَرَحْتَ صَدْرِي - وَجَدَنِي يَتِيمًا فَآوَى - خَلَقْتَنَا مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ - اللَّهُ كَافٍ عَبْدَهُ - أَنْتَ رَبُّنَا. والجوابُ المستدعى في مثال: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ﴾ هو: «لا» إذ الأوثانُ المعنِيَّةُ في الاستفهام لا تَسْمَعُ وَلَا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ.

والجوابُ المستدعى في مثال: ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لذي حِجْرٍ﴾ هو: «نعم» أي: من تفكّر بعقلٍ حصيفٍ في هذه الأشياء التي أقسمَ الله بها وَجَدَهَا مُؤَكَّدَةً حَقًّا لمضمون المُقَسَمِ عليه، وذلك لأنَّ الأزمانَ التي أقسمَ الله بها هي أزمانٌ إهلاكِ الله الأُمَّمَ السَّابِقَةَ، وظاهرٌ أنَّ القَسَمَ بِأَزْمَانٍ خَاصَةٍ هُوَ قَسَمٌ بِالْأَحْدَاثِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي جَرَتْ فِيهَا، وهذه الأحداثُ أدلَّةٌ تجرِيبيَّةٌ ماضيةٌ تؤكدُ صدقَ الخبرِ بحدوثِ أشباهها مستقبلاً عند وجودِ المقتضياتِ المماثلاتِ للمقتضياتِ التي حدثت بسببها الأحداثِ الماضية، لأنَّ سنةَ الله القائمة على حكمته سنةٌ دائمةٌ، لا تتغيَّرُ ولا تتبدَّلُ.

* * *

(٤) شرح الاستفهام المستعمل في التعجب أو التعجيب:

وَيُسَمَّى اسْتِفْهَامًا تَعْجِيبِيًّا حِينَ يَكُونُ صَادِرًا مِنْ مَتَعَجِّبٍ فِعْلًا، وَيُسَمَّى اسْتِفْهَامًا تَعْجِيبِيًّا حِينَ يَكُونُ الْغَرَضُ مِنْ إِيرَادِهِ إِثَارَةَ الْعَجَبِ عِنْدَ مَنْ يَخَاطَبُ بِهِ أَوْ يَتَلَقَّاهُ، وَمِنْهُ مَا يَكُونُ صَادِرًا عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، إِذْ لَيْسَ مِنْ صِفَاتِهِ سُبْحَانَهُ أَنْ يَتَعَجَّبَ تَعَجُّبَ اسْتِغْرَابٍ وَاسْتِبْعَادٍ، نَظْرًا إِلَى سَابِقِ عِلْمِهِ تَعَالَى بِكُلِّ مَا يَحْدُثُ مِنْ عِبَادِهِ قَبْلَ حَدُوثِهِ، وَعِلْمِهِ بِخَلْقِهِ وَصِفَاتِهِمْ وَخِصَائِهِمْ النَّفْسِيَّةِ وَالسَّلْوَكِيَّةِ.

وما ورد في بعض الأحاديث النبوية من نسبة العجب إلى الله عز وجل فهو بمعنى الاستحسان المقتضي للرضى والمثوبة.

أمثلة:

● قول الله عز وجل في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ لُمَيْتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٢٨) ؟!

الاستفهام في هذه الآية استفهام تعجيبية فيه معنى التوبيخ والتلويح والتأنيب والتفريع، فالمعنى أن كُفْرَكُمْ بِاللَّهِ مَعَ كَوْنِكُمْ كُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ وَلَمْ تُحْيُوا أَنْفُسَكُمْ، أَمْرٌ يَنْبَغِي أَنْ تَعْجَبُوا مِنْهُ قَبْلَ غَيْرِكُمْ، وَأَمْرٌ يَتَعَجَّبُ مِنْهُ كُلُّ الْعُقَلَاءِ مِنْ أَهْلِ الرَّشْدِ. فَحَالِكُمْ يَثِيرُ التَّعَجُّبَ وَالِاسْتِغْرَابَ، كَيْفَ يَصْدُرُ مِنْ ذَوِي عَقُولٍ وَأَفْكَارٍ؟!

● قول الله عز وجل في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) خطاباً لعلماء

بني إسرائيل:

﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ لَتَكُنُونَ مِنَ الْكٰذِبِينَ ﴾ (١١) ؟!

فلا استفهام في ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ ﴾ الذي يخاطب الله به علماء بني إسرائيل استفهام فيه معنى التعجيب من حالهم مع التوبيخ والتلويح والتفريع، إذ

يَأْمُرُونَ النَّاسَ مِنْ عَامَّةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِالْبَرِّ (أي: بالتَّوَسُّعِ فِي أَعْمَالِ الْخَيْرِ فَوْقَ الْوَاجِبَاتِ) وَأَنْ يَتْرَكُوا مَعَ ذَلِكَ أَنْفُسَهُمْ فَلَا يُؤَدُّوهُمَا مَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَأَخَذَ عَلَيْهِمْ بِهِ الْعَهْدَ مِنَ الْإِيمَانِ بِالرَّسُولِ الْخَاتِمِ وَاتِّبَاعِهِ، وَهُمْ يَتْلُونَ كِتَابَ التَّوْرَةِ، وَفِيهِ تَكْلِيفُهُمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِالرَّسُولِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ، وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ.

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (التَّمَلُّ / ٢٧ / مصحف / ٤٨ / نزول) في حكاية تَفَقُّدِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامِ الطَّيْرَ وَاسْتِفْهَامَهُ عَنِ الْهُدْهُدِ إِذْ لَمْ يَرَهُ بَيْنَهَا:

﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾

فَالِاسْتِفْهَامُ فِي ﴿مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ﴾؟ اسْتِفْهَامٌ تَعَجُّبِيٌّ، إِذْ تَعَجَّبَ سُلَيْمَانٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ عَدَمِ رُؤْيَيْهِ الْهُدْهُدَ مَعَ أَنْوَاعِ الطَّيْرِ وَلَيْسَ مِنْ عَادَتِهِ أَنْ يَتَخَلَّفَ.

● قول الشاعر:

مَالِي أَرَاكُمْ تُنْكِرُونَ مَكَانَتِي؟! الشَّمْسُ لَا تَخْفَى مَعَ الْإِشْرَاقِ

● قول أبي تمام:

مَا لِلْخُطُوبِ طَغَتْ عَلَيَّ كَأَنَّهَا جَهَلَتْ بِأَنَّ نَدَاكَ بِالْمِرْصَادِ؟!

الْخُطُوبُ: مُفْرَدُهَا «خَطْبٌ» وَهُوَ الْأَمْرُ الشَّدِيدُ الَّذِي يَكْثُرُ فِيهِ التَّخَاطُبُ.

فَأَبُو تَمَّامٍ يُبَدِّي عَجَبَهُ مِنْ طُغْيَانِ الشَّدَائِدِ عَلَيْهِ مَعَ أَنَّ مَدْوَحَهُ قَائِمٌ بِالْمِرْصَادِ لَهَا يَدْفَعُهَا عَنْهُ بِنَدَاهُ، أَي: بَعْطَايَاهُ.

● قول المتنبي في سيف الدولة وهو يعودُه مِنْ دُمَلٍ كَانَ فِيهِ:

وَكَيْفَ تُعَلِّكَ الدُّنْيَا بِشَيْءٍ وَأَنْتَ لِعِلَّةِ الدُّنْيَا طَيْبٌ؟!

وَكَيْفَ تَتُوبُكَ الشُّكُورَى بِدَاءٍ وَأَنْتَ الْمُسْتَعَاثُ لِمَا يَتُوبُ؟!

أي: إن هذا لأمرٌ يستحقُّ أن يُتَعَجَّبَ مِنْهُ.

● قولُ إحدى نساءِ العربِ تشكوُ ابنها وتُظهرُ التعجُّبَ مِنْ عَمَلِهِ:

أَنْشَا يُمَرِّقُ أَثْوَابِي يُؤَدِّبُنِي أَبْعَدَ شَيْبِي يَبْغِي عِنْدِي الْأَدْبَا؟!

أي: إنَّ تَأْدِيبَ مَنْ شَابَ مِنَ الْعَجَبِ الْعُجَابُ.

* * *

(٥) شرح الاستفهام المستعمل في العتاب:

العتاب: أخف أنواع إظهار عدم الارتياح لسلوك ما، فعلاً كان أو تركاً، وقد يُسْتَحْدَمُ للدلالة عليه أسلوبُ الاستفهام للتخفيف من توجيهه، والتَّلَطُّفُ بنفس الموجه له.

أمثلة:

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الحديد/ ٥٧ مصحف/ ٩٤ نزول):

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَبِيرٌ مِنْهُمْ فَسُفُوتٌ ﴿١٦﴾ ﴾ .؟

أَلَمْ يَأْنِ؟: أي: أَلَمْ يَحِنِّ الْوَقْتُ؟ يُقَالُ لُغَةً: أَنِي يَأْنِي أَنِيًا وَإِنِّي وَأَنَاةً، إِذَا حَانَ وَقَرُبَ .

الاستفهام في هذا النصِّ يتضمَّن عتاباً لطائفةٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مرَّتْ عَلَيْهِمْ بعد إيمانهم مُدَّةً كافيةً، كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَرْتَقُوا فِيهَا مِنْ دَرَجَةِ إِيمَانِ الْوَجَلِ إِلَى دَرَجَةِ إِيمَانِ الْخَاشِعِ .

الوجلُّ: هو الخوف، والخوفُ يرافقه قلقٌ واضطرابٌ في القلب .

الخشوع: هو الخضوع مع سُكُونِ القلب، وهو درجةٌ في الإيمانِ أعلى من درجةِ الوجَلِ .

وفوقهما درجة الطمأنينة .

أخرج الحاكم بسنده عن ابن مسعود قال : ما كان بين إسلام هؤلاء وبين أن عوثتوا بهذه الآية إلا أربع سنين .

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول) خطاباً لرسوله محمّد ﷺ بشأنِ إذنه لطائفةٍ من المنافقين عن الخروج معه إلى غزوة تبوك :

﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَتْ لَهْمَ أَنْ يَكُنَّ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكٰذِبِينَ﴾ ٤٢ ؟ .

فقول الله له : ﴿لِمَ أَذِنَتْ لَهْمَ﴾ ؟ من ألطفِ صُورِ العتاب .

● قول الحطيئة معاتباً :

أَلَمْ أَكُ جَارِكُمْ وَيَكُونُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ الْمَوَدَّةُ وَالْإِخَاءُ؟

● ويُفهم العتابُ من قول الشريف المرتضى لِمَنْ يَهْجُرُهُ :

أَتَبَيْتُ رِيَانَ الْجُفُونَ مِنَ الْكَرَى وَأَبَيْتَ مِنْكَ بَلِيلَةَ الْمَلْسُوعِ

* * *

(٦) شرح الاستفهام المستعمل في التذكير :

قد يستخدم الاستفهام للتذكير بقولٍ أو فعلٍ أو حادثةٍ جرت ، وقد يُقتصر فيه على بعض ما يُستدعى بالاستفهام تذكُّره ، فتحصل به فائدة الإيجاز في القول .

أمثلة :

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (يوسف/ ١٢ مصحف/ ٥٣ نزول) في حكاية قصة يوسف عليه السلام وإخوته :

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ ٨٩ ؟ .

فيوسف عليه السلام يُذَكِّرُ إخوته بما سَبَقَ أَنْ فَعَلُوا بِهِ وبأخيه «بنيامين» بأسلوب الاستفهام، وَتُفْهِمُ مع هذا التذكير معانٍ أخرى كالعتاب أو التلويح.

وقول اللّهِ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) خطاباً للملائكة بعد أن أثبت لهم تفوق آدم عليهم بمعرفة الأسماء الَّتِي عَلَّمَهُ إِيَّاهَا، وبعد أن أعلنوا جهلهم بها:

﴿ قَالَ يَكَادُمُ الَّذِينَ هُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ .؟

* * *

(٧) شرح الاستفهام المستعمل في الافتخار:

ذكروا أَنَّ الاستفهام قد يُسْتَعْمَلُ في الافتخار، ومثّلوا له بقول اللّهِ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (الزخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦١ نزول) حكاية لنداء فرعون في قومه:

﴿ وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تَبْصُرُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ .؟

قالوا: إِنَّ الاستفهام في قوله: ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ ﴾؟ خرج عن معناه إلى معنى الافتخار بما يملك في مصر.

أقول: إِنَّ فرعون خاف على قومه أن يتأثروا بدعوة موسى ويتبعوه، بعد أن جاءهم بآيات ذوات عدد، ويعد أن دعا رَبَّهُ فَكشَفَ عنهم ما أرسَلَ عليهم من رجز، فأراد فرعون أن يُقْنِعَ قومه بتفوقه على مُوسَى بأنَّ لَهُ مُلْكَ مصر، وبأنَّ موسى لا مُلْكَ له ولا سلطان، وبأنه إذا أراد أن يتكلّم فإنه لا يكاد يُبين عن مراده، وعلى هذا فالاستفهام في كلامه مستعمل لانتزاع إقرار قومه في جماهيرية غوغائية بتفوقه على مُوسَى، وَلِلْفَتِ أنظارهم إلى عناصر التفوق التي يُريد أن يخدعهم بها عن الحقيقة، وَلَيْسَ لمطلق الافتخار، وقد يكون فيه رائحة افتخار.

وقد يُفهم الافتخار من بعض أمثلة الاستفهام كمقصدٍ أول، وقد يكون أحد لوازم المقصد الأول منه، كقولي مفتخراً بأمجاد أمتنا الإسلامية:

أَمَا نَحْنُ الَّذِينَ غَدَوْنَا شُمُوسًا عَلَى الدُّنْيَا وَعَمَّ بِنَا الرَّخَاءُ؟

* * *

(٨) شرح الاستفهام المستعمل في التفضيم والتعظيم:

تندفع نفس المتكلم حين يرى شيئاً عظيماً فخماً للتعبير عن عظمته وفخامته، بأسلوب التعجب أحياناً، وبأسلوب الاستفهام أحياناً أخرى، فإذا رأى قصرأ عظيماً فخماً قال: ما هذا القصر؟. كيف بُني هذا القصر؟. من بنى هذا القصر؟. وإذا سمع شاعراً مُبدعاً قال: ما هذا الشاعر؟. من أين له بهذا الشعر البديع؟ وهو لا يريد الإجابة على استفهاماته، إنما يريد التعبير عن عظمة ما رأى، أو سمع.

أمثلة:

قول الله عز وجل في سورة (الكهف / ١٨ مصحف / ٦٩ نزول) بشأن استعظام المجرمين يوم الدين كتاب أعمالهم، الذي لم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها:

﴿ وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ .

مال هذا الكتاب؟: استفهامٌ يرادُّ به تعظيمٌ وتفضيمٌ شأنه، وليس استفهاماً يطلب له الجواب.

● قول الشاعر:

وَمَنْ ذَا الَّذِي تُرْضَى سَجَايَاهُ كُلُّهَا كَفَى الْمَرْءَ نُبْلًا أَنْ تُعَدَّ مَعَايِيهِ؟

أي: إن الذي تُرْضَى سجاياه كلها رجلٌ عظيم.

● قول المتنبي يمدح كافوراً:

وَمَنْ مِثْلُ كَافُورٍ إِذَا الْخَيْلُ أَحْجَمَتْ؟ وَكَانَ قَلِيلًا مَنْ يَقُولُ لَهَا أَقْدُمِي
 أي: هو عظيم قليل النظير في الحث على وُرُودِ المَعَارِكِ، فأورد الاستفهام
 والغرض منه التعظيم، والقرينة المدح.

● قول الشاعر:

أَضَاعُونِي وَأَيَّ فَتَى أَضَاعُوا؟ لِيَوْمِ كَرِيهَةٍ وَسَدَادِ تُغْرٍ
 وَأَيَّ فَتَى أَضَاعُوا؟: أي أضاعوا فتى عظيماً، فالشاعر يعظم من أمر شجاعته.
 الكريهة: الشدة المكروهة في الحرب.

وسَدَادِ تُغْرٍ: أي: وَسَدَّ ثَغْرَةَ مِنْ تُغُورِ الْبِلَادِ لِحِمَايَتِهَا مِنَ الْعَدُوِّ.

● قول ابن هانئ الأندلسي:

مَنْ مِنْكُمْ الْمَلِكُ الْمُطَاعُ كَأَنَّهُ تَحْتَ السَّوَابِغِ تُبْعُ فِي حَمِيرٍ؟

* * *

(٩) شرح الاستفهام المستعمل في التهويل والتخويف:

وإذا كان المعظم شيئاً مُخِيفاً مَهُولاً، كان تعظيمه بالاستفهام فيه مَعْنَى
 التَّهْوِيلِ والتَّخْوِيفِ.

أمثلة:

● قول الله عزّ وجلّ في سُورَةِ (الْحَاقَّةِ / ٦٩ مصحف / ٧٨ نزول) يخوف من
 يوم القيامة وأهوالها:

﴿ الْحَاقَّةُ ١ مَا الْحَاقَّةُ ٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ٣ ﴾ .؟

فلاستفهام هنا للتخويف والتهويل.

ونظيره قول الله عزّ وجلّ في سورة (القارعة / ١٠١ مصحف / ٣٠ نزول):

﴿ الْقَارِعَةُ ١ ﴾ مَا الْقَارِعَةُ ٢ ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ٣ ﴾ ؟ .

* * *

(١٠) شرح الاستفهام المستعمل في التسهيل والتخفيف :

وقد يُعبر المتكلم عما يراه أمراً سهلاً هيئاً خفيفاً بأسلوب الاستفهام، وتدلُّ قرينة الحال أو قرينة المقال على ما أراد التعبير عنه .

كأن يقول قائل لشابٍ رياضيٍّ معتادٍ صعودِ الجبال : أتستطيع أن تصعد هذا الجبل؟

فيقول له : وماذا في صعوده؟

ويقول قائلٌ لخطيبٍ مفوهٍ معتادٍ أن يقف بين الجماهير خطيباً مرتجلاً، ويأسرهم بكلامه : أتستطيع أن تخطب لنا خطبةً في هذا الحفل؟ فيجيبه بالمثل : أو للبطّ تُهدِّدينَ بالشطّ .

أمثلة :

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (النساء / ٤ مصحف / ٩٢ نزول) :

﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ٢١ ﴾ .

أي : إن الإيمان أمرٌ سهلٌ يسيرٌ هيئنٌ لا ثقلَ فيه على النفوس .

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (التوبة / ٩ مصحف / ١١٣ نزول) :

﴿ قُلْ هَلْ تَرْتَضُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ... ﴾ ؟ [الآية ٥٢] .

أي : هل تترضون أن ينالنا إلا إحدى الحسينين : الشهادة وهي سهلةٌ علينا، أو التصر وهو حيبٌ إلينا .

* * *

(١١) شرح الاستفهام المستعمل في التهديد والوعيد:
وقد يُهدّد المتكلّم باستخدام أسلوب الاستفهام، وقد يتوعّد به.

كأن يقول السُّلطان لطائفةٍ من المجرمين الذين لم تُثبِتْ بعدُ إداثتهم بجرائمهم: أَلَمْ تَعَلَّمُوا أَنَّنَا قَطَعْنَا أَيْدِي الَّذِينَ ثَبِتَتْ عَلَيْهِمْ جَرِيْمَةُ السَّرْقَةِ؟. أَلَمْ تَعَلَّمُوا أَنَّنَا قَتَلْنَا مَنْ ثَبِتَتْ عَلَيْهِمْ جَرِيْمَةُ الْقَتْلِ عَمْدًا وَعُدْوَانًا؟ أَلَمْ تَعَلَّمُوا أَنَّنَا عَاقَبْنَا مَنْ ثَبِتَتْ عَلَيْهِمْ جَرِيْمَةُ الْحِرَابَةِ بِتَقْطِيعِ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلِهِمْ مِنْ خِلَافٍ، وَبِقَتْلِ الْقَتْلَةِ مِنْهُمْ؟.

أمثلة:

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول):

﴿ أَلَمْ نُنْهِكَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ؟ ۞ .

أي: كما فعلنا بالمجرمين الأولين من مكذّبي القرون الأولى سنفعل بأمثالهم من الأمم اللاحقة.

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) يتوعّد

الكافرين بما في يوم الدين:

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلُلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ إِلَى اللَّهِ

تَرْجِعُ الْأُمُورُ ﴿٦١﴾ ؟ ۞ .

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول) يُهدّدُ

المشركين:

﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ... ۞ ؟ [الآية ١٠٢].

* * *

(١٢) شرح الاستفهام المستعمل في التكثير:

وقد يعبر المتكلم عن الكثرة بأسلوب الاستفهام، والأداة المستعملة في هذا غالباً كلمة «كم» وتخرج حينئذٍ عن الاستفهام وتسمى «كم» الخبرية التي يعبر بها عن الكثرة.

ويمكن أن يستعمل غيرها من الأدوات للدلالة على التكثير، كأن تقول الأم لابنها الذي يريد أن تحمله مع أن كبدها تذوب من توالي حمله:

أَيْلَلَةٌ وَاحِدَةٌ أَرَقَّتَنِي يَا وَلَدِي؟
تُرِيدُ حَمَلًا وَأَنَا تَذُوبٌ مِنْهُ كَبِدِي
أمثلة:

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٦١﴾﴾؟.

أي: كثيرٌ من القرى أهلكناها.

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ... ﴿٢١١﴾﴾ [الآية ٢١١]؟.

أي: آتيناهم آياتٍ بيِّناتٍ كثيراتٍ.

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَرَّمْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾﴾؟.

أي: أنبتنا فيها أصنافاً كثيرة.

● قول أبي العلاء المعري:

صَاحِ هَذِي قُبُورُنَا تَمَلُّ الرَّحْمَ سَبَّ فَايُنَ الْقُبُورِ مِنْ عَهْدِ عَادٍ؟

أي: فقبورٌ كثيرةٌ من عهدِ عاد.

* * *

(١٣) شرح الاستفهام المستعمل في التسوية:

ويكون في الاستفهام الداخِل على جملة يصحُّ حلول المصدر محلّها، ويأتي بعدها معادلٌ.

أمثلة:

قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾؟.

أي: استوى إنذارهم وعدمه.

● قول المتنبّي:

وَلَسْتُ أَبَالِي بَعْدَ إِذْرَاكِي الْعَلَا
أَكَانَ تُرَائَا مَا تَنَاوَلْتُ أَمْ كَسَبَا

* * *

(١٤) شرح الاستفهام المستعمل في الأمر:

كثيراً ما يتلطف المتكلم بالمخاطب فيوجه له الأمر بأسلوب الاستفهام، والأمرُ يَشْمَلُ كُلَّ مَا تُسْتَعْمَلُ له صيغة الأمر من تكليف، أو نصيحة، أو موعظة، أو إرشاد، أو دعاء، أو التماس، أو غير ذلك.

فإذا قدّم له طعاماً مثلاً قال له: أتأكل؟ ألا تأكل؟. وإذا أراد أن يأمره بالصلاة وقد حان وقتها قال له: أتصلي؟ ألا تصلي؟. وهكذا.

أمثلة:

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) خطاباً

لرسوله محمد ﷺ:

﴿ فَإِن حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسَلْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِّي وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسَلْتُمْ
فَإِن أَسَلْتُمْ فَقَدْ أَهْتَكُوا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٦﴾ ﴾ .

أَسَلْتُمْ؟ : أي : أسلِمُوا .

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (المائدة/ ٥ مصحف / ١١٢ نزول):

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْمَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْغَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ
وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴿١١﴾ ﴾ ؟ .

فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ؟ : أي : انتهوا .

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف / ٤٢ نزول):

﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَنْتَصِرُونَ... ﴾ [الآية ٢٠] ؟ .

أَنْتَصِرُونَ؟ : أي : اضبروا .

● قول الشاعر:

أَلَا ازْعَوَاءَ لِمَنْ وُلَّتْ شَيْبَتُهُ وَأَذْنَتْ بِمَشِيبٍ بَعْدَهُ هَرَمٌ؟

أي : فليزعو عن المعاصي والقبائح وفعل السَّيِّئَاتِ .

* * *

(١٥) شرح الاستفهام المستعمل في التنبية:

التنبية في الحقيقة هو من أقسام الأمر، ومن المعاني التي تُستعمل فيها صيغة
الأمر .

أمثلة:

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف / ٤٢ نزول):

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿١٥﴾ ثُمَّ
قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾ .

أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ؟ : أي : انظر وتفكر وتنبه إلى هذه الآية من آيات الله .
 ● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (التكوير/ ٨١ مصحف/ ٧ نزول) بشأن القرآن

المجيد:

﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ؟ : أي : انتبهوا، ولا تذهبوا بعيداً منصرفين عن إدراك الحقيقة .

● قول الشاعر:

أَلَمْ تَسْمِعِي أَيَّ عَبْدٍ فِي رَوْنَقِ الضُّحَى بُكَاءَ حَمَامَاتٍ لَهْنٍ هَدِيرُ؟
 أي : انتبهي لبكائهنّ، فإنك عندئذٍ تذكرين بكاء عاشقك .

* * *

(١٦) شرح الاستفهام المستعمل في الترغيب:

الترغيب في الحقيقة من المعاني التي تُستعمل للدلالة عليها صيغة الأمر،
 فكما يستعمل الاستفهام في الأمر يمكن أن يُستعمل في الترغيب .

أمثلة:

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ أَمْعَافًا كَثِيرًا وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ
 وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ ﴾

أي : ارغبوا في هذا الثواب العظيم فأقرضوا الله قرضاً حسناً .

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الصف/ ٦١ مصحف/ ١٠٩ نزول):

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تَحَرُّقٍ تُنْجِيكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٦١﴾ ﴾

أي : ارغبوا في هذه التجارة العظيمة الرابعة .

* * *

(١٧) شرح الاستفهام المستعمل في النهي:

استعمال الاستفهام في النهي نظير استعماله في الأمر، لأنَّ الأمر بالشيءِ نهْيٌ عن ضده، وبالعكس.

أمثلة:

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول) بشأنِ الحثِّ على قتال أئمة الكُفر:

﴿اتَّخِذُوهُمْ فَالِلهِ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ١٣؟.

أي: لا تخشوهم، لأنَّ الله ناصركم عليهم.

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الانفطار/ ٨٢ مصحف/ ٨٢ نزول):

﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ٦ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ٧﴾.

أي: لا تغترَّ برَبِّكَ.

● قول الشاعر:

أَكَلَّ امْرِئٍ تَحْسِينِ امْرَأً وَتَارِ تَوْقَدُ فِي اللَّيْلِ نَاراً؟
أي: لَا تَحْسَبِي ذَلِكَ.

* * *

(١٨) شرح الاستفهام المستعمل في الدعاء:

استعمال الاستفهام في الدعاء نظير استعماله في الأمرِ والنهي، فالدعاء تستعمل للدلالة عليه صيغتا الأمر والنهي، والدعاء يكون عادة من الأدنى إلى الأعلى، والحقُّ أنَّ لا يكون إلا من العبد لربه عزَّ وجلَّ.

أمثلة:

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَإِخَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِنِّي أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا...﴾ [الآية ١٥٥].

أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا؟: أي: لَأَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا.

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) بشأن المشركين وتكذيبهم بالقرآن:

﴿كَذَلِكَ سَلَكَنَا فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٢١﴾ فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٢﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٣﴾﴾؟.

هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ: أي: أَنْظَرْنَا رَبَّنَا، يدعون بأسلوب الاستفهام لأنهم يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ مُدْبِرُونَ لا يستجاب لهم، فقد انتهت مدة ابتلائهم.

* * *

(١٩) شرح الاستفهام المستعمل في الاسترشاد:

قد يطرح المتكلم سؤالاً استفهامياً ظاهره يُشعر بالاستشكال أو الاعتراض، وغرضه الاسترشاد، ويمكن أن نعتبر من الأمثلة على هذا أسئلة موسى للخضر في اعتراضاته على تصرفاته، كما أبان الله لنا في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول):

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقَهَا لِنُفُوسِ أَهْلِهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾﴾؟.

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَبَيَا غُلَامًا فَغُلَّاهُ قَالَ أَفَتَلَّكَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿٧٢﴾﴾؟.

إمراً: أي: عجبياً مُنْكَرًا لَا يَتَّفِقُ مع أحكام الشريعة فيما أعلم.

نُكْرًا: أي: مُنْكَرًا لَا يَتَّفِقُ مع أحكام الشريعة فيما أعلم.

لَقَدْ تَعَجَّلَ موسى عليه السَّلَامُ سؤال الاسترشاد، مع أن موافقة الخضر على مصاحبته له كانت مشروطةً بِأَنْ يَصْبِرَ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُ أسبابَ تصرُّفاته التي لم تكن في الحقيقة مخالفةً لمقتضيات شرع الله، إذ عَلِمَ الخضر من الحقيقة ما لم يَعْلَمَهُ موسى عليهما السلام.

ومثّلوا لسؤال الاسترشاد الذي من هذا القبيل بسؤال الملائكة إذ قالوا لربهم كما جاء في سورة (البقرة/ ٢ مص حف/ ٨٧ نزول):

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾؟.

* * *

(٢٠) شرح الاستفهام المستعمل في التمني والترجي:

يَتَمَنَّى الْمُتَمَنِّيُ أمراً يرى أنه متعذر الحصول أو بعيد المنال، وقد يعبر عن تمنّيه بأسلوب الاستفهام، كأن يتمنى بعض أصحاب الأوهام أن ينام ليلة فيصحو وقد حفظ القرآن عن ظهر قلب، أو صار عالماً من كبار العلماء، أو ألقى إليه من السماء كنز من الذهب أو نحو ذلك، فيقول: هل يَحْصُلُ لي كذا وكذا؟ وكذلك الترجي.

أمثلة:

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) بشأن تمنّي الكافرين يوم الدين أن يكون لهم شفعاء يشفعون لهم:

﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عَلَيْهِمْ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٧﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ

يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ ذَسُّوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلًا مِنَّا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا
لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٧﴾ .

أي: نتمنى أن يكون لنا شفعاء، أو نُردَّ إلى حياة الابتلاء لنعمل غير الذي كنَّا نعمل، لكنَّ أمانيتهم ضائعة ومطالبهم بها مرفوضة.

● قول الشاعر:

هَلْ بِالطُّلُوبِ لِسَائِلٍ رَدُّ؟ أَمْ هَلْ لَهَا بِتَكْلِيمٍ عَهْدُ؟

● قول أبي العتاهية يمدح الأمين:

تَذَكَّرَ أَمِينَ اللَّهِ حَقِّي وَحُرْمَتِي وَمَا كُنْتُ تُؤَلِّينِي لَعَلَّكَ تَذَكَّرُ
فَمَنْ لِي بِالْعَيْنِ الَّتِي كُنْتُ مَرَّةً إِلَيَّ بِهَا فِي سَالِفِ الدَّهْرِ تَنْظُرُ؟

أي: أتمنى أن تعود لي تلك العين التي كنت تنظر إليَّ بها، أو أرجو.

● قول الشاعر:

مَضَى زَمَنٌ وَالنَّاسُ يَسْتَشْفِعُونَ بِي فَهَلْ لِي إِلَى لَيْلَى الْغَدَاةِ شَفِيعُ؟

فهو يتمنى أو يرجو.

* * *

(٢١) شرح الاستفهام المستعمل في الاستبطاء:

يستبطئ الموعود بوعدٍ حدوث الموعود به، وقد يعبر عن استبطائه له بأسلوب الاستفهام، فيقول لمن وعده بزيارته له: متى تأتينا؟ متى تزورنا؟ حتى متى تعدنا ولا تفي بوعدك؟

أمثلة:

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) خطاباً

للمؤمنين:

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهُ أَلَا نَنْصُرُ اللَّهُ قَرِيبٌ ﴾ (١١٩).

متى نصرُ الله؟: أي: تأخر النَّصرُ الموعود به، وهكذا حالُ البشر يستعجلون، وحكمةُ الله لا تسأيرُ مطالب المستعجلين.

● قول أبي العلاء المعري:

إِلَامٌ وَفِيهِمْ تَنْقُلُنَا رِكَابٌ وَتَأْمُلُ أَنْ يَكُونَ لَنَا أَوَانٌ؟

أي: إلى متى تسير مطايانا وترجو أن يكون لنا وقتٌ نجزيها فيه على إحسانها بنا.

* * *

(٢٢) شرح الاستفهام المستعمل في العرض:

ويتلطف الأمر، أو الناصح، أو الداعي، أو طالب أيّ مطلب، فيعرض ما يطلبه أو يدعو إليه عرضاً بأسلوب الاستفهام، والصيغة الأصلية التي تستعمل في ذلك صيغة الأمر، أو صيغة النهي.

أمثلة:

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول):

﴿... وَيَعْفُوا وَيَصْفَحُوا أَلَا يُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١٧).

أي: إن عفوتم وصفحتم غفر الله لكم.

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (النازعات/ ٧٩ مصحف/ ٨١ نزول) يعلم

موسى عليه السلام كيف يعرض دعوته على فرعون:

﴿ أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَنْ تَرَكَّ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَانْحَسِبْ ﴿١٩﴾ ۚ ﴾

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الذاريات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول) بشأن دعوة إبراهيم عليه السلام ضيوفه ليأكلوا ما أعدَّ لهم من طعام، وكان عَجْلاً مَشُوباً:

﴿فَرَأَىٰ إِلَيْكَ أَهْلِيهِ فَجَاءَ بِعَجَلٍ سَمِينٍ ﴿٦١﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٦٢﴾﴾؟

* * *

(٢٣) شرح الاستفهام المستعمل في التحضيض:

ويريد المتكلم حَضًّا مَنْ يخاطبه على فعل أمرٍ أو ترك أمرٍ، وقد يجد استعمال أسلوب الاستفهام أوقع في نفسه، وأكثر تأثيراً، إذا كانت القرينة القولية أو الحالية تشعر بالتلويح على عدم الاستجابة.

أمثلة:

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول) يحضُّ على

قتال المشركين:

﴿أَلَا تَقْتُلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أُولَٰئِكَ مَرَّةً كَانُوا فِيهَا يَخْتَوْنَ ﴿١٣﴾﴾... ﴿[الآية ١٣]؟﴾

● قولي صانعاً مثلاً:

أَلَا قُتِمْتُمْ وَيَا رِجَالَ الْهُدَىٰ لِنُصْرَةِ دِينِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ؟

* * *

(٢٤) شرح الاستفهام المستعمل في التجاهل:

قد يتجاهل العارف بالأمر أو بالشخص أو بصفاته لأغراض بلاغية، منها استزادة المعرفة، ومنها انتزاع الاعتراف، ومنها تحقيره والتقليل من شأنه حتى كأنه غير معروف، ومنها الإثارة لإفاضة البيان حوله من بعض حاضري المجلس للتعريف به مدحاً أو ذمّاً، إلى غير ذلك من أغراض بلاغية، ويستعمل في التجاهل أسلوب الاستفهام.

ويمكن أن نعتبر من أمثلة الاستفهام المستعمل في التجاهل ما جاء في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) ضمن عرض قصة إبراهيم عليه السلام لما حطم أصنام قومه إذ تخلف عنهم يوم خرجوا ليلها في عيد لهم، قال الله عز وجل فيها:

﴿ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُمْ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتَى يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأَتُوا بِهِ عَلَى عَيْنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَأنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ ؟.

(٢٥) شرح الاستفهام المستعمل في التحقير والاستهانة والاستهزاء:

وقد يستعمل الاستفهام أسلوباً من أساليب تحقير المستفهم عنه والاستهانة به، لأن الاستفهام يشعر بأن المستفهم غير مهتم بما يستفهم عنه، ولا مكرث له لحقارته في نفسه، واستهانت به، ثم صار الاستفهام يدلاً على التحقير والاستهانة بمساعدة قرائن الحال أو المقال:

أمثلة:

● قول الله عز وجل في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) في بيان بعض مواقف الذين كفروا من الرسول ﷺ:

﴿ وَإِذَا رَأَوكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذُكُرُ ءَالِهَتِكُمْ وَهُمْ يَذُكُرِ الرَّحْمٰنَ هُمْ كٰفِرُونَ ﴿٦١﴾ ؟.

● وقول الله عز وجل في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) في ذلك أيضاً:

﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِذ يَنْتَهِزُونَ بِهٖ اَوَّلًا إِذْ بَعَثَ اللهُ رَسُوْلًا ﴿٤١﴾ ؟.

لقد احتقروه واستهزؤوا به أولاً إذ بعثه الله رسولاً، فسورة الفرقان قد نزلت قبل سورة الأنبياء، ثم احتقروه واستهزؤوا به دفاعاً عن أوثانهم بعد أن أبان أنها حجارة لا تضر ولا تنفع.

● قول الشاعر:

فَدَعَ الْوَعِيدَ فَمَا وَعِيدُكَ ضَائِرِي أَطِينُ أَجْنَحَةِ الدُّبَابِ يَضِيرُ؟

* * *

(٢٦) شرح الاستفهام المستعمل في المدح أو الذم:

وقد يُسَاقُ الاستفهام للدلالة على مدح المتحدث عنه والثناء عليه، أو للدلالة على ذمه وكشف مثالبه، والقرائن القولية أو الحالية كواشف.

أمثلة:

● قول جرير في مدح عبد الملك:

الَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا وَأَنْدَى الْعَالَمِينَ بَطُونِ رَاحِ؟

● قول المتنبي حينما صرَّعَ بَدْرُ بْنُ عَمَّارٍ أَسَدًا بِسَوِّطِهِ يمدحه:

أَمُعَفَّرَ اللَّيْثَ الْهَزْبِرِ بِسَوِّطِهِ لِمَنْ ادَّخَرْتَ الصَّارِمَ الْمَصْقُولَا؟

● قول الشاعر:

أَرَأَيْتَ أَيَّ سَوَالِفٍ وَخُدُودِ بَرَزْتَ لَنَا بَيْنَ اللُّوَى فَرَزُودِ؟

● قول ابن الرومي في المدح:

أَلَسْتَ الْمَرْءَ يَجْبِي كُلَّ حَمْدٍ إِذَا مَا لَمْ يَكُنْ لِلْحَمْدِ جَابِ؟

جَابِ: أي: مَنْ يَجْبِي بمعنى يجمع.

● قول الشاعر في الاستفهام المعبر عن الذم:

فَقَالَتْ: أَكُلَّ النَّاسِ أَصْبَحْتَ مَانِحًا لِسَانَكَ كَيْمَا أَنْ تَغَرَّ وَتَخْدَعَا؟

* * *

(٢٧) شرح الاستفهام المستعمل في الاكتفاء:

وذكروا أنّ الاستفهام قد يستعملُ لبيان الاكتفاء، ومثلوا له بقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول):

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴾ (٦٨) ؟ .

● ويقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الزمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴾ (٢٢) ؟ .

﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ (١٠) ؟ .

أي: يكفيهم عقاباً لهم متواهاً في جهنم يوم الدين.

أقول: الأقرب اعتبار هذه الأمثلة من الاستفهام المستعمل في التهديد والوعيد والترهيب.

* * *

(٢٨) شرح الاستفهام المستعمل في الاستبعاد:

وكثيراً ما يُستخدَمُ الاستفهام للدلالة على استبعاد المستفهم عنه، والتشكُّك في حدوثه.

أمثلة:

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الدخان/ ٤٤ مصحف/ ٦٤ نزول) بشأن الدخان الذي هو أحد أشراف الساعة:

﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾ يَعْنِي النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٢﴾ رَبَّنَا
 أَكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ أَيْ لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٤﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ
 مَّجْنُونٌ ﴿١٥﴾ ﴾ .

أَيُّ لَهُمُ الذِّكْرَى؟ : أي : تَذَكَّرُهُمْ وَاتَّعَظُّهُمْ أَمْرٌ مُسْتَبْعَدٌ .

● قول الشاعر :

أَتَقْرَحُ أَكْبَادُ الْمُحِيْنِ كَالَّذِي أَرَى كَبِدِي مِنْ حُبِّ مَيَّةَ تُقْرَحُ؟
 أي : أَسْتَبْعَدُ ذَلِكَ .

* * *

(٢٩) شرح الاستفهام المستعمل في الإيناس :

ويريد المتكلم أن يؤانس من يخاطبه، فيطرح عليه أسئلة يجره بها إلى
 المحادثة، مع أن المتكلم عالم بجواب أسئلته .

أمثلة :

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (طه/ ٢٠ مصحف / ٤٥ نزول) مبيناً ما كلم
 الله به موسى في رحلة التكليم :

﴿ وَمَا تَلَكَ بِيَمِينِكَ يَمْوَسَى ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَاهْتَسُّ بِهَا عَلَيَّ غَنِي
 وَلِي فِيهَا مَنَارِبٌ أُخْرَى ﴿١٨﴾ ﴾ .

● قول الزوج في ليلة عرسه لعروسه : مَنْ أَهْدَاكَ هَذَا الْعَقْدَ الْفَيْسُ؟ مِنْ أَيْنِ
 جِئْتَ بِهَذَا الشَّعْرَ الذَّهْبِيَّ الْجَمِيلِ؟ مَاذَا تُحَبِّبِينَ أَنْ يَكُونَ بِكَرِّكَ؟ أَذْكَرًا أَمْ أَنْثَى؟

* * *

(٣٠) شرح الاستفهام المستعمل في التهكم والسخرية :

ويستعملُ الاستفهام عند إرادة التهكم أو السخرية، ومن الأمثلة مقالة قوم

شعيب عليه السلام له، كما حكى الله عزَّ وجلَّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/
٥٢ نزل):

﴿ قَالُوا يَشْعِيبُ أَسْلَوْنَاكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يُعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ ﴿٥٧﴾؟ .

ومقالة إبراهيم عليه السلام لآلهة قومه من الأوثان كما حكى الله عزَّ وجلَّ في
سورة (الصفات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزل):

﴿ فَرَأَعِ الْإِلَٰهَ الْهِنَمِ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿١١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ﴾ ﴿١٢﴾؟ .

أَلَا تَأْكُلُونَ؟: استفهام تهكمي ساخر. وكذلك: مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ؟

* * *

(٣١) شرح الاستفهام المستعمل في الإخبار:

وقد يستعمل الاستفهام أسلوباً من أساليب الإخبار، وهو يدخل في طريقة
الإعلام غير المباشر.

أمثلة:

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزل) بشأن
طائفة من المنافقين:

﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ
مُدْعِينَ ﴿٤٩﴾ أَلْفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ
الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ .

أَلْفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا: أي: هم فريقان، فريق في قلوبهم مرض
النفاق، وفريق دخل إلى قلوبهم الريب.

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الإنسان/ ٧٦ مصحف/ ٩٨ نزل):

﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴾ ﴿١﴾

أي: قد أتى عليه هذا الحين.

* * *

(٣٢) شرح الاستفهام المستعمل في التأكيد:

وقد يأتي الاستفهام تأكيداً لاستفهام قبله، حين تدعو الحاجة البيانية الرفيعة لذلك، ومن الأمثلة على هذا قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الزمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿ أَفَمَن حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ ﴾ ﴿١١﴾ .؟

قال الموفق عبد اللطيف البغدادي: «أي: مَنْ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ فَإِنَّكَ لَا تُنقِذُهُ، فـ «مَنْ» للشرط، و «الفاء» جواب الشرط، و «الهمزة» في: ﴿أَفَأَنْتَ؟﴾ دخلت مُعَادَةً لطول الكلام، وهذا نوعٌ من أنواعها».

قال الزمخشري: «الهمزة الثانية هي الأولى كُرِّرَتْ لتوكيد معنى الإنكار والاستبعاد».

* * *

خاتمة:

قد نلاحظ معاني أخرى في بعض أمثلة الاستفهام غير التي ذكرها مُخْصِو المعاني السابقة، كالاستعطاف والاسترحام، والتئيس وقطع الرجاء، والشكوى، والتشوق، والغيرة، والتفجع والهلع.

● فمن الاستعطاف قول الشاعر:

أَلَمْ أَكُ جَارِكُمْ وَيَكُونُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ الْمَوَدَّةُ وَالْإِخَاءُ؟

ومن التئيس وقطع الرجاء قول الشاعر:

قَدْ قِيلَ مَا قِيلَ إِنْ صِدْقًا وَإِنْ كَذِبًا فَمَا اغْتِذَارُكَ مَنْ قَوْلٍ إِذَا قِيلَ؟
وَمِنَ الشُّكُوبِ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

أَلَا تَسْأَلَانِ الدَّهْرَ مَاذَا يُحَاوِلُ؟ أَنْحَبُ فَيُقْضَى أَمْ ضَلَالٌ وَيَبَاطِلُ؟
وَمِنَ التَّشْوِيقِ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

فَقُمْتُ لِلطَّيْفِ مُرْتَاعًا فَأَرَقَنِي فَقُلْتُ: أَهْيَ سَرَتْ أَمْ عَادَنِي حُلْمُ؟
وَمِنَ الْغَيْرَةِ قَوْلُ مَجْنُونٍ لَيْلَى:

بِرَبِّكَ هَلْ ضَمَمْتَ إِلَيْكَ لَيْلَى فَيُيْلَ الصُّبْحِ أَوْ قَبَّلْتَ فَاهَا؟

● وأرى من الهلع والجزع قول موسى عليه السلام في ميقات المناجاة الثاني لربه، كما جاء في سورة (الأعراف / ٧ مصحف / ٣٩ نزول):

﴿... أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا...﴾؟ [الآية ١٥٥].



الباب الثاني

أحوال عناصر الجملة

وفيه ستة فصول:

- الفصل الأول : مقدمات عامّة .
- الفصل الثاني : الذكر والحذف .
- الفصل الثالث : التقديم والتأخير .
- الفصل الرابع : التنكير والتعريف .
- الفصل الخامس : التقييد وعدمه .
- الفصل السادس : الخروج عن مقتضى الظاهر .

الفصل الأول

مُقدّمات عامّة

المقدمة الأولى:

الأصل في الكلام ذكر ما يدلُّ على العنصر المراد بيانه من عناصر الجملة، إلا أن أهل اللسان اعتادوا أن يحذفوا من الجملة عناصر يفهمون معانيها دون ذكر ألفاظها، لكثرة الاستعمال، أو لورود الجملة على طريقة الأمثال، أو لوجود قرينة تدلُّ عليها من قرائن الحال أو قرائن المقال.

فما اعتاد أهل اللسان أو اعتاد البلغاء منهم على حذفه، أو هو ممّا يمكن إدراكه بسهولة إذا حُذِف، فإن ذكره يُعتبر إسرافاً في التعبير يتحاشاه البلغاء، وحين يعمدُ البليغ الذّواق للأدب الرفيع إلى ذكره فإنما يفعلُ ذلك لغرضٍ بلاغيٍّ يقصده.

* * *

المقدمة الثانية:

ويتعرّض كلُّ عنصرٍ من العناصر الأساسية التي تُبنى منها الجملة المؤدّية لما يقصده المتكلّم بيانه، لاحتتمال تقييده بالوصف أو غيره من القيود، كالحال، والبدل، وعطف البيان، والتأكيد، والظرف الزماني أو المكاني، والجارّ والمجرور به، وغير ذلك، ويتعرّض أيضاً لاحتتمال إطلاقه وعدم تقييده.

والبليغ الذّواق للأدب الرفيع يختار من احتمالي التقييد وعدمه، ما يراه مُحققاً لغرضٍ بلاغيٍّ يقصده، أو يراه أوفى بتحقيقه ممّا يطابق به مقتضى حال من يوجّه له بيانه، فرداً كان أو جماعة.

* * *

المقدمة الثالثة :

وكلُّ ما يُمكن في الجملة الكلامية إيراده من الأسماء معرفةً أو نكرةً، فإنَّ على البليغ الذَّواق للأدب الرفيع أن يختار من الاحتمالات الممكنة ما يُحقِّق به غرضاً بلاغياً يقصدهُ، أو يراه أوفى بتحقيقه، ممَّا يطابق به مقتضى حال من يوجّه له بيانه، فرداً كان أو جماعةً.

ويَتَحَقَّقُ باختيار الاسم النكرة أغراضٌ بلاغيةٌ متعدّدة، تقتضيها أحوال المخاطبين، ويُسْتَدَلُّ على المراد من هذه الأغراض بقرائن الحال، أو قرائن المقال.

ويتحقَّقُ باختيار الاسم المعرفة أغراضٌ بلاغيةٌ مُتَعَدِّدةٌ أيضاً تقتضيها أحوال المخاطبين، ويُسْتَدَلُّ على المراد من هذه الأغراض بقرائن الحال، أو قرائن المقال، وذلك بحسب نوع المعرفة، إذ الاسم المعرفة ينقسم إلى ستة أنواع، وهي الأنواع التالية:

النوع الأول: ما يكون تعريفه بسبب كونه ضميراً.

النوع الثاني: ما يكون تعريفه بسبب كونه علماً.

النوع الثالث: ما يكون تعريفه بسبب كونه اسم إشارة.

النوع الرابع: ما يكون تعريفه بسبب كونه اسم موصول.

النوع الخامس: ما يكون تعريفه بسبب كونه محلّي بالألف واللام.

النوع السادس: ما يكون تعريفه بسبب كونه مضافاً إلى واحدٍ ممَّا سبق.

قالوا: وأعرَفُ هذه الأنواع الضمير، يليه في الرتبة العَلَمُ والمضاف إلى الضمير، فرتبة اسم الإشارة، فرتبة اسم الموصول، فرتبة المحلّي بالألف واللام، فرتبة المضاف إلى أحد المعارف غير الضمير.

ولمّا كان مُنْشِئ البيان الكلاميّ أمام احتمالاتٍ وصُورٍ متعدّدة من كلّ ما سبق، وكان عليه أن يختار لبيانه واحداً منها.

ولمّا كان كلّ احتمال يُمكن أن يقصد به البليغ معنىً بلاغيّاً يطابق مقتضى الحال، وهذا المعنى لا يتحقّق بغيره من الاحتمالات.

ولمّا كانت مقتضيات أحوال المخاطبين مختلفات، فما يطابق مقتضى حال بعضهم قد لا يطابق مقتضى حال غيره.

لمّا كانت كلّ هذه الأمور مُجْتَمِعَةً في وقت واحد، كان على البليغ أن يختار بلاغيّاً لبيانه ما هو الأبلغ والأجمل المطابق لمقتضى الحال، وكان مسؤولاً عن هذا الاختيار.

لكنّ مراتب أذواق البُلغاء متفاوتة متفاضلة، ومراتب الاختيارات الجمالية متفاوتة متفاضلة أيضاً، لذلك كان لا بُدَّ أن تتفاوت بلاغة الكلام، وتتفاضل نسبُ الجمال فيه، بحسب تفاوت الاختيارات، وتفاضل مستوياتها.

* * *

المقدمة الرابعة:

وللجملة في اللسان العربيّ نظامٌ أصليٌّ ينبغي ملاحظته لدى ترتيب عناصرها، واحتمالاتٌ فرعيةٌ جائزة يتمُّ بها تقديم ما حقُّه الأصليُّ التأخير، لأغراض بلاغيةٍ أو جماليةٍ.

لذلك كان على البليغ الذّواق للأدب الرفيع أن يتقيّد بنظام ترتيب عناصر الجملة، ولا يلجأ إلى الاحتمالات الفرعية الجائزة إلّا لأسباب بلاغيةٍ أو جماليةٍ دعتُهُ إلى ذلك.

والباحث البلاغيُّ يُنبئُ على طائفةٍ من الأغراض البلاغيةٍ أو الجمالية الداعية إلى مخالفة النظام الأصلي في ترتيب عناصر الجملة الكلامية، حتّى يهتدي بها

مشىء البيان الكلامي، ويتحرى فيما ينشء من قول ما هو الأبلغ والأجمل دواماً،
قدر استطاعته وتذوقه لدقائق المعاني ومستويات الجمال.

* * *

المقدمة الخامسة:

ولدى إنشاء الكلام ومتابعة بناء بعضه على بعض، ورضف بعضه إلى جانب
بعض، يلاحظ كلُّ ذي فكرٍ متذوقٍ لأساليب الكلام، أنه تُوجد طرائق وأساليب
يقتضيها ظاهر النسق، فالمتكلم يتابعها بتلقائية، كتتابع الماء في مجرى متمائل
الأجزاء، ليس فيها انحرافٌ ولا دورانٌ ولا التواء، وليس فيها صواعِد ولا نوازل.

ولكن قد تدعو دواعي بلاغية أو جمالية إلى مخالفة مقتضى الظاهر في
الكلام، كما تدعو دواعي نفعية لعطف مجرى الماء عن نسقه المتمائل، أو تدعو
دواعي جمالية لإيجاد دوائر ومنعطفات، وصواعِد ونوازل في مجرى الماء،
لإحداث مشاهد جمالية بديعة لا تتحقق بمتابعة النسق المتمائل.

والباحث البلاغي يُنبه على طائفة من الأغراض البلاغية أو الجمالية الداعية
إلى مخالفة مقتضى ظاهر النسق الكلامي، ليهتدي بهديها مُنشئُ البيان، ويتحرى
فيما ينشء من قول ما هو الأبلغ والأجمل دواماً قدر استطاعته، وتذوقه لدقائق
المعاني، ومستويات الجمال.

* * *

خاتمة:

هذه الأحوال التي تقدّم الحديث عنها مجملاً في المقولات الخمس
السابقت، تتطلب دراسة تفصيلية مُدعمة بالأمثلة والشواهد المقرونة بالتحليل،
ليستفيد منها دارس علوم البلاغة وفنونها في تحقيق أربع غايات، وهي ما يلي:

الغاية الأولى: حُسْنُ تفهّم وتدبّر النصوص البليغة الرفيعة من القرآن المجيد،

وأقوال الرسول ﷺ، وكلام أساطين البلغاء والشعراء.

الغاية الثانية: اكتساب القدرة على نقد النصوص المشتملة على ما هو سمين وغثٌ من الكلام، وبيان ما في النصوص التي يَنْقُدُها من محاسن وعيوب بلاغية وأدبية.

الغاية الثالثة: اكتسابُ الذوق الرفيع الذي يُحسُّ بمواطن البلاغة والجمال الأدبي.

الغاية الرابعة: الاهتداءُ بهُدًى ما أعطتهُ الدراسة، لدى إنشاء الكلام، وكتابة المقالات والخطب والرسائل والمؤلفات، واكتسابُ الدافع الذاتي لِتَحَرِّي ما يراه الأَبْلَغ والأَجْمَل فيما يُنشِئُ من بيان، ولا سيما حينما يقوم بوظيفة الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ولا يَقُوتُنَا أخيراً ملاحظةٌ أنَّ حظوظ الناس فيما يستفيدونه من دراساتهم متفاوتة متفاضلة، وهي تكون بحسب هِباتِهِم الفطرية، من الاستعداد لتَدْوُق البيان الرفيع، وصناعة الكلام البليغ وصياغته.



الفصل الثالث

الذكر والحذف

(١)

مقدمة

● كل ما يُرادُ الإعلامُ به من عناصر الجملة في اللسان العربيّ، فالأصل الساذجُ بالنسبة إليه أن يُذكر ولا يُحذف، لأنَّ ذكْره دليلٌ على إرادة الإعلامِ به، أمّا حذْفه فهو دليلٌ على عدم إرادة الإعلامِ به.

● هذا هو الأصلُ في الآليّة الماديّة لبناء الكلام الدالّ على المعاني التي يرادُ الإعلامُ بها، إذا عَزَلْنَا قُوَى الإِدْرَاكِ اللَّمَحِيّ والإِشَارِيّ، وقُوَى الاستدلالِ بقرائنِ الأحوالِ وقرائنِ الأقوالِ، لَدَى مُتَلَقِّي الخُطَابِ، ولا سيما أهلُ الفطنة والذكاءِ وأهلُ الخبرة في حِيلِ المعبّرِين عَمَّا في نفوسهم بأساليبِ وطرائقِ الكلامِ المختلفةِ، فهؤلاءِ يكفِيهم الرّمزُ وتُقْنِعُهُم الإِشَارَةُ عن صريحِ العبارة.

وقديماً قال العرب في أمثالهم: «تُقْرَعُ العصا لذي الحِلْمِ» أي: يُدْرِك ذو العقلِ الراجحِ والفطنة اللَّمّاحة المُرادُ من قرع العصا على الأرضِ، فيستخرج منها رُمُوزاً ودلالاتٍ يقصدها قارعُها، كما ورد في قصّة مَضْرِبِ هذا المثل.

وَرَمَزَ وفدُ الرسول ﷺ إلى بني قريظة في غزوة الخندق، بقولهم له: «عَضَلُ والقارة» أي: غَدَرَ بَنُو قريظة كما غدرت من قبلُ «عَضَلُ والقارة».

وحين دخل داهية العرب أميرُ جيش المسلمين عمرو بن العاص، على

الداهية العجمي «أرطبون» حاكم القدس، مُدَّعياً أنه رسول أمير جيش المسلمين إليه .

وَفَطِنَ «أرطبون» أَنَّ مِثْلَ هَذَا الرَّسُولِ لَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ هُوَ أَمِيرَ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ، فَأَمَرَ خَاصَّتَهُ بِأَنْ يَقْتُلُوهُ قَبْلَ أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الْمَدِينَةِ، وَوَصَلَ الْخَبْرَ إِلَى عَرَبِيٍّ فِي الْقُدْسِ يَعْرِفُ عَمْرُو بْنَ الْعَاصِ، فَقَالَ لَهُ بَعْدَ أَنْ خَرَجَ مِنْ قَصْرِ «أرطبون»: يَا عَمْرُو أَحْسَنْتَ الدُّخُولَ فَأَحْسِنِ الْخُرُوجَ .

فَطَنَ عَمْرُو بْنَ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ أَرْطَبُونَ شَكَّ فِي أَمْرِهِ فَأَمَرَ سِرّاً بِقَتْلِهِ، فَعَادَ إِلَى «أرطبون» وَزَعَمَ لَهُ أَنَّهُ وَاحِدٌ مِنْ عَشْرَةِ هُمْ أَهْلُ مَشُورَةِ أَمِيرِ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنَّ آتِيكَ بِهِمْ لِيَسْمَعُوا مِنْكَ الَّذِي سَمِعْتَهُ أَنَا مِنْكَ، فَتَكُونَ مُوَافِقْتَهُمْ أَوْثَقَ لِلْأَمْرِ الَّذِي تَفَاوَضْنَا فِيهِ، فَطَمَعَ «أرطبون» بِقَتْلِ الْعَشْرَةِ فَأَمَرَ سِرّاً بِعَدَمِ قَتْلِهِ، حَتَّى يَأْتِيَهُ بِبَقِيَّةِ أَهْلِ مَشُورَةِ الْأَمِيرِ كُلِّهِمْ فَيَقْتُلُهُمْ، وَنَجَا عَمْرُو بْنَ الْعَاصِ بِهَذِهِ الْحِيلَةِ الذَّكِيَّةِ .

● وَنَلَاظِحٌ أَنَّ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْجُمْلِ الْعَرَبِيَّةِ مُحَاذِفَ وَاجِبَةَ الْحَذْفِ أَوْ جَائِزَتَهُ، قَدْ لَوْحِظَ فِيهَا أَنَّ الْمَحْذُوفَ هُوَ مِنَ الْأَكْوَانِ الْعَامَّةِ الَّتِي تُفْهَمُ بِالْفِطْنَةِ دُونَ أَنْ تُذَكَّرَ، أَوْ مِنَ الضَّمَائِرِ الَّتِي يُوجَدُ فِي الْحَلْفُوظِ مِنَ الْكَلَامِ مَا يَدُلُّ عَلَيْهَا، أَوْ مِمَّا يَسْهُلُ إِدْرَاكُهُ وَلَوْ لَمْ يُوجَدْ فِي الْكَلَامِ لَفِظٌ خَاصٌّ يَدُلُّ عَلَيْهِ .

وقد اعتاد أهل اللسان العربي على حذفها دواماً، أو أحياناً، لأن اللسان العربي مَبْنِيٌّ فِي مُعْظَمِ تَعْبِيرَاتِهِ عَلَى الْإِيْجَازِ، وَحَذْفِ مَا يُعْلَمُ وَلَوْ لَمْ يُذَكَّرْ، وَهَذَا مِنْ مَزَايَا اللَّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ .

● وَحِينَمَا يَكُونُ الْمُتَكَلِّمُ الْعَرَبِيُّ الْبَلِيغُ أَمَامَ اِحْتِمَالَيْنِ جَائِزَيْنِ فِي اللَّسَانِ الْعَرَبِيِّ كَالذُّكْرِ وَالْحَذْفِ، وَيَرَى أَنَّ كِلَا مِنْهُمَا يُحَقِّقُ تَوْصِيلَ مَا يُرِيدُهُ مِنَ الْمَعْنَى، إِلَّا أَنَّ أَحَدَهُمَا أَكْثَرُ تَأْثِيرًا فِي الْمَخَاطَبِ بِحَسَبِ حَالِهِ، أَوْ أَكْثَرُ جَمَالًا لَدَى ذَوَاقِي

الجمال في الكلام، أو يراه يُحَقِّقُ له غرضاً بلاغيّاً لا يحقِّقه له الاحتمال الآخر، فإنّ عليه أن يكون دقيق الملاحظة في خصائص الاحتمالات وفروق دالاتها، ويحدّد منها ما يدعوه إلى ما يختار من ذكر العنصر من عناصر الجملة التي يُنشئها أو حذفه.

فإذا ذكّر العنصرَ وكان بالإمكان إدراك المخاطب معناه لو لم يذكره، فينبغي أن يكون ذكره له مستنداً إلى داعٍ بلاغيٍّ رجحَ لَدَيْهِ ذكره.

وإذا حذفَ العنصرَ الذي يُمكن إدراك المخاطب معناه لو لم يذكره، فينبغي أن يكون حذفه له مستنداً إلى داعٍ بلاغيٍّ رجحَ لَدَيْهِ حذفه، وأدنى ذلك الرغبة في الإيجاز والاقتصاد في القول، والبُعد عن الإسراف فيه، وإيثار جِسمٍ للعبارة مُكْتَنَزٍ مُضْمَرٍ، على جِسمٍ مُتْرَهِّلٍ مُتَّفَخٍ لا رصانة فيه ولا قُوّة ولا جزالة.

فلكلّ من الذكر والحذف مقامٌ يناسبه، وحالٌ تقتضيه.

● وقد نبّه البلاغيون على طائفةٍ من دواعي الذكر، وطائفةٍ أخرى من دواعي الحذف، وأشاروا إلى أنّ ما ذكروه من ذلك لا يُمَثَّلُ إحصاءً شاملاً لكلّ الدواعي، وإنّما يُقدِّمُ صوراً ونماذج يمكن أن يهتدي بهديها الباحثون، ويحذوا حذوها، وأن تكون لديهم منطلقاتٍ للبحث الذكيّ الفطن اللّماح في هذا المجال.

* * *

(٢)

دواعي ذكر العنصر

مع إمكان إدراك معناه لدى حذفه

ذكر البلاغيون طائفةً من دواعي ذكر العنصر الذي يُراد الإعلام به من عناصر بناء الجملة، مع إمكان فهم معناه العامّ لدى حذفه، وهذه الدواعي تُحقّق أغراضاً بلاغيّةً يَهْدَفُ إليها المتكلّم البليغ.

وقد ظهرت لي بعض دواعي أخرى لم يُصَرِّحوا بها، وهي تحقّق أغراضاً بلاغيّة، وهذه الدواعي التي ظهرت لي تُقاس على ما ذكروا وهي ممّا يقع في نفوس المتكلمين البلغاء، وله تأثيرٌ ما في المخاطبين.

وأُكِّدُ أنّه يَعْسُرُ إحصاءُ كلّ الدواعي التي تقوم في نفوس المتكلمين البلغاء لذكر ما يمكن حذفه، لذلك رأيتُ أن أعرض للدارسين ما ذكره البلاغيون، وأضيفَ إليه ما ظهر لي، وهي بمجموعها الدواعي الستّة عشر التالية:

الداعي الأول: الاحتياط بذكر العنصر، لضعف التعويل على القرينة فيما لو حُذِفَ، إذ تكون القرينة غير كافية للدلالة عليه، وينخشى المتكلم أن يَلْتَبَسَ المرادُ على المتلقّي إذا حذفه تعويلاً على القرينة التي يمكن أن تدلَّ عليه.

الداعي الثاني: الإشعار بغباوة المخاطب، وأنّه ليس من الذين يُدْرِكُونَ المراد بالقرائن، بل لا بدّ من إعلامه باللفظ الخاصّ الصريح الدالّ على العنصر.

الداعي الثالث: إرادة زيادة الإيضاح والتقرير، وذلك حين يكون الموضوع يقتضي ذلك، كأمر العقائد، وأحكام الحلال والحرام، والصّيغ القانونية التي قد يتلاعب بمعانيها أصحاب الأهواء، ولا تكفي القرائن لإلزامهم بالمعاني المرادة.

ويَحْسُنُ هذا الإيضاح والتقرير في مجال تعليم مسائل العلوم، وفي الوعظ والإرشاد، وفي مقام إثارة الحماسة وسائر العواطف، وفي البيانات والبلاغات العامّة للجماهير.

الداعي الرابع: إرادة التعظيم والتفخيم، ويظهر هذا في نحو الأسماء والألقاب التي يُشعرُ ذكرُها بعظمة أصحابها وفخامتهم، وفيما يُثيرُ ذكرُها في النفوس المهابة أو الإجلال.

الداعي الخامس: إرادة الإهانة والتحقير، ويظهر هذا في نحو الأسماء

والألقاب، التي يُشعرُ ذكرها بمهانة أصحابها وحقارتهم، وفيما يُثيرُ ذكره في النفوس الاحتقار والاستهانة.

الداعي السادس: إرادة التهويل، ويظهر هذا فيما يُثيرُ ذكره في النفوس مشاعر الخوف والرهبة.

الداعي السابع: إرادة استثارة ما في نفوس المتلقين من كوامن المشاعر، كإثارة شوق المخاطب بذكر اسم محبوبه، وإثارة الشوق إلى الوطن، بذكر اسمه لدى المسافر البعيد عنه، المشوق إلى العودة إليه.

الداعي الثامن: إرادة التلذذ، ويظهر هذا الداعي في الألفاظ التي يُحبُّ المتكلم أن يُردِّدها على لسانه، لأنه يحبُّ مسمياتها، كاسم المعشوقة عند العاشق، واسم الذهب عند عشاقه.

ويقول الناس: من أحب شيئاً أكثر من ذكره.

الداعي التاسع: إرادة التبرُّك، أو العبادة، ويظهر هذا في الأدعية، والأوراد، والأذكار.

الداعي العاشر: إرادة ترسيخ ما يدُلُّ عليه اللفظ في نفوس المتلقين، كألفاظ الأذان التي تعاد وتكرَّر.

وكما يفعل مُرَدِّدو الشعارات، بغية ترسيخها في نفوس الجماهير، حتى تكون معانيها جزءاً من مفاهيمهم الثابتة، ففي خطبة واحدة يُرَدِّدُ زعيم اشتراكي مثلاً لفظ «الاشتراكية» مئة مرّة، ولا يكتفي بأن يدُلَّ عليها بالضمائر.

الداعي الحادي عشر: إرادة بسط الكلام في المقام الذي يحسُنُ فيه بسط الكلام، كمقام الافتخار، أو المدح، أو الذم والتشنيع والتوبيخ، ومقام التعليم، أو الترويح لفكرة ما، أو الترغيب فيها، أو الترهيب منها.

وَيُرَادُ بَسْطُ الْكَلَامِ لِإِطَالَةِ وَقْتِ الْمَحَادَثَةِ وَالْمُحَاوَرَةِ، بَغِيَّةَ التَّشْرِيفِ، أَوْ التَّبَرُّكِ، أَوْ الْاسْتِنْسَانِ، أَوْ الْاسْتِمْتَاعِ وَالتَّلَذُّذِ.

وَقَدْ يُرَادُ بَسْطُ الْكَلَامِ بَغِيَّةَ اسْتِدْرَاجِ الْمَخَاطَبِ لِلِإِفَاضَةِ عَمَّا فِي نَفْسِهِ، إِذْ يُفْصِحُ فِي حَالَةِ الْإِفَاضَةِ عَنْ أَشْيَاءٍ يَحْرِصُ فِي الْعَادَةِ عَلَى كِتْمَانِهَا وَعَدَمِ الْإِعْلَامِ بِهَا.

الداعي الثاني عشر: إرادة التسجيل على المخاطب حتى لا يتأتى له الإنكار.

الداعي الثالث عشر: إرادة تأكيد الردّ على المخاطب إذا كان يُنكرُ صحة ما يقال له، مثل قوله الله عزّ وجلّ في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول):

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾.

لقد كان يمكن فهم المراد دون ذكر [يُحييها] لكن اقتضى الردّ على سؤال منكر البعث بإحياء العظام وهي رميم، بأن يُقال له: يحييها الذي أنشأها أول مرّة.

الداعي الرابع عشر: كونُ المختار للذكر نوعاً من الكلام يُفيدُ معنى خاصاً مراداً لا يُستفاد هذا المعنى عند حذفه، ولو كان أصل المعنى قد يُفهم، ولكن بوجه عام، أو على وجه الإجمال، فيُقصدُ التعيين بالذكر.

ويظهر هذا في نحو دلالة الفعل المضارع على التجدد، ودلالة الاسم على مطلق الثبوت، والدلالات الخاصة لأسماء الموصول، وأسماء الإشارة، وغير ذلك.

الداعي الخامس عشر: إرادة تكوين جُمَلٍ مستقلة في الكلام، حتى يتهيأ إمكان سؤقي كلّ منها منفردة في المقام الملائم لها عند الحاجة.

ويكثرُ هذا في الجُمَلِ القرآنيّة التي يصلح الاستشهاد بها في المواضع الملائمة

لها، فإذا حُذِفَ منها ما يمكن فهمه مع حذفه ضمن جُمَلِ الآية وهي مجتمعة، لم يتيسَّر الاستشهاد بالواحدة منها بصورة منفردة عند المناسبة الداعية إلى الاستشهاد بها، مثل قول الله عزَّ وجل في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾﴾

فلو حذف لفظ الجلالة الذي بعد [وكان] لما نقص من المعنى شيء، ولكن لا يَحْسُنُ عندئذٍ اقتطاعُ جملة: «وكان بكلِّ شيءٍ محيطاً» والاستشهاد بها منفصلةً عن الجملة السابقة لها.

الداعي السادس عشر: إرادة إظهار التعجب والاستغراب، كأن يقول قائل بشأن شخص حداء اسمه «مسرور» لم يُعرَف عنه أنه خطب بين الناس خُطبةً ما: لقد خطب اليوم مسرورُ الحداء خُطبةً عصماءَ أسرَّت الجماهير، وأثَّرت في عواطفهم تأثيراً عظيماً، فيقول المخاطبُ مُتَعَجِّباً: مسرورُ الحداء هو الذي خطب هذه الخطبة العصماء؟!

وقد كان يكفي أن يقول: أحقاً خطب هذه الخطبة، ولكنه أعاد ذكر اسمه متعجباً، ومستعيداً تذكَّر صفاته التي لم يَكُنْ يَتَخَيَّلُ معها أن يكونَ خطيباً، فضلاً عن أن يخطب خُطبةً عصماءً.

* * *

أمثلة وتطبيقات

المثال الأول:

قول الله عزَّ وجل في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) بشأن المتقين:

﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٦٢﴾﴾

في تكرير المسند إليه وهو اسم الإشارة في الجملة الثانية مع فهم المراد دون

ذكره غرض بلاغيّ، وهو زيادة الكشف والإيضاح بالتنبيه على أنّهم كما تحقّق منهم أنّهم متمكّنون من تحقيق الهدى الذي جاءهم من عند ربّهم بأعمالهم الصالحة، فقد ثبت لهم أنّهم هم المفلحون عند ربهم يوم الدين، أي: هم الظافرون بما يريدون والفائزون بجنّات النعيم.

وفي هذه الإعادة أيضاً فائدة جعل كلّ جملة من الجملتين وحدةً مستقلة، ولو انفردت كلّ جملة منها لكانت كافية للدلالة على الأخرى منهما عن طريق اللزوم الفكري، لأنّ من كان على هدى من ربّه لا بُدّ أن يكون مُفْلِحاً، ومن كان من المفلحين فلا بدّ أنه قد كان على هدى من ربّه، ففي استقلالية كلّ من هاتين الجملتين تأكيد لمعنى كلّ منهما عن طريق دلالة ما في الأخرى من اللزوم الفكري.

ونظيره قول الله عزّ وجلّ بشأن الذين كفروا في سورة (الرعد/ ١٣ مصحف/

٩٦ نزول):

﴿ أَوْلِيكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأَوْلِيكَ الْآغْلَالُ فِي آعْنَاقِهِمْ وَأَوْلِيكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ

فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥٠﴾

ويكثر في القرآن ذكر المسند إليه أو المسند مع إمكان حذفه أو حذفهما لتكون الجملة مستقلة، قابلة لأن يُستشهد بها منفردة في المناسبات الداعيات إلى الاستشهاد بها، ومن ذلك قول الله عزّ وجلّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/

٨٩ نزول):

﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَد جَمَعُوا لَكُمْ فَآخِشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ

وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَأَنقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ فَفَضِّلَهُمُ اللَّهُ وَقَضَىٰ لَهُمْ سُوَّةً وَأَتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو

فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾

لقد كان من الممكن الاستغناء بالضمير في «من الله - رضوان الله - والله ذو» لكن إعادة ذكر اسم الجلالة في هذه الجملة يجعل كلاً منها جملةً مستقلة، مع

ما في ذكر لفظ الجلالة من تربية الإجلال والإعظام في القلوب، وإمكان الاستشهاد ببعضها منفردة عن سائرهما.

ومن ذكر المسند والمسند إليه مع إمكان حذفهما قول الله عز وجل في سورة (لقمان / ٣١ مصحف / ٥٧ نزول):

﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ [الآية ٣٤].

فقد كان من الممكن أن يقال: ولا بأي أرض تموت.

المثال الثاني:

ما جاء في سورة (طه / ٢٠ مصحف / ٤٥ نزول) بشأن تكليم الله موسى عليه

السلام:

﴿ وَمَا تِلْكَ بِسَمِينِكَ يَمْوَسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَمْوَسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾.

في هذا النص نلاحظ ذكر كلمات كان من الممكن حذفها دون أن يؤثر على المعنى شيئاً.

لقد كان يكفي أن يقول موسى عليه السلام في جواب سؤال ربه: «عَصَايَ» دون أن يقول: ﴿ هِيَ عَصَايَ ﴾.

وكان من الممكن أن يقتصر على بيان أنها عصاه، دون أن يشرح أعماله فيها بقوله: ﴿ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴾.

وكان من الممكن أن يقول الله عز وجل له: ﴿ أَلْقِهَا ﴾ دون أن يناديه ﴿ يَا مُوسَىٰ ﴾.

لكن دعا إلى بسط الكلام وإطالة الحديث رغبة الإيناس من الرب عز وجل، ورغبة التشرف والاستئناس والتلذذ بطول المحادثة من موسى عليه السلام.

* * *

المثال الثالث:

في قصة إبراهيم عليه السلام وتحطيمه أصنام القوم التي كانت على أشكال الناس، إلا كبيراً لهم، وذلك حين خرج القوم من بلدتهم لعيد لهم ولم يخرج معهم إبراهيم عليه السلام، جاء فيها بيان سؤال قومه له عمّن حطّم أصنامهم، فأجابهم عليه السلام جواباً فيه تعريض بغباوتهم، إذ ذكّر في كلامه ما يُمكن فهمه لو حذفه، فقال الله عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُمْ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتَى يَدُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ: إِبْرَاهِيمُ ﴿٥٢﴾ قَالُوا فَاتُوا بِهِ عَلَى عَيْنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٥٣﴾ قَالُوا أَأنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٥٤﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْتَلَوْهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

لقد كان يكفي أن يقول لهم: «بل فعله كبيرهم» أو يقول لهم: «بل فعله هذا» لكنه شعر أنهم أغبياء إذ يُدافعون عن آلهتهم من الأصنام التي حطّمَت ولم تستطع أن تُدافع عن أنفسها، ولم يُقنعهم تحطيمها بأنها لو كانت تملك لأنفسها أو لغيرها نفعاً أو ضرراً لحمت أنفسها من التحطيم، ولمنع مُحطّمها من أن يجعلها جُذاذاً.

ومن كان بمثل هذا الغباء فإنه يُناسبه أن لا يُحذف له من الكلام ما يُمكن أن يفهمه أقلُّ الناس ذكاءً وإدراكاً للدلالات القول.

* * *

المثال الرابع:

جاء في المأثور من الأقوال، ويُرَوَى عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً».

نلاحظ في هذا القول تكرير عبارة «اعمل» في الجملة الثانية، مع إمكان فهمها لو حُذفت، والغرض إرادة زيادة التقرير والإيضاح، مع جعل كلّ جملة وحدةً مستقلةً.

* * *

المثال الخامس:

قول الشاعر الجاهلي «عمرو بن كلثوم» في معلقته يفاخر بقومه فيكرر المسند إليه فيقول «وأنا» مع كل منقبة يصف بها قومه:

وَقَدْ عَلِمَ الْقَبَائِلُ مِنْ مَعَدِّ إِذَا قُبِّبَ بِأَبْطَحِهَا بُيُنَا
بِأَنَا الْمُطْعَمُونَ إِذَا قَدَرْنَا وَأَنَا الْمُهْلِكُونَ إِذَا ابْتُلِينَا
وَأَنَا الْمَانِعُونَ إِذَا أَرَدْنَا وَأَنَا النَّازِلُونَ بِحَيْثُ شِينَا
وَأَنَا التَّارِكُونَ إِذَا سَخِطْنَا وَأَنَا الْعَازِمُونَ إِذَا رَضِينَا
وَنَشْرَبُ إِنْ وَرَدْنَا الْمَاءَ صَفْوًا وَأَنَا الْعَازِمُونَ إِذَا عُصِينَا
وَيَشْرَبُ غَيْرُنَا كَدِرًا وَطِينَا

قُبِّبَ: جمع قُبَّة، وهي بناء معروف، وقد تكون من بيوت العرب الرُّحْل من الأقمشة والجلود.

بِأَبْطَحِهَا: الأَبْطَحُ: الأرض الخلاء الواسعة.

إِذَا ابْتُلِينَا: أي: إذا امتحنتنا بالقتال.

ويصف قومه بأنهم أعزاء يَمْنَعُونَ ما يريدون مَنَعَهُ فلا أحد من الناس يُكْرِهُهُمْ على بذل شيء لا يريدون بذله، ولا أحد من العرب يستطيع منعهم من أن ينزلوا بأي أرض يريدون النزول فيها.

ويصف قومه بأنهم إذا سخطوا على إنسان مهما علت مكانته فإنهم يرفضون عطايه ويتركونها، وإذا رَضُوا عنه فإنهم يقبلون هداياه.

ويصف قومه بأنهم يَعِصُمُونَ بالحماية والحفظ من يطيعهم، وأنهم أهل عَزْمٍ وجِدِّ وقُوَّةٍ في تأديب من يعصيهم.

ألا تلاحظ أنه كرر عبارة «وأنا» مع كل منقبة ذكرها لقومه مفاخرًا، وغرضه

إلصاق المنقبة في قومه بذكرهم عند ذكرها، وإبرازها في جملة مستقلة، وكان بإمكانه أن يعطف المناقب دون تكرير المسند إليه.

ومن هذا القبيل قول الرسول ﷺ مفاخرأ في إحدى الغزوات: أنا النبيُّ لا كذب، أنا ابنُ عبدِ المطلب.

* * *

المثال السادس:

ما جاء في شعر الشاعرة الخنساء، تُماضرت عمرو بن الحارث بن الشريد، من بني سليم، مُضَرِّيَّة من أهل نجد، أشعر شواعر العرب، أدركت الجاهلية والإسلام، ووفدت مسلمة على رسول الله ﷺ مع قومها بني سليم، ومن شعرها قولها في رثاء أخيها صخر:

أَعَيْنِي جُودًا وَلَا تَجْمُدَا أَلَا تَبْكِيَانِ لِصَخْرِ النَّدَى
أَلَا تَبْكِيَانِ الْجَوَادَ الْجَمِيلَ أَلَا تَبْكِيَانِ الْفَتَى السَّيِّدَا

قالت هذا وهي في موقف الحزن، فَحَسُنَ في حِسِّهَا الملتهب بالمشاعر، وهي من أشعر الشواعر، أن تكرر قولها تخاطب عينيها: «ألا تبكيان» مع أن العبارة الأولى كانت كافيةً للدلالة على المقصود، حتى العبارة الأولى كان بالإمكان فهم أصل المراد منها من قولها في الشطر الأول: «أعيني جودا ولا تجمدا» لكن في عبارة الاستفهام من أغراض بلاغية ما ليس في عبارتي الأمر والنهي، وفي فعل «تبكيان» من دلالة على تجديد البكاء المتتابع ما ليس في «جودا ولا تجمدا» فقصدت إلى تعيين نوع البكاء، وأنه ينبغي أن يكون بكاءً متجدداً، فاستعملت الفعل المضارع الدالّ على هذا المعنى.

وبكت أباها صخرأ في شعرها، فجعلتها شاعريتها تكرر في مقام رثائها لأخيها وفجيعتها به عبارة «وابكي أخاك» تخاطب نفسها على طريقة التجريد:

وَابِكِي أَخَاكَ وَلَا تَنْسِي شَمَائِلَهُ وَابِكِي أَخَاكَ شُجَاعاً غَيْرَ خَوَّارِ
وَابِكِي أَخَاكَ لِإِيْتَامٍ وَأَرْمَلَةٍ وَابِكِي أَخَاكَ لِحَقِّ الضَّيْفِ وَالْجَارِ

لقد كان من الممكن أن تُعَدَّ ما تُرِيدُ من شمائل أخيها، دون أن تكرر عبارة «وابكي أخاك» لكنها في مقام التوجع والتفجع والرثاء والنحيب، وفي هذا المقام الملتهب بمشاعر الحزن الحارّ، يحلو في أنفُسِ ذواتِ الحزن التكرار، كما يشفي تكرار تدفُّق الدموع.

المثال السابع:

هجا جرير قبيلة «سدوس» وذمّها، فكرر في هجائه ذكر اسمها مع كلّ صفة ذمّ ذكرها لها، إمعاناً منه بالصاق المثالب التي ذكرها بها إصاقاً يُصاحِبُهُ التشهير، والإذاعة بالتكرير، مع أنّه كان يكفي العطفُ في ذكر الصفات، دون إعادة ذكر اسم القبيلة التي يذمُّها، فقال في هجائه:

أَخِلَّائِي الْكِرَامُ سِوَى سَدُوسٍ وَمَالِي فِي سَدُوسٍ مِنْ خَلِيلِ
إِذَا أَنْزَلْتَ رَحْلَكَ فِي سَدُوسٍ فَقَدْ أَنْزَلْتَ مَنْزِلَةَ الدَّلِيلِ
وَقَدْ عَلِمْتَ سَدُوسٌ أَنَّ فِيهَا مَنَارَ اللُّؤْمِ وَاضِحَةَ السَّيْلِ
فَمَا أَعْطَتْ سَدُوسٌ مِنْ كَثِيرٍ وَلَا حَامَتْ سَدُوسٌ عَنْ قَلِيلِ

ففي البيت الأول يذكر جرير أنّه اتخذ أخلاءه الكرام من غير سدوس، وأنّه لم يتخذ منها خليلاً واحداً، مشيراً إلى انعدام الكرام فيها.

وفي البيت الثاني يخاطب نفسه وكلّ مسافر بأنّه إذا أنزل رحله في أرض سدوس لم يجد لديهم مقاماً كريماً، بل يجد نفسه قد أنزل منزلة الدليل، لأنّ سدوساً أذلاء لا عزّة لهم ولا منعة عندهم.

وفي البيت الثالث يذكر أنّ سدوساً تعلّم من أنفسها أنّها منار اللؤم بين القبائل.

وفي البيت الرابع يصفُ سدوساً بأنها غاية في البخل، وغاية في الضعف والجبن، فهي لا تعطي شيئاً حينما يكون لديها الكثير لبُخلِها، وهي لا تحمي الشيء القليل الذي لديها، لضعفها وجُبْنِها إذ لم يكن عندها إلا القليل، وهي مضطرة إليه.

* * *

المثال الثامن:

يحرّك الله عزّ وجلّ في أهل القرى «وهي كلُّ مجمعٍ سكني ولو كان من المدن الكبرى» الذين كذبوا رُسل ربّهم المخاوف من مفاجأة نعمة الله وعذابه ليلاً أو نهاراً، فيقدّم لهم التنبهات المتتابعات، مع تكرير ما يمكن أن يفهم لو حذف، لأنّ تكرار الذكر يساعد على عدم شرود الذهن عن إدراك ما جاء في عبارات التهيب، بخلاف الحذف فإنّه يساعد على شرود المقصودين بالخطاب، نظراً إلى أنّهم كافرون قد انصرفت أذهانهم عن سماع عبارات الإنذار والتهيب، بسبب كفرهم، فهي تحتاج إلى دقاتٍ متواليات كدقات الناقوس، أو أصوات البوق المتواليات المنذرات بالخطر.

فقال الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَنَحْنَاهُمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ﴿١٩﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾

المقام مقام تهديدٍ ووعيدٍ واستثارةٍ لمخاوف أهل القرى، فاقترضى هذا المقام إعادة ألفاظٍ كان يمكن فهم معناها بدون إعادتها، لأنّ هذه الإعادة هي بمثابة الدقات المتواليات التي تثير الانتباه بسبب مخالفتها لما يقتضيه المألوف في الأسماع.

* * *

المثال التاسع:

رثت ابنة النعمان بن بشير الأنصاري الصحابي زوجها مالكا، فعبرت في رثائها عن فاجعتها بزوجها، فكررت عبارة من الممكن فهمها بداهة ولو لم تكررهما، لكن التفجع في الحزن الحار يحسن معه التكرار، فقالت:

وَحَدَّثَنِي أَصْحَابُهُ أَنَّ مَالِكاً أَقَامَ وَنَادَى صَحْبُهُ بِرِحِيلِ
وَحَدَّثَنِي أَصْحَابُهُ أَنَّ مَالِكاً ضَرُوبٌ بِنَضْلِ السَّيْفِ غَيْرُ نَكُولِ
وَحَدَّثَنِي أَصْحَابُهُ أَنَّ مَالِكاً صَرُومٌ كَمَا ضِيَ الشَّفْرَتَيْنِ صَقِيلِ
ضَرُوبٌ: أي: كثير الضرب.

غَيْرُ نَكُولٍ: أي: غير ضعيف ولا جبان.

صَرُومٌ: حادٌ شديد المضاء قاطع.

كَمَا ضِيَ الشَّفْرَتَيْنِ: أي: كسيف ذي حدّين وهو فيهما ماضٍ حادٌ قاطع.

صَقِيلِ: أي: مجلّو يتلامع من شدة جلائه.

المثال العاشر:

مدحت الشاعرة «ليلى الأخيلية» من بني عامر بن صعصعة، الحجّاج، فقد وفدت عليه مرّات، فكان يُكرّمها ويُقرّبها، فكررت بعض العبارات في مدحها له بفتية جمالية بارعة، لتبني على ما تكررّه تفصيلات يحسن لدى ذكرها تكرير العبارة التي تريد أن تبني عليها تفصيلاتها، فقالت:

إِذَا هَبَطَ الْحَجَّاجُ أَرْضاً مَرِيضَةً تَتَّبِعَ أَقْصَى دَائِهَا فَشَفَاهَا
شَفَاهَا مِنَ الدَّاءِ العُضَالِ الَّذِي بِهَا غُلَامٌ إِذَا هَزَّ الفَنَاءَ سَقَاهَا
سَقَاهَا فَرَوَاهَا بِشَرْبِ سِجَالِهِ دِمَاءُ رِجَالٍ حَيْثُ مَالٌ حَشَاهَا
إِذَا سَمِعَ الْحَجَّاجُ رَزًّا كَتِييَةً أَعَدَّ لَهَا قَبْلَ التُّزُولِ قِرَاهَا
أَعَدَّ لَهَا مَسْمُومَةً فَارِسِيَّةً بِأَيْدِي رِجَالٍ يَحْلُبُونَ صَرَاهَا

أَرْضاً مَرِيضَةً: تريد أرضاً فيها خارجون على مُلْك بني أمية، فبخروجهم
صارت أرضاً مَرِيضَةً «على سبيل الاستعارة».

الدَّاءُ العُضَالُ: هو الداء الشديد الذي لا طِبَّ له.

سِجَالُهُ: السجال جمع «السَّجَل» وهي الدلو العظيمة.

حشاها: ما في بطونها من أحشاء.

رَزَّ كَتِيبة: أي: صوت كتيبة مقاتلة.

صَرَها: أي: ما جمعت في ضرعها.

يلاحظ أن معظم عباراتها اعتمدت على الاستعارة، فقد استعارت الشفاء
لقتال الخارجين على سُلْطة بني أمية واستئصالهم، واستعارت «السقيا» لاصطبغ
الرماح بدماء الخارجين، إذ شَبَّهتْها بالظامىء، لكنها ظامنة لدماء أهل الحِرابة،
وشَبَّهتْ عمل جنود الحِجَّاج بمن يحلب الضروع المصْرَاة حين يمسحون الدماء عن
نصالها.

المثال الحادي عشر:

وقف الجاهليّ امرؤ القيس على أطلال صاحبه «سَلْمَى» وحيّاهُ تحيةَ
الجاهليّة، ثم توارَدَتْ عليه الذكريات، وأيَّاسُهُ ما رأى من واقع عفاء الديار،
وخلوّها من ساكنيها فقال مكرراً عبارة: «وتحسبُ سَلْمَى لا تزال» استثناساً بإعادة
الاسم، عند فقد المسمّى:

وتَحْسَبُ: سَلْمَى لا تَزَالُ تَرَى طَلًا من الوَحْشِ أو بيضاً بِمِثْيَاءِ مِخْلَالِ
وتَحْسَبُ: سَلْمَى لا تَزَالُ كَعَهْدِنَا بوادي الخَزَامَى أو على رَأْسِ أو عَالِ

تَرَى طَلًا: الطَّلَا: الصغير من كلّ شيء، وولد الظبيّة، والصغير من الوحش
منذ ولادته حتى يشتدّ.

أو بِيضاً: البيض جَمْعُ أبيضَ، ولعلهُ يقصِدُ ولداناً بيضاً، لأنَّ الذكريات عن العهود الغواير يبرزُ منها ما فيها من صُورٍ جماليّة، وأجملُ ما يثبتُ في الذكريات الصغارُ من النَّعمِ والوحشِ، والولدان البيض في ملاعبهم.

بَمَيْثَاءَ: الميثاء الرَّمْلَةُ السهلة، والرابية الطيّبة، والتَّلْعَةُ العظيمة.

مِخْلَالٌ: يقال لغةً: مكانٌ مِخْلَالٌ إذا كان كثير الرُّوَادِ، ولا يكون كذلك إلاّ لما فيه من صفاتٍ تُرغِبُ فيه.

بِوَادِي الخُزَامِيّ: أي بالوادي الذي يكثر فيه نبات «الخُزَامِيّ» في ديارِ سَلْمَى التي صارت أطلالاً خالية من ساكنيها الغابرين.

أو على رأسٍ أو عَالٍ: أي: أو على رأسِ صُخُورٍ مُشْرِفَةٍ فوق القِمَمِ، شُبّهت هذه الصُّخور بالأوعال جمع «وعل» وهو تيسُ الجبل، لأنَّ الأوعال تَصْعَدُ رؤوس التلال والجبال، وتُشْرِفُ برؤوسها، وتوجد في المرتفعات صخور تُشْبِهُهَا، يَصْعَدُ إليها المتنزّهون، ويجلسون عليها، مستمتعين بالارتفاع والمشهد والحديث، وكان لامرئ القيس مجالس هنا لك مع صاحبتة سلمى.

هذه طائفة من الأمثلة اكتشفنا فيها بعض أغراض ذكر العنصر الذي يمكن فهمه بوجه عامّ فيما لو حُذِفَ من الكلام، لكنَّ الداعي البلاغيّ رجّح في ذوق الأديب البليغ ذكره على حذفه، لإفادة المعنى البلاغيّ الذي قصده.

والدواعي التي لم أورد أمثلة لها من أقوال البلغاء والفصحاء، ليس من الصَّعْبِ وضْعُ أمثلة لها، أو اكتشاف أمثلة لها لدى الاطلاع على النصوص البليغة من النثر والشعر.

فعلى مُحلّل النصوص الأدبيّة البليغة أن يكون على بصيرة بمختلف الأغراض البلاغيّة، حتى يكون شرحه الأدبيّ البلاغيّ للنصوص كاشفاً بِدِقَّةٍ أغراضَ البلغاء.

* * *

دواعي الحذف في الكلام

مقدمة:

قد يرى المتكلم البليغ الذواق للأدب الرفيع أن يحذف من كلامه الذي يُريدُ توصيلَ معناه لمن يتلقَى كلامه، ما يمكنُ أن يفهمه المتلقّي بقرائن الحال، أو قرائن المقال، أو باللوازم الفكرية الجلية، أو باللوازم الفكرية الخفية وبالإشارات التي تُدرِكُ بالذكاء اللَّمَّاح، ومن المعلوم أنَّ الأذكياء يكفّهم الإلماح، لأنهم يدركون المقاصد باللمح.

وقد اهتمَّ علماء البلاغة، والباحثون في إعجاز القرآن بدراسة ما في كتاب الله من محذوفات، وبدراسة أقوال كبار البلغاء والفصحاء، وما فيها من عناصر محذوفة مع إرادة توصيل معانيها للمخاطبين بها، فاكتشفوا أنَّ الحذف من صريح البيان، والاكتفاء بدلائل قرائن الأحوال أو قرائن الأقوال، أو دلائل اللوازم الفكرية، وما في الأقوال المذكورة من إشارات، قد يكون أبلغ وأبدع وأكثر جمالاً، إذا كان المتلقّي ممن تقتضي حاله أن يُخاطبَ بمثل ذلك، اعتماداً على ذكائه وفطنته، أو كان في المتلقين من هم كذلك، وهؤلاء يكشفون لسائر المخاطبين ما فهموه من الكلام الموجه للناس بوجه عام، فيُعني إفهام أهل البحث والعلم والفطنة بكلام يُلائم مقتضى حالهم، إذ هم مُكَلَّفون إفهام الآخرين وتعليمهم، ولا حاجة في كلِّ الكلام أن يلائم أحوال متوسطي الذكاء فمن دونهم، إذا كان الكلام موجّهاً للناس بوجه عام.

ولذلك نجدُ في كتاب الله الموجه للناس أجمعين ما يمكنُ أن يفهمه بسهولة كلُّ المخاطبين، ونجد فيه ما يحتاج فهمه إلى ذكاء متوسطٍ أو فوق المتوسط، ونجد فيه ما يحتاج فهمه إلى ذكاء فائقٍ وفطنة رفيعة عالية، ليشرح هؤلاء ما فهموه من كتاب الله، ويقدموه لسائر الناس بما يفهمون من بيان.

وإذ أحسن أستاذ علوم البلاغة «عبد القاهر الجرحاني» أن حذف ما يُمكن أن يُدرَكُه أهل الذكاء والفظنة بالقرائن أو الإشارات، ممّا يرفع مستوى الكلام إلى مراتب عالية في البلاغة والإبداع والجمال البياني، قال كما جاء في كتابه «دلائل الإعجاز» بشأن الحذف:

«هذا بابٌ دقيقُ الْمَسَلِكِ، لطيفُ الْمَأْخِذِ، عجيبُ الْأَمْرِ، شبيهٌ بِالسَّحْرِ، فإنَّكَ ترى به تركَ الذِّكْرِ أَفْصَحَ من الذِّكْرِ، وَالصَّمْتَ عن الإِفاضة أزيد للإِفاضة، وَتَجِدُكَ أَنْطَقَ ما تَكُونُ إِذَا لَمْ تَنْطِقْ، وَأَتَمَّ ما تَكُونُ بَيَاناً إِذَا لَمْ تُبَيِّنْ، وَهذه جُمْلَةٌ قَدْ تُنَكِّرُهَا حَتَّى تَخْبِرُ، وَتَدْفَعُهَا حَتَّى تَنْظُرَ».

وممّا سبق ندرك أنّ من شرط حَذْفِ ما يُرَادُ الدلالة على معناه، أن يمكن إدراكه بقرائن الحال أو قرائن المقال، أو اللوازم الفكرية، أو إشارات المذكور من القول، وإلا كان تَعَمِيمَةً لا تليق بذي بيان بليغ.

ومن علامات الحذف البليغ الذي يرفع قيمة الكلام، أنّه إذا أُظْهِرَ المحذوف زال ما في الكلام من بهجة وطلاوة وجمالٍ فني وإبداع.

* * *

أقسام الحذف:

لدى استقرار صور الحذف في الكلام العربي البليغ يظهر لنا أنّه يدور حول حذف جُزءٍ من الكلمة أو ما يُنَزَّلُ مِنْزَلَةً جزئها، كأداة النداء وياء المتكلم. وحذف جُزءٍ من الجملة كحذف المسند أو حذف المسند إليه أو حذفهما، أو حذف شيءٍ من متعلقات الفعل أو ما يَعْمَلُ عمله. وحذف جملة كاملة. وحذف أكثر من جملة.

فالحذف إذن يقع في أربعة أقسام:

القسم الأول: حذف جُزءٍ من الكلمة أو ما يُنَزَّلُ مِنْزَلَةً جُزءٍ الكلمة، ولم

يوجه البلاغيون عناية لهذا القسم، لكن تنبّه إلى بَعْضِهِ «الأخفش» من علماء العربية، وحاول تعليله وفق مناهج النحاة والصرفيين، لا وفق مفاهيم البلاغيين والأدباء، وذلك في قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الفجر/ ٨٩ مصحف/ ١٠ نزول):

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسَّرَ﴾ .

يحذف «الياء» من «يسري» مراعاة لرؤوس الآيات، دون أن يُوجدَ مقتضٍ نحويٌّ لهذا الحذف.

وتنبّه إلى هذا القسم وأضافه اقتراحاً إلى أقسام الحذف البلاغي من المعاصرين «د. محمد أبو موسى» في كتابه «خصائص التراكيب» وقد أحسن صنْعاً.

وأقول في شرح هذا القسم: إنَّ العربيَّ قد اعتاد أن يختصر من الكلمة إيجازاً في نُطْقِهِ وتَخْفُفًا، وذلك في بعض كلامه ممَّا يكثر تداوله، فيحذف بعض حروف الكلمة، وأن يختصر أيضاً فيحذف بعض ما يُنَزَّلُ مَنزِلَةً جُزْءَ الكَلِمَةِ، كالجُزءِ الثاني من المركب تركيباً مَزْجِيًّا، وكالمضادِّ إليه، وكياء المتكلم، وأداة النداء.

ويظهر لنا هذا في بعض أنواعٍ من الكلام العربي، ومنه ما نجده في الأبواب التالية:

فمنه ما يُسمَّى الترخيم في باب النداء، فقد يحذف العربيُّ في النداء آخر حرف في الكلمة، أو الحرفين الأخيرين منها، وَقَدْ يَحْذِفُ الجُزءَ الثاني من جزئي الكلمة المركبة تركيباً مَزْجِيًّا، وقد يحذف في الترخيم المضادِّ إليه.

ومن دواعيه إلى ذلك الإيجاز، والتحبُّبُ لِلْمُنَادَى أحياناً، ومراعاة جمال فنيٍّ في نَسَقِ الكلام، وإيثار اللفظ الأَخْف على اللسان، إلى غير ذلك.

الأمثلة:

(١) قول امرئ القيس:

أَفَاطِمُ مَهْلًا بَعْضَ هَذَا التَّدَلُّلِ وَإِنْ كُنْتُ قَدْ أَزْمَعْتُ صَرْمِي فَأَجْمِلِي

أي: أفاطمة، وفي هذا الترخيم يظهر معنى التخبُّب مع إرادة سلامة الوزن الشعري.

(٢) قول العجاج يخاطب امرأته «جارية» وهو يُعِدُّ رحل ناقته للسفر، فقالت

له: «ما هذا الذي تَرُمُّ» أي: تُعِدُّه من أمرٍ رغبةً في الارتحال: فقال لها:

جَارِي لَا تَسْتَنْكِرِي عَذِيرِي سَعِيي وَإِشْفَاقِي عَلَيَّ بَعِيرِي

فحذف حرف النداء وَرَخِّمْ، وأصل الكلام: «يَا جَارِيَّةُ» ومعنى «عَذِيرِي»:

حالي، وما أحاول من سفر، فعذيرُ الرَّجُل ما يرومُ وما يُحَاوِلُ مما يُعَذِّرُ عليه إذا فعله.

(٣) قول الفرزدق، يخاطب مروان بن عبد الملك:

يَا مَرُوَ إِنَّ مَطِيَّي مَخْبُوسَةٌ تَرْجُو الْجِبَاءَ وَرَبُّهَا لَمْ يَيْأَسِ

أي: يا مروان، فحذف الحرفين الأخيرين من «مروان».

(٤) قول لبيد:

يَا أَسْمَ صَبْرًا عَلَيَّ مَا كَانَ مِنْ حَدَثٍ إِنَّ الْحَوَادِثَ مَلَقِيَّ وَمُنْتَظَرُ

أي: يا أسماء، فحذف بالترخيم الحرفين الأخيرين من «أسماء».

(٥) وقالوا مُرَّخِمِينَ فِي نَدَاءٍ نَحْوِ «حَضْرَ مَوْتٍ» وَفِي نَدَاءٍ نَحْوِ «مَعْدِ

يَكْرَبُ»: يَا حَضْرَ - يَا مَعْدِ.

(٦) وكثيراً ما يحذف العرب أداة النداء، وياء المتكلم التي يضاف إليها

المنادى، مثل: «يَا رَبِّ - يَا أَبَتِ - يَا ابْنَ أُمَّ - يَا عَبَادِ - يَا غلام».

● ومنه حذف ياء المتكلم .

الأمثلة:

(١) قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول):

﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلًا فَكَيْفَ كَانَ

نَكِيرٍ ﴿٤٥﴾؟.

أي: فَكَيْفَ كَانَ إِنْكَارِي، فحذف من «نكير»، ياء المتكلم، والداعي النَّسْقُ الجمالي في رؤوس الآيات في السورة.

ونظيره في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول):

﴿فَأَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥٠﴾﴾.

أي: فكيف كان عقابي .

وكذلك في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) في عدة مواضع منها:

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿١٦﴾﴾.

أي: فكيف كان عذابي ونُذْرِي، والداعي في كل ذلك مراعاة النسق الجمالي في رؤوس الآيات .

● ونظير حذف ياء المتكلم حذف حرف العلة في آخر الفعل دون مقتضٍ إعرابي، رعاية للنسق الجمالي، ومنه قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الفجر/ ٨٩ مصحف/ ١٠ نزول):

﴿وَالْفَجْرِ ﴿١﴾
وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٢﴾
وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾
وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾﴾.

الأصل: «وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِي» فحذفت الياء من «يسري» رعاية للنسق الجمالي في رؤوس الآيات ولو لم يُوجد جازم يقتضي حذفها إعرابياً.

* * *

القسم الثاني: حذف جزء من الجملة، ويكونُ بحذف المسند إليه، أو حذف المسند، أو حذفهما والاكتفاء بمتعلقاتِ الفعل أو ما في معنى الفعل كالمصدر واسم الفاعل، أو حذف غير ذلك من عناصر الجملة، استغناء بما يدلُّ على المحذوف.

وقد ذكر ابن هشام في كتابه «مغني اللبيب عن كتب الأعراب» زيادةً على ثلاثين نوعاً من أنواع الحذف في اللسان العربي، واستشهد على كثير منها بأمثلة قرآنية، ومعظم هذه الأنواع يرجع إلى حذف جزء من الجملة، وتجد تفصيلاً لأنواع الحذف مع أمثلتها في القاعدة (١٤) من كتابي «قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عزَّ وجلَّ»^(١).

ومن أنواع حذف جزء الجملة ما يلي:

- (١) حذف الاسم المضاف.
- (٢) حذف المضاف إليه.
- (٣) حذف اسمين مضافين.
- (٤) حذف الموصول الاسمي.
- (٥) حذف الموصوف.
- (٦) حذف الصفة.
- (٧) حذف المعطوف.
- (٨) حذف المعطوف عليه.
- (٩) حذف المبتدل منه.
- (١٠) حذف المبتدأ.
- (١١) حذف الخبر.

(١) انظر المقولة الثانية منها ففيها أمثلة لكلِّ أنواع الحذف.

- (١٢) حذف الفعل .
 (١٣) حذف المفعول .
 (١٤) حذف الحال .
 (١٥) حذف التمييز .
 (١٦) حذف «لا» النافية وغيرها .
 (١٧) حذف لام التوطئة .
 (١٨) حذف الجار، ويطرُدُ مع «أَنَّ» و «أَنَّ» .
 (١٩) حذف لام الطلب .

* * *

القسم الثالث: حذف جملة كاملة استغناءً بما يدلُّ عليها، أو اعتماداً على إمكان فهمها ولو لم تُذكر .

● فمنه حذف جملة القسم، مثل قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (النمل) / ٢٧ مصحف / ٤٨ نزول) في حكاية قصة سليمان:

﴿وَتَقَعَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْيَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَايِبِينَ ﴿٢٧﴾ لِأَعَذَّبْتَهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِيَنِي بِسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٨﴾﴾ .
 أي: أقسمُ باللهِ لأذْبَحَنَّهُ .

● ومنه حذف جواب القسم، مثل قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (النازعات) / ٧٩ مصحف / ٨١ نزول):

﴿وَالنَّارِ عَاتٍ غَرَقًا ﴿١﴾ وَالنَّشِطَاتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَالسَّيْحَاتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَالْمَدِينَتِ سَبْحًا ﴿٤﴾ فَالْمَدِينَتِ أَمْرًا ﴿٥﴾﴾ .

أي: لِنَبْعَنَّهُمْ وَلِنَحَاسِبَنَّهُمْ .

● ومنه حذف جملة جواب الشرط، مثل قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الأنعام) / ٦ مصحف / ٥٥ نزول):

﴿ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيهِمْ بِئَاتِيًّا... ﴾ [الآية ٣٥].

أي: فإن استطعت ذلك فافعل.

وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الرعد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول):

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمٌ بِهِ الْمَوْتُ... ﴾ [الآية

.[٣١]

أي: لكان هذا القرآن المنزَّل على محمد.

● ومنه حذف جملة الشرط، مثل قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (العنكبوت/

٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول):

﴿ يَنْعِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ أَرْضِي وَسِعَةً فَإِنِّي فَأَعْبُدُونَ ﴾.

أي: فإن لم يتأتَّ لكم إخلاصُ العبادة لي في هذه الأرضِ فإياي فاعبُدوني

في غيرها.

* * *

القسم الرابع: حذف أكثر من جملة استغناء بما يدلُّ على المحذوف، ومن

أمثلته الكثيرة قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ فَقُلْنَا أَضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُخَيِّ اللَّهُ الْمَوْتَى وَرُيُوكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾.

أي: فقلنا اضربوا القتيل ببعض البقرة المذبوحة، فضربوه ببعضها، فصار

القتيل حيًّا فأخبرَ عن قاتله...

* * *

دواعي الحذف البلاغية:

ذكر البلاغيون طائفة من دواعي الحذف مُوزَّعةً في بحوث حذف المسند

إليه، وحذف المسند، وحذف بعض متعلقات الفعل، وقد انتقيت منها وأضفت إليها، فاجتمعت لديّ الدواعي التالية، وأؤكد أنه يَعْسُرُ إحصاءُ كلِّ الدواعي التي تقوم في نفوس البلغاء للحذف، وما ذكرته منها يرشد إلى ما فاتني أن أذكره.

الداعي الأول: الاحتراز عن العَبَثِ بناءً على الظاهر، إذا كان ما يُحذفُ يُمكنُ أن يُذكرَ ويفهمه المتلقي، دون أن يُذكرَ في اللفظ، لدلالة قرينة الحال، أو قرينة المقال، أو اللّوازم الفكرية المنطقيّة، والمخاطب من الذين تكفيهم دلالات القرائن واللّوازم الفكرية.

الداعي الثاني: تَخْيِيلُ العُدُولِ إلى أقوى الدليلين من العقل أو اللفظ، باعتبار أن التوصلَ إلى فكرة ما عن طريق الاستدلال العقلي أقوى لدى الإنسان من أن تُبيِّنَ له عن طريق دلالة اللفظ، يُضافُ إلى ذلك أن فَهْمَ الإنسانِ للأمرِ باستنباطه الفكريّ أنسُ له وأسرّ، وأكثرُ إشعاراً له بذاتيته المستقلّة، من أن يَشْعُرَ بأنه عالّةٌ في الفهم على من يُعرِّفُه به بصريح اللفظ. لما يتضمَّنُ البيان بصريح اللفظ من إلماح ضمنيّ إلى أن المخاطبَ ليسَ من أهل فهم المعاني بقرائن الأحوال، أو قرائن الأقوال، أو لوازم الأفكار، ففي الحذف إثارةٌ للفكر وترضية لدوافع النفس التي يُسعدُها الاستقلال والاعتماد على الذات.

الداعي الثالث: اختبارُ تَبَنُّهِ المتلقي أو مقدارِ تَبَنُّهِه، عند إمكان الاستغناء عن دلالة صريح اللفظ على المراد.

الداعي الرابع: الإشعار بتمجيد المسمّى عن طريق الإيهام بصون اسمه عن أن يُبتَدَلَ بالذكر لجلالة قدره، على معنى قول الشاعر يخاطبُ ممدوحه:

لَسْنَا نُسَمِّيكَ إِجْلَالاً وَتَكْرِمَةً فَوَصَّفُكَ الْمُجْتَلِي عَن ذَاكَ يُغْنِينَا

الداعي الخامس: الإشعار باحتقار المسمّى وازدراؤه وتنزیه اللسان عن ذكر اسمه، عن طريق الإيهام بأنه يُبَغِي صَوْنُ اللسانِ عنه، كما يُصانُ عن ذكرِ ألفاظِ الفحش، وأسماء العورات.

الداعي السادس: صَوْنُ اللِّسَانِ حَقِيقَةً عَنْ ذِكْرِ المَحذُوفِ والاكْتِفَاءِ بِدَلَالَةِ القرائن، لِأَنَّهُ مِمَّا يَنْبَغِي سَتْرُ مَا يَدُلُّ اللَّفْظُ الصَّرِيحُ عَلَيْهِ، وَيَسْتَهْجِنُ ذَوَاقُوا الأَدَبِ الرَفِيعِ ذَكَرَهُ.

الداعي السابع: التَّمَكُّنُ مِنْ إنْكَارِ المَحذُوفِ، عِنْدَ الحَاجَةِ إِلَى هَذَا الإنْكَارِ، وَادِّعَاءُ قَصْدِ غَيْرِهِ.

الداعي الثامن: كَوْنُ مَا يُحذَفُ مُتَعَيِّنًا حَقِيقَةً أَوْ ادِّعَاءً، فَلَا دَاعِي إِلَى ذَكَرِهِ، إِذْ يَكُونُ ذِكْرُهُ عِنْدَئِذٍ مِنَ الإسْرَافِ فِي القَوْلِ، وَهُوَ أَمْرٌ لَا يَسْتَسِيغُهُ البُلْغَاءُ.

الداعي التاسع: اتِّبَاعُ الاسْتِعْمَالِ الوَارِدِ عَلَى تَرْكِ ذَكَرِهِ، كَالأمْثَالِ وَمَا يَجْرِي مَجْرَاهَا، نَحْوُ: «رَمِيَّةٌ مِنْ غَيْرِ رَامٍ» أَي: رَمِيَّةٌ مُصِيبَةٌ مِنْ غَيْرِ رَامٍ مَاهِرٍ يُحْسِنُ الرَّمَايَةَ. وَنَحْوُ «سِنْسِنَةٌ أَعْرَفُهَا مِنْ أَحْزَمٍ»^(١) وَنَحْوُ: «قَضِيَّةٌ وَلَا أبا حَسَنِ لَهَا».

الداعي العاشر: تَرْكُ نَظَائِرِهِ فِي اسْتِعْمَالَاتِ العَرَبِ، كَمَا فِي الرِّفْعِ عَلَى المَدْحِ، أَوْ الذَّمِّ، أَوْ التَّرْحُمِ، فَإِنَّهُمْ لَا يَكادُونَ يذْكَرُونَ فِيهِ المَبْتَدَأَ. وَكَقَطْعِ الصِّفَةِ وَنَصْبِهَا عَلَى تَقْدِيرِ فِعْلِ أَمْدَحَ، أَوْ أَذْمُ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ، وَكَمَا فِي «أَهْلًا وَسَهْلًا».

أَي: لَقِيتُ أَهْلًا، وَوَطِئْتُ سَهْلًا، وَكَمَا فِي المَفْعُولِ المَطْلُوقِ لِفِعْلِ مَحذُوفٍ، مِثْلُ: «سَقِيًا وَرَعِيًا» أَصْلُهُ: سَقَاكَ اللهُ سَقِيًا، وَرَعَاكَ اللهُ رَعِيًا، وَمِثْلُ: «حَمْدًا وَشُكْرًا» أَصْلُهُ: أَحْمَدُ اللهُ حَمْدًا، وَأَشْكُرُ اللهُ شُكْرًا.

الداعي الحادي عشر: ضَيْقُ المَقَامِ عَنِ إطَالَةِ الكَلَامِ بِسَبَبِ التَّوَجُّعِ أَوْ التَّضَجُّرِ، كَأَن تَقُولُ لِمَرِيضٍ: كَيْفَ حَالُكَ؟ فيقول: مَرِيضٌ.

(١) هَذَا القَوْلُ جَرَى مِثْلًا، وَهُوَ لِأَبِي أَحْزَمِ الطَّائِي، وَكَانَ لَهُ ابْنٌ عَاقٌ يُقَالُ لَهُ: «أَحْزَمٌ» فَمَاتَ

وَتَرَكَ بَنِينَ، فَوَثِبُوا يَوْمًا عَلَى جَدِّهِمْ «أَبِي أَحْزَمٍ» فَأَذَمُوهُ، فَقَالَ:

إِنَّ بَنِيَّ ضَرَجُونِي بِالدَّمِّ سِنْسِنَةً أَعْرَفُهَا مَنْ أَحْزَمِ

يَعْنِي أَنَّ هؤُلاءِ أَشْبَهُوا أَبَاهُمْ فِي العُقُوقِ، وَالسِّنْسِنَةُ: الطَّبِيعِيَّةُ وَالعَادَةُ.

وكان تقول لفاقد عزيز عليه : كيف حالك؟ فيقول : حزين .

الداعي الثاني عشر: إرادة إخفاء الأمر عن غير المخاطب الذي يسألك عن أمرٍ بحضور آخرين لا تريد إعلامهم به، فتكتفي بذكر بعض الجملة، أو بنحو حرف نفي، أو حرف إيجاب .

الداعي الثالث عشر: خوف فوات فرصة سانحة، كأن تقول للصياد المترقب الراصِدِ «وَعِلْ - غزال - أرنب - هذا - ذاك -» .

الداعي الرابع عشر: رعاية السَّجْعِ، أو القافية، أو أواخر الآيات، محافظةً على الجمال الفني في اللفظ ونسقِ الجُمَلِ .

الداعي الخامس عشر: تربية الفائدة بتكثير المعاني، إذ يتأتى من احتمالات المعاني بالحذف، ما لا يتأتى بالذكر .

الداعي السادس عشر: قَصْدُ التعميم مع الاختصار في اللفظ، وهذا كثير في النصوص البليغة الرفيعة، كقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٥﴾﴾

أي: يدعو كلَّ ممتحنٍ مُكَلَّفٍ إلى دار السلام عن طريق الإيمان والإسلام، ودار السَّلام هي الجنة .

الداعي السابع عشر: قَصْدُ الإيجاز فقط، ولو لم ينضم إليه داعٍ آخر، فالإيجاز دون إخلالٍ بالمعنى المراد من الدواعي التي يَهْتَمُّ البُلْغَاءُ بمراعاتها، لأنه يصون الجملة في ذوق الناطق العربي من الثقل والترهّل .

الداعي الثامن عشر: المبادرة إلى دفع ما يمكن أن يتوهمه المُتَلَقِّي ممَّا هو غير مراد، لو لم يحصل الحذف، كأن يقول المخبر بغزو الأعداء المدينة: دخل الغزاة إلى القَصْرِ السلطاني .

فَحَذَفَ من عبارته لفظ «المدينة» لأنه بادر إلى دفع توهم أَنَّهُمْ لم يصلوا بَعْدُ إلى القصر السلطاني، وأنهم ما زالوا في الطريق إليه.

الداعي التاسع عشر: قصد التشويق بالإبهام، ليأتي البيان بعده شافياً حركة الشوق إلى المعرفة.

إلى غير ذلك من دواعي تتفتق عنها قرائح البلغاء الفطناء.

* * *

أمثلة وتطبيقات

أُقَدِّمُ أمثلةً وتطبيقات غير شاملة لكلِّ أقسام الحذف وأنواعه، رجاء أن تكون هاديةً للدارس الباحث البلاغي، فيقيس عليها، ويستخرج ما يراه من دواعي بلاغية في مختلف النصوص التي يدرسها، من كتاب الله، وأقوال الرسول ﷺ، وأقوال البلغاء من نثرين وشعراء ذوّاقِي الأدب الرفيع وعناصره الإبداعية والجمالية:

المثال الأول:

ذكر البلاغيون أن من المألوف في أساليب بلغاء العرب أَنَّهُم يحذفون المُسند إليه عند ذكر الديار، ومنه قول امرئ القيس:

لَمَنْ طَلَلُ أَبْصَرْتُهُ فَشَجَانِي كَخَطِّ زُبُورٍ فِي عَسِيبِ يَمَانِ
دِيَارُ لِهْنِدٍ وَالرَّبَابِ وَفَرْتَنِي لِيَالَيْنَا بِالنَّعْفِ مِنْ بَدَلَانِ
لِيَالِي يَدْعُونِي الْهُوَى فَأَجِيئُهُ وَأَعْيُنُ مَنْ أَهْوَى إِلَيَّ رَوَانِ

الطَّلُّ: مَا بَقِيَ شَاخِصاً مِنْ آثَارِ الدِّيَارِ ونحوها.

فَشَجَانِي: أَي: فَهَيْجَ حَزَنِي وَأَثَارِهِ.

كَخَطِّ زُبُورٍ: شَبَّهَ بِخَطِّ لِكِتَابٍ مَكْتُوبٍ.

فِي عَسِيبِ يَمَانٍ: العَسِيبُ: سَعْفُ النَّخْلِ. يَمَانٍ: نِسْبَةٌ إِلَى الْيَمَنِ، أَوْ جِهَةٌ

اليمن، ويظهر أن اليمانيين كانوا في عصره يكتبون كتبهم في سَعَفِ النخل.

دِيَارٌ لِهِنْدٍ: أي: هي ديار لهند، فحذف المسند إليه، وهو مبتدأ هنا، و«هند» و«الرباب» و«فَرْتَنِي» أسماء صواحبَ له، كان يستمتع بلقائهنَّ في هذه الديار التي هُدِمَت ولم يَبْقَ منها إلا الأطلال.

لِيَالِيْنَا: أي: أتذكّر لياليْنَا، فحذف المسند. وأبقى النصب دليلاً على المحذوف، وهذا شاهد على حذف المسند، وكذلك: لِيَالِي.

بِالتَّعْفُ: التَّعْفُ: هو ما انحدر من الجبلِ وارتفع عن الوادي.

مِنْ بَدَلَانٍ: بَدَلَانٍ: بلدٌ في اليمن.

رواني: أي: ينظرون إلي نظراً طويلاً مع سكون طرف، يقال: رَنَّا إليه، إذا أدام النظر مع سكون الطرف.

ذكر امرؤ القيس أنه أبصر طللَ ديار صواحيه «هند والرباب وفَرْتَنِي» فأحزنه هذا المشهد، لأنه ذكره ما فاته من أيام خوالي، كان فيها مستمتعاً بهنَّ، ووصف في عرضه المكان وليالي اللقاء بهنَّ.

* * *

المثال الثاني:

قول الشاعر المخزومي القرشي «عُمَر بن عبد الله بن أبي ربيعة» من شعراء القرن الهجري الأول (٢٣ - ٩٣هـ) شاعر الغزل:

هَلْ تَعْرِفُ الْيَوْمَ رَسْمَ الدَّارِ وَالطَّلَا
كَمَا عَرَفْتَ بِجَفْنِ الصَّيْقَلِ الْخِلَا؟
دَارٌ لِمَرْوَةَ إِذْ أَهْلِي وَأَهْلُهُمْ
بِالْكَانِسِيَّةِ نَرَعَى اللَّهْوَ وَالْغَزْلَا

رَسْمَ الدَّارِ: أي الأثر الباقي منها.

وَالطَّلَا: أي: ما بقي شاخصاً من آثار الديار.

بِجَفْنِ الصَّيْقَلِ: الْجَفْنُ: غِمْدُ السَّيْفِ. الصَّيْقَلُ: الذي يَشْحَذُ السَّيْفَ
وَيَجْلُوهَا، وأراد هنا السَّيْفَ المجلو، والشاعر مَمَّنٌ يستشهد بكلامه في العربيَّة.

الْخِلَلَا: بكسر الخاء وفتح اللام جمع «خِلَّة» وهي بطانة جَفْنِ السيف.
أي: لم يبقَ من الدار إلا كما لو لم يَبْقَ من جَفْنِ السيف إلى بطانته الداخلية.
دارٌ لِمَرْوَةَ: أي: هي دارٌ لمروءة، فحذف المسند إليه وهو المبتدأ هنا، كعادة
العرب من حذف المسند إليه في هذا المقام، و«مَرْوَةَ» اسم المرأة التي كان يلهو
معها لهو غزل.

بِالْكَانِسِيَّةِ: اسم مكان.

* * *

المثال الثالث:

سأل الأقيشرُ ابنَ عمِّ له موسراً، فمنعه ولم يُعْطه، فشكاه إلى قومه وذمَّه،
فوثبَ إليه ابنُ عمِّه ولطمه، فقال فيه الأقيشرُ:

سَرِيعٌ إِلَى ابْنِ أَعْمٍ يَلْطِمُ وَجْهَهُ وَلَيْسَ إِلَى دَاعِيِ التَّدْيِ بِسَرِيعِ
حَرِيصٌ عَلَى الدُّنْيَا مُضِيعٌ لِدِينِهِ وَلَيْسَ لِمَا فِي بَيْتِهِ بِمُضِيعِ

أي: ابن عمِّي فلان سَرِيعٌ إلى... حَرِيسٌ على، فحذف المسند إليه.

* * *

المثال الرابع:

قول الشاعر في ذكر رُبْعِه ومنازله الدوارس:

اعْتَادَ قَلْبِكَ مِنْ لَيْلَى عَوَائِدُهُ وَهَاجَ أَهْوَاءِكَ الْمَكْنُونَةَ الطَّلَلُ
رَبْعٌ قَوَاءٌ أَذَاعَ الْمُعْصِرَاتُ بِهِ وَكُلُّ حَيْرَانَ سَارِ مَأْوُهُ خَضَلُ

أي: هو رَبْعٌ قَوَاءٌ، القواء: القفر من الأرض، ومنزل قواء: لا أنيس فيه.

أذَاعَهُ وَأَذَاعَ بِهِ: إذا نشره. أذاع المعصراثُ به: أي: نَشَرَتِ السُّحْبُ المعصراثُ ماءَها فيه بكثرة فغَيَّرَتِ معالمه.

وكلُّ حَيْرَانٍ سَارٍ: الحيران الساري: المَزُنُ تَجْرِي لَيْلًا.

مَأْوُهُ خَضِلٌ: أي: نَدِيٌّ، يُرِيدُ أَنَّهُ يُنَدِّي وَيُيَلِّلُ الأَرْضَ والجوَّ من تحته.

المثال الخامس:

قول بكر بن النَّطَّاح:

العَيْنُ تُبْدِي الحُبَّ والبُعْضَا وتُظهِرُ الإِبْرَامَ والنَّقْضَا
دُرَّةٌ مَا أَنْصَفْتَنِي فِي الهَوَى وَلَا رَحِمَتِ الجَسَدَ المُنْضَى
غَضَبِي. وَلَا وَاللَّهِ يَا أَهْلَهَا لَا أَطْعَمُ البَارِدَ أَوْ تَرْضَى

فحذف أداة النداء من «يَا دُرَّةُ». دُرَّةُ: اسم صاحبه.

وحذف المُسْنَدَ إليه في البيت الثالث، والأصل: هي غَضَبِي.

وحذف فيما أرى في قوله: «وَلَا وَاللَّهِ يَا أَهْلَهَا» العطوفَ عليه، إذ يريد أن

يقول: هي غَضَبِي وأنا حزينٌ ولها نُ وَلَا وَاللَّهِ يَا أَهْلَهَا لَا أَطْعَمُ البَارِدَ أَوْ تَرْضَى.

الإبرام: هو في الأصل لَفْتُ الخيوط بعضها على بعض، ويكنى به عن الوعد

والعهد، وعكسه النقض.

المُنْضَى: المهزول من الجهد، يقال لغة: أَنْضَاهُ إِذَا أَتَعَبَهُ حَتَّى جَعَلَهُ هَزِيلاً

نحيفاً.

* * *

المثال السادس:

قول الشاعر لمن يَسْتَجْدِيهِ:

بَرْدٌ حَشَايَ إِنْ اسْتَطَعْتَ بِلَفْظَةٍ فَلَقَدْ تَضَرُّ إِذَا تَشَاءُ وَتَنْفَعُ

فحذف المفعول، وأصلُ الكلام: فلقد تضرُّني إذا تشاء وتنفَعُني، وقد يكون الداعي إرادة التعميم، أي تضرُّني وتضرُّ غيري، وتنفَعُني وتنفع غيري.

* * *

المثال السابع:

قول الله عزَّ وجلَّ لرسوله محمد ﷺ في سورة (الضحى) / ٩٣ مصحف /

١١ نزول):

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۖ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۖ ﴾

أي: فأواك، وفهداك، فحذف المفعول رعاية للجمال الفني بتجانس أواخر

الآيات.

* * *

المثال الثامن:

قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الكهف) / ١٨ مصحف / ٦٩ نزول):

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَمْ عِوَجًا ۗ ﴿١﴾ قِيمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن

لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۗ ﴿٢﴾

أي: لِيُنذِرَ الْكَافِرِينَ بَأْسًا شَدِيدًا، فحذف المفعول الأول لأنه مُتَعَيِّن، ولدلالة

مقابلة جملة «لِيُنذِرَ» بجملة «يُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ».

ويظهر لنا أن الداعي هنا الإيجاز، وإمتاع أهل الفكر بالاستنباط، وأهل

الذكاء بالاعتماد على ذكائهم.

* * *

المثال التاسع: قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة) / ٢ مصحف / ٨٧ نزول):

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ... ﴾ [الآية ٢٠].

وقول الله عز وجل في سورة (يونس / ١٠ مصحف / ٥١ نزول):

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (١٩)

أي: ولو شاء الله أن يذهب بسمعهم وأبصارهم لذهب...

ولو شاء ربك أن يؤمن من في الأرض كلهم جميعاً لجعلهم مجبورين لا خيار لهم ولأمن من في الأرض كلهم جميعاً عندئذ.

فَحَذَفَ المفعول لفعل المشيئة، وهذا الحذف هو الغالب في فعل المشيئة في النصوص القرآنية، وكذلك فعل الإرادة، إلا إذا كان المفعول أمراً مستغرباً أو مستنكراً أو مستحيلاً، فالداعي البلاغي لذكره أقوى من الداعي البلاغي لحذفه.

والداعي البلاغي للحذف هنا: الإيجاز والتشويق بالإبهام ليأتي البيان بعده شافياً، مع داعي إمتاع أهل الفكر بالاستنباط والاستخراج الفكري، اعتماداً على دلالات القرائن.

* * *

المثال العاشر:

قول الله عز وجل في سورة (النجم / ٥٣ مصحف / ٢٣ نزول):

﴿ وَأَنْتَ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَ ﴾ (٤٣) ﴿ وَأَنْتَ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾ (٤٤)

وقوله فيها:

﴿ وَأَنْتَ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى ﴾ (٤٥)

جاء في أفعال هذه الآيات الثلاث حذف المفعول به تنزيلاً للفعل المتعدي منزلة الفعل اللازم، إذ الغرض بيان أن الله عز وجل هو الذي تكون بخلقه هذه الأفعال التي تحدث في الناس، فذكر المفعول به إطناب لا لزوم له، إذ هو خارج عن المقصود بالبيان.

ونظيره قول إبراهيم عليه السلام لنمرود في محاجته له، كما جاء في سورة
(البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي
يُخَيِّئُ وَيُمَيِّتُ... ﴾ [الآية ٢٥٨].

أي: هو الذي يكون بخلقه الإحياء والإماتة.

* * *

المثال الحادي عشر:

قول عمرو بن معديكرب يصف تخاذل قومه، ويبيّن أن رماحهم المتخاذلة
قَطَعَتْ لسانه عن الافتخار بهم والثناء عليهم.
فَلَوْ أَنَّ قَوْمِي أَنْطَقْتَنِي رِمَاحُهُمْ نَطَقْتُ وَلَكِنَّ الرِّمَاحَ أَجْرَتْ
أَجْرَتْ: يقال: أجز فلان لسانه إذ منعه الكلام.

فحذف مفعول «أجرت» ومراده منعت لساني عن الثناء على قومي والافتخار
بهم، وغرضه الإيجاز للعلم بالمحذوف، وللإشارة إلى أنّ تخاذل القوم يُسكت
لسان المفتخر مهما كان شأنه، مع مراعاة قافية قصيدته التي جاءت على التاء.

* * *

المثال الثاني عشر:

قول البحثري يمدح يوسف بن سعيد:
لَوْ شِئْتَ لَمْ تُفْسِدْ سَمَاحَةَ حَاتِمٍ كَرَمًا وَلَمْ تَهْدِمِ مَآثِرَ خَالِدِ
أي: لو شئت أن لا تُفسد سَمَاحَةَ حَاتِمٍ بجودك لأمسكت عن العطاء فلم
تُفسد سَمَاحَةَ حَاتِمٍ كَرَمًا.

ولو شئت أن لا تَهْدِمَ مَآثِرَ خَالِدِ بشجاعتك وإقدامك وحُسنِ تدبيرك في
الحرب لتهاونت فلم تَهْدِمِ مَآثِرَ خَالِدِ.

والداعي البلاغي الإيجاز، وإمتاع الفكر بالاستنباط والإدراك الذاتي السريع.

* * *

المثال الثالث عشر:

قول الشاعر للممدوحه:

قَدْ طَلَبْنَا فَلَمْ نَجِدْ لَكَ فِي السُّؤِّ دَدٍ وَالْمَجْدِ وَالْمَكَارِمِ مِثْلًا

أي: قد طلبنا مثلك في السؤدد والمجد فلم نجد لك... إلخ.

والداعي البلاغي الإيجاز، وإمتاع الفكر بالإدراك الذاتي السريع.

* * *

المثال الرابع عشر:

قول الله عز وجل في سورة (آل عمران / ٣ مصحف / ٨٩ نزول):

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَتِ الثَّقَاتِ فَمَثَلٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَى الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ (١٣)

أي: «قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَتِ الثَّقَاتِ فَمَثَلٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَى الْعَيْنِ».

فحذف الوصف وهو لفظ «مؤمنة» في الأوائل لدلالة مقابله في الأواخر لفظ «كافرة» وحذف من الأواخر جملة «تقاتل في سبيل الطاغوت» لدلالة مقابله في الأوائل، وهي جملة «تقاتل في سبيل الله».

وهذا الحذف من الأوائل لدلالة الأواخر، ومن الأواخر لدلالة الأوائل يُسمى «الاحتباك» إذا اجتمع الحذفان معاً، وله في القرآن نظائر، وهو من إبداعات القرآن وعناصر إعجازه.

* * *

المثال الخامس عشر:

قول البحترى يمدح أبا الصقر:

وَكَمْ ذُذَّتْ عَنِّي مِنْ تَحَامُلِ حَادِثٍ وَسُورَةِ أَيَّامِ حَزْرَنْ إِلَى الْعَظْمِ
فحذَفَ المفعول به لِفِعْلِ حَزْرَنْ وَهُوَ «اللَّحْمَ» لدفع تَوْهْمِ إِرَادَةِ غَيْرِ الْمُرَادِ
إِبْتِدَاءً، إِذْ لَوْ قَالَ: «حَزْرَنْ اللَّحْمَ» لَجَازَ أَنْ يَسْبِقَ إِلَى وَهْمِ السَّامِعِ قَبْلَ ذِكْرِهِ مَا بَعْدَهُ
أَنَّ الْحَزْرَ قَدْ كَانَ فِي بَعْضِ اللَّحْمِ وَلَمْ يَصِلْ إِلَى الْعَظْمِ، مَعَ مَا فِي الْحَذْفِ مِنْ
إِيْجَازٍ.

ذُذَّتْ عَنِّي: دَفَعَتْ وَطَرَدَتْ.

تَحَامُلُ حَادِثٍ: شِدَّةُ حَادِثٍ وَمَشَقَّتُهُ عَلَى نَفْسِي.

سُورَةُ أَيَّامٍ: هِيَ شِدَّتُهَا وَعُسْرُهَا.

حَزْرَنْ: قَطَعْنَ، كَفِعْلِ السَّكِينِ فِي اللَّحْمِ دُونَ الْوَصُولِ إِلَى نَهَايَةِ الطَّرْفِ
الْآخِرِ الَّذِي يَتِمُّ بِهِ الْفَصْلُ.

* * *

المثال السادس عشر:

قول البحترى أيضاً يمدح المعتز بالله:

شَجُوْ حُسَّادِهِ وَغَيْظُ عِدَاةِ أَنْ يَرَى مُبْصِرٌ وَيَسْمَعُ وَاعٍ
فحذَفَ المفعول به لِفِعْلِي: «يَرَى» وَ«يَسْمَعُ» لِأَنَّهُ أَرَادَ تَنْزِيلَ الْفِعْلِ الْمُتَعَدِّي
مَنْزِلَةَ الْفِعْلِ اللَّازِمِ، فَالْمَعْنَى: إِنَّ مَا يَحْزُنُ أَعْدَاءَهُ وَيَغِيظُهُمْ أَنْ يُوجَدَ رَأْيٌ مَا يَرَى
بِبَصَرِهِ، وَسَامِعٌ مَا يَسْمَعُ، لِثَلَا يَرَى مُحَاسِنَهُ وَفَضَائِلَهُ وَيَسْمَعُ كَلَامَهُ، وَمَنْ يَثْنِي
عَلَيْهِ، وَيُضَافُ إِلَى هَذَا اِحْتِمَالُ إِرَادَةِ التَّعْمِيمِ، أَي: أَنْ يَوْجَدَ سَامِعٌ يَسْمَعُ أَيُّ
شَيْءٍ، وَرَأْيٌ يَرَى أَيُّ شَيْءٍ، إِذْ مَتَى وَجَدَ فَلَا بُدَّ أَنْ يَعْرِفَ مُحَاسِنَهُ وَفَضَائِلَهُ فَيَقْدِّمَهُ.

* * *

خاتمة:

أكتفي بهذه الأمثلة وأقول: مع كثرة ما أودر البلاغيون من شواهد الحذف في شعر شعراء العرب، فإنه ينحصر في بعض أبواب الحذف، وبَعْضِ دواعيه وأغراضه، لكنّ روائع الحذف في مختلف الأبواب إنّما نجدُها في نصوص القرآن المجيد، وهي جديرة بأن تُفردَ بدراسةٍ خاصّةٍ، وتجمع في كتاب مستقلّ.

ومن شاء مزيداً من الشواهد القرآنية على الحذف فليرجع إلى ما سَطَرْتُهُ في القاعدة (١٤) من كتابي «قواعد التدبّر الأمثَل لكتاب اللّهِ عزّ وجلّ» وإلى كتاب «الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز» للعلامة الشيخ «العزّ بن عبد السلام = وهو عبد العزيز بن عبد السلام ٥٧٧ - ٦٦٠هـ» لُقّب بسلطان العلماء، لمواقفه الشجاعة ضدّ أعمال السلاطين المخالفة للدين.

* * *

ملاحظة:

لم أتعرض لعدم ذكر ما يجهله المتكلّم من عناصر الجملة، كالفعل الذي يُبْنَى على ما لم يُسَمَّ فاعله لجهل المتكلّم بالفاعل، ولا لعدم ذكر ما ليس للمتكلّم غرض بذكره، إذ لا يُوجَدُ ما يَدُلُّ عليه من قرينة الحال، أو قرينة المقال أو اللّوازم الفكرية، لأنّ الدواعي لعدم الذكر مطلقاً هي الدواعي التي تدعو القادر على البيان أن يَصْمُتَ ولا يتكلّم، وهذه الدواعي لا تدخُلُ في الفنون البلاغية فيما أرى، إذ يستوي فيها البليغ وغير البليغ والقادر على الكلام والعاجز عنه.

وأرى أنّ ذكر البلاغيين لما يدخل في هذين البابين ضمن دواعي الحذف فيه

نظر.

• • •

الفصل الثالث

التقديم والتأخير

(١)

مقدمات

المقدمة الأولى:

لكل عنصر من عناصر الجملة في اللسان العربيّ موقع في ترتيب بناء الجملة، وفق الذي سبق بيانه في الفصل الثاني «بناء الجملة في اللسان العربي وتقسيمها» من الباب الأول «مدخل إلى علم المعاني».

وقد عرفنا أنّ الجملة في اللسان العربي تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: الجملة الفعلية.

القسم الثاني: الجملة الاسمية.

وهنا نضيف: أنّ الأصل في الجملة الفعلية تقديم المسند « = المحكوم به » وهو الفعل، ويُلقَقُ به ما يعمل عمل الفعل، وتأخير المسند إليه « = المحكوم عليه » وهو الفاعل أو ما ينوب منابه، ثم تأتي متعلقات الفعل أو ما يعمل عمله.

وأنّ الأصل في الجملة الاسمية تقديم المسند إليه « = المحكوم عليه » وهو المبتدأ وما يتصل به، وتأخير المسند « = المحكوم به » وهو الخبر وما يتصل به، وبعد ذلك تأتي متعلقات الخبر المماثلة لمتعلقات الفعل، إذا كان الخبر ممّا يعمل عمل الفعل، أو جملة مصدرية بفعل.

وباستطاعتنا أن نحدّد معالم المراتب الطبيعيّة لعناصر الجملتين: الجملة الفعلية، والجملة الاسمية في اللّسان العربي، اتّباعاً لما نصّ عليه علماء العربية في بعضها، واستناداً إلى أهميّة كلّ عنصرٍ من عناصر الجملة في البيان، وأولويته في ترتيب المعاني، مع ملاحظة أذواق فصحاء وبلغاء الناطقين العرب في ترتيب عناصر جملهم التي يصوغونها في كلامهم.

وأبدأ بالجملة الفعلية، لأنّها هي الدرجة الدنيا في سلّم البيان، وأُنّني بالجملة الاسمية، لأنّها الدرجة العليا في سلّم البيان، إذ هي آكد وأقوى، إذا كان الخبر يتحمّل ضمير المبتدأ، أو كان في توابعه أو ما يتّصل به ما يتحمّل ضمير المبتدأ.

وقد صرّح جمهور البلاغيين بهذا الترتيب، وعلّوه بأنّ الجملة الاسميّة تشتمل على الحكم بمضمون الجملة مرّتين:

● فالمرّة الأولى تكون بإسناد الخبر إلى لفظ المبتدأ.

● والمرّة الأخرى تكون بإسناد الخبر وتوابعه وما يتصل به إلى ضمير المبتدأ المستتر في الخبر أو فيما يتصل به أو في توابعه.

فإذا قلنا: «زيدٌ قائمٌ» أو «زيدٌ قام» ففي لفظ «قائمٌ» وفي لفظ «قام» ضميرٌ يعود على «زيد» فيحصل بذلك إسناد القيام إلى لفظ «زيد» وإسناده إلى ضميره، قالوا: وإسنادان أقوى من إسناد واحد، إذ هو بمثابة إعادة الجملة مرّتين على سبيل التأكيد.

أمّا الخبر الذي لا يتحمّل هو ولا ما يتصل به ولا بعض توابعه ضمير المبتدأ، مثل: «القمح البرّ - القمح البرّ الذي نضع منه خبزاً نأكله»، فالجملة الاسمية معه بقوّة الجملة الفعلية البسيطة، وهما جميعاً في المرتبة الدنيا.

وفيما يلي جدولان فيهما بيان مراتب عناصر الجملة الفعلية، ومراتب عناصر الجملة الاسمية على ما ظهر لي، مع التمثيل لكل منهما:

الجدول الأول: الجملة الفعلية، ومراتب عناصرها في اللسان العربي إذا اجتمعت، هذا باعتبار الأصل، مع جواز تبادل المراتب عند الحاجة. وما لا يذكر من هذه العناصر في الجملة يحلُّ تاليه محلّه إذا وُجد.

٥	٤	٣	٢	١
المفعول المطلق	المفعول به الثاني	المفعول به الأول	الفاعل	الفاعل
وما يتصل به.	وما هو بمثابة وما يتصل به كما جاء فيما سبق. فالمفعول به الثالث إذا وجد.	وما هو بمثابة من جار ومجرور وما يتصل به كما جاء فيما سبق. وقد يحتل هذه المرتبة المفعول معه، مثل: سرت والقمر.	وما يتصل به كالمضاف إليه وصلة الموصول والنعته والتوكيد والبدل والتمييز والعطف.	وما يقترن به من أدوات.
	٨	٧	٦	
	المفعول لأجله	الحال	المفعول فيه	
	وما يتصل به.	وما يتصل به.	وهو ظرفا الزمان والمكان وما يتصل بهما.	

المثال الأول:

ضرب - فتى الحيّ الشجاع - اللصّ المحترف الذي أتعب أهل الحيّ -
ضرباً موجعاً بلغ تسعين ضربةً - ليلة الخميس في ساحة الحيّ - والقمر بازغ -
جزاءً وتأديباً.

المثال الثاني:

كسبى - سيد العشيرة السخيّ - زوجته الشابة الحسنة - إحدى عشرة حلة -
كسوة رائعة - ليلة الجمعة في قصر الأفراح - وهي على منصّة العروس - إكراماً
لها ولأهلها.

هذان المثالان قد جرى ترتيب عناصر الجملة الطويلة فيهما على وفق
الترتيب الذي جاء في الجدول الأول.

الجدول الثاني: الجملة الاسمية ومراتب عناصرها في اللسان العربي إذا اجتمعت، هذا باعتبار الأصل، مع جواز تبادل المراتب عند الحاجة. وما لا يذكر من هذه العناصر في الجملة يحلُّ تاليه محلّه إذا وُجد.

٤	٣	٢	١
متعلقات الخبر الأخرى	المفعول فيه	الخبر	المبتدأ
وما يتصل بكلّ منها.	أي ظرفا الزمان والمكان وما يتصل بهما.	وما يتصل به كما جاء في المبتدأ	وما يتصل به كالمضاف إليه والنعت والبدل والتوكيد والعطف
<p>قد يتساوى في هاتين المرتبتين كلُّ من الظرف ومتعلقات الخبر الأخرى.</p>			
	٦	٥	
	المفعول لأجله	الحال	
	وما يتصل به	وما يتصل به	

المثال الأول:

الخليفة الصالح السلطان عبد الحميد - خليفة مظلوم إذ خلعه ظُلماً
وعُدواناً - من ولايته مجلسُ المبعوثان التركي - في تركيا سنة (١٩٠٨م) - بتأثير
المكايد اليهودية والغربية - وهو يقاوم أعداء الإسلام - تحقيقاً للمصالح الغربية
ومصالح اليهودية العالمية السّاعية يومئذٍ لإقامة الدولة اليهودية في فلسطين.

المثال الثاني:

محمدٌ - رسول الله النبيّ العربي المبعوث - في مكة سنة (٦١٠م) -
برسالة عامة للناس أجمعين - والناسُ في جهالة جهلاء وضلالة عمياء - ليخرج
الناس من الظلمات إلى النور.

هذان المثالان قد جرى ترتيب عناصر الجملة الطويلة فيهما على وفق
الترتيب الذي جاء في الجدول الثاني.

التقديم والتأخير في الجملة الاسمية

التي ركانها معرفتان

إذا صلح في الجملة الاسمية كلٌّ من ركنيها لأن يكون مبتدأً فيها ولأن يكون خبراً، نظراً إلى أن كلاً منهما معرفة يجوز الابتداء به بمقتضى قواعد النحو، فأيهما ينبغي أن نجعله المبتدأ والآخر الخبر؟.

لم يتعرّض النحويّون للتّحديد، بل أجازوا أن يكون كلٌّ منهما هو المبتدأ وأن يكون الخبر، ويُعربون المقدم مبتدأً، والمؤخر خبراً.

لكن البلاغيّين بحثوا الأمر بحثاً فكريّاً منطقيّاً دقيقاً، ناظرين إلى حال المخاطب، وما هو الأعرّف لديه من ركني الإسناد اللّذين هما من المعارف.

فأيّ المعرفتين هو الأعرّف بالنسبة إليه، وحالته تتطلّب مزيداً من العلم عنه يُجعلُ هو المبتدأ، والركن الآخر يُجعلُ هو الخبر، وتُرتّب له الجملة بتقديم المبتدأ وتأخير الخبر.

● فمن عرف مثلاً الإمام الشافعيّ وجَهَلَ أنّه هو الشاعر الأول بين الفقهاء يُقالُ له :

«الإمامُ الشافعيُّ الشاعرُ الأولُ بين الفقهاء».

● ومن عرف وجود شاعر هو الشاعر الأول بين الفقهاء، واستقر ذلك في ذهنه وسمع شعره أو قرأه، وهو لا يعرف أنه هو الإمام الشافعيّ يُقالُ له :

«الشاعرُ الأولُ بين الفقهاء الإمامُ الشافعيّ».

● ومن كان مسافراً وعلم أنه قد وُلد له ولد، ولم يره، وسماه في رسالة بعثها سعيداً، ثم عاد من السفر وأخذ ينظر في الصغار ليعرف من هو ولده سعيد منهم، يقال له: «ولذلك سعيد هذا الذي في يده كُرة».

● ومن قدم من سفر، ورأى صبية يلعبون، فهفا قلبه إلى واحد منهم، ولم يكن يعلم أن زوجته كانت حاملاً منه، فحمل الصبيّ وقبله، يقال له:

«هذا الصبيّ ولدك».

● جاء في الآية الثالثة من سورة (الأعراف / ٧ مصحف / ٣٩ نزول) خطابُ الله للناس بقوله:

﴿ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

فقرّر في أذهانهم أنّ الرّبَّ الممدّد بعطاءات الرّبوبيّة هو الذي يجب أن يتبعوا ما أنزل إليهم منه.

ثم جاء في الآية (٥٤) منها قوله:

﴿ إِنْ رَبُّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُعْشَىٰ أَيْتَلُ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا... ﴾ [٥٤].

فبنى في هذه الآية على ما سبق أنّ قرّره في أذهانهم حول ربهم، بيّان أنّه هو الله الذي خلق السماوات والأرض... إلخ لئلا تنصرف أذهانهم في تحديده إلى أرباب يعبدونها من دون الله.

● وجاء في سورة (الشورى / ٤٢ مصحف / ٦٢ نزول) قول الله عزّ وجلّ لرسوله محمد ﷺ يعلمه كيف يخاطب الذين كفروا:

﴿ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٩﴾ ﴾

في الفقرة الأولى من هذا التعليم قال الله له: ﴿وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ﴾.

فإذا قال لهم هذا القول قَرَّرَ في أذهانهم اسمَ الله مُنَزَّلِ الْكِتَابِ، فَكَانَ هذا الاسمَ حاضراً في أذهانهم وهو الأعرَف.

وهذا يستدعي أن يُبَدَأَ في الفقرات اللاحقات باسم الله، وأن يُخَبَّرَ عنه بما يُرَادُ بيانه من صفاته.

فجاء في الفقرة الثالثة: ﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾.

وجاء في الفقرة السادسة: ﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾.

* * *

المقدمة الثالثة:

ترتيب التوابع إذا اجتمعت

ذكر النحاة أن التوابع إذا اجتمعت في جملة واحدة فترتيبها كما يلي:

(١) النعت.

(٢) عطف البيان.

(٣) التوكيد.

(٤) البديل.

(٥) عطف النسق، أي: العطف بحرف عطف.

* * *

المقدمة الرابعة:

الحالات التي قرّر النحاة

وجوب التقديم والتأخير فيها

قرّر النحاة بمقتضى القواعد النحويّة وجوب التقديم في أربع

حالات:

الحالة الأولى: يجب تقديم ما له الصدارة في الكلام العربي، أو ما هو

مضاف إلى ما له الصدارة.

والأسماء التي لها الصدارة في اللسان العربي هي ما يلي:

(١) أسماء الاستفهام.

(٢) أسماء الشرط.

(٣) «ما» التعجّبية.

(٤) «كم» الخبرية.

الحالة الثانية: يجب تقديم المحصور من المبتدأ أو الخبر.

الحالة الثالثة: يجب تقديم الخبر إذا كان المبتدأ نكرة لا يصح الابتداء بها،

وقد فصل النحاة الأحوال التي يجوز فيها الابتداء بالنكرة.

الحالة الرابعة: يجب تقديم ما حقّه التأخير إذا كان فيما حقّه التقديم ضمير

يعود عليه أو على شيء مما يتصل به، وذلك لئلا يعود الضمير على متأخر لفظاً

ورتبة.

* * *

خاتمة:

ما سبق بيانه من ترتيب عناصر الجملة في اللسان العربي هو الأصل، وقد يخالفُ هذا الأصل للحاجة الشعرية أو لمراعاة السجع، وقد يخالفُ هذا الأصل لدواعي بلاغية فكرية أو جمالية سيأتي إن شاء الله الحديث عنها، وهذا ما يعتني به علماء البلاغة في بياناتهم التفصيلية.

وقد اعتنى علماء البلاغة ببيان الدواعي البلاغية لتقديم المسند إليه في الجملة الفعلية، إذ رتبته فيها التأخير عن المسند، مع عرض بعض الأمثلة. وبيان الدواعي البلاغية لتقديم المسند إليه في الجملة الاسمية التي يكون خبرها أو ما يتصل به مما يتحمل ضمير المبتدأ، كاسمي الفاعل والمفعول المذكورين أو مقدرين، مع عرض بعض الأمثلة وبيان الدواعي البلاغية لتقديم المسند في الجملة الاسمية، إذ رتبته فيها التأخير عن المسند إليه. وبيان الدواعي البلاغية لتقديم المفعول به عن رتبته، مع عرض بعض الأمثلة.

وذكر علماء البلاغة أنّ من عرف هذه الدواعي أمكنه أن يقيس عليها دواعي التقديم والتأخير في سائر عناصر الجملة في اللسان العربي.

* * *

(٢)

نظرة تحليلية عامّة إلى دواعي التقديم

لمّا كانت الجملة الفعلية هي الدرجة الأولى الدنيا في سلّم البيان عمّا يُراد التعبير عنه في اللسان العربي، وكان الأصل فيها بمقتضى النظام المتبع فيه أن يصدرَ فيها المسند وما يقترن به من أدوات «وهو الفعل» وأن يأتي بعده المسند إليه «وهو الفاعل أو ما ينوب منابه» كما ذكرت في المقدمة السابقة، كان تغيير هذا

النظام بتقديم المسند إليه على المسند غير مستحسن إلا إذا اقتضته ضرورة أو حاجة كالوزن الشعري، ومقتضيات السجع، أو دعا إليه داعٍ بلاغيٍّ معنويٍّ أو جماليٍّ في اللفظ.

وقد درج ذوق الناطق العربيّ الفصيح على أن يكتفي عمّا سبق له أن ذكره بضمير ظاهر أو مستتر، مع العلم بأنّ الضمير المستتر ملاحظٌ ذهنياً، لذا فله حكم الضمير الظاهر، ولو كان ستره وعدم ذكره أمراً واجباً في أسلوب التعبير العربيّ الفصيح.

فإذا أراد الناطق العربيّ القُحُّ الفصيح أن يخبر مثلاً بنزول المطر في موسم نزوله، ولم يجد أنّ من يخاطبه منكر، ولم يجد أنّ عليه شيئاً من علامات الإنكار، وليس له غرض يقتضي منه أن يغيّر النظام الأوليَّ للكلام، فإنّه يقول عمّا حدث في الماضي: «نَزَلَ المطر» ويقول عمّا يجري حدوثه مع كلامه: «يُنْزَلُ المطر» ولا يجد داعياً لأنّ يقدم المسند إليه فيقول: «المطر نزل» أو «المطر ينزل».

لكن إذا وجّه كلامه لمن سبق أن أخبرَ بناءً على دلائل الأرصاد الجوية بأنّ المطر لا ينزل خلال أربع وعشرين ساعة، فجاء الواقع على خلاف ما أخبر، أو أراد بشارة أهله أو قومه بنزول المطر الذي يترقبونه لحاجتهم إليه، أو أراد أن يُعبّر عن اهتمامه بحصول هذا الحدث، أو كان الموسم موسماً يُستغربُ فيه نزول الأمطار، أو كان يُريدُ التعبيرَ عن فرحته، أو الثناء على نوع المطر النازل، أو التوطئة للثناء على الله الذي أنزله، أو التوطئة للحثّ على شكر الله على نعمته، أو نحو ذلك من مقتضيات التقوية والتأكيد، أو مقتضيات البدء في الجملة بذكر ما هو الأهمُّ في نفسه أو نفس المخاطب، كان من المستحسن أن يُعبّر بأسلوب يُشعرُ بتقوية الخبر، أو بما يلائم مقتضى الحال، ومن الأساليب المؤدّية للأغراض السابقة تقديم المسند إليه على المسند، فيقول بمقتضى سليقته في تذوق أساليب

الكلام العربي: «المطر نَزَلَ» أو «المطر يَنْزِلُ» شاعراً بأن المخاطبَ العربيَّ القُحَّ يفهم من هذه الصيغة قوَّةً وتأكيداً، أو غرضاً ما تساعد على فهمه القرينة، وهذا الغرض دعاه إلى تقديم المسند إليه على المسند.

ويظهر للباحث من تحليل عبارة «المطر نزل» أو عبارة «المطر ينزل» أنَّهما تشتملان على عاملين غير موجودين في: «نزل المطر» وفي «يَنْزِلُ المطر» وهما:

العامل الأول: تقديم لفظ المسند إليه «المطر» المشعر بأنَّه محل اهتمام المتكلِّم أو المخاطب، إذ الأصل فيه التأخير، ومعلومٌ أنَّ النفس تتجه دوماً للبدء بما هو محلُّ اهتمامها.

العامل الثاني: شعور الناطق العربي القُحَّ بأن في فعل «نزل» المتأخر عن «المطر» وفي فعل «ينزل» أيضاً ضميراً مستتراً يعودُ على المطر، فهو في عبارتيه يلاحظ أنَّه يُسندُ النزول إلى المطر مرتين، ففي الأولى يُسندُه إلى لفظ «المطر» وفي الأخرى يسنده إلى ضميره المستتر.

وقد يُحوَّلُ الناطق العربي القُحَّ تعبيره إلى جملة مبتدؤها وخبرها اسمان وفيها تحقيق ما يريد من قوَّة، وما يريد من إشعارٍ بالبدء بما هو محلُّ اهتمامه، أو محلُّ اهتمام المخاطب، فيقول: «المطرُ نازِلٌ من السماء» أو «المطرُ مُنزِلٌ من السماء» إذ يدركُ أنَّ في الخبر «نازل - مُنزل» ضميراً مستتراً يعود على المبتدأ، فالأول «اسم فاعل» والثاني «اسم مفعول» وهما يحملان الضمير كالفعل، ويعملان عمله.

وقد نلاحظ في استعمالات العرب الفصحاء البلغاء لتقديم المسند إليه وفق البيان السابق، أنَّ التقوية المستفادة من هذا التقديم قد ترقى إلى مستوى التخصيص والحصص، ولا سيما المسند إليه المسبوق بنفي، مثل أن يقول المتهم بسرقة مُنزِلٍ

حصلت فيه سرقةً فعلاً: «ما أنا سرقتُ المنزل» أو «ما أنا سارقُ المنزل» أي: بل غيري هو الذي سرقه، فقَصَرَ نَفِي السَّرقة على نفسه، ولم يَنْفِ حصول السرقة نفيًا كليًا.

يضاف إلى ما سبق أن ما يعتني الإنسان بتفخيمه وتعظيمه في كلامه يحاول تقديمه على غيره في الذكر، كما يقدّم العظماء في المجالس والمواقف.

وكذلك ما يريد توجيه العناية له في أمرٍ من الأمور، نظير تقديم العروسين في ليلة عرسهما، وتقديم المتخرجين لتسليمهم شهاداتهم، وتقديم المتفوقين لتسليمهم جوائز تفوقهم.

وعلى نظير ذلك نلاحظ البدء بطرق المسامح بالمسند إليه في مجال الافتخار، ولدى إرادة تعجيل المسرة بالبشرى والوعد ونحوهما، أو تعجيل المساءة بالإنذار والوعيد ونحوهما، ولدى الرغبة في تعجيل التلذذ بذكره، ولدى الإشعار بأنه حاضر في التصور لا يغيب عنه، فهو يسبقُ غيره إلى التُّطق به، ولدى الإشعار بالاهتمام بمدحه أو ذمّه، إلى غير ذلك ممّا قد يلاحظه فطناء البلغاء.

وفي كلّ الأحوال ترجع مزايا التقديم إلى أمرين رئيسين:

الأمر الأول: ما يفيد زيادةً في المعنى وزيادةً في جمال اللفظ، وهذا غاية ما يعتني به البلغاء في هذا المجال.

الأمر الثاني: ما يفيد زيادةً في أحدهما فقط، ويدخل هذا أيضاً ضمن مقاصد البلغاء.

أمّا ما يتكافأ فيه التقديم والتأخير فلا يهتم له البلغاء، وأمّا ما يختلُّ به المعنى أو يفقد عنصراً من عناصر جمال اللفظ فيتجافون عنه وينفرون منه.

* * *

(٣)

دواعي تقديم المسند إليه

من البيان السابق نستطيع استخلاص طائفةٍ من دواعي تقديم المسند إليه على المسند حينما يكون المُسندُ فعلاً، أو اسماً ممّا يتحمّل الضمير كالفعل، إذ يعمل مثل عمله، ولو كان محذوفاً من اللفظ إلاّ أنّه مقدّر ذهنياً كمتعلّق الظرف والجار والمجرور أحياناً.

والطائفة التي نستخلصها هي ما يلي:

الداعي الأول: تقوية الحكم الذي دلّت عليه الجملة وتوكيده على ما سبق به البيان.

الداعي الثاني: إرادة إفادة اختصاص المسند بالمسند إليه، إذا كان في السّباق أو السياق أو القرائن الأخرى ما يساعد على ذلك، كالردّ على مدّعي خلافه، فإذا كان يدّعي انفراد غيره به، أو مُشاركته له فيه قال له: «أنا فعلته» أي: فعلته وحدي.

الداعي الثالث: الرغبة في تعجيل المسرّة، أو تعجيل المساءة، وذلك في مواطن البشري والوعد، ومواطن الإنذار والوعيد.

الداعي الرابع: الإشعارُ بأنه حاضرٌ في التّصوّر لا يغيب، لذلك فهو يسبق غيره في التعبير، فيبدأ اللّسان بالنطق به.

الداعي الخامس: الرغبة في تعجيل ذكره، لما يحصل في النفس من مشاعر لذّة، إذ هو محبوبٌ لديها، ومعلومٌ أنّ المحبّ يتلذّد بذكر اسم محبوبه.

الداعي السادس: مراعاة حال المخاطب الذي يسرّه البدء بالمسند إليه، لتشوّقه إلى معرفة أخباره، أو استئناسه أو تلذّذه بسماع اسمه.

الداعي السابع: الرغبة في البدء بالمسند إليه تفاعراً، في المواطن التي يكون ذكر المسند إليه فيها يُشعر بالفخر، كأن يقول من يريد الفخر من الطائيين: «حاتم الطائي جدي» وكان يقول الشريف: «محمد رسول الله جدي» ومنه قول سيدنا «علي بن أبي طالب» رضي الله عنه في غزوة خيبر:

أَنَا الَّذِي سَمَّنِي أُمِّي الْحَيْدَرَةَ كَلَيْثٍ غَابَاتٍ غَلِيظِ الْقَصْرَةِ
أَضْرِبُ بِالسَّيْفِ رِقَابَ الْكَفَرَةِ أَكِيلُكُمْ بِالسَّيْفِ كَيْلَ السُّنْدَرَةِ
حَيْدَرَةٌ: من أسماء الأسد، قال ابن الأعرابي: الحيدرة في الأسد مثل الملك في الناس.

الْقَصْرَةَ: العنق وأصل الرقبة.

السُّنْدَرَةَ: مكيالٌ كبير.

فقدم المسند إليه «أنا» مفاخراً في مقام يحسُن فيه الفخر، لأنه يقاتل الكفرة أعداء الله.

الداعي الثامن: كون المسند إليه أمراً مستغرباً أو مفاجئاً أو نادراً أو مخيفاً، مثل: «الحيثان العظيم» أقبلت إلى الشاطيء - الجنُّ لها مساكن في أم القرى - جيش العدو دخل المدينة - بقرةٌ تكلمت - الكنزُ ظهرت معالمة.

الداعي التاسع: الرغبة في الإسراع بالتبرك، ويظهر هذا في أسماء الله الحسنى.

الداعي العاشر: الاهتمام بالممدوح بتقديم اسمه في الجملة، كقولي من قصيدة:

مُحَمَّدُ أَنْتَ مَا أَحْلَاكَ تَسْمِيَةً اللَّهُ سَمَّاكَهَا وَالْحَمْدُ مُنْتَظَرُ

لقد حَسُن في مدح الرسول البدءُ بذكر اسمه.

وفي تقديم لفظ الجلالة «الله» ما يشعر بالتفخيم والتعظيم، وهذا من الدواعي أيضاً كما يأتي.

الداعي الحادي عشر: إرادة التفخيم والتعظيم، كأن يسأل سائل: ما بال أهل مدينتنا ينصبون الزينات في الشوارع وعلى الأبنية وعلى الحافلات وكلّ السيّارات، وبالتلقائية يأتيه الجواب: مَلِكُ البلاد سيزورنا قريباً.

الداعي الثاني عشر: إرادة تمكين المسند، لأنّ في المسند إليه تشويقاً إليه.

إلى غير ذلك من دواعي تفتّق عنها قرائح البلغاء.

* * *

ملاحظتان

الملاحظة الأولى: حول كلمتي «مثل - غير».

ذكر علماء البلاغة أنّ كلمتي «مثل» و«غير» تلازمان التقديم في التراكيب البليغة، إذا أُريدَ بهما الكناية عن الشخص الذي يجري الحديث عنه. كأن تقول له:

● «مَثَلُكَ لَا يَبْخَلُ - مَثَلُكَ لَا يَقْصِرُ فِي فِعْلِ الْخَيْرِ - مَثَلُكَ لَا يَتْرُكُ الصَّلَاةَ الْمَفْرُوضَةَ عَامِداً».

أي: أنت لا تفعل ذلك، دون أن تريد التعريض بغيره، مُؤمِناً إلى أن من تُعَرِّضُ به يتصف بالبخل، أو بالتقصير في فعل الخير، أو بترك الصلاة المفروضة عمداً.

● «غَيْرُكَ يُسِيءُ إِلَى أَصْدِقَائِهِ - غَيْرُكَ لَا يُعَاشِرُ أَهْلَهُ بِالْمَعْرُوفِ - غَيْرُكَ يَمْنَعُ الزَّكَاةَ».

أي: أنت لا تسيءُ إلى أصدقائك – وأنت تُحسِنُ معاشرَةَ أهلك بالمعروف –
وأنت لا تمنع الزكاة، دون أن تريد التعريض بغيره، مُؤمناً إلى أن من تعرّض به
يسيءُ إلى أصدقائه، أو لا يعاشر أهله بالمعروف، أو يمنع الزكاة.

● ومنه قول المتنبي من قصيدة يُعزِّي بها أبا شجاع عضد الدولة وقد ماتت
عمّته:

مِثْلَكَ يَنْشِي الْحُزْنَ عَنْ صَوْبِهِ وَيَسْتَرِدُّ الدَّمْعَ عَنْ غَرْبِهِ
وَلَمْ أَقُلْ «مِثْلَكَ» أَغْنِي بِهِ سِوَاكَ يَا فَرْدًا بِلَا مُشْبِهِهِ
يَنْشِي: أي: يَعْطِفُ وَيَصْرِفُ.

عَنْ صَوْبِهِ: أي: عن قَصْدِهِ.

عَنْ غَرْبِهِ: أي: عن مجراه. الْغَرْبُ: مجرَى الدَّمْعِ وَجَمَعَهُ «غُرُوب».

والمعنى: أنت تقدر أن تَعْطِفَ وتَصْرِفَ الحُزْنَ عن قِصْدِهِ حين يتوجه لنفسك
وقلبك، بالحكمة والصَّبْر.

وأنت تستطيع أن تسترجع بقوة احتمالك وبالغ عزمك الدمع عن مجراه،
وتمنعه من متابعة الجري.

* * *

الملاحظة الثانية: على خلاف ما ذكر البلاغيون فإنني لست أرى أن يُلْحَق
بباب التقديم والتأخير البلاغي تقديم أداة النفي على اللفظ الدالّ على العموم، ولا
تقديم اللفظ الدالّ على العموم على أداة النفي، فهذه قضية فكرية تتصل بأصل بناء
الكلام في أدائه للمعاني، وهي ترجع إلى قاعدة «سَلْبِ العموم أو عُموم السلب»
فإذا سُلِّطَ النفي على العموم لم يلزم منه نفي جميع الأفراد، لأنّ المنفِي حينئذٍ هو

العموم لا جميع أفراده، وإذا سُلِّطَ العموم على المنفي بأداة النفي فإنه يَدُلُّ حينئذٍ على نفي جميع الأفراد.

فإذا قلنا: «ليس كل إنسان كاتباً» بتسليط السُّلب على العموم فمعنى هذه الجملة أن بعض الناس غير كاتب، وهذا حكم صادق.

وإذا قلنا: «كُلُّ إنسان ليس كاتباً» بتسليط اللفظ الدال على العموم على الجملة المنفية «المسلوبة» فمعنى هذه الجملة أنه لا أحد في الناس هو كاتب، وهذا حكم كاذب غير صحيح.

فمعني كلِّ من الجملتين قد أُخِذَ عقلياً من تسليط النفي على العموم، ومن تسليط العموم على النفي، ولم يُؤخَذَ من دواعي بلاغية، وهذا الموضوع هو من اهتمامات علماء المنطق وعلماء أصول الفقه، وقد شرحته في مقولة خاصة في كتابي: «ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة»^(١).

انظر إلى قول القائل: «كُلُّ كِبَائِرِ الْإِثْمِ لَمْ أُرْتَكِبْهَا» فإنك تجد أن هذا الكلام يفيد أنه لم يرتكب شيئاً من كِبَائِرِ الْإِثْمِ، ولذلك قد يعترض عليه بمثل قول القائل: «بل ارتكبت بعضها».

ثم انظر إلى قول القائل: «لم أرتكبْ كُلَّ كِبَائِرِ الْإِثْمِ» فإنك تجد أن صاحب هذا الكلام لا ينفي عن نفسه أنه ربما ارتكب بعض كِبَائِرِ الْإِثْمِ، من أجل هذا لم يصحَّ أن يُعْتَرَضَ عليه بمثل قول القائل: «بل ارتكبت بعضها» لأن هذا أمر لم ينفيه عن نفسه، وإنما قد يُعْتَرَضَ عليه بمثل قول القائل: «بل ارتكبتْ جَمِيعَ كِبَائِرِ الْإِثْمِ» إذا كان قد ارتكبها فعلاً.

(١) انظر فيه بحث «القضايا وأقسامها» مقولة «التحقيق في عموم السلب وسلب العموم».

فقول أبي النجم:

قَدْ أَصْبَحَتْ أُمُّ الْخِيَارِ تَدَّعِي عَلَيَّ ذَنْبًا كُلُّهُ لَمْ أَصْنَع

يفيد أنه لم يصنع شيئاً منه، لأنه قدّم أداة العموم على أداة السلب.

أمثلة وتطبيقات

أقدّم أمثلة وتطبيقاتٍ قد لا تكون شاملة لكل دواعي تقديم المسند إليه على المسند الفعلي، والمسند الذي يتحمّل الضمير كالفعل، رجاءً أن تكون هاديةً للدارس الباحث البلاغي، فيقيس عليها، ويستخرج ما يراه من دواعي بلاغيةٍ في مختلف النصوص التي يدرسها من كتاب الله عزّ وجلّ، وأقوال الرسول ﷺ، وأقوال البلغاء من ناثرين وشعراء ذواقي الأدب الرفيع، وعناصره الإبداعية والجمالية:

المثال الأول: قول الله عزّ وجلّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/

٨٩ نزول) بشأن فريق من اليهود:

﴿وَأَنَّ مِنْهُمْ لَفِرِيقًا يُلوْنُ أَلْسِنَتَهُم بِالْكَذِبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنْ أَلْكِتَابٍ وَمَا هُوَ مِنْ أَلْكِتَابٍ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾

جملة: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ جملةٌ حاليةٌ قدّم فيها المسند إليه على المسند الفعلي لتقوية الإسناد فيها وتأكيد، لأن مقتضى الحال يستدعي التقوية والتأكيد.

والسبب في ذلك أن هؤلاء كانوا يكتبون مكتوبات يزعمون أنّها ممّا أنزل الله في الكتب على رسلهم، ويتخذون مع ذلك حيلةً لترويج ما كتبوه وافتروه على الله

بغية أن يقبله عوامهم، وهي أن يَلُؤُوا أَلْسِنَتَهُمْ به لدى تلاوته، كما يفعلون لدى تلاوة ما أنزل الله من كتاب، فيخلطون المدسوس الذي هو من افترائهم بالأصل الصَّحِيح، للإيهام بأنه من كتاب الله، وهم بذلك يقولون على اللّهِ الكذب، ويعلمون ذلك من أنفسهم.

لكنهم لا يعترفون بأنهم يكذبون، فاقضى واقع حالهم سوق الكلام لهم بطريقة فيها تقوية وتأکید، فجاء في الجملة تقديم المسند إليه على المسند الفعلي، لما في هذا التقديم من تقوية وتأکید، كما سبق بيانه في المقدمة.

مع ما في تأخير المسند من دواعٍ جمالي في اللفظ، وهو مراعاة التناظر في رؤوس الآيات قبل الآية وبعدها.

* * *

المثال الثاني:

قول أبي العلاء «أحمد بن عبد الله بن سليمان المعري» من أبيات يرثي بها أحد الفقهاء:

بَانَ أَمْرُ الْإِلَهِ وَاخْتَلَفَ النَّاسُ فِدَاعٍ إِلَى ضَلَالٍ وَهَادِي
وَالَّذِي حَارَاتِ الْبَرِيَّةُ فِيهِ حَيَوَانٌ مُسْتَحْدَثٌ مِنْ جَمَادٍ
لقد صاغ جملة اسمية في تابع خبرها ما يحمل ضميراً يعود على مبتدئها المسند إليه، فتم له تقديم المسند إليه في جملة الاسمية التي فيها تقوية وتوكيد.

والداعي إلى هذا التقديم تمكين المسند في ذهن المتلقي، لأن في المسند إليه «المبتدأ» هنا تشويقاً للتعرف على خبره، إذ جاء فيما يتصل به أنه شيء حارث البرية بأمره، فالنفس تتساءل بشوق: ما هذا الذي حارث البرية فيه؟

ويأتي الجواب في الخبر: «حيوانٌ مستحدثٌ من جماد» والمراد الإنسان وسائر ما خلق الله من ترابٍ فنفخ فيه نسمة الحياة.

* * *

المثال الثالث :

قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الحجرات / ٤٩ / مصحف / ١٠٦ نزول):

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ۝ .

فإنَّ في المسند إليه «أكرمكم» الذي هو اسم «إنَّ» تشويقاً للتعرف على الخبر وهو «أتقانكم» فإذا جاء الخبر بعد ذلك تمكن من النفس لأنه جاء بعد تساؤلِ نَفْسِي عنه .

* * *

المثال الرابع :

قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (النمل / ٢٧ / مصحف / ٤٨ نزول):

﴿ وَحِشْرَ لِسِيَّاتِنَ جُنُودِهِمِ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ ۝ .

فَهُمْ يُوزَعُونَ: أي فهم يُجمعون في مكان جامع، وَيُرْتَبُونَ صفوفاً وَيُسَوَّوْنَ بانتظام، للقيام بما يكلفون من أعمال، أو للاستعراض.

أصل الوزع: الكفُّ والحبسُّ، والمراد كُفُّهم — بترتيبهم صفوفاً منتظمة — عن التفرق والانتشار، ومعلوم أنَّ الجنود حينما يُجمعون صفوفاً مُسَوَّاةً منتظمة يسهُل توجيه الأوامر والنواهي لهم للتحرك والتوقف، من قِبَلِ وليِّ أمرهم القائد.

وقد جاء تقديم المسند إليه في هذه الجملة لتأكيد الخبر باعتباره أمراً غريباً، إذ من المستغرب أن يُجمعَ جيشٌ واحدٌ في مكان جامع، وَيُنظَمَ صفوفاً مُسَوَّاةً، وأن يكون جُنُودُ هذا الجيش من الجنِّ والإنسِ والطير.

مع ما في تأخير المسندِ من داعِ جماليِّ في اللَّفظ، وهو مراعاة التناظر في رؤوس الآيات .

* * *

المثال الخامس :

قول الله عز وجل في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول) بشأن القرآن:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾

يُلاحظُ في هذه الآية تقديم المسند إليه، باختيار كون الجملتين فيهما اسميتين خبرهما يتحمل ضميراً يعود على المسند إليه فيهما.

ويظهر لنا من هذا التقديم عدة دواعي بلاغية:

(١) ابتداءً طَرَقِ الأسماع بضمير المتكلم العظيم، لإلقاء المهابة والإجلال ومشاعر التعظيم والتفخيم.

(٢) تمكين الإسناد الخبري فيهما وتوكيده، بالعدول عن اختيار الجملة الفعلية، إلى اختيار الجملة الاسمية التي يتحمل خبرها ضمير المبتدأ.

(٣) التوطئة لإيراد مؤكّداتٍ ثلاثٍ منها الجملة الاسمية، وهي: (حرف التوكيد «إن» وضمير الفصل «نحن» في الجملة الأولى) و (حرف التوكيد «إن» واللام المزحلقة، وتقديم معمول الخبر «له» المفيد للتخصيص في الجملة الثانية).

* * *

المثال السادس :

قول الله عز وجل في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى قَالُوا سَلَمًا قَالَ سَلَمٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ

حَنِيدٍ ﴾

حَنِيدٍ: أي: مشوي، يقال لغة: حَنَدَ العِجْلَ وَنَحَوَهُ يَحْنِدُهُ حَنْدًا وَتَحْنَادًا إِذَا شَوَاهُ، بَأَن دَسَّهُ فِي النَّارِ أَوْ فِي حِجَارَةٍ مُخَمَّاةٍ بِالنَّارِ.

نلاحظ في هذه الآية أنّ الرُّسُلَ من الملائكة لما جاءوا سيدنا إبراهيم عليه

السلام ليبيشروه بغلام من زوجته «سارة» العجوز العقيم، على صور بشر، لم يعرفهم في أول الأمر، وظنهم ضيوفاً من الناس، فسلموا عليه سلاماً ابتدائياً بجملة فعلية حذِف فعلها، وأبقي منها المفعول المطلق منصوباً بالفعل المحذوف، فقالوا: «سلاماً» أي: نُسِّم عليك سلاماً.

فرد إبراهيم عليه السلام تحيتهم بأحسن منها، فجاء بجملة اسمية هي أقوى وأكد من الجملة الفعلية، فقال: «سَلَامٌ» بالرفع، أي: سلامٌ عليكم، سواءً اعتبرنا «سلامٌ» مبتدأ، وهذا ممَّا يجوز فيه الابتداء بالنكرة، لأنه من المصادر، فعبرة «عليكم» المحذوفة إيجازاً، هي جار ومجرور متعلقان بخبر محذوف هو اسم فاعلٍ من الكون العام، وهو يتحمل الضمير كالفعل، وتقديره: سلامٌ كائنٌ عليكم، وقد سبق أن عرفنا أنَّ الجملة الاسمية التي يتحمل خبرها أو ما يتعلَّق به ضمير المبتدأ أقوى وأكد من الجملة الفعلية، أو اعتبرنا «سلامٌ» خبر مبتدأ محذوف تقديره: تحيتي سلام عليكم، فلفظ «سلام» مصدر يعمل عمل الفعل، فهو بقوة الجملة الفعلية.

* * *

المثال السابع:

لأم عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بني أمية على قبولهم استخلاف عمِّ بن عبد العزيز، لما أخذ هذا الخليفة الصالح التقي يرد المظالم إلى أهلها، ويحاسب الأمويين بالعدل وهم أهله الأقربون، وقد غلظ عليهم ما نالهم منه، فقال عبد الرحمن:

فَقُلْ لِهَشَامٍ وَالَّذِينَ تَجَمَّعُوا بِدَابِقٍ: مُوتُوا لَا سَلِمْتُمْ مَدَى الدَّهْرِ
فَأَنْتُمْ أَخَذْتُمْ حَتْفَكُمْ بِأَكْفُكُمْ كَبَاحِثَةٍ عَنِ مُذِيَةٍ وَهِيَ لَا تَدْرِي
عَشِيَّةً بَايَعْتُمْ إِمَاماً مُخَالِفاً لَهُ شَجَنٌ بَيْنَ الْمَدِينَةِ وَالْحِجْرِ

دابق: هو المكان الذي اجتمع كبار بني أمية فيه، وبايعوا عمر بن عبد العزيز خليفة.

حَتَفَكُم: أي: هلاككم.

كَبَّاحِثَةً: أي: كامرأة خرفاء تحفر التراب بكفيها على غير هدى فقد تقع يداها على ما يقطعهما، كالمُدية.

عَنْ مُدِيَةٍ: المُدِيَةُ الشَّفْرَةُ العظيمة.

لَهُ شَجَنٌ: أي: له حاجة دينية شاغلة له في مكة والمدينة، صارفة له عن مطالب الدنيا.

نلاحظ أنه قدّم المسند إليه على الخبر الفعلية بقوله لبني أمية أهله: «فَأَنْتُمْ أَخَذْتُمْ حَتَفَكُم بِأَكْفِكُمْ» ليقوي خبره ويؤكدده، وهو أنهم قد وقعوا في خطأ جسيم حين بايعوا عمر بن عبد العزيز، وهو تقي ورع، علائق قلبه ونفسه موصولة بمهابط الوحي، وليس هو على طريقة أسرته من بني أمية مُغرماً بالسلطان وزينة الحياة الدنيا، وظاهر أن مقتضى الحال يتطلب منه التقوية والتأكيد.

وقد ردّ عليه أحد ولد مروان معارضاً ومؤنباً بأبيات على مثل أبياته وزناً وقافية، وخاطبه بمثل طريقته من التقوية والتوكيد.

* * *

المثال الثامن:

قول أبي الطيب المتنبي من قصيدة يعتذر فيها لسيف الدولة عن تأخره عليه في نظم قصيدة جديدة يمدحه بها، ذاكراً فيها أن عذره ما نزل به من هم أسقمه، وأضرم ناراً في قلبه، دون أن يكون هو الذي جلب هذا الهم إلى نفسه، ودون أن يكون قادراً على دفعه:

وَمَا أَنَا أَسْقَمْتُ جِسْمِي بِهِ وَمَا أَنَا أَضْرَمْتُ فِي الْقَلْبِ نَارًا

نلاحظ أنه قدّم المسند إليه المسبوق بالنفي في الشطرين لإفادة التخصيص مع التقوية والتوكيد، فلخبر فعليّ.

والمعنى: إنَّ السَّقَمَ الذي نزل بجسمي من الهَمِّ، والنَّارَ التي أُضْرِمَتْ في قلبي منه، لم يكونا مني حتى أَلَامَ على تأخري عنك، بل وفدَا عليّ من قوّة قاهرة لإرادتي، فلم أجلبهُما ولم أستطع رَدَّهُما، ولذلك قال بعده في القصيدة:

فَلَا تُلْزِمْنِي ذُنُوبَ الزَّمَا نِ إِلَيَّ أَسَاءَ وَإِيَّايَ ضَارَا
ضَارًا: مثل «ضَرَّ» يقال: ضَارَهُ يَضِيرُهُ ضَيْرًا، وَضَرَّهُ يَضُرُّهُ ضُرًّا وَضَرًّا.

ونظيره قول المتنبيّ أيضاً يمدح علي بن عامر الأنطاكي:

وَمَا أَنَا وَحْدِي قُلْتُ ذَا الشُّعْرِ كُلَّهُ وَلَكِنْ لِشِعْرِي فِيكَ مِنْ نَفْسِهِ شِعْرُ

فقدّم المسند إليه المنفيّ الذي خبره فعليّ، لإفادة التقوية والتخصيص، أي: ما أنا المنفرد وحدي بقول هذا الشعر، ولكن أعانني عليه شعري نفسه، لأن شعري أراد مدحك كما أردته.

قال العُكْبَرِيُّ: وهو معنى قول الطائي:

تَغَايِرَ الشُّعْرِ فِيهِ إِذْ أَرِقْتُ لَهُ حَتَّى ظَنَنْتُ قَوَائِمَهُ سَتَقْتَتِلُ
تَغَايِرَ: أي: غار بعضه من بعض، أو تخالَفَ بعضه مع بعض.

* * *

المثال التاسع:

قول الرسول ﷺ يوم حنين وهو على بغلته كما جاء عند البخاري ومسلم:

أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبَ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ

فقدّم المسند إليه في جملة اسمية خبرها يحمل ضمير المبتدأ، مفتخراً بشبابه

وقد فرَّ الناس، ومفتخراً بنبوته وينسبه الشريف، لأنَّ المقامَ يحسُنُ فيه الفخر، وقد علمنا أن من دواعي تقديم المسند إليه إرادة الافتخار.

* * *

المثال العاشر:

قول أبي تمام:

وَعَيْرِي يَأْكُلُ الْمَعْرُوفَ سُحْتًا وَتَشْحَبُ عِنْدَهُ بِيضُ الْأَيْدِي

سُحْتًا: السُّحْتُ: المال الحرام، وكلُّ ما خَبُثَ وَقَبِحَ من المكاسب، كالرشوة والغُلُول والربا.

تَشْحَبُ: يتغير لونها. يريد أن بِيضَ الأيدي تظلَّ عنده بيضاء فهو لا يجحدها ولا يكفرها.

قدّم كلمة «غير» إذ أراد بها الكناية عن نفسه، وقد عرفنا أن كلمتي «غير» و«مِثْلَ» تلازمان التقديم إذا أريد بهما الكناية عن الشخص المتحدّث عنه في الأساليب العربيّة البليغة.

* * *

(٤)

دواعي تقديم المسند إذا كان الأصل فيه التأخير

ذكر علماء البلاغة من الدواعي البلاغية لتقديم المسند إذا كان الأصل فيه التأخير أربعة أمور، ويمكن أن نضيف إليها كثيراً من الدواعي التي سبق بيانها لتقديم المسند إليه إذا كان الأصل فيه التأخير، وكذلك غيرها من الدواعي مما تتفق عنه قرائح البلغاء الأذكياء.

الداعي الأوّل: تخصيص المسند بالمسند إليه، أي: قَصُرُ المسند على

المسند إليه، فلا يكون لغيره، وسيأتي إن شاء الله في بحث القصر بيان القصر الحقيقي والقصر الإضافي.

أمثلة:

(١) قول الله عزّ وجلّ في سورة (القصص / ٢٨ مصحف / ٤٩ نزول):

﴿ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْكَرَمُ الْأَوَّلُ وَالْآخِرَةُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾.

في هذه الآية جملتان قدّم فيهما المسند على المسند إليه، هما:

● ﴿ لَهُ الْكَرَمُ الْأَوَّلُ وَالْآخِرَةُ ﴾.

● ﴿ وَهُوَ الْحُكْمُ ﴾.

والجملتان اسميتان، والأصل فيهما تقديم المسند إليه، وقدّم فيهما المسند لإفادة التخصيص بمعنى القصر، وإليك التحليل:

المسند	المسند إليه
له	الحمد في الأولى والآخرة
له	الحكم

اللام بمعنى الاختصاص، أي: اختص الله بكلّ الحمد وبكلّ الحكم، بمعنى أنّ كلّ الحمد وكلّ الحكم مقصوران عليه، لا يتعديان إلى غيره سبحانه.

(٢) قول الله عزّ وجلّ في سورة (الروم / ٣٠ مصحف / ٨٤ نزول):

﴿ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ... ﴾ [الآية ٤].

هذه جملة اسمية، والأصل فيها تقديم المسند إليه، وقدّم فيها المسند لإفادة

التخصيص، أي: الحصر، وإليك التحليل:

المسند	المسند إليه
لِلَّهِ	الأمر

اللام بمعنى الملك، والجار والمجرور متعلقان بخبر مقدم مقدر، والمعنى اختص ملك الأمر بالله، أي: كل الأمر مقصور ملكه على الله سبحانه، لا يتعداه إلى غيره.

ونظير ذلك قول الله عز وجل في سورة (الكافرون/ ١٠٩ مصحف/ ١٨ نزول):

﴿لَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّخَذَ آلُكَرِيمٍ﴾

(٣) قول الله عز وجل في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْوِلُنَا أَقْدَامَنَا فِي عَفْوَكَ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾

الشاهد: جملة ﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، ﴿إِذَا﴾ فجائية ﴿هي﴾ ضمير القصة، وهو مبهم جاء تفسيره في الجملة بعده، ويؤتى في البيان العربي بضمير القصة لتعظيم الأمر المبهم الذي سيأتي تفسيره.

﴿شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ جملة فُؤم فيها الخبر وهو ﴿شَاخِصَةٌ﴾ على المبتدأ وهو ﴿أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لإرادة التخصيص، على معنى تخصيص الشخص بأبصار الذين كفروا يوم القيامة، دون غيرهم وهم أهل الإيمان.

(٤) قول الله عز وجل في سورة (الصفات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول):

بشأن عباد الله المخلصين في جنات النعيم:

﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴿٤٥﴾ بِيضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾

غَوْل: الغَوْل ما يحدثه شرب الخمر من صداع وسكر، والغول الإهلاك، يقال: غاله غَوْلًا إذا أهلكه.

يُنْزَفُونَ: يَسْكُرُونَ - تذهبُ عقولهم، يقال لغة: شرب خمرًا فأنزف، أي: سكر، أو ذهب عقله.

الشاهد: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ قَدَّمَ المسندُ هو ﴿فِيهَا﴾ المتعلق بخبر محذوف مقدر، وآخر المسند إليه وهو ﴿غَوْلٌ﴾ لإفادة التخصيص، أي: خمر الجنة مخصوصة بنفي الغول عنها بخلاف خمر الدنيا، فنفي الغَوْلِ مقصورٌ على خمر الجنة لَا يَتَعَدَّهَا إلى غيرها من الخمر، وهي خمور الدنيا. والنصوص القرآنية الشواهد على هذا الداعي كثيرة.

* * *

الداعي الثاني: قالوا: التَّيْبَةُ من أول الأمر على أنه خبرٌ لا نعت، إذا كان تأخيره قد يوهم ابتداءً أنه نعتٌ للمسند إليه.

ويمكن أن نصوغ هذا الداعي بأن نقول: دفع سَبَقِ التَّوْهَمِ إلى أنه نعت، بالتَّيْبَةِ على أنه خبر مع بدء الجملة.

أمثلة:

(١) قول أبي بكر بن التَّطَّاحِ في وصف أبي ذُلف العجلي:

لَهُ هِمَمٌ لَا مُتْتَهَى لِكِبَارِهَا وَهَمَّتُهُ الصُّغْرَى أَجَلٌ مِنَ الدَّهْرِ

أصل الكلام: «هِمَمٌ لَهُ لَا مُتْتَهَى لِكِبَارِهَا» لكن هذه الصيغة توهم أن «لَهُ» صفة لهمم، لأن النكرة تستدعي النعت أكثر مما تستدعي الخبر، وهو يريد أن يُثبت لممدوحه همماً لا متتهى لكبارها، ودفعاً للتوهم الذي كان يمكن أن يحدث قَدَّمَ المسند وهو «له» على المسند إليه وهو «هِمَمٌ لَا مُتْتَهَى لِكِبَارِهَا».

وجاء في شعره فيه بعد هذا البيت قوله:

لَهُ رَاحَةٌ لَوْ أَنَّ مِعْشَارَ جُودِهَا عَلَى الْبِرِّ كَانَ الْبِرُّ أُنْدَى مِنَ الْبَحْرِ

فقدّم المسند وهو «له» على المسند إليه وهو «راحة» لأن «راحة» نكرة غير موصوفة، فلا يجوز نحوياً الابتداء بها، فوجب تقديم المسند على المسند إليه وفق القواعد النحوية، لا بمقتضى داعٍ بلاغي.

(٢) قول الله عزّ وجلّ في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول): بشأن عذاب الذين كفروا يوم القيامة.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِمٌ﴾

﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

جاء في هذه النصوص تقديم المسند وهو ﴿لَهُمْ﴾ على المسند إليه وهو ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ - عَذَابٌ مُّهِمٌ - عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لئلا يسبق إلى التوهّم أن المسند قد سبق على سبيل النعت للمسند إليه، وأن الخبر لم يأتِ بَعْدُ، مع ما في هذا التقديم من مراعاة داعٍ جمالي في اللفظ، اقتضته رؤوس الآيات.

* * *

الداعي الثالث: أن يكون في المسند ما يدعو إلى التفاؤل بالخير أو التشاؤم من الشرّ، ويريد موجّه القول المبادرة بما يحدث في نفس المتلقّي من التفاؤل أو التشاؤم.

كأن تقول لمن تريد أن يحسّ بالتفاؤل: مع أذان الفجر أو عند شروق الشمس ولادة ابنك.

وكأن تقول لمن تريد إثارة تشاؤمه وقد سأل متى يكون زواجه: حين تصيح البومة زواجك.

ومن إرادة الإشعار بالتفاؤل، قول الشاعر:

سَعِدَتْ بَغْرَةً وَجْهَكَ الْأَيَّامُ وَتَزَيَّنَتْ بِلِقَائِكَ الْأَعْوَامُ

* * *

الداعي الرابع: إرادة التشويق إلى ذكر المسند إليه، ويكثر هذا الداعي في المدح والوعظ.

● فمن أمثله في المدح قول محمد بن وهب يمدح المعتصم:

ثَلَاثَةٌ تُشْرِقُ الدُّنْيَا بِبَهْجَتِهَا شَمْسُ الضُّحَى وَأَبُو إِسْحَاقَ وَالْقَمَرُ

● ومن أمثله في الوعظ، قول أبي العلاء المعري:

وَكَالنَّارِ الحَيَاةُ فَمِنْ رَمَادٍ وَأَوَّحِرُهَا وَأَوْلَهَا دُخَانُ

● ومن أمثله قول الشاعر:

ثَلَاثَةٌ لَيْسَ لَهَا إِيَابُ الْوَقْتُ وَالْجَمَالُ وَالشَّبَابُ

* * *

(٥)

دواعي تقديم متعلقات الفعل عن مراتبها

ذكر علماء البلاغة طائفةً من الدواعي البلاغية لتقديم ما هو من متعلقات الفعل عن مرتبته، ويمكن أن تضاف إليه طائفةٌ أخرى مما سبق عرضه في تقديم المسند إليه، وتقديم المسند، وطائفةٌ أخرى مما تتفق عنه قرائح البلغاء الفطناء.

يُقَصَّدُ من متعلقات الفعل المفعولُ به، والجارُ والمجرور، والظرف، والمفعولُ المطلق، والمفعولُ معه، والمفعولُ لأجله، والحالُ، والتمييزُ في أحوال قليلة ونادرة.

الداعي الأول: إرادة التخصيص، وهو قَصْرُ الحكم (الناتج عن إسناد المسند

إلى المسند إليه) على المقدم من متعلقات الفعل على الفعل أو ما في معناه، مما يعمل عمله، وتساعد القرائن على اكتشاف إرادة التخصيص.

أمثلة:

(١) قول الله عزّ وجلّ في سورة (الفاتحة/ ١ مصحف/ ٥ نزول):

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

إِيَّاكَ: في الجملة الأولى مفعول به مقدم على فعله وهو ﴿نَعْبُدُ﴾.

وَإِيَّاكَ: في الجملة الثانية مفعول به مقدم على فعله وهو ﴿نَسْتَعِينُ﴾.

وقد أفاد هذا التقديم تخصيص وحصر عبادة العابد الذي يتلو هذه الآية باللّه عزّ وجلّ، المخاطب بضمير الخطاب ﴿إِيَّاكَ﴾ وتخصيص وحصر استعانته به إذا استعان.

(٢) قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿يَنبَغِي لِإِسْرَائِيلَ أَنْذِكُرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفٍ بِمَهْدِكُمْ وَإِنِّي فَأَرْهَبُونَ﴾^(٤١)
وَمَا آمَنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْرَوْا بِأَبْنِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَأَنْقُونَ﴾^(٤٢).

الشاهد في جُمْلَتِي ﴿وَإِنِّي فَأَرْهَبُونَ﴾^(٤١) و ﴿وَإِنِّي فَأَنْقُونَ﴾^(٤٢) ففيهما تقديم المفعول به على فعله، وقد أفادَ هذا التقديم التخصيص والحصر، والمعنى: لا ترهبوا غيري من الشركاء، ولا تنقوا غيري من الشركاء.

(٣) قولي في مدح الرسول محمد ﷺ:

إِلَيْهِ مَدِيحًا سَقْتُ غُرَّ فَصَائِدِي
فَعَنُهُ عَرَفْتُ الثُّورَ فِي ظُلْمَاتِي
وَفِي حُبِّهِ السَّامِي أَجُودُ بِمُهْجَتِي
فَذَلِكَ فَرَضٌ مِثْلُ فَرَضِ صَلَاتِي
إِذَا كَانَ ذُو الْعَرْشِ اضْطَفَاهُ عَلَى الْوَرَى
فَحُبِّي لَهُ مِنْ مُسْعِدَاتِ حَيَاتِي

إليه مَدِيحاً: معمول لفعل ﴿سُقَّتْ﴾ مقدّم عليه لإرادة التخصيص.

فَعَنَهُ: معمول لفعل ﴿عَرَفْتُ﴾ مقدّم عليه لإرادة التخصيص.

وفي حَبِّهِ السَّامِي: معمول لفعل ﴿أَجُودُ﴾ مقدّم عليه لإرادة التخصيص من دون سائر عباد الله.

(٤) قول الله عزّ وجلّ في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول): خطاباً لرسوله محمد ﷺ:

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (١٢٩).

عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ: أي: أَخْصُهُ وَخَدَهُ بِتَوَكُّلِي، وَقَدْ فَهِمَ هَذَا مِنْ تَقْدِيمِ الْمَعْمُولِ عَلَى عَامِلِهِ.

ونظير هذا كثير في القرآن مثل: ﴿وَالَيْكَ أَنْبَأْنَا - إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ - فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ - ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ - إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ - وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾.

(٥) قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول): خطاباً للمؤمنين أتباع الرسول محمد ﷺ:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا...﴾ [الآية ١٤٣].

لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ: جاء في هذه العبارة تأخير المعمول ﴿على الناس﴾ على عامله «شهداء» وفق أصل الترتيب، إذ لا يُوجَدُ دَاعٍ لِلتَّقْدِيمِ، إذ أتباع محمد ﷺ مكلفون أن يُبَلِّغُوا رسالة الله للناس، ليكونوا يوم القيامة شهداء عليهم بهذا التبليغ، وليست شهادتهم بعد تبليغهم خاصة بناس دون ناس، لأنّ الخطاب

لعموم المؤمنين، والمطلوب تبليغهم عموم غير المؤمنين، لا خصوص فريق منهم.

وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا: وجاء في هذه العبارة تقديم المعمول ﴿عليكم﴾ على عامله ﴿شهِيداً﴾ على خلاف أصل الترتيب، لوجود داع بلاغي لهذا التقديم، وهو أن بلاغ الرسول ﷺ بلاغٌ مخصوص بالقرنِ الأوَّلِ الَّذِينَ بَلَّغَهُمْ مُشَافَهةً مِنْ أُمَّتِهِ، أمَّا الَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ فَقَدْ بَلَّغَهُمِ الْمُبَلِّغُونَ مِنْ أَهْلِ الْقَرْنِ الأوَّلِ، وهكذا تسلسلاً قرناً بعدَ قرن.

لقد تنبه إلى الفرق بين العبارتين في هذه الآية وإلى الداعي البلاغي الذي ذكرته «الزمخشري» في كشفه، وقد أحسن.

(٦) قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (مريم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول) في بيان ما خاطب به المبشر من الملائكة زكرياً عليه السلام بسلام اسمه يحيى، بعد أن أظهر له تعجبه من أن يأتيه غلام في حالة كون امرأته عاقراً وكونه قد بلغ من الكبر عتياً:

﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ۗ ﴾

هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ: في هذه الجملة تقديم المعمول ﴿عَلَيَّ﴾ على عامله ﴿هَيِّنٌ﴾ لإفادة أن ما يراه أمراً صعباً في مقاييس القدرات البشرية، هو بالنسبة إلى الله على وجه الخصوص هَيِّنٌ، فاقترض حال زكرياً عليه السلام وتعجبه وتساؤله أن يُنَبِّهَ على أن ما تعجَّبَ منه هو ممَّا اختصَّ اللهُ بِأَنَّهُ هَيِّنٌ عَلَيْهِ.

ملاحظة:

إذا كان العامل منفيًا وقدم عليه المعمول كانت دلالة التقديم على التخصيص والحصر أمراً لازماً، فلا يجوز أن يُتَّبَعَ الْكَلَامُ بما يَنْقُضُ هذا الحصر، فلا يُقَالُ نحو: «ما زِيداً ضَرَبْتُ وَلَا غَيْرَهُ» لأنَّ عبارة «ما زِيداً ضَرَبْتُ» تدلُّ على تخصيص

زيد بعدم ضربه، لكنها تُفيد أنه قد ضرب غيره، فتأتي عبارة «وَلَا غَيْرَهُ» ناقصةً للدلالة التي أفادها التخصيص.

* * *

الداعي الثاني: الاهتمام بشأن المقدم، أو الإشعار بالاهتمام به، كأن تُوصي مَنْ طَلَبَ مِنْكَ أَنْ تَنْصَحَهُ فْتَقُولْ لَهُ:

«بِوَالِدَيْكَ كُنْ بَرًّا، ثُمَّ كُنْ بَرًّا بِالْأَقْرَبِينَ وَالْأَرْحَامِ».

وَالْفِقْهَ أَحْرَضَ عَلَى تَعَلُّمِهِ أَوْلًا ثُمَّ تَعَلَّمَ سَائِرَ عُلُومِ الدِّينِ وَمَا يَخْدُمُهَا مِنَ الْعُلُومِ الَّتِي بِهَا تُفْهَمُ التُّصَوُّصُ وَتُسْتَنْبَطُ الْأَحْكَامُ.

وَتَقْوَى اللَّهِ الزَّمَّ فِي أَمْرِكَ كُلِّهِ، ثُمَّ تَزَوَّدَ فَوْقَ ذَلِكَ مِنَ الصَّالِحَاتِ.

وَالشَّرْكَ أَحْذَرُ أَنْ يُخَالِطَ نَيْتَكَ فِي أَعْمَالِكَ.

في هذه الوصايا قُدِّمَ المعمولُ على عامله لتوجيه الاهتمام وبالغ العناية، ولم يُقَدِّم لإفادة التخصيص والحصص.

● ومن الأمثلة قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (السجدة) / ٣٢ مصحف/

٧٥ (نزل):

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ آيَمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿بِآيَاتِنَا﴾ معمولٌ مقدَّم على عامله وهو ﴿يُوقِنُونَ﴾ وقُدِّم للإشعار بأهمية آياتِ الله في حياة البشر، وبقيمتها العظيمة في رحلة امتحانهم، فالإيقان بها هو الذي يُصَحِّحُ مسيرتهم ويُقوِّمُ سلوكهم، وليس الغرض حصر الإيقان بها، فأركان الإيمان التي يجب الإيقان بها لا تقتصر على آيات الله.

مع ما في تأخير ﴿يُوقِنُونَ﴾ من مراعاة عنصر جماليٍّ تستدعيه رؤوس

الآيات.

* * *

الداعي الثالث: إرادة ردّ الخطأ في التعيين أو الاشتراك، جواباً أو بياناً لمن ذكّر أو ادّعى أو اعتقد خلاف ذلك .

فمن أمثلة ردّ الخطأ في التعيين:

دخل «خالد بن سعيد» سوق بيع الأنعام، فاشترى جملاً ليحجّ عليه، وأخذ خطامه، وجرّه وراءه، فعدا عليه اللصوص ضمن الزحام وهو لا يشعر، فقطعوا خطام الجمل، ووصلوه برأس حمار، ومشى الشاري غافلاً، ثم التفت فرأى أنه يجرّ وراءه حماراً، فصاح أين جملي، فقال له من في السوق وهم يعلمون حيل اللصوص في سوقهم: أما اشتريت حماراً؟ فردّ عليهم بقوله: جملاً اشتريت، جملاً اشتريت، وأبدله اللصوص بحمار.

أي: لم أشر حماراً وإنما اشتريت جملاً، فردّ قولهم في تعيين ما اشترى إلى الصواب، بأسلوب تقديم المعمول على عامله.

ومن أمثلة ردّ ادّعاء الاشتراك:

● اشترى «عبد الرحمن» حصاناً وبقرة وثوراً لمزرعته، من سوق البقر والخيل، وسلّمه البائع البقرة وتشاغل، ثم ادّعى أنه سلّمه الحصان والثور.

فقال «عبد الرحمن»: بقرّة استلمت منك، أي: لم أستلم بعد الحصان والثور وإنما استلمت البقرة فقط.

● وقال الزوج لزوجته في خصومة بينهما: قدّمت لك ليلة العرس عقداً وسوارين بيديّ هاتين.

فردّت عليه بقولها: «عقداً بيدك قدّمت لي» أي: لم تقدّم لي سوارين، ولم تستعمل يديك الاثنتين، بل استعملت يداً واحدة.

وقال لها: نسلمتكَ يوم العرس من أمك وأبيك.

فردت عليه بقولها: «من أُمِّي تَسَلَّمْتَنِي» أي: لم يُشَارِكِ أبِي فِي هَذَا الْأَمْرِ.

● وقال المتفاخر بقمع الجناة من قُطَاعِ الطَّرِيقِ: قَطَعْتُ رُؤُوسَ عَصَابَةِ الْجَنَّةِ.

فردّ عليه أحد حاضري المعركة: «رَأْسَ جَانٍ قَطَعْتَ» أي: لم تقطع غيره.

● وقال الرفيق لرفيقه: صحبتك في زيارتي لمكة وفي زيارتي لمسجد

الرسول ﷺ.

فردّ عليه بقوله: «في زيارتي لمكة صحبتني» أي: لم نتصاحب في الزيارة

لمسجد الرسول ﷺ.

* * *

الداعي الرابع: التنبيه على أن المقدم هو مناط الإنكار أو الاستغراب

أو الاستعظام أو لفت النظر أو نحو ذلك.

أمثلة:

● أراد المربي أن ينكر سلوكاً عابَهُ على تلميذه، وأن يبادرَهُ بتنبيهه عليه،

فقال له:

«رِجْلَكَ تَمُدُّ إِلَى وَجْهِ دُونَ احْتِرَامٍ، وَصَوْتُكَ تَرْفَعُ فِي مَجْلِسِي بَعْدَ طُولِ

تَأْدِيبِي لَكَ، وَتَعْلِمِي إِيَّاكَ.

فقدم المعمول على عامله في الجملتين لتنبيهه على مناط الإنكار.

● وقال أبو العلاء المعري منكرًا على من زعم أنه يُصَدِّقُ الوَاشِي، وَيُخَيِّبُ

السائل:

أَعْنَدِي وَقَدْ مَارَسْتُ كُلَّ خَفِيَّةٍ يُصَدِّقُ وَاشٍ أَوْ يُخَيِّبُ سَائِلٌ

فقدم الظرف «عندي» على عامله «يُصَدِّقُ» وما عطف عليه، ليدلّ على مناط

إنكاره.

● وعبر المتفرج في مجمع غرائب الألعاب الرياضية «السيرك» عن استغرابه فقال مقدماً المعمول على عامله:

«عَشْرَةَ أَشْخَاصَ حَمَلَ اللَّاعِبُ عَلَى خَشْبَةٍ فَوْقَ رَأْسِهِ».

● وعبر مُعْظَمُ خَلْقِ اللَّهِ عَنْ ظَوَاهِرِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ فِي كَوْنِهِ فَقَالَ:
«السَّمَاءَ رَفَعَ بِغَيْرِ عَمَدٍ، وَالرِّيحَ سَخَّرَ فِي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ عَظِيمَةٍ لَا تُحَدِّدُ، وَنَسَمَةَ الْحَيَاةِ نَفَخَ فِي مُصَوِّرَاتٍ مِنَ الطِّينِ، فَكَانَتْ كَاتِنَاتٍ حَيَّةً عَجَبًا».

فقدم المعمولات «السماء – والريح – ونسمة الحياة» للإشعار بمناط التعظيم.

● وأراد المحادث أن يلفت نظر محدثه إلى مكان نظارة عينيه التي يبحث عنها، فقال له:

«إِلَى رَأْسِكَ مَدَّ يَدَكَ تَجِدُهَا».

فقدم المعمول على عامله للمسارعة بلفت النظر.

● واستعظم العالم الباحث المطلع على المؤلفات كتاباً ألفه أحد العلماء المعاصرين له، فأراد التنبيه على ما استعظم فقال:

«مَوْسُوعَةٌ شَامِلَةٌ أَلْفَ فِلَانٍ فِي عِلْمٍ كَذَا».

فقدم المعمول على عامله.

وهكذا إلى أمثله كثيرة مناظرة.

الداعي الخامس: إرادة المبادرة إلى التلذذ بذكر اسم المحبوب في الجملة، مثل أن يقول العاشق بشأن معشوقته هند:

هِنْدًا عَشِقتُ وَإِنْسَانًا بِمُقَلَّتِهَا قَلْبِي يُدَاعِبُهُ بِالضَّمِّ وَالْقُبْلِ

* * *

الداعي السادس: إرادة المبادرة إلى التبرك بذكر اسم الربّ في الدعاء، مثل
أن يقول الداعي:

رَبِّي دَعَوْتُ وَأَرْجُو فَيْضَ رَحْمَتِهِ وَأَنْ أَنْالَ لَدَيْهِ مُتَّهَى أَمَلِي

الداعي السابع: إرادة التهويل، أو التخويف وإلقاء الرعب، إذا كان المقدم
فيه ما يخيف ويُرعب، مثل:

«بِالْحَدِيدِ الْمُحْمِي قَيْدُوهُ، وَإِلَى بئْرِ التَّعْذِيبِ خُذُوهُ»

الداعي الثامن: مراعاة النسق الجمالي اللفظي، في قوافي الشعر، وسجع
النثر، وفواصل رؤوس الآيات في القرآن.

والأمثلة على هذا الداعي كثيرة، منها:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الحاقة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزل): بشأن الكافر
الذي يؤتى كتابه بشماله يوم القيامة:

﴿ خُذُوهُ فَعَلُوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ لَنَحْمِ صَلْوُهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُ كَانَ لَا
يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ ﴾

جاء في هذا النص تقديم المعمول مرتين، لمراعاة الجمال في رؤوس الآيات
في السورة، مع ما في المواطنين من البدء بإلقاء الرعب في قلوب الكافرين المجرمين.

(٦)

دواعي تقديم بعض معمولات الفعل

على بعض في الجملة ولو تكافأت مراتبها

من شأن البليغ دائماً أن يتصرف في رصف وترتيب عناصر جملته التي يُنشئها

تصرفاً حكيماً وفتياً، يراعي فيه جوانب بلاغية معنوية، أو جوانب جمالية معنوية أو لفظية.

وعمله في هذا كمنظم العقود حينما يرصف حبات عقده ويرتبها ترتيباً يحقق فيه جوانب ذوقية جمالية، وجوانب جوهرية في عناصر الحبات واختلاف أصولها وقيمها وألوانها.

إذا كان لدى البليغ معنى يريد الدلالة عليه ولو على سبيل الإشارة، وهذا المعنى يمكن استفادته من تقديم عنصر من عناصر جملة على عنصر آخر من عناصرها فعَل ذلك، ما لم يكن ممتنعاً في قواعد اللّغة العربيّة وضوابطها، حتّى العناصر المتكافئة في المرتبة كالنوعت فيما بينها، وكالمعطوفات المتعدّات التي تعطف بالواو التي لمطلق الجمع، ولا تقتضي ترتيباً ولا تعقيماً، وكألفاظ التوكيد المعنوي، فإنّه يهتمُّ بأن يقدّم ويؤخّر برؤى بلاغية أدبية وفكريّة متى انقدحت لديه فكرة مناسبة، يمكن الدلالة عليها بأسلوب التقديم والتأخير.

وفي مجال ترتيب عناصر الجُمَل في الكلام تظهر براعة كبار البلغاء والأدباء، وتتفاوت مراتبهم، وفوق كلّ القمم ترتقي جوانب الإعجاز القرآني في رصف عناصر الجملة، وترتيبها، ورصف عناصر الجمل وترتيبها، كما ترتقي في كلّ مجال فكريّ وبلاغي.

ومع احتمال أن تتوارد هنا دواعي كثيرة من الدواعي التي سبق بيانها في دواعي تقديم المسند إليه، ودواعي تقديم المسند، ودواعي تقديم متعلقات الفعل، وأن يُقاس على أمثلتها، فيحسن أن نورد هنا بعض الدواعي، مع بعض الأمثلة.

وعلى دارس النصّ البليغ أن يبحث ليكتشف ما دَعَا منشئ الكلام إلى أن يقدّم وأن يؤخّر. ولا سيما حينما يأتي الترتيب على خلاف الأصل، أمّا إذا جاء الترتيب على وفق الأصل فيحسن أن لا يتعب نفسه بالبحث عن العلة، إلّا أن

يكشف عَرَضاً داعياً مناسباً، فعندئذٍ يمكن أن يجعله عاملاً مرجحاً لإبقاء الشيء على أصله.

فمن الدواعي هنا ما يلي:

الداعي الأول: أن يكون ذكر المقدم أهم في نظر منشيء الكلام لغاية ما يرمى إليها.

* * *

الداعي الثاني: مراعاة الترتيب الطبيعي في المعاني، كأن يقدم في المتعاطفات بالواو اللفظ الدال على الإيمان على اللفظ الدال على الإسلام، لأن الإيمان هو الأساس فلا يصح إسلام ما لم يكن قائماً عليه، وكأن يقدم اللفظ الدال على التقوى على اللفظ الدال على البر، لأن الارتقاء إلى مرتبة البر لا يكون إلا بعد استكمال حقوق مرتبة التقوى، وقد يعكس الأمر لغرض الإشعار بأفضلية المقدم وأن مرتبته أعلى، وبغية التشجيع على العمل به، كتقديم اللفظ الدال على البر على اللفظ الدال على التقوى.

* * *

الداعي الثالث: إرادة الترقّي من الأدنى إلى الأعلى، أو العكس، أو إرادة البدء بالظاهر، فما يتصل به من الأسباب، وهكذا تسلسلاً إلى الأسباب الباطنة الخفية، حتى السبب الأول، أو البدء بما هو بمنزلة الأساس فما يتصل به. وهكذا تدرجاً إلى الأعلى فالأعلى حتى القمة.

ومن أمثلة التدرج من الأدنى إلى الأعلى قول الله عزّ وجلّ في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول) مبيناً مراتب ودرجات المؤمنين:

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُاذِنُ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾

والأغراض الداعية إلى ذلك كثيرة لا تحصر، فمنها ما هو بيان لفكرة ومنها ما هو الأفضل في التعليم، ومنها ما يُحَقِّقُ فوائد تربوية ومنها جماليّ فنيّ، إلى غير ذلك.

ومن أساليب العرب أن يَدَّوُوا في المدح بالصفة الدّنيا، ثم يرتقوا إلى الأعلى فالأعلى، وأن يبدؤوا في الذم بالصفة الأَحْسَن، ثم يذكروا الأَخْفَ فالأخف.

وجاء في تعبيرات القرآن المجيد تقديم الأشياء الصغيرة على الكبيرة، للدلالة على تأكيد الشمول، من خلال الإشعار بالاهتمام بالصغير، وأنه ليس مما يُهْمَلُ ويُتَسَامَحُ بعدم العناية به، كما يقول البائع هذا بخمسةِ وألف، فيقول الراغب في الشراء، ألا تبيع بألف، فيقول له: الخمسة قبل الألف.

ومنه قول الله عزّ وجلّ في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول):

﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٤﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ ﴿٥٥﴾ ﴾

فدلّ تقديم «صغير» على أن الشُّمُولُ في كتابة كلِّ الأفعال متحقق دون استثناء ما يراه الناس صغيراً ومن المحترقات.

وجاء في تعبيرات القرآن البدء بما يقع في مُذْرَكَاتِ الناس من الأشياء الصغيرة، والعطف عليها بما هو أصغر منها، فما هو أكبر منها، فقال الله عزّ وجلّ في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦١﴾ ﴾

إنّ المخاطبين من جماهير الناس لا يعرفون أصغر من الدّرة، فبدأ القرآن بها، وأبان لهم بالعطف عليها أنه يوجد ما هو أصغر منها، وهنا ينطلق الذهن في المصغرات إلى مقدار يستحيل تقسيمه ذهنياً، وعطف عليه بعد ذلك ما هو أكبر،

وينطلق الذهن إلى الأشياء الكبيرة العظيمة التي لا يستطيع التصور الإحاطة بها، فشمّل النصّ كلّ شيءٍ.

وجاء في القرآن البدء بمنّ يحتل الدرجة العليا، فمن يحتل الدرجة التي دونها، فمن يحتل الدرجة التالية، ومنه قول الله عزّ وجلّ في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول):

﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ...﴾ [الآية ١١٧].

فبدأ بالنبيّ، وعطفَ عليه المهاجرين، وعطفَ عليهم الأنصار الذين اتبعوا الرسول في ساعة العُسرة، مراعاةً لأفضليات المراتب والدرجات.

ونلاحظ في سورة (التوبة) أيضاً ترتيباً روعي فيه الترتيب الواقعيّ في الأحداث، وهو قول الله عزّ وجلّ فيها بشأن الذين خرجوا مع الرسول لغزوة تبوك:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

إنّ الذين خرجوا إلى غزوة تبوك وهذا صالح للتعميم في معظم الغزوات، أوّل ما أصابهم الظمأ بسبب نفاذ الماء، وانعدام مصادر الماء في طريقهم، وبعد ذلك أصابهم النّصب، وهو التعب، فالرحلة في أرض صحراء، وفي حرّ شديد، وبعد ذلك انتهت أزوادهم فنزلت بهم المخمصة، أي: المجاعة، وبعد اقترابهم من تبوك وَطئوا موطئاً يغيظ الكفّار، وبعد ذلك نالوا من عدوهم عند تبوك نيلاً فرح به الغزاة الخارجون مع الرسول من أهل الإيمان والصدق.

فجاء الترتيب في الآية على وفق الترتيب في الأحداث، وهذا من دقة الأداء البياني.

وقد يلاحظ في الترتيب تدرّج أحوال النفس، وهذا من مراعاة الترتيب في الواقع، ومنه ما جاء في سورة (عبس/ ٨٠ / مصحف/ ٢٤ نزول) في وصف حالة الإنسان يوم القيامة:

﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٢٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٢٥﴾ وَصَخِيْبِهِ وَبَنِيهِ ﴿٢٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٢٧﴾﴾ .

فجاء الترتيب وفق ترتيب أحوال النفس، إذ يتخلّى الإنسان عند الضرورة عن الحبيب، فعن الأحبّ فعن الأشدّ حبّاً له، وأحبّ الناس إلى قلب الإنسان بنوه، ودون ذلك صاحبه الحبيبة، ودونها أبواه، ودونها أخوه.

فعلى دارس النصوص البليغة أن يُمعن النظر، ويطيل التأمل والتفكير، حتّى يكتشف ما فيها من دواعي بلاغية وفكرية دعتة إلى ترتيب عناصر كلّ جملة، وترتيب الجمل فيها، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وانظر في موضوع ترتيب الجمل ما جاء في «الصورة السادسة» من قسم «صور من أدب القرآن الرفيع» في كتابي «أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع» .

* * *

الداعي الرابع: التخلّص مما يُوهم معنى غير مرادٍ في دلالات الكلام، ومن أمثلة ذلك قول الله عزّ وجلّ في سورة (غافر/ ٤٠ / مصحف/ ٦٠ نزول):

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ . . . ﴾ [الآية ٢٨] .

عبارة ﴿مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ نعت لـ ﴿رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ﴾ .

وعبارة ﴿يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾ نعت أيضاً لـ ﴿رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ﴾ .

وهذان النعتان متكافئتان في الرتبة، فليس أحدهما أولى بالتقديم من

الآخر، لكن تقديم عبارة ﴿يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾ على عبارة ﴿مَنْ آلَ فِرْعَوْنَ﴾ يوهم أنّ الجار والمجرور في هذه العبارة متعلقان بفعل «يكتُم» مع أنهما متعلقان بمحذوف هو صفة لـ ﴿رَجُلٌ مُؤْمِنٌ﴾ فرفع تقديمها هذا الإيهام، وجاء البيان سليماً واضحاً.

إلى غير ذلك من دواعي لا تخفى على الدارس المتبّع اللبيب.



الفصل الرابع

التنكير والتعريف

(١)

مقدمة

نعلم من مقرّرات النحويين أنّ الكلمة تنقسم إلى: «اسم، وفعل، وحرف» وأنّ الجملة العربيّة تتألف من كلمتين فأكثر: من فعلٍ واسم فأكثر، أو من اسمين فأكثر، وقد يدخل في الجملة الحرف للرّبط، أو لأداء معنى وُضِعَ له، وهذا المعنى يظهر عند تركيب الحرف مع غيره في الجملة.

وإذا أخذنا قسم «الاسم» الذي يدخل عنصراً أو أكثر ضمن عناصر الجملة فإنّنا نلاحظ أنّه قد يكون نكرةً، وقد يكون معرفة.

● أمّا النكرة: فاسم يطلق على القليل والكثير، أو على مفرد، أو على أكثر، ومعناه شائع في جنس، أو نوع، أو صنف، أو نحو ذلك، وهذا يصدق بالمشئى والجمع.

وما يطلق على القليل والكثير صالح لأن يراد به أقل مقدار وأكثر مقدار، وما يطلق على مفرد صالح لأن يراد به أيّ فرد دون تعيين، وما يطلق على أكثر من مفرد صالح لأن يراد به أيّ جمع دون تعيين إذا كان جمعاً، وأيّ اثنين إذا كان مشئى.

فالشائع في أفراد دون تعيين مثل: «رجل — امرأة — إنسان».

والشائع في مثاني أو جموع دون تعيين مثل: «رجلين - رجال - امرأتين - نساء».

وما يطلق على القليل والكثير من الجنس أو النوع أو الصنف مثل: «ماء - تراب - ريح».

● وأما المعرفة فاسم يَدُلُّ على مُعَيَّنٍ مُمَيَّزٍ عن سائر الأفراد أو الجموع المشاركة له في الصفات العامة المشتركة، مثل «زيد» علماً لشخص معين، و«هؤلاء» اسماً يُشار به إلى جماعة معينة، وذكر النحويون أنّ المعارف سبعة أقسام، قالوا: وترتيبها بحسب الأعرافية كما يلي:

الأول: الضمير، مثل: «أنا - أنت - أنتما - هو - هي - هما...».

الثاني: العلم، مثل: «زيد - أبي بكر - بدر الدين» وما يضاف إلى ضمير مثل: «يدي - رأسه - قلمك».

الثالث: اسم الإشارة، مثل: «هذا - هذه - أولئك».

الرابع: اسم الموصول، مثل: «الذي جاءني - التي تزوجتها...».

الخامس: المحلّيّ بأل، مثل: «الرجل - المرأة - المؤمن - الرجال - النساء - المؤمنين».

السادس: المضاف إلى غير الضمير من المعارف السابقة، مثل: «زوجة سعيد - غلام هذا - قلم الذي زارني صباحاً - كتاب الرجل».

السابع: النكرة المقصودة في النداء، مثل: «يا رَجُلُ» تخاطب رجلاً بعينه.

ولمّا كانت الأسماء التي تدخل في بناء الجملة ذوات أقسام: النكرة بأقسامها الثلاثة، والمعرفة بأقسامها السبعة، فإنّ أمام منشاء الكلام بدائل من هذه الأسماء يمكن أن يختار منها.

لكنّ هذه البدائل ليست سواءً في دلالاتها، حتّى يأخذَ منها ما يشاء لما يشاء، دون اختيار وانتقاء لما يراه أكثر ملاءمة وأداءً لما يريد توصيله من المعاني، أو التعبير عنه.

لذلك كان لا بدّ من رسم معالم هذه البدائل، وتوضيح فروق دلالاتها، حتّى ينتقي منها منسّى الكلام لكلامه ما هو الأحكم بياناً، والأفضل لتحقيق ما يريد توصيله من معاني، رجاء أن يكون كلامه أكثر بلاغة، وأتقن اختياراً، وأوفى دلالة على المعاني التي يريد التعبير عنها.

* * *

(٢)

دواعي اختيار النكرة

عرفنا أنّ النكرة ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ما يطلق على القليل والكثير، ومعناه شائع في جنسٍ أو نوع، أو صنف، أو نحو ذلك، مثل: «ماء - تراب - ريح».

وهذا القسم يراد منه غالباً المعنى الشائع قلّت وحداته أو كثرت، وعند إرادة تحديد الكميّة أو وصفها بالقلة أو الكثرة أو نحوهما يُضاف في البيان ما يُراد بيانه.

ولا معنى لجمع هذا القسم ما دام يطلق على القليل والكثير، إلّا إذا أُريد بالجمع الأنواع أو الأصناف أو نحو ذلك.

القسم الثاني: ما يطلق على مفرد شائع دون تعيين، وهذا القسم صالح لأن يراد به معنى الجنس أو النوع أو الصنف أو نحو ذلك، وأن يراد به معنى الأفراد على وجه الخصوص، وفي هذه الحالة يحسن تأكيد معنى الأفراد بالوصف بأنه واحد، ومنه قول المشركين في تعجّبهم من فكرة التوحيد التي جاء بها الرسول ﷺ: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا؟﴾.

قال الله عزَّ وجلَّ في سورة (ص / ٣٨ مصحف / ٣٨ نزول):

﴿ أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥٦﴾ ۞ .

القسم الثالث: ما يُطلق على أكثر من مفرد، ومعناه شائعٌ في مثنانٍ أو جُموع، وهذا القسم صالحٌ لأن يُرادَ به معنى الجنس أو النوع أو الصنف أو نحوهما، وأن يرادَ به معنى التثنية أو الجمع على وجه الخصوص، وفي هذه الحالة يحسُنُ تأكيد معنى التثنية بالوصف بنحو «اثنين» ومنه قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (النحل / ١٦ مصحف / ٧٠ نزول):

﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا نَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَآرَهُبُونَ ﴿٥٦﴾ ۞ .

في هذا المثال نلاحظُ تأكيد التثنية في المُثنى النكرة بوصفه بلفظ «اثنين»، ونلاحظُ تأكيد الإفراد في المفرد النكرة بوصفه بلفظ «واحد»، لأنَّ المراد التنبية على أنَّ التثنية والإفراد هما المرادان على وجه الخصوص، أمَّا في النكرة التي هي جمع فقد يحسن تخصيصها بنحو قليل أو كثير، مثل قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الفرقان / ٢٥ مصحف / ٤٢ نزول):

﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ ۞ .

فخصَّص «أنعاماً وأناسيَّ» وكلُّ منهما نكرةٌ جمعٌ، فوصفهما بلفظ «كثيراً». وإذا كان المراد تحديد عدد معين وُصِفَتِ النكرة الجمع بما يُبين العدد، ومنه قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الواقعة / ٥٦ مصحف / ٤٦ نزول):

﴿ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٧﴾ ۞ .

أي: وكنتم أيها الناس يوم القيامة أصنافاً ثلاثة: هم أصحاب الميمنة، وأصحاب المشامة، والسابقون المقربون.

بعد تحديد معالم النكرات يَحْسُنُ بيانُ دواعي اختيار النكرة في الجملة الكلامية.

* * *

تفصيل دواعي اختيار النكرة:

أذكر هنا طائفة من الدواعي أخذاً ممّا ذكره علماء البلاغة، منبّهاً على أنّ الدواعي قد لا تنحصر فيها، فترك المعرفة واختيار النكرة في الكلام ممّا تشعب فيه أغراض البلغاء، وقد تفتّق قرائح اللاحقين منهم عن أشياء لم يتنبّه إليها السابقون، إذ الأمر ليس اصطلاحاً لغوياً حتّى ينحصر فيما اصطلح عليه الأولون، بل هي أغراض تُقصدُ بلاغياً من خلال استعمال لغويّ قابل لدلالات كثيرة، ولا سيما حينما نلاحظ أنّ ذكر النكرة غير موصوفة قد يوحي بطيّ الصفة في اللفظ مع ملاحظة معناها ذهنياً، والنكرة قابلة لأن توصف بأشياء كثيرة جداً، فقد توصف بالشيء، وقد توصف بضده، وعند حذف الصفة يبقى لفظها محتملاً، لكنّ قرائن الحال أو قرائن المقال قد تشعر بطيّ صفة مع إرادة معناها، وقد تُشعر أحياناً أخرى بطيّ نقيضها مع إرادة معناه، ومن هنا تتنوع الدواعي والأغراض.

وفيما يلي أعرض ما أحصيته من دواعي اختيار النكرة:

الداعي الأول: الجهل بما يُعرّف المذكور بقسم من أقسام المعرفة، فيلجأ المتكلم إلى التنكير، بإطلاق اسم غير مُعيّن من أسماء النكرة، وهذا الاسم النكرة ينطبق على المتحدث عنه وينطبق على غيره، ممّا يشاركه في الصفات العامة، ويحصل بإيراد النكرة تخصيصاً ما، وهذه فائدة تُقصدُ في الكلام، فمن قال لأبيه مثلاً: جاءنا رجلٌ وسأل عنك، فقد أفاده أنّ سائلاً ما سأل عنه، وأنّ هذا السائل هو من صنف الرجال، لا من صنف النساء.

* * *

الداعي الثاني: أن يقصد المتكلم عدم تعيين من يتحدث عنه، وتظهر هنا
عدّة أغراض:

● منها أن يكون تعيينه زائداً على ما يقصد المتكلم بيانه، مثل تعيين اسم
الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى ليقول لموسى عليه السلام: إنَّ الملائكة
يأترون بك ليقتلوك، لذلك لم يذكر الله اسمه، فقال تعالى في سورة (القصص/
٢٨ مصحف / ٤٩ نزول):

﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّكَ الْمَلَأُ يَأْتِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي
لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾ .

ومثل تعيين اسم الرجل الذي جاء لينصر المرسلين الثلاثة في أنطالية، ويدعو
قومه لاتباعهم، ويُعْلِنُ أمام قومه إيمانه، فانتقموا منه فقتلوه، لذلك لم يذكر الله
اسمه، واكتفى بذكر أنه رَجُلٌ، فقال تعالى في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/
٤١ نزول):

﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ اتَّبِعُوا مِنْ لَّا
يَسْتَأْذِنُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ .

● ومنها إرادة إخفاء شخص المتحدث عنه، لمصلحة يراها مُنْشِئُ الكلام،
والمصالح من الإخفاء كثيرة يَضَعُ حَضْرُهَا، كالخوف عليه، وكالتشويق إليه،
وكانتظار المناسبة الملائمة للمفاجأة به.

ومن أمثلة إرادة الإخفاء أولاً ما كان من أخت موسى عليه السلام، بعد أن
وضعت أمه وهو رضيع في صندوق وألقته في اليمِّ، إذ تَبَعَتْهُ حتى التقطه
آل فرعون، وتعلّق قلب امرأة فرعون به، ورفض أن يرضع من المراضع اللائي
جُلِينِ له، وكانت تتابع أمره فعرضت على الذين يبحثون له عن مرضعة ترضعه
وتكفله، فقالت لهم كما جاء في سورة (القصص/ ٢٨ مصحف / ٤٩ نزول):

﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ بَيْتٍ يَكْفُلُونَ لَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَمْ يَلْعَنُوا ﴾ ﴿١٦﴾

فقد جاءت بلفظ «بَيْتٍ» نكرة، وقالت «أَهْلٍ بَيْتٍ» ولم تَقُلْ مُرْضِعَةً، لتلاحظ مدى استجابتهم للعرض، ولتُبْعِدَ الشبهة عن أن تكونَ أُمُّهُ في هذا البيت، خوفاً على أخيها وأُمِّها، فلَمَّا استوثقت من تلهفهم، وصدق رغبتهم، وَأَنَّهُمْ لَمْ يَشْعُرُوا بِأَنَّهَا ذات علاقةٍ ما بالطفل، دَلَّتْهُمْ وَأَخَذَتْ بِهِمْ إِلَى أُمِّهَا، فَالْتَقَمَ ثَدْيَهَا وَشَرَعَ يَرْضَعُ بِرَغْبَةٍ تَامَةٍ.

* * *

الداعي الثالث: أن يكون مراد المتكلم ذكر واحد غير معين من الجنس أو النوع أو الصنف، كأن يقول الراغب في الزواج: «أريد زوجة» فهو يبحث عن زوجة ما تناسبه، وهذه غير معينة في ذهنه. وكان يقول طالب دابة لسفره: «أريد فرساً» فهو يبحث عن فرس ما مناسبة دون تعيين.

ومنه قول إخوة يوسف حينما تأمروا للتخلص منه: ﴿أَوْ أَطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ أي: أرضاً ما بعيدة دون تعيين، حَتَّى يَضِلَّ أَوْ تَأْكُلَهُ الْوَحُوشُ.

قال الله عزَّ وجلَّ في سورة (يوسف/ ١٢ / مصحف/ ٥٣ / نزول):

﴿ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ أَفَلَوْلَا يُوسُفُ أَوْ أَطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾ ﴾

وهذا الشاهد يصلح أيضاً لإرادة نوع من الأرض غير معينة بذاتها، لكتها نوع ذات وصف خاص، فهي أرض بعيدة نائية مجهولة مَنْ طُرِحَ فِيهَا ضَلُّ وَتَعَرَّضَ لِلْهَلَاكِ.

* * *

الداعي الرابع: قد يختار المتكلم التكرة قاصداً بالتنكير التكثير، وتدُلُّ القرائن على قصد التكثير، وإذ دَلَّتِ القرائن عليه حَسُنَ فِي الْكَلَامِ حَذْفُ الْوَصْفِ

الدالّ على الكثرة، والاكتفاء بدلالة التنكير مع دلالة قرينة الحال أو قرينة المقال.

أمثلة

● قول الله عزّ وجلّ لرسوله محمد ﷺ في سورة (آل عمران / ٣ مصحف /

٨٩ نزول):

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ

الْمُنِيرِ ﴿١٨٨﴾.

لفظ: [رَسُول] نكرة، وقرينة تسليّة الرّسول ﷺ تدلّ على أنّهم رسلٌ كثيرون قد كذّبوا من قبل أقوامهم.

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف / ٧ مصحف / ٣٩ نزول)، بشأن

تقطيع بني إسرائيل في بلدان كثيرة من الأرض:

﴿وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَّمًا...﴾ [الآية ١٦٨].

أي: أمما كثيرة في بلدان من الأرض كثيرة.

● ومنه «إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ — أَمَدَكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَيْنَ وِجَنَاتٍ وَعُيُونٍ

— كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ —».

* * *

الداعي الخامس: وقد يختار المتكلم النكرة قاصداً بالتنكير التقليل، وتدلّ

القرائن على قصد التقليل، وإذ دلّت القرائن عليه حسن في الكلام حذف الوصف

الدالّ على القلّة، والاكتفاء بدلالة التنكير مع دلالة قرينة الحال أو قرينة المقال.

أمثلة

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (التوبة / ٩ مصحف / ١١٣ نزول):

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكِنَ

طَيْبَةً فِي جَنَّتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٦﴾

جاءَ لفظ «رِضْوَانٌ» مُنْكَرًا، وقرينة كونه من الله مع كونه أكبر من كل ما في جَنَاتِ عَدْنٍ مِنْ نعيمٍ دليلٌ على أنّ المراد: ورضوانٌ قليلٌ من اللّهِ يُفْرِغُهُ على أهلِ جَنَاتِ عَدْنٍ هو أكبر عندهم وأعظم من كل ما فيها من نعيم.

وقد تنبّه علماء البلاغة إلى أنه لم يرد في القرآن سلامٌ من جهة اللّهِ إِلَّا مُنْكَرًا، لأنَّ سلامًا قليلًا من جهته عزَّ وجلَّ كافٍ لتحقيق كل ما يطلبُهُ العبادُ مِنْ أَمْنٍ أو تحيَّة، مثل: «سلامٌ عليكم بما صَبِرْتُمْ - سلامٌ قولاً من ربِّ رَحِيمٍ - سلامٌ على نوح - سلام على إبراهيم - سلامٌ على موسى وهارون - وسلام على المرسلين - فَسَلامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ».

قالوا: وأما قول عيسى عليه السلام: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ ﴿٣٣﴾ كما جاء في سورة (مريم / ١٩ مصحف / ٤٤ نزول) فقد جاء مُعْرَفًا لأنَّه ورد على لسان عيسىَ الطفل في دعائه لنفسه، بخلاف الذي ورد بشأن يحيى عليه السلام في السورة نفسها بياناً صادراً عن الله عزَّ وجلَّ، إذ جاء فيه قوله تعالى:

﴿وَسَلِّمْ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ ﴿١٥﴾

● قول المتنبّي يمدح سيف الدولة:

فَيَوْمًا بِخَيْلٍ تَطْرُدُ الرُّومَ عَنْهُمْ وَيَوْمًا بِجُودٍ يَطْرُدُ الْفَقْرَ وَالْجَدْبَا

نَكَرَ لفظ «خَيْلٍ» ونَكَرَ لفظ «جود» وهو يريد: بعدد قليل من الخيل، وبمقدارٍ قليل من الجود، وقد دلَّ التنكير فيهما على التقليل ما في السباق والسباق من المدح والإطراء البَالِغَيْنِ من المتنبّي لسيف الدولة، وهذا يقتضي أن يطرد الروم بقليل من خيله، وأن يطرد جودٌ قليلٌ منه الفقر والجذبَا.

* * *

الداعي السادس: وقد يختار المتكلم البليغ النكرة قاصداً بالتنكير التعظيم،

وتدلُّ القرائن على قصد التعظيم، وإذ دلت القرائن عليه حسنَ في الكلام حذف الوصف الدالّ على التعظيم، والاكتفاء بدلالة التنكير مع دلالة قرينة الحال أو قرينة المقال.

أمثلة:

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ لِلتَّقْوَىٰ إِنَّ فِيهَا لَعِبْرَةً لِّمَنْ يَعْقِلُ﴾

جاء في هذا النصّ تنكير لفظ «هُدَىٰ» للتعظيم والتفخيم، أي: هُدَىٰ عظيم فخمٌ جليل للمتقين، ودلّ على إرادة التفخيم قرينة تمجيد القرآن، إذ جاءت الإشارة إليه بإشارة البعيد للدلالة على منزلته الرفيعة جدًّا، وجاء وصفه بأنه لا ريب فيه.

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ

جاء في هذا النصّ تنكير لفظ «حَرْبٍ» للتعظيم والتهويل، أي: بحربٍ شديدة هائلة مخيفة، ودلّ على كونها شديدةً مخيفةً كونها من الله ورسوله، وكونها عقوبة على معصيةٍ هي من الكبائر.

* * *

الداعي السابع: إرادة التحقير والتصغير، وتدلُّ القرائن على ذلك.

أمثلة:

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول) في حكاية

قول مؤمن آل فرعون:

﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَنْقُورُ أَتَيْتُمُونِي هَدًى سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَنْقُورُ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ ﴾ .

جاء في هذا النص تنكير «متاع» للتحقير والتصغير، أي: متاعٌ حقير صغير سريع الزوال، وفيه معنى التقليل أيضاً.

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) بشأن مشركي مكة:

﴿ وَلَئِن مَّسَّتْهُمُ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤١﴾ ﴾ .

جاء في هذه الآية تنكير «نفحة» للتصغير، أي: نفحةٌ صغيرة من عذاب ربِّكَ كافيةٌ لأن تجعلهم يُنادون: يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ، والقريضة عقليةٌ، فالعذاب الكبير يهلكهم بطرفة عين، فلا يدعُهم يُنادون على أنفسهم بالويل، إذ المرادُ نفحة من عذاب الله في الحياة الدنيا لا في الآخرة، ويكفي في هذه النفحة أن تمسَّهم مَسًّا، دون أن تُصيبهم إصابة بالغة، فالنفحة الصغيرة القليلة من عذاب الله تؤلم ألماً شديداً.

● وجمع أبو السَّمط بين إرادة التعظيم وإرادة التحقير والتصغير في بيت واحد فقال بشأن ممدوحه:

لَهُ حَاجِبٌ عَن كُلِّ شَيْءٍ يَشِينُهُ وَلَيْسَ لَهُ عَن طَالِبِ الْعُرْفِ حَاجِبٌ

أي: له حاجب عظيم يخجبه عن كلِّ أمرٍ يَشِينُهُ، وليس له حاجبٌ ما ولو كان حقيراً يَحجب عنه طالب المعروف، بسبب أنه جواد لا يردُّ طالب معروف.

* * *

الداعي الثامن: إرادة نوع من الأنواع، أو صنف من الأصناف.

أمثلة:

قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) خطاباً للذين

آمنوا بشأن اليهود:

﴿ لَنْ يَضُرُّوَكُمْ إِلَّا أَذَىٰ ۗ وَإِنْ يَقْتُلُوكُمْ يُولُوكُمْ أَوْلَادًا ۗ لَكُمْ لَا يُضَرُّونَ ﴾ ﴿١١﴾ .

جاء في هذه الآية تنكير لفظ «أذى» لإرادة أنه نوع خفيف من أنواع الضرر، فالمعنى: لن يضرّوكم إلا ضرراً هو نوعٌ من أنواع الأذى.

● قول الشاعر:

لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ يُسْتَطَبُّ بِهِ إِلَّا الْحَمَاقَةَ أَعَيْتُ مَنْ يُدَاوِيهَا
نكر الشاعر لفظ «داء» ولفظ «دواء» قاصداً: لكلّ نوعٍ أو صنفٍ داءٌ نوعٌ
أو صنفٌ دواءٍ يلائمه.

● ومنه قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) يصف الذين بلغوا في الكفر مبلغ من لا يتأثر بالإنذار بأنّ على أبصارهم غشاوة، أي: غشاوة من نوع خاصّ تحجب عنهم رؤية آيات الله في كونه.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿٦﴾ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ۗ ولهم عذابٌ عظيمٌ ﴿٧﴾ .

فجاء تنكير «غشاوة» لإفادة أنّها نوعٌ خاصّ يحجب فقط رؤية آيات الله، وقد دلّ على هذا أنّهم يرون بأبصارهم أشياء كثيرة إلا أنّهم محجوبون عن إدراك آيات الله.

● وقول الله عزّ وجلّ في سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول):

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ... ﴾ [الآية ٤٥].

جاء في هذه الآية تنكير لفظ «ماء» لإفادة أنّه نوع خاصّ من أنواع المياه، وهو الماء الذي تتعقّد منه الأجنّة.

* * *

الداعي التاسع: إرادة تحاشي المتكلم التعريف، لما في التعريف من تصريح يحسّن في العبارة طيبه، والاكتفاء بدلالة القرائن عليه، أو الإشارة إليه.

أمثلة:

● قول الشاعر في ممدوحه:

إِذَا سَمَّيْتُ مُهَيَّئَهُ يَمِينٌ لَطُولِ الْحَمْلِ بَدَلَهُ شِمَالاً
مهَيَّئَهُ: أي: سيفه المطبوع من حديد الهند، وكان حديد الهند أجود الحديد.

نكر لفظ «يمين» ولم يقل: يمينه، تحاشي أن ينسب السامة بصريح اللفظ إلى يمينه، واكتفى بدلالة الحديث عنه.

● قولي صانعاً مثلاً:

مَحَاسِنُ أَشْرَافِ الرِّجَالِ إِذَا التَّقَتْ نِظَائِرَهَا فِيهِ التَّقِينِ مَسَاوِيَا
جاء تنكير «مساوياً» تحاشي إضافة لفظ «مساوي» إلى الممدوح، مع أنها في معايير الناس تُعتبرُ مَحَاسِنَ أَشْرَافِ الرِّجَالِ، فإذا كانت هذه المحاسن تعتبر بالنسبة إلى سائر صفاته الفضليات تشبه مساويه، فكيف تكون إذن منازلُ محاسنه الرفيعة.

* * *

الداعي العاشر: إرادة الإطلاق وعدم الحصر بالتنكير، إذ التعريف فيه تقييدٌ وحصر.

أمثلة:

● قول الله عزَّ وجلَّ في سُورَةِ (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول):

﴿فَسْتَلِّ بِهِ، خَيْرًا﴾.

أي: فاسأل عن الرحمن خبيراً، أي خبير كان لجاً إليه ودعاه فرحمه، واستجاب له دعاه، فجاء اللفظ نكرة لإرادة الإطلاق الذي يصدق بخبير فأكثر من المجربين الخبراء عن تجربة.

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (فاطر / ٣٥ / مصحف / ٤٣ نزول):

﴿ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۗ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ۗ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۗ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾

الْقُطْمِيرُ: القِشْرَةُ الرَّقِيقَةُ عَلَى النَوَاةِ، كَاللَّفَافَةِ لَهَا.

جاء تنكير لفظ «خبير» لإرادة الإطلاق، أي: لا ينبئك بحقيقة أمرٍ ما مثلُ من مارسه وخبرَ دَقَائِقَهُ، وعرفه عن تجربةٍ وممارسةٍ عمليَّةٍ، ويدخل في هذا الإطلاق من خَبَرِ الشركاء فدعاهما من دون الله فلم تستجب له، وخاب في عبادته لها.

* * *

الداعي الحادي عشر: إرادة التعميم بالتنكير، وتساعد على إرادة التعميم القرائن الفكرية أو اللفظية ويظهر هذا فيما يعمل عمل الفعل من الأسماء، لأنه بمثابة الفعل الذي حذف معموله لإرادة التعميم.

ومن أمثلة إرادة التعميم بالتنكير مع مساعدة القرائن:

● [إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَيْرٌ] أي: عليم بكلِّ شيءٍ، خبير بكلِّ ما يصلح بطبيعته للاختبار والتجربة.

● [إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَيْرٌ بَصِيرٌ] أي: هو خبير بكلِّ شيءٍ من أمور عباده وأحوالهم، بصيرٌ بكلِّ ما يُدْرِكُ بالبَصَرِ من ظواهرهم وبواطنهم.

والقرائن الفكرية دلت على التعميم إذ وردت صفاتِ الله عزَّ وجلَّ الذي دلَّ العقل، ودلت نصوصُ الشرع على أن صفاته ذات عموم وشمول تامَّ فيما هي له.

* * *

دواعي اختيار المعرفة

عرفنا أن المعرفة في الكلام سبعة أقسام عند النحاة، وترتيبها عندهم بحسب الأعرافية كما يلي: «الضمير - العلم بأنواعه وفي رتبته ما يضاف إلى الضمير - اسم الإشارة - اسم الموصول - المحلّي بأل - المضاف إلى غير الضمير من المعارف السابقة - النكرة المقصودة في النداء» هذا ما يقرّره النحويون.

ولمّا كان المتكلم البليغ لا يُلقِي كلامه جزافاً، بل يتقي ويختار بحسب أغراضه التي يهدف إليها، فإنّ عليه أن يعرف بدقّة فروق دلالات ما يختار لكلامه من كلمات.

ولمّا كانت دلالات المعارف من الأسماء ليست سواءً كان لا بُدّ من بيان فروق دلالاتها، ودواعي اختيار كلّ قسم منها، وهذا أمرٌ اهتمّ به البلاغيون، لتبصير دارسي النصوص البليغة كي يُدرِكُوا مراميها، وتبصير منشئي الكلام الحريصين على الارتقاء في درجات سلّم البلغاء كي يُجَوِّدُوا ما ينشؤون من كلام، حتى يكون كلامهم بليغاً.

وفي دواعي اختيار المعرفة من الأسماء ممّا لا يشترط فيه التنكير في الجملة الكلامية، لم أفصّل العناصر التي يمكن أن تكون بدائل في «المسند إليه، والمسند، ومتعلقات الفعل، والتوابع» لأنّي رأيت أن معظم الدواعي قد تُوجَدُ لاختيار المعرفة في كلّ منها، لذلك آثرتُ دَمَجَها ببعضها تسهيلاً على الدارسين، فكل عنصر من عناصر الكلام ممّا يصلح لأن يُؤتَى به معرفة ونكرة دون إلزام نحويّ بأحدهما تَشَمَّلُهُ دواعي الاختيار الملائم لأغراض المتكلم من كلامه، وَيَسْتَبَعِدُ الباحث المتفكّر ما لا يُلائم منها في كلامه.

وبما أن المعارف سبعة أقسامٍ مختلفات الدلالات، فلا بُدّ من بحث دواعي اختيار كلّ منها.

أولاً - دواعي اختيار الضمير :

أنواع ضمائر التكلم والخطاب والغيبة المفصلة عند النحويين، قد يُختار للكلام منها، لأنّ المقام يدعو إلى ذلك، وهي ألفاظ مختصرة موجزة يُستغنى بها ظاهرة أو مضمرة عن ألفاظ تحتاج عند النطق أزماناً وجهداً أطول وأكثر.

● فإذا كان المقام مقام حديث المرء عن نفسه أو معه غيره جيء بضمير التكلم، مثل قول الله عزّ وجلّ في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) في حكاية خطابه لموسى عليه السلام بجانب الطور:

﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٧﴾ وَأَنَا أَخَذْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٨﴾
 ﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٩﴾ ۝ .

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَيَمْحُضُ تُسْبِحُ بِحَمْدِكَ وَتُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۝ .

ويلاحظ الضمير المستتر في «نُسِّحُ» و «نُقَدِّسُ»، وهو «نحن».

وقول المتنبي:

أَنَا الَّذِي نَظَرَ الْأَعْمَىٰ إِلَىٰ أَدْبِي وَأَسْمَعَتْ كَلِمَاتِي مَنْ بِهِ صَمَمٌ

● وإذا كان المقام مقام مخاطبٍ واحدٍ أو أكثر جيء بالضمير المناسب للمخاطب، فرداً أو مثني أو جمعاً، مثل قول الله عزّ وجلّ في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) في حكاية خطابه لموسى عليه السلام:

﴿ أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِمَا تَنبَىٰ وَلَا تَنبَىٰ فِي ذِكْرِي ﴿٤٦﴾ أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٧﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلَا لِنَا أَلَمْ يَتَذَكَّرْ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٨﴾ ۝ .

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يَلْيَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْكُمْ الْدِينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (١٣١).

● وإذا كان المقام مقامَ حديثٍ عن غائبٍ أو أكثر جيء بالضمير المناسب للمتحدث عنه فرداً أو مُتَنَّى أو جمعاً، مثل قول الله تعالى في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلَّةٌ إِلَّا الْأَرْضُ ذَهَبًا وَلَوْ أُفْتَدِيَ بِهِمْ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ (١١).

ولا يُتْرَكُ الضمير إلى استخدام معرفة أخرى في مقام التكلّم أو الخطاب أو الحديث عن الغائب الذي يُلائمه الكناية عنه بالضمير للإيجاز والربط بين الكلام إلاّ لدواعٍ من الدواعي البلاغية التي تستدعي ذلك، وسيأتي إن شاء الله بيان هذا في بحث: «الخروج عن مقتضى الظاهر» الشامل لأمر كثيرة غير العدول عن الضمير الملائم إلى غيره.

قالوا: وأصل الخطاب أن يكون لمعيّن، وقد يُتْرَكُ هذا فيكون الكلامُ مُوجَّهًا لكلٍّ من يصلح بصفاته لأن يخاطب به، ويحمّل على هذا كثير ممّا جاء في القرآن المجيد من خطاب مفردٍ أو جمّعٍ إلاّ ما كان خاصّاً بمعيّن كالرّسول، أو خاصّاً بجماعة معيّنة مقصودة بالذات، ومن الأمثلة قول الله عزّ وجلّ في سورة (السجدة/ ٣٢ مصحف/ ٧٥ نزول):

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ (١٢).

أي: ولو تَرَىٰ أَنْتَ يَا أَيُّهَا الصالح لمثل هذا الخطاب أيّاً كُنْتَ.

● وقول الله عزّ وجلّ في سورة (لقمان/ ٣١ مصحف/ ٥٧ نزول):

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَهْرَهُ وَيَاطِنَةُ...﴾ [الآية ٢٠].

أي: أَلَمْ تَرَوْا أَنْتُمْ يَا أَيُّهَا الصَّالِحُونَ لِمَثَلِ هَذَا الْخِطَابِ.

● وقول الرسول ﷺ فيما رواه الترمذي وأبو داود عن بُرَيْدَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ

اللَّهِ ﷺ:

«بَشِّرِ الْمَشَائِينَ فِي الظُّلَمِ إِلَى الْمَسَاجِدِ بِالنُّورِ النَّامِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

أي: يَا مَنْ يَصْلُحُ لِلخِطَابِ بِشَّرٍّ، والمعنى بَلَّغْ عَنِّي هَذِهِ الْبَشَارَةَ.

ونظائر هذا كثير، ومنه:

● قول أبي فراس الحمداني:

لَا تَطْلُبَنَّ دُنُوًّا دَارِكٌ مِنْ خَلِيلٍ أَوْ مُعَاشِرُ
أَبْقَى لِأَسْبَابِ الْمَوَدِّ ةِ أَنْ تَزُورَ وَلَا تُجَاوِرُ

● وقول المتنبي:

لَا تَلْقَ دَهْرَكَ إِلَّا غَيْرَ مُكْتَرِثٍ مَا دَامَ يَصْحَبُ فِيهِ رُوحَكَ الْبَدَنُ
فَمَا يَدُومُ سُرُورٌ مَا سُرِرْتَ بِهِ وَلَا يَرُدُّ عَلَيْكَ الْفَائِتَ الْحَزَنُ
مَا كُلُّ مَا يَتَمَتَّى الْمَرْءُ يُدْرِكُهُ تَجْرِي الرِّيَّاحُ بِمَا لَا تَشْتَهِي السُّفُنُ

فالخطاب فيهما لكلّ من يَصْلُحُ لِلخِطَابِ، حَتَّى الْمَتَكَلِّمِ نَفْسَهُ عَلَى طَرِيقَةِ تَجْرِيدِ شَخْصٍ مِنْ نَفْسِهِ يَخَاطِبُهُ.

* * *

ثانياً — دواعي اختيار العَلَمِ:

العَلَمُ ينقسم كما ذكر النحويون إلى «اسم — وكُنْيَة — وَلَقَبٍ».

فالكنية: كُلُّ مَرْكَبٍ إِضَافِيٌّ صُدِّرَ بِأَبٍ أَوْ أُمٍّ، ومنه: «أبو بكر - أمُّ كلثوم».

واللقب: كُلُّ عِلْمٍ أَشْعَرَ بِرَفْعَةِ الْمَسْمَى أَوْ أَشْعَرَ بِضَعْتِهِ، ومنه: «زين العابدين - الرشيد» و«الجاحظ - الأعرج».

والاسم: ما عدا القسَمَيْنِ السَّابِقَيْنِ، وهو الغالب، ومنه: «خالد - سعيد - زينب - عائشة - ذو الفقار - يعفور».

قالوا: وإذا اجتمع الاسم واللقب أُخِرَ اللَّقْبُ عَلَى الْإِسْمِ، مثل: «علي زين العابدين» ولا ترتيب بين الكنية وغيرها، فيجوز تقديم الكنية على الاسم واللقب، ويجوز تأخيرها عنهما.

وقد ظهرت للبلاغيين عدّة دواعٍ لاختيار الاسم «العلم» دون غيره من المعارف السبع:

الداعي الأول: إرادة إحضار المتحدث عنه في ذهن المتلقّي باسمه الخاصّ به، ليمتاز عمّا عداه، ويرتجح هذا الداعي حينما يكون المتحدث عنه معروفاً لدى المُتَلَقِّي بِاسْمِهِ الْخَاصِّ بِهِ.

أمثلة:

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾

● قول «الغزّي» يذكر «أبا الطيب المتنبي» بكنيته ليميزه ويحضره في

الأذهان:

مَنْ أَغْفَلَ الشُّعْرَ لَمْ تُعْرَفْ مَنَاقِبُهُ لَا يُجْتَنَى ثَمْرٌ مِنْ غَيْرِ أَغْصَانِ

لَوْلَا أَبُو الطَّيِّبِ الْكِنْدِيُّ مَا امْتَلَأَتْ مَسَامِعُ النَّاسِ مِنْ مَدْحِ ابْنِ حَمْدَانَ

* * *

الداعي الثاني: إرادة الإشعار بتعظيم المتحدث عنه، ويكون هذا في الأعلام التي تشعر بمدح، ومنها الألقاب التالية: «ذو الثورين - صلاح الدين - سيف الله» ويكون في الأسماء التي اشتهرت بصفات العظيمة، ومنها: «محمد بن عبد الله - خالد بن الوليد - عمر بن الخطاب» وفي الكنى، مثل: قضيّة ولا أبو حسن لها» وهو عليّ بن أبي طالب.

* * *

الداعي الثالث: إرادة الإشعار بإهانة المتحدث عنه، ويكون هذا في الأعلام التي تشعر بدم، أو اشتهرت بصفات الذميمة، ومنها «حمار (علماً) - صخر - أبو مرّة - إبليس - أبو لهب - أم الخبائث (كنية الخمر) - أبو جهل».

* * *

الداعي الرابع: إرادة استخدام لفظ العلم للكناية به عن معناه اللغويّ قبل نقله إلى العلمية، مثل أن تقول:

● جاءنا «محمود» بالبشائر، وأنت تريد الإشعار بأنه في صفاته محمود، فله من اسمه نصيب.

● المدير «راشد» وأنت تريد مدحه بالرّشد الذي هو معنى اسمه قبل العلمية.

● خَصْمُنَا «صخر» وأنت تريد الإشعار من خلال ذكر اسمه بأنه قاسٍ لا يندى كالصخر.

* * *

الداعي الخامس: إرادة التلذذ بذكر اسم المتحدث عنه لأنه محبوب،

فالمحبّون والعشاق يأنسون ويستمتعون بذكر أسماء من يحبون، ومن ذلك:

● قول مجنون ليلى:

بِاللّهِ يَا ظَيَّاتِ الْفَاعِ قُلْنَ لَنَا لَيْلَايَ مِنْكُنَّ أَمْ لَيْلَى مِنْ الْبَشَرِ

● وأبان المتنبي رغبة التلذذ بذكر أسماء الممدوح في قصيدة مدح فيها

عضد الدولة، أبا شجاع، فَنَاحُشُرُو، الفارسيّ، فقال:

«أَبَا شُجَاع» بِفَارِسٍ «عَضْدَ الدَّوَلَةِ» - «فَنَّا حُشُرُو» - «شَهْنَشَاهَا»
أَسَامِيًّا لَمْ تَزِدْهُ مَعْرِفَةً وَإِنَّمَا لَدَّةٌ ذَكَرْنَاهَا

* * *

الداعي السادس: إرادة التنفير، واستثارة الخوف، أو استثارة التقزز من ذكر اسمه، وهذا يظهر حينما يكون المتحدث عنه مُخِيفاً أو مكروه الاسم يُنْفِرُ منه المتلقّي، كاسم «جهنّم» علماً على دار العذاب يوم الدين، وكاسم «الحجاج» عند خصومه، واسم الضرة على مسمع ضرّتها، إذا كانت أثيرة عند زوجها ومالكة قلبه، فسماع اسم ضرّتها يثيرها ويغضبها ويهيج غيرتها.

ومن النفرة من الأسماء في غير باب العَلَمِ ما حدّثنيه بعض من مضى إلى رحمة الله من الأصدقاء، أَنَّ عِلْمًا ذَا شَهْرَةٍ كَبِيرَةٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْأَدَبِ وَالْقَلَمِ وَاللِّسَانِ يَكْرَهُ الْجُبْنَ مِنْذُ طِفْلُوته، وَلَهُ طَبْعٌ مَزَاجِيٌّ أَذِيٌّ، إِذَا ذَكَرَ اسْمَ الْجُبْنِ عَلَى مَسْمَعٍ مِنْهُ تَقَرَّرَتْ نَفْسُهُ، وَثَارَ غَضَبًا عَلَى مَنْ قَصَدَ إِسْمَاعَهُ إِيَّاهُ.

وكان له صديق شاعر أديب يصاحبه في بعض نزواته، ويجالسه في مجالس أنسِهِ، وكانا يسيران معاً في إحدى الضواحي، فلقىهما من حدّثني القصة، وهو من أهل هذه الضاحية، فقال له الشاعر: هل عندكم في بلدكم جُبْنٌ حَسَنٌ الصنعة خالٍ من الغش؟

وقبل أن يجيبه ثار عليه صديقه الذي يكره العجبن ثورة عظيمة، وشمته، وانطلق مفارقاً له.

* * *

الداعي السابع: إرادة إثارة الفأل الحسن، وهذا حينما يكون الاسم العلم فيه ما يُشعر بالتفاؤل مثل: «سعد - سعيد - رضا - هناء - الشفاء» أعلاماً.

* * *

الداعي الثامن: إرادة إثارة التشاؤم لدى المتلقي، إذا كان من الذين يتشاءمون، وهذا حينما يكون الاسم العلم فيه ما يثير التشاؤم، مثل: «السفاح - الجارود - أبو لهب - قحطان» أعلاماً.

* * *

الداعي التاسع: إرادة التسجيل والتثبيت حتى لا يتأتى الإنكار، ويُجأ إلى تحقيق هذا الداعي كثيراً في تثبيت العقود، وتدوين الشهادات، وفصل الخصومات في القضاء، فذكر الأعلام فيها بالتفصيل مما يتحقق به التسجيل المميز الذي تُحررُ فيه القضايا، وتُضبطُ بكل ما يتطلبه التسجيل من ضوابط.

* * *

ثالثاً - دواعي اختيار اسم الإشارة:

اسم الإشارة: هو ما وُضع لمشارٍ إليه مذكراً أو مؤنثاً، مفرداً أو مشنّى أو جمعاً، وقد تلحق به كاف الخطاب، ولام البعد، وقد تقترن به «ها» التي للتنبيه.

وأسماء الإشارة هي:

(١) الإشارة إلى المفرد المذكر تكون بكلمة «ذا».

(٢) والإشارة إلى المفردة، تكون بما يلي: ذي - تي - ذه - ته [وتنطقان بثلاثة

وجوه: بإسكان الهاء وبكسرها دون إشباع وبكسرها مع إشباع [إشباع] ذات - تا».

(٣) والإشارة إلى المثنى المذكر تكون بـ: «ذان» في حالة الرفع، و «ذين» في حالتي النصب والجر.

(٤) والإشارة إلى المثنى المؤنث تكون بـ: «تان» في حالة الرفع و «تَيْن» في حالتي النصب والجر.

(٥) والإشارة إلى جمع العقلاء من الذكور والإناث تكون بـ: «أولاء» وقد يُشار به قليلاً إلى جمع غير العقلاء.

(٦) والإشارة إلى الأمكنة تكون بـ «هنا» [للمكان القريب] وقد يقترن بها «ها» التي للتنبيه، فتصير «ههنا».

ويُشار إلى البعيد من الأمكنة بإحدى الصيغ التالية: «هناك - ههناك - هنالك - هنا - هنا» وبكلمة «ثم» بفتح الثاء.

وتلحقُ كافُ الخطاب اسمَ الإشارة الموضوع للمشار إليه البعيد، وكافُ الخطاب حرفٌ لا محلَّ له من الإعراب، فتفتح للمخاطب المذكر، وتُكسَرُ للمخاطبة، وتتصل بها علامة التثنية في المثنى، وعلامة الجمع في الجمع.

وقد تُزادُ لامُ البُعْدِ قبل كاف الخطاب للدلالة على البُعْدِ الكثير، باستثناء: [المثنى - وأولئك - وما سبقته «ها» التي للتنبيه] فلا تزداد لام البعد فيها.

فتقول: «ذاكِ وَذَلِكَ - ذاكِ وَذَلِكَ - ذاكُ وَذَلِكَ - ذاكُما وَذَلِكَما - ذاكُكُمْ وَذَلِكَكُمْ - ذاكُنَّ وَذَلِكَنَّ».

وقس على هذا سائر أسماء الإشارة مراعيًا ما يجوز وما لا يجوز.

ولاستخدام اسم الإشارة مزايا أساسية منها الإيجاز وتفادي التكرار اكتفاءً بدلالة اسم الإشارة.

وقد ظهرت للبلاغيين عدّة دواعٍ لاختيار اسم الإشارة، دون غيره من المعارف، وفيما يلي بيانها مع التنبية على أن الدواعي لا تنحصر فيها:

الداعي الأول: أن يتعيّن اسم الإشارة طريقاً للتعريف بالمشار إليه، كأن يكون المتكلّم والمتلقّي أو أحدهما لا يعرف من المعارف التي تُميّز المتحدث عنه غير كونه حاضراً مُحسّساً يشارُ إليه، فيكون استعمال اسم الإشارة لتعيين المتحدث عنه هو الأمر الذي ينبغي المصير إليه.

أمثلة:

● لما كان الملائكة يجهلون أسماء ما عَرَضَ الله عليهم من خلقه قال لهم: «أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ» فأشارَ إِلَيْهِمْ بِاسْمِ الإشارة لتعيينهم، قال الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾

● قول الشاعر يُثني علي ممدوحه بأنه يَقْرِي ضيفه الطارق عليه بليل وهو لا يعرفه، فينحر له الناقة، ذَاتِ السَّنَامِ العظيم:

وَإِذَا تَأَمَّلَ شَخْصَ ضَيْفِ مُقْبِلٍ مُتَسَرِّبِ سِرْبَالِ لَيْلِ أَغْبَرِ
أَوْ مَا إِلَى الْكَوْمَاءِ هَذَا طَارِقٌ نَحْرَتِنِي الْأَعْدَاءُ إِنْ لَمْ تُنْحَرِي
أَوْ مَا: أي أَوْ مَا بِمَعْنَى أَسَارِ.

الْكَوْمَاءُ: النَّاقَةُ ذَاتُ السَّنَامِ العظيم، وعظم سنامها يدلُّ على سِمَنِهَا.

هَذَا طَارِقٌ: أي: هذا ضيف طارق، والطَّارِقُ هو الذي يأتي ليلاً.

والشاعر يدعو على نفسه بأن تَنْحَرَهُ الْأَعْدَاءُ إِنْ لَمْ يَنْحَرْ نَاقَتَهُ إِكْرَاماً للضيف الطارق عليه الذي لا يعرفه، وقد مَيَّزَهُ بِاسْمِ الإشارة «هذا».

● ومنه قول سيدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ .

* * *

الداعي الثاني: إرادة تمييز المتحدث عنه أكمل تمييز يُخَصِّرُهُ في ذهن المتلقِّي، مبالغة في تعيينه، وقد يحسُنُ هذا في الإطراء، أو في الهجاء، ومعلوم أن من طبيعة دلالة اسم الإشارة تحديد المشار إليه تحديداً ظاهراً متميزاً عن غيره وهذا قد يكون من مقاصد المتكلم.

أمثلة:

● قول ابن الرومي مادحاً أبا الصقر الشيباني:

هَذَا أَبُو الصَّقْرِ فَرْدًا فِي مَحَاسِنِهِ مِنْ نَسْلِ شَيْبَانَ بَيْنَ الضَّالِّ وَالسَّلْمِ
الضَّالُّ: شجر السدر، وهو من شجر البوادي.

السَّلْمُ: شجر ذو شوك، وهو من شجر البوادي أيضاً.

لَمَّا أَرَادَ ابْنُ الرَّؤْمِيِّ وَصَفَ أَبِي الصَّقْرِ بِأَنَّهُ فَرْدٌ فِي مَحَاسِنِهِ ذَكَرَهُ بِاسْمِ
الإشارة ليميزه أكمل تمييز.

● سأل رجلٌ من أهل الشام هشام بن عبد الملك عن علي بن الحسين: مَنْ هو؟ وكان ذا هيئة ونضارة، فتجاهله هشام، خشية أن يفتتن به أهل الشام، فقال الفرزدق مستخدماً اسم الإشارة في شعره، يمدح علي بن الحسين:

هَذَا ابْنُ خَيْرِ عِبَادِ اللَّهِ كُلِّهِمْ	هَذَا التَّقِيُّ التَّقِيُّ الطَّاهِرُ الْعَلَمُ
هَذَا الَّذِي تَعْرِفُ الْبَطْحَاءُ وَطَاتَهُ	وَالْبَيْتُ يَعْرِفُهُ وَالْحِلُّ وَالْحَرَمُ
إِذَا رَأَتْهُ قُرَيْشٌ قَالَ قَائِلُهَا	إِلَى مَكَارِمِ هَذَا يَنْتَهِي الْكِرَمُ
يَكَادُ يُمَسِّكُهُ عِرْفَانُ رَاحَتِهِ	رُكُنُ الْحَطِيمِ إِذَا مَا جَاءَ يَسْتَلِمُ
يُغْضِي حَيَاءً وَيُغْضِي مِنْ مَهَابَتِهِ	فَمَا يُكَلِّمُ إِلَّا حِينَ يَنْتَسِمُ

لقد حَسُنَ في ذوق الفرزدق أن يُكْرِر استعمال اسم الإشارة للدلالة على ممدوحه وتمييزه أكمل تمييز، وفي هذا التمييز ردُّ ضمنيٍّ على تجاهل هشام بن عبد الملك له .

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (النور/ ٢٤ / مصحف/ ١٠٢ نزول):

﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لِّكُم لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ أُولَٰئِكَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ ۝ .

وقوله تَعَالَى:

﴿ وَوَلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ ۝ .

فجاء ذكرُ حديثِ الإفكِ باسم الإشارة «هذا» في ثلاثة مواضع: [هذا إفكٌ] و [ما يكون لنا أن نتكلم بهذا] و [هذا بهتانٌ عظيمٌ] لتمييزه أبلغ تمييز، وإبرازه بما فيه من قُبْحٍ وشناعةٍ وظُلْمٍ لا يليقُ بالمؤمنين .

● وتظهر إرادة تمييز المشار إليه في قول الله تعالى في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) خطاباً لأهل الكتاب:

﴿ يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٥﴾ هٰٓؤُلَآءِ حٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ۗ وَاللّٰهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ ۝ .

﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ ۝ .

لَمَّا كَانَ خطابُ أهل الكتابِ بعبارة ﴿ها أنتم﴾ محتملةً لمخاطبةِ جميعِ أهلِ الكتابِ إِيَّانَ التَّنْزِيلِ، سواءً من كان منهم قد واجه الرَّسُولَ مُحَمَّدًا ﷺ ومن لم

يواجهه، اقتضى تمييز المجادلين من عموم أهل الكتاب بعبارة ﴿هُؤُلَاءِ﴾ أي: يَا هُؤُلَاءِ، لا غيركم من سائر أهل الكتاب.

وفي الآية (٦٨) اقتضى تمييز محمد ﷺ باسم الإشارة مع وصفه بالنبوة، فقال تعالى: ﴿وَهَذَا النَّبِيُّ﴾.

* * *

الداعي الثالث: إرادة التعريض بغباوة المتلقي، إذ يُشعر أحياناً استخدام اسم الإشارة بأن المخاطب يحتاج لتمييز المتحدث عنه إلى إشارة حسية، وأنه لا تكفيه الدلالات الفكرية.

وقد مثلوا لهذا الداعي بقول الفرزدق من قصيدة يفتخر فيها على جرير:

أولئك آبائي فجنني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجمع
وأرى أنه من قبيل الداعي الرابع الآتي بيانه إن شاء الله.

● ويمكن أن نفهم التعريض بغباوة المخاطبين في قول الله عز وجل في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزل):

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

أي: أليس هذا الذي أنتم فيه تحسونه وتعيشون فيه بعد بعثكم إلى الحياة الأخرى بالواقع الحق، وهو الأمر الذي كنتم تنكرونه وتجحدونه في الحياة الدنيا؟

● ويكثر في مخاطبات الناس أنهم كلما شعروا بغباء المخاطب عن إدراك المتحدث عنه استخدموا له اسماً من أسماء الإشارة، على معنى: هذا أو ذاك أو ذلك فانظره إذا كنت من الذين لا تكفيهم الدلالة الفكرية.

* * *

الداعي الرابع: إرادة تكريم المتحدث عنه والتعبير عن ارتفاع منزلته، باستعمال اسم الإشارة الذي يُشار به إلى البعيد، والأمثلة على هذا كثيرة في القرآن المجيد.

الأمثلة:

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿الَّذِينَ هَدَىٰ رَبُّكَ أَتَمَّتْ لَدَيْهِ فِئَتُ الْمُتَّقِينَ﴾

جاء في هذا النص استخدام اسم الإشارة الموضوع للمشار إليه البعيد، مع أنّ المشار إليه متلوّ على المتلقين قريب منهم، للإشعار بأنّه جليل رفيع المنزلة، جديرٌ لارتفاع منزلته أن يشار إليه باسم الإشارة الموضوع للبعيد.

● وقول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة) أيضاً بعد أن فصل صفات المتقين:

﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

فأشار إليهم باسم الإشارة الموضوع للمشار إليه البعيد إشعاراً بارتفاع منزلتهم فوقّ الناس، إذ منزلتهم الرفيعة جديرة بأن يُشار إليهم فيها بهذه الصيغة من أسماء الإشارة.

ونظائر هذا الاستعمال في القرآن كثيرة.

● قول الشاعر «الحطيئة» مادحاً:

أُولَئِكَ قَوْمٌ إِنْ بَنَوْا أَحْسَنُوا الْبِنَىٰ
وَإِنْ عَاهَدُوا أَوْفَوْا وَإِنْ عَقَدُوا شَدُّوا

البنى: جمع «البنية» وهي تُطلق على كلّ ما بُني.

وَإِنْ عَقَدُوا شَدُّوا: يقال لُغَةً شَدَّ الْعَقْدَ إِذَا وَثَّقَهُ.

* * *

الداعي الخامس: إرادة إهانة المتحدث عنه، والتعبير عن انحطاط منزلته،

وبعدها كثيراً إلى جهة الأسفل، باستعمال اسم الإشارة الذي يشار به إلى البعيد، والأمثلة على هذا كثيرة في القرآن المجيد.

الأمثلة:

● قول الله عز وجل في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٦﴾﴾ .

أي: وأولئك المنحطون السافلون البعداء جداً عن رحمة الله أصحاب النار هم فيها خالدون.

● وقول الله عز وجل في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ هُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١١٧﴾﴾ .

أي: أولئك الذين ردوا أنفسهم بكفرهم إلى أسفل سافلين حتى صاروا أضل من الأنعام، فابتعدوا جداً عن مهابط رحمة الله فصاروا أصحاب جهنم يوم الدين، فناسب حالهم أن يشار إليهم باسم الإشارة الذي يشار به إلى البعيد.

ذَرَأْنَا: أي: خلقنا وفق نظام التناسل الذي تكون المواليد به ذرية آبائهم وأمهاتهم.

● وقول الله عز وجل في سورة (محمد/ ٤٧ مصحف/ ٩٥ نزول) بشأن

المنافقين:

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقْطِعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿١٢١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ﴿١٢٢﴾﴾ .

أي: أولئك المنافقون البعداء عن مهابط الرحمة إلى جهة الدرك الأسفل من النار الذين لعنهم الله بسبب نفاقهم فأصمَّهُم وأعمى أبصارهم.

* * *

الداعي السادس: إرادة تحقير المتحدث عنه بتعريفه باسم الإشارة.

الأمثلة:

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) حول مقالة الذين كفروا بشأن رسول الله محمد ﷺ:

﴿وَإِذَا رَأَىكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ يَذْكُرِ الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

من الظاهر في عبارة الذين كفروا: [أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ] أنهم يريدون التحقير باستعمال اسم الإشارة «هذا» مع الاستفهام الذي يراد منه الاستصغار والتحقير أيضاً.

● وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) في حكاية قول فرعون يحرض جيشه الذي جمعه لملاحقة موسى عليه السلام ومعه بنو إسرائيل خارجين من مصر في اتجاه سيناء:

﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٦﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

فحَقَّرَ فِرْعَوْنُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَقَلَّلَ مِنْ شَأْنِهِمْ بِقَوْلِهِ «إِنَّ هَؤُلَاءِ» وَفَصَّلَ كَلَامَهُ بِقَوْلِهِ: «لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ».

الشِّرْذِمَةُ: الجماعة القليلة، وجمعُ «شِرْذِمَةٍ» شَرَادِمٌ.

* * *

الداعي السابع: إرادة بيان أن المتحدث عنه واضح جليّ حاضرٌ قريب التناول لا يحتاج إلى بحثٍ وجهدٍ للوصول إليه.

الأمثلة:

●

قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (/ الأنعام ٦ مصحف / ٥٥ نزول):

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْنَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾.

أي: هذا القريب منكم جدًّا، والظاهر بما أنزلت عليكم من بيان حوله، والذي يتلاءم مع فطرة عقولكم ونفوسكم، وهو دين الإسلام هو صراطي حالة كونه مستقيمًا لا اعوجاج فيه.

● وقول الله عزَّ وجلَّ بشأن القرآن في سورة (الإسراء / ١٧ مصحف /

٥٠ نزول):

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هُوَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿١﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢﴾﴾.

أي: إن هذا القرآن القريب منكم الذي يُثَلَى عَلَيْكُمْ.

* * *

الداعي الثامن: تنزيل المعنويات الفكرية منزلة الأشياء التي تُدرك بالحواس الظاهرة، فهي تَسْتَحِقُّ أَنْ يُدَلَّ عَلَيْهَا بِاسْمِ الْإِشَارَةِ، بحسب ما يرى المتكلم من حالها قريباً أو بعداً.

فإذا كان يرى أنها قريبة أشار إليها باسم الإشارة الذي للقريب.

وإذا كان يرى أنها بعيدة أشار إليها باسم الإشارة الذي للبعيد.

ومنه قول الشاعر ابن الدميثة يخاطب معشوقته :

تَعَالَلْتِ كَيْ أَشْجَى وَمَا بِكَ عَلَّةٌ تُرِيدِينَ قَتْلِي قَدْ ظَفِرْتِ بِذَلِكَ
فَنَزَلَ فِكْرَةً قَتَلَهُ مِثْلَهُ مِنَ الْأَمْرِ الْمَدْرِكِ بِالْحَسَنِ الظَّاهِرِ، فَأَشَارَ إِلَيْهَا بِاسْمِ
الإِشَارَةِ، وَلَكِنْ أَلْمَحَ إِلَى أَنَّ لَدَيْهِ قُدْرَةَ احْتِمَالٍ قَدْ تَوَخَّرَ مَوْتَهُ فَتَجَعَّلَهُ بَعِيداً يَشَارُ
إِلَيْهِ بِاسْمِ الإِشَارَةِ الْمَوْضُوعِ لِلْبَعِيدِ.

* * *

الداعي التاسع: استخدام اسم الإشارة الذي يُشار به إلى ذي أوصاف متعددة
سبقت في الكلام، للإشعار بأنّ هذه الأوصاف السابقة هي التي جعلته مستحقاً لأن
يُحَكَمَ عليه بما جاء في جملة الخاصة.

الأمثلة

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) في وصف

المتقين:

﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ
يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ
رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ ﴾

أي: إن الحكم لهم بالفلاح وظهرهم به يوم الدين قد كان بسبب اتصافهم
بالأوصاف التي ذُكرت لهم فيما سبق من النص في عدّة جُمَلٍ.

● وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة) أيضاً في وصف الفاسقين:

﴿ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ
وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾

أي: إن الحكم عليهم بأنهم هم الخاسرون قد كان بسبب اتصافهم
بالأوصاف التي ذُكرت لهم فيما سبق من النص.

ونظائر هذَيْنِ المثالين في القرآن المجيد كثيرة.

* * *

الداعي العاشر: إرادة التهكم بالمخاطب، ومن أمثلته أن يكون المخاطب أُمِّيًّا لا يقرأ وَلَا يكتُبُ، وَيُجَادِلُ في مسائل علمية، ويدّعي أَنَّ القرآنَ يشهدُ لِمَا يقول، وذكرَ آيةً من حفظه على خلاف تلاوتها الصحيحة، ومُحَدِّثُهُ يَعْلَمُ أَنَّهُ أُمِّيٌّ، فيقول له: هذا المصحف فأتلُ علينا الآيةَ الَّتِي ذَكَرْتَ مِنْهُ.

إلى غير ذلك من دواعٍ تتفتقُ عنها قرائح البلغاء ومُتَدَبِّرِي النصوص البليغة الرفيعة.

* * *

رابعاً — دواعي اختيار اسم الموصول:

اسم الموصول: هو اسم معرفة يفتقر في بيان المراد منه إلى أمرين:

الأمر الأول: الصلة، وهي:

(١) جملةٌ خبرية، مثل: الذي خلق كلَّ شيءٍ.

(٢) أو شبه جملة (وشبه الجملة الظرف والجار والمجرور المتعلقان بعامل

محذوف وجوباً) مثل: الذي في الدار، والذي عندك.

(٣) أو وصف صريح (وهذا خاصٌّ بأن الموصولية) مثل: هذا المغلوبُ

على أمره، أي: الذي غلبَ على أمره.

الأمر الثاني: العائد، وهو ضمير مذكور أو محذوف يربط الصلة به.

وأسماء الموصول، منها ما هو نصٌّ في معناه، وهي ثمانية: «الذي — الَّتِي —

اللَّذَانِ — اللَّتَانِ — الأُلَى — اللَّذِينَ — اللّاتِي — اللّائِي».

ومنها ما هو مشترك، وهي ستة: «مَنْ — ما — أَيُّ — أَلْ — ذُو — ذَا».

فاسم الموصول هو اسم مُبْهَمٌ الدلالة لولا صلته الكاشفة للمراد به،
والمعرفة حقاً بما يراؤ الدلالة به عليه .

وهذا الإبهامُ الأوَّلِيُّ في اسم الموصول يُحْدِثُ في نَفْسِ المتلقِّي تشوُّفاً
وتَشوُّفاً لمعرفة المراد به عن طريق صلته .

فهو بسبب استثارته للداعي النفسي إلى المعرفة يُعْتَبَرُ من أدوات البيان التي
تنفتح لها أبواب النفس انفتاحاً تلقائياً فتتلقُّفها بالدافع الذاتي إلى المعرفة .

ومن هنا تَبْدُو لنا ميزة خاصة لاسم الموصول لا تُوجَدُ في غيره، ويُضَافُ إلى
هذه الميزة أن صلة الموصول قد تتضمَّنُ مع التعريف بالمدلول عليه به بياناً لمعانٍ
مُهَمَّةٍ تُؤَدِّي بكلام تامَّ يَقْصِدُ المتكلم بيانها، مع صياغتها في إطار مفردٍ هو جزء
جملة، وَيَقْصِدُ توصيلها إلى من يُوجَّه له الكلام .

أما الدواعي البلاغية الخاصة التي تدعو المتكلم البليغ إلى استخدام اسم
الموصول في كلامه، للتعريف بالعنصر الاسمي من عناصر أركان جملته، فهي التي
اهتمَّ البلاغيون بالتنبيه على ما اكتشفوه منها .

وقد ذكر البلاغيون طائفةً من الدواعي البلاغية لاختار اسم الموصول من
ضِمْنِ البدائل التي تصلح لأن تستخدم في موقعه من الجملة، دون أن يكون ما
ذكروه منها حاصراً لكلِّ الدواعي التي تتفقُّ عنها قرائح أذكياء البلغاء .

ومع تجاوز التقييد بحدود المسند والمسند إليه تظهر لنا الدواعي التالية :

الداعي الأول: أن لا يكون لدى من يتلقَّى الكلامَ عِلْمٌ بشيءٍ من المعرفات
التي تعرّف العنصر الاسمي، أو تميّزه في الجملة عن غيره، إلاّ اتّصافه بما دلّت
عليه صلة الموصول، فيكون اختيار الاسم الموصول في هذه الحالة أمراً لازماً
لتحقيق البيان الذي يستدعيه الكلام .

كأن لا يعرف عنه المخاطب غير أنّه اشترى منه خروفاً يوم الجمعة، فيقول له

ابنه مثلاً: يا أبي جاء الذي اشتريت منه الخروف يوم الجمعة يُطالبُ بياقي ثمن الخروف.

ومنه قول الله عزَّ وجلَّ في عرض قصة موسى عليه السلام في سورة (القصص / ٢٨ مصحف / ٤٩ نزول) بشأن الإسرائيلي الذي استنصره في مصر فنصره على القبطي:

﴿ فَاصْبِرْ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اَسْتَنْصَرُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَمَوِيٌّ مُّيْنٌ ﴿١٨﴾ ﴾ .

فمُتَلَقُّوا هذه القصة وتالوها لا يَعْرِفُونَ عن هذا الرجل غير ما جاء في سِباقِ القصة من أنه استنصر موسى بالأمس فنصره، فوَكَّرَ مُوسَى الرَّجُلَ الْقِبْطِيَّ فَقَضَى عَلَيْهِ.

* * *

الداعي الثاني: إرادة الوصف بما تَضَمَّنَتْه صلة الموصول، وهذا شائع كثير، ومنه قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة / ٢ مصحف / ٨٧ نزول):

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ... ﴾ [الآية ١٨٥].

* * *

الداعي الثالث: تحاشي التصريح باسمه لكونه مُسْتَهْجَناً، أو يُؤثر المتكلم عدم التصريح به تأدُّباً أو تعفُّفاً أو استحياءً أو غير ذلك، فيكون تمييزه بالوصف عن طريق الموصول وصلته محققاً لمطلوب البيان، دون التعرض للتلفُّظ بما هو مستهجنٌ ممحوجٌ مُسْتَكْرَهٌ في آذانِ المتلقين، أو ما يؤثر المتكلم عدم التصريح به لسبب من الأسباب.

ومنه ما رواه الضحاك بن سفيان أن النبي ﷺ قال:

«إِنَّ اللَّهَ جَعَلَ مَا يَخْرُجُ مِنْ ابْنِ آدَمَ مَثَلًا لِلدُّنْيَا».

أخرجه الإمام أحمد والطبراني والبيهقي في شعب الإيمان^(١).

يلاحظ أن ذكر ما يخرج من ابن آدم باللفظ الصريح مستهجن، فأشار الرسول إليه بأنه الذي يخرج من ابن آدم، فاستخدم اسم الموصول وصلته.

ومنه ما رواه البخاري عن سهل بن سعد أن النبي ﷺ قال: «مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الْجَنَّةَ».

* * *

الداعي الرابع: إرادة زيادة تقرير الغرض المسوق له الكلام، لما في صلة الموصول من ضلال دلالاتٍ توحى بوقوع الحدث، إذا قيس بأشباهه في مثل ظروفه، كأن تقول: سرق خزينة القصر الذي يعرف خباياه، ومدخله ومخارجه، وباستطاعته أن يتوصل إلى مفاتيح أبوابه بسهولة، وأنت تقصد شخصاً معيناً تعرف اسمه، وتنطبق عليه هذه الأوصاف، فذكرك له باسم الموصول وصلته مما يزيد في تقرير وقوع السرقة منه، وذلك لأن من كان مثله في صفاته كان عرضةً لأن يسرق الخزينة.

ومن شواهد هذا الداعي قول الله عز وجل في سورة (يوسف) ١٢ مصحف/ ٥٣ نزول) بشأن مراودة امرأة العزيز ليوسف عليه السلام واستعصامه بالعفة وبالخوف من الله، وتمنُّعه عن الوقوع في الفاحشة:

﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَعَلَقَتْ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾.

فاختيار ذكر: [الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا] دون ذكر اسمها «زليخة» أو ذكر «امرأة

(١) أشار السيوطي إليه بالصحة في الجامع الصغير.

العزیز» كما جاء في موضع آخر من السورة، لزيادة تقرير وقوع الحدث، إذ كون يوسف عليه السلام في بيتها، وهي سيده المطاعة فيه، لا بد أن يلاحظ معه أنها لا تراوده إلا إذا وصلت إلى ذروة الإعجاب بشخصه والافتتان بصفاته، بعد مخالطة طويلة رأت فيها من جماله وبهائه وذكائه وشبابه ورجولته وحسن أدبه، وكمال خلقه ما جعلها شغوفة بحبه حب النساء للرجال، وهي ترى أن لها عليه سلطان الأمر الناهي، وأن عليه أن يحقق لها مطالبها منه.

ومع زيادة التقرير هذه نلاحظ مضمون الثناء على عفة يوسف عليه السلام، واستعصامه وطاعته لربه، إذ استطاع مع وجود كل الدواعي الدافعة بقوة إلى الخطيئة، أن يصد أمام كل مثيرات الإغراء، وأن يتحدى سلطة سيده القصر التي تريد تحقيق رغبتها ولو بالقوة.

وتفهم زيادة التقرير هذه من قول أبي العلاء المعري:

أَعْبَادَ الْمَسِيحِ يَخَافُ صَحْبِي وَنَحْنُ عَيْدُ مَنْ خَلَقَ الْمَسِيحًا؟!

أي: من المستبعد جدًا في أصحابي المسلمين الذين يعبدون من خلق المسيح، ويستعينون به، ويرجون منه النصر أن يخافوا من يعبدون المسيح الذي هو عبد الله، وخلق من خلقه، وإن استنصرتموه لم ينصروهم.

* * *

الداعي الخامس: إرادة التفخيم والتعظيم أو التهويل، وذلك لأن الإبهام الذي قد يوحي به اسم الموصول مع صلته أحياناً يوميء إلى ذلك.

● ومنه قول الله عز وجل في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى ۚ فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ ۚ فَغَشِيَهُمْ مِنَ اللَّيْلِ مَا عَشَيْتُمْ ۖ﴾

أي: فَغَشِيَ فرعونَ وَجُنُودَهُ من اليمِّ مَا غَشِيَهُمْ من أمرٍ مهولٍ جدًّا، فدلَّ الإبهام في الموصول وصلته على عِظَم الأمر المهول الذي غشيَهُمْ.

● ونظيره قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (النجم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول):

﴿وَالْمُؤَنَّفَكَةَ أَهْوَى ﴿٥٣﴾ فَغَشَّيْنَاهَا مَا عَشَى ﴿٥٤﴾﴾.

المؤنفكة: أي: المنقلبة، وهي قرى قوم لوط.

فَغَشَّيْنَاهَا مَا عَشَى: أي: فنزل عليها من فوقها شيءٌ مهولٌ عظيم سترها كلها فدمرها تدميرًا شاملاً، فدلَّ الإبهام في الموصول وصلته على عِظَم الأمر المهول الذي غشى قرى قوم لوط المنقلبة عاليها سافلها.

● وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (النجم) أيضاً بشأن نفيخم وتَعْظِيم ما يَغْشَى سِدْرَةَ الْمُنْتَهَى، فوق السماوات السَّبع:

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴿١٣﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ﴿١٤﴾ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْأَوْثَى ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى ﴿١٦﴾﴾.

أي: إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ شيءٌ عظيم لا تستطيع الأوهام أن تتخيَّله.

* * *

الداعي السادس: الإشارة إلى أن الوصف الذي دلَّت عليه صلة الموصول هو علة بناء الحكم في الجملة، وهذا نظير قول علماء أصول الفقه: بناء الحكم على المشتقَّ يُؤذَن بعليَّة ما منه الاشتقاق.

والإشارة أيضاً إلى أن الوصف الذي دلَّت عليه صلة الموصول يقتضي الالتزام بالتكليف الذي يأتي بعده.

والأمثلة على هذا الداعي بفرعيه كثيرة في القرآن المجيد، فمنها ما يلي:

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (١٧٧)

أي: هذا الجزاء الكريم لهم إنما هو بسبب اتصافهم بالإيمان والعمل الصالح وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة.

● وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّبُهُمْ نَارًا كَمَا نُصَلِّبُ جُلُودًا بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا أُخْرَىٰ لِيَذُقُوا عَذَابَ إِيَّاكَ اللَّهُ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (٥٦)

أي: هذا العذاب الأليم لهم إنما يكون بسبب كفرهم بآيات الله.

● وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الحشر/ ٥٩ مصحف/ ١٠١ نزول):

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (١٨)

أي: إن إيمانكم بالله واليوم الآخر يقتضى منكم الالتزام بطاعة الله، لتتقوا عذابه يوم الدين.

* * *

الداعي السابع: قد يُتَّخَذُ اسم الموصول مع صلته ذريعة لتعظيم الموصوف به، إذ اتصافه بما تضمنته صلة الموصول من وصفٍ عظيم أمرٌ يدلُّ على أنه عظيم، كأن تقول: الذي خَلَقَ السماوات والأرض وأتقن كلَّ شيءٍ صُنْعاً هو إلهنا. فوصفه هو الخالق المتقن لكلِّ شيءٍ يدلُّ على عظمته وجلاله واستحقاقه أن يُعْبَد ويُفْرَد بالعبادة.

وقد يُتَّخَذُ ذَرْعاً للتعريض بالمنزلة الرفيعة للمتكلِّم، أو فخامة شيءٍ يتعلَّق به، أو نحو ذلك، كأن تقول: الذي بنى قصر الملك هو الذي بنى قصرِي، تشير إلى فخامة بناء قصرك، وأنك ذو مكانة رفيعة.

ومنه قول الفرزدق من قصيدة يفتخر بها على جرير:

إِنَّ الَّذِي سَمَكَ السَّمَاءَ بَنَى لَنَا يَتَّى دَعَائِمُهُ أَعَزُّ وَأَطْوَلُ

وقد يُتَّخَذُ ذريعةً للتخويف من عقاب الموصوف به، والتحذير الشديد من مخالفته، ومنه قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ / مصحف/ ٤٧ / نزول) في حكاية ما قال شعيب عليه السلام لقومه:

﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِلَّةَ الْأُولِينَ﴾ (١٨٩)

وَالْجِلَّةَ الْأُولِينَ: أي: الأُمَّةَ الْأُولِينَ من الناس.

والمعنى أَنَّ خالق الناس جميعاً يجب أن يُتَّقَى عقابُه، إذ هو على كلِّ شيءٍ

قدير.

* * *

الداعي الثامن: إرادة تنبيه المخاطب على خطأ واقع فيه، بما تضمَّنته صلة الموصول مما يخالف معتقده، ومنه قول عبدة بن الطبيب من قصيدة يعِظُ فيها بنيه: إِنَّ الَّذِينَ تَرَوْنَهُمْ إِخْوَانَكُمْ يَشْفِي غَلِيلَ صُدُورِهِمْ أَنْ تُصْرَعُوا غَلِيلَ صُدُورِهِمْ: أي: غيظ صدورهم منكم.

أَنْ تُصْرَعُوا: أي: أَنْ تَهْلِكُوا وَتَمُوتُوا.

* * *

الداعي التاسع: قصد الدلالة على معانٍ تتضمنها صلة الموصول، وهذه المعاني لا تدلُّ عليها المعارف الأخرى، ولا حصر لهذه المعاني.

وبعض هذه المعاني يُشعر بتعظيم من دلَّ عليه اسم الموصول، وما يجب

تجاهه، مثل: ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾ (٧) [الانفطار/ ٨٢].

وبعضها يشعر بالتهكُّم، مثل قول المشركين للرسول ﷺ كما جاء في سورة

(الحجر/ ١٥ / مصحف/ ٥٤ / نزول):

﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾

وبعضها يُشعر بالحثّ على الرحمة والمعونة والإحسان، مثل: أسعفو الَّذِينَ يتعرّضون للتقتيل والتشريد والجوع والظماً والمرض من مسلمي البوسنة والهرسك على أيدي الصّرب الهمج.

* * *

خامساً — دواعي اختيار المعرّف باللّام:

(١)

مقدمة

الاسم المعرّف باللّام [وقد يستعمل النحاة عبارة المعرّف أو المحلّي بـ «ال»] تدخل عليه أداة التعريف هذه فتدُلُّ على معانٍ متعدّدة، تختلف باختلاف المراد منها الذي تكشفه القرائن اللفظية أو غير اللفظية.

وقد أحصى النحاة وتبعهم البلاغيون المعاني التي يُمكن أن تستفاد من هذه الأداة من أدوات التعريف.

ونبّه البلاغيون على أن المتكلّم البليغ قد يختار في كلامه الاسم المعرّف باللّام دون المعارف الأخرى التي تصلح بدائل له، للدلالة على معنى يقصده من المعاني التي يمكن أن تستفاد من أداة التعريف هذه، مع قصد الإيجاز في التعبير. ونلاحظ أنه كلما كان المتكلّم أكثر إحساساً بفروق المعاني، وأكثر تدوّقاً لفروق العناصر الجمالية في الكلام، وأكثر إدراكاً لمطابقة الكلام لمقتضى الحال، كان أحسن اختياراً من البدائل التي يصلح كلُّ منها لأداء أصل المعنى المقصود بوجه عام، وبسبب ذلك تتفاوت مراتب الكلام البليغ ودرجات كلّ مرتبة منها، وتتفاضل مراتب البلغاء ودرجاتهم في إنشاء الكلام البليغ والإبداع فيه.

* * *

(٢)

تقسيم لام التعريف

قسّم النحويّون اللّام التي تدخل على الاسم فتفيده تعريفاً إلى قسمين: اللّام الجنسية، واللّام العهدية.

أمّا اللّام الجنسيّة^(١): (وقد تُسمّى عند البلاغيين لام الحقيقة) فهي ثلاثة أنواع:

النوع الأول: اللّام التي لبيان الحقيقة والماهية، وهي التي لا يصحّ أن يستعمل بدلها كلمة «كلّ» فيشارُ بها إلى الحقيقة الشائعة في الأفراد، دون النظر إلى الدلالة على عمومٍ أو خصوص.

ومن الأمثلة على هذا النوع ما يلي:

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلِّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾

أي: وجعلنا من ماهية جنس الماء كلّ شيء حيّ، بإرادة حقيقة الماء وماهيته تستبعد إرادة كلّ الماء على سبيل الاستغراق، والقرينة على إرادة الحقيقة والماهية دون الاستغراق الواقع المشاهد، فالأحياء يدخل في تركيب أجسادها عنصر الماء، مع وجود مياه منفصلة عن الأحياء، ومياه لم تخلق منها أحياء بعد.

(١) يطلق لفظ «الجنس» عند النحويين واللّغويين والبلاغيين والفقهاء على كلّ لفظٍ كُليّ مقول على أفراد متعدّدة كثيرة تشترك في معنى جامع، بحيث يصدّق الكليّ على كل واحد منها لوجود حقيقة الجنس فيه، فهو يشمل في إطلاقهم أقسام الكليات الخمس المعروفة في اصطلاح علماء المنطق (الجنس، والنوع، والفصل، والخاصّة، والعرض العام) ويشمل أيضاً الصنف من الأصناف ضمن النوع الواحد، والفصيلة من الفصائل ضمن الصنف الواحد.

● والقول المشهور: «أهلك النَّاسَ الدِّينَارُ والدِّرْهَمُ» أي: أهلك جنس الناس لا كلَّ أفرادهم جنس الدينار وجنس الدرهم، لا كلَّ دينار وكلَّ درهم.

● ويمثلون بعبارة: «الرَّجُلُ خَيْرٌ مِنَ الْمَرْأَةِ» أي: جنس الرجل وماهيته خير من جنس المرأة وماهيته، لا كلَّ فردٍ من أفراد الرجال خير من كلِّ امرأة، إذ بعض النساء أفضل من مئات الألوفا من الرجال.

● ومنه قول أبي العلاء المعري:

وَالخِئْلُ كَالْمَاءِ يُبْدِي لِي ضَمَائِرَهُ مَعَ الصَّفَاءِ وَيُخْفِيهَا مَعَ الْكَدْرِ

أي: جنس الخيل يفعل هذا، دون ملاحظة استغراق جميع الأخلاء، إذ قد يوجد منهم من هو على خلاف ذلك.

النوع الثاني: اللام التي لاستغراق أفراد الجنس كلهم حقيقة أو عرفاً، وهي التي تدلُّ على ما تدلُّ عليه لفظة «كلُّ» لو كانت بدلها.

فمن أمثلة الاستغراق الحقيقي ما يلي:

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ ﴿٢٨﴾

أي: وخلق كلَّ فرد من أفراد جنس الإنسان ضعيفاً، والواقع يشهد لإرادة هذا الاستغراق.

● وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (السجدة/ ٣٢ مصحف/ ٧٥ نزول):

﴿ذَلِكَ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿٦﴾

أي: عالم كلِّ غيب وكلِّ شهادة، والدليل العقلي يقرّر هذا الاستغراق.

ومن أمثلة الاستغراق العرفي ما يلي:

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ... ﴾ [الآية ١١٣].

أي: سحرة مملكته، لا كلَّ سَحَرَة العالم.

ومنه أن تقول: جمع وزير الصحة الأطباء والصيادلة، أي أطباء الدولة وصيدلتها.

ويلاحظ في الاستغراق أن استغراق المفرد أشمل من استغراق المشئ والجمع، بدليل صحة قولنا: لا رجلان في الدار، إذا كان فيها رجل واحد، وصحة قولنا: لا رجال في الدار، إذا كان فيها رجل أو رجلان.

ويلاحظ أيضاً أنه لا تنافي بين الاستغراق وإفراد الاسم، لأنَّ حرف اللام يدخل عليه مجرداً عن معنى الوحدة، فيكون لفظ المفرد المعرّف باللام بمعنى: كلُّ فرد، لا بمعنى: مجموع الأفراد، ولهذا امتنع وصفه بلفظ الجمع، فلا يقال: الرَّجُلُ المؤمنون أفضل من الرجل غير المؤمنين، بل يقال: الرجل المؤمن أفضل من الرجل غير المؤمن.

النوع الثالث: اللّام التي لاستغراق صفات الجنس مجازاً على سبيل المبالغة، كأن تقول لمن تريد الثناء عليه باستجماعه صفات الرجولة الكاملة: «أنت الرَّجُلُ» أي: أنت المستغرق في صفاتك صفات جنس الرجال.

وكان تقول مثلاً عن المتنبي: «هو الشاعر» أي: هو الذي اجتمعت فيه كلُّ صفات الشاعر، فكأنه استغرق الجنس كله.

ومنه قول الشاعر: «أنتُم النَّاسُ أَيُّهَا الشُّعْرَاءُ».

* * *

وأما اللّام العهدية: فهي ثلاثة أنواع أيضاً:

النوع الأول: اللام التي للعهد الذكري، وهي التي يتقدم المعرف بها ذكر في الكلام، وضابطها أن يسد الضمير مسدّه. والمعهود في الذكر قد يكون مذكوراً صراحةً باللفظ، وقد يكون مذكوراً على سبيل الكناية.

● فمن أمثلة المذكور صراحة بلفظه ما يلي:

قول الله عز وجل في سورة (المزمل / ٧٣ مصحف / ٣ نزول):

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ رَسُولًا شَهِدًا عَلَيْكَ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿٥٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿٥٦﴾ ﴾ .

وبيلًا: أي: شديداً.

فاللام التي في (الرسول) عهدية، ونلاحظ أنه يمكن أن يقع الضمير موقع لفظ الرسول فيقال: فعصاه فرعون، ويلاحظ أن في اختيار المعرف باللام العهدية هنا إرادة ذكر لفظ الرسول لبيان شناعة معصية فرعون لرسول ربه.

● قول الله عز وجل في سورة (النور / ٢٤ مصحف / ١٠٢ نزول):

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ﴾ [الآية ٣٥].

فاللام في «المِصْبَاح» وفي «الزجاجة» عهدية، ونلاحظ أنه يمكن أن يقع الضمير موقعهما، فيقال: فيها مصباح هو في زجاجة هي كأنها كوكب دري. ولكن تَصَغُفُ فنيّة الأداء البياني لو استخدم الضمير بدل المُعْرَف باللام، فالداعي هنا جمالي.

ومن أمثلة المذكور على سبيل الكناية ما يلي:

● ما جاء في قول الله عز وجل في سورة (آل عمران / ٣ مصحف /

٨٩ نزول):

﴿ إِذْ قَالَتْ أَمْرًاتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَدَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٦٦﴾ ﴾ .

إنه لم يسبق ذكر لفظ الذَّكَرِ صراحةً، لكنه سبق ذكره على سبيل الكناية، لأنها قالت: ﴿ إِنِّي نَدَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ﴾ وعتق الوليد لخدمة بيت المقدس لم يكن إلا للذكور، فلفظ «ما» في كلامها قد كُنَّتْ به عن وليد ذكر، فلَمَّا جاء الوليد أنثى قالت: ﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى ﴾ .

النوع الثاني: اللام التي للعهد الذهني، ويُسمَّى أيضاً «العهد العِلْمِي» وهي التي سبق العِلْمُ بالمعرِّف بها .

وهو قسمان: معهود ذهنياً بشخصه المعين . ومعهود ذهنياً بحقيقته ضمن فرد مُبْهَم غير معيَّن بشخصه، والمعرِّف بهذه اللام للدلالة على حقيقته ضمن فرد مبهم لفظاً يعامل معاملة المعرفة، لكن معناه يُعَامَلُ معاملة النكرة، لأن المعهود بها غير معيَّن بشخصه .

ومن أمثلة المعهود ذهنياً بشخصه المعين ما يلي:

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (طه) / ٢٠ مصحف / ٤٥ نزول):

﴿ فَلَمَّا آتَاهَا نُورًا يَمْسُوكَ ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ ﴾ .

إنه لم يسبق ذِكْرُ لفظ «الوادي» لكن سبق العلم به، فهو معهود ذهنياً، فاللام المعرفة له هي للعهد الذهني « = العهد العلمي » .

● وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (التوبة) / ٩ مصحف / ١١٣ نزول) خطاباً للمؤمنين تحريضاً لهم على نصره الرسول:

﴿ إِلَّا نَصْرُهُ فَكَدَّ نَصْرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ... ﴾ [الآية ٤٠].

إنه لم يسبق ذكر للفظ «الغار» لكن سبق العلم به، فهو معهودٌ ذهنياً، فالآم المعرفة هنا هي للعهد الذهني « = العهد العلمي ».

● وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الفتح / ٤٨ / مصحف / ١١١ نزول):

﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَنْبَهُمْ فَتَحًا قَرِيبًا ﴾ ﴿١٨﴾ .

فالشجرة معهودَةٌ ذهنياً، دون أن يسبق في النصّ لها ذكر.

ومن أمثلة المعهود ذهنياً بحقيقته ضمن فرد مبهم غير معين بشخصه ما يلي:

● ما جاء في قول الله عزّ وجلّ في سورة (يوسف / ١٢ / مصحف / ٥٣ نزول) حكاية لمقالة يعقوب لبنيه بشأن يوسف عليهما السلام:

﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ ﴿١٣﴾ .

لفظ «الذئب» يطلق على أيّ ذئب فمعناه كمعنى النكرة، فماذا فعلت اللام المعرفة فيه؟ قالوا: عرّفت الحقيقة الملاحظة في الذهن، ولم تُعرّف ذئباً معيناً بشخصه، وهذه الحقيقة الذهنية الواحدة تنطبق على ذئبٍ ما أيّ ذئب.

● ومنه قول عميرة بن جابر الحنفي:

وَلَقَدْ أَمَرْتُ عَلَى اللَّيْمِ يَسْبُنِي فَمَضَيْتُ ثُمَّتَ قُلْتُ: لَا يَغْنِينِي

فتعريف لفظ «اللييم» تعريف للحقيقة الملاحظة في الذهن كما قالوا.

● ومنه أن تقول لمن تخاطبه: اذهب إلى السوق واشتر منه حاجتك.

النوع الثالث: اللام التي للعهد الحضورى، وهي التي يكون المعرفُ بها حاضراً عند التكلم، ومن أمثلة هذا النوع ما يلي:

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزل):

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَاتَّمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا...﴾
[الآية ٣].

فاللام التي في لفظ «اليوم» المعرّفة له تُشير إلى اليوم الحاضر الذي نزلت فيه الآية، وكان يوم عرفة في حجّة الرسول ﷺ.

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزل) في عرض لقطاتٍ من قصة موسى عليه السلام وفرعون:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يُنْفِرُونَ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٥﴾ حَقِيقٌ عَلَيَّ أَن لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بَيْنَتٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٠٦﴾ قَالَ إِن كُنْتَ جِئْتَ بِتَايَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿١٠٧﴾ فَأَلْفَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٨﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنّٰظِرِينَ ﴿١٠٩﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴿١١٠﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١١﴾﴾

فالظاهر أن اللام في لفظ «الملائ» المعرّفة تُشيرُ إل الملائ الحاضرين في مجلس فرعون حين قدّم موسى عليه السلام آتيه لفرعون، إذ يحتمل أن يوجد في مصر ملاًّ آخرون غيرهم لم يكونوا حاضرين في مجلسه حينئذٍ.

● وتصل إلى دارٍ لتقابل صاحبها فتناديه: افتح الباب، فاللام في لفظ «الباب» عهدية تشير إلى الباب الموجود في مكان الحضور، فهي من التي للعهد الحضورى.

وتريد أن تشرب ماءً، فتقول لمن تخاطبه: ناولني الكأس، أي: الكأس
الحاضرة في مجلس المخاطبة.

إلى غير ذلك من أمثلة.

وبيان قسَمي اللام المعرفة وأنواعهما ودلالات كل نوع منها، يتضح لنا أن
على المتكلم البليغ أن يختار لكلامه ما يلائم المعنى الذي يريد أن يعبر عنه، وما
يراه أكثر بلاغة مما يطابق مقتضى الحال.

وأن على متفهم النصوص البليغة أن يكتشف أسرار الاختيارات الحكيمة في
الكلام البليغ، وأن يكون قادراً على النقد الكاشف للمحاسن والعيوب في الكلام.

ملاحظة:

لم أتعرض هنا لما يسمّى «اللام الزائدة» مثل «ال» في نحو «اللآت والعزى»
وفي نحو «الآن» وفي نحو «اليزيد» والداخلة على الأعلام، مثل: «الحسن
والحسين».

ولم أتعرض لما يُسمّى «اللام الموصولية» التي تأتي بمعنى «الذي» وهي التي
قد تدخل على اسم الفاعل، أو اسم المفعول، على معنى الذي، فهي حينئذ اسم
موصول في صورة حرف، وصلتها الوصف الذي دخلت عليه، مثل: جاء الضاربُ
أحاك، أي: الذي ضرب أحاك.

لم أتعرض لهما لأنهما بطبيعتيهما خارجتان عن اللام التي تدخل على الاسم
فتعرفه، وإن كانتا مُشابهتين لها في دخولهما على بعض الأسماء مثل دخولها.

فدواعي اختيار المعرف باللام ترجع إلى قصد الدلالة على معنى من معانيها
مع الاختصار والإيجاز، ومع دواعي أخرى يقصد إليها البليغ، كالتأكيد، والإشارة
إلى عظمة المعرف بها، أو حقارته، أو إرادة التذكير به، أو بسالف عهد معه، إلى
غير ذلك من أغراض يصعب إحصاؤها.

* * *

سادساً — دواعي اختيار المعرّف بالإضافة :

(١)

مقدمة

ذكر النحويّون أنّ الإضافة قسمان : لفظية، ومعنوية .

فالإضافة اللفظية : وتسمّى أيضاً «الإضافة المجازية — والإضافة غير المحضة» هي التي لا تفيد المضاف تعريفاً ولا تخصيصاً، والغرض منها التخفيف في اللفظ فقط بحذف التنوين من المضاف، أو حذف نوني التثنية والجمع ويُجرُّ المضاف إليه فيها، والمضاف إليه فيها هو فاعل في المعنى للمضاف أو مفعول به، إذ المضاف فيها ينبغي أن يكون ممّا يعملُ عمَل الفعل، والجرُّ على تقدير حرف تعدية فقط، مثل : سعيد طالبٌ علم، أي : يطلبُ علماً . والحُسَيْنُ مَهْضُومٌ الحقُّ، أي : هُضِمَ حَقُّهُ . ومُضْعَبٌ حَسَنُ الخُلُقِ والخُلُقِ، أي : حَسُنَ خَلْقُهُ وخُلُقُهُ .

وهذه الإضافة اللفظية، لا تدخلُ في دواعي اختيار المعرّف بالإضافة عند البلاغيين، بل هي من مُلَحَقَاتِ متعلقاتِ الفعل .

أما الإضافة المعنوية : وتسمّى أيضاً «الإضافة الحقيقية — والإضافة المحضة» فهي نسبةٌ تكون بين اسمين مقترنين على تقدير حرف جرّ ذي معنى بينهما، ويُزَلُّ الثاني منهما منزلة التنوين من الأوّل، وهي توجب جرّ الثاني دواماً، مثل : كتابُ اللهِ المعجزُ دليلٌ على نُبُوَّةِ مُبَلِّغِهِ وَأَنَّهُ رَسُولُ اللهِ لِجَمِيعِ النَّاسِ .

ويسمّى الأوّل منهما مضافاً، ويسمّى الثاني مضافاً إليه، والجارُّ للمضاف إليه هو المضاف .

وحرف الجرّ المقدّر بينهما واحدٌ من حروف الجرّ الأربعة التالية :

الأول : «اللام» التي تفيد الملك مثل : «هذا كتابي» أي كتابٌ ملكي، أو تفيد الاختصاص، مثل : «هنا مربطُ الفرس» أي : مربطٌ متخصّصٌ بالفرس .

الثاني: «من» البيانية، ويكون المضاف إليه فيها جنساً للمضاف، مثل: «سوار ذهبٍ - خاتم فضةٍ - ثوب قطنٍ». أي: سوارٌ من ذهب، وخاتم من فضة، وثوب من قطن.

الثالث: «في» الظرفية، ويكون المضاف إليه فيها ظرفاً للمضاف مثل: «سَهْرٌ اللَّيْلِ مُضِنٌ - عَمَلُ الصَّبَاحِ مَبَارِكٌ فِيهِ - قُعودُ الدارِ يَجلب الأَكَدارِ» أي: سَهْرٌ فِي اللَّيْلِ، وَعَمَلٌ فِي الصَّبَاحِ، وَقُعودٌ فِي الدارِ.

الرابع: «كاف التشبيه» ويكون فيها المضاف مشبهاً به، والمضاف إليه مشبهاً، مثل: «تساقط لؤلؤُ الدَّمعِ على ورد الخدود» أي: تساقط الدَّمعُ الَّذِي كَاللُّؤلؤِ، على الخُدودِ الَّتِي كَالوَرْدِ، هذه الإضافة هي من إضافة المشبه به إلى المشبه، وملاحظة كاف التشبيه فيها تكون بعد عكس ركني الإضافة.

وهذه الإضافة المعنوية تفيد واحداً من أمرين:

الأول منهما: تعريف المضاف بالمضاف إليه، إذا كان المضاف إليه فيها واحداً من المعارف، مثل: «مَسجِدُ الرَسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ» و«تَلَوْتُ صَفحَةً من كِتَابِ اللَّهِ» إلا أن يكون المضاف متوغلاً في الإبهام والتنكير مثل: «غير» أو يكون المضاف إليه ضميراً يعود على نكرة.

الثاني منهما: تخصيص المضاف بالمضاف إليه، إذا كان المضاف إليه فيها نكرة من النكرات، مثل: سيف فولاذ أقوى وأصلب من سيف فضة، أو ضميراً يعود على نكرة، مثل: طرق بابي متسوِّلاً وزوجته. واشترت ناقةً وفَصِيلَهَا.

* * *

ملاحظة: الإضافة التي هي تقدير كاف التشبيه يمكن إدخالها في الإضافة على تقدير «من» على اعتبار أن لفظ المضاف أُخِذَ على سبيل الاستعارة وأُطْلِقَ على معنى المضاف إليه، والعلاقة هي التشبيه.

ولهذا اقتصر معظم النحاة على تقدير «اللام ومن وفي» بين المضاف والمضاف

إليه.

بيان الدواعي

أما دواعي التعريف بالإضافة الحقيقية فقد ذكر البلاغيون طائفة منها، وفيما يلي بيان لها:

الداعي الأول: كون الإضافة أخصر طريق وأوجزه، والمقام يقتضي الاختصار والإيجاز.

ومن الأمثلة:

● قول جعفر بن علبّة الحارثي:

هَوَايَ مَعَ الرَّكْبِ أَلْيَمَانِينَ مُضِعِدُ
عَجِبْتُ لِمَسْرَاهَا وَأَنْتَى تَخَلَّصْتُ
أَلَمْتُ فَحَيْثُ نُمَّ قَامَتْ فَوَدَّعْتُ
فَلَا تَحْسَبِي أَنْتَى تَخَشَّعْتُ بَعْدَكُمْ
وَلَا أَنَّ قَلْبِي يَزْدَهِيهِ وَعَيْدُهُمْ
وَلَكِنْ عَرَنْتِي مِنْ هَوَاكِ ضَمَانَةٌ
جَنِيبٌ وَجُثْمَانِي بِمَكَّةَ مُوثِقُ
إِلَيَّ وَبَابُ السَّجْنِ دُونِي مُغْلَقُ
فَلَمَّا تَوَلَّتْ كَادَتِ النَّفْسُ تَزْهَقُ
لِشَيْءٍ وَلَا أَنْتَى مِنَ الْمَوْتِ أَفْرَقُ
وَلَا أَنْتَى بِالْمَشْيِ فِي الْقَيْدِ أَخْرَقُ
كَمَا كُنْتُ أَلْقَى مِنْكَ إِذْ أَنَا مُطْلَقُ

مُضِعِدٌ: من «أضعد» إذا ارتقى في أرضٍ آخذةٍ في العلوِّ والارتفاع، وقد كان سجيناً في مكة، فزارته التي يهواها، ثم سافرت مع الراكب المتجهين مُضِعِدِينَ إلى جهة اليمن.

الْجَنِيبُ: ما يقادُ إلى الجنب من الخيل وغيرها، شبه هواه الصاعد مع الراكب بالدابة التي تُقَادُ إِلَى جَنْبٍ مِنْ مَقُودِهَا، فتكون مرافقة للراكب، وقصده مَنْ يَهْوَى، فهي هواه، قالوا: وحسَّنَ هذا الاختصار أن الشاعر ضائق وسجين.

كَادَتِ النَّفْسُ تَزْهَقُ: أي: تخرج من جسده.

تَخَشَّعْتُ: تدللت وتضرعت.

أَفَرَقُ: أخاف .

أَخْرَقُ: أي: مذعور فَرِعَ مندهش .

ضمانةٌ: أي: عِلَّةٌ لَزِمْتَنِي .

والشاهد الذي استشهد به البلاغيون قوله «هَوَايَ» أي: التي أهواها، فأطلق عليها أتها هي الهوى، وأضاف الهوى إلى ياء المتكلم، فقال: هَوَايَ مع الركب اليمانيين مُصْعِد .

* * *

الداعي الثاني: كون الإضافة تُغني عن تفصيلٍ متعذّر، أو متعسر، ومن الأمثلة أن تقول: أجمَعَ علماء المسلمين على رجم الزاني المحصن .

فتفصيل علماء المسلمين أمرٌ متعذّر .

ومن الأمثلة:

قول حسان بن ثابتٍ يمدح أولاد جفنة من الغَسَّاسِنة، ويبدو أن هذا من شعره قبل الإسلام:

أَوْلَادُ جَفْنَةَ حَوْلَ قَبْرِ أَبِيهِمْ قَبْرِ ابْنِ مَارِيَةَ الْكَرِيمِ الْمُفْضِلِ
الْمُفْضِلِ: الْمُحْسِنِ بِالْعِطَاءِ، وَالزَّائِدِ عَلَى غَيْرِهِ فِي الْحَسَبِ وَالشَّرَفِ .

وقول الشاعر يمدح قومه بني مطر:

بُنُو مَطَرٍ يَوْمَ اللَّقَاءِ كَأَنَّهُمْ أُسُودٌ لَهَا فِي غَيْلٍ خَفَّانَ أَشْبِلُ

في غَيْلٍ: الْغَيْلُ مَوْضِعُ الْأَسُودِ، وَالْمَجْتَمَعُ مِنَ الشَّجَرِ .

خَفَّانَ: مَأْسِدَةٌ قُرْبَ الْكُوفَةِ .

أَشْبِلُ: جَمْعُ شِبْلٍ وَهُوَ وَلَدُ الْأَسَدِ .

وقول الحارث الجرمي .

قَوْمِي هُمْ قَتَلُوا أُمَّيْمَ أَحِي فَإِذَا رَمَيْتُ يُصَيِّنِي سَهْمِي
ومع الاختصار ففي هذه الإضافة معنى التحسر لأن من قتل أخاه هم قومه
الذين يعزُّ عليه أن يتنقم منهم ، لأنه لو فعل لأصاب بسهمه نفسه .

* * *

الداعي الثالث: أن يشار بالإضافة إلى تعظيم المضاف أو تعظيم المضاف إليه ، ومن أمثله ما يلي :

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا
حَوْلَهُ...﴾ [الآية ١].

● وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الجن/ ٧٢ مصحف/ ٤٠ نزول):

﴿وَأَنْتُمْ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾.

لبدًا: لبَد جَمْعُ لِبْدَةٍ ، وهي لبْدَةُ الْأَسَدِ ، أي: كاد مشركو مكة من كثرة تألبهم
ضدَّه لمقاومة دعوته يكونون مثل لبْدِ أُسُودِ حوله^(١).

فالإضافة إلى الله في الآيتين تَشْرِيفٌ للمضاف عظيم .

● ومن تعظيم المضاف أن يقول ذو مكانة اجتماعية ومال كثير: هؤلاء
أنصاري ، وهذا السوق ملكي ، وقصور هذا الحي قصوري ، فهو يُعْظَمُ نفسه
بانصاره ، وبما يملك .

* * *

(١) هذا ما ترجَّح عندي لدى تفسيري لسورة «الجن» .

الداعي الرابع: أن يُشار بالإضافة إلى تحقير المضاف أو تحقير المضاف إليه، أو تحقير غيرهما.

فمن تحقير المضاف أن تقول عن عِدِّ تَفَاخَرَ بِهِ صَاحِبَتِهِ: هَذَا عِدُّكَ كَلْبِكَ.

ومن تحقير المضاف إليه أن ترى كَوْخًا حَقِيرًا فَتَقُولُ لِمَنْ تَرِيدُ إِهَانَتَهُ: هَذَا قَصْرُكَ.

ومن تحقير غيرهما أن تقول لمن تريد إهانتَهُ وَهُوَ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيِّ مُسْتَكْبِرًا: هَذَا كُرْسِيُّ الْإِسْكَافِ.

* * *

الداعي الخامس: أن تتضمن الإضافة معنى يُقْصَدُ وَيُشَارُ إِلَيْهِ بِهَا، كالتحريض على الإكرام، أو التحريض على الإهانة والإذلال، أو التحريض على البرّ، أو إرادة الاستهزاء والتّهمك، أو غير ذلك.

● فمن أمثلة التحريض على الإكرام: هَذَا صَدِيقُكَ يَزُورُكَ.

● ومن أمثلة التحريض على الإهانة والإذلال: هَذَا عَدُوُّكَ مَقْبَلُ إِلَيْكَ.

● ومن أمثلة التحريض على البرّ: هَذَا أَبُوكَ الَّذِي رَبَّكَ.

● ومن أمثلة إرادة الاستهزاء والتّهمك: أن تقول لمن تسخر منه: هَذَا رَئِيسُنَا وَزَعِيمُنَا، مَعَ أَنَّهُ لَا يَصْلُحُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ تَابِعًا خَادِمًا.

إلى غير ذلك من معانٍ لطيفة يمكن أن يُشارَ إليها بالإضافة.

● ● ●

الفصل الخامس

التقييد وعدمه

(١)

مقدمة

أصل الإسناد في الجملة يتحقق بأقل ما يُطلقُ عليه أنه حُكْمٌ بشيءٍ على شيءٍ، كقولنا: «هذه شجرة - سعيد رجل - القمر بازغ - الشمس غائبة».

وكلّ زيادةٍ على ذلك ذاتٍ دلالةٍ في الجملة تُعتبرُ زيادةً في إفادة معنىٍ أو أكثر، ويقصدُ البلغاءُ إلى الإتيان بها لتنمية الفائدة وتربيتها لدى مُتلقّي الكلام.

وبعضُ هذه الزيادات في المعاني قد تدلُّ عليها البدائل المختارة للمُسند أو المُسند إليه، كزيادة معنى الحدوث في الزمان الماضي لدى اختيار صيغة الفعل الماضي في المُسند، وكزيادة معنى الحدوث في الحال أو الاستقبال أو التجدد لدى اختيار صيغة الفعل المضارع في المُسند أيضاً، وكزيادة معنى الوصف لدى اختيار اسم الفاعل أو اسم المفعول أو الصفة المشبهة في المُسند، أو في المُسند إليه، أو ما هو في حكم المُسند إليه كالمفعول به.

وقد سبق في فصل التنكير والتعريف بيان طائفةٍ من أغراض الاختيار من البدائل في الكلام ضمن عناصر الجملة.

وهنا في فصل التقييد وعدمه لاحظ البلاغيون أن المتكلم قد يقصد زيادة

إفادة المتلقي معاني لا يكفي المسند والمسند إليه للدلالة عليها، وهي تتعلق بالمسند أو بالمسند إليه أو بالإسناد في الجملة.

● فمما يتعلق بالمسند بيان زمن حدوثه أو مكان حدوثه بظرفي الزمان والمكان، مثل: «جرى السيل يوم الأربعاء في مكة ووصل إلى باب الكعبة».

فبيان الزمن قيد للمسند، وبيان المكان قيد آخر له.

● ومما يتعلق بالمسند إليه وصفه، أو بيان حاله، أو تأكيده، أو غير ذلك، مثل: «سبق الحصان الأدهم - حضر علي ركباً - خرج طلاب المدرسة كلهم».

ف«الأدهم» نعت للحصان، و«راكباً» حال لعلي، و«كلهم» تأكيد معنوي لطلاب المدرسة، وكلها قيود للمسند إليه، والحال منها قيد للمسند أيضاً.

● ومما يتعلق بالإسناد تقييده بنحو الشرط، مثل: «إذا أذى المخلوق المبتلى المكلف كل الواجبات، وترك كل المحرمات، دخل الجنة ولم يدخل النار».

فالحكم بدخوله الجنة وعدم دخوله النار مشروط بأن يفعل كل الواجبات ويترك كل المحرمات، ومن الظاهر أن هذا الشرط هو من قيود النسبة الحكيمية بين المسند والمسند إليه.

وبالإضافة إلى غرض زيادة الفائدة بما يؤتى به في الجملة من قيود للمسند أو المسند إليه أو الإسناد، فقد نبه البلاغيون على أغراض بلاغية تستفاد من التقييد بالمقيّدات التي تستكمل بها الجملة الكلامية، وهي المقيّدات التالية:

(١) المفاعيل، وهي: «المفعول به - المفعول فيه - المفعول لأجله - المفعول المطلق ونائبه - المفعول معه».

(٢) التوابع وهي: «النعته - عطف البيان - التوكيد - البدل - عطف النسق» وهكذا يكون ترتيبها إذا اجتمعت كما ذكر النحويون.

(٣) ضمير الفصل .

(٤) الشرط .

وفيما يلي شرحُ هذه القيود مع بيان بعضِ الأغراضِ البلاغيةِ التي قد يقصدها
البلغاء منها .

* * *

(٢)

التقييد بالمفاعيل

أولاً - المفعول به :

المفعول به هو في الحقيقة مُسندٌ إليه على معنى أنه هو الذي وقع عليه فعلُ
الفاعل، فهو من القيود التي تبين حُدود المسند .

إنّ مثال «ركب خالدٌ جواداً» يدُلُّنا على أنّ العلاقة بين الرُّكوب وخالد، أي
النسبة الرابطة بينهما هي أنّ الرُّكوب وقعَ من خالد، باعتباره فاعل الرُّكوب، وأنّ
العلاقة بين الرُّكوب والجواد، أي النسبة الرابطة بينهما هي أنّ الرُّكوب وقعَ على
الجواد باعتباره مفعولاً به واقعاً عليه الرُّكوب، فذكرُ كلمة «جواداً» في الجملة قد
أضاف إليها قيداً، إذ كانت جملة «رَكِبَ خالدٌ» جملةً مطلقةً، ذات احتمالات
كثيرة، فقد يكون خالدٌ ركبَ أيّ مركوبٍ آخر غير الجواد من حيوانٍ أو آلة، كسفينةٍ
أو عربةٍ أو نحو ذلك .

من هذا يتبين لنا أنّ ذكر المفعول به ممّا يفيد الجملة بياناً تقيدياً، سواءً أكان
مفعولاً به لفعلٍ ينصبُ مفعولاً واحداً، كالمثال السابق، أم مفعولاً به ثانياً لفعلٍ
ينصبُ مفعولين، مثل: «ألْبَسَ رباحٌ زوجته حُلَّةً» أم مفعولاً به ثالثاً لفعلٍ ينصبُ
ثلاثةً مفاعيل، مثل: «أَعْلَمْتُ سَعِيداً القَمَرَ بازغاً» .

فالمفعول به الأوّل في: «أَلْبَسَ رَبَاحُ زَوْجَتَهُ حُلَّةً» أضاف إلى الجملة قيداً، هو أنّ الإلباسَ من رباحٍ قد كان لزوجته، فهي اللابسة له. والمفعول به الثاني أضاف قيداً آخر، هو أنّ الملبوسَ كان «حُلَّةً»، أي: لانعلاً أو حليّةً أو غطاءً رأسٍ أو غير ذلك.

وفي مثال: «أَعْلَمْتُ سَعِيداً الْقَمَرَ بَازِغاً» نقول: إنّ المفعول به الأوّل وهو «سعيد» أضاف قيداً إلى الجملة، هو أنّ الإعلامَ كان منّي لسعيد، وإنّ المفعول به الثاني والمفعول به الثالث قد أضافا قَيْدَيْنِ آخرين في الجملة، أحدهما أنّه حصل بُزُوغٌ، وثانيهما أنّ هذا البزوغ هو بزوغ القمر.

وظاهرٌ أنّ التقييدَ بهذه القيود في الكلام ممّا يفيد تربيةً الفائدة بزيادة عناصرها لدى المتلقّي.

وتتوارد بعد ذلك أغراضٌ بلاغيّة فوق تربية الفائدة، فقد يكتفى بدلالة القرائن عن ذكر المفعول به، إلّا أنّ دواعي بلاغيّة قد تدعو إلى ذكره.

● كأن يكون المفعول به أمراً غريباً نادراً، ويقصد البليغ أنّ يقرع به سمع المتلقّي أو نفسه مع أوّل مرحلة مناسبة من مراحل كلامه، ومن الأمثلة على هذا قول الخزيمي يرثي أبا الهيثم:

وَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَبْكِي دَمًا لَبَكَيْتُهُ عَلَيْهِ وَلَكِنْ سَاحَةُ الصَّبْرِ أَوْسَعُ
 لقد كان يكفي الشاعر أن يقول: وَلَوْ شِئْتُ لَبَكَيْتُ عَلَيْهِ دَمًا، بحذف مفعول: «شِئْتُ» وكان يكفيه أن يقول: وَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَبْكِي لَبَكَيْتُ عَلَيْهِ دَمًا، بحذف مفعول: «أَبْكِي» إلّا أنّ المسارعة إلى تعريف المتلقّي بأنّ حُزْنَهُ على فقده أبا الهيثم قد بلغ منه مبلغٌ أن يبكي عليه دماً جعلته يُصرّح بما في نفسه، ويُسارع إلى ذكر الدّم عند أوّل مناسبة سائحة في كلامه.

● وكأن يريد المتكلّم دفع توهم إرادة غير المراد، ومن الأمثلة ما صنعته

مثلاً، أن يقول مظلوم حَكَمَ عليه طاعٍ بالقتل ليتخلص من منافسته له :

سَتَكْسُونِي بِقَتْلِكَ لِي فَخَاراً وَمَجْداً مِنْ دِمَائِ زَاكِيَاتِ
وَتَلْبَسُ خِزْيَ عُدْوَانٍ وَظَلَمٍ بِلُبْسِكَ بَاغِيَاءَ ثَوْبِ الطُّغَاةِ

وهنا نلاحظ المبادرة إلى إعلان أن ما يُلبسه إياه إذا قتله هو الفخار والمجد، لا ما يُتَوَهَّمُ من أنه سَيُلبسه ذلاً ومهانة.

● وقد يأتي التقييد بالمفعول به لكثير من الأغراض البلاغية التي سبق بيانها في دواعي ذكر العنصر الذي يُراد الإعلام به من عناصر الجملة.

* * *

ثانياً — المفعول فيه :

وهو الظرف، ويؤتى به لتقييد وقوع الحدث الذي اشتملت عليه الجملة بزمنٍ مُعَيَّن، أو مكانٍ مُعَيَّن، مثل : «سافرت لَيْلاً — ومَشَيْتُ مَيْلاً».

ومع تربية الفائدة بقيدي الزمان والمكان فقد يقصد البليغ بهما أغراضاً بلاغية تدعو إليها مقتضيات الأحوال، كالتعريض، والمدح، والذم، والتلذذ بالذكريات، وغير ذلك مما يعسرُ حصره، وتُلاحظ هنا أيضاً دواعي ذكر العنصر الذي يُراد الإعلام به من عناصر الجملة على ما سبق به البيان.

* * *

ثالثاً — المفعول لأجله :

وهو المفعول الذي يُبيِّن علّة الحدث الذي اشتملت عليه الجملة، أو سببهُ، أو الحكمة منه، أو الغرض منه، أو نحو ذلك.

ويؤتى به لتقييد الحدثِ ببيان علته أو سببه أو الحكمة أو الغرض منه، مثل : «زُرْتُكَ إِكْرَاماً لَكَ» أي : لأجل إكرامك.

ويدخل في هذا المفعول ما فيه معنى المفعول لأجله ولو لم يكن منصوباً، وهو المجرور منه بحرف جرّ مفيدٍ للتعليل، ويسمى المفعول لأجله غير الصريح، مثل قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢):

﴿يَجْعَلُونَ أَصْنَعَهُمْ فِيءِآذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حُدْرَ الْمَوْتِ...﴾ [الآية ١٩].

«من الصَّوَاعِقِ» مفعول لأجله غير صريح.

«حُدْرَ» مفعول لأجله صريح.

ومع تربية الفائدة بقيد المفعول لأجله نقول هنا أيضاً ما سبق أن قلناه في المفعول به، والمفعول فيه، حَوْلَ الأغراض البلاغية.

* * *

رابعاً — المفعول المطلق ونائبه:

المفعول المطلق: هو مصدرٌ يُذَكَّرُ بعدَ فِعْلِ من لفظه، لتأكيد معناه، أو لبيان عدده، أو لبيان نوعه، أو يؤتى به بدلاً من التلقظِ بفعله.

(١) فالمؤكدَ لمعنى فعله، مثل: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾.

(٢) والمبين لعدده، مثل: «شَرِبَ شَرِبَتَيْنِ».

(٣) والمبين لنوعه، مثل: ﴿فَأَصْبَرَ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ و «بَكَى بَكَاءَ الثُّكْلَى».

(٤) وما يُؤْتَى به بدلاً من التلقظِ بفعله، مثل: «رِفْقاً بالقوارير».

والنائبُ عن المفعول المطلق هو ما يُعْطَى مثل حكمه ولو لم يكن مصدرًا من لفظ فعله، وينوب عنه «اسم المصدر — صفة المصدر — ضميره العائد عليه — مرادفه — مصدر يتلاقى معه في الاشتقاق — ما يدُلُّ على نوعه — ما يدُلُّ على عدده — ما يدُلُّ على آله التي يكون بها — كلمتا «ما» و «أَيُّ» — الاستفهاميتين — «ما ومهما وأَيُّ» الشرطيات — كلمات «كلّ» و «بعض» و «أَيُّ الكمالية» مضافات

إلى المصدر — اسم الإشارة إذا كان مشاراً به إلى «المصدر» ويرجع إلى أمثلتها في كُتِبَ النحو.

ومع تربية الفائدة بالمفعول المطلق ونائبه نقول هنا أيضاً نظير ما سبق أن قلناه في المفاعيل السابقة حول الأغراض البلاغية.

* * *

خامساً — المفعول معه :

هو اسم يؤتى به منصوباً بعد واو المعية، لإفادة تقييد المُسندِ في الجملة بقيد مصاحبة الاسم المنصوب بعد واو المعية للاسم الذي جاء قبلها، فهو يفيد فائدة شبيهة بفائدة الحال في الجملة، ولا يُقصدُ إشراك ما بَعْدَ واو المعية في حُكْمِ مَا قَبْلَهَا، مثل: سِرْتُ وَالْجَبَلَ، أي: سِرْتُ مُصَاحِباً الْجَبَلَ، مع أَنَّ الْجَبَلَ لَمْ يَشْمَلْهُ حُكْمُ السَّيْرِ الَّذِي سِرْتُهُ.

ومع تربية الفائدة بالمفعول معه نقول هنا أيضاً نظير ما سبق أن قلناه في المفاعيل السابقة حول الأغراض البلاغية.

* * *

(٣)

التقييد بالنواسخ

النواسخُ هي التي تدخل على الجملة الاسمية فتسوخ حُكْمِي المبتدأ والخبر، وتعملُ فيهما عملاً خاصاً بها وهي أربعة أقسام:

القسم الأول: أفعالٌ ترفعُ المبتدأ على أَنَّهُ اسْمُهَا، وتَنْصِبُ الخبرَ على أَنَّهُ خَبَرُهَا، وهي الأخوات: «كان — أمسى — أصبح — أضحى — ظل — بات — صار — ليس — ما زال — ما برح — ما فتىء — ما انفك — ما دام».

و «كَادَ وَأَخَوَاتُهَا» وهي ثلاثة أقسام:

(١) أفعال المقاربة: وهي: «كاد - كرب - أوشك».

(٢) أفعال الرجاء: وهي: «عَسَى - حَرَى - اخلَوْلَقَ».

(٣) أفعال الشروع: وهي كثيرة، منها: «أَنشَأَ - طَفِقَ - عَلِقَ - أَخَذَ -

هَبَّ - بَدَأَ - ابْتَدَأَ - جَعَلَ - قَامَ - انْبَرَى» ومثلها كُلُّ فعل يدلُّ على الابتداء بالعمل ولا يكتفي بمرفوعه.

ولكلِّ فعلٍ من الأفعال السابقة «كان وأخواتها» و «كَادَ وَأَخَوَاتُهَا» أفعال المقاربة وأفعال الرجاء، وأفعال الشروع، معنى يُقصد التعبير عنه في الكلام، فالبلغ يختاره في كلامه لِيَدُلَّ به على المعنى الذي يُستفادُ منه.

ويُرْجَع إلى كتب النحو واللغة لمعرفة معاني هذه الأفعال، وطرائق استعمالها وأعمالها.

القسم الثاني: أفعال تنصب المبتدأ والخبر على أنهما مفعولان لها، وهي:

قسمان: «أفعال القلوب» و «أفعال التحويل والتصيير»:

● أما أفعال القلوب:

فمنها ما يُقيد اليقين وتسمَّى أفعال اليقين، أي الاعتقاد الجازم، وهي:

«رَأَى - عَلِمَ - دَرَى - تَعَلَّمَ، فِعْلٌ أَمْرٌ بِمَعْنَى اعْلَمَ وَاَعْتَقَدَ - وَجَدَ، بِمَعْنَى عَلِمَ وَاَعْتَقَدَ».

ومنها أفعال الظنِّ، وهي: «ظَنَّ - خَالَ - حَسِبَ - جَعَلَ، التي بِمَعْنَى ظَنَّ

أو اعتقد - حَجَا - عَدَّ الَّتِي بِمَعْنَى ظَنَّ - زَعَمَ - هَبَّ، فِعْلٌ أَمْرٌ بِمَعْنَى ظَنَّ».

● وأما أفعال التحويل والتصيير فهي: «صَيَّرَ - رَدَّ - تَرَكَ - تَخَذَ - اتَّخَذَ -

جَعَلَ - وَهَبَ، إِذَا اسْتَعْمِلَتْ هَذِهِ الْأَعْيَالُ الَّتِي بَعْدَ صَيَّرَ بِمَعْنَى صَيَّرَ».

وَيُرْجَعُ إِلَى كُتُبِ اللُّغَةِ والنحو لمعرفة معاني هذه الأفعال، وكيفية استعمالها وعملها في نصب المبتدأ والخبر.

القسم الثالث: حروف مشبهة بالفعل وهي تنصبُ المبتدأ على أَنَّهُ اسْمُهَا، وترفع الخبر على أَنَّهُ خَبْرُهَا، وهي: «إِنَّ - أَنْ - كَأَنَّ - لَيْتَ - لَعَلَّ - لَكِنَّ - لا النافية للجنس».

وَيُرْجَعُ إِلَى كِتَابِ النُّحُوِّ لمعرفة معاني هذه الحروف، وكيفية استعمالها وعملها، فقد أوفاهما النحويون بحثاً، ونخص بالبيان هنا «إِنَّ - وَأَنَّ» للتذكير بأنهما يُفِيدَانِ التَّأَكِيدَ فِي الجُمْلَةِ، إِذِ إِفَادَةُ التَّأَكِيدِ مِمَّا يُهَيِّمُ البَلَاغِيِّينَ التَّنْبِيهُ عَلَيْهِ.

القسم الرابع: حروف نفي تَعْمَلُ عَمَلَ «لَيْسَ» بِشُرُوطِ ذِكْرِهَا النُّحَوِيِّونَ، وَتُؤَدِّي المَعْنَى الَّذِي تُؤَدِّيهِ «لَيْسَ»، وَهِيَ «مَا - لَا - لَاتَ - إِنَّ».

هذه هي النواسخ التي تدخل على الجملة الاسمية فتُنسخُ حُكْمَ المبتدأ والخبر من جهة الإعراب، وتعمل فيهما عملاً خاصاً بها كما سبق.

وهنا نلاحظ أَنَّ إِدْخَالَ النواسخِ عَلَى الجُمْلَةِ الاسْمِيَةِ يُرَادُ مِنْهُ إِضَافَةُ مَعَانٍ تَدُلُّ عَلَيْهَا الأفعال والحروف الناسخة بحسبِ أوضاعها ودلالاتها اللغوية، وقد اهتم اللغويون ثُمَّ النحويون ببيان معاني هذه النواسخِ، فَعَلِيَ متدبرِ النصوص أن يرجع إلى ما دونوه من ذلك.

أما علماء البلاغة فقد وجهوا اهتماماتهم للدلالات الأخرى، التي لا تَدُلُّ عَلَيْهَا الأوضاع اللغوية، ممَّا يُفْهَمُ مجازاً، أو من إشارات الكلام وقرائن الألفاظ والأحوال.

ولا يخفى على الأديب ذي الحس المرهف تَصَيُّدُ الأغراض البلاغية والأدبية التي يَرْمِي إليها البلغاء، ممَّا يختارون في استعمالاتهم من هذه النواسخِ، فمع تربية الفائدة بما تشتمل عليه من دلالات تُفْهَمُ من أوضاعها اللغوية نلاحظ أنه قد يُشارُ

بها إلى معانٍ بلاغيةٍ سبق بيان طائفةٍ منها في دواعي ذكر العنصر الذي يُرادُ الإعلام به من عناصر الجملة، ويُمكن القياسُ عليها.

فكلمة «لَيْتَ» التي تُستعمل للتَّمَنِّي قد تستعمل بلاغيّاً في الأمر غير البعيد ولا المتعذّر، للإشعار مثلاً برفعة منزلة الشخص الذي يُوجّه له المطلوب بها، كأن يقول التلميذ الذي يُحبُّ شيخه ويُعظمه: «لَيْتَكَ تَزُورُنِي فِي دَارِي» مع أنّ الشيخ من عادته أن يزور أصغر تلاميذه.

وقد يؤكّد بـ «إِنَّ» أو «أَنَّ» لتزليل المخاطب منزلة المنكر أو الشاك.

وقد يُستعمل مثلاً فعلُ «أَصْبَحَ» الذي يدلُّ على الدُخول في الصباح، أو فعل «أَضْحَى» الذي يدلُّ على الدخول في وقت الضُحى، مع أنّ ما حصل قد حصل بالليل، للإشعار بأنّ السُرُورَ قد قلبَ اللَّيْلَ في مشاعر النفس نهاراً.

وقد يُستعملُ فعلُ «أَمْسَى» الذي يدلُّ على الدخول في المساء، وفعل «بَاتَ» الذي يدلُّ على الدُخولِ في الليل، مع أنّ ما حصل قد حصل بالنهار، للإشعار بأنّ الحُزْنَ أو الكَرْبَ قد قلبَ النهار في مشاعر النفس ليلاً.

إلى غير ذلك من أغراض بلاغية كثيرة.

* * *

(٤)

التقييد بالحال

قال النحويّون: الحال وصفٌ لصاحبها قيّدُ لعاملها الذي هو الفعل أو ما في معناه، فمثل: «جاء زيد ركباً» نلاحظ أنّ الرُكُوبَ وَصَفَ لزيدِ حَالَةَ مجيئه، فمجيءُ زيدٍ المفهومُ من «جاء زيد» مُقيّدٌ بقيدِ رُكُوبه، وظاهر أنّ في هذا القيد مزيدَ فائدةٍ يستفيدها متلقّي الكلام.

وقد يُوتَى بالحال لتوكيد عاملها، مثل «وَلَّى مُدْبِرًا». أو لتوكيد صاحبها، مثل: «جاء التلاميذ كلُّهم جميعاً». أو لتوكيد مضمون جملة مؤلفة من اسمين معرفتين جامدتين، مثل: «هو الحقُّ بيِّناً».

والتوكيد يعطي مزيد فائدة في الكلام، ومع تربية الفائدة بالحال يمكن الإشارة بها إلى أغراض بلاغية يَقْصِدُهَا البلقاء، فمثل قول القائل: «جاء عَلَيْهِ القوم رَاكِبِينَ» قد يتضمن الإشارة إلى أَنَّ الذين لم يأتوا رَاكِبِينَ لَيْسُوا من عَلَيْهِ القوم.

ولا يخفى على ذواق البلاغة والأدب تصيُّد النكت والأغراض البلاغية من الحال.

* * *

(٥)

التقييد بالتوابع

سبق في مقدّمة هذا الفصل أن عرفنا أن التوابع هي:

(١) النعت « = الصفة».

(٢) عطف البيان.

(٣) التوكيد.

(٤) البدل

(٥) عطف النسق، وهو العطف بحرف من حروف العطف.

وأنها إذا اجتمعت في جملة واحدة كان ترتيبها وفق هذا الترتيب الذي ذُكرت فيه، كما ذكر علماء النحو.

وفيما يلي شرحٌ لهذه التوابع:

أولاً — النَّعْتُ « = الصِّفَةُ » :

النعت: هو تابع يكمل متبوعه بدلالة على معنى فيه، أو فيما له تعلق به،
مثل: «جاءني رجلٌ كريم» و «رَضِيَ بِالذِّيَةِ الْأَبْنَاءُ الْمَقْتُولُ أَبُوهُمْ».

ما يستفادُ مِنَ النعتِ :

(١) يُوْتَىٰ بالنعتِ لإيضاح الموصوف به إذا كان معرفة، ويسمى الوصفَ الكاشف، مثل: «فَتَحَ الْبَارِيُّ هُوَ تَأْلِيْفُ ابْنِ حَجْرٍ أَحْمَدَ الْعَسْكَلَانِيَّ» و «تُحْفَةُ الْمُحْتَاجِ لشرح المنهاج هو تأليف ابن حجر أحمد الهيثمي» فالعسقلاني وصف كاشف مميّز لابن حجر أحمد مؤلف كتاب «فتح الباري في شرح صحيح البخاري» والهيثمي وصف كاشف مميّز لابن حجر أحمد مؤلف كتاب «تحفة المحتاج لشرح المنهاج» في الفقه الشافعي.

(٢) ويُوْتَىٰ بالنعتِ أيضاً لتخصيص الموصوف به إذا كان نكرةً، أو شبيهاً بالنكرة في شيوعه، كالمعروف بـ «أل» التي للجنس، مثل: «يرافق المرأة في السفر كُلُّ رَجُلٍ مَحْرَمٍ مِنْ مَحَارِمِهَا» فعبارة «مَحْرَمٍ مِنْ مَحَارِمِهَا» وصفٌ مُخَصَّصٌ لعموم لفظ «رجل» وجيء بهذا الوصف المخصص لإخراج كل رجل لا يكون محرماً لها.
هذا ما ذكره النحويون، وقد ذكر علماء البلاغة هاتين الفائدتين للنعت، وأضافوا إليهما فوائد أخرى استنبطوها بأذواقهم البلاغية الأدبية، وتابعهم في ذلك فريق من النحويين، وهي ما يلي:

(٣) تفصيل المنعوت، مثل: «زارني رجلان: فقيه، وطبيب».

(٤) مدح المنعوت، مثل: «الحمدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ».

(٥) ذم المنعوت، مثل: «أعوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ».

(٦) الترحُّم، مثل: «لَطَفَ اللَّهُ بِعِبَادِهِ الضُّعَفَاءِ».

(٧) الإبهام، مثل: «تَصَدَّقْ بِصَدَقَةٍ قَلِيلَةٍ أَوْ كَثِيرَةٍ».

(٨) التوكيد، مثل: «فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ»، ومثل: «أَمْسِ الدَّابِرُ لَنْ يَعُودَ» فلفظ «واحدة» ولفظ «الدَّابِر» كلٌّ منهما نَعَتْ توكيدي،

ومنه توكيد إرادة الحقيقة أو إرادة عموم الأفراد، مثل قول الله تعالى في سورة (الأنعام/٦):

﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ... ﴾ [الآية ١٨].

فَوَصَفُ الطائر بأنه يطير بجناحيه قد أفاد إرادة الحيوانات التي تطير بأجنحتها دون إرادة ما يرتفع في الجو من غير ذلك كالسُّحُب والأشياء المعنوية غير المرئية، مع إفادة التعميم.

* * *

ثانياً — عطف البيان:

عطف البيان تابع شبيه بالصفة في إيضاحه لمتبوعه إذا كان معرفة، وتخصيصه إذا كان نكرة، وهو يفارق النعت بأن النعت مشتقٌّ أو مُؤَوَّلٌ بمشتق، أما عطف البيان فجامدٌ دواماً إذاً كان غير جملة، وقد يكون جملة.

ومن عطف البيان ما يقع بعد «أَيُّ» أو «أَنَّ» التَّفْسِيرِيَّتَيْنِ، أو «إِذَا» حينما تكون تفسيرية.

أمثلة:

(١) «أَقْسَمَ بِاللَّهِ أَبُو حَفْصٍ عُمَرُ» فلفظ «عُمَرُ» عطف بيان جيء به لتوضيح الكنية «أبو حفص» وهو ثاني الخلفاء الراشدين رضي الله عنه، والغرض من هذا التوضيح تمييز هذه الكنية عن مشاركي عُمر بن الخطاب بمثلها.

(٢) قول الله تعالى: ﴿أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ﴾ فعبارة «طعام» مضافة إلى مساكين عطف بيان جيء به لتخصيص النكرة الَّتِي هي لفظ «كفَّارة» إذ الكفارة

تحتمل أن تكون إطعام مساكين أو غير ذلك، فجاءت عبارة «طعام مساكين» مُخَصَّصة أو مبيّنة للفظ «كفّارة» المطلق.

(٣) «رَأَيْتُ غَضَنْفَرًا، أَي: أَسَدًا» فلفظ «أسدًا» عطف بيان جاء تفسيراً لكلمة «غَضَنْفَرًا» بعد «أي» التفسيرية.

(٤) قول الله تعالى في سورة (الأعراف/٧):

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدَّوَجِدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا. . .﴾ [الآية ٤٤].

فجملة «قَدَّوَجِدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا» معطوفة عطف بيان جاء تفسيراً للنداء الذي ناداه أصحاب الجنة، بعد «أن» التفسيرية.

(٥) قول الله عزّ وجلّ في سورة (طه/٢٠) في معرض حكاية قصة آدم:

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾

فجملة: «قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى» معطوفة عطف بيان جاء تفسيراً للوسوسة التي وسوس بها الشيطان، دُونَ أن تُسَبَّحَ بكلمة «أن» التفسيرية.

(٦) يأتي في كُتُب اللّغة مثل عبارة: «تَقُولُ: أَمْتَطَيْتُ الْفَرَسَ، إِذَا رَكَبْتَهُ»

لفظ «إذا» في مثل هذه العبارة تفسيرية، وما بعدها عطف بيان جاء تفسيراً لجملة «أَمْتَطَيْتُ الْفَرَسَ».

ويمكن أن يُؤْتَى بعطف بيان لبعض الأغراض البلاغية التي سَبَقَ بيانها في

النَّعْتِ، كالمُدح، ومنه قوله تعالى:

﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكُفْبَةَ الْغَابِقَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ﴾^(١).

وكالايضاح والتفسير.

ملاحظة حول عطف البيان:

(١) المائة: الآية (٩٧).

يُلاحَظُ أَنَّ عَطْفَ الْبَيَانِ يَكُونُ فِي اللَّقَبِ بَعْدَ الْاسْمِ الْعِلْمِ، مِثْلَ «جَاءَ عَلِيٌّ زَيْنُ الْعَابِدِينَ». وَفِي الْاسْمِ الْعِلْمِ بَعْدَ الْكِنْيَةِ، مِثْلَ: «أَقْسَمَ بِاللَّهِ أَبُو حَفْصٍ عُمَرُ». وَفِي الْمَحَلِّيِّ بِـ «ال» بَعْدَ اسْمِ الْإِشَارَةِ، مِثْلَ: [ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ]. وَفِي الْمَوْصُوفِ بَعْدَ الصِّفَةِ، مِثْلَ: «بَعَثَ اللَّهُ الْكَلِيمَ مُوسَىٰ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ» وَفِي التَّفْسِيرِ بَعْدَ الْمُفَسَّرِ، مِثْلَ: «الْعَسْجَدُ الذَّهَبُ تَجِبُ فِيهِ الزَّكَاةُ».

* * *

ثالثاً — التوكيد:

التوكيد: تابعٌ يُذَكِّرُ تَقْرِيراً لِمَتَّبِعِهِ، بَغِيَّةٌ رَفَعُ احْتِمَالِ إِرَادَةِ الْمَجَازِ، أَوْ رَفَعُ احْتِمَالِ السَّهْوِ وَالغَلَطِ، وَهُوَ قِسْمَانِ:

القسم الأول: التوكيد اللفظي، ويكون بإعادة اللفظ، أو إعادة مرادفه، سواء أكان اسماً، أم فعلاً، أم حرفاً، أم جملةً، أم شبه جملة.

القسم الثاني: التوكيد المعنوي، ويكون بسبعة ألفاظ، وهي ما يلي:

(١) لفظتا «النفس — العين» ويؤكد بهما لرفع المجاز عن الذات.

● ففي المفرد نقول مثلاً: «جاء الأمير نفسه، أو عينه» أي: لا نائبه، ولا رسولٌ من قبله يمثله.

● وفي المثني نقول مثلاً: «حضر الملكان أنفسهما، أو أعينهما» بالجمع، وهو الأفصح، ويجوز نفساهما، أو عيناها بالمثني.

● وفي الجمع نقول مثلاً: «حضر الرؤساء أنفسهم، أو أعينهم».

(٢) لفظة «كلاً» ويؤكد بها المثني من المذكر، لرفع احتمال إرادة المجاز بأن الحاضر أحدهما وقد أغنى حضوره عن الآخر، فنقول مثلاً: «حضر الصديقان كلاهما» و «رَكِبْتُ الْحِصَانَيْنِ السَّابِقَيْنِ كِلَيْهِمَا».

(٣) لفظه «كِلْتَا» ويؤكد بها المثنى من المؤنثات، مثل: «امرأة نوح وامرأة لوطِ كَافِرَتَانِ كِلْتَاهُمَا» و«دَخَلْتُ الحديقةَ فوجدت فيها شجرتي تُوتِ فَأَكَلْتُ مِنْهُمَا كِلْتَيْهِمَا».

(٤) ألفاظ «كُلٌّ - جميع - عامة» ويؤكدُ بها الجمع من المذكر والمؤنث، فنقول مثلاً: الصَّالِحُونَ كُلُّهُمْ، أو جميعهم، أو عامَّتْهُمْ، يدخلون الجنة يوم الدين» و«الصالحات كُلُّهِنَّ، أو جميعهنَّ، أو عامَّتْهُنَّ، يدخلن الجنة يوم الدين».

ويؤكدُ بهذه الألفاظ لرفع احتمال إرادة الأغلب أو البعض، لأنَّ لفظي الصَّالِحِينَ والصَّالِحَاتِ يمكن إرادة عدم العموم فيهما، باعتبار احتمال أن تكون «أل» جنسية أو عهدية وليست استغرافية.

وقد يُرادُ تَقْوِيَةُ التوكيد فيؤتى بكلمة «أَجْمَعُ» بعد كلمة «كُلٌّ» في المذكر، وبكلمة «جَمَعَاءُ» بعد كلمة «كُلٌّ» في المؤنث، فنقول مثلاً: «جاء الجيشُ كُلُّهُ أَجْمَعُ» و«جاءت القبيلة كُلُّهَا جَمَعَاءُ» و«حضر الرؤساءُ كُلُّهُمُ أَجْمَعُونَ».

ويؤتى بكلمة «جُمِعَ» بعد كلمة «كُلُّهِنَّ» فتقول: «حَضَرَ النِّسَاءُ كُلُّهُنَّ جُمِعَ».

وقد يُؤكدُ بالألفاظ «أَجْمَعُ، وَجَمَعَاءُ، وَأَجْمَعِينَ، وَجُمِعَ» وإن لم يتقدّمها التوكيد بلفظة «كُلٌّ» ولا يجوز تثنية «أجمع» ولا «جمعاء».

قال أبو الهيثم الرازي: «العربُ توكّدُ الكلمة بأربعة توكايد، فتقول: مرّرتُ بالقومِ أَجْمَعِينَ أَكْتَعِينَ أَبْصَعِينَ أَبْتَعِينَ».

وتقول في جمع النسوة: «رَأَيْتُ النِّسَوَةَ جُمِعَ بَصَعَ».

الأغراض البلاغية:

قد يُؤتى بالتوكيد لأغراض بلاغية غير ما سبق بيانه، كالردّ على اعتقاد غير صحيح، وادعاء باطل، والتعريض بغباوة المخاطب، وتنزيل المخاطب منزلة منكر

ما دَلَّ عليه التوكيد، والافتخار، والمدح، والدَّم، والترخُّم، والتشنيع، والإشعار بهوُل الحدث وفضاعته، إلى غير ذلك من أغراض يُلْمِحُ إليها البليغ إلماحاً بأسلوب التوكيد.

* * *

رابعاً - البدل :

البدل: تابعٌ هو المقصود بالحكم في الكلام، ويؤتى به بعد المبدل منه بدون وساطة عاطفٍ بينهما.

أما المبدلُ منه: فإما أن يكون قد ذكر توطئة وتمهيداً للبدل، فيأتي البدل بمثابة التفسير بعد الإبهام، أو التخصيص، أو التوضيح للمراد. وإما أن يكون قد ذكر على سبيل الخطأ فيأتي البدل على سبيل التدرّك لتصحيح ما يُرادُ بيانه.

والبدلُ أربعة أقسام:

القسم الأول: بدلُ الكلِّ من الكلِّ، ويُسمَّى البدلَ المطابق، وهو بدل الشيء ممّا يطابق معناه، مثل قوله تعالى في سورة (الفاتحة): ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾.

القسم الثاني: بدلُ البعضِ من الكلِّ، أو بدلُ الجزء من كلِّه، وهو بمثابة التصريح بالباقي بعد الاستثناء، مثل: «أكلتُ الرغيفَ ثلثينه، أو نصفه، أو ثلثه».

القسم الثالث: بدلُ الاشتمال، وهو بدلُ الشيءِ ممّا يشتمل عليه بوجه عام دون أن يكون جزءاً منه، مثل: «أذهبني مالكُ بن أنس وقارؤه وسمته، وأبو حنيفة رأيه وعمقُ تفكيره، والشافعي عبقريته في الاستنباط من النصوص، والإمام أحمدُ حفظُهُ وورعُهُ».

القسم الرابع: البدلُ المباين، وهو ثلاثة أقسام.

(١) بدل الغلط، ويأتي تداركاً لشيءٍ غير صحيح ولا مراد، لكن سبق إليه الفكر أو اللسان على سبيل الغلط.

(٢) بدل النسيان، ويأتي تصحيحاً لأمر قُصِدَ أولاً، ثمَّ ظهر للمتكلِّم أنه قد كان ناسياً.

(٣) وبدلُ الإضراب عن المُبدلِ منه، ويأتي تداركاً لما يرادُ التعبير عنه، مع صحّة إرادة المُبدلِ منه، لكن المتكلِّم أضرب عنه صارفاً النظر عن الاهتمام به، أو موجّهاً النظر بعنايةٍ إلى البَدَل.

أما كَوْنُ البَدَل من القيود في الجملة فيظهُرُ في بعض أقسامه بلا إشكال، أمّا قسم البَدَل المباين فأدخاله في عموم القيود هو على سبيل التسمُّح، وعلى معنى أن البَدَل صحَّح ما سبق في البيان بقيدٍ لفظيٍّ مُلغٍ له على سبيل الإبدال.

الفوائد البلاغية:

وتظهر فوائد بلاغية في الأقسام الثلاثة الأولى للبَدَل:

● منها التفسير والتوضيح بعد الإجمال، أو الإبهام أو التعميم، لتثبيت المعنى في نفس المتلقّي، وهذا يظهر في بدل الكلّ من الكلّ.

● ومنها الإشعار بأنّ البعض قد تبلغُ أهميَّته حتى يكون هو بمثابة الكلّ، فجاء التعبير بالكلّ أولاً، ثمَّ أُبدلَ منه بعضه، وهذا يظهر في بدل البعض من الكلّ.

● ومنها تثبيت الأصل أولاً اهتماماً به، ثمَّ التوجيه للمقصود بالبيان، فتحقّق بذلك فائدتان، وهذا يظهر في بدل الاشتمال.

● ومنها زيادة التقرير بالتفسير والتوضيح، أو بالتكرير المؤكّد.

● وقد تظهر فوائد بلاغية في بدل الغلط، وذلك حينما يكون التوجيه غير الصحيح أولاً مقصوداً، ثمَّ يأتي بعده التصحيح التداركيّ للإيهام بأنّ الفكر

أو اللسان لم يُخْطِءَ إلا وفي النَّفسِ عوامل تدعو إلى هذا الغلط، إذ من المعروف أن فلتات اللسان قد تدلُّ على ما في الجنان.

● وقد يُقصدُ بالبدل التركيزُ على مواطن المدح أو الذمِّ، أو ماله الأهميَّةُ سواءً عند المتكلِّم أو المخاطب.

إلى غير ذلك من فوائد.

* * *

خامساً — عطفُ النسق :

عطفُ النَّسق: تابعٌ يتوسَّطُ بينه وبين متبوعه واحدٌ من حروف العطف، وهي: «الواو — الفاء — ثمَّ — حتَّى — أم — لكن — بل — لا — لا يَكُونُ — ليس».

ولكلِّ واحد من حروف العطف هذه دلالة تُستفادُ في الكلام، بسطها علماء النحو، والمتكلِّم البليغ يتحرَّى أن يختار منها في كلامه حين يريد العطف ما يلائم منها المعنى الذي يريد إعلام المتلقِّي به.

ومن الظاهر أنه يتحقَّق بالعطف مزيد فائدة يستفيدها متلقِّي الكلام.

الفوائد البلاغية :

للبلاغيين نظراتٌ فوق الأوضاع اللغويَّة للدلالة التي تُستفادُ بالعطف وحروفه، ومنها ما يلي :

(١) التفصيل مع الاختصار. فقولنا: «جاء مُحَمَّدٌ وعلي — جاء محمد فعلي — جاء مُحَمَّدٌ ثمَّ علي» أخصر من أن نقول: جاء محمد جاء علي، وهكذا، وهذا من أصل فوائد العطف، والبليغ يهتم بالإيجاز.

(٢) إيراد التشكيك بحرف العطف «أو».

(٣) تجاهل العارف بحرف العطف «أو».

(٤) بعض الأغراض التي تستفاد ببدل الإضراب، باستخدام «بل».

(٥) إراد الترتيب في الرتبة أو في الذكر على سبيل المجاز، باستخدام «الفاء» التي تفيد الترتيب مع التعقيب، أو باستخدام «ثُمَّ» التي تفيد الترتيب مع التراخي.

إلى غير ذلك من فوائد بلاغية يمكن استنباطها من النصوص، أو تصيّدُها عند الأحوال المقتضية لها.

* * *

(٦)

التقييد بضمير الفصل

ضمير الفصل هو ضمير منفصل من ضمائر الرفع، يُؤْتَى به لغرض الفصل بين ما هو خبر وما هو تابع.

ويقع فصلاً بين المبتدأ والخبر، مثل: «المتنبي هو شاعر العربية المبدع».

ويقع فصلاً بين ما أصله مبتدأ وخبر ممّا دخل عليه أحد النواسخ، مثل: «إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ - وَكُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ - وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ - تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ».

الفوائد البلاغية:

يستفاد من ضمير الفصل فوائد بلاغية متعدّدة، منها ما يلي:

(١) التخصيص، بقصر المسند على المسند إليه، مثل قول الله عزّ وجلّ في سورة (التوبة/٩):

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾

(٢) تأكيد التخصيص، إذا كان في الجملة مُخَصَّصٌ آخَرَ، كما في المثال الثاني من الآية السابقة، وكما في قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الذاريات/٥١):

﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾.

فالتخصيص مستفاد من تعريف طرفي الإسناد، وجاء ضمير الفصل مؤكداً

له.

(٣) تمييز الخبر عن الصفة، مثل قولنا: «الْفَصِيحُ هُوَ مُوَضِّحُ الْبَيَانِ طَلُوقُ

اللِّسَانِ».

إلى غير ذلك من أغراض بلاغية يمكن استنباطها أو تصيُّدها.

* * *

(٧)

التقييد بالشرط

يدخل الشرط على الجملة لربط الحكم فيها بحكم آخر في جملة أخرى ربطاً شرطياً، فتكون الجملتان بمثابة جملة واحدة، وتُسمَّى عندئذٍ جملة شرطية.

ويلاحظ في الجملة الشرطية أنَّ الشرطَ فيها قَيْدٌ للحكم في الجملة التي هي جواب الشرط، ففي قولنا: «من آمنَ وعَمِلَ صالحاً دَخَلَ الْجَنَّةَ» نلاحظ أنَّ تحقُّق الإيمان والعمل الصالح المبيِّن في الجملة الأولى قَدْ جُعِلَ في الكلام شرطاً لتحقُّق دخول الجنة في الجملة الثانية، والأداة الرابطة بين الجملتين هنا كلمة «مَنْ» الشرطية.

وأدوات الشرط قسمان: أدوات عاملة فيما بعدها، وأدوات غير عاملة.

● أما الأدوات العاملة: فهي التي تجزم فعلين أولهما فعل الشرط والثاني

جوابه وجزاؤه، وهي:

(١) «إِنْ - إِذْمًا» وهما حرفان .

(٢) «مَنْ - مَا - مَتَى - أَيْنَ - أَيْنَمَا - أَيَّانَ - أَنَّى - حَيْثُمَا - كَيْفَمَا - مَهْمَا - أَيٌّ» وهي أسماء .

● وأما الأدوات غير العاملة، فهي: «لَوْ - لَوْلَا - لَوْمًا - أَمَّا - لَمَّا» وهي حروف، و «إِذَا» هي اسم ظرف لما يستقبل من الزمن .

وقد فصل اللّغويون والنحاة معاني أدوات الشرط العاملة وغير العاملة، والفصيح البليغ يتحرّى استعمالها فيما وُضِعَتْ له، وضمن المعاني التي استعملها العربُ الفصحاء فيها .

ونبّه علماء البلاغة على مواقع استعمال بعض أدوات الشرط السابق ذكرها، إذ لاحظوا أنّ بعضَ شارحي النصوص البليغة ومفسّريها لم يكشفوا فروق دلالات هذه الأدوات، مكتفين بدلالاتها الشرطيّة العامّة، كما أنّ بعض الكتاب والشعراء يغلطون فيضعون بعض هذه الأدوات في المواقع التي لا يحسن وضعها فيها .

وقد أبان البلاغيون الفرق بين أداة الشرط «إِنْ» وأداة الشرط «إِذَا» فأوا من تتبّع النصوص الرّفيعة أنّ حرف الشرط «إِنْ» يُستعمل غالباً فيما يرى المتكلم أنّ ما جعل شرطاً وهو ما دلّت عليه جملة الشرط أمرٌ مشكوكٌ في وقوعه مستقبلاً، أو هو نادر الوقوع . وأنّ اسم الشرط «إِذَا» يُستعمل غالباً فيما يرى المتكلم أنّ ما جعل شرطاً وهو ما دلّت عليه جملة الشرط أمرٌ متحقّق الوقوع، أو هو مرجو الوقوع .

فالبليغ مطلوبٌ منه، أن يستعمل كلّاً من «إِنْ» و «إِذَا» فيما هو الغالب من استعماله، ليشير في كلامه بكلمة «إِنْ» الشرطيّة إلى الشكّ في وقوع الشرط أو ندرته، وليشير في كلامه بكلمة «إِذَا» إلى تحقّق الشرط مستقبلاً، أو إلى رجاء تحقّقه .

على أنّ كلمة الشرط «إِنْ» باعتبارها أم أدوات الشرط قد يقتضي الكلام

استعمالها في غير المشكوك فيه أو النادر، ولا سيما حينما يترددُ الشرط بين احتمالين أو احتمالات متعدّات، مثل أن نقول: «إن استوفى المصلي المطلوب منه وجوباً صحّت صَلَاتُهُ، وإن لم يستوفِ المطلوب منه وجوباً لم تَصِحَّ صَلَاتُهُ» فلفظ «إن» في هذا المثال وأشباهه لا يشير إلى أن الشرط مشكوكٌ في تحقُّقه أو نادر.

وللبلاء ذوقٌ دَرَكَ للمواطن التي يَحْسُنُ فيها استعمال «إن» الشرطية، وللمواطن التي يَحْسُنُ فيها استعمال «إذا».

ومن الأمثلة التي جاء فيها استعمال كلٍّ من «إذا» و «إن» الشرطيتين في مكانه المناسب تماماً، قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الأعراف/ ٧): يَقْضُ قِصَّةَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامِ وَأَلِ فِرْعَوْنَ:

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَّصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَلَّا إِنَّمَا طَّيَّرَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ آكَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣٧﴾﴾.

إنَّ مَجْرَى إِمْدَادِ اللَّهِ النَّاسَ بِالْحَسَنَاتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا أَمْرٌ مُتَحَقِّقٌ وَهُوَ الْقَاعِدَةُ الْأَغْلِبِيَّةُ، وَلَوْ كَانُوا كَقَارَأَ مُجْرِمِينَ، لِذَلِكَ جَاءَ اسْتِعْمَالُ كَلِمَةِ «إِذَا» دَاخِلَةً عَلَى شَرْطِ مَجِيءِ الْحَسَنَةِ لِآلِ فِرْعَوْنَ، أَمَّا الْإِصَابَةُ بِالسَّيِّئَةِ فَأَمْرٌ نَادِرٌ وَقَلِيلٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى تَوَاتُرِ الْحَسَنَاتِ، وَتَأْتِي لِلتَّذْكِيرِ، وَالتَّنْبِيهِ عَلَى عَقُوبَاتِ اللَّهِ الْكَبِيرَى الَّتِي جَاءَ بِهَا الْوَعِيدُ الرَّبَّانِي، لِذَلِكَ جَاءَ اسْتِعْمَالُ كَلِمَةِ «إِنْ» دَاخِلَةً عَلَى شَرْطِ الْإِصَابَةِ بِالسَّيِّئَةِ.

قال الزمخشري في الكشاف: «وَلِلْجَهْلِ بِمَوَاقِعِ (إِنْ) وَ (إِذَا) يَزِيحُ كَثِيرٌ مِنَ الْخَاصَّةِ عَنِ الصَّوَابِ فَيَعْلُطُونَ، أَلَّا تَرَى إِلَى (عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ حَسَّانٍ) كَيْفَ أَخْطَأَ بِهِمَا الْمَوْقِعَ فِي قَوْلِهِ يَخَاطِبُ بَعْضَ الْوَلَاةِ وَقَدْ سَأَلَهُ حَاجَةً فَلَمْ يَقْضِهَا، ثُمَّ شَفَعَ لَهُ فِيهَا فَقَضَاهَا:

أَبَى لَكَ كَسْبَ الْحَمْدِ رَأْيِي مُقَصَّرٌ وَنَفْسٌ أَضَاقَ اللَّهُ بِالْخَيْرِ بَاعَهَا
إِذَا هِيَ حَثَّتْهُ عَلَى الْخَيْرِ مَرَّةً عَصَاهَا وَإِنْ هَمَّتْ بِشَرٍّ أَطَاعَهَا

ولو عكس في استعمال الأداةين لأصاب الغرض.

أي: لو قال: فإن هي حثته... وإذا همت بشرًا...

● وذكر البلاغيون أنّ كلاً من حَرْفِي «إِنْ» و «إِذَا» الشرطيَّين قد يستعمل في موضع الآخر لأغراض بلاغية، منها:

(١) تجاهل العارف، كأن يقول المعتذر عن أمرٍ لا يليق به: «إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ هذا الأمرَ فأرجو العفو والمسامحة» وهو يعلم من نفسه أنّه فعله، وكأن يقول المغاضب لصاحبه: «إِنْ طَرَقْتُ بِابِكَ بَعْدَ الْيَوْمِ فَلَا تَفْتَحْ لِي» وهو يعلم من نفسه أنّه لا يضبر على هجره. وكأن يقول مُدَّعِي ما ليس له: «إِذَا كَانَ هَذَا حَقِّي فَلَا بُدَّ أَنْ أَصِلَ إِلَيْهِ» وهو يعلم أنّه لا حقّ له به.

(٢) تنزيل المخاطب منزلة مُنْكَر الحقيقة، كأن يقول الأب لابنه الخارج عن واجب البرّ: «إِنْ كُنْتُ ابْنِي حَقًّا فَلَا تَعْصِنِي».

(٣) تنزيلُ الشَّاكِّ منزلةَ غير الشَّاكِّ، للإشعار بأنّ وضوح الأدلة يقتضي عدم وجود الشكّ أصلاً، كأن يقول المؤمن الذي يناظرُ غير المؤمن حول قضايا الإيمان الكبرى: «إِذَا كُنْتُ تُسَلِّمٌ بِالْبِرَاهِينِ الْعَقْلِيَّةِ الدَّامِغَةِ فَلَا بُدَّ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْقُرْآنِ وَخَاتَمِ الْمُرْسَلِينَ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ وَمَا جَاءَ بِهِ عَنْ رَبِّهِ».

(٤) تغليب واقع حال العدد الأكثر من المخاطبين على العدد الأقل، وقد يُحْمَلُ على هذا قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة/٢) خطاباً للجاحدين من المشركين بأن القرآن مُنْزَلٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا عَلَىٰ أَن سُرُورًا مِّنْ مِّثْلِهِ...﴾ [الآية ٢٣].

أَفْهَمَ اسْتِعْمَالُ «إِنْ» فِي هَذَا النَّصِّ أَنَّ الْعَدَدَ الْأَكْثَرَ مِنَ الْمَشْرِكِينَ لَمْ يَكُونُوا شَاكِينَ فِي أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامٌ مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، إِنَّمَا كَانُوا جَا حِدِينَ مُعَانِدِينَ، وَالْمَعْنَى أَنَّ احْتِمَالَ وُجُودِ الشَّكِّ فِي الْقُرْآنِ عِنْدَكُمْ أَمْرٌ قَلِيلٌ وَنَادِرٌ، فَأَكْثَرُكُمْ مُعَانِدُونَ.

وَالأَصْلُ أَنَّ يَكُونُ فِعْلُ الشَّرْطِ مَعَ أَدَاتِي «إِنْ» وَ «إِذَا» فِعْلاً مُضَارِعاً، وَقَدْ يَأْتِي فِعْلاً مَاضِياً لَفْظاً، إِلاَّ أَنَّ مَعْنَاهُ بِأَدَاةِ الشَّرْطِ انْقِلَابٌ إِلَى الْاسْتِقْبَالِ، وَالبَلِيغُ حِينَ يَسْتَعْمَلُ فِعْلَ الشَّرْطِ مَاضِياً مَعَ «إِنْ» أَوْ «إِذَا» يُلَاحِظُ غَرَضاً بِلَاغِيّاً، وَمِنْ هَذِهِ الْأَغْرَاضِ:

(١) الْإِشْعَارُ بِتَحَقُّقِ الْوُقُوعِ فَكَأَنَّهُ أَمْرٌ تَمَّ وَقُوعُهُ، مِثْلُ: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةَ﴾، ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾، ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾.

(٢) التَّفَاوُلُ بِتَحَقُّقِ الْوُقُوعِ، مِثْلُ قَوْلِ الْفَقِيرِ الْمَعْدَمِ: «إِذَا رَزَقَنِي اللَّهُ مَالاً وَفِيراً اشْتَرَيْتُ دَاراً وَاسِعَةً جَمِيلَةً وَأَدَيْتُ فَرِيضَةَ الْحَجِّ».

(٣) إِظْهَارُ الرِّغْبَةِ فِي تَحَقُّقِ الْوُقُوعِ، مِثْلُ قَوْلِ التَّاجِرِ الطَّامِعِ بِشَرَاءِ صَفْقَةٍ تِجَارِيَّةٍ رَابِحَةٍ: «إِذَا تَمَّتْ هَذِهِ الصَّفْقَةُ التِّجَارِيَّةُ حَصَلَ لَنَا مِنْهَا رِبْحٌ وَفِيرٌ».

(٤) التَّعْرِيفُ، مِثْلُ أَنَّ يَقُولُ الْبَاحِثُ عَنِ زَوْجَةٍ مُنَاسِبَةٍ أَمَامَ مَنْ يَرِغِبُ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا، إِذَا وَجَدْتُ الْجَمِيلَةَ الذَّكِيَّةَ الْعَاقِلَةَ ذَاتَ الْخَلْقِ وَالذِّينَ فَإِنِّي أَحِبُّ الزَّوْاجَ مِنْهَا إِذَا وَافَقَتْ هِيَ وَأَهْلُهَا.

إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَغْرَاضٍ.

عَلَى أَنَّ حَرْفَ الشَّرْطِ «إِنْ» قَدْ يُسْتَعْمَلُ فِي غَيْرِ الْاسْتِقْبَالِ لَفْظاً وَمَعْنَى، قِيَاساً مُطَّرِداً فِي مَوَاضِعِينَ:

المَوْضِعُ الْأَوَّلُ: أَنَّ يَأْتِي فِعْلُ الشَّرْطِ لَفْظَ «كَانَ».

المَوْضِعُ الثَّانِي: أَنَّ يَأْتِي حَرْفَ «إِنْ» فِي مَقَامِ التَّأَكِيدِ بَعْدَ وَאו الْحَالِ لِمَجْرَدِ

الربط دون إرادة الشرط منه، مثل أن يقول المحبّ لحيبه: «سأزورك وإن هجرتني، وأكرمك وإن أهنتني، وأحببتك وإن جفوتني، وذكرتك وإن نسيتني».

● أما «لو» الشرطيّة فهي على قسمين:

الأول: أن تكون للتعليق في المستقبل، وعندئذ تكون مرادفة «إن» الشرطيّة، وإذا وليها فعل «ماضي» كان معناه على الاستقبال، وقد يدعو إلى ذلك غرض بلاغي، وهو جعل الأمر المستقبل بمثابة الأمر الماضي، ومن فوائد ذلك التحذير والتخويف، كما في قول الله عزّ وجلّ في سورة (النساء/ ٤):

﴿وَلِيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعْفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾.

أي: إن من المتوقع أن يترك الذين لا يتقون الله في ذريّات غيرهم ذريّات لهم يخافون عليهم من ظلم من يتولّى أمورهم بعدهم.

الثاني: أن تكون «لو» للتعليق في الماضي، وهو أكثر استعمالها، وتقتضي عندئذ لزوم امتناع جوابها لامتناع شرطها إن لم يكن لجوابها سبب آخر غير الشرط، مثل قول الله عزّ وجلّ في سورة (الفرقان/ ٢٥):

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا﴾.

أي: لم نشأ ذلك فلم نبعث، لأن الحكمة اقتضت أن نبعث رسولا واحداً في آخر الزمان خاتماً للمرسلين، ورسولاً لجميع العالمين.

وحين تكون «لو» للتعليق في الماضي فالأصل أن يكون كلٌّ من فعلي الشرط وجوابه فعلاً ماضياً، وقد يستعملُ البليغ الفعل المضارع لغرض بلاغي، ومن الأغراض البلاغيّة في هذا الاستعمال ما يلي:

الغرض الأول: قصد الاستمرار في الماضي حيناً فحيناً، مثل قول الله عزّ

وجلّ في سورة (الحجرات/ ٤٩) خطاباً للمؤمنين في عصر الرسول ﷺ:

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ...﴾ [الآية ٧].

العنت: المشقة، والتعب، وشدة الضرر، والفساد.

أي: لو تابع طاعتكم في كثير من الأمور التي تقدّمون فيها آراءً خاصّةً لوقعتم في العنت، وهذا المعنى يُفهم من الفعل المضارع الذي يدلُّ على التجدّد في المستقبل، فقلّب معنى زمانه إلى الماضي بحرف «لو» وبقي فيه معنى التجدّد.

الغرض الثاني: تصوير ما سيحدث بصورة الأمر الذي وقع وحدث، فيؤتّى بالفعل المضارع للإشعار بأنّه أمرٌ من أمورِ المستقبل المتحقّقة الوقوع، ولما كانت «لو» هذه للتعليل في الماضي كان اجتماع الأمرين بمثابة الإعلام بأنّ ما نقوله من أمرِ المستقبل هو بقوة ما وقع وتحقّق فعلاً، ولهذا أمثلة كثيرة في القرآن، منها قول الله عزّ وجلّ في سورة (السجدة/ ٣٢):

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾.

وُضِعَ الفعل المضارع «تَرَىٰ» والأصل – دُونَ ملاحظة الغرض البلاغي – أن يُقَالَ: وَلَوْ رَأَيْتَ. لكن الفعل المضارع أدّى معنى دقيقاً لا يؤدّيه الفعل الماضي هنا.



الفصل السادس

الخروج عن مقتضى الظاهر

مقدمة:

درس علماء البلاغة ضمن تتبّعهم لموضوعات علم المعاني ظاهرة الخروج عن مقتضى الظاهر في الكلام البليغ، لداع من الدواعي البلاغية ذات التأثير في النفوس والأفكار، لما فيها من عناصر فنيّة إبداعية تتضمّن دلالات فكرية، أو تعبيرات جمالية، أو إلماحات ذكية.

وظهر لهم من التتبّع الأنواع التسعة التالية:

النوع الأوّل: الالتفات.

النوع الثاني: أسلوب الحكيم.

النوع الثالث: الإضمار في مقام الإظهار، والإظهار في مقام الإضمار.

النوع الرابع: التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي.

النوع الخامس: التغليب.

النوع السادس: وضع الخبر موضع الإنشاء ووضع الإنشاء موضع الخبر.

النوع السابع: الانتقال من الماضي إلى المضارع وبالعكس.

النوع الثامن: تجاهل العارف.

النوع التاسع: القلبُ بإجراء التبادل بين جزئَيْنِ يُمكن إجراء التبادل بينهما من أجزاء الجملة.

وفيما يلي شرح لهذه الأنواع التي يلاحظ فيها خروجُ في الكلام البليغ عن مقتضى الظاهر لداعٍ بلاغيٍّ حَسُنَ بسببه هذا الخروج بلاغياً وأدبياً.

* * *

(١)

النوع الأول

الالتفات

تعريف الالتفات:

الالتفات: هو في اللّغة تحويل الوجه عن أصل وضعه الطبيعي إلى وضعٍ آخر.

وفي اصطلاح البلاغيين هو التحويل في التعبير الكلامي من اتجاه إلى آخر من جهات أو طرق الكلام الثلاث: «التكلم – والخطاب – والغيبة» مع أنّ الظاهر في متابعة الكلام يقتضي الاستمرار على ملازمة التعبير وفق الطريقة المختارة أولاً دون التحوّل عنها.

وأضاف السّكاكي إلى ما اشتمل عليه هذا التعريف التعبيرَ ابتداءً بوحدة من هذه الطُّرُقِ إذا كان على خلاف مقتضى الظاهر، كأن يتحدّث المتكلم عن نفسه بأسلوب الخطاب الذي يخاطب به غيره، أو يتحدّث مع من يخاطبه بأسلوب التكلم عن الغائب، أو يتحدّث عن نفسه بأسلوب الحديث عن الغائب، أو يتحدّث عن الغائب بأسلوب الخطاب، وهكذا.

ومنه وفق رأي السّكاكي قول البوصيري في برده يخاطب نفسه:

أَمِنْ تَذْكَرِ جِيرَانَ بِيَدِي سَلَمٍ مَزَجْتَ دَمْعاً جَرَى مِنْ مُقْلَةٍ بِدَمٍ
ومنه حديث الله عز وجل عن نفسه بأسلوب الحديث عن الغائب في القرآن
المجيد، مثل قول الله عز وجل في سورة (البقرة/ ٢):

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ اِنِّيْ جَاعِلٌ فِى الْاَرْضِ خَلِيْفَةً قَالُوْۤا اَنْجَعِلْ فِيْهَا مَنْ يُّفْسِدُ فِيْهَا
وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ اِنِّيْۤ اَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُوْنَ ﴿٢﴾ ۞ .

ومنه خطاب الله رسوله بقوله: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴿١﴾ اَنْ جَاءَهُ الْاَعْمَى ﴿٢﴾ ۞ .

وكان مقتضى الظاهر أن يقول: «وإذ قلت للملائكة...» وأن يقول لرسوله:
«عَبَسْتَ وَتَوَلَّيْتَ أَنْ جَاءَكَ الْأَعْمَى».

ويُلَقَّبُ الالْتِفَاتُ بشجاعة العربية، على معنى أَنَّ الْبُلْغَاءَ مِنْ نَاطِقِي الْعَرَبِيَّةِ
كانت لديهم شجاعة أدبية بيانية استطاعوا بها أن يفاجئوا المتلقي بالتثقل بين طُرُقِ
الكلام الثلاثة «التكلم – الخطاب – والغيبة» مشيرين بذلك إلى أغراض بلاغية
يريدون التنبيه عليها بذلك.

والالْتِفَاتُ مِنَ الْأَسَالِبِ الْبَلَاغِيَّةِ ذَاتِ اللَّطَائِفِ الْنَفِيْسَةِ، وَقَدْ تَكَرَّرَ فِي الْقُرْآنِ
المجيد استخدامه جداً، وله فيه أمثلة كثيرة.

وهو فنٌ بديعٌ من فنون القول يُشْبِهُهُ تحريكُ آلاتِ التصوير السينمائي بنقلها
من مشهد إلى مشهد آخر في المختلفات والمتباعدات التي يُرَادُ عَرْضُ صُورِ مِنْهَا،
ومفاجأة المُشَاهِدِ بِلَقَطَاتٍ مِنْهَا متباعدات، لكنّها تدخُلُ فِي الْإِطَارِ الْكُلِّيِّ الَّذِي يُرَادُ
عرض طائفةٍ من مشاهدته تدلُّ على ما يُقْصَدُ الْإِعْلَامُ بِهِ.

وَيَهْدِي الذوقُ الْأَدْبِيَّ السَّلِيمَ إِلَى اسْتِخْدَامِ الْالْتِفَاتِ اسْتِخْدَاماً بَارِعاً يُحَقِّقُ
به البليغ فوائده في نفس المتلقي أو فكره، مع ما يُحَقِّقُ بِهِ مِنَ الْاِقْتِصَادِ وَالْإِيْجَازِ فِي
العُبَارَةِ.

فلننظر إلى الالتفات البديع الموجود في النص القرآني التالي:

بينما يتحدث النص عن بني إسرائيل الأولين وما فعلوا من كباير بأسلوب الحديث عن الغائب، يلتفت النص فيخاطب بني إسرائيل المعاصرين لنزول القرآن فمن يأتي بعدهم كأنهم الأولون أنفسهم، للإشعار بأن هؤلاء الخُلوف ما زالوا يتصفون بأوصاف الأولين، لم يغيروا منها شيئاً، فهم معنيون بعموم الخطاب، فقال الله عز وجل في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُ الَّذِي أَخَذُوا وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ عَرَضَ عَلَيْهِمِ الْكِتَابَ إِن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالذَّارِ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّالَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٦﴾ .

فالالتفات في: ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ؟ ﴾ خطاباً لبني إسرائيل المعاصرين لنزول النص فمن بعدهم فيه فائدتان:

الأولى: فتية التنوع في العبارة المثيرة لانتباه المتلقي، والباعثة لنشاطه في استقبال ما يوجه له، والإصغاء إليه.

الثانية: الاقتصاد والإيجاز في التعبير، فبدل أن يقول النص لمعاصري التنزيل الكافرين من بني إسرائيل فمن بعدهم: وأنتم يا بني إسرائيل ما زلتم على طريقة أسلافكم، أفلا تعقلون؟. اقتصر النص على: ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ؟ ﴾ مُسْتَعْنِيًا بأسلوب الالتفات، للدلالة على ما يمكن فهمه ذهنًا، إذ اعتبرهم النص داخلين في عموم خطاب الغائبين السالفين، إذ هم موافقون على ما كانوا يفعلون، أو يفعلون مثلهم.

ونظيره الالتفات البديع في قول الله عز وجل في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُدْرِكَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ . . . ﴾ [الآية

. [١٧٩]

ففي هذه الآية تحققت الفائدتان أيضاً:
الأولى: فنية التنويع في أسلوب الكلام.

الثانية: الإيجاز في العبارة.

وبسط الكلام يكون كما يلي: ما كان الله ليذر المؤمنين على ما هم عليه من
الدعة والأمن والرخاء، وأنتم من المؤمنين، فما كان الله ليذركم على ما أنتم عليه،
حتى يميز بالامتحان الشديد على النفوس الخبيث من الطيب في الأعمال والأقوال
والنيات وحركات النفوس الإرادية.

ومن فوائد الالتفات من الخطاب إلى الغيبة الإشعار بالعتاب أو الإعراض
عمن يليق به أن يكرم بالخطاب بحسب مقتضى الظاهر، ولكن جاء الكلام على
خلاف ذلك لأنه أعرض أو تولى في مقام كان ينبغي له فيه أن لا يعرض أو أن
لا يتولى، ومن أمثله على رأي السكاكي - وهو رأي حسن - المثال الذي سبق
الاستشهاد به لما ذهب إليه، وهو قول الله عز وجل في سورة (عبس/
٨٠ مصحف/ ٢٤ نزل):

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ۖ (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (٢) ۚ .

إذ التفت عنه ابتداءً، فتحدثت عنه بأسلوب الحديث عن الغائب، مع أن
مقتضى الظاهر بحسب منزلته أن يكلمه بأسلوب الخطاب، لكن لم يطل الالتفات
عنه بل أسرع إلى الالتفات إليه، فخاطبه بقوله معاتباً:

﴿ وَمَا يَذْرِبُكَ لَعَلْمُ يَرْيَكَ (٣) ۚ .

* * *

فوائد الالتفات:

مما سبق استطعنا أن نكتشف من فوائد الالتفات ما يلي:

الفائدة الأولى: فنيّة التّنويع في العبارة، المثير لانتباه المتلقّي، والباعث لنشاطه في استقبال ما يوجّه له من كلام، والإصغاء إليه، والتفكير فيه.

الفائدة الثانية: الاقتصاد والإيجاز في التعبير.

الفائدة الثالثة: الإعراض عن المخاطبين، لأنهم عن البيانات معرضون أو مُدبرون وغير مكترئين.

الفائدة الرابعة: إفادة معنى تتضمّنه العبارة التي حصل الالتفات إليها، وهذا المعنى لا يستفاد إذا جرى القول وفق مقتضى الظاهر.

الفائدة الخامسة: ما يُستفاد من معنى بالالتفات إنّما يستفاد إلماحاً بطريق غير مباشر، ومعلوم أنّ الطُّرُق غير المباشرة تكون أكثر تأثيراً من الطرق المباشرة حينما تقتضي أحوال المتلقّين ذلك.

الفائدة السادسة: إشعارُ مختلف زمر المقصودين بالكلام بأنهم محلُّ اهتمام المتكلّم، ولو لم يكونوا من الزُّمرة المتحدّث عنها أولاً، ويظهر هذا في النصوص الدينية الموجهة لجميع الناس، وفي حُطَب الملوك والرؤساء والوعاظ وأشباههم.

* * *

ملاحظات حول شروط الالتفات وما يقرب منه:

الملاحظة الأولى: قالوا: يشترط في الالتفات أن يكون الضمير المنتقل إليه عائداً في نفس الأمر إلى المنتقل عنه.

ولكنّي لست أرى هذا شرطاً لازماً، لأنّ مطلق التنقل بين التكلّم والخطاب والغيبة له التأثير نفسه، وله خصائصه الفنيّة البيانية البليغة، إذا استوفى عناصره الجماليّة المؤثرة، وأدّى بعض فوائده وأغراضه البلاغية.

الملاحظة الثانية: وقالوا: يقرب من الالتفات نقل الكلام من خطاب الواحد

أو الاثنين أو الجمع إلى الآخر. أقول: هذا صحيح، ولا مانع من إلحاقه به.

الملاحظة الثالثة: وقالوا: يقربُ من الالتفات التنقل بين الماضي والمضارع والأمر. أقول: وهذا صحيح أيضاً، وهو من الخروج عن مقتضى الظاهر، ويُلاحقُ به التنقل بين الفعل واسم الفاعل واسم المفعول، مثل: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ [٩٥/ الأنعام].

ويُلحقُ به أيضاً كُلُّ تنويع من هذا القبيل يُلاحَظُ فيه خروج الكلام عن مقتضى الظاهر، مثل قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الفاتحة).

﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾﴾.

إذ كان الظاهر أن يقال: «غير الذين غَضِبْتَ عليهم» فُخولفَ هذا الظاهر.

* * *

صُورُ الالْتفات:

يأتي الالْتفات في سِتِّ صُور:

الصورة الأولى: الانتقال من التكلّم إلى الخطاب، وكذا الالْتفاء بالخطاب، مع أنّ مقتضى الظاهر يستدعي التكلّم أو الغيبة.

الصورة الثانية: الانتقال من التكلّم إلى الغيبة، وكذا الالْتفاء بالغيبة مع أنّ مقتضى الظاهر يستدعي التكلّم أو الخطاب.

الصورة الثالثة: الانتقال من الخطاب إلى التكلّم، وكذا الالْتفاء بالتكلّم مع أنّ مقتضى الظاهر يستدعي الخطاب أو الغيبة.

الصورة الرابعة: الانتقال من الخطاب إلى الغيبة.

الصورة الخامسة: الانتقال من الغيبة إلى التكلّم.

الصورة السادسة: الانتقال من العيبة إلى الخطاب.

* * *

الأمثلة:

أولاً: فمن أمثلة الانتقال من التكلم إلى الخطاب ما يلي:

● ما جاء في قول الله عز وجل في سورة (يس / ٣٦ / مصحف / ٤١ نزول) في حكاية ما كان من الرجل المؤمن الذي جاء من أقصى المدينة (قيل: هي أنطاكية) لنُصرة الرُّسل الثلاثة:

﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْئَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا إِنْ يُرِيدِنِ الرَّحْمَنُ بَضْرًا لَّا تَفْنَى وَلَا تَفْنَى وَلَا يُنْقِذُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ .

قوله: ﴿ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ معطوفٌ على محذوفٍ دلَّ عليه حرف العطف «الواو» والمطويُّ المحذوف يُمكنُ تقديره بأن نقول.

قالوا له: أتؤمن بما جاء به هؤلاء المرسلون وتعبُدُ الرَّبَّ الَّذِي يدْعُونَ لعبادته؟

قال: نعم أو منُ بما جاءوا به، وأعبُدُ رَبِّي، وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي؟! .

ثم انتقل من التكلم إلى الخطاب فقال لهم: ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ فخاطبهم مع أن مقتضى الظاهر أن يقول: وإليه أُرْجَعُ يوم الدين ليحاسبني ويجازيني، كما يُرْجَعُ إليه سائر الناس وأنتم منهم.

فأوجز في العبارة، وأشعرهم بأسلوب غير مباشر أنهم قد كان عليهم أن يؤمنوا كما آمنَ هو، لأنهم سيُرْجَعُونَ إليه يوم الدين، وسيُحَاسَبُهُمْ ويجازيهم على أعمالهم.

* * *

ثانياً: ومن أمثلة الانتقال من التكلم إلى الغيبة ما يلي:

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (الكوثر/ ١٠٨ / مصحف/ ١٥ نزول):

﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ ﴿٢﴾ .

فقد جاء الكلام أولاً على طريقة التكلم: ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ ﴾ ثُمَّ انتقل إلى أسلوب الحديث عن الغائب: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ ولم يقل: فَصَلِّ لَنَا .

والحكمة من هذا الالتفات التذكير بحقّ الرّبّ المُنعمِ بعباءات الربوبية في أن يَعْبُدَهُ عِبَادُهُ وَيُصَلُّوا لَهُ ، مع الاقتصاد في التعبير، والإيجاز في القول .

● وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الزمر/ ٣٩ / مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿ قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٩﴾ .

كان مقتضى الظاهر أن يأتي التعبير: لا تقنطوا من رحمتي إني أغفر الذنوب جميعاً .

ولكن حصل العدول عنه إلى ﴿ من رحمة الله . . . ﴾ للإشعار بأن من صفات الله الجليل العظيم أن يغفر ذنوب مَنْ يُسِيئون إلى رَبِّهِمْ ويسلمون له، كما جاء في الآية التالية من السورة، مع الإيجاز والاقتصاد في العبارة .

● وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الدخان/ ٤٤ / مصحف/ ٦٤ نزول):

﴿ حَمِّ ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُمِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبْرَكَةٍ ﴿٣﴾ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٤﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٥﴾ أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٦﴾ رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧﴾ .

بدأ الأسلوب في هذا النصّ على طريقة حديث المتكلم عن نفسه: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ — إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ — أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا — إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ .

وبعد ذلك انتقل إلى أسلوب الحديث عن الغائب خلافاً لمقتضى الظاهر ﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

وفائدة هذا الالتفات التذكير بربوبية الله عز وجل والتوطئة لذكر بعض صفاته التي هي من مقتضيات ولوازم كونه ربّاً، مع الإيجاز والاقتصاد في العبارة.

● وقول الحُصَيْنِ بْنِ الْحَمَامِ فِي مُفَضَّلِيَّتِهِ يَتَحَدَّثُ عَنِ الْخَيْلِ فِي مَوْقِعَةِ يَوْمِ «دَارَةِ مَوْضُوعٍ» بَيْنَ بَنِي سَعْدِ بْنِ ذُبْيَانَ، وَبَيْنَ بَنِي سَهْمِ بْنِ مُرَّةَ، وَكَانَ الْحُصَيْنُ قَائِدَ بَنِي سَهْمٍ، وَكَتَبَ اللَّهُ لَهُ فِيهَا النَّصْرَ، فَجَاءَ فِي قَصِيدَتِهِ:

وَأَنْجَيْنَ مَنْ أَبْقَيْنَ مِنَّا بِخُطَّةٍ مِنْ الْعُدْرِ لَمْ يَدَنْسْ وَإِنْ كَانَ مُؤَلِّمًا
أَبَى لِابْنِ سَلْمَى أَنَّهُ غَيْرُ خَالِدٍ مُلَاقِي الْمَنَايَا أَيَّ صَرْفٍ تَيَمَّمَا
فَلَسْتُ بِمُبْتَاعِ الْحَيَاةِ بِسَبَبَةٍ وَلَا مُبْتِغٍ مِنْ رَهْبَةِ الْمَوْتِ سُلْمَا

يَصِفُ الْحُصَيْنُ بْنُ الْحَمَامِ خَيْلَ قَوْمِهِ وَقَدْ نَجَّتْ مِنْ بَقِي مَنَّهُمْ فِي مَعْرَكَتِهِمُ الْظَافِرَةَ، وَأَبَانَ أَنَّ مَنْ بَقِيَ حَيًّا فَقَدْ بَقِيَ بِخُطَّةٍ يُعْذَرُ بِهَا، إِذْ لَمْ يَجِبْنَ، بَلْ أَبْلَى بِلَاءَ حَسَنًا، فَلَمْ يَدَنْسْ بِفِرَارٍ مِنَ الْمَعْرَكَةِ.

وتحدّث عن نفسه بأسلوب الحديث عن الغائب فقال: «أَبَى لِابْنِ سَلْمَى» بعد أن تحدّث عن نفسه بأسلوب التكلم مع قومه في قوله: «مَنْ أَبْقَيْنَ مِنَّا» وكان هو ممّن بقي.

ونقل الحديث إلى الحديث عن الغائب ليوطيء للحديث عن نفسه، كأنه يُحَدِّثُ عَنِ فَارِسِ شِجَاعٍ لَا يَخْشَى الْمَنَايَا، لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّهُ غَيْرُ خَالِدٍ لَوْفَرَ مِنْ مَوَاقِعِهَا، وَقَصَدَ أَيَّ صَرْفٍ مِنْ صُرُوفِ الْمَهَارِبِ.

وبعد ذلك التفت أيضاً إلى التكلم، فَتَحَدَّثَ عَنِ نَفْسِهِ فَقَالَ:

فَلَسْتُ بِمُبْتَاعِ الْحَيَاةِ بِسَبَبَةٍ وَلَا مُبْتِغٍ مِنْ رَهْبَةِ الْمَوْتِ سُلْمَا

بمبتاع الحياة: أي بِشَارِ لها.

* * *

ثالثاً: ومن أمثلة الانتقال من الخطاب إلى التكلّم ما يلي:

● قول «عَلَقَمَةَ بِنِ عَبْدِةَ»:

طَحَابِكَ قَلْبُ فِي الْحِسَانِ طَرُوبُ بُعَيْدَ الشَّبَابِ عَصَرَ حَانَ مَسِيبُ
يُكَلِّفُنِي لَيْلِي وَقَدْ شَطَّ وَلِيهَا وَعَادَتْ عَوَادِ بَيْنَنَا وَخُطُوبُ

بدأ يتحدث عن نفسه بأسلوب الخطاب في البيت الأول مُجَرِّداً من نفسه مخاطباً قائلاً: «طَحَا بِكَ قَلْبُ» أي: ذهب بِكَ وَأَتَلَفَكَ.

وانتقل إلى أسلوب التكلّم في الحديث عن نفسه فقال في البيت الثاني «يُكَلِّفُنِي لَيْلِي وَقَدْ شَطَّ وَلِيهَا» أي: يُكَلِّفُنِي حُبَّ لَيْلِي وَقَدْ بَعُدَ قُرْبَهَا.

قال المرصفي: مدح «أي: علقمة بهذه القصيدة» ملك غَسَّانَ واستعطاه، وسأله مع طلب الجائزة أن يَمُنَّ على أخيه شاس بن عبدّة، وكان أسيراً عند الملك، ولم يكتب بهذا بل طلب الجائزة لأخيه.

* * *

رابعاً: ومن أمثلة الانتقال من الخطاب إلى الغيبة ما يلي:

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينِ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنِ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٧﴾ فَلَمَّا أَنْجَيْنَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ... ﴾ [الآية ٢٣].

كان الكلام في صدر الآية جارياً على أسلوب الخطاب: ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي

الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ ، وَبَعَدَ ذَلِكَ انْتَقَلَ الْكَلَامُ إِلَىٰ أُسْلُوبِ الْحَدِيثِ عَنِ الْغَائِبِ : ﴿ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ ﴾ .

وفائدة هذا الالتفات بيان أن الذين تكون منهم هذه الظاهرة التي تحدث عنها النصّ ليسوا جميع المخاطبين، بل هم فريق منهم، فمن الحكمة الحديث عنهم بأسلوب الحديث عن الغائب، مع ما في الحديث عن الغائب من الإعراض المشعر بالتأنيب على ما يكون منهم، وقد جاء في النصّ بعد ذلك تأنيبهم صراحةً فقال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغَيْتُمْ عَلَيَّ أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ وَلَوْ تَتَابَعِ الْكَلَامُ وَفَقَّ أُسْلُوبُ الْخِطَابِ دُونَ مَا حَصَلَ فِي النَّصِّ مِنَ الْاِلْتِفَاتِ لَكَانَ التَّأْنِيبُ مُوجَّهًا لِكُلِّ النَّاسِ، مَعَ أَنَّ فِيهِمْ صَالِحِينَ لَا تَظْهَرُ مِنْهُمْ هَذِهِ الظَّاهِرَةُ الْقَبِيحَةُ مِنَ الظُّوَاهِرِ الْمَنَافِيَةِ لِلسُّلُوكِ الدِّينِيِّ الْمَطْلُوبِ مِنَ الْعِبَادِ .

● وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) في معرض بيان خطابه لجمع كبير من الأنبياء المرسلين الذين جاء ذكرهم في السورة:

﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿١٧﴾ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كَلَّ الْيَتَارِجِجُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ .

يظهر لنا في هذا النصّ نظير ما ظهر لنا في النصّ السابق، فالذين تقطّعوا أمرهم بينهم ليسوا كلّ أتباع الرُّسُلِ، إذ فيهم من حافظوا على وحدة الأمة الربّانيّة، ولم يتنكبوا صراط الله، وحينما بعث الله الرُّسُولَ الخاتم أتبعوه مؤمنين بأنّ أُمَّتَهُ هُمْ أُمَّةُ الرُّسُلِ الَّذِينَ جَاءُوا قَبْلَهُ، تلاحقت مواكبهم، إذ هُمْ رُسُلٌ مُرْسِلٍ وَاحِدٍ، يَقُودُونَ أُمَّةً وَاحِدَةً عَلَى صِرَاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ .

● وقول الشاعر:

أَذْكَرُ حَاجَتِي أَمْ قَدْ كَفَّانِي حَيَاؤُكَ إِنَّ شِمَتَكَ الْحَيَاءُ

كَرِيمٌ لَا يُعَيِّرُهُ صَبَاحٌ عَنِ الْخُلُقِ الْجَمِيلِ وَلَا مَسَاءٌ

في البيت الأول واجه ممدوحه بالخطاب، وفي البيت الثاني انتقل من الخطاب إلى الغيبة على طريقة الالتفات.

وموضع الحسن في هذا الالتفات أنّ الشاعر أراد أن يواجه الناس بمدحه، ويُعلن على الملأ أنه كريم ذو خُلُقٍ جميل، ولو تابع طريقة الخطاب لأوهم أنه يتزلف إليه بينه وبينه، وهو لا يريد إعلان مدحه بين الناس.

خامساً: ومن أمثلة الانتقال من الغيبة إلى التكلم ما يلي:

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول):

﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُبْرِحُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ

النُّشُورُ ﴿١﴾

الكلامُ في صدرِ الآيةِ جارٍ وفقِ أسلوبِ الحديثِ عن الغائب:

﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُبْرِحُ سَحَابًا﴾.

وبعد ذلك انتقل إلى أسلوبِ التكلمِ فقال تعالى:

﴿فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾.

وفائدة هذا الالتفاتِ إيقاظُ الأذهانِ للتفكيرِ في مِتَّةِ اللَّهِ على عباده الذي يُقدَّرُ أسبابُ رِزْقِهِمْ وَيُسَوِّقُهَا لَهُمْ، وللتفكيرِ في مظهر من مظاهر قدرته التي يُحْيِي بها الأرضَ الميتة، الذي يُسَبِّهُهُ إحياءُ الموتى يومَ القيامة، إذ جاء فيه تحدُّثُ الرَّبِّ الجليل عن نفسه بضمير المتكلمِ العظيم: ﴿فَسُقْنَاهُ - فَأَحْيَيْنَا بِهِ﴾.

● وقول الله عزّ وجلّ في سورة (فُصِّلَتْ/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول):

﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَنبِئَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾

فَقَضْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَرَبَّتْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٧﴾ .

الكلام في صدر النص جارٍ وفق أسلوب الحديث عن الغائب كما هو ظاهر، وبعد ذلك انتقل إلى أسلوب التكلم، فقال تعالى:

﴿ وَرَبَّتْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا ﴾ .

وفائدة هذا الالتفات هو ما سبق بيانه في النص السابق .

وبعد ذلك انتقل النص أيضاً إلى أسلوب الحديث عن الغائب:

﴿ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٧﴾ ﴾ .

توطئة لذكر اسمين من أسماء الله الحسنى الملائمة لدقة التقدير العظيم وإحكامه .

● وقول المخبر السعدي في مطلع مفضلتيه:

ذَكَرَ الرَّبَّابَ وَذَكَرَهَا سُقْمٌ فَصَبَا وَلَيْسَ لِمَنْ صَبَا حِلْمٌ
وَإِذَا أَلَمَّ خِيَالُهَا طَرَفَتْ عَيْنِي فَمَاءٌ شُؤُونُهَا سَجْمٌ
كَاللُّؤْلُؤِ الْمَسْجُورِ أُغْفِلَ فِي سِلْكِ النَّظَامِ فَخَانَهُ النَّظْمُ

الرَّبَّابُ: اسم محبوبته .

فَصَبَا: أي: فَحَنَّ وَمَالَ .

طَرَفَتْ عَيْنِي: تَحَرَّكَ جَفْنَاهَا .

فَمَاءٌ شُؤُونُهَا: شُؤُونُ الْعَيْنِ مَجَارِي دَمْعِهَا .

سَجْمٌ: أي: سَائِلٌ يَتَصَبَّبُ .

كَاللُّؤْلُؤِ الْمَسْجُورِ: أي: كَاللُّؤْلُؤِ الْمَحْمِيِّ .

أَغْفَلَ فِي سِلْكِ النَّظَامِ: أَي تَرَكَ مُهْمَلًا فِي الْخَيْطِ الَّذِي نُظِمَ فِيهِ فَلَمْ يُعْقَد.
فَخَانَهُ النَّظْمُ: أَي: فَتَنَّاثَرَ لِأَنَّ النَّظْمَ الَّذِي كَانَ لَهُ فِي سِلْكِهِ خَانَهُ لَمْ يُمَسِّكْهُ
عَنِ التَّسَاقُطِ.

فِي الْبَيْتِ الْأَوَّلِ اتَّبَعَ فِي الْحَدِيثِ عَنْ نَفْسِهِ أُسْلُوبَ الْحَدِيثِ عَنِ الْغَائِبِ.
وَفِي الْبَيْتِ الثَّانِي التَّفَتُّ مِنَ الْغِيْبَةِ فَتَحَدَّثَ عَنْ نَفْسِهِ بِأُسْلُوبِ التَّكَلُّمِ، لِيَدُلُّ
عَلَى أَنَّهُ هُوَ الْمَقْصُودُ فِي الْبَيْتِ الْأَوَّلِ.

* * *

سادساً: وَمِنْ أَمْثَلَةِ الْإِنْتِقَالِ مِنَ الْغِيْبَةِ إِلَى الْخُطَابِ مَا يَلِي:

● قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الْفَاتِحَةِ/ ١ مِصْحَفٍ/ ٥ نَزُولٍ):

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ① الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ② الرَّحْمَنِ
الرَّحِيمِ ③ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ④ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ⑤ اهْدِنَا الصِّرَاطَ
الْمُسْتَقِيمَ ⑥ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ⑦﴾.

النص في مطلع السورة جارٍ وفق أسلوب الحديث عن الغائب، ويعد ذلك
انتقل إلى أسلوب الخطاب:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ...﴾.

وفائدة هذا الالتفات التحوُّل من موضوع الثناء على الله عزَّ وجلَّ إلى موضوع
التوجُّه له بالعبادة والدُّعاء، فالثناء يحسُن فيه الإعلان العام، وهذا يلائمه أسلوب
الحديث عن الغائب، والعبادة والدُّعاء يحسُن فيهما مواجهة المعبود المدعو
بالخطاب.

● وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (مريم/ ١٩ مِصْحَفٍ/ ٤٤ نَزُولٍ):

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۗ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٨﴾ ﴾

الإدّ: المنكر الفظيع الشنيع.

بدأ الحديث عمّن افترى على الله بأنّه اتخذ ولداً بأسلوب الحديث عن الغائب خطاباً للمؤمنين.

وعقب ذلك وجه الخطاب للمفترين فقال الله لهم:

﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴾

وفائدة هذا الالتفات تحقيق غرضين:

الأول: تثبيت المؤمنين على عقيدة تنزيه الله عمّا لا يليق به سبحانه.

الثاني: تأنيب المفترين على الله بأنهم ارتكبوا أمراً بالغ النكارة والفضاعة والشناعة.

مع الاقتصاد والإيجاز في العبارة.

* * *

تطبيقات تحليلية لأمثلة قرآنية

المثال الأول: قول الله عزّ وجلّ في سورة (يس / ٣٦ مصحف / ٤١ نزول)

ضمّن عرض قصّة أصحاب القرية التي جاءها المرسلون فكذبوهم:

﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥﴾ اتَّبِعُوا مِنْ لَّا

يَسْتَلِكُوا أَجْرًا مِنْهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٢٦﴾ وَمَالِي لَّا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

دلّت عبارة ﴿ وَمَالِي لَّا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ على أنّ قومه توجّهوا له يحاكمونه

على انتصاره للرّسل، فأخذوا يسألونه ويُجيبهم بحكمة وعقلٍ وسداد، وباستطاعتنا

أن نتخيّل مجلس المحاكمة:

قالوا: هل صدقت هؤلاء الذين يزعمون أنهم مُرسلون؟ وهل آمنت بهم؟

قال: نعم.

قالوا: وهل تركت ما يعبد قومك من آلهة؟.

قال: نعم.

قالوا: وهل صرتَ تعبد الإله الذي يدعو هؤلاء إلى عبادته وحده لا شريك

له؟.

قال: نعم، إنه هو الذي فطرني، ومالي لا أعبد الذي فطرني وإليه

تُرْجَعُونَ؟!.

فالتفت من الحديث عن نفسه، إذ كانت متابعة الأسلوب تستدعي أن يقول:

«وإليه أرجع» أي: للحساب والجزاء، فخطبهم فقال: ﴿وإليه تُرْجَعُونَ﴾.

ونلمح في هذا الالتفات البديع أنه بدأ كلامه أولاً بأسلوب اتخاذ طريق الخير

لنفسه، وهو يريد ضمناً مناصحة قومه تلطفاً بهم، وليشعرهم بأنه يريد لهم ما يريد

لنفسه، وبعد ذلك التفت إليهم إذ أراد تخويفهم من عذاب الله، ودعوتهم إلى

الإيمان واتباع المرسلين.

ولدى تحليل النصّ بوجه عام نلاحظ أنّ الرّجل المؤمن يريد أن يقدم لهم

الدليل الذي اقتنع هو به، وأنّ عليهم لمصلحة أنفسهم أن يتبصّروا بهذا الدليل ليؤكّد

لديهم الاقتناع بما اقتنع هو به، فقال لهم: ﴿وَمَالِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ وطوى

ضمن كلامه: وإليه أرجع ليحاسبني ويجازيني، وأنتم كذلك مثلي، فلم لا تعبدون

الذي فطركم؟! واكتفى عن ذكر هذا المطوي بعبارة: ﴿وإليه تُرْجَعُونَ﴾.

فدلّت عبارة: ﴿وَمَالِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ من شطر الكلام الأول على

عبارة: «ومالكم لا تعبدون الذي فطركم» من شطر الكلام الثاني.

ودلت عبارة: ﴿وَالِيهِ تُرْجَعُونَ﴾ من شطر الكلام الثاني على عبارة: «وإليه أرجع» من شطر الكلام الأول.

وبهذا الحذف الإيجازي ظهر التعبير على صورة الالتفات من أسلوب حديث المتكلم عن نفسه مريداً به المخاطبين، إلى أسلوب الخطاب، ومثل هذا الالتفات البديع يشد الانتباه إلى التأمل وحسن التدبر.

المثال الثاني:

قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) خطاباً للرسول ﷺ، فكلَّ داعٍ إلى سبيل ربِّه وأمرٍ بالمعروف ونهٍ عن المنكر من بعده: ﴿قُلْ إِن كُنتَ هُدًى لِّلَّذِينَ هُوَ أَلْهَدِيَّ وَأَمْرُنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَن أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

عبارة ﴿وَأَمْرُنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ جاءت بأسلوب حديث المتكلم عن نفسه ومعه كلُّ المكلفين من الناس، أي: وأمْرُنَا جميعاً بالأوامر الربانية المختلفة لنُسَلِّمَ مُتْقَادِينَ طَائِعِينَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ.

وبعد هذه العبارة تحوّل الأسلوب إلى التكليف بالخطاب، فجاء في النص: ﴿وَأَن أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

والغرض من هذا الالتفات نلاحظه حينما ندرك أنَّ الأمر بإقامة الصلاة وبتقوى الله مع كونه داخلياً في عُموم ﴿وَأَمْرُنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إلا أنَّ على الرسول وعلى كلِّ أمرٍ بالمعروف ناهٍ عن المنكر من بعده أن يقوم بهذه الوظيفة الاجتماعية تذكيراً وتحذيراً، فهو أمرٌ ونهٍ بتوجيه منه، وليس مجرد مقدم على سبيل الحكاية ما أمر الله به ونهى عنه، ضمن المأمور به في عبارة: ﴿وَأَمْرُنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

المثال الثالث:

قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الفتح/ ٤٨ مصحف/ ١١١ نزول) خطاباً لرسوله

محمد ﷺ:

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١﴾ لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيُضْرِكَ اللَّهُ نُصْرًا عَزِيمًا ﴿٣﴾ ﴾ .

بدأت الآيات بِحَدِيثِ المتكلم العظيم عَن نفسه، وهذا الأسلوب يناسبه بحسب الظاهر أن يكون الكلام بعده: «لنغفر لك ما تقدم . . . وَتُتِمَّ نِعْمَتَنَا . . . وَنَهْدِيكَ . . .» .

إلا أن الكلام جاء على خلاف ذلك، فحصل الالتفات من التكلم إلى الغيبة، فقال تعالى ﴿ لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ﴾ إذ الاسم الظاهر بقوة ضمير الغائب .

والفائدة الخاصة التي يدُلُّ عَلَيْهَا هذا الالتفاتُ الإشعارُ بأنَّ قائل ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا ﴾ هو الله نَفْسُهُ، والتنبيهُ على مقام لفظ الجلالة «الله» الدالُّ على الذات وكلِّ الصفات والذي بيده الغفرانُ، وإتمامُ النعمة، والهدايةُ إلى الصراط المستقيم، والنَّصْرُ العزيز، مع الفوائد العامة الَّتِي تُسْتَفَادُ من الالتفات .

المثال الرابع :

قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الكوثر) / ١٠٨ مصحف / ١٠ نزول):

﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّكَ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾ ﴾ .

بدأت السورة بِحَدِيثِ المتكلم العظيم عن نفسه، وهذا الأسلوب يناسبه بحسب الظاهر أن يكون الكلام بعده: «فَصَلِّ لَنَا وَأَنْحَرْ» .

إلا أن الكلام جاء على خلاف مقتضى الظاهر هذا، إذ حصل الالتفات من التكلم إلى الغيبة، فقال تعالى: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ ﴾ .

والفائدة الخاصة التي يدُلُّ عَلَيْهَا هذا الالتفاتُ الإشعارُ بأنَّ المتكلم هو ربُّ يُمَدُّ بعطاءات الرُّبُوبِيَّةِ دواماً، فمن حَقِّهِ على مَرْبُوبِيهِ أَنْ يَعْبُدُوهُ بمختلف أنواع العبادات، ومنها الصلاة له، وَنَحْرُ الْهَدْيِ ابتغاء مرضاته .

المثال الخامس:

قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الدخان/ ٤٤ مصحف/ ٦٤ نزول):

﴿حَمَّ ۝١ وَالصَّكِّبِ ۝٢ الْمَيِّبِ ۝٣ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبْرَكَةٍ ۝٤ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٥ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٦ أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٧ رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٨﴾ .

كما جاء في المثالين السابقين الثالث والرابع بدأت السورة بحديث المتكلم العظيم عن نفسه، وبعد ذلك حصل الالتفات من التكلم إلى الغيبة، فقال تعالى: ﴿رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ وكان الأسلوب التَمْطِيَّ يستدعي أن يكون النَّص: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ .

والفائدة الخاصة في هذا الالتفات التنبيه على أنَّ كلَّ أمرٍ حكيم يُفْرَقُ بأمر الله هو رحمةٌ من أثر صفةِ رُبُوبِيَّةِ الرَّبِّ عزَّ وجلَّ .

المثال السادس:

قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبًّا لِّرَبِّوًّا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرَبُّوْا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ۝٣٩﴾ .

إنَّ أسلوب عبارة ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ هو من المواجهة بالخطاب، ويلائمه بحسب الظاهر أن يقال: ﴿فَأَنْتُمْ الْمُضْعِفُونَ﴾ .

إِلَّا أَنَّ الْكَلَامَ جَاءَ عَلَى خِلافِ مُقْتَضَى الظَّاهِرِ هَذَا، إِذْ حَصَلَ الْاَلْتِفَاتُ مِنَ الْخِطَابِ إِلَى الْغَيْبَةِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ .

والغرض البلاغيَّ الخاصَّ في النَّصِّ التنبيه باسم الإشارة الذي هو في قُوَّةِ صَمِيرِ الْغَائِبِ عَلَى ارْتِفَاعِ مَنْزِلَتِهِمْ عِنْدَ اللَّهِ، إِذْ أُشِيرَ إِلَيْهِمْ بِاسْمِ الْإِشَارَةِ الْخَاصِّ بِالْمِشَارِ إِلَيْهِ الْبَعِيدِ .

والأمثلة على الالتفات في النصوص القرآنية كثيرة جداً، وفيما سبق استعراضه وتحليله منها كفاية لمن شاء أن يتدبر ويحلل سائر النصوص، إذا كانت لديه ملكة التدبر والتحليل.

* * *

(٢)

النوع الثاني أسلوب الحكيم

أسلوب الحكيم: هو عند علماء البلاغة صرْفُ كلام المتكلم أو سؤال السائل عن المراد منه، وحمله على ما هو الأولى بالقصد، أو إجابته على ما هو الأولى بالقصد، وسمّاه الشيخ «عبد القاهر الجرجاني»: «المغالطة».

وهو قسمان:

القسم الأول: حمل كلام المتكلم على غير ما يُريد به، تبييناً على أنه الأولى بالقصد، ومنه ما يلي:

● قول ابن حجاج البغدادي «هو أبو عبد الله بن أحمد البغدادي» شاعر فكه:

قَالَ: ثَقَّلْتُ إِذْ أَتَيْتُ مِرَاراً قُلْتُ ثَقَّلْتَ كَاهِلِي بِالْأَيْدِي
قَالَ: طَوَّلْتُ. قُلْتُ: أَوْلَيْتَ طَوَّلاً قَالَ: أَبْرَمْتُ قُلْتُ: حَبَلٌ وَدَادِي

الكاهل: من الإنسان هو ما بين كتفيه، فوق العنق.

بالأيادي: أي: بالنعيم.

في البيت الأول أخذ المخاطب ظاهر كلام صاحبه وحمله على غير مراده به، إذ أراد بالتثقيل ما يحمله المضيف من أعباء الضيافة، لكن المضيف حمله على معنى أن صاحبه ثقل كاهله بأياديه في تكرير زيارته له.

وفي البيت الثاني حَمَلَ كلمة «أَبْرَمْتُ» على معنى إبرام حبلِ الوداد، وقَصَدُ المتكلم من «أَبْرَمْتُ» معنى أَضَجَرْتُ وَأَنْزَلْتُ الْمَلَلَ، وَحَمَلَ كلمة «طَوَلْتُ» على معنى أَفْضَلْتُ، أي: أعطيتَ فضلاً، وقَصَدُ المتكلم أنه أطلال الإقامة.

● ومن العبارات الدارجات أن يقول المحتفي بضيفه معذراً. «أرجو العفو عن قُصُوري».

فيقول الضيف: «قُصُورُكَ عاليةٌ شامخة» أي: ما قدّمته من إكرام عظيم كالقُصُورِ الشامخة إلى جانب الأبنية الأخرى، فيحمل كلمة «قصور» على غير ما أراد بها المضيف.

● ما رُوي من قصة «القَبْعَرِيُّ» و «الحجّاج بن يوسف الثقفي» والي بني أميّة على العراق.

قالوا: اجتمع ندماء من أهل الشّعْر والأدب في مَجْلِسِ شراب، إلى جانب شجرة من أشجار العنب ذاتِ عناقيد مُدَلّاة، وكان «القَبْعَرِيُّ» واحداً منهم، يعبث بعنقودِ عِنَبٍ مُدَلّئِي من غُصْنِهِ، فذكر أحد الندماء «الحجّاج بن يوسف» فقال «القَبْعَرِيُّ» وبیده عنقودُ العِنَبِ المدلّئِي من غُصْنِهِ: قَطَعَ اللهُ عُنُقَهُ وسقاني من دمه.

فأبلغ أحد الوشاة كلمته إلى الحجّاج، فاستدعاه وقال له: أنت الذي قُلْتَ: قطع الله عنقه وسقاني من دمه؟

قال: نعم، وقد قَصَدْتُ عَنْقُودَ العِنَبِ الَّذِي كان بيدي.

قال له الحجّاج: لِأَحْمِلَنَّكَ على الأدهم (أي: لأُقِيدَنَّكَ بِالْحَدِيدِ).

قال القَبْعَرِيُّ: مثلُ الأميرِ يَحْمِلُ على الأدهم والأشهب (قاصداً من الخيل). قال الحجّاج: قَصَدْتُ الحديد.

قال القَبْعَرِيُّ: لأن يكون حديداً خيراً من أن يكون بليداً.

● قول الشاعر:

وَقَالُوا: قَدْ صَفَتْ مِنَّا قُلُوبٌ نَعَمْ صَدَقُوا وَلَكِنْ مِنْ وِدَادِي

● قول القاضي الأرجاني:

غَالَطْتَنِي إِذْ كَسَتْ جِسْمِي الضَّنَا كِسْوَةَ عَرَّتْ مِنَ اللَّحْمِ الْعِظَامَا
ثُمَّ قَالَتْ: أَنْتَ عِنْدِي فِي الْهُوَى مِثْلُ عَيْنِي. صَدَقْتَ لَكِنْ سَقَامَا

فقبل ظاهر كلامها: «أنت مثل عيني» لكن حملة على غير ما قصدت إذ ذكر أنه مثل عينيها في سقامها، ومعلوم أن السقام في العين يزيدا حسناً.

● وقول أحدهم:

وَلَقَدْ أَتَيْتُ لِصَاحِبِي وَسَأَلْتُهُ فِي قَرْضِ دِينَارٍ لِأَمْرٍ كَانَا
فَأَجَابَنِي - وَاللَّهِ - دَارِي مَا حَوَتْ عَيْنَا فَقُلْتُ لَهُ: وَلَا إِنْسَانَا

أراد بقوله: «ما حوت عينا» أي: ذهباً، لكن المخاطب حمل كلمة «عينا» على العين المبصرة، وعطف عليها قوله: «ولا إنساناً» ومراده إنسان العين.

● وقول أحدهم:

طَلَبْتُ مِنْهُ دِرْهَمًا يَوْمًا فَأَظْهَرَ الْعَجَبَ
وَقَالَ: ذَا مِنْ فِضَّةٍ يُصْنَعُ لَا مِنَ الذَّهَبِ

تجاهل غرض طالب الدرهم وحمل كلامه على غير مراده مؤهماً بأنه يريد على زعمه بأن الدرهم من الذهب وبيّن له أن الدرهم يُصنع من الفضة.

ولدينا أمثلة قرآنية من هذا القسم:

المثال الأول: قول الله عزّ وجلّ في سورة (المنافقون/ ٦٣ مصحف/ ١٠٤ نزول) بشأن قول المنافقين في غزوة بني المصطلق، وما بنى الله عزّ وجلّ عليه:

﴿ يَقُولُونَ لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعْرَابُ مِنَ الْأَذَلِّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٨﴾ .

المنافقون قالوا: لِيُخْرِجَنَّ الْأَعْرَابُ مِنَ الْمَدِينَةِ الْأَذَلِّ إِنْ رَجَعْنَا مِنَ الْغَزْوَةِ الَّتِي نَحْنُ فِيهَا إِلَى الْمَدِينَةِ .

فجا البيان القرآني تعليقا على مقالهم بحمله على ظاهره لكن على غير ما قصدوا، وذلك بإثبات أن الأعزَّ الرسولُ والمؤمنون معه بإمداد الله لهم بالعزة، لأن العزة أي: القوة الغالبة هي له سبحانه ولمن يُمدِّهم بالعزة .

المثال الثاني: قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الأنفال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول) خطاباً للكافرين:

﴿ إِنْ تَسْتَفِينُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْهَوْا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ . . . ﴾ [الآية ١٩] .

أي: إِنْ تَدْعُوا اللَّهَ بِأَنْ يَنْصُرَكُمْ عَلَى الرَّسُولِ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ، فَقَدْ جَاءَكُمْ النَّصْرُ وَلَكِنْ عَلَى غَيْرِ مَا تَطْلُبُونَ، لَقَدْ جَاءَكُمْ نَصْرُ اللَّهِ لِرَسُولِهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ عَلَيْكُمْ .

فجاء قبول ظاهر دُعائهم بالنصر ولكن بعد حمله على غير ما طلبوا فيه، لقد طلبوا مجيء النصر فجاءهم النصر للمؤمنين عليهم .

المثال الثالث: قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول) بشأن المنافقين الَّذِينَ تَخَلَّفُوا عَنِ الرَّسُولِ وَالْمُؤْمِنِينَ فَلَمْ يَخْرُجُوا إِلَى غَزْوَةِ تَبُوكَ:

﴿ سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجَسٌ وَمَا وَهُمْ بِأَعْيُنِنَا جَزَاءُ لِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ ﴿١٥﴾ .

إِنَّهُمْ يَطْلُبُونَ الْإِعْرَاضَ عَنِ مَوَازِينِهِمْ عَلَى تَخَلُّفِهِمْ، فَإِذَا حَمَلْنَا قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ

وجلَّ ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ على معنى الإعراض الدالَّ على المجافاة والقطيعة وعزَّ لهم عن دائرة المؤمنين الصادقين، كان من الأسلوب الحكيم، إذ جاء فيه حملُ طلبهم على غير ما يقصدون به.

* * *

القسم الثاني: إجابة السائل بغير ما يطلبُ في سؤاله، (لتنبيهه على أنه الأمر الأهمُّ الذي كان ينبغي أن يسأل عنه.

ومن أمثلته في القرآن ما يلي:

المثال الأول: قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّهِ وَالَّذِينَ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْأَبْنَاءِ السَّكِينِ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿١١١﴾﴾

لقد سألوا عن الشيء الذي يُنفقونه، فعلم الله رسوله أن يجيبهم عن الذين ينبغي أن توجه لهم النفقة، إشارة إلى أنه كان ينبغي لهم أن يسألوا عمَّن ينبغي أن توجه لهم النفقة، أما الشيء الذي يُنفقون منه ومقدار ما يُنفقون فيعمُّ كلَّ ما يصلح للإنفاق منه، وما وراء حدِّ الزكاة المفروضة هو من التطوع المفتوح الذي لا يسأل عن حدِّ له، ويظهر أن حدِّ الزكاة المفروضة لم يكن قد نزلَ به حكمٌ، فأعرض النص عن الإجابة عليه، وقد أجاب الله عزَّ وجلَّ عن هذا حينما كرَّروا سؤالهم بقوله في السورة:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ...﴾ [الآية ٢١٩].

العفو في النفقة: ما زاد على حاجة الإنسان لنفسه ولمن يعولهم.

المثال الثاني: قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجُّ...﴾ [الآية ١٨٩].

سأل السائلون عَنْ سَبَبِ الظاهرة الكونيةِ في الأهلة، لماذا يَبْدَأُ الهلالُ كالحاجب في أول الشهر، ويتزايدُ يوماً فَيَوْمًا، حتَّى يكون القمرُ بدرًا، وبعد ذلك يتناقض حتَّى يكون في آخر الشهر مثلما بدأ في أوله؟

ولمَّا كانت هذه الظاهرة إحدى أنظمة الكون التي يمكن بالبحث العلمي أن يكتشفها الناس مستقبلاً، وليس بيانها من الأغراضِ الدينيةِ الأساسيةِ التي بعث اللهُ الرُّسُلَ لبيانها، جاءَ الجوابُ مبيناً وظيفه الأهلة المرتبطة ببعض قضايا الدين، وهي تحديد مواقيتِ الشهور التي يحتاجها الناس لعباداتهم، ومعاملاتهم، وتواريخهم، وتكاليفهم، المرتبطة بالأشهر القمرية، كالصيام، وأشهر العِدَّة، ومُرورِ الحول لأداء الزكاة، وغير ذلك، وخصَّ اللهُ منها الحجَّ اهتماماً بتحديد وقته، إذ دخل فيه التحريف الجاهليُّ بالنِّسبة الذي كانوا يصنعونه.

أما الظواهر الكونية القائمة على أسباب غير منظورة فكثيرة جداً، والناس لا يستطيعون إحصاءها، وفتح أبواب السؤال عنها والإجابة عليها. يُحوِّلُ مِهْمَةَ الرسول من رسالة دينية إلى رسالة عالمٍ من علماء أنظمة الله في كونه.

* * *

(٣)

النوع الثالث

الإظهار في مقام الإضمار، والإضمار في مقام الإظهار

ومن الخروج عن مقتضى الظاهر: الإظهارُ في مقام الإضمار، وبالعكس،

فهو قسمان:

القسم الأول: الإظهارُ في مقام الإضمار.

قد يكون استخدام الضمير في الكلام هو المتبادر الذي يقتضيه ظاهر

الأسلوب المعتاد، لكن قد يوجد داعٍ بلاغي يستدعي استخدام الاسم الظاهر بدل

استخدام الضمير، ومن الأغراض البلاغية لهذا ما يلي:

الغرض الأول: الإشعار بكمال العناية بما استُخدمَ للدلالة عليه الاسم الظاهر بدل الضمير، من أجل اختصاصه بحكم غريبٍ مثلاً، ومنه:

قول أحمد بن يحيى الراوندي:

كَمْ عَاقِلٍ عَاقِلٍ أَعْيَتْ مَذَاهِبُهُ وَجَاهِلٍ جَاهِلٍ تَلَقَّاهُ مَرْزُوقاً
هَذَا الَّذِي تَرَكَ الْأَوْهَامَ حَائِرَةً وَصَيَّرَ الْعَالِمَ النَّحْرِيرَ زَنْدِيقاً

فجاء اسم الإشارة «هذا» في مقام الضمير «هو» لتوجيه العناية تفكيراً في حكمة الله بتقدير أزراق العباد، وإدراك أن الأزراق قد تقتضي حكمة الله بأن تأتي وافرّة للجاهل، وتأتي غير وافرّة للعالم العاقل.

الغرض الثاني: التهكم باستخدام اسم الإشارة، ويمكن أن أمثل له بقولي:

قَالَ لِلْأَعْمَى وَقَدْ أزعَجَهُ مِنْهُ انْكَارُ بُزُوعِ الْقَمَرِ
أَيُّهَا الْجَاحِدُ هَذَا نُورُهُ سَاطِعٌ عَبْرَ غُصُونِ الشَّجَرِ
كان مُقتَضَى الظاهر أن يقول له:

نُورُهُ يَخْتَرِقُ الْأُفُقَ لَنَا فَنَرَاهُ مِنْ خِلَالِ الشَّجَرِ

لكنّه أراد التهكم به لبحوده ما يراه المبصرون وهو أعمى، فاستخدم اسم الإشارة، لإشعاره بأنه لو كان يُبصر لراه.

ومنه فيما أرى باستخدام الاسم المظهر، قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنفال/ ٨ / مصحف/ ٨٨ / نزول) خطاباً للكافرين:

﴿إِنْ تَسْتَفِيحُوا فَتَدْرَبُوا فَجَاءَ كُمْ الْفَتْحُ...﴾ [الآية ١٩].

أي: إن تطلبوا الفتح فقد جاءكم الفتح، وكان مقتضى الظاهر أن يُكتفى بالضمير فيقال: «إن تستفتحوا فقد جاءكم» ولكن جيء بالاسم المظهر للتهكم بهم، لأنّ الفتح وهو النصر الذي جاءهم كان عليهم ولصالح المسلمين..

الغرض الثالث: إظهار بلاهة المقصود بالخطاب، وأنه لا يفهم إلا بالإشارة الحسية، فلا يكفيه الضمير لمعرفة المراد، كأن تقول لمن تُريد وصفه بالبلادة، وهو يتحدث عن كتاب بيده اشتراه وهو مبتهج بشرائه له: أرني هذا الكتاب الذي اشتريته.

لقد كان مقتضى الظاهر أن تقول له: أرنيه، إلا أنك أردت إشعاره بالبلادة، وأنه ليس أهلاً لاقتناء الكتب.

الغرض الرابع: إظهار فطانة المتكلم أو المخاطب، حتى كأن الأمر الفكري غير المحسوس هو بالنسبة إليه يشبه الأمور الحسية، ومنه قول الشاعر:

تَعَالَلْتِ كَيْيَ أَشَجَى وَمَا بِكَ عِلَّةٌ تُرِيدِينَ قَتْلِي قَدْ ظَفَرْتَ بِذَلِكَ
أي: ادعيتِ العلة كئي أحزن من أجلك وأنتِ سليمة، أتريدين قتلي بما
تفعلين؟

إن كنت تريدين قتلي فقد ظفرتِ بذلك، وكان مقتضى الظاهر أن يقول لها: قد ظفرتِ به.

الغرض الخامس: زيادة تمكين ما استُخدم للدلالة عليه الاسم الظاهر بدل الضمير، ومنه قول الله عز وجل في سورة (الصمد/ ١١٢ مصحف/ ٢٢ نزل):

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾﴾

كان مقتضى الظاهر أن يكون التعبير: «هو الصمد» لكن بلاغة القرآن جاء فيها استعمال الاسم العلم الظاهر بدل الضمير، لتوكيد وتمكين إسناد الصفات في السورة إلى الله عز وجل.

الغرض السادس: الاستعطاف بإعلان الخضوع، بغية استدرار الرحمة والشفقة، ومنه قول العبد الذي يستدر رحمة ربه:

إِلَهِي عَبْدُكَ الْعَاصِي أَتَاكَ مُقِرًّا بِالذُّنُوبِ وَقَدْ دَعَاكَ

كان مقتضى الظاهر أن يقول: «أنا العاصي أتيتك» لكنه أراد أن يستعطف ربه ويظهر كمال خضوعه له، فذكر الاسم الظاهر بدل ذكر الضمير.

الغرض السابع: إدخال الروعة والمهابة في نفس المخاطب، ومنه قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) خطاباً للرسول ﷺ:

﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَيْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾.

إن مقتضى الظاهر يستدعي أن يقال: «فتوكلَّ عليه إنه يحبُّ المتوكلين».

لكن وُضع الاسم المظهر وهو لفظة الجلالة «الله» موضع الضمير لإدخال الروعة والمهابة، نظراً إلى أن لفظ الجلالة يجمع كلَّ صفات كمال الله عزَّ وجلَّ، باعتباره اسماً علماً للذات العلية، وما هو اسم علم للذات يكون جامعاً لكلِّ صفات الكمال.

الغرض الثامن: التعجيب واستثارة الإنكار، ومنه قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول):

﴿صَّ وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾ بِلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِ وَشِقَاقِ ﴿٢﴾ كَرَّ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرِينٍ فَنادُوا وَلَاتِ حِينَ مَنَاصِرِ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾﴾.

جاء في هذا النص: «وَقَالَ الْكَافِرُونَ» مع أن مقتضى الظاهر أن يقال: «وَقَالُوا» باستخدام الضمير، ولكن وُضع الاسم المظهر «الكافرون» مقام الضمير للتعجيب من فظاعة مقالتهم، واستثارة النكير عليهم، والإشعار بأنهم أهل تمرّد وعناد، كافرون بالحق، ساترون لأدلته وبراهينه الواضحة.

* * *

القسم الثاني: الإضممار في مقام الإظهار.

ويلاحظ هذا القسم في موضعين:

الموضع الأول: ضمير الشأن أو القصة، وهو ضمير الغائب الذي يقع قبل الجملة، ويسمى ضمير الشأن إذا كان مذكراً، وضمير القصة إذا كان مؤنثاً، ويعود كلٌّ منهما إلى ما في الذهن من شأنٍ أو قصة، وذلك هو مضمون الجملة التي بعده.

وضمير الشأن أو القصة لا يحتاج إلى ظاهر يعود عليه، ولا يفسرُ إلاً بجملة.

ويُستعمل ضمير الشأن أو القصة في مقام الاسم الظاهر في الأمر الذي يُراد فيه التعظيم والتفخيم، أو التهويل، أو الاستهجان، أو نحو ذلك.

ولهذا الضمير أربعة أحوال:

(١) أن يكون بارزاً متصلاً، في باب «إن» مثل قول الله عزّ وجلّ في سورة (يوسف/ ١٢ مصحف/ ٥٣ نزول) حكاية لمقالة يوسف عليه السلام لإخوته:

﴿إِنَّكُمْ مِنْ يَتَّقِي وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾

أي: إن الشأن العظيم الذي يعظم لدى أولي الألباب هو «من يتقّ ويصبر...».

(٢) أن يكون بارزاً منفصلاً، إذا كان عامله معنوياً، أي: إذا كان مبتدأً، مثل قول الله عزّ وجلّ:

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾

أي: قل: الشأن العظيم الجليل الذي يجب أن يهتمّ به كلُّ ذي فكر الله أحدٌ... .

(٣) أن يكون مستتراً، ويكون مستتراً في باب «كاد»، مثل قول الله عز وجل في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول):

﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ...﴾ [الآية ١١٧].

أي: من بعد ما كاد شأنهم المستنكر يزيغ قلوب فريق منهم، فضمير الشأن هنا مستتر، ولكن بقيت دلالة.

(٤) أن يكون واجب الحذف، ويجب حذفه مع «أن» المفتوحة المخففة من الثقيلة، مثل قول الله عز وجل في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿وَمَا جِئْتُمْ بِهِمْ إِلَّا الضَّلَالَةَ أَن يَدْعُوا تِلْكَ الصَّوْنِ الْمَتِّينَ﴾

أي: وآخر دعاء أهل الجنة في الجنة أن شأنهم المحمود أن يحمدا ربهم قائلين: الحمد لله رب العالمين.

فضمير الشأن هنا محذوف وجوباً، ولا يجوز في العربية إظهاره.

والغرض من وضع ضمير الشأن موضع الاسم الظاهر التعظيم والتفخيم، أو التهويل، أو الاستهجان، أو نحو ذلك كما سبق، وهذا من خصائصه في أصل الوضع اللغوي واستعمالات العرب له.

الموضع الثاني: الضمير في باب «نعم وبئس وما جرى مجراهما» وهي أفعال لإنشاء المدح أو الذم على سبيل المبالغة، وفاعل هذه الأفعال قد يكون اسماً ظاهراً، وقد يكون ضميراً مُستتراً وجوباً مُميراً بكلمة «ما» بمعنى شيء أو كلمة «من» بمعنى شخص، أو بنكرة عامة.

والغرض من الضمير المستتر في هذا الباب الإبهام به أولاً للتشويق واستثارة النفس، ويأتي التمييز فيزيل بعض الإبهام ويزيد تشويقاً لمعرفة المخصوص بالمدح

أو الذّم، وهذا من خصائص هذا الضمير في أصل الوضع اللغوي واستعمالات العرب له، ومن الأمثلة ما يلي:

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ إِن تَبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ... ﴾ [الآية ٢٧١].

أصلها: فَنِعَمَ مَا، أي: فنعمة هو شيئاً.

● وقولُ الله عزّ وجلّ في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول) بشأن

كثير من اليهود:

﴿ وَرَبِّي كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْأَثْرِ وَالْمُدُونِ وَأَكْلِهِمُ الشَّحْتِ لَيْسَ مَا كَانُوا

يَعْمَلُونَ ﴾.

أي: لَيْسَ هو شيئاً قبيحاً كانوا يعملونه.

* * *

(٤)

النوع الرابع

التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي

من الخروج عن مقتضى الظاهر التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي، والغرض من هذا التعبير الدلالة على تحقق الوقوع، وهو كثير في القرآن المجيد.

ومن روائعه ما كان على سبيل اقتطاع أحداث المستقبل التي سيتحقق وقوعها حتماً، وتقديمها في صورة أحداثٍ تمّ وقوعها.

ومن الأمثلة قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نَكْفِ نَفْسًا إِلَّا أَوْسَعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ

هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (١٧) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي

هَدَنَّا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولَنَا بِالْحَقِّ وَتُودُوا أَنْ تُلَكُمُ الْجَنَّةَ
 أَوْرَثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ وَنَادَىٰ أَحْسَبُ الْجَنَّةِ أَحْسَبُ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ
 وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ .

فجاء في هذه الآيات وطائفة من الآيات بعدها في السورة تقديم صور من أحداث المستقبل التي ستكون بصيغ أفعال من أفعال الماضي، كأنها أمور قد وقعت فعلاً ومضت للدلالة على تحقق وقوعها في المستقبل، ولإعطاء الأحداث المستقبلية صوراً قصصاً تم حدوثها، فهي تقدم بتصوير فني مطابق للواقع. ومعلوم لدى كل ذواق للتصوير الفني في القصص أن ما كان منها أكثر مطابقة للواقع كان أكثر تأثيراً في النفوس، واستثارة للمشاعر.

* * *

(٥)

النوع الخامس

التغليب

التغليب: إعطاء أحد المتصاحبين في اللفظ، أو المتشاكلين المتشابهين في بعض الصفات، أو المتجاورين أو نحو ذلك حكم الآخر.

ومن فوائده الإيجاز في العبارة، مع فوائد بلاغية تلاحظ في مختلف الأمثلة. ويكون التغليب في أمور كثيرة، منها: تغليب المذكر على المؤنث، وتغليب الكثير على القليل، وتغليب المعنى على اللفظ، وتغليب المخاطب على الغائب، وتغليب أحد المتناسبين أو المتشابهين أو المتجاورين على الآخر، وتغليب العقلاء على غيرهم، إلى غير ذلك من أمور.

الأمثلة:

● ذكر الله عز وجل في القرآن الذين آمنوا والذين كفروا في نصوص كثيرة،

ويدخل المؤمنات في الذين آمنوا، والكافرات في الذين كفروا، لأن الإقتصار في اللفظ على المذكرين قد كان على سبيل التغليب.

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (صّ/ ٣٨ / مصحف / ٣٨ نزول):

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ اِنِّىْ خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ طِيْنٍ ﴿٧١﴾ فَاِذَا سُوۡسَتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيْهِ مِنْ رُّوۡحِىْ فَقَعُوۡا لَهٗۤ سَجِيۡدًا ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلٰٓئِكَةُ كُلُّهُۥمْ اَجْمَعُوۡنَ ﴿٧٣﴾ اِلَّا اِبۡلِیۡسَ اَسۡتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكٰفِرِيۡنَ ﴿٧٤﴾ .

جاء في هذا النصّ وأشباهه ذكّر الملائكة دون ذكر من كان معهم من الجنّ على سبيل تغليب الكثير على القليل، فالذين كانوا مع الملائكة من الجنّ داخلون في عموم الأمر بالسجود لآدم، دلّ على هذا استثناء إبليس، فقد كان من الجنّ ففسق عن أمر ربه، ولو لم يكن الجنّ الذين كانوا مع الملائكة مأمورين بالسجود لما استثناه الله من عموم المأمورين به إذ لم يسجد.

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأحقاف/ ٤٦ / مصحف / ٦٦ نزول) حكاية

لمقالة هود عليه السلام لقومه:

﴿ وَلٰكِنِّىۡ اَرۡسَلۡتُكُمۡ قَوْمًا يَّجۡهَلُوۡنَ ﴿٢٣﴾ .

كان مقتضى الظاهر أن يكون النص: قَوْمًا يَّجْهَلُونَ، بياء الغائب مراعاة للفظ ﴿قَوْمًا﴾ لكنّ جاء في النصّ تغليب المعنى، فَهُوَ يُخَاطِبُهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ فناسب هذا المعنى أن يقول لهم ﴿تَجْهَلُونَ﴾.

والغرض البلاغيّ من هذا التغليب مواجهتهم بوصفهم بالجهالة، إذ وصلوا إلى طور العناد الشديد والتحدّي بأن يأتيهم بالإهلاك الذي كان يُنذِرُهُمْ به.

● ما جاء في قول الله عزّ وجلّ في سورة (طه/ ٢٠ / مصحف / ٤٥ نزول)

خطاباً لموسى عليه السلام، وهو في المناجاة بجانب الطور، ولم يكن معه أخوه:

﴿ اَذۡهَبْ اَنْتَ وَاَخُوۡكَ بِآيٰتِنِىۡ وَلَا نُبَيِّنُ فِيْ ذِكْرِىۡ ﴿٤١﴾ اَذۡهَبَاۤ اِلَى فِرْعَوۡنَ اِنَّهُ طَغٰٓى ﴿٤٢﴾ فَقُوۡلَا لَهٗ قَوْلًا لِّنَّاسٍ لَّمۡ يَتَذَكَّرُوۡا وَاُوۡيَحۡشُوۡنَ ﴿٤٣﴾ .

ففي هذا النصّ تغليب المخاطب وهو موسى عليه السلام بأسلوب الخطاب على الغائب وهو هارون عليه السلام، والغرض البلاغيّ اعتبار الغائب كأنه حاضرٌ يتلقّى الخطاب.

● إطلاق لفظ ﴿العالمين﴾ في القرآن في سورة (الفاتحة) وفي بعض النصوص الأخرى على كلّ ما سوى الله، تغليباً للعقلاء على غيرهم.

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ لَا يَفْنَيْنَكَمُ الشَّيْطٰنُ كَمَا اَخْرَجَ اٰبَوَيْكُمْ مِّنَ الْجَنَّةِ...﴾ [الآية ٢٧].

أي: كما أخرج آباكم وأمكم، فقد جاء ذكرهما بعبارة ﴿أَبَوَيْكُمْ﴾ على سبيل التغليب، لما بينهما من علاقة، وغُلِبَ الذكر على الأنثى.

ومنه ما هو معروف في استعمال الناس من إطلاق لفظ القمرين على الشمس والقمر.

* * *

(٦)

النوع السادس

وضع الخبر موضع الإنشاء ووضع الإنشاء موضع الخبر

ومن الخروج عن مقتضى الظاهر وضع الخبر موضع الإنشاء، ووضع الإنشاء موضع الخبر، لأغراض بلاغية متعدّدة.

أولاً: فمن أغراض وضع الخبر موضع الإنشاء ما يلي:

الغرض الأول: التفاؤل بتحقّق المطلوب، كالدُّعاء بصيغة الخبر، تفاؤلاً

بالاستجابة، ومنه ما يلي:

● قول الرسول ﷺ: «غَفَارٌ غَفَرَ اللَّهُ لَهَا».

غَفَرَ: فعل ماضٍ، فالصيغةُ خير، وقد وُضِعَ موضع الإنشاء، إذ المعنى: اللَّهُمَّ اغْفِرْ، والغرض التفاؤل باستجابة الدعاء.

ومنه قول الشاعر:

كُلُّ خَلِيلٍ كُنْتُ خَالَتُهُ لَا تَرَكَ اللَّهُ لَهُ وَاضِحَةً
كُلَّهُمْ أَرْوَعٌ مِنْ نَعْلَيْ مَا أَشْبَهَ اللَّيْلَةَ بِالْبَارِحَةَ

الواضحة: الأسنان التي تبدو عند الضحك.

ما أشبه الليلة بالبارحة: مثل يُضْرَبُ لِتَشَابُهِ الْأُمُورِ.

لقد كان مقتضى الظاهر أن يدعو عليه بمثل: «اللَّهُمَّ كَسَّرْ أَسْنَانَهُ» بصيغة الإنشاء، لكن جاء بصيغة الخير تفاؤلاً بأن يُسْتَجَابَ دُعَاؤُهُ.

الغرض الثاني: التأدب بالابتعاد عن صيغة الأمر، احتراماً لِمَنْ يُوجَّهُ له الطَّلَبُ، كأن يقول رافعٌ خطاباً لطلبٍ للأمير أو الرئيس: «يَتَكَرَّمُ الْأَمِيرُ بِأَنْ يَطَّلَعَ عَلَى خَطَابِي، وَيَنْظُرَ فِي طَلْبِي».

الغرض الثالث: التنبيه على أن المطلوب يسير سهل، قد توافرت أسبابه، كأن يقول القائد لجنده في بدء المعركة: «أَنْتُمْ تَحْسُونَهُمْ حَسًّا، تَقْتُلُونَ ذَوِي الْبَاسِ مِنْهُمْ، وَتَطَارِدُونَ الْفَارِّينَ، وَتَأْسِرُونَ سَائِرَهُمْ».

أي: افعلوا كذا وكذا.

الغرض الرابع: إظهار الرغبة في حصول المطلوب، كأن تكتب رسالةً لقريب أو صديق غائب، تقول فيها: «جَمَعَ اللَّهُ شَمْلَنَا، وَوَصَلَ مَا انْقَطَعَ مِنْ حَبَالِنَا، وَأَمْتَعَنَا بِأَيَّامِ أَنْسٍ وَصَفَاءٍ، كَمَا كُنَّا قَبْلَ زَمَانِ الْبُعْدِ وَالْغُرْبَةِ».

الغرض الخامس: التنبيه على لزوم سُرْعَةِ امْتِثَالِ الْأَمْرِ التَّكْلِيفِيِّ، وأنه ينبغي

أَلَا يَمُرُّ زَمَنٌ إِلَّا وَالْمَطْلُوبُ مَتَحَقِّقُ الْوُقُوعِ، ومنه قول الله عزّ وجلّ في سورة
(البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) خطاباً لبني إسرائيل:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ
وَأَنْتُمْ قَشِدُونَ﴾.

أي: لَا تَسْفِكُوا دِمَاءَكُمْ، وَلَا تُخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ، فجاء التكليف
بصيغة الخبر وبعبارة الفعل المضارع للإشعار بلزوم فورية الامتثال.

الغرض السادس: حمل المخاطب على الفعل باللفظ أسلوب، كأن تقول
لتلميذك الحريص على أن لا يكذبك فيما تخبر عنه من أحداث المستقبل.

«تلميذي حُسَيْنٌ يَخْطُبُ غداً يوم الجمعة عني في المسجد الجامع بموضوع
كذا...».

إلى غير ذلك من أغراض قد تتفتق عنها أذهان البلغاء الأذكياء.

ثانياً: ومن أغراض وضع الإنشاء موضع الخبر ما يلي:

الغرض الأول: إظهار العناية والاهتمام بالشيء، ومنه قول الله عزّ وجلّ في
سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ
كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾.

كان مقتضى الظاهر أن يُقال: وَيُقَامَةُ وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَبَدْعَائِكُمْ
مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ، عطفاً على لفظ ﴿بِالْقِسْطِ﴾ وبأسلوب الخبر، لكن خولف هذا
الظاهر فجاء التعبير بأسلوب الإنشاء، في صيغة الأمر التكليفي، إشعاراً بالاهتمام
بالمطلوب في أمر التكليف.

الغرض الثاني: التفريق في أسلوب الكلام بين المتقارنين في العبارة للإشعار

بالفرق بينهما، وبأنهما لا يحسن الحديث عنهما بتعبيرين متماثلين، ولو في الصيغة الكلامية، ومن الأمثلة قول الله عز وجل في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) في حكاية قول هود عليه السلام لقومه:

﴿ قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوكُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ (٥٤)

كان مقتضى الظاهر أن يقول لهم: إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُكُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ.

لكن جاء التعبير على خلاف مقتضى الظاهر هذا، لئلا يكون التحدث عنهم وهم كفرة مشركون بعبارة مشابهة للعبارة التي جاء فيها إشهد الله عز وجل.

الغرض الثالث: الإشعار بأن ما هو مُقَرَّرٌ حصوله هو أمرٌ مرغوبٌ فيه للمتحدث، فكأنه مطلوبٌ له، ومن أمثله قول الرسول ﷺ في الحديث الصحيح: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ».

كان مقتضى الظاهر استدعي أن يقول: فَإِنَّهُ سَيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ، بأسلوب الخبر، لكن عدل الرسول عن ذلك وجاء بأسلوب الإنشاء «فَلْيَتَّبِعُوا» للإشعار بأن هذا التَّبَوُّءَ أمرٌ يَطْلُبُهُ الرسول ﷺ ويدعو ربه به.

إلى غير ذلك من أغراض بلاغية قد تتفق عنها أذهان البلغاء الأذكياء.

* * *

(٧)

النوع السابع

الانتقال من الفعل الماضي إلى الفعل المضارع وبالعكس

ومن الخروج عن مقتضى الظاهر الانتقال في تتابع الجمل من الفعل الماضي

إلى الفعل المضارع وبالعكس.

ولهذا الانتقال أغراض بلاغية يقصدها البلغاء، ويكتشف متدبر النصوص
الرفيعة أغراضاً نفيسة تُقصد بهذا الانتقال.

● فمن الانتقال من الماضي إلى المضارع فالماضي قول الله عز وجل في
سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول):

﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ
النُّشُورُ﴾

كان مقتضى الظاهر بعد فعل ﴿أَرْسَلَ﴾ الماضي أن يُعطفَ عليه بفعل ماضٍ
فيقال: «فأثارت» لكن عدل عن هذا الظاهر إلى: ﴿فُثِّرُ﴾ بالمضارع بُغية تقديم
صُورَةِ السَّحَابِ المثار كأنه حدثٌ يجري مع تلاوة النَّصِّ، وهذا أسلوب فنيٌّ بديعٌ،
فيه إحضارٌ للمشاهد الماضية في صُورِ المشاهد الحاضرة الجارية، ذاتِ الأحداث
المتجددة، إذ الفعل المضارع يفيد مع الحدوث الحاضر ظاهرة التجدد والتتابع.

يضاف إلى هذا الغرض التنويع في أسلوب التعبير الذي يستثير الانتباه
ويستدعيه بقوة.

ونلاحظ في هذه الآية العود إلى الفعل الماضي بقوله تعالى: ﴿فَسُقْنَاهُ -
فَأَحْيَيْنَا﴾ للتأكيد على أن الغرض من التعبير بعبارة: ﴿فُثِّرُ﴾ تصوير حدثٍ مضى
بصورة حدثٍ يجري في الحاضر.

● ومن الانتقال من المضارع إلى الماضي قول الله عز وجل في سورة
(النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول) في وصق بعض أحداث يوم القيامة:

﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوُّهُ
دَاخِرِينَ﴾

داخِرِينَ: أي: أذلاء صاغرين خاضعين.

كان مقتضى الظاهر يستدعي أن يُقال: ﴿فَيَنْزَعُ﴾ بالفعل المضارع عطفاً على فعل ﴿يُنْفَخُ﴾ لكن عدل عن هذا الظاهر لتقديم الأحداث التي ستأتي في المستقبل في صورة أحداثٍ قد وقعت ومضت.

ومع ما في هذا الأسلوب من تنويع يستثير الانتباه، فهو يتضمن تأكيد أن هذا الأمر الذي سيحدث مستقبلاً هو بقوة الأمر الذي وقع في الماضي، إذ مجيئه في المستقبل حتمي، وحتمية وقوعه في المستقبل تسمح بالتحدث عنه بصيغة الفعل الماضي، كما يقول الماهر بالرّمي إذا أطلق قذيفةً مُسدّدةً إلى الهدف بدقّة تامّة: «لَقَدْ أَصَابَتِ الْهَدَفَ» مع أنّها ما زالت تسيّر في الجو لم تصل بعد إلى الهدف.

وهذا فنٌ بديع من فنون الإبداع البيانيّ البليغ، ولكن استخدامه يحتاج قدرة بيانيّة رفيعة، تمكن المتكلّم من اختيار المواضع الملائمة لاستخدامه.

* * *

(٨)

النوع الثامن

تجاهل العارف

ومن الخروج عن مقتضى الظاهر «تجاهل العارف» إذ من الأمور التي تجري على طبيعتها بالتلقائية أن يتكلّم العارف بالأمر على وفق معرفته له، ولكن قد تدعوه دواعي بلاغية إلى التظاهر بالشك أو الجهل.

ومن الدواعي البلاغية لهذا: «المدح - الذم - التعجب - التوبيخ».

أمثلة:

● قول الشاعر:

ألمع برق جري أم ضوء مصباح أم ابتسامتها بالمنظر الصّاحي

المنظر الضاحي: هو المنظر البارز الواضح.

يريد الشاعر أن يصف ابتسامه مالكة هواه بأنها ابتسامه مضيئة، فأراد تأكيد هذه الفكرة بطرح تشكيك حول ثلاثة أمورٍ باعِثاتِ ضوء، وهي: «لَمَعُ البرق - ضوء مصباح - بَرِيقُ ثَغْرِهَا» وهو عارفٌ غير جاهل، فبريق ثغرها هو الذي أثار مشاعره، فأراد أن يُثَبِّتَ عليه بطرح اختلاطه في تصوّره بالأشبه والنظائر، مع تأكيد أن ابتسامتها ذات بريق.

● قول البوصيري:

أَمِنْ تَذَكُّرِ جِرَانٍ بَنِي سَلَمٍ مَزَجَتْ دَمْعاً جَرَى مِنْ مُقْلَةٍ بِدَمٍ
أَمْ هَبَّتِ الرِّيحُ مِنْ تِلْقَاءِ كَاظِمَةٍ وَأَوْمَصَ الْبَرْقُ فِي الظُّلْمَاءِ مِنْ إِضْمٍ
يريد تأكيد بُكائه المختلط بالدم، بطرح تشكيكه في الأسباب الداعية إلى ذلك، أهي التذكر، أم الريح التي هبّت من أرض محبوبه، أم البرق الذي أومض من جهتها، وهو عارف بأن السبب هو التذكُّر.

● قول المتنبي:

مَالِي أَكْتَمَ حُبًّا قَدْ بَرَى جَسَدِي وَتَدَعِي حُبَّ سَيْفِ الدَّوْلَةِ الْأَمِّمِ
بَرَى جَسَدِي: أي: أنحلّه وَأَضْنَاهُ.

قال العكبري في شرح هذا البيت: يقول: لَأَيِّ شَيْءٍ أُخْفِي حُبَّهُ؟ وغيري يُظهِرُ أَنَّهُ يُحِبُّهُ، وَهُوَ بِخِلَافِ مَا يُضْمِرُ، وَأَنَا مُضْمِرٌ مِنْ حُبِّهِ مَا يَزِيدُ مُضْمَرُهُ عَلَى ظَاهِرِهِ، وَمَكْتُومُهُ عَلَى شَاهِدِهِ، وَالْأَمُّ تَشْرِكُنِي فِي ادِّعَاءِ ذَلِكَ، بِقُلُوبٍ غَيْرِ خَالِصَةٍ، وَنِيَّاتٍ غَيْرِ صَادِقَةٍ، فَيَنْحَلُّ جِسْمِي بِقَدَمِي فِي صِدْقِ وُدِّهِ، وَتَأْخِرِي فِيمَا يَخْصُنِي مِنْ فَضْلِهِ.

إنه على طريقة تجاهل العارف قال: «مَالِي أَكْتَمَ حُبًّا قَدْ بَرَى جَسَدِي» لتأكيد حُبِّه له بتساؤله عن سبب تكتّمه بهذا الحب.

* * *

(٩)

النوع التاسع

القلب

ومن الخروج عن مقتضى الظاهر «الْقَلْبُ» ويكون القلب بإجراء التبادل بين جزئين من أجزاء الجملة لغرض بلاغي يستحسنه الفطناء، وَيُلْحَقُ به القلب في التشبيه.

وأمثل للقلب في التشبيه بقولي صانعاً مثلاً:

تَدَاوَلَ الْإِلْمَاحَ بَدْرُ الدُّجَى كَوَجْهِ هِنْدٍ مِنْ وَرَاءِ الشَّبَكِ
وَالْوَرْدَةُ الْحَسَنَاءُ فِي غُضْنِهَا وَجُتُّهَا مَدَّتْ إِلَيْنَا الشَّرْكَ

واستعمال القلب في التشبيه يتضمّن ادعاء أنّ الصفات في المشبه أفضل منها في المشبه به، فيأتي القلب أبلغ إذا كان التشبيه دقيقاً متقناً مختاراً ببراعة.

● ومن القلب قول الشاعر: «يَكُونُ مِرَاجَ عَسَلٍ وَمَاءٍ».

وكان مقتضى الظاهر أن يقول: تَكُونُ مِرَاجَ الْعَسَلِ وَالْمَاءِ، إِلَّا أَنَّ الشَّاعَرَ أَجْرَى الْقَلْبَ بَيْنَ جَزْئَيْنِ مِنْ أَجْزَاءِ جَمَلْتِهِ.

● ومن القلب قول الشاعر يصف ناقته:

فَلَمَّا أَنْ جَرَى سَمْنٌ عَلَيْهَا كَمَا طَيَّنْتَ بِالْفَدَنِ السِّيَاعَا
الْفَدَنُ: الْقَصْرُ.

السِّيَاعُ: الطين المخلوط بالتبن يُطَيَّنُ به البناء.

وحسّن هذا القلب إذ كان الغرض منه الإشعار بأنّ الطين كان أكثر من القصر، حتّى كأنّ القصر هو الذي كان طيناً للطين.

ملاحظات:

الأولى: حين لا يتضمّن القلب غرضاً بلاغيّاً مقبولاً لدى البلغاء والأدباء يكون سَمِجاً مرفوضاً، كقول عُرْوَةَ بن الوُرْد.

«فَدَيْتُ بِنَفْسِهِ نَفْسِي وَمَالِي».

إنّ ما يتبادر إلى الذهن هو أنه يؤثر نفسه، ولا يفدي محبوبه بنفسه وماله.

الثانية: أرى أنّ من القلب أن يُوجّه الأب مثلاً لابنه تكليفاً بعمل بصورة مقلوبة، فيقول له مثلاً: «أعطني نقوداً لأذهب إلى السوق وأشتري لك فاكهة»، أي: خذ مني النقود وأحضر الفاكهة من السوق.

الثالثة: وأرى أنّ من القلب أن يلاحظ البليغ أنّ عند غيره كلاماً يتلجّج في صدره، ويريد أن يقوله له، إلاّ أنّه يكتمه خجلاً، أو خوفاً، أو تأدّباً، أو غير ذلك، فيقوله عنه، لكنّه يخاطبه به، كأن يقول لزائره الذي يُكثر من زيارته، وفي نفسه أن يوجّه له عتاباً على أنّه لا يقابله بالمثّل، في شعر صنّعه مثلاً لهذا:

مَالِي أزورك في شوقٍ وفي حدبٍ وَأَنْتَ تَهْجُرْنِي فِي الْفِكْرِ وَالنُّزْلِ
مَا هَكَذَا يَصْنَعُ الْأَحْبَابُ مَا صَدَقْتُ جِبَالٌ وَدَّهَمَ فِي الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ

أي: من حقّك أن تقول لي هذا الكلام.



البَابُ الثَّالِثُ

القَصْرُ

(١)

تعريف القصر

القصر: يأتي في اللغة بمعنى التخصيص، يقال لغة: قَصَرَ الشَّيْءَ عَلَى كَذَا، إِذَا خَصَّصَهُ بِهِ، وَلَمْ يَجَاوِزْ بِهِ إِلَى غَيْرِهِ. وَيُقَالُ: قَصَرَ غَلَّةَ بَسْتَانِهِ عَلَى عِيَالِهِ، إِذَا جَعَلَهَا خَاصَّةً لَهُمْ، وَقَصَرَ الشَّيْءَ عَلَى نَفْسِهِ، إِذَا خَصَّ نَفْسَهُ بِهِ، فَلَمْ يَجْعَلْ لغيره منه شيئاً.

ويأتي القَصْرُ أيضاً بمعنى الحَبْسِ، يُقَالُ لغة: قَصَرَ نَفْسَهُ عَلَى عِبَادَةِ رَبِّهِ، إِذَا حَبَسَهَا عَلَى الْقِيَامِ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ، وَقَصَرَ جُنْدَهُ عَلَى مِمَارَسَةِ التَّدْرِيْبِ الْعَسْكَرِيِّ فِي الْقَلْعَةِ، إِذَا حَبَسَهُمْ وَأَلْزَمَهُمْ بِذَلِكَ فِيهَا.

والقصر في اصطلاح علماء البلاغة: تخصيص شيء بشيءٍ بعبارة كلامية تدلُّ عليه.

ويقال في تعريفه أيضاً: جعلُ شيءٍ مقصوراً على شيءٍ آخر بواحدٍ من طُرُقِ مخصوصة من طُرُقِ القول المفيد للقصر.

والمقصور عنه على وجهين:

الوجه الأول: أن يكون جميع ما سوى المقصور عليه، ويسمى عند البلاغيين «قصرأ حقيقياً» مثل: «لا إله إلا الله» أي: لا يُوجَدُ في الوجود كُلهُ معبودٌ بحقِّ سوى الله عزَّ وجلَّ.

وهذا «القصر الحقيقي» إذا كان مضمونه مطابقاً للواقع سموه «حقيقياً تحققيقياً» أي: صادقاً مطابقاً للواقع.

وإذا كان غير مطابق للواقع، وإنما ذكر على سبيل المبالغة والادعاء المجازي، سموه «حقيقياً ادعائياً أو مجازياً» مثل قولهم: لا سيف إلا ذو الفقار، ولا فتى إلا علي «ذو الفقار اسم سيفه».

الوجه الثاني: أن يكون المقصور عنه شيئاً خاصاً يُراد بالقصر بيان عدم صحة ما تصوّره بشأنه أو ادعاه المقصود بالكلام، أو إزالة شكّه وتردده، إذا الكلام كله مُنحصِرٌ في دائرة خاصّة، ويسمى «قصرأ إضافياً» أي: ليس قصرأ حقيقياً عامّاً، وإنما هو قصرٌ بالإضافة إلى موضوع خاصّ يدور حول احتمالين أو أكثر من احتمالاتٍ محصورةٍ بعددٍ خاصّ، ويُستدلُّ عليها بالقرائن.

مثل: [وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ] لقد جاء هذا البيان لتصحيح تصوّر الذين يتوهّمون أنّ محمداً رسولٌ لا يموتُ كما يموت سائر الناس.

فالموضوع الخاصّ الذي يدور الكلام حوله هو كون محمّد رسولاً مبرّأً من أن يكون عرضةً للموت، فجاء النصّ مبيناً قصره على كونه رسولاً فقط، والمقصود عنه أمرٌ خاصّ هو كونه لا يموت، لا سائر الصفات غير صفة كونه رسولاً، إذ له صفات كثيرة لا حصر لها، وهي لا تدخل في المقصور عنه.

إذن: فالقصر في هذا المثال هو من قبيل «القصر الإضافي».

* * *

(٢)

أقسام القصر

بحسب أحوال المقصور والمقصور عليه صفة أو موصوفاً

كلُّ من القصر الحقيقي والقصر الإضافي ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: قصر موصوف على صفةٍ دون غيرها.

ويكون قصرأ حقيقياً، وقصرأ إضافياً.

القسم الثاني: قصر صفةٍ على موصوفٍ دون غيره.
ويكون قصراً حقيقياً، وقصراً إضافياً.

وليس المقصود بالوصف في باب القصر النعتَ النحويَّ الذي يتَّبَعُ منعوته، بل هو كلُّ معنَى من المعاني يتَّصِفُ به موصوفٍ ما، كالفعل يتَّصِفُ به الفاعل باعتبار كونه فاعلاً، ويتَّصِفُ به المفعول به باعتبار كونه مفعولاً به، وكالخبر يتَّصِفُ به المبتدأ، وكالحال يتَّصِفُ به صاحبُ الحال، وكفعلٍ ما يتَّصِفُ بكونه قد وقع في مكانٍ ما أو زمانٍ ما، وهكذا.

فقد يريد المتكلِّم أن يَقْصُرَ مثلاً الفعلَ على الفاعل، أو على المفعول به، أو يقصر الخبر مثلاً على المبتدأ، أو الحال مثلاً على صاحب الحال، وهكذا.

وقد يريد المتكلِّم أن يقصر مثلاً الفاعل أو المفعول به على الفعل، أو المبتدأ مثلاً على الخبر، أو صاحب الحال على الحال، وهكذا.

الأمثلة:

● حينما نقول: «لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» فإننا نقصر وصف الإلهية الحق على موصوف هو الله وحده «هذا من قصر الصفة على الموصوف - وهو قصر حقيقي».

● وحينما نقول: «ما لإبليس من عمل في الناس إلا الوسوسة والإغواء» فإننا نقصر عمل إبليس في الناس على صفتي الوسوسة والإغواء.

عمل إبليس في النَّاسِ موصوف، والوسوسة والإغواء صفة «هذا من قصر الموصوف على الصفة».

فإذا كان لا صفة لعمله في الناس بحسب الواقع إلا الوسوسة والإغواء كان قصراً حقيقياً، وإذا كان لعمله صفات أخرى غير الوسوسة والإغواء كان قصراً إضافياً.

● وحينما نقول: «ليس في كلام الله باطلٌ بل كُلُّهُ حقٌّ» فإننا نقصر كلام الله في موضوع الحق والباطل على صفة كونه حقاً «هذا من قصر الموصوف على الصفة - وهو قصر إضافي».

● وحينما نقول: «علم قيام الساعة عند الله لا عند غيره» فإننا نقصر علم قيام الساعة على الله وننفيه عن غيره «هذا من قصر الصفة على الموصوف - وهو قصر حقيقي».

● وحينما نقول: «طاف الرسول ﷺ حول الكعبة ركباً ناقته لا ماشياً» فإننا نقصر طواف الرسول على حالة الركوب، دون المشي، «هذا من قصر الموصوف وهو الطواف على الصفة وهي كونه ركوباً - وهو من القصر الإضافي».

● وحينما نقول: «إنما تُشرقُ الشمسُ في النهار» فإننا نقصر شروق الشمس على كونه في النهار دون الليل «هذا من قصر الموصوف وهو شروق الشمس على الصفة وهي كونه في زمن النهار - وهو من القصر الإضافي لأن الشروق له صفات أخرى كثيرة غير كونه في النهار، لكنّ الموضوع المتحدّث عنه خاص بزمن الشروق».

* * *

(٣)

أركان القصر

مما سبق يتضح لدينا أنّ للقصر أربعة أركان:

الركن الأول: المقصور، صفة كان أو موصوفاً.

الركن الثاني: المقصورُ عليه، صفة كان أو موصوفاً.

الركن الثالث: المقصورُ عنه، وهو المنفيُّ المستبعدُ بالقصر.

الركن الرابع: القولُ المَقْصُورُ به .

(١) ففي كلمة التوحيد: «لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» وهي من القصر الحقيقي بقصر صفةٍ

على موصوف:

● المقصور: صفة الإلهية للمعبود بحق.

● المقصور عليه قصرأ حقيقياً: الله عزَّ وجلَّ الموصوف بأنه الإله بحق.

● المقصورُ عنه: كلُّ ما سوى الله عزَّ وجلَّ.

● القول المقصور به: النفي والاستثناء في العبارة: «لا... إلّا...».

(٢) وفي عبارة: [وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ] وهي من القصر الإضافي بقصر

موصوف على صفة:

● المقصور: «محمد» الموصوف بأنه رسول.

● المقصور عليه قصرأ إضافياً: صفة رسالته، المفهومة من «رسول».

● المقصور عنه قصرأ إضافياً: صفة تبرُّئه من أن يكون عرضةً للموت،

لتصحيح تصوُّر متوهمي ذلك فيه، ظانين ظناً توهمياً أنه لا يموت.

● القول المقصور به: النفي والاستثناء في العبارة: «ما... إلّا...».

* * *

(٤)

أقسام القصر بحسب أحوال من يُوجَّه له الكلام

من المعلوم أنّ الكلام يوجَّه لمن يراد إعلامه بمضمونه وهو خالي الذهن،

أو يراد تصحيح تصوُّره الذي هو مخطيء فيه بحسب اعتقاد مُوجَّه القول، أو يُرادُ

رَفْعُ شَكِّهِ وتردده، ويستخلص من هذا أربعة أقسام في القصر:

القسم الأول: أن يكون الكلام المشتمل على القصر موجّهاً لخالي الذهن، أو إعلاناً عن اعتقاد المتكلم، أو اعترافه بمضمون ما يقول، أو تعبيره عما في نفسه لمجرد الاعلام به، وأسمّيه: «قصرأً إعلامياً ابتدائياً».

وأشير إلى أنّ البلاغيين لم يذكروا هذا القسم اكتفاءً بالمفاهيم العامة المعروفة من توجيه الكلام.

القسم الثاني: أن يكون الكلام المشتمل على القصر موجّهاً لمن يُرادُ إعلامه بخطأ تصوّره مُشاركةً غير المقصور عليه في المقصور.

ويُسَمِّي البلاغيّون هذا «قَصْرَ أفراد».

مثاله: يعتقد المشرك أنّ الأربابَ التي يُؤمّنُ بها تَخْلُقُ، كما أنّ اللهَ يَخْلُقُ، فنقول له: «لَا خَالِقَ إِلَّا اللهُ».

هذا قصر حقيقيّ، من قصر الصفة على الموصوف، ويُرادُ منه إفراد الله عزَّ وجلَّ بالخلق، ونفْيُ صفةِ الخلقِ عن كلّ ما سواه ومن سواه من الشركاء، لتعريف المخالفِ بأنه مخطيء في تصوّره مشاركةً غَيْرِ اللهِ لِلَّهِ في الخلق، فهو «قَصْرُ أفراد».

القسم الثالث: أن يكون الكلام المشتمل على القصر موجّهاً لمن يُرادُ إعلامه بخطأ تصوّره نسبةً المقصور إلى غير المقصور عليه.

ويُسَمِّي البلاغيون هذا «قَصْرَ قَلْب».

مثاله: يعتقد الملحد الذي يَجْحَدُ وجودَ الله عزَّ وجلَّ، وينسبُ أحداثَ الكون المتقنة العجيبة إلى التطوّر الذاتي، وإلى المصادفات، فنقول له: «لا مُحَدِّثَ لأحداث الكون إِلَّا اللهُ».

هذا قصر حقيقيّ، من قصر الصفة التي هي إحدائُ أحداثِ الكون، على موصوف واحدٍ هو الله عزَّ وجلَّ، ويُرادُ منه قلبُ تصوّر من يُوجَّهُ له الخطاب،

وتعريفه بأنَّ ما يَنْسُبُهُ إلى التطوُّر الذاتي وإلى المصادفات هو لله وحده، فهو «قَصْر قلب».

القسم الرابع: أن يكون الكلام المشتمل على القصر موجَّهاً لمن يُرادُ إزالةُ تردِّده وشكِّه، هل المقصورُ منسوبٌ إلى المقصور عليه أو إلى غيره.

ويُسَمَّى البلاغيُّون هذا «قَصْرَ تعيين».

مثاله: يسأل متردّد شكّاً: هل لفظ الكسوف يُسْتَعْمَلُ لاختفاء ونقصان ضوء الشمس أو نور القمر، فنقول له: «لا يُسْتَعْمَلُ لفظ الكسوف إلاً للشمس، أمّا ما يحدث للقمر فيُسَمَّى الخُسوف».

هذا قصرٌ إضافي، لأنَّ كلمة «الكسوف» تُسْتَعْمَلُ لمعانٍ أخرى غير ما يحدث للشمس، ومنها تنكيس الطَّرف، وهو من قصر الصفة على الموصوف. ويُرادُ منه إزالة شكِّ وتردّد من يوجّه له القول، بتعيين المقصور عليه، فهو «قَصْرُ تعيين».

ملاحظة:

يرى البلاغيُّون أن «قَصْرَ الأفراد، وقَصْرَ القلب، وقَصْرَ التَّعْيِين» أقسامٌ للقصر الإضافي فقط، إلاً أنّي لست أرى هذا، ففي الأمثلة التي أوردتها للأقسام، منها ما هو قصرٌ حقيقيٌّ، ومنها ما هو قصرٌ إضافيٌّ.

فالأقسام الأربعة السابقة نستطيع أن نعتبرها أقساماً للقصر بوجهٍ عامٍّ، وحال المقصود بتوجيه الكلام له هي التي تحدّد كون القصر قَصْرَ إعلامٍ ابتدائيٍّ، أو قَصْرَ أفراد، أو قصر قلب، أو قصر تعيين.

* * *

(٥)

طُرُقُ القصر

يُستفادُ القصر بعدة طرق:

الطريق الأول: أن يكون بعبارة تدلُّ عليه بمادّتها اللّغويّة صراحةً، مثل: «دخولُ مكةَ مقصودٌ على المسلمين - غرفة القصر العليا خاصّةٌ بسيد القصر - سبق الفارس خالدٌ جميعَ المُتسابقين - دخل الزوج إلى مخدع العروس وحده - سدُّ الصينِ أعظمُ سدًّا في الأرض وأطولُه - أبو حنيفةٌ مُنفردٌ من بين المجتهدين في باب الاعتماد على الرأي الثاقب».

* * *

الطريق الثاني: أن يكون بدليلٍ خارجٍ عن النصّ، كدليلٍ عقليّ، أو دليلٍ حسّيّ، أو دليلٍ تجريبيّ، أو دليلٍ من القرائن الدّهنيّة أو الحالّيّة، مثل: «فلانٌ رئيسُ الجمهوريّة - الله ربُّ السّماوات والأرض وهو على كلّ شيءٍ قدير - تبتُّ الشّمسُ ضياءها على الأرض فتَمِدُّها بالحرارة -

لَا يَسْلَمُ الشَّرْفُ الرَّفِيعُ مِنَ الْأَذَى حَتَّى يُرَاقَ عَلَى جَوَانِبِهِ الدَّمُّ
أُرُونِي أُمَّةً بَلَغَتْ مُنَاهَا بَعْيَرِ الْعِلْمِ أَوْ حَدِّ الْيَمَانِي

لكنّ القصرَ بواحدٍ من هذين الطريقتين لا يدخل في اهتمامات علماء البلاغة تفصيلاً وتقسيماً وشرحاً، إلّا أنّ القصر المستفاد بواحد منهما - فيما أرى - مشمولٌ بكلّ أحكام القصر وتفصيلاته من جهة المعنى، والسبب في أنّ البلاغيين لم يوجّهوا لهما اهتماماتهم، أنّهما طريقتان يتعدّان حصر عناصرهما أو يعسّر.

واهتم البلاغيون بتحديد وشرح وتقسيم وتفصيل الطريقتين الآتين «الثالث والرابع» فهو القصر الاصطلاحي المدوّن عند علماء البلاغة، والذي وجّهوا له عنايتهم وفيما يلي شرحهما:

* * *

الطريق الثالث: أن يكون القصر ببعض الأدوات التي تدلُّ عليه بالوضع اللغوي، وهي: النفي والاستثناء – وكلمتا «إنَّما» و «أَنَّما» – والعطف بالحروف التالية: «لا – بل – لكن».

وفيما يلي الشرح:

أولاً: النفي والاستثناء، مثل: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ – مَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ – وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ – وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ – فَتِلْكَ مَسَاكِينُهُمْ لَمْ تَسْكُنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا – وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً – قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا» ومثل إلَّا في الاستثناء كلمة «غَيْر» ونحوها. ومثل النفي ما يدلُّ على معناه، كالاستفهام.

ويكون المقصور بالنفي والاستثناء هو ما قبل الاستثناء صفةً كان أو موصوفاً، أمَّا المقصور عليه فهو ما بعد أداة الاستثناء.

النفي المقصُورُ عليه	أداة الاستثناء	المقصور عليه
ما مُحَمَّدٌ (موصوف)	إِلَّا	رسول «صفة»
لا صاحب للرسول في الغار (صفة)	إِلَّا	أبو بكر الصديق «موصوف»
لن يُصِيبَنَا «أي: مُصِيب ما»	إِلَّا	مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا «صفة»
وهو «موصوف»		أي: صِفَةٌ مَا يُصِيبُنَا أَنَّهُ
		مكتوبٌ لنا لا علينا

ثانياً: كَلِمَتَا «إِنَّمَا» بِكَسْرِ الهمزة، و «أَنَّما» بفتح الهمزة، والمقصور بواحد منهما هو ما يلي الأداة، والمقصور عليه هو الذي يجيء بعده.

أمثلة:

قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ... ﴾ [الآية ١١١].

أي: لا يكسبه إلَّا على نفسه، والمعنى أن المكسوب من الإثم «وهو هنا موصوف» مقصور على صفة واحدة هي كونه على نفس الكاسب.

فهو من قصر موصوف على صفة، أي: لا يضرّ به إلا نفسه، وظاهر أنّه من قسم القصر الإضافي، إذ الكلام يدور في دائرة الجزاء عند الله، أمّا في غير دائرة الجزاء الربّاني فقد يضرّ كاسب الإثم به غيره من عباد الله ضرراً دنيوياً.

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) خطاباً لرسوله:

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾

في هذا النصّ قصران: أحدهما بأداة «إنّما» بكسر الهمزة والآخر بأداة «أنّما» بفتح الهمزة.

وهذان القصران مساويان لقولنا: ما يُوحَىٰ إليّ إلاّ أنّه ما إلَهُكُمْ إلاّ إلهٌ واحد.

فالمَقْصُورُ بالأداة الأولى «إنّما» هو الموحى به، وهو هنا «موصوف» والمقصورُ عليه مضمونُ جُمْلَةٍ «أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ» أي: وحدانية إلَهُكُمْ، وهو هنا «صفة» أي: صفة الموحى به كونُ مضمونه هذه الحقيقة.

والمقصور بالأداة الثانية «أنّما» هو «إِلَهُكُمْ» وهو هنا «موصوف».

والمقصورُ عليه هو كونه إلهاً واحداً، وكونه إلهاً واحداً صِفَةً.

فالمثالان من قصر مَوْصُوفٍ على صِفَةٍ، وظاهر أنّهما من قبيل القصر الإضافي، إذ الكلام مع المشركين يدور في دائرة التوحيد والشرك، ومن المعلوم أنّ الله عزّ وجلّ كان إيّان نزول النصّ يُوحى إلى رسوله ببيانات ومعلومات أُخرى غير كون إلَهُهم إلهاً واحداً.

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول) خطاباً للذين آمنوا:

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا فَيُنزِلَ عَلَيْكُمْ مَنَاسِكًا مِمَّا رَمَىٰ فِيكُمْ مِنَ السَّمَاءِ فَتُحْصَىٰ ۚ وَمَا لَكُم مِّنْ عِلْمٍ بِمَا يُرْسِلُ اللَّهُ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ ﴿١٦﴾ .

أي: لَا يَجِبُ عَلَىٰ رَسُولِنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ .

المقصورُ بأداة «أَنَّمَا» هو الوجوبُ على الرسول، وهو هنا «صِفَةٌ» والمقصورُ عليه هو البلاغ المبين، وهو هنا «موصوف» فهو من قصر صفة على موصوف أي: صفةُ تكليف الرسول مقصورةٌ على موصوف هو تبليغُهُ ما أَمَرَهُ اللهُ بتبليغه بِلَاغًا مَبِينًا .

وهذا القصر هو من قبيل القصر الإضافي، إذ الكلام حول مسؤولية الرسول ﷺ تجاه قومه في موضوع رسالته، ولا يدخل في هذه الدائرة الخاصة ما يجب على الرسول من واجبات أخرى تجاه ربِّه وتجاه أصحاب الحقوق، وواجبات أخرى غير ذلك .

● ونقول في قصر الموصوف على الصفة: «إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ» وهو قصر إضافي .

ونقول في قصر الصفة على الموصوف: «إِنَّمَا إِلَهُ اللَّهِ» وهو قصر حقيقي .

ثالثاً: العطف بالحروف التالية: «لا - بل - لكن» .

(١) أمَّا كلمة «لا» العاطفة فَيُعْطَفُ بها لإخراج المعطوف ممَّا دخل فيه المعطوف عليه، مثل: أَكَلْتُ بَصَلًا لَا عَسَلًا، وَلَبِسْتُ خَزًّا لَا بَزًّا، وللعطف بها ثلاثة شروط:

الأول: أن يكون المعطوف بها مفرداً، أي: غير جملة .

الثاني: أن تكون مسبوقه بإيجاب أو أمرٍ أو نداء .

الثالث: أن لا يَصْدُقَ أحد معطوفيها على الآخر، وهذا الشرط بدهي .

والعطف بكلمة «لا» يفيد القَصْرَ، وكلٌّ من المقصور والمقصور عليه يأتيان

قبل أداة العطف، وكلُّ منهما قد يكون هو المعطوف عليه، أمّا المعطوف بها فهو مقصور عنه، ففي قولنا: حامل راية المسلمين في فتح خيبر عليّ لا غَيْرُهُ.

عليّ: هو المقصور عليه، وهو موصوف هنا.

حَمَلُ الرّاية في فتح خيبر: هو المقصور، وهو صفة هنا.

غَيْرُ علي: هو المقصور عنه.

والقصر في هذا المثال حقيقي، من قصر الصفة على الموصوف.

وفي قولنا: مالك بن أنس فقيه مجتهد لا شاعر.

مالك بن أنس: هو المقصور، وهو موصوف هنا.

فقيه مجتهد: هو المقصور عليه، وهو صفة هنا.

شاعر: هو المقصور عنه.

والقصر في هذا المثال قصر إضافي، وهو من قصر الموصوف على الصفة.

(٢) وأمّا كلمة «بل» العاطفة، ومعناها الإضرابُ عن الأول، والإثبات

للثاني، وللعطف بها شرطان:

الأول: أن يكون المعطوف بها مفرداً، أي: غير جملة.

الثاني: أن تكون مسبوقه بإيجابٍ أو أمرٍ أو نهْيٍ أو نَهْيٍ.

● فإن وقعت بعد كلام مثبت خيراً كان أو أمراً، كانت للإضراب والعدول

عن شيءٍ إلى آخر.

● وإن وقعت بعد نَهْيٍ أو نَهْيٍ كانت للاستدراك بمنزلة «لكن».

والعطف بكلمة «بل» يفيد القصر، والمقصور عليه بها هو ما بعدها،

المعطوف بها، ففي قولنا: «لا تأكل دهنًا حيوانيًا بل دهنًا نباتيًا».

دهناً نباتياً: هو المقصور عليه، وهو المعطوف بكلمة «بل».

دُهْنًا حَيَوَانِيًّا: هو المقصور عنه. وهو المعطوف عليه.

الأكل المفهوم من «لا تأكل»: هو المقصور.

أي: ليكن أَكَلُكَ بالنسبة إلى الأدهان مقصوراً على الدهن النباتي، ومبتعداً عن الدهن الحيواني.

وهذا قصر إضافي من قصر الصفة على الموصوف، إذ الموصوف هنا مطلق «الدُّهْن» والصفة كونه دهنًا نباتيًا، والوصية توجّه أن يكون المأكول من الأدهان الدّهْن النباتي.

وفي قولنا: «المرجان حيوانٌ بحريٌّ بل نبات بحري».

نبات بحري: هو المقصور عليه، وهو «صفة».

المرجان: هو المقصور، وهو «موصوف».

حيوان بحري: هو المقصور عنه، وهو «صفة».

القصر في هذا المثال قصر إضافي، من قصر الموصوف على الصفة، إذ لا تقتصر صفات المرجان على كونه نباتاً بحرياً.

(٣) وأما كلمة «لكن» العاطفة، فهي للاستدراك بعد النفي، وللعطف بها

ثلاثة شروط:

الأول: أن يكون المعطوف بها مفرداً، أي: غير جملة.

الثاني: أن تكون مسبوقه بنفي أو نهي.

الثالث: أن لا تقترن بالواو.

والعطف بكلمة «لكن» يفيد القصر، وحالها كحال «بل» فالمقصور عليه بها

هو ما بعدها المعطوف بها، ويصلح هنا مثال: «لا تأكلُ دُهناً حيوانياً لكن دُهناً نباتياً» بوضع كلمة «لكن» بدل كلمة «بل» ويكون الشرح هناك هو الشرح هنا.

وفي قولنا: «مَا طَلَعَ الْفَجْرُ الصَّادِقُ لَكِنَّ الْفَجْرَ الْكَاذِبَ».

الفجر الكاذب: هو المقصودُ عليه، وهو «موصوف».

الفجر الصادق: هو المقصودُ عنه.

الطلوع الخاص: هو المقصود، وهو «صفة».

القصر في هذا المثال قصر إضافي من قصر الصفة على الموصوف، إذ لا يقتصر الطلوع على الفجر.

* * *

الطريق الرابع: أن يكون القصر بدلالات في الكلام تفهم من:

(١) تقديم ما حقه التأخير في الجملة.

(٢) إضافة ضمير الفصل.

(٣) تعريف طرفي الإسناد في الجملة.

والشرح فيما يلي:

أولاً: تقديم ما حقه التأخير في الجملة.

سبق في مبحث «التقديم والتأخير» بيان مراتب عناصر الجملة في اللسان العربي، وأنّ تقديم ما حقه التأخير يكون لأغراض ودواعي بلاغية معنوية، أو جمالية لفظية، وبلغت الدواعي البلاغية لتقديم المسند إليه على المسند «اثنى عشر داعياً» وبلغت دواعي تقديم المسند إذا كان الأصل فيه التأخير في الجملة «أربعة دواعي خاصة» مع دواعي أخرى يمكن أن تستفاد من تقديم المسند إليه، وبلغت دواعي تقديم متعلقات الفعل عن مراتبها. «ثمانية دواعي» وقد سبق شرحها وعرض أمثلتها.

وهنا في باب القصر نَبَّهَ البلاغيون على أن تقديم ما حَقَّه التأخير في الجملة قد يُفِيدُ القصر في بعض صُورِهِ، ومن ذلك ما يلي:

- (١) تقديم المعمول على عامله.
- (٢) تقديم المسند إليه إذا كان حَقُّه في الجملة التأخير.
- (٣) تقديم المسند إذا كان حَقُّه في الجملة التأخير.

● أما تقديم المعمول على عامله فجمهور البلاغيين على أنه يفيد القصر، سواءً أكان مفعولاً، أم ظرفاً، أم مجروراً بحرف جرّ، والمقصود عليه هو المقدم.

أمثلة:

المثال الأول:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الفاتحة/ ١ مصحف/ ٥ نزول):

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

إِيَّاكَ: الأولى مفعول به لفعل ﴿نَعْبُدُ﴾.

وَإِيَّاكَ: الثانية مفعول به لفعل ﴿نَسْتَعِينُ﴾، والأصل في المفعول به أن يكون متأخراً عن عامله.

قالوا: دلّ هذا التقديم على تخصيص الله عزّ وجلّ بالعبادة والاستعانة، فالمعنى: لا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاكَ، ولا نَسْتَعِينُ إِلَّا بِكَ.

والقصر هنا من قصر الصفة على الموصوف، وهو قصر حقيقي.

المثال الثاني:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) خطاباً للذين

آمنوا:

﴿وَلَيْنِ مُتُّم أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ (١٤٨).

إلى الله: معمول لفعل ﴿تُحْشَرُونَ﴾ لأنه متعلق به، والأصل فيه أن يكون متأخراً عن عامله.

قيل: معناه لَأِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ لا إلى غيره، أي: ليحاسبكم ويجازيكم، ومعلوم أن الحشر يوم القيامة يكون لله وحده، فهو وحده الذي يحاسب عباده ويجازيهم يوم الدين.

مع ما في هذا التقديم من داع جمالي روعي فيه تناسق رؤوس الآيات.
ولا مانع من اجتماع عدّة دواعي بلاغية لظاهرة واحدة.

المثال الثالث:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا...﴾ [آية ١٤٣].

يلاحظ في هذا النصّ أنّ الصلّة في العبارة الأولى: ﴿شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ أُخْرَتْ عن عاملها، لأنّ المراد مجرد إثبات شهادة المسلمين على الناس دون تخصيصهم بهذه الشهادة، إذ قد يشهد عليهم عيسى عليه السلام الذي بشرهم بخاتم المرسلين، وسيشهد عليهم عند نزوله.

أمّا في العبارة الثانية: ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ فقد قُدِّمَت الصلّة ﴿عليكم﴾ على عاملها ﴿شهِيداً﴾ لأنّ المراد تخصيص الرسول بشهادته عليهم، إذ هو المبلغ عن الله دين الله لمن بلغهم بعد بعثته، ولا أحد غيره بلغ هذا الدين عن الله.

المثال الرابع :

قول المتنبي يمدح بدر بن عمار :

بِرَجَاءِ جُودِكَ يُطْرَدُ الْفَقْرُ وَيَأْنُ تَعَادَى يَنْفَدُ الْعُمُرُ

قدّم الصلة (برجاء جودك) على عاملها (يُطْرَدُ) والصلة (بأن تُعَادَى) على عاملها (يَنْفَدُ) لأنه أراد على سبيل المبالغة والادعاء أن يُخَصَّ بِرَجَاءِ جُودِهِ طَرَدَ الْفَقْرَ، دون رجاء جود غيره، وأن يُخَصَّ بِمُعَادَاتِهِ نَفَادَ عَمْرٍ مِنْ يِعَادِيهِ مِنَ النَّاسِ، دون معاداة غيره من الناس .

فالقصر هنا ادعائي مجازي، وإضافي غير حقيقي .

المقصور (وهو صفة)	المقصور عليه (وهو موصوف)	المقصور عنه
طرد الفقر	رجاء جوده	رجاء جود غيره من الناس
نفاد العمر	معاداته	معاداة غيره من الناس

المثال الخامس : قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول)

في معرض الحديث عن كفّار اليهود :

﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ . . . ﴾ [الآية ٨٥] .

في هذا النصّ قدّم الظرف ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ على عامله ﴿ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ﴾ لإفادّة قصر الرّدّ إلى أشدّ العذاب على كونه يقع يوم القيام، وهو قصر حقيقي .

● وأمّا تقديم المسند إليه إذا كان حقه في الجملة التأخير، فقد يفيد القصر في بعض أحواله، وقد يفيد مجرد التقوية والتأكيد، ودلالة القصر يساعد عليها سباق الكلام وسياقه، وقرائن الحال، والمقصور عليه هو المقدم .

فمن إفادة تقديم المسند إليه القصر — على ما أبان الشيخ عبد القاهر الجرجاني الإمام في البلاغيات — ما يلي :

الأول: أن يكون المسند إليه معرفةً والمسندُ فعلاً مثبتاً، كأن تقول: «أنا قمت - أنا سعت في حاجتك».

فإذا كان القصر قصر «إفراد» جاء التأكيد بنحو: «أنا قمتُ وحدي - أنا سعتُ في حاجتِكَ وحدي».

وإذا كان قصر «قلب» جاء التأكيد بنحو: «أنا قُمتُ دون غيري - أنا سعتُ في حاجتِكَ لا غيري» وكذلك إذا كان القصر قَصْرَ تعين.

ومنه ما جاء في قول الله عزّ وجلّ في سورة (النمل / ٢٧ / مصحف / ٤٨ نزول) في عرض قصة هديّة ملكة سبأ لسليمان عليه السّلام، قالت:

﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَيْنِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

جاء في هذا النصّ تقديم المسند إليه: ﴿أنتم﴾ على المُسند: ﴿تفرحون﴾ مع تقديم المعمول ﴿بهديتكم﴾ على عامله ﴿تفرحون﴾.

والشاهد هنا تقديم المسند إليه المفيد مع القرائن التي اشتمل عليها النصّ القصر الإضافي، والمعنى أنّ الفرح بالهدية مقصورٌ عليكم، لا يتعدى إليّ، فأنا لست بها فرحاً، فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ.

ومنه ما جاء في قول الله عزّ وجلّ في سورة (التوبة / ٩ / مصحف / ١١٣ نزول) لرسوله بشأن المنافقين:

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكَ مِنْ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ...﴾ [آية ١٠١].

قدّم في هذا النصّ المسند إليه ﴿نحن﴾ على المُسندِ ﴿نعلمهم﴾ لإفادة قصر العِلْمِ بِهِمْ على الله، وظاهر أنّ القصر هنا هو من قبيل القصر الإضافي، إذ قد

تَعَلَّمُهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَيْضًا، ولكن جاء القصر في مقابلة نفي العلم بهم عن الرسول، ولعل ذلك قد كان قبل أن يُعَلِّمَهُ اللهُ بهم، أو أن بعض المنافقين لم يُعَلِّمِ اللهُ رسوله بهم.

الثاني: أن يكون المُسَنَّدُ مُنْفِيًّا، كأن تقول لمن تخاطبه: «أَنْتَ لَا تَكْذِبُ» فهذه العبارة أبلغ من أن تقول له: «لا تكذب أنت» وهذا التقديم قد يفيد القصر بمساعدة القرائن.

ومنه قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ كَتَبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالَ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَوَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَوَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

ففي قوله ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ يُلَاحِظُ قَصْرُ عَدَمِ الْعِلْمِ عَلَى الْمُخَاطَبِينَ فِي النَّصِّ، وساعد على هذه الدلالة قوله تعالى قبله ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾.

الثالث: أن يكون المسند إليه نكرة مثبتاً، كأن تقول: «رجلٌ جاءني».

فقد يفيد تقديم المسند إليه في هذه الحالة القصر بمساعدة القرائن من الحال أو من المقال.

فإذا كنت في معرض تساؤل متساؤل هل الذي جاءك من الرجال أو من النساء؟ كان قولك: «رجلٌ جاءني» مفيداً أنه ليس امرأة.

وإذا كنت في معرض تساؤل متساءل هل جاءك رجلٌ واحد أو أكثر؟ كان قولك: «رجلٌ جاءني» مفيداً أنه رجل واحد لا أكثر.

الرابع: أن يأتي قبل المسند إليه حَرْفُ نَفْيٍ، كأن تقول: «ما أنا قلتُ هذا القول» أي: أنا لم أقله مع أن غيري قاله فتدلُّ بعبارتك على قَصْرِ النفي على نَفْسِكَ، مع إثبات القول لغيرك.

أقول: وفي كل ذلك لا بُدَّ من مساعدة القرائن، إذ ليس القول نصّاً في الدلالة.

● وأما تقديم المسند إذا كان حقّه في الجملة التأخير، فقد يفيد القصر بمساعدة قرائن الحال أو المقال، والمقصود عليه هو المقدم. ويمكن أن أمثل له بقولي صانعاً مثلاً، خطاباً للكفار:

لَنْ تَهْزِمُوا إِيْمَانَنَا بِسِلَاحِكُمْ جُبْنَاءُ أَنْتُمْ أَيُّهَا الْكُفَّارُ

فجاء في هذا الكلام تقديم «جُبْنَاء» وهو مسندٌ حقّه في الجملة الاسميّة التأخير، وتأخير «أنتم» وهو مسند إليه وحقّه هنا التقديم لإفادة القصر بمساعدة قرينة المقال السابق، وقرينه حال الاستبسال، والمعنى أنتم وحدكم الجبناء بكفركم، أما نحن فشجعان بإيماننا وتوكلنا على ربّنا.

* * *

ثانياً — إضافة ضمير الفصل إلى الجملة:

ضمير الفصل: هو ضمير منفصل مرفوعٌ يُؤْتَى به فاصلاً بين المبتدأ والخبر، أو ما أصله مبتدأ وخبر، ويفيدُ تقوية الإسناد وتوكيده، وقد يفيد القصر بمساعدة قرائن الحال أو المقال، والمقصود عليه هو ما دل عليه ضمير الفصل.

والأصل أنّه لا محلّ له من الإعراب، وقد يُؤْتَى به على أنّه مبتدأ وما بعده خبرٌ له، وتكون الجملة منه ومن خبره هي الخبر لما قبلهما.

أمثلة:

المثال الأول:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) بشأن المنافقين:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ

الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ
 أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾ .

لقد جيء بضمير الفصل مرتين في هذا النص: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ -
 أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾ .

ونلاحظ أنه مع تقوية الإسناد وتوكيده في الجملتين فقد أفاد ضمير الفصل
 بمساعدة القرائن القصرة، والمعنى: هُمُ المفسدون وهُمُ السُّفَهَاءُ، لا المؤمنون
 الذين يَتَّهَمُهُمُ المنافقون بإفسادِ وُحْدَةِ جماعة قومهم بدينهم الجديد، وبالسَّفَاهة في
 عقولهم، أي: بِالطِيشِ ونقصان العقل .

المثال الثاني:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول) في عرض
 سؤال الله عزّ وجلّ عيسى عليه السلام: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِهَيْنِ
 مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وفي أجوبته عليه السلام قال لربه:

﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا
 تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ .

جاء في هذا النص ضمير الفصل في حكاية قول عيسى عليه السلام:
 ﴿كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عليهم وحدك دوني، إذ
 تَوَفَّيْتَنِي أَجَلِي بينهم، ورفعتني بعيداً عنهم، فليس لي رقابة عليهم .

المثال الثالث:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول):

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَمِنْهَا مَسْكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا
 قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ .

أي: وكنا نحنُ لا غَيْرُنَا الوَارِثِينَ، فقد أفاد ضمير الفصل هنا القصر بقرينة سوابق الجملة.

ومنه ﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ - وَأَوْلَتِكَ هُمُ الْمَفْلُحُونَ - إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ - إِنَّ شَانِكَ هُوَ الْأَبْتَرُ - وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾.
والأمثلة على هذا كثيرة.

* * *

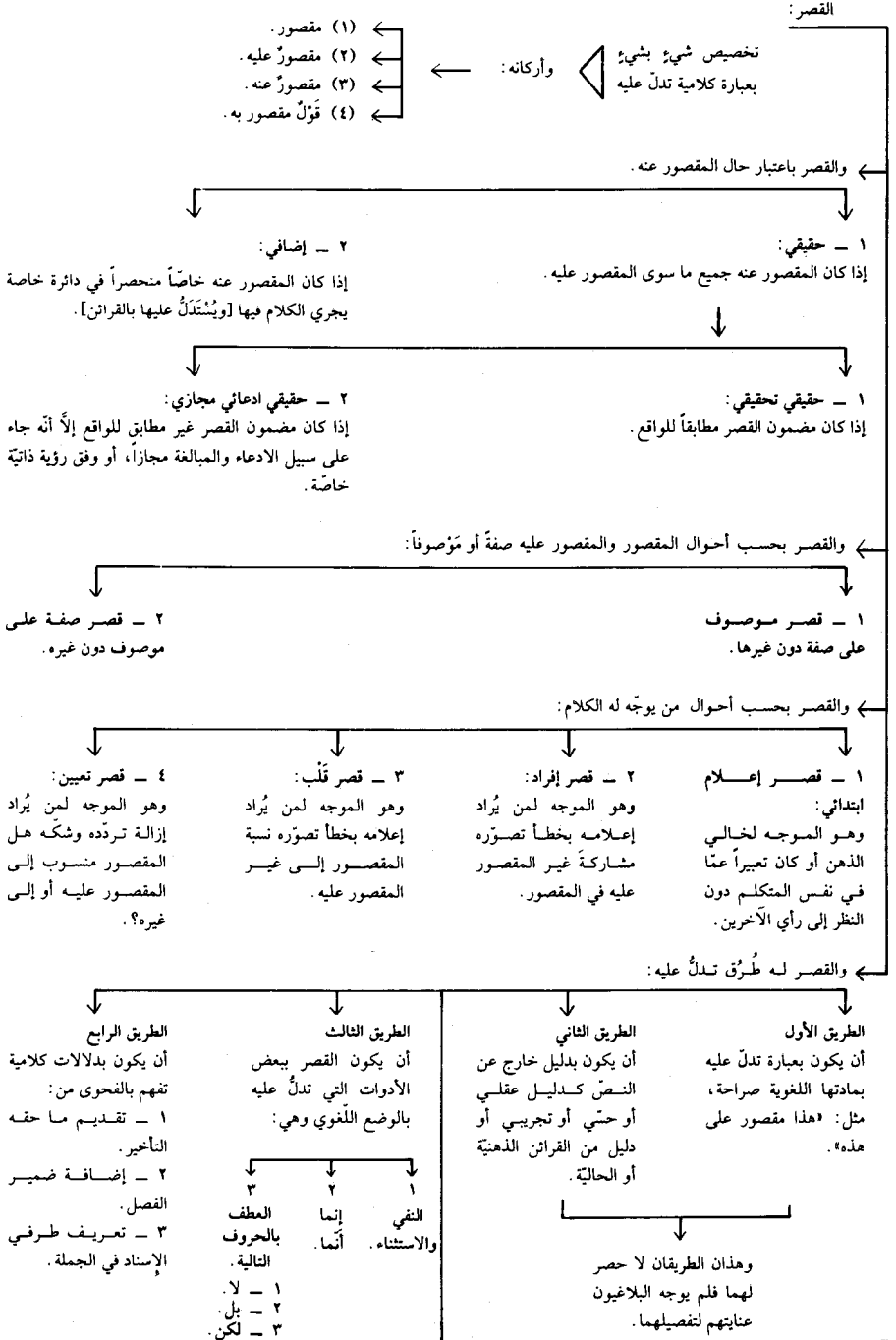
ثالثاً: تعريف طَرْفِي الإسناد، المسند والمسند إليه، ويكون هذا في الجُمَلِ الاسميّة، أمّا الجُمَلُ الفعلية فالفعل فيها بقوة النكرة، فلا يكون فيها المسند معرّفاً، وليس بعيداً أن نجد جملة فعلية هي بقوة جملة اسمية معرفة الطرفين، لكن لم يتّبع البلاغيون هذا بالبحث، كأن يَدُلَّ دليل العقل على أنّ الفعل لا يَصْدُرُ إلّا من الفاعل.

فقد يُفِيد تعريف طرفي الإسناد القصر بمساعدة قرائن الحال أو المقال مع إفادته تقوية الإسناد وتوكيده، والمقصور هو المبتدأ الذي يجب في هذه الحالة تقديمه، والمقصور عليه الخبر الذي يجب في هذه الحالة تأخيره.

ونمثل لما قد يُفِيد القصر من تعريف طرفي الإسناد: بأن يجري حديث حول مشغَلَيْنِ بنظم الشعر، أيُّهُمَا الناظم وأيُّهُمَا الشاعر: «العمريطي» أو «أحمد شوقي» فيقول الخبير الناقد: «الشاعرُ أحمد شوقي» أي: أمّا «العمريطي» فناظم لا شاعر.

● ● ●

شجرة تقسيمات القصر



البَابُ الرَّابِعُ

نظام التلاؤم في الكلام والفصل والوصل

وفيه ثلاثة فصول:

- الفصل الأول : نظام التلاؤم في الكلام.
الفصل الثاني : الفصل والوصل بين عناصر الجملة
الواحدة. والجمل التي لها محل من
الإعراب.
الفصل الثالث : الفصل والوصل بين الجُمَل التي لا
محل لها من الإعراب.

الفصل الأول

نظام التلاؤم في الكلام

(١)

بيان التلاؤم

نظم الكلام عملٌ فكريٌّ يُشبه في الحسيّات نظمَ العقود من اللآلئ أو غيرها من الجواهر، ويُشبه رصفَ حجارةِ الألماس والياقوت والمرجان والزمرد وغيرها من الحجارة الكريمة على ما يُصاغ من حليّات للرؤوس والصُدُورِ والأيدي وغيرها.

إنّ دخيلاً نايباً أو نظماً غير متلائم الألوان والطيوف والحجوم في عقود اللآلئ، أو رصفاً محروماً من التناسق الجماليّ في الحليّات يُفسدها، ويُقلّل من قيمتها.

وربّ عقديّين أو حليّتين جواهرُ كلّ منهما متساويتان في القيمة وهما غيرُ منظومتين أو غير مصوغتين.

فيَنظم العِقدَ أو يصوغ الحليّة ماهر خبير مُتقنٌ بتلاؤمٍ جميلٍ بديع، يُراعي فيه حُسنَ التجاور، وخطوط التلاؤم وطُيوفه وظلاله، ويُراعي فيه تناسبَ الألوان، وجمالَ تلاقيها وتدرّجها وتكاملها، فإذا هو يُعادلُ أضعافَ قيمة جواهره وهي غير منظومه أو غير مصوغة.

ويعمل نظير ذلك من لا خبرة له، ولا مهارة عنده، فلا تزيد قيمة ما نظم

أو صاغَ على قيمة جواهره منثورة، وربما تَنقُصُ قيمَتُها في نظر ذِوَاقِي الجمال.

كُنْتُ أَجْلِسُ أحياناً إلى من كان يُسَمَّى «مَلِكَ اللُّؤلُؤِ» الشيخ «محمد علي زينل علي رضا» - تَعَمَّدَهُ اللهُ بِرحمته وضاعف حسناته - في دارة عمله التجاري في مدينة «بومبي» إحدى كُبْرَى مُدُنِ الهند، إذ أقمت عنده أربعة أشهر وعشراً^(١) سنة (١٣٧٢ هجرية) فأشاهدُهُ يجمع أكوام حَبَاتِ اللُّؤلُؤِ، ويختار منها بإتقان وإحكامٍ وتلاؤم، وينظم نيفسات عقود اللُّؤلُؤِ.

وأخبرني يومئذٍ وأنا أتابع اختياراته ونَظْمَهُ لعقوده: أنَّ العقد الذي يَنْظُمُهُ هو يَباعُ بقيمة عِقْدَيْنِ أو ثلاثة عُقُودٍ، من العقود التي ينظمها من لا خبرة له، وليس لديه حِسٌّ مرهف يُدْرِكُ به التلاؤم بين الحبات التي ينظمها، سواء تجاوزت أو تباعدت، مع أنَّ وزن حبات عِقْدِهِ يساوي وزن حبات العقد الآخر، وقيمتها منثورةٌ تساوي قيمة الأخرى منثورة، والفرقُ بَيْنَهُمَا إِتقانُ الانتقاء، ودَقَّةُ التلاؤم والتناسُقِ الجمالي فيما أنظُم، وأنْعِدَامُ ذلك فيما ينظم الآخرون.

أقول: ولَدَى التحليل نلاحظ أنَّ التلاؤم في حَبَاتِ العقود، وجواهر الحِلْيَاتِ يكون في الألوان، والطُيُوفِ، وبريقِ الأشعة، والحجوم، والتدرج، وحُسنِ التآخي والمزاوجة، ونِسْبِ الأبعاد، وبدائع التشكيلات ضمن أشكالٍ هندسيّة، أو أشكالٍ مُتَنابِرة العنصر ذاتِ جمالٍ يأسِرُ المشاعر، ونحو ذلك.

وأقول أيضاً: كذلك الكلمات والجمال حين تُجْمَعُ في نظامٍ كلاميٍّ من الشر، أو من الشعر.

والتلاؤم الجماليُّ في الكلام تتدخل فيه عوامل مختلفة فكريّة ولفظية.

● أمّا العوامل اللفظية فقد سبق بيانها في بحث الفصاحة، وأنَّ شروط الكلمة

(١) لتعليم كريماته علوم الدين واللغة العربية.

الفصيحة أن تكون خالية من أربعة عيوب، وهي: «التنافر - الغرابة - مخالفة القياس - كراهة السَّمع لها».

وأن شروط الكلام الفصيح أن يكون خالياً من أربعة عيوب أيضاً، وهي: «تنافر الكلمات عند اجتماعها - ضعف التأليف - التعقيد اللفظي - التعقيد المعنوي».

● وأما العوامل الفكرية فمن المتعذر إحصاؤها، إذ الأفكار ومعاني الألفاظ لا حصر لها، وضُمُّ فكرةٍ إلى فكرةٍ أخرى، ولفظ ذي معنى إلى لفظ آخر ذي معنى موافق أو مخالف، يتطلب إدراكاً عالياً جداً، قادراً على تمييز درجات حُسن التلاؤم، ودركات قبح عدم التلاؤم الذي يُؤلِّد في النفوس الصَّدَّ أو النفرة أو الاستقباح، أو الحكم على الكلام بالركاكة، وسوء التركيب، وخروجه عن أُطر الجمال الفني.

وقد تعرّض أئمة علوم البلاغة وشيوخ الأدب للإشارة إلى هذا الموضوع ضمن بحوث الفصل والوصل، أو ضمن بحوثٍ أخرى، دون أن يُقرِّزوه بعنوان خاص، مع كونه جديراً بأن يُقرِّز ببحثٍ مستقلٍّ، وكانت لهم حوله عبارات، ونظرات عامات لم تُحدِّد فيها أقسامٌ ولا عناصر متفصلة، بسبب أنّ التلاؤم وعدم التلاؤم بين المعاني قضيةٌ جمالية فكرية، والبحث فيها مائجٌ رجراجٌ لا حصر لصوره، والبحث فيه كالبحث في صورِ أمواج البحر، وكالبحث في صورِ حركات السُّحب وتشيكالاتها المتنوعات الناتجات عن تقاربها وتباعدها، واجتماعها وافتراقها، مع اختلاف ألوانها وكثافتها في الأبعاد الثلاثة: «الطول والعرض والعُمق».

* * *

(٢)

من أقوال شيوخ البلاغة والأدب حول التلاؤم في الكلام

(١) لقد وصف شيوخ البلاغة والأدب الكلمة الموضوعية في المكان الملائم لها من الجملة بأنها «مُتَمَكِّنَةٌ».

أي: هي ثابتة في المكان الذي وُضِعَتْ فيه، فهي ذات جذور وروابط فكرية تربطها بما جاورها من عناصر الجملة.

(٢) ووصفوا الكلمة الموضوعية في المكان غير الملائم لها من الجملة بأنها «قَلِقَةٌ» و «نَابِيَةٌ» و «غَيْرُ مُتَمَكِّنَةٌ».

(٣) وقالوا عن الشعر الذي لا تأخي بين كلماته، ولا تواصل بين مُفْرَداته: «لَا قِرَانَ لَهُ».

أي: ليس له جامع فَنِّي راقٍ يجمع بين كلماته وَيَشُدُّ بعضها إلى بعض، كما يَجْمَعُ أَسْرُ^(١) الكائن الحي بين أعضاء جسده ومختلف أجزائه، وهو جملة العصبية.

القران: هو الجمع بين شيئين وشد كل منهما إلى الآخر بِحَبْلِ رابط، كأسيرين يُقْرَنانِ بحبل مُشْدُودٍ عليهما.

ويطلق القرآن أيضاً على الحبل الجامع بينهما.

فهو مصدر للشدّ بالحبل، واسم للحبل الذي يُشَدُّ به.

(١) الأَسْرُ: العصب في الكائن الحي الذي يشدّ بعضه إلى بعض، وبه يشتدّ خَلْقُهُ، قال تعالى في سورة (الإنسان/٧٦) يَمَنْ عَلَى النَّاسِ: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ...﴾ [الآية ٢٨]. وأصل الأَسْرِ: القِدُّ من الجلد يُشَدُّ به الأَسِيرُ، وكلُّ رِبَاطٍ.

ومن أقوالهم في ذم الشعر الذي لا قرآن له، ما أنشده ابن الأعرابي .

وَبَاتٍ يُنْشِدُ شِعْرًا لَا قِرَانَ لَهُ قَدْ كَانَ ثَقْفَهُ حَوْلًا فَمَاذَا

لَا قِرَانَ لَهُ : أي : لا روابط بين مفرداته وجُملته .

قد كان ثَقْفَهُ : أي : قد كان قومه وعدله، وعمل على إزالة الزوائد النابية منه .

فَمَاذَا : أي : فما استطاع أن يذود عنه ويُبْعِدَ العوج، ويُخَلِّصَهُ من الزوائد النابية، لضعف ملكته الشعرية .

(٤) ووصفوا الشعر الرّاقِي بالتماسكِ والإحكام، والتلاؤم، والسلاسة والتحدّر، نظراً إلى ما يشتمل عليه من حُسنِ بناء، وسبكِ، وصياغة، ولينٍ وسهولة في النطق، وعُدُوْبِيَّة في مجاري السَّمْع، وذلك بسبب ما في معاني كلماته وجمله من ترابط وتعاونٍ وتلاحُمٍ موافق لما في فِطْرِ أنظمة الفكر وحركات مشاعر النفوس من تشعُّباتٍ شَجْرِيَّةٍ بديعةِ التواصل والتلاقي، من بزورها وجذورها حتى أقاصي فروعها، ما يتلاقى منها وما يتباعدُ. وبسبب ما في الألفاظ من سهولة وتلاؤم في النطق وعُدُوْبِيَّة طَرَقَاتٍ موسيقاها على السَّمْع، مع التلاؤم بين مخارج حروف الكلمات المُتتَقِيَات، والمعاني التي يُراد أداؤها بها .

(٥) وذكر الجاحظ قول «خلف الأحمر» :

وَبَعْضُ قَرِيضِ الْقَوْمِ أُنْبَاءٌ عَلَّةٌ يَكْدُ لِسَانَ النَّاطِقِ الْمُتَحَفِّظِ

أُنْبَاءٌ عَلَّةٌ : أي : أُنْبَاءٌ ضَرَّةٌ، العَلَّةُ الضَّرَّةُ، يقال : هم أُنْبَاءٌ عَلَاتٌ أي : أُنْبَاءٌ ضرائر، أبوهم واحد وأمّهاتهم شتى . ومعلوم أن أُنْبَاءَ العَلَاتِ يحدث بينهم جفوات وتنافر في أكثر الأحيان .

يَكْدُ لِسَانَ النَّاطِقِ : أي : يُجْهِدُ لِسَانَ الرَّجُلِ النَّاطِقِ الذي يُطاوَعه لسانه في النطق .

المتحفظ: هو المحترز الذي يحاول الضبط وعدم الانزلاق إلى ما لا يُحسِن، أو الذي بذلَ جَهْدًا حَتَّى حَفِظَ النَّصَّ وَأَتَقَنَهُ أَجْزَاءً، ومع ذلك فهو يَكِيدُ لِسَانَهُ: أَي يُتَعَبُهُ وَيُجْهِدُهُ.

قال الجاحظ في كتابه: «البيان والتبيين»:

(أما قول خَلَفٍ: «وَبَعْضُ قَرِيضِ الْقَوْمِ أَبْنَاءُ عَلَّةٍ» فإنه يقول: إذا كان الشَّعْرُ مُسْتَكْرَهًا، وكانت ألفاظ البيت من الشعر لا يَقَعُ بَعْضُهَا مُمَازِلًا لِبَعْضٍ كان بينهما من التنافر ما بين أبناء العَلَّاتِ، وإذا كانت الكلمة ليس موقعها إلى جنب أختها مُرْضِيًا مُوَافِقًا، كان على اللسان عند إنشاد ذلك الشعر مؤونة).

وقال أيضاً: وأنشدني أبو البيداء الرِّياحي:

وَشِعْرٌ كَبَعْرِ الْكَبْشِ فَرَقَ بَيْنَهُ لِسَانَ دَعِيٍّ فِي الْقَرِيضِ دَخِيلٌ^(١)

وعلق الجاحظ بقوله:

«وأما قوله: «كَبَعْرِ الْكَبْشِ» فإنَّما ذهب إلى أن بَعَرَ الْكَبْشِ يَقَعُ مُتَفَرِّقًا، غَيْرَ مُؤْتَلَفٍ، ولا متجاور، وكذلك حروف الكلام، وأجزاء البيت من الشعر، تراها متفقة ملساء، وليئة المعاطف سهلة، وتراها مختلفة متباينة، ومتنافرة مستكرهة، تَشُقُّ عَلَى اللِّسَانِ وَتَكِيدُهُ، والأخرى تراها سهلة لينة، ورطبة مواتية، سلسلة النظام، خفيفة على اللسان، حَتَّى كَأَنَّ الْبَيْتَ بِأَسْرِهِ كَلِمَةً وَاحِدَةً، وَحَتَّى كَأَنَّ الْكَلِمَةَ بِأَسْرِهَا حَرْفٌ وَاحِدٌ».

(٦) وقال عبد القاهر الجرجاني في كتابه: «دلائل الإعجاز»:

«وهل نجد أحداً يقول: هذه اللَّفْظَةُ فَصِيحَةٌ إِلَّا وَهُوَ يَعْتَبِرُ مَكَانَهَا مِنَ النِّظْمِ، وَمِنْ مَلَاءَمَةٍ مَعْنَاهَا لِمَعَانِي جَارَاتِهَا، وَفَضَلَ مَوَاسَّاتِهَا لِأَخْوَاتِهَا؟!»

(١) الدَّعِيّ: المنسوب إلى غير أبيه، والدعِيّ في القريض: يريد به المتسبب إلى قرَضِ الشعر وفتنة قارضي الشعر كذباً وزوراً.

وهل قالوا: لفظة متمكنة ومقبولة، وفي خلافه: قَلِقَةٌ ونابيةٌ مستكرهة، إلا
وغرضهم أن يُعَبِّروا بالتمكّن عن حُسنِ الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناها.
وبالقلقِ والثبوتِ عن سوء التلاؤم، وأنّ الأولى لم تَلْتَقِ بالثانية في معناها، وأنّ
السَّابِقَةَ لم تَصْلُحْ أن تكون لِفَقاً للتالية في مؤداها؟! .

لِفَقاً: يقصد أن تكون الكلمة ملائمةً ومُلتَحِمةً مع جارتها كَتِلاؤْمِ الشَّقِ
المخيط بالشَّقِ الآخر من الحُلَّةِ.

يقال لغة: حُلَّةٌ ذاتُ لِفَقَيْنِ، أي: ذاتُ شِقَيْنِ مُنْضَمِّينِ معاً بالخياطة، ولا
يُقال للشَّقِ «لِفَقٌ» إذا فُتِقَتِ الخياطة الضامَّةُ لهما.

(٧) وذكر السَّكَاكِيّ مثلاً للكلام الذي ليس بين مفرداته ترابط فكري،
فالجمع بينها في حكم واحد غير مقبول في الذوق الأدبيّ، وإن كان مطابقاً
للواقع، أن يقول القائل: «الشمس، ومرارة الأرنب، وألف باذنجانة، مُحدّثة» .

أقول: والسبب في عدم قبول مثل هذا الجمع أنّ الذهن إمّا أن يقرن بين
الأشباه والنظائر، أو يبيّن المتجاورات في الواقع، أو بين الأضداد، لأنّ استدعاء
الذهن للأضداد، أسرع من استدعائه للنظائر، وينفر من جمع مفردات متباعدات
لا يجمعها تشابه أو تجاور، أو تضادّ، لأنّ شريط السلاسل الفكرية ذو نظامٍ فطريّ
مُحكّمٍ الترابط، أمّا الالتقاط العشوائي دون ملاحظة أنظمة الترابط الفكرية الفطرية
فهو لا ينسجم معها، والنفس الإنسانية تنفر منه بسبب ذلك .

(٨) وجاء في مُدَوّناتِ الأدب أنّه: اجتمع «نصيبُ بن رباح» وهو من فحول
شعراء القرن الأول الهجري، و «الكُمَيْت» وهو أيضاً من فحول الشعراء في عصره،
و «ذو الرّمة» وهو من فحول شعراء الطبقة الثانية في عصره، فأنشَدَ الكُمَيْتُ صاحبيه
قصيدتهُ التي في مطلعِها: «هل أنتَ عن طلبِ الأيفاعِ مُنْقَلِبٌ» حتّى إذا بلغ إلى
قوله:

أَمْ هَلْ ظَعَائِنُ بِالْعُلْيَاءِ نَافِعَةٌ وَإِنْ تَكَامَلَ فِيهَا الْأُنْسُ وَالشَّنْبُ
عَقَدَ «نَصِيبٌ» واحدة.

فقال الكَمَيْتُ: ماذا تُحصي؟

قال نَصِيبٌ: خطأك، بَاعَدْتَ في القول، مَا الْأُنْسُ من الشنب (أي: ما الرابط
الفكري بين الأنس والشنْب) أَلَا قُلْتَ كما قال ذو الرِّمَّة:

لَمِيَاءُ فِي شَفْتَيْهَا حُوَّةٌ لَعَسَ وَفِي اللَّثَاتِ وَفِي أَنْيَابِهَا شَنْبُ
فانكسر الكَمَيْتُ، (أي: طأطأ رأسه معترفاً بأنه لم يُحسِّنِ الجمع بين الأنسِ
والشنْب).

الشَّنْبُ: جمال الثَّغْرِ، وصفاء الأسنان ورقتها.

لَمِيَاءُ: أي: ذاتُ شفاه حُمُرُتْها ضاربة إلى سواد، وهذا نوع من الجمال
يستحسنه العرب.

حُوَّةٌ: الحوة لونٌ مُسْتَحْسَنٌ في الشفاه، وهو حمرةٌ إلى سواد.

لَعَسَ: اللعسُ سواد في باطن الشفة.

أقول لقد كان يكفي ذا الرِّمَّة أن يقول: «لمياء» دون أن يؤكد ذلك بقوله:
«في شفتيها حُوَّةٌ لَعَسٌ» إلا أنه فيما يبدو قد حَلَ لَهُ أن يتلذذ بتتويع العبارة حول هذا
الجمال، الذي هو شَعُوفٌ به في شِفَاهِ لَمِيَائِهِ.



الفصل الثاني

الفصل والوصل بين عناصر الجملة الواحدة

والجمل التي لها محل من الإعراب

(١)

مقدمة عامّة

يُراد بالوصل الربط بين أجزاء الكلام بحرف عطف، ويراد بالفصل عدم الربط بين أجزاء الكلام بحرف عطف.

وأجزاء الكلام قسمان:

القسم الأول: «المفرد» ويراد به هنا ما يُقَابِل الجملة، وهو الذي لا تتحقّق به وحدّه الفائدة من عناصر الجملة.

القسم الثاني: «الجملة» وهي القول المفيد معنى تامّاً مُكْتَفِياً بنفسه.

* * *

(٢)

عناصر الجملة

سبق في فصل «بناء الجملة في اللسان العربي وتقسيمها» أنّ الجملة تتألف

من العناصر التالية:

(١) المسند إليه.

(٢) المسند.

(٣) الإسناد الذي لا يُصَرِّحُ به في اللفظ .

(٤) ما يتعلّق بواحد ممّا سبق من توابع وأدواتٍ إن وُجِدَتْ .

والعنصر من عناصر الجملة :

● إمّا أن يكون عنصراً بسيطاً غير مُركَّب .

● وإمّا أن يكون عنصراً مُركَّباً (وما تركَّب منه هذا العنصر من أجزاء قد صار

بالتركيب جزءاً واحداً فلا تُوصَلُ بحرف عطف).

وينقسم العنصر المركب إلى سبعة أقسام :

القسم الأول : «المركَّب الإضافي» مثل : «كتابُ اللهِ - صلاةُ الجمعةِ - رأسُ

الحكمةِ - بابُ العِلْمِ» .

ومعلوم أنه لا عطف بين المضاف والمضاف إليه ، لأنهما صاراً بالتركيب

الإضافي بمثابة الكلمة الواحدة ، ذات الأجزاء الملتحمة ، والإضافةُ على تقدير

حرف جرٍّ بين المضافِ والمضاف إليه .

القسم الثاني : «المركَّب الوصفي» مثل : «الرَّجُلُ العَالِمُ زَارَنِي - أكلتُ طعاماً

طيباً - وسقاهم ربُّهُم شَراباً طَهُوراً» .

ومعلوم أنه لا عطف في الأصل بين النَّعْتِ والمنعوتِ به ، لأنَّ الصفة جزءٌ من

الموصوف فهما متشابهان ، فلا معنى لعطف الصفة على الموصوف بها ، إذ العطفُ

في أصل معناه يقتضي التغيُّر ، ويكفي للدلالة على كونها صفة إتباعها للموصوف

بها في الإعراب ضمن الشروط المبيّنة عند النحويين .

القسم الثالث : «المركَّب التوكيدي» مثل : «حضر الضيوفُ كلُّهم - فسَجَدَ

المَلَائِكَةُ كُلُّهُمُ أَجْمَعُونَ» .

ومعلوم أنه لا عطف بين المؤكِّد والمؤكِّد به ، لأنَّ المؤكِّد به محقِّقٌ للمراد

من المؤكّد، فهما بمثابة شيءٍ واحدٍ، فلا معنى للعطف بينهما، والتوكيد تابع من التوابع .

القسم الرابع: «المركبُ البَدَلِيّ» سواء أكان بدلاً مطابقاً، أو بدلاً بعضٍ من كلّ، أو بدلاً اشتمال، أو بدلاً مُبَيّنًا، مثل:

«اهدنا الصراطَ المستقيمَ صراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ (في البديل المطابق) –
فَمِ اللَّيْلِ إِلَّا قَلِيلًا نِصْفُهُ أَوْ انْقُصَ مِنْهُ قَلِيلًا أَوْ زِدْ عَلَيْهِ (في بدل البعض من الكل) –
أفادني الشيخ علمه (في بدل الاشتمال) ناولني كتابَ النحو كتابَ اللُّغَةِ (في البديل المباين) وهكذا...» .

ومعلوم أنه لا عطف بين البديل والمبدل منه إذ المراد أن يحلَّ البديل مكان المُبدَل منه، والعطف يقتضي اجتماعهما .

القسم الخامس: «المركبُ البيانيّ» وهو ما يكون الجزء الثاني منه معطوفاً على الأوّل عطف بيان، مثل: «أقسم بالله أبو حفصٍ عمراً» .

ومعلوم أنه لا تتوسط أداة عطف بين البيان والمبيّن، إذ هُما: إما بمثابة المركب الوصفيّ، أو بمثابة المركب البَدَلِيّ .

القسم السادس: «المركب المزجيّ» مثل: «بعلبك – حضرموت – معديكرب» ونحو ذلك .

ومعلوم أنّ المركب المزجي هو في الحقيقة كلمةً واحدةً يُلاحَظُ في لفظها أصلها قبل أن تمتزج عناصرها في كلمة واحدة .

القسم السابع: «الأسماءُ المركبة من أكثر من كلمة» مثل: «عبد الله – شاب قرناها – ذونّواس – ذو الخويصرة» ونحو ذلك .

ومعلوم أنّ الأعلام المركبة من كلمتين فأكثر صارت بالنقل إلى العلمية كلمةً واحدةً جديدةً، تُقال كما كانت قبل النقل إلى العلميّة، وكذلك الألفاظ المتعدّدة

التي تُطْلَقُ بهيئتها التركيبية على أشياء إطلاق النكرات على أجناسها وأنواعها .
القسم الثامن: «المركب العددي» مثل: «أحد عشر - ثلاثة عشر». والمركب
العددي هو بمثابة كلمة واحدة كانت كلمتين، وكان ينبغي عطف الثانية منهما على
الأولى بحرف العطف، إلا أنه استُغْنِيَ عن حرف العطف بينهما باعتبارهما قد
صارتا مُرَكَّبَتَيْنِ تركيبَ كَلِمَةٍ واحدة.

* * *

(٣)

الاحتمالات التي يتعرّض لها «المفرد»

وكذلك «الجملة التي لها محل من الإعراب»

«المفرد» المقابل للجملة (ومثله الجملة التي لها محلّ من الإعراب إذ هي
مؤولة بالمفرد) لا يخلو عن أن يكون واحداً من الاحتمالات التالية:

الاحتمال الأول: أن يكون حرفاً من حروف المعاني أو من الحروف التي تُزاد
للتأكيد، في أي موقع من مواقع الجملة.

ومن الملاحظ أن الحرف يدخل في الجملة كالجاء من العنصر الذي دخل
قبله، كحرف النفي، وحرف الجرّ، وحرف التوكيد، والجزاء من العنصر الذي
التحق به، كنون التوكيد، ونون الوقاية.

فالحرف بطبيعته ملتحم أو شبه ملتحم بالعنصر الذي دخل عليه أو التحق به
من عناصر الجملة، ولهذا كان بطبيعته لا يحتاج وصلاً بحرف عطفٍ بداهةً.

الاحتمال الثاني: أن يأتي العنصر في صدر الكلام، وهذا بطبيعة حاله
لا يلاحظُ وصله بشيء قبله حتى يدخل عليه حرف عطف، إلا أن يُسبَقَ بكلامٍ مُقَدَّرٍ
ذهناً، فقد يكون للمقدّرات الذهنية اعتبارات تُلاحظُ في المنطوق من الكلام،
مثل:

قَالَتْ بَنَاتُ الْعَمِّ يَا سَلْمَى وَإِنْ كَانَ فَقِيرًا مُعْدِمًا قَالَتْ: وَإِنْ

الاحتمال الثالث: أن يكون خبراً لمبتدأ أو لما كان مبتدأ، كاسم «كان» واسم

«إن».

ومعلوم أن الرابط بين المبتدأ والخبر رابط معنوي هو الإسناد الذي يجعل المُسْنَدَ وصفاً من جهة المعنى للمسند إليه في الإيجاب، أو نفي ذلك في السلب، ودليل الإسناد مع المعنى علامة الإعراب.

الاحتمال الرابع: أن يكون فاعلاً، والرابط بين الفعل أو ما يعمل عمله وبين الفاعل رابط معنوي، وهو الإسناد الذي يجعل المسند وصفاً من جهة المعنى للمسند إليه في الإيجاب، أو نفي ذلك في السلب، ودليله مع المعنى علامة الإعراب.

الاحتمال الخامس: أن يكون مفعولاً به (واحدًا أو أكثر إذا تعددت المفاعيل). والرابط بين الفعل أو ما يعمل عمله وبين المفعول به رابط معنوي أيضاً مُسْتَقٌّ من الإسناد، ودليله مع المعنى في الجملة علامة الإعراب، ويُلْحَقُ بالمفعول به المجرور بحرف جرٍّ، لأنَّ تعدية الفعل إلى المفعول به إمَّا أن تكون بغير أداة، أو بأداة حرف الجرِّ سواء أكان لمجرد التعدية أو لإضافة معنى يدلُّ عليه حرف الجرِّ.

الاحتمال السادس: أن يكون مفعولاً فيه (ظرفَ زمانٍ أو ظرفَ مكان) والرابط بين الفعل أو ما يعمل عمله وبين المفعول فيه رابط معنوي أيضاً مُسْتَقٌّ من الإسناد، وهو رابط يدخل في عموم رابط المفعول به، ودليله مع المعنى علامة الإعراب، وهو على تقدير حرف الجرِّ «في» فلَمَّا حُذِفَ نُصِبَ الاسم الذي كان مجروراً به، وألْحَقَ بالمفاعيل.

الاحتمال السابع: أن يكون مفعولاً مطلقاً، وهو في الحقيقة كالجاء من

عامله، فهو لا يحتاج ربطاً بحرف عطف، لأنّ الربط بحرف العطف يقتضي في الأصل التغير، وهذا جزء مكملّ للعامل به، لا مغاير له، وحركته الإعرابية النصب لأنه يدخل في عموم المفاعيل.

الاحتمال الثامن: أن يكون مفعولاً لأجله، وهو في الحقيقة على تقدير حرف علة، ولو كان مصرحاً به في اللفظ لكان جاراً لأنه من حروف الجرّ، فلمّا حذف نُصِبَ الاسم الذي كان مجروراً به وألحق بالمفاعيل.

الاحتمال التاسع: أن يكون مفعولاً معه، مثل: «سِرْتُ والجبل» إنّ مثل هذا التعبير الذي يُفيدُ المعية والمصاحبة أصله: سِرْتُ مع الجبل، أي: مصاحباً لأجزاء الجبل في مسيري، فلمّا وُضِعَتِ الواو التي من معانيها المعية بدل «مع» والواو ليست اسماً حتّى تُعتَبَر مضافةً إلى ما بعدها، نُصِبَ ما بعدها إلحاقاً له بالمفاعيل، ولأنّ واو المعية هذه يُمكنُ أن يُعَبَّر عنها بالحال، فيقال: سِرْتُ مصاحباً للجبل، فألقيت حركة النصب على المفعول معه.

فالواو في المفعول معه ليست في الحقيقة حرف عطف، والكلام لا وصل فيه.

الاحتمال العاشر: أن يكون تمييزاً، ومعلومٌ أنّ التمييز هو والمميّز شيءٌ واحد، فلا يُعطفُ عليه بحرف عطف، لأنه في الحقيقة بيانٌ له، والتمييز:

- إمّا منصوبٌ على تقدير حذف حرف «مِن» الجارة، مثل: «اشتريتُ عشرين كتاباً» إذ المعنى اشتريت عشرين من الكتب، وتعليل النصب هنا كتعليل النصب في المفعول فيه والمفعول لأجله.

- وإمّا مجرورٌ بالإضافة، مثل: «ثلاثة رجالٍ وعَشْر نِسوةٍ» وهذا يدخل في عموم المضاف إليه.

وطبيعيّ أن لا يحتاج التمييز إلى الوصل بحرف العطف.

الاحتمال الحادي عشر: أن يكون منادى، وهو في الحقيقة بمثابة المفعول به، لأن أداة النداء نائبة مناب أدعو أو أنادي.

الاحتمال الثاني عشر: أن يكون مستثنى، وهو في الحقيقة على وجهين:
● إما أن يكون بمثابة المفعول به، لأن أداة الاستثناء «إلا» نائبة مناب «استثنى».

● وإما أن يكون ما بعد أداة الاستثناء معمولاً لما قبلها، ويكون هذا في الاستثناء المفرغ.

وفي كل من الوجهين لا يحتاج المستثنى إلى الوصل بحرف عطف.

الاحتمال الثالث عشر: أن يكون حالاً مفرداً غير جملة، والحال في الحقيقة صفة لصاحبها، وهي مع صاحبها كالصفة مع الموصوف، فهي كالجاء منه، فلا تُعطفُ عليه بحرف عطف.

الاحتمال الرابع عشر: أن يُراد إدخال عُنصرٍ في الجملة شريكاً لأحد العناصر السابقة في الحكم، استغناءً بذلك عن تكرار الجمل.

والوسيلة لذلك في معظم الأحوال الوصل بالعطف بحرف من حروف العطف حسب اقتضاء المعنى.

وينبغي أن تُلاحظ هنا معاني حروف العطف، وشروط العطف بها، على ما فصله النحويون واللغويون.

وإجمال معاني حروف العطف فيما يلي:

(١) «الواو» لمطلق الجمع فلا تقتضي بأصل الوضع ترتيباً ولا تعقيماً.

(٢) «الفاء» للترتيب مع التعقيب حقيقةً أو مجازاً.

(٣) «ثم» للترتيب مع التراخي حقيقةً أو مجازاً.

(٤) «حتّى» لانتهاء الغاية .

(٥) «بل» وتأتي على وجهين .

الوجه الأول: للإضراب والعدول عن شيء إلى آخر بعد كلام مثبت خبراً كان أو أمراً .

الوجه الثاني: للاستدراك بمنزلة «لكن» إذا وقعت بعد نفي أو نهي .

(٦) «لكن» للاستدراك .

(٧) «لا» بعد المثبت، وهي تفيد تأكيد إثبات الحكم لما قبلها، ونفيها عمّا بعدها .

(٨) «أم» وتأتي على وجهين :

الوجه الأول: «أم» المتصلة، وهي التي يكون ما بعدها متصلاً بما قبلها، ومشاركاً له في الحكم، وتقع بعد همزة الاستفهام مثل: «أعليّ في الدار أم خالد؟» أو بعد همزة التسوية، مثل: «سواءً عليهم أن نذرتهم أم لم نذرتهم لا يؤمنون» .

وسميت متصلة لأن ما قبلها وما بعدها لا يستغنى بأحدهما عن الآخر .

الوجه الثاني: «أم» المنقطعة، وهي التي تكون لقطع الكلام الأول واستئناف ما بعده، ومعناها الإضراب، مثل قول الله عزّ وجلّ في سورة (الرعد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول):

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ نَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهْرُ ﴿١٦﴾ ﴾ .

هذه هي القاعدة العامة فيما يراد جعله شريكاً لعنصر من عناصر الجملة التي سبق بيانها، باستثناء تعدّد الأخبار، وتعدّد الصفات أو تعدّد الأحوال .

* * *

أما القاعدة بالنسبة إلى تعدّد الأخبار:

فإذا جاء في الجملة أخبارٌ متعدّدة لمبتدأ أو لما أصله مبتدأ فإذا كان الخبران متكاملين فيما بينهما ومفردّين، وهما بقوة الخبر الواحد، لم يَجْزُ عطفُ الثاني على الأول، مثل: «هذا الرُّمَانُ حُلُوٌّ حَامِضٌ» لأنهما بمعنى خبرٍ واحدٍ تقديره: «مِرٌّ». والأصل عند تعدّد الأخبار إذا كان اللّاحق مفرداً لا جملة، أن لا يُعْطَفَ اللّاحِقُ منها على السّابق، مثل قول الله عزّ وجلّ في سورة (البروج) / ٨٥ مصحف/ ٢٧ نزول):

﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَالَ لِمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ ۞

ويجوز عطف بعضها على بعضٍ لدى ملاحظة غرضٍ بلاغيٍّ خاصٍّ يدلُّ عليه العطف، فتقول مثلاً: «عليّ بنُ أبي طالبٍ شجاعٌ ذو بأسٍ لا تليّنُ له قنّاةً، وعالمٌ وبلّيعٌ، وذو بصيرٍ في الأفضية، حتّى قيلَ: قضيةٌ ولا أبا حسنٍ لها».

أمّا إذا كان اللّاحقُ جملةً فيأتي موصولاً بحرف العطف، مثل قول الله عزّ وجلّ في سورة (البروج) أيضاً:

﴿ إِنَّهُ هُوَ بَدِيٌّ وَبُعِيدٌ ﴿١٣﴾ ۞

* * *

وأما القاعدة بالنسبة إلى تعدّد الصفات:

فإذا كان الموصوف لا يتعيّن إلّا بعدد من الصفات فيجب إتباعها وعدم عطف بعضها على بعض.

وإذا كان الموصوف لا يحتاج إلى تعيين أو كان يتعيّن ببعضها فقط، فما يتحقّق به تعيينُ الموصوف منها فإنّه يُذكَرُ دون توسط حرف عطف، وأمّا سائر الصفات فيجوز فيها وجهان:

الأول: أن تذكرَ توابع بلا عطف، وهو الأصل، مثل:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ - لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ -﴾ .

الثاني: أن تُذكَرَ معطوفة، وينبغي أن يُلاحظ في العطف غرض بلاغي، لأن الأصل في النعوت أن تأتي توابع دون أن تُوصَلَ بحرف عطف.

● ومما جاء من ذلك معطوفاً لغرض بلاغي قول الله عز وجل حكاية لمقالة إبراهيم لقومه في سورة (الشعراء/ ٢٦ / مصحف/ ٤٧ / نزول):

﴿ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ ﴾ .

فعطف الصفات للتأكيد على أن كل واحدة منها كافية لعبادة الرب وحده.

● ومنه أيضاً قول الشاعر:

إِلَى الْمَلِكِ الْقَرْمِ وَابْنِ الْهُمَامِ وَلَيْثِ الْكَتِيبَةِ فِي الْمُرْدَحِمِ
الْقَرْمُ: السيد المعظم.

الهُمَامُ: السيد الشجاع السخي من الرجال، والأسد.

فعطف الصفات مع أن الأصل عدم عطفها، ليُلَفِتَ النظر إلى أنه مع كونه ملكاً قرماً هو ابنُ سيّدٍ شجاعٍ سخي، وهو أيضاً شجاعٌ كالأسد.

● ومن الصفات المتعددة التي اجتمع فيها الفصل والوصل قول الله عز وجل في سورة (غافر/ ٤٠ / مصحف/ ٦٠ / نزول):

﴿ حَمْدٌ ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ ﴿٣﴾ ﴾ .

إن صفات ﴿العزیز العليم غافر الذنب﴾ جاءت منفصلة دون حرف عطف كما هو الأصل في الصفات.

وبعدها جاءت: ﴿وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ صفة معطوفة بالواو على خلاف الأصل لغرض بلاغي، وهو فيما أرى دفع توهم المطابقة بين غُفْرَانِ الذَّنْبِ وقبول التوبة، فغفرانُ الذَّنْبِ قد يكون دون أن يتوبَ المذنبُ من ذنبه، بل يسألُ اللهَ الغفرانَ فقط، أما قبولُ التوبةِ، بمعنى رجوعِ اللهِ إلى التائب من عباده بفيوضاتِ عطائه التي يُعْطِيهَا المتقين إذا كان منهم، أو الأبرار أو المحسنين إذا كان منهم، فهو شيءٌ آخر غير غفران الذنب.

وعاد النص بعد هذا إلى ذكر سائر الصفات دون عطف، وهذا من بدائع القرآن.

* * *

(٤)

الجملة التي لها محلٌّ من الإعراب

كلُّ جملةٍ صحَّ تأويلها بمفرد فلها محلٌّ من الإعراب: «الرفع أو النصب أو الجر» كالمفرد الذي تُؤوَّلُ به، ويكون إعرابها كإعرابه، إذ تكون واقعة موقعه.

وكلُّ جملةٍ لا يصحُّ تأويلها بمفرد، لأنها غير واقعة موقع مفرد فليس لها محلٌّ من الإعراب.

والجملة التي لها محلٌّ من الإعراب سبعٌ:

الجملة الأولى: هي الواقعة خبراً، ومحلُّها من الإعراب الرفع أو النصب بحسب الخبر المفرد الذي وقعت موقعه، مثل: «العلمُ يَرْفَعُ مَنْزِلَةَ صاحبه - كان رسولُ الله يُواظِبُ على قيام الليل».

الجملة الثانية: هي الواقعة مفعولاً به، ومحلُّها من الإعراب النصب، مثل: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ فجملة «إني عبد الله» في محلِّ نصب مفعول به لفعل «قال».

الجملة الثالثة: هي الواقعة موقع المضاف إليه، ومحلها من الإعراب الجرّ، مثل: ﴿هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّالِحِينَ صِدْقُهُمْ﴾ فجملة ﴿يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ في محل جرّ لأنها في تأويل مفرد هو مضاف إليه، والتقدير: يَوْمٌ نَفَعِ الصِّدْقِ لِلصَّادِقِينَ.

الجملة الرابعة: هي الواقعة جواباً لشرطٍ جازمٍ، وشرطها أن تقترن بالفاء أو بإذا الفجائية، ومحلها من الإعراب الجزم، مثل: ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾، ﴿وَإِنْ تَصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَمَاقَدْتُمْ أَيْدِيَهُمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾.

فكل جملة من هاتين الجملتين: ﴿فماله من هاد - إذا هم يقنطون﴾ واقعة موقع فعل مجزوم هو جواب الشرط.

الجملة الخامسة: هي الواقعة موقع الصفة، ومحلها من الإعراب بحسب الموصوف بها، مرفوعاً كان أو منصوباً أو مجروراً، مثل: «وجاء رجلٌ من أفضى المدينة يسعى - الزم عالماً يعلم علوم الدين الإسلامي - اعتصم بحبل يصلك بالله».

فكل جملة من هذه الجمل الثلاث «يسعى - يعلم علوم الدين الإسلامي - يصلك بالله» واقعة موقع صفة للاسم النكرة الذي قبلها.

الجملة السادسة: هي الجملة التابعة لجملة لها محلٌّ من الإعراب، ومحلها من الإعراب يكون بحسب الجملة التي هي تابعة لها، رفعاً أو نصباً أو جرّاً، مثل: «كلُّ حيوانٍ يأكلُ ويشربُ - كان رسولُ الله يَحْمِلُ الكَلَّ وَيَقْرِي الضَّيْفَ وَيُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الدَّهْرِ - مررتُ برجلٍ يأكلُ بشره، يأكلُ بشره».

الجملة السابعة: هي الجملة الواقعة موقع الحال، ومحلها من الإعراب النصب، كالحال التي جاء لفظها «مفرداً غير جملة» ومؤولة بمفرد، فقول القائل: «وُلِدَ الطِّفْلُ يَبْكِي» هو بمثابة قوله: «وُلِدَ الطِّفْلُ بَاكِيًا».

وكان الأصل في الجملة الحالية أن تكون خالية من الواو، لأنها كالنعت مع المنعوت به، وأن يكون الربط بين الجملة الحالية وصاحبها ضميراً فيها يعود عليه.

ولكن قد تكون الجملة الحالية خالية من هذا الضمير الرباط، مثل: «صَلَّى المتهجّد - الناسُ نائمون» إذا أُريد أن تكون جملة «الناسُ نائمون» جملةً حاليةً. أو يكون هذا الضمير الرباط صدر الجملة الحالية، مثل: «سافر خالد - هو صائم» إذا أُريد أن تكون جملة «هو صائم» حاليةً. إلاّ أنّ مثل هذين التعبيرين لا دليل فيهما على أنّ جملة كلّ منهما جملة حالية، فجاء في اللّغة العربية اختيار حرف «الواو» التي تستعمل في العطف رابطاً يدلُّ على أنّ الجملة الحالية، سواء قلنا بتجريد هذه الواو من معنى العطف، أو قلنا بأنّ معنى العطف ما زال باقياً يجمع الصفة التي دلّت عليها الحال مع الصفة المسندة إلى صاحب الحال التي دلّت عليها المُسندُ فعلاً كان أو غيره، وقد أُضيف إلى معنى الجمع بين الوصفين معنى الحالية.

ودعت دَوْقِيَّةً جماليَّةً وفكريَّةً في الجمل الحالية أن تجب واو الحال في بعضها، وأن تَمْتَنَعَ في بَعْضِها، وأن يجوز ذكرها وتركها في بعضها.

- فتجب واو الحال في ثلاث صور.
- وتمتنع في سبع صور.
- ويجوز ذكرها وتركها فيما سوى ذلك.

على ما فصله النحويّون في باب الحال، وذكره البلاغيّون في باب «الفصل والوصل» استكمالاً لذكر أحوال «الواو» في الجُمَل وجوداً وعدمًا، على اعتبار أنّ «واو» الحال تدخل في عموم الواو العاطفة، إلاّ أنّني رأيت إحالة أمر هذه الواو على ما قرّره النحاة بشأنها.

ومما سبق ظهر لنا أنّ الجمل التي لها محلٌّ من الإعراب هي بمثابة المفرد،

لأنَّها تُؤَوَّلُ بمفرد، وتَشْمَلُها أحكام المفرد في الوصل والفصل، حتَّى الجملة الحالية التي تدخل عليها واو الحال رابطة، إذا لاحظنا أنَّ هذه الواو قد استدعاها حاجة الجملة الحالية إلى رابط، والأصل فيه أن يكون ضميراً يعود على صاحب الحال، وحين تُسْتَخْدَمُ واو الحال للربط فليس ذلك من وصل الجمل بالعطف، وإنما هو للدلالة على معنى الحالية بحرف رابط.



الفصل الثالث

الفصل والوصل بين الجمل التي لا محلّ لها من الإعراب

(١)

مقدمة

(١) اهتم البلاغيون بالبحث لاستخراج الأسس الفكرية العامة للفصل والوصل بين الجمل التي لها محلّ من الإعراب، بعد أن نظروا نظرات عاماتٍ إلى المفرد، وإلى الجملة التي لا محلّ لها من الإعراب باعتبارها بمنزلة المفرد، وتووّّل بمفرد، وتحكّمهما الأسس التي سبق بيانها في الفصل الثاني من هذا الباب، أخذاً ممّا بحثه النحويّون، وبحث بعضه البلاغيون متناثراً.

(٢) وقد أبان البلاغيون أهميّة معرفة مواطن الفصل والوصل بين الجمل التي لا محلّ لها من الإعراب، واعتبروا إدراك ذلك من الأمور التي تحتاج بصيرةً نفّاذةً قادرةً على إدراك مدى التلاقي والافتراق، والتقارب والتباعد بين المضامين الفكرية للجمل التي يتلو بعضها بعضاً في الكلام، وأنّ هذا ممّا يصعبُ على الكثيرين إدراكه، فلا يستطيعون دواماً تحديداً ما يجبُ أو يحسنُ فصله، وما يجبُ أو يحسنُ وصله، وما يستوي فيه الأمران، فلا يرتقي ما يُنشؤون من كلام مؤلف من جملٍ كثيرةٍ في مراقي البلاغية الرفيعة، وفي حُسنٍ وضعٍ كلِّ من الفصل والوصل في موضعه.

ولا تُكْتَسَبُ ملكةٌ وضع كلٌّ من الفصل والوصل في موضعه الملائم بال تلقائيةً
إلاً بممارسةٍ طويلة، مع حسٍّ فطريٍّ مُرْهَف، وموهبة بلاغيةٍ ممتازة.

ويتفاوت الكلام بالفصل والوصل تفاوتاً كبيراً ارتقاءً أو نزولاً في المراتب
البلاغية، ويتفاضل في هذا المجال أيضاً الكتاب والشعراء والخطباء والمُحَدِّثون.
وبالغ بعضهم فقال: البلاغة معرفة مواطن الفصل والوصل في الكلام (أي:
العطف بالواو وترك العطف بها).

* * *

(٢)

الجملة التي لا محلّ لها من الإعراب

لمّا كان الكلام هنا يتناول الفَصْلَ والوصل في الجملة التي لا محلّ لها من
الإعراب، فمن المناسب أن نأخذ من النحويّين ما ذكروه من تفصيل لها، ليكون
ذلك تمهيداً لكلام البلاغيين حولها.

ذكر الثُّحَاةُ أنّ الجُمْلَةَ التي لا محلّ لها من الإعراب تَسْعُ جملاً، وهي ما
يلي:

الأولى: «الجملة الابتدائية» وهي التي تكون في بدء الكلام، مثل: ﴿اللَّهُ نُورٌ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فهي جملة لا محلّ لها من الإعراب.

وهذه الجملة بطبيعتها لا توصل بشيء قبلها، إلا أن تُسَبِّقَ بكلامٍ مُقَدَّرَ ذهنًا،
فقد يكون للمقدّرات الذهنية اعتباراتٌ تُلاحظُ في المنطوق من الكلام، كأن يسأل
رجلٌ صديقه: هل تَعَشَّيْتَ عند فلان؟، فيقول له: وَبِتَّ عنده حتى الصباح.

الثانية: «الجملة الاستئنافية» وهي التي تقع في أثناء الكلام منقطعةً عمّا قبلها
لاستئناف كلام جديد، وهي جملة لا محلّ لها من الإعراب.

والأصل فيها أن تكون منفصلة غير مقترنة بحرف عطف، مثل قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (النحل / ١٦ / مصحف / ٧٠ نزول):

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾.

فجملته: «تعالى الله عما يشركون» جملة استئنافية.

وقد تقترن بالفاء الاستئنافية، مثل قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الأعراف / ٧ / مصحف / ٣٩ نزول):

﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا صَلِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَىٰ اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾.

وقد تقترن بالواو الاستئنافية، مثل قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (آل عمران / ٣ / مصحف / ٨٩ نزول) في عرض قصة امرأة عمران:

﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيدُهَا بِلَكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾.

فجملته: «والله أعلم بما وضعت» جملة استئنافية اقترنت بالواو الاستئنافية.

الثالثة: «الجملة التعليلية» وهي التي تقع في أثناء الكلام تعليلًا لما قبلها، وهي جملة لا محل لها من الإعراب.

والأصل في هذه الجملة أن تكون منفصلة غير مقترنة بحرف عطف، مثل قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (التوبة / ٩ / مصحف / ١١٣ نزول) خطاباً لرسوله:

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾.

فجملته: «إن صلاتك سكن لهم» جملة تعليلية.

وقد تقترن بفاء التعليل، مثل أن نقول: «الزَّمَّ سَبِيلَ الْهُدَىٰ فَإِنَّهُ سَبَبُ السَّعَادَةِ».

الرابعة: «الجملة الاعتراضية» وهي التي تعترض بين شيئين متلازمين: كالمبتدأ والخبر، والفعل ومرفوعه، والفعل ومنصوبه، والشرط وجوابه، والحال وصاحبها، والصفة والموصوف بها، وحرف الجرّ ومتعلّقه، والقسم وجوابه» وهي جملة لا محلّ لها من الإعراب.

قالوا: ويؤتى بالجملة الاعتراضية لإفادة الكلام تقويةً وتسديداً وتحسيناً.

أقول: أغراض الجملة الاعتراضية عند البلغاء كثيرةٌ يصعبُ تحديدها أطرها العامة، فضلاً عما هو أكثر من ذلك تحديداً أو تفصيلاً، إذ داوعي ذكرها، فكريةً، تُشتقُّ من الموضوعات التي تُذكرُ ضمنها. ومن أمثلة الجمل الاعتراضية:

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿وَأَن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّمَّنْ لَمِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَٰكِن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

فجملة ﴿وَلَٰكِن تَفْعَلُوا﴾ جملة اعتراضية جاءت بين متلازمين هما: «الشرط وجوابه» والواو فيها استثنائية.

● وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الواقعة/ ٥٦ مصحف/ ٤٦ نزول):

﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَوْجِعِ الْجُبُونِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّ لِقَوْمٍ لَّا يَعْلَمُونَ عَظِيمًا ﴿٧٦﴾﴾.

فجملة: ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ﴾ جملة اعتراضية جاءت بين متلازمين هما: الصفة والموصوف بها.

الخامسة: «الجملة الواقعة صلةً للموصول» سواءً أكان الموصول موصولاً اسمياً، أم موصولاً حرفياً.

● فالموصول الاسمي: «كَالَّذِي - وَالَّتِي - وَمَنْ -» مثل قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا فِيهِمْ لِيُبْلِيَ اللَّهُ بِهِمْ أَمْ لَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَاتُ أَنْبِيَآءِنَا يُبَيِّنُونَ لَهُمْ مَا نَهَىٰ عَنْهُمُ الْفُلُوكَ مِنْ حَرَامٍ مُّبِينٍ﴾

فجملة: «يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ» صلة لموصول اسمي، لا محل لها من الإعراب.

● والموصول الحرفي هو الحرف المصدرى الذي يؤول مع ما بعده بمصدر، والحروف المصدرية هي «أَنْ النَّاصِبَةُ لِلْفِعْلِ الْمُضَارِعِ - أَنْ - كَيْ - ما المصدرية - لو - همزة التسوية».

ومن الأمثلة قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):
﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ...﴾ [الآية ٥٢].

فجملة «تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ» لا محل لها من الإعراب لأنها صلة موصول حرفي، وهي مع الموصول الحرفي في تأويل مصدر مفعول به لفعل «نَخْشَى». السادسة: «الجملة التفسيرية» وهي التي تأتي مفسرةً لجملة أو مفرد قبلها، وتأتي خبريةً أو إنشائية.

والجملة المفسرة لما قبلها، قد تأتي مقرونة بكلمة «أَيُّ» أو بكلمة «أَنْ» أو مجردةً منهما، وهي لا محل لها من الإعراب.

● فمن أمثلة المقرونة بكلمة «أَيُّ» قول الشاعر:
«وَتَرَمِينِي بِالطَّرْفِ أَيُّ: أَنْتَ مُذْنِبٌ».

● ومن أمثلة المقرونة بكلمة «أَنْ» قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول) في عرض قصة نوح عليه السلام:

﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْقُلُوبَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا . . . ﴾ [الآية ٢٧].

ومن أمثلة المجردة من «أي» و «أن» قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الصف/

٦١ مصحف/ ١٠٩ نزول):

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذُكَّرُ عَلَىٰ حَرٍِّ نَّجِيكَ مِنْ عَذَابِ ٱلْأَلَمِ ﴿١٠﴾ تَوَمَّنُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ ۗ وَنَجْهَدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ ﴾ .

فجملة ﴿تَوَمَّنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وما عطفَ عليها مفسرةٌ للتجارة المنجية .

السابعة: «الجملة الواقعة جواباً لقسم» مثل قول الله عزَّ وجلَّ في سورة

(يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول):

﴿ يَسَّ ﴿١﴾ وَالْقُرْءَانَ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ ﴾ .

فجملة: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ جواب القسم الوارد في: ﴿والقرآن

الحكيم﴾ وهي لا محلّ لها من الإعراب .

● وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) في

عرض قصة إبراهيم عليه السلام:

﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ .

فجملة: ﴿لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ . . .﴾ جواب القسم في ﴿تالله﴾ وهي لا محلّ

لها من الإعراب .

الثامنة: «الجملة الواقعة جواباً لشرط غير جازم» وهي جملة لا محلّ لها من

الإعراب .

وأدوات الشرط غير الجازم هي: «لو – لولا – لوماً – أمّا – لَمّا – إذا» .

أمثلة:

(١) ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءَالِهَةٌ ۖ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ .

(٢) ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا﴾ .

(٣) ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ .

(٤) ﴿لَوْ مَا الْكِتَابُ لَضَاعَ أَكْثَرُ الْعِلْمِ﴾ .

(٥) ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ .

(٦) ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ .

(٧) ﴿وَإِذَالْقَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا﴾ .

فجوابُ الشرط الواردُ في هذه الأمثلة جُمَلٌ لا محلّ لها من الإعراب .

التاسعة: «الجملة التابعة لجملة لا محلّ لها من الإعراب» فلها حكم الجملة التابعة لها، مثل: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ . . . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ فجملة ﴿وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ معطوفة على جملة ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ وهي لا محلّ لها من الإعراب لأنها جواب شرط غير جازم .

* * *

(٣)

الأسس العامة للفصل والوصل

بين الجمل التي لا محلّ لها من الإعراب

سبق أن عرفنا أسس الفصل والوصل بين المفردات في الجملة الواحدة، وبين الجمل التي لها محلّ من الإعراب .

وعلينا هنا أن نستبصر الأسس العامة للفصل والوصل بين الجمل التي لا محلّ لها من الإعراب، وهو البحث الذي اعتبره البلاغيون عمادَ هذا الباب من أبواب البلاغة، كما سبق به البيان .

وقبل أن نبدأ ببيان هذه الأسس لا بدّ من التنبيه على أنّ المعنى إذا كان

يقتضي العطف بحرف من حروف العطف غير الواو، وهي: «الفاء - ثم - حتى - بل - لكن - لا - أم» فالأصل العطف بالحرف الذي يقتضيه المعنى من هذه الحروف، ولا يُتْرَكُ هذا الأصل إلا لغرضٍ من الأغراض التي يَقْصِدُهَا البلغاء، ومنها أن لا يريد صاحب الكلام بيانَ المعنى الذي يدُلُّ عليه حرف العطف ذو المعنى الخاص، وإن كَانَ واقع الحال مطابقاً لدلالته لو عطف به، إذ له غرضٌ في إغفال المعنى وَعَدَمِ التعبير عنه، وهذا موضوع لا يحتاج بحثاً ولا تأصيلاً.

ولا بُدُّ من التَّنْبِيهِ أيضاً على أن عطف الجملة التالية على الجملة السابقة بالواو، إذا كان يُفِيدُ إشراكها في حكمها، والمتكلم لا يُريد أن يدُلَّ على هذا الاشتراكِ لأمرٍ ما، فإنه لا يربطُ الجملة التالية بحرف العطف، بل يأتي بها منفصلة، لثلا يدُلُّ كلامه على ما لا يريدُ بيانه والدلالة عليه، وهذا أيضاً موضوع لا يحتاج بحثاً ولا تأصيلاً.

إذن: ينحصر الكلام هنا في العطف «بالواو» أو عدم العطف بها، ضمن المقاصد التي يريد المتكلم التعبير عنها والدلالة عليها.

و «الواو» العاطفة التي يدور البحث هنا حول استخدامها عاطفةً أو عدم استخدامها، بين الجمل التي لا محلَّ لها من الإعراب، لها أَرْبَعُ صفات:

الصفة الأولى: أنها لمطلق الجمع، فلا تقتضي ترتيباً ولا تعقيباً ولا غير ذلك من معاني حروف العطف، سواءً أعطفت المفردات أم عطفت الجمل.

الصفة الثانية: أنها تُفِيدُ الإشراك في الحكم في عطف المفردات وفي عطف الجمل التي لها محلٌّ من الإعراب، لأنها مؤولة بالمفردات التي حَلَّت محلَّها.

الصفة الثالثة: أنها تقتضي التغاير بين المعطوف بها والمعطوف عليه، فلا يُعْطَفُ بها المتَّحِدَانِ في المعنى.

الصفة الرابعة: أن الربط بها يَتَطَلَّبُ مُنَاسَبَةً فِكْرِيَّةً بَيْنَ المَعْطُوفِ والمَعْطُوفِ عليه بها تُسَوِّغُ عند البُلغَاءِ هذا العطف.

فلا بُدَّ من ملاحظة هذه الصفات لدى العطف بالواو حتى يكون العَطْفُ مستقيماً نَحْوِيّاً وَبَلَاغِيّاً، وما قد يَرَاهُ النَحْوِيُّ جَائِزاً بحسب القواعد النحويّة، قد لا يراه البلاغيُّ جَائِزاً إذا نظر إلى المعاني.

وبالنظر إلى الصِّفَاتِ الأربَعِ للواو العاطفة تظهر لنا الاحتمالات التالية للعطف بها أو عدم العطف بين الجمل التي لا محلّ لها من الإعراب، والتي يُرَادُ رَضْفُ بعضها وَرَاءَ بَعْضٍ.

الاحتمال الأول: أن يكون المعنيان في الجملتين السابقة واللاحقة لا يتلاءم معهما مفهوم التغيُّر بينهما، لشدّة اتّحادهما أو لشدّة تقاربهما، أو كانت التالية منهما جواب سؤال مطويّ تستدعيه السابقة منهما.

وفي هذه الحالة لا يَصِحُّ بلاغيّاً العطف «بالواو» لأنّ الواو تقتضي التغيُّر بين المعطوف بها والمعطوف عليه، وهذا العطف يُفْسِدُ المعنى المقصود بالبيان.

لكن إذا كان ترك الواو يوهم خلاف المقصود، كان إدخال «الواو» بين الجملتين أمراً لازماً كأن يسألَكَ سائل: هل سُفِي معلّمُكُمْ؟ فتقول له: لا. وشفاه الله، إذ لو حذفت الواو لأوهم أنّك تدعو عليه بعدَم الشفاء، والمعنى: لم يُشَفَّ وشفاه الله.

الاحتمال الثاني: أن يكون بين الجملتين السابقة واللاحقة تغيُّرٌ في المعنى، ولكن ليس بينهما تناسبٌ أو تلاؤمٌ فكريٌّ يسمح بأن يُجْمَعَ بينهما برباطٍ تشير «الواو» الرابطة إليه حين العطف بها.

فإذا وُجِدَتْ هذه الواو الرابطة وكان واقع حال الجملتين خالياً من التناسب والتلاؤم، إذ لَيْسَ بينهما خيوطٌ فكريّةٌ متلائمة، كان وجود الواو الرابطة بمثابة مُدْعٍ

كذّاب، يدّعي وُجُودَ التَّنَاسُبِ والتلاؤم، وهو في الواقع غير موجود، وهذا أمرٌ تنفر منه النفوس وتأباه، ولا يَسْمَحُ البلغاء وأهل الفكر باستخدامه.

ويستثنى من هذا أن يَحْدُثَ من ترك الواو بين الجملتين إيهام خلاف المقصود، فتُذَكَّرُ الواو للدلالة على استئناف الكلام الذي بعدها، كأن يسألك سائل: هل أنت مذنب؟ فتقول: لا. وغفر الله لك.

الاحتمال الثالث: أن يتوافر في الجملتين السابقة واللاحقة شرطا التغيّر في المعنى من جهة، والتناسب بين معنييهما المتغايرين من جهة أخرى:

فإذا كان غرض المتكلّم أن يجمع بينهما برباط «واو» العطف الدّالة على مطلق الجمع مع التغيّر والتناسب بين معنييهما، ليدلّ بها على ذلك، كان استخدامه هذا الرابطة عملاً بليغاً، ويدلّ على حسّ مُرْهَفٍ، وذوقٍ رفيع، باستثناء بعض الصور التي يوجد فيها سبب في نظم الكلام يقتضي عدم العطف، كإيهام خلاف المقصود، مثل قول الشاعر:

وَتَظُنُّ سَلْمَى أَنِّي أَبْغِي بِهَا بَدَلًا أَرَاهَا فِي الضَّلَالِ تَهِيمُ
إنّ جملة «وَتَظُنُّ سَلْمَى» يناسبها أن تُعْطَفَ عليها بالواو جملة «أَرَاهَا فِي الضَّلَالِ تَهِيمُ» أي: هي تَظُنُّ بي شيئاً مخالفاً لواقع حالي، وأنا أرى جازماً أنّها في هذا الظنّ تهيم في الضلال.

لكنّه لو عطفها «بالواو» لأوهم أنّ هذه الجملة معطوفة على جملة «أَنِّي أَبْغِي بِهَا بَدَلًا» أي: وتَظُنُّ أيضاً أنني أراها في الضلال تهيم، وهذا خلاف مقصود الشاعر.

ملاحظة:

هذا التقسيم هو التقسيم الذي رأيتُه الأسهل والحاصر لمختلف الاحتمالات، دون إرباك الذهن، بمصطلحاتٍ متشعبات، وتفريعات قلّما يستفيد منها من يريد

التعريف على أُسُسٍ رَبطِ الجُمَلِ التي لا محلّ لها من الإعراب بواو العطف أو عَدَمِ رَبطِها بها.

* * *

ما يخرج عن دائرة هذا التقسيم السابق:

(١) يخرج عن دائرة هذا التقسيم عطف كلامٍ كُلِّيٍّ على كلامٍ كُلِّيٍّ، كعطف قصة على قصة، وعطف موضوع كُلِّيٍّ على موضوعٍ آخَرَ كُلِّيٍّ، إذ يكفي لتسوية العطف «بالواو» في ذلك مجرد ملاحظة عطف كلامٍ ما، على كلامٍ ما، وعطف قصةٍ ما، على قصةٍ ما.

أما التغاير الذي تقتضيه «الواو» العاطفة فقائم في ذلك، ما لم تكن القصة التالية تفصيلاً لمُلخَصِ القصة السابقة، أو الموضوع التالي تفصيلاً لمُلخَصِ الموضوع السابق، أو العكس فيهما، فإذا كان التالي تفصيلاً أو تلخيصاً للسابق فهما بمثابة البيان من المبيّن، مَتَّحِدَانِ أو شِبهُ مَتَّحِدَيْنِ، وترك العطف بالواو هو الأصل الذي ينبغي أَنْ يُتَّبَعَ، إلّا لغرض بلاغي يقوم في نفس البليغ يرجح عنده العطف.

ومن أمثلة عرض القصة المفصلة بعد ذكرها مُلخَصَةً قصة أهل الكهف التي قصّها الله في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول) فقد جاء التلخيص في الآيات من (٩ - ١٢) وبعدها جاء التفصيل في الآيات من (١٣ - ٢٦) وعند بدء التفصيل جاء الكلام غير مقترن بواو العطف.

وأما التناسب فيمكن أن يتترع من الموضوع العام، إذ الباحث مثلاً في النحو قد يعطف باب المفعول به على باب الفاعل، وقد يعطف أبواب المنصوبات على أبواب المرفوعات أو المجرورات، فالناظم العام لأبواب علم النحو بحث أحوال الكلمة من جهة إعرابها.

والباحث في علم الفقه قد يعطف أبواب المعاملات على أبواب العبادات، وقد يعطف فصلاً على فصل في الباب الواحد. وفرعاً على فرع في الفصل الواحد. وباستطاعته أن ينتزع مناسبة عامة كافية للعطف، وكلما كانت هذه المناسبة ألصق بالمقسّم القريب للمقسم الذي يذكره كان العطف مقبولاً غير مستهجن، وقد تكون مُنتزعةً من المقسّم البعيد بحسب اقتضاءات المعاني.

وَالْقِصَاصُ قد يعطف قصةً على قصة، إذ باستطاعته أن ينتزع مناسبة عامة كافية للعطف، كأن يكون حديثه حول قصص الأنبياء وأقوامهم، أو قصص المتقين، أو قصص المجاهدين، أو يكون حديثه حول قصص اللصوص، أو قصص القتلة، أو قصص غرائب السلوك عند الحيوانات، إلى غير ذلك.

(٢) ويخرج عن دائرة هذا التقسيم أيضاً استخدام «الواو» للدلالة على استئناف كلام جديد، غير مرتبط بالكلام السابق، وتكون عندئذٍ بمعنى: التوقف عن متابعة ما يتعلق بما سبق من موضوع واستئناف الكلام في موضوع آخر.

ومن أمثلة «واو» الاستئناف قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الحج/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول):

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنَبِّئَنَّ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً...﴾ [الآية ٥].

فجملة: ﴿ونُقَرُّ في الأرحام ما نشاء﴾ جملةٌ مُستأنفةٌ، مُصدِّرةٌ بواو الاستئناف، وليست هذه الواو عاطفةً على ما ذكر النحويون إذ لو كانت عاطفةً على ﴿لِنَبِّئَنَّ لَكُمْ﴾ لكان ينبغي أن يكون فعل ﴿نُقَرُّ﴾ منصوباً. ولنا أن نقول: إنَّ جملة ﴿ونُقَرُّ في الأرحام...﴾ معطوفة على جملة ﴿فإنَّا خَلَقْنَاكُمْ من تراب﴾ ولواحقها.

ومن الأمثلة التي ذكرها النحويون قول أبي اللِّحَّام التغلبي:

عَلَى الْحَكَمِ الْمَأْتِي يَوْمًا إِذَا قَضَى قَضِيَّتَهُ أَنْ لَا يَجُورَ وَيَقْصِدُ
 وَيَقْصِدُ: بِالرَّفْعِ أَي: وَهُوَ يَعْدِلُ، فَحَمَلَ الْكَلَامَ هُنَا عَلَى الْاسْتِثْنَاءِ مُتَعَيِّنًا،
 إِذْ كَيْفَ يَجِبُ عَلَى الْحَكَمِ إِذَا قَضَى قَضِيَّتَهُ أَنْ لَا يَجُورَ وَلَا يَعْدِلُ، هَذَا تَنَاقُضٌ.
 وَأَرَى أَنَّ الْوَاوَ الَّتِي تَدْخُلُ عَلَى الْجُمْلَةِ الْإِعْتْرَاضِيَّةِ هِيَ وَآوُ اسْتِثْنَاءٍ وَليست
 وَآوُ عَطْفٍ.

* * *

(٤)

مع علماء البلاغة في تقسيماتهم

تَأَمَّلْتُ فيما ذكر البلاغيون من تقسيم لأحوال الجمل التي لا محل لها من
 الإعراب حول الفصل والوصل بينها في الكلام، فرأيت أنهم بالبحث التحليلي قد
 ذكروا لها سبعة أقسام متفرعة من تقسيمين رئيسين، وأنهم فصلوا بعض هذه
 الأقسام إلى فروع بحسب أحوالها.

وفيما يلي بيان ذلك مع بعض تعديل في شجرة التقسيم التي ذكروها.

القسم الأول: ما يجب فيه الفصل (أي: عدم عطف الجملة التالية على
 الجملة السابقة بالواو).

وهذا يكون في أربع صور:

الصورة الأولى: أن يكون بين الجملتين «كَمَالُ اتِّصَالٍ» إذ لا تغاير بين
 الجملتين حتى تُعْطَفَ التَّالِيَةُ عَلَى السَّابِقَةِ.

وهذه الصورة تظهر في ثلاثة وجوه:

الوجه الأول: أن تكون الجملة التالية توكيداً للجملة السابقة، لزيادة التقرير،

أو لدفع توهم المجاز، أو لدفع توهم العَلَطِ، وهذه الجملة التوكيدية:

● قد تكون من قبيل التوكيد اللفظي مثل قول الله عز وجل: ﴿فَمَهَّلِ الْكَافِرِينَ أَمَهُلُهُمْ رُيْدًا﴾.

● وقد تكون من قبيل التوكيد المعنوي، مثل ما حكى الله عز وجل في سورة (يوسف/ ١٢ / مصحف/ ٥٣ نزول) عما قال النسوة حين رأين يوسف عليه السلام في بيت العزيز:

﴿ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾.

فجملة ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ توكيدٌ معنويٌ لجملة ﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾ لأن إثبات كونه ملكاً كريماً تأكيدٌ وتحقيقٌ لنفي كونه بشراً.

ومثل قول المتنبي:

وَمَا الدَّهْرُ إِلَّا مِنْ رُؤَاةٍ قَصَائِدِي إِذَا قُلْتُ شِعْرًا أَصْبَحَ الدَّهْرُ مُنْشِدًا
الوجه الثاني: أن تكون الجملة التالية بدلاً من الجملة السابقة، وجملة البدل:

● قد تكون بدل كلٍّ من كلٍّ، ويسمى «البَدَلُ المطابق» مثل قول الله عز وجل في سورة (المؤمنون/ ٢٣ / مصحف/ ٧٤ نزول):

﴿ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَأَنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

● وقد تكون بدلَ بعضٍ من كلٍّ، مثل قول الله عز وجل في سورة (الشعراء/ ٢٦ / مصحف/ ٤٧ نزول) حكاية لمقالة هود عليه السلام لقومه:

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَيْنَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّتِ وَعْيُونَ ﴿١٣٤﴾ ﴾.

فالأنعام والبنون والجنات والعيون هي بعض ما أمدهم به مما يعلمون،

وفائدة هذا البديل ذكر بعض العناصر مفصلة لأهميتها عند المخاطبين، بعد ذكرها بشكل مجمل.

● وقد تكون بدّل اشتمال، مثل قول الله عزّ وجلّ في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول) حكايةً لمقالة الرجل المؤمن الذي جاء يسعياً من أهل أنطاكية، يعظ قومه أن يتبعوا المرسلين الثلاثة الذين أرسلوا إليهم:

﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ .

فجملة ﴿اتَّبِعُوا مَعَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا...﴾ بديل من جملة ﴿اتَّبِعُوا المرسلين﴾ التي تشتمل بمفهومها العام على معنى الجملة التي جاءت بدلاً منها. والغرض التنبيه على قضية مهمة فيهم، وهي إخلاصهم وعدم سعيهم لغرض دنيوي من دعوتهم.

الوجه الثالث: أن تكون الجملة التالية معطوفة على الجملة السابقة عطف بيان، مثل قول الله عزّ وجلّ في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى ﴿٢٢﴾ ﴾ .

فجملة: «قال يا آدم...» عطف بيان على جملة ﴿فوسوس...﴾ وهي لبيان مضمون الوسوسة التي وسوس بها الشيطان.

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) خطاباً لبني إسرائيل:

﴿ وَإِذْ أَخْبَرْنَاكَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ﴾ .

فجملة: «يقتلون أبناءكم» والتي بعدها عطف بيان لجملة: «يسومونكم سوء العذاب».

الصُّورَة الثانية: أَنْ يكون بين الجملتين «شِبْهُ كمال الاتصال». وهذا يكون حينما تكون الجملة السابقة ممّا يثير في نفس المتلقّي سؤالاً يتردّد في نفسه ولو لم يُصرِّح به، فتأتي الجملة التالية لتجيب على هذا السؤال، وتأتي دون أن تعطف بالواو، وعلى أسلوب الاستئناف، فالجملة الواقعة جواباً لسؤالٍ مقدّر ذهنياً غير مصرِّح به في اللفظ، لكن من شأنه أن تثيره في النفوس الجملة السابقة هي جملة استئنافية.

قالوا: والسؤال الذي تثيره الجملة السابقة على وجوه:

● فإمّا أن يكون سؤالاً عن سبب الحكم الذي تضمّنته الجملة السابقة بوجه عام، مثل قول الشاعر:

قَالَ لِي: كَيْفَ أَنْتَ؟ قُلْتُ: عَلِيلٌ سَهْرٌ دَائِمٌ وَحُزْنٌ طَوِيلٌ

فجملة «سَهْرٌ دَائِمٌ...» جملة استئنافية جاءت بدون عطف بالواو، إذ وقعت جواب سؤالٍ تثيره جملة «أنا عَلِيلٌ» لأنّ من طبيعة المتلقّي أن تتحرّك نفسه بسؤالٍ مضمونه: ما سببُ كَوْنِكَ عَلِيلاً؟ وأسرع المتكلم فأجاب على السؤال دون أن يُطرح عليه، أي: أنا عاشقٌ بعيد عن محبوبه.

فالسؤال عن سبب حدوث العلة المرضية هو سؤال عن السبب بوجه عام، إذ عادة الناس أنّهم إذا قيل لهم: فلانٌ مريضٌ، قالوا: ما سبب مرضه؟.

● وإمّا أن يكون سؤالاً عن سبب خاص، مثل قول الله عزّ وجلّ في سورة (يوسف/ ١٢ مصحف/ ٥٣ نزول) حكاية لمقالة يوسف عليه السلام:

﴿ وَمَا أْبْرِيءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَجَمْتَنِي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

فجملة: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ جملة مستأنفة وقعت جواب سؤالٍ تثيره جملة ﴿وَمَا أْبْرِيءُ نَفْسِي﴾.

لقد سبق هذه الآية بيان أن يوسف عليه السلام قال :

﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ .

فَبَعْدَ أَنْ أُعْلِنَ بَرَاءَتُهُ مِنَ الْخِيَانَةِ، واعترفت امرأة العزيز بأنها هي التي راودته عن نفسه، تتساءل النفس قائلة: ما الذي جعل يوسف عليه السلام يقول: ﴿وَمَا أُبْرِيءُ نَفْسِي﴾ بعد أن ثبتت براءته وثبتت طهارته وعِفَّتُهُ، فما هو السبب الخاص الذي جعله يقول هذا القول؟ وقد أسرع عليه السلام فأجاب على السؤال بقوله: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ والسوء الذي حدثته نفسه به ولم يَعْمَلْهُ، هو هَمُّهُ بِضَرْبِهَا بَعْدَ أَنْ هَمَّتْ بِضَرْبِهِ لَمَّا اسْتَعْصَمَ بِاللَّهِ، متعففاً عن الفاحشة .

● وإمّا أن تُبَيِّرَ الجملة السابقة سؤالاً ما، لا عن السبب العام للحكم فيها، ولا عن السبب الخاص، مثل ما جاء في قول الله عزّ وجلّ يَقُصُّ قِصَّةَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي سُورَةِ (هُود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَمًا قَالَ سَلَمًا قَالِ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ

حَنِيدٍ ﴿١٦﴾﴾ .

حَنِيدٌ: أي: مَشْوِيٌّ .

إِنَّ مِنْ طَبِيعَةِ أَيِّ مَتَلَقٍّ لِلْقِصَّةِ، أَنْ يَتَسَاءَلَ بَعْدَ أَنْ يَسْمَعَ أَنَّ الرُّسُلَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ جَاءُوهُ وَقَالُوا لَهُ سَلَامًا، فيقول في نفسه، فبماذا أجابهم إبراهيم عليه السلام؟ فجاءت جملة: ﴿قَالَ سَلَامٌ﴾ جواباً على هذا السؤال .

ومنه قول الشاعر:

زَعَمَ الْعَوَازِلُ أَنَّنِي فِي غَمْرَةٍ صَدَقُوا وَلَكِنْ غَمَّرْتِي لَا تَنْجَلِي

إِنَّ الشَّطْرَ الْأَوَّلَ يَثِيرُ فِي النَّفْسِ سُؤَالًا وَهُوَ: إِذَا كَانَ الْعَوَازِلُ قَدْ زَعَمُوا أَنَّكَ فِي غَمْرَةٍ فَمَاذَا تَقُولُ أَنْتَ؟ فَأَجَابَ عَلَى هَذَا التَّسْأُولِ بِقَوْلِهِ: «صَدَقُوا» وَزَادَ عَلَى

قولهم تأكيداً بقوله: «ولكن غمرتي لا تنجلي» وهذا من تأكيد الشيء بما يوهم في بدايته خلافه.

الغمرة: الشدة.

ملحوظتان:

(١) قد يُحذف صدرُ جواب السؤال المقدر الذي أثارته الجملة السابقة، ويُستغنى عنه بما جاء بعده مما يدلُّ عليه، ومنه قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزل) كما جاء في قراءة ابن عامر الشامي وشعبة ﴿يُسَبِّحُ﴾ بالبناء للمجهول:

﴿ فِي بُيُوتٍ أذنَ اللهُ أن تُرْفَعَ وَيُذَكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَا لَّهُمْ فِيهَا كِبَرٌ وَلَا يَبِيعُ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ .

قراءة جمهور القراء العشرة ﴿يُسَبِّحُ﴾ وليس فيها شاهد لما نحن فيه، أما قراءة ابن عامر وشعبة ﴿يُسَبِّحُ﴾ بالبناء لما لم يُسمَّ فاعلهُ فهي التي تتضمن الشاهد المطلوب.

إن جملة ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ جملة تامَّة تثير سؤالاً وهو: من الذي يُسَبِّحُ لله فيها؟

والجواب: يُسَبِّحُ فيها رجالٌ... فحذف صدر الجواب وهو فعلٌ واستغني عنه بذكر فاعله «رجال».

(٢) وقد تُحذف جملة الجواب كلها، ويكتفى بذكر ما يدلُّ عليها، ومنه قول الشاعر «مساور بن هند» يهجو «بني أسد»:

زَعَمْتُمْ أَنَّ إِخْوَتَكُمْ قُرَيْشٌ لَهُمْ إلفٌ وَلَيْسَ لَكُمْ إلفٌ

إن الشطر الأول جملة تامة تُثير سؤالاً: ألسنا صادقين؟

وجوابه: «كذبتم فإن قريشاً ليسوا إخوانكم» وهذا الجواب محذوف لكن دلّ عليه ما جاء في الشطر الثاني، أي: لو كنتم إخوان قريش لكان لكم إلف كما لهم.

الإلف والإلاف: العهد والأمان الذي يؤخذ لتأمين خروج التجار من أرض إلى أرض، وقد كانت قريش لها هذا الإلاف الذي يمكنها من رحلتها الشتاء والصيف، إلى الشام واليمن ومصر.

الصورة الثالثة: أن يكون بين الجملتين «كمال الانقطاع».

وهذا يكون حينما يكون بين الجملتين تباين تام، فيجب فصل الجملة التالية عن الجملة السابقة، وعدم وصلها بالواو العاطفة، بشرط أن لا يؤدي ذلك إلى إيهام غير المقصود.

وهذه الصورة تظهر في ثلاثة وجوه:

الوجه الأول:

أن تختلف الجملتان السابقة والتالية خبراً وإنشاءً في لفظيهما وفي دلاليتهما مثل قول الله عز وجل في سورة (الحجرات/ ٤٩ مصحف/ ١٠٦ نزول):

﴿وَأَقْسَطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسَطِينَ﴾

فالجملة السابقة ﴿وَأَقْسَطُوا﴾ إنشائية، مصدرية بفعل أمر.

والجملة التالية ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسَطِينَ﴾ خبرية في لفظها وفي معناها.

وظاهر أن بين هاتين الجملتين «كمال انقطاع» فوجب فصلهما.

الوجه الثاني:

أن تختلف الجملتان السابقة والتالية خبراً وإنشاءً في دلاليتهما، ولو لم تختلفا في لفظيهما، كأن تكون الأولى خبراً في لفظها ومعناها، والثانية خبراً في

لفظها إنشاءً في معناها، كأن تقول: نَجَحَ ابني في امتحاناته كلها، وَفَّقَهُ اللهُ. فالأولى خبريةً لفظاً ومعنى، والثالية خبريةً لفظاً إنشائيةً دعائيةً معنى.

الوجه الثالث:

أن لا يكون بين الجملتين مناسبة ما في المعنى، ولا يوجد ارتباط ما بين المسند إليه فيهما، ولا بين المُسند، ومنه قول الشاعر:

إِنَّمَا الْمَرْءُ بِأَصْغَرِيهِ كُلُّ امْرِيءٍ رَهْنٌ بِمَا لَدَيْهِ

ومثل أن تُعَدَّدَ حِكْمًا في موضوعات مختلفات لا ترابط بينها، كأن تقول:

«رَأْسُ الْحِكْمَةِ مَخَافَةُ اللَّهِ - لَا يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرِ مَرَّتَيْنِ - اِرْضَ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَكَ تَكُنْ أَغْنَى النَّاسِ - كَفَى بِالْمَوْتِ وَاِعْظًا».

أما الوصل مع وجود كمال الانقطاع لأن الفصل يوهم خلاف المقصود، فمن أمثله ما رُوي أن «هارون الرشيد» سأل وزيره عن شيء فقال:

«لَا وَآيَدَ اللَّهِ الْخَلِيفَةَ» فبلغ هذا القول «الصَّاحِبَ بْنَ عَبَّادٍ» فقال: هذه الواو أَحْسَنُ مِنَ الْوَاوَاتِ فِي خُدُودِ الْمَلَا حِ (أي: أحسن من الشعر الذي يتدلَّى من الصدغ ويكون مثل الواو على الخدود).

الصورة الرابعة: أن يكون بين الجملتين «شبه كمال الانقطاع».

وهذا يكون حينما تكون الجملة التالية مسبوقاً بجملتين يَصِحُّ عطفها على إحداهما، ولا يَصِحُّ عطفها على الأخرى، لأنه يُفْسِدُ المعنى المقصود للمتكلم، فَيَثْرُكُ العطف، ويجب حينئذٍ الفصل دفعا لما قد يحدث من إيهام بالوصل بالواو.

وذكروا من أمثلة هذا القسم قول الشاعر:

وَتَطَّنُ سَلْمَى أَنِّي أَبْغِي بِهَا بَدَلًا أَرَاهَا فِي الضَّلَالِ تَهِيمِ

وقد سبق شرح هذا الشاهد.

* * *

القسم الثاني :

ما ينبغي فيه الوصل أو يحسُن (أي: أن تُعطفَ الجملة التالية على الجملة السابقة بالواو).

ويظهر هذا حينما تكون العلاقة بين الجملتين متوسطة تماماً بين حالتَي «كمال الانقطاع» و «كمال الاتصال».

ويُلاحظ هذا التوسط حينما تتفق الجملتان التالية والسابقة خبراً أو إنشَاءً، لفظاً ومعنى، أو معنى فقط، مع جامع يجمع بينهما، فتُعطفُ التالية على السَّابِقة إلا إذا أوهم العطفُ خلاف المقصود.

أمثلة:

(١) قول الله عزّ وجلّ في سورة (الانفطار/ ٨٢ مصحف/ ٨٢ نزول):

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٦﴾ وَإِنَّ الْفَجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٧﴾﴾.

يُلاحظ في هاتين الجملتين المعطوفة بالواو والمعطوف عليها توسُّطاً بين كمال الاتّصال وكمال الانقطاع، وجامعاً يجمع بينهما، فالعلاقة بينهما قانون الجزاء الربّاني، ذي الصورتين المتضادتين، لفريقيين متضادّين، هما الأبرار والفجار، إنّ عنوان الجزاء عنوانٌ جامع دون اتّحاد ولا شبه اتّحاد، وإنّ التضادّ لا يصلُ إلى مستوى التباين التامّ في الفكر، لأنّ الضدّ أقربُ خطُوراً بالبال عند ذكرِ الضدّ من النظير إلى النظير، فحصلَ بذلك التوسُّط بين الكمالين، والجملتان هما أيضاً خبريتان لفظاً ومعنى، فحسُنَ عطفُ التالية على السابقة بالواو.

(٢) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

﴿فَسَبَّحْنَاهُ لَمَّا تَوَسَّوَتْ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ يُخْرِجُونَ ﴿١٩﴾﴾.

إِنَّ الْجَمَلَ الْمَعْطُوفَةَ عَلَى سَوَابِقِهَا فِي هَذَا النَّصِّ لَيْسَ فِيهَا كِمَالِ اتِّصَالٍ وَلَا شِبْهَهُ، وَلَا كِمَالِ انْقِطَاعٍ وَلَا شِبْهَهُ، مَعَ وَجُودِ جَامِعِ يُحَسِّنُ الْعَطْفَ بِالْوَاوِ، إِنَّ التَّسْبِيحَ مَغَايِرٌ لِلْحَمْدِ، لِأَنَّ مَعْنَى «سَبَّحَانَ اللَّهَ» أَنْزَهُ اللَّهُ عَمَّا لَا يَلِيْقُ بِهِ مِنْ صِفَاتٍ، وَمَعْنَى: «الْحَمْدُ لِلَّهِ» أُثْبِتَ اللَّهُ كُلَّ صِفَاتِ الْكِمَالِ الَّتِي تَقْتَضِي الثَّنَاءَ عَلَيْهِ بِهَا، وَمَعَ هَذَا التَّغَايِرِ فَإِنَّ بَيْنَهُمَا تَلَاوُماً فِكْرِيّاً لِأَنَّهُمَا مِتْكَامِلَتَانِ حَوْلَ صِفَاتِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالْجَمَلَتَانِ هُمَا أَيْضاً خَبْرِيَّتَانِ لِفِظاً وَمَعْنَى، فَحَسَّنَ عَطْفَ التَّالِيَةِ مِنْهُمَا بِالْوَاوِ عَلَى السَّابِقَةِ.

وكذلك نقول في الجمل الواردة في الآية (١٩) إذ عَطِفَتِ الثَّلَاثَةُ الْآخِرَةُ مِنْهَا عَلَى الْأُولَى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ لَوْجُودِ التَّغَايِرِ بَيْنَهُمَا مَعَ التَّلَاوُمِ الْفِكْرِيِّ. إِنَّ إِخْرَاجَ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ مَغَايِرٌ لِإِخْرَاجِ الْحَيِّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمِلَاتِمَ لَهُ، إِذْ هُمَا مِظْهَرَانِ مِنْ مِظَاهِرِ قُدْرَةِ الرَّبِّ الْخَالِقِ جَلَّ وَعَلَا، وَكَذَلِكَ إِحْيَاءُ الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا، وَكَذَلِكَ الْبَعْثُ يَوْمَ الدِّينِ.

فَاقْتَضَى التَّوَسُّطُ بَيْنَ الْكِمَالَيْنِ مَعَ التَّلَاوُمِ وَكُونِهَا جَمَلًا خَبْرِيَّةً لِفِظاً وَمَعْنَى عَطْفِهَا بِالْوَاوِ الْعَاطِفَةَ.

(٣) وَقَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الْأَعْرَافِ / ٧ مِصْحَفٍ / ٣٩ نَزُولٍ):

﴿يَبْقَى عَادَمٌ خُدُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ

الْمُسْرِفِينَ﴾.

إِنَّ جَمَلَ ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ مَعْطُوفَةٌ عَلَى: ﴿خُدُوا زِينَتَكُمْ﴾ لِمَا بَيْنَهُمَا مِنَ التَّغَايِرِ الَّذِي يَجْعَلُهَا مَتَوَسِّطَةً بَيْنَ الْكِمَالَيْنِ، مَعَ التَّلَاوُمِ الْفِكْرِيِّ بَيْنَهُمَا، وَالْجَمَلُ كُلُّهَا مِتَّفَقَةٌ فِي كُونِهَا جَمَلًا إِنْشَائِيَّةً وَارِدَةٌ إِمَّا بِصِيغَةِ الْأَمْرِ وَإِمَّا بِصِيغَةِ النَّهْيِ، وَمَعْنَاهَا جَمِيعاً عَلَى الْإِنْشَاءِ.

وَالْأَمْثَلَةُ عَلَى هَذَا كَثِيرَةٌ مِنَ الْقُرْآنِ وَمِنَ السُّنَّةِ وَمِنْ أَقْوَالِ الْبُلْغَاءِ.

الجامع المسوّغ للعطف بالواو

بين الجمل التي لا محلّ لها من الإعراب

العلاقة الجامعة بين الجملتين فكرة تسوّغ الربط بالواو، وهذه الفكرة تُتَزَعُّ من أركان الإسناد بين الجملتين وتوابع هذه الأركان، وأرى أنّه ليس باستطاعة الباحث أن يملك ضوابط محدّدة للصّور التي يُلاحَظُ فيها الجامع المسوّغ للعطف، ويميّزها عن الصور الأخرى التي يكون الجامع فيها ضعيفاً لا يحسُنُ معه العطف بالواو لدى أذكياء البلغاء.

وقد حاول السّكّاكي مستفيداً من دراساته المنطقية والفلسفية الواسعة، أن يقدم تصنيفاً للكليات التي يمكن أن يندرج تحتها الجامع، فرأى أنّ الجامع، إمّا أن يكون عقلياً، أو وهمياً، أو خيالياً.

● فالجامع العقلي: له عدة صُور:

(١) أن يتحد في الجملتين واحدٌ فأكثر من المسند إليه، والمسند، وقيودهما.

(٢) أن يتماثل في الجملتين واحدٌ فأكثر من المسند إليه، والمسند، وقيودهما، والتماثل هو التشابه، وهو غير الاتحاد.

(٣) أن تربط بين الجملتين العلاقة التي تُسمّى في الفلسفة مقولة «الإضافة» وهي التي يرتبط فيها فهم الشيء بفهم شيء آخر، مثل العلاقة بين الأبوة والبنوة، والعلاقة بين العلة والمعلول، والسبب والمسبّب، والأسفل والأعلى، والأقل والأكثر، والبيع والشراء، والشريك مع شريكه، إلى غير ذلك.

● والجامع الوهمي: هو أن تتواصل الجملتان ببعض عناصرهما عن طريق القوة الواهمة في الذهن.

(١) فمنه أن يكون بينهما شبه تماثل، إذ الوهم من شأنه أن يرفع شبهه المتماثلين إلى مرتبة المتماثلين ويجمع بينهما لتقاربهما.

كأن يجمع بين الأبيض والأصفر لأنهما يشبهان المتماثلين، وكأن يجمع بين شديد الخضرة والسواد.

(٢) ومنه أن يكون بينهما تضاداً، كالسواد والبياض، والإيمان والكفر، والضحك والبكاء، والقيام والقعود، إذ من شأن القوة الواهمة أن تجمع بين الأضداد.

(٣) ومنه أن يكون بينهما شبه تضاد، كالسما والارض، والسهل والجبل.

● الجامع الخيالي: هو أن تتواصل الجملتان ببعض عناصرهما عن طريق «المخيّلة» في الذهن، إذ الذهن يؤلف بين المتقارنين في الخيال لأسباب مختلفة، كالقلم والقرطاس، والعقد والجيد، والمعصم والسوار، والخاتم والإصبع، والغراب والسواد، إلى غير ذلك.

* * *

محسنات الوصل بالعطف بالواو

إضافة إلى الجامع المسوّغ للعطف بالواو بين الجمل التي لا محلّ لها من الإعراب توجد مُحَسِّنَات تُحَسِّنُ هذا الوصل، ومن هذه المحسنات ما يلي:

(١) أن تكون الجملتان اسميتين.

(٢) أن تكون الجملتان فعليتين، ويزيد في الحسن أن يكون الفعل في كلّ منهما ماضياً، أو مضارعاً.

هذا إذا لم يوجد داع فكري يقتضي خلاف ما سبق من محسنات، فالداعي الفكري هو الأحقّ بالمراعاة دواماً، إذا كانت قواعد العربية تَسْمَحُ بذلك.

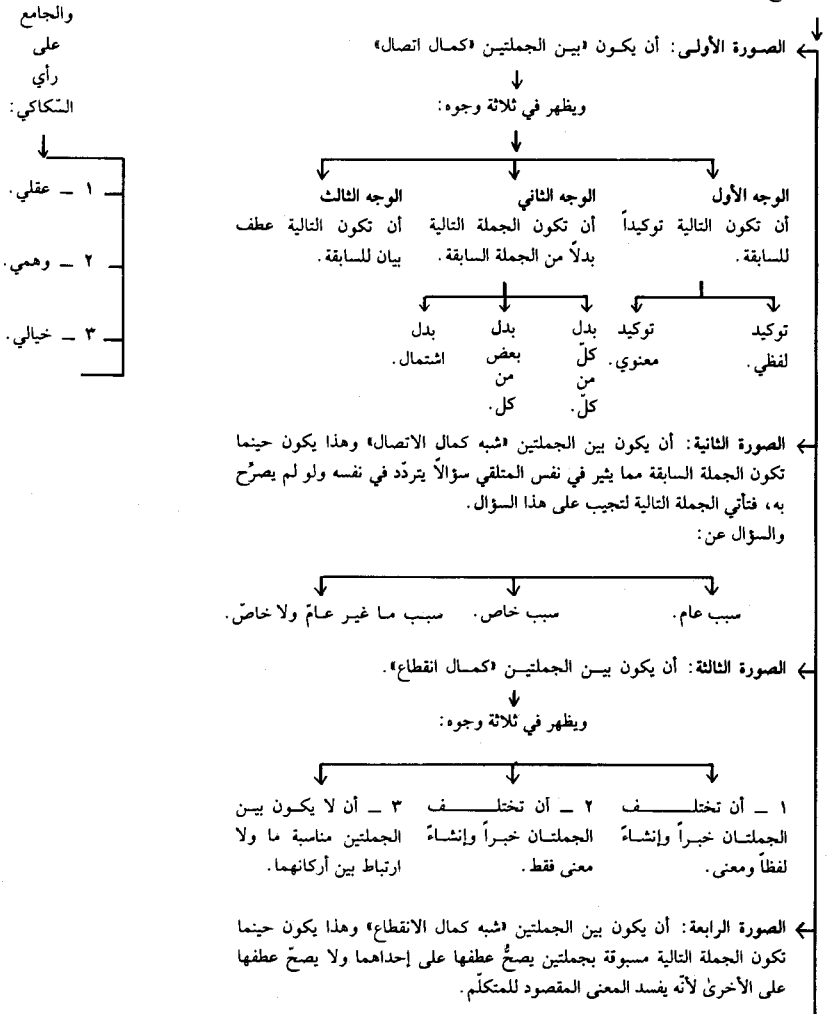
● ● ●

شجرة أقسام الفصل والوصل في الجمل التي لا محل لها من الإعراب وفق تقسيمات البلاغيين

ما ينبغي فيه الوصل أو يحسن ويظهر هذا حينما تكون العلاقة بين الجملتين متوسطة تماماً بين حالتي «كمال الانقطاع وكمال الاتصال» مع جامع يسوّغ العطف بالواو.

ما يجب فيه الفصل (أي: عدم عطف الجملة التالية على الجملة السابقة بالواو)

وله أربع صور:



فهرست الجزء الأول

الموضوع	الصفحة
● مقدمة الكتاب	٥
● مقدمات عامة	٩
(١) الغرض من دراسة علوم البلاغة والأدب	١١
(٢) نظرات تحليلية حول الغرض من الكلام	١٣
(٣) أسس البلاغة العالية والأدب الرفيع وشرحها في ثلاثة فصول:	١٨
● الفصل الأول: الجمال في الكلام	٢٠
(١) حبُّ الجمال	٢٠
(٢) مجالات الجمال	٢٢
(٣) حول تعريف الجمال	٢٤
(٤) عوامل اختلاف نظرات الناس إلى الجمال	٢٦
(٥) عناصر الكمال والجمال الأدبي	٢٨
الكلام لفظ ومعنى، واللفظ مفرد ومركب	٢٩
المفرد في المنظار الأدبي وتقسيماته	٢٩
المركب في المنظار الأدبي وتقسيماته	٣١
أولاً: من جهة السبك	٣٢
ثانياً: من جهة الكثافة	٣٣

- ٣٧ من جهة تواصل الجُمَل بأدوات الربط وتفاصيلها
- ٣٧ الكلام حول المعنى
- أولاً: مقولة الجهة الأولى حول المعنى: هل المعنى له لفظ
- ٣٨ يدلُّ عليه أو لا
- ثانياً: مقولة الجهة الثانية حول المعنى: وهو الدلالة عليه
- ٤١ بأسلوب مباشر أو غير مباشر
- ثالثاً: مقولة الجهة الثالثة حول المعنى: وهي (جهة المعاني
- ٥١ أنفسها وقيمها الفكرية والجمالية)
- ٥٥ دعوى «أعذب الشعر أكذبه»
- ٦١ منشورات في عناصر الجمال الأدبي
- ٦١ أولاً: الأسلوب البياني
- ٧١ ثانياً: التنويع والتنقل والتلوين
- ٧٣ ثالثاً: تزيين الأفكار المقصودة بالذات بأفكار أخرى
- ٧٦ رابعاً: ضرب الأمثال
- ٧٩ خامساً: السطح والعُمق
- ٨١ سادساً: أوجه النص
- ٨٢ سابعاً: الشعر وفنونه
- ٨٥ ثامناً: الغرض الفكريُّ البياني من الصورة البلاغية المختارة
- ٨٦ تاسعاً: الجمع بين الأشياء المتضادة
- ٨٨ عاشراً: مسابرة المخاطب في تداعي أفكاره
- حادي عشر: نقل الأسماء أو الصفات من مواضعها
- ٩٠ الطبيعية وإضفاؤها على غيرها
- ثاني عشر: البراعة في إبراز وتصوير الأحاسيس
- ٩٤ والمشاعر النفسية

- ثالث عشر: احترام فكر المخاطب وتقديره بترك استخدام الأسلوب
المباشر ٩٦
- رابع عشر: تقريب الصورة الغائبة بوضعها في صورة مشهودة النظير
أو متخيلة ٩٨
- خامس عشر: الإلتقان في إبراز دقائق الصورة ٩٨
- سادس عشر: لفت النظر إلى معانٍ دقيقة ١٠٣
- سابع عشر: تصوير الواقع بالصورة المتخيلة منه لدى مشاهدته ١٠٤
- ثامن عشر: حُسن تركيب الجمل وانتقاء المفردات ١٠٦
- تاسع عشر: احترام المخاطب بالتأدب معه ورعاية مشاعره ١٠٦
- عشرون: تخصيص بعض المفردات بما فيه خير وبعضها
بما فيه شرّ ١٠٧
- الفصل الثاني: الفصاحة – الفصاحة في اللّغة ١١٠
- الفصاحة في الاصطلاح ١١١
- فصاحة الكلمة ١١١
- فصاحة الكلام ١١٦
- فصاحة المتكلم ١٢٧
- الفصل الثالث: البلاغة – البلاغة في اللّغة ١٢٨
- البلاغة في الاصطلاح ١٢٩
- بلاغة المتكلم ١٣١
- عناصر البلاغة في الاصطلاح ١٣١

«علم المعاني»

الباب الأول: مدخل إلى علم المعاني

- الفصل الأول: مقدمات حول الكلمة والجمله ١٣٧
- العربية ونشأة علم المعاني ١٣٧
- (١) مقدمة ١٣٧

- ١٣٨ (٢) تعريف علم المعاني
- الفصل الثاني : بناء الجملة في اللسان العربي وتقسيمها ١٤٠
- (١) تعريف الجملة ١٤٠
- (٢) تحليل بناء الجملة على اختلاف وجوها ١٤١
- (٣) أصول المعاني التي يُدَلَّ عليها بالألفاظ ١٤٢
- (٤) ترتيب الجملة في اللسان العربي ١٤٥
- (٥) معالم الترتيب في عناصر الجملة عند النحاة ١٤٧
- (٦) نظر الأديب البليغ حول مراعاة ترتيب عناصر الجملة ١٥٣
- (٧) دوائر عطاء الجملة الكلامية ١٥٤
- (٨) نظرة حول ما يُسمَّى 'فضلة' في الجملة عند النحويين ١٥٩
- (٩) مشجرات تحليلية للجملة الكلامية ١٦١
- (١٠) تقسيم الجملة إلى خبرية وإنشائية ١٦٦
- (١١) هل التعجب من الخبر أو من الإنشاء؟ ١٦٨
- الفصل الثالث : الجملة الخبرية وأحوالها ١٧١
- (١) الصادق والكاذب من الخبر والمُخْبِر به ١٧١
- (٢) أغراض توجيه الخبر ١٧٣
- (٣) خروج الخبر عن أصل معناه للدلالة على الأمر والنهي والدعاء ١٧٥
- (٤) التأكيد وعدمه في الجملة الخبرية ١٧٨
- مخالفة مقتضى الظاهر ١٨٢
- (٥) مؤكّدات الجملة الخبرية ١٨٥
- (٦) تقسيم الإسناد في الجملة إلى حقيقي ومجازي (وهو المجاز العقلي) ١٩٤
- أحوال المُسند في الجملة المشتملة على مجاز عقلي ١٩٦
- علاقات المجاز العقلي ٢٠١
- (٧) الجملة المفيدة بين الإثبات والنفي ٢٠٢

- أدوات النفي التي تنفي الجمل ٢٠٣
- رأيي للحوفي حول أدوات النفي ٢٠٩
- قضايا حول النفي في الجملة - نفي الذات الموصوفة ٢١٠
- (٨) دلالات الجملة الخبرية بحسب أحوالها ٢١٣
- أولاً: الجملة الخبرية الاسمية التي لا يكون خبرها جملة فعلية ٢١٣
- ثانياً: دلالات الجملة الخبرية المشتملة على فعل ماضٍ ٢١٥
- ثالثاً: الجملة الخبرية المشتملة على فعل مضارع ٢١٦
- رابعاً: الجملة الخبرية المشتملة على شرط ٢١٨
- الفصل الرابع: الجملة الإنشائية وأقسامها ٢٢١
- المقدمة ٢٢٣
- المقولة الأولى: شرح الإنشاء غير الطلبي ٢٢٤
- النوع الأول: أمر التكوين ٢٢٤
- النوع الثاني: إنشاء العقود وحلّها ٢٢٤
- النوع الثالث: إنشاء المدح والذمّ ٢٢٦
- النوع الرابع: إنشاء القسم ٢٢٦
- النوع الخامس: إنشاء التوجع أو التفجع ونحوهما ٢٢٧
- المقولة الثانية: شرح الإنشاء الطلبي ٢٢٨
- النوع الأول: الأمر والنهي ٢٢٨
- دلالات صيغ الأمر والنهي ٢٣١
- النوع الثاني: التحذير والإغراء ٢٣٩
- النوع الثالث: النداء ٢٤٠
- أمثلة من خروج النداء عن معناه الأصلي إلى معاني أخرى ٢٤٦
- النوع الرابع: التمني والترجي ٢٥١
- النوع الخامس: الدعاء ٢٥٥
- النوع السادس: الاستفهام ٢٥٨

- ٢٥٨ أقسام أدوات الاستفهام
- ٢٥٩ شرح أدوات الاستفهام وبيان ما يتعلّق بكلّ منها
- ٢٦٩ خروج الاستفهام عن أصل دلّالته إلى معاني أخرى
- ٢٧١ شرح المعاني التي يُدلّ عليها بالاستفهام
- ٢٧١ (١) الاستفهام المستعمل في الإنكار
- ٢٧٤ (٢) الاستفهام المستعمل في التوبيخ والتقرير
- ٢٧٥ (٣) الاستفهام المستعمل في التقرير
- ٢٧٨ (٤) الاستفهام المستعمل في التعجب أو التعجيب
- ٢٨٠ (٥) الاستفهام المستعمل في العتاب
- ٢٨١ (٦) الاستفهام المستعمل في التذكير
- ٢٨٢ (٧) الاستفهام المستعمل في الافتخار
- ٢٨٣ (٨) الاستفهام المستعمل في التفخيم والتعظيم
- ٢٨٤ (٩) الاستفهام المستعمل في التهويل والتخويف
- ٢٨٥ (١٠) الاستفهام المستعمل في التسهيل والتخفيف
- ٢٨٦ (١١) الاستفهام المستعمل في التهديد والوعيد
- ٢٨٧ (١٢) الاستفهام المستعمل في التكثر
- ٢٨٨ (١٣) الاستفهام المستعمل في التسوية
- ٢٨٨ (١٤) الاستفهام المستعمل في الأمر
- ٢٨٩ (١٥) الاستفهام المستعمل في التنبيه
- ٢٩٠ (١٦) الاستفهام المستعمل في الترغيب
- ٢٩١ (١٧) الاستفهام المستعمل في النهي
- ٢٩١ (١٨) الاستفهام المستعمل في الدعاء
- ٢٩٢ (١٩) الاستفهام المستعمل في الاسترشاد
- ٢٩٣ (٢٠) الاستفهام المستعمل في التمني والترجي
- ٢٩٤ (٢١) الاستفهام المستعمل في الاستبطاء

٢٩٥ الاستفهام المستعمل في العرض
٢٩٦ الاستفهام المستعمل في التحضيض
٢٩٦ الاستفهام المستعمل في التجاهل
٢٩٧ الاستفهام المستعمل في التحقير والاستهانة والاستهزاء
٢٩٨ الاستفهام المستعمل في المدح أو الذم
٢٩٩ الاستفهام المستعمل في الاكتفاء
٢٩٩ الاستفهام المستعمل في الاستبعاد
٣٠٠ الاستفهام المستعمل في الإيناس
٣٠٠ الاستفهام المستعمل في التهكم والسخرية
٣٠١ الاستفهام المستعمل في الإخبار
٣٠٢ الاستفهام المستعمل في التأكيد

الباب الثاني : أحوال عناصر الجملة

٣٠٧ الفصل الأول: مقدمات عامة: وفيه خمس مقدمات وخاتمة
٣١٢ الفصل الثاني: الذكر والحذف
٣١٢ (١) مقدمة
٣١٤ (٢) دواعي ذكر العنصر مع إمكان إدراك معناه لدى حذفه
٣١٨ أمثلة وتطبيقات
٣٢٩ (٣) دواعي الحذف في الكلام
٣٢٩ - مقدمة
٣٣٠ - أقسام الحذف
٣٣٦ - دواعي الحذف البلاغية
٣٤٠ - أمثلة وتطبيقات
٣٥٠ الفصل الثالث: التقديم والتأخير
٣٥٠ (١) مقدمات

- ٣٥٠ المقدمة الأولى: الجملة الفعلية والجملة الاسمية
- ٣٥٢ جدول الجملة الفعلية
- ٣٥٤ جدول الجملة الاسمية
- المقدمة الثانية: التقديم والتأخير في الجملة
- ٣٥٦ الاسمية التي ركانها معرفتان
- ٣٥٨ المقدمة الثالثة: ترتيب التوابع إذا اجتمعت
- المقدمة الرابعة: الحالات التي قرّر النحاة وجوب
- ٣٥٩ التقديم والتأخير فيها
- ٣٦٠ خاتمة
- ٣٦٠ (٢) نظرة تحليلية عامة إلى دواعي التقديم
- ٣٦٤ (٣) دواعي تقديم المسند إليه
- ٣٦٩ • أمثلة وتطبيقات
- ٣٧٦ (٤) دواعي تقديم المُسند إذا كان الأصل فيه التأخير
- ٣٨١ (٥) دواعي تقديم متعلقات الفعل عن مراتبها
- (٦) دواعي تقديم بعض معمولات الفعل على بعض في الجملة
- ٣٨٩ ولو تكافأت مراتبها
- ٣٩٦ • الفصل الرابع: التنكير والتعريف
- ٣٩٦ (١) مقدمة
- ٣٩٨ (٢) دواعي اختيار النكرة
- ٤٠٠ • تفصيل دواعي اختيار النكرة
- ٤١٠ (٣) دواعي اختيار المعرفة
- ٤١١ أولاً: دواعي اختيار الضمير
- ٤١٣ ثانياً: دواعي اختيار العَلَم
- ٤١٧ ثالثاً: دواعي اختيار اسم الإشارة
- ٤٢٨ رابعاً: دواعي اختيار اسم الموصول

- ٤٣٦ خامساً: دواعي اختيار المعرف باللام
- ٤٣٦ (١) مقدمة
- ٤٣٧ (٢) اللام الجنسية وأنواعها، واللام العهدية وأنواعها
- ٤٤٥ سادساً: دواعي اختيار المعرف بالإضافة
- ٤٤٥ (١) الإضافة لفظية ومعنوية
- ٤٤٧ (٢) بيان الدواعي
- الفصل الخامس: التقييد وعَدَمُه ٤٥١
- ٤٥١ (١) مقدمة
- ٤٥٣ (٢) التقييد بالمفاعيل
- ٤٥٣ أولاً: المفعول به
- ٤٥٥ ثانياً: المفعول فيه
- ٤٥٥ ثالثاً: المفعول لأجله
- ٤٥٦ رابعاً: المفعول المطلق ونائبه
- ٤٥٧ خامساً: المفعول معه
- ٤٥٧ (٣) التقييد بالنواسخ
- ٤٦٠ (٤) التقييد بالحال
- ٤٦١ (٥) التقييد بالتوابع
- ٤٦٢ أولاً: النعت
- ٤٦٣ ثانياً: عطف البيان
- ٤٦٥ ثالثاً: التوكيد
- ٤٦٧ رابعاً: البدل
- ٤٦٩ خامساً: عطف النسق
- ٤٧٠ (٦) التقييد بضمير الفصل
- ٤٧١ (٧) التقييد بالشرط
- الفصل السادس: الخروج عن مقتضى الظاهر ٤٧٨

- ٤٧٨ (١) النوع الأول: الالتفات
- ٤٨٢ ● فوائد الالتفات
- ٤٨٣ ● ملاحظات حول شروط الالتفات وما يقرب منه
- ٤٨٥ ● صور الالتفات... الأمثلة
- ٤٩٣ ● تطبيقات تحليلية لأمثلة قرآنية
- ٤٩٨ (٢) النوع الثاني: أسلوب الحكيم
- ٥٠٣ (٣) النوع الثالث: الإظهار في مقام الإضمار والعكس
- ٥٠٩ (٤) النوع الرابع: التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي
- ٥١٠ (٥) النوع الخامس: التغليب
- ٥١٢ (٦) النوع السادس: وضع الخبر موضع الإنشاء والعكس
- (٧) النوع السابع: الانتقال من الفعل الماضي إلى
- ٥١٥ الفعل المضارع وبالعكس
- ٥١٧ (٨) النوع الثامن: تجاهل العارف
- ٥١٩ (٩) النوع التاسع: القلب

الباب الثالث: القصر

- ٥٢٣ (١) تعريف القصر
- ٥٢٤ (٢) أقسام القصر بحسب أحوال المقصور والمقصور عليه صفة أو موصوفاً
- ٥٢٦ (٣) أركان القصر
- ٥٢٧ (٤) أقسام القصر بحسب أحوال من يوجه له الكلام
- ٥٣٠ (٥) طرق القصر
- ٥٣٠ ● الطريق الأول: أن تدل عليه العبارة بمادتها اللغوية
- ٥٣٠ ● الطريق الثاني: أن يكون بدليل خارج عن النص
- ● الطريق الثالث: أن يكون ببعض الأدوات التي تدل
- ٥٣١ عليه بالوضع اللغوي
- ٥٣١ أولاً: النفي والاستثناء

- ٥٣١ ثانياً: كلمتا «إنّما» و «أمّا»
- ٥٣٣ ثالثاً: العطف - «لا - بل - لكن»
- ٥٣٦ ● الطريق الرابع: أن يكون القصر بدلالات في الكلام
- ٥٣٦ أولاً: تقديم ما حَقُّهُ التأخير
- ٥٤٢ ثانياً: إضافة ضمير الفصل إلى الجملة
- ٥٤٤ ثالثاً: تعريف طرفي الإسناد
- ٥٤٥ ● شجرة تقسيمات القصر

الباب الرابع: نظام التلاؤم في الكلام والفصل والوصل

- ٥٤٩ ● الفصل الأول: نظام التلاؤم في الكلام
- ٥٤٩ (١) بيان التلاؤم
- ٥٥٢ (٢) من أقوال شيوخ البلاغة والأدب حول التلاؤم في الكلام
- ● الفصل الثاني: الفصل والوصل بين عناصر الجملة الواحدة
- ٥٥٧ والجملة التي لها محلٌّ من الإعراب
- ٥٥٧ (١) مقدمة عامة
- ٥٥٧ (٢) عناصر الجملة
- (٣) الاحتمالات التي يتعرض لها المفرد
- ٥٦٠ وكذلك الجملة التي لها محلٌّ من الإعراب
- ٥٦٥ ● القاعدة بالنسبة إلى تعدّد الأخبار
- ٥٦٥ ● القاعدة بالنسبة إلى تعدد الصفات
- ٥٦٧ (٤) الجمل التي لها محلٌّ من الإعراب
- ٥٧١ ● الفصل الثاني: الفصل والوصل بين الجمل التي لا محلّ لها من الإعراب
- ٥٧١ (١) مقدّمة
- ٥٧٢ (٢) الجمل التي لا محلّ لها من الإعراب

	(٣) الأسس العامة للفصل والوصل بين الجمل التي لا محل لها
٥٧٧ من الإعراب
٥٨٣ (٤) مع علماء البلاغة في تقسيماتهم
٥٨٣ ● القسم الأول: ما يجب فيه الفصل
٥٩١ ● القسم الثاني: ما ينبغي فيه الوصل أو يَحْسُنْ
 ● شجرة أقسام الفصل والوصل في الجمل التي لا محلّ
٥٩٥ لها من الإعراب وفق تقسيمات البلاغيين
٥٩٧ فهرس الجزء الأول

انتهى الجزء الأول ويليه الجزء الثاني وأوله:
الباب الخامس في الإيجاز والإطناب والمساواة

البلاغة العربية

أسسها، وعلومها، وفنونها

وصورها من تطبيقاتها، بهيكل جديد من طريف وتليد

تأليف وتأمّل

عبد الرحمن بن حسن بن عبد الله المزني

الجزء الثاني

الدار الشامية
بيروت

دار القلم
دمشق

الطبعة الأولى

١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

دار القلم

دمشق - حلبوني - ص. ب: ٤٥٢٣ - هاتف: ٢٢٢٩١٧٧

دار البشير

بيروت - ص. ب: ١١٣/٦٥٠١ - هاتف: ٣١٦.٩٢

تطلب جميع منشوراتنا في المملكة العربية السعودية

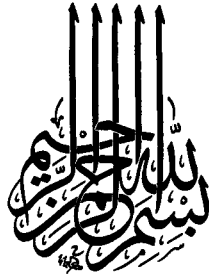
من دار البشير بجدة

جدة: ٢١٤٦٣ - ص. ب: ٢٨٩٥ - هاتف: ٦٦٠٨٩٠٤ - ٦٦٥٧٦٥١

البلاغة العربية

أسسها، وعلومتها، وفنونها

وشره من نطقها، بهيكل جديريه طريف وتليد



البَابُ الخَامِسُ

الإيجاز والإطناب والمساواة

وفيه أربعة فصول:

الفصل الأول : نَسْبُ الكثافة بين الألفاظ والمعاني
وملاءمتها لمقتضيات الأحوال .

الفصل الثاني : المساواة بين الألفاظ والمعاني .

الفصل الثالث : الإيجاز، وفيه نوعان :

النوع الأول : إيجاز القِصْر .

النوع الثاني : إيجاز الحذف .

الفصل الرابع : الإطناب، وهو قسمان :

القسم الأول : الإطنابُ بالبَسْط .

القسم الثاني : الإطنابُ بالزِّيَادَة .

الفصل الأول

نسب الكثافة بين الألفاظ والمعاني وملاءمتها لمقتضيات الأحوال

ينقسم الكلام بالنظر إلى المنطوق به، وإلى معانيه من جهة نسب الكثافة بين كل منهما في مقابل الآخر إلى ثلاثة أقسام رئيسة سووية، ويأتي وراءها أقسام أخرى.

● فالأقسام السووية الثلاثة هي ما يلي:

القسم الأول: الكلام المتّصف بالمساواة بين ألفاظه ومعانيه مع مطابقتها لمقتضى الحال.

المساواة: هي التطابق التام بين المنطوق من الكلام وبين المراد منه دون زيادة ولا نقصان.

القسم الثاني: الكلام المتّصف بالإيجاز غير المُخِلّ، مع مطابقتها لمقتضى الحال.

الإيجاز: كون الكلام دالاً على معانٍ كثيرة بعبارات قليلة وجيزة دون إخلال بالمراد.

القسم الثالث: الكلام المتّصف بالإطناب لاشتماله على زيادة ذات فائدة، مع مطابقتها لمقتضى الحال.

الإطناب: كون الكلام زائداً عما يمكن أن يُؤدَّى به من المعاني في معتاد الفصحاء لفائدة تُقصد.

ويكون الكلام بليغاً إذ وُضع كُلُّ قِسْمٍ من هذه الأقسام في موضعه الملائم له، ورُوعيَ فيه مقتضى حال المتلقي.

● وأما المعيب من الكلام في هذا الباب فيكون بواحد فأكثر من الوجوه الثلاثة التالية:

الوجه الأول: الإيجاز المخلّ بالمعنى المقصود بالبيان.

الوجه الثاني: الإطنابُ بزيادةٍ غير ذات فائدة تُقصدُ لدى أذكياء البلغاء، وقد يطلق عليه لفظ «الإسهاب» أو لفظ «التطويل».

ويكون الإطناب غير المفيد بأحد أمرين:

● بالتطويل دون فائدة، وطريقه أن لا يتعيّن الزائد في الكلام على وجه الخصوص، كأن تُوجد لفظتان مترادفتان تصلح كلُّ منهما لأن تكون هي الزائدة.

● أو بالحشو دون فائدة، وطريقه أن يكون الزائد غير المفيد في الكلام متعيّناً بلفظه، كلمةً فأكثر.

هذا ما توصّلتُ إليه أنظار المحققين من أهل البلاغة والأدب حول تقسيمات الكلام من جهة النّسبِ العامّة للكثافة بين الألفاظ والمعاني.

* * *

مقتضيات استعمال كلِّ من الأقسام السويّة:

مما اتفق عليه أئمة البلاغة والأدب أنّ لكلِّ قِسْمٍ من أقسام الكلام الثلاثة: «المساواة – الإيجاز – الإطناب» مقتضيات أحوالٍ تُلائمه، ومناسباتٍ تقتضيه، ودواعي بلاغيّة تستدعيه، وموضوعاتٍ يحسُن أن يُختار لها.

وفيما يلي طائفة من أقوالهم:

(١) روي أن الخليل بن أحمد الفراهيدي أحد أئمة اللغة والأدب قال: «يُخْتَصَرُ الْكِتَابُ لِيُحْفَظَ، وَيُبَسَّطُ لِيُفْهَمَ».

(٢) قيل لأبي عمرو بن العلاء «وهو أحد أئمة اللغة والأدب، وأحد القراء ووصف بأنه أعلم الناس بالأدب والعريية والقرآن والشعر»: هل كانت العرب تُطِيلُ؟

قال «نعم، كانت تُطِيلُ لِيُسْمَعَ مِنْهَا، وَتُوجِزُ لِيُحْفَظَ عَنْهَا».

(٣) وروي أن جعفر بن يحيى البرمكي «أحد الموصوفين بفصاحة المنطق

وبلاغة القول» قال:

«مَتَى كَانَ الْإِيجَازُ أَبْلَغَ كَانَ الْإِكْتِارُ عَيْتًا، وَمَتَى كَانَتْ الْكِفَايَةُ بِالْإِكْتِارِ كَانَ الْإِيجَازُ تَقْصِيرًا».

(٤) وقال أحد الشعراء يثني على خطباء «إياد» كما ذكر الجاحظ:

يَرْمُونَ بِالْخُطْبِ الطَّوَالَ وَتَارَةَ وَحَيَّ الْمَلَا حِظِ خَشِيَةَ الرُّقْبَاءِ

أي: يخطبون تارةً خطباً طويلاً، إذا كانت حال المخاطبين تقتضي الإطالة،

ويوجزون خطبهم تارةً أخرى إيجازاً يشبه وحى الملاحظ.

الوحي: الكلام الخفي السريع.

الملاحظ: جمع «ملحظ» وهو اللحظ أو موضعه من العين، واللحظ هو

النظر بطرف العين مما يلي الصدغ، ومن المعروف أن الناس قد يتفاهمون عن طريق اللحظ، وإشارات خشية الرقباء.

(٥) وقال قائل لبشار بن بُرْد «أحد فحول الشعراء، وقد أدرك الدولتين

الأموية والعباسية»: إِنَّكَ لَتَجِيءُ بِالشَّيْءِ الْهَجِينِ الْمَتَفَاوِتِ^(١).

(١) الهجين من الكلام: ما كان معيياً مرذولاً. والمتفاوت: هو المتباين وغير السوي.

قال بشار: وما ذاك؟

قال: بينما تثير النقع وتخلع القلوب بقولك:

إِذَا مَا غَضِبْنَا غَضَبَةً مُضْرِيَةً هَتَكْنَا حِجَابَ الشَّمْسِ أَوْ تُمَطِّرَ الدَّمَآ
إِذَا مَا أَعْرَنَّا سَيِّدًا مِنْ قَبِيلَةٍ ذُرًّا مِنْبَرٍ صَلَّى عَلَيْنَا وَسَلَّمَا
نَرَاكَ تَقُولُ:

رَبَّابَةٌ رَبَّةُ الْبَيْتِ تَصُبُّ الْخَلَّ فِي الزَّيْتِ
لَهَا عَشْرُ دَجَاجَاتٍ وَدِيكَ حَسَنُ الصَّوْتِ

فقال بشار:

«لكلِّ وَجْهٍ وَمَوْضِعٍ، فالقولُ الأوَّلُ جدُّ، والثاني قُلْتُهُ فِي «رَبَّابَةٌ» جاريتي، وَأَنَا لَا أَكُلُ الْبَيْضَ مِنَ السُّوقِ. و «رَبَّابَةٌ» لها عشرُ دجاجاتٍ وديك، فهي تجمع لي البيض، فهذا القول عندها أحسنُ من (قِفَا نَبِكُ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلٍ) عندك».

(٦) وقال الزمخشري: «كما يجب على البليغ في مَظَانِّ الإجمال أن يُجْمَلَ ويُوَجِّزَ، فكذلك الواجب عليه في موارد التفصيل أن يُفَصِّلَ ويُشَبِّعَ».

(٧) وقالوا: «لكلِّ مقامٍ مقال».

(٨) ومن أمثلة مراعاة مقتضيات الأحوال بكلِّ من «المساواة والإيجاز والإطناب» ما جاء فيما حكاه الله عزَّ وجلَّ من قصة موسى والخضر عليهما السلام في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول):

﴿ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَيْتَكَ عَلَىٰ أَنْ تَعْلَمَ مِنِّي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خَيْرًا ﴿٦٨﴾ !؟

قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْتَلِنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحَدِّثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾

فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا

قَالَ أَخْرَقَهَا لِطُغْرِقِ أَهْلِهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧٦﴾ (١)

قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٦﴾؟

قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٦﴾ (٢)

فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ

قَالَ أَفَتُلْتَمَسُ لَنَفْسٍ أُخْرَى لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿٧٦﴾ (٣)

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٦﴾

قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَـجِّبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾

فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا آتَىٰ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا فَأَبْوَأَ أَنْ يُضَيَّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَاقَامَهُ .

قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾

قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٧﴾ .

● نلاحظ في هذا النص أن الخضر قال لموسى عليهما السلام في بدء الأمر:

﴿ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ .

هذا كلام مؤكد مُسَاوٍ للمعنى المقصود بيانه، لا إطناب فيه ولا إيجاز .

● وحين اعترض موسى عليه السلام الاعتراض الأول على الخضر بشأن

خرقه السفينة، قال له الخضر:

(١) إمرأ: أي: امرأ عجيبياً منكراً.

(٢) ولا تُرْهِقْنِي: أي: : ولا تُحْمَلْنِي، والمعنى: ولا تُحْمَلْنِي من أَمْرِي ما يعسر عليّ تحمّله

بشدة المحاسبة.

(٣) نُكْرًا: أي: امرأ مُنْكَرًا عظيماً.

﴿أَلَمْ أَقُلْ: إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾.

هذا أيضاً كلامٌ مؤكِّدٌ ومُساوٍ للمعنى المقصود بيانه، لا إطناب فيه ولا إيجاز.

وحين اعترض موسى عليه السلام الاعتراض الثاني على الخضر بشأن قتله الغلام، قال له الخضر:

﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكَ: إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾.

فَأُطْنِبَ إذْ أضاف عبارة ﴿لَكَ﴾ مع أن هذه الزيادة لا لزوم لها في الكلام المساوي، فعبارة ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ بأسلوب الخطاب تدلُّ على أن الخطاب قد وَجَّهَهُ الخضرُ له، فما الداعي لأن يقول له: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكَ؟﴾؟

أقول: إن الداعي البلاغي لهذا الإطناب هو أن موسى عليه السلام تصرفَ تصرُّفٍ من لم يُدْرِكْ أن الْخِطَابَ قَدْ كان مُوجَّهًا له فيما سبق، فاعترض، فاقترض حاله أن يقول له الخضر: إني كُنْتُ وَجَّهْتُ الْخِطَابَ لَكَ بِأَنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا.

وحين اعترض موسى عليه السلام الاعتراض الثالث على الخضر بشأن إقامته الجدار المائل في قرية أبي أهلها أن يُضَيِّقُوهُمَا، قال له الخضر:

﴿هَذَا فِرَاقٌ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾.

فأوجز في كلامه، إذ طوى من اللفظ عبارة: لَأَنَّكَ لَمْ تَسْتَطِعْ مَعِيَ صَبْرًا، وقد انتهت مُدَّةُ الاتفاقِ على مصاحبتي.

وبعد أن أبان الخضر لموسى عليهما السلام التأويل الحكيم للأحداث التي أجراها بأمر الله أو إذنه قال له:

﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾.

فَأَوْجَزَ فِي بَيَانِهِ حَتَّى فِي كَلِمَةِ «تَسْتَطَعُ» إِذْ قَالَ: «تَسْتَطَعُ» بِحَذْفِ التَّاءِ الَّتِي بَعْدَ السَّيْنِ .

إِنَّ مَقْتَضَى الْحَالِ بَعْدَ انْتِهَاءِ أَجْلِ الْمَصَاحِبَةِ، إِذْ لَمْ يَلْتَزِمِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِشُرُوطِهَا، أَنْ يَكُونَ الْكَلَامُ مُوجِزاً جَدّاً، إِذْ لَا دَاعِيَ لِلإِطْنَابِ وَلَا لِلْمَسَاوَاةِ، وَمِثْلُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَكْفِيهِ مِنَ الْكَلَامِ عِبَارَةٌ: «هَذَا فِرَاقٌ بَيْنِي وَبَيْنِكَ» فَهُوَ الْخَبِيرُ بِإِخْلَالِهِ بِشُرُوطِ الْمَصَاحِبَةِ الْمَتَّفِقِ عَلَيْهَا .

* * *

مَجَالَاتُ اسْتِعْمَالِ الْأَقْسَامِ السَّوِيَّةِ

ذَكَرَ أَسَاطِينُ الْأَدَبِ، وَبُلْغَاءُ النَّاسِ وَفُطُنَاؤُهُمْ طَائِفَةً مِنْ مَجَالَاتِ الْقَوْلِ الَّتِي يَحْسُنُ فِيهَا اسْتِعْمَالُ كُلِّ مِنْ أَقْسَامِ الْكَلَامِ الثَّلَاثَةِ:

«المساواة - الإيجاز - الإطناب» .

وفيما يلي عرضٌ مفصّلٌ لبعض هذه المجالات:

أولاً:

مِمَّا هُوَ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ لَزُومُ اخْتِيَارِ أُسْلُوبِ «المساواة» بَيْنَ الْأَلْفَاظِ وَالْمَعَانِي، حَتَّى تَكُونَ الْأَلْفَاظُ كَالْقَوَالِبِ لِلْمَعَانِي دُونَ زِيَادَةٍ وَلَا نَقْصَانٍ، فِي عِدَّةِ مَجَالَاتٍ مِنْ مَجَالَاتِ الْقَوْلِ، مِنْهَا مَا يَلِي:

- (١) مُتُونُ الْعُلُومِ الْمَحْرَّرَةِ .
- (٢) نُصُوصُ الْمَوَادِّ الْقَانُونِيَّةِ وَالتَّشْرِيْعِيَّةِ .
- (٣) نُصُوصُ الْمَعَاهِدَاتِ بَيْنَ الدُّوَلِ .
- (٤) الْقَرَارَاتُ وَالْمَرَاْسِمِ .
- (٥) بَيَانَاتُ أَحْكَامِ الدِّينِ، وَمَطَالِبُ الشَّرِيعَةِ الْمَحْدَدَةِ .

(٦) بيانات الحقوق والواجبات .

إلى غير ذلك مما يشبه هذه المجالات .

* * *

ثانياً:

واستحسن الأدباء والبلغاء والعلماء «الإيجاز» في طائفة من مجالات القول،

منها ما يلي:

(١) الكتب الصادرة عن الملوك والرؤساء إلى الولاة والعَمال، ولا سيما في

أوقات الحروب، وفي الشدائد والأزمات .

(٢) الأوامر والنواهي السلطانية .

(٣) كتب السلاطين بطلب الخراج وجباية الأموال وتدبير الأعمال .

(٤) كتب الوعد والوعيد .

(٥) الشكر على النعم التي تُهدى، العوارف التي تُسدئ

(٦) الاستعطاف وشكوى الحال .

(٧) استجداء حُسنِ النظر وشمولِ العناية .

(٨) الاعتذار، والتنصّل من تهمّة الذنب وتبعاته .

(٩) العتاب بين المحبّين والأصحاب .

(١٠) مخاطبة الأذكياء الذين يكفيهم اللَّمَحُ، وتُقنعهم الإشارة .

(١١) المواطن التي يَحْسُنُ فيها الرّمز لإخفاء المقاصد عن غير من يوجّه له

القول، من رقباء أو ذوي فضول .

إلى غير هذه المجالات ممّا يُشبهها .

* * *

ثالثاً:

واستحسنَ الأدباء والبلغاء وذوو التجارب «الإطناب» وبسط الكلام والإسهاب فيه، في عدّة مجالات من القول، منها ما يلي:

(١) الحاجة إلى الإقناع في مشكلات القضايا الفكرية، وفي تعليم مسائل العلوم الدقيقة الخفيّة الصعبة الفهم.

(٢) الوعظ بالترغيب والترهيب، والتحسين والتزيين، والتنفير، والتقييح، وسوق الأمثال والقصص.

(٣) الخطب في الحماسة، وفي إثارة مشاعر الحبّ أو الكراهية، وفي استجلاب الرضا، أو استثارة الغضب، وذلك لأنّ تحريك العواطف واستثارتها يحتاج إطناباً، وبيانا مفصّلاً مبسوطاً.

(٤) كتابة التاريخ وتدوين الحوادث.

(٥) الخطبُ في الصلح بين المتخاصمين، لإصلاح ذات البين، وتهديم ما في النفوس من ضغائن.

(٦) بعض مجالات المدح لمستحقّيه، بغية دفع الممدوح للاستزادة من الخير، والالتزام بالبعد عمّا يُوجّه لفاعله أو تاركه الذمّ بسببه.

(٧) تعبيرات العشاق والمحبتين عن مشاعرهم وأشواقهم.

(٨) تعبيرات ذوي الأحزان والآلام عن مشاعرهم.

(٩) كتب الصكوك والعقود في البيوع والمداينات ونحوها، إذ ينبغي فيها التفصيل الدقيق، لأمن الخلاف والتلاعب.

* * *

وفي الفصول الثلاثة التالية شرح وتفصيل لأقسام الكلام السويّة التالية:

«المساواة، والإيجاز، والإطناب».

• • •

الفصل الثاني

المساواة بين الألفاظ والمعاني

الأصل في الكلام أن يُؤْتَى به مساوياً للمعاني التي يدلُّ عليها، دون أن تكون ألفاظُهُ زائدةً ولا ناقصةً.

أما القدرةُ على المطابقة التامة بين الجُمْل المنطوقة والمعاني المرادة منها، فهي من القدرات النادرة في المتكلمين من الناس، لأنَّ الناسَ في النسبة العظمى منهم:

● إمّا أن يكونوا من ذوي القدرة على الكلام والرغبة فيه مع تمثُّعهم بذاكرة كلامية واسعة وقيامهم، فتفيض لديهم منابع القول، وبذلك يزداد المنطوق من كلامهم عما يريدون التعبير عنه من المعاني.

وقد يصل بعض هؤلاء إلى مستوى الإسراف والتبذير في القول، والثروة بلا طائل، وللنساء النصيب الأكبر من هذا.

● وإمّا أن يكونوا ميالين إلى قلة الكلام وإيثار الصمت إلا عند الحاجة الماسة، بسبب ضابطٍ حكيمٍ من عقولهم، أو بسبب شعورهم بالعجز عن استدعاء الكلمات المعبرّات عما يُريدون من المعاني، إذ لا تُساعدهم ذاكراتهم على اختيار الكلمات المناسبة لما يُريدون التعبير عنه، أو يُصابون بالعي والحصر في مواقف الرغبة أو الرهبة، أو اضطراب النفس وقلقلها لأمرٍ ما، فيتعَثَّرون في الكلام، ويحاولون عند الحاجة إليه اختيار أقله، للدلالة عما يريدون التعبير عنه، أو تكون ألسنتهم ثقيلة الحركة يتعثّر فيها النطق بحسب فطرتهم.

● لكنّ الذين يتحلّون بالقدرة على القول الكثير، والقدرة أيضاً على ضبط نفوسهم وألستهم عن شهوة الكلام والإطالة فيه، وعلى اختيار الكلام المساوي تماماً للمعاني التي يريدون التعبير عنها دون زيادة ولا نقص، فهُم القلّة النادرة من الناس.

ولا يصل الواصلون إلى القدرة على هذه المطابقة إلا إذا اجتمعت لديهم عدّة صفات، يتّضح لنا منها الصفات التالية:

الأول: الاستعداد الفطريّ للتحكّم بما يقولون.

الثانية: الثروة اللّغوية الواسعة.

الثالثة: القدرة على حُسن الاختيار والانتقاء من الكلمات وأساليب التعبير.

الرابعة: الحكمة في ضبط مسيرة القول على منهج التوسط دون وكسٍ ولا شطط.

الخامسة: التدرّب الطويل والممارسة، مع مُتابعة النظر الناقد، والتمحيص والتحسين.

وبالتّبع نلاحظ أنّ الكلام المطابق للمعاني التي يراد التعبير عنها به حتى يكون بمثابة القوالب لها تماماً كلامٌ نادرٌ، وهو الأقلّ دوماً من مجموع الكلام، ومنزلته رفيعة جداً إذا كان في الموضوعات التي يحسُن أن يكون الكلام فيها مطابقاً للمعاني المرادة منه تماماً، لا زائداً ولا ناقصاً، وهي الموضوعات التي سبق بيانها في الفصل الأوّل من هذا الباب.

إنّ القادر على ضبط كلامه وجعله مطابقاً لما يريد من المعاني دون زيادة ولا نقصان متكلمٌ ماهرٌ جداً، وهو بمثابة من يمشي على طريق مطابق لحدود مواطئ قدميه تماماً، إذا انحرف يميناً أو شمالاً خرج عنه فأساءً مُتحدراً أو صاعداً أو ساقطاً.

ولذلك يُختارُ لصياغة القوانين والقرارات والمعاهدات والبيانات المحددة والمواد المحررة المحصنة أمهرُ كُتّاب القوانين وصائغي نصوصها، إذ يجب أن تكون موادها مطابقةً تماماً للمعاني التي يُراد الدلالةُ عليها بها، حتى لا تُفسَّر بما يَنقُصُ عن المعاني التي حصل عليها الاتفاق، أو بما يزيد عليها، فلمفسري مواد القوانين والمعاهدات والعقود والقرارات ونحوها حِيلٌ كثيرة يغيرون بها مفاهيم نصوصها، متى وجدوا فيها ثغرات نقص أو زيادة تسمَح بالتحايل والتلاعب في التفسير.

وقلما نجد في مجموع كلامٍ كثير كلاماً مساوياً للمعاني المرادة منه دون زيادة ولا نقص، ولا سيما في النصوص التي تُصاغ بأساليب أدبية، فالأمثلة على الكلام المساوي في النصوص الأدبية أو المطعّمة بالأساليب الأدبية نادرة، قد نجدها في جُمَل، وفي كلامٍ قصير، وفي بيتٍ من الشعر، أو في شطرٍ من بيت.

ولندرة المساواة في الكلام توهم بعض الباحثين أنه لا واسطة بين الإيجاز والإطناب، وجعل القسمة ثنائية لا ثلاثية وأدخل المساواة في الإيجاز.

* * *

اختلاف مقادير الكلام

في المساواة مع اتحاد المعنى المراد

من الملاحظ في أساليب الكلام العربي ذي التعبيرات المختلفة عن المعنى الواحد، أنه قد يُوجدُ فيها تعبيران أو أكثر عن معنى واحد، ينطبق عليهما أنهما مساويان للمعنى، مع أن عدد كلمات أحدهما أكثر من عدد كلمات الآخر، فيقالُ لذي الكلمات الأكثر أطول، ولذي الكلمات الأقل أقصر.

إن قول القائل: «أريد أن أشرب ماء» كلامٌ مطابقٌ لمعناه دون زيادة ولا نقص بحسب أصول الكلام العربي.

فإذا قال: «أريدُ شُرْبَ ماءٍ» باستعمال المصدر «شُرْبٌ» بدل: «أن أشرب» المؤولان بمصدر، فقد جاء أيضاً بكلامٍ مطابق لمعناه دون زيادة ولا نقص وفق أصول الكلام العربي.

لكنَّ العبارة الثانية أقصرُ بالنظر إلى أنَّها مؤلَّفةٌ من ثلاث كلمات ملفوظة، أمَّا الأولى فهي مؤلَّفةٌ من أربع كلماتٍ ملفوظة.

وربَّ كلمةٍ تدلُّ على معنيَّين فأكثر، ويكون فيها غناءً عن كلمتَيْن فأكثر، واستعمالها يقلل من طول الكلام المطابق المساوي لمعناه.

إنَّ عبارة «مدينة» أو «قرية» مساوية في المعنى لعبارة «مباني سكنية مجتمعة» وقولُ القائل: «سكنتُ في قرية» أو «سكنتُ في مدينة» يساوي في المعنى قوله: «سكنت في مباني سكنية مجتمعة» وكلُّ من التعبيرين ينطبق عليه عنوان الكلام المساوي لمعناه الذي لا زيادة فيه ولا نقصان، مع أنَّ أحدهما مؤلَّف من ثلاث كلمات ملفوظة، والآخر مؤلَّف من خمس كلمات ملفوظة.

وبناءً على هذا فباستطاعتنا أن نُفصِّل الكلام المساوي لمعناه فنجعلُه ذا نِسَبٍ مختلفة في الطولِ والقصرِ، كشأن القسمين الآخرين من الكلام: «الإيجاز والإطناب» كما سيأتي به البيان إن شاء الله، ففي المساوي أقصر وقصير، وطويل وأطول أحياناً.

بعد هذا أقول: إنَّ كلاً من المساوي الأقصر والمساوي القصير والمساوي الطويل والمساوي الأطول له مواضع ثلاثه، ويكون فيها هو الأبلغ بحسب مقتضيات الأحوال.

فكتابُ المتون المكثفة يُلجؤون إلى اختيار المساوي القصير أو الأقصر، وكذلك مختزلو المقالات الطوال لتقديمها لرؤسائهم الذين تضيق أوقاتهم عن قراءة الكلام الكثير.

وشرّاح المتون بشروح موجزة تقتصر على حلّ العبارة يُنَجِّوْنَ إلى اختيار المساوي الطويل أو الأطول.

ملاحظتان:

(١) لم يُبَيِّنْ علماء البلاغة — فيما أعلم — على هذا التفصيل للكلام المطابق المساوي لمعناه، لتعذر رسم حدود له، إلا أنني رأيت أن من المناسب التنبيه عليه، لبيان أن لكل من أقسام الكلام المساوي مواضع ثلاثه، ومقتضيات أحوال من المستحسن اختياره لها.

(٢) قد يلتبس المساوي القصير أو الأقصر بقسم: «إيجاز القصر» الآتي بيانه — إن شاء الله — إلا أن باستطاعتنا التفريق بأن «إيجاز القصر» يختص بجوامع الكلم الذي تُختار فيه الكليات العامة، بدلالاتها الشاملات، وتكون عباراته بوجه عام مما لا ينطبق عليها عنوان «المساواة» فإيجاز القصر قد يُفِيضُ بمعان كثيرة، تحتاج شروحا وتفصيلات بكلام كثير جدا.

أمثلة:

أورد البلاغيون أمثلة من الكلام الذي رأوا أنه يتَّصِفُ بالمساواة بينه وبين المعاني المرادة منه، دون أن يُتَّبِعُها بدراسات تحليلية كاشفات، وليس من المستبعد أن يكون بعض ما أوردوه منها عُرْضَةً لاحتتمالات كونه مما ينطبق عليه عنوان: «الإيجاز» لا عنوان المساواة أو ينطبق على بعض عناصره عنوان: «الإطناب» والكاشف لذلك الدراسة التحليلية الشاملة للنص بكلِّ جُمَلِه وعناصرها.

والمهم أن نقول: إن من الكلام ما ينطبق عليه عنوان المساواة حتماً، ولو كانت الأمثلة منه ذات النصوص الطويلة نادرة، ولا تخلو من اعتراضات وإشكالات قد تجعلها أمثلة غير مطابقة لما سبقَتْ له.

فمن الأمثلة على الكلام المتصف بالمساواة ما يلي:
المثال الأول:

قول الله عز وجل في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول) على ما أورد
القزويني في التلخيص:

﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ...﴾ [الآية ٤٣].

يَحِيقُ: أي: يُحِيط. الْحُقُوقُ: الإطار المحيط بالشيء المستدير حوله.

المكْرُ السَّيِّئُ: أي: التدبير الخفي الموصوف بأنه سَيِّئٌ لأنه استُخدم في
الشر لا في الخير، فليس كلُّ مَكْرٍ سَيِّئًا، إذ من المَكْرِ ما هو مَكْرٌ في الخير، وهو
عندئذ يكون مكرًا حسنًا لا سَيِّئًا.

إِلَّا بِأَهْلِهِ: أي: إلَّا بأصحابه المدبّرين له، أو إلَّا بالمستحقين له.

دلّت هذه العبارة القرآنية على أنّ إحاطة المكر السَّيِّئِ إحاطة تامّة لا تكون
إلَّا بأصحابه المدبّرين له، أو المستحقين له.

لكنّ هذا المثال قابل للمناقشة من وجهين:

الوجه الأول: أنّ كلمة [يَحِيقُ] في اللغة تدلُّ على معنى الإحاطة، وقد فهم
المفسرون منها مع معنى الإحاطة معنى الإصابة والنزول، وهذه الزيادة إنما فهموها
من دلالات لزومية فكرية، خارجة عن المعنى المطابقي لفعل «يحيق» وبناءً على
هذا يكون المثال مما يندرج تحت عنوان: «الإيجاز» الذي اعتمد فيه على الدلالة
اللزومية، ولا يندرج تحت عنوان: «المساواة» التي فيها تطابُّق تامٌّ بين اللفظ
والمعنى بحسب الأوضاع اللغوية.

الوجه الثاني: أنّ عبارة [بأهله] ذات احتمالين:

● فهل المراد منها أصحاب المكر المدبّرون له؟

● أو المراد منها المستحقون له، سواءً أكانوا هم المدبرين له، أو هم ومعهم الذين دبر ضدهم، إذا كان هؤلاء أصحاب شرٍّ أيضاً يستحقون أن يحقَّ بهم المكر السيء؟. فإذا كان المراد هذا المعنى الثاني فالعبارة تشتمل على إيجاز القصر باستخدام لفظٍ ذي معنىٍ كليٍّ صالحٍ لنوعين: مُدبِّرِي المكر، ومَسْتَحِقِّهِ من غيرهم.

المثال الثاني:

قول النابغة الذبياني من قصيدة يمدحُ بها «النعمان بن المنذر» مَلِك الحيرة، على ما أورد القزويني في التلخيص:

فإِنَّكَ كَاللَّيْلِ الَّذِي هُوَ مُدْرِكِي وَإِنْ خِلْتُ أَنَّ الْمُتَأَيَّ عَنْكَ وَاسِعُ

مُدْرِكِي: أي: بالغ إليَّ ومحيطٌ مهماً فررتُ منه.

خِلْتُ: أي: ظننتُ.

الْمُتَأَيَّ: أي: مكان الابتعاد.

والمعنى: فَإِنَّكَ — أيها الملك — بسبب قُدْرَتِكَ على الوصول إلى القَبْضِ عَلَيَّ، والإمساك بي تشبه الليل الذي هو مُدْرِكِي لا محالة أينما فررتُ منه قاصداً أي مكانٍ من الأرض.

هذا واقع حالي بالنسبة إلى قدرتك على الظفر بي، وإن ظننتُ أن مكان الابتعادِ عن جُنُودِ سلطانك في البلاد مكانٌ واسعٌ أجِدُ فيه مفرّاً منهم.

لكنَّ هذا المثال قابل للمناقشة أيضاً من وجوه:

الوجه الأول: أن استخدام «النابغة» أسلوب تشبيه «النعمان» بالليل في قُدْرَتِهِ على الظفر بمن يطلُّهُ من قومه أسلوبٌ أوجزَ فيه كلاماً طويلاً فهو مثالٌ يصلح للإيجاز لا للمساواة.

الوجه الثاني: من الملاحظ أن «النابعة» خاطب الملك بكاف الخطاب، وهو يريد سُلطته عن طريق جنوده، إذ هو بشخصه لا يستطيع أن يُدرك النابعة لو أراد الفرار منه، وهذا من إطلاق السبب وإرادة المسبب، فهو من المجاز المرسل أحد العناصر التي تُستخدَم للإيجاز، والتقدير فإنَّ سُلطتَكَ التي تُستخدِمُ فيها جنودَكَ الكثيرين كاللَّيْلِ الذي هو مدركي، وهذا إيجاز بالحذف.

الوجه الثالث: بالغ النابعة فشبّه «الثَّعْمَان» باللَّيْلِ، فزادَ عَمَّا يُريد التعبير عنه، من أن الملك قادر على أن يوجّه أوامره فتلحق جنوده بمن يفرض منه فتقبض عليه، وهذه الزيادة ذات فائدة، فهي من الإطناب الحسن.

الوجه الرابع: أن الشطر الأول من البيت كافٍ للدلالة على مقصوده، إلا أنه زاده تأكيداً بقوله في الشطر الثاني: «وَإِنْ خِلْتُ أَنَّ الْمَتَأَى عِنكَ وَاسِعٌ» وهذا إطنابٌ بزيادة مفيدة.

المثال الثالث:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾.

يقربُ هذا المثال من أن يكون مثالاً صالحاً للمساواة، إلا أن استعمال عبارة: «فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ» تَصْلُحُ لَأَنَّ تَكُونَ مِثَالاً لِلِإِجَارِ بِالْحَذْفِ، إذ التقدير: فَعَلَيْهِ يَنْزِلُ عِقَابُ كُفْرِهِ.

وكذلك عبارة: «فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ» إذ تقديرها: فَلَخَيْرِ أَنْفُسِهِمْ، أو لمصلحة أنفسهم يَمْهَدُونَ.

يضاف إلى هذا أن عبارة: «وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا» فيها إيجاز بالحذف أيضاً، إذ التقدير: وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا هُوَ ثَمَرَةٌ إِيْمَانٍ صَحِيحٍ.

المثال الرابع:

قول الله عز وجل في سورة (الطور/ ٥٢ مصحف/ ٧٦ نزول):

﴿كُلُّ أَمْرٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾

أي: كلُّ امرئٍ محبوسٌ بما كسب.

هذا المثال مع قربه لأن يكون مثالاً صالحاً للمساواة، إلا أننا نجد فيه لدى التحليل إيجازاً بالحذف، إذ التقدير: كلُّ امرئٍ كَسَبَ إثمًا فهو بما كَسَبَ منه محبوسٌ حتَّى يُحَاسَبَ على ما كَسَبَ ويجازى، أو يغفر الله له.

المثال الخامس:

قول الله عز وجل في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) خطاباً للمؤمنين

الذكور حول الموارث:

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لِهِنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوَصِّينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمْنُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوَصِّونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ...﴾ [آية ١٢].

نظرتُ في هذا النص فوجدتُ معظمه صالحاً لأن يكون مثالاً للمساواة، إلا أن من الملاحظة فيه أن عبارة: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ﴾ الواردة فيه مرتين تشمل على إيجاز بالحذف، إذ التقدير: من بعدِ عَزَلٍ وَصِيَّةٍ أو من بعدِ تَفْيِذِ وَصِيَّةٍ...

المثال السادس:

قول الله عز وجل في سورة (النساء) أيضاً:

﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْقَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾﴾

يبدو أن هذا التصّ صالح لأن يعتبر مثلاً للمساواة، إذ لم ألاحظ فيه عبارة فيها إيجاز، ولا عبارة هي من قبيل الإطناب. إلا أن يقال: إن المراد من عبارة «تجري من تحتها» تجري من تحت قصورها، أو: تجري من تحت فروع أشجارها.

وقد يجاب بأن «جئات» يُطلق على الساترات من الأشجار والقصور لا على الأرض من تحتها، فتكون الأنهار الجارية على أراضيها جارياتٍ من تحتها، ولا حاجة إلى تقدير مضافٍ محذوف.

المثال السابع:

وذكروا من أمثلة الكلام الموصوف «بالمساواة» قول الشاعر:

وَمَسَّحَ بِالْأَرْكَانِ مَنْ هُوَ مَاسِحٌ	وَلَمَّا قَضَيْنَا مِنْ مَنَى كُلِّ حَاجَةٍ
وَلَمْ يَنْظُرِ الْغَادِي الَّذِي هُوَ رَائِحٌ	وَشُدَّتْ عَلَى دُهُمِ الْمَطَايَا رِحَالُنَا
وَسَأَلَتْ بِأَعْنَاقِ الْمَطِيِّ الْأَبَاطِحُ	أَخَذْنَا بِأَطْرَافِ الْأَحَادِيثِ بَيْنَنَا

المثال الثامن:

وذكروا منها أيضاً قول أبي نواس الذي قال «الجاحظ» بشأنه: لا أعرف شعراً يفضله:

وَدَارِ نَدَامَى عَطَّلُوهَا وَأَذَلُّجُوا	بِهَا أَثَرٌ مِنْهُمْ: جَدِيدٌ وَدَارِسُ
مَسَاحِبُ مِنْ جَرِّ الرِّفَاقِ عَلَى الثَّرَى	وَأَضْغَاثُ رِيحَانٍ: جَنِيٌّ وَيَابِسُ
حَبَسْتُ بِهَا صَحْبِي فَجَدَّدْتُ عَهْدَهُمْ	وَإِنِّي عَلَى أَمْثَالِ تِلْكَ لِحَابِسُ
تُدَارُ عَلَيْهَا الرَّاحُ فِي عَسْجَدِيَّةٍ	حَبَّتْهَا بِأَنْوَاعِ التَّصَاوِيرِ فَارِسُ
قَرَارَتُهَا كِسْرَى وَفِي جَنَابَتِهَا	مَهَا تَدْرِيهَا بِالْقِسِيِّ الْفَوَارِسُ
فَلِلرَّاحِ مَا زُرَّتْ عَلَيْهِ جُيُوبُهَا	وَلِلْمَاءِ مَا دَارَتْ عَلَيْهِ الْقَلَانِسُ

لكن هذين المثالين الأخيرين يحتاجان إلى دراسة تحليلية للتحقق من انطباق عنوان «المساواة» عليهما.

الفصل الثالث

الإيجاز

(١)

التعريف

الإيجاز لغة: اختصار الكلام وتقليل ألفاظه مع بلاغته، يقال لغة: أوجز الكلام إذا جعله قصيراً ينتهي من نطقه بسرعة.

ويقال: كلامٌ وجيز، أي: خفيفٌ قصير. ويقال: أوجزَ في صلاته إذا خففها ولم يُطل فيها.

فالمادة تدور حول التخفيف والتقصير، وفي الحديث أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلرَّسُولِ ﷺ: عِظْنِي وَأَوْجِزْ، أَي: قُلْ لِي كَلِمًا خَفِيفًا قَصِيرًا أَحْفَظُهُ عِنكَ فِيهِ مَوْعِظَةٌ لِي.

روى الإمام أحمد بسنده عن أبي أيوب الأنصاري قال: جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ فقال: عِظْنِي وَأَوْجِزْ. فقال:

«إِذَا قُمْتَ فِي صَلَاتِكَ فَصَلِّ صَلَاةَ مُودِعٍ، وَلَا تَكَلِّمْ بِكَلَامٍ تَعْتَدِرُ مِنْهُ غَدًا، وَأَجْمِعِ الْإِيَّاسَ مِمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ».

فوعظه الرسول ﷺ بهذه الفقرات الثلاث، وأوجز له فيها.

الإيجاز في اصطلاح البلاغيين: هو التعبير عن المراد بكلامٍ قصيرٍ ناقصٍ عن الألفاظ التي يُودَى بها عادةً في متعارف الناس، مع وفائه بالدلالة على المقصود.

أو نقول: هو صياغة كلام قصير يدلُّ على معنى كثير وافٍ بالمقصود، عن طريق اختيار التعبيرات ذات الدلالات الكثيرات، كالأمثال والكليّات من الكلمات، أو عن طريق استخدام مجاز الحذف، لتقليل الكلمات المنطوقة، والاستغناء بدلالة القرائن على ما حُذِف، أو عن طريق استخدام ما بني على الإيجاز في كلام العرب، كالحصر، والعطف، والضمير، والتثنية، والجمع، وأدوات الاستفهام، وأدوات الشرط، وألفاظ العموم، وغير ذلك.

فإذا لم يكن الكلام وافياً بالدلالة على المقصود كان الإيجاز فيه إيجازاً مُخِلّاً، إذ رافق التقصير في الألفاظ تقصيراً في المعنى الذي أراد المتكلم التعبير عنه.

قالوا: ومن أمثلة التعبير بكلام قصير فيه إخلال بأداء المعنى المراد قول «الحارث بن حلزة اليشكري» هو شاعر جاهليّ من أهل بادية العراق، وهو أحد أصحاب المعلقات:

عِشْ بِجَدِّ لَّا يَصِرْكَ النَّوْكَ مَا أُوْلِيَتْ جَدًّا
وَالْعَيْشُ خَيْرٌ فِي ظِلَالِ النَّوْكِ مِمَّنْ عَاشَ كَدًّا

بجدّ: أي: بحظّ من الدنيا، كالنعمة والسعة.

لَّا يَصِرْكَ: أي: لا يُنزل بك ضرراً، من «ضارُهُ يَصِيرُهُ».

النَّوْكَ: حماقة من قلة العقل.

قال في البيت الأول: إذا كان لك حظّ من الدنيا يُسعدُك وكُنْتَ أَحْمَقَ فَعِشْ بِحِظِّكَ فَإِنَّ حِمَاقَتَكَ لَا تَضِيرُكَ.

وقال في البيت الثاني: والعيشُ مع الحظّ السعيد في ظلال النَّوْكَ (= الحمق) خَيْرٌ مِمَّنْ عَاشَ عَيْشاً كَدًّا مُضِيناً بَعْقِلٍ وَرُشِدٍ دُونَ أَنْ يَكُونَ مَحْظُوظاً بِمَا يُسْعِدُهُ فِي دُنْيَا.

لكنّ هذا المعنى الذي أَرادَهُ لا تدلُّ عليه عبارات البيت الثاني مَهْمَا تكلَّفْنَا في استخراج اللوازم الذهنيّة، لكثرة المحاذيف فيه، مع عدم وجود قرائن تدلُّ عليها، ولولا البيت الأوّل لصعبَ جداً إدراكُ مرادِهِ، فهو من الإيجاز المخلّ.

ولدى إبراز المحاذيف نقول: والعيشُ بجدِّ في ظلال التّوكِّ خيرٌ ممن عاش عيشاً كدّاً غير محظوظٍ في ظلال العقل والرُّشد.

ومن أمثلة الإيجاز المخلّ على ما قالوا قولُ «عُرْوَةُ بِنَ الوَرْدِ بنِ زَيْدِ العَبَّاسِي» هو شاعر جاهليّ، كان من فرسان قومه وأجوادهم: عَجِبْتُ لَهُمْ إِذْ يَقْتُلُونَ نَفْسَهُمْ وَمَقْتَلُهُمْ عِنْدَ الوَعْيِ كَانَ أَعْدَرَا قَالُوا: أَرَادَ إِذْ يَقْتُلُونَ نَفْسَهُمْ فِي السَّلْمِ مِنْ غَيْرِ حَرْبٍ، فحذفَ عبارة: «في السَّلْمِ» وهذا من الإيجاز المخلّ.

أقول: لقد استغنى بدلالة الشطر المقابل، إذ قيّد القتل الذي يُعذَرُ به القتل بأن يكون عند الوعي، أي: عند الحرب، وهذه قرينة كافية لمثل هذا الحذف، فتقابل التضاد ذو دلالة قويّة، وقرينته تدلُّ على المحذوف في مقابله بسهولة، وله نظائر في القرآن المجيد.

وذكروا من أمثلة الإيجاز المخلّ قول الشاعر: أَعَاذِلُ عَاجِلُ مَا أَشْتَهِي أَحَبُّ مِنَ الْأَكْثَرِ الرَّائِشِ الرَّائِشُ: بمعنى المعين، والمنعش، والمغني بالمال الوفير.

يريد أن يقول: إنَّ عاجل ما يشتهي مع قلته أحبُّ إلى نفسه من المؤجل وإن كان كثيراً منعشاً مغنياً.

فحذف محاذيف لا تُستخرج إلّا بصعوبة، فهو من الإيجاز المخلّ على ما ذكروا.

* * *

(٢)

تقسيم الإيجاز

الإيجاز السويّ ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: «إيجازُ القِصْرِ»^(١) وهو الإيجاز الذي لا يُعتمدُ فيه على استخدام الحذف.

القسم الثاني: «إيجازُ الحذف» وهو الإيجاز الذي يكون قِصْرُ الكلام فيه بسبب استخدام حذف بعض الكلام، اكتفاءً بدلالة القرائن على ما حذف.

* * *

(٣)

شرح إيجاز القِصْرِ

سبق بيان أنّ «إيجازَ القِصْرِ» هو الإيجاز الذي لا يُعتمدُ فيه على استخدام الحذف.

ولكن كيف يكون «إيجازَ القِصْرِ» هذا؟.

لقد جاء في وصف خاتم المرسلين محمد بن عبد الله ﷺ: أنه أُوتِيَ جوامعَ الكَلِمِ، ونجد في أقواله أمثلة كثيرة جداً ينطبق عليها عنوان «إيجاز القِصْرِ» ألفاظها قليلة، ومعانيها غزيرة، دون أن يكون فيها ما يدلُّ على كلامٍ مطويّ محذوف من اللَّفظ، مُشارٍ إليه بقرينة من قرائن المقال، أو قرائن الحال، أو الاقتضاء العقلي.

وفي القرآن أمثلة رائعة وكثيرة جداً، يَرى فيها متدبرو كتاب الله المجيد قِصراً

(١) القِصْرُ: هو ضدُّ الطول، يقال لغة: قَصَرَ الشيءُ قِصْرًا وقِصْرًا وقِصْرًا وقِصَارَةً، ضدُّ «طال» فهو قصير، وجمعه قِصارٌ وقُصراء. ونختار لفظة «القِصْرِ» بكسر القاف وفتح الصاد، لأنّ «القِصْر» بفتح القاف وإسكان الصاد مشترك بين معنيين هما: الحَبْسُ وَمَا هُوَ ضِدُّ الطول.

في ألفاظها، وثروة واسعة في معانيها ودلالاتها، مع أنها لا تطوي في مثانيها محاذيف، بل جاءت ثروة المعاني من منطوق الألفاظ المختارة بعناية فائقة.

ولعلنا بنظرة تحليلية مُتأنية فاحصة نكتشف أسباب قصر العبارات وغزارة المعاني.

أولاً: من الملاحظ أن مُتبع الجزئيات بالبحث والتأمل يكتشف صفاتها أفراداً، ثم بعد أن يجمع في نفسه أو في سجلاته صفات هذه الجزئيات يلاحظ أنها قد تشترك جميعاً في بعض الصفات التي وجدها فيها، فإذا أراد أن يتحدث عما اكتشفه فأمامه طريقان:

● إما أن يفصل فيذكر كل جزئية ويعدد صفاتها، لكنه في هذا التفصيل سيجد نفسه مضطراً أن يكرر بعض هذه الصفات مع ذكر كل جزئية، وعندئذ يطول معه حبل الكلام طويلاً مُملأً مكروهاً.

● وإما أن يلجأ إلى اختيار عبارة كلية شاملة موجزة مختصرة قليلة الكلمات تدل على أن جميع الجزئيات التي تتبّعها ويدل عليها لفظ «كذا» تتصف بصفة «كذا وكذا».

وهنا نلاحظ أن «القصر» في التعبير قد جاء من جمع الجزئيات التي تتبّعها بلفظ عام يشملها، ووصفها جميعاً بالوصف الذي رآها تتصف به، فيقول مثلاً: دارس طبائع بعض الحيوانات:

«الثبات والسطو في الأسود، والغدر في النمر، والحيلة في الثعالب، والهمّة والخياء في الخيل، والجلد في البغال، والبلادة في الحمير».

وبهذا يكون قد أوجز في عباراته، إذ جمع تفصيلات كثيرات، دون أن يُقدّر في كلامه محاذيف، وكانت وسيلته في هذا الإيجاز استخدام العبارات ذوات الدلالات الكليات الشاملات.

ثانياً: وقد يجد مُنشئ الكلام أنّ ما يُريد الحديث عنه له صفاتٌ كثيراتٌ يحتاج تفصيلها إلى بيان طويل قد يُكتبُ في صفحاتٍ أو كُرّاساتٍ أو أكثر من ذلك .
ثمّ ينظر في مخزونات معارفه فيرى صورةً من صورِ الكَوْنِ مثلاً، أو طائفةً من المعلومات الجزئية مجتمعةً في إطارٍ واحدٍ له عنوان خاصٌّ يدلُّ على المُحاطِ به، ويلاحظُ أنّ ما يُريدُ الحديث عنه مشابهٌ لهذه الصورة، أو لما أُحيط بهذا الإطارِ ذي العنوان الخاصّ، فيَهْتَبِلُها فُرْصَةً يُوفّرُ بها على نفسه كلاماً طويلاً، إذ يُبين أنّ ما يُريدُ التحدّث عن صفاته مشابهٌ لهذه الصورة، أو لما أُحيط بهذا الإطارِ، ثمّ إنّ المتلقّي يتتبعُ تفصيل الصفات عن طريق النظر في العناصر المتشابهة بين المشبّه والمشبّه به، وهذه إحدى الفوائد الثمينة من ضرب الأمثال .

فإذا قال المتحدّث: لَمَّا ألقى الأمريكيون القنبلة الذريّة على المدينة اليابانية «هيروشيما» صارت هذه المدينة كلّها كما لو تفجّرت ألف ألف قنبلة فنثرت رماداً ودخاناً في الجوّ .

فإنّه قد اختصر تفصيلات المشهد العظيم كلّ بهذه العبارة التمثيلية .

وبهذا يكون قد أوجز في عبارته، إذ جمع تفصيلات كثيرات، دون أن يُقدّر في كلامه محاذيف، وكانت وسيلته في هذا الإيجاز استخدام أسلوب التشبيه وضربِ المثل .

ثالثاً: وقد يجد منشئ الكلام أنّه يحتاج إلى عدد من الكلمات أو العبارات حتّى تُؤدّي معنىً من المعاني، ثمّ يرى أنّ باستطاعته أن يختار كلمة واحدة، أو عبارةً ما قصيرة، تستدعي بطبيعتها معناها لوازم فكرية، يستطيع المتلقّي أن يكتفي بها عن الكلمات أو العبارات المتعدّات إذا جاءت بديلاً في الكلام .

عندئذٍ يَعْدِلُ إلى اختيار الكلمة أو العبارة ذات اللّوازم الفكرية، مستغنياً بها عن كلام طويل، ليوجز في كلامه ويجعله قصيراً مع غزارة في معانيه .

فمن الأمثلة نلاحظ أن كلمة «الذِّكْر» المختارة للتعبير بها عن القرآن في كثير من نصوص الكتاب العزيز تُعني بلوازمها الفكرية عن جملة كلمات أو عبارات تتضمن المعاني التالية «تبليغ القرآن - وجوب تلقيه عن المبلِّغ - وجوب فهمه وتدبره - وجوب حفظه - وجوب جعله حاضراً في الذاكرة ليرْجَع إلى نصوصه عند كل مناسبة داعية لمعرفة دين الله وأحكامه».

كلُّ هذه المعاني فهمناها باللزوم الذهني، لأنَّه لا يكون ذكراً دواماً ما لم يكن مسبقاً بالتبليغ والتلقي والفهم والتدبر والحفظ فمن استوفى كلَّ هذه الأمور كان القرآن بالنسبة إليه ذكراً، وإلَّا كان متركواً منسياً.

فأغنت كلمة واحدة ذات لوازم ذهنية عن عددٍ من الكلمات. أو العبارات، دون أن يُقدَّرَ في الكلام محاذيف، والوسيلة هنا في هذا الإيجاز الاستغناء بما تُعطيه اللوازم الفكرية، وحُسْنُ انتقاء الكلمات التي تدلُّ على اللوازم الفكرية المطلوبة.

* * *

بهذه النظرات التحليلية استطعنا أن نكتشف أسباباً ثلاثة نستطيع بوساطتها أن نجعل الكلام قصيراً موجزاً، مع دلالته على معانٍ غزيرة كثيرة، دون الحاجة إلى تقدير محاذيف حُدفت من منطوق اللفظ وبقيت مقدرةً فيه ذهنياً.

وتلخيص هذه الأسباب الثلاثة فيما يلي:

السبب الأول: اختيار الألفاظ والتعبيرات الكلية، ذوات الدلالات العامّة الشاملات.

السبب الثاني: الاستغناء عن التفصيلات الكثيرات بالأمثال والتشبيهات التي تدلُّ فيها الأشباه والنظائر على مقابلاتها، إذ يدلُّ الممثلُّ به الجامع لصورٍ وصفاتٍ ومعانٍ كثيرة على صورٍ وصفاتٍ ومعانٍ موجودةٍ في الممثلِّ له.

السبب الثالث: الاستغناء بما تعطيه اللوازم الفكرية لعبارة، عن ذكر كلام ذي دلالات مباشرة تدلُّ بالمطابقة على هذه اللوازم.

* * *

أمثلة على «إيجاز القصر»

المثال الأول:

قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الزلزلة/ ٩٩ مصحف/ ٩٣ نزول):

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾.

وصف الرسول ﷺ هذا القول بأنه فادٌّ جامعٌ، فقد روى البخاري عن أبي هريرة أن الرسول تحدث عن اقتناء الخيل فقسمها ثلاثة أقسام، وشرحها، وبعد ذلك سُئِلَ عَنِ الْحُمْرِ فَقَالَ:

«مَا أَنْزَلَ عَلَيَّ فِيهَا إِلَّا هَذِهِ الْآيَةُ الْفَادَّةُ الْجَامِعَةُ: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾».

جعل الآيتين لترابطهما بمثابة الآية الواحدة، ووصفها بأنها فادَّةٌ، وبأنها جامعة.

● أمَّا كونها فادَّةً فمعناه أنَّها منفردة فيما دلَّت عليه من معنى، لم يأت في القرآن نظيرها بهذا الإيجاز الجامع.

● وأمَّا كونها جامعةً فمعناه أنَّها شاملةٌ عامَّةٌ تتناول كلَّ عمَلٍ صغيراً كان أو كبيراً خيراً كان أو شراً، فهي من جوامع الكلم.

إنَّ هذا البيان القرآني على قِصْرِهِ وَقَلَّةِ كَلِمَاتِهِ يَدُلُّ عَلَى مَعَانٍ يُمْكِنُ أَنْ تُفَصَّلَ وَتُشْرَحَ بِسُفْرِ، لما جاء فيها من اختيار الألفاظ ذواتِ الدلالات العامَّاتِ الشاملاتِ.

(١) كلمة «مَنْ» من ألفاظ العموم، فهي تعطي دلالة كلية عامة تشمل كلَّ مكلف، وهي اسم شرط جازم.

(٢) وفعل الشرط «يَعْمَلُ» يشمل كلَّ عَمَلٍ إراديٍّ من الأعمال الظاهرة والباطنة.

(٣) وعبارة «مثقال ذرّة» عبارة ذات شمول يبدأ من أصغر الأعمال وأقلّها عدداً، وينطلق دون حدود عِظْماً وعدداً كثيراً.

(٤) وكلُّ من كَلَمْتِي: «خيراً» و«شراً» تمييز على تقدير «من» وهو منكر، فهو يفيد العموم الذي يشمل كلَّ خير وكلَّ شرّ ظاهر أو باطن.

(٥) وكلمة: «يَرَهُ» التي هي جواب الشرط تدلُّ على حتمية رؤية عَمَلِهِ الذي كان عَمَلُهُ في الدنيا، إذ يراه في كتاب أعماله مسجلاً بالصورة والصوت والخواطر والنيات.

هذا من أبدع وأعجب «إيجاز القِصْرِ» وطريقه اختيار الألفاظ والتعبيرات ذوات الدلالات العامّات الشاملات.

* * *

المثال الثاني:

قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٧٧)

إنّ جملة: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ من أبدع وأتقن «إيجاز القِصْرِ» الذي لا حدف فيه، إنّما فيه حُسْنُ انتقاء الكلمات، مع اتقان الصياغة، فهي على قِصَرِها وقلة ألفاظها تدلُّ على معنى كثيرٍ جداً.

وطريق الإيجاز فيها اختيار الألفاظ ذوات الدلالات العامّات الشاملات.

وقد اشتغل البلاغيون في تحليل هذه العبارة القرآنية لاكتشاف عناصر إيجازها البديع المتقن، ولمقارنتها بما كان لدى فصحاء العرب من عبارة مناظرة كانوا يردّدونها ويعتبرونها من أقصر الكلم وأوجزه، وهي قولهم: «الْقَتْلُ أَنْفَى لِلْقَتْلِ».

وأعرض فيما يلي أبرزها مع إضافات تحليلية من عندي:

(١) إنّ كلمة «القصاص» كلمة عامّة تشمل القتل بالقتل، والقطع بالقطع، والجروح بالجروح، وتدخل فيها كلّ تفصيلات الجنايات ممّا يتعلّق بذوات الأحياء من الناس، أنفسهم فما دون ذلك.

(٢) وإنّ كلمة «حياة» تشمل حياة النفس، وحياة كلّ بعض من أبعاض الجسد الذي إذا انقطع مات، فيكون حاله كحال كلّ الجسد إذا ماتت النفس.

وتنكير لفظ «حياة» يدلّ على أصل بقاء الحياة للنفس، ويدلّ على نوع نفيس من أنواع الحياة يتمناه الأحياء، وهو نوع الحياة الآمنة، التي لا خوف فيها ولا قلق، والذي يتحقّق بتقرير حكم القصاص وتنفيذه، وذلك لأنّ من تحدّثه نفسه بالعدوان على فردٍ أو أكثر من أفراد المجتمع في كلّ النفس، أو في بعض أعضائه الجسد، فإنّ خوفه من القصاص يروعه فيكفّ عن ارتكاب الجريمة، وبهذا تقلّ جرائم القتل والقطع والجروح في المجتمع إلى أدنى الحدود، فيعيش أفراد المجتمع مطمئنين حياة آمنة.

وبالمقارنة بين العبارة القرآنية: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ وبين أوجز عبارة مشابهة كان العرب يردّدونها، وهي قولهم: «الْقَتْلُ أَنْفَى لِلْقَتْلِ» ظهر ما يلي:

(١) إنّ حروف العبارة القرآنية: ﴿فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ أقل من عبارة العرب: «الْقَتْلُ أَنْفَى لِلْقَتْلِ».

(٢) العبارة القرآنية ذكرت «القصاص» فعمت كلّ ما تُقابل به الجناية على الأنفس فما دون الأنفس من عقوبة مُمّثلة، وحددت الأمر بأن يكون عقوبة لعمل سبق، ودلّت على مبدأ العدل.

أما عبارة العرب فقد ذكرت القتل فقط، ولم تقيده بأن يكون عقوبة، ولم تُشر إلى مبدأ العدل، فهي قاصرة وناقصة.

(٣) العبارة القرآنية نصّت على ثبوت الحياة بتقرير حكم القصاص.
أما عبارة العرب فذكرت نفى القتل، وهو لا يدلُّ على المعنى الذي يدلُّ عليه لفظ «حياة».

(٤) العبارة القرآنية خالية من عيب التكرار، بخلاف الأخرى.

(٥) العبارة القرآنية صريحة في دلالتها على معانيها، مستغنية بكلماتها عن تقدير محاذيف.

بخلاف عبارة «العرب» فهي تحتاج إلى عدّة تقديرات حتى يستقيم معناها، إذ لا بُدَّ فيها من ثلاث تقديرات، وهي كما يلي:
«القتل» قصاصاً «أنفى من تركه للقتل» عمداً وعدواناً.

(٦) في العبارة القرآنية سلاسة، لاشتمالها على حروف متلائمة سهلة التتابع في النطق.

أما عبارة «العرب» ففيها تكرير حرف القاف المتحرّك بين ساكنين، وفي هذا ثقل على الناطق.

(٧) في العبارة القرآنية من البديع «الطباق» بين لفظتي: القصاص والحياة.

(٨) العبارة القرآنية خالية من عيب إيهام التناقض، إذ الموضوع تشريع لا يحتمل مثل هذا الإيهام الذي قد يحسُن في موضع آخر، كالمدح والذم.
فظاهر عبارة «القتل أنفى للقتل» متناقض، ولا يستقيم المعنى، إلا بملاحظة المقدّرات المحذوفة من اللفظ.

إلى غير ذلك من دقائق يكشفها المحلّل الخبير بتحليل دلالات الكلام.

* * *

المثال الثالث :

قول الله عز وجل لرسوله في سورة (الحجر / ١٥ مصحف / ٦٠ نزول):

﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿١٥﴾﴾ .

إن جملة ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ موجزة العبارة، لكنّها تدلُّ على معانٍ كثيرة، وقد ذكرها «ابن أبي الإصبع» من أمثلة «الإيجاز» ونبّه على ما في عبارة ﴿فَاصْدَعْ﴾ من دقائق، فقال:

«المعنى: صرّح بجميع ما أوحى إليك، وبلغ كلّ ما أمرت ببيانه، وإن شقَّ بعض ذلك على بعض القلوب فأنصَدَعْتَ» .

وأشار إلى أنّ استعمال ﴿فَاصْدَعْ﴾ هنا هو استعمال على سبيل الاستعارة، ومعلوم أنّ الاستعارة عمادها التشبيه، فشبّه تأثير التصريح في القلوب الكارهة للبيانات الدنيئة، بالضرب على الزجاج الذي ينصدع دون أن يتكسر ويتفرق، فتابع قائلاً:

«والمشابهة بينهما فيما يؤثره التصريح في القلوب، فيظهر أثر ذلك على ظاهر الوجوه من القبض والانبساط، وما يلوح عليها من علامات الإنكار والاستبشار، كما يظهر على ظاهر الزجاج المصدوعة» .

فانظر إلى جليل هذه الاستعارة، وعظم إيجازها، وما انطوت عليه من المعاني الكثيرة» .

وحكي أنّ بعض الأعراب لما سمع هذه الآية سجّده، وقال: سجّدت لفصاحة هذا الكلام .

أقول: إنّ إيجاز هذه الجملة القرآنية: «إيجازُ قصرٍ» وطريقه التشبيه الذي جاء بأسلوب الاستعارة، و «إيجازُ حذفٍ» إذ في العبارة حذفُ المفعول به لفعل «تؤمر» والتقدير: فاصدع بما تؤمر أن تبلغه للناس .

* * *

المثال الرابع:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) خطاباً لرسوله
فكلّ داعٍ إلى سبيل ربّه:

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ (١١٩)

في هذه الآية إيجاز عجيب، إذ تتألف من كلمات معدودات، إلاّ أنّها تدلّ
على معانٍ كثيرة.

وطريق الإيجاز فيها استخدام التعبيرات الكلية ذوات الدلالات العامّة
الشاملات، والاستغناء بما تعطيه اللوازم الفكرية.

وقد شرحتُ هذا النصّ وآيات ثلاثاً بعده في كتاب «أمثال القرآن وصور من
أدبه الرفيع» فلا داعي لإعادة شرحه هنا^(١).

* * *

المثال الخامس:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) في عرض
لقطات من قصة نوح وقومه:

﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَسْمَأْهِ أَقْلِي وَغِيصَ الْمَاءِ وَفُضِيَ الْأَمْرُ وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ
وَقِيلَ بَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (٤٤)

قالوا في هذه الآية من الإيجاز ما يعجز البيان عن استيفاء تحليله وشرحه،
فقد أمر فيها ربّنا ونهّى، وأخبر، ونادى، ونعت، وسمّى، وأهلك وأبقى، وأسعد،
وأشقى، وقصّ من الأنباء ما حقّق به الغاية القصوى من البيان.

وطريق الإيجاز فيها التعبيرات الكلية العامّة، والاستغناء بما تعطيه اللوازم
الفكرية.

(١) انظر الصفة (٣٨١) الصورة التاسعة من الكتاب المذكور.

وقد شرحت هذه الآية في كتاب «نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد»^(١).

* * *

المثال السادس:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (النمل / ٢٧ مصحف / ٤٨ نزول) في عرض لقطات من قصة سليمان وجنوده:

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾.

قالوا: إنَّ التعبير عن قول النملة قد جمع ثلاثة عشر جنساً من الكلام:

(النداء – الكناية في «أَيُّ» – التنبيه في «ها» – التسمية في (النمل) – الأمر – القصة في «مساكنكم» – النهي التحذيري – التخصيص في «سليمان» – التعميم في «وجنوده» – الكناية بالضمير في مواضع – العذر في «وهم لا يشعرون» – التأكيد في «لا يحطمنكم» – الإيجاز بالعطف –).

وفي أقوال الرسول ﷺ من هذا الإيجاز الشيء الكثير.

ونجد أيضاً في أقوال فصحاء العرب، وبلغاء الأدباء والكتاب أمثلة كثيرة.

وفيما أوردته من أمثلة قرآنية كفاية.

* * *

(٤)

شرح «إيجاز الحذف»

سبق بيان أن «إيجاز الحذف» هو الإيجاز الذي يكون قصر الكلام فيه بسبب

استخدام حذف بعضه، اكتفاءً بدلالة القرائن على ما حذف.

(١) انظر الصفحات من (١٢٣ – ١٢٨) من الكتاب المذكور.

إن من طبيعة البلغاء والمتحدثين الأذكياء أن يَحذفوا من كلامهم ما يَرَوْن المتلقِّي له قادراً على إدراكه بيسرٍ وسهولة، أو بشيء من التفكير والتأمل إذا كان أهلاً لذلك.

والسبب في هذا أن الإسراف في الكلام لا يليق برزانة ورصانة أهل العقل والفكر الحصيف، بل هو من صفات الثرثارين وأهل الطيش والخفة، وهو في الغالب من طبائع النساء.

وقد سمى «ابن جني» الحذف شجاعةً العربيّة، وقال: «عبد القاهر الجرجاني»: «ما من اسم حُذِف في الحالة التي يَنْبَغِي أن يُحذف فيها إلّا وحذفه أحسن من ذكره».

وأعالج شرح «إيجاز الحذف» من خلال ثلاثة مباحث مع الأمثلة.

المبحث الأول: فوائد الحذف.

المبحث الثاني: شروط الحذف.

المبحث الثالث: أنواع الحذف.

وفيما يلي التفصيل والشرح:

أولاً — فوائد الحذف:

ذكر الباحثون في هذا المجال إحدى عشرة فائدة أجمَعُها في «تسع» إذا تحققت واحدة منها فأكثر دون الإساءة إلى المعنى المراد فالحذف بشروطه عمل بليغ، ومسلك في الكلام رشيد.

الفائدة الأولى: الاختصار اقتصاداً في التعبير، واحترازاً عن البعث، عند تحقُّق المطلوب بظهور المعنى المراد لدى المتلقِّي، ككَوْن المذكور لا يصلح إلّا للمحذوف، ومنه حذف المبتدأ إذا كان الخبر من الصفات التي لا تصلح إلّا لله عزّ وجلّ، وككَوْن المحذوف مشهوراً حتى يكون ذكره وحذفه سواء.

الفائدة الثانية: التَّيْبَةُ على أن الوقت مع الحدث لا يتسع للتصريح بالمحذوف من اللفظ، أو أن الاشتغال بالتصريح به يُقضي إلى تفويت أمرٍ مُهِمٍّ، وتظهر هذه الفائدة كثيراً في باب «التحذير والإغراء» ومنه ما في قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الشمس/ ٩١ مصحف/ ٢٦ نزول) المشتمل على قول صالح عليه السلام لقومه:

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَنِهَا ﴿١١﴾ إِذِ ابْتَعَتْ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ ﴾.

فحذَرَهُمْ أن يَمَسُّوا نَاقَةَ اللَّهِ، فحذَفَ فِعْلَ التحذير فقال: «نَاقَةَ اللَّهِ» والتقدير: ذَرُّوا نَاقَةَ اللَّهِ.

وأغراهم بأن يحافظوا على شروط سُقْيَاهَا، فحذَفَ فِعْلَ الإغراء فقال: «وَسُقْيَاهَا» والتقدير: الزموا سقياها، أو الزموا شروط سقياها.

الفائدة الثالثة: التَّفخِيمُ والتعظيم، أو التهويل ونحو ذلك، بسبب ما يُحْدِثُهُ الحذف في نفس المتلقي من الإبهام الذي قد يجعل نَفْسَهُ تَقْدِّرُ ما شاءت دون حدود، وَيَحْسُنُ مثل هذا الحذف في المواضع التي يُراد بها التعجيب والتهويل وأن تذهب النفس في تقدير المحذوف كلَّ مذهب.

كحذف جواب الشرط في قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الزمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ رَبِّكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾.

وتقدير الجواب: لَرَأَوْا شيئاً عظيماً جداً تعجز عباراتهم عن وصفه.

وكحذف جواب الشرط أيضاً في قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقُفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتُنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذَّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿١٧﴾ .

أي: ولو ترى إذ وقفوا على النار لرأيت ما هم فيه من الرعب والكرب والحسرة والتندم شيئاً لا تستطيع وصفه بالعبارة.

الفائدة الرابعة: التخفيف على النطق لكثرة دَوْرَانِهِ في الكلام على الألسنة .
وهذه الفائدة تظهر في حذف أداة النداء، وحذف النون من فعل «يَكُنْ» المجزوم، وحذف ياء المتكلم، وحذف مثل ياء «يَسْرِي» كما قال تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرٍ﴾ وحذف آخر المرخم في النداء، ونحو ذلك .

الفائدة الخامسة: صيانة المحذوف عن الذكر تشريفاً له .

الفائدة السادسة: صيانة اللسان عن ذكره فيحذف تحقيراً له وامتهاناً .

الفائدة السابعة: إرادة العموم، مثل قولنا في الفاتحة خطاباً لربنا: ﴿وَأَيُّكَ نَسْتَعِينُ﴾ أي: في أمور دنيانا وأمر أخرانا .

الفائدة الثامنة: مراعاة التناظر في الفاصلة، مثل قول الله عز وجل في سورة (الضحىٰ / ٩٣ مصحف / ١١ نزول):

﴿ وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ .
أي: وما قلاك .

الفائدة التاسعة: إرادة تحريك النفس وشغلها بالإبهام الذي يتبعه البيان، حتى يكون البيان أوقع وأثبت في النفس .

مثل قول الله عز وجل في سورة (النحل / ١٦ مصحف / ٧٠ نزول):

﴿ . . . وَلَوْ شَاءَ هَدَيْنَاكُمْ لَسَلْبِكُمْ الْاِخْتِيَارَ وَلَجْعَلَكُمْ مَجْبُورِينَ ، وَإِذْنَ لِهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ﴿٩﴾ .

أي: ولو شاء هدايتكم لسلبكم الاختيار ولجعلكم مجبورين، وإذن لهداكم أجمعين .

قالوا: إِنَّ مفعول المشيئة والإرادة بعد الشرط لا يذكر غالباً إلا إذا كان غريباً أو عظيماً.

* * *

ثانياً — شروط الحذف:

ذكروا شروطاً سبعة لجواز الحذف، منها ما هو بلاغيّ، ومنها ما يدور في فلكِ الصناعة النحويّة، ولكن لم يتّضح لي منها بلاغيّاً غير شرطين:

الشرط الأول: أن لا يُؤدّي الحذف إلى الجهل بالمقصود، فيشترط أن يوجد دليلٌ يدلُّ على المحذوف، وقد يُعبّرُ عنه بالقرائن الدالة.

الشرط الثاني: أن لا يكون المحذوف مؤكّداً للمذكور، إذ الحذف منافٍ للتأكيد.

والدليل الدالُّ على المحذوف:

(١) إمّا أن يكون من قرائن المقال الموجودة في السّباق أو في السّياق.

(٢) وإمّا أن يكون من قرائن الحال.

(٣) وإمّا أن يكون من المفاهيم الفكرية والاقتراعات العقلية، واللّوازم الذهنية.

أمثلة:

المثال الأول:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (النحل / ١٦ مصحف / ٧٠ نزول) في عرض لقطّة من أحداث يوم الدين:

﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا... ﴾ [الآية ٣٠].

أي: قالوا: أنزل ربّنا خيراً. إن إجابتهم تقتصر على ذكر المفعول به فقط، وهو لفظ «خيراً» وقد دلّت قرينة المقال في سباقه على المحذوف.

المثال الثاني :

قول الله عز وجل في سورة (الذاريات / ٥١ مصحف / ٦٧ نزول):

﴿ هَلْ أُنذِرَكَ حَدِيثٌ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ

مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ .

هؤلاء الضيوف كانوا الملائكة الذين بشروه بغلام عليم من زوجته «سارة» وأخبروه بأنهم ذاهبون لإهلاك قوم لوط .

وقد جرى في تحيتهم له حذف، وفي رد إبراهيم عليهم حذف أيضاً ودل على المحذوف قرينة الحال، وتقدير الكلام إذا ردّدنا المحذوفات كما يلي:

قالوا: نُسَلِّمُ عَلَيْكَ سَلَامًا .

قال: سَلَامٌ عَلَيْكُمْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ .

وداعي الحذف هنا الإيجاز والتخفيف لكثرة دوران مثل هذا الاستعمال على الألسنة .

المثال الثالث :

قول الله عز وجل في سورة (المائدة / ٥ مصحف / ١١٢ نزول):

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ... ﴾ [الآية ١] .

وقوله في سورة (الإسراء / ١٧ مصحف / ٥٠ نزول):

﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَتْ مَسْئُولا ﴾ ﴿٢٤﴾ .

إن العقود والعهود التزامات بالقول يُنشئها المتعاقدون والمتعاهدون، وترتبط هذه الالتزامات الإنشائية بإبرامها بالقول، فكيف يُطالب الله عز وجل بالوفاء بها وقد استوفت شروط إبرامها؟ .

الدليل العقلي يهدي إلى أن المطلوب الوفاء بمقتضاها، لأن العقود والعهود تُبرم بالأقوال ثم على من أبرمها أن يلتزم بمقتضاها .

فالكلام إذن على تقدير: أوفوا بمقتضى العقود، وأوفوا بمقتضى العهد.
والدليل الذي دلّ على المحذوف الاقتضاء العقلي.

المثال الرابع:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (فاطر/ ٣٥ / مصحف / ٤٣ / نزول):
﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا... ﴾ [الآية ١٠].

في هذه العبارة محاذيف يدلّ عليها النظر الفكري والتأمل، إذ المعنى: من كان يريد العزّة فليؤمّن بالله، وليطلبها منه، وليسلك سبيل الوصول إليها عن طريق مرضاته، فلله العزّة جميعاً.

إنّ جواب الشرط «مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ» الذي جاء بصيغة «فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا» يستلزم عقلاً التوجيه لطلبها عند من يملكها، ولَمَّا كَانَتِ الْعِزَّةُ كُلُّهَا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَعَلَى مَنْ يُرِيدُهَا أَنْ يَطْلُبَهَا مِنْهُ، وَطَلَبُهَا إِنَّمَا يَكُونُ بِالْإِيمَانِ بِهِ، وَالْإِسْلَامَ لَهُ، وَسُلُوكِ السَّبِيلِ الَّتِي ارْتَضَاهَا لِعِبَادِهِ، وَالْعَمَلِ بِمَرَضِيهِ، وَسُؤَالِهِ النَّصْرَ وَالتَّيْيِدَ، وَالِاسْتِعَانَةَ بِهِ، وَذِكْرِهِ كَثِيرًا.

فالدليل الدالّ على المحذوف هنا فكريّ عقلي.

المثال الخامس:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ / مصحف / ٣٩ / نزول):

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَنَهُ قَوْمُهُ أَنْضَرْبِ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ... ﴾ [الآية ١٦٠].

أي: فَضْرَبَ مُوسَىٰ بِعَصَاهُ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا.
انْبَجَسَتْ: أي: انفجرت.

قالوا: الفاء في [فانْبَجَسَتْ] هي الفاء الفصيحة، إذ أفصحت عن محذوفات

في النص.

أقول: الذي دَلَّ على هذه المحذوفات دليلُ النظر الفكري، والتأمل في اللوازم الذهنيَّة التي تربط بين الأمرِ بأن يضرب بعصاه الحجر، وبين حدوث ظاهرة تفجّر الحجرِ بالماء، والفاء لم تدلُّ إلا على الترتيب مع التعقيب.

* * *

ثالثاً - أنواع الحذف:

ذكروا أنّ الحذف ينقسم إلى خمسة أقسام.

القسم الأول: الاقتطاع.

القسم الثاني: الاكتفاء.

القسم الثالث: التضمين.

القسم الرابع: الاحتباك.

القسم الخامس: الاختزال.

وفيما يلي الشرح مع الأمثلة:

شرح القسم الأول: الاقتطاع:

الاقتطاع: هو حذف بعض حروف الكلمة أو ما هو بمثابة الكلمة الواحدة، تخفيفاً على مخارج الحروف، أو لداعي السرعة، أو لأجل القافية في الشعر، أو الفاصلة في النثر، أو التحجُّب في النداء، أو نحو ذلك من دواعي بلاغية.

● فمنه حذف نون فعل «يكون» المجزم، كما جاء في قول الله عزّ وجلّ في

سورة (القيامة/ ٧٥ مصحف/ ٣١ نزول):

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُتَمَّى ﴿٣٧﴾﴾

الأصل: «أَلَمْ يَكُنْ» فَحَذِفَتِ التُّونُ تخفيفاً، وربما لأغراضٍ أخرى تتصل

بأعداد الحروف، أو لغير ذلك.

● ومنه حذف إحدى التاءين المتواليين في الفعل الوارد على وزن «تفعل» كما جاء في قول الله عز وجل في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿ذَٰلِكُمْ وَصَنَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ .

تذَكَّرُونَ: أصلها تتذَكَّرُونَ، فحذفت إحدى التاءين تخفيفاً.

وكما جاء في قول الله عز وجل في سورة (عبس/ ٨٠ مصحف/ ٢٤ نزول)

خطاباً لرسوله:

﴿أَمَّا مَنْ أَسْتَفْتَىٰ ﴿٥٠﴾ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾﴾ .

تَصَدَّى: أصلها تتصدَّى، فحذفت إحدى التاءين تخفيفاً.

● ومنه حذف التاء من استطاع على غير قياس، كما جاء في قول الله عز وجل في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول) حكاية لما قال الخضر لموسى عليهما السلام:

﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٧﴾﴾ .

بعد أن قال له قبل هذا:

﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾ .

ولعله أشار أخيراً بفعل «تسطع» إلى طبيعة موسى عليه السلام التي تقل فيها استطاعة الصبر، فناسبها تقليل حروف الكلمة.

● ومنه الترخيم في النداء، كما جاء في قول امرئ القيس:

أَفَاطِمُ مَهْلًا بَعْضَ هَذَا التَّدَلِّلِ وَإِنْ كُنْتِ قَدْ أَرْمَعْتِ صَرْمِي فَأَجْمَلِي
أي: أفاطمة.

● ومنه حذف آخر الكلمة لمراعاة التناسب في الفواصل، كما جاء في قول الله عز وجل في سورة (الفجر/ ٨٩ مصحف/ ١٠ نزول):

﴿ وَالْفَجْرِ ١ ﴾ وَيَا لَيْلٍ عَشِيرٍ ٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ٤ .

يَسْرِ: أصلها يَسْرِي، فَحُذِفَ آخر حرف فيها لمراعاة الفاصلة.

وكذلك قوله تعالى فيها:

﴿ وَمَمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ١٥ ﴾ .

بِالْوَادِ: أصلها «بالوادي» فَحُذِفَتِ الياء لمراعاة الفاصلة.

● ومنه حذف ياء المتكلم، كما جاء في قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (القمر)/

٥٤ مصحف / ٣٧ نزول):

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَدَابِي وَنُذْرِي ٢١ ﴾ .

وَنُذْرِي: أي: وَنُذِرِي، فَحُذِفَتِ ياء المتكلم لمراعاة التناظر في الفواصل.

إلى غير ذلك.

* * *

شرح القسم الثاني: الاكتفاء:

الاكتفاء: هو أن يقتضي المقام ذَكَرَ شَيْئَيْنِ بَيْنَهُمَا تَلَاوُظٌ وارتباط، فَيُكْتَمَى

بِأَحَدِهِمَا عن الآخر لنكتة بلاغية.

ويختصُّ غالباً بالارتباط العاطفي.

أمثلة:

المثال الأول:

قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (النحل) / ١٦ مصحف / ٧٠ نزول):

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ

سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ

تَشْكُرُونَ ﴿٨١﴾ .

ففي قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ إيجازاً بالحذف، على سبيل الاكتفاء، إذ التّفدير: تقيكمُ الحرَّ والبرّد.

قالوا: وخصّ الحرّ بالذكر لأنّ المخاطبين الأوّلين كانوا عرباً، وبلاذهم حارّة، والوقاية من الحرّ هي الأهم لدى معظمهم.

أقول: إنّ من أساليب القرآن تجزئة العناصر الفكرية على النصوص، وقد جاء فيه الامتنان بالدفع في قوله تعالى في سورة (النحل) أيضاً:

﴿وَالْأَنْعَمَ خَلْقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾

فتكامل النّصان في الدّلالة على الوقاية من الحرّ والبرد.

المثال الثاني:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

أي: وله ما سكنَ وما تحرّك في اللّيل والنّهار، لأنّ كلّ ساكنٍ في الوجود هو دُحرّة ما، فالأمران مُتلازمان فحصل الاكتفاء بأحدهما عن الآخر.

* * *

شرح القسم الثالث: التضمين:

التضمين: هو تضمين كلمة معنى كلمة أخرى، وجعلُ الكلام بعدها مَبْنِيّاً على الكلمة غير المذكورة، كالتعدية بالحرف المناسب لمعناها، فتكون الجملة بهذا التضمين بقوة جملتين، دلّ على إحداها الكلمة المذكورة التي حُذِف ما يتعلّقُ بها، ويُقدَّرُ معناه ذهنياً، ودلّ على الأخرى الكلمة التي جاءت بعدها المتعلّقة بالكلمة المحذوفة المُلاحَظَ معنَاها ذهنياً.

وهذا التضمين فنٌّ رفيعٌ من فنون الإيجاز في البيان، وهو لا يخضع لقواعد

الاستعمالات العربية الجامدة التقليدية، التي قد يتقيد بها النحاة، بل هو لمخ ابتكاري يلاحظه البليغ، إذ يرى فعلين متقاربين، أو نحوهما، وهو يريد استعمال كل منهما في كلامه، وهذا يقتضي منه أن يصوغهما في جملتين، ويعطي كلًّا منهما تعدية التي تلائمه، لكنه يرى ما هو أبلغ من ذلك وأخصر، وأرفع أسلوباً في أداء بياني جميل، يحرك ذهن المتلقي لفهمه، ويعجب لمآحي الذكاء من البلغاء، وهو أن يختار أحد الفعلين بنية، فيذكره بلفظه، ثم يأتي بما يتعدى إليه الفعل الآخر، أو يعمل فيه، فيذكره، ويحذف معمول الفعل الذي ذكره، إذا كان له معمول سواءً أكان مفعولاً به، أم غير ذلك، ويستغني بذكر جملة واحدة عن جملتين.

ولدى تحليل التضمين يظهر لنا أنه صنف من أصناف الحذف الذي يترك في اللفظ ما يدل عليه.

فالفعل المذكور يدل بحسب تعديته العربية على معموله المحذوف، والمعمول المذكور مع قرائن النص يدل على عامله المحذوف، وينتج عن ذلك أداء موجز بليغ، اعتمد على أسلوب بياني ذكي.

ولا بد أن نذكر أن مثل هذا الإجراء البياني لا يستقيم بين كل فعلين أو ما يعمل عملهما، حتى يطبق بعباء، سواء استقام الأداء البياني أم لم يستقم، بل يحتاج من البليغ رؤية فنية بيانية، يصل بها إلى أنه لو استخدم هذا الأسلوب في جملة لأدركه البلغاء والأذكياء، دون إعنات ذهني، ويذكره الآخرون بالتدبر والتأمل.

فمثلاً: أريد أن أقول: جلست على فراشي، وأملت جسمي إلى متكبي، فأختصر الكلام فأقول: جلست إلى متكبي.

ومثل هذا الإيجاز القائم على الحذف والإيصال، أسلوب ينهجه بلغاء العرب، وتقدير الكلام: جلست مائلاً إلى متكبي.

أمثلة:

المثال الأول:

قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الإنسان/ ٧٦ مصحف/ ٩٨ نزول):

﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٦٦﴾ عَيْنَا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦٧﴾ .

إنَّ فعل: «يَشْرَبُ» يُعَدِّي لغةً بحرف «مِنْ» لكنه جاء في النَّصِّ هنا متعدياً بحرف «الباء» فلماذا؟

بالتأمل يظهر لنا أنَّ فِعْلَ «يشرب» ضَمَّنَ مَعْنَى فِعْلِ: «يتلذذ» أو «يَرْتَوِي» الذي يُعَدِّي بحرف «الباء» فَعُدِّي تعديته، والتقدير: عينا يَشْرَبُ منها مُتَلَذِّذًا بها عبادُ الله، فأغنى «يَشْرَبُ بها» عن عبارة: يشربُ منها ويتلذذُ بما يشرب عباد الله.

الفعلُ المذكور دَلَّ على معناه بصريح العبارة، وحرف الجرِّ «الباء» دَلَّ على الفعل المحذوف الذي ضَمَّنَ الفِعْلُ المذكور معناه، فأغنت جُمْلَةٌ عن جُمْلَتَيْنِ، وعبارةٌ عن عبارتَيْنِ، وهذا من روائع الإيجار في القرآن المجيد.

المثال الثاني:

قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةٌ أَصْوَارٍ أَرَفْتُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِيَّاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَّاسٌ لَهُنَّ . . . ﴾

[الآية ١٨٧].

كَلِمَةُ «الرَّفَتْ» مَصْدَرٌ «رَفَتْ يَرَفْتُ رَفْتًا» أي: صرَّحَ بكلامٍ يتعلَّق بالجماعِ ومُقَدِّماته، أو فَعَلَ ما يَتَّصِلُ بذلك.

وأصل الرَفَتْ لا يَتَّعَدِّي لغةً بحرف «إِلَى» لكنه ضَمَّنَ مَعْنَى فِعْلِ «أَفْضَى» فَعُدِّي تعديته، يُقَالُ: أَفْضَى إِلَى زوجته، أي: أزال ما بَيْنَهُمَا من الفِضَاءِ فَالتَصَقَّ بها، وهو كناية عن الجماع.

وتقدير الكلام: أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثُ بِالْحَدِيثِ مَعَ نِسَائِكُمْ مُقَدِّمَةً مُنَاسِبَةً يَكُونُ بَعْدَهَا الْإِفْضَاءُ إِلَيْهِنَّ وَجَمَاعُهُنَّ، وَاللَّهُ بِهَذَا يُعَلِّمُ الْأَزْوَاجَ أَدَبَ الْمَعَاشِرَةِ بِاسْتِخْدَامِ الْمَقْدِمَاتِ قَبْلَ الْإِفْضَاءِ وَالْمَعَاشِرَةِ الزَّوْجِيَّةِ .

المثال الثالث:

قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (النازعات/ ٧٩ مصحف/ ٨١ نزول):

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثَ مُوسَى ﴿١٧﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٨﴾ أَذْهَبَ إِلَيْكَ فِرْعَوْنُ إِنَّهُ كَفُورٌ ﴿١٩﴾ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَنْ تَزَّكَّى ﴿٢٠﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَنَخَسْنِي ﴿٢١﴾ ﴾ .

هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَنْ تَزَّكَّى؟: عبارة: «هَلْ لَكَ» استفهامٌ وخبرٌ مقدَّم والمبتدأ محذوف تقديره: «هَلْ لَكَ رَغْبَةٌ» وكلمة «رَغْبَةٌ» تُعَدَّى بِحَرْفِ «فِي» لَا بِحَرْفِ «إِلَى» لَكِنْ ضُمَّتْ مَعْنَى فَعَلٍ «أَدْعُو» فَعُدِّيَتْ تَعْدِيَّتَهُ، وَالتَّقْدِيرُ: هَلْ لَكَ رَغْبَةٌ فِي أَنْ أَدْعُوكَ إِلَى أَنْ تَزَّكَّى؟

المثال الرابع:

قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الشورى/ ٤٢ مصحف/ ٦٢ نزول):

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ .

إِنَّ فَعْلَ «يَقْبَلُ» يَتَعَدَّى لُغَةً بِحَرْفِ «مِنْ» فَيَقَالُ: قَبِلَ اللَّهُ مِنْهُ تَوْبَتَهُ .

وَلَكِنْ عُدِّيَ هُنَا بِحَرْفِ «عَنْ» لِأَنَّهُ ضُمَّنَ مَعْنَى فَعْلٍ «عَفَا» أَوْ «صَفَحَ» فَعُدِّيَ تَعْدِيَّتَهُ، وَالتَّقْدِيرُ: وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ مِنْ عِبَادِهِ إِذْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ عَنْهُمْ .

المثال الخامس:

قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) بشأن منافقي

العرب:

﴿ وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شِيْطَانِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ .

إِنَّ فعل «خَلَا» يأتي في اللغة للدلالة على معنى انفراد الإنسان في خَلْوَةٍ، لا يكون معه فيها أحدٌ، فيقولون: خلا الرجل، ورُبَّمَا قالوا: خلا بنفسِه، فإذا أرادوا بيان أن الخلوة حصلتْ مَعَ فريقٍ آخر قالوا: خَلَا به، أو خلا معه، وَلَا يُعَدَّى فعلُ «خَلَا» بحرف «إلى» بحسب أصل الاستعمال.

فكيف نُفسِّر هذه التعدية؟

أقول: إِنَّ فعل «خَلَا» ضَمَّن معنى فعل «رَجَعَ» فَعُدِّي تَعْدِيته، والتقدير: وإذا خَلَوْا راجِعِينَ إلى شياطينهم قالوا لهم: إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ.

المثال السادس:

قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (ص / ٣٨ / مصحف / ٣٨ نزول) في حكاية فتوى داود عليه السلام للفريقين الَّذِينَ تَسَوَّرُوا عَلَيْهِ الْمِحْرَابَ:

﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ سُؤَالٌ نَعَجْتِكَ إِلَى نَعَاجِهِ... ﴾ [الآية ٢٤].

إِنَّ كلمة «سُؤَالٌ» لَا تُعَدَّى بحرف «إلى» ولكنها ضَمَّنَتْ معنى الجمع والضمِّ فَعَدِّيَتْ بحرفِ «إلى» والتقدير: لقد ظلمك بسؤال نَعَجْتِكَ ضامًّا إِيَّاهَا إلى نعاجه.

قال ابن تيمية^(١).

«والعرب تُضَمِّن الفعل معنى الفعل، وتُعَدِّيهِ تعديته، ومن هنا غلط من جعل بعض الحروف تقوم مقام بعض، كما يقولون في قوله: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ سُؤَالٌ نَعَجْتِكَ إِلَى نَعَاجِهِ﴾ أي: مع نعاجه و﴿وَمَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي: مع الله، ونحو ذلك.

والتحقيق ما قاله نحاة البصرة من التضمين، فسؤال النعجة يتضمَّن جمعها وضمَّها إلى نعاجه، وكذلك قوله: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾

(١) انظر مجموع الفتاوى المجلد (١٣) صفحة (٣٤٢).

ضُمَّنَ مَعْنَى «يُرِيغُونَكَ» و «يَصُدُّونَكَ» وكذلك قوله: «وَنَصَرْنَاَهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا» ضُمَّنَ مَعْنَى «نَجَّيْنَاهُ» و «خَلَّصْنَاهُ» وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: «يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ» ضُمَّنَ «يَرَوَى بِهَا» ونظائره كثيرة.

المثال السابع:

قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول):

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

اتَّقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ: أي: تَتَّقَلْتُمْ مَائِلِينَ أَوْ مُخْلِدين إِلَى الْأَرْضِ، فَعُدِّيَتْ كَلِمَةُ «اتَّقَلْتُمْ» بِحَرْفِ «إِلَى» لِأَنَّهَا ضُمِّنَتْ مَعْنَى كَلِمَةِ «أَخْلَدَ» أَوْ «مَالَ».

انظر طائفة من الأمثلة الأخرى في كتابي «قواعد التدبُّر الأملل لكتاب الله عزَّ وجلَّ»^(١).

* * *

شرح القسم الرابع: الاحتباك:

الاحتباك: هو أن يُحذفَ من الأوائل ما جاء نظيره أو مقابله في الأواخر، ويُحذفَ من الأواخر ما جاء نظيره أو مقابله في الأوائل.

ومأخذ هذه التسمية من الحَبْك، وهو الشدُّ والإحكام، وتحسين أثر الصنعة في الثوب، فَحَبْكُ الثوب هو سَدُّ ما بين خيوطه من الفَرْجِ وَشَدُّهُ وإِحكامه إِحكاماً يَمْنَعُ عَنْهُ الخَلَلَ، مع الحُسْنِ والرونق.

(١) انظر المقولة الثالثة «حول مراعاة ظاهرة التضمين» ص (٢٩٦) من «القاعدة الرابعة عشرة» من الكتاب المذكور.

وبيان أخذ هذه التسمية من حَبِكَ الثوب أن مواضع الحذف من الكلام شُبِّهَتْ بِالْفُرْجِ بين الخيوط، فلَمَّا أَدْرَكهَا المَتَدَبِّرُ البَصِيرُ بصياغة الكلام، الماهر بإحكام روابطه، وأَدْرَكَ مَقَابِلَاتِهَا، تنبّه إلى ملء الفُرْجِ بِأَمْثَالِ مَقَابِلَاتِهَا، كما يفعل الحائل حينما يُجْرِي حَبَكَ مُحْكَمًا في الثوب الذي ينسجه.

يقال لغة: حَبِكَ الثوبَ، وَحَبَّكَ، وَاحْتَبَكَّهُ إذا أجاد نسجه وأتقنه، وَحَبَكَ الحَبْلَ، إذا شَدَّ قِطْعَهُ. وَحَبَكَ الثوبَ، إذا ثَنَى طَرَفَهُ وَخَاطَهُ.

أمثلة:

المثال الأول:

قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (آل عمران / ٣ مصحف / ٨٩ نزول):

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ اللَّتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَى الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ لَبِثَ فِي ذَلِكَ أَسْبُوعًا لِأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾ .

نلاحظ في هذه الآية حَذْفًا مِنَ الْأَوَائِلِ لدلالة ما في الأواخر، وحذفاً من الأواخرِ لِلدَّلَالَةِ مَا فِي الْأَوَائِلِ، وهذا من بدائع القرآن وإيجازه الرائع.

إن إبراز المحاذيف يتطلب منا أن نقول:

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ اللَّتَقَتَا فِئَةٌ مُّؤْمِنَةٌ تَقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ ﴿ فِئَةٌ أُخْرَى كَافِرَةٌ تَقَاتِلُ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ ﴾ يَرَوْنَهُمْ . . . إلى آخره .

فتحقّق «الاحتباك» بدلالة ما في الأوائِلِ على المحذوف من الأواخر، ودلالة ما في الأواخر على المحذوف من الأوائِلِ.

المثال الثاني:

قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (التوبة / ٩ مصحف / ١١٣ نزول):

﴿وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ .

قالوا: أي: خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا بِسَيِّئٍ وَعَمَلًا آخَرَ سَيِّئًا بِصَالِحٍ .

أقول: مثل هذا التقدير ليس أمراً لازماً في هذا الشاهد، بل الأولى - فيما أرى - فهمه على الوجه التالي:

«وَأَخْرُونَ اعترفوا بذنوبهم خلطوا» أي: جَمَعُوا جَمْعاً مُخْتَلِطاً أَعْمَالاً مُخْتَلِفَةً «عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا» .

والمعنى أنهم يعملون عملاً صالحاً، ويعملون بعده عملاً سيئاً، وهكذا دواليك، فهذا المعنى التابعي الذي يجمع في صحائفهم خليطاً غير متجانس لا يؤديه تقدير: خلطوا عملاً صالحاً بسَيِّئٍ وَعَمَلًا آخَرَ سَيِّئًا بِصَالِحٍ .

المثال الثالث:

قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (النمل / ٢٧ مصحف / ٤٨ نزول) حكاية لما خاطب به موسى عليه السلام عند تكليمه:

﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ...﴾ [الآية ١٢].

التقدير: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ تَدْخُلْ غَيْرَ بَيْضَاءَ . وَأَخْرِجْهَا ﴿تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ .

فدلَّ لفظ «بيضاء» في الأواخر على عبارة «غير بيضاء» المحذوفة من الأوائل، ودلَّت عبارة «وَأَدْخِلْ» في الأوائل على عبارة «وأخرجها» المحذوفة من الأواخر، فتم الاحتباك .

* * *

شرح القسم الخامس : الاختزال :

الاختزال: هو كلُّ حذف في الكلام لا يدخل في واحد من الأقسام الأربعة

السابقة: «الاقطاع – الاكتفاء – التضمين – الاحتباك».

وقد تتبّع البلاغيون والنحويّون والمفسّرون هذا الحذف المسمّى بالاختزال

فوجدوا أنّه يَشْمَلُ حذف الاسم، والفعل، والحرف، وحذف جملة، أو عدّة

جمل، وحذف كلام طويل في قصّة ذات أحداث كثيرة.

وتتبعوا الأمثلة بالتفصيل فوجدوا أمثلة من كلّ ما يلي :

(١) حذف المضاف، وهو كثير جداً في القرآن، حتّى عدَّ «ابن جنّي» منه

زهاء ألف موضع.

(٢) حذف المضاف إليه.

(٣) حذف المبتدأ.

(٤) حذف الخبر.

(٥) حذف الموصوف.

(٦) حذف الصفة.

(٧) حذف المعطوف عليه.

(٨) حذف المعطوف مع العاطف.

(٩) حذف المبدل منه.

(١٠) حذف الفاعل.

(١١) حذف المفعول به.

(١٢) حذف الحال.

(١٣) حذف المنادى.

(١٤) حذف العائد.

(١٥) حذف الموصول.

(١٦) حذف الفعل .

(١٧) حذف الحرف .

(١٨) حذف أكثر من كلمة، وقد تَبَلَّغَ جملاً كثيرة، وأحداثاً طويلةً من

قصة .

وإذ يطول بي هنا ذكر الأمثلة مع شرحها وتحليلها، فإني اقتصر الآن على طائفة يسيرة منها، وأُحِيلُ القارئ على ما فَصَّلْتُ في القاعدة الرابعة عشرة، من كتابي: «قواعد التدبُّر الأمثل لكتاب الله عزَّ وجلَّ» وعلى كتاب «الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز» للشيخ «عزَّ الدين بن عبد السلام» وعلى ما جاء في كتاب «مغني اللبيب عن كتب الأعراب» لابن هشام، في الباب الخامس منه، فقد فصل في أواخره القول في الحذف .

أقول: إنَّ المهمَّ في الدراسة البلاغيَّة لظاهرة «الحذف» اكتشاف الداعي البلاغي له في الكلام، والتنبيه عليه .

أمثلة:

(١) قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمِيتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ، وَالْمُنْخَفَقَةُ وَالْمَوْفُودَةُ وَالْمُتَرَدِّبَةُ وَالنَّطِيعَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ . . . ﴾ [الآية ٣].

أي: حُرِّمَ عليكم أكلُ هذه المذكورات، وهذا من حذف الاسم المضاف .

(٢) وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول) بشأن

الروم إذ غلبوا من قبل الفرس وبيان أنهم سَيَعْلَبُونَ:

﴿ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ . . . ﴾ [الآية ٤].

أي: لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلِ الْغَلْبِ وَمِنْ بَعْدِ الْغَلْبِ، وهذا من حذف المضاف

إليه .

(٣) وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول) في حكاية بيان الخضر لموسى عليهما السلام أسباب أعماله التي استنكرها:

﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ .

أي: يأخذُ كُلَّ سفينةٍ غيرِ معيبةٍ غصبًا، بدليل قوله: فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا. وهذا من حذف الصفة.

وهكذا



الفصل الرابع

الإطناب

(١)

التعريف

الإطناب في اللغة: يدور حول معنى الإطالة والإكثار والطول والكثرة والزيادة عن المعتاد.

يقال لغة: أطنبَ النهرُ إذا طال مجراه. وأطنبت الرِّيحُ إذا اشتدت مشيرةً غباراً. وأطنبتِ الدَّواب، إذا تَبَعَ بعضها بعضاً في السير وطالَ تتابُعُها. وأطنبَ العَدَاءُ في عَدُوهِ، إذا بالَغَ فيه وابتعد.

ويقال أيضاً: أطنب الرجل في الكلام أو الوصف أو الأمر، إذا بالَغَ وأكثر وزاد في ذلك.

الإطناب في اصطلاح البلاغيين: كَوْنُ الكلام زائداً عما يُمكن أن يُودَى به من المعاني في معتاد الفصحاء، لفائدة تُقصد.

ويقال للمتحدِّث بالكلام الذي فيه إطناب: أطنب في كلامه فهو مُطنِب.

واحتُرِزَ بقيد: «لفائدة تُقصد» لإخراج الزيادة في الكلام دون فائدة تُقصد لدى البلغاء، وقد يطلق على هذه الزيادة لفظ «الإسهاب». والزيادة في الكلام بلا فائدة تُقصد تكون — كما سبق به البيان في الفصل الأوَّل من هذه الباب — بالتطويل: كذكر المترادفين، أو بالحشو، وكلاهما أمران معيَّبان، وأضيف هنا أن الحشو قد

يكون حشواً غير مفسد للمعنى، فهو كالتطويل، وقد يكون مفسداً للمعنى وهو حينئذٍ حشوٌ ساقط، وضربوا مثلاً للحشو الساقط بقول المتنبي يتحدث عن الحياة الدنيا:

وَلَا فَضْلَ فِيهَا لِلشَّجَاعَةِ وَالنَّدَى وَصَبْرِ الْفَتَى لَوْلَا لِقَاءُ شُعُوبِ
شُعُوبِ: اسم علمٌ على المنية.

قالوا: جاءت عبارة «والندى» حشواً مفسداً للمعنى، وذلك لأنَّ الإنسان إذا أمِنَ من ملاقة الموت زاد تعلقه بالمال، إذ تعظم حاجته إليه بدوام الحياة، فلا يكون لديه جودٌ به، وعندئذٍ يظهر فضلُ النَّدَى أي: الجود، بخلاف مترقب الموت فإنه يكثر جوده. أمَّا الشجاعة فعلى عكس الندى، لولا توقُّع ملاقة الموت بها، ولولا الخوف منه، لما تفاضل الناس بها.

ولم يتعرَّض العكبري لهذا التَّنْقُد، بل شرح كلام المتنبي دُونَ تعقيب.

أما الحشو غير المفسد فمنه قول أبي العيال الهذلي:

ذَكَرْتُ أَخِي فَعَاوَدَنِي صُدَاعُ الرَّأْسِ وَالْوَصَابُ
فجاء ذكر الرأس حشواً غير مفسد، لأنَّ الصداع لا يكون إلا في الرأس.
وقول أبي عدي:

نَحْنُ الرَّؤُوسُ وَمَا الرَّؤُوسُ إِذَا سَمَتْ فِي الْمَجْدِ لِلْأَقْوَامِ كَالْأَذْنَابِ
فجاء ذكر «للأقوام» حشواً غير مفسد، وهكذا^(١).

* * *

(١) قال بدر الدين بن مالك في المصباح: يكثر الحشو بلفظ أصبح وأمسى وعدا، وألا، وقد، واليوم، ولعمري، ويا صاحبي.

(٢)

تقسم الإطناب

ينقسم الإطناب إلى قسمين: إطناب بالبسط، وإطناب بالزيادة:
أما القسم الأول: وهو «الإطناب بالبسط» فيكون بتكثير الجمل وبسط المعاني، واستعمال كلام طويل يُغني عنه كلام قصير، دون أن تكون فيه ألفاظ زائدة.

أمثلة:

المثال الأول:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَخْبَا بِهِنَّ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٦﴾﴾.

في هذه الآية إطناب بالبسط، لتوجيه الأنظار لآيات كونية دالات على طائفة من صفات الله عزّ وجلّ، منها شمول علمه، وعظيم قدرته، وكمال إرادته، وجليه حكمته وإتقانه وإبداعه لمخلوقاته، وعنايته بعباده.

وهذا البسط آت من ذكر طائفة مفصلة من آياته في كونه، كل واحد منها تدلّ على كلّ هذه الصفات، فذكرها هو من البسط في إقامة الأدلة دون زيادة في الألفاظ لدى ذكر كلّ آية منها.

والآيات هي الآيات السبع التاليات:

الأولى: ظاهرة خلق السماوات والأرض.

الثانية: ظاهرة اختلاف الليل والنهار.

الثالثة: ظاهرة الفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس.

الرابعة: ظاهرة الماء الذي يُنزله الله من السماء فيُخَيِّب به الأرض بعد موتها.

الخامسة: ما بَثَّ اللَّهُ في الأرض مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ تَدْبُ عليها.

السادسة: تَصْرِيفُ الرِّيحِ بتدبير أَمْرِهَا وتوجيهها لتحقيق أُمُورٍ جلييلة في الكون.

السابعة: تسخير السحاب بين السماء والأرض.

المثال الثاني:

قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (غافر/ ٤٠ / مصحف/ ٦٠ نزول):

﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ... ﴾ [الآية ٧].

إنَّ عبارة ﴿ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ وَصَفًا للملائكة الذين يَحْمِلُونَ العرش، وللملائكة الذين من حول العرش من الإطناب بالبسط، وذلك لأنَّ إيمانهم معلوم من نصوص سابقة التنزيل، ومن كونهم يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ.

والغرض البلاغي من هذا الإطناب إظهار شرف الإيمان، والترغيب فيه، والإشارة إلى أنَّ تسبيحهم بحمد ربِّهم ثمرة من ثمرات إيمانهم، وليس تسبيحاً جَبْرِيًّا كتسبيح السماوات والأرض والشجر والجماد، إذن فهم يملكون جهازاً يُفَكِّر، وجهازاً يؤمن بالإرادة.

المثال الثالث:

قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ / مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾.

في هذه الآية إطنابٌ بالبسط، فالغرض بيانُ مُضَاعَفَةِ أَجْرِ المنفق في سبيل الله إلى سبعمائة ضعف فما فوق ذلك، وهذا المعنى يُؤدِّي بعبارة قصيرة، لكنَّ جاء في

الآية مبسوطاً، وطريقُ البسط تمثيلُ المنفقِ لِحَبَّةٍ واحدةٍ في سبيلِ الله بزراعِ حَبَّةٍ
أُنبتتْ سبعَ سنابلٍ في كلِّ سُنْبَلَةٍ مئةُ حَبَّةٍ.

والغرضُ من هذا البَسْطِ إثارةُ محورِ الطمعِ في المخاطبين إذ يُعْرَضُ لهم
الأجرُ الموعودُ به على الإنفاقِ في سبيلِ الله في صورةِ مثالٍ يَشْهَدونَ نظائره في
الظواهرِ الزراعيَّةِ، ليكونَ هذا الطمعُ محرَّضاً ذاتياً في الأنفسِ على بذلِ الأموالِ في
سبيلِ الله.

المثال الرابع:

قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (فُصِّلَتْ / ٤١ مصحف / ٦١ نزول):

﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كٰفِرُونَ ﴿٧﴾﴾.

إنَّ عبارة ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ من الإطناب، لأنَّ المشركين لا يُزَكُّونَ.

والداعي لهذا الإطناب حثُّ المؤمنين على أداء الزكاة، وتحذيرهم من المنع
إذ أبان الله أنَّه من صفات المشركين، وفيه دلالة على أنَّ من أثار الشرك جَفَافَ
الرحمة على ذوي الحاجات، فهم لا يشعرون بمشاعر ذوي الحاجات، بخلاف
المؤمنين بالله واليوم الآخر، إذ الإيمان يولِّد في قلوبهم خلق الرحمة، وعاطفة حبِّ
العطاء ومساعدة ذوي الحاجات.

* * *

وأما القسم الثاني: وهو «الإطناب بالزيادة» فيكون زيادةً في الألفاظ على
أصل المعنى الذي يُرادُ بيانه لتحقيق فائدةٍ ما.

فمنه قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (القدر / ٩٧ مصحف / ٢٥ نزول):

﴿نَزَّلُ الْمَلَائِكَةَ وَالرُّوحَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾﴾.

إنَّ عبارة: ﴿والرُّوح﴾ وهو جبريل عليه السلام من الإطناب بالزيادة، لأنَّ
جبريل داخلٌ في عموم الملائكة، ولكنها زيادة ذاتُ فائدة، إذ الغرضُ من تخصيصه

بالذكر بعد دخوله في عموم الملائكة الإِشعارُ بتكريمِهِ وتعظيمِ شأنِهِ، حتَّى كأنَّهُ جنسٌ خاصٌّ يُعْظَفُ على الملائكة.

● ومنه قول الشاعر «الحسين بن مطير» من الشعراء الذين عاصروا الدولتين الأموية والعباسية، يرثي «معن بن زائدة»:

فِيَا قَبْرَ مَعْنٍ أَنْتَ أَوَّلُ حُفْرَةٍ مِّنَ الْأَرْضِ خُطَّتْ لِلسَّمَاحَةِ مَوْضِعاً
وَيَا قَبْرَ مَعْنٍ كَيْفَ وَارَيْتَ جُودَةَ وَقَدْ كَانَ مِنْهُ الْبَرْ وَالْبَحْرُ مُثْرَعاً
إِنَّ قَوْلَهُ: «وَيَا قَبْرَ مَعْنٍ» في البيت الثاني هو من الإطناب بالزيادة، لفائدة، وطريقته التكرير.

والداعي البلاغي لهذا الإطناب «التحسر».

● ومنه قول «ابن المعتز» يصفُ فرساً:

صَبَبْنَا عَلَيْهَا - ظَالِمِينَ - سَيَاطِنَا فَطَارَتْ بِهَا أَيْدٍ سِرَاحٌ وَأَرْجُلُ
إِنَّ قَوْلَهُ: «ظَالِمِينَ» من الإطناب بالزيادة لفائدة.

والداعي البلاغي لهذا الإطناب «الاحتراس» لذلك يسمّى به، إذ لو لم يُوجد هذا الاحتراس لتوهّم المتلقّي أَنَّ فَرَسَ «ابن المعتز» كان بليداً يَسْتَحِقُّ الضَّرْبَ بالسيّاط، فكان قولُهُ ظَالِمِينَ دافعاً لهذا التوهّم.

* * *

(٣)

طرائق الزيادات الإطنابية المفيدة ودواعيها البلاغية

نظر البلاغيون في الزيادات الكلامية التي يحصلُ بها الإطنابُ المفيد، فأرأوا أنّها تكون في طرائق من القول، جَمَعْتُهَا في (١٥) طريقة كنتُ في كثير منها متبعاً، وفي بعضها محرراً ومُصَنَّفاً.

وبحثوا في الدواعي البلاغية لاختيار الإطناب المفيد بهذه الطرائق فتجمعت
لديهم نتائج أفادتني في التصنيف والتمثيل.

وأشير هنا إلى أن بعض الأمثلة قد تصلح أمثلة لأكثر من طريقة من الطرائق
التالية البالغة خمس عشرة طريقة:

الطريقة الأولى: «الإيضاح بعد الإبهام» وذلك بأن يُوردَ المتكلم المعنى
مُبهمًا، وبعْدَ ذلك يُورده مُوضَّحًا، قال أهل البيان: إذا أردت أن تُبهمَ ثم توضح
فإنك تُطنب.

ووجه حُسنِ هذه الطريقة مع الفوائد التي تتحصّل بها أن فيها ما يلي:

(١) إبراز الكلام في معرض الاعتدال الذي يدنو عليه الإيجاز بالإبهام،
والإطناب بالإيضاح، فتكون المحصلة اعتدالاً.

(٢) إيهام الجَمع بين المتنافيين، هما الإيجاز والإطناب، إذ الجمع بين
المتنافيين من الأمور الغريبة المستطرفة المثيرة للإعجاب.

ومن فوائد «الإيضاح بعد الإبهام» الداعية للإطناب به ما يلي:

(١) تقديم المعنى الواحد في صورتين مختلفتين إحداها مبهمة والأخرى
موضحة، كما تقدّم الحسناء في كِلَّة^(١) أولاً، وبعْدَ ذلك تُعرضُ مجلوةً إذ تُرفعُ
الكِلَّةُ عن وجهها ورأسها ومواطنِ زيتتها، فتنجلي للأعين محاسنها.

(٢) تمكين المعنى في نفس المُتلقي تمكيناً زائداً، لوقوعه بعد استشراف
النفس إليه بالإبهام.

(٣) تكميل لذة العلم به، إذ بدأت ناقصةً بالإبهام، وكملت بالإيضاح،
فالشيء إذا علم ناقصاً تشوّقت النفس إلى العلم به كاملاً، وحصل لديها ظمأ

(١) الكِلَّة: ستر رقيق مثقب يُتوقى به من البعوض وغيره.

لمعرفته، فإذا استكملت النفس معرفته كانت لذتها أشد من حصول العلم به دفعة واحدة.

● ومن هذه الطريقة ما يُسمَّى «التوشيع»^(١).

وهو أن يُؤْتَى في عَجْزِ الكَلَامِ بِمَثَلٍ مُفَسَّرٍ بِاسْمَيْنِ، ثانيهما معطوفٌ على الأوَّلِ مِنْهُمَا، كقول الرسول ﷺ فيما روى البخاري ومسلم عن أنس قال: قال النبي ﷺ:

«يَهْرَمُ ابْنُ آدَمَ وَيَسْبُ مِنْهُ اثْنَانِ: الحرصُ على المال، والحرصُ على العُمُرِ».

وأيضاً عن أبي هريرة:

«لَا يَزَالُ قَلْبُ الْكَبِيرِ شَابًا فِي اثْنَتَيْنِ: فِي حُبِّ الدُّنْيَا، وَطُولِ الأَمَلِ».

ومن التوشيع قول الشاعر:

وَلَا يُقِيمُ عَلَيَّ ضَيْمٍ يُرَادُ بِهِ إِلَّا الأَذْلَانَ: عَيْرُ الْحَيِّ وَالْوَتْدُ

ومن التوشيع أيضاً قول الشاعر:

سَقَتْنِي فِي لَيْلٍ شَبِيهِ بِشَعْرِهَا شَبِيهَةٌ خَدَيْهَا بِعَيْرِ رَقِيبِ
فَمَا زِلْتُ فِي لَيْلَيْنِ: شَعْرٍ وَظَلْمَةٍ وَشَمْسَيْنِ: مِنْ خَمْرٍ وَوَجْهِ حَبِيبِ

ومن هذه الطريقة «التفصيل بعد الإجمال» مثل قول الله عز وجل في سورة

(التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول):

﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ... ﴾ [الآية ٣٦].

(١) هذا التوشيع عند البلاغيين، أما التوشيع في اللغة فيأتي بمعنى إحاطة البستان بنحو سياج، وبمعنى دخول الشيء في الشيء، وبمعنى إدارة الغزل على الوشعة وهي خشبة المكوك، والمعنى الأخير هو الملائم للمعنى الاصطلاحي، وقد يكون المعنى الأول ملائماً أيضاً.

فعبارة: «مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ» تفصيل بعد إجمال.

● ومنها «الإجمالُ بَعْدَ التفصيل» مثل قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة/

٢ مصحف / ٨٧ نزول):

﴿فَمَنْ تَمَعَ بِالْعَمْرَةِ إِلَى الْحَيْجِ مَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامٌ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْحَيْجِ وَسَبْعًا إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ...﴾ [الآية ١٩٦].

جاءت في هذه الآية عبارة: «تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ» إجمالاً بَعْدَ تفصيل، لرفع توهم أن «الواو» في عبارة «وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ» هي بمعنى «أو» فتكون الثلاثة داخلية في السبعة، فجاء ذكر الأيام كلها مجملةً بعبارة «تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ».

ومثل قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الأعراف / ٧ مصحف / ٣٩ نزول):

﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَا بِعَشْرِ فِتْمٍ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً...﴾ [الآية ١٤٢].

جاءت في هذه الآية عبارة: «فِتْمٍ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً» إجمالاً بعد تفصيل لرفع توهم أن عبارة: «وَأَتَمَمْنَا بِعَشْرِ» تعني كَوْنُ «ثَلَاثِينَ لَيْلَةً» كانت عشرين أتمت بعشر فصارت ثلاثين، فدفع هذا التوهم بالإجمال اللاحق.

وذكروا من أمثلة الإيضاح بعد الإبهام ما يلي:

(١) قول الله عزَّ وجلَّ:

﴿الَّذِي نَشْرَحُ لَكَ صَدْرَكَ ① وَوَضَعْنَا عَنكَ ② وَزَرَكَ ③ أَلَيْسَ أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ④ وَرَفَعْنَا لَكَ

ذِكْرَكَ ⑤﴾.

قالوا: كان يكفي أن يقول: أَلَمْ نَشْرَحْ صَدْرَكَ. وَوَضَعْنَا وَزَرَكَ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ وَرَفَعْنَا ذِكْرَكَ، لكن إضافة «لَكَ» في موضعين و«عَنكَ» في موضع، تُفيد الإبهام أولاً فَتَسْتَشْرِفُ النَّفْسَ لِلإيضاح، وَتَسْتَشَوِّقُ لِلتفسير، وبعبارات: «صَدْرَكَ—

وَزُرْكَ - ذِكْرَكَ» يرتفع الإبهام ويرتوي ظمأ النفس للمعرفة الذي أثاره التشويق، مع ما في «لَكَ» و «عَنكَ» من تأكيد وتمكين، لأنَّ المقام مقام امتنانٍ سَبَقَتْ دواعيه. ونظيره قول موسى عليه السلام الذي جاءت حكايته بقول اللّهِ عزَّ وجلَّ في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿ أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٢٠﴾ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢١﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٢﴾ ﴾

* * *

الطريقة الثانية: «ذِكْرُ الْخَاصِّ بَعْدَ الْعَامِّ» ونظيره «ذِكْرُ الْعَامِّ بَعْدَ الْخَاصِّ».

المراد بالعام هنا ما كان شاملاً في معناه لمقابله، لا العام والخاص في مصطلح علم أصول الفقه.

وفائدة ذكر الخاص بعد العام التنبيه على فضله، حتَّى كأنه ليس من جنس العام أو نوعه، تنزيلاً للتغاير في الوصف منزلة التغاير في الذات.

وفائدة ذكر العام بعد الخاص التعميم، وجاء أفراد الخاص بالذكر اهتماماً بشأنه، مع ما في إدخاله ضمن العام من تأكيد وتكرير ضمناً.

الأمثلة:

المثال الأول:

قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿١١٣﴾ ﴾

نلاحظ أنَّ الصَّلَاةَ الْوُسْطَىٰ - وهي في أظهر الأقوال صلاةُ العَصْرِ - داخلةٌ في عموم لفظ «الصَّلَوَاتِ» لكن خُصَّتْ بالذكر وَعُطِفَتْ على عموم الصلوات اهتماماً بشأنها، وتوجيهاً لتخصيصها بعناية فائقة خاصة، وهذه فائدة الإطناب بذكرها، إذ هي داخلةٌ في عموم لفظ «الصَّلَوَاتِ» الوارد قبلها في النص.

هذا المثال من عطف الخاص على العام.

المثال الثاني :

قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة) أيضاً:

﴿ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ
لِّلْكَافِرِينَ ﴾ .

إنّ جبريل وميكائيل عليهما السلام داخلان في عموم الملائكة ولكنّ حُصَّ جبريل بالذكر تحذيراً لليهود من معاداتهم له، وضُمَّ إليه ميكائيل لقيامه بوظيفة أرزاق العباد التي بها حياة الأجساد، مقابل قيام جبريل بوظيفة الوحي الذي به حياة القلوب والنفوس .

هذا المثال من عطف الخاصّ على العامّ أيضاً .

المثال الثالث :

قول الله عزّ وجلّ في سورة (نوح) / ٧١ مصحف / ٧١ نزول) حكاية لدعاء نوح عليه السلام :

﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ
إِلَّا بَأْسًا ﴾ .

تباراً: أي: هلاكاً .

لقد حُصَّ نوح عليه السلام نفسه بطلب المغفرة من ربّه، وأتبعه بطلب المغفرة لوالديه، وأتبع ذلك بطلب المغفرة لكلّ مَنْ دَخَلَ بَيْتَهُ مُؤْمِنًا، فَعَمَّم، ومعلومٌ أنّه ممّن دَخَلَ بَيْتَهُ مُؤْمِنًا فأدخَلَ نفسه في العموم، وأخيراً قال: «وللْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ» ومعلوم أنّ من دَعَا لَهُمْ سَابِقًا يَدْخُلُونَ فِي عَمومِ الْمُؤْمِنِينَ أو فِي عَمومِ الْمُؤْمِنَاتِ، فَكَأَنَّهُ شَمَلَهُمْ بِالْدَعَاءِ الْأَخِيرِ، فَأَفَادَ هَذَا التَّعْمِيمَ بَعْدَ التَّخْصِصِ تَأْكِيدَ الدَّعَاءِ وَتَكَرُّرَهُ لِمَنْ ذُكِرُوا سَابِقًا .

هذا المثال من ذكر العام بعد الخاصّ .

المثال الرابع:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (التحریم/ ٦٦ مصحف/ ١٠٧ نزول) خطاباً

لاثنين من زوجات الرسول ﷺ:

﴿إِنْ نُوَبِّأُ إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَعَتْ قُلُوبُكُمْ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةِ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾﴾.

فذكر جبريل أولاً على سبيل الخصوص وبعد ذلك ذكر عموم الملائكة ومعلوم أنّ جبريل عليه السلام يدخل في عموم الملائكة، لكن جاء إفراد جبريل بالذكر أولاً اهتماماً بشأنه، وتعظيماً لمقامه، وإشادة بمكانته عند الله.

* * *

الطريقة الثالثة: «التكرير» لداعٍ بلاغي، كقول عنترة بن شداد في بعض

روايات معلقته:

يَدْعُونَ عَنَّتَرَ وَالرَّمَّاحُ كَأَنَّهَا أَشْطَانُ بَيْتِ فِي لَبَانِ الْأَذْهِمِ
يَدْعُونَ عَنَّتَرَ وَالسُّيُوفُ كَأَنَّهَا لَمَعُ الْبَوَارِقِ فِي سَحَابِ مُظْلِمِ

أَشْطَانُ بَيْتِ: أي: حِبَالُهُ الَّتِي تُعَلَّقُ بِهَا الدَّلَاءُ.

فِي لَبَانِ الْأَذْهِمِ: أي: فِي صَدْرِ الْفَرَسِ الْأَذْهِمِ.

فكرّر عبارة «يَدْعُونَ عَنَّتَرَ» فِي الْبَيْتَيْنِ إِذْ قَصَدَ الْإِفْتِخَارَ بِشَجَاعَتِهِ، وَبَطْلِبَ

الفرسان له فِي أُحْرَجِ مَوَاقِفِ الْقِتَالِ.

والدواعي البلاغية للتكرير متعدّدة، فمنها ما يلي:

(١) تمكين المعنى وتأكيدُه فِي نَفْسِ الْمُتَلَقِّي، وَزِيَادَةَ التَّنْبِيهِ عَلَى مَا يَنْفِي

التهمة إِذَا كَانَ الْبَيَانُ يَقْتَضِي ذَلِكَ.

(٢) التلذذ بتكرير عبارات الفخر والإشادة بالمآثر الحميدة.

(٣) التنفيس عن النفس بعبارات التحسّر والندم أو الحزن، أو الفرح .

(٤) طول الفاصِل في الكلام الذي تدعو الحاجة معه إلى التنبيه بالتكرير .

(٥) المدح أو الذمّ أو الشتيمة .

(٦) التنبيه على تعدّد المقتضي لذكر العبارة المكرّرة .

(٧) جعل العبارة المكررة فاصلةً في الكلام ذات تأثير فنيّ جماليّ بديع

مستطرف، كأنها أعلام ترفرف على مفاصل السّور، أو لوحة مكرّرة على مقاطع من الطريق .

مع ما فيها من معنى قد يحتاج تكريراً لتثبيته، أو استشارة دافع من دوافع النفس به، أو تهيج عاطفة، كالكليات العامة، وكالمعاني التي فيها ترغيب أو ترهيب، أو تحذير أو إنذار، أو تشويق، أو تنديم أو تحسير، أو نحو ذلك .

(٨) أن يكون المكرّر متعلقاً في الذكر الثاني بغير ما تعلق به في الذكر

الأول، ويسمّى هذا «ترديداً» ويكثر فيه الداعي الجمالي الفنيّ .

(٩) التعظيم والتهويل .

إلى غير ذلك من دواعي بلاغية .

أمثلة:

المثال الأولي:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول):

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ، كَمِشْكُورٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ... ﴾ [الآية ٣٥].

جاء في هذه الآية تكرير «المصباح» مرتين، وتكرير «الزُّجَاجَةُ» مرتين إلا أن

المكرّر متعلق في الذكر الثاني بغير ما تعلق به في الذكر الأول، فهو ممّا يسمّى

«ترديداً» ولا يخفى ما في هذا الترديد في الآية من جمالٍ فنيّ بديع .

المثال الثاني :

جاء في سورة (الرحمن / ٥٥ / مصحف / ٩٧ / نزول) تكرير عبارة :

﴿ فَبِأَيِّ آيَةِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكذَّبَانِ ﴾ (١٣)

إحدى وثلاثين مرة خطاباً للإنس والجنّ المخلوقين للامتحان في ظروف الحياة الدنيا .

فَبِأَيِّ آيَةِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكذَّبَانِ : أي : فَبِأَيِّ نِعَمِ رَبِّكُمَا عَلَيْكُمَا تُكذَّبَانِ . إِنَّ نِعَمَ اللَّهِ عَلَى الْعِبَاد لَا يَسْتَطِيعُ الْعِبَادُ إِحْصَاءُهَا ، وَمَعَ كُلِّ فُقْرَةٍ مِنْ فُقَرَاتِ حَيَاتِهِمْ بِتَتَابِعِ السَّاعَاتِ وَالْأَوْقَاتِ تَمَرُّ عَلَى كُلِّ فَرْدٍ مِنْهُمْ نِعَمٌ كَثِيرَةٌ وَجَلِيلَةٌ ، وَانْصِرَافُهُ الدَّائِمُ إِلَى الْاسْتِمْتَاعِ بِهَا دُونَ مِلَاحَظَةِ خَالِقِهَا وَالْمَتَفَضُّلِ عَلَى عِبَادِهِ بِهَا يَحْتَاجُ تَذَكُّيراً بِهَا ، لِيَقُومَ بِحَقِّ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي مِقَابِلِهَا ، بِالْإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ وَالْحَمْدِ وَالشُّكْرِ .

ففي هذا التكرير عقب ذكر كلِّ فُقْرَةٍ مِنْ فُقَرَاتِ آيَاتِ صِفَاتِ اللَّهِ فِي كَوْنِهِ ، الْمَشْتَمَلَةِ عَلَى بَعْضِ نِعَمِهِ ، أَوْ الْإِنذَارِ ، بِعِقَابِهِ وَعَذَابِهِ ، تَنْبِيْهُ عَلَى حَاجَةِ الْعَبْدِ الْمَبْتَلَى أَنْ يَذْكُرَ نِعَمَ اللَّهِ عَلَيْهِ دَوَاماً عِنْدَ كُلِّ فُقْرَةٍ مِنْ فُقَرَاتِ حَيَاتِهِ ، وَمَوْجَةٍ مِنْ مَوْجَاتِ نَهْرِهِ الْجَارِي ، لِثَلَا تَجْرُهُ الْغَفَلَاتُ إِلَى النِّسْيَانِ ، فَالْمَعْصِيَةِ ، فَاجْتِيَالِ الشَّيَاطِينِ لِفِكْرِهِ وَنَفْسِهِ وَعَوَاطِفِهِ ، وَدَفْعِهِ إِلَى السُّبُلِ الْمَزْلُوقَةِ إِلَى الشَّقَاءِ ، فَالْعَذَابِ ، فَنَارِ جَهَنَّمَ .

فَجُعِلَتْ هَذِهِ الْعِبَارَةُ فَاصِلَةً فِي السُّورَةِ ، وَهَذِهِ الْفَاصِلَةُ ذَاتُ تَأْثِيرٍ فَنِّيٍّ جَمَالِيٍّ مُسْتَرْطَفٍ ، مَعَ مَا تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ مِنْ مَعْنَى يَدُلُّ عَلَى حَاجَةِ الْعِبَادِ إِلَى ذِكْرِ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مَعَ كُلِّ مَوْجَةٍ مِنْ مَوْجَاتِ نَهْرِ حَيَاتِهِمْ ، سِوَاءَ أَكَانَتْ مِمَّا يَحْبُونَ أَوْ مِمَّا يَكْرَهُونَ ، مِمَّا يَطْمَعُونَ فِيهِ أَوْ مِمَّا يَحْذَرُونَ مِنْهُ .

المثال الثالث :

جاء في سورة (المرسلات / ٧٧ / مصحف / ٣٣ / نزول) تكرير عبارة :

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾

تسَعُ مرّات، إنذاراً للمكذّبين بيوم الدين، وترهيباً من عذاب جهنم الذي سيلاقونه، إذا أصرّوا على كفرهم وتكذيبهم وماتوا على ذلك دون توبة.

ومع أن كلّ مرّة قد جاءت عقب توجيه إقناع بقانون الجزاء الرّبّاني، أو إخبار ببعض الأحداث التي تكون قبل يوم القيامة، أو تقديم لقطاتٍ من مشاهد الحساب، أو مشاهد الجزاء بالعقاب أو بالثواب، أو تحريك سَوْطِ تهديدي بما سينزل بهم من عذاب أليم، فإنّ تكريرها قد جاء بمثابة فاصلةٍ ذات إيقاع، فهي تُعَادُ وتكرّر في السّورة بفتيةٍ بديعة، ومضمونها ممّا يستدعي حال المكذّبين تكريره، إذ فيها تهديدٌ ووَعِيد، وفيهم مكابرةٌ وإصرارٌ على الكُفْرِ عنيدي، هم يكرّرون إصرارهم، والعبارة تكرر تهديدهم بالويل.

الويل: كلمة عذاب، فيها معنى الوعيد بحلول عقاب الله، وورد أنّ كلمة «ويل» اسمٌ علم على وادٍ في جهنم.

المثال الرابع:

جاء في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) تكرير عبارة:

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿١٧﴾﴾

أربع مرّات، لأنها تضمّنت حتّى على تلقّي القرآن وتدبّره وتذكّره، فمضمونها يحمل معنىً كليّاً من كُليّات التكاليف الدينيّة التي تتطلّب طبائع النفوس تكريرها، لكثرة شرودها عنها، ورغبتها في التفلّت من واجباتها.

واختيرت أن تكون هذه العبارة بمثابة فاصلة ذات جمالٍ فنيّ تُتَلَى بين فقراتٍ من السّورة، فجاءت عقب ذِكرٍ موجزٍ قصة إهلاك قوم نوح عليه السلام، وعقب ذكر موجزٍ قصة إهلاك عاد قوم هود عليه السلام، وعقب ذكر موجزٍ قصة إهلاك ثمود قوم صالح عليه السلام، وعقب ذكر موجزٍ قصة إهلاك قوم لوط عليه السلام.

وفي تكريرها عقب عرض موجز كل قصة من قصص هؤلاء الأقوام إشارة إلى أنهم لو تلقوا ما أنزل إليهم من ربهم عن طريق رسلهم، وتدبروه، ووضعوه في ذكراتهم، وادكرّوه حيناً فحيناً ما عرضوا أنفسهم للهلاك الشامل المعجل في الدنيا، وللعذاب الخالد المؤجل إلى يوم الدين.

فمن تنبه إلى هذه الإشارة من أمة رسالة محمد ﷺ اتعظ بأحوال الأمم السابقة، فاشتغل بحفظ القرآن الميسر للذكر، واشتغل بتدبر معانيه، وادكرّ آياته حيناً فحيناً عند كل مناسبة داعية.

المثال الخامس:

جاء في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) تكرير عبارة:

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾.

ثمانِي مرّاتٍ، أوّلاها جاءت عقب بيان تكذيب الذين كذبوا محمداً ﷺ وبما جاء به عن ربه، ثم جاءت كل مرّة من المرّات الباقيات عقب عرض قصّة من قصص المكذّبين الأوّلين، فكان لكل مرّة منها داعيتها من القصّة التي جاءت قبلها، فأذّ تعدّد المقتضي حسن إعادة ذكر العبارة نفسها.

المثال السادس:

كان «عمرو بن هند» ملكاً في الحيرة من ملوك العرب، وكان جبّاراً عنيداً، لا يرى في الناس من يُدانيه في الشرف والمنزلة، فأراد أن يستذلّ الشاعر «عمرو بن كلثوم» باتخاذ أمّه وصيفةً لأمّه، فثارت الحميّة في قلب عمرو بن كلثوم، فسَلّ سيفه وضرب الملك فقتله، وقرّض معلقته التي جاء فيها:

بِأَيِّ مَشِيئَةٍ عَمْرُو بَنِ هِنْدٍ نَكُونُ لِقَيْلُكُمْ فِيهَا قَطِينَا
بِأَيِّ مَشِيئَةٍ عَمْرُو بَنِ هِنْدٍ تُطِيعُ بَنَا الْوُشَاةِ وَتَزْدَرِينَا

فكرّر عبارته: **بَأَيِّ مَشِيئَةٍ عَمَرَوُ بَنَ هِنْدٍ** لأنه في مقامِ الفخر وإبائه الضئيم،
وبيان عُدْرِهِ في قتل الملك إذ أراد الملك إذلاله وإهانته.

لَقَيْلِكُمْ: القَيْلُ: هو الملك دون الملك الأعظم.

قَطِينَا: أي: خَدَمًا.

ويمكن القياس على هذه الأمثلة مع ملاحظة الداعي البلاغي في كُلِّ مِنْهَا.

ملاحظة:

توجد تعبيرات يُظَنُّ أنها من التكرير، ولدى البحث والتدبر والتحرير، يظهر أنها ليست من التكرير، فعلى دارس النصوص ومتدبرها أن يُمَعِّنَ فيها النظر طويلاً حتى لا يُعْطِيَ النَّصَّ حُكْمًا ليس هو له.

فمن ذلك ما جاء في سورة (الكافرون) ومنها ما يكون المقصود فيه مختلفاً في الألفاظ المكررة، اختلاف أمكنة، أو اختلاف أزمان، أو اختلاف أنواع أو أصناف أو أفراد، إلى غير ذلك.

* * *

الطريقة الرابعة: «الإيغال».

الإيغال في اللّغة: الإمعان في التعمق والمبالغة في الابتعاد، يقال لغة: **أَوْغَلَ** في البلاد، إذا ذهب فيها وبالغ وأبعد. **وأَوْغَلَ** في السَّيْرِ إذا أَسْرَعَ فيه وابتعد.

والإيغال عند البلاغيين: هو إضافة أخيرة تأتي في الكلام بعد انتهاء المقصود منه، لكنّها ذاتُ فائدة ما، والدّاعي لها قد يكون الاحتياج إلى القافية في الشعر، أو إلى تناظر الفقرات في النثر، أو استغلال حالة طارئة عرضت للمتكلم، أو غير ذلك.

● سئل الأصمعي: مَنْ أشعر الناس؟

فقال: مَنْ يَنْقُضِي كَلَامَهُ قَبْلَ انْقِضَاءِ الْقَافِيَةِ، فَإِذَا احْتَجَّ إِلَيْهَا أَفَادَ بِهَا مَعْنَى.

قيل: نَحْوُ مَنْ؟

قال: ذُو الرِّمَّةِ حَيْثُ يَقُولُ:

قَفِ الْعَيْسَ فِي أَطْلَالِ مِيَّةٍ فَاسْأَلِ رُسُومًا كَأَخْلَاقِ الرِّدَاءِ الْمُسَلْسَلِ

فَتَمَّ كَلَامُهُ بِالرِّدَاءِ، ثُمَّ قَالَ: «الْمُسَلْسَلِ» فزاد به شيئاً، ثم قال:

أُظِنُّ الَّذِي يُجِدِي عَلَيْكَ سُؤَالَهَا دُمُوعاً كَتَبْتِذِيرِ الْجَمَانِ الْمُفْصَلِ

فَتَمَّ كَلَامُهُ بِالْجَمَانِ، ثُمَّ قَالَ: «المفصل» فزاد شيئاً.

قيل: وَنَحْوُ مَنْ؟

قال: الْأَعْشَى إِذْ يَقُولُ:

كَنَاطِحِ صَخْرَةٍ يَوْمًا لِيَقْلِقَهَا فَلَمْ يَضِرْهَا وَأَوْهَى قَرْنَهُ الْوَعْلُ

فَتَمَّ كَلَامُهُ بِضِرْهَا، فَلَمَّا احْتَجَّ إِلَى الْقَافِيَةِ قَالَ: وَأَوْهَى قَرْنَهُ الْوَعْلُ، فزاد

معنى.

قال السائل: وكيف صار الوعل مفضلاً على كل ما ينطح؟

قال: لأنه ينحط من قلة الجبل على قرنيه فلا يضره.

● ومن الإيغال قول الخنساء في رثاء أخيها «صخر».

وَإِنَّ صَخْرًا لَتَأْتُمُّ الْهُدَاةُ بِهِ كَأَنَّهُ عَلِمَ فِي رَأْسِهِ نَارُ

لقد تم المقصود بقولها: «كأنه علم» ولما احتاجت إلى القافية أضافت خاتمة

مفيدة ذات حُسن فقالت: «في رأسه نار» فبالغت في بيان أنه رجل تأتم به الهداة.

● ومنه قول امرئ القيس:

كَأَنَّ عُيُونَ الْوَحْشِ حَوْلَ خِبَائِنَا وَأَرْحَلِنَا الْجَزْعُ الَّذِي لَمْ يُتَّقَبِ

الْجَزَعُ: خرز يمانى فيه سواد وبياض، يشبه به عيون الوحش، قال الأصمعي: الطَّبِيُّ، والبقرة إذا كانا حَيَيْنِ فَعِيُونُهُمَا كُلُّهُمَا سُود، فإذا مَاتَا بَدَا بِيَاضُهَا.

وقد شَبَّهَهَا امرؤ القيس بِالْجَزَعِ، لِأَنَّهَا عِيُونٌ مَا صَادَ مِنَ الْوَحْشِ، وَحَقَّقَ بزيادته، التَّشْبِيهَ الَّذِي أَرَادَهُ.

● ومنه قول زهير بن أبي سلمى:

كَأَنَّ فُتَاةَ الْعِهْنِ فِي كُلِّ مَنْزِلٍ نَزَلْنَ بِهِ حَبُّ الْفَنَاءِ لَمْ يُحَطِّمْ
الْعِهْنُ: الصَّوْفُ الْمَصْبُوغُ الْوَانَاءَ.

الفناء: عِنَبُ الثعلب، نبات له ثمر بعناقيد صغار الحَبِّ، كحَبِّ العنب، إذا نَضِجَ احْمَرَّ، أَوْ كَانَ مَخْتَلَطَ الْأَلْوَانِ حَمْرَةً وَخَضْرَاءَ، وَبِاطْنِ هَذَا الْحَبِّ أَبْيَضُ.

لقد تَمَّ كَلَامُهُ بِقَوْلِهِ «حَبُّ الْفَنَاءِ» وَلَمَّا احتاج إلى القافية قال: «لَمْ يُحَطِّمْ» فجاء بزيادة إيغالية مفيدة، قَيَّدَ بِهَا الْمَشَبَّهَ بِهِ مَحَافِظَةً عَلَى سَلَامَةِ تَشْبِيهِهِ.

● ومنه ما كان هارون الرشيد يُعْجَبُ بِهِ، وَهُوَ قَوْلُ «مَسْلَمِ بْنِ الْوَلِيدِ»:

إِذَا مَا عَلَتْ مَنَا ذُوَابَهُ شَارِبٍ تَمَشَّتْ بِهِ مَشْيَ الْمُقَيَّدِ فِي الْوَحْلِ
ذُوَابُهُ: الذُّوَابَةُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ أَعْلَاهُ.

شارب: الشارب الشعر الذي ينبت على الشفة العليا.

أي: إِذَا عَلَتْ ذُوَابِيهِ شَارِبِ النَّاشِءِ مِنْ قَوْمِنَا جَعَلْتَهُ يَمْشِي مَتَبَخَّرًا مَتَقَلِّلاً
افتخاراً بمجد قومه.

وكان الرشيد يقول: قاتله الله، أما كفاه أن يجعله مقيداً حتى جعله في وحل.

فعبارة «في الوحل» إيغال.

● وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (يس / ٣٦ / مصحف / ٤١ نزول):

﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٦﴾ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْتَكْبِرُ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ .

لقد تمَّ المعنى المقصود ببيانِ أَنَّهُمْ مُرْسَلُونَ يَدْعُونَ إِلَى الْحَقِّ، وَلَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ أَجْرًا فَلَيْسَ لَهُمْ مَصْلِحَةٌ لَدَى مَنْ يَدْعُونَهُمْ إِلَى دِينِ اللَّهِ، وَبَعْدَ ذَلِكَ جَاءَتْ جُمْلَةٌ: ﴿ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ إِيغَالًا، فَكُونَ هَؤُلَاءِ الْمُرْسَلِينَ مُهْتَدِينَ، أَي: يَسْلُكُونَ فِي أَعْمَالِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ وَكُلِّ تَصَرُّفَاتِهِمْ سَبِيلَ الْهُدَايَةِ، دَلِيلٌ عَلَى صِدْقِهِمْ، وَهَذَا يَدْعُو إِلَى اتِّبَاعِهِمْ وَعَدَمِ رَفْضِ دَعْوَتِهِمْ .

● وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (النمل / ٢٧ / مصحف / ٤٨ نزول) خطاباً لرسوله وَيُلْحَقُ بِهِ كُلُّ دَاعٍ إِلَى اللَّهِ مِنْ بَعْدِهِ:

﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٦﴾ إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمِعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَىٰ عَنِ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ .

إِنَّ عِبْرَةَ ﴿ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴾ جَاءَتْ إِيغَالًا لِتَأْكِيدِ كَوْنِ الضَّمِّ لَا يَسْمَعُونَ الدُّعَاءَ .

وفائدة هذا الإيغال الإشارةُ إِلَى أَنَّ الْأَصَمَّ إِذَا كَانَ مُوْاجِهًا لِمَنْ يَدْعُوهُ، كَانَ قَادِرًا عَلَى إِدْرَاكِ أَنَّهُ يَدْعُوهُ، مِنْ تَحْرِيكِ فَمِهِ وَحَرَكَاتِ جَسَدِهِ عِنْدَ التَّكَلُّمِ، لَكِنَّهُ إِذَا كَانَ مُدْبِرًا مَبْتَعِدًا لَمْ يَسْمَعْ صَوْتًا وَلَمْ يُدْرِكْ حَرَكَةَ دَالَّةً عَلَيْهِ . وَفِيهِ هُنَا أَيْضًا مُرَاعَاةُ كَوْنِ الْمُتَحَدِّثِ عَنْهُمْ صَمًّا صَمَمًا مَعْنَوِيًّا بِكُفْرِهِمْ وَعَدَمِ إِيْمَانِهِمْ، وَهَؤُلَاءِ قَدْ يَسْمَعُونَ بَعْضَ سَمَاعِ دُونَ أَنْ يُؤَثَّرَ فِيهِمْ حَالَةُ الْمُوَاجَهَةِ، فَإِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ لَمْ يَسْمَعُوا شَيْئًا، فَأَفَادَ هَذَا الْإِيغَالَ مَعَانِي نَفِيسَةً .

● وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الذاريات / ٥١ / مصحف / ٦٧ نزول):

﴿ فِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ ﴿ فَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴾ .

إنّ عبارة: ﴿مِثْلَمَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾ جاءت إيغالاً بديعاً بعد انتهاء المعنى المقصود، إذ شبهَ ضَمَانَ الرزق للعباد الذي يحركون أفواههم عليه في طعامهم، بقدرتهم على النطق حينما ينطقون، أي: كما أقدركم الله على إخراج نطقكم من أفواهكم أقدركم على كسب أرزاقكم وإدخالها إلى بطونكم عن طريق أفواهكم.

* * *

الطريقة الخامسة: «الاعتراض».

الاعتراض في اللغة: الدخول بين الشئين حتى يكون الداخل المعترضُ فاصلاً بينهما، ويُسمّى «عَارِضاً» أي: حائلاً ومانعاً بينهما، ومنه أخذ الاعتراض في البلاغة والنحو.

الاعتراض اصطلاحاً: أن يُؤتى في أثناء الكلام أو بين كلامين متّصلين في معناهما بجملّة أو أكثر لا محلّ لها من الإعراب لنكته بلاغية سوى دفع الإيهام.

فإذا كان لدفع الإيهام فهو من طريقة (الاحتراس = التكميل) الآتي بيّانها إن شاء الله.

ويؤتي بالاعتراض لدواعي بلاغية منها ما يلي:

(١) التنزيه والتعظيم.

(٢) الدّعاء.

(٣) التنبيه على أمر، وكذلك الإشارة إلى أن ما وقع به الاعتراض قد حصل مضمونه خلال الزمن الفاصل بين الكلامين المتّصلين.

(٤) التبرُّك.

(٥) التقرير في نفس السامع.

(٦) التصريح بما هو المقصود.

(٧) الاستعطاف.

(٨) انتهاز الفرصة المواتية، والمبادرة لبيان أمر ذي أهمية. إلى غير ذلك.

ووجه حُسن الاعتراض اهْتِبَالُ الْفُرْصَةِ المواتية للإفادة والبيان، أو التعبير عما في النفس، مع مجيئه مجيء غير المترقب، فيكون كالشيء السار الذي يأتي الإنسان من حيث لا يحتسب.

ولحسنه جاء في أرفع الكلام إعجازاً، وجاء في أقوال الفصحاء والبلغاء.

أمثلة:

المثال الأول:

قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (النحل / ١٦ / مصحف / ٧٠ نزول):

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴿٧٧﴾﴾

عبارة: «سبحانه» جملة اعتراضية بين كلامين متصلين في معناهما، للمبادرة إلى تنزيه الله عن أن يكون له بنات، والتشنيع على من جعلهن له بتصورهم الفاسد، وأقوالهم الكاذبة.

المثال الثاني:

قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الفتح / ٤٨ / مصحف / ١١١ نزول):

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْأَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُخْلِفِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ... ﴿٢٧﴾﴾ [الآية ٢٧].

عبارة: «إن شاء الله» جملة اعتراضية في أثناء كلام متصل في معناه، للمبادرة إلى تعليم المؤمنين أن يقولوا في كل ما يرجون وقوعه أو يريدون إيقاعه مستقبلاً: «إن شاء الله» وتعليمهم كيف يكون إدخال هذا التعليق على مشيئة الله في كلامهم.

المثال الثالث :

قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف / ٨٧ نزول):

﴿ وَسَأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَدْنَىٰ فَعَزَّزُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَظْهَرْنَ فَإِذَا تَظَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾
 نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْقَوَةٌ وَبَشِّرِ
 الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ ﴾

إنَّ عبارة: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ عبارة اعتراضية، بين كلامين متصلين في معناهما، فقوله تعالى: ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ ﴾ متصل بقوله: ﴿ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ﴾ وجاءت العبارة الاعتراضية للمبادرة إلى الحث على الطهارة واجتناب الأذبار والتوبة من إثم إتيانها الذي ربما كان يفعله بعض الأزواج قبل البيان القرآني .

المثال الرابع :

قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (هود/ ١١ مصحف / ٥٢ نزول) ضمن عرض

قصة إغراق قوم نوح عليه السلام:

﴿ وَقِيلَ يَا آدَمُ اسْكُنْ أَهْلَ مَعَاكٍ وَخَصِمَكَ إِدْرِيذِيُّ وَقَبِيلُهُ وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْهُمْ قَدْ ضَلَّ سَبِيلَهُ ﴿٤٤﴾ ﴾

جاءت في هذه الآية ثلاث جمل اعتراضية بين كلامين متصلين في معناهما، وهي: «وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي» .

هذا الاعتراض بهذه الجمل الثلاث أفاد أن مضمونها قد حصل بين زمنَي القولين المتصلين في معناهما: [وقيل – وقيل] .

ويلاحظ أن جملة: ﴿ وَقَضِيَ الْأَمْرُ ﴾ اعتراض في اعتراض، إذ الجملتان: ﴿ وَغِيضَ الْمَاءِ ﴾ و ﴿ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ﴾ متصلتان في معناهما، وجاءت ﴿ وَقَضِيَ الْأَمْرُ ﴾ معترضة بينهما .

المثال الخامس:

قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الواقعة/ ٥٦ مصحف/ ٤٦ نزول):

﴿ فَلَا أَقْسَمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ .

في هذا اعتراض بين القسم وجوابه بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ - لَوْ تَعْلَمُونَ - عَظِيمٌ﴾ للتنبيه على عظم هذا القسم مع الفرصة المواتية. واعتراض في داخل الجملة المعترضة بين خبر «إن» وصفته، بجملة ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ﴾ للتنبيه على أن المخاطبين يجهلون عظمة مواقع النجوم.

المثال السادس:

قول العباس بن الأحنف:

إِنْ تَمَّ ذَا الْهَجْرُ - يَا ظَلُومٌ وَلَا تَمَّ - فَمَالِي فِي الْعَيْشِ مِنْ أَرْبِ ظَلُومٍ: اسْمُ صَاحِبَتِهِ. وَالْأَرْبُ: الْحَاجَةُ.

في هذا البيت اعتراض بين الشرط وجوابه بنداء مَنْ يُحِبُّ والمبادرة إلى الدعاء بأن لا يتمَّ مضمون الشرط، والداعي له المبادرة إلى استعطاف «ظلوم» التي يُحِبُّها، وسؤال الله أن لا يتمَّ هجرها له، والدافع له في نفسه رغبته في وصلها وخوفه من هجرها.

المثال السابع:

قول عوف بن ملحَم الشيباني يشكو كِبَرَهُ وضعفه:

إِنَّ الثَّمَانِينَ - وَبُلَّغَتْهَا - قَدْ أَحْوَجَتْ سَمْعِي إِلَى تَرْجُمَانٍ
فجملة: «وَبُلَّغَتْهَا» جملة اعتراضية دُعائية، استغلت فيها المناسبة استغلالاً
حسناً ليدعو لمن يخاطبه بطول العمر.

المثال الثامن :

قول أبي الطيب المتنبي :

وَحُفُوقُ قَلْبٍ لَوْ رَأَيْتَ لَهَيْبَهُ - يَا جَنَّتِي - لَرَأَيْتَ فِيهِ جَهَنَّمَ

قوله: «يا جَنَّتِي» جملة معترضة، والداعي لها الاستعطف، واستغلال المناسبة لِيُجْرِي مطابقة بين الجنة وجهنم.

المثال التاسع :

قول ابن ميادة :

فَلَا هَجْرُهُ يَبْدُو - وفي اليأسِ راحةٌ - وَلَا وَضْلُهُ يَبْدُو لَنَا فَنُكَارِمُهُ

قوله: «وفي اليأسِ راحةٌ» جملة اعتراضية جاءت تعليلاً لأمر من المستغرب أن يكون مطلوباً، وهو إبرامُ الهجر وعدم التردد فيه، إذ المحبُّون لا يطلبونه عادة، فبادر لبيان السبب فجاء بالجملة الاعتراضية، وهي مبادرة حسنة.

* * *

الطريقة السادسة: «الاحتراس = التكميل».

الاحتراس: أو التكميل: اسمان أُطلقا على مسمًى واحد، هو زيادة إطنابية في الكلام يَدْفَعُ بها المتكلم إيهاماً اشتمل عليه كلامه.

ويكون هذا الاحتراس حينما يأتي المتكلم بكلام يوهم خلاف ما يُريد، ويأتي بَعْدَهُ بكلامٍ يدفع به ذلك الإيهام، ومثل هذا يُوجد في أرفع الكلم لتحقيق غرض بلاغي، وقد يوجد في كلام أهل الخطب الارتجالية على سبيل التدارك لما جاء في كلامهم ففطنوا إليه فاحترسوا تكميلاً.

أمثلة:

المثال الأول:

قول الله عزَّ وجلَّ لموسى عليه السلام كما جاء في سورة (النمل/

٢٧ مصحف / ٤٨ نزول):

﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا

فَاسِقِينَ ﴿١٦﴾﴾.

إنَّ عبارة: ﴿تَخْرُجُ بَيْضَاءَ﴾ قَدْ تُوهِمُ أَنَّ بَيَاضَهَا رَبَّمَا كَانَ عَنْ بَرَصٍ، فَجَاءَتْ

عبارة: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ تَكْمِيلًا احْتِرَاسِيًّا لِدَفْعِ هَذَا الْإِيهَامِ.

المثال الثاني:

قول طرفة بن العبد من قصيدة يمدح بها قتادة بن مسلمة الحنفي، على ما

كان منه تجاه قومه، إذ بذل لهم في سنة أصابتهم:

فَسَقَىٰ دِيَارَكَ - غَيْرَ مُفْسِدِهَا - صَوْبُ الرِّيعِ وَدِيمَةٌ تَهْمِي

الصَّوْبُ: المطر بقدر ما ينفع ولا يؤذي.

الدَّيْمَةُ: المطر يدوم زمانه في سكون.

تَهْمِي: تسيل.

قوله: «غَيْرَ مُفْسِدِهَا» تكميل احتراسي، لأنَّ سُقْيَا الدِّيَارِ بِمَطَرٍ كَثِيرٍ قَدْ

يُفْسِدُهَا، فَدَفَعَ هَذَا الْإِيهَامَ بِالِاحْتِرَاسِ الَّذِي جَاءَ بِهِ.

المثال الثالث:

قول كعب بن سعد الغنوي:

حَلِيمٌ إِذَا مَا الْحِلْمُ زَيْنَ أَهْلِهِ مَعَ الْحِلْمِ فِي عَيْنِ الْعَدُوِّ مَهْيَبٌ

في هذا البيت احتراسان كمل بهما الشاعر كلامه: فقوله: «إِذَا مَا الْحِلْمِ

زَيْنَ أَهْلِهِ احْتِرَسَ بِهِ لِدَفْعِ تَوْهَمِ أَنْ يَكُونَ حَمَلُهُ عَنْ ضَعْفٍ، وَقَوْلُهُ «فِي عَيْنِ

الْعَدُوِّ مَهْيَبٌ» احْتِرَاسٌ آخَرُ.

* * *

الطريقة السابعة: «التذيل».

التذيل: تعقيب الجملة بجملة أخرى تشتمل على معناها توكيداً لمنطوقها، أو لمفهومها، وينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: مَا يَجْرِي مَجْرَى الْمَثَلِ، وَهُوَ مَا اسْتَقَلَّ مَعْنَاهُ وَاسْتَعْنَى عَمَّا قَبْلَهُ، مِثْلَ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ (الْإِسْرَاءِ / ١٧ مِصْحَفٍ / ٥٠ نَزُولٍ):

﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ (٨١).

إِنَّ جَمْلَةً ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ تَتَضَمَّنُ مَعْنَى الْجَمْلَةِ الَّتِي جَاءَتْ قَبْلَهَا، فَهِيَ إِطْنَابٌ عَلَى طَرِيقَةِ التَّذِيلِ، وَعِبَارَتُهَا مِمَّا يَجْرِي مَجْرَى الْمَثَلِ، وَهِيَ تُؤَكِّدُ مَنْطُوقَ الْجَمْلَةِ الَّتِي جَاءَتْ قَبْلَهَا.

القسم الثاني: مَا لَا يَجْرِي مِنَ التَّذِيلِ مَجْرَى الْمَثَلِ، وَهُوَ مَا لَا يَسْتَقَلُّ مَعْنَاهُ عَمَّا قَبْلَهُ، كَقَوْلِ ابْنِ نُبَاتَةَ السَّعْدِيِّ:

لَمْ يُتَقِ جُودُكَ لِي شَيْئاً أُمَّلُهُ تَرَكْتَنِي أَصْحَبُ الدُّنْيَا بِلَا أَمَلٍ

فالشرط الثاني من هذا البيت تذييل أكد مفهوم الشرط الأول، وهو ليس مما يجري مجرى المثل.

أمثلة:

(١) قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) خطاباً

لرسوله:

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِلشَّرِّ مِن قَبْلِكَ الْخَلْدَ أَفَإِن مِّنْ فَهْمٍ الْخَالِدُونَ ﴾ (٣٦).

إِنَّ جَمْلَةَ «أَفَإِن مِّنْ فَهْمٍ الْخَالِدُونَ» تَذِيلٌ يُؤَكِّدُ مَنْطُوقَ الْجَمْلَةِ الَّتِي جَاءَتْ قَبْلَهَا، وَهِيَ مِمَّا يَجْرِي مَجْرَى الْمَثَلِ.

(٢) قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول):

﴿ذَلِكَ جَزَاءُ مَا كَفَرُوا وَهَلْ يُجْزَى إِلَّا الْكُفُورُ﴾.

إن جملة «وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكُفُورَ؟» تذييل يؤكد مفهوم الجملة التي جاءت قبلها، وهي مما لا يجري مجرى المثل، إذ المعنى: لا نجزي مثل هذا الجزاء المعجل بالعقاب المهلك الشامل للقوم إلا من كان كفوراً.

(٣) قول الحطيئة:

نَزُورٌ فَتَى يُعْطِي عَلَى الْحَمْدِ مَالَهُ وَمَنْ يُعْطِ أَثْمَانَ الْمَحَامِدِ يُحْمَدِ
الشرط الثاني من هذا البيت تذييل يؤكد منطوق الشرط الأول منه، وهو مما يجري مجرى المثل، فهو تذييل جميل.

(٤) قول أحد الشعراء لمن أعطاه ومن عليه:

أَفْسَدَتْ بِالْمَنْ مَّا أَسَدَيْتَ مِنْ حَسَنِ لَيْسَ الْكِرِيمُ إِذَا أَعْطَى بِمَنْنَانِ
الشرط الثاني من هذا البيت تذييل يؤكد به الشاعر مفهوم الشرط الأول منه، وهذا التذييل مما يجري مجرى المثل، فهو إطناب تذييلي جميل.

(٥) قول أبي الطيب المتنبّي:

مَا كُلُّ مَا يَتَمَنَّى الْمَرْءُ يُدْرِكُهُ تَجْرِي الرِّيَّاحُ بِمَا لَا تَشْتَهِي السُّفُنُ
الشرط الثاني من هذا البيت تذييل أكد به الشاعر منطوق الشرط الأول منه، وقد جرى مثلاً.

قال العكبري: وهو من أحسن الكلام.

(٦) قول زهير:

تَرَاهُ إِذَا مَا جِئْتَهُ مُتَهَلِّلاً كَأَنَّكَ تُعْطِيهِ الَّذِي أَنْتَ سَائِلُهُ
الشرط الثاني من هذا البيت «تذييل» أكد به الشاعر منطوق الشرط الأول منه، وهو ليس مما يجري مجرى المثل.

(٧) قول الشاعر:

وَلَقَدْ عَلِمْتُ لَتَأْتِيَنَّ مَنِّي
إِنَّ الْمَنَايَا يَا لَا تَطِيشُ سَهَامَهَا
الشرط الثاني من هذا البيت «تذييل» أكد به الشاعر منطوق الشرط الأول منه، وهو مما يجري مجرى المثل.

* * *

الطريقة الثامنة: «التميم».

التميم: الإتيان بفضلة مفيدة في كلام لا يوهم خلاف المراد.

يلاحظ أن قيد «في كلام لا يوهم خلاف المراد» قد أضيف هنا للتفريق بين التميم و«الاحتراس = التكميل» الذي سبق بيانه وشرحه.

أمثلة:

(١) قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الإنسان/ ٧٦ / مصحف/ ٩٨ نزول) يصف

الأبرار:

﴿وَيُطْعَمُونَ أَلْطَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ، مَسْكِينًا وَتَيْمًا وَأَسِيرًا﴾ ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا

شُكْرًا ﴿٩﴾

قالوا: عبارة: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ جاءت تميماً مفيداً حصلت به المبالغة في أنهم حريصون جداً على إطعام الطعام على الرغم من حبهم له، وتعلّق شهوتهم به، فالإطعام في هذه الحالة أبلغ في الدلالة على ابتغاء مرضاة الله، وهو بسبب ذلك أعظم أجراً عند الله،

أقول: إن عبارة ﴿عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ قيد لازم لإدخال المطعم للطعام في مرتبة الأبرار، وهي فوق مرتبة المتقين الذين يكفيهم أن يطعموا الطعام الواجب عليهم أن يُطعموه، ولو كان هذا الطعام غير محبوب لهم.

ونظير هذا القيدُ القيدُ الذي جاء في الآية (١٧٧) من سورة (البقرة) فهو قيد لازم حتى يكون من يؤتي المالَ مرتقياً ببذله إلى مرتبة الأبرار، إذ قدّم عملاً هون من أعمال البرّ، فأعمال البرّ توسّع في الخير زائدٌ على أعمال التقوى.

(٢) قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا حَوْلَهُ...﴾ [الآية ١].

جاءت في هذه الآية كلمة «ليلاً» تميمياً، وذلك لأنَّ الإسراء لا يكون إلاَّ بالليل، وفائدة هذا التتميم الإشارة إلى قِصْرِ المدَّة التي حصل فيها الإسراء ذهاباً وعودة، والإشارة إلى أنَّ للليل خصائص من نفحات الله وإكراماته التي يفيض بها على بعض عباده.

(٣) قول «زهير بن أبي سلمى» يمدح «هرم بن سنان».

مَنْ يَلْقَ يَوْمًا عَلَى عِلَاتِهِ هَرِمًا يَلْقَ السَّمَاحَةَ مِنْهُ وَالنَّدَى خُلْقًا
عَلَى عِلَاتِهِ: أي: على كلِّ حالٍ من أحواله، في انشراحه وانقباضه، وسروره وحُزنه، ويُسْرِهِ وَعُسْرِهِ.

فقد جاءت عبارة «عَلَى عِلَاتِهِ» تميمياً جميلاً ذا فائدة.

(٤) قول أحد الشعراء:

إِنِّي عَلَى مَا تَرَيْنَ مِنْ كِبْرِي أَعْرِفُ مِنْ أَيَّنَ تُوَكَّلُ الْكَتِيفُ

فقوله: «على ما تَرَيْنَ من كبري» كلامٌ لم يدفَع به إيهاماً، إلاَّ أنَّه زيادة أفادت فائدة حسنة، فهو «تَمِيم» تخلص به من تَهْمَة تأثير كبر السن عليه.

(٥) قول المعري:

وَإِنِّي وَإِنْ كُنْتُ الْأَخِيرَ زَمَانُهُ لَأَتِ بِمَا لَمْ تَسْتَطِعْهُ الْأَوَائِلُ

فقوله: «وَإِنْ كُنْتُ الْأَخِيرَ زَمَانُهُ» كلامٌ لم يدفع به إيهاماً، إلا أنه زيادة أفادت التنبية على أن المتأخرين قد يأتون بما لم يأت به المُتَقَدِّمُونَ، وأن مقولة: ما ترك الأول للآخر شيئاً مقولةٌ غيرُ صحيحة، فهذا القول «تتميم» أشار به إلى رد مقولة باطلة:

(٦) قول المتنبي في صباه يمدح محمد بن عبيد الله العلوي:

لَهُ أَيَادٍ إِلَيَّ سَابِقَةٌ أَعْدُ مِنْهَا وَلَا أَعْدِدُهَا

أي: له أيادٍ محسناةٌ إليّ، أو سابقةٌ إليّ أعدُّ بعضها ولا أستطيع أن أعددها كلها مُحْصِيًا.

فعبارة «ولا أعددها» جاءت زائدة على المقصود من القول، ولم تدفع إيهاماً، لكنّها زيادة مفيدة أشار بها إلى كثرة أيادي ممدوحه، فهو لكثرتها غير قادرٍ على أن يعددها محصياً لها، فالعبارة إذن «تتميم» جميل.

(٧) قول الحُصَيْنِ بْنِ الْحُمَامِ:

فَلَسْنَا عَلَى الْأَعْقَابِ تَدْمِي كُلُّومَنَا وَلَكِنْ عَلَى أقدامِنَا تَقْطُرُ الدَّمَآ

الشرط الثاني من هذا البيت زائد على المقصود من القول، ولم يدفع إيهاماً، فهو تتميم أكد به الشاعر أنه وقومه شجعان يواجهون المقاتلين بصدورهم، ولا يفرّون مُذْبِرِينَ، فإذا أصابتهم الكلوم «أي: الجروح» في الحرب كانت من جهة وجوههم فتساقط الدماء على أقدامهم، ولم تكن من جهة ظهورهم.

* * *

الطريقة التاسعة: «الطرد والعكس».

الطرد والعكس: هو أن يُؤْتَى بِكَلَامَيْنِ يُفَرِّزُ كُلُّ مِنْهَا بِمَنْطُوقِهِ مَفْهُومَ الثَّانِي

منهما.

فهو من الإطناب ذي الفائدة، وفائدته تأكيد منطوق كل منهما لمفهوم

الأخر.

أمثلة:

(١) قول الله عز وجل في سورة (التحریم / ٦٦ مصحف / ١٠٧ نزول):

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَوًّا أَنفُسُهُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ

شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾

إن جملة: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾ تفيذ بمنطوقها نفي المعصية عنهم

وتفيذ بمفهومها إثبات الطاعة لهم.

وإن جملة: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ تفيذ بمنطوقها إثبات الطاعة لهم، وتفيذ

بمفهومها نفي المعصية عنهم.

(٢) قول الله عز وجل في سورة (النور / ٢٤ مصحف / ١٠٢ نزول):

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَفِدُّوكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ

مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ

عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَافُوتٌ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ

وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾

جاء في هذه الآية الأمر بالاستئذان في ثلاثة أوقات، وهذا يفيد بمفهومه عدم

وجوب الاستئذان في غيرها.

وجاء بعد ذلك رَفْعُ الْجَنَاحِ عَنِ الطَّوَافِ دُونَ اسْتِئْذَانٍ فِي غَيْرِ الْأَوْقَاتِ

الثلاثة، وهذا يفيد بمفهومه وجوب الاستئذان فيها.

فكان كلُّ من القولين مقرراً بمنطوقه مفهوم الثاني منهما، وهو من التأكيد اللطيف.

* * *

الطريقة العاشرة: «الاستقصاء».

الاستقصاء: هو أن يتناول المتكلم بيان معنى، فيستقصيه من كلِّ جوانبه، آتياً بجميع عوارضه، ولوازمه، بعد أن يستقصي جميع أوصافه الذاتية، حتى لا يترك لمن يتناوله بعده مقالاً إضافياً فيه.

ومن الأمثلة الرائعة للاستقصاء قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة) / ٢ مصحف / ٨٧ نزول) للتحذير من إبطال أثر الصدقاتِ بالمن والأذى:

﴿ أَيَوَّدُ أَحَدُكُمْ أَنَّ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ضَعْفَاءٌ فَأَصَابَهَا إِعْصَابٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿١٦٧﴾ ﴾ .

نلاحظ في هذه الآية استقصاءً عجبياً.

إنَّ الاقتصار على لفظ «جَنَّة» كان كافياً، لكن لم يأت في الآية الاقتصار عليه، بل جاء في تفسير الجنة أنَّها من نخيل وأعنان أشرف الأشجار عند العرب، فكشف الله بهذا البيان أنَّ المصاب ياخراق الجنة أشدَّ وأعظم من كونها مجرد جنة عادية.

وبعده زاد قوله تعالى: ﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ فصور بهذه الزيادة مبلغ عناية صاحبها بها.

وأضاف بعد ذلك وصفها بقوله: ﴿ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ فأتى بكلِّ ما يكون في الجنان، لإظهار شدة حزن صاحبها عليها إذا نزل به إعصار فأحرقها.

وقال بعد ذلك في وصف صاحبها: ﴿وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ﴾ والإنسان حينما تكبر سنّه يشتد حرصه على بستانه، وينقطع أمله من إعادة تشجيرها والعناية به.

وأُتبع ذلك بقوله: ﴿وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ﴾ فأبان بهذا مبلغ لهفته، على جنته، من أجل ذريته الضعفاء.

بعد هذا الاستقصاء في وصف الجنة، ووصف حال صاحبها، ومبلغ تعلقه بها وحرصه عليها، قال تعالى:

﴿فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ أَشَدُّ الظواهر الكونية المهلكة للجنات، ولم يقتصر على ذكر الإعصار بل أضاف قوله: ﴿فِيهِ نَارٌ﴾ وهو أعنف أنواع الأعاصير المهلكة.

وقدم أخيراً فقرة الختام التي أتم بها أحداث المأساة فقال تعالى: ﴿فَاخْتَرَقَتْ﴾.

وكان هذا الختام آخر استقصاء صارت به الجنة البديعة المثمرة رماداً.

كذلك حال من يتبع صدقته بالمن والأذى.

ما أروع هذا التمثيل وأتقنه، وأكثره تتبعاً واستقصاءً للجزئيات حتى لا مزيد عليها.

أقول: حسب الاستقصاء هذا الشاهد القرآني، لأننا لا نكاد نجد في غير القرآن استقصاءً بديعاً إلا في القصص المطوّلة.

* * *

الطريقة الحادية عشرة: «التعليل».

التعليل: زيادة في الكلام عن أصل المعنى الذي يقصد التعبير عنه لبيان علته، أو سببه، أو الدليل على صحته أو نفعه وفائدته.

وفائدة التعليل الشامل لبيان العلة أو السبب أو الدليل :

(١) الإقناع بصحة الكلام، أو بفائدة العمل بمقتضاه.

(٢) توليد الدافع الذاتي للعمل بمقتضاه.

(٣) زيادة تقرير مضمون الكلام بذكر علته، لأنّ النفوس أكثر استعداداً لتقبل

الأخبار أو التكاليف المعلّلة المقرونة ببيان أسبابها وأدلتها، ممّا لو قدّمت لها الأخبار أو التكاليف مجردة من ذلك.

فيكون تطويل الكلام بالتعليل وبيان الدليل إطناباً حسناً مفيداً، ذا أثر في

نفوس المتلقّين له.

وغالب ما جاء في القرآن من تعليل قد جاء بمثابة جواب سؤالٍ مقدر ذهنياً

غير مذكور في اللفظ.

أمثلة :

(١) قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنفال / ٨ مصحف / ٨٨ نزول) :

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيْتُمْ فِيكُمْ فَانْتَبُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ

تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ .

إنّ عبارة: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ هي بمعنى لتفليحوا على سبيل الرجاء.

لقد تمّ المطلوب بعبارة ﴿فانْتَبُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ لكنّ جاء التعليل بعدها

لتوليد الدافع الذاتي للعمل بهذا المطلوب.

فزيادة التعليل قد كانت إطناباً نافعاً.

(٢) قول الله عزّ وجلّ في سورة (المائدة / ٥ مصحف / ١١٢ نزول) :

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْحَنَرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ

تُفْلِحُونَ ﴿١١﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْحَنَرِ وَالْمَيْسِرِ وَيُصِّدْكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ

وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴿١١﴾ .

في هذا النصّ اقتُرن النهي عن الخمر والميسر والأنصاب والأزلامِ ببيان العلة أو السبب أو الحكمة، لتوليد الدافع الذاتي لاجتنابها.

فهي:

● رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ .

● وَاجْتِنَابُهَا سَبَبٌ يُرْجَىٰ مَعَهُ الْفَلَاحُ .

● والشيطان يريد أن يوقع العداوة والبغضاء بين الناس في تعاطيهم الخمر والميسر، ويُريد أن يصدّهم بهما عن ذكر الله وعن الصلاة.

هذه الأسباب كافية لأن تجعل ذا اللب يُحقّق المطلوب اجتنابه في النصّ .
فزيادة التعليل في النصّ قد كانت إطناباً نافعاً.

(٣) قول الله عزّ وجلّ في سورة (التين/ ٩٥ مصحف/ ٢٨ نزول) خطاباً للمكذّب بالدينونة والجزاء:

﴿فَمَا يَكْذِبُكَ بَعْدَ الدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾﴾

جاءت آية ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾ دليلاً على الدينونة والجزاء، لأنّ أحكم الحاكمين لا يُمكنُ عقلاً أن يُسوّي بين المسلمين والمجرمين .

(٤) قول الله عزّ وجلّ في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول):

﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾﴾

أي: وَمَنْ جَاهَدَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَإِنَّهُ إِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ عِنْدَ اللَّهِ ثَوَاباً عَظِيماً، وهو بجهاده لا يُضيف إلى مُلْكِ اللَّهِ شَيْئاً.

هنا يردُّ سؤال مُقدّر: ما السبب في قَصْرِ نفع جهاده على نفسه؟

فجاء الجواب التعليلي بعبارة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾، أي: إنّ الله

قادرٌ على نُصرة دينه دون مجاهدة المجاهدين المؤمنين، لكن ابتلاءهم في الحياة الدنيا اقتضى تكليفهم بالجهاد لنصرة دينه، وترك الأمر للأسباب التي وضعها للناس.

* * *

الطريقة الثانية عشرة: «التفسير».

التفسير: أن يُؤتى بكلامٍ لاحقٍ يُفسَّرُ به كلامٌ سابقٍ لإزالة ما فيه من لبسٍ أو خفاءٍ.

ولما كان التفسير زيادة في الكلام مفيدة كان إطناباً حسناً كلما اقتضاه الحال، ومن التفسير أن يؤتى بالمرادف الأظهر بعد المرادف الأخفى.

أمثلة

(١) قول الله عزّ وجلّ في سورة (المعارج / ٧٠ مصحف / ٧٩ نزول):

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾.

جاءت الآيتان «٢٠ - ٢١» من هذا النّصّ مُفسّرتين لِمَعْنَى كلمة «هلوع» كما قال أبو العالية وغيره من قدماء أهل التفسير.

فألهلوع: هو الذي إذا مسّه الشرُّ كان جزوعاً، وإذا مسّه الخيرُ كان منوعاً.

وهذا التفسير لم يصف إلى المعنى الذي دلّت عليه كلمة «هلوع» شيئاً، لكنّه كان مفيداً إذ شرح معنى كلمة هلوع، فهو إطناب حسن.

(٢) قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة / ٢ مصحف / ٨٧ نزول) خطاباً لبني

إسرائيل:

﴿وَإِذْ جَعَلْنَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُم سَوَاءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾.

يَسْؤُمُونَكُمْ : أي : يُحَمِّلُونَكُمْ وَيَكَلِّفُونَكُمْ .

سُوءَ الْعَذَابِ : أي : أَشَدَّ الْعَذَابِ وَأَكْثَرَهُ مَشَقَّةً وَظُلْمًا .

نلاحظ في هذه الآية أَنَّ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى فِيهَا : ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ قد جاء تفسيراً لبعض مضمون قوله : ﴿يَسْؤُمُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ فهو إطناب مفيد حَسَن .

ومعنى : ﴿ويستحيون نساءكم﴾ ييقون نساءكم على قيد الحياة للتسخير والخدمة .

(٣) قول الله عز وجل في سورة (المتحنة/ ٦٠ مصحف/ ٩١ نزول):

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ...﴾ [الآية ١] .

إِنَّ عِبَارَةَ : ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ بيانٌ لبعض عناصر اتخاذ أعداء الله وأعداء المؤمنين أولياء، فهو من التفسير الجزئي للموالاتة، وهو يدلُّ على النظر قياساً، وعلى ما هو أشدُّ منه من باب أولى .

فهذا التفسير من الإطناب المفيد الحسن .

(٤) قول الله عز وجل في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مَنَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٦﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا...﴾ .

إِنَّ عِبَارَةَ : ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ بيانٌ لبعض عناصر الكُفْرِ وَأَسْبَابِهِ، فَهُوَ من التفسير الجزئي لكلمة ﴿الْكَافِرِينَ﴾ .

فهذا التفسير من الإطناب المفيد الحَسَن .

(٥) قول الله عز وجل في سورة (الصمد):

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَكُنْ لَكَ يَدٌ وَلَمْ يُولَدْ ۝﴾

قال «محمد بن كعب القرظي»: [لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ] تفسيرٌ للصَّمَدِ.

أقول: هو من التفسير الجزئي لا من التفسير المطابق.

* * *

الطريقة الثالثة عشرة: «وضع الاسم الظاهر موضع المضمرة».

سبق في الفصل السادس «الخروج عن مقتضى الظاهر» من الباب الثاني «أحوال عناصر الجملة» جوانب مهمة من وضع الاسم الظاهر موضع الضمير، وما يأتي في بحث «الإطناب» هنا يُعْتَبَرُ مكملًا لما جاء في بحث الخروج عن مقتضى الظاهر، وجاء التكرار لاختلاف الاعتبارات فالبحثان متكاملان.

أصل وضع الضمائر في اللغة إنما كان للاختصار، والتقليل من طول الكلام الذي يحصل بذكر الأسماء الظاهرة ابتداءً أو تكراراً.

فيحصل الاكتفاء بأن يكتفى بالضمائر عن الأسماء الظاهرة، وبها يَقْصُرُ طول الكلام، وبهذا صار للضمائر في الكلام مواضع يعتبر استعمالها فيها هو الأصل.

ولكن قد تدعو دَوَاعِي بلاغية لوضع الأسماء الظاهرة في مواضع استعمال الضمائر، وتَحْتَمِلُ طُولَ الكلام بهذه الأسماء الظاهرة، وبهذا دخل استعمال الاسم الظاهر موضع المضمرة ضمن طرائق الإطناب.

ونظر البلاغيون في الدواعي البلاغية لهذا الاستعمال وفوائده فظهرت لهم الدواعي التالية المتضمنة فوائده:

(١) إرادة زيادة التقرير والتمكين.

(٢) قصد التعظيم والإجلال، أو قصد تعظيم الشيء وبيان ارتفاع منزلته.

(٣) قصد الإهانة والتحقير .

(٤) إرادة إزالة اللبس إذا كان استعمال الضمير يُقتضي إليه .

(٥) تربية المهابة وإدخال الرّوع على ضمير المتلقي بذكر الاسم الظاهر إذا

كان ممّا يقتضي ذلك .

(٦) إرادة تقوية الدافع إلى تنفيذ الأمر وتحقيق الطاعة .

(٧) إرادة التلذذ بذكر الاسم الظاهر، فالعشاق يتلذذون بذكر أسماء من

يُحبون، أو ما يحبّون .

(٨) إرادة التوصل إلى الوصف باستعمال الاسم الظاهر .

(٩) إرادة التنبيه على علة الحكم إذا كان الاسم الظاهر يدلُّ عليها أو يشير

إليها .

(١٠) إرادة العموم إذا كان الاسم الظاهر يفيدُه، أو يُدكّرُ ليُقرّنَ بما يفيدُه .

(١١) إرادة الخصوص إذا كان الاسم الظاهر يفيدُه، أو يُدكّرُ ليقرنَ بما

يُفيدُه .

(١٢) قصد الإشارة إلى استقلال الجملة، وعدم دخولها في حكم سابقتها

إذا كان استعمالُ الضمير يفيدُه .

(١٣) إرادة مراعاة صورة جمالية في اللفظ، أو محسّن من محسنات البديع

كالجناس والتّرصيع، إذا كان ذكر الاسم الظاهر يفيد ذلك .

إلى غير ذلك من دواعي مقبولة لدى البلغاء الأذكياء .

أمثلة:

أولاً: في النصوص التالية وُضِعَ الاسم الظاهر موضع الضمير لزيادة التقدير

والتمكن:

● ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾﴾ [من سورة الصمد].

«الله» في الآية الثانية.

● ﴿وَالْحَقُّ أَنزَلْنَاهُ بِالْحَقِّ نَزْلًا ﴿١٠٥﴾﴾ [الإسراء].

«بالحق» الثانية.

● ﴿إِنَّكَ اللَّهُ لَدُو فَضَّلِ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾﴾

[غافر/٦١].

«الناس» الثانية.

● ﴿لِيَتَحَكَّبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ ﴿٧٨﴾﴾ [آل عمران].

«الكتاب» الثانية.

● ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ... ﴿٧٨﴾﴾ [آل عمران].

«الله» الثانية.

* * *

ثانياً: في النصوص التالية وُضِعَ الاسم الظاهر موضع الضمير لقصد التعظيم والإجلال، وقصد تعظيم الشيء وبيان ارتفاع منزلته:

● ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٦﴾﴾ [البقرة].

● ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة].

● ﴿وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾ [الإسراء].

● ﴿وَلِيَأْسَ الْتَقْوَىٰ ذَلِكَ خَيْرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الأعراف].

وضع لفظ «ذلك» بدل الضمير.

● ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾﴾ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِن نُّطْفَةٍ

أَمْشَاجٍ... ﴿١﴾ [الإنسان].

كان من الممكن أن يقال : إن خلقناه .

ثالثاً: في النصوص التالية وُضِع الاسم الظاهر موضع الضمير لقصد الإهانة

والتحقير :

● ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْمُفْسِدُونَ ﴿١٩﴾﴾ [المجادلة] .

● ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنْ الشَّيْطَانُ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ﴿٥٦﴾﴾ [الإسراء] .

● ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾ [النساء] .

رابعاً: في النصوص التالية وُضِع الاسم الظاهر موضع الضمير، لإرادة إزالة

اللِّبْسِ إذ استعمال الضمير يفضي إليه :

● ﴿الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَنَّا أَلَسَوْا عَلَيْهِمْ دَائِرَةً السُّوءِ ﴿٦﴾﴾ [الفتح] .

فلو قال : عليهم دائرته لأوهم أن الضمير عائد على الله عزَّ وجلَّ .

● ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ آخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ آخِيهِ ﴿٧٦﴾﴾ [يوسف] .

فلو قال : ثم استخرجها من وعائه لأوهم أن أخاه استخرجها من وعاء نفسه .

* * *

خامساً: في النصوص التالية وُضِع الاسم الظاهر موضع الضمير لإرادة تربية

المهابة وإدخال الرُّوع على ضمير المتلقي :

● ﴿ثُمَّ اللَّهُ يَنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [العنكبوت] .

● ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ؕ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾﴾

[الحجرات] .

● ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [النحل] .

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ . . . ﴿ [النحل] .

* * *

سادساً: في النصوص التالية وُضِعَ الاسم الظاهر موضع الضمير لإرادة تقوية الدافع إلى تنفيذ الأمر وتحقيق الطاعة:

- ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٦﴾﴾ [آل عمران].
- ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٢٨﴾﴾ [الحج].
- ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بَيِّنَاتٍ اللَّهُ فَأَنَّ اللَّهَ سَرِيعٌ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾ [آل عمران].

* * *

سابعاً: ومن وضع الاسم الظاهر موضع الضمير للتلذذ بذكر الاسم قول عاشق ليلى:

بِاللَّهِ يَا ظِيَّاتِ الْقَاعِ قُلْنَ لَنَا
لَيْلَايَ مِنْكُنَّ أَمْ لَيْلَى مِنْ الْبَشَرِ
وهذا الغرض هو الذي جعل أبا نواس يقول في خمرياته:

أَلَا فَاسْقِنِي خَمْرًا وَقُلْ لِي: هِيَ الْخَمْرُ
وَلَا تَسْقِنِي سِرًّا إِذَا أَمَكْنَ الْجَهْرُ
ثامناً: ومن وضع الاسم الظاهر موضع الضمير بغية التوصل إلى وصفه ما جاء في سورة (الأعراف / ٧ مصحف / ٣٩ نزول) خطاباً من الله لرسوله:

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ
وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

إذا اعتبرنا أنَّ عِبْرَةَ: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ...﴾ من جملة ما أَمَرَ اللَّهُ به رسوله أن يقوله للناس، فقد كان الأصل أن يقول: فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَبِي... لكن قصد التوصل إلى وصف الرسول حَسَنَ وضع الاسم الظاهر موضع الضمير.

ويحتمل أن يكون الكلام قد انتهى عند لفظة: ﴿يُمِيتُ﴾ وأن يكون الكلام

بَدَأَ مِنْ: ﴿فَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ...﴾ خطاباً مباشراً من اللّهِ للناس، وهذا هو الأرجح فيما أرى.

* * *

تاسعاً: في النصوص التالية وُضِعَ الاسم الظاهر موضع الضمير للتنبيه على علة الحكم:

﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة].

لم يأت النص: فأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ، إنما جاء: ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ للتنبيه على أَنَّ الحكم عليهم بِأَنْزَالِ الرَّجْزِ « = العذاب » كان بسبب ظُلْمِهِمُ الَّذِي ظَهَرَ آثاره بأعمال الفسق الذي كانوا يفسقونه.

● ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام].

كان الأصل أن تأتي العبارة بالضمير: إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُونَ، لكن جاء الاسم الظاهر ﴿الظالمون﴾ للتنبيه على أن عدم فلاحهم إنما هو بسبب ظلمهم.

* * *

عاشراً: ومن وضع الاسم الظاهر موضع الضمير لإرادة العموم أو إرادة الخصوص ما يلي:

● ﴿وَمَا أُبْرِيئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [٥٣/ يوسف]، لم يقل: «إنَّهَا لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ» لأنه أراد تعميم هذه الصفة على كلِّ النفوس.

● ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [١٥١/ النساء]، لم يقل: «واعتدنا لهم» لأنه أراد تعميم استحقاق هذا العذاب على كلِّ الكافرين.

● ﴿وَأَمْرًا مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ...﴾ [٥٠/الأحزاب] لم يقل: «إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لَكَ» كما هو مقتضى السياق لثلاثاً يُتوهم قياس غيره عليه، فجاء الاسم الظاهر «للنبي» للتنبيه على أن الحكم خاصٌ بالنبي لكونه نبيّاً.

أحد عشر: ومن وضع الاسم الظاهر موضع الضمير لقصد الإشارة إلى استقلال الجملة مُعظَمَ خواتم الآيات التي تنتهي بنحو:

﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ - إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ - إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ - وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾.

وبهذه الاستقلالية تكون الجملة بمثابة قضية كلية لها صفة العموم.

اثنا عشر: ومن وضع الاسم الظاهر موضع الضمير لمراعاة صور جمالية في اللفظ أو مُحَسِّنٍ من مُحَسِّنَاتِ البديع، قول الله عز وجل:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾﴾.

﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمُ ﴿٥﴾ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ ﴿٦﴾﴾.

ملاحظات:

قالوا:

(١) إعادة الاسم الظاهر بمعناه أَحْسَنُ من إعادته بلفظه.

أقول: ليس هذا عامّاً، بل ربّما كانت إعادته بلفظه هي الأحسن، كما وجدنا هذا في كثير من نصوص التنزيل.

(٢) إعادة الظاهر في جملة أُخْرَى أَحْسَنُ منه في الجملة الواحدة.

(٣) إعادة الظاهر بعد طول الفاصل أحسن من الإضمار، لثلا يشتغل الذهن بالبحث عما يعود عليه الضمير.

* * *

الطريقة الرابعة عشرة: «التأكيد».

الأصل في الكلام لتأدية المعنى المراد أن لا تزيد كلماته عما يُؤدّي أصل المعنى، فإذا زادت عما يُؤدّي أصل المعنى المقصود بالبيان لغرض يُقصدُ لدى البلغاء كان ذلك إطناباً مفيداً، كلما دعت الحاجة إليه، كأن تكون الزيادة مما يقتضيها حال المتلقّي للكلام، أو حال المعبر عما في نفسه، كعاشق، أو فرح، أو حزين.

ومن الزيادات في الكلام عن أصل المعنى المقصود بالبيان إضافة المؤكّدات إليه مراعاةً لحال من يُوجّه له.

وقد سبق في الفصل الثالث من الباب الأول «مدخل إلى علم المعاني» بيان التأكيد وعدمه في الجملة الخبرية، وبيان مؤكّدات الإسناد الخبري.

ونبحث هنا التأكيد من جهة كون الألفاظ الدالة عليه زوائد تجعل الكلام الذي أضيفت إليه يندرج في قسم الإطناب.

والتأكيد هنا يشمل تأكيد المفرد، وتأكيد الجملتين الخبرية والإنشائية،

وأبين هنا أن من يُوجّه له الكلام، إذا كانت حاله لا تقتضي تأكيداً، كانت إضافة المؤكّدات إلى الكلام الموجه له إسهاباً وتطويلاً لا داعي له، وكان الكلام الموجه له غير بليغ، إذ الكلام البليغ هو المطابق لمقتضى الحال.

ومن المستحسن هنا أن أوجز عرض المؤكّدات، والدواعي البلاغية للتأكيد، وأحيل مع هذا على ما سبق في الباب الأول من الكتاب.

إجمال المؤكّدات :

نظر البلاغيون في المؤكّدات عند علماء العربيّة فقسموها إلى الأقسام الستّة

التالية :

القسم الأول: الزوائد من الحروف والكلمات التي يؤتّى بها للتوكيد.

(١) منها «أحرف الصلّة» وهي حروف تُزاد للتأكيد، وهي: «إِنْ - أَنْ - مَا - مِنْ - الباء» مثل: «مَا إِنْ فَعَلْتُ مَا تَكْرَهُ - لَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ - أَكْرَمْتُكَ مِنْ غَيْرِ مَا مَعْرِفَةٍ - مَا جَاءَنَا مِنْ أَحَدٍ - مَا أَنَا بِمُهْمِلٍ - أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ».

قالوا: وتُزاد «مِنْ» في النفي خاصّة، لتأكيده وتعميمه، مثل: «مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ».

ونظير النفي الاستفهام، مثل: «هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ - وَتَقُولُ: هَلْ مِنْ

مَزِيدٍ».

وتزاد الباء لتأكيد النفي، وتزاد أيضاً لتأكيد الإيجاب، مثل:

● «أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ»: أي: أليس الله كافياً عبده.

● قول الرسول ﷺ: «بِحَسْبِ أَصْحَابِي الْقَتْلُ» أي: يكفيهم.

● «وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا»: أي: وكفى الله نصيراً.

وتُزاد «مَا» بعد «إِذَا» مثل: «وَإِذَا مَا أَنْزَلْتُ سُورَةً»: أي: وإذا أنزلت

سورة... وتزاد كَافَةً عَنْ عمل الرفع، وهي المتصلة بـ «قَالَ» و «طَالَ» و «كَثُرَ»

فتقول: قَلَمًا، وَطَالَ مَا، وَكَثُرَ مَا، وتفيد التأكيد، وما هنا كَفَّتِ الفعل عن طلب

الفاعل. وتُزاد كَافَةً عَنْ عمل النصب والرفع، وهي المتصلة بـ «إِنَّ» وأخواتها

«إِنَّمَا - أَنَّمَا - لَيْتَمَا...». وتزاد كَافَةً عَنْ عمل الجرّ، وهي التي تتصل بأحرف

جرّ، أو بظروف، فالأحرف التي تتصل بها هي: «رُبَّ - الكاف - الباء - مِنْ»

فيقال: «رُبَّمَا - كَمَا - بِمَا - مِمَّا» وتتصل بظرفين: هما: «بعد - بين» فيقال: «بَعْدَمَا - بَيْنَمَا». وقد تُزاد بين المضاف والمضاف إليه، مثل: «من غير ما مَعْرِفَةٍ».

وأكثر ما تزداد «إِنْ» بعد «ما» النافية، مثل: «مَا إِنْ فَعَلْتُ هَذَا» وقد تُزادُ بَعْدَ «مَا» الموصولة الاسمية، وبعد «ما» التي بمعنى حين، مثل قول جابر بن رَأْلَانَ:

وَرَجَّ الْفَتَى لِلْخَيْرِ مَا إِنْ رَأَيْتَهُ عَلَى السِّنِّ خَيْرًا لَا يَزَالُ يَزِيدُ
وقد تُزادُ بعد «أَلَا» الاستفتاحية.

وَتُزَادُ «أَنْ» بعد «لَمَّا» الحينية، مثل: ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ﴾.

وقد تزداد بين الكاف الجارة ومجرورها، مثل قول كعب بن أرقم الشكري:

وَيَوْمًا تُوَاوِينَا بِوَجْهِ مُقْسَمٍ كَأَنَّ ظَبِيَّةً تَعْطُو إِلَيَّ وَارِقِ السَّلَمِ
وقد تزداد بين فعل القَسَمِ وحرف «لو» مثل: أَقْسِمُ أَنْ لَوْ جَاءَنِي الْبَشِيرُ
لَأُكَاْفِنْتَهُ.

وَتُزَادُ «مِنْ» فِتْقِيدِ التوكيد، أو التنصيص على العموم، أو تأكيد التنصيص على العموم، ولا تكون زائدة إلا بثلاثة شروط:

الأول: أن يسبقها نفي، أو نهي، أو استفهام بحرف «هل».

الثاني: أن يكون مجرورها نكرة.

الثالث: أن يكون مجرورها إما فاعلاً، مثل: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ﴾.

وإما مفعولاً، مثل: ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾.

وإما مُبْتَدَأً، مثل: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾.

(٢) وقد يُزادُ للتأكيد فعل «كان» وفعل «أصبح» قالوا: ومن زيادة فعل

«كان» ما جاء في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿قَالُوا: كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾

أي: كيف تكلم صبيّاً في المهد، فجاء تأكيد هذا الوصف بزيادة فعل «كان».

(٣) وقد يزداد للتأكيد لفظ «أما» بمعنى «حقاً» مثل: «أما إنّه رجُلٌ عاقل».

(٤) ويزادُ للتأكيد حرفا الاستقبال، وهما: «السين – وسوف» إذ هما لتأكيد

معنى الاستقبال في الفعل المضارع.

(٥) ومن المؤكّدت الأحرَف المشبّهة بالفعل: «إنّ – أنّ – كأنّ – لكنّ –

ليّت – لعلّ».

● فحرفا «إنّ – وأنّ» لتأكيد الجملة الخبريّة.

● وحرف «كأنّ» للتشبيه مع التأكيد.

● وحرف «لكنّ» للاستدراك مع التأكيد.

● وحرف «ليّت» للتمنيّ مع التأكيد.

● وحرف «لعلّ» للترجّي مع التأكيد.

(٦) ومن المؤكّدت: «لام الابتداء» وهي اللام التي تفيد توكيد مضمون

الجملة، وتخليص المضارع للحال، وتدخل على صدر الجملة الاسميّة، والفعل المضارع، والفعل الذي لا يتصرّف.

ومن لام الابتداء اللّام المزحلقة عن صدر الجملة الاسميّة فتدخل على خبر

«إنّ» أو معمول خبرها، أو على اسم «إنّ» إذا كان متأخراً عن الخبر، وعلى ضمير الفصل.

وتأتي اللام زائدة للتوكيد كقول رؤبة بن العجاج:

أُمُّ الْحُلَيْسِ لِعَجُوزٍ شَهْرَبَةَ تَرْضَى مِنَ اللَّحْمِ بِعَظْمِ الرَّقَبَةِ

(٧) ومن المؤكّدت «ضمير الشأن» و «ضمير الفصل».

(٨) ومن المؤكّدت حرف «قد» و «أمّا» الشرطية للدلالة على الشرط مع التأكيد.

(٩) ومن المؤكّدت «نونا التأكيد الثقيلة والخفيفة».

(١٠) ومن المؤكّدت «لَنْ» لتأكيد النفي في المستقبل و «لَمَّا» لتأكيد النفي في الماضي.

(١١) قالوا: وفي «ألا» و «أما» الاستفتاحيتان معنى التأكيد.

وفي «هاء» التنبيه التنبيه مع التأكيد، وقد تأتي «يا» للتنبيه مع التأكيد، وصورتها صورة «يا» التي ينادى بها.

(١٢) وما يُقسَمُ به من حروف أو أفعال أو أسماء هي مؤكّدت تضاف في الكلام للتأكيد، وكذلك اللام الواقعة في جواب القسم.

(١٣) ومن المؤكّدت «لا» النافية للجنس.

القسم الثاني: «التوكيد اللفظي»:

ويكون بإعادة المؤكّد بلفظه أو بمرادفه، سواءً أكان اسماً ظاهراً، أم ضميراً، أم فعلاً، أم حرفاً، أم جملةً.

وفائدة التوكيد اللفظي تقرير المؤكّد لدى من يُوجّه له الكلام، وتمكينه في نفسه، وإزالة ما لديه من شُبّه حوله، مثل: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ ومن التأكيد بالمرادف قول الله عزّ وجلّ: ﴿أْمَهُلْهُمْ رُوَيْدًا﴾.

القسم الثالث: «التوكيد المعنوي»:

ويكون بذكر ألفاظ «النفس - أو العين - أو كلّ - أو جميع - أو عامّة - أو كلّاً - أو كلتاً».

ويشترط للتأكيد بها أن تضاف إلى ضمير يناسب المؤكّد، مثل: «جاء خالد نفسه - حضر رئيسا البلدين أنفسهما - اجتمعت الضّرّتَان كِلتاهما - فسجّد الملائكة كُلُّهُم أَجْمَعُونَ».

ويقوّى التوكيد المعنوي بالكلمات المؤكّدة التالية:

(١) «أجمع» يؤتى بها بعد كلمة «كلّه» مثل: «جاء القطيع كلّه أجمع».

(٢) «جمّعاء» يؤتى بها بعد كلمة «كلّها» مثل: «حضرت القبيلة كلّها

جمّعاء».

(٣) «أجمعون» يؤتى بها بعد كلمة «كلّهم» مثل: «جاهد القوم كلّهم

أجمعون».

(٤) «جمّع» يؤتى بها بعد كلمة «كلّهنّ» مثل: «نجح طالبات المدرسة كلّهنّ

جمّع».

وقد يؤكد بهذه الكلمات دون أن يتقدّمهنّ لفظ «كلّ».

القسم الرابع: «تأكيد الفعل بمصدره».

ويكون بما يُسمّى «المفعول المطلق» وهو عوضٌ عن تكرار الفعل مرتين.

وفائدته رفع توهم المجاز في الفعل، ومنه قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ

مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ أي: تكلّيمًا حقيقيًا، لا تكلّيمًا مجازيًا.

القسم الخامس: «الحال المؤكّدة».

وهي الحال التي يُستفاد معناها بدونها، وهي ثلاثة أنواع:

النوع الأول: الحال المؤكّدة لعاملها، وتكون:

(١) من لفظ العامل، مثل: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾.

(٢) أو من معنى العامل، مثل: «مَشَى الرَّجُلُ سَيْرًا».

النوع الثاني: الحال المؤكدة لصاحبها، مثل قول الله عز وجل: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾ [٩٩/يونس].

النوع الثالث: الحال المؤكدة لمضمون جملة، مثل ما جاء في قول الله تعالى: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾ [٧٣/الأعراف].

والعامل في هذه الحال المؤكدة لمضمون جملة محذوف مقدر ذهنياً بما يلائم الكلام في الجملة.

القسم السادس: صيغ المبالغة التي يؤتى بها للتأكيد، مثل: «غَفَّارٌ - شكورٌ - رحيمٌ - جبارٌ - قهارٌ» إلى غير ذلك من صيغ المبالغة القياسية والسماعية.

* * *

دواعي التأكيد:

للتأكيد دواعي كثيرة، منها ما يلي:

(١) حالة الإنكار لدى من يُوجّه له الكلام، وتزداد المؤكّدات بحسب قوّة الإنكار.

(٢) حالة الشك والتردد لدى من يُوجّه له الكلام، وتزداد المؤكّدات بحسب قوة الشك والتردد.

(٣) تنزيل غير المنكر وغير الشاك منزلة أحدهما، إذا ظهرت عليه علامات الإنكار أو الشك، أو لم يعمل بمقتضى علمه بحسب ما لديه من ذلك.

(٤) دفع توهم المجاز.

(٥) تقرير الكلام وتمكينه وتثبيتته، مراعاة لمضمون الكلام الذي تتطلب طبيعته تقريراً وتمكيناً، أو مراعاة لحال من يوجه له الكلام.

إلى غير ذلك من دواعي بلاغية، كالترغيب، والترهيب، والإطماع.

وقد يترك التأكيد مع إنكار من يوجه له الكلام لداع بلاغي آخر أقوى، كأن يكون الكلام مقترناً بأدلة قوية ظاهرة لو تأملها لرجع عن إنكاره.

أمثلة:

المثال الأول:

في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول) ضرب الله مثلاً قصة أصحاب القرية التي جاءها المرسلون (ذكروا أنها أنطاكية) قال الله عز وجل:

﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِالشَّالِكِ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ .

دَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ الْمُرْسَلَيْنِ الْاِثْنَيْنِ قَالَا لِأَصْحَابِ الْقَرْيَةِ: نَحْنُ رَسُولَانِ إِلَيْكُمْ، فَكَذَّبُوهُمَا.

فَأَرْسَلَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ مُرْسَلًا ثَالِثًا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿ فَعَزَّزْنَا بِالشَّالِكِ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ .

هنا نلاحظ أن إنكارهم ناسبه أن يؤكد لهم الكلام، فاقترنت عبارتهم: ﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ﴾ بمؤكدتين: الجملة الاسمية، وحرف «إن» وقد نلاحظ في تقديم المعمول ﴿إليكم﴾ مع التخصيص أو الاهتمام معنى التأكيد.

فكان موقف أصحاب القرية ما أبانه الله بقوله:

﴿ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ .

فاقتضى هذا الإصرار على الإنكار والتكذيب، أن يزيد الرُّسُل بيانَهُم تأكيداً، قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالُوا رَبَّنَا عَلِّمْنَا لِنَا إِيَّاتِنَا لِنُرْسِلَهُنَّ لِمَرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَّمْنَا إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾﴾.

فأضافوا إلى المؤكِّدات السابِقات تأكيداً بالقَسَمِ: ﴿رَبَّنَا عَلِّمْنَا﴾ وباللَّام المزلحقة، التي هي لام الابتداء، زُحِلِقَتْ إلى خَبَرٍ «إِنَّ» فهي الداخلة على «مُرْسَلُونَ».

فتكاثرَت نِسْبَةُ المؤكِّدات بحسب الإمعان في التكذيب والإنكار.

المثال الثاني:

في عرض لقطات من قصة نوح عليه السلام وقومه في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف / ٧٤ نزول) أبان الله عزَّ وجلَّ أن نوحاً سأل رَبَّهُ أن يُنصِرَهُ فقال: ﴿رَبِّ أَنْصِرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

فأوحى اللهُ إليه أن يصنَع الفلْكَ، حَتَّى إِذَا أَتَمَّهَا وَجَاءَ أَمْرُ اللهِ فَإِنَّ عَلَيْهِ أَوْلَى: أَنْ يَسْأَلَ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَجَمِيعِ أَهْلِهِ بِاسْتِثْنَاءِ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ قَوْلُ اللهِ بَأْتَهُ مِنَ الْمَهْلِكِينَ بسبب كفره، وإنَّ عليه ثانياً أن لا يسأل رَبَّهُ في رفعِ عَذَابِ الْهَلَاكِ عَنْ قَوْمِهِ.

ولمَّا كان قَلْبُ نوحِ الحليمِ الرحيمِ من طبيعته أن يتحرَّكَ بعاطفة نحو قومه، فلرُبَّما سأل رَبَّهُ أن يرفع العذاب عنهم أو يؤخره، كانت حالته تستدعي تأكيد القضاء الربَّانيِّ بإغراقهم، حَتَّى لا يكون لدى نوحٍ أملٌ بخلاف ذلك، فقال اللهُ تعالى له:

﴿وَلَا تَحْطِئْ بِنَافِثِ الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

فأكَّد له قرار إغراقهم بحرف التأكيد «إِنَّ» مراعاةً لحالته القليبة الحليمة الرحيمة.

المثال الثالث :

● وفي إطماع الله عباده أكدَّ لهم أنه تَوَابٌ رَحِيمٌ، فقال تعالى في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿١٦﴾

فأكَّدَ بِصِيغَتَيْنِ مِنْ صِيغِ الْمَبَالِغَةِ وَبِالْجُمْلَةِ الْاسْمِيَّةِ .

● وفي معرض بيان توبة الله على آدم عليه السلام، وإطماعاً لكلِّ التائبين من بعده قال الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة) أيضاً:

﴿فَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَةً فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿٣٧﴾

فأكَّدَ بِالمُؤَكَّدَاتِ التَّالِيَةِ: «إِنَّ» — وَالجُمْلَةَ الْاسْمِيَّةَ — وَضمير الفصل — وَصِيغَتِي الْمَبَالِغَةِ» .

* * *

الطريقة الخامسة عشرة: «زيادة بعض التوابع في الكلام» .

قد تزايد بعض التوابع في الكلام دون أن يكون وجودها مؤدياً شيئاً من المعاني الأصلية المقصودة بالبيان، لكنَّ زيادتها في الكلام مفيدة فائدة تُقصدُ لدى البلغاء، فتكون هذه الزيادة من الإطناب البليغ، إذا دعت الحاجة إليها .

أما إذا كان المعنى المقصود بالبيان لا يتحقق إلاً بذكرها في الكلام، فإنَّ ذكرها لا يكون زيادةً أصلاً، ولا يكون به الكلام داخلاً تحت عنوان الإطناب .

وظاهر أنَّ الزيادة إذا لم تكن ذات فائدة تُقصدُ لدى البلغاء كانت إسهاباً وَتطويلاً غير بليغ .

وهذه التوابع هي: «الصفة — البدل — عطف البيان — عطف النسق» .

ويلاحظ في الدواعي البلاغية لزيادة التوابع في الكلام ما يلي:

الداعي الأول: التأكيد.

الداعي الثاني: التوضيح ودفع الاشتباه.

الداعي الثالث: المدح، أو الذم.

الداعي الرابع: التفجع.

الداعي الخامس: إرادة التعريض بغير المذكور.

إلى غير ذلك مما يزيد على المعاني الأصلية المقصودة بالبيان. فالزيادة بذكر بعض التوابع لتحقيق غرض بلاغي هي من الإطناب المفيد البليغ.

أمثلة:

(١) قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءً... ﴾ [الآية ٤٤].

جاء في هذه الآية وُصِفَ النبيين بعبارة ﴿الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ وهذا الوصف من الأوصاف التي تضمَّنَهَا كَوْنُهُمْ نَبِيِّينَ، فَهُوَ زِيَادَةٌ، لَكِنَّهَا زِيَادَةٌ مَفِيدَةٌ، وَفَائِدَتُهَا إِظْهَارُ شَرَفِ التَّطْبِيقِ الْإِسْلَامِيِّ وَعَظَمِ مَكَاتِهِ عِنْدَ اللَّهِ، وَالتَّعْرِضُ بِالْيَهُودِ الْمُخَالَفِينَ لِمَا كَانَ عَلَيْهِ أَنْبِيَائُهُمْ، وَبَيَانُ أَنَّ النَّبِيَّ لَا يُعْفَى مِنَ التَّطْبِيقَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ.

(٢) عبارة «أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ» جاء فيها وصف الشيطان بأنه رجيم، مع أن ذكر كلمة الشيطان تدلُّ على أنه مطرودٌ من رحمة الله، ومرجومٌ بكلِّ مذمة، لكنَّ ذكر كلمة رجيم ذو فائدة، وفائدته تكرير التذكير بتردد اللِّه له، للتفتير من تسويلاته ووساوسه، وشحن النفس بمعاداته، وعَدَمِ اتِّبَاعِ خُطُوَاتِهِ.

(٣) قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَارَهُبُونَ ﴾ (٥١)

جاء وصف لفظ: ﴿إِلَهَيْنِ﴾ بكلمة ﴿اثْنَيْنِ﴾ مع أن التثنية تدلُّ على هذا الوصف، فما الفائدة من هذه الزيادة لتكون إطناباً بليغاً؟

أقول: إن كلمة ﴿إِلَهَيْنِ﴾ قد تُوهَّم أن المراد صنفان أو نوعان من الآلهة، كإلهين مخلوقين، أو حادثين، أو قديمين أو نحو ذلك، فجاء الوصف بكلمة ﴿اثْنَيْنِ﴾ لإفادة التَّهْيِ عَنْ مُجَرَّد جعل المعبود اثنين بأية صورة من الصُّور، وجاءت عبارة ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ للدلالة على بطلان تعدد الآلهة اثنين فصاعداً.

(٤) قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الحاقة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول):

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١١٦﴾ وَجُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿١١٧﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١١٥﴾ ﴾

جاء في هذا النصِّ وصف النفخة بأنها واحدة، ووصف الدكَّة بأنها واحدة، وقد يقول قائل: أليست كلمة «نفخة» وكلمة «دكَّة» تدلُّ على كونها واحدة.

والجواب: أن كلمة «نفخة» وكذلك «دكَّة» ونظائرهما استعمال قد يُراد به الجنس، وهو يَصْدُقُ بالواحد من الجنس فأكثر، ودفعاً لهذا الاحتمال الذي قد يدلُّ عليه مثل هذا الاستعمال جاء الوصف مُحَدِّداً بأنَّ النفخة واحدة عدداً، وبأنَّ الدكَّة واحدة عدداً، فهذه الزيادة من الإطناب البليغ.

(٥) قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمٌّ أُنْثَى لَكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ تُعْرِكُ إِلَيْ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ (٣٨)

جاء في هذه الآية وَصَفُ كلمة [طَائِرٍ] بعبارة: [يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ] وقد يقول قائل ما فائدة هذا الوصف مع أن من المعروف أن الطائر يَطِيرُ بجناحيه؟

والجواب: أن كلمة: «طائر» عامة في كُلِّ ما يرتفع إلى الأعلى، وقد يُطلق مجازاً على الذي يسير بسرعة على الأرض، وقد أطلق هذا اللفظ في القرآن مراداً به العمل الذي يطير عن الذي عمله بمجرد فعله له، وهذا في قول الله تعالى في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ﴿١٧﴾ أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٨﴾ .

فدفعاً لتوهم إرادة كُلِّ ما يمكن إطلاق لفظ «طائر» عليه حقيقة أو مجازاً، وللنص على أن المراد الحيوان الذي يطير بجناحيه، جاء في الآية الوصف بأنه يطير بجناحيه، فهو من الإطناب البليغ.

(٦) قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الفاحة):

﴿ أَهْدَيْنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾ .

إن عبارة ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ بدّل من عبارة ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ وهذا البدل هو من الإطناب البليغ، إذ لا يتوقّف عليه أصل المعنى، لكنّه ذو فائدة جليّة، وهي بيان أنّ الصراط المستقيم هو صراط كلّ الذين أنعم الله عليهم في كلّ الأمم سواءً أكانوا رؤسلاً أم غير رؤسلاً.

(٧) قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكُفْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ . . . ﴿ [الآية ٩٧].

إن عبارة ﴿البيت الحرام﴾ هي عطف بيان، وقد زيد في الكلام للمدح وبيان حرمة الكعبة، فهو إطناب مفيد.

ملاحظة:

ذكروا من الأمثلة ما جاء في قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الحج) /
٢٢ مصحف / ١٠٣ نزل):

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى
الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ (٤٦).

قالوا: إن وصف ﴿القلوب﴾ بعبارة: ﴿التي في الصدور﴾ هو من الإطناب.
أقول: إن القلب أُطلق في القرآن على القوة المدركة للمعارف، وأُطلق على
مواطن الإرادة والعواطف، أو مراكز التأثير بها.

فالقوة المدركة للمعارف هي في الدماغ، وهو في الرأس، أمّا مواطن ظهور
الرغبات، والعواطف والانفعالات، ومراكز حركة عواطف الإيمان والكفر، وحركة
الإرادات للأعمال، فهي في القلوب التي في الصدور، وهذه القلوب التي في
الصدور قد يحصل لديها عمى، فتخالف ما أدركته الأذهان من الحق، لانطماس
بصيرتها بالأهواء والشهوات، فيكون من آثار ذلك كفرٌ وحركة إراداتٍ نحو أفعال
الشرّ، وهذا هو العمى الحقيقي الذي يُصاب به أهل الكفر والضلال.

إن قواهم المدركة الذهنية قد لا تكون عمياء، لكن مراكز ظهور وحركة
إراداتهم وعواطفهم ورغباتهم هي العمياء، وهذه في الصدور لا في الرؤوس.

وبهذا التحليل يكون وصف (القلوب) بعبارة: (التي في الصدور) قيداً لازماً
في هذا المقام، ولا يتم المعنى المقصود إلاّ به، فهو ليس من الإطناب أصلاً، بل
الجملة تدخل تحت عنوان «المساواة».

أمّا نفي العمى عن الأبصار في عبارة: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ﴾ فالمراد منه
نفي العمى الدافع إلى الكفر والضلال، إذ الكلام في الآية جارٍ في هذا المساق،
وهذا حقٌ، والواقع المشاهد يُؤيِّده فكثيرٌ من الذين كُفَّتْ أَبْصَارُهُمْ عن النظر هم من

أكثر الناس إيماناً وهدايةً واستقامةً على صراط الهداية، ولم يؤثّر عليهم حرمانهم
من نعمة البصر تأثيراً سلبياً تجاه الحق والخير والفضيلة وفعل الصالحات.

فالعمى الحقيقي الصارف عن السعادة الخالدة هو عمى القلوب التي في
الصدور.

وأما عمى الأذهان والأفكار فهو مرض يرفع المسؤولية عن المكلف،
ويُدخله في صنف البله أو المجانين.



علمُ البيان

وفيه مقدمة عامة وثلاثة فصول:

الفصل الأول : الكناية والتعريض .

الفصل الثاني : التشبيه والتمثيل .

الفصل الثالث : المجاز .

وهو قسمان:

القسم الأول : الاستعارة .

القسم الثاني : المجاز المرسل .

الفصل الرابع : نظرات تحليلية إلى استخدام الأشباه

والنظائر والمجاز في التعبيرات الأدبية .

الفصل الخامس : منهج البيان القرآني في التنويع والتكامل

وفي حكاية الأقوال والأحداث والقصص .

وفيه مقدمة ومقولتان

المقولة الأولى: منهج البيان القرآني في التنويع والتكامل .

المقولة الثانية : منهج البيان القرآني في حكاية الأقوال

والأحداث والقصص .

(١)

الباعث والنشأة والتسمية

● مُمارِسُ صناعة الكلام قولاً وكتابةً يُلاحظُ أَنَّ اللُّغَاتِ جَمِيعَهَا بِحَسَبِ أوضاعها اللُّغَوِيَّةِ، الَّتِي جَرَى فِيهَا وَضْعُ كُلِّ كَلِمَةٍ أَوْ عِبَارَةٍ لَتَدَلَّ عَلَى مَعْنَى مِنَ الْمَعْنَايِ، مَهْمَا اتَّسَعَتْ فَإِنَّهَا لَا تَكْفِي لِلدَّلَالَةِ عَلَى الْمَعْنَايِ الَّتِي تُدْرِكُهَا الْأَذْهَانُ، وَالدَّلَالَةُ عَلَى الْمَشَاعِرِ الَّتِي تُحَسُّ بِهَا النُّفُوسُ.

ومع أَنَّ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ أَوْسَعُ اللُّغَاتِ الْعَالَمِيَّةِ وَأَثْرَاهَا فِي الدَّلَالَةِ عَلَى الْمَعْنَايِ الْفِكْرِيَّةِ وَالْمَشَاعِرِ النَّفْسِيَّةِ، فَإِنَّ هَذَا الْحُكْمَ يَشْمَلُهَا، إِذَا نَظَرْنَا إِلَى حُدُودِ الْأَوْضَاعِ اللُّغَوِيَّةِ لِلْكَلِمَاتِ وَاللِّعَابَاتِ.

● وَالذَّاكِرَةُ الْإِنْسَانِيَّةُ مَهْمَا عَظُمَتْ قُدْرَتُهَا عَلَى اسْتِيعَابِ الْمَفْرَدَاتِ اللُّغَوِيَّةِ مَقْرُونَةً بِدَلالاتها عَلَى الْمَعْنَايِ الَّتِي وُضِعَتْ لَهَا، وَمَهْمَا عَظُمَتْ قُدْرَتُهَا عَلَى اسْتِدْعَاءِ مَا تَحْتَاجُ مِنْ هَذِهِ الْمَفْرَدَاتِ عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا، لِلدَّلَالَةِ بِهَا عَلَى مَا تُرِيدُ التَّعْبِيرَ عَنْهُ مِنَ الْمَعْنَايِ، لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَسْتَوْعِبَ وَتَحْفَظَ كُلَّ مَفْرَدَاتِ اللُّغَةِ، وَلَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَسْتَذَكُرَ دَوَاماً كُلَّ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الْمَفْرَدَاتِ وَالتَّعْبِيرَاتِ اللُّغَوِيَّةِ، لِتَقْدِمَها إِلَى أَدَاةِ التَّعْبِيرِ بِاللِّسَانِ أَوْ بِالْقَلَمِ عِنْدَ الْحَاجَةِ.

● لَكِنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ أَتَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قُدْرَةً فَائِقَةً عَلَى التَّعْبِيرِ عَمَّا يَرِيدُ مِنْ مَعَانٍ ذَهْنِيَّةٍ، وَمَشَاعِرِ نَفْسِيَّةٍ عَنْ طُرُقٍ أُخْرَى غَيْرِ طَرِيقِ الْأَوْضَاعِ اللُّغَوِيَّةِ الَّتِي وُضِعَتْ بِهَا الْمَفْرَدَاتِ وَالْعِبَارَاتِ لَتَدَلَّ دَلَالَةً مُبَاشِرَةً عَلَيْهَا، فَهُوَ يَحْتَالُ لِلتَّعْبِيرِ عَمَّا يَرِيدُ التَّعْبِيرَ عَنْهُ مِنْ خِلَالِ مَا تُسَعِّفُهُ بِهِ ذَاكِرَتُهُ مِنْ مَفْرَدَاتٍ وَعِبَارَاتٍ بِوَاحِدٍ فَأَكْثَرَ مِنْ الطَّرِيقِ التَّالِيَةِ:

الطريق الأول: طريق التَّشْبِيهِ والتمثيل، واستخدام النظير ليدلَّ على نظيره.

الطريق الثاني: طريق اللّوازم الفكرية التي تُدرِكُها الأذهان لدى إدراكِ أشياء تستدعيها باللزوم الذهني، فيذكرُ الألفاظ الدالة على هذه الأشياء مشيراً بها إلى لوازمها الذهنية، كطول الثوب الذي يستدعي باللزوم الذهني طولَ لابسه، وكروية النجوم رؤيةً واضحةً التي تستدعي باللزوم الذهني كونَ هذه الرؤيةً حاصلةً في الليل، وهذا ما يُسمَّى بالكنائية.

الطريق الثالث: طريق ذكر أشياء يُنبه ذكراً على أشباهها، أو أضدادها، أو ما يخالفها، فيكون ذكرها مشيراً بتعريض إلى تلك الأشباه أو الأضداد أو المخالفات، وهذا ما يُسمَّى بالتعريض.

الطريق الرابع: طريق استخدام لفظٍ مكان لفظٍ آخر صالحٍ لأن يدلَّ على معناه لعلاقة بينهما، وهذا ما يُسمَّى بالمجاز.

وفتحت هذه الحيل التعبيرية آفاقاً واسعة جداً لانتقاء صورٍ جماليةٍ لا تُحصَى، يتحقَّق بها الغرضان المهمَّان من أغراض الكلام وهما:

الغرض الأوَّل: إفهامُ المتلقِّي ما يُريد المتكلِّم التعبير عنه.

الغرض الثاني: إمتاعه بصورٍ جماليةٍ يشتمل عليها الكلام، ولهذا الإمتاع تأثيرٌ في النفوس، وقد يكون وسيلة لقبول المضمون الفكري الذي دلَّ عليه الكلام، ولاعتقاده، وللعمل بمقتضاه.

● ومما سبق بيأنه في علم المعاني عرفنا أنه علم تناول بحث الكلمة المفردة، وبحث الجملة الخبرية، والجملة الإنشائية، وأقسام كلِّ منهما، وأغراض توجيه الكلام، وبحث القُصرِ وما يتعلَّقُ به، وبحث الفصل والوصل بين المفردات والجمل، وبحث «المساواة والإيجاز والإطناب» وكلُّ هذه البحوث تدور في فلك الأوضاع اللغوية بوجه عام.

لكنّ التعبير عن المراد لا يقتصر على ما يدلّ عليه الكلام بحسب أوضاعه اللّغوية ذات الدلالات المباشرة، بل يتجاوزه إلى تعبيرات أُخرى كما سبق إيضاحه آنفاً حَوَّلَ الطُّرُق الأربعة التي سبق ذكرُ أصولها العامة.

وقد اهتم علماء البلاغة بشرح وتفصيل هذه الطرق الأربعة، في دراسة واسعة وضعوها ضمن إطارِ عِلْمِ أَسْمَوْه «عِلْمِ الْبَيَان» إذ تبرزُ في هذه الطُّرُق مَهَارَاتُ المتكلِّمين في الإبانة عمّا يريدون التعبير عنه، مقرونةً هذه الإبانة بصُورٍ جماليةٍ ذات تأثير في النفوس، وإمتاعٍ للأذهان، ورياضةٍ بديعةٍ للأفكار.

البيان: هو في اللغة الوضوح والظهور، يقال لغة: بَانَ الشَّيْءُ بَيَانًا إِذَا اتَّضَحَ وظهر.

واضع هذا العلم:

ذكروا أنّ أوّل من دوّن مسائل علم البيان أبو عبيدة «مَعْمَرُ بنِ المِثْنَى»^(١) في كتابه: «مجاز القرآن». وتبعه «الجاحظ»^(٢). ثمّ «ابنُ المعتز»^(٣). ثمّ «قُدَامَةُ بنُ جعفر»^(٤). ثمّ «أبو هلال العسكري»^(٥). ثمّ جاء الشيخ «عبد القاهر الجرجاني»^(٦)،

(١) هو أبو عبيدة «مَعْمَرُ بنِ المِثْنَى» التيمي بالولاء من أهل البصرة، كان من أئمة العلم بالأدب واللغة، ولادته ووفاته: «١١٠ - ٢٠٩هـ».

(٢) هو «عمرو بن بحر» لقب بالجاحظ، «كناني بالولاء» كبير أئمة الأدب، معتزلي من أهل البصرة، ولادته ووفاته: «١٦٣ - ٢٥٥هـ».

(٣) هو عبد الله بن المعتز بالله بن المتوكل بن المعتصم بن هارون الرشيد، ولادته ووفاته: «٢٤٧ - ٢٩٦هـ».

(٤) بغداديّ، كاتب، يُضربُ به المثل في البلاغة، توفي سنة «٣٣٧هـ».

(٥) هو «الحسن بن عبد الله العسكري» عالم بالأدب، وله شعر، ألف مؤلفات كثيرة، توفي بعد «٣٩٥هـ».

(٦) هو «أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني» واضع أصول البلاغة، كان من أئمة اللغة، توفي سنة «٤٧١هـ».

فأحكم أساسه، وأكمل في بنيانه.

أما شرح الطرق الأربعة التي تستخدم للتعبير عن المعاني التي يريد المتكلم التعبير عنها وهي الخارجة عن دائرة الأوضاع اللغوية التي يُعبّر بها عن المعاني بصورة مباشرة، فيقتضي عَقْدَ فصولٍ لها، تجمع مباحثها وأمثلتها.

وقد رأيتُ أن أعقد لها فصولاً ثلاثة وفق العناوين التالية:

الفصل الأول: الكناية والتعريض.

الفصل الثاني: التشبيه والتمثيل.

الفصل الثالث: الحقيقة، والمجاز بقسميه: الاستعارة، والمجاز المرسل.

واخترتُ أن أرتبها وفق هذا الترتيب السابق لأنَّ الكناية والتعريض طريقتان ليس لهما بحوث واسعة وتفصيلات كثيرات، وأخترتُ فصلَ المجاز لأنَّ قسماً منه يعتمد على التشبيه، وهو قِسْمُ الاستعارة.

* * *

(٢)

تعريفات

تعريف علم البيان: هو علم يبحث في كميّات تأدية المعنى الواحد بطُرُقٍ تختلف في وضوح دلالاتها، وتختلف في صُورها وأشكالها وما تتصف به من إبداع وجمال، أو قُبْحٍ وابتذال.

ملاحظة:

اقتصر البيانيون في تعريفهم لهذا العلم على عنصر إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة.

وقد رأيتُ أنّ هذا التعريف ناقص، لأنَّ هذا العلم يهتمُّ أيضاً بما في الطُرُقِ

الَّتِي يَبْحَثُهَا مِنْ عُنَاوَرِ جَمَالِيَةِ وَإِبْدَاعِيَةِ، وَيَهْتَمُّ بِتَرْبِيَةِ الذُّوقِ الْفَنِّيِّ لِإِذْرَاكِ نَسَبِ الْجَمَالِ وَالْإِبْدَاعِ، وَالتَّمْيِيزِ بَيْنَ مَسْتَوِيَاتِ الصُّوَرِ وَدَرَجَاتِهَا جَمَالاً وَإِبْدَاعاً، وَإِذْرَاكِ الصُّوَرِ الْمَبْتَدَلَةِ وَالصُّوَرِ الْمَرْدُولَةِ الْمَحْرُومَةِ مِنَ الْإِبْدَاعِ أَوْ مِنَ الْجَمَالِ، فَأَضْفَتْ هَذِهِ الْعُنَاوَرِ إِلَى التَّعْرِيفِ.

تَعْرِيفُ الْكِنَايَةِ: هِيَ اللَّفْظُ الْمَسْتَعْمَلُ فِيْمَا وَضِعَ لَهُ فِي اصْطِلَاحِ التَّخَاطَبِ لِلدَّلَالَةِ بِهِ عَلَى مَعْنَى آخَرَ لِأَزْمٍ لَهُ، أَوْ مَصَاحِبٍ لَهُ، أَوْ يُشَارُ بِهِ عَادَةً إِلَيْهِ، لَمَّا بَيْنَهُمَا مِنَ الْمَلَابَسَةِ بِوَجْهِهِ مِنَ الْوُجُوهِ.

كَالْكِنَايَةِ عَنِ طُولِ الْقَامَةِ بِطُولِ نَجَادِ السِّيفِ «نَجَادِ السِّيفِ: أَي: حَمَائِلُهُ» وَكَالْكِنَايَةِ عَنِ قَضَاءِ الْحَاجَةِ الطَّبِيعِيَّةِ بِالْمَجِيءِ مِنَ الْغَائِطِ: «الْغَائِطُ: الْأَرْضُ الْمُنْخَفِضَةُ الَّتِي كَانَ الْعَرَبُ يَقْضُونَ حَاجَتَهُمُ الطَّبِيعِيَّةَ فِيهَا».

وَقَالَ الْبِيَانِيُونَ فِي تَعْرِيفِ الْكِنَايَةِ: لَفْظٌ أُرِيدُ بِهِ لِأَزْمٍ مَعْنَاهُ مَعَ جَوَازِ إِرَادَةِ مَعْنَاهُ.

تَعْرِيفُ التَّعْرِيفِ: هُوَ طَرِيقَةُ مِنَ الْكَلَامِ أَخْفَى مِنَ الْكِنَايَةِ، فَلَا يَشْتَرَطُ فِي التَّعْرِيفِ لَزُومَ ذَهْنِيٍّ وَلَا مَصَاحِبَةَ وَلَا مَلَابَسَةَ بَيْنَ مَعْنَى الْكَلَامِ وَمَا يُرَادُ الدَّلَالَةَ بِهِ عَلَيْهِ، إِنَّمَا قَدْ تَكْفِي فِيهِ قَرَائِنُ الْحَالِ، وَمَا يُفْهَمُ ذَهْنًا بِهَا مِنْ تَوْجِيهِ الْكَلَامِ.

كَأَنَّ يَقُولُ الرَّاغِبِ بِخُطْبَةِ امْرَأَةٍ مَعِينَةٍ، كُلُّ رَجُلٍ رَاغِبٍ فِي الزَّوْجِ يَحِبُّ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْمَرْأَةُ زَوْجَةً لَهُ، تَعْرِيفًا بِأَنَّهُ يَرِغِبُ فِي الزَّوْجِ مِنْهَا.

تَعْرِيفُ التَّشْبِيهِ وَالتَّمْثِيلِ: هُوَ الدَّلَالَةُ عَلَى مِشَارَكَةِ شَيْءٍ لِشَيْءٍ فِي مَعْنَى أَوْ أَكْثَرَ مِنَ الْمَعْنَايِ لِعَرَضٍ، وَيَخْتَصُّ لَفْظُ «التَّمْثِيلِ» بِالتَّشْبِيهِ الْمَرْكَبِ الَّذِي يَكُونُ وَجْهُ الشَّبهِ فِيهِ مَنْتَزِعًا مِنْ مَتَعَدِّدٍ.

● فَمَنْ التَّشْبِيهِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الْبَقَرَةِ/ ٢ مَصْحَفٍ/ ٨٧ نَزُولٍ)

خَطَابًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ:

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً... ﴾ [الآية ٧٤].

فشبهه قلوبهم بالحجارة، بجامع القساوة في كل منهما، لكن قساوة قلوبهم قساوة معنوية تجاه الحق والخير والفضيلة، أما الحجارة فقساوتها مادية.

● ومن التمثيل قول الله عز وجل في سورة (البقرة) أيضاً:

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ... ﴾ [الآية ٢٦١].

فشبهه الصورة المركبة من عنصر الإنفاق، وعنصر كونه في سبيل الله عملاً ونيةً، وعنصر ثمرته عند الله، بالحبة التي تُزرع فتنبت سبع سنابل، في كل سنبل مئة حبة.

إنَّ وجهَ الشَّبه من هذا التشبيه منتزَع من متعدّد، فهو من قسم «التمثيل».

تعريف الحقيقة: هي اللفظ المستعمل فيما وُضِع له في اصطلاح التخاطب.

مثل: لفظ «الأسد» حينما يستعمل للدلالة على الحيوان المفترس المعروف بأنه ملك الوحوش.

تعريف المجاز: هو اللفظ المستعمل في غير ما وُضِع له في اصطلاح التخاطب، على وجه يصح مع قرينة عدم إرادة ما وُضِع له.

فإذا كانت العلاقة المصححة لهذا الاستعمال المشابهة بين ما استُعمل اللفظ للدلالة عليه وبين ما وُضِع له في اصطلاح التخاطب، حُصَّ هذا المجاز بعنوان «الاستعارة» مثل لفظ «الأسد» إذا استعمل للدلالة على الرجل الشجاع، مع قرينة دالة على ذلك. فالعلاقة بين المعنى الموضوع له في اصطلاح التخاطب وبين المعنى المستعمل للدلالة عليه مجازاً هي التشابه، ووجه الشبه بينهما الشجاعة في كل منهما، فهو من الاستعارة.

تنقسم الدلالة اللفظية الوضعية إلى ثلاثة أقسام، وهي:

القسم الأول: دلالة المطابقة.

القسم الثاني: دلالة التضمن.

القسم الثالث: دلالة الالتزام.

وذلك لأنَّ الكلام:

● إمَّا أن يُسَاقَ لِيَدُلَّ على تمام معناه الحقيقي أو المجازي، فتكون دلالاته دلالة مطابقة تامة بين اللفظ والمعنى.

فإذا قلنا مثلاً: «نزل المطر» قاصدين فعلاً نزول المطر من السماء في الواقع، كانت هذه الدلالة دلالة مطابقة بين اللفظ والمعنى.

● وإمَّا أن يُسَاقَ لِيَدُلَّ على بعض معناه الحقيقي أو المجازي، لا لِيَدُلَّ على كلِّ معناه، لأنَّ العناصر الأخرى من معناه غير مطلوبة أو غير مُحتَاجٍ إليها، فتكون دلالاته دلالة تَضْمَنُ.

ومن أمثلة دلالة التضمن أن يسأل الطبيب المريض: هل تناولت اليوم في طعامك ملحاً كثيراً حتى ارتفع ضغطك؟.

فأجابه المريضُ بقوله: دعانا صديقنا فلان وأطعمنا طعاماً وضعت له الملح أولاً زوجته، ثم وضعت له الملح مرة ثانية أمه ظانَّةً أنه لم يُصَفِّ إليه الملحُ بعد، ثم وضعت له الملح ثالثاً أخته، فكان الطعام مالحاً جداً.

لقد ذكَّرَ كُلُّ هذا الكلام الذي لا مصلحة للطبيب فيه لِيَدُلَّ على أنه تناول ملحاً كثيراً.

هذا الكلام دلٌّ على بعض معناه لا على كلِّ معناه، لأنَّ غرض الطبيب معرفة تناول مريضه الملح الكثير فقط، ولا مصلحة له بكلِّ جوانب القصة التي ذكرها المريض، وهو في الغالب قد أهملها ولم يُعرِّها انتباهه.

● وإما أن يُساق ليدلّ على معنى آخر خارج عن معناه الحقيقي أو المجازي، فتكون دلالة دلالة التزام.

ولازم المعنى الذي يدلّ عليه اللفظ قد يكون لازماً له عقلاً، أو لازماً له عادةً، أو لازماً له عرفاً.

كأن تقول: هذه الشجرة لا نستطيع قطف أعلى ثمارها إلاّ بسلمّ طوله عشرة أمتار.

أي: هي شجرة عالية يبلغ ارتفاع أغصانها قرابة عشرة أمتار.

ومن دلالة الالتزام قول الخنساء في أخيها «صخر»:

طَوِيلُ النَّجَادِ رَفِيعُ الْعِمَادِ كَثِيرُ الرَّمَادِ إِذَا مَا شَتَّى

وسياتي إن شاء الله شرح هذا البيت في الموضع المناسب للاستشهاد به.



1. The first part of the document

2. The second part of the document

3. The third part of the document

4. The fourth part of the document

5. The fifth part of the document

الفصل الأول

الكناية والتعريض

وفيه مقولتان:

المقولة الأولى: الكناية.

المقولة الثانية: التعريض.

الكناية

التعريف اصطلاحاً:

عرفنا في المقدمة أن الكناية هي اللفظ المستعمل فيما وُضِعَ له في اصطلاح التخاطب للدلالة به على معنى آخر لازم له، أو مصاحب له، أو يُشارُ به عادةً إليه، لما بينهما من الملاسة بوجه من الوجوه.

وتُطْلَقُ أيضاً على استعمال اللفظ من قِبَلِ المتكلم فيما ذُكِرَ في التعريف.

المعنى اللغوي:

أما الكناية في اللغة: فهي أن تتكلم بشيء وتريد غيره. يُقالُ لُغَةً: كَتَيْ عَنْ الأمر بغيره يَكْنِي كِنَايَةً، أي: تكلم بغيره مما يُسْتَدَلُّ به عليه.

ويُقالُ: تَكْنَى إِذَا تَسَتَّرَ، مِنْ كَتَى عَنْهُ إِذَا وَرَى.

فأصل الكناية ترك التصريح بالشيء، وستره بحجاب ما، مع إرادة التعريف به بصورة فيها إخفاء ما بحجاب غير ساتر سترًا كاملاً.

وبهذا نلاحظ أن المعنى الاصطلاحي للكناية قريب من المعنى اللغوي لها.

فرق ما بين الكناية والمجاز:

إن إرادة المعنى الأصلي للفظ مع إرادة المعنى الآخر الذي يُكْنَى باللفظ عنه جائزة ولكنها غير لازمة دائماً، فقد يُرادان معاً، وقد تُهْمَلُ إرادة المعنى الأصلي ويراد المعنى الآخر فقط، فقد يُقالُ: فُلَانٌ كَثِيرُ الرَّمَادِ، أي: مضيافٌ جواد، مع أنه

لا يَطْبُخُ الطعامَ لُضْيُوفِهِ الكثيرين بنار الحطب الذي يُخَلِّفُ رماداً، إنّما يَطْبُخُ لهم بالأفران الكهربائية أو الغازية.

وبهذا يظهر الفرق بين الكناية والمجاز، فالمجاز لا يصحّ معه إرادة المعنى الحقيقي للفظ، بل يتعيّن فيه إرادة المعنى المجازي فقط، مثل: خطب الأسد المغوار خُطبةً عظيمة في الجيش ألهب بها المشاعر، واستثار الحماسة. فلفظ «الأسد» هنا مجاز عن الرجل الشجاع، ولا يصحّ أن يُرادَ به معناه الحقيقي، وهو الحيوان المفترس المعروف.

وتدخل الكناية في عموم التعبير عن المراد بأسلوب غير مباشر، فهي ممّا يتوارى، أو يختفي بساتر، ويَدُلُّ على المقصود بلازم له، أو مقارن له، أو بطرفٍ من أطرافه، أو نحو ذلك.

* * *

أقسام الكناية :

قسّم البيانيون الكناية إلى كناية عن صفة، وكناية عن موصوف، وكناية عن نسبة حكمية بين المُسند والمُسند إليه (= المحكوك به والمحكوم عليه) وهذه الأقسام أقسامٌ تحليلية غير ذات جدوى - على ما أرى - في تربية ذوق بياني أدبي، وقد رأيت الإعراض عن شرح هذه الأقسام وتحليل الأمثلة على وفقها، والاكتفاء بذكر مثال لكلّ منها، والاهتمام ببيان ما هو ذو فائدة بيانية أدبية.

● فعبرة: «طويل النجاد» كناية عن صفة هي طول قامته.

● وعبرة: «جاء قابض يده» كناية عن موصوف، أي: جاء البخيل.

● وعبرة: «إنّ الله يُمسك السّمّوات والأرض أنّ تزولاً» كناية عن نسبة

إمداده لها بالبقاء في الوجود، كالكهرباء لبقاء النور في المصباح الكهربائي إذا انقطع إمداده انعدم النور منه، ولله المثل الأعلى.

وإذ أعرضتُ عن شرح هذه الأقسام وتحليل كلِّ الأمثلة على وفقها فقد رأيت تقسيم الكناية إلى قريبة وبعيدة:

أما الكناية القريبة: فهي الكناية التي قلتُ لوازمها الذهنية، أو كانت فيها العلاقة أو الملازمة بين المكنى به والمكنى عنه أمراً لا تتدخل فيه وسائط ذوات عدد، وهذه الكناية تكون في العادة وفي معظم الأمثلة واضحة ظاهرة، يسهل على معظم الناس إدراك المقصود منها.

كأن نقول: فلانٌ ثوبه طويل، وقلنسوته كبيرة، وحذاؤه يتسع لقدمين، أي: هو طويل القامة، عظيم الرأس، كبير القدم.

وقد تكون مع قُربها خفية إذا كان اللزوم فيها أو كانت العلاقة أو الملازمة بين المكنى به والمكنى عنه أمراً خفياً.

كأن نقول: فلانٌ عينه فارغة، كناية عن كونه يحبُّ أن يشاهد كلَّ شيء، وينظر إلى كلِّ شيء، فهذه الكناية يتوصل إلى المراد بها عن طريق لازم واحد، فهي قريبة، إذ يلزم من فراغ العين التي هي أداة النظر رغبة صاحبها بملئها، وملء العين إنما يكون بالنظر إلى الأشياء التي تستحسنها.

لكن استعمال فراغ العين للكناية عن هذا المعنى غير متداول، فهي مع قربها في هذا المثال كناية خفية.

وأما الكناية البعيدة: فهي الكناية التي كثرت لوازمها الذهنية، أو كانت فيها العلاقة أو الملازمة بين المكنى به والمكنى عنه تتدخل فيه وسائط متعدّدة.

وهذه الكناية تكون في العادة وفي كثير من الأمثلة خفية تحتاج إلى تأمل وتفكير، لكثرة لوازمها الذهنية، أو لكثرة الوسائط الذهنية التي توصل المكنى به إلى المكنى عنه، مما يجعل الانتقال إلى ما هو المقصود بالدلالة ممّا يختصُّ الأذكياء بسرعة إدراكه، أما غيرهم فيجهدون أذهانهم للوصول إلى إدراكه وفهمه.

كأن نقول: في يومٍ كذا من أيام الحرب فرح أهل المزارع الواقعة في أسفل المدينة، بما تدفق عليهم من سماءٍ بشري، كنايةً عن أن أهل المدينة أصابهم رغبٌ شديدٌ في ذلك اليوم، ألجأهم إلى استطلاق بطونهم، وقذف ما فيها داخل المراحض التي صبّت على المجاري، وتدافعت حتى وصلت إلى المزارع.

هذه كناية ذات لوازم بعيدة، وهي خفيةٌ، لأنها غير متداولة، ويحتاج إدراك المقصود بها إلى تأمل.

وقد تكون مع كثرة لوازمها أو كثرة الوسائط بين المكثي به والمكثي عنه واضحة غير خفية، لتداولها، أو لوضوح الوسائط.

فإذا ذكر المادح العربيّ ممدوحه من عرب البادية سكان الخيام بين قبائل عرب البادية، بأنه كثير الرماد، أدرك الجميع بسرعة ودون خفاء أنه جواد كريم مضياف، مع أن اللوازم الذهنية بين المكثي به والمكثي عنه كثيرة.

إن كثرة الرماد تستلزم كثرة إيقاد النيران، وكثرة إيقاد النيران تدلّ على كثرة الطبخ، وكثرة الطبخ تدلّ على كثرة الأكلين، وكثرة الأكلين عند رجلٍ من سكان البادية تدلّ على احتفائه بالضيوف، وهذا يدلّ على جوده وكرمه.

والسبب في عدم خفاء هذه الكناية مع كثرة الوسائط بين المكثي به والمكثي عنه، تداولها في بيئة عرب البادية، فهم لا يرونها خفية.

● ويستعمل الناس فراغ العين كناية عن الحسد، ومعلوم أن الحسد لازم أبعد من حُب مشاهدة الأشياء، فمن رأى شيئاً حسناً ربّما استحسنه، ومن استحسّن ربّما تمنى لنفسه، ومن تمنى لغيره ربّما حسد.

فاللوازم الذهنية الموصلة إلى الحسد متعدّدة، لكنّ تداول استعمال فراغ العين كناية عن الحسد جعل المقصود بها أمراً غير خفي.

● ويستعمل الناس كِبَرَ البطن كنايةً عن الجشع والطمع وظلم الناس بأكل أموالهم بالباطل، والأصل في هذه الكناية أن الشَّرْهين في الطعام الذين يأكلون كثيراً تكبُرُ بطونهم، والشَّرْهُ في الطعام كثيراً ما يصاحبه شَرُّه مشابه في جمع المال وكنزه، وهذا يدفع في كثير من الأحوال إلى كسب المال بالظلم والعدوان.

فالتعبير بكبر البطن كنايةً عن الجشع والطمع وظلم الناس من الكنايات ذوات اللوازم الكثيرة، التي يكثر فيها خفاء المراد.

لكنّ تداول استعمال الناس لها جعلها غير خفيّة.

● ومن الكناياتِ التعبير بالصفة للدلالة بها على الموصوف، مثل: «والذي في السماء عرشه — والذي نفس محمد بيده — أقطبوا ما ثبتت عليه رؤوسهم، أي: أعناقهم — طاهر ما تحت الإزار، أي: طاهر الفرج — ذات سوار، أي: امرأة — هو على السرير الأبيض، أي: في المستشفى مريض» إلى غير ذلك.

● ومن الكناياتِ التعبير ببعض مصاحبات الشيء للدلالة بها عليه، مثل الكناية عن الجماع بالملامسة، أو المباشرة، أو الإفضاء، أو الدخول، أو الغشيان، أو نحو ذلك.

● ومن الكناياتِ التعبير ببعض الأسباب للدلالة بها على الأشياء التي تحصل بها، مثل الحديث عن مُسَجِّجٍ على سَرِيرٍ: «قُطِعَ رأسُه، أي: هو ميّت — شرب عشرين كأساً من الخمر، أي: هو مطروح سكران على شفا الموت».

● ومن الكناياتِ التعبير بالمكان للدلالة على ما يحلُّ فيه أو يحدث فيه أو يستعمل له، مثل كلمة «الغائط» للدلالة بها على قضاء حاجة الإنسان الطبيعية، وهي في الأصل اسم للمكان المنخفض، ومن استعمالها كناية بهذا المعنى قول الله تعالى: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾.

● ومن الكناياتِ التعبير بالنتائج للدلالة بها على أسبابها، مثل: «حُكِمَ عَلَيَّ

الرجل والمرأة بالرّجم، أي: هما زانيان محصنان - جَلَسَ الرَّجُلُ وراء مكتب الرئاسة، أي: انتخب رئيساً للبلاد - أُودِعَ السّجن، أي: تمكّن الجنود من القبض عليه وسوقه إلى السجن - تصارع مع القروش في البحر فلم نجد له أثراً، أي: أكلته القروش - حامل لواء الشعراء إلى النار، أي: مات كافراً - هذا من أهل الجنة، أي: هو مؤمن تقيّ وسيَمُوتُ مؤمناً تقيّاً.

● وقد تُصنَعُ كُنَايَاتٌ مَبْنِيَّةٌ عَلَى مَفَاهِيمٍ غَيْرِ صَحِيحَةٍ، فَتَبْقَى الدَّلَالَةُ بِهَا عَلَى المَكْتَبِيِّ عَنْهُ، دُونَ النِّظَرِ إِلَى صِحَّةِ مَعْنَى اللَّفْظِ المَكْتَبِيِّ بِهِ، مِثْلَ الكُنَايَةِ عَنِ الغَبِيِّ بِعِبَارَةِ «عَرِيضُ القَفَا - أَوْ عَرِيضُ الوَسَادِ» فَهَذِهِ الكُنَايَةُ مَبْنِيَّةٌ عَلَى تَصَوُّرٍ أَنَّ مَنْ كَانَ عَرِيضُ القَفَا كَانَ فِي العَادَةِ غَبِيّاً، وَمَنْ كَانَ عَرِيضُ القَفَا احتاج عند النوم إلى وسادة عريضة.

* * *

اقتراح للسّكاكي^(١) حول تقسيم الكناية:

رأى السّكاكي على سبيل الاقتراح جعل التعريض قسماً من الكناية، ورأى أن تقسم الكناية مع ذلك إلى تلويح، ورمز، وإيماء أو إشارة. فالتعريض: أن يساق الكلام ليُدلَّ على شيءٍ غير مذكور، ويُعرفُ من قرائن الحال.

والتلويح: كناية كثرت فيها الوسائط بين المَكْتَبِيِّ بِهِ والمَكْتَبِيِّ عَنْهُ.

قال: ومن المناسب أن تسمّى هذه الكناية تلويحاً لأنّ التلويح في اللغة: أن تشير إلى غيرك عن بُعد.

(١) هو يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السّكاكي، كنيته: أبو يعقوب. ولقبه: سراج الدين. حنفي المذهب، عالم بالعربية، من كتبه: مفتاح العلوم، خوارزمي، ولد وتوفي بخوارزم (٥٥٥ - ٦٢٦هـ).

ومن التلويح الكناية عن كون الرجل جواداً مضيافاً بأنه كثير الرماد.

والرَّمز: كناية قلَّت فيها أو انعدمت الوسائط بين المكنى به والمكنى عنه، إلا أن فيها نوع خفاء، مثل الكناية عن الغباء والبلادة بعبارة «عريض القفا» أو عبارة «عريض الوساد».

ويناسب أن تُسمَّى رمزاً لأن الرمز أن تشير إلى قريب منك على سبيل الخفية.

والإيماء أو الإشارة: كناية ليس بين المكنى به والمكنى عنه وسائط كثيرة ولا خفاء، كقول أبي تمام يصف إبلاً:

أَيِّنَ فَمَا يَزُونُ سِوَى كَرِيمٍ وَحَسْبُكَ أَنْ يَزُونَ أَبَا سَعِيدٍ

فكنى بزيارة الإبل التي وصفها أبا سعيد عن أنه كريم بعد أن أثبت أن هذه الإبل أبت أن تزور غير كريم، وقد أطلق الإبل وأراد صاحبها على سبيل المجاز المرسل.

هذه كناية واضحة ليس فيها خفاء فهي حريّة بأن تُسمَّى إيماءً أو إشارة.

أقول: من الصعب على دارس النصوص أن يخضعها لهذا التحليل الذي ذكره السكاكي، ويفرزها ويسمّيها بالأسماء التي اقترحها، على أنه لم يضع اسماً للخفية ذات الوسائط الكثيرة.

* * *

قيمة الكناية في الأدب:

الكناية أسلوبٌ ذكيٌّ من أساليب التعبير عن المراد بطريقة غير مباشرة، وهي من أبداع وأجمل فنون الأدب، ولا يستطيع تصيّد الجميل النادر منها، ووضعه في الموضوع الملائم لمقتضى الحال إلا أذكىاء البلغاء وفطناؤهم، وممارسو التعبير عمّا يريدون التعبير عنه بطرقٍ جميلة بديعة غير مباشرة،

إِنَّ الذِّكْرِيَّ اللَّمَّاحَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَحَدَّثَ عَنْ شَيْءٍ مَا، صِفَةً كَانَ، أَوْ مَوْصُوفًا، أَوْ نَسَبَةً حَكْمِيَّةً، جَالَ ذَهْنُهُ لِيَدُلَّ عَلَى مَا يُرِيدُ التَّعْبِيرَ عَنْهُ بِطَرِيقَةٍ غَيْرِ مُبَاشِرَةٍ، وَطَافَ فِي مَحِيطِ ذَلِكَ الشَّيْءِ لِيَتَّقِيَ مِمَّا يَلَاظُ مَا يُدَلُّ بِهِ عَلَيْهِ، فَيَتَّبِعُهُ حِينًا، وَيَقْرُبُ حِينًا، وَيَتَوَسَّطُ حِينًا آخَرَ، وَيَسْتَبْعِدُ مَا لَا يَرَاهُ حَسَنًا جَمِيلًا، وَمَا لَا يَرَى دَلَالَتَهُ مُنَاسِبَةً لِمَقْتَضَى الْحَالِ.

إِنَّهُ يُرِيدُ مِثْلًا أَنْ يَتَحَدَّثَ عَنِ السَّاحِرَاتِ، فَيَرَى مِنْ خَصَائِصِهِنَّ أَنَّهِنَّ يَعْقِدْنَ فِي الْخِيُوطِ، وَتَحْرُكُ أَلْسِنَتِهِنَّ بِهَمَهَمَاتٍ وَغَمَغَمَاتٍ، وَيَنْفُثْنَ فِي الْعُقَدِ، فَيَدُلُّ عَلَيْهِنَّ بِعِبَارَةٍ: «التَّفَائِثُ فِي الْعُقَدِ» عَلَى سَبِيلِ الْكِنَايَةِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى الْمَعْنَى الْمُرَادِ بِطَرِيقٍ غَيْرِ مُبَاشِرٍ.

وَيُرِيدُ مِثْلًا أَنْ يَتَحَدَّثَ عَنِ الْبَخِيلِ، وَلَكِنْ لَا يَسْتَحْسِنُ اسْتِعْمَالَ لَفْظَةِ «الْبَخِيلِ» فِي كَلَامِهِ، لِأَنَّ دَلَالَتَهَا دَلَالَةٌ مُبَاشِرَةٌ، وَلَيْسَ فِيهَا إِبْدَاعٌ فِكْرِيٌّ، فَيَلَاظُ أَنَّ مِنْ سِمَاتِ الْبَخِيلِ قَبْضُ يَدَيْهِ عَنِ الْعَطَاءِ، فَيَكْتُمِي عَنِ الْبُخْلِ بِعِبَارَةِ «قَبْضُ الْيَدَيْنِ، أَوْ قَبْضُ الْيَدِ» وَيَكْتُمِي عَنِ الْبَخِيلِ بِعِبَارَةِ «قَابِضُ الْيَدَيْنِ، أَوْ قَابِضُ الْيَدِ» وَعِبَارَةَ «قَبْضُ الْيَدِ» أَدَقُّ، لِأَنَّ الْعَطَاءَ يَكُونُ بِيَدِ وَاحِدَةٍ فِي النَّاسِ.

وَيُرِيدُ أَنْ يَتَحَدَّثَ عَنِ شَدِيدِ الْبُخْلِ الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَمْدَّ يَدَهُ بِعَطَاءٍ، فَيَكْتُمِي بِعِبَارَةٍ: «مَغْلُولُ الْيَدِ إِلَى الْعُنُقِ» لِأَنَّ مِنْ كَانَتْ يَدُهُ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِهِ كَانَ غَيْرَ قَادِرٍ عَلَى أَنْ يَسْطِهَا لَوْ أَرَادَ بَسْطَهَا وَيُعْطِي بِهَا أَوْ يَأْخُذُ، وَكَذَلِكَ الشَّحِيحُ الَّذِي يَكُونُ بُخْلُهُ شَدِيدًا، تَكُونُ حَالَةُ يَدِهِ الَّتِي يُعْطِي بِهَا عَادَةً مَعَ شَحِّ نَفْسِهِ، كَحَالَةِ مَنْ غُلَّتْ يَدُهُ إِلَى عُنُقِهِ.

هَذَا التَّعْبِيرُ اشْتَمَلَ عَلَى مَرْجِ الْكِنَايَةِ بِتَشْبِيهِ ضَمْنِيٍّ، وَتَقْدِيمِ ذَلِكَ بِعِبَارَةٍ جَمِيلَةٍ بَدِيعَةٍ تَدُلُّ عَلَى الْمَقْصُودِ بِطَرِيقَةٍ غَيْرِ مُبَاشِرَةٍ.

وَفِي مِقَابِلِ هَذِهِ الْكِنَايَةِ تَأْتِي كِنَايَةُ بَسْطِ الْيَدِ لِلدَّلَالَةِ بِهَا عَلَى الْجُودِ. وَتَأْتِي كِنَايَةُ الْإِفْرَاطِ فِي الْبَسْطِ لِلدَّلَالَةِ بِهَا عَلَى الْإِسْرَافِ.

هنا نُدرِك الإبداع والجمال في التعبير القرآني الذي قال الله عزَّ وجلَّ فيه
بسورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزل):

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٦٤﴾ ﴾ .

ونظيره ما جاء في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزل):

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ... ﴾ [الآية ٦٤].

ولعامة الناس في تعبيراتهم الدارجات كنايةات كثيرة، فبدلَ أن يقول
قائلهم: «أنا أكبر من فلان سنًا» يأتي في تعبيراتهم:

لما كنت مُدرِّساً كان في المرحلة الابتدائية — كنتُ أحمله وهو ابن سنتين —
وتقول المرأة: هو ابني من الرضاعة.

ويقول قائل: عن أسرة غنيّة: كانوا يستجدون صدقات الناس قبل الحرب،
أي: هم أثرياء حرب — كانوا فقراء قبل أن يُعيّن وليّهم مديراً للمالية — .

وقال مُعَمِّي مهنة أبيه: أنا ابنٌ من خضعت له الرؤوس، أي: ابن حلاق.

إلى غير ذلك من تعبيرات لا تُحصَى.

* * *

الأغراض البلاغية لاستخدام الكناية:

تُستخدَم الكناية لأغراض بلاغية كثيرة، منها الأغراض التالية:

الغرض الأول: إثارة الأسلوب غير المباشر في الكلام، إذا كان مقتضى
الحال يستدعي ذلك.

فمن المعلوم أن الأسلوب غير المباشر أكثر تأثيراً فيمن يُقصد توجيه الكلام
له غالباً.

الغرض الثاني: كون التعبير المكنى به ينبه على معنى لا يؤدبه اللفظ الصريح المكنى عنه.

فلو خاطب الله الناس فقال: هو الذي خلقكم من آدم، لم يكن في هذا التعبير التنبيه على عظيم قدرته، وبالعكس حكمته الجليلة في قضائه وقدره، وواسع علمه، مثل قوله عز وجل في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ...﴾ [الآية ١].

إنَّ عبارة: ﴿مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ جاءت كنايةً عن آدم، لكنَّ نَبَهَتْ على أمرٍ جليل لا تُنبِّه عليه عبارة: «مِنْ آدَمَ».

إنَّهَا تُنبِّه على أَنَّ السَّلَالَةَ الْإِنْسَانِيَّةَ كُلَّهَا مُشْتَقَّةٌ بِتَقْدِيرِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ الْقَدِيرِ الْحَكِيمِ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ.

الغرض الثالث: كَوْنُ المَكْنَى به أَجْمَلُ عِبْرَةٍ، وَأَعْدَبُ لَفْظًا مِنَ المَكْنَى عنه، فمراعاة الجمال الفني من الأغراض المهمة التي تُقصد في الكلام.

الغرض الرابع: كَوْنُ المَكْنَى عنه مِمَّا يَحْسُنُ سِتْرُهُ، وَيَقْبَحُ فِي الْأَدَبِ الرَّفِيعِ التَّصْرِيحُ بِهِ، إِذْ هُوَ مِنَ الْعَوْرَاتِ، أَوْ مِنَ الْمُسْتَقْدِرَاتِ، أَوْ مِنَ الْمُسْتَقْبَحَاتِ.

الغرض الخامس: إِرَادَةُ إِضْحَاحِ المَكْنَى عنه بِمَا فِي المَكْنَى به مِنْ تَوْضِيحٍ لَهُ.

الغرض السادس: إِرَادَةُ بَيَانِ بَعْضِ صِفَاتِ المَكْنَى عنه مَعَ الْإِخْتِصَارِ، بِالِاقْتِصَارِ عَلَى مَا يُذَكَّرُ مِنْ صِفَاتِهِ لِمَا يَتَعَلَّقُ بِذِكْرِهَا.

الغرض السابع: إِرَادَةُ مَدْحِ المَكْنَى عنه أَوْ ذَمِّهِ بِذِكْرِ مَا يُمْدَحُ بِهِ أَوْ يُذَمُّ بِهِ، مَعَ الْإِخْتِصَارِ عَلَى ذِكْرِ اللَّفْظِ المَكْنَى به.

الغرض الثامن: إِرَادَةُ صِيَانَةِ اسْمِ المَكْنَى عنه، وَإِبْعَادَهُ عَنِ التَّدَاوُلِ، بِذِكْرِ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ مِنْ أَلْقَابٍ أَوْ كُنَى أَوْ صِفَاتٍ.

الغرض التاسع: كون المكنى به أسهل فهماً من لفظ المكنى عنه.

الغرض العاشر: إرادة التعمية والإلغاز، ويكون هذا في الكنايات التي يَضُعبُ على غير الأذكياء اللماحين إدراك المقصود بها. إلى غير ذلك من أغراض بلاغية.

وأنبه هنا على أنه لا تُحمَدُ الكناية لمجرد كونها كناية، بل لا بدّ من ملاحظة غرض بلاغيّ فيها، أدناه كونها أجمل من التعبير الصريح في أذواق الأدباء والبلغاء.

ولا بدّ أيضاً من أن تكون خالية من العيوب الجمالية، والمستقبحات الفكرية.

* * *

أمثلة من الكنايات:

المثال الأول: في عرض قصّة إلقاء أم موسى ولدها الطفل «موسى» عليه السلام في اليمّ خوفاً عليه من جنود فرعون أن يذبحوه تنفيذاً للأمر الفرعوني بقتل كلّ مولودٍ ذكر من بني إسرائيل.

لقد أوحى الله إليها أن تضعه في صندوق وتلقيه في اليمّ إذا خافت عليه من جنود فرعون أن يذبحوه، ففعلت، وجرى به النهر، حتى إذا بلغ شاطئ القصر الفرعونيّ التقطه آل فرعون، وقالت امرأة فرعون له: قُرّةٌ عَيْنٍ لي ولك، لا تقتلوه، عسى أن ينفعنا أو نتخذة ولدًا، بعد هذا العرض قال الله عزّ وجلّ في سورة (القصص / ٢٨ مصحف / ٤٩ نزول):

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ قَنَرًا... ﴾ [الآية ١٠].

لقد كان فؤادها وهو عُمق قلبها الشامل لأفكارها وعواطفها مشحوناً بالقلق والاضطراب والخوف عليه، فلما ألقته في اليمّ وعلمت بما جرى له، أزيحت عن

فؤادها الغمّة، وأصْبَحَ فارغاً من القلق والاضطراب والخوف عليه فجاءت عبارة ﴿وَأَصْبَحَ فَوْدُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا﴾ كنايةً عن طمأنينتها على ولدها، وسكبتها، واستمتاعها بمشاعر السعادة، لأنّ من شأن فراغ الفؤاد من الأفكار والعواطف المثيرة للقلق والاضطراب والخوف أن تُصاحبه الطمأنينة والسكينة ومشاعر السعادة. هذه الكناية خفيّة نوعاً ما، مع عدم تعدّد الوسائط بين المكتئب به والمكتئب عنه، وجاء خفاؤها بسبب احتمال الفراغ لأمرين متناقضين:

الأوّل: الفراغ من الهمّ والخوف والقلق، وهو الفهم الذي ترجح لديّ.

الثاني: الفراغ من القوة المفكرة العاقلة بسبب الهمّ والخوف والقلق.

وبسبب تردّد الفراغ بين هذين الاحتمالين اختلف أهل التفسير في إدراك المكتئب عنه.

لكنّ المعنى الذي ذكرته هو المعنى الذي يتلاءم مع الحدث وسياق القصة.

أما قول الله عزّ وجلّ بعد هذه الكناية: ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فهو رجوع بالبيان إلى حال أمّ موسىٰ قبل أن تضعه في الصندوق وتلقّيه في اليمّ، إذ صعبَ عليها أن تباشر بنفسها إلقاء ولدها في اليمّ، ورأت أنّ احتمال هلاكه في اليمّ قريب من احتمال ذبحه بأيدي جنود فرعون، فجاء الرّبط على قلبها مانعاً لها من أن تظهر أمرها، وممدداً لها بالثبات لتنفيذ ما أوحى الله لها به.

وهذا الرجوع بالبيان هو من التفصيل بعد الاجمال، وهو من أساليب القرآن في عرض القصص، وله نظائر متعدّدة فيه.

المثال الثاني: يستشهد البيانون بقول الخنساء «تماضر بنت عمر» تصف

أخاها صخرأ:

طَوِيلُ النَّجَادِ رَفِيعُ الْعِمَادِ كَثِيرُ الرَّمَادِ إِذَا مَا شَتَا

كُنْتُ الخنساء عن طول قامة أخيها بطول نجاد سيفه. النُّجاد: حمائل
السيف، إذ من المعلوم باللزوم الذهني أنّ الرجل ذا القامة القصيرة لا يتَّخذ حمائل
طويلة لسيفه، إنّما يتَّخذ الحمائل الطويلة من كان من الناس طويل القامة.

وكُنْتُ عن كون أخيها ذا منزلةٍ رفيعةٍ في قومه بقولها:

«رفيع العماد» أي: بيته بين بيوت العرب ذو أعمدة عالية، إذ يلزم ذهنًا من
ارتفاع أعمدة سُكَّان الخيام في البادية أن تكون هذه الأعمدة لبيوت عظيمة كبيرة،
وجرت العادة أن تكون هذه الخيام العظيمة لذوي المكانة الرفيعة في أقوامهم، أمّا
سائر سُكَّان البادية فتشابهُ خيامهم في ارتفاعها وأحجامها وأطوال أعمدتها.

وكُنْتُ عن كون أخيها جواداً مِضيفاً بقولها: «كثير الرّماذ» وقد سبق شرح
دلالة هذه الكناية.

المثال الثالث: قول الشاعر يصف شجاعة قومه وبأسهم:

الضَّارِّ بَيْنَ بَكْلٍ أبيضَ مِخْدَمٍ والطَّاعِنِينَ مَجَامِعَ الأَضْغَانِ
بَكْلٌ أبيضَ مِخْدَمٍ: أي: بكل سيفٍ أبيض قاطع.

كُنِّيُ الشاعر في هذا البيت عن القلوب بعبارة: «مَجَامِعَ الأَضْغَانِ».
الأضغان: الأحقاد، لقد ترك الشاعر التصريح بلفظ القلوب، وكُنِّيُ عنها بذكر بعض
صفاتِها وهي كون الأحقاد تجتمع فيها، فإذا وُجدت الأضغان كانت مجتمعة في
داخلها وملازمة لها.

وأفادت هذه الكناية أنهم يطعنون قلوب أعدائهم الذين تجتمع في قلوبهم
أضغان عليهم.

ويدخلُ في الكناية إطلاق الصفة مراداً بها الموصوف، وعلى هذا فعبارة:
«أَبْيَضَ مِخْدَمٍ» عبارةٌ كُنِّيُ بها عن السيف.

ومثل هذا كثير جداً، وهو من الكنايات الشائعة الواضحة.

ومن هذا إطلاق «السابح» مراداً به الفرس، وإطلاق «العُضْب» بمعنى القاطع مراداً به السيف. وإطلاق النابح كناية عن الكلب، وهكذا إلى أمثلة كثيرة جداً.

المثال الرابع: ما جاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) بشأن بني إسرائيل الذين اتخذوا العجل الذهبيّ يعبدونه من دون الله، حينما ذهب موسى عليه السلام لمناجاة ربّه، لأنّهم استبطؤوا عودته إذ زاد الله له الميعاد من ثلاثين ليلة إلى أربعين ليلة، ثمّ لمّا رأوه من بعيد راجعاً إليهم ويده الألواح ندموا على ما فعلوا ندماً شديداً ورأوا أنّهم قد ضلّوا، قال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرَحْمَنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

جاء في هذه الآية الكناية عن ندمهم وخوفهم من سطوة موسى عليه السلام وعقابه، إذ خالفوا مواعدهم الذي واعدوه إيّاه أن لا يُغيّروا ولا يبدّلوا في الدين شيئاً بعبارة: ﴿سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾.

قال أهل التفسير: أي: ندموا وتحيّروا.

قال الزجاج: هو نظمٌ لم يُسمع قبل القرآن ولم تعرّفه العرب.

أقول: هو كناية عن ندمهم وشدة خوفهم، وأصل هذه الكناية أن المجرّم إذا أدركه الجنود أسرعوا فأسقطوا بعنّف في يديه القيدَ الحديديّ حتّى لا يفرّ، فإذا فعلوا به ذلك ارتخت أعصابه، ووهنت عزائمه، وأيقن أنّه مسوق للعقاب.

وهؤلاء الذين اتخذوا العجل الذهبيّ الذي عبده أحسّوا بمثل هذا لمّا رأوا من بعيد موسى عليه السلام راجعاً إليهم ومعه الألواح، كأنه قد حصل سقوطُ قيد حديديّ في أيديهم، وسيلاقون عقابهم.

هذه الكناية أُريدَ منها لآزِمُها وهو الشعور بالندم والخوف من العقاب مع العجز عن الفرار، وهي كناية ذاتُ إبداعٍ فتي رائع، وهي من الكنایات الخفية مع عدم وجود وسائل بين المكنى به والمكنى عنه.

المثال الخامس: قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الزخرف) / ٤٣ مصحف/
٦٣ نزول):

﴿ أَوْ مَنْ يُنشِئُ فِي الْحَلِيَةِ وَهُوَ فِي الْخُصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ (١٨)؟

في هذه الآية جاءت الكناية عن البنات في سياق الحديث عن المشركين الذين جعلوا الملائكة بنات الله بعبارة: «مَنْ يُنشِئُ فِي الْحَلِيَةِ وَهُوَ فِي الْخُصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ».

فمن المعروف في عادات الناس أَنَّهُمْ يُنشِئُونَ بناتهم بما يلائم طبيعتَهُنَّ، وذلك بإعدادهنَّ حتَّى يَكُنَّ زوجاتٍ مالكاتِ قلوبِ أزواجهنَّ، وهذا الإعداد يتطلَّبُ تربيتهنَّ على إتقان زيناتِهِنَّ وحليَّاتِهِنَّ، والتخضُّع في القول، ومُجَافاةِ الجدال، وعدم تعلُّم الكلام الذي يُقال في المخاصمات، لئلاَّ يُفسدَ عليها لسانها حياتها مع زوجها، أو مع أحد أولياء أمرها، فجمال المرأة بحشمتها وإتقان زيتها وضبط لسانها عن الخُصُومات.

هذه الكناية جاء فيها ذكر الصفات كنايةً عمَّن يتصف بها عادةً، وهُنَّ البنات في قصور الملوك وكبراء القوم، في مقابل جعل المشركين الملائكة بنات الله وهو مَلِكُ المَلُوكِ.

ونلاحظ في هذه الكناية إبداعاً تعبيرياً، وتوجيهاً ضمنياً لِمَا يَحْسُنُ أن تُنشَأَ عليه البنات حتَّى يَكُنَّ زوجاتٍ صالحاتٍ مُهذَّباتٍ.

المثال السادس: قول البحري في قصيدته التي يذكر فيها قتله للذئب:

عَوَى ثُمَّ أَقْعَى فَارْتَجَزْتُ فَهَجْتُهُ فَأَقْبَلَ مِثْلَ الْبَرْقِ يَتْبَعُهُ الرَّعْدُ

فَأَوْجَرْتُهُ خَرْقَاءَ تَحْسَبُ رِيْشَهَا عَلَى كَوْكَبٍ يَنْقُضُ وَاللَّيْلُ مُسْوَدُّ
فَمَا اَزْدَادَ إِلَّا جُرْأَةً وَصَرَامَةً وَأَيَقْنَتُ أَنَّ الْأَمْرَ مِنْهُ هُوَ الْجِدُّ
فَاتَّبَعْتُهَا أُخْرَى فَأَضَلَّتْ نَصْلَهَا بِحَيْثُ يَكُونُ اللَّبُّ وَالرُّعْبُ وَالْحَقْدُ

فَأَوْجَرْتُهُ خَرْقَاءَ: أي: وجَّهْتُ لَهُ طَعْنَةً بِنَبْلَةٍ خَرْقَاءَ لَمْ تُصِبْهُ، وصف النبلة بأنّها خرقاء لأنها لم تصب الهدف.

فَأَضَلَّتْ نَصْلَهَا: أي: ضَيَعْتُ نَصْلَ النبلة الأخرى، كَتَيْ بهذه العبارة عن إصابتها الذئب بها وضياعها داخل جسده.

بحيث يكون اللَّبُّ والرُّعْبُ والحَقْدُ: كَتَيْ بهذه العبارة عن قلب الذئب، إذ القلب هو مكان اللَّبِّ والرُّعْبِ والحَقْدِ في مفاهيم الناس.

وهذه الكناية من التعبير بالشيء عن المكان الذي يحلّ به أو يوجد عادة فيه.

المثال السابع: قول المتنبي يمدح «سيف الدولة» لَمَّا ظفر ببني كلاب إذ عَصَوْه:

فَمَسَّاهُمْ وَبُسْطَهُمْ حَرِيرٌ وَصَبَحَهُمْ وَبُسْطَهُمْ تُرَابٌ
وَمَنْ فِي كَفِّهِ مِنْهُمْ قَنَاةٌ كَمَنْ فِي كَفِّهِ مِنْهُمْ خِصَابٌ

كَتَيْ بعبارة: «وَبُسْطَهُمْ حَرِيرٌ» عن أَنَّهُمْ كَانُوا فِي عِزَّةٍ وَسِيَادَةٍ قَبْلَ مَحَارِبَتِهِ لَهُمْ، لَأَن مِّن كَانَ عَزِيزًا سَيِّدًا كَانَتْ بُسْطُهُ غَالِبًا مِّن حَرِيرٍ.

وَكَتَيْ بعبارة «وَبُسْطَهُمْ تُرَابٌ» عن حَالَةِ الدَّلِّ وَالمِهَانَةِ الَّتِي وَصَلُوا إِلَيْهَا بَعْدَ أَن حَارِبَهُمْ وَظَفَرَ بِهِمْ، لَأَنَّ الدَّلِيلَ المِهِينِ لَا يَجِدُ غَيْرَ التُّرَابِ يَفْتَرِشُهُ.

ووصف في البيت الثاني رجالَهُمْ بِأَنَّهُمْ صَارُوا مِّن ضَعْفِهِمْ عَن مَقَاوِمَةِ جَيْشِهِ كَالنِّسَاءِ اللَّوَاتِي يَخْضِبْنَ أَكْفَهُنَّ بِالْحِنَاءِ، فَكَتَيْ عَنِ النِّسَاءِ بِالْوَصْفِ الَّذِي يَتَصَفَّ بِهِ عَادَةُ نِسَاءِ عَصْرِهِ، وَكَتَيْ عَنِ الرِّجَالِ بِالْوَصْفِ الْخَاصِّ بِهِمْ، وَهُوَ الْقَبْضُ عَلَى قَنَوَاتِ الرَّمَاكِ.

المثال الثامن : قول البحري :

أَوْ مَا رَأَيْتَ الْمَجْدَ أَلْقَى رَحْلَهُ فِي آلِ طَلْحَةَ ثُمَّ لَمْ يَتَحَوَّلِ
كُنِيَ بهذا التعبير عن كون آل طلحة سادةً ثم أشرافاً أهل مجد، فمن ألقى
المجد رحله في داره ولم يتحوّل عنها، فلا بُدَّ أن يكون المجد منسوباً إليه لعظيم
شرفه ورفيع منزلته .

وفي هذه الكناية إمتاعٌ للأديب بصورة أدبيّة جميلة .



التعريض

التعريف اصطلاحاً:

عرفنا في المقدمة أن التعريض طريقة من الكلام أخفى من الكناية فلا يشترط في التعريض لزوم ذهني، ولا مصاحبة، ولا مُلابسة ما بين الكلام وما يُرادُ الدلالة به عليه، إنما قد تكفي فيه قرائن الحال، وما يفهم ذهنياً بها من توجيه الكلام، وبهذا يظهر الفرق بين الكناية والتعريض.

وقد يُراد بالتعريض المعنى الحقيقي للكلام، وقد لا يراد، فهو قسمان.

المعنى اللغوي:

التعريض في اللغة: أن تقول كلاماً لا تُصرِّح فيه بمرادك منه، لكنّه قد يشير إليه إشارة خفية، ويُمكنك أن تتهرَّب من التزام ما أشرت به إليه إذا صرَّحت مُخرِجاً.

يقال لغة: عرَّض لي فلانٌ تعريضاً: أي: قال فلم يُبيِّن بصراحة اللفظ.

أعراضُ الكلام ومَعَارِضُهُ ومَعَارِضُهُ: كلامٌ غير ظاهر الدلالة على المراد، وفي الحديث: «إنَّ في المعارِضِ لَمندوحةً عن الكذب» أي: فيها سعة يتخلَّص بها المتحدث من الكذب إذا لم يرد التصريح.

والتعريض في خطبة المرأة: أن يتكلَّم الخاطب بكلام يشبه خطبتها دون

تصريح.

وقد يكون التعريض بضرب الأمثال وذكر الألغاز في جملة المقال.

ويقول الناس بشأن التعريض: إِيَّاكَ أَعْنِي، واسْمَعِي يا جارة.

فما يدور حوله المعنى اللغويُّ قريب جداً من المعنى الذي ذكره البيانيون للتعريض، أو إنَّ المعنى الاصطلاحي مأخوذاً من المعنى اللغويُّ بزيادة شيء من التحليل.

الشرح التحليلي مع الأمثلة:

● قد يتوسَّل الإنسان بالتعريض العملي لدلالة حاله:

فقد يلبس الفقير المحتاج ثياباً مقطَّعة، أو مرقَّعة، دون أن يقول شيئاً، تعريضاً بأنَّه من مستحقِّي الزكاة، ويكتفي بدلالة الحال عن دلالة المقال، فيراه المتصدِّقون فيبدلون له من زكوات أموالهم.

وكان يأتي بعضُ أصحاب الرسول ﷺ في بعض الغزوات وقد ربط كلُّ منهم على بطنه حجراً، تعريضاً بأنَّ الجوع قد بلغ منه مبلغاً شديداً، فيكشف الرسولُ لهم عن بطنه، فيرون أنَّه قد ربط حجرتين.

وربَّما حمل العُضو في حزب من الأحزاب أو منظمة من المنظمات شعار الحزب أو المنظمة، تعريضاً بأنَّه عضوٌ في ذلك الحزب، أو تلك المنظمة.

وربَّما خرج البخيل من بيته وهو يخلل أسنانه، تعريضاً بأنَّه قد أكلَ هو وأهله اللُّحم الكثير، وقد يكون الواقع بخلاف ذلك.

ونظير هذا التعريض العملي يكون التعريضُ في الكلام.

● فقد يقول الشابُّ الراغب في الزواج لوالديه: ابنة عمِّي صارت ناضجةً ومناسبةً لمن يخطبُها، تعريضاً بأنَّه يريد أن يتزوَّج ولا مانع لديه من خطبتها له.

ويقول من يرى نظراتِ كَيْدٍ وعداءٍ ممَّن هو نَدٌّ له: جاءني اليوم بعض المنافسين وتطاوَلَ عليَّ ببعض القول، فسَلَطْتُ عليه بعض رجالي، فأَمْطَرُوهُ ضرباً

وَلَكُمْآ حَتَّى غَابَ عَن وَعِيهِ، وَلَمَّا عَلِمَ أَهْلُهُ بِأَمْرِهِ جَاءُوا فَحَمَلُوهُ مَرِيضاً يَثْنُ مِنْ
الْأَلَمِ، تَعْرِيزاً لِلْمَخَاطَبِ بِأَنَّهُ إِذَا أَرَادَ التَّطَاوُلَ عَلَيْهِ أَنْزَلَ بِهِ مِثْلَ ذَلِكَ، فَهُوَ ذُو
عِزَّةٍ وَأَنْصَارٍ وَقُدْرَةٍ.

ويقول طالب وظيفة ذات راتب في الدولة، بحضور من يملك توظيفه،
أو باستطاعته أن يتوسط له لدى من يملك توظيفه:

أنا لا عمل عندي أكسب منه مالاً، وعندني من المؤهلات كذا، وعندني أسرة
من خمسة أشخاص أنا مسؤول عن إعالتهم، تعريضاً بأن يوظفه أو يتوسط له.

فالتعريض فنٌّ من فنون القول غير المباشر يُعْتَمَدُ فِيهِ غَالِباً عَلَى قِرَائِنِ الْحَالِ
لَا عَلَى قِرَائِنِ الْمَقَالِ، وَالتعريضُ — كما سبق — أخفى من الكناية، لأنَّ الكناية
لا تقتصر قرائنها على قرائن الحال، بل لها من قرائن المقال ما يَدُلُّ عَلَى الْمُرَادِ
بِهَا.

* * *

الأغراض البلاغية لاستخدام التعريض:

قد يتحقق باستخدام التعريض أغراض بلاغية تشبه الأغراض البلاغية التي
تتحقق باستخدام الكناية، وهي التي سبق بيانها في بحث الكناية، دون حصر.

وفي التعريض مزيد إخفاء يجعله أكثر قبولاً حينما يكون التصريح مثيراً
لغضب، أو نقدي، أو اتهام، أو عذلي وتلويماً، أو يكشف أمراً يجب ستره عن
الرقباء، فيقوم التعريض مقام الإلغاز والرمز الخفي، وما يُسَمَّى فِي اصطلاح
الجيش «الشفرة».

أمثلة:

المثال الأول: قول الله عز وجل في سورة (الزمر / ٣٩ مصحف / ٥٩ نزول)

خطاباً لرسوله:

﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ﴿١٥﴾ .

من المعلوم في أصول الدين أن الرسول الذي يصطفيه الله لتبليغ رسالته للناس، لا بد أن يكون معصوماً عن أن يشرك بالله شيئاً، فقول الله للرسول محمد ﷺ ولكل رسول اصطفاه الله من قبله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ هو خطاب بصريح العبارة للرسول، وهو تعريض لكل من آمن به واتبعته أن يحذروا من الشرك لئلا تحبط أعمالهم ويكونوا من الخاسرين .

هذا التعريض أبلغ من مواجهة غير الرسول بصريح الخطاب، وذلك لأن الرسول إذا كان لا يملك لنفسه عند ربه الحماية من أن يحبط عمله ويكون من الخاسرين إذا أشرك، وهو ذو المكانة العالية عند ربه والمحفوظ بالاصطفاء، فيكف يكون حال سائر الناس الذين ليس لهم عند ربه مثل ذلك .

وهذا نظير من يهدد ولده بالعقاب الشديد إذا كسر له شيئاً من تحف قصره، أمام أولاد الآخرين، وكان قد حذر كل من يكسر له شيئاً منها بالعقاب الشديد، وهو قادر على تنفيذ عقوباته .

إنهم يدركون أن عقابهم سيكون أشد وأقسى إذا فعلوا ما نهى عنه، وحذر من الاقتراب منه .

المثال الثاني: ما جاء في القرآن من نحو قول الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ – وَلِيَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ – وَذَكَرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ – كَذَلِكَ نَفَعُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ – إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ – قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ .

في هذه النصوص تعريض بالكافرين الذين لا يتفكرون من آيات الله في كونه، وآياته في بياناته، بأنهم لا ألباب لهم، وبأنهم لا يتفكرون، وبأنهم لا يفقهون، دون أن تكون هذه المعاني منصوصاً عليها، لكنها تُفهمُ إلماحاً .

المثال الثالث: قول الله عز وجل في سورة (التوبة) ٩ مصحف/

١١٣ نزول):

﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ .

إن عبارة: ﴿قُلْ: نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ لم يُقصد منها إغلام المنافقين المخلفين عن رسول الله في غزوة تبوك، بأن نار جهنم أشد حراً من حرارة الفصل الصيفي الذي خرج فيه الرسول والمؤمنون إلى غزوة تبوك، فهذا أمر واضح، لكن المقصود التعريض بأن هؤلاء المنافقين هم من أهل جهنم التي تكويهم بحرّها يوم الدين .

المثال الرابع: دعاء موسى عليه السلام عند ماء مدين إذ خرج من مصر خائفاً يترقب، وهو ما جاء بيانه في سورة (القصص) ٢٨ مصحف / ٤٩ نزول):

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّكَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصَدِرَ الرِّعَاءَ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَىٰ اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّكِ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا... ﴾ [الآية ٢٥].

نلاحظ في دعاء موسى عليه السلام بقوله: «رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ» احتمال التعريض بحاجته إلى المأوى والرزق والزوجة، ورأى أن الله قد ساق له مقدمات ما هو بحاجة إليه، فقال: «رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ» بصيغة الفعل الماضي، ولم يقل: لما ستنزل، إذ شعر أن بشار ما هو مفتقر له قد ظهرت بفرحة المرأتين به لِمَا سَقَى لهما، وعلم أن أباهما شيخ كبير يحتاج إلى معين رجل .

لذلك جاء في النص بعد حكاية دعائه قول الله تعالى: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَىٰ اسْتِحْيَاءٍ﴾ فدلت الفاء العاطفة على الترتيب مع التعقيب، وفي هذا إشعار بأن الله استجاب له دعاءه الذي دعا به تعريضاً لا تصريحاً .

وتضمّنت القصّة بعد ذلك تحقيق ما هو مفتقر إليه، فأوى عند أبيهما الشيخ الكبير، وأصاب رزقاً، وزوجةً سالحة.

المثال الخامس: قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/

٨٧ نزول):

﴿ تِلْكَ أَرْسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ... ﴾ [الآية ٢٥٣].

ففي عبارة: ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾ تعريضٌ بارتفاعِ مُحَمَّدٍ خاتم الرُّسُلِ دَرَجَاتٍ على سائر الرُّسُلِ، ولم يأتِ هذا البيان بعبارة صريحة فيها نصٌّ على ارتفاع منزلته فوق سائر الأنبياء والمرسلين تعليماً للمسلمين أن يتأدّبوا مع جميع الرُّسُلِ ولا يتخذُ من أفضليةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ذريعةً للتنافُسِ والتفاخُرِ به على سائر الأمم، فمثل هذا قد يولّد شقاقاً، ويصدُّ أتباع الرُّسُلِ السابقين عن اتّباع مُحَمَّدٍ خاتم المرسلين، ولعامّة الناس في تعبيراتهم الدّارجات والمبتكرات تعبيراتٌ هي من أمثلة التعريض، وهي كثيرة.

● سمعت أحدهم يقول لآخر: «كلّ عضةً بغصةً يا سفرجل» تعريضاً بأنّه صَعْبٌ عَسِر. فردّ عليه بقوله: «كلّ عضةً بشوكة يا صبارة» الصبارة هي «التين الشوكي في مصر – والبرشومي في الحجاز» تعريضاً بصفاته الشائكة.

● وفي عهد أحد الانقلابيين الذين تسلّموا سدة الحكم في سورية، وكان من مدينة حماة، ترامى للناس أنّ نهاية عهده قاربت، وكان الموسم موسمَ قُرْبِ انتهاء الشمس الحموي، فصار باعةً هذه الثمرة ينادون عليها في الأسواق: «خلصت أيامك يا حموي – قربت أيامك يا حموي» تعريضاً بانتهاء سلطة الحاكم الانقلابي الذي هو من حماة.

● ويتشائم البيض والسُّود بمعاريض الأقوال، فيقول البيض تعريضاً بالسُّود

«بأذنجان كيس كبير برطل شعير» فيقول السّود تعريضاً بالبيض: «قرع كثير، كبير وصغير، خمس أكياس بكفّ شعير».

وتسَمَع من الظُّرفاء طرائف كثيرة تشتمل على أمثلة كثيرة من أمثلة التعريض، وتُسْتَخْدَمُ فيها الأمثال الدارجة بين الناس.



الفصل الثاني

التشبيه والتمثيل

وفيه مقدمة في التعريفات ومقولتان:

المقولة الأولى: التشبيه.

المقولة الثانية: التمثيل.

المقدّمة

تعريفات

المعنى اللغوي:

التشبيه والتمثيل في اللّغة مترادفان معناهما واحد، وهو بيان وجود صفة أو أكثر في المشبّه مُشابهةً لما يَظْهَرُ من صفاتٍ في المشبّه به .

والتشابه اشتراك شيئين فأكثر في صفةٍ أو صفاتٍ متماثلات، وقد يؤدي هذا الاشتراك إلى اللبس وعدم القدرة على التّعين، إذا كان المطلوب فرداً معيّناً أو صنفاً معيّناً فيه هذه الصفة أو الصفات .

المعنى الاصطلاحي:

المعنى الاصطلاحي عند البيانين للتشبيه والتمثيل مطابق للمعنى اللّغوي، وقالوا في تعريفه أقوالاً أحسنها:

«الدّالة على مشاركة شيءٍ لشيءٍ في معنىٍ من المعاني أو أكثر على سبيل التّطابق أو التقارب لغرضٍ ما» .

وخصّ البيانون لفظ «التمثيل» بالتشبيه المركّب الذي يكون وجه الشبه فيه منتزِعاً من متعدّد .



التشبيه

هو الدلالة على مشاركة شيءٍ لشيءٍ في معنىٍ من المعاني أو أكثر على سبيل التطابق أو التقارب لغرضٍ ما ولا يكون وجه الشبه فيه منتزِعاً من متعدد. وله أركان وتقسيمات متعددة على ما سيأتي بيانها إن شاء الله.

(١)

أركان التشبيه

من الواضح بدهاة أنّ لكلّ تشبيهٍ أركاناً أربعة تدلُّ عليها ألفاظٌ تُذكر في التشبيه، وقد يحذف بعضها لغرضٍ بياني:

الركن الأول: المشبّه.

الركن الثاني: المشبّهُ به.

الركن الثالث: أداة التشبيه، وتأتي أداة التشبيه حرفاً، أو اسماً، أو فعلاً.

● فالحرف له لفظتان:

(١) «الكاف» ويليه المشبّه به مثل قول الله عزّ وجلّ في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾ . . . ﴿ [الآية ٧٧].

(٢) «كأنّ» ويليه المشبّه به، وتفيد التشبيه إذا كان خبرها جامداً أو مؤوّلاً بجامد، مثل قول الله عزّ وجلّ في سورة (لقمان/ ٣١ مصحف/ ٥٧ نزول):

﴿ وَإِذَا نُنَادَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَمْ يُسْتَكْبِرْ كَانَ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَسَّرَهُ بَعْدَآبٍ

أَلَيْسَ ﴿٧﴾ .

قالوا: والتشبيه بكأن أبلغ من التشبيه بالكاف، لأنها مركبة من الكاف وأن.

● والاسم له ألفاظ، منها: «مثل - شبه - شبيه - نظير - مثيل» ونحوها.

● والفعل له ألفاظ، منها: «يُشَبِّهُ - يُمَاطِل - يُنَاطِر - » ونحوها من كل ما

يدلُّ على تشبيه بشيء.

الركن الرابع: وجهُ الشَّبَه، وهو ما لُوْحِظَ عند التشبيه اشتراك المشبَّه والمشبَّه به في الاتِّصاف به، من صفة أو أكثر، ولو لم يتساويا في المقدار، ولو كانت ملاحظة الاشتراك خيالية غير حقيقية، كتشبيه رأس إنسانٍ منفرِّجٍ مُرْعِبٍ برأس الغول، وتشبيه السَّاحرة بأنَّ وجهها كوجه شيطان.

أمثلة:

(١) قول المعري:

رَبِّ لَيْلٍ كَأَنَّهُ الصُّبْحُ فِي الْحُسْنِ — وَإِنْ كَانَ أَسْوَدَ الطَّيْلَسَانِ

الطيلسان: نوع من الأوشحة يُلبس على الكتف أو يحيط بالبدن، خالٍ من

التفصيل والخياطة.

● فالمشبه في هذا التشبيه الليل الذي عناه المعري.

● والمشبه به الصُّبْح.

● وأداة التشبيه: «كأن».

● ووجه الشبه: «الحُسن» المصرَّح به في عبارة «في الحُسن».

(١) قول المعري يخاطب ممدوحه:

أَنْتَ كَالشَّمْسِ فِي الضِّيَاءِ وَإِنْ جَا وَزَتْ كَيَوَانَ فِي عُلُوِّ الْمَكَانِ

كيوان: اسم لكوكب زُحَل أبعد الكواكب السّيارة بالنسبة إلى الأرض.

● فالمشبه في هذا التشبيه هو ما دلّ عليه لفظ «أنت».

● والمشبه به ما دل عليه لفظ «الشمس».

● وأداة التشبيه «الكاف» في عبارة «كالشمس».

● ووجه الشبه ما دلّ عليه عبارة: «في الضياء».

(٢) وقال آخر يخاطب ممدوحه:

أَنْتَ كَاللَيْثِ فِي الشَّجَاعَةِ وَالْإِقْدَامِ وَالسَّيْفِ فِي قِرَاعِ الْخُطُوبِ

قِرَاعِ الْخُطُوبِ: أي: مصارعة الشدائد والتغلّب عليها.

في هذا البيت تشبيهان لمشبه واحد.

● فالمشبه: «أنت».

● والمشبه به «الليث» في التشبيه الأول و«السيف» في التشبيه الثاني.

● وأداة التشبيه «الكاف».

● ووجه الشبه «الشجاعة والإقدام» في التشبيه الأول، و«قِرَاعِ الخطوب» في

التشبيه الثاني.

(٣) وقال آخر يصف الماء وهو يجري صافياً:

كَأَنَّما الْمَاءُ فِي صَفَاءٍ وَقَدْ جَرَى ذَائِبُ اللَّجِينِ

اللّجِين: الفضّة.

● فالمشبه: «الماء».

● والمشبه به: «ذَائِبُ اللّجِين».

● وأداة التشبيه: «كأنّما».

● ووجه الشبه: «الصفاء والجريان».

* * *

فن التشبيه ودواعيه

فن التشبيه:

التشبيه فنٌ جميل من فنون القول، وهو يدتُّ على دقَّة ملاحظة الأشباه والنظائر في الأشياء، سواءً أكانت ماديات تدرك بالحواس الظاهرة، أو معنويات، حتى الفكريات المحض، إذ يتنزع منها لمآحو عناصر التشابه بين الأشياء التي تدخل في حدود ما يُعلم ولو لم يكن له وجودٌ خارج الأذهان، فيجدون بينها أجزاء يشبه بعضها بعضاً، على سبيل التطابق أو التقارب، فيعبّرون عمّا لاحظوه من تشابهٍ بعبارات التشبيه، ويحسّن في ذوقهم الأدبي أن يشبّهوا ذا الصفة الخفية بذي الصفة الجلية، نظراً إلى وجود جنس هذه الصفة أو نوعها فيهما، وأن يشبّهوا ذا الصفة الجلية بذي الصفة الأجلى، وأن يشبّهوا ذا الصفة الأقل أو الأضعف أو الأدنى، بذي الصفة الأكثر، أو الأقوى، أو الأعلى، نظراً إلى التشابه في عين هذه الصفة أو نوعها أو جنسها فيهما.

ويُقصد التشبيه لتحقيق غرض بيانيّ فكريّ أو جماليّ، أو فكريّ وجماليّ معاً.

ونزوع الأنفس إلى التشبيه هو إحدى فطرها التي فطرها الله عليها، مع قصور التعبيرات ذوات الدلالات المباشرات عن أداء المعاني المرادة أحياناً كثيرة. لهذا نجد التشبيه موجوداً لدى كلّ الأمم والشعوب، وفي كلّ لغات الناس فصيحها وعامّيها.

قال «المبرّد»^(١) في كتابه: «الكامل»:

(١) المبرّد: هو «أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الشمالي الأزدي» اشتهر بلقب «المبرّد» ولادته ووفاته: (٢١٠ - ٢٨٦هـ) - إمام العربية ببغداد في زمنه - أحد أئمة الأدب والأخبار - وُلِدَ بالبصرة وتوفي ببغداد.

«التشبيه جارٍ كثيراً في كلام العرب، حتّى لو قال قائل: هو أكثر كلامهم لم يُعَدَّ».

وقال «أبو هلال العسكري»^(١) في «كتاب الصناعتين: النظم والشعر»: «التشبيه يزيد المعنى وضوحاً، ويُكسِبُه تأكيداً، ولهذا أطبق جميع المتكلمين من العرب والعجم عليه، ولم يستغن أحدٌ عنه».

وتشبيه شيء بشيء يعتمد على وجود عنصرٍ تشابه بينهما، أو وجود أكثر من عنصرٍ تشابه.

ففي هذا الوجود الكبير أشباهٌ ونظائر بحسب تقدير الله وإتقان صنعته. ألسنا نلاحظ في ظواهر الأشياء ممّا تُدرِّكه الحواسُّ أشباهاً ونظائر في أجناسها، وأنواعها، وأصنافها، وأفرادها؟

ألسنا نلاحظ مثل ذلك في طبائع الأشياء من كلّ ما خلق الله من نبات، وماء، ورياح، ونار، وقوى وطاقات، وغير ذلك ممّا بثّ الله في كونه من ذي حياة وغير ذي حياة؟

ألسنا نلاحظ مثل ذلك في طبائع النفوس وأحاسيسها، وسلوكِ ذوي الإرادات الحرّة؟

إنّ الملاحظة الذكيّة تستطيع أن تتصيّد للشيء الواحد عدّة أشباه ونظائر من هذا الوجود الكبير.

ولا يشترط في الشبيه أن يكون مطابقاً من كلّ الوجوه، بل يكفي فيه أن يُلْمَح

(١) أبو هلال العسكري: هو «الحسن بن عبد الله بن سهل» توفي بعد (٣٩٥ هجرية) لفظ «العسكري» نسبة إلى «عسكر مُكرّم» في كُور الأهواز - صاحب مؤلفات كثيرة، منها «كتاب الصناعتين».

منه جانبٌ فيه شَبَهٌ ما صالحٌ لأنَّ يُشَبَّهَ بهُ، بغية تحقيق غرضٍ من أغراض التشبيه البلاغية.

* * *

دواعي التشبيه :

يرجع اختيار أسلوب التشبيه في الكلام إلى الدواعي الرئيسة التالية :
الداعي الأوّل : استخدام الأسلوب غير المباشر للتعبير عن المراد، إذ هو أكثر تأثيراً في النفوس من الأسلوب المباشر غالباً، وذلك في المجالات الأدبية، وفي الموعظة، وفي كثير من صُور الإقناع، وفي نحو ذلك .

الداعي الثاني : ما في التشبيه من طُرُق متعدّدة، وصورٍ كثيرة، تُعطي المعبرّ البليغ مجالاً واسعاً لانتقاء ما يراه أكثر تأثيراً فيمن يوجّه له الكلام، أو أكثر إبداعاً، وهذا أمرٌ يشعر فيه المتكلّم بلذّة الإبداع والابتكار وإيجاد ما لم يُسبَق إليه، وهي نزعة موجودة في طبائع الناس الفطرية، تنمو عند الأذكياء والعباقرة، وتضمّر عند غيرهم .

الداعي الثالث : ما في كثير من الصُور التشبيهية من جمالٍ يُرضي أذواق المتلقّين ويُمْتَعهم، إذ يُقدّم لهم لوحاتٍ جماليّة مختلفة :

● فمنها ما تنتزعه الذاكرة اللَّمّاحة من الطبيعة الجميلة في المدركات الحسيّة كما هو، فيقيس الفكر عليه، ويشبهه به .

● ومنها ما يجمع الفكر عناصره من الطبيعة، ويؤلّف الخيال بين هذه العناصر تأليفاً مبتكراً في صورة، ثم يقيس الفكر عليها ويشبه بها .

● ومنها أشياء معنوية فكرية يصوّر لها الخيال صوراً ثمّ يقيس الفكر عليها ويشبه بها . وربما يشبه الفكر بها دون أن يتدخّل الخيال في تصوير صور لها .

* * *

أغراض التشبيه

الأديبُ البليغُ شاعراً كان أو ناثراً، كاتباً أو متحدثاً، قد يختار في كلامه طريقة التشبيه ضمن ما يختار من طُرُق الكلام وأساليبه ليحقق به غرضاً أو أكثر من الأغراض التالية، سواء أكان ما اختاره تشبيهاً مفرداً أو مُركباً، ويدخل فيه تشبيه التمثيل.

الغرض الأول: كون الصورة التي دلَّ عليها التشبيه أكثر بياناً وأوضح دلالة وأدقَّ أداءً من الكلمات التي تدلُّ بوضعها اللغوي على المعنى مباشرة، دون استخدام التشبيه.

الغرض الثاني: تقريب صورة المشبَّه إلى ذهن المتلقِّي عن طريق التشبيه، إذا كان وجهُ الشبَّه في المشبَّه به أكثر وضوحاً وأظهر، أو كان مقداره أعظم، كتشبيه القلوب القاسية بالحجارة.

الغرض الثالث: الإمتاع أو الاستمتاع بصُورٍ جماليَّةٍ يشتمل عليها التشبيه، ففي كثيرٍ من التشبيهات الدقيقة المحكمة صُورٍ جمالية لا تُوجدُ في غيرها من طُرُق الكلام، فقولك: «ليلةٌ تمشي كالسلفاة» أكثر إمتاعاً من قولك: «ليلة بطيئة المسير».

الغرض الرابع: الإقناع بفكرة من الأفكار، وهذا الإقناع قد يصل إلى مستوى إقامة الحجَّة البرهانية، وقد يقتصر على مستوى إقامة الحجَّة الخطابية، وقد يقتصر على لفت النظر إلى الحقيقة عن طريق صورةٍ مشابهة، ومنه تشبيه من يدعو غير الله بباسط كفيه إلى الماء ليلبغ فاه.

الغرض الخامس: الترغيب بالتزَّين والتحسين، أو التنفير بكشف جوانب القبح.

فالتريغيب يكون بتزيين المشبّه وإبراز جوانب حسنه، عن طريق تشبيهه بما هو محبوب للنفوس مرغوبٌ لديها.

والتنفير يكون بإبراز جوانب قُبْحِه، عن طريق تشبيهه بما هو مكروه للنفوس، أو تنفر النفوس منه.

وقد يكون كلٌّ من التريغيب والتنفير عملاً إيهامياً مُعْتَمِداً على صناعة كلامية مُبَالِغٍ فيها.

الغرض السادس: إثارة مَحْوَرِ الطَّمَعِ والرَّغْبِ في النفس، أو مَحْوَرِ الخوفِ والحذر، إذا كان في المشبّه مطامع تطمع فيها النفوس، أو مخاوف تحذرها.

كتصوير المنفق في سبيل الله بزراع الحبّ الذي تُنْبِتُ كُلُّ حَبَّةٍ مِنْهُ سِنَابِلَ فِي كُلِّ سَنَبَلَةٍ مِثْلَهُ حَبَّةٌ.

وكتصوير أعمال الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، برماد اشتدت به الريح، فَسَفَتْهُ وَنَسَفَتْهُ، فجعلته هباءً مُنْبَتًّا، فهم لا يقدرّون على إمساك شيءٍ ممّا كَسَبُوا.

فَلَدَى إِثَارَةِ مَحْوَرِ الطَّمَعِ والرَّغْبِ فِي النَفْسِ يَتَّجِهُ الْإِنْسَانُ بِمَحْرَضٍ ذَاتِي إِلَى مَا يُرَادُ تَوْجِيهِهِ لَهُ.

وَلَدَى إِثَارَةِ مَحْوَرِ الْخَوْفِ وَالْحَذَرِ فِي النَفْسِ يَبْتَعِدُ الْإِنْسَانُ بِمَحْرَضٍ ذَاتِي عَمَّا يُرَادُ إِبْعَادُهُ عَنْهُ.

الغرض السابع: المدحُ أو الذمُّ، أو التعظيم أو التحقير.

كأن تمدح الشجاع بتشبيهه بالأسد، وتذمّ الجبان بتشبيهه بالأرنب، وتذمّ الدّيوث بتشبيهه بالخنزير.

وكان تُعْظَمَ جُودَ الجواد بتشبيهه بالبحر، وتحقّر خطبة خطيب بتشبيهها بنقيق الضفادع.

الغرض الثامن: شَحْذُ ذهنِ المتلقِّي وتحريك طاقاته الفكرية، أو استرضاء ذكائه، لتوجيه عنايته، حتَّى يتأمل ويتفكر ويصل إلى إدراك المراد عن طريق التفكير.

كتشبيه الصراع بين الحقِّ والباطل بصورة الغيث الغزير، الذي يجري سيلاً يملأ الوادي، والزبد الذي يطفو على سطحه، وما ينتهي إليه كلُّ منهما، أما الزبد فيذهب جُفاءً، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض مُفيداً نافعاً.

ومثل هذه التشبيهات يخاطب بها الأذكياء، وأهل التأمل والنظر والبحث العلمي، والمتفكرون.

الغرض التاسع: تقديم أفكار كثيرة جداً ودقيقة، وهي ممَّا يحتاج بيانه عن غير طريق التشبيه كلاماً كثيراً قد يصل إلى عشرات الصفحات وأكثر من ذلك، فيكثُر عليها التشبيه بأخصر عبارة، فالمشبه به قد يكون بمثابة نموذج مشهود من نماذج الوسائل التعليمية، فيكفي في العبارة أن يقال: مثل هذا.

الغرض العاشر: إثارة تغطية المقصود من العبارة بالتشبيه، تأدباً في اللفظ واستحياءً.

كتشبيه عملية التزاوج بوضع الميل في المكحلة.

الغرض الحادي عشر: بيان صفة للمشبه عن طريق التشبيه.

● فمنه بيان إمكان وجود الصفة في المشبه، إذ هي في المشبه به ظاهرة لا نزاع في وجودها فيه، ويرى المتلقِّي عدم إمكان وجودها في المشبه.

● ومنه بيان حقيقة الصفة، إذا كانت أمراً غير معروف في المشبه، لخفائها، فيأتي التشبيه فيكشف حقيقة هذه الصفة المجهولة.

● ومنه بيان مقدار الصفة قوةً وضعفاً، إذا كانت حقيقتها معروفة، لكن مقدارها مجهول.

إلى غير ذلك من أغراض.

* * *

(٤)

صفات وخصائص التشبيهات المثلى

يَحْسُنُ قبل الدخول في شرح أقسام التشبيه والتمثيل، أن يكون الدارس لهذا الفن من فنون الكلام عارفاً بالصفات الأساسية للتشبيهات المثلى، حتّى لا يظنّ أنّ كلّ تشبيه أو تمثيل هو من صور الأدب الرفيع، فربّ تشبيه أو تمثيل يُنزل من قيمة الكلام أدبيّاً وبلاغياً ولا يرفعه، وربّما يهوي به إلى الحضيض.

ومن الخير له أن يدرّس التشبيهات والأمثال القرآنية^(١)، وأن يدرّس تشبيهات وأمثال الأدباء البلغاء، ليكتسب الذوق الرفيع، الذي يميّز به بين الغث والسمين من التشبيهات والأمثال، وليكتسب المهارة على تدبّر النصوص وتحليل ما فيها من ذلك، وعسى أن يكتسب مهارة الإبداع في هذا المجال.

فمن الصفات الأساسية للتشبيهات المثلى ما يلي:

الصفة الأولى: دقّة التصوير، مع إبراز العناصر المهمّة التي هي مقصود التشبيه.

الصفة الثانية: الابتكار، والابتعاد عن الاجترار والتكرار للتشبيهات المستعملة كثيراً في أقوال الشعراء والأدباء.

الصفة الثالثة: التنوع في أساليب التشبيهات والأمثال ضمن الكلام المتتابع، والابتعاد عن التزام الوتيرة الواحدة، والمتابعة على نمط واحد.

(١) اقرأ كتاب «أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع» للمؤلف.

الصفة الرابعة: صدق المشابهة بين المشبّه، والمشبّه به، ويكفي لتحقيق صدق المشابهة ما يسمّى «الصدّق الفني» أي: الصدق في إحساس صاحب الكلام ومشاعره.

الصفة الخامسة: ممّا يَرْتَقِي بالتمثيل إلى مستوى الذروة، التصوير المتحرّك الحيّ الناطق، ذو الأبعاد المكانية والزمانية، والذي تبرز فيه المشاعر النفسية والوجدانية، والحركات الفكرية للعناصر الحية في الصورة.

الصفة السادسة: الابتعاد عن الإسفاف والابتذال والتشبيه بما يَحْسُن في غير الكلام سَتره، من العورات والمستقذرات.

الصفة السابعة: عدم التصريح بما يمكن أن يُدْرَكَ ذهنًا من القرائن.

الصفة الثامنة: البناءُ على المشبّه به كأنّه عَيْنُ المشبّه، إذ يُنزلُ المشبّه به منزلة المشبّه، بعد أن سبق لإحضار المقصود من المشبّه عن طريقه. وهذه الصفة هي من صفات الأمثال القرآنية وخصائصها.

* * *

(٥)

تقسيمات متعدّات لأنواع وصور التشبيهات

التقسيم الأول:

تقسيم التشبيه باعتبار ذكر

أداة التشبيه ووجه الشبّه أو عدم ذكرهما

يتعرّض التشبيه لأحوال مختلفة تتعلق بذكر أداة التشبيه في اللفظ وعدم ذكرها، وذكر وجه الشبه في اللفظ وعدم ذكره.

ويتج عن هذه الأحوال خمسة مصطلحات عند البيانين، تتكوّن منها ثلاث صور.

المصطلح الأول: «التشبيه المرسل» وهو التشبيه الذي ذكرت فيه أداة من أدوات التشبيه.

المصطلح الثاني: «التشبيه المؤكّد» وهو التشبيه الذي لم تُذكر فيه أداة من أدوات التشبيه.

المصطلح الثالث: «التشبيه المفصّل» وهو التشبيه الذي ذكّر فيه وجه الشبه.

المصطلح الرابع: «التشبيه المجمل» وهو التشبيه الذي لم يُذكر فيه وجه الشبه.

المصطلح الخامس: «التشبيه البليغ» وهو التشبيه الذي لم تُذكر فيه أداة التشبيه، ولم يُذكر فيه أيضاً وجه الشبه.

ويتألف في التطبيق العملي من هذه المصطلحات الخمسة ثلاث صور، بمقتضى طبيعة التداخل:

الصورة الأولى: وهي الصورة الدُّنيا في درجة الأبلغيّة على ما ذكرُوا، وهي التي يكون التشبيه كلّها فيها «مُرْسَلاً مُفَصَّلاً».

أي: هو التشبيه الذي ذكرت فيه أداة التشبيه ووجه الشبه معاً، مثل قولنا: «خالدٌ كالأسد في الشجاعة والبأس».

الصورة الثانية: وهي الصورة الوسطى في درجة الأبلغية على ما ذكرُوا، وتأتي على وجهين:

(١) أن يكون التشبيه كلّها «مُرْسَلاً مُجْمَلاً» أي: ذكرت فيه أداة التشبيه، لكن لم يذكر فيه وجه الشبه، مثل قولنا: «خالد كالأسد».

(٢) أن يكون التشبيه كُله «مؤكدًا مفصلاً» أي: لم تُذكرْ فيه أداة التشبيه، لكن دُكرَ فيه وجه الشبه، مثل قولنا: «خالد أسدٌ في الشجاعة والبأس».

الصورة الثالثة: وهي الصورة العليا في درجة الأبلغية على ما ذكروا، وهي التي يكون التشبيه كُله فيها «مؤكدًا مجملًا» أي: لم تُذكرْ فيه أداة التشبيه، ولم يُذكر فيه وجهُ الشبه. مثل قولنا: «خالد أسد».

وتُسمَى هذه الصورة: «التَّشْبِيهِ الْبَلِيغ».

أمثلة:

● من أمثلة الصورة الأولى التي يكون التشبيه فيها «مُرسلاً مفصلاً» قول الشاعر:

العُمُرُ مِثْلُ الضَّيْفِ أَوْ كَالطَّيْفِ لَيْسَ لَهُ إِقَامَةٌ
العُمُرُ: مُشَبَّه.

مثل: أداة التشبيه.

الضيف - الطيف: مشبَّه به.

ليس له إقامة: وجه الشبه.

هذا تشبيه «مرسلٌ مفصل».

● ومن أمثلة الصورة الثانية التي يكون التشبيه فيها «مؤكدًا مفصلاً أو «مرسلًا مجملًا» قول ابن المعتز:

وَكَأَنَّ الشَّمْسَ الْمُنِيرَةَ دِينًا رُجَلَتْهُ حَدَائِدُ الضَّرَابِ
جَلَّتْهُ: أي: صقلته.

الضراب: أي: الذي يَطْبَعُ الثُّقُود.

كان: أداة التشبيه.

الشمس المنيرة: المشبه.

دينارٌ جلته حدائد الضراب: مشبه به.

هذا تشبيه «مرسل مجمل» ذكرت فيه أداة التشبيه ولم يذكر فيه وجه الشبه.

وقول البحري يمدح أمير المؤمنين المتوكل على الله.

يَا ابْنَ عَمِّ النَّبِيِّ حَقًّا وَيَا أَرْكَى قُرَيْشٍ نَفْسًا وَدِينًا وَعِرْضًا
بِنْتٍ بِالْفَضْلِ وَالْعُلُوِّ فَأَصْبَحَ سَمَاءً وَأَصْبَحَ النَّاسُ أَرْضًا

الممدوح: مُشَبَّه.

سماء: مشبه به، وأداة التشبيه غير مذكورة.

بالفضل والعلو: وَجْهُ الشَّبه.

هذا التشبيه «مؤكد مفصل» ذكر فيه وجه الشبه، ولم تُذكر فيه أداة التشبيه.

● ومن أمثلة الصورة الثالثة «التشبيه البليغ» الذي يكون التشبيه فيه «مؤكدًا مجملًا» قول الشاعر أبي القاسم الزاهي يصف حسناوات:

سَفَرْنَ بُدُورًا . وَانْتَقَبْنَ أَهْلَةً . وَمِسْنَنَ عُصُونًا . وَالتَّقَتْنَ جَاذِرًا

في هذا البيت أربعة تشبيهات هي من التشبيه البليغ، إذ لم يُذكر فيها أداة التشبيه ولا وَجْهُ الشَّبه.

مِسْنَنَ: أي: تمايلنَ تبخترًا واختيالًا.

جَاذِرًا: جمع «جُوذُر» وهو ولد البقرة الوحشية، والعرب تعجبهم عيون الجاذر، فَيُسَبَّهونَ بها.

وقول الآخر:

فَاقْضُوا مَارِبَكُمْ عِجَالًا إِنَّمَا أَعْمَارُكُمْ سَفَرٌ مِنَ الْأَسْفَارِ

شبه الأعمار بالسفر، على طريقة التشبيه البليغ الذي لم تذكر فيه أداة التشبيه، ولا وجه الشبه.

وقول المرقش الأكبر (شاعر جاهلي):

النَّشْرُ مِنْكَ . وَالْوُجُوهُ دَنَا نِيرًا وَأَطْرَافُ الْأَكْفِ عَنَّمْ
في هذا البيت ثلاثة تشبيهات هي من التشبيه البليغ، إذ لم يذكر فيها أداة التشبيه ولا وجه الشبه.

النشر: الرائحة الطيبة.

العنم: نبات أملس له أزهار قرمزية، يُتَّخَذُ مِنْهَا خِصَابٌ، ويبدو أن الشاعر شبه أطراف أكف صواجه بأزهار هذا النبات على طريقة التشبيه البليغ، لا أنه اعتبر أنها مخضبة بصنغ هذه الأزهار، وتقدير كلامه: وأطراف الأكف أزهار عنم.

ويرى البيانون أن التشبيه البليغ يعتمد على المبالغة والإغراق في ادعاء أن المشبه هو المشبه به نفسه، لذلك لا تُذكر فيه أداة التشبيه، ولا وجه الشبه.

ويرون أن التشبيه البليغ ذو مجالٍ واسعٍ لتسابق المُجِدين من الأدباء والشعراء، وانتقاء روائع بديعة منه.



تقسيم التشبيه من جهة حسنه أو قبحه وقيمته

ينقسم التشبيه بالنظر إلى الغرض المُسَوِّق له إلى قِسْمَيْنِ أَوْلَيْنِ:

القسم الأول: الحَسَنُ المقبول.

القسم الثاني: القبيح المردود.

فالحَسَنُ المقبول:

هو ما كان وافياً بالغرض المُسَوِّق له من النَّاحِيَّتَيْنِ الفكرية والجمالية، وأمثلة

هذا القسم كثيرة، لا داعي للاشتغال بها هنا.

والحَسَنُ المقبول ينقسم إلى قِسْمَيْنِ:

● قريب مبتذل.

● وبعيد غريب.

والقبيح المردود:

هو ما لم يكن وافياً بالغرض المُسَوِّق له من النَّاحِيَّتَيْنِ الفكرية والجمالية،

أو من إحداهما.

ومن أسباب ذلك انعدام وجه الشبه بين المشبَّه والمشبَّه به، أو خفاؤه جدّاً

دون التَّشْبِيهِ عليه، أو كونه معناه مُسْتَقْبَحاً مستكرهاً لا يليقُ بكلام أدبي رفيع،

أو كونه غثاً هزيلاً لا يدُلُّ على حُسْنِ انتقاء واختيار بين بدائل الأفكار، إلى غير

ذلك مما تمجُّه الأذواق الرفيعة، وتُبَعِّدُهُ عن ساحةِ الأدب المقبول، ولو من أدنى

درجات «القريب المبتذل».

وأتركُ هنا للأدباء مجالَ تعرية القبيح المردود من التشبيهات، فالتحليل الأدبي الناقد مسؤولٌ عن تقديم الأمثلة ونقدها.

«القريب المبتذل والبعيد الغريب»

لاحظ البيانون ما ينتج عما يكشفه النظر إلى قيمة التشبيه ودرجته، بين مختلف التشبيهات ذوات القيم البيانية المختلفة، فانهى بحثهم إلى تحديد مرتبتين رئيسيتين للتشبيه، وتركوا تحديد درجات كل مرتبة منهما للأديب الباحث، ولاختلاف وجهات أنظار النقاد:

المرتبة الدنيا: مرتبة القريب المبتذل، وفيها درجات يعسر ضبطها.

المرتبة العليا: مرتبة البعيد الغريب، وفيها درجات يعسر ضبطها.

(أ) التشبيه القريب المبتذل:

هو ما يُنتقلُ فيه من المشبه إلى المشبه به من غير تدقيق نظر، ولا إمعان فكر، بل يظهر وجهه في بادي الرأي.

وقد نظر البيانون نظرات تحليل لاكتشاف أسباب كون التشبيه قريباً مبتذلاً، فظهرت لهم طائفة من الأسباب أشاروا إليها دون أن يحصروا كل الأسباب بها: السبب الأول: كون التشبيه معتمداً على النظرة الكلية المُجملة، التي لم يصاحبها تفصيل ولا تحليل للعناصر.

إنَّ النظرة الكلية المجملة التي لا تبحث في دقائق الأشياء وتفصيلات عناصرها وصفاتها هي النظرة الأولى الساذجة للإنسان بحسب العادة، وهي نظرة يستوي فيها الصغير والكبير، والجاهل والعالم، والأديب وغيره، ويستطيع جميعهم في الغالب التعبير عن مرادهم بها.

لذلك تكون مبتذلة في العادة، ولا تدلُّ على مهارة فكرية، ولا مقدرة بيانية في مجال التشبيه.

فالتشبيه المعتمد على النظرة الكلية المُجمَّلة يكون غالباً من مرتبة القريب
المبتذل.

إنَّ النظرة الكلية المجملية هي التي تجعل الطفل يُسمِّي الحصان إذا رآه
حماراً، وقد يُسمِّي الجمال إذا رآه حماراً، وكذلك البقرة، لأنَّ خِبرَاتِهِ السَّابِقَاتِ
عَلَّمَتْهُ شكل الحمار، وتعلَّم مع ذلك أنَّ اسمه حمار، فهو يرى الشكل العام
للحصان والجمال والبقرة تمشي على أربع كما يمشي الحمار، فيُسمِّي كلاً منها
حماراً، غير ناظر إلى الفروق الكثيرة التي تميِّز كلَّ نوع عن الآخر.

من أجل هذا قالوا: النظرة الأولى حمقاء. ويقول العلماء بشأن من تُعَوِّزُهُ
الدقة في أقواله وآرائه: لم يُنعم النظر في الأمر، ولم يُدقق ولم يتأمل. أو يقولون:
قال قَوْلُهُ أَوْ قَدَّمَ رَأْيَهُ متعجلاً دون أناة.

السبب الثاني: كون وجه الشَّبَه المتترج من ركني التشبيه قليل العناصر
التفصيلية، سريع الخُطور على الأذهان في العادة.

أو كون المشبَّه به من الأشياء التي تتكرَّر مُشَاهَدَتُهَا، فهي ممَّا يُسَارِعُ الذهن
إلى التشبيه بها، كالشمس في الضياء والاستدارة، وكالقمر في النور والحسن،
وكاللَّيل في السَّواد، وكالنَّهار، في البياض، وكالمطر في صفة تقاطره العام.

فمن الملاحظ أنَّ الإنسان العادي إذا أراد تشبيه شيء أسود خطر له بسرعة
اللَّيل والغراب، فيقول: هو كاللَّيل، أو كالغراب.

وإذا أراد تشبيه وجه جميل قال: هو كالقمر. وإذا أراد وُصْفَ نثر النقود على
جميع الناس قال: تناثرت عليهم كالقمر.

هذه تشبيهات قريبة مبتذلة، يتناولها معظم الناس كما يتناولون الماء والهواء
والكلأ، فليس لها قيمة أدبيَّة عالية.

السبب الثالث: كونُ المشبّه به ووجهِ الشبّه المنتزَع منه مما تداول الشعراء والأدباء والكتّاب والخطباء، والمتحدّثون العاديّون التشبيّه به حتّى ابتذَلَ واستهْلَكَ.

كالتشبيّه بالغزال في خفة الحركة والرشاقة ودقة الخصر، وكالتشبيّه بالحمّار في البلادة، والتشبيّه بالبغل في الجلادة، والتشبيّه بالكلب في اتباع صاحبه، والتشبيّه بالخنزير في الخسّة وعدم الغيرة على إنائه.

إلى غير ذلك.

لكنّ قد يتصرّف الأديب المتمرّس بفنون القول، في التشبيّه القريب المبتذل، تصرّفًا بديعًا يرفّعه إلى المرتبة العليا «مرتبة البعيد الغريب» فمن هذا التصرف ما يلي:

(١) قول أبي الطيّب المتنبي من قصيدة يمدح بها «هارون بن عبد العزيز»
لَمْ تَلَقَ هَذَا الْوَجْهَ شَمْسُ نَهَارِنَا إِلَّا بِوَجْهِ لَيْسَ فِي حَيَاءِ
لقد تضمّن هذا القول تشبيّه وجه ممدوحه بالشمس، وهو تشبيّه قريب مبتذل، لكن أبا الطيب تصرّف فيه بطريقة بديعة غريبة رفعت قيمته إلى المرتبة العليا، إذ أدخل في التشبيّه عناصر غير مألوفة، فقد أبان دون إفصاح صريح بالتشبيّه أنّه كان من واجب الأدب والحياة أن لا تظهر الشمس أمام وجهه لضالّة ضوئها في مقابل وجهه الوضاء، لكنّها غير ذات حياء، فمن أجل ذلك تلقى الشمس وجهه مع أنّه أعظم منها ضياءً.

(٢) قول الشاعر:

فَرُدَّتْ عَلَيْنَا الشَّمْسُ وَاللَّيْلُ رَاغِمٌ بِشَمْسٍ لَهُمْ مِنْ جَانِبِ الْخِذْرِ تَطْلُعُ
فَوَاللَّهِ مَا أَذْرِي أَحْلَامَ نَائِمٍ أَلَمْتُ بِنَا أَمْ كَانَ فِي الرَّكْبِ يُوشَعُ

تضمّن هذا القول تشبيه من أعجب الشاعر بجمال وجهها بالشمس، وهو تشبيه مبتذل، لكن أدخل فيه عناصر رفعت من المرتبة الدنيا إلى المرتبة العليا، إذ وصفت طلعة وجهها من جانب الخدر في الليل على صورة مفاجئة تشعر بأن الشمس التي غابت أعيدت إلى الظهور، فهو في حيرة: هل هو نائم يرى حلمًا، أو يوشع بن نون صاحب موسى موجود في الركب، ومن أجل طلبه أعيدت الشمس للظهور، كما حصل له إذ استوقف الشمس على ما ذكروا.

(٣) قول الشاعر الوطواط في ممدوحه:

عَزَمَاتُهُ مِثْلُ الثُّجُومِ ثَوَاقِبًا لَوْ لَمْ يَكُنْ لِلشَّاقِبَاتِ أَقْوَلُ

لقد رفع من قيمة هذا التشبيه إضافة الشاعر الاستدراك إليه، وهو كون النجوم الثواقب لها أقول، أما ممدوحه فلا أقول له.

قالوا: ويسمى هذا «التشبيه المشروط».

(٤) ومن التشبيه المشروط الذي رفعته إضافة الشرط إلى المرتبة العليا،

قول الشاعر في ممدوحه:

يَكَادُ يَحْكِيكَ صَوْبُ الغَيْثِ مُنْسَكِبًا لَوْ كَانَ طَلَقَ الْمُحْيَا يُنْطِرُ الذَّهَبَا
وَالْبَدْرُ مَا لَمْ يَغِبْ وَالشَّمْسُ لَوْ نَطَقَتْ وَالْأَسَدُ لَوْ لَمْ تُصَدِّ وَالْبَحْرُ لَوْ عَذَبَا

(٥) ومن التصرف الحسن الذي رفع قيمة التشبيه المبتذل قول الشاعر:

فِي طَلْعَةِ البَدْرِ شَيْءٌ مِنْ مَحَاسِنِهَا وَلِلْقَضِيبِ نَصِيبٌ مِنْ تَشْبِهَا

(٦) وقد يخرج التشبيه من الابتذال بأن يجمع الشاعر بين عدة تشبيهات

بكلام واحد، كقول امرئ القيس يصف فرسه:

لَهُ أَيُّطَلَا ظَبِيٍّ وَسَاقَا نَعَامَةٍ وَإِرْحَاءُ سِرْحَانٍ وَتَقْرِيبُ تَفْلٍ

له أيطلا ظبي: أي: خاصرتا ظبي فهو مضمر.

وساقا نعامه: أي: في الانتصاب والطول بالنسبة إلى الجسد.

وإرخاء سِرْحَانٍ: أي: وعدوه كعدُو الذئب، والإرخاء ضرب من عدو الذئب.

وتقريب تَتْفُلٍ: التَّتْفُلُ: ولد الثعلب، والتقريب وضع الرجلين موضع اليدين في العدو.

* * *

(ب) التشبيه البعيد الغريب:

وهو ما يكون الانتقال فيه من المشبه إلى المشبه به بدقيق النظر، وإمعان الفكر، ولا يظهر وجهه في بادي الرأي.

وقد نظر البيانيون نظرات تحليل لاكتشاف أسباب كون بعض أمثلة التشبيه وصوره من البعيد الغريب، فظهرت لهم طائفة من الأسباب أشاروا إليها دون أن يحصرها كل الأسباب بها:

السبب الأول: نُذْرَةٌ خُطُورِ المَشْبَهِ به في أذهان معظم متذوقي الأفكار الأدبية، والمهتمين باستدعاء الأشباه والنظائر،

سواءً أكانت هذه النُذْرَةُ خاصّةً بحالة ذكر المشبه أو حضوره في الذهن، أو غير خاصّة بها.

فحين تكون المناسبة بين المشبه والمشبه به بعيدة، أو يكون وجه الشبه الجامع بينهما أمراً دقيقاً خفياً، تكون نُذْرَةُ خُطُورِ المَشْبَهِ به في الذهن لبُعدِ المناسبة أو لخباء وجه الشبه بين طرفي التشبيه.

وحين تكون نُذْرَةُ خُطُورِ المَشْبَهِ به في الذهن نُذْرَةً عَامَّةً غَيْرَ خاصّةٍ بحالة ذكر المشبه، فإنّها تكون كذلك لواحد من أمور منها الأمور التالية:

(١) كون المشبه به أمراً وهمياً.

(٢) كون المشبه به مُرَكَّباً خيالياً.

(٣) كون المشبه به أمراً عقلياً.

(٤) كون المشبه به قَلِيلَ التكرُّرِ عَلَى الْحِسِّ.

(٥) كَوْنُ وَجْهِ الشَّيْءِ مُشْتَمِلاً عَلَى تَفْصِيلٍ يُلَاحِظُ فِيهِ أَكْثَرُ مِنْ وَصْفٍ، وَيَقَعُ عَلَى وَجْهِهِ مَخْتَلِفَةٌ يَعْسُرُ ضَبْطُهَا.

ويظهر من هذه الوجوه وجهان:

الوجه الأول: أَنْ يَذْكَرَ عَاقِدُ التَّشْبِيهِ بَعْضَ أَجْزَاءِ المَشْبَهِ بِهِ وَيَعْزِلَ بَعْضَهَا الْآخَرَ، كَمَا جَاءَ فِي قَوْلِ امْرِئِ الْقَيْسِ:

حَمَلْتُ رُدَيْنِيَا كَأَنَّ سِنَانَهُ سَنَا لَهَبٍ لَمْ يَتَّصِلْ بِدُخَانِ
فَعَزَلَ امْرؤُ الْقَيْسِ الدُّخَانَ عَنِ سَنَا اللَّهَبِ لِأَنَّهُ لَا يَدْخُلُ فِي التَّشْبِيهِ، وَأَثَبَتِ
السَّنَا وَهُوَ الضَّوءُ مَفْرَدًا.

ونظيره قول الشاعر الآخر: «لَهَا حَدَقٌ لَمْ تَتَّصِلْ بِجُفُونٍ».

فذكر الحدق وعزل عنها الجفون.

الوجه الثاني: أَنْ يُلَاحِظَ عَاقِدُ التَّشْبِيهِ أَجْزَاءً مُتَعَدِّدَةً مِنَ المَشْبَهِ، مُقَابِلَةً بِأَشْبَاهِهَا مِنْ أَجْزَاءِ المَشْبَهِ بِهِ، وَكَلَّمَا كَانَ التَّرْكِيبُ مِنْ أُمُورٍ أَكْثَرَ كَانَ التَّشْبِيهِ أَبْعَدَ وَأَعْرَبَ.

ومثلوا لهذا الوجه بقول: «أَبِي قَيْسٍ بِنِ الْأَسْلَتِ» وقيل هو: لِأَحِيحَةَ بِنِ

الجلّاح:

وَقَدْ لَاحَ فِي الصُّبْحِ الثُّرَيَّا كَمَا تَرَى كَعَنْقُودٍ مُلَاحِيَّةٍ حِينَ نَوْرًا

كَعُنُقُودٍ مُلَاحِيَّةٍ: أي: كَعُنُقُودِ عِنَبٍ مِنْ صِنْفٍ «مُلَاحِيَّةٍ» وَهُوَ عِنَبٌ أَيْضُ فِي حَبِّهِ طَوِيلٌ، وَالْأَشْهُرُ فِي اسْمِ «مُلَاحِيَّةٍ» تَخِيفُ اللَّامَ.

فقد لاحظ الشاعر التشابه بين أجزاء الثُّرَيَّا بِعُنُقُودِ مُلَاحِيَّةٍ حِينَ نَوَّرَ، أَي: وَضَحَ بِيَاضَهُ مِنْ نَضْجِهِ، فَحَبَّاتُ الْعِنَبِ فِي الْعُنُقُودِ تَشْبَهُهَا النُّجُومُ فِي الثُّرَيَّا، وَشَكْلُ الْعُنُقُودِ بِوَجْهِ عَامٍ يُشْبَهُهُ شَكْلُ الثُّرَيَّا، وَالْفَوَاصِلُ بَيْنَ نَجُومِ الثُّرَيَّا تَشْبَهُ الْفَوَاصِلَ الْمَوْجُودَةَ فِي الْعُنُقُودِ.

أقول: ومن أبدع الأمثلة على هذا الوجه وأبلغها قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾.

وفي غير هذا الموضع تحليلُ هذا النصِّ وما فيه من تشبيه بديع ذي عناصر متلاقية ملاحظة في المشبه والمشبه به معاً.



تقسيم التشبيه
باعتبار أحوال طرفيه (المشبه والمشبه به)

نظر البيانون إلى أحوال طرفي التشبيه: (المشبه والمشبه به) فظهرت لهم أقسام كثيرة، وهذه الأقسام ناتجة عن احتمالات كون كلٍّ منهما مفرداً أو مركباً، واحتمالات كون كلٍّ منهما ممّا يُدْرِكُ بالحواس الظاهرة، أو بالوجدان والحواس الباطنة، أو بالفكر، فتحصل لديهم من ذلك أقسامٌ وتشقيقات يحتاج الدارس لإحصائها وإحصاء أمثلتها وتطبيقها كذاً ذهنياً مُرْهِقاً.

وبعد البحث والتأمل لم أجد في إرهاب ذهن دارس هذا العلم، بإحصاء هذه الأقسام وتشقيقاتها، وتطبيق الأمثلة عليها، فائدة ذات قيمة أدبية بيانية، تنفع لدى دراسة النصوص الأدبية الرفيعة، بغية إبراز جوانب إبداعها، أو تنفع لاكتساب مهارة إبداعية في نثر أو شعر، بل ربما تصرف دراستها ذهن الباحث عن جوانب الجمال والإبداع إلى مهمات التحليل المخبري الذي يهتم بدراسة عناصر الأشياء وتحليلها تحليلاً ذرياً.

من أجل هذا آثرتُ الاقتصار على الأقسام التي يسهل على الدارس استيعابها، وقد ينتفع بها ضمن أغراض دراسة علم البيان.
وفيما يلي شرح ما آثرت الاقتصار عليه:

أولاً — «التشبيه البسيط والتشبيه المركب»:

لاحظ البيانون تقسيماً ناتجاً عن احتمال كون كلِّ في التشبيه مفرداً أو مركباً فظهر لهم ما يلي:

إنَّ تشبيه شيءٍ بشيءٍ قائم على ملاحظة وجود عنصر أو أكثر من عناصر التشابه بينهما، وبهذا ينقسم التشبيه إلى قسمين:

القسم الأول: التشبيه البسيط.

وهو التشبيه المشتمل على التشبيه بمفرد، لأنَّ المشبَّه يُشابه المشبَّه به بوجهٍ من الوجوه، أو جانب من الجوانب، كتشبيه الجاهل بالأعمى، والعالم بالبصير، والجهل بالظلمات، والعلم بالتور.

القسم الثاني: التشبيه المركب، وهو المسمَّى «التمثيل».

وهو التشبيه الذي يكون على شكل لَوْحَةٍ تُصَوِّرُ أَكْثَرَ مِنْ مَفْرَدٍ، ووجه الشبه فيه لا يكون مأخوذاً من مفردٍ بعينه، بل يكون مأخوذاً منه ومن غيره، أو من الصُّورة العامة.

وهذا التشبيه المركب يكون على وجهين:

الوجه الأول: ما كان على شكل عناصر متلاقية تقابل أمثالها في المشبَّه به، كتشبيه الإنفاق في سبيل الله بإخلاص، بالزرع الَّذِي تُزْرَعُ فِيهِ الْحُبُوبُ فِي أَرْضٍ طَيِّبَةٍ مُبَارَكَةٍ، فَتُنْبِتُ الْحَبَّةُ مِنْهَا سَبْعَ سَنَابِلٍ، فِي كُلِّ سَنْبَلَةٍ مِئَةَ حَبَّةٍ.

هنا نلاحظ أنَّ الإنفاق يشبه عملية الزرع، وتنمية الله له يُشبهه النبت الجيِّد، ومضاعفة الأجر تشبه تكاثر السنابل من الحبة الواحدة، وتكاثر الحبِّ في كلِّ سنبلَةٍ.

هذا التشبيه نجده في قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة) / ٢ مصحف/

٨٧ نزول):

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١٦﴾﴾ .

● ومنه قول أبي فراس الحمداني يصف روضتين مُزَيَّنَتَيْنِ بأنواع الزهور ذات الألوان المختلفة الزاهية، ويجري بينهما نهر صافٍ:

وَالْمَاءُ يَفْصِلُ بَيْنَ رَوْضِ الْـ زَهْرٍ فِي الشَّطِّينِ فَضْلاً
كِبْسَاطٍ وَشَيْ جَرَدَتْ أَيْدِي الْقِيُونَ عَلَيْهِ نَضْلاً
فِي الشَّطِّينِ: أي: في جانبي ماء النهر الجاري.

المَوْشَى: النقش في الثوب وغيره من ألوان مختلفة.

الْقِيُونَ: جمع «قَيْن» وهو الحدّاد الذي يصنع السيوف ونحوها من الأسلحة.

النصل: حديدة السيف ونحوه من الأسلحة، ومراد الشاعر هنا نصل السيف، لقوله: «جَرَدَتْ» إذ السيف هو الذي يُجَرَّدُ من غِمْده.

إن وجه الشبه في هذا التشبيه منتزع من متعدّد في صورة واحدة، إلا أننا لدى تحليل هذا التشبيه نلاحظ أنّه جاء على شكل عناصر متلاقية تُقابل أمثالها في المشبه به.

فالنهر بين الروضتين يشبه السيف المجرد الصقيل المطروح في وسط البساط المَوْشَى.

والروضة الواقعة على يمين النهر تشبه قسم البساط الواقع على يمين السيف المجرد.

والروضة الواقعة على يسار النهر تشبه قسم البساط الواقع على يسار السيف المجرد.

ودلّ تجريد القِيُونَ للسيف على أنّه سَيْفٌ جديد صقيل يتلامع، وهذا يدلُّ

على أن ماء النهر صافٍ شديد الصفاء، وهذا يدلُّ على أنه نهر جارٍ من نبعٍ، فليس ماءً راكداً آسنأ، وليس ماءً سيل كدراً.

بهذا التحليل نلاحظ أن التشبيه الذي اشتمل عليه هذا القول هو من الوجه الأول من وجهي التمثيل.

وهذا الوجه هو من روائع تشبيه التمثيل فيما أرى، وأبدع ما جاء منه ما جاء في الأمثال القرآنية، التي أوفيتها دراسة في كتاب «أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع».

● ومنه قول بشار بن بُرد:

كَأَنَّ مُثَارَ النَّقْعِ فَوْقَ رُؤُوسِنَا وَأَسْيَافَنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبَهُ
مُثَارَ النَّقْعِ: أي: مُثَارَ الْغُبَارِ الَّذِي تَثِيرُهُ حَوَافِرُ الْخَيْلِ وَحَرَكََةُ الْقِتَالِ فِي الْحَرْبِ.

تَهَاوَى: أي: تَتَهَاوَى.

فشبهه صورة الغبار المثار بحركة القتال والذي تتهاوى داخله أسياف المقاتلين على أعداثهم بصورة ليلٍ تتهاوى على الأرض كواكبه.

ووجه الشبه الجامع بينهما الهيئة الحاصلة من هويٍّ أجرامٍ مشرقة مستطيلة متتاسبة المقدار، ومتفرقة، في جوانب شيءٍ مظلم، وتظهر فيها الحركة التي زادت التمثيل حسناً.

ولدى التحليل نلاحظ أن التشبيه المركب قد جاء في شكل عناصر متلاقية في المشبه، تقابل أمثالها في المشبه به، ويتحصّل من ذلك هيئة كليّة في صورة.

● ومنه قول أبي طالب الرّقّي:

وَكَأَنَّ أَجْرَامَ النُّجُومِ لَوَامِعاً دُرَّرَ نُثْرَتَ عَلِيٍّ بِسَاطِ أَرْزَقِ

فوجه الشبه هيئة منتزعة من متعدّد، وهي الهيئة الحاصلة من تفرّق أجرام متلاثةٍ مستديرة، صغار المقادير في مرأى العيون، على سطح جسم أزرق صافي الزُرقة.

ولدى التحليل نلاحظ أنّ هذا التشبيه المركّب قد جاء على شكل عناصر متلاقية في المشبه، تقابل أمثالها في المشبّه به، ويتحصّل من ذلك هيئةً كليّةً في صورة.

● ومنه قول عمرو بن كلثوم:

تَبْنِي سَنَابِكُهَا مِنْ فَوْقِ أَرْوُسِهِمْ سَقْفًا كَوَاكِبُهُ الْبَيْضُ الْمَبَاتِيرُ
سَنَابِكُهَا: أي سَنَابِكُ الخيل. جمع «سُنْبُك» وهو طرف الحافر.
البيض الْمَبَاتِير: أي: السُّيُوفِ القواطع، يقال: سيف بَتَّارٌ ومِبْتَارٌ.

وجه الشبه هيئة منتزعة من متعدّد، والتشبيه هنا جاء على شكل عناصر متلاقية في المشبه، تقابل أمثالها في المشبّه به، ويتحصّل من ذلك هيئةً كليّةً في صورة.

* * *

الوجه الثاني: مَا كَانَ عَلَى شَكْلِ وَحْدَةٍ مُرَكَّبَةٍ مُتَدَاخِلَةٍ تُعْطِي بِجَمَلَتِهَا وَجْهَ الشبه، دُونَ مُلَاحِظَةِ التَّقَابِلِ الْجِزْئِيِّ بَيْنَ الْمَشْبَهِ وَالْمَشْبَهَ بِهِ.

● كالمثل الذي ضربه الله عزّ وجلّ لفريق من المنافقين، بقوله في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلْمَةٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ بَدَّلَهُمْ نَارًا فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

تضمّن هذا التمثيل تشبيهاً لحالة الصنف الأشد من صنفَي المنافقين، وهو

الصف الذي مرّد على النفاق، بعد رؤيته أضواءً هداية القرآن، وسماعه إنذارات عذاب الله للكافرين، ولمّا مرّد على النفاق ملتزماً الثبات في موقع الكفر، طمّس الله بصيرته بقانونه القدريّ الذي اتخذ هو أسبابه.

شبه الله عزّ وجلّ الصّورة الكليّة لهذا الصف بصورة من استوقد ناراً في مفازة مظلمة موحّشة ضمن ليل دامس، فلمّا أضاءت هذه النار ما حوله من أرض المفازة، ورأى صراطه، وعرف سبيل هدايته، ووجد أنه على غير ما يهوى ويشتهي، اتّخذ وسيلةً أبعدَ بها عنه شعاع الضوء، رافضاً الاهتداء بالنور، مُتأبياً أن يسلك الصراط المستقيم إصراراً على الباطل، ومعاندةً للحق، فوقع عليه قانون ذهاب الثور الذي تسبّب هو في إذهابه، فأمسى كالأصمّ الأبكم الأعمى، غير مُستعدّ لأن يرجع إلى مواطن النور.

هذا تشبيه من قسم «التمثيل» فوجه الشبه فيه صورة متزعة من متعدّد، والتشبيه قائم على تمثيل صورة ذات عناصر مختلفة بصورة ذات عناصر مختلفة، والجامع بينهما وجه شبه يمثل أيضاً صورة متزعة من عناصر متعدّدة^(١).

● وكالمثل الذي ضربه الله عزّ وجلّ لفريق آخر من المنافقين عقب المثل السابق بقوله تعالى في السورة المذكورة:

﴿ أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْبَعَهُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ مِنَ الصَّوَغِ حَذَرِ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١١﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطِفُ أَبْصَرَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشْوَافِهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢﴾ ﴾.

الصيّب: المطر الغزير، أو السحاب الممطر مطراً غزيراً.

هذا تمثيل لفريق آخر من المنافقين لم تنطس بصيرته انطماساً تاماً، بل

(١) انظر تمة شرح هذا المثل في كتاب «أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع» للمؤلف، الصورة الرابعة صفحة ٣٥١ وما بعدها.

يتلامع له نور الحق أحياناً، فيراه، فيسير فيه قليلاً، ويسمَعُ إنذارات آيات الله أحياناً، فيَرْهَبُ، لكنّه إذا اشتدّت عليه سدّ سمعهُ عنها، فيعود إلى حالته الأولى .

هذا الفريق من المنافقين صنف متردد مذذبٌ حيران، لم يستقرَّ نهائياً في موقع الكفر، ولم يحب أن يختار بحزم موقع الإيمان والعمل بمقتضاه، فصورة حالته العامّة، تشبه صورة جماعة في مفازة مُظلمة بليل دامس، جاءَهُمُ سحابٌ مُمطرٌ، فأمطر عليهم مطراً غزيراً، فأصابتهم الحيرة يبتغون النجاة، ورافق ذلك رعْدٌ وبرقٌ، فكانوا ضمن هذا الحدّثِ على مفازتهم في مطرٍ غزيرٍ مخيف، وظلّماتٍ مُوحشات، ورعْدٍ يثير الرُّعب، وبرقٍ يتلامع بالضوء .

فَهُمْ كُلَّمَا تَوَاتَرَ عَلَيْهِمُ الرَّعْدُ الشَّدِيدُ الْمُخِيفُ الْقَازِفُ بِالصَّوَاعِقِ، يجعلون أصابعهم في آذانهم خوفاً من الصواعق أن تأتيهم بالموت، وكلّما أضاء لهم البرق مشوا فيه على قدرٍ ما يكشف لهم وميضه، فخطواتهم على طريق الهدى قليلة بقدر الوضات، وكلّما انتهت ومضاته السريعات الخاطفات توقّفوا في مواقعهم حيارى، لا يدرون كيف يتصرّفون .

إنّ أهل هذا الصنف من المنافقين لم يصلّوا إلى مرحلة العناد والإصرار على الكفر، كما وصل أهل الصنف الأول، بل ما زالت لديهم بقيّة خيرٍ تنزِعُ في داخلهم إلى الاستجابة لدعوة الحق، لكنّها بقيّة ضعيفة .

لذلك فهم لم يصلّوا بعدُ إلى حضيض: ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمِّيٌّ فُهُمٌ لَا يَرْجِعُونَ﴾ كما وصل إليه أهل الصنف الأول، بل هم في مستوى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ لكنّ الله عزّ وجلّ حكيم رحيم لا يطمسُ أسمعهم وأبصارهم حتّى يتخذوا بأنفسهم أسباب ذلك .

هذا التشبيه أيضاً هو من قسم «التمثيل» فوجه الشبه فيه صورة منتزعة من متعدّد، والتشبيه قائم على تمثيل صورة ذات عناصر مختلفة بصورة ذات عناصر

مختلفة، والجامع بينهما وجهٌ شبه يُمثلُ أيضاً صورةً منتزعة من عناصر متعددة^(١).

● ومنه قول ابن المعتز: وَالشَّمْسُ كَالْمِرْآةِ فِي كَفِّ الْأَشْلَلِ.

شبهه على طريقة التمثيل الشمس في استدارتها وما يُشاهد من حركة الضياء الذي تبثه بمرآة مستديرة يحملها أشلُّ بكفه فهي ترتجف تبعاً لحركة كفه.

فوجه الشبه منتزع من متعدّد العناصر، مع أنّ المشبه مفرد، وهي الشمس، لكنّ العناصر التي انتزع منها وجه الشبه متعدّدة، يظهر منها اللون، والاستدارة، وحركة الارتجاف التي يُشاهد بها النور يرتجف، حتّى يُرى الشعاع كأنّه يهيم بأنّ ينبسط حتّى يفيض من جوانب الدائرة، ثم يبدو له فيرجع إلى الانقباض.

ومنه قول المهلبّي الوزير:

وَالشَّمْسُ مِنْ مَشْرِقِهَا قَدْ بَدَتْ مُشْرِقَةً لَيْسَ لَهَا حَاجِبُ
كَأَنَّهَا بَوْتَقَةٌ أُحْمِيَتْ يَجُولُ فِيهَا ذَهَبٌ ذَائِبُ

شبه الشمس ببوتقة الصائغ التي يُذيب بها الذهب على النار، ووجه الشبه هنا منتزع من متعدّد، إذ هو الهيئة الحاصلة من لون الذهب، وحركته الرجراجة وهو ذائب، واستدارة البوتقة في هيئة مختلطة مركّبة.

● ومنه قول ابن المعتز:

وَكَأَنَّ الْبَرْقَ مُضْحَفٌ قَارٍ فَاَنْطَبَاقاً مَرَّةً وَاَنْفِتَاحاً

قارٍ: أي: قاريء، حذف الهمزة فصارت قاري، وبالنتون حذف الياء.

في هذا التمثيل تصوير لحركة متعددة الأشكال في صورة جامعة.

* * *

(١) انظر تمة شرح هذا المثل في كتاب «أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع» للمؤلف الصورة الرابعة صفحة ٣٥١ وما بعدها.

ثانياً — «كُلُّ من ركني التشبيه إمّا أن يكون مُدرَكًا بالحسّ الظاهر
أو غير مُدرَكٍ به» :

ولاحظ البيانون الأقسام الناتجة عن احتمالات كون المشبه والمشبه به ممّا
يدرِكُ بالحسّ الظاهر أو لا يُدرِكُ به، فظهر لهم ما يلي :

إنّ كلّ معلوم إمّا أن يكون شيئاً يُمكن إدراكه بالحواسّ الخمس الظاهرة:
(السمع والبصر والشّم والدّوقِ واللّمس) وإمّا أن يكون معنّى من المعاني يدرِكُ
بالفكر كالأفكار، أو شعوراً يُحسُّ به الوجدان، كالعواطف والانفعالات، وكلّ
أنواع الشعور النّفسيّ الباطن .

وبالتأمّل نستطيع أن نتبيّن أنّ تمثيل شيءٍ بشيءٍ قد يكون بين مُدرَكَيْنِ بالحسّ
الظاهر، كمرئيّين بالعين، وقد يكون بين مُدرَكَيْنِ بالحسّ الباطن كالمدركات
الفكريّة والوجدانيّة، وقد يكون أحدهما مُدرَكًا بالحسّ الظاهر والآخر مُدرَكًا
بالحسّ الباطن، وقد تأتي الصورة المدركة في طرفي التشبيه أو في أحدهما مختلطة
من القسمين .

فالتقسيم العقليّ يُقدّم لنا خمسة أقسام :

القسم الأول: تشبيه مُدرَكٍ بالحسّ الظاهر بمُدرَكٍ بالحسّ الظاهر .

القسم الثاني: تشبيه مُدرَكٍ فكريّ أو وجداني بمُدرَكٍ فكريّ أو وجداني .

القسم الثالث: تشبيه مُدرَكٍ فكريّ أو وجداني بمُدرَكٍ بالحسّ الظاهر .

القسم الرابع: تشبيه مُدرَكٍ بالحسّ الظاهر بمُدرَكٍ فكريّ أو وجداني .

القسم الخامس: الصورة التمثيلية المختلطة التي تمتزج فيها الأشياء المُدرَكة
بالحسّ الظاهر بالمدركات الفكريّة أو الوجدانيّة .

● فمن أمثلة «القسم الأوّل» تشبيه العودة إلى الحياة الدنيا بعد الموت،

بالنبات الذي يعود إلى الحياة عن طريق بزوره، بعد حصاده الذي يكون به موت حياته الخضراء.

فالصورتان بينهما تماثل، وكلتاها ممّا يدرك بالحسّ الظاهر.

● ومن أمثلة «القسم الثاني» تشبيه الخشية من الناس بالخشية من الله، وتشبيه لذة الوصول إلى المعرفة بلذة الظفر بالملك، أو الانتصار على الأعداء.

فكلٌّ من المشبه والمشبه به وجداني.

● ومن أمثلة «القسم الثالث» تشبيه العلم بالنور، والإيمان بالبصر، والجهل بالعمى، والكفر بالسير في الظلمات، وتشبيه من يتخذ من دون الله أولياء بالعنكبوت التي تنسج لنفسها بيتاً واهياً، وتشبيه من ينقض العهد بالمرأة الحمقاء التي نقضت عزلها من بعد قوّة أنكاثا، وتشبيه إبطال أعمال الذين كفروا برّبهم برماد اشتدّت به الريح في يومٍ عاصف فنسفته وبدّته فلم تدع منه في موقعه شيئاً.

فكلُّ هذه التشبيهات هي من تشبيه مُدركٍ فكريٍّ أو وجدانيٍّ بمُدركٍ بالحسّ الظاهر.

● ومن أمثلة «القسم الرابع» تشبيه الأمّ بالمحبّة، وتشبيه القاضي العادل بالعدل، أو بأحكام الشرع، وتشبيه الأعداء بالحقّد والكراهية، وتشبيه الانفجارات النارية أو البركانية بالغيظ العنيف في نفوس المغتاطين.

فكل هذه التشبيهات هي من تشبيه مُدركٍ بالظاهر بمُدركٍ فكريٍّ أو وجدانيٍّ.

● ومن أمثلة «القسم الخامس» تشبيه الحياة الدنيا المنحصرة باللّعب واللّهو والزينة والتفاخر والتكاثُر، بغيثٍ من السماء أعجَبَ الكُفَّارَ نباته، ثمّ يهيج فتراه مُضفراً، ثمّ يأتي حصاده، فيتكسّرُ ويتحطّمُ وينتهي.

فالمشبهُ وهو الحياة الدنيا فيه أشياء مُدْرَكَةٌ بالحسّ الظاهر، وأشياء فكرية، وأشياء نفسية وجدانية، وكلُّ هذه الأمور ممتزجة في لوحة متحرّكة بحركة الزمن، والمشبه به لوحة صغرى من الحياة الدنيا نفسها، وفي هذه اللوحة عناصر: منها غيث السماء، نجم عنه في الأرض نبات بديع، تحرّكت له نفوس الزّراع بالإعجاب (وهذا أمر وجداني) ثم انتهت دور حياته فاصفر وتكسّر وانتهى.

* * *

ثالثاً — «كُلُّ من ركني التشبيه إمّا أن يكون منتزِعاً من الواقع أو من الخيال»:

لاحظ البيانون ما ينتج من أقسام عن احتمال كون التشبيه صورةً منتزعة من الواقع أو من الخيال، فظهر لهم ما يلي:

لدى تتبع التشبيهات يتبيّن لنا أن الصورة الواردة في التشبيه:

- إمّا أن تكون صورة منتزعة من الواقع.
- وإمّا أن تكون صورة منتزعة من الخيال.

أمثلة:

(أ) من أمثلة الصورة التشبيهية المنتزعة من الواقع تشبيه الذي ينفق ماله رثاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر، بزراعٍ يزرع بزوره في تراب رقيق مبسوط على صخرة صماء مَلْسَاء، إذا نزل عليها غيث السماء سَفَحَ التراب والبزور معه، وجرفها السَّيْلُ، فترك مزرعته حجراً صَليداً أَمْلَسَ لاشيء عليه، فهو لا يطمع بنبات، ولا ينتظر حصاداً.

فالصورة التمثيلية في هذا التشبيه منتزعة ومقتبسة من الواقع في الأحداث الكونية.

ومنها أيضاً تشبيه الذي يُنْفِقُ ماله ابتغاءَ مرضاةِ اللَّهِ وتثبيتاً من نفسه لقاعدة

الإيمان في قلبه ولفضيلة خُلِقَ الجود عنده، بزراع حصيف عاقل، يزرع حبة في جنة سَمِينَةَ التُّرْبَةِ، برَبْوَة لا تَجْرِفُهَا السَيُولُ، فَتَزَلُ عَلَيْهَا المَطَرُ الغَزِيرُ، فَاتَتْ أُكْلَهَا ضِعْفَيْنِ، فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا المَطَرُ الغَزِيرُ كفاها الطَّلَّ (= المَطَرُ الخَفِيفُ) لَتُعْطِيَ الشَّمر الطَّيِّبَ المضاعف.

إنَّ الصُّورَةَ التَّمثِيلِيَّةَ فِي هَذَا التَّشْبِيهِ صُورَةٌ مَمْتَرَعَةٌ وَمَقْتَبَسَةٌ مِنَ الوَاقِعِ فِي الأَحْدَاثِ الكُونِيَّةِ.

(ب) ومن أمثلة الصورة التشبيهية الممتزعة من الخيال، تشبيه طلع شجرة الزقوم التي تخرج في أصل الجحيم بصورة رؤوس الشياطين.

إنَّ النَّاسَ لا يَعْرِفُونَ صُورَةَ رُؤُوسِ الشَّيَاطِينِ، لَكِنِ فِي خَيَالِهِمْ صُورَةَ قَبِيحَةٍ مَمْتَرَعَةٍ مَخِيفَةٍ لِلشَّيَاطِينِ وَرُؤُوسِهِمْ، وَهِيَ أَقْبَحُ وَأَخْوَفُ صُورَةٍ يَتَخَيَّلُونَهَا.

وقد جرى تشبيه طلع شجرة الزقوم في جهنم بأقبح صورة وأخوفها يمكن أن يتخيلها الناس. إنَّ الشَّيَاطِينِ أَقْبَحُ وَأَخْبَثُ مَا فِي الوُجُودِ، وَالصُّورَةُ الَّتِي يَنْسُجُهَا خَيَالُ النَّاسِ لَهُمْ هِيَ أَقْبَحُ وَأَخْبَثُ صُورَةٍ.

فالتَّمثِيلُ بِهَا تَمثِيلٌ مَمْتَرَعٌ مِنَ خَيَالِ النَّاسِ، لا مِنَ الوَاقِعِ، وَقَدْ يَكُونُ الوَاقِعُ كَذَلِكَ، لَكِنَّ المَخَاطِبِينَ قَدْ خَوَّطَبُوا عَلَى مَقْدَارِ مَا فِي خَيَالِهِمْ.

وفي عرض هذا التشبيه يقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الصافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول):

﴿أَذَلَّكَ خَيْرٌ نَزْلًا أَمْ شَجَرَةُ الزُّقُومِ ﴿١٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿١٩﴾ فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوَابِقَ مِجْمِيمٍ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجَمَهُمْ لِأِلَّ الْجَحِيمِ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿نَزْلًا﴾: النَّزْلُ: المَنْزِلُ. وَالتَّنْزِيلُ: الرِّزْقُ وَمَا يُهَيِّئُ لِلضَّيْفِ مِنَ ضِيافَةٍ، وَالجَمْعُ الأَنْزَالُ، وَهِيَ المَأْكَلُ الَّتِي يَتَّقَوْتُ بِهَا، وَبِهَذَا المَعْنَى فَسَّرْتُ كَلِمَةَ «نَزْلًا» هُنَا.

﴿شَجَرَةُ الزُّقُومِ﴾: هي شجرة خبيثة تَنْبُتُ في أصل الجحيم، وقد جاء ذكرها في القرآن في ثلاثة مواضع (١).

﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾: أي: جعلناها إحدى وسائل تعذيبهم في جهنم، إذ كلمة «الفتنة» تأتي بمعنى العذاب، وأصل الفتنة الصهر بالنار للمعدن، كالذهب والفضة لتمييز الرديء من الجيد.

* * *

رابعاً — «تشبيه التسوية وتشبيه الجمع»:

ولاحظ البيانون ما يَنْتُجُ عن احتمال تعدد المشبه مع اتحاد المشبه به، أو تعدد المشبه به في حال اتحاد المشبه في العبارة الواحدة، فظهر لهم قسمان:

القسم الأول: تشبيه التسوية.

القسم الثاني: تشبيه الجمع.

تشبيه التسوية:

قد يتفنن الأديب فيأتي بأكثر من مفرد على أن كل واحد مشبه، ويأتي بمشبه به واحد في العبارة الواحدة.

وقد راق للبيانين هذا الفن، فوضعوا له اسم «تشبيه التسوية» ومثلوا له بقول الشاعر:

صُدغُ الحَيِّبِ وَحَالِي كِلاهُمَا كَاللِّيَالِي
وَتَغَرُّهُ فِي صَفَاءِ وَأَدْمَعِي كَاللَّالِي

(١) انظر بقية شرح هذا النص في كتاب «أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع» صفحة (٥١) وما بعدها.

تشبيه الجمع :

وقد يتفنن الأديب فيأتي بمشبه واحد، ويأتي بمشبه به متعدد في العبارة الواحدة .

وقد راق للبيانين هذا الفن، فوضعوا له اسم «تشبيه الجمع» ومثلوا له بقول البحرى :

بَاتَ نَدِيمًا حَتَّى الصَّبَاحِ أَعْيَدُ مَجْدُولُ مَكَانِ الوِشَاحِ
كَأَنَّمَا يَسِيمُ عَنِ لُؤْلُؤِ مُنْضَدٍ أَوْ بَرْدٍ أَوْ أَقَاحِ
الأعيدُ : من الناس الناعم الذي يتمايل ويتثنى في لين .

مجدولُ مكانِ الوِشَاحِ : أي : ملفوفُ القامة حسنُها، والوشاحُ نسيج عريض يُرَصَّعُ بالجواهر، تشدُّه المرأة بين عاتقها وكشحيها .

منضدٌ : مرصوفٌ بتناسق .

أقاح : جمع أفحوانة، وهي نبت زهره أصفر أو أبيض، ورقه كأسنان المنشار، تشبه الأسنان بالأبيض منه .

المشبه في هذا القول أسنان الأعيد، والمشبه به متعدد، هو : اللؤلؤ المنضد، والبرد، والأقاح .

● وبقول الصاحب ابن عباد في وصف أبيات أهديت إليه :

أَتَنِّي بِالْأَمْسِ أَيَّاتُهُ تُعَلِّلُ رُوحِي بِرُوحِ الْجِنَانِ
كَبَرْدِ الشَّبَابِ وَبَرْدِ الشَّرَابِ وَظِلِّ الأَمَانِ وَنَيْلِ الأَمَانِي
وَعَهْدِ الصَّبَا وَنَسِيمِ الصَّبَا وَصَفْوِ الدُّنَانِ وَرَجْعِ القِيَانِ

المشبه : الأبيات التي أهديت للصاحب بن عباد .

المشبه به : ثمانية أشياء جاءت في بيتين .

● ومنه قول امرئ القيس :

كَأَنَّ الْمُدَامَ وَصَوْبَ الْغَمَامِ وَرِيحَ الْخَزَامَى وَنَشْرَ الْقَطْرِ
يُعَلُّ بِهِ بَرْدُ أَنْيَابِهَا إِذَا طَرَبَ الطَّائِرُ الْمُسْتَحِرَّ

الْمُدَامَ : الخمر .

صَوْبُ الْغَمَامِ : مطره النافع الذي لا يؤذي .

الْخَزَامَى : نبات ذو رائحة عَطِرَة .

وَنَشْرَ الْقَطْرِ : النَّشْرُ : الريح الطيبة . الْقَطْرُ : الْعُودُ الَّذِي يُتَبَخَّرُ بِهِ .

الْمُسْتَحِرَّ : يقال : اسْتَحَرَ الطَّائِرُ إِذَا غَرَّدَ فِي السَّحَرِ ، فَهُوَ مُسْتَحِرٌّ .

المشبهه : ريقُ صاحبه التي يصف .

المشبهه به : المُدَامَ - وصوبُ الغمام - وريح الخزامى - ونشر العود الذي

يُتَبَخَّرُ بِهِ .

وهذا من التشبيه المقلوب الذي سيأتي بيانه .

* * *

خامساً - «التشبيه الملفوف والتشبيه المفروق» :

ولاحظ البيانيون ما ينتج عن احتمال ضمّ عدّة تشبيهات لكل مشبه فيها مشبهه

به ، في كلام واحد أو متتابع ، فظهر لهم قسمان :

القسم الأول : التشبيه المَلْفُوف .

القسم الثاني : التشبيه المفروق .

التشبيه الملفوف :

قد يتفكّن الأديب فيأتي بأكثر من مشبهه ، ويأتي بعد ذلك لكل واحدٍ بمشبهه به .

وقد راق للبيانين هذا الفنّ ، فوضعوا له اسم «التشبيه الملفوف» ومثّلوا له

بقول امرئ القيس يصف عُقَاباً بكثرة اصطيادها الطيور :

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابَسًا لَدَىٰ وَكْرَهَا الْعُنَابُ وَالْحَشْفُ الْبَالِي

فجاء أولاً بِمَشَبَّهَيْنِ هما: القلوب الرطبة، والقلوب اليابسة من قلوب الطير.
وجاء بعد ذلك لكلّ منهما بِمَشَبَّهٍ به منفصل عن الآخر، هما:

العُنَابُ: وهو ثمر أَحْمَرَ لشجرة تُسَمَّى العناب أيضاً، وقد شَبَّه به القلوب الرطبة.

والحَشْفُ البالي: وهو يابسُ التَّمْرِ الذي ذهب ماؤه وكُلُّ خير فيه، وقد شَبَّه به القلوب اليابسة من قلوب الطير.

التشبيه المفروق:

وقد يتفنن الأديب فيأتي بِمَشَبَّهٍ وَمَشَبَّهٍ به، وَيُتْبَعُهُ بِمَشَبَّهٍ وَمَشَبَّهٍ به، وقد يزيد في كلام متتابع، دون فواصل.

وقد راق لليانين هذا الفن فوضعوا له اسم «التشبيه المفروق» ومثلوا له بقول المرقش الأكبر:

النَّشْرُ مِسْكٌ . وَالْوُجُوهُ دَنَا نَيْرٌ وَأَطْرَافُ الْأَكْفِ عَنْمٌ
سبق شرح هذا البيت.

ومنه قول المتنبي يصفُ حسناء:

بَدَتْ قَمْرًا وَمَالَتْ خُوطِ بَانَ وَفَاحَتْ عَنَبْرًا وَرَنْتَ غَزَالًا

خُوطِ بَانَ: الخُوطُ: القضيبي، وجمعه خِيَطَانٌ.

والبان: شجر سَبَطُ القوام لينٌ.

* * *

سادساً — «التشبيه المقلوب» :

ولاحظ البيانيون أنّ عاقد التشبيه قد يحلو له أحياناً أن يجعل المشبّه في كلامه مشبّهاً به، ويجعل المشبّه به مُشَبَّهًا، ليدلّ بصنيعه هذا على أنّ وجود وجه الشبّه في المشبّه أقوى وأظهر من وجوده في المشبّه به .

وقد راق للبيانين هذا الفنّ، فوضعوا له اسم «التشبيه المقلوب» .

أمثلة :

(١) قول البحثري يصف برقَ السحابة بتبشّم ممدوحه :

كَأَنَّ سَنَاها بِالْعَشِيّ لِصُبْحِها تَبشّمُ عَيْسَى حِينَ يَلْفِظُ بِالْوَعْدِ

لقد قلب التشبيه ليُشعرَ بأنّه يرى تبشّم ممدوحه عيسى أكثر ضياءً من برق السحابة التي استمرّ يتلامع طوال الليل، فتبشّمه حين يلفظ بالوعد ينبعث منه سناً معنويّ يسرّ القلوب سروراً لا يكون حين يتلامع سنا البرق .

(٢) قول محمد بن وهيب الحميريّ (متشيع من شعراء الدولة العباسية —

بصريّ الأصل بغداديّ النشأة) يمدح الخليفة :

وَبَدَا الصَّبَاحُ كَأَنَّ غُرَّتَهُ وَجَهُ الخَلِيفَةِ حِينَ يُمْتَدِّحُ

قلب التشبيه ليُشعرَ بأنّه يرى وجه الخليفة أكثر إشراقاً وضياءً من غرّة الصباح .

(٣) قول الشاعر :

أَحِنَّ لَهُمْ وَدُونَهُمْ فَلاةٌ كَأَنَّ فَسِيحَها صَدْرُ الحَلِيمِ

فشبه اتساع الفلاة بصدر الحليم، على طريقة التشبيه المقلوب .

* * *

سابعاً — «التشبيه الضمني» :

ولاحظ البيانيون أنّ عاقد التشبيه قد يترك الطريقة المعهودة في ذكر المشبه والمشبه به، ويتخذ طريقة غير صريحة في التشبيه، وذلك بأن يأتي بكلام مستقل مقرون بكلام آخر، وقد اشتمل هذا الكلام الآخر على معنى يفهم منه ضمناً تشبيه يناسب الكلام المستقل الذي اقترن به.

أمثلة:

(١) قول المتنبي يمدح الحسين بن عليّ الهمداني ويمدح أباه:

وَأَصْبَحَ شِعْرِي مِنْهُمَا فِي مَكَانِهِ وَفِي عُنُقِ الْحَسَنَاءِ يُسْتَحْسَنُ الْعِقْدُ

ما جاء في الشطر الثاني ليس تشبيهاً وفق المعروف من عبارات التشبيه، لكن يفهم منه ضمناً تشبيه، وهو أنّ شعره في ممدوحه يشبه العقد النفيس في عنق المرأة الحسنة.

(٢) قول المتنبي أيضاً يمدح «أبا أيوب أحمد بن عمران»:

كَرَّمُ تَيَّنَ فِي كَلَامِكَ مَائِلاً وَيَبِينُ عِنُقُ الْخَيْلِ فِي أَصْوَاتِهَا

عِنُقُ الْخَيْلِ: كَرَّمُهَا وَأَصَالَتُهَا وَتَفَوُّقُهَا فِي السَّبْقِ.

في أصواتها: أي: في صهيلها، أي: إنّ الفرس الكريم إذا صهل عرف عنته وكرمه بصهيله.

ما جاء في الشطر الثاني ليس تشبيهاً وفق المعروف من عبارات التشبيه، لكن يفهم منه ضمناً تشبيه، وهو أنّ كرم ممدوحه يظهر في كلامه، كما يظهر عنت الخيل في صهيلها.

(٣) قول البحرني يمدح «محمّد بن عليّ القمي»:

ضَحُوكُ إِلَى الْأَبْطَالِ وَهُوَ يَرُوعُهُمْ وَلِلسَّيْفِ حَدٌّ حِينَ يَسْطُو وَرَوْنُقُ

يفهم من الشطر الثاني ضمناً تشبيهُ، وهو أن ممدوح الشاعر كالسيف له صفتان، يسُرُّ الأبطال بإشراقه وبسماته، ويروعهم بسطوة سلطانه.

(٤) قول أبي العتاهية (هو أبو إسحاق إسماعيل بن القاسم كوفي مولداً ونشأة - الولادة والوفاة «١٣٠ - ٢١١هـ» معظم شعره مواعظ وحكم):

تَرْجُو النَّجَاةَ وَلَمْ تَسْأَلْكَ مَسَالِكَهَا إِنَّ السَّفِينَةَ لَا تَجْرِي عَلَى الْيَبْسِ
الشطر الثاني تَضَمَّنَ تشبيهاً، ولم يأت على نسق التشبيه المعهود من ذكر المشبّه والمشبّه به.

وإيضاح هذا التشبيه الضمني هو أن مَنْ لم يسْأَلْكَ مَسَالِكِ النَّجَاةِ تكون حاله مثل حال السَّفِينَةِ البحريّة إِذَا وُضِعَتْ فِي الْبَرِّ عَلَى الْيَابَسَةِ، فَإِنَّهَا لَا تَجْرِي.

(٥) قول أبي تمام:

اضْبِرْ عَلَيَّ مَضْضِ الْحَسْوِ دِ فَإِنَّ صَبْرَكَ قَاتِلُهُ
النَّارُ تَأْكُلُ بَعْضَهَا إِنَّ لَمْ تَجِدْ مَا تَأْكُلُهُ

البيت الثاني اشتمل على تشبيه ضمني واضح الدلالة.

(٦) وقول أبي تمام أيضاً:

لَيْسَ الْحِجَابُ بِمُقْصِرٍ عَنكَ لِي أَمَلًا إِنَّ السَّمَاءَ تُرَجِّئُ حِينَ تَحْتَجِبُ
الشطر الثاني اشتمل على تشبيه ضمني واضح الدلالة.

(٧) قول المتنبي من قصيدة يرثي فيها والدته سيف الدولة ويمدحه فيها:

فَإِنَّ تَفُوقَ الْأَنْبَاءِ وَأَنْتَ مِنْهُمْ فَإِنَّ الْمِسْكَ بَعْضُ دَمِ الْغَزَالِ
الشطر الثاني اشتمل على تشبيه ضمني واضح الدلالة، وقد ساقه مساق حُجَّةٍ يُثَبِّتُ فِيهَا مَا ادَّعَاهُ لِسَيْفِ الدَّوْلَةِ، مِنْ تَفُوقِ عَلَيَّ أَنْبَاءِ زَمَانِهِ.

(٨) قول أبي تمام في رثاء طفليْن لعبد الله بن طاهر:

لَهْفِي عَلَى تِلْكَ الشَّوَاهِدِ مِنْهُمَا لَوْ أَمَهَلْتُ حَتَّى تُكُونَ شَمَائِلًا
إِنَّ الْهَلَالَ إِذَا رَأَيْتَ نُمُوهُ أَيَقْنَتَ أَنْ سَيَصِيرُ بَدْرًا كَامِلًا

البيت الثاني اشتمل على تشبيه ضمني واضح الدلالة.

* * *

ثامناً — «التشبيه المكني»:

هو تشبيه مُضْمَرٌ لم يُذكر فيه لفظ المشبّه به، وإنما ذُكِرَ فيه بعض صفاته، أو بعض خصائصه، أو بعض لوازمه القريبة أو البعيدة كنايةً عنه.

وأصله تشبيه بليغ، إلا أنه بحذف لفظ المشبّه به والكناية عنه بما يدلُّ عليه من صفاته، أو خصائصه، أو لوازمه، صار أدقّ وأبلغ وأكثر بُعداً عن التعبير المباشر.

وربما كان أبلغ أيضاً من الاستعارات القريبة، إذا كانت حال المخاطب تقتضي كلاً منهما.

كأن يقول قائل: «ناديتُ خالداً فجاءني بجناح السرعة».

فإننا نلاحظ في هذا المثال أنّ القائل يشبّه مجيء خالد أو سرعته التي جاء بها بسرعة طائر يطير بجناحيه، لكنّه حذف المشبّه به الذي لو صرّح به لكان تعبيره من قبيل التشبيه البليغ كما هو ظاهر.

إذ يكون الكلام كما يلي: فجاءني طائراً سريعاً، أو فجاءني مجيء طائر سريع. ثم حذف المشبّه به ورمز إليه بشيء من صفاته وهو جناحه الذي هو أداة سرعة حُضُورِهِ، فكان التعبير فجاءني بجناح السرعة.

أي: فجاءني كطائر يطير بالجناح الذي هو أداة سرعته في قطع المسافات.

ويقتضي وضع بعض صفات المشبه به أو خصائصه أو لوازمه تصرفات في التعبير ملائمت لها، وهذه لا تغير من جوهر التشبيه المكني شيئاً.

أقول:

إنّ هذا التعبير وأمثاله فيما أرى هو من قبيل التشبيه البليغ المكني، ونقول فيه اختصاراً: «تشبيه مكني» كما قال البيانيون في نظيره من الاستعارة: «استعارة مكنية».

ولم يذكر البيانيون هذا القسم من أقسام التشبيه، لكن يُفهم من بعض كلام الخطيب القزويني، إذ ذهب إلى غير ما ذهب إليه السكاكي في الاستعارة التخيلية، كما سيأتي بمبحث الاستعارة إن شاء الله.

وهنا ألاحظ أنّ أمثلة كثيرة اختلطت على الباحثين والكتّاب في علم البيان، هل يجعلونها من التشبيه أم من الاستعارة التي يسمونها استعارة تخيلية؟.

وكان ذلك منهم بسبب عدم فرزِ قسم التشبيه المكني عن التشبيه البليغ الذي يُذكر فيه المشبه باللفظ الدالّ عليه مباشرة، ويُغضون النظر عن الضابط الذي ذكره للفرق بين الاستعارة والتشبيه، وهذا الفرق يقضي بأن لا يجتمع في الكلام المشبه والمشبه به على وجه يُنبئ عن التشبيه، في وجه من الوجوه السّنة الآتي شرحها مع أمثلتها، لدى الكلام على الاستعارة، وهي:

«أن لا يكون المشبه به خبراً عن المشبه – وأن لا يكون المشبه به حالاً للمشبه – ولا صفة له – ولا مضافاً إلى المشبه – ولا مصدرأً مُبيناً لنوعه – وأن لا يكون المشبه مُبيناً في الكلام للمشبه به».

فالعبارات التي يكون فيها شيء من هذه الوجوه السّنة تكون من التشبيه لا من الاستعارة، بحسب ما قرّروا، وهو حقّ.

غير أن كثيراً من الأمثلة التي يوردها بعض البيانين في الاستعارة، ويعتبرونها من الاستعارة القائمة على التخيل، هي من التشبيه المكنّي لدى التحليل.

أمثلة:

المثال الأول: «علي بن أبي طالب فارس شجاعٌ ذو بأسٍ في الحرب يفترس أقرانه» في هذا المثال تشبيه «علي بن أبي طالب» بالأسد على طريقة التشبيه البليغ، لكن لم يُذكر لفظ المشبّه به في العبارة وهو لفظ «الأسد» وإنما ذكر بعض صفاته بأسلوب التشبيه المكنّي.

ولا غرو أن هذا التشبيه المكنّي أدقُّ وأبلغ من التشبيه البليغ، لابتعاده عن ذكر لفظ المشبّه به، وليس هو من الاستعارة لاجتماع المشبّه وصفة من صفات المشبّه به، على وجه يُنبئ عن التشبيه.

المثال الثاني: قول الكميت:

خَفَضْتُ لَهُمْ مِنِّْي جَنَاحِي مَوْدَةٍ إِلَى كَنْفِ عِطْفَاهُ أَهْلٌ وَمَرْحَبٌ
الكنف: جانب كل شيء، والظلّ الذي يُستظلُّ به، ومن الإنسان حِضناه عن يمينه وشماله.

العطف: من الإنسان جانبه من لَدُنْ رَأْسِهِ إِلَى وَرِكِهِ.

شبه الكميت المودة بالطائر، على طريقة التشبيه البليغ الذي أضيف فيه المشبّه به إلى المشبّه «طائر المودة» أي: المودة التي كالطائر، ثم حذف المشبّه به، ورمز إليه بأخص صفاته التي تنخفض حناناً ومودةً، وهما الجناحان، فأضاف الجناحين للمودة، فقال: «جناحي مودة».

وناسب هذا التشبيه استعمال فعل الخفض، فقال: «خَفَضْتُ» وجعل جناحي مودته ينخفضان إلى كنفه، أي: إلى حضنيه عن يمينه وشماله.

وبما أن كَفَّه يشتمل على عِطْفِيَه فقد رأى أن يجعل أحد هذين العِطْفَيْن أهلاً، وأن يَجْعَلَ الآخر مرحباً، على طريقة التشبيه البليغ، أي: فهو لكثرة حسن استقباله لضيوفه كان أَحَدُ عِطْفِيَه كالأهل الذين يستقبلون بغاية الودّ، وكان العِطْفُ الآخر منه كالعبارات التي تُقَدَّم في الترحيب، أو كالمكان الرَّحْبِ الذي يَتَّسِعُ لمن ينزل فيه، ولكن حذَف أداة التشبيه ليكون تشبيهاً بليغاً، بمعنى أن المشبّه هو عَيْنُ المشبّه به ادّعاءً.

المثال الثالث: قول الله عزّ وجلّ في سورة (الرعد/ ١٣ مصحف/

٩٦ نزول):

﴿ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ۝١٥﴾ .

قوله تعالى: ﴿يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ .

جاء في هذه العبارة تشبيه العَهْدِ بِالْحَبْلِ الْمُبْرَمِ الَّذِي أَحْكَمْتَ تَقْوِيَتَهُ بِالْإِبْرَامِ، وهو إيثاقه، أي: إحكام تقويته.

ثُمَّ حُذِفَ المشبّه به، ورُزِمَ إِلَيْهِ بِنَعْضِ صِفَاتِهِ، فجاء النقص الذي يشبه إبطال العَهْدِ في عبارة «يَنْقُضُونَ» وجاء الإيثاق الذي يشبه إعطاء العهد للالتزام به، في عبارة «من بَعْدِ ميثاقه».

وأصل الكلام: يُبْطَلُونَ العهد إبطالاً يشبه نقض الحبل المُبْرَمِ الذي أَحْكَمَ إيثاقاً، الذي يُشْبِهُ إعطاء العهد الذي عاهدوا عليه مُوثِّقِينَ له بِالْإِيْمَانِ بِاللَّهِ .

المثال الرابع: قول الله عزّ وجلّ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/

٥٠ نزول) بشأن الإحسان إلى الوالدين:

﴿ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا ۝١٧﴾ .

في هذا المثال تشبيه التذلل للوالدين بتذلل الطائر حين يخفض جناحيه أو جناحه مُنكسراً لفراخه أو لزوجه أو لغيرهما، ولكن أضمر التشبيه، فلم يُذكر لفظ المشبه به، وإنما كُتِبَ عنه بشيء من صفاته وهو الجناح، وأضيف هذا المكنى به إلى المشبه.

وهذا على ما يظهر هو من التشبيه البليغ المكنى فيه عن المشبه به ببعض صفاته.

ومعنى الجملة على هذا التحليل: ليكن ذلك لوالديك كطائرٍ يخفض جناحه تذلاً من الرِّحمة، فحذفت أولاً أداة التشبيه فصار تشبيهاً بليغاً، ثم حذفت لفظ المشبه به، ورُمزَ إليه بشيء من صفاته وهو الجناح الذي يُستعملُ خفضه للدلالة به على التذلل والرِّحمة، فصار تشبيهاً مكنياً.

وناسبَ هذا التشبيه استعمالُ فعلِ «الخفض» في عبارة: «واخفض لهما» وظاهرٌ أن هذا الخفض يشترك فيه المشبه والمشبه به، فالطائر يخفض جناحه، والإنسان يخفض جانبه الجسدي، ويخفض جانبه النفسي.

الخفض في اللغة: التواضع ولين الجانب، والميلُ إلى المنخفض المطمئن من الأرض، وهو ضدُّ الرفع.

وجعل هذا المثال من قبيل الاستعارة المكنية مخالف للقواعد التي وضعها البيانون.

* * *

مختارات من التشبيهات والأمثال

● أَسْمَى التشبيهات والأمثال وأَبْدَعُهَا وَأَتَقَنَهَا ما جاء منها في القرآن المجيد، وقد بَدَلْتُ في دراستها واستخراجها ما أَمْلِكُ من طاقة إنسانية، استقصاءً وتدبراً وتحليلاً، ودَوَّنْتُ ذلك في كتابي «أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع» فأحيل عليه من شاء أن يستمتع ويتنفع بالروائع من التشبيهات والأمثال، وبطائفة من الصور الأدبية العجيبة.

● ويأتي من دونها ما جاء في تشبيهات الرسول محمد ﷺ، وقد انتقيت منها طائفة مختارة، وشرحتها شرحاً فكرياً وأدبياً، وجعلتها ضمن كتابي «روائع من أقوال الرسول» وأحيل عليه أيضاً من شاء أن يطلع على طائفة مشروحة من تشبيهات الرسول وأمثاله.

● وأقتصر هنا على عرض طائفة مختارة مما أبدعه المبدعون من الناس، من دون المصطفين الأخيار من الأنبياء والمرسلين:

(١) الشاعر الوصاف «أبو عبادة الوليد بن عبيد» الطائي الملقب «بالبحري» نسبة إلى «بُحْر» أحد أجداده - وهو مولود في «مَنْبِج» قُرب «حِمص» من بلاد الشام سنة «٢٠٥هـ» والمتوفى سنة «٢٨٤هـ» وصف بركة الخليفة «المتوكل على الله» من قصيدة يمدحه بها فقال:

يَا مَنْ رَأَى الْبِرْكََةَ الْحَسَنَاءَ رُوِيَتْهَا
بِحَسْبِهَا أَنَّهُا فِي فَضْلِ رُتْبَتِهَا
وَالْأَنَسَاتِ إِذَا لَاحَتْ مَغَانِيهَا^(١)
تُعَدُّ وَاحِدَةً وَالْبَحْرُ ثَانِيهَا
فِي الْحُسْنِ طَوْرًا وَأَطْوَارًا تَبَاهِيهَا^(٢)
مَا بَالُ دِجْلَةَ كَالْغَيْرَى تُنَافِسُهَا

(١) مغانيها: أي: منازلها.

(٢) تباهيها: تفاخرها بالبهاء والحسن، شبه نهر دجلة بالمرأة الغيرة، مدعيًا أن «دجلة» غيرى من بركة «المتوكل» لأن هذه البركة تنافسها في بعض أطوارها، وتفاخرها بالبهاء والحسن في أطوار كثيرة أخرى.

أَمَا رَأَتْ كَالِيءَ الْإِسْلَامِ يَكْلُوهَا
كَأَنَّ جِنَّ سُلَيْمَانَ الَّذِينَ وَلُوا
فَلَوْ تَمَرَّتْ بِهَا بِلْقَيْسُ عَنْ عَرَضٍ
تَنْصَبُ فِيهَا وَفُودُ الْمَاءِ مُعْجَلَةٌ
كَأَنَّمَا الْفِضَّةُ الْبَيْضَاءُ سَائِلَةٌ
إِذَا عَلَتْهَا الصَّبَا أَبَدَتْ لَهَا حُبَّكَأَ
فَحَاجِبُ الشَّمْسِ أَحْيَانًا يُضَاحِكُهَا
إِذَا التُّجُومُ تَرَاءَتْ فِي جَوَانِبِهَا
لَا يَبْلُغُ السَّمَكُ الْمَحْضُورُ غَايَتَهَا
يَعْمَنُ فِيهَا بِأَوْسَاطٍ مُجْتَنَحَةٍ
لَهَنَّ صَحْنٌ رَجِيبٌ فِي أَسَافِلِهَا

مِنْ أَنْ تُعَابَ وَبَآئِي الْمَجْدِ يَبِينُهَا^(١)
إِبْدَاعَهَا فَأَدُقُّوا فِي مَعَانِيهَا
قَالَتْ هِيَ الصَّرْحُ تَمْثِيلًا وَتَشْبِيهًا^(٢)
كَالْخَيْلِ خَارِجَةً مِنْ حَبْلِ مُجْرِيهَا^(٣)
مِنَ السَّبَائِكِ تَجْرِي فِي مَجَارِيهَا^(٤)
مِثْلَ الْجَوَاشِينِ مَصْقُولًا حَوَاشِيهَا^(٥)
وَرَيِّقُ الْغَيْثِ أَحْيَانًا يُبَاكِهَا^(٦)
لَيْلًا حَسِبْتَ سَمَاءَ رُكْبَتْ فِيهَا
لِبُعْدِ مَا بَيْنَ قَاصِيهَا وَدَانِيهَا
كَالطَّيْرِ تَتَقَضُّ فِي جَوْ خَوَافِيهَا
إِذَا انْحَطَطْنَ وَبَهُوٍ فِي أَعَالِيهَا

(١) كَالِيءَ الْإِسْلَامِ: أي: حافظه وراعيه، يعني به الخليفة «المتوكل».

(٢) بِلْقَيْسُ: ملكة سبأ التي وفدت على سليمان عليه السلام وكان قد أعد لها الصرح الممرّد من قوارير، فلما رأته حسبته لُجَّةً وكشفت عن ساقها. وقد شبه البركة وما حولها بهذا الأسلوب الضمني بصرح سليمان.

(٣) تَنْصَبُ فِيهَا وَفُودُ الْمَاءِ مُعْجَلَةٌ: شبه تدافع الماء بالوفود المتلاحقة، ووصفها بأنّها كالخيل إذا خرجت منطلقاً من حبلٍ مُجْرِيهَا.

(٤) كَأَنَّمَا الْفِضَّةُ الْبَيْضَاءُ سَائِلَةٌ: شبه الماء المتدفق الوافد على البركة من المجاري بالفضة المذابة السائلة.

(٥) إِذَا عَلَتْهَا الصَّبَا أَبَدَتْ لَهَا حُبَّكَأَ: أي: إذا مرّت على سطح البركة ريح الصبّا جعلت عليه طرائق مثنية متجددة كالدروع، الجواش: الدرّوع.

(٦) حَاجِبُ الشَّمْسِ: طرفها وأوائل أشعتها. وَرَيِّقُ الْغَيْثِ: أفضله وأصفاه.

تَغْنَى بِسَاتِينَهَا الْفُصُوى بِرُؤْيَيْهَا عَنِ السَّحَابِ مُنَحَلًّا عَزَالِيهَا^(١)
كَأَنَّهَا حِينَ لَجَّتْ فِي تَدْفُقِهَا يَدُ الْخَلِيفَةِ لَمَّا سَالَ وَادِيهَا
مَخْفُوفَةٌ بِرِيَاضٍ لَا تَزَالُ تَرَى رِيشَ الطَّوَاوِيسِ تَحْكِيهِ وَتَحْكِيهَا

هذه الأبيات من شعر البحري بمثابة عقد منظوم من التشبيهات البديعة، فلا تكاد تجد بيتاً فيها إلاّ معتمداً على وصفٍ تشبيهي بديع، يسرُّ أصحاب الأذواق الأديبة.

وما أجدني بحاجة إلى الشرح والتحليل، لوضوح التشبيهات الصريحة والضمنية فيها، ويُعينُ التعليق في الحاشية على فهم ما قد يكون غامضاً منه.

والبحري وَصَافٌ سَهْلٌ العبارة واضح الأسلوب.

(٢) ومن التشبيه الحسن قول القاضي أبي القاسم التتوخي:

وَلَيْلَةٌ مُشْتَاقٍ كَأَنَّ نُجُومَهَا قَدْ اغْتَصَبَتْ عَيْنَ الْكَرَى وَهِيَ نَوْمٌ
كَأَنَّ عَيْونَ السَّاهِرِينَ لِطُولِهَا إِذَا شَخَصَتْ لِلْأَنْجُمِ الزُّهْرِ أَنْجُمٌ
كَأَنَّ سَوَادَ اللَّيْلِ وَالْفَجْرُ ضَاكِكٌ يَلُوحُ وَيَخْفَى أَسْوَدٌ يَتَّبَسَّمُ

شبه عيون الساهرين في ليلة المشتاق الطويلة بالأنجم إذا شَخَصَتْ لِلْأَنْجُمِ الزُّهْرِ فِي السَّمَاءِ.

وشبه صورة سواد الليل عند بدايات الفجر الذي يظهر ويخفى بإنسان ذي جسم أسود يتبسم.

(١) منَحَلًّا عَزَالِيهَا: العزالي أفواه القرب، شبه حالة انصباب السحاب بالماء بما لو كانت لها أفواه كالقرب فأنحلت.

(٣) ومن التشبيه الضمنيّ البديع قول أبي تمام:

وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ نَشْرَ فَضِيلَةٍ طَوِيَتْ أَتَاحَ لَهَا لِسَانَ حَسُودٍ
لَوْلَا اشْتِعَالُ النَّارِ فِيمَا جَاوَرَتْ مَا كَانَ يُعْرَفُ طِيبُ عَرْفِ الْعُودِ
عَرْفُ الْعُودِ: رائحة العود الذي يُتَبَخَّرُ به.

(٤) ومن التشبيه الصريح السهل القريب ذي الطرافة، قول ابن الرومي يصف

مُخْلِفاً بمواعيده في العطاء:

يَذَلُّ الْوَعْدَ لِالْأَخْلَاءِ سَمْحاً وَأَبَى بَعْدَ ذَلِكَ بَذَلَ الْعَطَاءِ
فَغَدَا كَالْخِلَافِ يُورِقُ لِلْعَيْنِ مِنْ وَيَأْبَى الْإِثْمَارَ كُلَّ الْإِبَاءِ
الْخِلَافُ: هو شجر الصَّفْصَافِ، له ورق وظلٌّ، وليس له ثمر.

(٥) ومن التشبيه الذي جاء فيه المشبه مفرداً والمشبه به مُركَّباً، قول

الصنوبري:

وَكَأَنَّ مُحَمَّدَ الرَّشِيقِ قِي إِذَا تَصَوَّبَ أَوْ تَصَعَّدَ
أَعْلَامُ يَأْقُوتِ نُشْرٍ نَ عَلَى رِمَاحٍ مِنْ زَبْرَجَدٍ
مُحَمَّدَ الرَّشِيقِ: أي: الشقيق المُحَمَّدَ، والمراد به شقائق النعمان، وهو وردٌ
أحمر في وسطه سواد.

إِذَا تَصَوَّبَ: أي: إذا مال إلى أسفل.

أَوْ تَصَعَّدَ: أي: أَوْ نَهَضَ إِلَى الْأَعْلَى مُسْتَقِيماً.

شبه شقائق النعمان تُحَرِّكُهَا الرِّيحُ رَاكِعَةً نَاهِضَةً بِأَعْلَامٍ مِنْ يَأْقُوتِ أَحْمَرٍ
نُشْرٍ عَلَى رِمَاحٍ مِنْ زَبْرَجَدٍ أَحْضَرٍ.

(٦) ومن التشبيه القريب المبتذل الذي رفع قيمته ما أضيف إليه من تَمَّاتٍ،

قول أبي تمام يمدح الحسن بن رجا:

سَتُصْبِحُ الْعَيْسُ بِي وَاللَّيْلُ عِنْدَ فَتَى
 صَدَفْتُ عَنْهُ وَلَمْ تَصْدِفْ مَوَاهِبُهُ
 كَالغَيْثِ إِنْ جِئْتَهُ وَافَاكَ رَيْقُهُ
 وَإِنْ تَرَحَّلْتَ عَنْهُ لَجَّ فِي الطَّلَبِ
 صَدَفْتُ عَنْهُ: أي: أَعْرَضْتُ عَنْهُ.

رَيْقُهُ: أَفْضَلُهُ وَأَصْفَاهُ.

لَجَّ فِي الطَّلَبِ: أي: لَازَمَهُ وَأَبَى الْإِنْصِرَافَ عَنْهُ.

تشبيه ذي الجود بالغيث مكرور مبتذل، لكن أبا تمام أضاف إليه ما رفع قيمة تشبيهه، فجعله داخلاً في درجات المرتبة العليا، بقوله: إِنْ جِئْتَهُ وَافَاكَ رَيْقُهُ، وَإِنْ تَرَحَّلْتَ عَنْهُ لَجَّ فِي طَلَبِكَ لِيَمْنَحَكَ عَطَايَاهُ، فهذه فكرة طريفة بديعة، رفعت قيمة التشبيه بالغيث.

(٧) ومن بديع التشبيه وصف ابن الرُّمِّي عمَلَ خَبَازٍ مَرَّةً بِهِ:

مَا أَنْسَ لَا أَنْسَ خَبَازاً مَرَرْتُ بِهِ
 يَدْحُو الرُّقَاقَةَ وَشَكَ اللَّمْحَ بِالْبَصْرِ
 مَا يَبِينُ رُؤْيَيْهَا فِي كَفِّهِ كُرَّةً
 وَيَبِينُ رُؤْيَيْهَا قَوْرَاءَ كَالْقَمَرِ
 إِلَّا بِمِقْدَارِ مَا تَنْدَاحُ دَائِرَةٌ
 فِي صَفْحَةِ الْمَاءِ تَرْمِي فِيهِ بِالْحَجَرِ
 يَدْحُو: أي: يَيْسُطُ.

وَشَكَ اللَّمْحَ بِالْبَصْرِ: أي: كَسُرَعَةَ اللَّمْحِ بِالْبَصْرِ.

قَوْرَاءَ: أي: وَاسِعَةً مَنْبَسُطَةً مُسْتَدِيرَةً.

تَنْدَاحُ: أي: تَعْظُمُ وَتَكْبُرُ وَتَتَوَسَّعُ.

(٨) وقول ابن المعتز يصف غديراً تُشَكِّلُ الرِّيحُ سَطْحَهُ عَلَى شَكْلِ دَرِعِ

مُذْهَبٍ، إِذَا كَانَتِ الشَّمْسُ مُشْرِقَةً عَلَيْهِ:

غَدِيرٌ تُرْجِرُ أَمْوَاجَهُ هَبُوبُ الرِّيَّاحِ وَمَرُّ الصَّبَا
إِذَا الشَّمْسُ مِنْ فَوْقِهِ أَشْرَقَتْ تَوَهَّمَتْهُ جَوْشَنًا مُذْهَبًا

هَبُوبُ الرِّيَّاحِ: أي: الرِّيَّاحُ الهَبُوبُ، وهي القويَّة الشديدة.

الصَّبَا: رِيحٌ مَهْبُهَا مِنَ الشَّرْقِ.

جَوْشَنًا: أَي: دِرْعًا.

(٩) المقطوعة المنسوبة إلى الشاعرة الأندلسية: حَمْدَةَ «أَوْ حَمْدُونَةَ» بنت زياد:

وَقَانَا لَفَحَةَ الرَّمْضَاءِ وَادٍ سَقَاهُ مُضَاعَفُ الغَيْثِ العَمِيمِ
نَزَلْنَا دَوْحَهُ فَحَنَّا عَلَيْنَا حُنُوءَ المُرْضِعَاتِ عَلَى الفَطِيمِ
وَأَرْشَفْنَا عَلَى ظَمَأٍ زَلَالًا أَلَذَّ مِنَ المُدَامَةِ لِلنَّدِيمِ
يَرُوعُ حَصَاهُ حَالِيَةَ العَذَارَى فَتَلَمَسُ جَانِبَ العِقْدِ النِّظِيمِ

في هذه المقطوعة من الإبداع تشبيه ظلال الدوح بحنوِّ المرضعات على الطفل الفطيم. ومع أن تشبيه الحصى بجواهر العقود تشبيه مكرور إلا أنه اقترن هنا بما جعله رائعاً، وهو توهُّمُ صباحة العقد من العذارى أن عقدها انقطع نظامه وتساقت حباته في النهر، فهي تضع يدها عليه لتحسُّسه.



الفصل الثالث

المجاز

وهو قسمان :

القسم الأول : الاستعارة .

القسم الثاني : المجاز المرسل .
وفيه مقدمة ومقولتان :

المقولة الأولى : الاستعارة .

وفيها مقدمة ومبحثان :

المبحث الأول : الاستعارة في المفرد .

المبحث الثاني : الاستعارة في المركب .

المقولة الثانية : المجاز المرسل .

وفيها مقدمة وأربعة مباحث :

المبحث الأول : المجاز المرسل في المفرد .

المبحث الثاني : المجاز المرسل في المركب .

المبحث الثالث : المجاز المرسل في الإسناد

«وهو المجاز العقلي» .

المبحث الرابع : المجاز المرسل القائم على

التوسّع في اللّغة دون ضابط معيّن .

المقدمة

(١)

تعريفات

سبق في المقدمة العامة لعلم المعاني تعريف كل من الحقيقة والمجاز في اصطلاح البيانين.

وإذ جاء في هذا الفصل بحث المجاز بقسميه فإن من المستحسن إعادة ذكر تعريف كل من الحقيقة والمجاز اصطلاحاً مع إضافة بيان أصل معناهما في اللغة.

الحقيقة لغة: الشيء الثابت يقيناً. وحقيقة الشيء: خالصه وكُنْهه وعناصره الذاتية. وحقيقة الأمر: ما كان من شأنه يقيناً. وحقيقة الرجل: ما يلزمه حفظه والدفاع عنه، يقال: فلان يحمي الحقيقة.

الحقيقة: «فعلية» من حَقَّتْ الفكرة أو الكلمة أو القضية أو المُدْرَكَةُ الذهنية أو نحو ذلك تَحَقُّقاً حَقاً وَحُقُوقاً إذا صَحَّتْ وَثَبَّتْ وَصَدَقَتْ وَاسْتَقَرَّتْ، فهي على هذا بمعنى «فاعله» أي: ثابتة مستقرة صادقة.

الحقيقة اصطلاحاً: اللفظ المستعمل فيما وُضِعَ له في اصطلاح به التخاطب. والمراد من الوضع تَعْيِينُ اللفظ في أصل الاصطلاح للدلالة بنفسه على معنى ما، دون الحاجة إلى قرينة.

المجاز لغة: مصدر فَعَلَ «جَازَ» يقال لغة: جاز المسافر ونحوه الطريق، وجاز به جَوْزاً وجوازاً ومجازاً، إذا سار فيه حتى قطعه.

ويطلق لفظ «المجاز» على المكان الذي اجتازه من سار فيه حتى قطعه.

ويقال: جازَ القولُ، إذا قُبِلَ وَنَفَذَ. وكذا يقال: جازَ العَقْدَ وَغَيْرُهُ، إذا نَفَذَ ومَضَى على الصَّحَةِ.

المجاز اصطلاحاً: اللَّفْظُ المستعمل في غير ما وُضِعَ له في اصطلاح به التخاطب، على وجهِ يَصِحُّ ضمنَ الأصولِ الفكرية واللُّغويةِ العامَّة، بقرينة صارفة عن إرادة ما وُضِعَ له اللَّفْظُ.

فالقريئةُ هي الصارف عن الحقيقة إلى المجاز، إذ اللَّفْظُ لا يَدُلُّ على المعنى المجازيِّ بنفسه دون قرينة.

* * *

(٢)

أقسام الحقيقة والمجاز اللُّغوية والشرعية والعرفية

كلُّ من الحقيقة والمجاز ينقسم إلى أربعة أقسامٍ متقابلة:

(١) الحقيقة اللُّغوية، ويقابلها، المجازُ اللُّغوي.

إذا استعمل اللَّفْظُ في مجالات الاستعمالات اللُّغوية العامة بمعناه الذي وضع له في اللُّغة، كان حقيقة لُّغوية.

وإذا استعمل في هذه المجالات في غير معناه الذي وُضِعَ له في اللُّغة، لعلاقة من علاقات المجاز، كان مجازاً لُّغويّاً.

أمثلة:

● لفظ «أسد» إذا استعمل في المجالات المذكورة للدلالة على الحيوان المفترس المعروف فهو حقيقة لُّغوية.

وإذا استعمل للدلالة به على الرجل الشجاع فهو مجاز لُّغوي، وعلاقته المشابهة، فهو من نوع المجاز بالاستعارة.

● لفظ «اليد» إذا استعمل في العضو المعروف من الجسد، فهو حقيقة لغوية.

وإذا استعمل للدلالة به على الإنعام، أو على القوة، أو على التسبب في أمر ما، فهو مجاز لغوي، وعلاقته غير المشابهة، فهو من نوع المجاز المرسل.

لفظ «النَّهْر» إذا استُعمل في الشَّق من الأرض الذي يجري فيه الماء، فهو حقيقة لغوية.

وإذا استعمل للدلالة به على الماء الجاري فيه، فهو مجاز لغوي، وعلاقته غير المشابهة، وهي هنا «المحلية» فهو من نوع المجاز المرسل.

● وإذا قلنا مثلاً «سَالَ الوادي» فقد أسندنا السيلان إلى الوادي مع أن الوادي لا يسيل، لكن الذي يسيل هو الماء فيه، فهذا إسنادٌ مجازي علاقته المجاورة، وهو من «المجاز العقلي».

(٢) الحقيقة الشرعية ، ويقابلها، المجاز الشرعي .

إذا استعمل اللفظ في مجالات استعمال الألفاظ الشرعية بمعناه الاصطلاحي الشرعي كان حقيقة شرعية .

وإذا استعمل للدلالة به على معنى آخر ولو كان معناه اللغوي الأصلي كان بالنسبة إلى المفهوم الاصطلاحي الشرعي مجازاً شرعياً .

أمثلة :

● لفظ «الصلاة» إذا استُعمل في مجالات الدراسة الشرعية للدلالة به على الركن الثاني من أركان الإسلام والنوافل التي على شاكلته، فهو حقيقة شرعية .

وإذا استعمل بمعنى الدعاء الذي هو الحقيقة اللغوية، كان مجازاً شرعياً .

● لفظ «الزكاة» إذا استُعمل في الركن الثالث من أركان الإسلام في مجالات الدراسة الشرعية، فهو حقيقة شرعية .

وإذا استعمل بمعنى النماء والطهارة فهو مجاز شرعي .

وهكذا إلى سائر المصطلحات الشرعية .

(٣) الحقيقة في العرف العام ، ويقابلها ، المجاز في العرف العام .

يراد بالعرف العام ما هو جار على ألسنة الناس في عُرْفِ عامٍّ على خلاف أصل الوضع اللغوي .

إذا استُعمل اللفظ في مجالات العرف العام بمعناه الذي جرى عليه هذا العرف كان حقيقة عرفية عامة .

وإذا استعمل للدلالة به على معنى آخر ولو كان معناه اللغوي الأصلي ، كان بالنسبة إلى هذا العرف مجازاً عرفياً عاماً .

مثل : لفظ «الدابة» جرى إطلاقه في العرف العام على ما يمشي من الحيوانات على أربع ، فإطلاق هذا اللفظ ضمن العرف العام بهذا المعنى حقيقة عرفية عامة .

وإطلاقه ضمن أهل العرف العام بمعنى آخر ولو كان معناه اللغوي الأصلي ، وهو كل ما يدب على الأرض من ذي حياة فهو مجاز في العرف العام .

وكذلك إذا أطلق على ما يدب على الأرض من آله غير ذات حياة ، ومثل هذا الإطلاق يكون مجازاً في العرف العام ومجازاً لغوياً .

(٤) الحقيقة في العرف الخاص ، ويقابلها ، المجاز في العرف الخاص .

يراد بالعرف الخاص مصطلحات العلوم ، إذ لكل علم مصطلحاته من الكلمات اللغوية ذات الدلالات اللغوية بحسب الأوضاع اللغوية ، وهي قد تخالف ما اصطلاح عليه أصحاب العلم الخاص .

مثل أَلْفَاظ: «الفاعل - المفعول به - الضمير - الحال - التمييز - البدل - وغيرها» في علم النحو.

ومثل أَلْفَاظ: «الجمع - الطرح - الضرب - التقسيم - ونحوها» في علم الرياضيات.

فإذا استعملت هذه الألفاظ ضمن علومها على وفق مفاهيمها الاصطلاحية كانت حقيقة في العُرف الخاص.

وإذا استعملت في معاني أخرى ولو كانت معانيها اللغوية الأصلية كانت مجازاً في العرف الخاص.

* * *

(٣)

تقسيم المجاز إلى مجاز لغوي ومجاز عقلي

ينقسم المجاز في الكلام إلى قسمين:

القسم الأول: المجاز اللغوي، وهو الذي يكون التجوُّز فيه باستعمال الألفاظ في غير معانيها اللغوية أو بالحذف منها أو بالزيادة أو غير ذلك، مثل:

- استعمال لفظة «الأسد» للدلالة على الإنسان الشجاع.
- واستعمال الشراء والبيع بمعنى أخذ شيءٍ يلزم عنه ترك شيءٍ آخر.
- واستعمال «اليد» بمعنى الإنعام، أو بمعنى القوة والسلطان.
- واستعمال «الإصبع» وإرادة الأنملة التي هي جزء من الإصبع.
- واستعمال عبارة «أراك تقدّم رجلاً وتؤخّر أخرى» بمعنى: أراك متردداً.

● ومثل حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، وزيادة بعض الحروف للتأكيد أو التزيين.

القسم الثاني: المجاز العقلي، وهو المجاز الذي يكون في الإسناد بين مُسْنَدٍ ومُسْنَدٍ إليه.

والتجوز في هذا القسم يكون في حركة الفكر بإسناد معنى من المعاني مدلول عليه بحقيقة أو مجاز إلى غير الموصوف به في اعتقاد المتكلم لمُلابَسَةِ ما تُصَحِّحُ في الذهن هذا الإسناد تجوزاً، بشرط وجود قرينة صارفة عن إرادة كون الإسناد على وجه الحقيقة، مثل ما يلي:

● إسناد بناء الجسور ودوائر الحكومة ومنشآتها في الدولة إلى ملك البلاد، نظراً إلى كونه الأمرِ ببنائها.

● وإسناد القيام إلى ليل العابد لربه، وإسناد الصيام إلى نهاره، مع أن الإسناد الحقيقي يقتضي أن يُسْنَدَ القيام والصيام إلى شخص العابد.

● وإسناد حُسن التاليف والتصنيف إلى قلم الكاتب، مع أن القلم لا يُحْسِنُ تاليفاً ولا تصنيفاً، إنّما يُحْسِنُهُمَا الكاتب به البارِع.

● وجعل المأكول في الرَّعْيِ الغَيْثِ النازل من السماء، مع أن المأكول هو الزرع الذي نبت في الأرض بسبب الغيث.

إلى غير ذلك من أمثلة، وسيأتي إن شاء الله بيان وشرح المجاز العقلي في هذا الفصل.

* * *

(٤)

تقسيم المجاز إلى

مجاز في المفرد ومجاز في المركب ومجاز في الإسناد

ومجاز قائم على التوسع في اللغة دون ضابط معين

ينقسم المجاز إلى الأقسام الأربعة التالية:

القسم الأول: «المجاز في المفرد» وهو اللفظ المفرد المستعمل في غير ما وضع له، كالأسد في الرجل الشجاع، وكاليد بمعنى الإنعام.

القسم الثاني: «المجاز في المركب» وهو اللفظ المركب المستعمل بهيئته المركبة في غير المعنى الذي وضع له، لعلاقة ما، مع قرينة صارفة عن إرادة المعنى الأصلي، مثل:

● أراك تقدّم رجلاً وتؤخر أخرى، أي: حالك كحال المتردد.

● أنت تنفخ في رماد، أي: حالك كحال من ينفخ في رماد، في ضياع الجهد.

ومثل:

● استعمال الجُمَل الخبرية بمعنى الإنشاء.

● استعمال الجمل الإنشائية بمعنى الخبر.

القسم الثالث: «المجاز في الإسناد» وهو المجاز العقلي الذي يُسند فيه الفعل أو ما في معناه إلى غير ما هو له في اعتقاد المتكلم، مثل:

● سأل الوادي، بإسناد السيلان إلى الوادي، مع أنّ الذي سأل هو الماء فيه، والعلاقة المجاورة.

القسم الرابع: «المجاز القائم على التوسع في اللغة دون ضابط معين» وهو

- المجاز الذي يكون التوسُّع اللُّغويُّ فيه بوجه مختلفة لا يجمعها ضابط معين، كالزيادة أو الحذف في بعض الكلام، وكإطلاق الماضي على المستقبل والعكس، مثل:
- حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، نحو: أسأل القرية، أي: أسأل أهل القرية.
 - زيادة حروف في ضمن الكلام للتأكيد أو للتزيين، نحو: لفظ «ما» بعد «إذا».

* * *

(٥)

تقسيم المجاز اللُّغوي إلى استعارة ومجاز مرسل

ينقسم المجاز اللُّغوي بالنظر إلى وجود علاقة بين المعنى الأصلي والمعنى المجازي، أو بين الاستعمال الأصلي والاستعمال المجازي، أو عدم ملاحظة علاقة ما، بل هو مجرد توسُّع لغوي، إلى قسمين:

القسم الأول: «الاستعارة» وهي المجاز الذي تكون علاقته المشابهة بين المعنى الأصلي والمعنى المجازي الذي استعمل اللفظ للدلالة به عليه. وهذه الاستعارة تكون في المفرد، وتكون في المركب كما سيأتي إن شاء الله.

القسم الثاني: «المجاز المرسل» وهو نوعان:

- نوعٌ توجَدُ فيه علاقة غير المشابهة بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي الذي استعمل اللفظ للدلالة به عليه، كاستعمال «اليد» بمعنى النعمة لعلاقة كون اليد هي الوسيلة التي تستعمل عادة في عطاء الإنعامات، وكإسناد الفعل أو ما في معناه لغير ما هو له.

- ونوعٌ لا توجد فيه علاقة فكريَّة ما، وإنما كان مجرد توسُّع لغوي، كالمجاز بالحذف دون ملاحظة علاقة فكريَّة، وكالمجاز بالزيادة، وغير ذلك.

وسُمِّيَ هذا «مجازاً مُرْسَلاً» لكونه مُرْسَلاً عن التقييد بعلاقة المشابهة، سواء
أكان له علاقة غير المشابهة، أم لم تكن له علاقة ما.

* * *

(٦)

فُنُّ المِجَازِ ودَوَاعِيهِ وَأَغْرَاضِهِ

المِجَازُ طريقٌ من طُرُقِ الإِبْدَاعِ البَيَانِيِّ فِي كُلِّ اللُّغَاتِ، تَدْفَعُ إِلَيْهِ الفِطْرَةُ
الإِنْسَانِيَّةُ المَزُوْدَةُ بالقُدْرَةِ عَلَى البَيَانِ، وَاسْتِخْدَامِ الحِجَلِ المِخْتَلِفَةِ للتَّعْبِيرِ عَمَّا فِي
النَّفْسِ مِنْ مَعَانٍ تُرِيدُ التَّعْبِيرَ عَنْهَا.

وقد استخدمه الناطق العربي في عصوره المختلفة، في حواضره وبواديه
استخداماً بارعاً وواسعاً جداً، حتَّى بلغت اللُّغة العربيَّة في مجازاتها مبلغاً مثيراً
للإعجاب بعبقرية الناطقين بها في العصور الجاهليَّة، وفي العصور الإسلاميَّة،
وكان لفحول الشعراء، وأساطين البلغاء، من كُتَّابٍ وخطباء، أفانينٌ بديعة، عجيبة
ومُعْجِبة من المِجَازِ، لا يَتَصَيَّدُهَا إِلَّا الأذكياءُ والفطناءُ، المتمرِّسونَ بأساليبِ التَّعْبِيرِ
غيرِ المِباشِرِ عن أغراضهم.

وليس المِجَازُ مُجَرَّدُ تَلَاعُبٍ بالكلامِ فِي قَفْزَاتٍ اعتباطيَّةٍ مِنْ استعمالِ كلمةٍ
أو عبارةٍ موضوعةٍ لمعنى، إلى استعمالِ الكلمةِ أو العبارةِ بمعنى كلمةٍ أو عبارةٍ
أخرى موضوعةٍ لمعنى آخر، ووضع هذه بدل هذه للدلالة بها على معنى اللفظ
المُتْرُوكِ المُسْتَبَدَّلِ به اللفظ الآخر.

بل المِجَازُ حركاتٌ ذهنيَّةٌ تَصِلُ بَيْنَ المعاني، وتَعْقِدُ بَيْنَهَا روابطَ وعلاقاتٍ
فكريَّةً تسمح للمعبَّرِ الذكيِّ اللَّمَّاحِ بأن يستخدم العبارة التي تدلُّ في اصطلاح
التخاطب على معنى من المعاني لِيُدَلَّ بها على معنى آخر، يمكن أن يفهمه المتلقِّي
بالقرينة اللفظيَّة أو الحاليَّة، أو الفكريَّة البحت.

● إنه مثلاً قد يلاحظ انقطاع الصلة بين فئة من الناس وفئة أخرى، أو قوم وقوم آخرين، لعداوة قائمة بينهما، ويرى إضرار كلٍّ من الفريقين على موقفه العدائي، ومجافاة الفريق الآخر، وعدم التلاقي به أو التعامل معه، فيَلْمَحُ أن هذا الأمر بين الفريقين يشبه جبليْن يفصل بينهما وادٍ سحيق ليس له قرار، ويَلْمَحُ أن إقامة الصَّلَاتِ بينهما متعذّرٌ أو متعسّرٌ جداً ما دام هذا الفاصل السحيق بينهما، فيخطرُ له أن يتخذ وسطاء مقبولين، من كلٍّ من الفريقين، ليقوم هؤلاء الوسطاء بنقل المصالح والحاجات بينهما.

ويَلْمَحُ أن هؤلاء الوسطاء سيكونون بمثابة الجسور التي تُبْنَى فوق الوادي، ويكون أحد طرفيها على هذا الجبل، والطرف الآخر على الجبل الآخر، وعندئذٍ لا يحتاج المجتاز أن يَعْبُرَ الوادي السحيق المتعذّر العبور أو العسير جداً.

حين تكتمل لديه الصورة على الوجه الذي سبق تفصيله يختصر في التعبير فيقول: «نقيم بين الفريقين المتعادين جُسُورَ التواصل».

إنه يستخدم كلمة «جسور» استخداماً مجازياً، يدركه المتلقّي بالتفكير، لأن الفئات المتخاصمة المتجافية لا تُقام بينها جسورٌ مادية، بل يقوم الوسطاء بينها بحلّ كثير من المشكلات بينها.

وتدلُّ كلمة «جسور» على صورة ذات عناصر كثيرة، وكلٌّ من هذه العناصر ذو دلالة خاصة، وأبعادٍ فكرية متشعبة.

ولا يصعبُ على من يَعْتَادُ مثلَ هذه التعبيرات أن يُدْرِكَ أنَّ صاحب العبارة قد شَبَّهَ حالة الفريقين المتجافين بحال مُرتَفِعَيْنِ من الأرض بينهما فاصلٌ يتعذّر أو يعسّرُ جداً اجتيازه إلاً بمجازٍ يُقَامُ بينهما، وهو الجسرُ الذي يمتدُّ فوق الوادي، ويكون أحد طرفيه على هذا المرتفع، والطرف الآخر على المرتفع الآخر.

● ويتكرّر مثلاً على ألسنة الناس استعمال عبارات: «أهل البلد — أهل القرية — أهل المدينة — أهل الدار» في جُمَلٍ لا يَصْلُحُ فيها إلاً إرادة الأهل.

ثم يلاحظون أنه لا داعي لذكر كلمة «أهل» في هذه العبارات وأمثالها، لأن المتلقّي لا يختلط عليه الأمر، فيختصرون في العبارة فيقول مثلاً:

«اسأل قرية كذا - أطعم هذه الدار - عاقب المدينة الظالمة - كرم البلد الآمن» على تقدير مضاف محذوف هو كلمة «أهل».

فيتجوّزون في التعبير بداعي الاختصار والإيجاز في الكلام، مع ملاحظة معاني بلاغية أخرى، كالإشعار بأن كل أهل المدينة يستحقون المعاقبة، وكل أهل البلد الآمن يستحقون التكريم.

وهكذا يحمل المجاز في العبارة من المعاني الممتدة الواسعة، ومن الإبداع الفني ذي الجمال المُعجِب، ما لا يؤدّيه البيان الكلامي إذا استعمل على وجه الحقيقة في كثير من الأحيان.

مع ما في المجاز من اختصار في العبارة وإيجاز، وإمتاع للأذهان، وإرضاء للنفوس ذوات الأذواق الرفيعة التي تتحسّس مواطن الجمال البياني فتتأثّر به تأثراً إعجاب واستحسان.

ودواعي المجاز وأغراضه يمكن ذكر أهمها فيما يلي:

أولاً: أن المجاز في الكلام هو من أساليب التعبير غير المباشر، الذي يكون في معظم الأحيان أوقع في النفوس وأكثر تأثيراً من التعبير المباشر.

ثانياً: يشتمل المجاز غالباً على مبالغة في التعبير لا توجد في الحقيقة، والمبالغة ذات دواعي بلاغية متعدّدة، منها: «التأكيد - التوضيح - الإمتاع بالجمال - الترغيب عن طريق التزيين والتحسين - التنفير عن طريق التشويه والتقييح -» إلى غير ذلك.

ثالثاً: يُتيح استخدام المجاز فرصاً كثيرة لابتكار صور جمالية بيانية لا يُتيحها استعمال الحقيقة، فمعظم أمثلة التصوير الفني الرائع مشحونة بالمجاز.

رابعاً: استخدام المجاز يُمكنُ المتكلّم من بالغ الإيجاز مع الوفاء بالمراد ووفرة إضافية من المعاني والصّور البديعة .

خامساً: المجاز بالاستعارة أبلغ من التشبيه، فما سبق بيانه في دواعي التشبيه وأغراضه موجود في الاستعارة مع أمور أخرى لا تُوجدُ في التشبيه .

سادساً: المجاز المرسل أبلغ من استعمال الحقيقة في كثير من الأحيان إذا كان حالٌ مُتلقّي البيان ممّن يلائمهم استخدام المجاز، ويشدُّ انتباههم لتدبّر المضمون وفهمه .

إلى غير ذلك من داوعي وأغراض تفتتق عنها أذهان أذكياء البلغاء .



الاستعارة

المقدمة

(١)

تعريفات

الاستعارة في اللغة: طلبُ شيءٍ ما للانتفاع به زمناً ما دون مقابل، على أن يرُدَّه المستعير إلى المُعير عند انتهاء المدّة الممنوحة له، أو عند الطلب.

الاستعارة في اصطلاح البيانين: استعمال لفظٍ ما في غير ما وُضِع له في اصطلاح به التخاطب، لعلاقة المشابهة، مع قرينة صارفةٍ عن إرادة المعنى الموضوع له في اصطلاح به التخاطب.

وهي من قبيل المجاز في الاستعمال اللغوي للكلام، وأصلها تشبيهٌ حُذِفَ منه المشبّه وأداةُ التشبيه ووجهُ الشبّه، ولم يبق منه إلا ما يدلُّ على المشبّه به، بأسلوب استعارة اللفظ الدالّ على المشبّه به، أو استعارة بعض مشتقاته، أو بعض لوازمه، واستعمالها في الكلام بدلاً عن ذكر لفظ المشبّه، ملاحظاً في هذا الاستعمال ادعاءً أنّ المشبّه داخل في جنس أو نوع أو صنف المشبّه به، بسبب مشاركته له في الصفة التي هي وجه الشبّه بينهما، في رؤية صاحب التعبير.

وأركان الاستعارة على هذا أربعة :

(١) اللفظ المستعار .

(٢) المعنى المستعار منه ، وهو المشبّه به .

(٣) المعنى المستعار له ، وهو المشبّه .

(٤) القرينة الصارفة عن إرادة ما وُضِعَ له اللفظ في اصطلاح به التخاطب .

والقرينة دليلٌ من المقال ، أو من الحال ، أو عقليٌّ صرف .

ولم يذكر البيانيون هذا الركن وقد رأيت إضافته لأنه إذا فقدت القرينة لم

تصح الاستعارة .

وقد تطلق كلمة «الاستعارة» على اللفظ المستعمل في غير ما وُضِعَ له في

اصطلاح به التخاطب لعلاقة المشابهة .

مثل : انطلق أسد الكتيبة الخضراء ، يصرع فرسان الأعداء ، أفراداً وأزواجاً .

جاء في هذا المثال استعمال كلمة «أسد» في غير معناها الحقيقي على سبيل

الاستعارة .

هذا الاستعمال يسمّى «استعارة» بمقتضى المعنى الأول الذي جاء في

التعريف .

ولفظ «أسد» في هذا الاستعمال قد يُطلق عليه أيضاً في الاصطلاح «استعارة»

بمقتضى المعنى الثاني .

ومن لطائف التعبيرات قولهم في الاستعارة : تزوّج المجاز التشبيه فتولد

منهما الاستعارة .

فالاستعارة مجازٌ علاقته المشابهة .

الفرق بين الاستعارة والتشبيه :

قالوا في التفريق بين الاستعارة والتشبيه أنه يشترط في الاستعارة تناسي التشبيه، وادعاءً أنّ المشبه فردٌ من أفراد المشبه به، ولا يُجمَعُ فيها بين المشبه والمشبه به على وجه يُنبئ عن التشبيه، ولا يُذكرُ فيها وجه الشبه، ولا أداة التشبيه لا لفظاً ولا تقديراً.

ومن الجمع بين المشبه والمشبه به على وجه يُنبئ عن التشبيه ما يلي:

(١) أن يكون المشبه به خبراً عن المشبه، مثل: وجَّهها قمر، وشعرها ليل، وقدَّها غصنُ بان، وعيناها عينا ظبية.

ومثل الخبر ما كان في حكمه، كخبر «كان» وأخواتها، و«إن» وأخواتها، وكالمفعول الثاني في فعل «ظنَّ» وأخواته.

(٢) أن يكون المشبه به حالاً صاحبها المشبه، مثل قول الشاعر أبي القاسم

الزاهي يصف حسناوات:

سَفَرْنَ بُدوراً. وَاَنْتَقَبْنَ أَهْلَةً وَمِسْنَ غُصُوناً. وَالتَّفْتَنَ جَادراً
جَادِر: جمع جُوْدِر، وهو ولد البقرة الوحشية.

(٣) أن يكون المشبه به صفة للمشبه، مثل قولي صانعاً مثلاً:

لَا يَفْلِقُ الْهَامَ فِي سَاحِ الْقِتَالِ إِذَا تَلَا حَمَ الْبَأْسِ إِلَّا الْفَارِسُ الْأَسَدُ

(٤) أن يكون المشبه به مضافاً إلى المشبه، مثل قول الشاعر:

وَالرَّيْحُ تَعَبَتْ بِالْغُصُونِ وَقَدْ جَرَى ذَهَبُ الْأَصِيلِ عَلَى لُجَيْنِ الْمَاءِ

أي: وقد جرى شعاع الأصيل الذي يُشبه الذهب، على الماء الذي يشبه

اللجين، وهي الفضة.

(٥) أن يكون المشبه به مصدراً مُبيناً للنوع مثل قول الله عزَّ وجلَّ في سورة

(النمل / ٢٧ مصحف / ٤٨ نزول):

﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ (٨٨)

أي: وهي تمرُّ كمرِّ السحاب.

(٦) أن يكون المشبَّه به مُبَيَّنًا بالمشبَّه، وهذا البيان قد يكون بياناً صريحاً، أو بياناً ضمنياً، مثل قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) بشأن ما يحلَّ ليلة الصيام:

﴿ وَكُلُوا وَأَشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصِّيَامَ إِلَىٰ أَيْلٍ... ﴾ [الآية ١٨٧].

فقد جاء بيان الخيط الأبيض بالفجر بياناً صريحاً، وفي ضمنه جاء بيان الخيط الأسود بالليل بياناً ضمنياً.

والمعنى: حتَّى يبيِّن لكم أوَّلُ النهار الذي يُشبه الخيط الأبيض عند الفجر، من آخر الليل الذي يشبه الخيط الأسود.

ومثل قول الشاعر:

فَمَا زِلْتُ فِي لَيْلَيْنِ شَعْرٍ وَظُلْمَةٍ
وَشَمْسَيْنِ مِنْ خَمْرٍ وَوَجْهِ حَبِيبِ
فقد جاء بيان اللَّيْلَيْنِ بياناً صريحاً بكون أحدهما شَعْرَ من يحبِّ والآخِر ظلمة اللَّيْلِ. وبيان الشمسين بأنَّ أحدهما الخمر والآخِر وجه من يُحبِّ.

أي: الشَّعر الذي يشبه اللَّيْلِ، والخمر التي تشبه الشمس، ووجه الحبيب الذي يشبه الشمس أيضاً.

* * *

هل الاستعارة مجاز لغوي أم مجاز عقلي؟

رأى جمهور البيانين أنّ الاستعارة مجاز لغوي، وقيل: هي مجاز عقلي، بمعنى أنّ الاستعارة تعتمد على أمر عقلي، لا لغوي، واستدلّ القائلون بأنّ الاستعارة مجاز عقلي بما يلي:

(١) أنّ اللفظ المستعار وهو المشبّه به للدلالة به على غير معناه الموضوع له في اصطلاح به التخاطب، وهو المشبّه، لا يُطْلَقُ عليه إلّا بعد ادّعاء دخوله في جنس المشبّه به، أو نوعه، أو صِنْفِهِ، فيكون إطلاق لفظ المشبّه به على المشبّه، حاصلًا على وجه الحقيقة لا على وجه المجاز، لأنّ الادّعاء أدخل المشبّه ضمن أفراد المشبّه به.

(٢) ليست الاستعارة مجرد إطلاق اللفظ على غير ما وضع له في اصطلاح به التخاطب، فهذا أمرٌ لا بلاغة فيه، بدليل الأعلام المنقولة، لكنّ العمل العقلي هو الذي أعطى الاستعارة بلاغتها.

أقول: كلُّ المجازات اللغوية سواء أكانت من قبيل الاستعارة أم المجاز المرسل، ليست مجرد حركة آليّة لغويّة يتمّ بها استعمال اللفظ في غير ما وُضِعَ له في اصطلاح به التخاطب.

بل لا بدّ في المجاز من عمل فكري أو شعور نفسي يُصَحِّحُ في تصوّر المتكلّم استخدام اللفظ في غير ما وُضِعَ له.

● فحين نتلو قول الله عزّ وجلّ: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ فإننا لا نشعر بأنّ لفظ الأصابع وُضِعَ بدل الأنامل وضعاً اعتباطياً في هذا المجاز المرسل، وليس مجرد حركة آليّة لغويّة، بل هو قائم على ملاحظة فكريّة، وهي أنّ الذين يحذرون الموت من الصّواعق ذوات الأصوات العظيمة

القائلة، تندفع أيديهم إلى سدّ آذانهم بأصابعهم، فلو تمكنوا من إدخال كلّ أصابعهم فيها لفعّلوا، فالعبارة تدلُّ على توجُّه إراداتهم وما في أنفسهم من مشاعر، فكان هذا الإطلاق المجازي، مع أنّ الذي يضعونه في آذانهم هو رؤوس أناملهم.

● وحين يقول قائل معبراً عن العطاء الذي هو أثر رحمة المعطي الموجودة في نفسه ووجدانه:

«أعطاني حتى ملأ بيتي من رَحْمَتِهِ» أي: من الرزق الذي هو أثر رحمته، فإنّه لا يَسْتَعْمِلُ كلمة الرحمة استعمالاً آلياً للدلالة بها على ما ناله من رزقٍ أصابه، وإنّما يُعبّر عن شعوره بأنّ جزءاً من رحمة المعطي انطلق من نفسه فتجسّد بصورة رزق ملاً بيته.

هذا مجاز مرسل من إطلاق السبب وإرادة المسبب، والعملُ الفكري والشعور النفسيّ هو المقتضي لهذا الإطلاق، ولا خلاف في أنه مجاز لغوي.

● وحين يأتي التعبير عن تداعي الجدار إلى السقوط بأنّه يُريدُ أن ينقُصَ، فإنّ الأمر ليس مُجرّدَ عمَلٍ آليّ تُوضَعُ فيه الإرادة مكان ظاهرة التداعي، بل هو تعبيرٌ عمّا يَشعُرُ به المشاهد له، من أنّه بمثابة شَيْخِ هَرِمٍ جدّاً انْحَنَى ظَهْرُهُ، وليس بيده عصاً تسنده، وقد تعبَ جدّاً من الوقوف فهو يريد أن ينقُصَ بسرعة انقضاض الطائر ليرتاح جسمه على الأرض، فهذا مجاز مرسل، والعملُ الفكري والتصوّر الذهني هو المقتضي له.

كذلك حال الاستعارة فهي ليست مجرد نقلٍ آليّ للفظ المشبّه به، وإطلاقه على المشبّه، بل لا بُدَّ فيها من عمَلٍ فكريّ أو شعورٍ نفسيّ يُصَحِّحُ في تصوّر المتكلّم هذا الإطلاق.

والذين تصوّروا أنّ الاستعارة هي من قبيل المجاز العقلي لهذا المعنى كان عليهم أن يجعلوا كلّ صُورِ المجاز اللغويّ من قبيل المجاز العقلي.

والتحقيق أنّ المجاز العقلي لا يكون فيه نقلٌ في استعمال الألفاظ، بل هو عمل فكري أو شعور نفسي بَحَثٌ، بخلاف المجاز اللغوي فإنّ فيه هذا النقل مع العمل الفكري أو الشعور النفسي.

وبهذا ظهر الفرق بين المجاز العقليّ والمجاز اللغوي، وكان ما ذهب إليه جمهور البيانيّين هو الرأي الأجدر بالاعتبار.

* * *

(٣)

تقسيم الاستعارة

إلى استعارة في المفرد واستعارة في المركب

تنقسم الاستعارة انقساماً أولياً إلى قسمين:

القسم الأول: الاستعارة في اللفظ المفرد، وهي التي يكون المستعارُ فيها لفظاً مفرداً، مثل:

(١) لفظ: «الليث» في نحو جملة: «أقبلَ الليثُ مُدَجَّجاً بلامَةِ الحُرْبِ فاخترقَ جيشَ العدوِّ».

أي: أقبل الفارس الشجاع الذي هو كالليث.

لأمة الحرب: لباسُ الحرب وأدواته.

(٢) لفظ: «البدور» في نحو جملة: «بزَغَتِ البُدُورُ فوقَ شَفَقِ الثُّحُورِ والصُّدُورِ».

أي: أقبلت الحسنات اللواتي وجوههنَّ كالبدور.

القسم الثاني: الاستعارة في اللفظ المركب، وهي التي يكون اللفظُ المستعار فيها كلاماً مركباً من عدّة ألفاظ مفردة، مثل:

(١) «لِكُلِّ جَوَادٍ كِبْوَةٌ - وَلِكُلِّ صَارِمٍ نَبْوَةٌ».

هذان مُرَكَّبَانِ من عدّة ألفاظ، يستعاران لمن يخطيء أحياناً، وليس من شأنه ولا من عادته أن يخطيء.

(٢) «أَعْطِ الْقَوْسَ بَارِيهَا».

هذا لفظ مُرَكَّبٌ يستعار للدلالة به على أنه ينبغي إسناد العمل إلى من يُحْسِنُهُ وَيُتَّقِنُهُ لسابق خبرته به.

ويُطَلَّقُ على هذا القسم الثاني عبارات: «استعارة تمثيلية - استعارة على سبيل التمثيل - تمثيل على سبيل الاستعارة - تمثيل» والإطلاق الأوّل أحسنها، أمّا الأخير فَيَسْتَبِيهُ بالتمثيل الذي سبق بيانه في التشبيه، فالأولى اجتنابه. وسيأتي إن شاء الله شرح القسم الثاني بعد استيفاء الكلام على تقسيمات القسم الأوّل.

* * *

وبعد هذه المقدمة يأتي المبحثان المعقودان للاستعارة، وهما:
المبحث الأوّل: الاستعارة في المفرد.
المبحث الثاني: الاستعارة في المركّب.

● ● ●

المبحث الأول

الاستعارة في المفرد

(أ)

تقسيمات الاستعارة في المفرد

تنقسم الاستعارة في المفرد إلى تقسيمات متعدّدة باعتبارات مختلفات،
وفيما يلي تفصيلٌ وبيانٌ للمهمّ منها:

التقسيم الأول

تقسيم الاستعارة في المفرد إلى أصلية وتبعية

رأى البيانون تقسيم الاستعارة في المفرد إلى قسمين:

القسم الأول: الاستعارة الأصلية، وهي التي يكون اللفظ المستعار فيها اسماً
جامداً، مثل: «أسد - بدر - شمس - ظبي» ونحوها.

القسم الثاني: الاستعارة التبعية، وهي التي يكون اللفظ المستعار فيها فعلاً،
مثل: «أشرق - يُشرق - أشرق» أو اسماً مشتقاً، مثل: «جأرح - مجروح -
جريح - مقلّة - محرقّة» أو حرفاً من حروف المعاني، مثل: «اللام الجارة -
من - في - لن -».

لقد رأى البيانيون أنَّ التشبيه الذي هو أصل الاستعارة وعلاقتها يكون أولاً في الأسماء الجامدة، ومنها المصادر.

وبعد التشبيه الذي يكون في المصدر يُشْتَقُّ من المصدر الفعل الماضي، أو المضارع، أو الأمر، ثم يُشْتَقُّ اسم الفاعل، أو اسم المفعول، أو الصفة المشبهة، أو اسم الزمان، أو اسم المكان، أو نحو ذلك.

● وبناءً على هذا التصوّر اعتبروا استعارة الأفعال والمشتقات من الأسماء إنما كانت تبعاً للاستعارة في المصادر، وأجروا الاستعارات فيها على هذا الأساس.

فإذا قال المتشكّي من نوائب الدهر: «عَضْنَا الدَّهْرُ بِنَابِهِ» بمعنى أوقع بنا المصائب، قالوا:

شَبَّهَ وقع المصائب بالعضّ الذي هو مصدر فعل «عَضَّ» بجامع الإيلام في كلِّ من المشبّه والمشبّه به، ثم استعار كلمة «العضّ» للعمل المؤلم الذي تُحْدِثُهُ النوائب، ثم اشتقّ من «العضّ» الذي هو مصدرٌ فَعَلَ «عَضَّ» فكان هذا الاشتقاق أمراً تابعاً للاستعارة في الاسم الجامد الذي هو المصدر.

فَسَمَّوْا كُلَّ مَا كَانَ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ اسْتِعَارَةً تَبَعِيَّةً.

● وكذلك رأوا في استعارة الحرف للدلالة به على معنى حرف آخر.

مثل: استعارة حرف «في» الجار الذي يدلُّ على الظرفية للدلالة به على معنى حرف «على» الذي يدلُّ على الاستعلاء.

ورأوا أنَّ أصل هذه الاستعارة تشبيه العلوّ المثبت بالشّيء تثبيتاً قوياً بالشّيء الدّاخل في شيءٍ آخر دخولاً اندماجياً، أو دخولاً ظرفياً، واستعير لهذا المعنى اسمٌ يدلُّ على هذا الدخول، ثم استغني عنه بحرف الجرّ «في» الذي يدلُّ على الظرفية،

استعارة تابعة للاستعارة في الاسم الجامد، لأن معاني الحروف تابعة لمعاني الأسماء.

وتُلاحَظُ هذه الاستعارة فيما حكى الله عزَّ وجلَّ في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) عن قول فرعون لِسِحْرَتِهِ مَتَوَعِّدًا لَهُمْ بَعْدَ أَنْ آمَنُوا بِرَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ:

﴿ قَالَ ءَأَمِنْتُمْ لِي قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَأَلْصِقَبَنَّكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلنَعْلَمَنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴾ (٧١).

لقد رأى البيانويون في عبارة: ﴿وَأَلْصِقَبَنَّكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ﴾ استعارة حرف الجرّ «في» للدلالة به على معنى حرف الجرّ «على».

ورأوا أن علاقة هذه الاستعارة تشبيه العلوّ المثبت في الجذوع بدخول شيء في شيء آخر، لأن تثبيتهم في الجذوع قد يكون بمسامير تدخل فيها، ولما كان حرف «في» يفيد هذا المعنى فقد حسنت استعارته على طريقة الاستعارة التبعية، باعتبار أن معاني الحروف تابعة للمعاني في الأسماء.

أقول:

مع أن مثل هذا المثال ليس من اللازم أن يكون وارداً على سبيل الاستعارة في الحرف، بل الأقرب أن يكون الكلام جارياً على طريقة التضمين، وهو هنا تضمين فعل: ﴿أَلْصِقَبَنَّكُمْ﴾ معنى فعلٍ آخر يتعدى بحرف الجرّ «في» فعدي تعديته، وأصل الكلام: لأصلبكنم على جذوع النخل ولأثبتنكنم فيها بالمسامير التي تدخل في الجذوع، فنابت التعدية بحرف الجرّ «في» مناب ذكر الفعل الذي حذف، وضمن الفعل المذكور معناه.

مع هذه المعارضة المتعلقة بهذا المثال أقول:

لأن نجد متكلماً فصيحاً بليغاً أديباً يلاحظ هذه التبعية، لا في الأفعال، ولا في المشتقات من الأسماء، ولا في الحروف.

إنَّما تَنقَدحُ في ذهنه صورةُ التشابهِ بينَ مَعْنَى فِعْلِ وَمَعْنَى فِعْلِ آخَرَ، أو بينَ معنى اسمٍ مشتقٍّ ومعنى اسمٍ مشتقٍّ آخَرَ، أو بينَ معنى يُدَلُّ عليه بحرفٍ ومعنى يُدَلُّ عليه بحرفٍ آخَرَ، فَيَسْتَعِيرُ الفِعْلَ أو الاسمَ المَشْتَقَّ أو الحرفَ، ولا تَخْطُرُ بباله سلسلةُ الإِجْراءاتِ التحليليةِ التي ذَكَرَها البَيانيونُ.

فما الداعي لاعتبار الاستعارة في الأفعال، والاستعارة في الأسماء المشتقة، والاستعارة في الحروف إن وُجِدَتْ، استعارة تبعية، مع إمكان أن نقول فيها جميعاً:

استعارَ المتكلمَ الفِعْلَ للدلالةِ به على معنى فِعْلِ آخَرَ، بجامع التشابهِ بينَ الفِعْلَيْنِ في حَدَثِهما وفي زَمَانِهما، وكذلك يقال في استعارة الأسماء المشتقة، واستعارة الحروف إن وُجِدَتْ؟! .

وعلى هذا نقول في مثال قول المتشككي من نواب الدهر: «عَضَّنَا الدَّهْرُ

بنايه»:

إنَّ ما تُحْدِثُه النَّوائبُ من أَعْمالٍ مُؤَلِّمَةٍ قد يُعَبِّرُ عَنْها بِفِعْلِ أو أفعالٍ مختلفةٍ، مثل: «أَتَلَّفَتِ النَّوائبُ بَعْضَ زَرعِهِ - وَأَهْلَكَتْ بَعْضَ ماشيته - ومَسَّتْ بَعْضَ أهله وحاجاته بسوءٍ - فتألم لذلك» يُمكن أن يُسْتَعْمَلَ بِدَلَّها فِعْلُ: «عَضَّ» على سبيل الاستعارة، إذ تُشَبِّهُ هذه الأفعال الدالة على الحدث والزمن، بفعل «عَضَّ» بجامع الحَدَثِ المؤلِّمِ المقرون بِزَمَنِ في كُلِّ من المَشَبِّهِ والمَشَبَّهِ به.

ويُسْتَعَارُ هذا الفِعْلُ «عَضَّ» للدلالةِ به على ما أ حَدَّثَتْهُ أفعالُ النَّوائبِ في

أزمانها الماضية.

وتطبيق هذا التحليل على المشتقات من الأسماء المستعارة لغير معانيها

الأصلية أيسر وأوضح.

وبناءً على هذا البيان أقول:

لا داعي لإطالة الطريق على الدارس لنصوص الاستعارة بإجراءات تحليلية لا لزوم لها، وما أحسب شيئاً منها يخطرُ في ذهن شاعر أو ناثر يصوغ كلاماً يضمّنه استعاراتٍ في الأفعال أو في الأسماء أو في الحروف.

فالرأي الذي انتهيتُ إليه: أن نصرف النظر في بحوث الاستعارة عن تقسيمها إلى أصلية وتبعية.

وحسبنا في كل ذلك أن نقول: استعارةُ كلمة بدل كلمة، سواءً أكانت اسماً أم فعلاً أم حرفاً.



تقسيم الاستعارة في المفرد إلى تصريحية ومكنية

نظر البيانون في الاستعارات الواردة في المفرد فأروا أن اللفظ المستعار فيها للدلالة به على غير ما وُضع له في اصطلاح به التخاطب، قد يُؤْتَى به صريحاً بذاته، وقد يُطَوَّى فلا يُؤْتَى به بلفظه، ولكن يُكْنَى عنه بذكر شيء من صفاته أو لوازمه القريبة أو البعيدة، فظهر لهم أن يُقسِّموا الاستعارة إلى قسمين:

القسم الأول: سمّوه «الاستعارة التصريحية» وهي التي يُصْرَحُ فيها بذات اللفظ المستعار، الذي هو في الأصل المشبّه به حين كان الكلام تشبيهاً، قبل أن تُحْدَفَ أركانه باستثناء المشبّه به، أو بعض صفاته أو خصائصه، أو بعض لوازمه الذهنية القريبة أو البعيدة، مثل:

(١) وقف الغضنفر على المنبر، وارتجل خُطْبَتَهُ العصماء، على عِلْيَةِ القوم والدهماء، فبشّر وأنذر، وأطمع وحذّر، وقال: أنا أميركم المبعوث إليكم بالرحمة والسيف، والفضل والعدل، فمن أطاع واستقام، أصاب من الإنعام والإكرام، ومن عصى والتوى، فبنار إثمِهِ احترق أو اكتوى.

إن كلمة «الغضنفر» التي هي بمعنى «الأسد» قد استعيرت بذاتها من الحيوان المفترس، وأُطْلِقَتْ على الأمير المبعوث لقوم أهل شقاق وخلاف.

فهي في هذا المثال استعارة تصريحية، إذ جاء فيها التصريح بذات اللفظ المستعار.

(٢) قول الحريري:

سَأَلْتُهَا حِينَ زَارَتْ نَضُو بُرْقُعِهَا الْقَانِي وَإِبْدَاعِ سَمْعِي أَطِيبَ الْخَبْرِ
فَزَحَزَتْ شَفَقًا غَشَى سَنَا قَمَرٍ وَسَاقَطَتْ لَوْلُؤًا مِنْ خَاتِمِ عَطْرِ
نَضُو بُرْقُعِهَا: أي: إِزَالَتُهُ وَإِلْقَاءَهُ، وَالْبُرْقُعُ قِنَاعٌ تُغَطِّي بِهِ الْمَرْأَةُ وَجْهَهَا،
يُقَالُ: نَضَا الشَّيْءَ إِذَا نَزَعَهُ وَأَلْقَاهُ.

والمعنى سألتها أن تُزيل القناع عن وجهها.

القاني: أي: الأحمر.

أطلق الحريري: كلمة «شَفَقًا» وأراد البُرْقُعَ، على سبيل الاستعارة
التصريحية. وأطلق كلمة «قَمَرًا» وأراد وَجْهَ حَسَنَاتِهِ. وأطلق كلمة «لَوْلُؤًا» وأراد
كَلَامَهَا، وأطلق كلمة «خَاتِمًا» وأراد فَمَهَا، كلُّ هذا على سبيل الاستعارة
التصريحية، إذ جاء في هذه الإطلاقات التصريح بذوات الألفاظ المستعارة.

القسم الثاني: سمّوه «الاستعارة المكنية».

وهي التي لم يُصَرِّح فيها باللفظ المستعار، وإنما ذُكِرَ فيها شيءٌ من صفاته
أو خصائصه أو لوازمه القريبة أو البعيدة، كنايةً به عن اللفظ المستعار، مثل:

(١) أن نقول من المثال الأول من مثالي الاستعارة التصريحية: «وقف ذو
اللِّبْدَةِ الْأَغْبَرِ - أو وقف أبو الأشبال - أو وقف صاحب الزئير - أو وقف الذي
تأكل السباع بقايا فريسته» أو نحو هذه العبارات.

فدو اللبدة صفة للأسد. ومثلها أبو الأشبال، وصاحب الزئير، ونحن
باستعمال هذه العبارات نُكِنِّي عن اللفظ المستعار، وهو الغضنفر، أو الأسد.

وأصل هذا المجاز تشبيهٌ حُدِفَتْ كُلُّ أركانِهِ باستثناء بعض صفات المشبه به،
فهو استعارة مكنية.

(٢) زُرْنَا نَقْتَسِبُ عِلْمَ ذِي فَضْلِ يَأْتِي اللَّيْلُ إِذَا غَابَ، وَيَذْهَبُ اللَّيْلُ إِذَا حَضَرَ.
أي: نقتبس علماً من الشمس، فالشمس من لوازم غيابها مجيء الليل، ومن
لوازم حضورها ذهاب الليل.

فلفظ الشمس مستعارٌ من الكوكب المضيء للدلالة به على الإنسان
الممدوح، والأصل في هذا تشبيهه بالشمس، لكن حُذِفَ اللَّفْظُ الْمُسْتَعَارُ وَرُمِزَ إِلَيْهِ
ببعض لوازمه كنايةً عنه.
وأصل هذا المجاز تشبيهُ حذفت كل أركانه باستثناء بعض لوازم المشبه به،
فهو استعارة مكنية.

وقد تَلْتَبَسُ هَذِهِ الْإِسْتِعَارَةُ الْمَكْنِيَّةُ بِالتَّشْبِيهِ الْمَكْنِيِّ الَّذِي سَبَقَ أَنْ فَرَزْتُهُ بِقِسْمٍ
خَاصٍّ عَنِ التَّشْبِيهِ الْبَلِيغِ، وَذَكَرْتُ طَائِفَةً مِنْ أَمْثَلْتِهِ.
والفرقُ بينهما أَنَّ التَّشْبِيهِ الْمَكْنِيَّ يَأْتِي فِيهِ الْمَشْبَهُ ضَمْنَ الْعِبَارَةِ بِلَفْظِهِ
الصَّرِيحِ، أَوْ بِمَا يُكْنَى بِهِ عَنْهُ، مِنْ جِهَةٍ، وَيَأْتِي فِيهِ الْمَشْبَهُ بِبَلْفِظِ الصَّرِيحِ أَوْ بِمَا
يُكْنَى بِهِ عَنْهُ، مِنْ جِهَةٍ ثَانِيَةٍ، عَلَى وَجْهِ يُنْبِئُ عَنِ التَّشْبِيهِ.

بخلاف الاستعارة إذ لا يَجْتَمِعُ فِيهَا الْمَشْبَهُ بِبَلْفِظِ الصَّرِيحِ أَوْ بِمَا يُكْنَى بِهِ
عَنْهُ، مَعَ الْمَشْبَهُ بِبَلْفِظِ الصَّرِيحِ أَوْ بِمَا يُكْنَى بِهِ عَنْهُ، عَلَى وَجْهِ يُنْبِئُ عَنِ التَّشْبِيهِ،
وَبِهَذَا يَصِيرُ الْكَلَامُ مَجَازاً بِالْإِسْتِعَارَةِ، وَإِلَّا فَلَا مَجَازَ وَالْكَلامُ جَارٍ وَفَقَ أَسْلُوبُ
التَّشْبِيهِ الْمُضْمَرِ الَّذِي يُوجَدُ فِي الْعِبَارَةِ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ عِبَارَاتِ التَّشْبِيهِ هِيَ
مِنَ الْحَقِيقَةِ لَا مِنَ الْمَجَازِ.

وبسبب هذا الألباس تختلط الأمثلة على كثير من الباحثين والكاتبين في علم
البيان، فيجعلون ما هو من التشبيه المضمرة الذي هو تشبيه مكني ضمن أمثلة
الاستعارة المكنية، مع أن المشبه فيها مذكورٌ بلفظه الصريح أو بما يُكْنَى بِهِ عَنْهُ،
وقاعدة البيانين أن لا يجتمعا اجتماعاً يُنْبِئُ عَنِ التَّشْبِيهِ.
وهذه دقيقة ينبغي للباحث أن يتنبه إليها.

رأي السكاكي :

مع أن للسكاكي نظرات ثاقبات في علوم البلاغة لكنه فيما أرى أسرف هنا في التخيّل وتعسف، فعكس القضية، واعتبر التشبيه المضمّر الذي هو من التشبيه المكني على ما ظهر لي استعارةً تخيليةً، إذ رأى أن لفظ «المشبه» هو الذي استعمل في المشبه به، بادّعاء أن المشبه هو عين «المشبه به» لا غيرهُ بقرينة ذكر لازم المشبه به.

ففي قول الهدلي :

وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ
رأى أن كلمة «المنية» وهي الموت مُستعارةٌ للدلالة بها على الحيوان المفترس «السبع» فلما صارت المنية في تصوّر الشاعر عين السبع الذي هو في الأصل مشبه به تخيل أن للمنية أظفاراً تنشب، فقال: أَنْشَبَتِ الْمَنِيَّةُ أَظْفَارَهَا، وصاغها شعراً فقال: وإذا المنية أنشبت أظفارها، وسمى هذا العمل «استعارة تخيلية».

ومع أن هذه النظرة من السكاكي نظرةٌ بديعةٌ وجميلة، إلا أنها اعتمدت على تحليل متعسف قلماً يخطر في ذهن أصحاب الكلام أنفسهم حين تجري ألسنتهم أو أقلامهم بمثل هذا الكلام.

والطريق الأقرب الذي يفهمه أصحاب الكلام أنفسهم هو أن يكون الكلام من قبيل التشبيه البليغ الذي لم يُذكر فيه المشبه به بلفظه، إنما ذُكرَ بدله ما يدلُّ عليه من صفاته أو خصائصه أو لوازمه.

وأصل الكلام في عبارة «الهدلي» المنية سُبُعٌ يُنْشَبُ أَظْفَارَهُ، فإذا أقلتِ المنية لم تنفع التماثم.

هذا تشبيه بليغٌ، لكنه حذف لفظ المشبه به، وهو كلمة «سبع» واكتفى بذكر أداة افتراسه، وهي أن يُنْشَبَ أَظْفَارَهُ، وأسند هذا الإنشاب إلى المنية بدل أن يُسند

لفظ السَّبْعِ إليها، واقتضى هذا الإسناد مقتضيات لفظية نحوية، فجاء بتاء التأنيث وضمير المؤنث، مراعاة للفظ «المنية».

وبهذا نكون قد أخذنا بالأظهر الذي لا تعقيد فيه ولا إبعاد، والتزمنا بقاعدة البيانين بشأن الاستعارة، التي ذكروا لزوم عدم اجتماع المشبه والمشبه به فيها، أو ما يُكْتَبُ به عنهما، على وجه يُنبئ عن التشبيه.

أمثلة للاستعارة بقسميها التصريحية والمكتوبة:

(١) قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول) خطاباً

لرسوله ﷺ:

﴿الرَّكَتَبُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾.

في هذه الآية استعارتان تصريحتان:

الأولى: استعارة كلمة «الظلمات» للدلالة بها على الكُفْرِ والجهل بعناصر القاعدة الإيمانية، والجهل بمفاهيم الإسلام وشرائعه وأحكامه ومنهاج الله للناس. وأصلها تشبيه الجهل بهذه الأمور الجليلة الهادية للعقول والقلوب بالظلمات.

الثانية: استعارة كلمة النور للدلالة بها على الإيمان والعلم بعناصر القاعدة الإيمانية، وبمفاهيم الإسلام وشرائعه وأحكامه ومنهاج الله للناس. وأصلها تشبيه الإيمان بعد العلم بهذه الأمور الجليلة الهادية للعقول والقلوب بالنور.

والقرائن الفكرية واللفظية تدلُّ على المراد من الكلمتين، فكلُّ منهما مستعمل في غير ما وُضع له في اصطلاح به التخاطب، وعلاقته المشابهة، ولم

يُذكر في اللفظ وجه الشَّبه ولا أداة التشبيه ولا لفظ المشبَّه، فالاستعمال جارٍ على طريقة الاستعارة التصريحية .

ونظائر هاتين الاستعارتين مكرّرة جدّاً في القرآن المجيد، حتّى صارتا بمثابة الحقيقة الشرعيّة .

(٢) قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (فاطر / ٣٥ مصحف / ٤٣ نزول):

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ بِحِرَّةٍ لَّئِن تَبُورَ ﴿٢٦﴾ ﴾ .

يرجون تجارة: أي: يتوقَّعون أرباح تجارة عظيمة .

التجارة: هي أعمال البيع والشراء بممارسة وامتهان .

لن تَبُورَ: أي: لن تكسَدَ، ولن تتعطلَ، ولن تخسرَ أو تهلك .

جاء في هذه الآية استعمال لفظ «تجارة» مع وصفها بعدم البوار، على سبيل الاستعارة التصريحية .

والمراد أنّ التعامل مع الله عزَّ وجلَّ بأعمال العبادات والقُرْبَات، التي منها تلاوة القرآن، وإقامة الصلاة، وإنفاق الأموال في سبيل الله سرّاً وعلانية تعاملٌ يجني منه العبدُ خيراً عظيماً .

وأصلها تشبيه ما يقدمه المؤمنون من أعمال صالحة حسنة، يبتغون بها رضوان الله وثوابه العظيم بما يقدمه التاجر في تجارته من سلعة، مترقباً من وراء ذلك ربحاً عظيماً .

فتعامل العبد مع ربّه بالأعمال الصالحة تُشبه التجارة الربحة دوماً . إذ هو تعاملٌ مضمون الربح، مأمون الخسارة، فهو بمثابة التجارة التي لن تكسد ولن تخسر ولن تضيع .

(٣) قول المتنبي من قصيدة يمدح بها «محمد بن سيار بن مكرم التميمي،

يفصف مسيره إليه، واستقبال ابن سيار له:

سَرَى السَّيْفُ مِمَّا تَطْبَعُ الْهِنْدُ صَاحِبِي إِلَى السَّيْفِ مِمَّا يَطْبَعُ اللَّهُ لَا الْهِنْدُ
فَلَمَّا رَأَيْتُ مُقْبِلًا هَزَّ نَفْسَهُ إِلَيَّ حُسَامٌ كُلُّ صَفْحٍ لَهُ حَدٌّ
فَلَمْ أَرَ قَبْلِي مَنْ مَشَى الْبَحْرُ نَحْوَهُ وَلَا رَجُلًا قَامَتْ تُعَانِقُهُ الْأَسْدُ

في هذه الأبيات عدة استعارات تصريحية.

يقول في البيت الأول: سَرَى السَّيْفُ مِمَّا تَطْبَعُ الْهِنْدُ صَاحِبِي، أي: حالة كونه صاحباً لي. فأخذ المتنبي من حَدَثٍ سُرَاهُ هو حاملاً سيفه الذي هو من صُنْعِ الهند، لقطعة تصويرية عَبَّرَ فِيهَا أَنَّ سَيْفَهُ هُوَ الَّذِي سَرَى إِلَى شَبِيهِهِ الْمَمْدُوحِ مَصَاحِباً لَهُ، فَاسْتَدَّ الشَّرَى إِلَى السَّيْفِ عَلَى طَرِيقَةِ الْمَجَازِ الْعَقْلِيِّ «وهو هنا إسناد الفعل إلى غير ما هو له لعلاقة المصاحبة» توطئة للاستعارة التصريحية التي أطلق فيها لفظ «السيف» على ممدوحه ابن سيار، فقال: «إِلَى السَّيْفِ» ودلَّ على أنه أراد «ابن سيار» قوله: «مِمَّا يَطْبَعُ اللَّهُ لَا الْهِنْدُ».

وتابع بيني كلامه على اعتبار ممدوحه سيفاً، فقال: فَلَمَّا رَأَيْتُ مُقْبِلًا هَزَّ نَفْسَهُ إِلَيَّ فوصف حركة نهوضه وإقباله للاحتفاء بالمتنبي بالسيف حين يهتز، فأطلق كلمة «هز» على سبيل الاستعارة أيضاً بمعنى: تحرك يتلامع بإشراقه مقبلاً إلى زائره.

وتابع تأكيد أنه سيف توطئة لوصفه بأنه ذو حدّين، إذا نظرت إلى أحد صَفْحَيْهِ رَأَيْتَ حَدًّا، وإذا أدركته إِلَى الصَّفْحِ الْآخِرِ وَجَدْتَ حَدًّا ثَانِيًا، فقال: «حُسَامٌ كُلُّ صَفْحٍ لَهُ حَدٌّ».

الصَّفْحُ: من السَّيْفِ وَالْوَجْهِ عُرْضُهُ، ويجمع على صِفَاحٍ وَأَصْفَاحٍ.

وبعد هذا أطلق على ممدوحه «ابن سيار» على سبيل الاستعارة التصريحية

كلمة «الْبَحْر» إشارة إلى جوده، وكلمة «الْأَسْدُ» إشارة إلى شدة شجاعته إذ جعله كمجموعة أسود في شخص واحد فقال:

فَلَمْ أَرَ قَبْلِي مَنْ مَشَى الْبَحْرَ نَحْوَهُ وَلَا رَجُلًا قَامَتْ تُعَانِقُهُ الْأَسْدُ
(٤) قول «دِعْبِلِ الْخُرَاعِي» شاعر هجاء، ولد بالكوفة وأقام ببغداد وتوفي عام «٢٢٦هـ»:

لَا تَعَجِّبِي يَا سَلْمُ مِنْ رَجُلٍ ضَحِكَ الْمَشِيبُ بِرَأْسِهِ فَبَكَى
يَا سَلْمُ: أي: يا سَلْمِي، مُسْتَشْفِي مُرَحَّم.

شبهه «دِعْبِلِ» حَدَثَ ظُهُورِ الشَّيْبِ فِي رَأْسِهِ بِحَدَثِ ظُهُورِ الْأَسْنَانِ الضَّوَّاحِكِ فِي الْفَمِّ، وَدَلَّ عَلَى هَذَا الْحَدَثِ بِشَيْءٍ مِنْ خِصَائِصِهِ وَهُوَ حُدُوثُ الضَّحِكِ. وَاسْتَعْمَلَ فِعْلَ «ضَحِكَ» لِلدَّلَالَةِ عَلَى مُرَادِهِ عَلَى سَبِيلِ الِاسْتِعَارَةِ الْمَكْنِيَّةِ.

(٥) قول السَّرِيِّ الرَّفَاءِ يَصِفُ شِعْرَ نَفْسِهِ:

إِذَا مَا صَافَحَ الْأَسْمَاعَ يَوْمًا تَبَسَّمتِ الضَّمَائِرُ وَالْقُلُوبُ
شبهه سَمَاعَ آيَاتِ شِعْرِهِ بِقَادِمِ زَائِرٍ خَفِيفِ الظِّلِّ مَحْبُوبِ يَزُورِ الْأَسْمَاعَ، وَحَذَفَ الْمَشَبَّهَ بِهِ وَرَمَزَ إِلَيْهِ بِشَيْءٍ مِنْ صِفَاتِ قُدُومِهِ زَائِرًا، وَهِيَ الْمَصَافِحَةُ، وَأَطْلَقَ فِعْلَ «صَافَحَ» عَلَى طَرِيقَةِ الِاسْتِعَارَةِ الْمَكْنِيَّةِ.

وشبه الضمائر والقلوب بذي فَمٍ يَتَبَسَّمُ حِينَ سُرُورِهِ بِأَمْرٍ مَا لَكِنَّهُ حَذَفَ الْمَشَبَّهَ بِهِ وَرَمَزَ إِلَيْهِ بِبَعْضِ صِفَاتِهِ وَهُوَ التَّبَسُّمُ، وَاسْتَعْمَلَ فِعْلَ «تَبَسَّمَ» لِلدَّلَالَةِ بِهِ عَلَى سُرُورِ الضَّمَائِرِ وَالْقُلُوبِ حِينَ تَسْتَقْبِلُ عَنْ طَرِيقِ الْأَسْمَاعِ شِعْرَهُ، عَلَى طَرِيقَةِ الِاسْتِعَارَةِ التَّصْرِيحِيَّةِ.

(٦) قول البحرِّي يَصِفُ قَصْرًا:

مَلَأَتْ جَوَانِبُهُ الْفَضَاءَ وَعَانَقَتْ شُرْفَاتُهُ قِطْعَ السَّحَابِ الْمُطِيرِ

شُرْفَاتُ البناء: ما يُبْنَى في أعلاه للزينة، مفردُها شُرْفَةٌ.

شبهه «البحترِيُّ» دخول شُرْفَاتِ القصر الذي وصفه في السحاب التي تموج، بِحَالَةٍ تَلَاقِي حَبِيبَيْنِ فِي عَنَاقٍ.

واستعار لهذا الدخول كلمة «عَانَقَ» على سبيل الاستعارة التصريحية الجارية في الفعل.

(٧) قول الحماسي يصف سرعة إقبال مُمدوحه لدفع الشرّ عن أنفسهم:

قَوْمٌ إِذَا الشَّرُّ أَبْدَى نَاجِدِيهِ لَهُمْ طَارُوا إِلَيْهِ زَرَافَاتٍ وَوُحْدَانَا
الناجذُ: الضرس، والجمع نواجد.

زَرَافَاتٍ: أي: جماعات، الزَرَافَةُ: هي الجماعة من الناس هنا، وتُطْلَقُ الزرافة على الحيوان المعروف.

شبهه الشَّرُّ بحيوان مفترس، وحذف المشبه به، وكثى عنه بذكر «نَاجِدِيهِ» لأنّ النواجد أداة العَضِّ، وهذا تشبيه مكني. وشبهه فعل إسرعهم إلى دَفْعِهِ وقمعه بفعل الطيران، واستعمل فعل «طَارَ» فقال: «طاروا إليه» أي: أسرعوا إليه إسرع طير يطير بجناحيه، على طريقة الاستعارة التصريحية.

(٨) قول الواواء الدمشقي^(١) يصف حسناء تبكي:

وَأَسْبَلَتْ لَوْلُؤًا مِنْ نَرْجِسٍ فَسَقَّتْ وَرَدًا وَعَعْضَتْ عَلَى الْعُنَابِ بِالْبَرْدِ

أُطْلِقَ على سبيل الاستعارة التصريحية اللؤلؤ على الدَّمْعِ، والنَّرجِسَ على العيون العسليّة، والورد على الخدود، والعُنَابَ على الأنامل، والبَرْدَ على الأسنان.

(١) هو أبو الفرج محمد بن أحمد الغساني الدمشقي المشهور بالواواء، شاعر مطبوع توفي نحو «٣٨٥هـ» عن الأعلام للزركلي.

(٩) قول المتنبي يصف دخول رسول الروم على سيف الدولة:

وَأَقْبَلَ يَمْشِي فِي الْبَسَاطِ فَمَا دَرَى إِلَى الْبَحْرِ يَسْعَى أَمْ إِلَى الْبَدْرِ يَرْتَقِي

أطلق المتنبي في هذا البيت على سيف الدولة أنه البحر، وأنه البدر على سبيل الاستعارة التصريحية إذ صُرح فيها بلفظ المشبه به.

والقرائن الحافّة من الحال ومن المقال دالّة على المراد، وأنه لم يقصد البحر الحقيقي، ولا البدر الحقيقي.



تقسيم الاستعارة إلى مطلقة ومُرَشَّحة ومجرّدة

تنقسم الاستعارة بالنظر إلى اقترانها بما يلائم المستعار منه «وهو المشبه به» أو المستعار له «وهو المشبه» أو عدم اقترانها بشيء من ذلك إلى ثلاثة أقسام:
القسم الأول: «الاستعارة المُطلقة».

وهي الاستعارة التي لم تقترن عِبَارَتُهَا بأوصاف أو تفرّيعات أو كلامٍ مما يُلائم المستعارَ منه، أو يلائم المستعارَ له، باستثناء القرينة الصارفة عن إرادة المعنى الأصلي للفظ المستعار.

مثل: «قطع وزير الداخلية رأس الحية الكبرى» بمعنى أنه قطع رأس رئيس حزب الشرّ والفساد، إذا كانت قرينة الحال دالة على المراد.

فالحية لفظ مستعار للدلالة به على رئيس حزب الشرّ والفساد، ويُلاحظ أن العبارة لم تقترن بما يلائم لفظ الحية، ولا بما يلائم رئيس حزب الشرّ والفساد.
هذه الاستعارة استعارة تصريحية مطلقة.

فإذا قلنا فيها: «قطع وزير الداخلية رأس الناهشة ذات السّمّ القاتل» كانت استعارة مكنيةً مطلقة، إذ لم يصرّح فيها باللفظ الدالّ على المستعار منه صراحة، وإنما جاء فيها استعمال ما يدلّ على بعض صفاته وبعض خصائصه.

القسم الثاني: «الاستعارة المرشحة».

وهي الاستعارة التي اقترنت بما يلائم المستعار منه.

وسميت مُرَشَّحة لأنَّ ما اقترن بها يعطيها زيادة تقوية للمستعار منه بزيادة
أَغْطِيَة تحتاج زيادة عمل ذهني لكشف إرادة المعنى المجازي الذي اسْتُعْمِل اللَّفْظُ
للدلالة عليه.

الترشيح في اللغة: التريُّة والتنمية، فهي تفيد تقوية الشيء وتمكينه.

مثل أن نقول في المثال السابق:

«قطع وزير الداخلية رأس الحية الكبرى التي باضت وفرخت صغار الحيات
والثعابين وسعت تنهش وتنفتُ سُمَّها».

هذه العبارة اقترنت الاستعارة فيها بما يلائم المستعار منه، إذ الحية الحقيقية
هي التي تبيض وتفرخ وتنهش وتنفتُ سُمَّها.

فالاستعارة في هذا المثال استعارة تصريحية مُرَشَّحة.

ويمكن أن نبذل فيها كما فعلنا في الاستعارة المطلقة فتكون مكنية مرشحة.

القسم الثالث: «الاستعارة المجردة».

وهي الاستعارة التي اقترنت بما يلائم المستعار له.

وسميت مجردة لأنَّ المقارنات الملائمات للمستعار له تُجَرِّدُ الاستعارة من
أغطيها الساترة، فيظهر المعنى المجازي المراد دون تأمُّلٍ فكريّ.

كأن نقول في المثال السابق:

«قطع وزير الداخلية رأس الحية الكبرى التي حزبت أشرار الناس، وأرادت
الفتنة، وسعت في إفساد الأفكار والنفوس».

هذه العبارة اقترنت بما يلائم المستعار له الذي هو رئيس حزب الشَّرِّ
والفساد.

فالاستعارة في هذا المثال استعارة تصريحية مجردة.

ويمكن أن نبذل فيها كما فعلنا في الاستعارة المطلقة فتكون مكنية مجردة.
وإذا اجتمع في العبارة المشتملة على الاستعارة الترشيح والتجريد معاً، كانت
الاستعارة بحكم الاستعارة المطلقة.

وأبلغ هذه الأقسام الاستعارة المرشحة، فالمطلقة وما كان بحكمها، وتأتي
المجردة في المرتبة الأخيرة، لأنّ التجريد، يُدني الاستعارة من التشبيه، فيضعف
ادعاء الاتحاد، بخلاف الترشيح، والإطلاق فالترشيح يقوي ادعاء الاتحاد بين
المشبه والمشبّه به، والإطلاق يبدأ به.

أمثلة للمرشحة وللمجردة:

(١) قول بشار بن بَرْد:

أَتَنِّي الشَّمْسُ زَائِرَةً وَلَمْ تَكُ تَبْرَحِ الْفَلَكََا

فجاء بالشطر الثاني ترشيحاً للاستعارة، إذ استعار لفظ الشَّمْسِ لزائرتِه من
النساء، فهي استعارة تصريحية مرشحة.

(٢) قول المتنبي يمدح بني أوس:

أَمَا بَنُو أَوْسِ بْنِ مَعْنِ بْنِ الرُّضَا فَأَعَزُّ مَنْ تُحَدَى إِلَيْهِ الْأَيْتُقُ
كَبَّرْتُ حَوْلَ دِيَارِهِمْ لَمَّا بَدَتْ مِنْهَا الشَّمْسُ وَلَيْسَ فِيهَا الْمَشْرِقُ
وَعَجِبْتُ مِنْ أَرْضِ سَحَابِ أَكْفِهِمْ مِنْ فَوْقِهَا وَصُخُورِهَا لَا تُورِقُ

استعار لرجال بني أوس كلمة «الشموس» وجاء بما يرشح إرادة الشموس من
الكواكب، بتعجبه الذي جعله يُكَبَّرُ إذ طلعت من منازلهم الواقعة في جهة المغرب،
فالمشرق ليس فيها.

واستعار لجودهم السخي لفظ السحاب، وجاء بما يرشح المستعار منه، إذ
تعجب من أن صخور أرضهم لا تُورِقُ، مع أن سحاب أكفهم من فوقها تهمي
مطراً.

(٣) قول كُثِيرٌ عَزَّةٌ بِشَأْنٍ مَعشوقته:

رَمْتِنِي بِسَهْمٍ رِيْشُهُ الْكُحْلُ لَمْ يَضِرْ ظَوَاهِرَ جِلْدِي وَهُوَ لِلْقَلْبِ جَارِحٌ
استعار كُثِيرٌ عَزَّةً لنظرتها الجميلة النافذة إلى القلب كلمة «سَهْمٌ» وبعد
استعارته جاء بترشيح وتجريد.

فجعل للسهم ريشاً، وهذا مما يلائم المستعار منه، وهو ترشيح، وأبان أن
هذا الريش هو من الكُحْل وهذا مما يلائم المستعار له، وهو تجريد، وبعد ذلك
أبان أن السهم لم يَضِرْ ظواهر جلده بل جَرَحَ قلبه، وهذا مما يُلائم المستعار له،
لأن النظر هو الذي يؤثر في القلوب، وهذا تجريد، إلا أن كلمة جارح تلائم
المستعار منه، وهو ترشيح.

وهكذا مزج في كلامه ترشيحاً وتجريداً، وهو في نظري بليغ جداً في ادّعاء
اتّحاد المشبّه بالمشبّه به، ولا ينطبق على استعارته أنها بحكم المطلقة.

(٤) قول ابن هانئ المغربي:

وَجَيْئُ ثَمَرِ الْوَقَائِعِ يَانِعاً بِالنَّصْرِ مِنْ وَرَقِ الْحَدِيدِ الْأَخْضَرِ
نلاحظ في هذا البيت أن ابن هانئ مزج ترشيحاً وتجريداً في مُقَارِنَاتِ
استعارته.

فالثمر الذي استعاره لما جاء به النَّصْر رَشَّحه بعبارة «جَيْئُ» وبكلمة «يَانِعاً»
وبعبارة «مِنْ وَرَقِ» وجاء بتجريد في عبارة «الْحَدِيدِ الْأَخْضَرِ» إذ هو حديد السلاح
الذي قاتلوا به.

والقرينة الصارفة عن إرادة الثمر الذي يُجْنَى من الشجر كلمتا «الوقائع»
و«النَّصْر».

(٥) قول الله عز وجل في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرِيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٧﴾﴾ .

جاء في هذه الآية استعارة «اللِّباس» لما أنزل الله بأهل القرية من جوع وخوف، وقرنها بما يلائم المستعار له وهو عبارة «فأذاقها» وهذا تجريد، ولو أراد الترشيح لقال: فكساها، إلا أن التجريد هنا بلغ، لما في الإذاقة من إضافة معنى الإيلام الذي يُحسُّ به.



تقسيم الاستعارة في المفرد بالنظر إلى
كون كلٍّ من ركنَيْهَا مما يدرك بالحسّ الظاهر أولاً

بما أنّ الاستعارة فرع من فروع شجرة التشبيه، فلا بُدَّ أن تشتمل على ما يشتمل عليه التشبيه من كون كلٍّ من ركنَيْهَا ممّا يدرك بالحسّ الظاهر أو مما لا يدرك بالحسّ الظاهر، بل يُدْرِكُ بالفكر أو بالوجدان الذي هو حسُّ باطنيّ.

وترجع التقسيمات ضمن هذا الاعتبار إلى أربعة أصول ناتجة من ضرب اثنين

بأثنين:

القسم الأول: استعارة مُدْرِكٍ بالحسّ الظاهر لِمُدْرِكٍ بالحسّ الظاهر.

● كقول الله عزّ وجلّ في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول) بشأن حَجَزِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وراءِ السِّدِّ:

﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ . . . ﴾ [الآية ٩٩].

جاء في هذه الآية استعارة فعل «يَمُوجُ» من حركة أمواج البحار، التي يختلط فيها الماء بعضه ببعض، وهو أمرٌ مُدْرِكٌ بالحسّ الظاهر، للدلالة به على حركة جماهير «يأجوج ومأجوج» وراء السدِّ في أحداث متجدّدة متكرّرة كتكرّر حركة أمواج البحار، وهذا أمرٌ مُدْرِكٌ بالحسّ الظاهر أيضاً، فكثرة القوم تُشبه البحر إذا اجتمعوا، وحركتهم إذا اتَّجَهُوا إلى مصالِحهم المختلفة تُشبه حركة أمواج البحر في مرأى الأبصار.

● وكقول الله عزّ وجلّ في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول):

﴿وَأَيَّةٌ لَهُمْ أَيْلٌ تَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴿٢٧﴾﴾ .

جاء في هذه الآية استعارة فعل «تَسْلَخُ» من عملية سَلَخِ جِلْدِ الذبيح من الحيوان بعد ذبحه، وهو أمرٌ مُدْرِكٌ بالحسّ الظاهر، للدلالة به على عملية إزالة ضوء النهار شيئاً فشيئاً عن مواطن ظهوره على الأرض في حركات وأحداث متتابعات، وهذا أمرٌ مُدْرِكٌ بالحسّ الظاهر أيضاً، فحركة ذهاب النهار عن المشارق وظهور الليل بالتدرج تُشبه حركة سَلَخِ الجلد شيئاً فشيئاً عن الحيوان المذبوح، فاستعير هذا لهذا بفتية دقيقة جداً.

القسم الثاني: استعارة مُدْرِكٍ فكريٍّ أو وجدانيٍّ لِمُدْرِكٍ فكريٍّ أو وجدانيٍّ .

● كقول الله عزّ وجلّ في سورة (الملك / ٦٧ / مصحف / ٧٧ نزول) في وصف نار جهنم وعذاب الذين كفروا بربهم فيها:

﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورٌ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ . . . ﴿[الآية ٨]﴾ .

أي: تكاد تتفصل أجزاءها من الغَيْظِ الذي يُحْدِثُ حركاتٍ تَفْجُرُ داخلها.

فقد جاء في هذا النصّ استعارة كلمة «الغَيْظِ» الذي هو أمرٌ يُدْرِكُ دَاخِلَ النفوس بالحسّ الباطن، للدلالة به على أمرٍ يَحْدُثُ دَاخِلَ جَهَنَّمَ مِمَّا يُمَكِّنُ أَنْ يَتَخَيَّلَهُ المخاطبون تخيلاً، ولكنهم لا يُدْرِكُونَهُ بالحسّ الظاهر.

القِسْمُ الثالث: استعارة مُدْرِكٍ فكريٍّ أو وجدانيٍّ لِمُدْرِكٍ بالحسّ الظاهر.

● كأن نقول:

﴿لَمَّا اشْتَدَّتْ الْحَرْبُ غَضَبًا، دَخَلَ فُرْسَانُنَا الْأَبْطَالَ فَجَعَلُوا غَضَبَهَا لَهَا عَلَى جَيْشِ الْعَدُوِّ فَاسْتَحَالَ رَمَادًا﴾ .

جاء في هذه العبارة استعارة «الغضب» وهو أمرٌ يُدْرِكُ بالحسّ الباطن داخل النفوس، للدلالة به على مشاهد تُدْرِكُ بالحسّ الظاهر في الحرب، من متفجرات نارية تَقْدِفُ بشظايا الحديد، وحركة الأليآت الموجهة ضدّ بعضها للتدمير والإبادة.

القسم الرابع: استعارة مُدْرِكٍ بالحسّ الظاهرِ لِمُدْرِكٍ فِكْرِيٍّ أو وَجْدَانِيٍّ .

● كقول الله عزّ وجلّ لرسوله في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿ فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٣١)

الصَّدْعُ: كَسْرٌ فِي الزَّجَاجِ وَنَحْوِهِ لَا يَبْلُغُ حَدَّ الْفَضْلِ الْكَامِلِ .

والصدع أمرٌ يُدْرِكُ بالحسّ الظاهر، وقد استُعِيرَ هنا للدلالة به على التبليغ ذي التأثير في النفوس المشابه للتأثير الذي يُحْدِثُهُ من يَصْدَعُ الزجاج، وهذا أمرٌ يُدْرِكُ بالفكر، وقد يُحَسُّ به مَنْ وَجَّهَ له التبليغ في وجدانه ومشاعره نفسه .

ولمّا كان التبليغ مهما كان أسلوبه مؤثراً في النفوس لا يَبْلُغُ أَنْ يُحَقِّقَ التحويلَ الفعليّ من الكُفْرِ إلى الإيْمَانِ، كان تشبيهه بالصَّدْعِ تشبيهاً دقيقاً جداً .

فالأمرُ بالتبليغ يتضمّن معنى اتخاذ الوسائل المؤثّرة في النفوس تأثيراً لا يَبْلُغُ مبلغ التحويل، لأنّ التحوّل من الكفر إلى الإيْمَانِ إنّما يكون عن طريق إرادة المُتَبَلِّغِ نفسه، وليس من شأن الوسائل أن تصنع تحويلاً، ولكن قد تُؤَلِّدُ إقناعاً أو إلزاماً جَدَلِيّاً، فتشبيه هذا التأثير بالصَّدْعِ هو بالغ الدقّة في التصوير، وجاءت الاستعارة تبعاً لهذا التشبيه .

● وكقول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ . . . ﴾ [الآية ١٨] .

القذف في اللّغة: رمي شيءٍ مملوسٍ كحجرٍ ونحوه إلى جهة ما . وقد استُعِيرَ في هذه الآية فعل: «نَقْذِفُ» للدلالة به على توجيه الحقّ الفكريّ وتوجيه أدلته، للإقناع بها أو للإلزام أو للإفحام، ضدّ الباطل الفكري الذي يُؤْمِنُ به، ويجادل به المُبْطَلُونُ .

والدمغ في اللّغة: هو الشجُّ في الرّأسِ الذي يكسر الجمجمة ويصلُّ إلى الدماغ فيُخْرِجُهُ، وهذا عمَلٌ قَاتِلٌ لِلْمَدْمُوعِ .

وقد استعير في هذه الآية فعل: «يَدْمَغ» للدلالة به على إبطال الباطل ببرهان الحق.

ففي الآية استعارتان جاء في كلّ منهما استعارة مُدْرِكٍ بالحسّ الظاهر للدلالة به على مُدْرِكٍ فِكْرِيٍّ.

فإذا هو زاهق: أي: فإذا الباطل مستبَعِدٌ أو مضمحلٌ أو زائل، لا نتخدع به الأفكار السّويّة، والعقول السّليمة.

تنبيه:

أمّا الاستعارة التي يكون كلُّ من طرفيها صورةً تمتزج فيها الأشياء المدركة بالحسّ الظاهر بالمدركات الفكرية أو الوجدانيّة فهي تابعة للاستعارة في المركب الآتي بيانها إن شاء الله.



تقسيم الاستعارة إلى وفاقية وعنادية

من متابعة الدقة في التقسيمات التحليلية قسم البيانين الاستعارة بالنظر إلى المضمون الفكري للمستعار له والمستعار منه، إلى قسمين:

القسم الأول: «الاستعارة الوفاقية».

وهي الاستعارة التي يمكن اجتماع طرفيها المستعار منه والمستعار له في شيء واحد.

كقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

جاء في هذه الآية استعارة كلمة «أَحْيَيْنَا» للإنسان الذي اهتدى إلى الحق وآمن به، ومعلوم أنَّ الْحَيَاةَ بمعناها الأصلي تجتمع في شخص واحد مع الحياة وفق المعنى المجازي وهو الهداية.

فَبَيَّنَ الْمَعْنِيَيْنِ وَفَاقَ.

القسم الثاني: «الاستعارة العنادية».

وهي الاستعارة التي لا يجتمع طرفاها المستعار منه والمستعار له في شيء واحد.

كقول عمرو بن معديكرب :

«تَحِيَّةٌ بَيْنَهُمْ ضَرْبٌ وَجِيعٌ».

فقد استعار التحيّة التي تكون عند الإكرام للدلالة بها على الإهانة التي من مظاهرها الضرب الوجيع، والغرض الهزاء والسخرية والتهمك.

وظاهر أن الإكرام والإهانة أمران متعاندان لا يجتمعان.

وكقول عنترة :

وَسَيْفِي كَانَ فِي الْهَيْجَا طَبِيئًا يُدَاوِي رَأْسَ مَنْ يَشْكُو الصُّدَاعَا

الهيحاء : الحرب .

استعار فعل «يُدَاوِي» لِيَدُلَّ به على قَطْعِ رَأْسِ المقاتل الذي يشكو الصُّدَاعَا، ومعلوم أنّ المداواة بالدُّوَاءِ تنافي قَطْعَ الرَّأْسِ، فهما أمران متعاندان لا يجتمعان.

أقول :

إنّ هذا التقسيم وأمثاله ينبغي أن تكون مفاتيح للدراسات الأدبيّة، لا قوالب جاهزة حتى يقاس عليها، فمن شأن القوالب أن تُمَيِّتَ قدرات الإبداع والابتكار.



(ب)

قيمة الاستعارة في البيان ومراقبها

(١) تحتلُّ الاستعارة في البيان مرتبةً أعلى من مرتبة التشبيه بحسب الأصل،

لعدة أسباب:

السبب الأول: أنها أكثر من التشبيه توغُّلاً في أساليب البيان غير المباشر.

السبب الثاني: ما فيها من تجاهل التشبيه الذي هو أصلها، إذ الاستعارة

تُشعرُ بادِّعاء اتِّحاد المشبَّه بالمشبَّه به.

السبب الثالث: ما فيها من استثارةٍ لإعجاب أذكياء ذَوَاقِي الأدب، وَتَمَلُّكِ

لانتباههم وتأثير فيهم، ولا سيما حينما تكون استعارة غريبة غير متداولة، ولا يتنبَّه

لاصطيادها إلا فطناء البلغاء.

لكن لا يُشترطُ أن تكون كُلُّ استِعارةٍ أبلغ من التشبيه، إذ قد تقتضي حال

المتلقِّي، أو يَقْتَضِي الموضوع المطروح للبيان، أن يُسْتَخْدَم التشبيه، فيكون التشبيه

عندئذٍ هو الأبلغ.

(٢) وتكون الاستعارة حَسَنَةً جميلة إذا كان التشبيه الذي هو أساسها حَسَنًا

جميلًا، مستوفياً الشُّروط التي سبق بيانها في فصل «التشبيه والتمثيل» تحت عنوان

«صفات وخصائص التشبيهات المثلى».

وكَلِّمًا قوي الشَّبه بين المشبَّه والمشبَّه به كان اللِّجوء إلى الاستعارة أكثر فنيَّة،

وأرقى بيانًا، وأبعَد عن الإطناب، وأرضى للأذواق الأدبيَّة.

أما إذا كان الشبّه ضعيفاً فإنّ التشبيه الذي يُذكرُ فيه وجه الشبه يكون هو الأولى.

(٣) وترتقي الاستعارة حُسناً وإبداعاً بمقدار ما تجمع من العناصر التالية ونحوها:

● أن يخلو التعبير المشتمل عليها عمّا يُشعر بالتشبيه الذي هو الأصل، باستثناء القرينة الصارفة عن إرادة المعنى الأصلي.

● أن يكون وَجْهُ الشبه أبعد عن الابتدال والتداول على ألسنة وأقلام الكتّاب والشعراء والخطباء.

● أن تكون الاستعارة ذات غرابةٍ بالنظر إلى أصلها، أو بالنظر إلى ما اقترنت به من إضافات غريبةٍ رفعت من قيمتها.

● أن تكون الاستعارة دقيقة لطيفة المأخذ مع ظهورها.

● أن تكون الاستعارة ذات تفصيلات وتفريعات مبنية عليها.

● أن تقترن بالترشيح الذي يقوّيها.

كلّ ما سبق مشروط بعدم خفاء وَجْهِ الشبه أو استهجانها.

فمن الخفاء ما يُفْضِي إلى التعمية والإلغاز، بسبب عدم ظهوره في المشبّه به أو في المشبّه، أو بسبب اتّجاه البلغاء لاختيار وَصْفٍ من أوصاف المشبّه به ليكُون هو وجه الشبّه في استعاراتهم وتشبيهاتهم، ككَوْنِ الأسدِ شجاعاً مقداماً، دون كونه أبخرَ ذا رائحةٍ مُنْفِرةٍ، وككَوْنِ ألبدرِ جميلاً منيراً، دون كونه كوكباً مؤلفاً من جبال ووديان وصحاري وعناصر مشابهة لعناصر الأرض.

ومن الاستهجان انتزاع وجه شبه يكره الناس التّشبيه عليه والتذكير به، كالمستقذرات والأشياء التي تتقرّز النفوس منها.

المبحث الثاني

الاستعارة في المركب وهي «الاستعارة التمثيلية»

سبق في مقدمة الكلام على الاستعارة أنها تكون في المفرد وتكون في المركب، وأن الاستعارة في المركب تسمى «الاستعارة التمثيلية».

وبعد أن انتهى المقصود عَرَضَهُ وبيَّانُهُ من صور الاستعارة في المفرد وتقسيماتها وأمثلتها، فقد جاء دور بيان القسم الآخر للاستعارة، وهو «الاستعارة في المركب».

الاستعارة في المركب: هي كما سبق بيَّانُهُ في المقدمة استعارة يكون اللفظ المستعار فيها لفظاً مُرَكَّباً، وهذا اللفظ المركب يستعمل في غير ما وُضِعَ له في اصطلاح به التخاطب، لعلاقة المشابهة بين المعنى الأصلي والمعنى المسوق للدلالة به عليه، مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي، ويسمى «الاستعارة التمثيلية» وقد يطلق عليه «الاستعارة على سبيل التمثيل» أو نحو ذلك من عبارات.

وهذه الاستعارة يستعملها الناس في مخاطباتهم وأمثالهم الدارجة، في فصيح الكلام العربي، وفي اللسان العامي الذي يتخاطبُ عامَّةُ الناس به، ويُسْتَعْمَلُ أيضاً في غير العربيَّة من اللُّغات الإنسانيَّة الأخرى.

● فمن العامي قول الناس إذا رأوا صاحب صنعة أو مهنة يُهْمِلُ أشياءه

الخاصة التي يصنع مثلها لغيره بإتقان: «بابُ النَجَّارِ مَخْلَعٌ» أو «السَّكَّافِي حَافِي والحايك عريان». .

وهذه الاستعارة قائمة على تشبيه حال هذا المُهْمَلِ لأشياءه الخاصة بحال النَجَّارِ الذي يصنع الأبواب المتقنة للناس مقابل ما يناله من أجر، ويُهْمَلُ باب داره إهمالاً مثيراً للانتقاد والتلويح، أو تشبيه حاله بحال الإسكاف الذي يُصْلِحُ أحذية الناس ويمشي حافياً مُهْمِلاً إصلاحَ حِذَائِهِ، أو تشبيه حاله بحال الحائك الذي يحيك الثياب للناس ويبيعها لهم، ويمشي هو كالعريان، بثياب مُمَزَّقَةٍ رَثَّةٍ.

● وقول العامة إذا رأوا إنساناً يعالج أمراً لا جدوى منه: «يَنْفُخُ فِي قِرْبَةٍ مَخْرُومَةٍ».

الأمثلة من الفصيح:

(١) قول المتنبي يصف الذي يعيب الشعر الرائع بسبب خللٍ ذوقِيٍّ لَدَيْهِ، يَجْعَلُهُ يَرِيَّ الْجَمِيلِ قَبِيحاً، وَالْكَامِلِ نَاقِصاً، وَالْحَسَنَ سَيِّئاً:

وَمَنْ يَكُ ذَا فَمٍ مُرِّ مَرِيضٍ يَجِدُ مُرّاً بِهِ الْمَاءَ الزُّلَالَ
هذا الكلام الذي يدكُ معناه الأصلي على أَنَّ المَرِيضَ الذي يُفْرِزُ فَمُهُ مُفْرَزَاتٍ مُرَّةً، يَجِدُ الْمَاءَ الزُّلَالَ مُرّاً فِي فَمِهِ، وليس ذلك من مرارة الماء، بل من الأشياء المَرَّةِ الَّتِي يُفْرِزُهَا فَمُهُ.

لكنَّ المتنبي استعار هذا الكلام على طوله للدلالة به على حال من ليس لديه ملكة إدراك الشعر الرائع النفيس، فهو بسبب ذلك يعيب الحسنَ الجيد منه، ويتنقده بغير فهم، ولا حُسنٍ تَدْوُقٍ.

(٢) قول الرسول ﷺ: «لَا يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرِ مَرَّتَيْنِ» هذه العبارة النبوية تُسْتَعْمَلُ على سبيل «الاستعارة التمثيلية» للتحذير من تكرار العمل الذي جَرَّ مُصِيبَةً فِي نَفْسٍ أَوْ مَالٍ، أَوْ أَفْضَى إِلَى أَمْرٍ غَيْرِ مَحْمُودٍ.

(٣) إذا رأى الناس اجتماع جمهورٍ غفيرٍ على عالمٍ أو واعظٍ أو زعيمٍ،
أو كثرة إقبالهم على سوقٍ من أسواق التجارة، تمثل قائلهم بقول الشاعر:
«وَأَلْمُورِدُ أَلْعَذْبُ كَثِيرُ الزَّحَامِ»

هذا القول يُسْتَخْدَمُ على سبيل «الاستعارة التمثيلية» مراداً به غير معناه
الأصلي الذي قاله الشاعر للدلالة به عليه.

(٤) ويقال فيمن يعمل عملاً لا جدوى منه، ويبدُلُ فيه جَهْدًا ضائعاً:

● «يَنْفُخُ فِي رِمَادٍ».

● «تَضْرِبُ فِي حَدِيدٍ بَارِدٍ».

● «يَحْرُثُ فِي الْبَحْرِ».

فُتَسْتَعَارُ هذه الجمل وأمثالها للدلالة بها على أنَّ العامل الَّذِي يُتَحَدَّثُ عنه
يَعْمَلُ عملاً ضائعاً عَدِيمَ الأثرِ والنفع.

(٥) ويُقال فيمن يَغْتَرُّ بِمَنْ لا خير فيه، ولا نَفْعَ يُرْجَى لديه:

● «يَسْتَسْمِنُ ذَا وَرَمٍ».

أو قول المتنبي:

أَعِيذُهَا نَظَرَاتِ مِنْكَ صَادِقَةً أَنْ تَحْسَبَ الشَّحْمَ فِيْمَنْ شَحْمُهُ وَرَمٌ

(٦) ويُقال لِمَنْ يُدْعَى لتحصيل مطلوبه ضِمْنَ العاملين الكثيرين الذين

يعملون في أمرٍ ما لِيَحْضُلُوا منه على مطلوبهم المماثل لمطلوبه:

«أَدَلِ دَلُوكَ فِي الدَّلَاءِ».

مع أنه لا دَلُو ولا بئر.

(٧) ويُقال لِمَنْ يُنْصَحُ بأنَّ يَتَّخِذَ من وسائل القوة ما يَصْلُحُ لتحقيق تَغْلِبِهِ

على الصُّعَابِ الشديدة التي تواجهه:

«إِنَّ الْحَدِيدَ بِالْحَدِيدِ يُفْلَحُ».

يُفْلَحُ: أي: يُشَقُّ ويقطع.

(٨) ويقال لمن يعمل جاهداً في إقامة الفروع قبل العمل بتأسيس الأصول:

«مَنْ بَنَى عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَبَنَاؤُهُ مُنْهَارٌ»

أو «قَبْلَ أَنْ تَرْفَعَ بِنَاءَكَ أَرْسِ أُسُسَهُ وَدَعَائِمَهُ».

(٩) ويقال لمن يترك العمل زاعماً أن التوكل على الله يكفيه، ما قال

الرسول ﷺ للأعرابي حين سأله: أَعْقِلْ نَاقَتِي يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمْ أَتَوَكَّلُ:

«اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ».

(١٠) ويقال لمن ينال جزاء عمله الذي كان قد عمله خيراً أو شراً:

«يَخْصُدُ مَا زَرَعَ».

أو «يَدَاكَ أَوْكَتَا وَفُوكَ نَفَخَ».

أَوْكَتَا: أي: شَدَدْنَا الصُّرَّةَ أَوْ الْقَرِيْبَةَ بِالْوِكَاءِ، وَهُوَ الْخَيْطُ الَّذِي يُشَدُّ بِهِ نَحْوُ فَمِ

الْقَرِيْبَةِ.

(١١) ويقال لمن ينقل كل ما يسمع، أو يدون في مؤلفاته كل ما يطلع عليه

دون تحقيق ولا تحرير ولا تمييز:

«حَاطَبُ لَيْلٍ».

إلى غير ذلك من أمثلة كثيرة جداً.

تنبيه:

حين تجري العبارة مجرى الأمثال، وتغدو مثلاً، فإنها تُسْتَعَارُ بلفظها دون

تغيير، فيخاطبُ بها المفرد والمذكر وفروعهما: «المؤنث - المثنى - الجمع» وفق

صيعتها التي وردت دون تبديل ولا تعديل .

ومنها الأمثال التالية :

(١) قولهم : «أَحْشَفًا وَسُوءَ كَيْلَةٍ» .

الْحَشْفُ : التمر الرديء الذي فَقَدَ خصائصه .

الْكَيْلَةُ : هَيْئَةُ الكَيْلِ .

هذا مثل يضرب لمن يظلم من جهتين .

(٢) قولهم : «إِنَّ الْبَغَاثَ بِأَرْضِنَا يَسْتَنْسِرُ» .

الْبَغَاثُ : طائرُ أَبْغَثُ اللَّوْنِ ، أي : فيه بَقَعٌ بِيضٌ وسود ، وَالْبَغَاثُ نَوْعٌ من الطير أصغر من الرَّحَمِ بطيء الطيران وهو ممَّا يُصَاد ، الواحدة منه «بَغَاةٌ» .

يَسْتَنْسِرُ : أي : يصير كالنَّسْرِ فلا يُسْتَطَاعُ صَيْدُهُ .

هذا مَثَلٌ يُضْرَبُ ويرادُ به الدلالة على أن من نزل بأرضنا وجاورنا قَوِيٌّ بِنَا وَعَزٌّ .

(٣) قولهم : «الصَّيْفَ ضَيَّعَتِ اللَّبَنَ» .

هذا مَثَلٌ يُضْرَبُ لمن فرط بطلب حاجته عند تمكُّنه منها ، ثم طلبها بعد فواتِ أوانها .

وأصل المثل أن امرأة طَلَبَتْ من زوجها ذي اليسار الطَّلَاقَ ، وكان ذلك في زمن الصَّيْفِ ، فطلَّقَها ، فتزوَّجَتِ ابنَ عمِّها ، وكان شاباً مُعْدِماً ، فمرَّت في الشتاء بأرضها إبلُ زَوْجِها السابق ، فأرسلتْ خادِمَها إليه تطلبُ منه لَبَنًا ، فقال : «الصَّيْفَ ضَيَّعَتِ اللَّبَنَ» فسارتْ عبارته مثلاً .

(٤) قولهم : «أَنْ تَسْمَعَ بِالْمُعَيْدِي خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَرَاهُ» .

هذا مثلٌ يُضْرَبُ لِمَنْ له ذِكْرٌ في النَّاسِ كبير، ولكن ليس له جِسْمٌ يَمْلَأُ عَيْنَ
الناظرِ إليه .

قاله «النعمانُ بن المنذر» أو «المنذر بن ماء السماء» في رجلٍ سَمِعَ بِذِكْرِهِ
ينتهي نَسْبُهُ إلى «مَعَدٍّ» وتصغيره «مُعَيْدٌ» فلَمَّا رآه اقْتَحَمَتْهُ عَيْنُهُ، أي: ازدْرَتْهُ، فقال
كَلِمَتَهُ: فذهبت مثلاً .

قالوا: فقال الرَّجُلُ للمنذر بن ماء السماء: أَيْتَ اللَّعْنِ، إِنَّ الرَّجَالَ لَيُسُو
بِجُزْرِ تُرَادُ مِنْهَا الْأَجْسَامُ .



المجاز المرسل

المقدمة

(١)

التعريف

سبق في مقدّمة فصل المجاز تعريف المجاز المرسل بأنه المجاز الذي تكون العلاقة فيه بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي الذي استعمل اللفظ للدلالة به عليه أمراً غير المشابهة، أو قائماً على التوسع في اللّغة دون ضابطٍ معيّن. وأنه سُمِّيَ «مجازاً مُرسلاً» لكونه مرسلأ عن التقييد بعلاقة المشابهة. وقد أَدْخَلْتُ في عموم عنوان المجاز المرسل المجاز العقلي، إذ هو مجاز في الإسناد علاقته غير المشابهة.

(٢)

تقسيم المجاز المرسل إلى مجاز في المفرد ومجاز في المركب ومجاز عقلي في الإسناد ومجاز قائم على التوسع في اللّغة دون ضابط معين

ينقسم المجاز المرسل إلى أربعة أقسام:

القسم الأول: المجاز المرسل في اللفظ المفرد، كاستعمال لفظ «اليد» مراداً

بها النعمة، نظراً إلى أن اليد هي الأداة التي تُعْطَى بها عادةً عطاءات الإِنعام، وكاستعمال لفظ «العين» مراداً بها الجاسوس الذي يُكَلَّف أن يطلِّع على أحوال العُدُوِّ، ويأتي بالأخبار عنها، نظراً إلى أن العين هي الأداة الكبرى التي تستخدم في هذا الأمر.

القسم الثاني: المجاز المرسل في اللفظ المركَّب، وهي المركَّبات التي تستعمل في غير معانيها الأصلية بهيئتها التركيبية لعلاقة غير المشابهة، مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي.

كاستعمال المركبات الخبرية في الإنشاء، واستعمال المركبات الإنشائية في الخبر.

القسم الثالث: المجاز المرسل في الإسناد، وهو المسمَّى بالمجاز العقلي.

وهو إسناد الفعل أو ما في معناه إلى غير ما هو له في الظاهر من حال المتكلم، لملازمة بين ما هو له في الواقع وبين ما أسند له، مع قرينة صارفة عن أن يكون الإسناد إلى ما هو له.

كقولنا: «بنى فلان عمارة عظيمة» مع أنه لم يَبْنِها بعمل جسمه، وإنما اتخذ الوسائل لبنائها، من استتجار المهندس، واستتجار العمال، وبذل الأموال، فالملازمة بين من بناها فعلاً وبيئته هي كونه صاحبَ الفكرة، والامر بالبناء، وبذل المال، وربما كان المشرف على المتابعة ومراقبة الأعمال.

القسم الرابع: المجاز المرسل القائم على التوشُّع في اللِّغة دون ضابط معيَّن، ومنه المجاز بالحذف أو بالزيادة.

فالحذف يكون للإيجاز، كحذف كلمةٍ يوجد ما يدلُّ عليها، أو حذفِ جُملةٍ أو أكثر.

والزيادة تكون للتأكيد، كزياده بعض الحروف التي تزداد لغرض التأكيد،

مثل : «ما» التي تزداد بعد «إذا» وكحروف الجر التي تزداد للتأكيد، وقد سبق بيان هذا في بحث الإطناب.

وقد سمّوا هذا القسم مجازاً، وبعض الباحثين لم يره من قبيل المجاز.
وفيما يلي مباحث أربعة لشرح هذه الأقسام الأربعة:



المبحث الأول

شرح المجاز المرسل في اللفظ المفرد

المجاز المرسل في المفرد: هو اللفظ المفرد المستعمل في غير ما وُضع له في اصطلاح به التخاطب على وجه يَصِحُّ ضمن الأصول الفكرية واللغوية العامة، لعلاقة غير المشابهة، مع قرينة صارفة عن إرادة المعنى الأصلي.

كاستعمال لفظ «اليد» بمعنى التعمّة، لعلاقة السببية. واستعمال كلمة: «العَيْن» مراداً بها الجاسوس، لأنّ أعظم أدوات تجسُّسه عَيْنُه. واستعمال كلمة: «الأصابع» مراداً بها أطرافها لعلاقة الكلّية والجزئية بينهما. واستعمال كلمة: «الناس» مراداً بها قِسْمٌ منهم للعلاقة الترابطية بين العام وبعض أفراده. وكتسمية الشيء باسم صانعه، للعلاقة الترابطية بين الصانع وما يَصْنَعُ، كأن يُسأل طالب شراء سيارة: ما هي السيارة التي تُريد شراءها؟ فيقول: أريد «شركة تويوتا» أي: أريد سيارة من صنع هذه الشركة، وكتسمية الشيء باسم آله، إلى نحو ذلك.

والمقصود من العلاقة، أو ما يعبر عنه أحياناً بالْمُلاَبَسَة، ما يكون من ارتباط بين معنيين، وهذا الارتباط يسمح في مجالات التعبير التجوّزي بإطلاق لفظ أحدهما على الآخر لغرض بلاغي.

وقد أحصى البيانيون ما يزيد على عشرين علاقة من العلاقات التي يَسْمَحُ كلُّ

واحد منها باستعمال المجاز المرسل، لدى وجوده بين المعنى الأصلي للفظ، والمعنى الآخر الذي يُطلق عليه اللفظ مجازاً.

وإنّي أذكر فيما يلي ما اصطفيته منها، مع إيراد طائفةٍ من الأمثلة عليها.

علاقات المجاز المرسل:

يكفي وجود علاقة من العلاقات الآتيات ونحوها لإطلاق اللفظ إطلاقاً مجازياً على غير ما وُضِعَ له في اصطلاح ما يجري به التخاطب:

(١) كون المعنى الأصلي سبباً للمعنى الذي يُطلق عليه اللفظ مجازاً،

أو مُسَبِّباً عنه، مثل:

● قول المتنبي يمدح محمّد بن عبّيد الله العلوي:

لَهُ أَيَادٍ إِلَيَّ سَابِقَةٌ أَعْدُ مِنْهَا وَلَا أَعْدِدُهَا

أطلقَ لفظ «أيادٍ» وهي جمع «يَدٍ» بمعنى الإحسان، لأنّ عطاءات الإحسان تكون باليد، فهو من إطلاق السبب وإرادة المسبب.

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول):

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا...﴾ [الآية ١٣].

أي: وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً وَضِيَاءً مِنَ الشَّمْسِ فَيُخْرِجُ لَكُمْ بِهِمَا نَبَاتًا لَهُ ثمراتٌ مختلفات هي رزقٌ لكم،

فالرزق مُسَبَّبٌ عمّا ينزل من السماء، وهذا من إطلاق المُسَبَّب وإرادة السبب، وفائدة هذا المجاز الدلالة على المعنيين مع كمال الإيجاز.

(٢) كون المعنى الأصلي للفظ كلاً للمعنى الذي يُراد منه على سبيل

المجاز، أو بعضاً له، مثل:

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ...﴾ [الآية ١٩].

أي: يجعلون بعض أصابعهم، وهي رؤوسها، وهذا من إطلاق الكل وإرادة بعضه، وفائدة هذا المجاز الإشعار بما في نفوسهم من الرغبة بإدخال كل أصابعهم في آذانهم حتى لا يصل إليها الصوت الشديد المميت الذي تحدثه الصواعق.

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿... فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةً...﴾ [الآية ٩٢].

أي: فعتق رقيق مؤمن أو رقيقة مؤمنة، وهذا من إطلاق بعض العتيق وهو رقبته، وإرادة كله.

وفائدة هذا الإطلاق المجازي الإيجاز في التعبير من جهة، لأن الرقبة تكون بعض كل من الذكر والأنثى، والإشارة إلى أن الأرقاء كانوا يُغْلَوْنَ من أعناقهم، فإذا أُعْتِقُوا حُرُّوا من هذه الأغلال.

(٣) كون المعنى الأصلي للفظ لازماً للمعنى الذي يُراد منه على سبيل المجاز، أو ملزوماً له، مثل:

● أن يقول العامل المستأجر من طلوع الشمس إلى غروبها، مشيراً إلى انتهاء وقت عمله:

أَقْبَلَ اللَّيْلُ إِلَيْنَا وَالشَّفَقُ أَفَابَقَنِي عَامِلاً حَتَّى الْغَسَقُ

أي: غابت الشمس، فأطلق إقبال الليل مريداً غياب الشمس، وذلك لأنه يلزم من غياب الشمس إقبال الليل، فهذا من إطلاق اللازم وإرادة الملزوم.

وأن يقول القائل: هذه الأقلام تكتب في الصحف، أي: أخذ الكاتبون يكتبون، فأطلق الأقلام وأراد أيدي الكتاب، إذ يلزم من حركة الأيدي في الكتابة حركة الأقلام، فهذا من إطلاق اللازم وإرادة الملزوم.

● قول القائل لصاحبه: هذا وقت زوال الشمس، أي: وقت وجوب صلاة الظهر، فهذا من إطلاق الملزوم وهو وقت زوال الشمس، وإرادة لازمه، وهو وقت وجوب صلاة الظهر.

(٤) كون المعنى الأصلي للفظ مُطلقاً، والمعنى الذي يُطلق عليه اللفظ مجازاً مقيداً، مثل:

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ وَيَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٰ فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَظْهَرْنَ... ﴾ [الآية ٢٢٢].

جاء في هذه الآية الأمر باعتزال النساء في المحيض، وهو مطلقٌ ولكن أريد منه اعتزال مقيد وهو اعتزال جماعهنَّ.

وجاء في النهي عن الاقتراب منهنَّ حتى يَظْهَرْنَ، وهو أيضاً مطلق، ولكن أريد منه اقترابٌ مقيدٌ، وهو الاقتراب منهنَّ في الجماع.

وفائدة هذا المجاز تأكيد النهي بطلب الابتعاد عن الدواعي التي تدعو إلى ارتكاب المنهي عنه.

(٥) كون المعنى الأصلي للفظ عامّاً، والمعنى الذي يُطلق عليه اللفظ على سبيل المجاز خاصّاً، أو عكس هذا، مثل:

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) بشأن أصحاب رسول الله ﷺ في غزوة أحد:

﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾

جاء في هذه الآية إطلاق اللفظ العام وهو كلمة «الناس» مرتين والمراد ناسٌ خاصون.

فالقائل المبلغ لمصلحة الناس المشركين أعرابيٌّ من خِزاعةَ، وجاء التعبير عنه بلفظ «الناس» .

والمراد من «الناس» الذين جمعوا جموعهم للمؤمنين هم مشركو مكة .
فما في الآية هو من إطلاق العام وإرادة الخاص على سبيل المجاز المرسل، وفائدة هذا المجاز تدريب المؤمنين على التوكّل على الله، وعدم التأثر بأقوال الناس وجموعهم، ولو كانوا كلّ الناس أو معظمهم .

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَيَالِ الَّذِينَ إِحْسَنُوا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٌ وَلَا نَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿١٣٧﴾﴾

جاء في هذه الآية نَهْيُ الولد عن أن يقول لأحد والديه كلمة «آف» وهذه الكلمة كلمة خاصّة من عُموم الكَلِمَاتِ الَّتِي يكون فيها إيذاءٌ لهما، وهي أدناها، والكلام المؤذي أمرٌ خاصٌّ من عموم ما يؤذيها كالضرب، والمراد كلّ ما يؤذيها، وهذا من إطلاق خصوص أذى معين، وإرادة كلّ ما يؤذي على وجه العموم، فهو من إطلاق الخاص وإرادة العام .

وفائدة هذا المجاز التنبيه بالأخفّ على الأشدّ، وتدريب المخاطبين على أن يُعْمِلُوا عُقُولَهُمْ في فهم النصوص ليقسوا الأشباه والنظائر بعضها على بعض، وليَعْلَمُوا أن النَّهْيَ عن الإضرار أو الإيذاء الأخفّ يَدُلُّ بدهاءة على ما هو أشدّ منه .

(٦) كون المعنى الأصلي للفظ حالاً في معنى اللفظ الذي يُراد استعماله بدله على سبيل المجاز، أو مَحَلًّا له، مثل:

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول) بشأن

شجرة الزيتون:

﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبِغٌ لِّلْأَكْثَرِينَ ﴿٢٣﴾﴾

أي: تَنَبَّتْ بنباتٍ وَثَمَرَ فِيهِ الدُّهْنُ وهو الزيت، فجاء في هذه الآية إطلاقُ الدُّهْنِ مُراداً به النَّبَاتُ وَالثَّمَرُ الذي يُوجَدُ في داخله الدهن، وهذا من إطلاق الحالِّ في الشيء وإرادة محلِّه، إذ الذي يَنَبْتُ هي الفروع وَالْوَرَقُ وَالثَّمَرَاتُ التي يوجد فيها الدُّهْنُ.

وفائدة هذا المجاز الإيجاز، وتوجيهُ نظر المخاطبين لما في شجرة الزيتون من دُهْنٍ عظيم النفع للناس، كي يُولُوا زيتَ الزيتون اهتماماً خاصاً، ويشكروا نعمة الله عليهم به.

ومثله: ﴿خُذُوا زَيْتَكُمْ﴾ أي: خُذُوا الأشياءَ التي فيها زيتكم، فهذا من إطلاق الحالِّ على المحلِّ.

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (العلق/ ٩٦ مصحف/ ١ نزول):

﴿فَلْيَذُقْ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾.

فليذُقْ ناديه: أي: فليذُقْ أهلَ ناديه، وهذا من إطلاق المحلِّ وهو النادي وإرادة الحالِّ فيه، وهم أهل هذا المحلِّ.

وفائدةُ هذا المجاز مع الإيجاز إرادة التعميم، لأنَّ الناديَ يَحْوِي كلَّ أهله، وإرادةُ أنصاره المصطفين، لأنَّ الإنسان يصطفي لناديه الخاصَّ أَخْلَصَ المخلصين له الذين يُدافعون عنه بصدق.

ومثله: ﴿خُذُوا زَيْتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾: أي: عند كلِّ صلاة، فهذا من إطلاق المحلِّ على ما يجري فيه من عمل.

(٧) كَوْنُ المعنى الأصلي للفظ والمعنى الذي يُطْلَقُ عليه اللفظ على سبيل

المجاز متجاوزين، مثل:

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البلد/ ٩٠ مصحف/ ٣٥ نزول):

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقْبَةُ ﴿١٢﴾ فَكَّرَقَبَةَ ﴿١٣﴾﴾.

جاء في هذا النص إطلاق لفظ الرقبة على الغل الذي يكون مجاوراً لها ومحيطاً بها، إذ الرقبة ليست هي التي تُفكُّ، إنما يُفكُّ الغل المجاور لها والمحيط بها، فهذا من إطلاق اللفظ وإرادة ما جاوره، وفكُّ الرقبة كناية عن عتق الرقيق.

وفائدة هذا المجاز الإشعار بأن فكَّ الغل يُراد منه إطلاق رقبة المغلول به، لتحرير صاحب الرقبة من الأسر، مع ما في هذا المجاز من إيجاز.

(٨) كون المعنى الأصلي للفظ قد كان فيما مضى على ما يُطلق عليه الآن، فيُطلق عليه مجازاً باعتبار ما كان عليه في الماضي.

أو كون المعنى الأصلي للفظ سيكون فيما سيأتي في المستقبل على ما يُطلق عليه الآن، فيُطلق عليه مجازاً باعتبار ما سيكون عليه في المستقبل. مثل:

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (النساء / ٤ مصحف / ٩٢ نزول):

﴿وَأَتُوا آلَ يَتِيمَ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا الْمَنِيَّةَ بِالطَّبِيبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا

كَبِيرًا ﴿٢﴾

حُوبًا كَبِيرًا: أي: إنما كبيراً مهلكاً.

جاء في هذه الآية إطلاق لفظ «اليتامى» على من بلغوا رشدهم ممن كانوا يتامى قبل ذلك، لأن من بلغ رشده من ذكر وأنثى لا يُسمَّى يتيماً، فهذا من إطلاق اللفظ مجازاً على الشيء بالنظر إلى ما كان عليه.

وفائدة هذا الإطلاق الإيجاز من جهتين:

الأولى: أن لفظ «اليتامى» يُطلق على المذكر والمؤنث.

الثانية: أن إطلاق هذا اللفظ مجازاً يغني عن عبارة طويلة يقال فيها: وآتوا الذين كانوا يتامى فبلغوا رشدهم أموالهم.

● وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (يوسف / ١٢ مصحف / ٥٣ نزول) بشأن استفتاء أحد صاحبيه في السجن عن رؤيا رآها:

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ﴾ [آية ٣٦].

أي: أَعْصِرُ عِنْبًا ليكون فيما بَعْدُ خَمْرًا، فَأُطْلِقَ في هذه العبارة لفظُ الخَمْرِ على العِنْبِ باعتبار المقصود من عَصْرِهِ وهو أن يكون فيما بَعْدُ خَمْرًا.

وظاهرٌ أنَّ فائدة هذا المجاز الإيجاز، وهو من الأغراض البلاغية الكبرى، فبدل أن يقول: إني أراني أعصر عنبًا ليكون في المستقبل خمرًا، قال: إني أراني أَعْصِرُ خَمْرًا. والقرينة الصارفة قرينة عقلية، لأنَّ الخمر لا تُعَصَّر.

(٩) كون المعنى الأصلي للفظ آلة للمعنى الذي يُراد استعمال اللفظ للدلالة

به عليه، مثل.

● أن نقول: ضَرَبَ المؤدَّب تلميذه عشرين سَوَاطٍ.

أي: عشرينَ ضرباً بالسَّوط، فجاء في هذا المثال إطلاق لفظ السوط الذي هو آلة، وإرادةُ حَدَثِ الضرب الذي كان بالسوط.

وظاهرٌ ما في هذا المجاز من إيجاز.

(١٠) كون المعنى الأصلي للفظ مُبَدَلًا أو بَدَلًا، والمعنى الذي يُسْتَعْمَلُ

للدلالة به عليه مجازاً بَدَلًا أو مُبَدَلًا، فالعلاقة هي: «البَدَلِيَّة». مثل:

● أن يقول العامل لربِّ العمل الذي لم يُعْطِهِ أَجْرَ عمله: «أَكَلْتَّ عَمَلِي»

أي: أَكَلْتَّ أَجْرِي الذي هو بدلُ عَمَلِي.

فهذا من إطلاق المُبَدَّل وإرادة البدل.

ونظيره أن يقال: إنَّ بني فلان أكلوا دَمَ القتيل الذي قتلوه، أي: أكلوا الدية

التي هي بَدَلُ دَمِهِ الذي زهقت نفسه بإراقته.

فهذا من إطلاق المُبَدَّل وإرادة البَدَلِ أيضاً.

ومن عكس هذا أن يقال: دفع بنو فلان ديةَ فلان، أي: قتلوه فدفعوا بدل

إراقة دمه الدية، إذا دَلَّتْ القرينة على هذا.

فهذا من إطلاق البدل وإرادة المُبدل، وهو القتل .
وظاهرٌ ما في هذا المجاز من إيجاز .

(١١) علاقة الإضافة بين المضاف وبين المضاف إليه، وهذه العلاقة تتبع معنى الحرف المقدر في الإضافة، فقد يُحذف المضافُ أو المضافُ إليه ويُطلَقُ لفظ الباقي منهما على المحذوف مجازاً . مثل :

● أن نقول: فتح صاحب الدار داره وأذن لقاصديه بالدخول . أي : فتح باب داره .

فهذا من حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، والإضافة هنا على تقدير «لام» الاختصاص .

والغرض الإيجاز، مع الإشارة إلى أنّ فتح الباب إنّما قُصِدَ منه إيّاحة دخول الدار لقاصدي صاحبها .

● وأن نقول: «دَخَلَتِ الْوَفُودُ بَابَ الْمَلِكِ» أي : دخلوا باب قصره .

فقد حُذِفَ من هذه العبارة كلمة «القصر» وهي بالنسبة إلى الباب مضاف إليه، وبالنسبة إلى الملك مضاف .

(١٢) علاقة الضدِّية، فقد يُطلَقُ اللَّفْظُ للدلالة به على ضدِّ معناه، ومن الأغراض الداعية لهذا الإطلاق الاستهزاء والسخرية والتهكم .

مثل :

● أن يقول السلطان لأعوانه بشأن مُجرِمٍ حضر بين يديه : «خذوه فأكرموه في السجن» أي : فاضربوه وعذبوه .

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الأنفال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول) خطاباً للمشركين الذي كانوا يسألون الله الفتح ضدَّ الرسول والذين آمنوا معه قبل موقعة بدر، فجاء الأمر على خلاف ما طلبوا :

﴿ إِن تَسْتَفِينُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ... ﴾ [الآية ١٩].

أي: إن تستنصروا بالله على الرسول والمؤمنين، فقد جاءكم نصر الله للرسول والمؤمنين، فحلت بكم الهزيمة والذلة.

فهذا من استعمال الضد للدلالة به على ضده.

(١٣) توجد علاقة اشتقاقية عامة قد تُطلق بملاستها صيغةً مقام صيغة أخرى، فإذا لم يكن لها تأويل آخر غير الإطلاق المجازي على سبيل المجاز المرسل، فهي لدى التحليل ترجع إلى علاقات فكرية، كاستعمال اسم الفاعل أو اسم المفعول مراداً به المصدر، لأنّ المعنى المصدرى موجودٌ في كلٍّ منهما، وكذلك استعمال المصدر بمعنى اسم الفاعل أو اسم المفعول.

(١٤) إلى غير ما سبق من علاقات تفيد ملاسةً ما، وتصحح في نظر البليغ استخدام المجاز المرسل في عبارته.

* * *

أمثلة تدريبيّة مختلفة للمجاز المرسل:

(١) قول الشاعر:

كَفَى بِالْمَرْءِ عَيْبًا أَنْ تَرَاهُ لَهُ وَجْهٌ وَلَيْسَ لَهُ لِسَانٌ
أطلق الشاعر لفظ «لسان» وأراد به القدرة على البيان الفصيح، والعلاقة هي الآلية، لأنّ اللسان هو آلة البيان الفصيح، فمن ليس له قدرة على هذا البيان فهو بمثابة من ليس له لسان.

(٢) قول الشاعر:

إِذَا نَزَلَ السَّمَاءَ بِأَرْضِ قَوْمٍ رَعَيْنَاهُ وَإِنْ كَانُوا غَضَابًا

أعاد الضمير في «رَعَيْنَاهُ» على السَّمَاء مريداً بالسَّمَاء المطر لأنه ينزل منها
فالعلاقة هي «المكانية» أي: مكان نزول المطر.

لكنه في الضمير أراد أثر المطر وهو نبات الأرض، والعلاقة «السببية».

وهذان الإطلاقان من المجاز المرسل كما هو ظاهر.

(٣) قول ليلى الأخيلية تتحدّث عن الإبل وراكبيها:

رَمَوْهَا بِأَثْوَابٍ خِفَافٍ فَلَا تَرَى لَهَا شَبَهًا إِلَّا النَّعَامَ الْمُتَفَرًّا
أُطْلِقَتْ كلمة «أثواب» وأرادت راكبيها من الرجال، والعلاقة كون الثياب
ظرفاً للرجال، فهي التي تظهر للعيون.

والغرض البياني الإشعار بأن الرجال من رقتهم وخفتهم لم يظهرُوا، فلم يَبْدُ
على ظهور الإبل المنطلقة في الجزي إلا أثوابٌ مَرْمِيَةٌ عليها.

(٤) قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿... فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ...﴾ [الآية ١٩٤].

فَاعْتَدُوا عليه: أي: فجازؤوه، أُطْلِقَ فعلُ «اعتدوا» بمعنى جازوا، لأن هذا
الجزء كان سببهُ اعتداء من اعتدى، فأُطْلِقَ على المُسَبَّب اللفظ الدالّ على السَّبب،
فالعلاقة السببية.

وفائدة استعمال هذا المجاز الدلالة على العدل الذي هو حق المعتدّي عليه.

(٥) قول الشاعر الجاهلي «عمرو بن كلثوم»:

أَلَا لَا يَجْهَلُنْ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَجْهَلْ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَا
فَجْهَلْ: أي: فنجازيه بمثل عمله، وإن كان هذا الجزء لا يُسَمَّى جَهْلًا،
لكن لما كان مُسَبَّبًا عن جَهْلِ الجاهلين صَحَّ أن يُطْلَقَ عليه مجازاً الاسم الذي يُطْلَقُ
على السبب. وفائدته الإشارة إلى العدل.

(٥) قول امرئ القيس يخاطب صاحبه:

أَعْرَكَ مِنِّي أَنَّ حُبُّكَ قَاتِلِي وَأَنَّكَ مَهْمَا تَأْمُرِي الْقَلْبَ يَفْعَلِي
أطلق «الْقَلْبَ» وهو جزء منه، وأَرَادَ كُلَّ ذَاتِهِ، وهذا من إطلاق الجزء وإرادة الكلّ.

والغرض البياني الإشعار بأنَّ حُبَّهَا الذي في قلبه، يجعله ذا سلطانٍ عليه، وهذا السلطان ينتقل من القلب المسيطر على ذاته لتكون ذاته كلها مُطِيعَةً لأوامرها.

(٦) قول ابن المعتز في ممدوحه:

سَأَلْتُ عَلَيْهِ شِعَابُ الْحَيِّ حِينَ دَعَا أَنْصَارَهُ بِوُجُوهِ كَالدَّنَائِرِ
أطلق لفظ «الوجوه» وأراد أنصاره من الرِّجَال، وهذا من إطلاق الجزء وإرادة الكلّ على طريقة المجاز المرسل.

والغرض البياني الإشعارُ بأنَّ الناس حين يُقْبِلُونَ جَمًّا غفيراً كالسيول المتحدّرة في الشعاب، إنّما تُرَى منهم وجوههم، فلا يُدَقَّقُ الناظر إليهم النظرَ في سائر أجسامهم.

(٧) قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الغاشية/ ٨٨ مصحف/ ٦٨ نزول):

﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَشِيعَةٌ ﴿٦﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٧﴾ تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً ﴿٨﴾﴾

وقوله فيها:

﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾﴾

جاء في هذين النصّين إطلاق كلمة وُجُوهِ، والمرادُ أشخاصهم وذواتهم كلّها، فهو من إطلاق اسم الجزء على الكلّ.

والغرض البياني من هذا الإطلاق، الإشارةُ إلى أنّ الوجوه هي التي تظهر عليها علامات البؤس من العذاب، وعلامات السُّرور من النعيم.

(٨) قول الشاعر:

بِلَادِي وَإِنْ جَارَتْ عَلَيَّ عَزِيْزَةٌ وَأَهْلِي وَإِنْ ضُتُّوا عَلَيَّ كِرَامٌ

أطلق كلمة «بلاد» مضافة إليه، وأراد أهلها وسكانها، والعلاقة المحلية.

والغرض البياني الإيجاز، مع الإشارة ضمناً إلى ذوي السلطة والنفوذ فيها، لأنهم هم الذين يمثلونها، ويدهم العدل والجور فيها.

(٩) قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الحج / ٢٢ مصحف / ١٠٣ نزول) بشأن

المُضِلِّ عن سبيل الله:

﴿لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيْقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيْقِ ﴿١٧٦﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلْمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿١٧٧﴾﴾

وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (آل عمران / ٣ مصحف / ٨٩ نزول) بشأن كفار

اليهود:

﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيْقِ ﴿١٨٧﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿١٨٨﴾﴾

جاء في النص الأول إطلاق «اليدين» والمراد ما يكسب الإنسان بكلِّ جوارحه الظاهرة والباطنة.

وجاء في النص الثاني إطلاق «الأيدي» والمراد ما يكسبون بكلِّ جوارحهم الظاهرة والباطنة.

وهذا من إطلاق الجزء وإرادة الكلِّ، والغرض البياني الإشارة إلى أن الأيدي هي أكثر الأعضاء كسباً للأعمال.

(١٠) قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (النور / ٢٤ مصحف / ١٠٢ نزول):

﴿وَلَيْسَتَعَفِيفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُعْطِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ...﴾ [الآية ٣٣].

أطلق «النكاح» والمراد مؤنته من مهرٍ ونفقةٍ وما لا بُدَّ منه لطالب النكاح، وهذا من إطلاق المسبب وإرادة سببه.

وفي هذا المجاز إيجاز في التعبير، مع الإشارة إلى أن الرجال هم المسؤولون عن نفقات النكاح.

(١١) قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿وَقَلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ... ﴿[الآية ٣٦].﴾

فأخرجَهُمَا: أي: أغواهُمَا إغواءً كان السبب في إخراج الله لهما من الجنة، فالعلاقة السببية.

في هذا المجاز إيجاز في التعبير مع التنبية على أن الشيطان قد توصل إلى هدفه من إغوائهما، وهو إخراجهما من الجنة.

(١٢) قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَنْ أَجْلِهِنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ... ﴿[الآية ٢٣٢].﴾

أزواجهنَّ: أي: الذين كانوا أزواجهنَّ سابقاً، وهذا من إطلاق اللفظ على الشيء باعتبار ما كان عليه.

(١٣) قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (نوح/ ٧١ مصحف/ ٧١ نزول):

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٦٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْنِي يَئِسُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاكِرًا كَفَّارًا ﴿٦٧﴾﴾

أي: ولا يلدوا إلا مؤلوداً يؤول أمره إلى أن يكون بعد بلوغه فاجراً كفَّاراً. فهذا المجاز هو من تسمية الشيء باسم ما يؤول إليه.

(١٤) قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول) بشأن
الملائكة الذين بشرُوا إبراهيم عليه السلام بغلام:

﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا لَا نُوَجِّلُ إِنَّآ بُنِشْرُكَ بِعَلْمِ
عَلِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ .

جاء وصف الغلام عند البشارة بما يؤول إليه أمره من أنه سيكون عليماً.
وهذا من تسمية الشيء باعتبار ما يؤول أمره إليه.



المبحث الثاني

شرح المجاز المرسل في اللفظ المركب

المجاز المرسل في اللفظ المركب: هو لفظ مركب يستعمل بهيئته التركيبية في غير المعنى الذي وُضِعَتْ له صيغة جملته في اصطلاح التخاطب، لعلاقة غير المشابهة، مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي.

ويكون هذا المجاز في قسمين:

القسم الأول: المركبات الخبرية.

القسم الثاني: المركبات الإنشائية.

أما قسم المركبات الخبرية: فقد تخرج عن دلالتها الخبرية مجازاً للدلالة بها على معنى آخر، فمنها ما يلي:

(١) الخبر المُسَوِّق للتعبير عن التَّحَسُّر وإظهار الحزن، ومن أمثلته:

● قول الشاعر:

ذَهَبَ الشَّبَابُ فَمَالَهُ مِنْ عَوْدَةٍ وَأَتَى الْمَشِيبُ فَأَيْنَ مِنْهُ الْمَهْرَبُ؟

والعلاقة بين المعنى الأصلي وهو الإخبار، والمعنى المجازي وهو التَّحَسُّر وإظهار الحزن «اللَّزوم» إذ يلزم من الإخبار بذهاب الشيء المحبوب المعلوم للجميع التَّحَسُّر والحزن عليه.

إنه يتحسّر ويحزن على ذهاب الشباب وإتيان المشيب ولا يخبر بذلك، وأصل صيغة الجملة موضوعة للإخبار.

ونظير هذا أن تقف الثكلى على قبر ولدها وتقول: مَاتَ ولدي، مات ولدي، وتكرّر هذه العبارة وتبكي.

(٢) الخبر المسوق للدعاء، ومن أمثلته:

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (يوسف / ١٢ مصحف / ٥٣ نزول) حكاية لما قال يوسف عليه السلام لإخوته:

﴿ قَالَ لَا تَأْتِبِ عَلَيَّكُمْ الْيَوْمَ يَعْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾.

يَعْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ: المعنى الأصلي الذي تدلُّ عليه الصيغة الإخبار، وقد استعملت مجازاً في الدعاء، والعلاقة السببية على سبيل التفاؤل والطمع بكرم الله وفضله، إذ الدعاء الذي هو إنشاء طلب من الله سبب في تحقيق الاستجابة بمشيئة الله على سبيل التفاؤل والرجاء.

ونظيره قول الرسول ﷺ بشأن المتحلّلين من إحرامهم بالحلّق أو التقصير على ما روى الإمام أحمد بسنده إلى يحيى بن حُصَيْن، قال: سَمِعْتُ جَدَّتِي تقول: سمعتُ نبيّ الله ﷺ بعرفات يخطُبُ يقول:

«عَفَرَ اللَّهُ لِلْمُحَلِّقِينَ، عَفَرَ اللَّهُ لِلْمُحَلِّقِينَ، عَفَرَ اللَّهُ لِلْمُحَلِّقِينَ».

قالوا: والمقصرين؟

فقال: «والمقصرين» في الرابعة.

الصيغة صيغة إخبار، وقد استعملت في الدعاء. والغرض البياني الرجاء والتفاؤل بتحقيق المدعوّ به.

(٣) الصيغة الخبرية المسوقة للدلالة بها على إنشاء الأمر أو النهي، ومن

الأمثلة:

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة / ٢ مصحف / ٨٧ نزول):

﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ ۖ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا سُوفَ وَلَا جِدَالَ فِي

الْحَجِّ... ﴾ [الآية ١٩٧].

فلا رَفَتْ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ: الصيغة موضوعة للنفي الخبري، وقد استعملت في النهي عن هذه الأمور مجازاً، والعلاقة المسببية لأن حصول النَّفْيِ فِي الْوَاقِعِ مُسَبَّبٌ عَنِ طَاعَةِ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْحَجِّ لِمَا يَنْهَى اللَّهُ عَنْهُ، وَهَذَا هُوَ الْمُنْتَظَرُ مِنْهُمْ، فَأُطْلِقَ الْمَسَبَّبُ، وَأُرِيدُ سَبَبَهُ.

واستعمال الخبر في مثل هذا المقام أبلغ من إنشاء النَّهْيِ، إِذْ يُشْعِرُ بِأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَأْنِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ الْمَخَالَفَةُ فِي وَاقِعِ حَجِّهِمْ، الَّذِي تَحَمَّلُوا فِيهِ الْمَشَقَّاتَ الْكَثِيرَاتِ، وَبَدَلُوا لِأَدَائِهِ أَمْوَالاً جَمَعُوهَا بِالْجُهْدِ وَالْكَدِّ وَرَبِمَا انْتظَرُوا سِنِينَ حَتَّى تَهَيَّأَتْ لَهُمُ الْإِسْتِطَاعَةُ.

● وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنَمِّ الرِّضَاعَةَ... ﴾ [الآية

. [٢٣٣]

الصيغة خبرية في «يُرْضِعْنَ» واستعملت في الأمر الترغيبية أو الإلزامية مجازاً، والعلاقة المسببية، لأن الإرضاع الفعلي مُسَبَّبٌ عَنِ طَاعَةِ الْمُؤْمِنَاتِ لِأَمْرِ اللَّهِ فِي شَأْنِ أَطْفَالِهِنَّ، وَهَذَا هُوَ الْمُنْتَظَرُ مِنْهُنَّ، فَأُطْلِقَ الْمَسَبَّبُ وَأُرِيدُ سَبَبَهُ.

واستعمال الخبر في مثل هذا المقام أبلغ من إنشاء الأمر، إِذْ يُشْعِرُ بِأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَأْنِ الْوَالِدَاتِ ذَوَاتِ الْحَنَانِ وَالشَّفَقَةِ عَلَى أَطْفَالِهِنَّ، وَهُنَّ مُؤْمِنَاتٌ بَرَبِهِنَّ أَنْ يَتْرُكْنَ إِرْضَاعَ أَوْلَادِهِنَّ دُونَ ضَرُورَةٍ، أَوْ حَاجَةٍ شَدِيدَةٍ جَدًّا.

● وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَرَئِبْنَ أَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ... ﴾ [الآية ٢٢٨].

الصيغة خبرية واستعملت في الأمر الإلزامية بالترئيب، وهو الانتظار بعدم الزواج الجديد حتى تمضي العدة.

واستعمال الخبر في مثل هذا المقام أبلغ من إنشاء الأمر، لِلإِشْعَارِ بِأَنَّهُ لَيْسَ

من شأن المؤمنات المسلمات في مجتمع إسلامي تكون المطلقات فيه تحت المراقبة لمعرفة هل يوجد حمل ينسب إلى الزوج السابق أولاً؟ أن يُسرِعْنَ إلى زواج من زوج آخر قبل انقضاء مدة العدة.

والعلاقة المسببية، كما سبق في المثاليين السابقين.

إلى غيرها من الأمثلة، ومنها: ﴿وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾ - ﴿وَأَذْأَخِدْنَا مِيثَاقَكُمْ لَآ تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾.

(٤) الصيغ الخبرية المستعملة للدلالة على الامتنان، أو الترغيب والحض، أو التلويح، أو التحسير والتنديم، أو المدح، أو الهجاء، أو السخرية والاستهزاء، إلى غيرها من معانٍ سبق بيانها في مبحث الجملة الخبرية، ومعانٍ أخرى قد تفتق عنها أذهان البلغاء.

وأما قسم المركبات الإنشائية: فقد تخرج مجازاً عن معانيها للدلالة بها على معانٍ أخرى، فمنها ما يلي:

(١) إطلاق الأمر والنهي مراداً به الإخبار مجازاً، ومن الأمثلة ما يلي:

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (مريم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول) خطاباً لرسوله:

﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾.

فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا: صيغة أمرٍ يرادُ بها الإخبارُ عن سُنَّةِ اللَّهِ، وصيغة الأمر هنا مستعملةٌ أولاً بمعنى الدعاء، والدُّعَاءُ مُسْتَعْمَلٌ بمعنى الخبر، أي: فالله يُمدُّ له مَدًّا.

وفي هذا المجاز إيجاز بالغ، وإشعار بأن الرسول يدعو على من كان في الضلالة، بأن يُجري الله فيه سُنَّتَهُ، فَيَمْدُدْ لَهُ، ولا يدعو عليه بتعجيل العقاب.

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول):

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلنَحْمِلَ خَطِيئَتَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ
مِّنْ خَطِيئَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَذِبُونَ ﴿١١٦﴾ .

وَلنَحْمِلُ خَطَايَاكُمْ: هَذِهِ صِيغَةٌ أَمْرٍ، يُرَادُ بِهَا الْإِخْبَارُ عَلَى سَبِيلِ الْوَعْدِ بِأَنَّهُمْ
سَيَحْمِلُونَ عَنْهُمْ خَطَايَاهُمْ إِذَا اتَّبَعُوهُمْ، وَهُمْ كَاذِبُونَ بِهَذَا الْوَعْدِ، وَغَرَضُهُمْ مِنْهُ
الاستدراج إلى الكفر.

وصيغة الأمر في هذا المقام أبلغ من صيغة الخبر، لأنَّ فيها معنى إلزام
أنفسهم بتحقيق الأمر الذي وعدُّوهم به.

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول) بشأن

المنافقين الذين تخلفوا عن الرسول ﷺ في غزوة تبوك:

﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٧﴾ .

أي: هم يضحكون اليوم في دنياهم قليلاً ولكنهم سيبكون في آخرتهم كثيراً
جزاء بما كانوا في الحياة الدنيا يكسبون من آثام.

جاء هذا الإخبار بصيغة الأمر في ﴿ فَلْيَضْحَكُوا - وَلْيَبْكُوا ﴾ على سبيل
المجاز المرسل، وعلاقته هنا السببية، لأنَّ الأمر الربائي التكويني هو الذي مكَّنَهُمْ
في الحياة الدنيا من أن يكونوا منافقين وعصاة محتالين يضحكون في سرِّهم إذا
قَدَّمُوا أَعْدَاراً كاذبةً قَبْلَهَا الرسول ﷺ منهم معاملة لهم بمقتضى ظاهر أحوالهم،
فمن توابع الأمر التكويني الذي جعلهم الله به مخيرين أن يضحكوا، فأُطْلِقَ لفظ
السبب على المسبَّب.

ولأنَّ الأمر التكويني الجزائي يَوْمَ الدِّينِ هو الذي سَيَجْعَلُهُمْ يَتَقَلَّبُونَ في
العذاب الذي يجعلُهُمْ يَبْكُونَ من شِدَّةِ مَا يَلَاقُونَ من آلام، فأُطْلِقَ لفظ السبب على
المسبب على طريقة المجاز المرسل.

● قول الرسول ﷺ كما جاء في الحديث الصحيح :

«مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ» .

فَلْيَتَّبِعُوا: الصيغة إنشائية فيها معنى الأمر، والمراد الإخبار بأنهم سَيَتَّبِعُونَ

مقعدهم من النار، أي: سَيُفِيْمُونَ به .

يقال لغة: تَبَوَّأَ الْمَكَانَ وَتَبَوَّأَ بِهِ، إِذْ نَزَلَهُ وَأَقَامَ بِهِ .

والعلاقة السببية بين الأمر والخبر هنا، إِذِ الْأَمْرُ مُسْتَعْمَلٌ أَوَّلًا بِمَعْنَى الدَّعَاءِ،

إِذْ يُطَلَبُ فِيهِ الرَّسُولُ مِنْ رَبِّهِ، وَدُعَاءُ الرَّسُولِ عَلَى مَنْ كَذَبَ عَلَيْهِ مُتَعَمِّدًا بِهَذَا التَّبَوُّؤِ مُتَحَقِّقٌ الْاِسْتِجَابَةَ فَهَذَا الْكَاذِبُ سَيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ حَتْمًا .

أو نقول: صيغة الأمر مستعملة بمعنى الوعيد، والعلاقة بين الأمر والوعيد أَنَّ

أَمْرَ التَّنْفِيزِ الْجَزَائِيِّ يَلْزَمُ عَنْهُ وَعِيدٌ بِالْجِزَاءِ، فَالْعِلَاقَةُ هِيَ اللَّزُومُ، فَجَرَى اسْتِعْمَالُ الْأَمْرِ فِي الْوَعِيدِ بِمَا سَيَحْدُثُ مِنْ جِزَاءٍ، وَلَوْ كَانَ مُقَرَّرُ الْجِزَاءِ غَيْرَ مُسْتَعْمَلٍ صِيغَةَ الْأَمْرِ .

(٢) وقد تُطْلَقُ الْجُمْلَةُ الْاِسْتِفْهَامِيَّةُ مُرَادًا بِهَا مَعَانٍ أُخْرَى غَيْرُ الْاِسْتِفْهَامِ،

مِثْلُ: «التقرير - الإنكار - الامتنان - التمني - الترجي» إلى غير هذه المعاني من معاني خبرية سبق بيانها في بحث الجملة الإنشائية وأقسامها، تحت بحث: «خروج الاستفهام عن أصل دلالاته إلى معاني أخرى .

(٣) إلى غير ذلك من معاني تتفق عنها أذهان البلغاء .



المبحث الثالث

المجاز في الإسناد وهو المجاز العقلي

المجاز العقلي: إسناد المتكلم الفعل أو ما في معناه إلى غير ما هو له في اعتقاده، لملايسة بينهما، مع قرينة صارفة عن أن يكون الإسناد إلى ما هو له في اعتقاده.

هذا المجاز هو في حقيقته تجوز في حركة الفكر بإسناد معنى من المعاني إلى غير الموصوف به في اعتقاد المتكلم، لملايسة ما تُصَحِّحُ في الذهن هذا الإسناد، بشرط وجود قرينة صارفة عن إرادة كون الإسناد هو على وجه الحقيقة.

وغالباً ما تكون القرينة الصارفة عن إرادة الحقيقة باعتقاد المتكلم في هذا الإسناد قرينة فكرية، تُدْرِكُهَا الأذهان ولو لم يأت في العبارة ما يدلُّ عليها، وقد تكون قرينة لفظية أو حالية.

وسُمِّيَ مجازاً عَقْلِيّاً وقد يُطْلَقُ عليه «مجازٌ حُكْمِيٌّ» لأنَّ كلاً من ركني الإسناد قد يكون مستعملاً في معناه اللغوي بحسب وضعه، إنَّما حصل التجوز في الإسناد وفي النسبة فقط، وقد يكون مستعملاً في معنى مجازي على طريقة المجاز اللغوي، وأضيفَ إلى ذلك مجازٌ عقليٌّ حاصل في الإسناد، أي: في نسبة المسند إلى المسند إليه، سواء أكانت الجملة فعلية أو اسمية.

ما في معنى الفعل : المصدر والمشتقات التي تعمل عمل الفعل في الأسماء الظاهرة أو في ضمائرها، وهي اسم الفاعل، واسم المفعول، والصفة المشبهة، واسم التفضيل، واسم المصدر.

الملايسة: هي العلاقة التي سبق بيانها في المجاز المرسل في المفرد، أو في المركب، كالسبية والمسببية، والكلية والجزئية، واللزوم، والمجاورة، والعموم والخصوص، والحالية والمحلية، واعتبار ما كان أو ما سيكون، والآلية، إلى غيرها من علاقات وملابسات.

وليس بلازم في المجاز العقلي «كما قال عبد القاهر» أن يكون للفعل فاعل في التقدير إذا أُسند إليه كان الكلام وارداً على وجه الحقيقة، إذ لا يتأتى هذا في كل شيء، كأن تقول: ساقني إلى البلد حقاً لي أطلب به.

أمثلة:

(١) قول القائل في وصف متعبّد يقوم الليل ويصوم النهار اسمه عبد الله: «عبدُ الله ليله قائم، ونهاره صائم».

هذا الإسناد قد وُجِدَتْ نظائره في كلام بلغاء العرب، ويلاحظ في هذا المثال أن كلَّ لفظة فيه مستعملة في معناها الأصلي بحسب الوضع اللغوي، لم يحدث فيها تجوُّزٌ ما، لكنَّ الذي حصل هو التجوُّز في الإسناد، فبدل أن يُسند القيام والصيام إلى المتعبّد فيقال: «عبدُ الله قائمٌ كلَّ الليل، وصائمٌ كلَّ النَّهار» أُسنداً إلى الليل والنَّهار، والعلاقة هي الظرفية الزمانية.

ومع ما في هذا الإسناد من فنية أدبية تُعجِبُ مشاعر الأديب، فله غرض بياني، وهو الدلالة بإيجاز على أن عبد الله يستغرق ليله بالقيام متعبداً، أو هو بمثابة المستغرق له، ويستغرق نهاره بصيامٍ مستوفٍ لشروطه من الناحيتين المادية والمعنوية.

هذه العملية التجوُّزِيَّة حركةٌ فكريَّةٌ في الإسناد والوصف، وليست تجوُّزاً لغوياً في استعمال الكلمة للدلالة بها على غير معناها الأصلي في الاصطلاح الذي يجري به التخاطب.

ولهذا كان جديراً بأن يُسمَّى «مجازاً عقلياً» أو «مجازاً فكرياً» أو مجازاً في الإسناد» أو «مجازاً حكيمياً» أي: في الحكم، ونحو هذه العبارات، وقد اشتهر عند البيانين أنه مجاز عقلي.

(٢) قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) بشأن المنافقين:

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلٰلَةَ بِالْهُدٰى فَمَا رَبَحَت بِتِجَارَتِهِمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (١٦)

نلاحظ في هذه الآية أن رُكْنِي الإسنادِ حصلَ فيهما مجازٌ لغوي.

فالربح المنفي استعير للدلالة به على عدم حصول الفائدة من عمل المنافقين، وهذا مجاز لغوي.

والتجارة استعيرت للدلالة بها على أخذهم الضلالة وتركهم الهدى، كما يفعل التجار في المبادلات عند البيع والشراء، وهذا مجازٌ لغويٌّ أيضاً.

لكنَّ الشاهد من إيراد الآية هنا ليس فيهما، إنما الشاهد في الإسناد الذي حصل في الجملة، فبدل أن يُسند نفي الربح إلى المنافقين أُسند إلى تجارتهم، أي: إلى أخذهم الضلالة وتركهم الهدى.

والعلاقة التي صححت هذا الإسناد هي كون هذا العمل عمل المنافقين أنفسهم، إذ قصدوا منه تحقيق الفائدة لهم، فلم يكن عملهم سبباً لربحهم، بل كان سبباً لخسارتهم.

والملاسة بين العامل وعمله من أقوى الملاسات التي تُصَحِّح في الأفكار مثل هذا المجاز العقلي .

ولا يخفى ما في هذا المجاز من إيجاز، ومن فنية أدبية تُعْجِبُ أذواق الأدباء والبلغاء .

أما القرينة فهي قرينة فكرية عقلية، إذ التجارة ليست هي التي تريح أو تخسر، بل الرباح أو الخاسر هو صاحب التجارة .

(٣) قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (القصص / ٢٨ مصحف / ٤٩ نزول):

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدَّبِعُ أَبْنَاءَ هُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١﴾ ۞ .

جاء في هذه الآية إسنادُ تذبيح أبناء المستضعفين إلى فرعون، مع أنه لم يكن هو الذي يقوم بأعمال التذبيح، إنما كان يأمرُ جنوده بذلك فيطيعون أمره .

والعلاقة أو الملاسة هي السببية، فدلَّ هذا المجاز العقلي بعبارته الموجزة على أمرين :

الأول: أن فرعون كان هو الأمر المُطَاع في أعمال تذبيح أبناء المستضعفين في مصر .

الثاني: أن جنوده كانوا يقومون فعلاً بهذا العمل الإجرامي الشنيع، طاعة لسيدهم فرعون .

والقرينة الدليل الفكري المستند إلى ما هو معلوم في عادة الملوك الجبارين .

(٤) قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (غافر / ٤٠ مصحف / ٦٠ نزول):

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَنْهَكُنُّ ابْنِي لِى صَرَحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٧﴾ ۞ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ آلِئُومُوسَىٰ . . . ﴿ [الآية ٣٧] .

أمرَ فرعونَ وزيرَهُ الأوَّلَ هامانَ بأن يَبْنِيَ لَهُ صَرْحاً، مَعَ أَنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَبْنِيَهُ
بِنَفْسِهِ، إِنَّمَا يُوجِّهُ أُوَامِرُهُ لِلْبَنَائِينَ وَيَتَخَذُ الْوَسَائِلَ لِذَلِكَ.
والملاسة هي السببية، والقريظة دليلٌ فكريٌّ يستند إلى العادة.

(٥) قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول):

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿١٨﴾ جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا
وَيَسْأَلُونَ الْقَرَارَ ﴿١٩﴾ ۝ ﴾

دار البوار: دارُ الهلاك المتجدد الذي يذوق أهلها به العذاب كلما بدل الله
جلودَهُمُ الَّتِي نَضِجَتْ جُلُوداً غَيْرَهَا، فَالْبَوَارُ فِي اللَّغَةِ الْهَلَاكُ، وَهُوَ يَحْمِلُ مَعْنَى
العذاب، وَفُسِّرَتْ دَارُ الْبَوَارِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا ۝ ﴾.

وجاء في هذا النص أن الذين بدلوا نعمة الله كُفْرًا أَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ
لأنهم كانوا من العوامل التي جعلت قومهم يكفرون بربهم، فيدخلون جهنم.
فهذا مجاز عقليٌ ملاسته التسبب عن طريق القيام بأعمال الإغواء والإغراء
والمكر التي تغريهم وإن كانت استجابتهم تأتي من قبل إراداتهم الحرة.

(٦) قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (المزمل/ ٧٣ مصحف/ ٣ نزول):

﴿ فَكَيْفَ تَنْقُوتَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ۝ ﴾

عبارة: ﴿ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ۝ ﴾ هو كناية عن شدة الهول الذي يكون يوم
الدين، ولكنَّ الشاهد هنا ليس في كون هذه العبارة كناية، إنما الشاهد هنا في إسناد
الفعل إلى اليوم، واليوم ليس هو الذي يجعل الولدان شيباً، والملاسة هي
«الظرفية» لأن ذلك اليوم هو الظرف الزمانيُّ للأحوال التي من شأنها لو وُجِدَ نظيرها
في الدنيا أَنْ تَجْعَلَ الْوِلْدَانَ شِيبًا.

(٧) قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الحاقة/ ٦٩ مصحف/ ٦٨ نزول) بشأن

الذي يُؤْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابُهُ يَمِينِهِ:

﴿هُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٧﴾﴾ .

جاء في هذا النَّصِّ وصفُ المؤمن في الجنة بأنَّ عِيشَتَهُ رَاضِيَةٌ، والأصلُ أن يكون هو الراضي بها، فأَسْنَدُ الرضا إلى العيشة، والملابسةُ أنه هو صاحبُ العيشة، فهي جزءٌ من ذاته .

والغرضُ البيانيُّ الإِشعارُ بمصاحبة الرضا لكلِّ أجزاء عيشة المؤمن في الجنة، فلا يُوجَدُ عُنْصُرٌ منها، ولا أجزاءٌ زَمَنِيَّةٌ مرافقة لها، تخلُّو من الرضا، وهذا المعنى لا تُؤدِّيه عبارة: فهو راضٍ عن عيشته، وذلك لأنَّ الإنسان قد يرضى عن عيشته ولو دخلت ضمنها منغصات، إذ هو ينظر إلى عيشته باعتبار الأغلب من أحوالها، بخلاف العيشة نفسها التي تمرُّ أجزاءً مع توالي الأزمان، إذ كلُّ جزء منها مُنْفَكٌ عن سابقه وعن لاحقته، فإِسْنَادُ الرضا إليها يدلُّ على أنَّ كلَّ أجزاءها مغمورٌ بالرضا .

(٨) قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (محمَّد/ ٤٧ مصحف/ ٩٥ نزول) بشأن

تخوِّف الذين في قلوبهم مرض من أن يَنْزَلَ قرآنٌ يوجب عليهم القتال:

﴿... فَأُولَئِكَ لَهُمْ ﴿٢١﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرَ فَلَوْ كُفِرُوا بِاللَّهِ لَكَانَ خَيْرًا

لَهُمْ ﴿٢١﴾﴾ .

العزمُ على القتال والإلزامُ به من شأن الرُّسُولِ ﷺ، ثم من شأن أولياء الأمر من بعده، فالأمرُ هو أمرُهُمْ .

وقد جاء في هذا النَّصِّ إسنادُ العزم إلى الأمر، بدلَ إسناده إلى صاحب الأمر

على طريقة المجاز العقلي، والملابسة تلاحظ من جِهَتَيْنِ:

الأولى: أنَّ فاعل العزم على القتال هو الذي يَمْلِكُ الأمر به .

الثانية: أنَّ الأمر بالقتال إلزاماً يكون معزوماً عليه .

والغرضُ البيانيُّ فَنِيَّةُ الأداء، مع الإيجاز، ويوجدُ في هذا المجازُ إشعارٌ بأنَّ

الضرورة أو المصلحة الشديدة لجماعة المسلمين هي التي تجعل وليَّ الأمر يَعْزِمُ

على الأمر بالقتال إلزاماً، حتّى كأنّ أمرَ المُسلمين العامّ هو صاحِبُ العزم، وهذا معنى دقيق قد أدته العبارة القرآنية بأبلغ إيجاز.

(٩) قول الله عزّ وجلّ في سورة (الرعد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول):

﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا . . . ﴾ [الآية ١٧].

جاء في هذا النصّ إسناد السيلان إلى الأودية، مع أنّه للماء فيها، والملابسة المكانية، أو المجاورة.

والغرض البياني الإشعار بأنّ الناظر إلى الأودية المغمورة بماء السيول، يُخَيَّلُ إليه أنّ الوِديانَ تَسِيلُ أيضاً مع المياه التي تسيل فيها.

(١٠) قول الصلّتان العبدي «هو قُمْ بُنْ حَبِيَّة» متوفى (٨٠هـ):

أَشَابَ الصَّغِيرَ وَأَفْتَى الْكَبِيْرَ — كَرَّ الْغَدَاةَ وَمَرَّ الْعَشِيْ

أسند فعلَي «أَشَابَ» و «أَفْتَى» إلى كَرَّ الْغَدَاةَ وَمَرَّ الْعَشِيْ، وهما لا يفعلان ذلك، لكنهما زَمَانٍ لِمَا يَحْدُثُ من تغييراتٍ فيهما بفعل الرّب الخالق وَسُنَنِهِ في كونه، فالملابسةُ الظرفيةُ الزمانية.

(١١) قول الشاعر يَصِفُ عينَ جَمَلِهِ بأنّها تجوبُ لهُ في اللَّيْلِ الدَّامِسِ الظلماء

فيهتدي بهديها:

تَجُوبُ لَهُ الظُّلْمَاءَ عَيْنٌ كَانَتْهَا زُجَاجَةٌ شَرِبَ غَيْرُ مَلَأِيْ وَلَا صِفْرِ

فأسند إلى عين الجملة أنّها تَجُوبُ لِلْجَمَلِ الظُّلْمَاءَ، أي: تَخْرِقُ وَتَنْقُبُ لَهُ الظُّلْمَاءَ فيرى بذلك طريقه، فجعل العين هي التي تفعلُ لصاحبها، والملابسةُ كَوْنُهَا أداة العمل.

الشَّرْبُ: القَوْمُ يَشْرَبُونَ وَيَجْتَمِعُونَ عَلَى الشَّرَابِ.

والأمثلة على المجاز العقلي كثيرة جداً.

* * *

تقسيم المجاز العقلي

باعتبار طرفيه المسند والمسند إليه

قسّم البيانيون المجاز العقلي بالنظر إلى كون كلٍّ من طرفيه: «المُسندِ والمُسندِ إليه» حقيقة لغوية أو مجازاً لغوياً، إلى أربعة أقسام:
القسم الأول: أن يكون الطرفان حقيقتين، مثل: «سأل الوادي».

فالمسند وهو فعلٌ «سأل» مستعملٌ فيما وُضع له لغة وهو السيلان، ولا مجاز فيه.

والمسند إليه وهو «الوادي» مستعمل أيضاً فيما وضع له لغة ولا مجاز فيه.
لكن المجاز وقع في الإسناد وهو نسبة السيلان إلى الوادي، وهذا من المجاز العقلي.

● ومثل قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنفال / ٨ مصحف / ٨٨ نزول):

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾

زَادَتْهُمْ إِيمَانًا: فعل الزيادة حقيقة، والآيات حقيقة، وإسناد الزيادة إلى الآيات مجاز عقلي، ملابسته السببية.

● ومثل قول الله عزّ وجلّ في سورة (الزلزلة / ٩٩ مصحف / ٩٣ نزول):

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۖ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۖ ﴾

أخرجت الأرض: كلٌّ من المسند والمسند إليه حقيقة، وإسناد مجاز عقلي، لأنّ الأرض ليست هي التي تُخرج أثقالها حقيقة.

القسم الثاني: أن يكون الطرفان مجازيين، مثل:

● «أحيا الأرض شباب الزمان».

فعل «أحيا» مجاز يُرادُ به الإنبات، و «شبابُ الزَّمان» مجازٌ يُرادُ به الفِصل الذي تَنبُتُ فيه الزُّروع، إذ هو يشبه الشباب في الإنسان، وكلاهما استعارة. وإسنادُ الإحياء إلى شباب الزمان مجازٌ عقلي، لأنَّ المُنبتَ في الحقيقة هو الله.

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة):

﴿فَمَارِجَتْ بِمِعْدَاتِهِمْ﴾.

نفي الرِّيح: مجاز عن عدم تحصيلهم نفعاً من أخذ الضلالة وترك الهدى. تجارتهم: مجاز عن عملية أخذ الضلالة وترك الهدى.

وإسناد نفي الريح عن تجارتهم مجاز عقلي، إذ المنافقون هم الذين لم يربحوا، وقد سبق شرح هذا النص.

● «أَنْطَقَتْ أَيَادِي الإِحْسَانِ وَرُودَ وَجْهِهِ الحِسانِ بالشكران» فالطرفان مجازان، والإسناد مجاز عقلي.

القسم الثالث: أن يكون المسند حقيقة والمسند إليه مجازاً، مثل: «أُنْبِتَ البَقْلَ شبابُ الزمان».

الإنبات: حقيقة. وشبابُ الزمان مجاز، والإسناد مجاز عقلي، والملابسةُ السببية.

القسم الرابع: أن يكون المسند مجازاً والمسند إليه حقيقة، مثل:

● قول المتنبي:

وَتُخِي لَه المَالِ الصَّوَارِمُ وَالقَنَا وَيَقْتُلُ مَا تُخِي التَّبَسُّمُ وَالجَدَا

الإحياء مجازٌ عن الإنماء والتكثير، والصوارم والقنا حقيقة، وإسناد الإحياء إلى الصوارم والقنا مجازٌ عقلي، والملابسة السببية.

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (محمد/ ٤٧ مصحف/ ٩٥ نزول):

﴿... حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا...﴾ [الآية ٤].

وضع الأوزار: مجاز عن انتهاء أعمال الحرب.

الحرب: حقيقة.

وإسنادُ وَضَعِ الأوزارِ إلى الحربِ مجازٌ عقلي.

* * *

قرينة المجاز العقلي :

تأتي قرينة المجاز العقلي على وَجْهَيْنِ :

الوجه الأول: أن تكون لفظية، مثل: بنى صالح بيته مستأجراً أمهر البنائين،

أي: لم يبنيه بيده، إنما اتخذ الوسائل لبنائه.

الوجه الثاني: أن تكون غير لفظية، وهذه القرينة:

● إما أن تكون آتية من دليل العقل، مثل: محبتك جاءت بي إليك،

فالمحبة ليست هي الفاعلة على وجه الحقيقة، لكنها كانت الباعث النفسي، وهذا يُدرك بالعقل.

● وإما أن تكون آتية من دليل العادة، مثل: طبخ صاحب الوليمة لضيوفه

طعاماً شهياً لذيذاً، أي: أمر بطبخ الطعام هذا، واتخذ الوسائل لإعداده، وهذا يُدرك بحسب العادة.

● وإما أن تكون آتية من دليل الحال، مثل: كتب عبد السميع رسالة مؤثرة

لولده المسافر، أي: أمر بأن تُكتب له، إذا كان هذا الرجل أمياً لا يقرأ ولا يكتب، وكانت حاله معروفة.

قيمة المجاز العقلي في البلاغة والأدب:

كلُّ من يقرأ أو يسمَع كلاماً بليغاً مؤثراً إذا رجَع إلى تحليل عناصر التأثير

فيه، القائمة على الإبداع الرفيع يلاحظ أنَّ من أكثر هذه العناصر تأثيراً في نفسه، ما اشتمل الكلام عليه من مجاز بديع، وتكثر فيه الفقرات التي تنتمي إلى قسم المجاز العقلي.

ولا يُحسِنُ الإبداعَ المؤثّرَ من هذا المجاز إلا أذكياء البلغاء.

قال «الشيخ عبد القاهر الجرجاني» متحدثاً عن هذا النوع: «المجاز العقلي»: «هذا الضربُ من المجاز على حدِّته^(١) كثرُ من كنوز البلاغة، ومادَّةُ الشاعر المُفلق، والكاتب البليغ، في الإبداع، والإحسان، والاتساع في طُرُق البيان. ولا يغرُّنك من أمره أنك ترى الرَّجُلَ يقول: أتى بي الشَّوقُ إلى لِقائك، وسارَ بي الحنينُ إلى رؤيتك، وأقدمني بلَدك حقَّ لي على إنسان، وأشبه ذلك، ممَّا تجده لشهرته يجري مجرى الحقيقة، فليس هو كذلك، بل يدقُّ ويلطِّفُ، حتَّى يأتيك بالبدعة التي لم تعرفها، والتاديرة تأنقُ^(٢) لها».



(١) على حدِّته: أي: على توحِّده وتفرِّده.

(٢) تأنقُ لها: أي: تفرحُ بها وتُسرُّ، يقال لغة: أُنقَ يأنقُ له وبه، إذا فرح به وسرَّ.

المبحث الرابع

المجاز المرسل القائم على التوسع في اللغة دون ضابط معين

توجد أنواعٌ وصُورٌ متفرقة من المجاز لا يجمعها جامع، ولا يحصرها ضابط معين، وهي من التوسع في اللغة، وينطبق عليها بوجه عام تعريفُ المجاز، وهو «إطلاق اللفظ للدلالة به على غير ما وُضع له في اصطلاح به التخاطب، مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي».

وقد رأيت أن أجعلها داخلةً تحت عنوان «المجاز المرسل» أي: المجاز الذي لا تكون العلاقة فيه المشابهة، سواء أكان له علاقة غير المشابهة، أم ملابسة ما، أم لم تظهر فيه ملابسة فكرية.

وقد يرجع بعض هذه الأنواع المتفرقة أو بعض أمثلتها إلى أقسام المجاز التي سبق تفصيلها وشرحها.

عرض لبعض هذه الأنواع والصور:

● فمن هذه الأنواع والصور المجاز بالحذف أو بالزيادة.

كحذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، إذا لم تظهر ملابسة أو علاقة واضحة.

وكزيادة بعض الحروف لمجرد التأكيد أو التزيين اللفظي، ومنها زيادة حرف «ما» بعد «إذا» الظرفية، وزيادة بعض حروف الجر للتأكيد.

وقد سبق بيان الأمثلة في الإطناب.

ومنها إطلاق وقوع الفعل للدلالة به على قُرب وقوعه والإشارة إلى أنه شَارَف أن يقع، أو للدلالة به على تحقُّق وقوعه في المستقبل، تنزيلاً لما سيقع أو سوف يقع منزلة ما وقع فعلاً، مثل قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿ أَتَىٰ أَمْرٌ لِلَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ... ﴾ [الآية ١].

أي: سيأتي حتماً، فهو بسبب تحقُّق وقوعه مستقبلاً يُعَبَّر عنه بأنه «أتى».

وقول المنادي لإقامة الصلاة: قد قامتِ الصلاة، أي: حان وقت الشروع

بأدائها وإقامتها.

● ومنها إطلاق المصدر بدل اسم الفاعل، أو بدل اسم المفعول، ومن

الثاني قول الشاعر:

هَوَايَ مَعَ الرَّكْبِ الْيَمَانِينَ مُصْعِدُ جَنِيْبٍ وَجُثْمَانِي بِمَكَّةَ مُوْتَقُ

أي: من أهواه.

وقد سبق شرح هذا البيت.

● ومنها إطلاق اسم الفاعل بدل اسم المفعول والعكس، مثل قول الله عزَّ

وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا... ﴾ [الآية ١٢٦].

آميناً: أي: مأموناً فيه، هذا ما يقوله البيانون، ويفسره اللغويون بقولهم:

أي: ذا أمن.

● ومنها إطلاق اللفظ الدالّ على المستقبل مراداً به الماضي، لإفادة الدوام والاستمرار حالاً فمستقبلاً، أو للدلالة على الاستعداد النفسي المستمرّ، كأن يقال لمن أُدينَ بشُرْب الخمر في الماضي: أَنْتَ تَشْرَبُ الخمر، أي: هذا دَيْدُنُكَ في الماضي والحال والاستقبال.

● ومنها وضع النداء موضع التعجب، مثل: يَا سُبْحَانَ الله.

● ومنها وضع جموع القلّة بدل جموع الكثرة لغرض بلاغي، كتعظيم العدد القليل، والإشعار بأنّ ما يشتمل عليه هذا العدد القليل من صفات جليلة وعظيمة يجعله معادلاً للعدد الكثير.

● ومنها وضع جموع الكثرة بدل جموع القلّة، لغرض بلاغيّ، كتحقير العدد الكثير، والإشعار بأنّ ما يشتمل عليه هذا العدد الكثير من تناقض في صفات كماله يجعله معادلاً للعدد القليل.

● ومنها وضع المذكر بدّل المؤنث والعكس، لغرض بلاغي أو لمراعاة دواعي جمالية في اللفظ.

● ومنها التغليب، كتغليب المذكر على المؤنث في الخطاب عند اجتماعهما، وخطابهما معاً بخطاب الذكور، للإيجاز في اللفظ، أو لدواعي بلاغية أخرى، أو لمراعاة ما كان عدده هو الأكثر، كاستعمال اسم الموصول «ما» الموضوع لغير العاقل، في الكلام عن العقلاء وغيرهم، باعتبار أن المخلوقات غير العاقلة أكثر من المخلوقات العاقلة.

وكتغليب الشمس على القمر، أو العكس، عند تثنيتهما معاً، فيقال مثلاً: الشمسان، أو القمران، أي: الشمس والقمر، والداعي الإيجاز.

● ومنها استعمال صيغة الأمر في غير الطلب، كالتخيير والتعجيز.

● ومنها استعمال أدوات الاستفهام في غير طلب الفهم، واستعمال أدوات التمني والترجي في غير ما وُضِعَتْ له لأغراض بلاغية.

وقد سبق شرح كثير من هذه الأمور في علم المعاني.

● ومنها ما يُسَمَّى «التضمين» وأظهره تضمين فعل أو ما في معناه، معنى فعل آخر، وتعديته بما يلائم الفعل الذي ضُمَّنَّه، مثل:

١ - قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ...﴾ [الآية ١٨٧].

الرَّفَثُ: لا يتعدى بحرف الجرّ «إلى» لكنه ضُمَّنَّ معنى فعل «أفضى» فعُدِّي تعديته، والمعنى: أحلّ لكم الرفث مُفْضِينَ به إلى نسائكم، فأغنى هذا الأسلوب التضميني عن التعبير بجُمْلَتَيْنِ، أو عن التصريح بالحال.

٢ - وقول الله عزّ وجلّ في سورة (النازعات/ ٧٩ مصحف/ ٨١ نزول) في حكاية خطابه لموسى عليه السلام:

﴿أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٧﴾ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَنْ تَرْكَبَ ﴿١٨﴾﴾

أصل التعبير: هَلْ لَكَ أَنْ تَرْكَبَ، ولكن لما تَضَمَّنَ العَرَضُ معنى الدعوة إلى التركية، عُدِّي تعدية أَدْعُو، فالمعنى: هل يطيبُ لَكَ أَنْ أَدْعُوكَ إِلَى أَنْ تَرْكَبَ.

٣ - وقول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) بشأن منافقي العرب:

﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١١﴾﴾

فعل «خلا» لا يُعَدِّي بحرف «إلى» لكنّ الفعل ضُمَّنَّ معنى الرُّجُوع، فعُدِّي تعديته، والتقدير: فإذا خَلَوْ من جماعة المؤمنين ورجعوا إلى شياطينهم من اليهود أو قَادَتِهِمْ من المشركين قالوا لهم: إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ.

وقد بسطتُ الكلام على ظاهرة التضمن في القرآن، وأنها فنٌّ من فنون البيان الإبداعي في المقولة الثالثة من القاعدة «الرابعة عشرة» من كتابي «قواعد التدبّر الأمثل لكتاب الله عزّ وجلّ»^(١).



(١) انظر الصفحة (٢٩٦) فما يليها من صفحات حتى نهاية المقولة.

الفصل الرابع

نظرات تحليلية

إلى استخدام الأشباه والنظائر

والمجاز في التعبيرات الأدبية

يتضمّن هذا الفصل تحليل نظرات الأديب إلى الأشباه والنظائر في الوجود المادّي، وفي المعاني الفكرية، وفي الحركات الاختيارية، وفي المشاعر الوجدانية، واستخدامها في تعبيراته الأدبية.

إنّ فكر الإنسان بجولانه في مستودعات الذاكرة، وبقيامه بأعمال التحليل للصور الموجودة في جوانبها المختلفة، وللمعاني المجردة التي يستطيع إدراكها، مع استخدام جهاز التخيل، قادرٌ بما وهبه الله عزّ وجلّ أن يلاحظ بين الأفكار وبين الأشياء، وبين الاحتمالات الممكنة والاحتمالات غير الممكنة ممّا يتصوره تخيلاً، أشباهاً ونظائر، وعناصرَ قابلةً لأن يلتقطها، ويُخرجها فكرياً من مركّباتها، ثم يجمع متناثراتها ويؤلّف منها مركّباتٍ وصوراً جديدة يُعبّرُ بها عن فكرة يريد توصيلها إلى غيره، أو إقناع نفسه بإبداعها، لأنّه إذا لم يستطع أن يخلُق لعجزه عن الخلق، فليصوّرُ بخياله الذي مكّنه الرّب الخالق من الإبداع صوراً جديدة، من أجزاء متناثرة في مصوّرته التي التقط أصولها عن طريق حواسّه الظاهرة أو الباطنة، وأدخّلها في المحفوظات لديّه.

إنّ فكر الإنسان بمساعدة المصوِّرة والمتخيِّلة والذاكرة يستطيع أن يتصيّد أشباهاً ونظائر ويبدع صوراً لا حصر لها، ويتفاضلُ أفراد الناس بحسب ما لديهم من هبات ربّانية في هذا المجال، حتّى إنّ بعض الناس يستطيع بما وهبه الله أن يستدعي من المحفوظات المصنفة في حافظة الصور لديه ما لا يستطيع غيره، فهو يستدعي ممّا لا يرى الناس فيه أشباهاً ونظائر، عناصرَ شبه جزئية، يتنبّه إليها، بينما تخفى على معظم الناس.

فإذا استطاع بعبارته أن يدلّهم عليها وجدوا في رؤيته شيئاً رائعاً، وتنبّهاً عجبياً، وربما أمتعهم كثيراً بما التقط متنبّهاً إليه، وبما صوّرَ بفكرته، ثم بما عبّر به في كلامه مُبدعاً.

وأفلام الكرتون التخيلية هي من هذا القبيل، وكذلك الصُّورُ الشعرية والأدبية التي تُصاغ بالكلام صياغةً أدبيةً.

لَمَّا نَارَ الْعَجَاجُ فِي الْمَعْرَكَةِ مِنْ حَوَافِرِ الْخَيْلِ الَّتِي تَكْرَهُ وَتَفِرُّ تَحْتَ فُرْسَانِهَا رَأَى الْمَتَنَّبِيَّ أَنَّ الْخَيْلَ صَارَتْ لَا تَرَى بِأَعْيُنِهَا مِنْ كَثْرَةِ الْعَجَاجِ، مَعَ أَنَّهَا ظَلَّتْ تُحْسِنُ الْكَرْ وَالْقَرَّ، وَأَدْرَكَ أَنَّهَا عَنْ طَرِيقِ السَّمْعِ تُوجِّهُ حَرَكَتَهَا، فَاسْتَدْعَى خِيَالَهُ الْمَشَابَهَةَ بَيْنَ وَظِيفَةِ الْآذَانِ فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ، وَوِظِيفَةِ الْعَيُونِ، إِذْ أَدَّتِ الْآذَانُ وَظِيفَةَ الْعَيُونِ بِاتِّقَانٍ فَقَالَ فِي وَصْفِ الْخَيْلِ مِنْ قَصِيدَةٍ يَمْدَحُ بِهَا سَيْفَ الدَّوْلَةِ:

فِي جَحْفَلٍ سَتَرَ الْعُيُونَ غُبَارُهُ فَكَأَنَّمَا يُبْصِرُنَ بِالْآذَانِ

يقول البلاغيون: جعل السماع بالآذان مشابهاً للإبصار بالأعين.

وأقول: التقط بخياله حالة التشابه بين وظيفة الآذان من السمع، ووظيفة الأعين من الإبصار، وقيام الآذان بوظيفة الأعين في تأدية الغرض المطلوب، ورأى في تلك اللحظة كأن الآذان تُبصرُ، ولو أنه حذف أداة التشبيه وجعل آذان الخيول تُبصرُ على طريقة الاستعارة لزاد كلامه إبداعاً، فقد كان بإمكانه أن يقول: فَخُيُولُهُ تبصرون بالآذان.

مثل هذا التعبير هو لدى التحليل الآلي للغة «استعارة» لكنّه لدى التحليل الفكري تعبير عن التشابه في تأدية الوظيفة المطلوبة، والجهاز الذي أدرك هذه الرؤية الخيال البارِع السَّرِيع الذي من خصائصه القدرة على الإبداع. واستخدام الألفاظ ذوات الدلالات اللغوية وسيلة للأداء التعبيري.

والرسم التخيليّ يستخدم الخطوط والألوان والأشكال في اللوحات وفي
المجسمات .

* * *

ولدى التحليل النفسيّ نلاحظ أنّ التعبير الكلاميّ الأوليّ الكاشف للتشابه في
الذهن، يجعل المعبرّ يضع أداة التشبيه، فيدُلُّ بعبارته على وجه الشبه الذي رآه .

وهذا يناسب الكلام العاديّ، ويكون بليغاً إذا كانت حال المخاطبين تستدعيه .

وإذا كان وجه الشبه ممّا لا يَضَعُ على المخاطبين اكتشافه بأنفسهم، كان
من البلاغة عدمُ التّنبية عليه بعبارة كاشفة .

وإذا كان الإخبار عن المشبّه بلفظ المشبّه به على سبيل الادعاء، يكفي لتنبية
المتلقّي على المشابهة بينهما دون اللّجوء إلى ذكر أداة التشبيه، كان هذا في مثل
هذه الحال أكثر بلاغة، لأنّه أكثر إرضاءً لذكاء المتلقّي، لما في التصريح بالأداة من
اتهامه بأنّه لا يكفيهِ التعبيرُ بادّعاء أنّ المشبّه به يُخبرُ به عن المشبّه دون التصريح
بأداة التشبيه، وهنا يأتي الحدُّ الفاصل بين التشبيه وبين الاستعارة، فيَنظُرُ المحلّل
من جهة ذكر لفظ المشبّه وحمل اسم المشبّه به عليه، فيرى أنّه تشبيه بليغ حُدِفَتْ
منه أداة التشبيه، وينظر من جهة ذكر لفظ المشبّه به دون أداة التشبيه فيرى أنّه
استعارةٌ للفظ المشبّه به، وإطلاقٌ له على المشبّه بادّعاء أنّه هو، لتنبية المتلقّي على
عنصر التشابه بينهما مدحاً أو ذمّاً أو غير ذلك من مقاصد التشبيه .

ويرتقي الأديب ببيانه التعبيريّ درجةً أخيرة فيرى أنّه لا داعيَ لذكر لفظ
المشبّه، ويكفي عن ذكره قرائنُ الحال أو المقال، فيكتفي بذكر لفظ المشبّه به في
عبارته، أو بذكر صفاتٍ أو لوازم هي من خصائصه، ويكوّن في الكلام ما يمنع
اللّبسَ، ويدلُّ على المراد، وهذه الدرجة العالية من البيان التعبيريّ عن التشابه
تُناسبُ من تُسرِّعُ أفهامهم لإدراك المراد، ويكون بالنسبة إليهم هو الكلام الأكثر

بلاغة، لما فيه من إرضاءٍ لذكائهم اللَّماح، واستثثارٍ بإعجابهم، إذ يُعجِبُهُمْ من صاحب البيان ما لديه من قدرة على تقديم تعبيرٍ مختصرٍ جداً، مُحَقِّقٍ لِعَرَضِهِ في دلالة الأذكياء على ما يُريد.

وحين يكتفي الأديب المعبّر بذكر اللّوازم البعيدة فقط، والصفات الغريبة للمشبّه به، دُونَ ذكر اللَّفْظِ الخاصِّ بالمشبّه به، فإنّه يكون بذلك قد ارتقى ارتقاءً جديداً، وأخذَ في طريق الرّمز.

فمن ذلك ما هو قريب يسهل على الذكي اللَّماح أن يتنبّه له، ومنه ما هو بعيد لا يُدركُ إلاّ بالتأمل العميق، وقد يدركه العبقرى. ويخصُّ البلغاء مخاطبيهم بالإشارات واللّوازم البعيدة على مقاديرهم.

وكلُّ كلام يكون هو الأنسب لحال المخاطب يكون هو الكلام الأبلغ بالنسبة إليه.

وبدءاً من حذف وجه الشبّه وأداة التشبيه، يكونُ الكلامُ قد انتقل من حُدودِ التوجيه المباشر، إلى أبعادِ التوجيه غير المباشر.

وكلّما توغّل الكلام في البُعْدِ، مع بُعْدِ اللّوازم التي يحتاج إدراكها إلى فطنة الفطناء، كان الكلام ذا طبقةٍ أرقى في طبقات التعبير، فإذا كان موجّهاً لمن يُدركه كان بالنسبة إليه هو الأبلغ.

لكن إذا كان موجّهاً لمن لا يُدركه فإنّه لا يكون هو الأبلغ بالنسبة إلى حاله، لأنه لا يكون مطابقاً لمقتضاها، أمّا الأبلغُ بالنسبة إليه فهو الأدنى في الطبقة البيانيّة، ممّا يلائم ويتطابق حاله.

ومن الخطأ بوجه عام أن نقول: هذه الطبقة البيانيّة أبلغ من هذه لمجرد كونها أعلى مرتبة، إذ يحتاج فهمهما إلى ذكاء الأذكياء الفطناء، أو عبقريات العباقرة، لأنّ الكلام الأبلغ هو الأكثر مطابقتاً لمقتضى حال المخاطب.

لكن نقول: إنّ الكلام على طبقات، بعضها أرفع من بعض:

الطبقة الأدنى : هي طبقة التعبير المباشر دون استدعاء الأشباه والنظائر .

وفي هذه الطبقة درجات الإيجاز والإطناب والمساواة، وهذه الطبقة تلائم أحوال فئة من الناس .

الطبقة الوسطى : هي طبقة التعبير المباشر مع استدعاء الأشباه والنظائر .

وفي هذه الطبقة درجات : «التشبيه المرسل المفصل – والمؤكد المفصل – والمرسل المجمل – والمؤكد المجمل «وهو التشبيه البليغ» – « .

وهذه الطبقة تلائم أحوال فئة من الناس .

الطبقة العليا : طبقة التعبير غير المباشر .

وفي هذه الطبقة درجات «التشبيه الضمني – الاستعارة التصريحية مع القرينة – الاستعارة المكنية مع القرينة – « وفي التصريحية والمكنية درجات : «الاستعارة المجردة التي اقترنت بما يلائم المستعار له فوق القرينة الدالة على الاستعارة – الاستعارة المطلقة والتي اقترنت بما يلائم المستعار منه والمستعار له فوق القرينة الدالة على الاستعارة – الاستعارة المرشحة التي اقترنت بما يلائم المستعار منه بعد القرينة الدالة على الاستعارة» .

وينضمّ إلى هذه الطبقة درجات المجاز المرسل ، والمجاز العقلي .

● فالتعبير الذي يُذكر فيه لفظ المستعار منه هو أدنى درجات هذه الطبقة .

● والتعبير الذي لا يذكر فيه المستعار منه بل لازمه الذهنيّ الأوّل يحتلّ الدرجة الثانية .

● فإذا ذُكرَ اللازم الذهني الثاني فقط ارتقى درجة .

● وهكذا ترتقي الدرجات مع بُعد اللّوازم، الثالث، فالرابع، فالخامس، حتّى اللازم الذي يدخل في باب الرّمزية .

كذلك الحال في المجاز المرسل والمجاز العقليّ، فمنهما ما هو في أدنى درجات طبقته، بحسب قُرْب إدراكه، ومنهما ما هو أعلى درجةً وهكذا صاعداً بحسب بُعْد إدراكه، ما لم يَخْرُجَ عما يُمكن لأذكياء البلغاء أن يُدْرِكُوهُ.

فإذا قلنا: بنى الحاكم القصر، أي: أمر ببنائه، كان هذا مجازاً عقلياً من درجة دُنْيَا.

وإذا قلنا: سرق الحاكم بتهاونه أموال ذوي الأموال، أي: لم يحافظ على الأمن ولم يَقُمْ بواجباته، فمكّن اللصوص والمجرمين من العدوان على أموال ذوي الأموال، كان هذا مجازاً عقلياً من درجة أعلى.

ويأتي في دَرَجَة أعلى من هذه الدرجة وأرفع ما نجده في قول الباري عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ يَبْنِي ءَادَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُورِي سَوَاءَ تَكْمُ وَرِدِشًا... ﴾ [الآية ٢٦].

أي: أنزلنا مطراً فأنبت زرعاً فيه خيوطٌ تُغْزَلُ وتُنسجُ فتكون لباساً، ليُعْدَ اللّوْازِم.

ولكل مقام مقال، ولكل مخاطبٍ حال يلائمها طبقة من طبقات الكلام، ودرجة من درجاته.

والكلام الأبلغ هو الأكثر مطابقةً لمقتضى حال مَنْ يخاطبُ به فرداً أو جماعة، ذكوراً، أو إناثاً، أو عامّاً لكُلِّ من يتلقاه.



الفصل الخامس

منهج البيان القرآني في التنوع والتكامل
وفي حكاية الأقوال والأحداث والقصص

وفيه مقدمة ومقولتان:

المقولة الأولى : منهج البيان القرآني في التنوع والتكامل .

المقولة الثانية : منهج البيان القرآني في حكاية الأقوال
والأحداث والقصص .

مقدمة

دارس كتاب الله عزّ وجلّ بتدبُّرٍ وتأَنٍّ وتفكيرٍ عميقٍ يكتشف مناهج بيانيّة رائعة انفراد القرآن المجيد بها، ثم أخذ أذكىاء البلغاء يتأسَّونَ بها على مقادير أوّعيتهم الفكرية، وما وهبهُم الله عزّ وجلّ من قُدّراتٍ بيانٍ رفيع، فمنهم المجلّي، ومنهم من يأتي في الدرجة الأدنى فالأدنى وهكذا تنازُلًا، حتى آخر المُستتَبين في مِضمّار البيان الأدبي.

وقد رأيت أن أضيف إلى علم البيان فصلًا يتعلّق بما اكتشفتُه في القرآن المجيد من ظاهرات بيانيّة يُفيدُ منها متدبّر كتاب اللّهِ عزّ وجلّ، الباحثُ في معانيه ومراميهِ، والمتدوّقُ لآدابه وفنونه البلاغيّة العجيبة الرائعة، ويهتدي بهديها البلغاء وأهل الأدب، فيما يُنشئونَ من كلامٍ رفيع، يُحَبِّرونه بأقلامهم من نثر أو شعر، وفيما يرتجلونه من قولٍ في خُطبٍ ومحاضرات، أو دروس ومحادثات.

وأعرض في هذا الفصل الظاهرات التي اكتشفتها في القرآن المجيد ضمن مقولتين، وهي ممّا سبق أن شرحتَه في كتاب «أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع»:

الأولى: حول منهج البيان القرآنيّ في التنويع والتكامل.

الثانية: حول منهج البيان القرآنيّ في حكاية الأقوال والأحداث والقصص.

منهج البيان القرآني في التنوع والتكامل

(١)

التنوع في أساليب البيان القرآني

يلاحظُ الأديب ذو الحسِّ الأدبيِّ المرفه التنوعَ العجيبَ البديعَ في أساليب الأداء البيانيِّ القرآنيِّ، حتَّى في عَرْض الأقسام أو الأنواع التي تدخلُ في مَقْسِمٍ واحدٍ، أو جنسٍ واحدٍ، أو تدخلُ تحت عنوانٍ واحدٍ، إثارةً للجمالِ الفنيِّ بالتنوعِ المُجَدِّدِ لِتَنْبِيهِ الفِكرِ، أو إثارةً للتجديدِ في الإبداعِ الاختياريِّ، مع كلِّ نَوْعٍ أو قِسْمٍ أو صِنْفٍ، فَمِنْ شأنِ التجديدِ تحريكُ الذهنِ في مُخْتَلِفَاتٍ من الأساليبِ، والتمكينُ من وضعِ أفكارٍ وأغراضٍ بيانيَّةٍ وتربويَّةٍ في ظلالِ النَّصِّ، تُكْتَشَفُ حيناً بعد حينٍ، كلما تَكَرَّرَتْ قراءة النَّصِّ، أو تَكَرَّرَ سَمَاعُهُ، مع إعطاء النَّصِّ في موضوعه تفرُّداً بصياغته الكليَّة، كتفرُّدِ كلِّ مخلوقٍ من مخلوقاتِ الله عزَّ وجلَّ بهيكلٍ وَسِمَاتٍ خاصَّةٍ تميِّزه عن غيره من أفرادِ جنسه، ونوعه، وصفه، مراعاةً للإبداعِ الاختياريِّ في الأفرادِ، والأصنافِ، والأنواعِ، والأجناسِ، وربما في كلِّ جزءٍ من أجزاء الفرد الواحد.

وقد يَفْتَرِنُ بإيثارِ الجمالِ الفنيِّ غَرَضٌ بيانيٌّ آخرٌ، كاختيارِ الأسلوبِ الأكثرِ ملاءمةً لِلْقِسْمِ أو النَّوعِ أو الصَّنْفِ أو الفِرْدِ الذي جرى التنوعُ في الأسلوبِ عندِ ذِكْرِهِ، أو الأسلوبِ الأكثرِ مضامينَ فكريَّةً يُرَادُ الدَّلَالَةَ عَلَيْهَا مَعَ ذِكْرِهِ، أو الأكثرِ بلاغةً وإيجازاً واقتصاداً في العبارةِ بالنسبةِ إِلَى مَضَامِينِهِ الفِكريَّةِ التي يُرَادُ بَيَانُهَا، إِلَى غيرِ ذلك من أغراضٍ.

وَالْغَفْلَةُ عَنْ مُلَاحَظَةِ هَذَا التَّنَوُّعِ فِي أُسَالِيْبِ الْأَدَاءِ الْبَيَانِيِّ، تَجْعَلُ الْمْتَدَبِّرَ لِكَلَامِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَا يُدْرِكُ التَّرَابُطَ الْفِكْرِيَّ فِي مَوْضُوعِ النَّصِّ، فَيَفْهَمُهُ وَحَدَاتٍ مُجَزَّاتٍ غَيْرَ مُتْرَابِطَاتٍ، وَتَبْدُ عَنْهُ بِسَبَبِ ذَلِكَ رَوَائِعُ مَفَاهِيمٍ، وَقَدْ يَقَعُ فِي أَغَالِيْطٍ، إِذْ يُحَاوِلُ أَنْ يَنْتَزِعَ اِرْتِبَاطًا مِنْ قَرِيبٍ أَوْ بَعِيدٍ لِأَذْنَى مُنَاسِبَةٍ، أَوْ شُبْهَةِ مُنَاسِبَةٍ، أَوْ يَخْتَرِعَ مِنْ عِنْدِهِ أُمُورًا لَا أَصْلَ لَهَا وَلَا دَلِيلَ عَلَيْهَا.

وفيما يلي طائفة من الأمثلة على ظاهرة التنوع في أساليب الأداء البياني في القرآن:

المثال الأول:

عَرَضَ الْقُرْآنَ الْمَجِيدَ مَا كَانَ فِي غَزْوَةِ الْأَحْزَابِ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَضَعْفَاءِ الْإِيمَانِ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ، مِنْ أَقْوَالٍ وَأَعْمَالٍ، هِيَ مَظَاهِرٌ لِمَا فِي قُلُوبِهِمْ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الْأَحْزَابِ / ٣٣ / مَصْحَفِ / ٩٠ نَزُولِ):

﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [١٧].

هَذَا قِسْمٌ مِمَّا كَانَ مِنْهُمْ جَاءَ بِأَسْلُوبٍ: ﴿وَإِذْ يَقُولُ﴾ بِإِذِ الظَّرْفِيَّةِ، أَي: وَادْكُرْ إِذْ، وَبِالْفِعْلِ الْمَضَارِعِ ﴿يَقُولُ﴾ الَّذِي يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمَقَالَةَ دَارَتْ عَلَى الْأَلْسِنَةِ حَتَّى شَاعَتْ، فَقَالَهَا الْمُنَافِقُونَ، وَقَالَهَا تَأْتِرًا بِهِمُ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ دُونَ النِّفَاقِ، وَهُوَ مَرَضٌ ضَعْفِ الْإِيمَانِ.

● أَمَّا الْقِسْمُ الثَّانِي مِمَّا كَانَ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَ أُسْلُوبُ عَرْضِهِ كَمَا يَلِي:

﴿ وَإِذْ قَالَتْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا... ﴾ [الآية ١٣].

فجاء بأسلوب: ﴿وَإِذْ قَالَ﴾ بِإِذِ الظَّرْفِيَّةِ، أَي: وَادْكُرْ إِذْ، وَبِالْفِعْلِ الْمَاضِي ﴿قَالَ﴾ الَّذِي يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْمَقَالَةَ قَدْ قِيلَتْ مِنْ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ، ثُمَّ لَمْ تَتَكَرَّرْ، وَلَمْ تَدُرْ عَلَى الْأَلْسِنَةِ.

● وَأَمَّا الْقِسْمُ الثَّلَاثُ مِمَّا كَانَ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَ أُسْلُوبُ عَرْضِهِ كَمَا يَلِي:

﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ (١٧).

فجاء بأسلوب: ﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ﴾ بصيغة الفعل المضارع، للدلالة على تكرار الاستئذان من أفراد هذا الفريق، أو على الإلحاح به، ولم يأت على النسق السابق من استعمال كلمة ﴿إِذْ﴾ قبله، لأنَّ حالتهم هذه كانت مستمرة لا تستدعي التذكير بزمن حدوثها.

واعتنى القرآن المجيد بتربية هذا الفريق المستأذن، وبيان حالته النفسية وإقناعه، لتصحيح العناصر المختلة لديه من عناصر القاعدة الإيمانية.

● وأما القسم الرابع ممَّا كان منهم، وهو التعويق والتشيط عن الخروج مع الرسول ﷺ لمواجهة عدوه، فقد جاء أسلوب عرضه كما يلي:

﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمَعْوِفِينَ مِمَّنْ كَفَرُوا فَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا

قَلِيلًا﴾ (١٨).

فاختلف الأسلوب هنا اختلافاً كلياً، إذ نلاحظ أنَّ التعويق قد عرضه الله عزَّ وجلَّ وصفاً ثابتاً لفريقي من المنافقين، ولم يذكره على أنَّه مجرد عرض طارئ استدعتُه حالة مُزعجة، وهو الأمر الذي كان في غزوة الأحزاب، فحصل فهمُ قسمِ التَّعْوِيقِ والتَّشِيطِ من ذِكرِ المعوِّقين.

وقبلَ ذِكرِ المعوِّقين بيَّنَ اللهُ عزَّ وجلَّ تَحَقُّقَ عِلْمِهِ بِهِمْ، لِيُشِيرَ هذا البيان من طَرَفٍ خَفِيٍّ إِشارةً تَهْدِيدِ لَهُمْ، بِأَنَّهم مَكْشُوفُونَ مَعْلُومُونَ لَلَّهِ، وبأن عقاب الله يترصدهم.

فمع التنوع في الأسلوب لإكساب التعبير جمالاً فنياً، وإبداعاً مُعْجِباً، اخْتِيارَ لِعَرْضِ كُلِّ قِسْمِ الْأَسْلُوبِ الْأَكْثَرُ مِلاءمةً له، والأكثرُ مِضامِينَ فِكْرِيَّةً يُرَادُ الدَّلَالَةُ عَلَيْهَا مع ذكره، كإضافة أنَّ المعوِّقين معلومون لله عزَّ وجلَّ، وأنَّ تَعْوِيقَهُمْ لِإِخْوَانِهِمْ صِفَةٌ ثَابِتَةٌ من صفاتهم، ومُلازِمَةٌ لَهُمْ في كُلِّ الْأَحْوَالِ، فهم معوِّقون

دائماً، وقائلونَ في كلِّ المعارك لإخوانهم: هلمَّ إلينا، لا تخرجوا مع محمّد إلى قتال.

* * *

المثال الثاني:

جاء في سورة (الماعون/ ١٠٧ مصحف/ ١٧ نزول) وهي من أوائل التنزيل المكي بياناً لبعض صفات المكذّبين بالدين، أي: بالجزاء الذي يُجرّبه الله في الآخرة، بعد البعث ليوم الدين.

أما الصفات التي ذكّرت فيها للمكذّب بيوم الدين فهي ما يلي:

(١) أَنَّهُ يَدْعُ الْيَتِيمَ، أَي: يَدْفَعُهُ بَعْنَفٍ وَقَسْوَةً، بِسَبَبِ أَنَّ الرَّحْمَةَ نُزِعَتْ مِنْ قَلْبِهِ، إِذْ هُوَ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الدِّينِ حَتَّى يَطْمَعَ بِثَوَابِ اللَّهِ، أَوْ يَخَافُ مِنْ عِقَابِهِ.

(٢) أَنَّهُ لَا يَحْضُرُ عَلَى إِطْعَامِ الْمَسْكِينِ، أَي: فَكَيْفَ يَبْذُلُ مِنْ طَعَامِهِ

أَوْ مَالِهِ.

(٣) أَنَّهُ لَا يَهْتَمُّ بِأَنْ يُصَلِّيَ لِربِّهِ، وَلَوْ آمَنَ بِوُجُودِهِ، بَلْ يَظَلُّ سَاهِيًا، لِأَنَّهُ مَكْذِبٌ بِيَوْمِ الدِّينِ، فَإِذَا صَلَّى أَوْ عَمِلَ عَمَلًا مِنْ أَعْمَالِ الْخَيْرِ عَلَى عَادَةِ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ فَإِنَّهُ يُرَائِي النَّاسَ بِذَلِكَ. وَلَا يَعْمَلُهُ لِلَّهِ عِزًّا وَجَلًّا، وَعَرَضُهُ مِمَّا يُرَائِي بِهِ جَلْبُ مَعْنَمٍ، أَوْ دَفْعُ مَغْرَمٍ، عَلَى أَنَّ مَا يُرَائِي بِهِ لَا يَكْلِفُهُ فِي الْغَالِبِ مَالًا، وَالْأَصْلُ فَيَمْنُ يُصَلِّيَ لِلَّهِ حَقًّا أَنْ تَدْعُوهُ صَلَاتُهُ لِفِعْلِ الْخَيْرِ وَأَنْ تَنْهَاهُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، لَكِنَّ الْمَكْذِبَ بِالدِّينِ يَكُونُ سَاهِيًا عَمَّا تَدْعُو إِلَيْهِ الصَّلَاةُ، وَعَمَّا تَنْهَى عَنْهُ الصَّلَاةُ، لِأَنَّهُ إِذَا صَلَّى مُرَائِيًّا، فَصَلَاتُهُ وَعَدَمُهَا سَوَاءٌ.

(٤) أَنَّهُ شَحِيحٌ كِزُّ النَّفْسِ، يَمْنَعُ آيَةَ مَعُونَةٍ، حَتَّى الْأَمْتِعَةِ الَّتِي تُسَمَّى

«الماعون» عند العرب، وَالَّتِي يَتَسَاهَلُ الْبِخْلَاءُ بِإِعَارَتِهَا، يَمْنَعُهَا إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي إِعَارَتِهَا مَنَفَعَةٌ دُنْيَوِيَّةٌ.

هذه الصفات الأربع جاءت في سورة (الماعون) على قصرها بأسلوبين من الأساليب البيانية .

● فالصفتان الأوليان جَاءَتَا بِأَسْلُوبٍ توجيه النظر إلى رُؤْيِيَةِ صفاته المنكرة على طريقة الاستفهام الاستهجاني، مع ما يتضمنه من إقناع بأن الإيمان بيوم الدين يُصْلِحُ في الأفراد صفاتهم وأخلاقهم الاجتماعية، ويجعلهم رُحَمَاءَ، يَفْعَلُونَ الخيرات، وَيَحْضُونَ على فِعْلِهَا، فقال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّينِ ﴿١﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحْضُ عَلَى

طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿٣﴾﴾ .

أي: انظر أَيُّهَا النَّاطِرُ أَيَّا كُنْتَ إلى حال الذي يُكَذِّبُ بيوم الدين، تجذ من صفاته أنه يَدْعُ اليتيم، ولا يحضُّ على طعام المسكين .

● والباقي من الصفات المذكورة في السورة للمكذب بيوم الدين جاءت بِأَسْلُوبِ التهديد والوعيد بالعذاب يوم الدين، فقال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فيها:

﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾

وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾ .

أي: فويلٌ للمكذِّبينَ بيوم الدين، وإن صَلَّوْا على التقاليد والعادات الجاهلية لله، لأنهم إذا صَلَّوْا فَهَمُّ عَنْ مَعَانِي صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ، إذ هم بها يُرَاءُونَ، وأدنى المعونات الاجتماعية بين الناس يَمْنَعُونَ .

فحصل بهذا الأسلوب التَّنْوِيعُ الجماليُّ الفني، مع التهديد والوعيد بالويل، وهو العذاب الشديد، ووادٍ في جهنم فيه عذابٌ شديد أليم .

* * *

المثال الثالث:

يجد المتدبر لسورة (ق/ ٥٠ / مصحف / ٣٤ نزل) تنوعاً عجبياً رائعاً، في عَرْضِ الأدلة، لدفع شُبُهَاتِ مُنْكَرِي البعث، فقد جاء فيها ما يلي:

(١) ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴿١﴾ ﴾ .

هذا دفع شبهة أن ما يتلأشى من أجسادهم وصفاتها بعوامل الفناء في الأرض يجعل إعادتهم إلى ما كانوا عليه أمراً غير ممكن للجهل به، فجاء البيان مثبتاً علم الله بكل حركة تغيير تحدث في أجساد الموتى، وهو مسجل في كتاب يحفظ كل صغيرة فلا يضل عن علم الله وعن كتابه الحفيظ شيء .

(٢) ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴿١﴾ ... ﴾ .

قد جاء بأسلوب توجيه أنظار منكري البعث إلى آثار قدرة الله في الكون، في السماء والأرض، مما هو في المظهر أكبر من خلق الناس، للتنبيه على دليل عقلي يدل أهل البصيرة على أن خالق السماوات والأرض، ومدبر أمورهما لا بد أن يكون قادراً على بعث الأحياء بعد موتها، فالإنكار لا ذريعة له مع وجود هذا البرهان .

وقد جاء توجيه الأنظار بأسلوب الاستفهام الذي فيه معنى التلويح والإنكار عليهم إذ لم يتنبهوا لهذا الدليل العقلي .

(٣) ﴿ أَفَعِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ... ﴾ [الآية ١٥] .

استفهام يتضمن التنبية على دليل عقلي برهاني آخر، وهو قياس ما سيكون على ما كان، فالذي بدأ الخلق الأول على غير مثال سبق قادر على أن يعيده بعد فئانه، إنه سبحانه لم يعي بالخلق الأول، أي: لم يعجز عن خلقه فكيف يعي بالخلق الثاني .

ومع هذا الدليل نلاحظ في النص أيضاً أنه يتضمن إشارة إلى دفع شبهة أن الخلق الأول قد أصاب الخالق بالإغياء، وجاء النص بأسلوب الاستفهام الإنكاري، وداعي الإنكار أن الخلق أولاً وثانياً وإلى غير نهاية لا يحتاج من الخالق إلا أن يقول للشيء المراد: كُنْ فيكون .

(٤) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَعَلَّمُوهُ مِثْقَالَ حَبِّ الْوَرِيدِ﴾ .

جاء هذا البيان بأسلوب الإثباتِ التقريريِّ المؤكِّد، لِذَفْعِ شُبْهَةِ أَنَّ أَعْمَالَ الْإِنْسَانِ الْبَاطِنَةَ وَبَعْضَ أَعْمَالِهِ الظَّاهِرَةَ لَا يُحِيطُ بِهَا الْعِلْمُ الرَّبَّانِيُّ، وَهُوَ تَقْرِيرٌ مُسَبُّوقٌ بِالذَّلِيلِ عَلَيْهِ، وَهُوَ كَوْنُ الرَّبِّ هُوَ الْخَالِقُ لِلْإِنْسَانِ، وَالْخَالِقُ لَهُ لَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ عَالِمًا بِكُلِّ خِصَائِصِهِ النَّفْسِيَّةِ وَعِنَاصِرِهِ الَّتِي رَكَّبَهُ مِنْهَا، وَمِنْ لَازِمِ ذَلِكَ أَنْ يَعْلَمَ مَا تُوسَّوْسُ بِهِ نَفْسُهُ، وَأَنْ يَعْلَمَ كُلَّ أَعْمَالِهِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ وَيُحَاسِبَهُ عَلَيْهَا.

هذه أنواعٌ من الأساليبِ البيانيَّةِ، جَاءَتْ لِتَرُدَّ شُبْهَاتِ الْمُنْكَرِينَ لِقَضِيَّةِ الْبَعْثِ لِلْحِسَابِ وَالْجِزَاءِ، وَمِنْ الْمَلَاخِظِ أَنَّ الْمَوْضُوعَ فِيهَا وَاحِدٌ، وَلَوْ عَالَجَنَاهُ بِأَسَالِينَا الْإِنْسَانِيَّةِ لَقَالَ أَحْسَنَ أَدِيبٍ فِينَا وَأَبْرَعُ كَاتِبٍ مَقَالًا ذَكَرَ فِيهِ أَنَّ شُبْهَاتِ الْمُنْكَرِينَ تَرْجِعُ إِلَى عِدَّةِ تَوْهَمَاتٍ: فَالْأَوَّلُ: جَوَابُهُ كَذَا. وَالثَّانِي: جَوَابُهُ كَذَا. وَالثَّلَاثُ: جَوَابُهُ كَذَا. وَالرَّابِعُ جَوَابُهُ كَذَا.

أَمَّا أَنْ يَطْوِيَّ ذِكْرَ الشُّبْهَاتِ وَالتَّوْهَمَاتِ، وَيَأْتِي بِالرُّدُودِ الْإِقْنَاعِيَّةِ ضَمْنِ أَسَالِيْبٍ مُتَنَوِّعَةٍ، فَهَذَا مِمَّا يَنْدُ عَنِ الْخَوَاطِرِ مَهْمَا كَانَتْ لِمَاحَةِ ذَاتِ فُنُونِ أَدِيبِيَّةِ.

* * *

المثال الرَّابِعُ:

قال الله عزَّ وجلَّ في سورة (الفرقان) / ٢٥ مصحف / ٤٢ نزول):

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ

تَرْتِيلًا ﴿٢٦﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٢٧﴾ .

اعْتَرَضَ الْمُشْرِكُونَ عَلَى إِنْزَالِ الْقُرْآنِ مُنْجَمًا، وَطَالَبُوا بِتَخْضِيضِ أَنْ يُنَزَّلَ

جُمْلَةً وَاحِدَةً.

أَي: مَا الدَّاعِي إِلَى تَنْزِيلِهِ مُفْرَقًا مُنْجَمًا؟ إِنَّ هَذَا الْأَسْلُوبَ التَّنْجِيمِيَّ يَدْعُو إِلَى

السُّكِّ فِي أَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ، أَلَيْسَ اللَّهُ عَلِيمًا بِكُلِّ شَيْءٍ، قَدِيرًا عَلَى أَنْ يُنَزَّلَ الْقُرْآنَ كُلَّهُ

فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ؟! .

فجاء الردّ القرآنيّ مُبيّناً ثلاثَ حِكَمٍ لتتزيّله مُفرّقاً مُتّجماً، ولكنّ بيانَ هذه الحِكَمِ جاءَ مُنوّعاً بأساليبٍ مُختلفةٍ، قدّ لا يلتقطُ منها التّالي للنصِّ إلّا الحِكْمَةَ الأولى، لأنّ الحِكْمَتَيْنِ الأخرَيَيْنِ جاءتا بأسلوبٍ آخرٍ.

فالحكمة الأولى: نذكرُها في قول الله عزّ وجلّ خطاباً للرّسول ﷺ: ﴿لِنُتَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾.

وتثبيتُ الفؤادِ يكونُ بما يُورثُهُ الشُّكُونُ والطَّمَأْنِينَةُ نُجَاهَ مَا يُمكنُ أن يهْزَهُ ويُقلِّفه ويُزعِجهُ من أحداثٍ يوميةٍ غيرِ سارةٍ.

وقد كان الرّسولُ ﷺ يتعرّضُ من قِبَلِ كُفَّارِ قَوْمِهِ لأحداثٍ كثيرةٍ غيرِ سارةٍ تُقلِّقُ وتزعِجُ أفئدةَ عظماءِ الرجالِ. فإذا وجدَ نفسه على صلَةٍ بالوحي من أنّ لآخرِ بصورةٍ متكرّرةٍ، لم تُزعِجهُ ولم تُقلِّفه الأحداثُ، إذ يشعرُ حسّياً بأنّ الرّبَّ الجليلَ الذي أرسلَهُ وأنزلَ عليه جبريلَ بالوحي، لم يتركهُ لِنَفْسِهِ يُؤدّي وظائفَ رسالته، بل هو على صلَةٍ به، يُنزِّلُ عليه الآياتِ القرآنيّةِ تباعاً، ويُعالجُ الأحداثَ التي يتعرّضُ لها تباعاً، ويُقدِّمُ لهُ الوصايا والتعليماتِ الهاديّةِ له في مسيرته، وهو يقومُ بوظائفِ رسالته، ويشعرُ أيضاً بأنّه مدعوٌّ بقوّةٍ عظيمةٍ من الغيب، تتابعُهُ في كلّ صغيرةٍ وكبيرةٍ.

فلهذا الأمرُ شأنٌ عظيمٌ جدّاً في تثبيتِ فؤاده، ليقومَ بجلالِ الأمورِ، ضمّنَ قَوْمٍ يَخْشَى أَنْ يتألَّبوا عليه، ويمنعوه من مُتّابَعَةِ وظائفِ رسالته بالقوّةِ.

والحِكْمَةُ الثّانية: نذكرُها في قول الله عزّ وجلّ في النصِّ: ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾.

هذه الحِكْمَةُ جاءتْ بأسلوبٍ مخالفٍ لأسلوبِ عَرْضِ الحِكْمَةِ الأولى، الأمرُ الذي قد يجعلُ تالي النصِّ لا يُدركُ أنّ النصِّ يُتابعُ بيانَ الحِكَمِ من تنزيلِ القرآنِ مُتّجماً.

التَّرْتِيلُ: هُوَ التَّمَهُّلُ وَالتَّأْتِي فِي الْكَلَامِ، وَالتَّبْيِينُ لَهُ، لِلتَّمَكِينِ وَالتَّحْقِيقِ، وَبِنَاءِ الْمَعْرِفَةِ فِي الْمَتَلَقِّينَ بِنَاءً تَكَامُلِيًّا، وَذَلِكَ لَا يَحْصُلُ بِإِنْزَالِهِ جَمَلَةً وَاحِدَةً، بَلْ يَحْصُلُ بِإِنْزَالِهِ فِي دُرُوسٍ تَعْلِيمِيَّةٍ قِسْمًا بَعْدَ قِسْمٍ، مَعَ الْإِسْتِفَادَةِ مِنَ الْأَحْدَاثِ وَالْمُنَاسِبَاتِ.

وقد جاء شرح هذه الحكمة في قول الله عزّ وجلّ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزل):

﴿ وَقرءاناً فرقناه لِنقرآنَ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكثٍ وَنَزَّلْنَاهُ نَزْزِيلًا ﴿١٧﴾ ﴾ .

﴿ فَرَقْنَاهُ ﴾ أي: جَزَأْنَاهُ، وَفَصَّلْنَاهُ، وَبَيَّنَّاهُ، وَأَصْلُ مَعْنَى الْفَرْقِ الْفَضْلُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ أَوْ الْأَشْيَاءِ، وَتَمْيِيزُ بَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ.

وَأَوْضَحُ صُورِ هَذَا الْفَصْلِ وَالتَّمْيِيزِ أَنْ يُنَزَّلَ الْكِتَابُ عَلَى مَرَاجِلَ زَمَنِيَّةٍ مُتَفَاعِلَةٍ مُتَبَاعِدَةٍ.

﴿ عَلَى مَكثٍ ﴾ أي: عَلَى تَمَهُّلٍ، وَتَوَقُّفٍ، وَانْتِظَارٍ، رَيْثَمَا تَثَبَّتْ مَعْرِفَةُ الْقِسْمِ الْمُتَزَّلِ.

يُقَالُ لُغَةً: مَكَثَ بِالْمَكَانِ يَمَكُثُ مَكْثًا وَمَكْثًا وَمُكُوثًا، إِذَا تَوَقَّفَ وَانْتَظَرَ.

﴿ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴾ أي: وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا بِأَنَاءٍ وَتَمَهُّلٍ وَتَحْقِيقٍ مَعَ كُلِّ قِسْمٍ يُنَزَّلُ مِنْهُ، فَالتَّأَكِيدُ بِالْمَفْعُولِ الْمَطْلُوقِ لِلإِشَارَةِ إِلَى نَوْعِ التَّنْزِيلِ.

والحكمة الثالثة: نُذِرُكُمَا مِنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي النَّصِّ: ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا لِيُجِيبَنكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَقْوِيمًا ﴾ (٣٣).

الخطاب هنا موجه للرسول لِيَسْمَعَ أَصْحَابُ الْإِعْتِرَاضِ عَلَى تَنْزِيلِهِ مُفْرَقًا، وَقَدْ سَبَقَ فِي سُورَةِ (الفرقان) نَفْسُهَا عَرْضَ طَائِفَةٍ مِنْ إِعْتِرَاضَاتِهِمْ وَمَقْتَرِحَاتِهِمْ الَّتِي جَاءَتْ الإِجَابَةُ عَلَيْهَا فِي السُّورَةِ.

والمعنى أن من حَكَمَ تنزيل القرآن مُنْجَمًا مُتَابِعَةً جَدَلِيَّاتِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِيمَا يُقَدِّمُونَهُ مِنْ أَمْثَلَةٍ يَصْطَنِعُونَهَا بِآرَائِهِمْ، ويقترحونها، وَيَرَوْنَ أَنَّهَا هِيَ الصُّورَ الْأَفْضَلَ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَلَيْهَا حَالُ الرَّسُولِ، أَوْ حَالُ الْقُرْآنِ، أَوْ حَالُ أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ وَالْمَنْهَاجِ.

فَبِهَذِهِ الْمَتَابَعَةِ يُقَدِّمُ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ فِي النَّصِّ اللَّاحِقِ مَا يَكْشِفُ بِهِ وَجْهَ الْحَقِّ لِمَنْ يَطْلُبُ الْحَقَّ بِصِدْقٍ، إِذَا كَانَ مَا اقْتَرَحَهُ الْكَافِرُونَ مِنَ الْأُمُورِ الْبَاطِلَةَ.

وَيُقَدِّمُ فِي النَّصِّ اللَّاحِقِ مَا يَتَضَمَّنُ تَفْسِيرَ وَجْهِ الْحِكْمَةِ مِنَ الطَّرِيقَةِ الرَّبَّانِيَّةِ الْمُخْتَارَةِ، إِذَا كَانَ مَا اقْتَرَحَهُ الْكَافِرُونَ إِحْدَى الصُّورِ الْمُمْكِنَةِ غَيْرِ الْمَرْفُوضَةِ عَقْلًا، لِكِنَّ الْاِخْتِيَارَ الرَّبَّانِيَّ قَدْ كَانَ هُوَ الْأَفْضَلُ وَالْأَحْسَنُ وَالْأَحْكَمُ، فَيَكُونُ تَفْسِيرُ مَا جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فِي كُلِّ ذَلِكَ لِمَلَأَمَةِ الْأَفْضَلِ وَالْأَحْسَنِ وَالْأَحْكَمِ، هُوَ الْأَحْسَنُ وَالْأَفْضَلُ وَالْأَحْكَمُ مِنْ تَفْسِيرِ مَا اقْتَرَحُوهُ.

وَحِينَمَا يَكُونُ تَفْسِيرُ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ أَحْسَنَ مِنْ تَفْسِيرِ مَا اقْتَرَحُوهُ، يَكُونُ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ أَحْسَنَ مِمَّا اقْتَرَحُوهُ حَتْمًا، وَهَذَا مِنَ الْاِسْتِدْلَالِ بِلِازِمِ الشَّيْءِ عَلَيْهِ.

وَالْمَرَادُ مِنَ الْمَثَلِ هُنَا: التَّمُودُجُ الْمَقْتَرَحُ الَّذِي يُقَدِّمُهُ الْكَافِرُونَ، فِي اعْتِرَاضَاتِهِمْ وَجَدَلِيَّاتِهِمْ، حَوْلَ مَا يَنْبَغِي - بِحَسَبِ آرَائِهِمُ الْقَاصِرَةِ - أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ الرَّسُولُ، أَوِ الْقُرْآنُ، أَوِ الْحُكْمُ الدِّينِيُّ، أَوِ الطَّرِيقَةُ الرَّبَّانِيَّةُ فِي وَسِيلَةِ التَّبْلِيغِ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ.

وَلَمَّا كَانَتْ مَقْتَرَحَاتُ النَّاسِ بِمِثَابَةِ صُورٍ مَرْسُومَةٍ يُقَدِّمُونَهَا، لِيَكُونَ الْوَاقِعُ التَّطْبِيقِيُّ عَلَى وَفْقِهَا، كَانَ أَدَقُّ تَعْبِيرٍ جَامِعٍ هُوَ التَّعْبِيرُ عَنْهَا بِأَنَّهَا أَمْثَالٌ، وَالوَاحِدُ مِنْهَا «مَثَلٌ» فَقَالَ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾، وَمِنَ الْأَمْثَالِ النَّمَازِجِ الَّتِي تُوضَعُ لِلْمَبَانِي الَّتِي سَتَقَامُ أَوْ يُقْتَرَحُ الْمُهَنْدِسُونَ إِقَامَتَهَا.

إهلاكيهم إعداداً لتلقي الجواب، وبعده توجيهاً للاعطاء والاعتبار، فقال الله عز وجل:

﴿ كَذَبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَدَايَ وَنَذْرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَزْبِغُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَدَايَ وَنَذْرِ ﴿٢١﴾ ﴾ .

ريحاً صَرْصَرًا: أي: شديدة البرودة ذات صوت.

أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْقَعِرٍ: أي: أصول نخلٍ مُنْقَلَعٍ من مَنَبَتِهِ، بَادِيَةِ أَسَافِلِهِ المَشْعَثَةِ المَمْزَقَةِ .

● وَأَمَّا عَرَضُ مُوجَزِ إِهْلَاكِ ثَمُودَ فَقَدْ جَاءَ بِطَرِيقَةٍ مُّخْتَلِفَةٍ عَمَّا سَبَقَ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي هَذَا الْعَرَضِ:

﴿ كَذَبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٢﴾ فَقَالُوا أَبَشْرًا مِّمَّا وَجَدْنَا نَبْعَهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٣﴾ أَلَمْ يَأْتِ الدِّكْرَ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشْرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ .

وَبَعْدَ هَذَا يُقَدِّمُ النَّصُّ قَوْلًا مُّقْتَطَعًا مِنَ الْحَدِيثِ إِبَانَةَ حُدُوثِهِ فِي الْمَاضِي فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ:

﴿ سَيَعْمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَابِ الْآيِثُرِ ﴿٢٥﴾ إِنَّا مَرْسَلْنَا النَّاقَةَ فَنَسَّهَا لَهُمْ فَاتَّقَبَّوْهُمْ وَأَصْطَبِرْ ﴿٢٦﴾ وَنَبِّئِهِمْ أَنَّ الْمَاءَ قَسَمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرِبٍ مُّخَضَّرٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ .

الشَّرْبُ: وَقْتُ الشَّرْبِ، وَالنَّصِيبُ مِنَ الْمَاءِ .

هَذَا الْقَوْلُ كَانَ قَدْ وَجَّهَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِمْ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَدَّمَ هُنَا مُقْتَطَعًا مِنَ الْحَدِيثِ الْمَاضِي، دُونَ مَقْدَمَاتٍ تُشِيرُ إِلَى ذَلِكَ، وَبَعْدَهُ عَادَ النَّصُّ إِلَى حِكَايَةِ الْقِصَّةِ، فَقَالَ تَعَالَى:

﴿ فَنَادُوا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَمَقَرَّ ﴿٢٩﴾ ﴾ .

أي: فَتَمَطَّى مُتَطَوِّلاً قَائِماً عَلَى أَطْرَافِ أَصَابِعِ رِجْلَيْهِ رَافِعاً يَدَيْهِ، فَعَقَرَ نَاقَةَ

الله، وبعده هذا البيان وجه الله عز وجل السؤال السابق فقال تعالى:

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ (٣٠) ؟؟ .

وأجاب عليه بقوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَبَعْدَهُ فَكَانُوا كَهَشِيرِ الْغَضَبِ﴾ (٣١) .

إنه مع التشابه في الهيكل العام، نلاحظ أن الأساليب اختلفت وتنوعت.

● وأما عرض موجز إهلاك قوم لوط عليه السلام، فقد جاء أيضاً بطريقة مختلفة، مع التناظر في الهيكل العام كما سبق، فقدّم الله عز وجل صورة إهلاكهم قبل عرض أعمالهم، على خلاف ما جاء في موجز قصة ثمود، إذ جاء عرض أعمالهم قبل عرض صورة إهلاكهم، فقال الله عز وجل:

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذْرِ﴾ (٣٢) ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ﴾ (٣٣) ﴿نِعْمَةٌ مِنَّا عِنْدَنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ﴾ (٣٤) ﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذْرِ﴾ (٣٥) ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ صَيْفِيهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ (٣٦) ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بِكُورَةٍ عَذَابٍ مُسْتَقِرًّا﴾ (٣٧) ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ (٣٨) .

ولم يورد الله عز وجل هنا السؤال السابق، إذ جاء هنا تكرير عبارة: ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ وهي عبارة مقتطعة من الحدث الماضي.

وأما إهلاك فرعون وآله وجنوده، فقد جاء موجزاً جداً بعبارة:

﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذْرُ﴾ (٣٩) ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ (٤٠) .

لقد جاء هذا البيان بطريقة مختلفة عما سبق، مع بقاء التشابه والتناظر في الهيكل العام، كما نشاهد اختلاف السمات والخصائص في أفراد المخلوقات، مع تشابه أفراد النوع الواحد في الهيكل العام.

وهذا من إعجاز القرآن وأدبه الرفيع.

* * *

التكامل في أساليب البيان القرآني بين الأشباه والنظائر

من روائع الإبداع في البيان القرآني ما يُمكنُ أن نُطلق عليه اسم «التكامل في الدلالات بين الأشباه والنظائر» وهو تخصيص كلِّ صِنْفٍ من الأشباه والنظائر في النَّصِّ بتعبير يُفيدُ معنىً خاصاً، وهذا التعبير يصلحُ أطْرأدهُ في سائر الأشباه والنظائر، ويتوزع التعبيرات ذوات الدلالات المختلفة على الأشباه والنظائر يحصلُ الاستغناء عن إعادة كُلِّ شبيهه ونظيره عدّة مرّاتٍ بَعْدَ هذه التعبيرات، للإتيان به في كلِّ مرّةٍ مقترناً بواحدٍ منها حتى استغراقها.

وفي هذا الاستغناء إيجازٌ رائعٌ، واقتصادٌ في التعبير من جهة، ومَسْرَةٌ لِنباهةِ الأذكياء من جهةٍ أخرى، وتخلُّصٌ من الركاكة التي يجلبها التكرير في طريقة التعبير من جهةٍ ثالثة.

وتتكامَلُ التعبيراتُ فيما بينها في أداء المقصود من دلالاتها المختلفة، ويُفهمُ هذا التكامل من قرينة جَمْعِ الأشباه والنظائر في نصٍّ واحدٍ، وقد يدلُّ عليه بدءٌ وختامٌ.

وقد يُلاحظُ معَ هذا التنويع التكامليّ في العبارات ذوات الدلالات المختلفة براعةُ انتقاءِ التعبير الأكثر ملاءمةً للنوع الذي يُقرَنُ به من الأشباه والنظائر، مع صلاحيةِ التعبيرات الأخرى له.

وأمثّل لهذا التكامل البديع بما يلي:

المثال الأول:

قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الحجرات) / ٤٩ مصحف / ١٠٦ نزول):

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُونَ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءِ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ

فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعضُكُمْ بَعضًا أَيُّحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧﴾

يُدْهِنَا فِي هَذَا النَّصِّ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنْ أَدَبِ التَّكَامُلِ الْبَيَانِيِّ الْبَدِيعِ الَّذِي سَبَقَ إِيضَاحُهُ، فَفِيهِ يَنْهَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا عَنْ سِتِّ قَبَائِحِ اجْتِمَاعِيَّةٍ، مِنْ شَأْنِهَا بَدْرُ بُزُورِ الْفِرْقَةِ وَالْعِدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، لَمَّا فِيهَا مِنْ إِيْدَاءٍ أَوْ إِضْرَارٍ مِنْ بَعْضٍ مِنْهُمْ لِبَعْضٍ آخَرَ.

وَهِيَ قَبَائِحُ تَشْتَمَلُ عَلَى ظَلْمٍ مِنَ الْإِنْسَانِ لِأَخِيهِ الْإِنْسَانِ، وَكُلُّ ظُلْمٍ بَيْنَ النَّاسِ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُورِثَ الْعِدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ، وَيُوقِعَ الْفِرْقَةَ بَيْنَ الْجَمَاعَةِ الْوَاحِدَةِ، وَهَذِهِ الْقَبَائِحُ السِّتُّ هِيَ:

«السُّخْرِيَّةُ - اللَّمَزُ - التَّنَابُزُ بِالْأَلْقَابِ - اتِّهَامُ الْمُؤْمِنِينَ بِالظُّنُونِ الضَّعِيفَةِ الَّتِي لَا تَقْوَى عَلَى الْإِتِّهَامِ - التَّجَسُّسُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ - غَيْبَةُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ».

مِنَ الْمَلَاظِظِ فِي هَذَا النَّصِّ أَنَّ كُلَّ نَهْيٍ فِيهِ قَدْ انْفَرَدَ بِلَوْنٍ تَعْبِيرِيٍّ ذِي دَلَالَةٍ خَاصَّةٍ قَابِلَةٍ لِأَنَّ تَكُونَ شَامِلَةً لِسَائِرِ الْقَبَائِحِ الَّتِي جَاءَ فِي النَّصِّ النَّهْيُ عَنْهَا.

(١) فِي السُّخْرِيَّةِ جَاءَ التَّعْبِيرُ بِأَسْلُوبٍ: «لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ... وَلَا نِسَاءً مِنْ نِسَاءٍ».

(٢) وَفِي اللَّمَزِ جَاءَ التَّعْبِيرُ بِأَسْلُوبٍ: «وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ».

(٣) وَفِي النَّبْزِ بِالْأَلْقَابِ الْقَبِيحَةِ جَاءَ التَّعْبِيرُ بِأَسْلُوبٍ: «وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ».

(٤) وَفِي الظَّنِّ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ جَاءَ التَّعْبِيرُ بِأَسْلُوبٍ: «اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ».

(٥) وفي التجسس جاء التعبير بأسلوب: «وَلَا تَجَسَّسُوا».

(٦) وفي الغيبة جاء التعبير بأسلوب: «وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُمْ بَعْضًا».

ويلاحظ أنه يصح في كل منها استعمال التعبيرات الأخرى لتوذي فيه دلالاتها.

● فيقال مثلاً في السُّخْرِيَّةِ، مع ما جاء من تعبير حَوْلَهَا في النَّصِّ: «لَا تَسْخَرُوا مِنْ أَنْفُسِكُمْ - لَا تَسَاخَرُوا - اجْتَنِبُوا السُّخْرِيَّةَ - لَا تَسْخَرُوا - لَا يَسْخَرُ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ».

● ويقال في اللَّمَزِ، مع ما جاء من تعبير حَوْلَهُ في النَّصِّ: «لَا يَلْمِزُ قَوْمٌ قَوْمًا، وَلَا نِسَاءٌ نِسَاءً - لَا تَلْمِزُوا - اجْتَنِبُوا اللَّمَزَ - لَا تَلْمِزُوا - لَا يَلْمِزُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا».

● ويقال في التَّنْبِزِ بِالْأَلْقَابِ القبيحة، مع ما جاء من تعبير حَوْلَهُ في النَّصِّ: «لَا يَنْبِزُ بِالْأَلْقَابِ قَوْمٌ قَوْمًا، وَلَا نِسَاءٌ نِسَاءً - لَا تَنْبِزُوا بِالْأَلْقَابِ أَنْفُسَكُمْ - اجْتَنِبُوا التَّنْبِزَ بِالْأَلْقَابِ - لَا يَنْبِزُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا».

وهكذا يقال في سائرهما، فأغنى أسلوب التعبير الذي جاء في واحدة منها عن إعادته في سائرهما، فتكاملت التعبيرات في أداء المقصود من دلالاتها المختلفة.

ومع هذا الأسلوب البديع الدال على التكامل في الصيغ المختارة لكل صنف من هذه القبائح الست، فقد اختير لكل قبيحة منها صيغة التعبير التي تدل على أبرز صورة من صورها، وهذا من الدقة الفكرية، والبراعة والإبداع الفني.

(١) فالسخرية تغلب فيها المشاركة الجماعية، إذ الساخر يضحك بسخريته آخرون، فيكونون مشاركين له في عمله، فجاء التعبير فيها بأسلوب: «لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ... وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ».

وجاء في هذا التعبير إفراد النساء عن الذكور، لأنَّ الغالب أن لا يسخرَ الرجالُ من النساء، ولا يسخرَ النساءُ من الرجال، وللإشارة ضمناً إلى أن المجتمعات الإسلامية هي مجتمعاتٌ غيرُ مختلطة في الغالب من الأحوال، فتقلُّ فيها السُّخريةُ بينَ الصَّنَفين، والخطابُ في النَّصِّ قد بدأ بنداؤِ الذين آمنوا.

وأسلوبُ هذا التعبير يَصْلُحُ تَعْمِيمُهُ على القبايح الست.

(٢) وَاللَّمْزُ يَغْلِبُ فِيهِ الْعَمَلُ الْفَرْدِيُّ الْخَفِيُّ، الَّذِي يُدْرِكُهُ أَهْلُ الْفِطَانَةِ وَالنَّبَاهَةِ، فَجَاءَ التَّعْبِيرُ بِأَسْلُوبٍ: «وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ» وَلِلدَّلَالَةِ أَيْضاً عَلَى أَنَّ مَنْ لَمَزَ أَخَاهُ الْمُؤْمِنَ فَكَأَنَّمَا لَمَزَ نَفْسَهُ، لِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ هُمْ بِمِثَابَةِ الْجَسَدِ الْوَاحِدِ. وَهَذَا الْمَعْنَى مَعَ أَسْلُوبِ التَّعْبِيرِ يَصْلُحُ تَعْمِيمُهُ عَلَى سَائِرِ الْقَبَائِحِ السَّتِّ، فنقول: «لَا تَسْخَرُوا مِنْ أَنْفُسِكُمْ - لَا تِزُوا أَنْفُسَكُمْ بِالْأَلْقَابِ - اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ فِي أَنْفُسِكُمْ - لَا تَجَسَّسُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ - لَا تَغْتَابُوا أَنْفُسَكُمْ».

(٣) وَالنَّبْزُ بِاللَّقَبِ، وَهُوَ الشَّتْمُ بِالْأَلْقَابِ الْقَبِيحَةِ، عَمَلٌ تَغْلِبُ فِيهِ الْمَشَارَكَةُ بَيْنَ فَرِيقَيْنِ، فَمَنْ نَبَزَ غَيْرَهُ رَدَّ عَلَيْهِ الْمُنْبُوزُ غَالِباً بِمِثْلِ قَوْلِهِ، أَوْ بِأَفْجَحَ مِنْهُ، انْتِقَاماً لِنَفْسِهِ، فَالْتِنَابُ كَالْتَقَاتِلِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ جَاءَ التَّعْبِيرُ بِأَسْلُوبٍ: «وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ». وَهَذَا الْمَعْنَى مَعَ أَسْلُوبِ التَّعْبِيرِ يَصْلُحُ تَعْمِيمُهُ عَلَى سَائِرِ الْقَبَائِحِ السَّتِّ، فنقول فيها: «لَا تَسَاخَرُوا - لَا تَتَلَمَّزُوا - لَا تَتَرَامَوْا بِكثِيرٍ مِنَ الظَّنِّ - لَا تَتَعَامَلُوا فِيمَا بَيْنَكُمْ بِالتَّجَسُّسِ - لَا تَتَرَامَوْا فِيمَا بَيْنَكُمْ بِالْغَيْبَةِ».

(٤) وَأَفْضَلُ وَسِيلَةٍ لتركِ الظَّنِّ الَّذِي يَأْتُمُّ بِهِ صَاحِبُهُ، هُوَ اجْتِنَابُ كَثِيرٍ مِنَ الظَّنِّ، لِأَنَّ مِنْ جَرَى مَعَ ظُنُونِهِ أَوْ صِلَتُهُ إِلَى مَا يَأْتُمُّ بِهِ حَتْمًا، لَمَّا لَا تَبَاعِ الظَّنِّ مِنْ مَزَالِقٍ، وَتَسَلُّطِ عَلَى النُّفُوسِ، فَجَاءَ التَّعْبِيرُ فِيهِ بِأَسْلُوبِ الْأَمْرِ بِالاجْتِنَابِ، أَي: بِالابْتِعَادِ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الظَّنِّ: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِمَّا ظَنَّنَ أَنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِنَّهُ» وَأَسْلُوبُ الْأَمْرِ بِالاجْتِنَابِ يَصْلُحُ تَعْمِيمُهُ عَلَى سَائِرِ الْقَبَائِحِ السَّتِّ، ففِي الْابْتِعَادِ عَنْ

حُدودها سلامةٌ وحفظٌ وورعٌ محمود، فنقول فيها: «اجتنبوا السُّخْرِيَةَ - اجْتَنَبُوا اللَّمَزَ - اجْتَنَبُوا التَّنَابُزَ وَالتَّنْبِزَ بِالْأَلْقَابِ - اجْتَنَبُوا التَّجَسُّسَ - اجْتَنَبُوا الْغِيْبَةَ».

(٥) وَالتَّجَسُّسُ يَغْلُبُ فِيهِ الْعَمَلُ الْفَرْدِيُّ الَّذِي يَسْتَخْفِي بِهِ فَاعِلُهُ فَجَاءَ التَّعْبِيرُ فِيهِ بِأَسْلُوبٍ: «وَلَا تَجَسَّسُوا» فَالْنَهْيُ لِلْجَمَاعَةِ عَمَّا يُمْكِنُ أَنْ يَقُومَ بِهِ كُلُّ فَرْدٍ مِنْهُمْ هُوَ نَهْيٌ مُوجَّهٌ لِكُلِّ فَرْدٍ، وَأَسْلُوبُ هَذَا التَّعْبِيرِ يَصْلُحُ تَعْمِيمُهُ عَلَى سَائِرِ الْقَبَائِحِ السَّتِّ. فَنَقُولُ فِيهَا: «لَا تَسْخَرُوا - لَا تَلْمِزُوا - لَا تَنْبِزُوا بِالْأَلْقَابِ - لَا تَتَّبِعُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ - لَا تَغْتَابُوا».

(٦) وَالْغِيْبَةُ ظَاهِرَةٌ مِنْ ظَوَاهِرِ الْقَبَائِحِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ، الَّتِي يُؤْذِي أَوْ يَضُرُّ بِهَا النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، إِذْ فِيهَا مُغْتَابٌ وَسَامِعٌ مُشَارِكٌ لَهُ أَوْ أَكْثَرُ، فَجَاءَ التَّعْبِيرُ فِي النِّهْيِ عَنْهَا بِأَسْلُوبٍ: «وَلَا يَتَّبِعْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا» وَهَذَا الْأَسْلُوبُ مِنَ التَّعْبِيرِ يَصْلُحُ تَعْمِيمُهُ عَلَى سَائِرِ الْقَبَائِحِ السَّتِّ، فَنَقُولُ فِيهَا: «لَا يَسْخَرْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ - لَا يَلْمِزُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا - لَا يَنْبِزُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا - لَا يَتَّبِعُ بَعْضُكُمْ كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ بِبَعْضٍ - لَا يَتَجَسَّسُ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ».

بَعْدَ هَذَا الشَّرْحِ الْمَفْصَّلِ أَقُولُ: إِنَّ الْمَتَدَبِّرَ الْفَطِينَ يَكْشِفُ أَنَّ جَمْعَ هَذِهِ التَّعْبِيرَاتِ ذَوَاتِ الْأَدَاءِ الْمُخْتَلَفِ، فِي نَصٍّ وَاحِدٍ قَدْ جَمَعَ عِدَّةَ رِذَائِلِ اجْتِمَاعِيَّةٍ، هِيَ أَشْبَاهُ وَنِظَائِرٍ فِيمَا بَيْنَهَا وَيُمْكِنُ أَنْ يُوَضَّعَ لَهَا عُنْوَانٌ وَاحِدٌ، بِغِيَّةِ النِّهْيِ عَنْهَا وَالتَّحْذِيرِ مِنْهَا، يُشْعِرُ بِأَنَّ كُلَّ تَعْبِيرٍ مِنْهَا يَصْلُحُ تَعْمِيمُهُ وَاسْتِعْمَالُهُ فِي سَائِرِهَا.

وَهَذَا مِنْ رَوَائِعِ الْإِيْجَازِ وَالْإِعْجَازِ الْبَيَانِيِّ الَّذِي اشْتَمَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ الْمَجِيدُ.

* * *

المثال الثاني:

قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (النمل) / ٢٧ / مصحف / ٤٨ (نزل):

﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ۗ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا يَشْرِكُونَ ﴿٥٥﴾ أَمَّنْ خَلَقَ

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَوَلَمْ مَعَ اللَّهُ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿١٠﴾ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَادًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَوَلَمْ مَعَ اللَّهُ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُ لَكُمْ خُلْفَاءَ ۗ أَوَلَمْ أَوَلَمْ مَعَ اللَّهُ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿١٢﴾ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيْحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَوَلَمْ مَعَ اللَّهُ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٣﴾ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَوَلَمْ مَعَ اللَّهُ قَلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤﴾ .

هذه الآيات تشتمل على بيانٍ تعليميٍّ لمناظرةٍ جدليةٍ مع المشركين، وهي تسير ضمن خطوات:

(١) يأمرُ هذا التعليمُ بافتتاح هذه المناظرة بعبارة: الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى.

أي: كلُّ الحمد لله وحده، وبعد توجيه الحمد لله، يُوجِّهُ سلاماً على عباده الذين اصطفى، وهم أنبيأؤه ورسلُهُ عبرَ تاريخِ الناس، وهم الذين حملوا لواء الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، والنَّهْيُ عن الإِشْرَاقِ به، وفي هذا تجرُّدٌ من معنَى التعصُّبِ للرسولِ الخاتمِ مُحَمَّدٍ ﷺ لشخصه.

(٢) وبعدَ المقدِّمةِ الافتتاحيةِ يطرحُ المناظرُ المؤمنُ المسلمُ سؤالاً حول المقارنة بين الخالقِ الرَّبِّ وبين ما يتَّخِذُهُ المشركونَ من شركاء على اختلاف أنواع شركهم، واختلاف ذوات شركائهم، وعبارة هذا السؤال: ﴿ءَاللَّهُ خَيْرٌ أَمْ أَمْ يُشْرِكُونَ؟؟﴾ .

وتحليل هذا السؤال يقتضي بياناً تفصيلياً لصفاتِ الرَّبِّ الخالقِ الرازق المحيي المميت النافع الضارِّ إلى سائر صفاتِ الله عزَّ وجلَّ، وبياناً تفصيلياً لصفاتِ ما اتَّخَذَ المشركونَ من شركاءِ لله في العبادة.

وبهذا البيان التفصيلي المقارن يظهر أن ما اتَّخذه المشركون من شركاء لا يملكون شيئاً من خصائص الربوبية، فلا ينفعون أحداً ولا يضرُّون أحداً، بل هم عاجزون عن أن يجلبوا لأنفسهم نفعاً أو أن يدفعوا عن أنفسهم ضرراً.

وإذا كان هؤلاء الشركاء لا يملكون نفعاً ولا ضرراً، فإنَّ أحداً منهم لا يستحقُّ أن يُعبدَ من دون الله، ولا أن يكون شريكاً لله في كونه إلهاً معبوداً.

(٣) فإذا ادَّعى المشركون أن لشركائهم نفعاً أو ضرراً أو مشاركة لله في ربوبيته، فإنَّ على المناظر أن يدخل في عرض مظاهر ربوبية الله في كونه، فيطرح تساؤلاته التفصيلية كما يلي:

● مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتَ بِهِ حَدَائِقَ ذَاتِ بَهْجَةٍ؟

● مَنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَّ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً؟

● مَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ؟

● مَنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ؟

● مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ؟

هذه مجموعات خمس من الأسئلة التي تجري المناظرة حولها من شأنها أن تُوصِلَ بَعْدَ تَقْدِيمِ الْحُجَجِ وَالْبَرَاهِينِ وَالْأَدَلَّةِ الْعِلْمِيَّةِ إِلَى الْإِقْنَاعِ بِأَنَّ كُلَّ هَذِهِ الظواهر الكونية هي من آثار الرَّبِّ الْخَالِقِ، وَأَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ مِنْهَا مِنْ أَعْمَالِ شُرَكَاءِ الْمُشْرِكِينَ، لَا عَلَى سَبِيلِ الْإِسْتِقْلَالِ، وَلَا عَلَى سَبِيلِ الْمَشَارَكَةِ فِي الرَّبُوبِيَّةِ.

وبما أن الإلهية لا يصحُّ عقلاً أن تكون إلا لمن له الربوبية، أو له مشاركة ما فيها.

وبما أن أحداً غير الله عز وجل ليس رباً ولا مُشَارِكاً لِلَّهِ في جُزءٍ من رُبوبيته .
فإنَّهُ لَا يَصِحُّ عَقْلاً أَنْ يُعْبَدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَلَا أَنْ يُجْعَلَ مَعَ اللَّهِ شريكاً في
عبادة العابدين .

ويُلاحظُ أَنَّهُ قد جاء في النَّصِّ بعد كلِّ مجموعةٍ من الأسئلة السابقة تعقيبٌ
مبدوءٌ باستفهام إنكارِيٍّ تَعَجِيبِيٍّ من شركِ المشركين ، وبعدهُ نوعٌ بيان يتعلَّقُ
بمذهبهم الباطل .

(١) فبعد المجموعة الأولى جاء: ﴿أءَلَهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ أي:
يجعلون عباداً من عباد الله وخلقاً من خلقه مُعَادِلِينَ لله في إِلَهِيَّتِهِ التي لا يُشَارِكُهُ فيها
أحدٌ، لأنَّهُ لَا يُشَارِكُهُ في رُبوبيته ، ولا في جزءٍ منها أحد . وَيَعْدِلُونَ عن صراطِ
الحقِّ متخذين مَذَاهِبَ شَرِكِيَّةٍ باطلةً .

(٢) وبعد المجموعة الثانية جاء: ﴿أءَلَهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .

(٣) وبعد المجموعة الثالثة جاء: ﴿أءَلَهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾ .

(٤) وبعد المجموعة الرابعة جاء: ﴿أءَلَهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ .

(٥) وبعد المجموعة الخامسة جاء: ﴿أءَلَهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ
كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ .

إنَّ المتدبِّر المتأنِّي لهذا النَّصِّ يُلاحظُ أَنَّ كُلَّ تعقيبٍ من هذه التعقيباتِ
الخمسة صالحٌ لأنَّ يُعَمِّمَ على كُلِّ المجموعات من الأسئلة التي تُطْرَحُ على المشرك
كما جاء في المناظرة التعليميّة .

وقد أغْنَى ذِكْرُ كُلِّ واحدٍ منها بعدَ مجموعته عن ذكر سائرِها معه ، ودلَّتْ
قرينة كون هذه المجموعات من الأسئلة وإرادةً في مناظرة واحدة ، على أنَّ
التعقيبات قد أُريدَ منها صلاحيتها لأن تكونَ عامّة .

واقترضت فنيته الأداء البياني أن لا تكرر مع كل مجموعة، وأن يُذكر كل منها عقب مجموعة منها.

ولو تكرر لتضعفت بلاغة النص، وكذلك لو أُخرت وجاءت على صيغة تعقيب واحد متتابع الجملة.

فما جاء في هذا النص هو من أمثلة التكامل الإبداعي في أساليب البيان القرآني المجيد.

* * *

المثال الثالث:

قول الله عز وجل في سورة (النحل / ١٦ مصحف / ٧٠ نزول):

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٦﴾
يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ لَكُمْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ
لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ
بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانًا
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٩﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا
طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلًا ثَلْبًا تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلَ كَمَا يَمُوجُ فِيهِ وَتَلْبَسْتُمْ مِنْ فَرْشِهِ
وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٠﴾ وَالْقَلْبَ فِي الْأَرْضِ رَوَّيْتُمْ أَنْ تُبَدَّ بِكُمْ وَأَنْتُمْ كَالْعُلَّامِ
تَهْتَدُونَ ﴿٢١﴾.

جاء في هذا النص ذكر مجموعات من آيات الله في كونه الدلالات على صفات ربوبيته، والهادية إلى إثبات ذاته جل وعلا.

وهذه الآيات إنما يستفيد من دلالاتها المتفكرون فيها، الذين يعقلون النتائج بعد أن يتوصلوا إليها بعقولهم الواعية، ثم بعد أن يعقلوها يعملون على تذكرها أنا بعد أن للاستفادة منها في استنباط حقائق جديدة، وفي الهداية إلى ما يحقق رضوان

الرَّبِّ الخالق، وبعد الاهتداء إلى ذلك تتحرَّك الدوافع الخلقية الكريمة فيهم للقيام بشُكْرِ الله على نِعَمِهِ الكثيرة الَّتِي اشتملت عليها آيَاتُهُ في كونه .

فالسلسلة التكاملية الَّتِي يمرُّ بها الإنسان السَّوِيُّ حينما يُوجِّه نظره الفكريَّ إِلَى آياتِ الله في كونه تأتي وفق الخطوات التالية :

الخطوة الأولى : التفكُّرُ في آياتِ الله في كونه، وقد جاء بيان هذه الخطوة بعد ذكر المجموعة الأولى من آياتِ الله التي وجَّه النصَّ النظر لها، فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَكَفَّرُونَ﴾ .

الخطوة الثانية : العَقْلُ بالإمساك الواعي للنتائج التي أوصلَ إليها التفكر، وقد جاء بيان هذه الخطوة بعد ذكر المجموعة الثانية من آياتِ الله التي وجَّه النصَّ النظر لها، فقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ .

الخطوة الثالثة : التذكُّر لمتابعة البحث التحليليِّ، وللانقاع عملياً وسلوكياً من النتائج الَّتِي تمَّ التوصلُ إليها، وقد جاء بيان هذه الخطوة بعد ذكر المجموعة الثالثة من آياتِ الله التي وجَّه النصَّ النظر لها، فقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ .

الخطوة الرابعة : التوجُّه لشكرِ الله على نعمه الَّتِي اشتمَلت عليها آياته في كونه، وقد جاء بيان هذه الخطوة بعد ذكر المجموعة الرابعة من آياتِ الله التي وجَّه النصَّ النظر لها، فقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ .

ويُلاحظ متدبِّر هذا النصِّ بآناةٍ أَنَّ هذه التعقيبات الأربعة صالحةٌ لأنَّ تُذَكَّرَ جميعُها عقب كلِّ مجموعةٍ من المجموعات الأربع، ولكن جاء توزيعها عليها مراعاةً لفنِّية الأداء البيانيِّ، وابتعاداً عن تكريرها جميعاً مع كلِّ مجموعة، أو حشرها جميعاً في آخر المجموعات، لأنَّ كُلاًّ من التكرير والجمع أخيراً يُضعِفُ بلاغة النصِّ، ويُنزِلُ من قيمة صياغته الفنية .

وقرينة توجيه النظر لكلّ هذه المجموعات من آيات الله في كونه ضمن نصّ واحد، مع صلاحية هذه الآيات فكرياً لأن يأتي التعقيب عليها بأيّ واحد من التعقيبات الأربعة، قرينة دالة على أنّ المراد تعميمها على الجميع، وأنّ التعقيبات متكاملات فيما بينها.

فما جاء في هذا النصّ هو من أمثلة التكامل الإبداعي في أساليب البيان القرآنيّ.

ولهذا الفنّ الأدبيّ المبتكر نظائر أُخرى في كتاب الله عزّ وجلّ، والحمد لله على فتحه وتوفيقه.



منهج البيان القرآني في حكاية الأقوال والأحداث والقصص

يشتمل البيان القرآني في حكاية الأقوال والأحداث والقصص على وجوه فنيّة مختلفة، فيها إبداعٌ رائع لم يُعرف في بيان بلغاء الناس قبل القرآن.

ويُلاحظُ مُتدبّر كتاب الله عزَّ وجلَّ من هذه الوجوه المختلفة الفنون التالية:

الفنّ الأول: ما قد يشمل عليه النصّ من تصوير الحدث الماضي، والحدث الآتي في المستقبل، كأنه حدثٌ آنيٌّ يجري الآن، والصُّورُ التمثيلية المستقطعة من الماضي أو من المستقبل يُؤتى بكل ظروفها الزمانية والمكانية وبأحداثها، فتقدّم كأنها أحداثٌ قائمة فعلاً، للإشعار بأنها حقائق قد حدثت فعلاً، أو لا بدّ أن تحدث مستقبلاً.

الفنّ الثاني: ما قد يشتمل عليه النصّ من تصوير الحدث الذي سيأتي في المستقبل كأنه حدثٌ جرى فعلاً فيما مضى، فهو يحكي أمراً قد وقع.

الفنّ الثالث: ما قد يشتمل عليه النصّ من التقاط لقطاتٍ مثيرات ذوات أهمية من الحدث، وترك الذهن يملأ الفراغات بين اللقطات، وهو نظير اللقطات الفنيّة التي اكتشفها أخيراً أصحابُ الفنّ السينمائي والتلفزيوني، إذ يقتطعون من الأحداث التي يُقدّمها المشهد التمثيلي المصوّر، لقطاتٍ منتقيات تدلُّ على ما قبلها وعلى ما بعدها، ويعرضونها على شكل فقرات متتابعات من المشهد المعروف، مع أنّها متباعدات جدّاً في الواقع.

الفن الرابع: قد لا يُبدأ في النص بعرض الحدث من نقطة بدايته وميلاده، وتَسَلُّسلاً معه حتى آخر إجابةٍ عن التساؤلات حوله.

بل قد تستدعي فنيّة الإبداع بدءَ العرض من آيةِ فقرةٍ من أوساطه، والانتهاء عند آيةِ فقرة، متى استوفى النبا شروطه الفنيّة، أو استوفت القصة شروطها الفنيّة وأدّت الغرض من عرضها في الموضوع الذي عُرضت فيه.

الفن الخامس: قد تُعْرَضُ في النصّ الأوصاف وعناصر المشاهد والأحداث في لقطات مجزّاتٍ موزعات في السّور، وكلّ مجموعة من هذه اللّقطات قلّت أو كثرت تُبرِزُ ما تستدعيه المناسبة، أو فنيّة تجزئته العرض، وتوزيعه، وتأتلف مع سائر مجموعات اللّقطات لأوصاف الشيء أو عناصر المشهد أو الحدث اثتلافاً تكامليّاً لا تنافراً فيه، ولا تخالفاً.

وتؤدّي كلّ مجموعة منها أغراضها من فنيّة العرض وتقديم الصّور الجمالية والبيان البليغ، وتربية الإقناع، واستثارة العظة، والإعلام بما يُقصدُ الإعلام به من مسائل الدّين وقضاياها، وتأكيد العظة والتوجيه بما يشبه التكرار وليس هو منه، كمن يأتي للقضيّة الواحدة بعدّة أدلّة أو شواهد مختلفة، فالأدلة غيرُ مُكرّرةٍ لكنّ القضيّة التي سيقنّ لأجلها قد تكررُ تأكيدها.

وبهذا يتحقّق الغرضان الفنيّان: «التأكيد وعدم التكرير» مع جمال الأداء البيانيّ وكماله.

الفن السادس: ظاهرة استقطاع النّصوص من أزمانها الماضية أو المستقبلية، وعرضها بألفاظها دون الإشارة إلى أنه كان كذا فيما مضى، أو سيكون كذا فيما سيأتي.

الفن السابع: التنقّلُ بين الأزمان والأمكنة بأسلوب المفاجأة دون مقدّمة تُشعر بالانتقال، وكذلك التنقّلُ والتراوح بين عالم الابتلاء وعالم الجزاء، على سبيل

التعاقب في النصّ الواحد، ونظيره التَّنْقُلُ والتراوُحُ بين المشاهد، من موقف الحساب مثلاً إلى مُسْتَقَرِّ الجِزَاءِ، إلى غير ذلك من مشاهد ومواقف أُخْرَوِيَّة، فإلى الحياة الدنيا وما فيها من أحداث، أو إلى ما تستدعي من خطاب، حتى كأنَّ الزَّمَنَ كلُّه ماضيه وحاضره ومُسْتَقْبَلُهُ، مع الأمكنة كلّها من عالم الابتلاء ومن عالم الجِزَاءِ على لوحة واحدة، تَتَنَقَّلُ عَلَيْهَا عدساتُ البيان حسب مقتضيات الإثارة، ولَفَتِ النَّظْرَ وشدَّ الانتباه.

إنَّ هذا التَّنْقُلُ والتراوح المفاجيء دون مقدّمة تُشْعِرُ بالانتقال، هو من الإبداع الفنّي الذي لم يكن معروفاً في فنون الأدب قبل القرآن المجيد.

ففي طائفة من النصوص القرآنية نلاحظُ أنّه بينما يكونُ النصّ يخاطبُ الناس وهم في عالم الابتلاء الدُنْيَوِيّ، إذا به يَتَنَقَّلُ مُفَاجِئاً إلى مَشْهَدٍ من مشاهدهم، وهم في عالم الجِزَاءِ الأُخْرَوِيّ، فإذا به يفاجيء بالحديث عنهم وهم في عالم الابتلاء الدُنْيَوِيّ، مع التنوع في الأساليب، والتغيير في منهج الخطاب، الأمر الذي يشدُّ الفكر من أعماقه، لدى من هو حريصٌ على تَلَقِّي المعرفة، وتَذَوُّقِ جمال البيان، وروعة الكلام البليغ، فهو بسبب ذلك يُتَابِعُ التَّدَبُّرَ بنشاطٍ فكريّ متجدّد.

على خلاف النَّمِطِيَّةِ الوَاحِدَةِ في أسلوب تقديم الأفكار، وعرض المعارفِ وسرّها على وتيرة واحدة، فإنَّ هذه النَّمِطِيَّةِ الواحدة تجلُّبُ الفتور، وشروءُ الذهن، وربّما نام معه المتلقّي، ولو كان راغباً في التَّلَقِّي وحريصاً عليه، وتكونُ حالُهُ كحال من ينامُ على نَعِيرِ الناعورة، وجعجة الرِّحَا.

* * *

هذه الفنون القرآنيّة البديعة فنونٌ تُرْضِي وتُعْجِبُ مشاعر الأذكياء، وتشدُّهم إلى المتابعة والتفكُّر والاستنباط، فالإنسان مجبولٌ بفطرته على الرغبة في الاستنباط، واستخراج الأشياء وفهمها بنفسه، ويتفرّج من تَعْلِيمِهِ ما يستطيع اكتشافه

بنفسه، وينفر من إخباره بما يستطيع إدراكه وتصوّره بنفسه، من سلسلة الأحداث والوقائع، ولا سيما دقائقها العادية التي تتكرّر في الأشباه والنظائر.

وأقدم فيما يلي طائفة من الأمثلة القرآنية التي تشتمل على روائع وبدائع من هذه الفنون السبعة:

المثال الأول:

جاء في سورة (ص / ٣٨ مصحف / ٣٨ نزول) قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَأَذَكَّرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾﴾.

«بِنُصْبٍ»: هذه قراءة جمهور القراء، وقرأ أبو جعفر المدني: «بِنُصْبٍ» وقرأ يعقوب البصري: «بِنَصْبٍ» وهي لغاتٌ عربية للكلمة، والمعنى فيها جميعاً: بتعب وإعياءٍ ومسقاة.

في هذه الآية حكاية حدثٍ مضى، وفق الأسلوب المعتاد في حكاية الأخبار، وعقب هذه الحكاية للحدث قال الله عزّ وجلّ:

﴿أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤١﴾﴾.

الرَّكُضُ: ضربُ الشيءِ بالرجلِ ونحوها من أعضاء الجسد.

إننا نلاحظ أنّ هذا مقطعٌ كلاميٌّ مُستقطعٌ من الماضي، محكيٌّ بصيغته التي قيلت لأيوب — عليه السلام — إبانَ الحدثِ الماضي، والدّهنُ يكشف أنّ الله عزّ وجلّ قال لأيوب هذا القول، فورَ ندائه ربّه: «أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ» وطوى النصّ بعد ذلك ما فعلَ أيوبُ عليه السلام، من تنفيذ الأمر، وما أكرمه به ربّه من شفاء، وعطفَ الله عزّ وجلّ على هذا المطويّ قوله:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٤١﴾﴾.

وعقبه مباشرةً جاء نصّ كلاميٌّ مستقطعٌ من أحداث الماضي، محكيٌّ بصيغته التي قيلت لأيوب عليه السلام، إبانَ الحدثِ الماضي، فقال الله عزّ وجلّ:

﴿ وَخَذَ بِيَدِكَ ضِعْفًا فَأَضْرِبَ بِهِ، وَلَا تَحْتَّ . . . ﴾ [الآية ٤٤].

هذا القول يشير إلى قِصَّةِ يَمِينِ حَلْفَهَا أَيُّوبُ على زوجته أن يَضْرِبَهَا مئة ضربٍ بالقضيب لأمرٍ ما، فأفتأه الله بأن باستطاعته أن يَبْرَّ بيمينه دون أن يؤذي زوجته، وذلك بأن يأخذَ حُزْمَةً فيها مئة قضيب من القضبان الرقيقة جداً، ويضربها بها ضربة واحدة تقوم في وقت واحدٍ مقام ضربها مئة مرة.

المثال الثاني:

جاء في سورة (ص / ٣٨ مصحف / ٣٨ نزول) بعد حكاية ما أعطى الله عز وجل داود عليه السلام من مَنَحٍ وهبات، وما امتحنه به، وبعد بيان أن الله عز وجل قد غفر له، تأتي المفاجأة بنصِّ كَلَامِيٍّ مَقْتَطَعٍ من أحداثِ الماضي، وهو نصٌّ كان قد خاطب الله به داود عليه السلام بعد أن غفر له، فقال تعالى:

﴿ يٰدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ ﴾.

إنَّ المعنى الذهنِي الذي يَفْتَضِيهِ النصُّ هو عَلَى تقدير: وَبَعْدَ أَنْ غَفَرَ اللَّهُ لِدَاوُدَ قال له: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ . . . ﴾.

ولكن في التحليل الأدبي لَفَنِّ حكاية الحدث لا يَصِحُّ تقديرٌ مثل هذا الكلام، الذي قد يُلاحَظُ ذهنًا بأسرع من توارِدِ الخواطر، التي تستدعيها الأشباه والنظائر، لأنَّ مثل هذا التقدير يُفقد المفاجأة جمالها الأدبي، وفنِّيَّتها الإبداعية.

بل يَبْغِي أن تَبْقَى المفاجأة كاملةً في أداؤها، لِيَسْتَمْتَعَ مُتَدَوِّقُ الأدب بهذا اللون من ألوان الجمال في أساليب الكلام الرفيع.

ونظير هذا النداء المفاجيء ما جاء في سورة (النمل / ٢٧ مصحف / ٤٨ نزول) خطاباً لموسى عليه السلام، يقول الله عز وجل فيها:

﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَرَّ يَعْقَبُ يَمُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ ﴿١١﴾﴾ .

إنّ المعنى الذهني هو على تقدير: فلما ولىّ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ قُلْنَا لَهُ: ﴿يَا مُوسَى...﴾ لِكِنَّ مَثَلَ هَذَا التَّقْدِيرِ لَا يُصْرَحُ بِهِ لَدَى التَّحْلِيلِ الْأَدْبِيِّ لِأَنَّهُ يُفْقِدُ الْمَفَاجَأَةَ جَمَالَهَا وَفَنِّيَّتَهَا الْإِبْدَاعِيَّةَ .

* * *

المثال الثالث:

وجاء في سورة (ص / ٣٨ / مصحف / ٣٨ نزول) قول الله عزّ وجلّ يحكي ما سيحدث للطاغين يوم الدين من عذابٍ في جهنم .

﴿ هَذَا وَابْرَأِ لِلطَّغِينِ لَشْرًا مَثَابًا ۗ جَهَنَّمَ يَصَلَوْنَهَا قَبْلَ سَبْعَةِ أَيَّامٍ ۗ ﴾

ففي هذا النصّ حكاية أمرٍ سيحدث في المستقبل يومَ الجزاء الأكبر، وبعده مباشرة جاء كلامٌ مُسْتَقَطٌّ من الحدث الذي سيحدثُ مستقبلاً، وهو مذكور بصيغته نفسها التي ستقال، فقال الله عزّ وجلّ:

﴿ هَذَا قَلِيدٌ وَقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ ۗ وَآخِرٌ مِنْ سُكْلِهِ ۗ أَرْوَجُ ۗ ﴾

حَمِيمٌ: ماءٌ حارٌّ شديد الحرارة .

عَسَاقٌ: سائل أصفر يشبه الماء الأصفر الذي تُفَرِّزُهُ الجلودُ إذا تَقَرَّحَتْ أو احترقت .

وبعده جاء كلامٌ مُسْتَقَطٌّ أيضاً من الحدث الذي سيكون، وهو كلامٌ سَيَقَالُ للطاغين وهم في جهنم:

﴿ هَذَا قَوْجٌ مُقْتَنِعٌ مَعَكُمْ ۗ ﴾

لَقَدْ كَانَ الطَّاغُونَ قَادَةً لِحَمَاهِيرٍ تَبِعَتْهُمْ فِي طَغْيَانِهِمْ، فَيَقَالُ لَهُمْ هَذَا الْقَوْلُ حِينَ يُلْحَقُ بِهِمْ أَتْبَاعُهُمْ، وَجَاءَ عَقِبَهُ فِي النَّصِّ:

﴿لَا مَرْجَأَ لَهُمْ إِتْمَامٌ صَلَوَاتِ النَّارِ ﴿٥٩﴾...﴾ .

وهذا قول مستقطع من الحدث الذي سيكون، إذ يجيب الطاغون الأئمة بهذا القول، وظاهره أنه قدّم في النصّ على طريقة عرض المشاهد التمثيلية، دون التصريح بأن الأئمة الطاغين يرّدون بهذا الرّد. وعقبه مباشرة جاء في النصّ:

﴿قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَمْ تَكُنْ لَكُمْ أَنْتُمْ قَدْ مَتَمُّوهُ لَنَا فَيَسَّ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ .

هنا نلاحظ تنوعاً في الأسلوب، إذ صُدّر هذا المقطع الكلامي بفعلٍ: «قالوا» كأنّ الحدث أمرٌ جرى ووقع، واقتضت فنيّة الأداء البيانيّ ذكر فعلٍ: «قالوا».

وعقبه جاء في النصّ حكاية مقالٍ آخرٍ للفوج المقتحم من الأتباع، فقال الله عزّ وجلّ:

﴿قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرَدَّهُ عَلَيْنَا يَا ضَعْفَاءُ فِي النَّارِ ﴿٦١﴾ .

دون حرف عطف، للدلالة على أنّ هذا القول والذي قبله يُقالان بتعاقبٍ دون عطف، أو يُقالان في وقتٍ واحد، على معنى أنّ بعضهم يقول القول الأول، وبعضهم يقول القول الآخر.

ويستقرُّ الأتباع المقتحمون في دار العذاب، وبعد استقرارهم يفتشون عن شركائهم فيها، ويتصوّن أنّ الذين كانوا يعدّونهم أشراراً في الدنيا من الذين آمنوا واتبعوا الرسول لا بدّ أن يكونوا معهم في دار العذاب، لكنهم لا يروّونهم، كلّ هذا قد طوي في النصّ، لكن دلّ عليه، ما جاء في السورة من حكاية قولٍ قالوه بعد قولهم السابق، فقال الله عزّ وجلّ:

﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَخَذَتْهُمْ سَخِرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ

الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾ .

إنهم بعد البحث والتفتيش لا يرون في دار العذاب رجالاً كانوا يعدّونهم في الحياة الدنيا من الأشرار، لكنهم آمنوا وصلحوا واتبعوا الرسول.

فيذكرونَ اِحْتِمَالَيْنِ:

الاحتمال الأول: أنهم كانوا يستضعفونهم في الدنيا، فيتخذونهم سخرياً، أي: مُسْتَذَلِّينَ مُسَخَّرِينَ، يُكَلِّفُونَ حَمَلَ الأعباء والأعمال الشاقة، مع السُّخْرِيَةِ بِهِمْ، وهم لا يستحقون هذه الإهانة، وما كان يصحُّ اتّخاذهم كذلك، لأنهم عند ربهم مُكْرَمُونَ بإيمانهم.

الاحتمال الثاني: أنهم موجودون معهم في دار العذاب، إلا أن الأبصار زاغت عن رؤيتهم، لما في دار العذاب من سُمُومٍ وَلَهَبٍ يَجْعَلُ الأبصارَ تزيغَ فلا تَرَى بعضَ من هم في دار العذاب.

ويقف النَّصُّ هنا، ويطوي تخصصاً يجري بين أهل النار، فلا تعرض السورة من مضمونه شيئاً، لكن يدلُّ على حَدَثِ التَّخَاصُمِ قول الله عزَّ وجلَّ عقب البيان السابق:

﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ (١٤)

وللذهن أن ينطلق في تصوير ما يجري حوله التخاصم، وأول ما يُذِرُّكَ ما يكون بين الأتباع وقادتهم من تراشقِ المسؤولية وتدافعِها.

* * *

المثال الرابع:

وجاء في سورة (ص/ ٣٨ / مصحف/ ٣٨ نزول) أيضاً بيان عن هزيمة جندي من أحزاب المشركين، في المعارك التي ستحدث مستقبلاً بينهم وبين المسلمين بقيادة الرسول ﷺ، على طريقة الإنبياء بالغيب المستقبلي، فقال الله عز وجل فيها:

﴿جُنُودًا مَّا هَآئِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ﴾ (١١)

وصف الله عزَّ وجلَّ جُنُودَ المشركين بأنهم مهزومون، مع أنهم لم يهزموا بعد، بل كانوا كما جاء وصفهم في صدر السورة: ﴿فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾، أي: في قُدْرَةٍ على التَّغَلُّبِ عَلَى المسلمين، ووقوفٍ في شِقِّ المعادي المحارب.

وجاء هذا الإنباء عن حَدِّثٍ سيكونُ مستقبلاً على طريقة تصوير حالهم المستقطع من المستقبل، والمحكي عند التنزيل، باعتبار زمان ذلك الحال ومكانه، لا باعتبار أنه خبرٌ يُذكرُ فيه ما سيحدثُ مُستقبلاً.

ومن المعلوم أن تصوير الحال المستقطع من المستقبل يتضمن الخبر بما سيحدثُ لزوماً عقلياً، مع تأكيد تحقق الوقوع بجعله كأنه أمرٌ حاصلٌ وحدثٌ قائمٌ. كذلك شأن كلِّ الصُّور التمثيلية المُستقطعة من الماضي أو من المستقبل، إذ يُؤتى بها مُحاطةً بظروفها الزمانية والمكانية، فتقدّم كأنها أحداثٌ قائمةٌ فعلاً.

وهذا العرضُ الفنيُّ يُشعرُ بأنَّ ما جاء في العرض هو من الحقائق التي حدثتُ فعلاً في الماضي، أو هو من الحقائق التي ستحدثُ فعلاً في المستقبل، لأنَّ القرآنَ حقٌّ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، بخلاف قصص الناس وحكاياتهم وتمثيلاتهم، فمُعظّمُها من صنْع خيال كاتبها.

وقد تحقّق فيما بعد انهزامُ جُنْدِ كُفَّارِ قريشٍ في غزوة بدرِ الكُبرى، ثمَّ في غزوة الأحزاب، إلى غير ذلك من غزوات، وكان هذا من معجزات القرآن الخبرية التي أخبر عنها وتحقّقت كما جاء في خبره.

* * *

المثال الخامس:

وجاء في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) حكاية تكذيب ثمود بالثدر، وحكاية بعض أقوالهم، فقال الله عز وجل فيها:

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالثَّدْرِ ﴿٧٣﴾ فَقَالُوا أَأِشْرَكُ مِمَّا وَجَدْنَا نَبَعُهُمْ إِنْنَا إِذْ لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعْرٍ ﴿٧٤﴾ أَلْفَلْجَ الذِّكْرِ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ ﴿٧٥﴾ ﴾.

وسُعر: أي: وجنون.

بل هُوَ كَذَابٌ أُشْرٌ: أي: بل هو كَذَابٌ في ادعاء الرسالة، مُسْتَكْبِرٌ طَالِبٌ
للسُلْطَانِ وَالْمَجْدِ بِهذه الدعوى. أُشْرٌ: أي بَطْرٌ مُسْتَكْبِرٌ.

بَعْدَ هذا العرض الذي جاء بأسلوب حكاية خَبْرٍ، يُفَاجِئُ النَّصَّ بِعرض صُورَةٍ
مقتطعةٍ من الحدث الماضي، دون أن تُقَدِّمَ بأسلوب حكاية خَبْرٍ، فقال الله عزَّ
وجلَّ:

﴿ سَيَعْمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَابِ الْأَشْرِ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مَرْسَلُوا النَّاقَةَ فَنِنَّ لَهُمْ فَأَرْزَقْنَاهُمْ وَأَصْطَرِبْنَا ﴿٢٧﴾
وَنَبَيْتَهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ ﴾.

فِتْنَةٌ لَهُمْ: أي: اِمْتِحَانًا لَهُمْ.

كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ: الشُّرْبُ: النِّصِيبُ من الماء الذي يُشْرَبُ، ووقتُ
الشُّرْبِ.

والمعنى: كلُّ ذي نصيب من الماء يحضُرُ في الوقتِ المحدد لأخذ نصيبه
منه.

هذا ما قاله الله عزَّ وجلَّ لصالح عليه السلام إِبَانَةَ الحَدِثِ، جاءَ مَقْتَطِعًا
وَمُقَدِّمًا ضمن عرض حكاية ما جرى من ثمود، وقد جاء في موقعه من القصة.

ويستأنفُ النَّصَّ بعد هذا العرض المقتطع بصيغته من الحدث الماضي، دون
أن يُورَدَ بأسلوب حكاية خَبْرٍ، فَيَرْجِعُ إلى أسلوب حكاية ما جَرَى حكايةً خبريةً،
فقال الله عزَّ وجلَّ:

﴿ فَادْوَا صَاحِبَهُمْ فَطَاطَى فَعَقَرْنَا ﴿٢٩﴾ ﴾.

أي: فتطاول فعقر ناقة الله.

وبعدَه يَطْرَحُ تساؤلًا على متلقي القرآن ومتدبري ما جرى لثمود، فيقول
تعالى:

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴾؟؟

وهذا التساؤل لا بُدَّ أن يردَّ في أذهان متلقِّي أحداث قصَّة ثمود، ويأتي

الجواب عليه بقوله تعالى:

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيرِ الْحُمْطِرِ ﴾.

أي: كأكوام حطبٍ وشوكٍ أعدها صانعُ حظيرة لدوابه.

* * *

المثال السادس:

وجاء في سورة (يونس/ ١٠ / مصحف/ ٥١ / نزول) قولُ الله عزَّ وجلَّ:

﴿ هُوَ الَّذِي يُسَوِّرُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَبَئٍ وَقَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عاصِفٌ وجاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِن أُنجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ فلَمَّا أُنجِيَهُمْ إِذَا هُمْ يَبْتَغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ بِأَيْهَا النَّاسُ إِنَّمَا بِغَيْبِكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

الْفُلُكُ: يطلق على الواحد فما فوق، والمراد هنا الجمع بدليل: ﴿ وَجَرَيْنَ ﴾.

قال البلاغيون: في هذا النصّ التفاتٌ من الخطاب إلى الغيبة، فبينما كان النصّ يخاطب المشركين بعبارة: ﴿ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ ﴾ يتحوّل إلى الغيبة بعبارة: ﴿ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَبَئٍ... ﴾.

أقول: إنّ الخطاب كان موجّهاً للذين يمكُرُونَ في آيات الله، لتحويلها عن دلالاتها الإيمانية، والمخاطبون عند نزول النصّ قد لا يكونون من الذين ركبوا البَحْرَ وتعرّضوا لمثل ما وصّفَ النصّ بعد ذلك، لكنَّهُمْ لو تعرّضوا لمثله لكان حالُهُمْ مثل حال من وصفهم الله، نظراً إلى أن أهل الكُفْرِ أشباهُ في تصرّفاتِهِمْ، إذِ الفطرة تُلجِبُهُمْ إلى الله عند الاضطرار وشدة الخوف، ثمَّ إنّ كبرهم ورجبتهم في

الفجور لتلبية مطالب شهواتهم وأهوائهم، مع تعلُّقهم بالعاجلة وتشبُّههم بزيتتها،
أُمُورٌ تَرُدُّهُمْ بَعْدَ الأَمْنِ والأطمئنانِ والنَّعْمَةِ والرَّخَاءِ، إلى ما كانوا فيه من بغي قبل
ذلك.

فاقتضى تشبيه حالهم بحال أمثالهم السابقين لهم حكايةً قِصَّةً مِنْ قِصَصِ
الكافرين السابقين.

ولهذا توقَّفَ النصُّ عند الفِقرَةِ الأولى المتعلقة بشأن المخاطبين إِبَّانَ التَّنزِيلِ
وبَعْدَهُ، وانتَقَلَ مُباشرةً إلى تصوير مَشْهَدِ قومِ كافرينَ جَرَتْ بِهِمُ الفُلُكُ بِريحِ طَيِّبَةٍ،
فقال الله عزَّ وجلَّ بأسلوب حكاية خَبِرَ عن حَدَثٍ مَضَى: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِمُ﴾.

واكتَفَى النَّصُّ بالمقدمة التي وُجِّهَتْ للمخاطبين، عن ذكر نظيرها مما يخصُّ
المتحدِّث عنهم بالغيبة، فكأنه قال لهم: فسيكون حالكم كحال كافرين قبلكم ركبوا
في الفُلِكِ.

وحصل الاكتفاء بإشارة قول الله عزَّ وجلَّ للمخاطبين: ﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي
الْفُلِكِ﴾ عن أن يقول لهم: إنكم لو تعرَّضْتُمْ لمثل ما تعرَّض له أصحاب هذه القِصَّةِ
لكنْتُمْ مثلهم، للتشابه بينكم وبينهم في أصلِ الفِطْرَةِ، وفي الدوافع إلى الكفر
والبغي.

هذا فنٌّ من الإبداع في الإيجاز بعرض المشاهد الماضية مع الإشارة
التعريضية الضمنية إلى أن المخاطبين مثل أصحاب هذه المشاهد، غير فنِّ الالتفاتِ
من الخطاب إلى الغيبة، إنَّه من الصُّور الأدبية العجيبة في البيان.

وإذ تقرر في هذا النصِّ من سورة (يونس) هذا الوصف للمخاطبين،
باعتبارهم نظراء أشباههم، أنزل الله بعده في سورة (العنكبوت) / ٢٩ مصحف/
٨٥ نزول) قوله بشأن عموم الكافرين الذين يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة، وقد
جاء في معرض الحديث عن مشركي مكة:

﴿ فَإِذَا رَكَبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿١٦﴾
لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَنَّوْا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾ ۞

أي: فإذا ركبوا في الفلكِ مُستقبلاً، وتعرضوا لمثل ما سبق ذكره في سورة (يونس): ﴿ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ كما دعا الذين ذكرنا قصتهم سابقاً.

﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿١٧﴾ ۞ فَأَصَابَ النَّصُّ بَيَانَ كُفْرِ الشَّرْكِ بِاللَّهِ،
الذي يناسبُ حال المخاطبين. ومن لوازم كُفْرِ الشَّرْكِ هذا أن يُفْضِيَ بِهِمْ إِلَى البغي
في الأرض بغير الحق.

ودوافع الشرك الذي يختارونه، بعد إخلاص الدين عند الشدة ترجع إلى
أمرين:

الأمر الأول: الكفر بما أنعم الله به عليهم، حتى لا يؤدوا واجب الشكر لله
عليها بالطاعات والقربات.

الأمر الثاني: الرغبة في أن يتمتعوا بلذات الحياة الدنيا، دون أية ضوابط
أو قيود، ومن كان كذلك فلا بد أن يكون فاجراً، منطلقاً انطلاقاً كلياً وبوقاحة
تامة، لارتكاب كل المنكرات من الأخلاق والأفعال.

* * *

المثال السابع:

وجاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) وَصَفَ أَحْدَاثٍ مِنْ
أَحْدَاثِ يَوْمِ الدِّينِ، وتقديم صُورٍ مِنْ صُورٍ مَا يَجْرِي فِيهِ، وعلى اللوحة البيانية
التنقلُ والتراوُحُ العجيبُ بين عالم الابتلاء وعالم الجزاء، ومن موقف الحساب إلى
مستقر الجزاء، مع التعاقب واستخدام أسلوب المفاجأة، في حركات بيانية بالغة
الإثارة، جاذبة للانتباه، مُعْجِبَةٌ لِأذْوَاقِ أَذْكَيَاءِ الْبُلْغَاءِ.

فبينما يقدم النص لقطات من واقع حال الذين كانوا في الدنيا قد آمنوا وعملوا
الصالحات، وهم سُعداءُ بالنعيم المقيم في الجنة، بقول الله عز وجل:

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولَنَا بِالْحَقِّ... ﴾ [الآية ٤٣].

إذا بالنصّ انتقلَ إلى عَرْضِ مَشْهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِ مَوْقِفِ الْحَشْرِ بَعْدَ الْحِسَابِ وَفَصْلِ الْقَضَاءِ، وَهُوَ يَتَعَلَّقُ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ أَنْفُسِهِمْ، دُونَ أَنْ تَسْتَكْمَلَ الْآيَةُ فَاصْلَتَهَا، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿... وَوَدَّوْا أَنْ تِلْكَمُ الْجَنَّةُ أَوْرَثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾

دَلَّنَا عَلَى هَذَا الْإِشَارَةِ الْخَاصَّةِ بِالْمِشَارِ إِلَيْهِ الْبَعِيدِ، وَلَوْ كَانُوا فِيهَا لَكَانَ الظَّاهِرُ أَنْ يُقَالَ لَهُمْ: ﴿ هَذِهِ الْجَنَّةُ ﴾. وَدَلَّنَا عَلَيْهِ أَيْضًا، مَا جَاءَ بَعْدَ هَذِهِ الْعِبَارَةِ مِنْ عَرْضِ لِقَطَاتٍ مُوصُولَاتٍ بِهَذَا النِّدَاءِ، وَهِيَ مُقْتَطَعَاتٌ مِنْ عُمُومِ الْمَشْهَدِ نَفْسِهِ فِي مَوْقِفِ الْحَشْرِ بَعْدَ الْحِسَابِ وَفَصْلِ الْقَضَاءِ، وَتَشْتَمِلُ هَذِهِ اللَّقَطَاتُ عَلَى تَخَاطُبِ بِصَوْتِ عَالٍ بَيْنَ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ الْمُطْمَئِنِّينَ بِأَنَّهُمْ سَيَدْخُلُونَهَا، وَأَصْحَابِ النَّارِ الَّذِينَ قَضَى اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُمْ دَاخِلُوهَا خَالِدِينَ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿ وَوَادَّيْ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ أَصْحَابِ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدْنَاهُمْ حَقًّا فَهُمْ وَوَادَّيْكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَنَ مَوْذَنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾

وَبَعْدَ هَذِهِ اللَّقَطَةِ مِنْ مَشَاهِدِ هَذَا الْمَوْقِفِ، إِذَا بِالنَّصِّ يَتَحَدَّثُ عَنْ هَؤُلَاءِ الظَّالِمِينَ حَدِيثٌ مُبَيَّنٌ لِبَعْضِ صِفَاتِهِمْ وَهُمْ الْآنَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾

وَقَدْ دَلَّ عَلَى أَنَّ هَذَا الْحَدِيثَ هُوَ حَدِيثٌ عَنْهُمْ وَهُمْ مَا زَالُوا فِي عَالَمِ الْإِبْتِلَاءِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، اسْتِعْمَالُ الْفِعْلِ الْمِضَارِعِ فِي عِبَارَةِ: ﴿ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ وَفِي عِبَارَةِ: ﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ الْفِعْلَ الْمِضَارِعَ يَدُلُّ عَلَى الْحَرَكَةِ الْمُتَكَرِّرَةِ الْمُتَجَدِّدَةِ، بَدَأَ مِنَ الْحَاضِرِ، فَتَكَرَّرَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، وَمِمَّا يُضْعَفُ إِبْدَاعُ

النصّ أن نُقدَّرَ: الَّذِينَ كَانُوا يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ، وَكَانُوا يُبْغُونَهَا عِوَجًا.

ويُضَافُ إِلَى هَاتَيْنِ الدَّلَالَتَيْنِ دَلَالَةٌ عِبَارَةٌ: ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ فَهِيَ وَاضِحَةٌ فِي أَنَّهَا تُعَبِّرُ عَنْ حَالِهِمْ فِي الدُّنْيَا، نَظْرًا إِلَى أَنَّهُمْ يَوْمَ الدِّينِ صَارُوا مُؤْمِنِينَ بِهِ إِيمَانٌ شُهُودٍ حَسِّيٍّ.

وبعد هذه النقلة إلى الحياة الدنيا، إذا بالنصّ رجَعَ إلى عَرَضِ بَقِيَّةِ اللَّقَطَاتِ الْمُنْتَقِيَاتِ، الَّتِي تَحْدُثُ بَعْدَ أَذَانِ الْمُؤَدَّنِ بَيْنَ أَهْلِ الْمَوْقِفِ فِي الْمَحْشَرِ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ...﴾ [الآية ٤٦]

أَي: وَيُوجَدُ فِي هَذَا الْمَوْقِفِ فِي الْمَحْشَرِ بَعْدَ فَضْلِ الْقَضَاءِ الْعَدْلِيِّ حِجَابٌ، وَهُوَ نَحْوُ سُورٍ أَوْ جَبَلٍ مُتَمَدِّدٍ مِنْ أَقْصَى الْمَوْقِفِ إِلَى أَقْصَاهُ الْمَقَابِلِ لَهُ. وَهُوَ يُفْصَلُ بَيْنَ زُمَرِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، الَّذِينَ قَضَى اللَّهُ لَهُمْ بِأَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِهَا ابْتِدَاءً، وَبَيْنَ زُمَرِ أَصْحَابِ النَّارِ الَّذِينَ قَضَى اللَّهُ بِأَن يَكُونُوا خَالِدِينَ فِيهَا.

وَيَفِئُ عَلَى الْأَعْرَافِ مِنْ هَذَا الْحِجَابِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا مِنْ أَهْلِ هَذَا الْجَانِبِ مِنْهُ، وَأَهْلِ هَذَا الْجَانِبِ مِنْهُ، بِعَلَامَاتِهِمْ، فَأَهْلُ الْجَنَّةِ بِيضُ الْوُجُوهِ، وَلَوْ كَانُوا فِي الدُّنْيَا سُودًا أَوْ شَيْئًا آخَرَ مِنْ سَائِرِ الْمَلُوكِيِّينَ، وَأَهْلُ النَّارِ سُودُ الْوُجُوهِ، وَلَوْ كَانُوا فِي الدُّنْيَا بِيضًا شُقْرًا.

وَالْأَعْرَافُ هِيَ مَرْتَفَعَاتٌ مُشْرِفَاتٌ عَلَى الْحِجَابِ، يُشَاهِدُ الْوَاقِفُ عَلَيْهَا أَصْحَابَ الْيَمِينِ، وَأَصْحَابَ الشِّمَالِ.

وَأَصْحَابُ الْأَعْرَافِ هُمُ الَّذِينَ لَمْ تَكُنْ حَسَنَاتُهُمْ كَافِيَاتٍ لِأَن يُقْضَى لَهُمْ بِسَبَبِهَا ابْتِدَاءً أَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَلَمْ تَكُنْ سَيِّئَاتُهُمْ بِالْمَقْدَارِ الَّذِي يَسْتَحِقُّونَ بِسَبَبِهِ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْخَالِدِينَ فِي النَّارِ، أَوْ مِنَ الَّذِينَ قَضَى اللَّهُ بِتَعْدِيهِمْ فِيهَا تَعْدِيًّا مُؤَقَّتًا، فَأَمْرُهُمْ مَوْقُوفٌ مُؤَقَّتًا حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ بِشَأْنِهِمْ، إِمَّا بِالتَّعْذِيبِ الْمَوْقُوتِ فِي دَارِ

العذاب، أو بالتأخير والانتظار، أو بالغفران، وهؤلاء فيما ظهر لي هم من عَصَاة المؤمنين، الذين لم يتجاوز الله في محكمة العدل العامة عن معاصيهم.

هؤلاء أصحاب الأعراف يَدْعُو لَهُمْ أَنْ يَتَقَرَّبُوا إِلَى أَصْحَابِ الْجَنَّةِ، الَّذِينَ هُمْ عَلَى الْجَانِبِ الْأَيْمَنِ مِنَ الْحِجَابِ، بِالسَّلَامِ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِهِمْ:

﴿... وَنَادَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْنَا...﴾ [الآية ٤٦].

ولم يذكر القرآن رَدَّ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ، وَلَعَلَّهُمْ لَا يَرُدُّونَ تَحْفُظًا، وَمَخَافَةَ أَنْ يَكُونَ هَؤُلَاءِ الْمُسَلِّمُونَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ الَّذِينَ لَا يَجُوزُ الرَّدُّ عَلَيْهِمْ بِالسَّلَامِ، إِذِ الرَّدُّ عَلَيْهِمْ بِالسَّلَامِ دَعَاءٌ لَهُمْ.

بَعْدَ هَذَا أَذْخَلَ النَّبِيَّانَ جُمْلَةً مُعْتَرِضَةً تَتَعَلَّقُ بِأَصْحَابِ الْجَنَّةِ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿... لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ (٤٧).

أَي: لَمْ يَدْخُلْ بَعْدُ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، لَكِنَّهُمْ فِي حَالَةٍ طَمَعٍ مُتَّجِدٍ بِأَنْ يَضُدَّ أَمْرَ تَكْرِيمِهِمْ بِأَنْ يَدْخُلُوا الْجَنَّةَ، لِأَنَّهُمْ يَطْمَعُونَ بِأَنْ يُقْضَى لَهُمْ بِدُخُولِ الْجَنَّةِ، فَهَذَا الْأَمْرُ قَدْ قُضِيَ الْحُكْمُ بِهِ سَابِقًا فِي مُحْكَمَةِ الْعَدْلِ الرَّبَّانِيَّةِ، فَهَمِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ، وَتَذَاكَرُ الدُّخُولِ فِي أَيْدِيهِمْ، إِنَّمَا طَمَعُهُمْ هُوَ طَمَعٌ مُتْرَقِّبٍ إِعْلَانِ مُبَاشَرَةِ الدُّخُولِ، كَمَا تَنْتَظِرِي النِّدَاءَ بِدُخُولِ بَوَابِ الْعُبُورِ إِلَى الطَّائِرَةِ، فِي الصَّلَاةِ الدَّاخِلِيَّةِ، بَعْدَ اسْتِكْمَالِ كُلِّ شَرْطِ الدُّخُولِ وَلِوَازِمِهِ.

بَعْدَ هَذِهِ الْمُعْتَرِضَةِ تَابَعَ النَّصُّ عَرْضَ لِقَطَاتٍ مِنَ الْمَشْهَدِ تَتَعَلَّقُ بِأَصْحَابِ الْأَعْرَافِ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٤٧).

هَذَا الدَّعَاءُ يُنَاسِبُ أَنْ يَدْعُوَ بِهِ مُشْفِقٌ خَائِفٌ مِنَ الْعَذَابِ، يَنْظُرُ إِلَى سَوَابِقِ

معاصيه، فيخاف أن يُقضى عليه بأن يكون مع القوم الظالمين المخلدين في النار، أو من المعذبين فيها ولو تعذيباً مؤقتاً.

وتابع النص الحديث عنهم فقال الله عز وجل:

﴿وَأَدْنَىٰ أَصْحَابِ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ أَهْلَؤَلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ... ﴿[الآية ٤٩]﴾

هذا البيان يحكي حدثاً بصيغة الفعل الماضي، وهو مُقتطع من المُستقبل، ومقدّم في المشهد البياني.

أصحاب الأعراف نادوا رجالاً من أصحاب النار الذين هم على شمال الحجاب، وهؤلاء الرجال هم من أئمة الكفر، ويعرفونهم بعلاماتهم المميزة لهم، فيقولون لهم مشيرين فيهم التدم والتحسر: ما أغنى عنكم جمعكم الأموال والأنصار؟؟ وما أغنى عنكم استكباركم الذي كنتم تستكبرونه، وما كنتم تستكبرون به على عباد الله، وعن طاعة الله؟؟.

ويقولون لهم أيضاً مشيرين إلى بعض الضعفاء من أصحاب الجنة: أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة، وهم الآن ينتظرون الإذن لهم بأن يدخلوا الجنة خالدين فيها.

عند هذا المفصل قطع البيان القرآني اللقطات المتعلقة بأصحاب الأعراف، وقدم عبارة النداء لأصحاب الجنة، بأن يدخلوا الجنة، فقال الله عز وجل:

﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٥١﴾﴾

لقد صدر الأمر التكريمي بالإذن لهم بدخول الجنة.

وطوى النص ما يتعلق بالأمر بإدخال أهل النار النار، وجمعهم ركاماً، وكتببتهم فيها، اعتماداً على أنه يُعلم ذهنًا، ولو لم يُذكر في النص، وجاء البناء على الأمرين المذكور والمطوي، فقال الله عز وجل:

﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابَ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ مَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾

هنا يتحدث الله عن سبب كفرهم وتعرضهم أنفسهم للعذاب في النار، فقال الله عز وجل:

﴿ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ كَمَا نَسَوُا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾

أليس هذا التَّنْفُلُ العجيب في الأزمنة والأمكنة والأحداث مع استخدام مُخْتَلَفِ الأساليب من الإعجاز البياني في القرآن، ومن قِمةِ الأدب التي لا يرتقيها بشر؟! .



علمُ البَدِيعِ

وفيه مقدمة وثلاثة فصول:

الفصل الأوّل : البدائع المشتملة على محسنات جمالية
معنوية.

الفصل الثاني : البدائع المشتملة على محسنات جمالية
لفظية.

الفصل الثالث : ملاحق.

المقدّمة

(١)

البواعث

اكتشف البلاغيون في النصوص البليغة ذات البيان الرفيع منشورات جمالية متفرقة، لفظية ومعنوية، وهذه المتفرقات المتناثرات يعسر تأليفها في أبواب وفصول، ولا يتضح في معظمها إلحاقها بعلمي المعاني والبيان، وسمّوا كلّ واحدٍ ممّا اكتشفوه منها باسم خاصّ به، وجمعوها في مُسمّى علم واحد، أطلقوا عليه اسم «علم البديع».

وهذه الجماليات البديعة التي يوجد فيها جماليات معنوية عبّروا عنها بعبارة «محسّنات معنوية» ويوجد فيها جماليات لفظية عبّروا عنها بعبارة «محسّنات لفظية» لها طبيعة مشابهة لأنواع الزينة التي تتزيّن بها النساء، كقُرْطٍ، وسوارٍ، وخلخالٍ، وباقية وَرْدٍ، ونبات أخضر مزهر، وتلوين بصبغٍ أبيض أو أحمر أو أخضر أو أصفر أو غير ذلك، وتصنيف شعر وتثنيته أو إرساله أو رفعه أو خفضه، وتقصير ثوب أو إطالته، أو شقّ جانب منه، أو تثقيبته أو توشيته وتطريزه وزخرفته، أو حركات خفة في الجسم، وتثنّ وتكسّر في القامة وتضمير للخصر وإبرازٍ وتعظيم لمواضع جمالية، إلى غير ذلك مما يدركه ذواقو الجمال، ويصعبُ إحصاؤه، وقد أحسن البلاغيون أنّ الجماليات التي اشتمل عليها علما المعاني والبيان جماليات ذاتية، أمّا جماليات علم البديع فهي جماليات عَرَضِيَّة.

فإذا كانت هذه الجماليات البديعة على اختلافها في الكلام أو في الأجسام، أو في غير ذلك من كل ما يُرى أو يُسمع أو يُدركُ بالفكر مصطنعةً متكلفةً، مُكرهةً إكراهاً على الدخول في مواضع غير ملائمة لها، أو مكدوسة كدساً دون حسّ جماليّ رفيع، أعطت تأثيرات عكسيّة، وربما أفسدت الجوانب الجميلة التي كانت تُلحظُ في المزيّن بها قبل إضافتها للتزيّن بها.

فالبدائع الجمالية لا تُضافُ اعتباراً دون حسّ رفيع بالجمال، وإضافتها شروطٌ بالغة الأهميّة، ومن أوائل شروطها وأهمها ما يلي:

الإتقان البالغ، والطبيعيّة، والتلقائيّة، وإخفاء قصد التجميل والتزيّن بها، حتّى لا يشعر ذواقو الجمال الملاحظون لها في نظراتهم الأولى أنّها مصنوعة بتكلف، بل يشعرون أنّها واردة بتلقائيّة السلوك المعتاد.

وما اكتشفه البلاغيون من هذه البدائع لا نعتبره اكتشافاً جامعاً جمعاً كلياً وحاصراً، فالبدائع الجماليّة يصعبُ إحصاؤها كلّها، وهي قابلة للإضافات الابتكاريّة التي تتفتّق عنها مواهب المبدعين.

* * *

(٢)

تعريفات

تعريف البديع لغةً واصطلاحاً:

البديع في اللّغة: كلمة «بديع» على وزن «فعليل» تأتي لغة بمعنى اسم الفاعل، وبمعنى اسم المفعول.

يقال لغةً: بدّع فلانُ الشيءَ يبدّعهُ بدّعاً إذا أنشأه على غير مثال سبق، فالفاعل للشيء بديع، والشيء المفعول بديع أيضاً.

ويقال أيضاً: أُبدِعَ، أي: أتى بما هو مُبتكر جديد بديع على غير مثال سبق، فهو مُبدِع والشئ مُبدَعٌ.

وقد أطلقت كلمة «البديع» على العلم أو الفنّ الجامع والشارح للبدائع البلاغية المشتملة على المحسنات المعنوية، والمحسنات اللفظية، من مثورات جمالية في الكلام، ممّا لم يلحق بعلم المعاني، ولا بعلم البيان.

فعلم البديع اصطلاحاً: هو العلم الذي تُعرَف به المحسنات الجمالية المعنوية واللفظية المنشورة، التي لم تُلحَق بعلم المعاني، ولا بعلم البيان.

المحسنات الجمالية المعنوية: هي ما يشتمل عليه الكلام من زينات جمالية معنوية قد يكون بها أحياناً تحسينٌ وتزيينٌ في اللفظ أيضاً ولكن تبعاً لأصالة.

المحسنات الجمالية اللفظية: هي ما يشتمل عليه الكلام من زينات جمالية لفظية، قد يكون بها تحسينٌ وتزيينٌ في المعنى أيضاً، ولكن تبعاً لأصالة.

* * *

(٣)

واضع علم البديع

(١) قالوا: إنّ أوّل من دوّن في هذا الفنّ «عبد الله بن المعتزّ العباسي» المتوفى سنة (٢٧٤ هجرية) إذ جمع ما اكتشفه في الشعر من المحسنات وكتب فيه كتاباً جعل عنوانه عبارة: «البديع».

ذكر في كتابه هذا سبعة عشر نوعاً، وقال: ما جمع قبلي فنون البديع أحد، ولا سبقني إلى تأليفه مؤلف، ومن رأى إضافة شيء من المحاسن إليه فله اختياره.

وجاء من بعده من أضاف أنواعاً أُخر، منهم على ما ذكر البلاغيون:

(٢) «جعفر بن قدامة» أديب بغدادي من كبار الكتاب متوفى سنة (٣١٩ هـ)

ألف كتاباً سمّاه «نقد قُدّامة» ذكر فيه ثلاثة عشر نوعاً من أنواع البديع، إضافة إلى ما سبق أن اكتشفه من قبل «عبد الله بن المعتزّ العبّاسيّ».

(٣) ثم «أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري» المتوفى سنة (٣٩٥هـ)، فقد جمع سبعة وثلاثين نوعاً من أنواع البديع.

(٤) ثم «ابن رشيق الحسن بن رشيق القيرواني» فجمع في كتابه «العمدة» قرابة سبعة وثلاثين نوعاً من أنواع البديع.

(٥) ثم «شرف الدّين أحمد بن يوسف القيسيّ التيفاشيّ» من أهل «تيفاش» وهي إحدى قرى «قفصة» بإفريقية، ولد فيها، وتعلّم بمصر، وولي القضاء في بلده، له عدّة مؤلفات، ولادته ووفاته في (٥٨٠ - ٦٥١هـ).

(٦) ثم «عبد العظيم المشهور بابن أبي الإصْبَع العدواني» البغدادي ثم المصري، شاعر من العلماء بالأدب، له تصانيف حسنة، منها كتابه «بديع القرآن ط» في أنواع البديع الواردة في القرآن، ولادته ووفاته (٥٩٥ - ٦٥٤هـ) وقد أوصل الأنواع إلى تسعين نوعاً.

(٧) ثم «صَفِيّ الدين عبد العزيز بن سرايا السَّنْبسي الطائي الحلّي» وهو معروف باسم «صفيّ الدين الحلّي» وُلد في الحِلّة «بين الكوفة وبغداد»، ولادته ووفاته: (٦٧٧ - ٧٥٠هـ) فأوصل الأنواع إلى مئة وأربعين نوعاً، يمكن جمع بعضها في بعض.

(٨) ثم «عزّ الدين علي بن الحسين الموصلي» شاعر، أديب، من أهل الموصل، سكن دمشق وتوفي فيها في (٧٨٩هـ) له مؤلف سمّاه «بديعيّة» وشرحه، فذكر في كتابه ما ذكر صفيّ الدين الحلّي، وزاد زيادة يسيرة من ابتكاره.

وإني أذكر وأشرح من هذه البدائع ما هو مشهور ومتداول عند البلاغيين مع جمع بعضها ما أمكن ذلك، للتقليل من التفرد في الأنواع.

الفصل الأول

البدائع المشتملة على
محسنات جمالية معنوية

التورية

وتُسمّى «الإيهام»

التورية: أن يذكُر المتكلم لفظاً مفرداً له معنيان، على سبيل الحقيقة، أو على سبيل الحقيقة والمجاز، أحدهما ظاهر قريبٌ يتبادرُ إلى الذهن وهو غير مراد، والآخرُ بعيد فيه نوع خفاءٍ وهو المعنى المراد، لكن يُورَى عنه بالمعنى القريب، لِيَسْبِقَ الذهن إليه وَيَتَوَهَّمَهُ قبل التأمل، وبعْدَ التأمل يَتَنَبَّهُ المتلقّي فيُدْرِكُ المعنى الآخر المراد.

وأصل التورية في اللغة: إرادة الشيء وإظهار غيره إيهاماً، وقد جاء في كتب السيرة النبوية أن الرسول ﷺ كان إذا أراد غزاة أوسفراً إلى جهة ورَى غيرها، ليعمّي الأخبار، حتّى لا يترصد له الأعداء.

قال الزمخشري: لا ترى باباً في البيان أدقّ ولا أطف من التورية، ولا أنفع ولا أغون على تعاطي تأويل المتشابهات في كلام الله ورسوله منها.

أقسام التورية:

تنقسم التورية إلى ثلاثة أقسام: مجردة، ومرشحة، ومبيّنة.

● فالتورية المجردة: هي التي لم تقترن بما يلائم المعنى القريب، ولا بما يلائم المعنى البعيد.

● والتورية المرشحة: هي التي اقترنت بما يلائم المعنى القريب، سواء أكان هذا المقارن قبل اللفظ المستعمل في التورية أو بعده.

● والتورية المبيّنة: هي التي اقترنت بما يلائم المعنى البعيد المقصود باللفظ.

أقول: ولا يحسُنُ بلاغيّاً استخدام التورية إلا إذا دعا داعٍ بلاغي يقتضيه حال المتلقّي، وهذا الداعي ممّا يُقصدُ لدى أذكاء البلغاء، كإخفاء المراد عن العامة وإشعار الخاصة من طرفٍ خفي، وكالتعبير عن المقصود بكلام يتأتّى معه الإنكار عند الحاجة إليه، وكاختبار ذكاء المتلقّي والتأثير في نفسه بما يُعجبه من أداءٍ فنّي يستخدم فيه الأسلوب غير المباشر حتى الإلغاز، إلى غير ذلك من دواعي.

فليس كلّ كلمة لها معنى قريب ولها معنى بعيد على وجه الحقيقة أو المجاز يحسُنُ استخدامها، وقصدُ المعنى البعيد بها، على سبيل التورية، دون مراعاة أو ملاحظة داعٍ بلاغي يُقصدُ لدى البلغاء الفطناء.

أمثلة:

المثال الأول: قول الله عزَّ وجلَّ في حكاية قول بعض أولاد يعقوب عليه السلام له، حين أخذ يُحسُّ بريح يوسف عليه السلام، ولم يكن قد وصل البشير إليه يحمل قميصه من مصر، ولم يكن قد علم بما حصل لباقي بنيه في مصر الذين ذهبوا ليطلبوا الإفراج عن بنيامين شقيق يوسف، فقال الله تعالى في سورة (يوسف/ ١٢ مصحف/ ٥٣ نزول):

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ ﴿٥١﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٥٢﴾﴾

تُفَنِّدُونِ: تُخَطِّئُونِي بِأَنِّي أَحْسُّ بِإِحْسَاسٍ مِنْ أَصَابَةِ الْخَرْفِ وَضَعْفَ رَأْيِهِ، فصار يتصوّر تصورات باطلات.

وتلاحظ التورية في عبارتهم: ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ فهذه العبارة لها

معنيان:

المعنى الأول القريب الذي أرادوا الإيهام به: هو أنه ما زال ضالاً مع أو هامه، طامعاً بعد نيف وثلاثين سنة من غياب يوسف في أن يعود إليه أو يلتقي به، وضالاً في شغل نفسه بالحزن عليه حتى يكون حرصاً (أي: شديد المرض) أو يكون من الهالكين.

المعنى الثاني البعيد الذي قصدوه: هو أنه ما زال ضالاً في إثارة يوسف وشقيقه بنيامين على سائر بنيه، وهذا المعنى هو المعنى الذي كانواذكروه قبل أن يُلْقُوا يوسُفَ في غِيَابَةِ الْجَبِّ، وَقَدْ أَبَانَهُ اللهُ بِقَوْلِهِ فِي أَوَائِلِ السُّورَةِ:

﴿ إِذْ قَالَ الْيُوسُفُ لِأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ آبَائِنَا إِنَّهُ عَصَبَةٌ إِنَّا أَبْنَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٠٦﴾ .

والتورية في هذا المثال مجردة.

المثال الثاني: قول الشاعر «صلاح الصفدي»:

وَصَاحِبٍ لَمَّا أَتَاهُ الْغِنَى تَاءَ وَنَفْسُ الْمَرْءِ طَمَّاحَةٌ
وَقِيلَ: هَلْ أَبْصَرْتَ مِنْهُ يَدًا تَشْكُرُهَا قُلْتُ وَلَا رَاحَةَ

كلمة: راحة لها معنيان: أحدهما المعنى القريب وهو راحة اليد، وهو المعنى الذي تستدعيه عبارة «يداً تشكرها» والآخر المعنى المقصود وهو راحة الجسم من التعب.

والتورية هنا مرشحة لاقترانها بما يلائم المعنى القريب.

المثال الثالث: قول الشاعر:

أَيُّهَا الْمُعْرِضُ عَنَّا حَسْبُكَ اللَّهُ تَعَالَى

كلمة «تَعَالَى» لها معنيان: المعنى القريب هو الثناء على الله بالعلو، وهو يلائم لفظ الجلالة «الله» والمعنى الآخر وهو الدعوة إلى الحضور، وهو يلائم عبارة: «أَيُّهَا الْمُعْرِضُ عَنَّا».

المثال الرابع: قول سراج الدين الوراق شاعر مصري (٦١٥ - ٦٩٥ هـ).

أَصُونُ أَدِيمَ وَجَهِي عَن أَنَاسٍ لِقَاءِ الْمَوْتِ عِنْدَهُمُ الْأَدِيمُ
وَرَبُّ الشُّعْرِ عِنْدَهُمُ بَغِيضٌ وَلَوْ وَأَفَى بِهِ لَهُمُ حَبِيبُ

كلمة «حبيب» لا يريد بها المعنى القريب وهو المحبوب، بل يريد بها المعنى البعيد، وهو اسم أبي تمام الشاعر: «حبيب بن أوس». وهذه من التورية المجردة.

المثال الخامس: قول الشاب الظريف «شمس الدين بن العفيف التلمساني»

(٦٦٢ - ٦٨٧ هـ):

تَسَمَّ نَغْرُ اللَّوْزِ عَن طِيبِ نَشْرِهِ وَأَقْبَلَ فِي حُسْنِ يَجِلُّ عَنِ الْوَصْفِ
هَلُمُّوا إِلَيْهِ بَيْنَ قَصْفٍ وَلَذَّةٍ فَإِنَّ غُصُونَ الزَّهْرِ تَصْلُحُ لِلْقَصْفِ

كلمة «القصف» في قافية البيت الثاني لها معنيان: المعنى الأول هو الكسر، فغصون الزهر تُكسر عن شجرتها، للاستمتاع بزيتها، وهذا المعنى غير مراد. والمعنى الآخر البعيد هو اللُّهُو واللَّعب والافتتان بالطعام والشراب، وهذا هو المعنى المراد.

وفي سوابق هذه التورية ما يلائم المعنيين، فهي بقوة المجردة.

المثال السادس: قول بدر الدين الذهبي:

رِفْقاً بِخَلِّ نَاصِحٍ أَبْلَيْتَهُ صَدّاً وَهَجْراً
وَأَفَاكَ سَائِلُ دَمْعِهِ فَرَدَّدْتَهُ فِي الْحَالِ نَهْراً

كلمة «نهراً» لها معنيان: الأول القريب هو النَّهْرُ واحد الأنهار. والمعنى الآخر البعيد وهو المراد: هو الرَّجْر، ويشير إلى قول الله تعالى: وأما السائل فلا تنهر. وفيه أيضاً تورية بكلمة «سائل» من سال يسيل، ومن سأل يسأل، إذ الدمع الذي يسيل يتضمَّن سؤال الوصال.

الطباق

وتسمی: المطابقة، والتكافؤ، والتضاد

الطَّبَاقُ فِي اللِّغَةِ: وَضِعُ طَبَقٍ عَلَى طَبَقٍ، كَوْضِعِ غِطَاءِ الْقِدْرِ مُنْكَفِنًا عَلَى فَمِ الْقِدْرِ حَتَّى يُغَطِّيَهُ بِإِحْكَامٍ، وَمِنْهُ إِطْبَاقُ بَطْنِ الْكَفِّ عَلَى بَطْنِ الْكَفِّ الْآخَرَ، تَقُولُ: طَابَقَ الشَّيْءُ عَلَى الشَّيْءِ مُطَابَقَةً وَطَبَاقًا، أَي: أَطْبَقَهُ عَلَيْهِ، وَهَذَا الْإِطْبَاقُ يَقْتَضِي فِي الْغَالِبِ التَّعَاكُسَ، فَبَطْنُ الْغِطَاءِ عَلَى بَطْنِ الْقِدْرِ يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ ظَهْرُ الْغِطَاءِ إِلَى الْأَعْلَى وَظَهْرُ الْقِدْرِ إِلَى الْأَسْفَلِ.

والطباق في الاصطلاح: هو الجَمْعُ في العبارة الواحدة بين معنيين متقابلين، على سبيل الحقيقة، أو على سبيل المجاز، ولو إيهاماً، ولا يشترط كون اللفظين الدالّين عليهما من نوع واحد كاسمين أو فعلين، فالشرط التقابل في المعنيين فقط. والتقابل بين المعاني له وجوه، منها ما يلي:

(١) تقابل التناقض: كالوجود والعدم، والإيجاب والسلب^(١).

(٢) تقابل التضاد: كالأسود والأبيض، والقيام والقعود^(٢).

(٣) تقابل التضايف: كالأب والابن، والأكبر والأصغر، والخالق

والمخلوق.

(١) النقيضان: هما اللذان لا يجتمعان ولا يرتفعان.

(٢) الضدان: هما اللذان لا يجتمعان ولكن يمكن أن يرتفعا، كالأبيض والأسود، وارتفاعهما

يكون بوجود لون آخر كالأحمر والأصفر.

أما المتخالفان فهما المعنيان المتغايران دون أن يكون بينهما تناقض أو تضاد أو تضايف.

ومن الطباق نوع يختصُّ باسم «المُقابِلة».

المقابِلة: هي طباقٌ مُتعدِّدُ عَنَاصِرِ الفريقيْنِ المتقابليْنِ، وفيها يُؤتى بمعنيْنِ فأكثر، ثُمَّ يُؤتى بما يُقابلُ ذلكَ على سبيلِ الترتيبِ.

والعنصرُ الجماليُّ في الطباق هو ما فيه من التلاؤمِ بينه وبين تداعي الأفكارِ في الأذهانِ، باعتبارِ أنَّ المتقابلاتِ أقربُ تخاطراً إلى الأذهانِ من المتشابهاتِ والمتخالفاتِ.

المثال الأول: قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/

٨٩ نزول):

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يَبِيدُكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَتُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِعَنَرِ حِسَابِ ﴿٢٧﴾ ﴾.

في هذا النَّصِّ أربعةُ أمثلةٍ من أمثلة الطباق:

الأول: الطباق بين: «تؤتي»، و «تنزع» فهذان متقابلان تقابل تضاد.

الثاني: الطباق بين: «تعزُّ» و «تذلُّ» وهو كالأول.

الثالث: الطباق بين: «تولجُ اللَّيْلَ في النهار» و «تولجُ النَّهَارَ في اللَّيْلِ».

الرابع: المقابِلة بين: «وتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ» و «تُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ»، ويلاحظ هنا أنَّ في كُلِّ من الجملتين طباقاً، وأن في الجملتين معاً مُقابِلةً، فالحيُّ في الأولى يضادُّ الميِّتَ في الثانية، والميِّتُ في الأولى يضادُّ الحيَّ في الثانية، وقد جاء هذا التقابل في الثانية على الترتيب الذي جاء في الأولى.

المثال الثاني: قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/

٦٩ نزول) في قصَّة أهل الكهف:

﴿ وَتَحْسَبُهُمْ آيَاتًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقِلَبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ . . . ﴾ [الآية

. [١٨

في هذا النصّ طباقان:

الأول: الطباق بين: «أَيْقَاطًا» و «رقود». .

الثاني: الطباق بين: «ذَاتَ الْيَمِينِ» و «ذَاتَ الشِّمَالِ».

المثال الثالث: قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ لَا يَكْفُرُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا أُوْسَعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ . . . ﴾ [الآية

. [٢٨٦

في هذا النصّ طباق بين المعنى الذي دلَّ عليه الحرف في [لَهَا] والمعنى الذي دلَّ عليه الحرف في [عَلَيْهَا] فَلَفْظُ «لَهَا» دلَّ على الثواب، ولفظ «عليها» دلَّ على المؤاخذة أو العقاب. وطباق بين المعنى الذي دلَّ عليه فعل «كَسَبَ» وهو الطاعة وفعل الخير، والمعنى الذي دلَّ عليه فعل «اِكْتَسَبَ» وهو المعصية والذنب.

المثال الرابع: أثنى الرسول ﷺ على الأنصار بقوله كما جاء في بعض كتب

السيرة والأخبار:

«إِنَّكُمْ لَتَكْثُرُونَ عِنْدَ الْفِرْعِ وَتَقْلُونَ عِنْدَ الطَّمَعِ».

في هذا القول مقابلةٌ بين الكثرة والفِرْعِ مِنْ جهة، والقلة والطَّمَعِ مِنْ جهة أخرى.

المثال الخامس: قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/

٨٤ نزول):

﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ

عَافِلُونَ ﴿٧﴾ .

في هذا النَّصِّ طباق بين النفي في: «لَا يَعْلَمُونَ» والإثبات في عبارة: «يَعْلَمُونَ» وهو طباق سلب وإيجاب.

ونظيره الطباق بين الأمر والنهي، والترغيب والترهيب، والإغراء والتحذير، ونحو ذلك.

المثال السادس: قول «دِعْبَلِ الخزاعي»:

لَا تَعْجَبِي يَا سَلْمُ مِنْ رَجُلٍ ضَحِكَ الْمَشِيبُ بِرَأْسِهِ فَبَكَى
في هذا البيت إيهاؤُ التَّضَادِّ بين بياض الشَّيبِ والبكاء، إذ استعار الشاعر لظهور بياض الشيب فعل «ضَحِكَ» فكان الضحك مقابلاً للبكاء مقابلة تضاداً.

المثال السابع: قول أبي الطَّيِّبِ المَتَنَبِيِّ:

فَلَا الْجُودُ يُفْنِي الْمَالَ وَالْجَدُّ مُقْبَلٌ وَلَا الْبُخْلُ يُبْقِي الْمَالَ وَالْجَدُّ مُذْبِرُ
الْجَدُّ: الْحِظُّ وَالنَّصِيبُ مِنَ الْخَيْرِ.

في هذا البيت مقابلة بين فريقين من المعاني يوجد بين عناصرهما طباق، وهي ثَلَاثٌ:

الفريق الأول: الجود - يُفْنِي - مُقْبَلٌ.

الفريق الثاني: البخل - يُبْقِي - مُذْبِرٌ.

المثال الثامن: قول النابغة الجعدي مادحاً:

فَتَى تَمَّ فِيهِ مَا يَسُرُّ صَدِيقَهُ عَلَى أَنْ فِيهِ مَا يَسُوءُ الْأَعَادِيَا
في هذا البيت مقابلة بين فريقين من المعاني يوجد بين عناصرهما طباق، وهي مثنى:

الفريق الأول: يَسُرُّ - صَدِيقَهُ.

الفريق الثاني: يَسُوءُ - الأعدايا.

المثال التاسع: قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الليل / ٩٢ مصحف / ٩ نزول):

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴿٩﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ﴿١٠﴾ ﴾ .

في هذا النصِّ مقابلة بين فريقين من المعاني يوجد بين عناصرهما طباق، وهي رُبَاعٌ:

الفريق الأول: أَعْطَى - اتَّقَى - صَدَّقَ - اليُسْرَى.

الفريق الثاني: بَخِلَ - اسْتَغْنَى، أي: طَغَى فلم يَتَّقِ - كَذَّبَ - العُسْرَى.

المثال العاشر: قول أبي الطيب المتنبي:

أزُرُّهُمْ وَسَوَادُ اللَّيْلِ يَشْفَعُ لِي وَأَنْثِي وَيَبَاضُ الصَّبْحُ يُغْرِي بِي

في هذا البيت مقابلة فريقين من المعاني يوجد بين عناصرهما طباق، وهي خُمَاسٌ:

الفريق الأول: أزورهم - سواد - الليل - يشفعُ - لي.

الفريق الثاني: أنثني، أي: أعود من الزيارة - يباض - الصبح - يُغري -

بي.



مراعاة النظير ومنها تشابه الأطراف وتُسَمَّى: التناسب، والتوفيق، والائتلاف

مراعاة النظير: الجمع في العبارة الواحدة بين المعاني التي بينها تناسبٌ وائتلاف ما، لا على سبيل تقابل التناقض أو التضاد أو التضايف، الذي سبق في الطباق، ويكون هذا التناسب بين معنيين فأكثر، فإذا كان هذا التناسب بين أول الكلام وآخره سُمِّي: «تشابه الأطراف».

كالتناسب والتلاؤم بين الشمس والقمر، والظلّ والشجر، والزهرِ والثمر، والإبل والبقر، والقوس والوتر، واللبلب والسمر، والوعل والجبل، والنعجة والحمل، والهوى والشباب، والظما والسراب، والعلم والكتاب، والضرب والعذاب، إلى نحو ذلك مما لا يُحصى.

وعكس مراعاة النظير الجمعُ بين غير المتناسبات المتلائمات، كالسجن والتجارة، والنسيم العليل ولدغ العقرب، والخشوع في الصلاة والتميمة، واللعب مع الصبيان ومقابلة السلطان، وعلك اللبان ومواساة الثكلى، إلى غير ذلك مما لا تناسب فيه ولا تلاؤم، فهذا منافٍ لما تتطلبه هذه البديعة من البدائع المعنوية.

أمثلة:

المثال الأول: قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الرحمن) ٥٥ / مصحف/

٩٧ نزول):

﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥٠﴾ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٥١﴾ ﴾

التَّجْمُ: النباتُ الذي لا ساق له. والشَّجَرُ: النبات الذي له ساق.

وفي هذه السورة أمثلة متعدّدة من أمثلة مراعاة النظر.

وفي القرآن المجيد أمثلة كثيرة من هذه البديعة المعنوية.

المثال الثاني: قول «البحثري» وهو أبو عبادة الوليد بن عبّيد الطائي، يصفُ

الإبل التي يهاجر على ظهورها من بلادٍ تنكّرت له، بالهزال الشديد:

يَتَرَقَّرَقْنَ كَالسَّرَابِ وَقَدْ خُضُّ نَ غَمَاراً مِنَ السَّرَابِ الْجَارِي
كَالْقِسِيِّ الْمُعْطَفَاتِ بَلِ الْأَسْدِ هُمْ مَبْرِيَّةٌ بَلِ الْأُوتَارِ

فجمع في تشبيهاته أشياء بينها تناسبٌ وتلاؤم، إذ «القسي» جمع «قوس»

ويجمع على «أقواس» تناسب «الأسهم» وتُناسبُ «الأوتار» لأنها كلها في آلة

واحدة.

المثال الثالث: قول ابن رشيق:

أَصْحٌ وَأَقْوَى مَا سَمِعْنَاهُ فِي النَّدَى مِنْ الْخَبْرِ الْمَأْثُورِ مُنْذُ قَدِيمِ
أَحَادِيثِ تَرْوِيهَا السُّيُولُ عَنِ الْحَيَا عَنِ الْبَحْرِ عَنْ جُودِ الْأَمِيرِ تَمِيمِ

نجد في هذين البيتين التلاؤم والتناسب فيما يلي:

● بين الصحة والقوة.

● وبين السماع والخبر المأثور.

● وبين السيول، والحيا (أي: المطر) والبحر، والجود أيضاً لأنه يلائم

المطر والبحر في تشبيهات الشعراء.

تشابهُ الأطراف:

ومن أمثلة تشابه الأطراف قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الأنعام) / ٦ مصحف/

٥٥ نزول) في وصف ذاته جلَّ وعلا:

﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَصَرَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ ﴿١٣٧﴾ .

فقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ الذي هو ختام الآية يُلائم ما جاء قبله، إذ كلمة «اللَطِيفُ» تُلائم وصفه تعالى بأنه لا تُدركه الأبصار، وكلمة «الخبير» تُلائم وصفه بأنه يُدرك الأبصار جميعها.

وألحقَ البلاغيون بمراعاة النظير ما فيه إيهام التناسب، كأن يكون اللفظ مشتركاً بين معنيين: أحدهما يُناسب ما جاء في الكلام من معاني إلا أنه غير مراد، والآخر لا يُناسب وهو المراد.

وضربوا مثلاً لما فيه إيهام التناسب قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الرحمن)/ ٥٥ مصحف / ٩٧ نزول):

﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥٦﴾ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٥٧﴾ .

إن كلمة «النجم» تأتي بمعنى الأجرام المضيئة في السماء، وهذا المعنى يُلائم ويُناسب كلمتي الشمس والقمر، فهما جرمان أحدهما مُضيء، والآخر مُنير، لكن هذا المعنى للنجم غير مراد في النَّصِّ، فكان استخدامه من إيهام التناسب، إذ كان يمكن استخدام كلمة أخرى تؤدِّي المعنى المراد دون أن يكون فيها إيهام التناسب، ككلمة «النبت».

وتأتي كلمة «النَّجْمُ» بمعنى النبات الذي لا ساق له، يقال لغة: نَجَمَ الشيءُ والنباتُ نجماً ونجوماً إذا طلَعَ وظهر، وهذا المعنى يناسب معنى كلمة الشجر.

فناسبت كلمة «النجم» بمعناها غير المراد ما سبقها، وهما الشمس والقمر، وناسبت بمعناها المراد ما جاء بعدها وهو الشجر، وهذا فنٌ بديع، تنبّه له البلاغيون فألحقوه بمراعاة النظير على اعتبار أن فيه إيهام التناسب.



الإِرصَاد

وقد تُسمَّى: التسهيم

الإِرصَاد في اللّغة: التهيئة والإعداد، يقال لغة: أَرَصَدَ الشَّيْءَ لِلشَّيْءِ إِذَا أَعَدَّهُ لَهُ، وَمِنْهُ: أَرَصَدْتُ الْجَيْشَ لِلْقِتَالِ، وَالْفَرَسَ لِلطَّرَادِ.

والإِرصَادُ في الاصطلاح: أَنْ يُجْعَلَ قَبْلَ آخِرِ الْعِبَارَةِ الَّتِي لَهَا حَرْفٌ رَوِيٍّ مَعْرُوفٍ (وهو آخر حرف يُبْنَى عليه نَسَقُ الْكَلَامِ) مَا يَدُلُّ عَلَى هَذَا الْآخِرِ. فَقَدْ يَأْتِي بِهِ السَّامِعُ قَبْلَ أَنْ يَنْطِقَ بِهِ الْمَتَكَلِّمَ.

وقالوا في الإِرصَاد: إِنَّهُ مِنْ مَحْمُودِ الصَّنْعَةِ فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ مَا دَلَّ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ.

وأُطْلِقَ عَلَيْهِ بَعْضُهُمْ عِنْوَانَ «التَّسْهِيمِ» وَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنْ وَضْعِ صُورَةِ السَّهْمِ، لِلإِشَارَةِ بِهِ إِلَى الْمَكَانِ الْمَقْصُودِ، أَوِ الْمَعْنَى الْمَقْصُودِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ إِعْدَادَ مَا يَلْزَمُ فِي أَوَّلِ الْكَلَامِ لِمَعْرِفَةِ مَا سِيَّاتِي فِي آخِرِهِ هُوَ بِمِثَابَةِ وَضْعِ صُورَةِ السَّهْمِ الَّتِي يُشَارُ بِهَا إِلَى الْمَقْصُودِ.

أمثلة:

المثال الأول: قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول):

﴿ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجْزِي إِلَّا الْكُفُورَ ﴿١٧﴾﴾

إنَّ مَقْدَمَةَ هَذِهِ الْآيَةِ يَدُلُّ الْمَتَلَقِّي عَلَى الْكَلِمَةِ الْآخِرَةِ مِنْهَا، فَمَنْ سَمِعَ:

«ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي» قال دون تفكير طويل: «إِلَّا الْكُفُورُ» إذا كان قد سمع آخر الآية قبلها وهو قوله تعالى: «بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾».

المثال الثاني: قول عمرو بن مَعَدٍ يَكْرَبُ:

إِذَا لَمْ تَسْتَطِعْ شَيْئاً فَدَعُهُ وَجَاوِزُهُ إِلَى مَا تَسْتَطِيعُ
فكلمة «تَسْتَطِيعُ» يأتي بها السامع قبل أن ينطق بها المتكلم، لأن أول الكلام موطىءٌ وممهّد لها، وفيه ما يشير إليها كإشارة السهم إلى الجهة المقصودة.

المثال الثالث: قول زهير بن أبي سلمى:

سَمِمْتُ تَكَالِيفَ الْحَيَاةِ وَمَنْ يَعِشُ ثَمَانِينَ حَوْلًا لَا أَبَا لَكَ يَسَامُ
فكلمة «يسام» يأتي بها السامع قبل أن ينطق بها المتكلم، لأن أول الكلام موطىءٌ لها.

المثال الرابع: قول البحري «الوليد بن عبيد»:

أَبْكِيكُمَا دَمْعًا وَلَوْ أَنِّي عَلَى قَدْرِ الْجَوَى أَبْكِي بِكَيْتُكُمَا دَمًا
الْجَوَى: شِدَّةُ الْوَجْدِ مِنْ عِشْقٍ أَوْ حُزْنٍ.
فلو وقف المتكلم عند «بَكَيْتُكُمَا» لقال السامع «دَمًا».

المثال الخامس: قول البحري أيضاً:

أَحَلَّتْ دَمِي مِنْ غَيْرِ جُرْمٍ وَحَرَمَتْ
فَلَيْسَ الَّذِي حَلَلْتَهُ بِمُحَلَّلٍ وَلَيْسَ الَّذِي حَرَمْتَهُ بِحَرَامٍ
فلو وقف المتكلم عند «حَلَلْتَهُ» لقال السامع «بِمُحَلَّلٍ».

ولو وقف عند «حَرَمْتَهُ» لقال السامع «بِحَرَامٍ».

لأن السوابق تدلُّ على كلمة الختام.

حُسْنُ التعليل

حُسْنُ التعليل: أن يدَّعي المتكلم مُزخرفاً كلامه عِلَّةً لَوْصِفِ ما ثابِتٍ أو غير ثابتٍ، وهذه العِلَّةُ التي يدَّعيها مناسبةٌ للوصفِ باعتبار لطيفٍ غير حقيقي، والعِلَّةُ الحقيقيةُ خلاف ما ادَّعى، وقد يكون ذكْرُ الوصفِ على سبيل الادعاء الذي لا حقيقة له أيضاً.

فالوصف المذكور: إما أن يكون ثابتاً أو غير ثابت، والثابت إما أن تكون له عِلَّةٌ ظاهرة غير ما يدَّعي المتكلم، وإما أن لا تكون له عِلَّةٌ ظاهرة.

فحُسْنُ التعليل يكون بأن يستبعد الأديب صراحةً أو ضمناً عِلَّةَ الشيء المعروفة، ويأتي بعِلَّةٍ أدبيةٍ طريفةٍ مُستملحةٍ تناسب الغرض الذي يقصد إليه.

أمثلة:

المثال الأول: قول المتنبي يمدح «هارون بن عبد العزيز»:

لَمْ تَحِكْ نَائِلَكَ السَّحَابُ وَإِنَّمَا حُمَّتْ بِهِ فَصَيَّبُهَا الرُّحَضَاءُ

أي: لم تُرد السُّحُبُ أن تتشبه بعطائك المتتابع، وإنما هو عَرَقُ الحمى التي نزلت بها بسبب حسدِها من جودك، وعِلَّةُ السُّحُبِ إذ تمطر معروفة.

الصَّيْبُ: ما ينصبُّ من ماءٍ وغيره.

الرُّحَضَاءُ: العَرَقُ الكثير، والعَرَقُ إثر الحمى.

ادعى المتنبي أن السحاب قد أمطرت بسبب ما أصابها من الحُمى التي
نزلت بها إذ حسدت جود ممدوحه. ونفى تعليلاً آخر كان يُمكن أن يُعلّل به،
وهو أيضاً تعليلٌ ادّعائي لا حقيقة له، وهو أنها أرادت أن تُحاكي وتقلّد ممدوحه
في الجود.

المثال الثاني: قول أبي تمام:

لَا تُنْكِرِي عَطَلَ الْكَرِيمِ مِنَ الْغِنَى فَالسَّيْلُ حَرْبٌ لِلْمَكَانِ الْعَالِي
عَطَلَ الْكَرِيمِ مِنَ الْغِنَى: أي: خلّو الكريم من الغنى، يقال: عَطَلَ يَعْطَلُ
عَطَلاً، إذا خلا.

فعلّل فقّر الكريم بعلّة ادّعاها ادّعاءً زُخرفياً في الكلام دون مستندٍ من
الحقيقة. هو أنّ ذا المكانة الرفيعة لا يكون غنياً، قياساً على أنّ السَّيْلُ لَا يَصِلُ إِلَى
المكان العالي، وعبر عن ذلك بأنّه حَرْبٌ له.

المثال الثالث: قول المتنبي من قصيدة يمدح بها بدر بن عمّار:

مَا بِهِ قَتْلُ أَعَادِيهِ وَلَكِنْ يَتَّقِي إِخْلَافَ مَا تَرْجُو الذَّنَابُ
أي: ما به رغبةٌ في قتل أَعَادِيهِ حقداً عليهم وتخلّصاً منهم، لكنّه رجُلٌ جواد
اتّسع جوده حتّى صارت الوحوش ترجو عطاءه، فالذئابُ ترجو أن يقتل لها الناسَ
لتتعم بلحوم القتلَى.

لقد بالغ، فتخيّل، فادّعى هذه الدّعوى الزُخرفيّة الباطلة، لكنّها تشتملُ على
فكرة جميلة لا يلتقطها إلا ذو فطنة.

المثال الرابع: قول مسلم بن الوليد:

يَا وَاشِيَاءَ حَسَنْتَ فِينَا إِسَاءَتُهُ نَجَّى حِذَارُكَ إِنْسَانِي مِنَ الْغَرَقِ
الأصلُ في الوشاية أنّها تسوءُ المؤشّي به، لكنّ الشاعر رأى أنّ وشاية من

وشئ به كانت في نفسه أمراً حسناً، وعلل ذلك بأنها دفعتُهُ إلى أن يَحذَرَ الواسِي. وهذا الحذر جعله يتقي مكرهه وكيدَه، فحمى بذلك إنسان عينه من الغرق في الدَّمع، الذي تُسبِّبه غفلته وعدم حذره من مكرهه وكيدِه لو أنه لم يطلع على وشاياته، ويعرف عداوته له.

المثال الخامس: قول الشاعر مادحاً (وهو مُترجمٌ عن الفارسيّة):

لَوْ لَمْ تَكُنْ نِيَّةُ الْجَوَازِءِ خِدْمَتَهُ لَمَا رَأَيْتَ عَلَيْهَا عِقْدَ مُتَطَّقِ
ادعاءً زُخْرُفِيٍّ لَا أَصْلَ لَهُ، وهو غير ممكن في الواقع، لكنه ظريفٌ مُستَمَلِحٌ،
فالشاعر يدعي أن الجوزاء قد نوت خِدْمَتَهُ فانتطقتُ بنطاق الخِدْمَةِ.

الانتطاق: شدُّ الوَسَطِ بِالْمِنْطَقَةِ. الْمِنْطَقَةُ وَالْمِنْطَقُ: مَا يُشَدُّ بِهِ الْوَسَطُ.

الجوزاء: «بُرْجٌ من بروج السماء» يوجد حولها كواكب تُشبهُ المنطقه، شبَّهها
الشاعر بالعقد المنظوم من اللؤلؤ.

المثال السادس: قول «ابن نباتة» في صفة فرس أدهم مُحجَّل القوائم
ذي عُرَّة:

وَأَذْهَمَ يَسْتَمِذُّ اللَّيْلُ مِنْهُ وَتَطْلُعُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ الثُّرَيَّا
سَرَى خَلْفَ الصَّبَاحِ يَطِيرُ مَشِيًّا وَيَطْوِي خَلْفَهُ الْأَفْلَاكَ طَيًّا
فَلَمَّا خَافَ وَشَكَ الْفَوْتَ مِنْهُ تَشَبَّثَ بِالْقَوَائِمِ وَالْمُحَيَّا

علل ابن نباتة بياض قوائم الفرس وبياض مُحَيَّاهُ (= وجهه) بأنَّ الصَّبَاحَ خَافَ أَنْ
يفوته الفرس بسبب سرعة جريه فتشَبَّثَ بقوائمه ووجهه، فظهر بياض الصباح عليها،
أي: يدخل في وقت الصباح بعبور سريع ويخرج منه دون أن يُرى بياض الصباح عليه.

كلُّ هذا التعليل تعليلٌ زخرفيٌّ لا نصيب له من الحقيقة، وهو مبنيٌّ على تخيُّلٍ
أساسه تشبيه بياض قوائم الفرس وبياض وجهه بياض الصباح.

المثال السابع: قول أبي تمام:

رُبِيَّ شَفَعَتْ رِيحُ الصَّبَا لِرِيَاضِهَا إِلَى الْمُرْنِ حَتَّى جَادَهَا وَهُوَ هَامِعُ
كَأَنَّ السَّحَابَ الْغُرَّ غَيَّيْنَ تَحْتَهَا حَيِّباً فَمَا تَرَقَّا لَهُنَّ مَدَامِعُ
الْغُرَّ: جمع «الأغر» وهو الأبيض.

فما ترقا: أي: فما ترقا بمعنى، فما تسكنُ وما تجفّ.

فبنى التعليل على توجيه الشك الاحتمالي، بأن بكاء السحاب يحتمل أن يكون على ما دفنت من حبيبٍ تحتها.

المثال الثامن: قول المعري في الرثاء:

وَمَا كُفِّةُ الْبَدْرِ الْمُنِيرِ قَدِيمَةً وَلَكِنَّهَا فِي وَجْهِهِ أَثْرُ اللَّطْمِ
الْكُفِّةُ: ما على وجه القمر من كلف.

اللَّطْمُ: ضربُ الخدِّ بباطن الكفِّ، ومن عادة الحزينة أن تلطم خديها.

يدعي أبو العلاء أن الحزن على من يرثيه قد انتقل من الأحياء إلى الأشياء، حتى إن الكلف الذي يُرى على وجه البدر هو من أثر اللطم حُزناً عليه، ويستبعد السبب الطبيعي على الرغم من دوامه.

المثال التاسع: قول ابن الرومي في المدح:

أَمَا ذُكَاءٌ فَلَمْ تَصْفَرَ إِذْ جَنَحْتَ طَبْعاً وَلَكِنْ تَعَدَّاكُمْ مِنَ الْخَجَلِ
ذُكَاءٌ: اسم من أسماء الشمس.

إذ جنحت: أي إذ جنحت للمغيب.

تعدّاكم: أي: تتجاوزكم بمعنى يخاطب ممدوحه.

فهو يدعي أن اصفرار الشمس عند المغيب قد حصل بسبب أنها خجلت من

مدوحه، فهي تتجاوزه خَجَلِيْ منه، ويستبعد السبب الطبيعي مع دوامه كلِّ مساء عند المغيب.

المثال العاشر: قول أحد الشعراء:

سَبَقَتْ إِلَيْكَ مِنَ الْحَدَائِقِ وَرَدَّةٌ وَأَتَتْكَ قَبْلَ أَوَانِهَا تَطْفِيلاً
طَمَعَتْ بِلِثْمِكَ إِذْ رَأَتْكَ فَجَمَعَتْ فَمَهَا إِلَيْكَ كَطَالِبِ تَقْيِيلاً

تَطْفِيلاً: التَّطْفِيلُ والتَّطْفُلُ حضور الولايم دون دعوة إليها.

فهو يدعي أن زِرَّ الورد الذي لم يكتمل تفتُّحه قد جَمَعَ فَمَه طالباً التقبيل.

المثال الحادي عشر: قولي:

رَأَوْ بِيَدِي عُكَّازَةَ ذَاتِ عَطْفَةٍ وَظَهْرِي كَظَهْرِ الْقَوْسِ يَهْوِي وَيُنْحِنِي
فَقُلْتُ: لَقَدْ كَانَتْ عَصاً مُسْتَقِيمَةً فَجَمَعْتُ عَزْمِي وَأُنْحَيْتُ لِتَنْشِي



تأكيد الفكرة بما يُشبهه تقرير ضدها

وهي المُسمّاة: تأكيد المدح بما يشبه الذم وعكسه

والعنوان الذي وضعته أولى

تأكيد الفكرة بما يشبه تقرير ضدها: هي أن يأتي المتكلم بكلام يتضمّن مدحاً، أو ذمّاً، أو إثبات صفة أو حدّث، أو نفي صفة، أو حدث، ويُتبعه بكلام يبدؤه بما يُشعرُ باستثناء أو استدراك على كلامه السابق فإذا به يأتي بما يتضمّن تأكيد كلامه السابق.

وهذا فنٌ بديع في الكلام له حركة في النفس تُشبه الجزرَ فالمدّ السريع الأقوى من الجزر.

أمثلة:

المثال الأول: قول الله عزّ وجلّ في سورة (الواقعة/ ٥٦ مصحف/

٤٦ نزول) بشأن الجنة وما فيها من نعيم لأهلها:

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيهَا إِلَّا قِيْلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾.

إن الاستثناء بعبارة ﴿إِلَّا قِيْلًا﴾ يُشعرُ بأنّ نفي اللغو والتأثير السابق سيأتي إثبات بعض ما هو ضده، فإذا بالمستثنى يؤكد الفكرة السابقة، وهي أنّهم لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً، لأنّ عبارات السلام التي يسمعونها أهل الجنة ليست من اللغو ولا من التأثير، الذي هو الشتيمة بارتكاب الإثم، بل هي تكريم ودعاء وتحيّة.

المثال الثاني: قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (طه/ ٢٠ / مصحف/ ٤٥ نزول)
خطاباً لرسوله محمد ﷺ:

﴿ طه ١ ﴾ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿ ٢ ﴾ إِلَّا نَذِيرًا لِمَنْ يَخْشَى ﴿ ٣ ﴾ .

جملة: ﴿ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴾ ﴿ ٢ ﴾ أي: ما أنزلنا عليك القرآن لتتعب قلبك ونفسك بتحمّل أعباء تحويل الناس من الكفر إلى الإيمان، بل لتبلغهم وتذكّرهم، وتريح قلبك ونفسك بأنك أدّيتَ واجبك.

وجاءت بعدها كلمة [إلّا] تشعر بأنه سيُليها مستثنى يُحمّله تكليفاً فيه بعض شقاءٍ له، فإذا بالمستثنى يتضمّن تأكيد الفكرة التي جاءت في الجملة السابقة لأداة الاستثناء.

المثال الثالث: قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (القيامة/ ٧٥ مصحف/ ٣١ نزول) بشأن الكافر المسوق إلى عذاب ربه:

﴿ فَلَا صَلْفَ وَلَا وِعَاظَ ﴿ ٣١ ﴾ وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَكَّأَ ﴿ ٣٢ ﴾ .

قد تُشعر كلمة [لَكِنْ] في الوهلة الأولى بأنه فعل شيئاً من الخير استدراكاً على كونه كذّب بالرسول ولم يُصلِّ لله عزَّ وجلَّ، فإذا بالمستدرك به يتضمّن تأكيد ما جاء قبله، فقد كذّب الرسول وكذّب بما جاء به، وتولّى مُذبراً فلم يُصلِّ ولم يعبُد ربه بعبادة ما.

المثال الرابع: قول النابغة الذبياني:

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سِيُوفَهُمْ
بِهِنَّ فُلُوقٌ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ
فُلُوقٌ: جَمْعُ «فَلّ» وَهُوَ ثَلْمٌ يُصِيبُ حَدَّ السَّيْفِ مِنَ الضَّرْبِ الشَّدِيدِ بِهِ.

من قراع الكتائب: القتال ضرباً بالسيوف والرماح، والكتائب: الجيوش المحاربة.

إِنَّ تَتَلَّمُ سِيوفَهُمْ مِنْ قِرَاعِ الْكُتَابِ يَتَضَمَّنُ مَدْحًا لَهُمْ بِالشَّجَاعَةِ وَالْإِقْدَامِ، فَهُوَ لَيْسَ مِنَ الْعِيُوبِ، بَلْ هُوَ مِنَ الْمُنَاقِبِ، فَذَكَرَهُ عَلَى أَنَّهُ هُوَ الْعَيْبُ الْوَحِيدُ لَهُمْ يُؤَكِّدُ الثَّنَاءَ عَلَيْهِمْ أَبْلَغَ تَأْكِيدٍ.

المثال الخامس: قول «بديع الزمان الهمذاني» يمدح «خلف بن أحمد السجستاني»:

هُوَ الْبَدْرُ إِلَّا أَنَّهُ الْبَحْرُ زَاخِرًا سِوَى أَنَّهُ الضَّرْغَامُ لَكِنَّهُ الْوَبْلُ
زَاخِرًا: ممتلئاً طامياً. الضرغام: الأسد. الوبل: المطر الشديد.
فقد أكد المدح بأسلوب يُوهِمُ عند البدء به أنه يريد أن يذكر له عيباً بعد أن شبهه بالبدر.

المثال السادس: قول النابغة الجعدي في المديح:

فَتَى كَمَلْتُ أَخْلَاقَهُ غَيْرَ أَنَّهُ جَوَادٌ فَمَا يُبْقِي مِنَ الْمَالِ بَاقِيَا

المثال السابع: قول ابن الرومي في المديح:

لَيْسَ بِهِ عَيْبٌ سِوَى أَنَّهُ لَا تَقَعُ الْعَيْنُ عَلَى مِثْلِهِ

المثال الثامن: رُوي عن الرسول ﷺ أَنَّهُ قَالَ:

«أَنَا أَفْصَحُ الْعَرَبِ، بَيِّدَ أَنِّي مِنْ قُرَيْشٍ».

فكونه من قريش يؤكِّد أنه صلوات الله عليه أفصح العرب.

المثال التاسع: قول المعري:

تُعَدُّ ذُنُوبِي عِنْدَ قَوْمٍ كَثِيرَةٍ وَلَا ذَنْبَ لِي إِلَّا الْعُلَا وَالْفَضَائِلُ

المثال العاشر: قول صفي الدين الحلبي:

لَا عَيْبَ فِيهِمْ سِوَى أَنَّ التَّرِيلَ بِهِمْ يَسْئَلُو عَنِ الْأَهْلِ وَالْأَوْطَانِ وَالْحَشَمِ

حَسَمَ الرَّجُلُ: خَاصَّتْهُ الَّذِينَ يَغْضِبُونَ لَغَضْبِهِ وَيَرْضُونَ لِرِضَاهُ وَيَدْخُلُ فِيهِمُ
الْأَهْلُ وَالْعَبِيدُ وَالْجِيرَةُ.

المثال الحادي عشر: قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/
١١٣ نزل) بشأن المنافقين:

﴿... وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ...﴾ [الآية ٧٤].

من شأن الإغناء أن يكون سبب حُبِّهم والباعث على طاعتهم، لا أن يكون
سبب نقمتهم، فجاء ما بعد الاستثناء مؤكداً عدم وجود سبب لنقمتهم.

المثال الثاني عشر: قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الحج/ ٢٢ مصحف/
١٠٣ نزل):

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ
دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ...﴾.

جاء ما بعد الاستثناء مؤكداً أنهم أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ، لأنَّ قَوْلَهُمْ:
﴿رَبُّنَا اللَّهُ﴾ لا يُعْطِي الْكَافِرِينَ أَيَّ حَقٍّ فِي إِخْرَاجِهِمْ مِنْ دِيَارِهِمْ.

المثال الثالث عشر: جاء في مادة (نمل) من لسان العرب، قول الشاعر:

وَلَا عَيْبَ فِينَا غَيْرُ نَسْلِ لِمَعْشَرٍ كِرَامٍ وَأَنَا لَا نَخْطُ عَلَى النَّمْلِ

أي: لسنا بمجوس ننكح الأخوات، قال أبو العباس: وأنشدنا ابن الأعرابي
هذا البيت، وفسره: أَنَا كِرَامٌ وَلَا نَأْتِي بِيُوتِ النَّمْلِ فِي الْجَذْبِ لِنَخْفِرَ عَلَى مَا جَمَعَ
لنأكله.

المثال الرابع عشر: قول الشاعر في مدح بني أمية:

مَا نَقَمُوا مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ إِلَّا أَنَّهُمْ يَحْلُمُونَ إِنْ غَضِبُوا
وَأَنَّهْمُ سَادَةُ الْمُلُوكِ وَلَا يَضْلُحُ إِلَّا عَلَيْهِمُ الْعَرَبُ



تجاهل العارف

تجاهل العارف: سَوَّقَ الْمَعْلُومَ مَسَاقَ الْمَجْهُولِ لِنَكْتةِ تُقْصِدُ لَدَى الْبُلْغَاءِ .
والداوعي لتجاهل العارف كثيرة، منها ما يلي:

(١) التوبيخ: ومنه قول الخارجية «ليلی بنت طریف» ترثي أختها الوليد:

أَيَا شَجَرَ الْخَابُورِ مَالِكَ مُورِقًا؟ كَأَنَّكَ لَمْ تَجْزَعِ عَلَيَّ ابْنَ طَرِيفِ
فَتَى لَا يُرِيدُ الْعِزَّ إِلَّا مِنَ الثَّقَى وَلَا الرَّزْقَ إِلَّا مِنْ قَنَاءٍ وَسُيُوفِ

الخابور: اسمُ نَهْرٍ فِي دِيَارِ بَنِي بَكْرِ .

(٢) المبالغة في المدح أو في الذم:

● فمن المبالغة في المدح قول البحري:

الْمُعُ بَرَقَ سَرَى أَمْ ضَوْءُ مِصْبَاحٍ؟ أَمْ ابْتِسَامَتُهَا بِالْمَنْظَرِ الضَّاحِي

الضاحي: الظاهر البارز للشمس .

● ومن المبالغة في الذم قول زهير:

وَمَا أَذْرِي وَسَوْفَ إِخَالُ أَذْرِي أَقْوَمُ آلَ حِصْنٍ أَمْ نِسَاءُ؟!

أي: أَرَجَالٌ أَمْ نِسَاءُ؟!

(٣) التذلل في الحب: ومنه قول الحسين بن عبد الله الغريبي:

بِاللَّهِ يَا ظَبِيَّاتِ الْقَاعِ قُلْنَ لَنَا لَيْلَايَ مِنْكُمْ أَمْ لَيْلَى مِنَ الْبَشْرِ؟

القاع: أَرْضٌ مُسْتَوِيَةٌ مَطْمِئِنَّةٌ عَمَّا يَحِيطُ بِهِ مِنَ الْجِبَالِ وَالْأَكَامِ

وقول ذي الرِّمَّة:

أَيَا ظَنِيَّةَ الْوَعْسَاءِ بَيْنَ جُلَاجِلِ وَيَيْنَ النَّقَا أَنْتِ أَمْ أُمُّ سَالِمٍ؟

الوعساء: الأرض اللينة ذات الرمل.

(٤) الإيناس: ومنه قول الله عزَّ وجلَّ لموسى، كما جاء في سورة (طه/

٢٠ مصحف / ٤٥ نزول):

﴿وَمَا تِلْكَ يَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾؟

إلى غير ذلك من دواعي.



الهزل الذي يراد به الجحد

يتلطف الأذكياء فيعبرون عما هم جادون فيه بعبارات مُزاح وهزل خشية إثارة من يقصدونه بالخطاب، وليتأتى لهم التنصّل ممّا قالوا، بأنهم يمزحون أو يهزلون، وأنهم غير جادّين.

وتقول العامة في عباراتها الدارجة: بالضحك والمزاح تشتفي الأزواح. وهو فنٌ واسعٌ جداً يعتمدُ عليه التمثيلُ الهزليُّ، الذي يتضمّن ألواناً كثيرة من النقدِ التوجيهيِّ البناء لأفرادٍ أو مجتمعات، والنقدِ اللاذع الجارح أحياناً. وقد يُقصدُ به التذكير بواجب، أو التنبيه على أمر، أو تعلّم مُترَفِعٍ عن أن يجلس مجلس المتعلّم. أو حتّى وحضٌّ على فعل خير.

وقد يُقصد به المدح أو الذمّ، إلى غير ذلك من مقاصد.

ومن أمثلة هذا الفنّ في الأدب قول «أبي نُوّاس»:

إِذَا مَا تَمِيمِي أَتَاكَ مُفَاخِرًا فَقُلْ: عَدَّ عَن ذَا. كَيْفَ أَكَلْتَ لِلضَّبِّ؟

إنه يعرف كيف يأكل التميميون الضبّ، لكنّه تساءل هازلاً، وغرضه تفرّيع بني تميم بأنهم يأكلون الضبّ، وأشرف الناس لا يأكلونه، فليس من حق التميمي أن يفاخر.

وقول «ابن نُباتة»:

سَلَبْتُ مَحَاسِنَكَ الْغَزَالَ صِفَاتِهِ حَتَّى تَحَيَّرَ كُلُّ ظَنَبِي فِيكََا
لَكَ جِيدُهُ وَلِحَاطُهُ وَنِفَارُهُ وَكَذَا نَظِيرُ قُرُونِهِ لِأَبِيكََا

فأورد الشطرة الأخيرة مورد الهزل وهو جادٌّ ضمناً. إذ يذمُّ أباه بعدم مراقبة

ابنه وحمايته من الفساق.

القول الدالّ علی المعنی وضده

ویعبّر عنه بالتوجیه — وبالإیهام

والعنوان الذی اخترته أولى

قد یقصد الأدیب إیراد كلام یصلح للمدح وللهجاء معاً، أو الإیمان والكفر، أو الإقرار والإنکار، أو غیر ذلك من المعانی المتضادة، لیتأتی له ادعاء إرادة أحد المعنیین دون الآخر عند الحاجة .

وذكر البلاغیون أن السّابق إلى استخدام هذا الفنّ فی الأدب «بشار بن بُرد» وأنّه كان كثير العبث به، ومن أخباره فیّه أنّه أراد أن یخیط قباء^(١) عند خیاط قیل: اسمه «عمرو» وقیل: اسمه «زید» فقال له الخیاط مماًزحاً سأخیط لك هذا الثوب فلا تدري أهو جُبّة^(٢) أم قباء .

فقال له بشار: إذا أنظمت فیک شعراً لا یعلم من سمعه أدعوت به لك أم دعوتُ به علیك، وكان الخیاط أعور، فلما فعل الخیاط ما وعد به، قال فیّه بشار:

خَاطَ لِي «زَيْدٌ» قَبَاءٌ لَيْتَ عَيْنَيْهِ سَوَاءٌ
قُلْ لِمَنْ يَغْرِفُ هَذَا أَمَدِيحُ أُمِّ هِجَاءِ

وروي أن «محمد بن حزم» هنأ الحسن بن سهل بتزويج ابنته «بوران» للخليفة

(١) القباء: ثوب يلبس فوق الثياب أو فوق القميص، ويتمنطق عليه.

(٢) الجبّة: ثوبٌ سابغ واسع الكُمّين، مقدّمه مفتوح، يُلبس فوق الثياب، وهي مما يلبسه علماء الدين ورجال الدين، والمتممون إليهم.

المأمون مع من هتأه، فأثاب المهثين، ومنع ابن حزم، فكتب إليه: إن أنت
تماديت في حرمانى قلتُ فيك شعراً لا يُعرفُ أمَدُحٌ هو أم ذمٌ؟ . فاستحضره وقال
له: لا أعطيك أو تفعل، فقال ابن حزم:

بَارِكْ اللّٰهُ لِلْحَسَنِ وَلِبُورَانَ فِي الْخَتَنِ
يَا إِمَامَ الْهُدَى ظَفِرُ تَ وَلِكِن بِنْتِ مَنْ؟

استفهام يحتمل أن تكون ابنة شريف أو وضيع، فاستحسنه «الحسن» وقال
له: أمن مبتكراتك؟ قال: لا، بل نقلته من بشار بن برد.



الاستخدام

الاستخدام: أن يُوتَى بلفظ له معنیان فیراد به أولاً أحدهما، ويُعاد الضمیر علیه أو يُشارَ إليه باسم إشارة مراداً به المعنى الآخر، أو يُراد بأحد ضمیریه أحدُ معنییه ویراد بالآخر الآخرُ منهما، سواءً أكان المعنیان حقیقیین، أم مجازیین، أم مختلفین.

وهذا فنّ بدیع يدعو إليه الإيجاز من جهة، وتقديرُ ذكاء المتلقّي وإرضاءه من جهة أخرى.

أمثلة:

المثال الأول: قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى
وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ... ﴾ [الآية ١٨٥].

قالوا: «فمن شهدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ» أي: ثَبَّتَ لديه رؤية هلال الشهر، ﴿فَلْيَصُمْهُ﴾ أي: فليصُمْ في أيامه، فأعيد الضمير على الشهر بمعنى الزَمَنِ من طلوع الفجر إلى غروب الشمس في كلِّ يومٍ من أيامه.

أُطلقَ لفظ الشهر على معنى ثبوت دخوله بظهور هلاله، وأعيد الضمير عليه بمعنى الأزمان المخصوصة.

المثال الثاني: قول «جرير» أو هو قول «معوذ الحكماء»:

إِذَا نَزَلَ السَّمَاءُ بِأَرْضِ قَوْمٍ رَعَيْنَاهُ وَإِنْ كَانُوا غَضَابًا

قصد بلفظ السماء أولاً المطر الذي ينزل من الماء، وأعاد الضمير عليه مريداً به النبات الذي يَبُتُّ في الأرض بسبب ارتواء الأرض بالمطر.

المثال الثالث: قول البحري من قصيدة يمدح بها «ابن نَيْسَخْت» كما في

ديوانه:

فَسَقَى الْغُضَا وَالتَّازِلِيهِ وَإِنْ هُمْ شَبَّوهُ بَيْنَ جَوَانِحِ وَقُلُوبِ

لفظ «الغضا» أراد به أولاً المكان، وأعاد الضمير عليه بعبارة: «والتازليه» على هذا المعنى، وأعاد الضمير عليه بعد ذلك على معنى شجر الغضا وخطبه الصلب ذي النار الحارة إذا اشتعل، فقال: «شَبَّوهُ» أي: أوقدوه.

المثال الرابع: قول «ابن معتوق الموسوي» (١٠٢٥هـ).

تَاللَّهِ مَا ذَكَرَ الْعَقِيقُ وَأَهْلُهُ إِلَّا وَأَجْرَاهُ الْغَرَامُ بِمِخْجَرِي

أراد بلفظ «العقيق» أولاً الوادي الذي بظاهر المدينة المنورة، وأعاد الضمير عليه بمعنى «الدم» الذي يشبه حجر العقيق الأحمر.

المثال الخامس: قولي صانعاً مثلاً للاستخدام، أوجَّهه لأبي رحمة الله عليه:

شَهْمٌ كَرِيمٌ السَّجَايَا فَارِسٌ بَطْلٌ يَخْتَلُّ مِنْ ذُرُواتِ الْمَجْدِ أَعْلَاهَا
لَمْ أَلْقَهُ دُونَ أَنْ أَلْقَى نَوَائِلَهُ كَرُوضَةٍ تَمْنَحُ الْعَافِينَ أَزْكَاهَا
كَمْ صَافَحَتْ يَدُهُ عِنْدَ اللِّقَاءِ يَدِي وَمُهَجَّتِي بِجَزِيلِ الْحَمْدِ تَلْقَاهَا

المقصود بعبارة «يَدُهُ» عُضْوُهُ من جسده، وأعيد الضمير عليها بعبارة «تَلْقَاهَا» على معنى إنعامه وعطيته، على سبيل استخدام اللفظ في حقيقته أولاً، وفي مجازه ثانياً.



ذكر المتعدّات مع ذكر ما يتعلّق بكل واحد منها

• إمّا لفّ ونشر . . . • وإمّا تقسیم

أما اللّفّ والنشر: فهو فنٌّ في المتعدّات التي يتعلّق بكلّ واحدٍ منها أمرٌ لاحق، فاللفّ يُشار به إلى المتعدّد الذي يوتى به أولاً، والنشر يُشار به إلى المتعدّد اللاحق الذي يتعلّق كلّ واحد منه بواحد من السابق دون تعيين، أما ذكر المتعدّات مع تعيين ما يتعلّق بكلّ واحد منها فهو التقسیم.

فإذا أتى المتكلم بمتعدّد، وبعده جاء بمتعدّد آخر يتعلّق كلّ فرد من أفراده بفرد من أفراد السابق بالتفصیل ودون تعيين سُمّي صَنِيعُهُ هذا «لفّاً ونشراً».

كأن نقول: «طلعت الشمس وبرز القمر نهاراً وليلاً» - عَمَّ السَّحَابُ والسَّيْلُ السَّمَاءَ والواديّ - «عاد الفُرْسَانُ والجُنْدُ والأسرى مُقَيِّدِينَ ورجالاً ورُكْبَاناً»، أي: فالفُرْسَانُ عادوا ركبانا، والجندُ عادوا مشاة، والأسرى جاءوا مقيدين.

والمتعدّد السابق له وجهان: إمّا أن يأتي لَفُّهُ مُفَصَّلاً، وإمّا أن يأتي لَفُّهُ مُجْمَلًا.

اللفّ المفصّل:

إذا جاء لَفُّ المتعدّد السابق مفصلاً، فالنشر اللاحق له وجهان:

الوجه الأول: أن يأتي النشر على وفق ترتيب اللّفّ، ويُسمّى «اللفّ والنشر

المرتبّ».

الوجه الثاني: أن يأتي النثر على غير ترتيب اللَّفِّ، ويُسمَّى «اللَّفَّ والنشر غير المرتب» وقد يُعبَّر عنه بعبارة «اللَّف والنشر المُشوَّش».

أولاً: فمن أمثلة اللَّفِّ والنشر والنشر المرتب ما يلي:

المثال الأوَّل: قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (القصص/ ٢٨ مصحف/

٤٩ نزول):

﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

فقد جاء اللَّفُّ بعبارة ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ إذ جُمع اللَّيْلُ والنهار بحرف العطف. وجاء النشر وفق توزيع مرتب، فعبارة: ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ تتعلَّق باللَّيْلِ، وعبارة: ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: كسبَ أرزاقكم، تتعلَّق بالنهار، مع الإشارة بهذا الجمع إلى احتمال أن يسكن بعض الناس في النهار ويبتغي كسب رزقه من فضل الله في اللَّيْلِ، لكن هذا خلاف ما هو الأصلح للناس بمقتضى تكوينهم الفطري.

المثال الثاني: قول ابن حَيُّوس:

فِعْلُ الْمُدَامِ وَلَوْنُهَا وَمَذَاقُهَا فِي مُقْلَتَيْهِ وَوَجْنَتَيْهِ وَرِيقِهِ الْمُدَامِ: الخمر.

فأورد النثر على ترتيب اللَّفِّ، إذ فِعْلُ الْمُدَامِ فِي مُقْلَتَيْهِ إِسْكَارٌ، وَلَوْنُهَا فِي وَجْنَتَيْهِ حُمْرَةٌ، وَمَذَاقُهَا فِي رِيقِهِ لَذَّةٌ.

المثال الثالث: قولُ ابن الرومي:

أَرَأَيْتُمْ وَوُجُوهُكُمْ وَسَيُوفُكُمْ فِي الْحَادِثَاتِ إِذْ دَجَوْنَ نُجُومَ فِيهَا مَعَالِمٌ لِلْهُدَى. وَمَصَابِحُ تَجْلُو الدُّجَى وَالْأَخْرِيَاتُ رُجُومُ

دَجَوْنَ: أي: أظلمنَ.

جاء اللَّفَّ في قوله: «أَرَاؤُكُمْ وُجُوهَكُمْ وَسُيُوفَكُمْ» وجاء النشْرُ وفقْ توزيع مرتب، فقوله: «فيها معالم للهدى» وصفٌ للآراء. وقوله «وَمَصَابِحٌ تَجْلُو الدُّجَى» وصفٌ للوجوه. وقوله: «والأخريات رُجُومٌ» وصفٌ للسُّيوف.

المثال الرابع: قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/

٥٠ نزول):

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٦٩﴾﴾.

المَحْسُور: المنهوكُ القوى، والذي لم يَبْتَقِ معه مالٌ من كثرة الإنفاق، يقال لغة: حَسَرَ القوم فلاناً، إذا سألوه فأعطاهم حتى لم يَبْتَقِ معه شيء.

جاء اللَّفُّ المفصَّلُ هنا في التَّهْيِ عن البخل وعن التبذير بعبارة ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾.

وجاء النشْرُ مرتباً على وفق ترتيب اللَّفِّ، وذلك لأنَّ اللَّوْمَ يكون على البخل الذي جاء في العبارة أولاً، وإنهاكُ القُوَى وخُلُوءُ اليَدِ من المال يكون بسبب التبذير.

المثال الخامس: ما جاء في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول) في

قِصَّةِ موسى والخضر عليهما السلام، ففي عرض القصة جاء ترتيب عرض أحداثها بدءاً بحادثة حرق السفينة، فحادثة قتل الغلام، فحادثة إقامة الجدار.

ولمَّا أبان الخضر تأويلَ أعماله التي قام بها لموسى عليه السلام بدأ ببيان سبب خرقه السفينة، فبيان سبب قتله الغلام، فبيان سبب إقامة الجدار.

ثانياً: ومن أمثلة اللَّفِّ والنشْر غير المرتب ما يلي:

المثال الأول: قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الضحى/ ٩٣ مصحف/

١١ نزول) لرسوله محمَّد ﷺ:

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾

هذه الجمل الثلاث تضمنت أفكاراً ثلاثة مفصلة، فهي لفتٌ مفصل، وجاء بعدها نشرٌ غير مرتب على وفق ما جاء في هذا اللف:

فجملته: ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٦﴾ ﴾ ملائمة للجمل الأولى ومتعلقة بها.

وجملته: ﴿ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ ﴾ ملائمة للجمل الثالثة ومتعلقة بها.

وجملته: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾ ﴾ ملائمة للجمل الثانية ومتعلقة بها، لأن

معنى: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ ووجدك جاهلاً فعلمك مسائل الدين، وهي النعمة الكبرى التي أنعم الله بها عليه وعلى الناس، وأتمها يوم أنزل على رسوله قوله في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿ ... أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ... ﴾

[الآية ٣].

فالتحديث بنعمة الله هو تبليغ هذا الدين وهداية الناس إليه وتعليمهم إياه.

والحكمة في الترتيب الذي جاء في اللف موافقة الترتيب الذي حصل في حياة الرسول ﷺ: فالإيواء من اليتم كان أولاً، والهداية جاءت ثانياً قبل النبوة وبعدها، والغنى جاء ثالثاً.

والحكمة في الترتيب الذي جاء في النشر على خلاف الترتيب الذي جاء في اللف: أنه جاء بتكاليف يحسن فيها قرن النظائر بعضها مع بعض، فالتنهي عن قهر اليتيم يلائمه النهي عن نهر السائل، وبعده ذلك يحسن الختم بالأمر بتبليغ الدين والتحديث بما أنعم الله به على رسوله من علم وهدى.

المثال الثاني: قول «ابن حيوس»:

كَيْفَ أَسْلُوَ وَأَنْتِ حِقْفٌ وَغُضُنٌ وَغَزَالٌ لَحْظًا وَقَدَاً وَرِذْفًا

الحِجْفُ: كَثِيبُ الرَّمْلِ، يَسْتَحْسِنُ الأَدْبَاءُ تَشْبِيهَ الأَرْدَافِ بِهِ.

جاء اللَّفَّ المِفْصَلُ في (حِجْفٌ - غُصْنٌ - غَزَالٌ).

وجاء النشْرُ على عكس ترتيب اللَّفِّ، إذ اللَّخْطُ للغزَالِ، وَالْقَدُّ لِلْغُصْنِ،

وَالرَّدْفُ لِلحِجْفِ.

اللَّفَّ المِجْمَلُ:

وإذا جاء لَفٌّ المِتَعَدَّدُ مِجْمَلًا فالنشر بعده مجرد بيانٍ تفصيليٍّ للمِجْمَلِ، ومن

أمثله ما يلي:

المثال الأول: قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿١٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فِرْجَالًا أَوْ

رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٩﴾ . . . ﴾.

جاء اللَّفُّ المِجْمَلُ في عبارة: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ ﴾ خطاباً للمؤمنين حالة الحرب.

وبعده جاء النشر المِفْصَلُ في عبارة ﴿ فِرْجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ﴾.

رِجَالًا: جَمْعُ «رَاجِلٍ» وهو الماشي على قدميه، خلاف الراكب.

أي: فالرجال منكم يُصَلُّونَ رِجَالًا، والرُّكْبَانُ منكم يُصَلُّونَ رُكْبَانًا على قدر

استطاعة كلِّ مِنْهُمْ.

المثال الثاني: قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الحج/ ٢٢ مصحف/

١٠٣ نزول) في حكاية قوله لإبراهيم عليه السلام:

﴿ وَادِّئِن فِي النَّاسِ بِالْحَيِّجِ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ

عَمِيقٍ ﴿١٧﴾ .

جاء اللَّفُّ المِجْمَلُ في عبارة: ﴿ وَادِّئِن فِي النَّاسِ ﴾ خطاباً لإبراهيم عليه

السلام.

وجاء النشر المفصل في عبارة: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ أي: يَأْتِكَ فَرِيقٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالًا مَشَاءَ عَلَىٰ أَقْدَامِهِمْ، وَيَأْتِكَ فَرِيقٌ آخَرَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ مِنَ الدَّوَابِّ لَطَوِيلِ السَّيْرِ فِي السَّفَرِ إِلَىٰ الْبَلَدِ الْحَرَامِ.

المثال الثالث: قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١٣﴾﴾.

جاء اللفَّ المجمل في عبارة: ﴿وَقَالُوا﴾ أي: وقال اليهود والنصارى.

وجاء النشر المفصل بعد ذلك مع الإيجاز البالغ فيه، والمعنى: قَالَتِ الْيَهُودُ: لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ مِنَ الْيَهُودِ، وَقَالَتِ النَّصَارَى: لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ مِنَ النَّصَارَى.

ولم يحصل لَبْسٌ فِي اللفَّ لِلْعَلَمِ بِأَنَّ كُلًّا مِنَ الْفَرِيقَيْنِ يَعْتَبِرُ الْفَرِيقَ الْآخَرَ ضَالًّا وَمِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَهَذَا هُوَ الْمَسْوُوعُ لِلْإِجْمَالِ فِي اللفَّ.

المثال الرابع: قول الأعشى:

يَدَاكَ يَدَا صِدْقٍ فَكَفَّ مُفِيدَةً وَكَفَّ إِذَا مَا ضُنَّ بِالْمَالِ تُنْفِقُ

جاء اللفَّ المجمل في عبارة: [يَدَاكَ يَدَا صِدْقٍ].

وجاء النشر المفصل في عبارة: [فَكَفَّ مُفِيدَةً وَكَفَّ إِذَا مَا ضُنَّ بِالْمَالِ تُنْفِقُ].

* * *

وأما التقسيم: فله إطلاقات ثلاثة:

الإطلاق الأول للتقسيم:

التقسيم الذي هو كاللفَّ والنشر: في ذكر متعدّد أولاً مفصّلٍ أو مجمل، وإتباعه بمتعدّدٍ آخر يتعلّق كلّ واحدٍ من أعداده بواحدٍ من المتعدّد السابق، باستثناء

قيد واحد، فالتقسيم فيه تعيين كل واحد من المتعدد اللاحق بصاحبه من المتعدد السابق، بخلاف اللف والنشر إذ القيد فيه أن يكون بدون تعيين، وأن يكون الاعتماد فيه على فهم المتلقي، وهذا هو الفرق بينها، ولف والنشر مقتضيات أحوال يحسن فيها، وللتقسيم مقتضيات أحوال يحسن فيها، ومن الأحوال التي يحسن فيها التقسيم: الأحوال التي يُراد فيها النصّ الواضح القاطع للاحتتمالات، والأحوال التعليمية، وأحوال المخاطبين الذين يغسر عليهم التوزيع الملائم بين المتعددات اللاحقة والمتعددات السابقة، والأحوال التي يحصل فيها اللبس لولا التعيين.

ويحسن أن يُسمّى هذا التقسيم «تقسيم اللف والنشر».

أمثلة:

المثال الأول: قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الحاقة) / ٦٩ مصحف/

٧٨ نزول):

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ ﴾

جاء المتعدد الأول مُفَصَّلًا، وجاء المتعدد اللاحق المتصل به والتابع له مُفَصَّلًا مُعَيَّنًا، لأمن اللبس.

المثال الثاني: قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الانشقاق) / ٨٤ مصحف/

٨٣ نزول):

﴿ يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَنَتَقَلَّبُ إِلَيْكَ أَهْلِيهِمْ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصِلُكَ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾

جاء المتعدد الأول مجملًا بعبارة: ﴿ يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ... ﴾ .

وجاء تقسيمه وأحكام كل قسم بعبارته: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوْفِيَ كِتَابُهُ بِيَمِينِهِ ﴾ ﴿٧﴾ وعبارته: ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوْفِيَ كِتَابُهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴾ ﴿١١﴾ . . . ﴿ .

المثال الثالث: قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (آل عمران) / ٣ مصحف / ٨٩ (نزل):

﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ ﴿١١﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ أَيْضَتْ وُجُوهُهُمْ فَبِمَا خَلَدُوا ﴿٧﴾ .

جاء المتعدد الأول مفضلاً بعبارته: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ .

وجاء تقسيمه وبيان أحكام كل قسم على التعيين بعبارته:

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ ﴾ وعبارته: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ أَيْضَتْ وُجُوهُهُمْ . . . ﴾ .

والأمثلة من القرآن على هذا كثيرة.

المثال الرابع: قول أبي تمام في بيان منهج الدعوة إلى قبول الإسلام أو القتال بالسيف:

فَمَا هُوَ إِلَّا الْوَحْيُ أَوْ حَدُّ مُرْهَفٍ تَمِيلُ ظُبَاهُ أَخْدَعِي كُلَّ مَائِلٍ
فَهَذَا دَوَاءُ الدَّاءِ مِنْ كُلِّ عَالِمٍ وَهَذَا دَوَاءُ الدَّاءِ مِنْ كُلِّ جَاهِلٍ

الوحي: أي القرآن المجيد، وبيان الرسول ﷺ .

أَوْ حَدُّ مُرْهَفٍ: أي: أَوْ حَدُّ سَيْفٍ مُرْهَفٍ. المرهف المَسْتُون ذُو الشفرة الرقيقة .

ظُبَاهُ: الظُّبَةُ حَدُّ السَّيْفِ وَالسَّنَانِ وَالخِنْجَرِ وَنَحْوَهَا وَجَمْعُهَا «ظُبَاءٌ» وَ «ظُبَاءَةٌ» وَ «ظُبُونٌ» .

أَخْدَعِي كُلَّ مَائِلٍ: الْأَخْدَعُ أَحَدُ عَرَقَيْنِ فِي جَانِبِي الْعُنُقِ، وَهِيَ الْأَخْدَعَانُ . . .

جاء المتعدد الموصوف مفضلاً بقسمي: «الوحي» و «حدَّ مرهف» .

وجاء تعيين ما يتعلق بالقسم الأول بعبارة: «فهذا دواء الداء من كل عالم» .
وجاء تعيين ما يتعلق بالقسم الثاني بعبارة: «وهذا دواء الداء من كل جاهل» .

* * *

الإطلاق الثاني للتقسيم:

أن تُذكَرَ متعدّدات ويُذكَرَ إلى جانب كلِّ واحدٍ منها ما يَتَعَلَّقُ به، ويحسُن أن يسمّى هذا التقسيم «التقسيم المذيل» .

ومن الأمثلة على هذا الإطلاق ما يلي:

المثال الأول: ما رواه مسلم وغيره عن أبي مالك الأشعري أن النبي ﷺ

قال:

«الطَّهُورُ شَطْرُ الإِيْمَانِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ المِيزَانَ، وَسَبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأَنَّ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَالصَّلَاةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُوا فَبِأَيِّ نَفْسٍ: فَمُعْتَقُهَا أَوْ مُؤَبِّقُهَا» .

جاء في هذا الحديث وفق هذا الإطلاق أقسامٌ سبعة، آخرها: «والقرآن حجة لك أو عليك» .

أمّا عبارة: «كُلُّ النَّاسِ يَغْدُوا فَبِأَيِّ نَفْسٍ: فَمُعْتَقُهَا أَوْ مُؤَبِّقُهَا» . فتصلح مثلاً للإطلاق الأول للتقسيم، والمتعدّد الأول منه جاء مجملاً، والمتعدّد التالي المتعلق به جاء مفصلاً، أي: فَمُعْتَقٌ مُعْتَقٌ نَفْسَهُ مِنَ النَّارِ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ وَقَسَمٌ مُؤَبِّقٌ نَفْسَهُ أَي: مهلكها ومعرضها للعذاب بالنار بما يكتسب من معاصي وآثام .

المثال الثاني: قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

«أَحْسِنِ إِلَى مَنْ سِئْتَ تَكُنْ أَمِيرَهُ، وَاسْتَعْنِ عَمَّنْ سِئْتَ تَكُنْ نَظِيرَهُ، وَاحْتَجِ إِلَى مَنْ سِئْتَ تَكُنْ أُسِيرَهُ» .

المثال الثالث: قول أبي الطيب المتنبي:

سَأَطْلُبُ حَقِّي بِالْقَنَاءِ وَمَشَايخِ كَأَنَّهُمْ مِنْ طُولِ مَا التَّمُّوا مُرْدُ
ثِقَالٍ إِذَا لَاقُوا خِفَافٍ إِذَا دُعُوا كَثِيرٍ إِذَا شَدُّوا قَلِيلٍ إِذَا عُدُّوا

التَّمُّوا: وَضَعُوا اللَّثَامَ عَلَى وُجُوهِهِمْ، فيظهرون كأنَّهُمْ مُرْد.

إِذَا دُعُوا: أَي: إِذَا دُعُوا لِمَنَاصِرَتِهِ فِي قِتَالٍ.

إِذَا شَدُّوا: أَي: أَقْبَلُوا مُحَارِبِينَ مِقَاتِلِينَ، يُقَالُ شَدَّ فِي الْحَرْبِ، إِذَا أَقْبَلَ.

بقوة.

المثال الرابع: قول المتنبي أيضاً يصف حسناءه:

بَدَتْ قَمْرًا وَمَالَتْ خُوطَ بَانَ وَفَاحَتْ عَنَبْرًا وَرَنَتْ غَزَالًا

خُوطَ بَانَ: الْخُوطُ: الْغُضُنُ النَّاعِمُ اللَّيِّنُ. وَالْبَانُ: شَجَرٌ سَبَطَ الْقَوَامِ لَيْنٍ،

ورقه كورق الصفصاف، واحدته «بانة».

رَنَتْ: أَي: أَدَامَتِ النَّظَرَ مَعَ سَكُونِ الطَّرْفِ.

* * *

الإطلاق الثالث للتقسيم:

هو التقسيم الذي تُستوفى به أقسام الشيء الموجودة في الواقع، أو تُستوفى به

الأقسام العقلية، وَيَحْسُنُ أَنْ يُسَمَّى هَذَا «التقسيم المستوفى».

أمثلة:

المثال الأول: قول «أبي تمام»:

إِنْ يَعْلَمُوا الْخَيْرَ يُخْفُوهُ وَإِنْ عَلِمُوا شَرًّا أَذَاعُوا وَإِنْ لَمْ يَعْلَمُوا كَذَبُوا

المثال الثاني: قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الروم) / ٣٠ مصحف/

(٨٤ نزول):

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا. . . ﴾ [الآية ٢٤].

فجاء في هذه الآية استيفاء أقسام الغاية من ظاهرة البرق، إذ ليس في رؤية البرق إلاّ الخوف من الصواعق، والطّمع في الأمطار، ولا ثالث لهذين القسمين بالنسبة إلى الرّائين من عامّة الناس.

المثال الثالث: قول الله عزّ وجلّ في سورة (فاطر) / ٣٥ مصحف/

٤٣ نزول):

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُذِنُ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ ﴿٣٦﴾

إنّ واقع حال المؤمنين المسلمين لا يخلو أحدهم من أن يكون واحداً من هؤلاء الأقسام الثلاثة: إمّا ظالم لنفسه بالمعاصي، وإمّا مقتصد بفعل الواجبات وترك المحرّمات، وإمّا سابقٌ في الخيرات بإذن الله بأعمال البر وأعمال الإحسان، وهذه القسمة واقعيّة وعقليّة.

المثال الرابع: قول الله عزّ وجلّ في سورة (الواقعة) / ٥٦ مصحف/

٤٦ نزول) بشأن أقسام الناس يوم القيامة:

﴿ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿٩﴾ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّتِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾

أزواجاً ثلاثة: أي أصنافاً ثلاثة.

فالناس يوم القيامة يُفرّزون إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأوّل: الكافرون، وهم أصحابُ المشأمة.

القسم الثاني: المؤمنون غير السابقين، وهم أصحاب الميمنة.

القسم الثالث: المؤمنون السابقون، ذوو الدرجات العليّة.

وقد ذكر النص أصحاب الميمنة أولاً، وبعدهم أصحاب المشأمة، ثم فرز السابقين من أصحاب الميمنة تمييزاً لهم وإعلاءً لمكانتهم.

المثال الخامس: قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الشورى) / ٤٢ مصحف/

٦٢ نزول):

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذَّكَورَ ۖ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾.

هذا النص استوفى أقسامَ أحوالٍ مَنْ يُولَدُ لهم مواليد أو يُحْرَمُونَ منها مع اتّخاذهم أسباب الإنجاب، فهي أربعة أقسام لا خامس لها، وفق القسمة العقلية والواقعية.

فإمّا أن تكون الذّرية من الإناث، وإمّا أن تكون من الذكور، وإمّا أن تكون من الصنفين، وإمّا أن يكون الإنسان عقيماً لا يُنجب.

والأمثلة من القرآن على هذا الإطلاق الثالث من التقسيم كثيرة، فمنها ما جاء في سورة (مريم) الآية (٦٤) وسورة (الطور) الآية (٣٥) وسورة (المزمل) الآية (٢٠).



بدائع متجانسة حول أحوال روابط المعاني ووجوه اجتماعها وافتراقها وتقسيمها وتفرُّعها

يتناول الكلام هنا الاختيارات البديعة التالية:

- (١) الجمع .
- (٢) الجمع والتفريق .
- (٣) التقسيم .
- (٤) الجمع والتقسيم .
- (٥) الجمع مع التفريق والتقسيم .
- (٦) التفرُّع .

البيان:

تتوارد المعاني على فكر المتكلم فيرى بينها مفردات قضايا قابلة للجمع في قضية كُليَّة واحدة، فيدعوه الإيجاز والاقتصاد في التعبير إلى جَمْعِهَا في قضية واحدة.

فبدل أن يقول مثلاً:

- الخيلُ تأكلُ الخَضِرَ من نبات الأرض والحبّ .
- والبالغُ تأكلُ الخَضِرَ من نبات الأرض والحبّ .

- والحمير تأكلُ الخَضِرَ من نبات الأرض والحبّ.
 - والإبل تأكلُ الخَضِرَ من نبات الأرض والحبّ.
 - والبقر تأكلُ الخَضِرَ من نبات الأرض والحبّ.
 - والغنم تأكلُ الخَضِرَ من نبات الأرض والحبّ.
- يقول مثلاً:

- الدوابّ والأنعام تأكلُ الخَضِرَ من نبات الأرض والحبّ.
- أو الدوابّ والأنعام نباتيّة. أو تأكلُ النبات.

فيقتصر على جملة واحدة مختصرة يجمع فيها معاني جُمَلٍ عديدة، وهذا مسلك بديعٌ في جَمْعِ الأشباه والنظائر وإعطائها جميعاً حكماً واحداً إذا كانت مُشْتَرَكَةً فيه.

ومن هنا ظهرت في اللغات الكلمات الكلية التي تندرج تحتها أفراد كثيرة يجمّعها جامعٌ ما، وهذه الكلمات الكلية تجتمع في مفهومها أجناساً وأنواعاً وأصنافاً.

وظهر هذا بوضوح لعلماء المنطق فقَسَّمُوا الكليات إلى خمس، هي:

- (١) «الجنس» مثل: جماد، نبات، حيوان.
- (٢) «النوع» مثل: إنسان، فرس، غزال.
- (٣) «الفصل» مثل: مفكر، ناطق.
- (٤) «العرض الخاص» مثل: ضاحك، كاتب.
- (٥) «العرض العام» مثل: ماشٍ، آكل، شارب.

ويأتي تحت تقسيم علماء المنطق كليات أخرى هي أصناف، وأقسام، وفئات، ونحو هذه الألفاظ التي تُطلَقُ على أفراد متعدّدة يجمعها جامعٌ ما، ففي نوع الإنسان نجد أصنافاً كثيرة، مثل: العربي، الأروبي، الفارسي، وهكذا في

كُلِّ كَلْبِي نجد أصنافاً وأقساماً وفئات، هي في ذاتها كليات مندرجة في الكليات الأكبر منها، والأكثر عددَ أفراد، وتتنازل وتتصاغر دوائر الكليات حتى أصغرها.

والألفاظ الدالة على معاني كلية عند الأديب قد تكون دلالتها على سبيل الحقيقة، أو على سبيل المجاز، أو على سبيل الادعاء لداعٍ بلاغيّ.

وتوجد أمام المتكلم الأديب في هذا المجال أحوال متعدّدة، ووجوه من الكلام مختلفة، ومتفاضلة فيما بينها بلاغيّاً وفتياً، وعليه أن يختار ما يراه منها أكثر ملاءمة لمقتضى أحوال المتلقين.

ومن هذه الوجوه ما سبق بيانه في مبحث «اللف والنشر» وتابعه مبحث «التقسيم».

ومن هذه الوجوه ما يأتي بيانه وتفصيله هنا، ولتحديد المعالم بوضوح أعرضُ الحالات، والأسلوب البديع الذي يحسن اختياره في كلِّ منها:

الحالة الأولى:

أن يجتمع مُعَيَّنَان أو صِنْفَان أو نوعان أو جنسان أو أيُّ مختلفين فأكثر في حكم واحد، وفي هذه الحالة يكون من الإيجاز من جهة، ومن بديع الكلام من جهة أخرى، صياغةً تعبير واحد مختصر، تُدَكِّرُ فيه المختلفات إمّا بأفرادها إذا كان كلٌّ فردٍ منها مُعَيَّنًا، وإمّا بلفظ كَلْبِي يَجْمَعُهَا إذا لم يكن للمتكلم غرضٌ في تعيين الأشخاص، أو كان الأفراد غير محصورين، وكان الغرض تعميم الحكم على كلِّ الأفراد.

وهذا ما يُطَلَقُ عليه في فن البديع «الجمع في الحكم».

أمثلة:

المثال الأول: قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (المائدة) ٥ مصحف/

١١٢ نزول):

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

هذه الأصناف المتعددة: «الخمير - الميسر - الأنصاب - الأزلام» جُمِعَتْ في حكم واحد وهو كونها رِجْساً معنوياً، وكون الله قد أمر المؤمنين باجتنابها.

المثال الثاني: قول «أبي العتاهية»:

إِنَّ الشَّبَابَ وَالْفَرَاغَ وَالْجِدَّةَ مَفْسَدَةٌ لِلْمَرْءِ أَيُّ مَفْسَدَةٍ الْجِدَّةُ: السَّعة في امتلاك المال، مصدر «وَجَدَ» وَجِدًا وَجِدَةً إِذَا صَارَ ذَا مَالٍ. فاجتمعت هذه الثلاثة في كونها مَفْسَدَةً، فأعطيت في بديع القول حكماً واحداً.

المثال الثالث: قول ابن الرومي:

أَرَأَيْتُمْ وَوُجُوهُكُمْ وَسُيُوفُكُمْ فِي الْحَادِثَاتِ إِذَا دَجَّوْنَ نُجُومَ فَجَمَعَ آراء الممدوحين ووجوههم وسُيُوفَهُمْ في حكم واحد، وهو كونها كالنجوم في الحادثات المظلمات.

والأمثلة القرآنية على الجمع في الحكم كثيرة.

* * *

الحالة الثانية:

أن يكون بعض ما يَنْطَبِقُ عليه اللَّفْظُ الْكُلِّيُّ من أفراد له حُكْمٌ خَاصٌّ به، وبعضه الآخر لهُ حُكْمٌ آخَرُ.

وفي هذه الحالة يكون من الإيجاز في التعبير من جهة، ومن بديع الكلام من جهةٍ أخرى، ذَكَرُ اللَّفْظُ الْكُلِّيُّ للدلالة به على أن أفراده يجمعها معنى جامع، وبعد ذلك يُفَرِّقُ في الحكم، فيُعْطَى لكلِّ قِسْمٍ حُكْمُهُ الْخَاصُّ به.

وهذا ما يُطْلَقُ عليه في البديع: «التفريق في الحكم».

أمثلة:

المثال الأول: قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول)

بشأن يوم القيامة:

﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ سُقِيَ وَسَعِيدٌ ﴿١١٥﴾﴾.

لَا تَكَلِّمُ: أي: لَا تَتَكَلَّمُ.

ففي هذه الآية تفريق في الحكم بين بعض النفوس وبعضها الآخر، بعد كونها داخلَةً في عموم كلمة «نفس» التي هي كُلِّيٌّ يشمل كلَّ فردٍ ذي نفس من خَلْقِ الله عزَّ وجلَّ مسؤولة عن اختياراتها.

المثال الثاني: قول «الوطواط»:

مَا نَوَالُ الْغَمَامِ وَقَتَ رَيْعٍ كَنَوَالِ الْأَمِيرِ يَوْمَ سَخَاءِ
فَنَوَالِ الْأَمِيرِ بَدْرَةَ عَيْنِ وَنَوَالِ الْغَمَامِ قَطْرَةَ مَاءِ

فبعد أن ذكر النوال الذي هو لفظٌ كُلِّيٌّ يَجْمَعُ في أفرادهِ نَوَالِ الأمير حين يعطي، ونوال الغمام حين يمطر، فَرَّقَ في الحكم، فأبان أن نوال الأمير بَدْرَةُ عَيْنِ، أي: كيس مملوءٌ ذهباً، وأن نوال الغمام قطرة ماء.

المثال الثالث: قول «صَفِيِّ الدِّينِ الْحَلِيِّ» في ممدوحه:

فَجُودٌ كَفَيْهِ لَمْ تُقْلِعْ سَحَائِبُهُ عَنِ الْعِبَادِ وَجُودُ السُّحْبِ لَمْ يَدُمِ

المثال الرابع: قول «المتنبّي» يخاطبُ سَيِّفُ الدَّوْلَةِ، وهو من لطيف

«التفريق في الحكم» لاقتراحه بالاستدلال بالنظير:

فَإِنَّ تَفْقِ الْأَنَامِ وَأَنْتَ مِنْهُمْ فَإِنَّ الْمِسْكَ بَعْضُ دَمِ الْغَزَالِ

* * *

الحالة الثالثة:

أن تكون وحدات المعنى الكُلِّي الذي دلَّ عليه المتكلم بعبارة ما، تجتمع في حكم وتفترق في حكم آخر يَلْمَحُه أديبٌ فطنٌ بفطنته البلاغيَّة، فيسوق تعبيره الأدبي البديع دالًّا به على حُصُول الاجتماع من جهة الحكم الجامع، وحصول الافتراق من جهة الحكم المختلف.

وهذا ما يُطلَقُ عليه في البديع «الجمع مع التفريق».

وإذا كانت جهة التفريق جهةً تفاضل في نسبة الصفة لاجهة وجود الصفة وعدمها، فقد يطلقون عليه في البديع «جمع المؤنث والمختلف» وهذا فيما أرى تدقيق لا لزوم له، ويُمثَّلون لهذا بقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) بشأن داود وابنه سليمان عليهما السلام:

﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخْتَصِمَانِ فِي الْخَرِثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحَكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَاهُمْ حُكْمًا وَعِلْمًا . . . ﴿٧٩﴾﴾

ففي هذا النَّصِّ تسويةٌ بين داود وسليمان بأنَّ الله آتاهما حُكْمًا وَعِلْمًا، وتفضيلٌ لسليمان في تفهيمه الحكم الأكثر تحقيقاً للعدل في القضية التي جاء بيانها في النَّصِّ وقضى فيها داود بقضاء استدرك عليه فيه ابنه سليمان وكان صغير السن.

أمثلة:

المثال الأول: قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/

٥٠ نزول):

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَحَوَّنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ فَضَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾

أبانَ هذا النَّصِّ أَنَّ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ قَدْ اجْتَمَعَا فِي كَوْنِهِمَا آيَاتٍ مِّنْ آيَاتِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي كَوْنِهِ (هذه جهة اجتماع).

وَأَنَّ آيَةَ اللَّيْلِ آيَةٌ مَّخْوِي، أَي: إِزَالَةُ سَبَبِ رُؤْيَةِ ذَوِي الْأَبْصَارِ لِلْأَشْيَاءِ، وَهُوَ الضُّوْءُ، أَمَّا آيَةُ النَّهَارِ فَهِيَ آيَةٌ إِبْصَارِ، أَي: آيَةٌ إِجْعَادِ سَبَبِ رُؤْيَةِ ذَوِي الْأَبْصَارِ لِلْأَشْيَاءِ (وَهَذِهِ جِهَةٌ افْتِرَاقٌ).

وفي هذا النص من البديع أيضاً «لَفٌ وَنَشْرٌ»:

فَاللَّفُ فِي ذِكْرِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَالنَّشْرُ فِي بَيَانِ الْحِكْمَةِ مِنَ النَّهَارِ، وَهِيَ أَنْ يَبْتَغِيَ النَّاسُ أَرْزَاقَهُمْ وَحَاجَاتَهُمْ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ، بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾. وَفِي بَيَانِ الْحِكْمَةِ مِنَ التَّعَاقُبِ بَيْنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَهِيَ أَنْ يَعْلَمَ النَّاسُ عِدَدَ السَّنِينَ وَالْحِسَابِ، عَنْ طَرِيقٍ مَا يَجْرِي فِيهِمَا مِنْ تَغْيِرَاتٍ سَبَبِ حَرَكَةِ الْأَرْضِ حَوْلَ نَفْسِهَا وَحَوْلِ الشَّمْسِ، بِإِشَارَةِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السَّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾.

المثال الثاني: قول «رشيد الدين الطواط».

فَوَجْهُكَ كَالنَّارِ فِي ضَوْئِهَا وَقَلْبِي كَالنَّارِ فِي حَرِّهَا

فَجَمَعَ بَيْنَ قَلْبِهِ وَوَجْهِ مَحْبُوبِهِ فِي أَنَّهَمَا يُشْبَهُانِ النَّارَ.

وَفَرَّقَ بَيْنَهُمَا فِي وَجْهِ الشَّبَهِ، فَوَجْهُ مَحْبُوبِهِ يَشْبَهُ النَّارَ فِي ضَوْئِهَا، وَقَلْبُ الشَّاعِرِ يَشْبَهُ النَّارَ فِي حَرِّهَا.

المثال الثالث: قول البحري من قصيدة يمدح بها «أبا صقر» ويتغزل في

أولها:

وَلَمَّا التَّقَيْنَا «وَالنَّقَا» مَوْعِدٌ لَنَا تَعَجَّبَ رَائِي الدَّرَّ حُسْنًا وَلَا قِطْطَةً

فَمِنْ لَوْلُو تَجْلُوهُ عِنْدَ ابْتِسَامِهَا وَمِنْ لَوْلُو عِنْدَ الْحَدِيثِ تُسَاقِطُهُ

تُسَاقِطُهُ: تَتَابَعُ إِسْقَاطُهُ.

فَجَمَعَ بَيْنَ كَلَامِهَا وَأَسْنَانِهَا فِي أَنَّهَمَا يُشْبَهُانِ الدَّرَّ.

وفرقَ بينهما بأن لؤلؤ أسنانها تجلوه عند ابتسامها، أما لؤلؤ كلامها فتتابع إسقاطه من فمها ليلتقطه سَمع من تحدّثه.

* * *

الحالة الرابعة:

أن يكون المعنى الكُلّي الذي دَلَّ عليه المتكلم الأديب بعبارة ما ذا أقسام، يحسن لديه فنياً أن يبيتها، ويرى أن لها حكماً واحداً، ويرى فنياً أن يبين اجتماعها فيه، فيعبر عن الأمرين معاً بكلام واحد، فيقسم أولاً ويجمع ثانياً، أو يجمع أولاً ويقسم ثانياً.

وهذا ما يُطلق عليه في البديع «الجمع مع التقسيم».

أمثلة:

المثال الأول: قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (فاطر / ٣٥ مصحف / ٤٣ نزول) الذي سبق الاستشهاد به في التقسيم بشأن أمة محمد ﷺ خير أمة أُخرجت للناس:

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنُ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ ﴿٢٢﴾

جاء الجمع في هذه الآية ببيان أن أمة محمد ﷺ هي الأمة التي اصطفها الله وأورثها الكتاب الجامع للكتب الربانية السابقة وهو القرآن.

وجاء التقسيم ببيان أن هذه الأمة تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

- قسم ظالم لنفسه بالمعاصي مع صدق الإيمان والإسلام.
- وقسم مقتصد بفعل الواجبات وترك المحرمات دون توسع في النوافل والقربات، وهذه درجة سقف التقوى.

- وقسم سابق في الخيرات بإذن الله، وأهل هذا القسم إما أبرار، وإما محسنون، وجاء في القرآن تكريمهم باسم «عباد الرحمن».

المثال الثاني: قول المتنبي يذكر الواقعة التي وقعت بين سيف الدولة والروم في جمادى الأولى سنة (٣٣٩هـ):

حَتَّى أَقَامَ عَلَى أَرْبَاضِ خَرْشَنَةَ تَشْقَى بِهِ الرُّومُ وَالصُّلْبَانَ وَالْبَيْعُ
لِلسَّبِي مَا نَكَحُوا وَالْقَتْلَ مَا وَلَدُوا وَالتَّهْبِ مَا جَمَعُوا وَالنَّارِ مَا زَرَعُوا

عَلَى أَرْبَاضِ خَرْشَنَةَ: أَرْبَاضُ: جَمْعُ «رَبَضٍ» والرَّبَضُ ما حول المدينة من العمارة. وَخَرْشَنَةَ: اسم بلد من بلاد الروم.

الْبَيْعُ: جَمْعُ «الْبَيْعَةِ» وهي معبدُ النصارى.

جاء الجمع في البيت الأول ببيان شقاء الروم بإقامة سيف الدولة وجيشه على أرباض «خَرْشَنَةَ».

وجاء التقسيم في البيت الثاني ببيان أن نساءهم للسبي، ورجالهم للقتل، وأموالهم المنقولة للنهب، وما زرعوا للنار تأكلها.

المثال الثالث: قول حسان بن ثابت رضي الله عنه:

قَوْمٌ إِذَا حَارَبُوا ضَرُّوا عَدُوَّهُمْ أَوْ حَاوَلُوا النَّفْعَ فِي أَشْيَاعِهِمْ نَفَعُوا
سَجِيَّةٌ تِلْكَ مِنْهُمْ غَيْرُ مُحَدَّثَةٍ إِنَّ الْخَلَائِقَ فَاغْلَمَ شَرُّهَا الْبِدْعُ

جاء في البيت الأول تقسيم صفات من يمدحهم حسان، فهم بالنسبة إلى عدوهم يضرّونهم إذا حاربوهم، وبالنسبة إلى أشياعهم ينفعونهم إذا حاولوا نفعهم.

وجاء في البيت الثاني جمع الوصفين بأنهما سجيّة ثابتة من سجايهم الأصلية غير المتكلّفة تكلفاً مصطنعاً لأمر عارض، إذ هو يرى أن الخلائق المبتدعة المحدثة التي لا تكون ثمرة سجايا ثابتة هي شرّ الخلائق، إذ تكون مدفوعة بأغراض غير شريفة، ومنها النفاق.

* * *

الحالة الخامسة :

أن يكون المعنى الكلّي الذي دلّ عليه المتكلم الأديب بعبارة ما، ذا أقسام يحسُن في نفسه فنياً أن يبيّنها، ولها حكمٌ واحد يريد أن يبيّن اجتماعها فيه، وبين وحداتها أو أقسامها افتراق في أمرٍ آخر يرى فنياً أن يبيّنه أيضاً، فيعبّر عن كلّ هذه الأمور الثلاثة في كلامه .

وهذا ما يُطلق عليه في البديع : «الجمع مع التفريق والتقسيم» .

أمثلة :

المثال الأول : قول الله عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول)

بشأن اليوم الآخر :

﴿ ذَٰلِكَ يَوْمٌ يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١١٣﴾ وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١١٤﴾ يَوْمَ يَأْتُ لَا تَكَلِّمُنَّ نَفْسٌ إِلَّا بِذِئْبَةٍ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١١٥﴾ . . . ﴾ .

في هذا البيان جمعُ كلِّ النَّفْسِ بأنّها لا تتكلّم يوم القيامة إلا بإذن الله .

ويتابع النص فيقول الله تعالى :

﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١١٥﴾ .

في هذا البيان تفريق في الحُكم، ففريق شَقِيٌّ وفريق سعيد .

ويتابع النص فيقول الله تعالى :

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَيُنَادُونَ فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١١٦﴾ خَلْدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴿١١٧﴾ .

في هذا بيان وشرح حال القسم الأول، وهم أهل الشقاوة .

ويتابع النص فيقول الله تعالى :

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فَيُنَادُونَ فِي الْجَنَّةِ خَلْدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴿١١٨﴾ عَطَاءً غَيْرَ مَجْدُودٍ ﴿١١٩﴾ .

في هذا بيان وشرح حال القسم الثاني، وهم أهل السعادة .

فظهر بهذا التحليل في النصّ «الجمع مع التفريق والتقسيم».

المثال الثاني: قول «ابن شرف القيرواني» يمدح أميراً:

لِمُخْتَلِفِي الْحَاجَاتِ جَمْعٌ بِبَابِهِ فَهَذَا لَهُ فَنٌّ وَهَذَا لَهُ فَنٌّ
فَلِلْخَامِلِ الْعُلْيَا وَلِلْمُعْدِمِ الْغِنَى وَلِلْمُذْنِبِ الْعُتْبَى وَلِلْخَائِفِ الْأَمْنُ

لقد جمع في حكم واحد، وهو أن مختلفي الحاجات مجتمعون في باب

الأمير.

وفرق بين المجتمعين بأن كل واحد له فنٌّ مخالف لفنّ غيره.

وقسم في البيت الثاني:

- فأبان أنّ خَامِلَ الذِّكْرِ ينال من الأمير إعلاء شأنه.
- وأنّ الْمُعْدِمِ طالب المال يَنَالُ من الأمير الغنى.
- وأنّ المذنب الذي يرجو رفع العتب عنه ينال العتبى، أي: الرضا.
- وأنّ الخائف الذي يرجو الأمن ينال من الأمير الأمن.

* * *

الحالة السادسة:

أن يرى المتكلم الأديب أن المعنى الذي يُعبّر عنه بعبارة ما يتفرّع عنه معنى آخر، ويرى فتيّاً أنّ من البديع في القول أن يُعبّر عمّا لاحظه على سبيل التخيل أو الادّعاء.

ومعلوم أنّ كون الشيء فرعاً لشيء آخر ينتج عن ارتباطه به ارتباط الفرع

بالأصل.

والمتكلم الأديب يبني على ما تصوّر، فيفرّع فكرة عن فكرة، وبينها عليها، كما يكون الولد فرعاً لأبويه، وكما تكون أغصان الشجرة ونواميها فروعاً لساقها وجذرها.

وهذا ما يطلق عليه في البديع: «التفرّع».

ومن الأمثلة على التفريع قول «الكميت» يمدح آل البيت :

أَحْلَامُكُمْ لِسَقَامِ الْجَهْلِ شَافِيَةٌ كَمَا دِمَاؤُكُمْ تَشْفِي مِنَ الْكَلْبِ
فَفَرَعَ عَلَى الْحَكَمِ الْأَوَّلِ الَّذِي جَاءَ فِي الشَّطْرِ الْأَوَّلِ، الْحَكَمَ الَّذِي جَاءَ فِي
الشَّطْرِ الثَّانِي، وَأَوْضَحَ مِنْهُ قَوْلِي مِمَثَلًا لِلتَّفْرِيعِ :

تَعَلَّمَ الْغَيْثُ مِنْكَ الْجُودَ مُنْهَمِلًا فَكَيْفَ لَا تُرْتَجَى عِنْدَ الْمُلَمَّاتِ
وَاللَيْثُ يَحْلُمُ أَنْ يَلْقَاكَ قَائِدَهُ فَهَلْ لِبِأْسِكَ نَدٌّ فِي الْبُطُولَاتِ

● ومن التفريع قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنْ
السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ .

أي: فتنوع على فسقهم عن طاعة الله بتبديل القول الذي قيل لهم معاقبتهم
بإنزال الرجز (= العذاب) من السماء عليهم .

● وقول الله عزَّ وجلَّ فيها أيضاً بشأن مزاعم اليهود:

﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّكَارُ إِلَّا أَيُّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ
عَهْدَهُ ۗ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ .

أي: أتخذتُم عند الله عهداً فيتنفَع عنه أن لا يُخلفَ الله عهده؟ .

● وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) حكاية لما

قال موسى عليه السلام لسحرة فرعون:

﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ
أَفْتَرَى ﴿٦١﴾﴾ .

أي: لا تفتروا على الله كذباً بأعمال السُّحْرِ الَّتِي تخذعون بها أعينَ الناس

فيستأصلِكُم بعذابٍ شديد، والمعنى أن هذا الاستئصال يتفرَع عن افتراءكُم على الله
كذباً .

الإدماج

الإدماج فی اللغة: إدخال شیء فی شیء آخر، تقول مثلاً: أدمجتُ متاعی، إذا أدخلته فی ثوب أو حقیبة أو كيس أو نحوها، وأدمجتُ طرفَ الثوب، إذا لَفَقْتْ بعضه علی بعض فأخفیتُ مثلاً المهتریءَ من هذا الطرف وجعلت له طرفاً سلیماً.

الإدماج فی الاصطلاح هنا: إدخال فِكرة فی فكرة، أو غرضٍ بلاغی فی غرضٍ آخر، أو وجهٍ من وجوه البَدیع فی وجه منه آخر، بأسلوب من الكلام لا یتظهر منه إلا إحدی الفکرتین، أو أحدُ الغرضین، أو أحدُ الوجهین، فإذا تأمل المتفکرُ ظهرَ له المُدمجُ وسرُّه هذا الإدماج.

وعرفه القزوينی بقوله: هُوَ أَنْ يُضْمَنَ كَلَامٌ سَبَقَ لِمَعْنَى مَعْنَى آخَرَ.

كأن يُوجَّه الكلام فی القرآن لوعده الرسول والمؤمنین بالنصر والتأيید من الله عز وجل، ويُدمج فیهِ وَعِيدُ الكافرین بالهزيمة والانكسار والذلة والخذلان من الله عز وجل.

ولدى تحلیل كثير من النصوص یتظهر بالتأمل ما فیها من الإدماج فی الأفكار، والأغراض البلاغیة، ووجوه البدیع.

أمثلة:

المثال الأول: قول المتنبي یصِفُ لَيْلَهُ الطَّوِيلَ بسبب تراكم همومه علیه:

كَأَنَّ دُجَاهَهُ يَجْذِبُهَا سُهَادِي فَلَيْسَ تَغِيْبُ إِلَّا أَنْ يَغِيْبَا

أَقْلَبُ فِيهِ أَجْفَانِي كَأَنِّي أَعْدُبُهُ عَلَى الدَّهْرِ الدُّنُوبَا
دُجَى اللَّيْلِ : ظلمته الشديدة . والسَّهَادُ : الأَرْقُ .

لقد صَوَّرَ أن سبب طول ليله وبقاء ظلمته أن أرقه فيه يَجْدِبُ هذه الظلمة فيبقى بها الليل، فلا تغيب ظلمة الليل حتى يغيب أرقه ويأتيه النوم .

وذكر في البيت الثاني أَنَّهُ يُقَلِّبُ فِي دُجَى اللَّيْلِ أَجْفَانَهُ كَأَنَّهُ يَعْدُو عَلَى الدَّهْرِ دُنُوبَهُ ذَاتَ الْعَدَدِ الْكَثِيرِ الَّذِي لَا يُحْصَى، وقد ترك ما يقول الأرقون من أَنهم يَبِيتُونَ يَعْدُونَ نَجُومَ السَّمَاءِ، وشبهَ نَفْسَهُ بِمَنْ يَعْدُو ذُنُوبَ الدَّهْرِ الَّتِي لَا تُحْصَى، لِأَنَّهُ أَرَادَ أَن يُدْمِجَ شَكْوَاهُ مِنْ نَوَائِبِ الدَّهْرِ .

المثال الثاني: قول ابن المعتز في وصف نبات أصفر يسمي «الخيري»: «فَقَدْ نَفَضَ الْعَاشِقُونَ مَا صَنَعَ الْهَجْرُ بِالْوَانِهِمْ عَلَى وَرَقِهِ» أي: نفضوا صُفْرَةَ وجوههم التي صنعها الهجر على ورق هذا النبات، لقد كان يكفيهِ أَنْ يَصِفَهُ بِالصُّفْرَةِ، وَلَكِنَّهُ سَاقَ هَذَا الْمَعْنَى لِيُدْمِجَ مَا يَعْانِيهِ مِنْ هَجْرِ الْحَبِيبِ .

المثال الثالث: قول ابن نباتة:

وَلَا بُدَّ لِي مِنْ جَهْلَةٍ فِي وَصَالِهِ فَمَنْ لِي بِخِلِّ أَوْدَعِ الْحِلْمَ عِنْدَهُ
ضَمَّنَ الْغَزَلَ الَّذِي قَدْ يَجْرُهُ إِلَى ارْتِكَابِ جَهْلَةٍ مَا فِي وَصَالِ مَحْبُوبِهِ،
وَالخُرُوجَ بِهَا عَنْ حِلْمِهِ الَّذِي هُوَ وَصْفُهُ الدَّائِمُ، الْفَخْرَ بِأَنَّهُ حَلِيمٌ لَا يَجْهَلُ فِي
العَادَةِ، وَالشُّكُوءَ مِنْ فَقْدِ الْخِلِّ الْوَفِيِّ الَّذِي إِذَا أَوْدَعَ الْحِلْمَ عِنْدَهُ سَاعَةَ جَهْلِهِ
اسْتَرَدَّه مِنْ بَعْدِهَا، فَعَادَ إِلَى سِوَاهِ الْمَعْتَادِ، وَحِلْمِهِ وَرُشْدِهِ .



الاستتباع

الاستتباع: أَنْ يُؤْتَى بِالْكَلامِ لَغرضِ ما، كمدح أو ذم، على وجه يَسْتَبَعُ المدح أو الذمَّ بشيءٍ آخر، وهكذا سائر الأغراض.

أمثلة:

المثال الأول: سأل صديق صديقه: هل نجحت في شهادة الدكتوراه؟ فقال له: نلتها - والحمد لله - بدرجة الشرف، وغدا العمل الممتاز بمرتبة رفيع مُيسراً، وأصبحت العروس التي تترقب نجاحي مستعدة أن تنتقل إلى داري.

لقد سأله صديقه عن النجاح، إلا أن إعلانه الفرح بالنجاح استتبع إعلانه الفرح بالتفوق، والفرح بتأمين العمل، والفرح بقرع انتقال العروس إلى داره.

المثال الثاني: قول المتنبي يمدح سيف الدولة بالشجاعة وكثرة من قتل من

الأعداء:

نَهَبْتَ مِنَ الْأَعْمَارِ مَا لَوْ حَوَيْتَهُ لَهَيَّتِ الدُّنْيَا بِأَنَّكَ خَالِدٌ
أي: لو أنك حَوَيْتَ الأعمار التي نهبتها من قتلاك في الحرب فضَمَمْتَهَا إِلَى
عُمْرِكَ لَكُنْتَ خَالِداً، ولكان خُلُودُكَ نِعْمَةً لِلدُّنْيَا وَلَهَيَّتِ الدُّنْيَا بِذَلِكَ.

فجعل مدحه إياه بالشجاعة وكثرة من قتل في الحرب على وجه يستتبع مدحه بأن قَتَلَهُ للأعداء لم يكن بطراً وكبراً، وإنما كان لصلاح الناس، وتأمين سعادتهم.

نقل «أبو البقاء» في شرح هذا البيت، عن الربيعي أنه قال:

المدحُ في هذا من وُجوه، أَحَدُهَا: أَنَّهُ وَصَفَهُ بِنَهْبِ الأَعْمَارِ لا الأَمْوَالِ.
الثاني: أَنَّهُ كَثُرَ قَتْلَاهُ بِحَيْثُ لو وَرِثَ أَعْمَارَهُمْ خَلَدَ فِي الدُّنْيَا. الثالث: أَنَّهُ جَعَلَ
خُلُودَهُ صَلَاحاً لِأَهْلِ الدُّنْيَا بِقَوْلِهِ: «لَهْتَّتِ الدُّنْيَا». الرابع: أَنَّ قَتْلَاهُ لَمْ يَكُنْ ظالِماً
فِي قَتْلِهِمْ، لِأَنَّهُ لَمْ يَقْصِدْ بِذَلِكَ إِلاَّ صَلَاحَ الدُّنْيَا وَأَهْلِهَا، فَهَمَّ مَسْرُورُونَ بِبِقَائِهِ،
فَلِذَلِكَ قَالَ: «لَهْتَّتِ الدُّنْيَا» أَي: أَهْلُ الدُّنْيَا.

وقال أبو الفتح: لو لم يمدحه إلا بهذا البيت لكان قد أبقى له ما لا يمحوه
الزَّمان.

المثال الثالث: قولي صانعاً مثلاً لهذا النوع: «الاستباع»

أَسْعَدْتَ أَهْلِينَنا بِفَرْطِ الجُودِ وَالجُودُ مِنْكَ لَنَا شَقَاءُ حَسُودِ
جاء في الشطر الأول الثناء على الممدوح بالجود الذي أسعد أهل المادح.
واستتبع هذا مدحه أيضاً بأن جوده كان سبباً في شقاء الحسود.



التجريد

التجريد في اللغة: قَشْرُ الشَّيْءِ، كَقَشْرِ اللَّحَاءِ عَنِ الشَّجَرَةِ حَتَّى تَكُونَ مَجْرَدَةً مِنْ لِحَائِهَا، وَإِزَالَةُ مَا عَلَى الشَّيْءِ مِنْ ثَوْبٍ وَنَحْوِهِ، وَتَعْرِيبُهُ، وَإِزَالَةُ مَا عَلَى الْجِلْدِ مِنْ شَعْرٍ وَنَحْوِهِ.

التجريد في الاصطلاح هنا: أن ينتزع المتكلم الأديب من أمرٍ ما ذي وصفٍ فأكثر أمراً آخر فأكثر مثله في الصفة أو الصفات على سبيل المبالغة.

ويظهر لنا معنى المبالغة حينما نلاحظ أنها قائمة على ادعاء أن الشيء الذي يُتَّزَعُ منه مثله على سبيل التجريد هو بمثابة الذي يفيض بأمثال ما يُسْتَخْرَجُ منه دواماً.

فمن قال: «لي من فلان صديق حميم^(١)» فكأنما جرّد فلاناً من كلِّ ظواهره واستخرج منه صديقاً حميماً.

قال «أبو عليّ الفارسي» في سبب تسمية هذا النوع بالتجريد: «إنّ العرب تعتقد أنّ في الإنسان معنًى كامناً فيه، كأنّه حقيقته ومحصولُهُ، فُتَخْرَجُ ذَلِكَ المعنى إلى ألفاظها مُجْرَداً عن الإنسان، كأنّه غَيْرُهُ، وهو هو بعينه، كقولهم:

لَيْنٌ لَقِيْتُ فَلَانًا لَتَلْقِيَنَّ بِهِ الْأَسَدَ، وَلَيْنٌ سَأَلْتُهُ لَتَسْأَلَنَّ مِنْهُ الْبُحْرَ.

(١) الحميم: القريب الذي تودّه ويودُّك.

وهو عينه الأسد والبَحْرُ، لا أن هناك شيئاً مُفصلاً عنه أو متميزاً منه .

... وعلى هذا النمط كونُ الإنسان يخاطبُ نفسه حتى كأنه يقاومُ غيره،
كما فعل «الأعشى» في قوله: «ودَّعْ هُرَيْرَةَ إِنَّ الرِّكْبَ مُرْتَحِلٌ»

ويكون التجريد بأساليب من التعبير، منها الأساليب التالية:
الأسلوب الأول: التجريد باستخدام حرف الجرِّ «مِنْ» داخلاً على المتنزع

منه .

أمثلة:

المثال الأول: قولهم: «لِي مِنْ فُلَانٍ صَدِيقٌ حَمِيمٌ» .

أي: بلغ من الصداقة والمودة الصحيحة مبلغاً صحَّ معه أن يُسْتَخْرَجَ منه
صديقٌ آخرٌ مثله في صفاته، فهو منبعُ أمثاله .

المثال الثاني: قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/

٨٩ نزول):

﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ
الْمُقْلِحُونَ﴾ .

أي: ولتكونوا يا أيُّها الذين آمنوا بمحمد وبما جاء به عن ربِّه أُمَّةٌ يدعون إلى
الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر .

الأسلوب الثاني: التجريد باستخدام «الباء» الجارَّة داخلةً على المتنزع منه .

أمثلة:

المثال الأول: أن تقول: «لَيْتَن سَأَلْت فُلَانًا لَتَسَأَلَنَّ بِهِ الْبَحْرَ، وَلَيْتَن نَظَرْتَ إِلَيْهِ
لَتَرَيَنَّ بِهِ الْبُدْرَ، وَلَيْتَن سَمِعْتَ كَلَامَهُ لَتَجِدَنَّ بِهِ السَّحْرَ» .

المثال الثاني: قولي صانعاً مثلاً:

فَتَى كُنْتُ أَزْتَابُ فِي شَأْنِهِ وَأَحْسَبُهُ مَا كِرَافًا سِقَاً
فَلَمَّا تَقَصَّيْتُ أَسْرَارَهُ رَأَيْتُ بِهِ وَرِعاً صَادِقاً

الأسلوب الثالث: التجريد باستخدام «الباء» الجارة الداخلة على المنتزَع:
ومنه قول الشاعر:

وَشَوْهَاءَ تَعْدُو بِي إِلَى صَارِحِ الْوَعَى بِمُسْتَلْتِمٍ مِثْلِ الْفَنِيقِ الْمُرَحَّلِ
وَشَوْهَاءَ: أي: ورُبِّ فَرَسٍ شَوْهَاءَ قبيحة المنظر لِسَعَةِ أَشْدَاقِهَا، وهذا مما
يستحسنُ في الخيل المعدة للحرب.

تَعْدُو بِي: أي تُسْرِعُ بِي.

إلى صَارِحِ الْوَعَى: أي: إلى الصارخ الذي يَصْرُخُ داعياً إلى الحرب.

بِمُسْتَلْتِمٍ: الْمُسْتَلْتِمُ هو لابس لآمَةِ الْحَرْبِ، أي: عِدَّةِ الْحَرْبِ وسلاحها،
ويقصد نفسه، إذ هو الْمُسْتَلْتِمُ، والفرسُ تَعْدُو به، وهذا على سبيل التجريد، والباء
هنا داخلة على المنتزَع لا على المنتزَع منه.

مِثْلِ الْفَنِيقِ: الْفَنِيقُ هو الْفَحْلُ الْمَكْرَمُ عند أهله، شبه نفسه به.

الْمُرَحَّلُ: هُوَ الْبَعِيرُ الَّذِي وُضِعَ عَلَيْهِ رَحْلُهُ وَأُرْسِلَ مُنْدَفِعاً فِي رِحْلَتِهِ.

الأسلوب الرابع: التجريد باستخدام حرف الجرّ «في» داخلاً على المنتزَع

منه.

ومن أمثلته قولُ الله عزّ وجلّ في سورة (فُصِّلَتْ / ٤١ / مصحف / ٦١ نزول):

﴿ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ الَّذِينَ آتَوْا لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾

إنَّ جَهَنَّمَ هي دَارُ الْخُلْدِ يوم الدين لأعداء الله، ولكن جاء على طريقة
التجريد، إذ انْتزَع من جَهَنَّمَ دَارٌ وَجُعِلَتْ دَاراً لَهُمْ، بأسلوب استخدام «في» الجارة

الظرفية دَاخِلَةً عَلَى الْمُتَرَعِّعِ مِنْهُ .

الأسلوب الخامس: التجريد باستخدام العطف على الْمُتَرَعِّعِ مِنْهُ، مثل:
مَرَزْتُ بِالرَّجُلِ الْكَرِيمِ، وَالنَّسَمَةَ الْمُبَارَكَةَ، وَالْعَالَمَ التَّقِيَّ .

ففي هذا المثال عَطْفُ: النَّسَمَةِ الْمُبَارَكَةَ، وَعَطْفِ الْعَالَمِ التَّقِيَّ، عَلَى الرَّجُلِ الْكَرِيمِ، وَهَذَا الْعَطْفُ يَشْعُرُ بِأَنَّهُ عَطْفٌ تَغَايُرٌ، مَعَ أَنَّ الْمَعْطُوفَيْنِ هُمَا الرَّجُلُ الْكَرِيمُ نَفْسَهُ، وَلَكِنْ عَلَى طَرِيقَةِ التَّجْرِيدِ، فَكَأَنَّهُمَا شَخْصَانِ مَغَايِرَانِ لَهُ .

الأسلوب السادس: التجريد باستخدام الكناية، ومن الأمثلة على هذا قول الأَعْشَى:

يَا خَيْرَ مَنْ يَرْكَبُ الْمَطِيَّ وَلَا يَشْرَبُ كَأْسًا بِكَفٍّ مَنْ بَخِلًا
يريد أن ممدوحه لا يشرب كأساً بكفٍّ بخيل، إنما يشرب بكف كريم، وبما أن هذا الممدوح جواد كريم فهو لا يشرب غالباً إلا بكف نفسه، فقد جَرَدَ الأَعْشَى من ممدوحه شخصاً كريماً ورأى أنه لا يشرب إلا بكفه .

الأسلوب السابع: التجريد دون استخدام لفظ يَدُلُّ عَلَيْهِ، ومن الأمثلة على هذا قول مَسْلَمَةَ الْحَنْفِيِّ:

فَلَيْتَ بَقِيَّتُ لَأَرْحَلَنَّ بِغَزْوَةٍ تَحْوِي الْغَنَائِمَ أَوْ يَمُوتُ كَرِيمُ
أي: تحوي هذه الغزوة الغنائم التي يَنَالُ مِنْهَا ظَافِراً، أَوْ يَمُوتُ هُوَ فِيهَا، فَعَبَّرَ عَنْ نَفْسِهِ بِقَوْلِهِ: «أَوْ يَمُوتُ كَرِيمٌ» عَلَى طَرِيقَةِ التَّجْرِيدِ، لِئِنِّي عَلَى نَفْسِهِ بِصِفَةِ الْكَرِيمِ .

الأسلوب الثامن: التجريد عن طريق مخاطبة الإنسان نفسه، ومنه قول «الأعشى»:

وَدَّعْ هُرَيْرَةَ إِنَّ الرُّكْبَ مُرْتَحِلٌ وَهَلْ تُطِيقُ وَدَاعاً أَيُّهَا الرَّجُلُ

ومنه قول البوصيري في بُرْدَتِهِ يخاطب نفسه على طريقة التجريد:

أَمِنْ تَذَكُّرِ جِيرَانِ بِيْذِي سَلَمٍ مَزَجَتْ دَمْعاً جَرَى مِنْ مُقْلَةٍ بَدَمٍ

ومنه قول المتنبي يخاطب نفسه على طريق التجريد:

لَا خَيْلَ عِنْدَكَ تُهْدِيهَا وَلَا مَالَ فَلْيُسْعِدِ التُّطُقُ إِنْ لَمْ تُسْعِدِ الْحَالُ

ومن التجريد فرع سَمَوُهُ «عِتَابَ الْمَرْءِ نَفْسَهُ» وَضَرَبُوا لَهُ أَمْثَلَةَ مِنْهَا:

أَنْ يَقُولَ النَّادِمُ نَحْوُ: «يَا لَيْتَنِي» أَوْ «يَا حَسْرَتَا عَلَيَّ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ»

وَهُمَا مِمَّا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ .



المزوجة

یقال لغة: زوج بین الشیئین، إذا قرَنَ بینهما.

والمزوجة فی الاصطلاح هنا: ترتیبُ فعلٍ واحدٍ ذی تعلقینِ مُختلفینِ علی شرطٍ وجزأیه، لکنه إذ یرتَّبُ علی الشرط یرتَّبُ مقرونًا بأحدهما، وإذا یرتَّبُ علی الجزاء یرتَّبُ مقرونًا بالآخر منهما.

أمثلة:

المثال الأول: قول البحتری شکو هجر سعاد له:

إِذَا مَا نَهَى النَّاهِي فَلَجَّ بِي الْهُوَى أَصَاخَتْ إِلَى الْوَاشِي فَلَجَّ بِهَا الْهَجْرُ
أي: إذا نهاني الناهي عن حُبِّها فَلَجَّ (أي: تَمَادَى) بِي الْهُوَى أَصَاخَتْ هي إلى الواشي (أي: اسْتَمَعَتْ إليه) فَلَجَّ بِهَا الْهَجْرُ.

لقد زَوَجَ بَيْنَ نَهْيِ النَّاهِي له عن حُبِّها الواقع في كلامه شرطاً، وبين إِصَاخَتِهَا للواشي به، الواقع في كلامه جزاءً، في أن رَتَّبَ عليهما لَجَاجاً، لكنَّ اللَّجَاجَ الأول هو لَجَاجُ هَوَاهُ بِهَا، واللَّجَاجُ الآخر هو لَجَاجُهَا بِهِجْرِهِ. وهذا فنُّ بديع.

المثال الثاني: قول البحتری أيضاً من قصيدة يَمْدُحُ بِهَا المَتَوَكِّلَ عَلَى اللَّهِ، وفيها يَصِفُ فُرْسَانَ حَرْبٍ نَائِرَةً لِلأَخْذِ بِالثَّارِ من ذَوِي قُرْبَاهَا:

إِذَا اخْتَرَبْتُ يَوْمًا فَفَاضَتْ دِمَاؤُهَا تَذَكَّرْتُ الْقُرْبَى فَفَاضَتْ دُمُوعُهَا

إذا احْتَرَبَتْ: أي: إذا حَارَبَ بعضها بعضاً.

لقد زاوج بين الاحتراب الواقع في كلامه شرطاً، وبين تذكُّر القُرْبَى الواقع في كلامه جزاءً، في أن رَتَّبَ عَلَى كُلِّ مِنْهُمَا فَيْضاً، لكنَّ الفَيْضَ المَرْتَّبَ عَلَى الاحتراب هو فَيْضُ دِمَاءٍ، أمَّا الفَيْضُ المَرْتَّبَ عَلَى تذكُّر القُرْبَى فهو فَيْضُ دَمُوعٍ.



المُشَاكَلَة

المشاكلة في اللغة المشابهة والمماثلة .

والمشاكلة في الاصطلاح هنا : ذكرُ الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته .

أمثلة :

المثال الأول : قول «عمر بن كلثوم» :

أَلَا لَا يَجْهَلُنَّ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَجَهَلٌ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَ

سَمِيَ تَأْدِيبَ الْجَاهِلِ عَلَى جَهْلِهِ جَهْلًا مِنْ بَابِ الْمَشَاكَلَةِ، مَعَ أَنَّ التَّأْدِيبَ وَالْعِقَابَ لَيْسَا مِنَ الْجَهْلِ .

والمرادُ من الجهل هنا السَّفَهُ والغَضَبُ المنافي للحلم وما يَنْتُجُ عنه من أعمال

غَيْرِ حَمِيدَةٍ .

المثال الثاني : قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) :

﴿مَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ

الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٩﴾ .

إِنَّ مَقَابِلَةَ الاعتداء بمثله لَا يُسَمَّى فِي الْأَصْلِ اعتداءً، وَلَكِنْ سَوَّغَ هَذَا الْإِطْلَاقَ دَاعِي الْمَشَاكَلَةِ، وَلِيُعْطِيَ اللَّفْظُ مَعْنَى الْمَمَاتِلَةِ فِي تَطْبِيقِ الْعُقُوبَةِ دُونَ زِيَادَةٍ، لِأَنَّ مَعْنَى كَلِمَةِ «اعْتَدَى» فِي الْأَصْلِ تَجَاوَزَ حُدُودَ الْحَقِّ، وَمِنْ الْعَدْلِ أَنْ يُقَابَلَ التَّجَاوُزُ بِتَجَاوُزٍ مِمَّاثِلٍ لَهُ .

المثال الثالث: قول «ابن الرِّقَعَمَق» مُتَطَرِّفًا:

قَالُوا: اقْتَرَحْ شَيْئًا نُجِدُ لَكَ طَبِخَهُ قُلْتُ: اطْبُخُوا لِي جُبَّةً وَقَمِيصًا

فطلبَ طَبَخَ جُبَّةً وقميص على سبيل المشاكلة لطلبهم أن يطبخوا له شيئاً يأكله، ودلّ بهذا على أنه بحاجة إلى ما يلبسه.

ويتسرّع بعض البلاغيين وغيرهم فيمثّلون بأمثلة قرآنية على المشاكلة، وهي لدى التحليل اللغوي والرجوع إلى أصول المعاني لا يصحّ اعتبارها من المشاكلة، كألفاظ المكر، والكيد، والسيئة.



العكس المعنوي

وقد يسمّى «التبديل»

العكس المعنوي: هو أن يُؤتَى بأجزاء تالي الكلام على عكس ما جاء في أجزاء مُقدّمه.

ويحسُنُ هذا الفنُ البديعيُّ حين يكونُ كلُّ من مُقدّم الكلام وتاليه الذي هو عكسه مؤدّيّن من المعاني ما يُقصدُ لدى البلغاء، كقولهم: كلام الأمير أميرُ الكلام.

وللعكسُ صُورٌ، منها ما يلي:

(١) العكسُ بينَ طرفي جُملةٍ واحدة، مثل: كَلامُ الأميرِ أميرُ الكلام.

(٢) العكسُ بين مُتعلّقِي فِعْلَيْنِ في جملتين، مثل: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ

وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾.

(٣) العكسُ بينَ لَفْظَيْنِ في طرفي جُمْلَتَيْنِ، مثل قول الأب لمعلم ولده الذي

أُنْجَحَهُ في الامتحان بغير حق، فصار الولد يَسْقُطُ بعد ذلك في الامتحانات،

أُنْجَحْتَهُ بغير حقِّ فَسَقَطَ، ولو أسقطته بحقِّ لَنَجَحَ.

أمثلة:

المثال الأول: قولهم: عَادَاتُ السَّادَاتِ سَادَاتُ الْعَادَاتِ.

كلُّ من مقدّم الكلام وتاليه الذي هو عكسه في هذا التعبير ذو معنى مقصود،

والمعنيان متكاملان في موضوعهما.

المثال الثاني: قول الله عزّ وجلّ في سورة (فاطر / ٣٥ / مصحف / ٤٣ نزول):
﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ... ﴾ [الآية ١٣].

كلّ من مُقدّم الكلام وتاليه الذي هو عكسه ذو معنى مقصود، والمعنيان متكاملان في موضوعهما.

المثال الثالث: قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام / ٦ / مصحف / ٥٥ نزول):

﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [٥٢].

جاء في هذه الآية العكس البديع في عبارة ﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الآية ٥٢].

المثال الرابع: قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة / ٢ / مصحف / ٨٧ نزول):

﴿ أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةٌ اللَّيْلِ إِذَا جَاءَكُمْ فَاصْبِرُوا لَهَا إِنَّهَا لَمِنَ الْأَجَلِ وَأَنْتُمْ لَا تَوَّعُونَ... ﴾ [الآية ١٨٧].

المقدّم: ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ ﴾.

وعكسه التالي: ﴿ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ﴾.

المثال الخامس: قول الله عزّ وجلّ في سورة (المتحنة / ٦٠ / مصحف / ٩١ نزول)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مَهْجُرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَأَهُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ... ﴾ [الآية ١٠].

المقدّم: ﴿ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ ﴾.

وعكسه التالي: ﴿ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾.

المعنى: ليس للكافر حق في أن يستمتع بامرأة مؤمنة في حكم الإسلام، أي: ليس للمؤمنة أن تمكّنه من الاستمتاع بها بزواج جديد، ولا بحق زواج سابق، وليس للمجتمع الإسلامي أن يمكّنه من الزواج بها، أو من بقاء زواجه منها إذا أسلمت وبقي هو على كفره.

وكذلك ليس للمؤمنة حق في أن تستمتع بزواج كافر في حكم الإسلام، وعلى الدولة الإسلامية أن تُفرّق بينهما إذا أسلمت هي وبقي هو على كفره.

ونظير ما جاء في هذا النصّ ما جاء في قول الله عزّ وجلّ في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ . . . ﴾

[الآية ٥].

أي: يحلّ لكم أن تطعموهم من طعامكم، إذ ليس هذا الحكم موجّهاً لأهل الكتاب الذين لا يؤمنون بالقرآن ولا بالإسلام، إنما هو موجّه للمؤمنين.



الرُّجُوع

الرُّجُوع: فنُّ في مجرَى الكلام یَرْجِعُ فيه المتكلم إلى كلامه السابق فینْقُضُهُ ویُبْطِله، لداعِ بلاغی، كالتحسّر، والتحرّز، ودفع توهم قد یسبق إلى الذهن، واستدراكِ بقید، وبیانٍ للمراد من الكلام السابق وغير ذلك.

أمثلة:

المثال الأول: قول «زَهیر بن أبی سلمیٰ»:

قِفْ بِالذِّیَارِ الَّتِي لَمْ یَعْفُهَا الْقِدْمُ بَلَىٰ وَغَیْرَهَا الْأَرْوَاحُ وَالذِّیْمُ

لَمْ یَعْفُهَا: أي: لم یَمْحُ آثارها.

الأرواح: أي: الرِّیاح، یقال لغة: ریح وجمعها رِیاح وأزواح وأزِیاح، والرِیح: الهواء إذا تحرَّك.

الذِّیْمُ: جمع «الديمة» وهي المطر الذي يدوم زَمَانَهُ طویلاً.

نظر زهیر إلى ديار مَنْ یُحِبُّ فتواردت علیه الذکریات، فتمثَّلت صورتها فی نفسه كأنها مُشَاهِدَةٌ بعینیه، فوصفَ الذِّیَارَ بقوله: «لم یَعْفُهَا الْقِدْمُ» وما لَبِثَ طویلاً حتَّى انجلت تصوُّراته النفسیة، وشاهد الواقع، فلم یرَ فی الدِّیَارِ أثراً، فقال: «بَلَىٰ، وَغَیْرَهَا الْأَرْوَاحُ وَالذِّیْمُ».

أي: إنه أراد أن یُعَبِّرَ عن حالته التي تعرَّض لها فی النظرة الأولى ثم فی

النظرات التي جاءت بعدها، فصاغَ كلامه بأسلوب الادعاء أولاً، ونقض الادعاء ثانياً.

المثال الثاني: قول الحماسي «ابن الطَّريَّة»:

أَلَيْسَ قَلِيلاً نَظْرَةً إِنْ نَظَرْتُهَا إِلَيْكَ وَكَوَلًا لَيْسَ مِنْكَ قَلِيلاً
رأى الشاعر أولاً أن صاحبه إذا سمحت له بنظرة ينظرها إليها فإنها لا تعطيه
إلاً عطاءً قليلاً، فأطلق عبارته فقال: «أَلَيْسَ قَلِيلاً نَظْرَةً إِنْ نَظَرْتُهَا إِلَيْكَ» ولكن تنبَّه
عقبها إلى أن القليل منها بالنسبة إليه شيءٌ كثيرٌ يكثره حبُّه لها وشوقه إليها،
فاستدرك على نفسه، فنقض قوله بأسلوب زجرٍ نفسه على أول تفكيره وتعبيره
فقال: «وَكَوَلًا لَيْسَ مِنْكَ قَلِيلاً».

كلُّ هذه كانت خواطرَ مارةٍ في نفسه، فرأى بأسلوبه الأدبي أن يُعبرَ عنها كما
هي، ويُدوِّنُها في شعره.

ويُشبهُ قولَ هذا الحماس قولَ القائل:

قَلِيلاً مِنْكَ يَكْفِينِي وَلَكِنْ قَلِيلُكَ لَا يُقَالُ لَهُ قَلِيلاً
ونظيره قول المتنبّي من قصيدة يُمدحُ بها سيف الدولة:

وَجُودُكَ بِالْمُقَامِ وَلَوْ قَلِيلاً فَمَا فِيمَا تَجُودُ بِهِ قَلِيلاً
قال العكبري: «وهو منقول من قول «أشجع»:

وَقُوفُكَ بِالْمَطِيِّ وَلَوْ قَلِيلاً وَهَلْ فِيمَا تَجُودُ بِهِ قَلِيلاً
وكقول «إسحاق الموصلي»:

إِنَّ مَا قَلَّ مِنْكَ يَكْثُرُ عِنْدِي وَكَثِيرٌ مِمَّنْ تُحِبُّ الْقَلِيلُ
وكقول «إسحاق» أيضاً:

وَحَسْبِي قَلِيلٌ مِنْ جَزِيلِ عَطَائِهِ
وَهَلْ مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ قَلِيلٌ
وَكَقَوْلِ الْآخِرِ:

وَإِنَّ قَلِيلًا مِنْكَ لَوْ تَبَدَّلِينَهُ
شَفَاءً، وَقُلُّ لَيْسَ مِنْكَ قَلِيلٌ
الْقُلُّ: الشَّيْءُ الْقَلِيلُ.

يُرِيدُ أَنْ يَقُولَ: الْقُلُّ الَّذِي لَيْسَ مِنْكَ هُوَ الْقَلِيلُ، أَمَّا مِنْكَ فَكُلُّكَ كَثِيرٌ.



المذهبُ الكلامی

المذهب الكلامی: أن یأتی الأدیب البلیغ علی صحّة دعواه وإبطال دعوی خصمه بحجّة عقلیة برهانیة أو دُونها.

قالوا: هذه التسمیة تُنسبُ إلى الجاحظ، والسببُ فی إطلاق هذه التسمیة أنَّ عِلْمَ الكلام یستند فی حُججه إلى الحجج العقلیة، فإذا استخدم الأدیبُ الحجج العقلیة فی كلامه، فقد ذهب مذهبُ عُلَماءِ الكلام.

أمثلة:

المثال الأول: قول الله عزّ وجلّ فی سورة (الأنبیاء) / ٢١ مصحف/

(٧٣ نزول):

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

هُم يُنْشِرُونَ: أي: هُم أربابُ یُحیونَ المَوْتى.

لَوْ كَانَ فِيهِمَا: أي: فی السماوات والأرض.

ففی قول الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ حُجّة عقلیة، ممّا یحتجُّ به عُلَماءُ الكلام. والدلیلُ فیهِ یُسَمَّى عند عُلَماءِ المنطق، «قیاساً استثنائياً» وهو من قسم الشرطیة المتصلة، فهو قیاس استثنائی متّصل، له مقدّم وتالی كما یلی:

مقدم

التالي

- لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا
 - لكنهما لم تفسدا، كما هو مشاهد في الواقع.
- (هذه القضية الكبرى)
- (هذه القضية الصغرى).

إذن: فَلَيْسَ فِيهِمَا آلِهَةٌ بِحَقِّ إِلَّا اللهُ (هذه النتيجة - وقد رُفِعَ فيها المقدم).

المثال الثاني: قول الله عز وجل في سورة (الأنعام/ ٦ / مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْنَا بَشَرًا مِّنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ...﴾ [الآية ٩١].

قال اليهود في دعواهم الكاذبة ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْنَا بَشَرًا مِّنْ شَيْءٍ﴾ ليتسنى لهم إنكار كون القرآن منزلاً من عند الله عز وجل.

فجاء في النص تعليم الرسول وكل مسلم أن يطرح عليهم سؤالاً يتضمن حجة برهانية ضدهم، وهو: ﴿مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى﴾ وهو التوراة؟.

إنهم يؤمنون بأن الله أنزله، وكتبهم شاهدة بذلك، فإذا جحدوا أن يكون منزلاً من عند الله فقد نقضوا قضية كبرى من قضايا إيمانهم في دينهم، وإذا قالوا كما يعتقدون: أنزله الله على موسى، فقد نقضوا قولهم: ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْنَا بَشَرًا مِّنْ شَيْءٍ﴾.

فالحجة البرهانية دامغة لهم.

المثال الثالث: قولي من قصيدة بعنوان: «الصراع بين الحق والباطل»:

فَرِيقَانِ كُلُّ لَهْ خِطَّةٌ تُدْتَسُّ فِي الْأَرْضِ أَوْ تَغْسَلُ
نَقِيضَانِ مَا اثْتَلَفَا طَرْفَةً وَجَمْعُ النَّقِيضَيْنِ لَا يُعْقَلُ

فمن القضايا العقلية المنطقية أن النقيضين لا يجتمعان في شيء واحد، وإلى هذه الحقيقة أشار الله عز وجل بقوله في سورة (الأحزاب/ ٣٣ / مصحف/

٩٠ نزول):

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَتَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ الَّتِي تَظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلِكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴾ ﴿٤﴾ .

أي: فالقلب الواحد لا يقبل فكرتين متناقضتين، والزوجات لا تكون أمهات، والأدعياء لا يكونون أبناء.

المثال الرابع: قول «النابعة الذبياني» من قصيدة يعتذر فيها إلى «النعمان بن عمرو بن المُنذر» أحد ملوك آل غسان في الجاهلية، كانت له حوران وعبر الأردن وتلك الأنحاء، وكان النابغة قد مدح آل جفنة بالشام، فسَاءَ ذلك النعمان:

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيْبَةً وَلَيْسَ وَرَاءَ اللَّهِ لِلْمَرْءِ مَطْلَبُ
لَئِن كُنْتَ قَدْ بُلُغْتَ عَنِّي خِيَانَةً لَمُبْلِغِكَ الْوَاشِي أَغْشُ وَأَكْذَبُ
وَلَكِنِّي كُنْتُ امْرَأً لِي جَانِبُ مِّنَ الْأَرْضِ فِيهِ مُسْتَرَادٌ وَمَذْهَبُ
مُلُوكٌ وَإِخْوَانٌ إِذَا مَا مَدَحْتَهُمْ أَحْكَمُ فِي أَمْوَالِهِمْ وَأَقْرَبُ
كَفَعْلِكَ فِي قَوْمٍ أَرَاكَ اصْطَفَيْتَهُمْ فَلَمْ تَرَهُمْ فِي مَدْحِهِمْ لَكَ أَذُنْبُوا

ريبة: أي شكاً.

مُستَرَادٌ: مكانٌ أترددُ فيه لِطَلْبِ الرِّزْقِ، يُقال لغة: استرادَ الشيءَ، إذا طلبَهُ مُقبِلاً مُدبراً في مكانِ الطَّمَعِ في الحصولِ عليه.

يقول «النابعة» في اعتذاره «للنعمان»: إِنَّ لِي مَصَالِحَ فِي الْأَرْضِ الَّتِي اخْتَلَفُ إِلَيْهَا، وَأَتَرَدُّ فِي أَنْحَائِهَا، وَيُوجَدُ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ مُلُوكٌ وَإِخْوَانٌ، إِذَا أَنَا مَدَحْتُهُمْ حَكْمُونِي فِي أَمْوَالِهِمْ وَقَرِيبُونِي إِلَيْهِمْ، كَمَا تَفْعَلُ أَنْتَ حِينَمَا يَأْتِيكَ شُعْرَاءٌ مِنْ غَيْرِ شُعْرَائِكَ الْخَاصِّينَ بِكَ، فِيمَدْحُوكَ، فَإِنَّكَ تُكْرِمُهُمْ، وَتُجْزِلُ لَهُمُ الْعَطَايَا، وَلَا تَرَاهُمْ مُدْنِينَ، مَعَ أَنَّهُمْ فِي الْأَصْلِ شُعْرَاءُ لغيرِكَ، فَعَامِلِنِي كَمَا تَعَامِلُهُمْ.

الشاعر هنا يقيسُ حالتهُ على حالة شعراء آخرين، فعلوا مثله، ولم يعتبرهم
النعمان مذنبين، وهذا الاستدلال المنطقي في الشعر وارد على مذهب علماء الكلام
في تقديم الحجج العقلية، على أن النابغة جاهليٌّ جاء قبل علماء الكلام بقرون،
لكنه ساق في شعره دليلاً عقلياً.



المُبَالَغَة

المبالغة في اللغة: الاجتهاد في الشيء إلى حد الاستقصاء والوصول به إلى غايته، وتأتي بمعنى المغالاة، وهي الزيادة بالشيء عن حدّه الذي هو له في الحقيقة، يقال لغة: بالغ في الأمر مُبالغةً وبلاغاً، إذا اجتهد فيه واستقصى، وإذا غالى فيه أيضاً.

والمبالغة اصطلاحاً هنا: أن يدعي المتكلم لوصف ما أنه بلغ في الشدة أو الضعف حدّاً مستبعداً أو مستحيلاً.

الآراء حول قبولها أو عدمه:

- يرى بعض المتشدّدين رَفْضَها مطلقاً، لخروجها عن منهج الحقّ والصدق.
- ويرى المترخّصون قبولها مطلقاً، في التعبيرات الأدبيّة، بدعوى أن أعذب الشعر أكذبّه.

● أمّا جمهور العلماء والأدباء فقد توسّطوا في الأمر، فقبلوا من المبالغة ما كان منها حسناً جميلاً جارياً مجرّئ الاعتدال الذي لا يراه الناس مستكراً ولا مُسْتَهْجِناً، أو قائماً على التصوير الخيالي في سياق من الكلام يَسْمَحُ بذلك، بشرط أن لا يكون في المبالغة إيهاًمٌ بأنّ المتكلم يُقرّر حقيقة واقعة بكلّ عناصرها، بل يُدرِكُ المتلقّي أنّ الكلام مَسُوقٌ على سبيل المبالغة، فيأخذ منها المعنى المعتاد في الكثرة مع زيادة مقبولة.

أقسام المبالغة:

قسّم علماء البديع المبالغة إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: «التبليغ» وهي المبالغة الممكنة عقلاً وعادةً.

القسم الثاني: «الإغراق» وهي المبالغة الممكنة عقلاً لا عادةً.

القسم الثالث: «الغلو» وهي المبالغة غير الممكنة لافي العادة ولا في

العقل.

أمثلة:

المثال الأول: قول امرئ القيس، يصفُ فرسه بالقدرة على العدو الشديد، والمتابعة في الطراد، والصبر على التردّد السريع مُدَّةً طويلة بين طريدتين، دون أن يتصبّب عرفاً:

فَعَادَى عِدَاءَ بَيْنَ ثَوْرٍ وَنَعَجَةٍ دِرَاكًا فَلَمْ يَنْضَحْ بِمَاءٍ فَيُغْسَلِ
فَعَادَى عِدَاءَ: أي: وَالَى مُطَارِدَتَهُ لِصَيْدَيْنِ، يُتَابِعُ كُلًّا مِنَ الطَّرِيدَتَيْنِ.
وَالْعِدَاءُ: الشَّوْطُ الْوَاحِدُ مِنَ الْعَدُو.

بَيْنَ ثَوْرٍ وَنَعَجَةٍ: أي: بين ثور من بقر الوحش، وبقرة وحشية.

النَّعَجَةُ الْأُنْثَى مِنَ الضَّأْنِ، وَالْبَقْرَةُ الْوَحْشِيَّةُ، وَهِيَ الْمَرَادَةُ هُنَا.

دِرَاكًا: أي: مُلَاحَقَةً، يُقَالُ: دَارَكَ الطَّرِيدَةَ مِنَ الصَّيْدِ مُدَارَكَةً وَدِرَاكًا، إِذَا لَحِقَهَا.

فَلَمْ يَنْضَحْ بِمَاءٍ فَيُغْسَلِ: أي: فلم يتصبّب عرفاً، كما يحدث لغيره من الخيول.

هذه المبالغة يمكن أن نعتبرها من القسم الأول «التبليغ» لأنها ممكنة في

العقل والواقع.

أما قوله في وصفه :

مِكْرٌ مِفْرٌ مُقْبِلٌ مُذْبِرٌ مَعَا كَجُلْمُودٍ صَخْرٍ حَطَّ السَّيْلُ مِنْ عَلِيٍّ
فمن غير الممكن أن يكون في كرهه إلى الجهة التي يُقبلُ عليها فإرأ عنها، فهي
مبالغة من القسم الثالث «الغلو» لكنها مع ذلك مبالغة مقبولة، لأن امرأ القيس
يُصوّرُ مشاعره، ويُعبّرُ عما يتمثلُ في خيالِ المُشاهدِ حينَ يرى سُرْعَتَهُ الفائقة التي
يختلِطُ فيها الكَرُّ والفرّ، حتى كأنه يكرُّ ويقرُّ معاً، وهذا ما يُسمّى عند الأدباء
المعاصرين «الصدقُ الفني».

المثال الثاني : قول «المتنبي» يصف فرسه :

وَأَصْرَعُ أَيُّ الْوَحْشِ فَقِيَّتُهُ بِهِ وَأَنْزَلُ عَنْهُ مِثْلَهُ حِينَ أَرْكَبُ
يقول : إذا طردتُ بفرسي وَحْشاً أَيَّ وَحْشٍ بَلَغَهُ فتمكّنتُ منه، فصرعته،
وأنزلُ عنه بعد ذلك، فأجده مثله حينَ أركبه، أي : لم يلحقه التعبُ ولم يكِلْ،
لقوّته وعزّة نفسه .

قال العكبري : كقول ابن المعتز :

تَخَالَ آخِرُهُ فِي الشَّدِّ أَوْلَهُ وَفِيهِ عَدُوٌّ وَرَاءَ السَّبْقِ مَذْخُورٌ
أقول : المبالغة في هذين البيتين من قسم «التبليغ» .

المثال الثالث : قول «الحماسي» :

رَهْنَتْ يَدِي بِالْعَجْزِ عَنْ شُكْرِ بَرِّهِ وَمَا فَوْقَ شُكْرِي لِلشُّكُورِ مَزِيدٌ
وَلَوْ كَانَ مِمَّا يُسْتَطَاعُ اسْتِطَاعَتُهُ وَلَكِنَّ مَالاً يُسْتَطَاعُ شَدِيدٌ
بالغَ فادعى أنه قدّم غاية ما يستطيعُ من شكر، وإن كان ما قدّمه لا يُساوي
ما نال من ممدوحه من برّ .

هذه المبالغة من قسم «التبليغ» أيضاً.

المثال الرابع: قول «ابن نباتة السعدي» في سيف الدولة:

لَمْ يُبَقِّ جُودَكَ لِي شَيْئاً أَوْ مَلَّةً تَرَكَتَنِي أَصْحَبُ الدُّنْيَا بِلَا أَمَلٍ
هذه المبالغة ممكنة عقلاً، لكنها مستبعدة واقعاً بحسب العادة، فهي «إغراق».

المثال الخامس: قول المتغزل:

خَطَرَاتُ النَّسِيمِ تَجْرَحُ حَدِيدَ هِ وَلَمَسُ الْحَرِيرِ يُدْمِي بَنَانَهُ
هذه المبالغة من قسم «الإغراق».

المثال السادس: قول «عمرو بن الأيهم التغلبي»:

وَنُكْرِمُ جَارَنَا مَا دَامَ فِيْنَا وَتُتْبِعُهُ الْكَرَامَةَ حَيْثُ مَا لَا
هذه المبالغة من قسم «الإغراق».

المثال السابع: قول ابن الرومي يذمّ بخيلاً ببخله:

لَوْ أَنَّ قَصْرَكَ يَا ابْنَ يُوسُفَ مُمْتَلِئٌ إِبْرَاءً يَضِيقُ بِهَا فَنَاءُ الْمَنْزِلِ
وَأَتَاكَ يُوسُفُ يَسْتَعِيرُكَ إِبْرَةً لِيَخِيطَ قَدَّ قَمِيصِهِ لَمْ تَفْعَلِ
هذه المبالغة من قسم «الغلو».

ومثله قول ابن الرومي أيضاً يصفُ بخيلاً:

فَتَى عَلَى خُبْرِهِ وَنَائِلِهِ أَشْفَقُ مِنْ وَالِدِ عَلِيٍّ وَوَلَدِهِ
رَغِيْفُهُ مِنْهُ حِينَ تَسْأَلُهُ مَكَانَ رُوحِ الْجَبَانِ مِنْ جَسَدِهِ

المثال الثامن: قول «أبي نواس» من قصيدة يمدح بها الرشيد:

وَأَخَفْتَ أَهْلَ الشُّرْكِ حَتَّىٰ إِنَّهُ لَتَخَافُكَ التُّطْفُ الْتِي لَمْ تُخْلَقِ
هذه المبالغة من «الغلو» .

قالوا: إنَّ «العتابي» لقي أبا نواس فقال له: أما استحييت من الله بقولك:
«وَأَخَفْتَ أَهْلَ الشُّرْكِ . . .» .

فقال له «أبو نواس»: وأنت أما استحييت من الله بقولك:

مَا زِلْتُ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ مُطَّرِحًا يَضِيقُ عَنِّي وَسِيعُ الرَّأْيِ مِنْ حِيَلِي
فَلَمْ تَزَلْ دَائِبًا تَسْعَىٰ بِلُطْفِكَ لِي حَتَّىٰ اخْتَلَسَتْ حَيَاتِي مِنْ يَدَيَّ أَجَلِي

المثال التاسع: قول البحثري في مدح أمير المؤمنين «المتوكل على الله»:

فَلَوْ أَنَّ مُشْتَقًا تَكَلَّفَ فَوْقَ مَا فِي وَسْعِهِ لَسَعَىٰ إِلَيْكَ الْمُنْبَرُ
هذه المبالغة من «الغلو» المقبول .

المثال العاشر: قول «المتنبي» في صباه في المكتب:

أَبْلَىٰ الْهَوَىٰ أَسْفًا يَوْمَ النَّوَىٰ بَدَنِي وَفَرَّقَ الْهَجْرُ بَيْنَ الْجَفْنِ وَالْوَسَنِ
رُوحٌ تَرَدَّدَ فِي مِثْلِ الْخِلَالِ إِذَا أَطَارَتِ الرِّيحُ عَنْهُ الثُّوبَ لَمْ يَبِينِ
كَفَىٰ بِجِسْمِي نُحُولًا أَنِّي رَجُلٌ لَوْلَا مُخَاطَبَتِي إِيَّاكَ لَمْ تَرْنِي

الأسف: الحزن. والوسن: النوم .

في المبالغة هنا «غلو» مقبول .

والأمثلة من شعر الشعراء على أقسام المبالغة كثيرة .

المقبول من قسم «الغلو» .

قال البلاغيون: والمقبول من قسم «الغلو» عدّة صور، منها:

(١) أن يدخل عليه ما يُقَرِّبُهُ إِلَى الصِّحَّةِ، كقول الله عزَّ وجلَّ في سورة

(النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول) في وصف زيت شجرة الزيتون التي ليست شرقية ولا غربية:

﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ...﴾ [الآية ٣٥].

فعبارة: ﴿يَكَادُ﴾ قَرَّبَتْ فِكْرَةَ إِضَاءَةِ الزَّيْتِ بِبَرِيْقِهِ الشَّدِيدِ مِنَ الصَّحَّةِ، وجعلت المبالغة مقبولة.

(٢) أَنْ يُقَدَّمَ فِي صُورَةٍ جَمِيلَةٍ تَخِيلِيَّةٍ، كَقَوْلِ الْقَاضِي الْأَرْجَانِيِّ يَصِفُ اللَّيْلَ بِالطُّوْلِ عَلَى طَرِيقَةِ التَّخِيلِ:

يُخَيَّلُ لِي أَنْ سُمِّرَ الشُّهُبُ فِي الدَّجَى وَشُدَّتْ بِأَهْدَابِي إِلَيْهِنَّ أَجْفَانِي
(٣) أَنْ يَكُونَ تَعْبِيرًا عَنْ حَالَةِ الشُّعُورِ النَّفْسِيِّ، فِيمَا يُسَمَّى بِالصَّدَقِ الْفَنِيِّ، كَقَوْلِ امْرِئِ الْقَيْسِ فِي وَصْفِ فَرَسِهِ:

مَكْرٌ مَفْرٌ مُقْبِلٌ مُذْبِرٌ مَعَا كَجُلْمُودِ صَخْرٍ حَطُّهُ السَّيْلُ مِنْ عَلٍ
(٤) أَنْ يُسَاقَ مَسَاقَ الْهَزْلِ، كَقَوْلِ الْهَازِلِ الْخَلِيعِ:

أَسْكُرُ بِالْأَمْسِ إِنْ عَزَمْتُ عَلَى الشُّرِّ بِ غَدَاً. إِنْ ذَا مِنَ الْعَجَبِ^(١)
المبالغة بالصيغة:

وذكر الباحثون في بدائع القرآن المبالغة بصيغة أو لفظ من ألفاظ المبالغة السماعية أو القياسية.

وصيغ المبالغة هي:

(١) فَعْلَانُ: مثل: رحمن.

(١) لم أطلع على صاحب هذا البيت، وقد صنعتُ بيتين قبله، لبيان أنه من أكذب الكذب:

قال: صُغ لي كِذْبًا تَرَاهُ ظَرِيفًا مِنْ غُلُوِّ الْمُجُونِ فِي الْأَدَبِ

قُلْتُ: خُذْهَا أَكْذُوبَةً لَا تُبَارَى مُنْتَقَاةً مِنْ أَكْذَبِ الْكَذِبِ

أَسْكُرُ بِالْأَمْسِ إِنْ عَزَمْتُ عَلَى الشُّرِّ بِ غَدَاً إِنْ ذَا مِنَ الْعَجَبِ =

(٢) فَعِيلٌ : مثل : رَحِيمٌ .

(٣) فَعَّالٌ : مثل : تَوَّابٌ - غَفَّارٌ - قَهَّارٌ .

(٤) فَعُولٌ : مثل : غَفُورٌ - شَكُورٌ - وَدُودٌ .

(٥) فَعِيلٌ : مثل : حَذِرٌ - أَشِرٌ - فَرِحٌ .

(٦) فَعَّالٌ : مثل : عَجَّابٌ .

(٧) فُعَّالٌ : مثل : كُبَّارٌ .

(٨) فُعِّلٌ : مثل : لُبِّدٌ .

(٩) فُعِّلِيٌّ : مثل : عَلِيًّا - حُسْنِيًّا - شُورِيًّا - سُوَأِيًّا .

وتوجد صيغ أخرى، مثل: رحموت، ورهبوت، مما هو سماعي.

ودار نقاش حول استعمال صيغ المبالغة أوصافاً وأسماءً لله عزّ وجلّ:

● فزعم بعضهم أنّها مستعملة بجانب الله على سبيل المجاز، إذ هي

موضوعة للمبالغة، ولا مبالغة فيها حين يوصف الله بها.

● وقال بعضهم المبالغة فيها بحسب تعدّد المفعولات التي تفوق تصوّرات

الخلائق.

أقول: هذا النقاش الذي دار حول هذا الموضوع سببه الفكرة التي سبقت إلى

تصوّر الناس حول الصيغ التي أسماها علماء العربية اصطلاحاً صيغَ مبالغة، مع

العلم بأنّ العرب قد استعملوا هذه الصيغ ولم يقولوا: إنّها صيغ مبالغة، بمعنى أنّها

تدلّ دواماً على ما هو زائد على الواقع والحقيقة حتى ترد الإشكالات التي أوردتها

المستشكلون حول صفات الله عزّ وجلّ.

وباستطاعتنا أن نقول: إنّ هذه الصيغ موضوعة في الأصل للدلالة على كمال

الصفة، وهذا الكمال لا يوجد في الناس، أو للدلالة على الكثرة والوفرة في أجزاء

الصفة، دون أن يكون ذلك على سبيل المبالغة بمعنى الزيادة على الحقيقة والواقع
دواماً، فإذا أطلقت على غير مستحقّ الكمال فيها كان هذا الإطلاق على سبيل
المبالغة، وإذا أطلقت على مستحقّ الكمال أو الكثرة فيها فهو إطلاق على وجه
الحقيقة ولا مبالغة فيه، فما يسمّى بصيغ المبالغة إذا أطلقت على الله عزّ وجلّ فهي
مطلقة بحسب وضعها اللُّغوي، ولا مبالغة فيها، وبهذا ينحلّ الإشكال من أساسه،
وسببُ الإشكال التقيّد بتعريفات اصطلاحية جاءت على ألسنة علماء اللّغة، دون
الرجوع إلى التبصّر بأصل الاستعمالات العربية، وتحرير المراد من الاصطلاح.



بدائع متجانسة حول التابع في المفردات والجمل

يتناول الكلام هنا الاختيارات البديعة التالية:

- (١) الاطراد.
- (٢) الترتيب.
- (٣) الترقّي والتدلّي.
- (٤) حُسْنُ النَّسَقِ.
- (٥) التعديد - أو «حُسْنُ التعديد».

نظر علماء البديع إلى عناصر جمالية معنوية تتعلق بتتابع المفردات والجمل في الكلام الواحد، فوضعوا لما اكتشفوه منها أسماء.

أولاً - الاطراد:

قالوا: من البديع أن يذكر المتكلم آباءً من يتحدّث عنه متسلسلة على وفق الترتيب الطبيعي الذي هو لهم، في سلسلة نسبهم، بدءاً من الجد الأعلى وتنازلاً إلى الأب المباشر، أو بالعكس، إذا كان له غرضٌ بذكرهم، وسمّوا هذا «الاطراد» وهذه التسمية ملائمة للمعنى اللغوي للكلمة، فالاطراد في اللغة: التتابع والتسلسل، يُقَالُ: اطْرَدَ النَّهْرُ، إذا تابع جريان مائه، واطْرَدَ الكلامُ أو الحديثُ، إذا جرى مجرى واحداً متسقاً.

ومخالفة الاطراد هذا لا تحسن إلا لنكتة بلاغية يُريد المتكلم بها الإشارة إليها.

فالاطراد يُلائم السلسلة الفكرية الطبيعية لدى المتلقي.

أمثلة:

المثال الأول: قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (يوسف / ١٢ مصحف / ٥٣ نزول)

حكاية لما قال يوسف عليه السلام لصاحبيه في السجن:

﴿... إني تركت ملة قومٍ لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرين ﴿٧٧﴾ وأتبعته ملة آباءي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ما كانت لنا أن نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴿٧٨﴾﴾.

بدأ يوسف عليه السلام بذكر جدّه العالِي إبراهيم أولاً، لأنه الأول من آباءه الأقربين الذين حملوا الملة التي يدعو صاحبها في السجن لاتباعها، فذكر بعده ابن إبراهيم المباشر إسحاق، فذكر يعقوب بن إسحاق، ويعقوب هو الأب المباشر ليوسف عليهم السلام.

المثال الثاني: قول الرسول ﷺ حين سئل عن أكرم الناس: «الكريم

ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم».

المثال الثالث: قول الشاعر:

إِنْ يَفْتُلُوكَ فَقَدْ ثَلَّتْ عُرُوشُهُمْ بَعْتِيَّةَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ شَهَابِ

ثَلَّتْ عُرُوشُهُمْ: أي: أذهبت سلطانهم، ويُقال: ثلَّ الدار إذا هدمها.

المثال الرابع: قول «دريد بن الصِّمة»:

قَتَلْنَا بَعْدَ اللَّهِ خَيْرَ لِدَاتِهِ ذُؤَابَ بْنَ أَسْمَاءَ بْنَ زَيْدِ بْنِ قَارِبِ

لِدَاتِهِ: نظرائه في السن، لِدَةُ الْإِنْسَانِ مَنْ وُلِدَ مَعَهُ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ.

* * *

ثانياً - الترتيب :

وقالوا: من البديع إذا أراد المتكلم أن يذكر أوصافاً متعددة لموصوف بها واحد، أن يذكرها على وفق ترتيبها الطبيعي، دون إخلال، ما لم يدع داع بلاغي آخر يحرص المتكلم أن يشير إليه بمخالفة الترتيب الطبيعي، وسموا ذكر الأوصاف المتعددة متتابعة على وفق ترتيبها الطبيعي «ترتيباً».

أمثلة:

المثال الأول: قول الله عز وجل في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول):

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُفُوسٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلٍ وَلِنَبْلُغُوا أَجْلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾.

جاء في هذه الآية ذكر أطوار خلق الإنسان وفق ترتيبها الطبيعي، وهو أمر مستحسن بديع.

المثال الثاني: قول الله عز وجل في سورة (الشمس/ ٩١ مصحف/

٢٦ نزول):

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَنِهَا ﴿١١﴾ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾﴾.

جاء ترتيب الأحداث في هذا النص وفق ترتيبها في الواقع الذي حدث، وهو أمر مستحسن بديع.

المثال الثالث: قول الله عز وجل في سورة (الرعد/ ١٣ مصحف/

٩٦ نزول):

﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي

النَّارِ أَبْتِغَاءَ حَلِيَّةٍ أَوْ مَتَاعٍ ذَبْدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّيْدُ فَيَزِيدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمَكُّ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾

جار الترتيب في هذه الآية وفق ترتيب الأحداث في الواقع وهو أمرٌ مستحسنٌ بديع .

* * *

ثالثاً - الترقّي والتدلي:

وقالوا: من البديع لدى ذكر المتعدّات من جنس أو نوع أو صنف واحد، إذا كان بينها تفاضل في الدَرَجات أو المراتب، أن تُذكر إمّا من الأدنى إلى الأعلى ترقياً، أو من الأعلى إلى الأدنى تدلياً، ما لم يدعُ داع بلاغي آخر يحرص المتكلّم أن يشير إليه بمخالفة هذا النظام، كمرعاة رؤوس الآي، وكالتنوع في نصوص متعدّدة.

ووضعوا للالتزام بهذا النظام عنوان: «الترقي والتدلي».

أمثلة:

المثال الأول: قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزل) بشأن معبودات المشركين من الأصنام:

﴿ أَلْهَمَ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يَبْصُرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنظِرُونَ ﴿١١٩﴾ ﴾

جاء في هذه الآية البَدْءُ بالأدنى لغرض الترقّي، إذ اليَدُ أشرفُ من الرّجل، والعَيْنُ أشرفُ من اليَدِ، والسَّمْعُ أشرفُ من البَصَرِ، فالأعمى يستغني بالسَّمْعِ لتحصيل المعارف الكثيرة، لكن الأصمّ البصير دونه في ذلك.

المثال الثاني: قول الله عزّ وجلّ في سورة (النور/ ٢٤ مصحف/

١٠٢ نزل):

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ .

جاء في هذه الآية البدء بالأعلى الأدل على قُدرة الرَّبِّ الخالق، وهو المشي على البطن دون أرجل، فالأدنى وهو المشي على رجلين، فالأدنى وهو المشي على أربع، لغرض الأخذ بنظام التدلي.

* * *

رابعاً — حُسْنُ النَّسَقِ :

وقالوا: من البديع في الجمل المتتالية التي جاء بعضها معطوفاً على بعض أن تكون فيما بينها متلاحمة تلاحماً سليماً مستحسناً، وأن تكون كلُّ واحدة منها قابلة لأن تستقلَّ بنفسها لو أُفردتْ وسمَّوا هذا «حُسْنَ النَّسَقِ» .

أمثلة:

المثال الأول: قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) في عرض لوحة من قصة نوح عليه السلام وقومه:

﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَسَّامَاءُ أَقْلِي وَغِيصَ الْمَاءِ وَفُضِيَ الْأَمْرُ وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ .

إنَّ جُمَل هذه الآية معطوفٌ بعضها على بعض بواو عطف النسق على الترتيب الذي تقتضيه البلاغة .

● فقد جاء فيها البدء بالأهم، الذي هو انحسار الماء عن الأرض، المتوقف عليه غاية مطلوب أهل السفينة، الذين يترقبون الخلاص من سجنها .

● وبعده جاء . بيان انقطاع مدد الماء من السماء، الذي يتوقف عليه كمال المطلوب .

- وبعدهما جاء الإخبار بذهاب الماء بعد الأمر بالبَلْع والإقلاع.
 - وبعد ذلك جاء بيان انقضاء الأمر كلّ الذي من أجله حَدَثَ الطوفان العظيم، وهو هلاك الكافرين ونجاة نوح والذين آمنوا معه.
 - وبعد ذلك جاء بيان استواء السفينة على جبل الجودي، الذي وقع فعلاً بعد أن قُضِيَ الأمر.
 - وأخيراً جاء الختم بإعلان طَرْدِ الكافرين بعبارة: [وقيل: بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ] للإشارة إلى أَنَّ مَنْ أُبْعِدَ مِنَ الرَّحْمَةِ هُمُ الكافرونَ فقط.
- المثال الثاني: قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ وَوَعَدْنَا مُوسَىٰ تَلَاوِيحَ لَيْلَةٍ وَأَتَمَمْنَا بِعَشْرِ فِتْنَةٍ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَزْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلِفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٧٦﴾ ﴾

جُمْلُ ثَلَاثُ قَالَهَا مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ تَتَضَمَّنُ مَرْسُومَ تَعْيِينِ مِنْ ثَلَاثِ مَوَادِّ متلاحمة متفصلة:

المادة الأولى: اخْلِفْنِي فِي قَوْمِي .

المادة الثانية: وَأَصْلِحْ . (أي: في إدارتك وخطابك لي).

المادة الثالثة: وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (أي: مَهْمَا كَانَتْ كَثْرَتُهُمْ، فَاحْزِمْ أَمْرَكَ وَلَا تَتَّبِعْهُمْ مَدَارِيًّا لَهُمْ).

أقول:

ويمكن أن تُدْخِلَ تحت عنوان «حُسْنِ النَّسَقِ» ما يتضمَّنُ مراعاة حالة أنفس المتلقِّين، لدى ملاحظة المشهد الذي يعرضه المتكلِّم في الصورة الكلامية.

فمن حسن النَّسَقِ أَنْ تَكُونَ الصُّورَةُ الكَلَامِيَّةُ مُطَابِقَةً لَوَاقِعِ حَالِ المتلقِّي لدى

إدراكه المشهد في الواقع، ومن الأمثلة على هذا قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الغاشية/ ٨٨ مصحف/ ٦٨ نزول):

﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ ﴾ .

أُنْقَلُ هُنَا مَا سَبَقَ أَنْ كَتَبْتُهُ فِي كِتَابِي: «أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع»، إذ أعالج في هذا النص من جوانبه الأدبية فنيّة ترتيب جُمَله فقط.

قد يهدف ترتيب الجمل القرآنية إلى عَرْضِ لَوْحَةٍ فَنِيَّةٍ مِنْ لَوْحَاتِ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي كَوْنِهِ، حَتَّى كَأَنَّهَا رَسْمٌ قَدْ رُوِعِيَتْ فِيهِ كُلُّ الشَّرُوطِ الْفَنِيَّةِ الَّتِي تُرَاعَى فِي الرَّسْمِ وَالصُّورِ الرَّفِيعَةِ، فَتَبْدُو الصُّورَةُ مِثَالًا مُطَابِقًا لِحَرَكَةِ تَتَابُعِ الْمَشْهَدِ فِي نَفْسِ الْمَشَاهِدِ.

تَصَوَّرَ أَنْكَ جَالِسٌ فِي بَادِيَةٍ فِي خَيْمَةٍ، كَوَاحِدٍ مِنْ عُرْبَانِ الْبَادِيَةِ، وَأَمَامَكَ سَهْلٌ مُمْتَدٌّ، وَبَعْدَهُ سِلْسِلَةُ جِبَالٍ مُتَابِعَةٍ، وَمَرَّتْ قَافِلَةٌ جَمَالٍ فِي هَذَا السَّهْلِ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْجِبَالِ.

فكيف تتنقّل نفسك في هذا المشهد، بعد هذا الحدث المتحرك المثير، وهو قافلة الجمال؟.

لقد تمثّلت هذه الصورة، فوجدت أنني أتقلّ في متابعتها مركزاً على بُورَةِ المشهد مرحلة فمرحلة على الوجه التالي:

اللَّقْطَةُ الْأُولَى: صورة قافلة الجمال السائرة، إذ كانت أول لافٍ لنظري، بسبب الحركة، وغرابة المشهد، ورغبة النفس في متابعة مُشاهدته قَبْلَ أَنْ يَغِيبَ عَنِ النَّظَرِ، فَكَانَتْ فِي حِسِّي هِيَ بُورَةُ الْمَشْهَدِ الْبَارِزَةِ، وَمَا سِوَاهَا كَانَ أَرْضِيَّةً لَهَا.

اللَّقْطَةُ الثَّانِيَّةُ: صورة السَّمَاءِ مِنْ جِهَةِ الْأَفْقِ الْبَعِيدِ وَرَاءَ الْقَافِلَةِ، إِذْ شَبِعَتْ نَفْسِي مِنْ مُتَابِعَةِ التَّرْكِيزِ عَلَى قَافِلَةِ الْجَمَالِ، فَتَرَكْتُهَا، وَجَعَلْتُهَا أَرْضِيَّةَ الصُّورَةِ،

وانتقلت للتأمل في السماء، فكانت السماء في حسي هي بؤرة المشهد البارزة، وتوجه بصري للتركيز على السماء، بحثاً وتأملًا، حتى إذا شيعت من ذلك ظهرت في شعوري لقطه أخرى.

اللقطة الثالثة: هي صورة الجبال المتتابعة، إذ أخذت تبرز في حسي، فتكون بؤرة المشهد، وتوجه بصري للتركيز على الجبال بحثاً وتأملًا فيها.

وأدركت أن من طبيعة النفوس لدى مشاهدة مشهد متعدد العناصر، أن تبدأ بالمتحرك لأنه أكثر إثارة، ثم تنتقل إلى أعلى المشهد، ثم تتدلى شيئاً فشيئاً حتى أدناه.

ولما شيعت من التأمل في الجبال ظهرت في شعوري اللقطة التي وراءها.

اللقطة الرابعة: هي صورة الأرض المنبسطة الممتدة أمامي كأنها السطح، إذ أخذت تبرز في حسي، فتكون بؤرة المشهد، وتوجه بصري للتركيز على الأرض بحثاً وتأملًا فيها.

عندئذ علمت الحكمة التي دعت إلى ترتيب الجمل القرآنية، من سورة (الغاشية) في الآيات من (١٧ - ٢٠) وما فيها من تصوير كلامي متابع لحركة النفس لدى مشاهدة مثل هذه اللوحة التي عرضها النص.

وقلت في نفسي: إنها بهذا الترتيب تقدم لوحة فنية، تطابق ما يحدث لمشاهد واقع في مثل هذا المشهد.

إن العليم الحكيم الخبير يقدم هذه اللوحة الفنية، ليلفت نظر المشاهد من خلالها إلى إدراك طائفة من صفات الخالق جلّ جلاله، التي تدل عليها آيات هذا المشهد البديع، ومنها أنه عليم حكيم قدير بديع السماوات والأرض، قد أنقن كل شيء صنعا.

* * *

خامساً — التعديد أو (حُسْنُ التعديد):

وقالوا: من البديع في الألفاظ المفردة المتتالية أن يؤتى بها على سياق واحد، دون أن يكون بينها ما يَشِدُّ وَيَنْبُو عن الذوق الأدبي الرفيع، في دلالاتها وفي ألفاظها، وأكثر ما يوجد هذا في الصفات المتتاليات.

وسمّوا إيقاعها على سياق واحد متلائم: «التعديد» والأحسن أن يُسمّى «حُسْنُ التعديد».

أمثلة:

المثال الأول: قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الحشر) / ٥٩ مصحف / ١٠١ نزول):

﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيِّمُ الْعَزِيزُ
الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

فجاء البدءُ بذكر اسم «الْمَلِكِ» إذ هُوَ مَالِكٌ كُلُّ شَيْءٍ وذو السلطان على كلِّ شيء، والبدءُ به هو الملائم في السياق بعد بيان اسمه (الله) وبيان أنه لا إلهَ بحقِّ إلاَّ هُوَ، وجاء بعد «الْمَلِكِ» اسمان من أسماء الله الحسنَى متلائمان يتطلَّبهما السياق وهُمَا «الْقُدُّوسُ» و«السَّلَامُ» فمعنى القُدُّوس: المُنَزَّه عن صفات النقص التي لا تليق بالرَّبِّ الخالق المعبود. ومعنى السَّلَام: ذو السلامة من كلِّ نقص في ذاته وصفاته وأفعاله، فهما متلائمان، وبعد التنزيه يستدعي السياق إثبات صفات الكمال له، وأوَّلُها شُمُولُ علمه كُلِّ شَيْءٍ، وأنه يَعْلَمُ كلَّ شَيْءٍ علماً يقينياً لا يُخَالِطُه أدنى شَكٍّ، والاسم الملائم لهذا «المؤمن» وبعد شمول علمه كلِّ شَيْءٍ يستدعي الفكر إثبات هَيْمَتِهِ بقدرته وسلطانه على كُلِّ ما سواه مما هو خالق له، ومما سيخلقه، فجاء الاسم الملائم وهو «المهيمن» ومن هيمته بقدرته وسلطانه، أن يكون قوياً ذا قوَّة غالبية، لا يستطيع معارضٌ أن يعارضها، فجاء الاسم الملائم

لهذا هو «العزیز» إذ معناه القوی الغالب، ومن عزّته أن يكون إذا أراد شيئاً فعله بالجبر، ضدّ آية قوّة لها إرادة معارضة، من خلقه الذين منحهم الإرادات الحرّة وسخر لهم في كونه بعض المسخرات، والاسم الدالّ على هذا هو «الجبار» ويذكرُ الذهن أن من جمَعَ الصفات السابقة لا بدّ أن يكون أكبر من كلّ كبير في الوجود، وأن يكون عالماً بهذه الصفة من صفاته، فجاء الاسم الدالّ على هذه الحقيقة «المتكبر» أي: المثبت لنفسه أنه أكبر من كلّ كبير إثباتاً مؤكداً.

المثال الثاني: قول الله عزّ وجلّ في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول) في وصف المؤمنين الذين اشترى منهم أنفسهم بأن لهم الجنة يُقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون:

﴿التَّيِّبُونَ الْمَعِيدُونَ الْغُدُورُونَ الْمَتَّقُونَ الذَّاكِرُونَ
الْأَمْوَانَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّكَاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَنِيفُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَيَبْشُرُ
الْمُؤْمِنِينَ﴾

وبالتأمل نلاحظ أنّ هذه الصفات المذكورات لخيار المؤمنين متعانقات تعانقاً متلائماً يستدعي سابقها تاليها لدى التحليل الذهني.

فالتوبة هي المطلوب الأوّل من الصفات، لأنها بمثابة تنظيف الدار قبل جلب الأثاث إليها، وبعد التوبة تأتي العبادة، وأوّل عناصر العبادة الحمد، فالسّياحة بمعنى إطلاق الفكر في آيات الله وآلائه فكثرة الركوع والسّجود في الصلوات لله عزّ وجلّ، فالقيام بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فالمحافظة على حدود الله عند كلّ عمَلٍ لله فيه حكم شرعيّ ذو حدّ من الحلال والحرام.

وهكذا جاءت مفردات الصفات مُتسابة متلائمة على سياق واحد لا تنافر فيه ولا شذوذ.

المثال الثالث: قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/

٩٠ نزول):

﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّامِينَ وَالصَّامَاتِ وَالْحَافِظِينَ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ ﴿٢٥﴾ .

من الملاحظ في هذه المتعدّدات الانسيابية والتلاؤم والتعاقب المتدرج .

الإسلام هو الذي يقدّمه الظاهر أولاً، وهل هو أثر إيمان أم لا؟ يأتي التدقيق عن الإيمان ثانياً، وبعدهما يُنظر إلى التزام الطاعة المعبر عنه بالقنوت، فالقانت هو المطيع الخاضع، يأتي البحث عن الصّدق في الطاعة، أي: عن سلامة النية في ابتغاء مرضاة الله، فالتوسّع في أعمال البرّ فوق فعل الواجبات وترك المحرّمات، ويأتي في مقدمته الصبر، فخشوع القلب لذكر الله، فبذل الصّدقات فوق الزكاة والثفّة الواجبة، فالصوم زيادة على الصوم المفروض، فالمحافظة التامة على الفروج، فالذكر الكثير لله عزّ وجلّ.



المراوغة: بالمواربة . . أو مجاراة ظاهر القول

المواربة: أن يقول المتكلم قولاً يتضمّن ما يُنكرُ عليه به، فإذا وُجّه له الإنكار استحضر بحذقه وجهاً من الوجوه يتخلّص به، إمّا بحمل الكلمة على أحد معانيها، أو بتحريفها، أو بتصحيفها، أو نحو ذلك. والمواربة في اللغة: المخادعة والمخاتلة.

كقول اليهود عند السّلام: السّام عليكم، يُوهّمون أنّهم يقولون: السّلام عليكم، وهم يقصدون: الموت، لأن السّام الموت.

وحين أمرهم الله على لسان نبيٍّ من أنبيائهم أن يدخلوا باب القرية سُجّداً ويقولوا: حطّة، بمعنى: اللّهُمَّ احطط عنّا خطيئتنا، حرّفوا الكلمة وواربوا فيها، وقصدوا معنى غير الذي طُلب منهم.

* * *

المجاراة: هي مسايرة المخاطب بحسب ظاهر كلامه، والتغاضي عن مراده منه، والبناء على ظاهر كلامه كأنه هو مقصوده الحقيقي.

ومن أمثلة المجاراة حَمَلُ كلام الكافرين الذي طلبوا فيه من رسلهم استعجال العذاب الذي أنذروهم به، لا على معنى أنّهم يريدون إنزال العذاب بهم، ولكنهم يُعبّرون بهذا الاستعجال عن تكذيبهم رُسُلَ رَبّهم، وأنّهم ليسوا صادقين فيما

يُخْبِرُونَهُمْ بِهِ مِنْ أَنْ اللَّهُ يُنذِرُهُمْ بِعَذَابِهِ إِذَا أَصْرُوا عَلَىٰ تَكْذِيبِهِمْ وَكَفَرْتُمْ وَمَعَادَاتِهِمْ
لِرُسُلِ رَبِّهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُمْ .

ومنه قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (العنكبوت) / ٢٩ مصحف / ٨٥ نزول)
خطاباً لرسوله :

﴿وَسْتَغْلِبُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلِيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾
يَسْتَغْلِبُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ .



النزاهة

النزاهة: هي خلوص ألفاظ الهجاء والذم من الفحش.
 قيل لأبي عمرو بن العلاء: ما هو أحسنُ الهجاء؟
 قال: هو الذي إذا أنشدته العذراء في خدرها لا يقبُح عليها.
 أمثلة:

المثال الأول: ما جاء في سورة (المسد/ ١١١ مصحف/ ٦ نزول) من ذم
 أبي لهب وامرأته.

المثال الثاني: ما جاء في سورة (القلم/ ٦٨ مصحف/ ٢ نزول) من ذم
 للوليد بن المغيرة بصيغة عامّة، بقول الله تعالى:

﴿ وَلَا تَطْعَمْ كُلَّ حَلَاظٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَسَامٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَنَاعٍ لِلخَيْرِ مُعْتَدٍ أَيْمٍ ﴿١٢﴾ عَتَلٍ بَعْدَ
 ذَلِكَ زَيْمٍ ﴿١٣﴾ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا قَالِ كَسَطِيطِرُ الْأَوْلِيَاءِ ﴿١٥﴾
 سَتِمْهُ عَلَى الْمَرْطُورِ ﴿١٦﴾ .

يُلاحظُ أَنَّ هذا الهجاء خالٍ من أيّ كلامٍ فيه فُحشٌ.

المثال الثالث: قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (النور/ ٢٤ مصحف/
 ١٠٢ نزول) بشأن الذين يُدْعَوْنَ إلى الله ورسوله ليُحْكَمَ بَيْنَهُمْ فَيَعْرِضُونَ حِينَ
 لا يكون لهم الحقُّ في الخصومة:

﴿ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحْيِفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ أَمْ أُولَئِكَ هُمُ
 الظَّالِمُونَ ﴿٥١﴾ .

وهكذا سائر ما جاء في القرآن من ذمٍّ وهجاءٍ يتحلَّى بهذه النزاهة.

نفي الشيء بصيغة تُشعر بإثباته أو: نفي الشيء بإيجابه

وهو أن يكون ظاهر الكلام يفيد إثبات الشيء إلا أن باطنه يفيد نفيه مطلقاً.
والغرض تأكيد النفي.

قال ابن رشيق في تعريفه: أن يكون الكلام ظاهره إيجاب الشيء وباطنه نفيه، بأن يُنفى ما هو من سببه، كنفي وصفه، وهو المنفي في الباطن. وقال غيره: أن يُنفى الشيء مُقَيِّداً والمراد نفيه مطلقاً.

أمثلة:

المثال الأول: قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (المدثر/ ٧٤ مصحف/ ٤ نزول)
بشأن الكفرة المكذبين بيوم الدين، حين يُلاقون عذابهم يومئذ:

﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾

أي: ليس لهم شافعون يومئذ ولو كان لهم شافعون لما نفعتهم شفاعتهم.

ودلَّ على أنهم لا يجدون يومئذ شافعين يشفعون لهم قول الله عزَّ وجلَّ في
سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) مخبراً عما يقولون يومئذ:

﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صِدِّيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾

المثال الثاني: قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول):

﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَزْفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ

يُطَاعُ ﴿١٨﴾

أي: لو فرضَ وجودُ شفيع لهم لم يكنْ مُطاعاً، فذكر احتمال وجود شفيع غير مُطاع يؤكد عدم وجود شفيع لهم، إذ فائدة الشفيع الاستجابة لشفاعته، لكن إذا علمَ ابتداءً أنَّ شفاعته مرفوضة فإنه لا يُعتبرُ شفيعاً أصلاً، ولا يُسمحُ له بأن يكون شفيعاً.

المثال الثالث: قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/

٧٤ نزول):

﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ

الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾

إنَّ اتِّخَاذَ إِلَهٍ مَعَ اللَّهِ عزَّ وجلَّ لَا يُمكنُ أَنْ يَدُلَّ عَلَيْهِ برهان، فلا يوجدُ إِلَهٌ غيرُ اللَّهِ يوصفُ بأنَّ إِلَهِيَّتَهُ ذاتُ برهان.

فقيد لا برهان له به يُؤكِّدُ ضِمْنًا عدم وجود شريك لله عزَّ وجلَّ في إِلَهِيَّتِهِ.

أقول: في هذا تكريم للفكر الإنسانيَّ أَنْ يبحثَ كُلَّ أَصُولِ الإِيْمَانِ، وقضاياه الكبرى بالبراهين العقلية، ولا يأخذها بمجرد التسليم للخبر، فمن استطاع أن يأتي برهان على أن الله شريكاً في رُبُوبِيَّتِهِ، أو في إِلَهِيَّتِهِ، فإنَّ الله عزَّ وجلَّ يعطيه العُذْرَ في أن يُؤْمِنَ بما توصل إليه بالدليل البرهاني.

على أن في التعبير معنى التحدي بأن يأتي المشركون ببرهان يثبتون به ما يعتقدونه من شرك، وهذا التحدي يتضمَّن تأكيد نفي وجود برهان يُثبت ادعاءهم، وبالتالي يؤكد نفي وجود أي شريك لله عزَّ وجلَّ.

المثال الرابع: قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/

٨٩ نزول):

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ
يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ .

لقد كان اليهود يقتلون النبيين بغير حق، ولا يمكن أن يكون قتل النبيين
بحق، لكن إثبات هذا القيد يؤكد مبلغ جرمهم.



الافتنان

هو الإتيان في الكلام الواحد بفئتين مختلفين أو أكثر من فنون القول، كالمدح والهجاء، والفخر والتحدّي، والتهنئة والتعزية، والمدح والعتاب.

أمثلة:

المثال الأول: قول المتنبي يعاتب سيف الدولة ويمدحه من قصيدة:

يَا أَعْدَلَ النَّاسِ إِلَّا فِي مُعَامَلَتِي فِيكَ الْخِصَامُ وَأَنْتَ الْخِصْمُ وَالْحَكْمُ
وقوله فيها:

أَعْيَدُهَا نَظَرَاتٍ مِنْكَ صَادِقَةً أَنْ تَحْسَبَ الشَّخْمَ فِيمَنْ شَحْمُهُ وَرَمٌ
فقد جمع في هذا البيت بين الثناء عليه بصِدْقِ الفِرَاسَةِ، وتَحْذِيرِهِ مِنَ التَّوَرُّطِ فِي حُسْنِ الظَّنِّ بِالْمِرَائِينَ الْمَخَادِعِينَ.

المثال الثاني: قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (مريم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول) بشأن المرور على الصراط القائم على متن جهنم:

﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴿٧٧﴾ ثُمَّ نَجَّيَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًا ﴿٧٨﴾ .

يلاحظ في هذا النص أنه جمع بين تَهْنِئَةٍ لِلْمُتَّقِينَ بِالنَّجَاةِ وَإِخْزَاءٍ لِلظَّالِمِينَ بِالْقَعُودِ فِي دَارِ الْعَذَابِ.

المثال الثالث: قولِي صَانِعًا مَثَلًا يَجْمَعُ بَيْنَ الْحُزْنِ وَالْفَرْحِ وَالشَّاءِ:

كَادَتْ تُفَارِقُنَا أَنْفَاسُنَا أَسْفَاً لَمَّا غَدَا خَيْرٌ مَن يَحْمِي الْحِمَى سَلَفَاً
لَمْ تَرَقْ أَدْمُعُنَا مِنْ حُزْنِ أَكْبُدْنَا عَلَيْهِ حَتَّى رَأَيْنَا نَجْلَهُ خَلْفَاً

حُسْنُ المراجعة = المراجعة»

هي أن يحكي المتكلم مراجعةً في القول بينه وبين محاور له بأوجز عبارة، وأعدل سبك، وأعذب ألفاظ.

أقول: لا داعي لتقييد المراجعة بأن تكون بين المتكلم وبين مُحَاوِر له، فلو حكى مراجعةً بين شخصين أو بين خصمين على الوجه الذي جاء في التعريف بيانه لكانت عملاً بديعاً يدخل في حُسْنِ المراجعة.

أمثلة:

المثال الأول: قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ .

حوار مصوغ بأوجز عبارة، وأعدل سبك، وأعذب ألفاظ.

المثال الثاني: قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) في

قصة موسى وهارون عليهما السلام:

﴿ أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِتَأْتِي وَلَا نَبِيَّاءَ فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقَوْلَا لَهُ قَوْلَا لِنَا أَلَمْ لَهُمْ يَنْذَرُكَ آوِ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُقْرَطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي

مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى ﴿٤٦﴾ فَأَنبِأَهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ قَدْ
جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ
وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ
الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عَلِمْنَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَىٰ ﴿٥٢﴾



التنكيت

هو أن يقصد المتكلم إلى كلمة أو كلام بالذكر دون غيره مما يسد مسدّه، لأجل نكتة في المذكور تُرجح مجيئه على سواه.

أمثلة:

المثال الأول: قول الله عزّ وجلّ في سورة (النجم) / ٥٣ مصحف/

٢٣ نزول):

﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَىٰ﴾

الشَّعْرَى: نجم يقال له الشَّعْرَى العَبُور، وهو نجم نَيَّرَ يَطْلُعُ عند شدة الحرّ، ولشعري العَبُورُ أُخْتُ يُقَالُ لَهَا: الشَّعْرَى الغَمِيصَاءُ، قالوا: وهما أُخْتَانِجْمٌ سُهَيْلٌ.

والشَّعْرَى العَبُورُ عبدها رجلٌ ظهر في العَرَبِ يُعْرَفُ بَابِنِ أَبِي كَبِشَةَ، ودعا خَلَقًا من العرب إلى عبادتها، فخصَّ الله في هذه الآية من سورة (النجم) الشَّعْرَى بالذِّكْر دون غيرها من النجوم، مع أنه جَلَّ وَعَلَا رَبُّ كُلِّ النُّجُومِ وَرَبُّ كُلِّ شَيْءٍ، لأنَّ هذا الرَّجُلُ قد ظهر في العرب ودعا الناس إلى عبادتها، فمن أجل هذه النكتة خُصَّت الشَّعْرَى بالذِّكْر.

المثال الثاني: قول الله عزّ وجلّ في سورة (النجم) / ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول)

أيضاً:

﴿أَلَكُمُ الذِّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٦١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٦٢﴾﴾

القِسْمَةُ الضِّيْزِيّ: هي القِسْمَةُ الجائِرة.

ونلاحظ أنّ اختيار كلمة «ضِيْزِيّ» في هذا الموضع دون الكلمات التي تُؤدّي معناها له نُكْتَتَان: معنوية، ولفظية.

- أما المعنوية فهي الإشعار بقبّاحة التعامل مع الرّب الخالق بقسمة جائرة، يختار المشركون فيها لأنفسهم الذكور ويختارون فيها لربّهم الإناث، عن طريق استخدام لفظ يدلُّ بحروفه على قبّاحة مُسمّاه.
- وأمّا اللفظية فهي مراعاة رؤوس الآي، في الآيات قبلها، وفي الآيات بعدها.



الإرداف

شبهه بالتنكيت إلا أن الإرداف يُتْرَكُ فيه اللَّفْظُ الذي يُدَلُّ به عادة على المعنى،
وَيُسْتَحْدَمُ تعبيرٌ غيره لتحقيق أغراضٍ فكريةٍ ومعاني لا تُؤدِّي بالتعبير المتروك.

● ومن أمثلة الإرداف ما جاء في قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (هود/
١١ مصحف/ ٥٢ نزل):

﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلُغِي مَاءَكَ وَنَسَمَاءَهُ أَقْلِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ
وَقِيلَ بَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾.

قالوا: إن عبارة: ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ اختيرت بإحكام بدل أن يُقال: وهلك من
قضى الله إهلاكهم، ونجا من قضى الله نجاتهم.

وحصل العدول عن التعبير المتروك، واختيرَ رَدِيفٌ لَهُ يُؤدِّي المقصودَ منه مع
أغراض أخرى، منها: الإيجاز في العبارة، والتنبيه على أن هلاك الهالك ونجاة
الناجي كانَ بِأَمْرِ أمرٍ آخره تكوين، إذا أراد شيئاً فإنما يقول له: كن فيكون، وكان
بقضاء مَنْ لا رادَ لقضائه، ومنها توازن الفقرات في الآية.

وإن عبارة: ﴿واستوت على الجودي﴾ اختيرت بإحكام بَدَل أن يُقال:
وجلست على الجودي. أو واستقرت على الجودي. لما في التعبير بالاستواء من
الإشعار بأنها استقرت على جبل الجودي استقراراً تَمَكَّنَ لا زيغ فيه ولا ميلَ إلى
جهة الأمام، أو إلى جهة الخلف، أو إلى اليمين، أو إلى الشمال، فلا استقرار
المستوي لا تفيده عبارةٌ أخرى كما تفيده عبارة: ﴿واستوت﴾.

● وذكروا من أمثلته قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/
٣٨ نزل) بشأن أهل جنات عدن:

﴿ وَعِنْدَهُمْ قَصْرٌ مِّنَ الطَّرَفِ ۖ أَنْزَابٌ ﴾ ﴿٥٢﴾ .

أتراب: أي: على سِنِّ واحدة، وهنَّ الحور العين.

جاء التعبير بعبارة ﴿قاصرات الطرف﴾ للكناية بها عن أَنَّهُنَّ عفيفات، وقد عُدِلَ عن عبارة «عفيفات» إلى عبارة أُخْرَى تُؤَدِّي معناها لإضافة معنى آخر لا تؤدِّيه العبارة المتروكة، وذلك لأنَّ العبارة المختارة تدلُّ على أَنَّهُنَّ مع عِفَّتِهِنَّ لا تَطْمَحُ أَعْيُنُهُنَّ إلى غير أزواجهنَّ، ولا يَشْتَهين غيرَهُمْ.

وهذا المعنى لا تدلُّ عليه عبارة «عفيفات» فالعقَّة التطبيقية قد تكون مصحوبة بتطلُّع وتَشَّة.

● وذكروا من أمثلة الإرداف قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (النجم) / ٥٣ مصحف / ٢٣ نزول):

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ ﴿٣١﴾ .

جاء في الجملة الأولى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا﴾ فاختير فيها التعبير بعبارة: ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾ دون عبارة: بالسوأى. مع ما في هذه العبارة من مقابلة عكسية لعبارة ﴿بِالْحُسْنَى﴾ في الجملة الثانية يتحقق بها الطباق، لتأدية معاني لا تؤدِّي بعبارة: بالسوأى، أو بالسيئة، ومن هذه المعاني: أنَّ الجزء على السيئة يكون بمثلها تماماً، وهذا المعنى تؤدِّيه عبارة ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾ أداءً وافياً، أمَّا عبارة: بالسوأى، فهي غير صالحة، لأنَّ لفظ السوأى مؤنَّثُ أسوء، والله لا يجزي على السيئة بالأسوء منها. وأمَّا عبارة: بالسيئة، فهي عبارة عامَّة لا تدلُّ على المماثلة، إذ قد تكون سيئة الجزء أكثر من سيئة العمل، وهذا أمرٌ غير مُراد. مع ما في عبارة: ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾ من البُعْدِ عن نسبة فعلِ السيئة إلى الله ولو كانت على سبيل الجزء.

الإبداع

وهو أن يشتمل الكلام على عدّة ضروبٍ من البديع .

ومن أمثلته قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (هود/ ١١ مصحف / ٥٢ نزول):

﴿ وَقِيلَ يَتَّارِضْ أَبْلَىٰ مَاءِكِ وَيَسْمَأَهُ أَقْلَىٰ وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَأَسْتَوَتْ عَلَىٰ الْجُودِيِّ

﴿ وَقِيلَ بَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ ﴿٤٤﴾ .

ذكر ابن أبي الإصبع أن في هذه الآية قرابةً عشرين ضرباً من ضروب البديع

فذكر منها: الطباق، وحُسنَ النَّسْقِ، وحُسنَ التعليل، وصحّة التقسيم، والتسهيم

« = الإِرصاد»، والإرداف .

وذكر الإيجاز، والمجاز، والاستعارة، إلى غير ذلك .



الفصل الثاني

البدائع المشتملة على
محسنات جمالية لفظية

الجناس

ويسمى أيضاً «التجنيس»

الجِنَاسُ في اللِّغَةِ: المشاكلة، والاتحاد في الجنس، يقال لغة: جانسه، إذا شاكله، وإذا اشترك معه في جنسه، وجنس الشيء أصله الذي اشتق منه، وتفرّع عنه، واتّحدَ معه في صفاته العظمى التي تقوم ذاته.

والجناسُ في الاصطلاح هنا: أن يتشابه اللفظان في التُّطْقِ وَيَحْتَلِفَا في المعنى.

وهو فنٌ بديعٌ في اختيار الألفاظ التي تُوهِمُ في البدء التكرير، لكنّها تفاجيء بالتأسيس واختلاف المعنى.

ويُشترط فيه أن لا يكون متكلّفاً، ولا مُستكرهاً استكراهاً، وأن يكون مستعذباً عند ذوي الحسّ الأدبي المرهف، وقد نَفَر من تصنّعه وتكلّفه كِبَارُ الأدباء والنُقّاد.

قال: «ابن حِجّة الحموي» في كتابه: «خزانة الأدب»: «أما الجناسُ فإنّه غيرُ مذهبي ومذهبي من نسجتُ على منواله من أهلِ الأدب».

وقال «ابن رشيق» في كتابه: «العمدة»: «التجنيس من أنواع الفراغ، وقلة الفائدة، ومما لا يُشكُّ في تكلّفه، وقد أكثر منه الساقّة المتعقّبون في نظمهم ونثرهم، حتّى برّد ورثك».

يعني بالساقاة الذين لم يصلوا إلى أن يكونوا فُرسانَ أدب في نثرٍ أو شعرٍ، وأرى أنه يذمُّ الجنس المتكلف الممجوج .

وقال «الشيخ عبد القاهر الجرجاني» في كتابه «أسرار البلاغة»^(١): «أما التجنيس فإنك لا تستحسنُ تجانسَ اللَّفْظَيْنِ إلا إذا كان مَوْعُ مَعْنِيَهُمَا من العقل موقعاً حميداً، ولم يكن مَرْمَى الجامع بينهما مَرْمَى بعيداً، أترك استضعفت تجنيس أبي تمام في قوله

ذَهَبَتْ بِمَذْهَبِهِ السَّمَاحَةُ فَالْتَوَتْ فِيهِ الظُّنُونُ: أَمْذَهَبٌ أَمْ مُذْهَبٌ

واستحسنت قول القائل:

«حَتَّى نَجَا مِنْ خَوْفِهِ وَمَا نَجَا»^(٢).

وقول المُحَدِّث^(٣):

نَاظِرَاهُ فِيمَا جَنَى نَاظِرَاهُ أَوْ دَعَايَ أُمْتُ بِمَا أُوْدَعَايَ

لأمرٍ يرجع إلى اللفظ؟ أم لأنك رأيت الفائدة ضَعُفَتْ عند الأول، وقويت في الثاني؟ ورأيتك لم يزدك بمذهبٍ ومذهبٍ على أن أسمعك حُرُوفاً مكررة، تروم لها فائدة فلا تجدها إلا مجهولة مُنكرة، ورأيت الآخر قد أعاد عليك اللفظة، كأنه يخدعك عن الفائدة وقد أعطاها، ويوهمك كأنه لم يزدك وقد أحسن الزيادة ووقاها، فبهذه السريرة صار التجنيس — وخصوصاً المستوفى منه المتفق في الصورة — من حلي الشعر، ومذكوراً في أقسام البديع.

(١) انظر: «القول في التجنيس» في فاتحة الكتاب ص ٤ .

(٢) «نجا»: الأولى بمعنى «أحدث» و «نجا» الثانية بمعنى خلص، من النجاة.

(٣) هو أبو الفتح البستي صاحب القصيدة المشهورة التي مطلعها: «زيادة المرء في دنياه نقصان»

وقبل البيت الذي أورده عبد القاهر قول البستي:

قِيلَ لِلْقَلْبِ: مَا دَهَاكَ؟ أَجِبْنِي قَالَ لِي: بَائِعُ الْفَرَانِي فَرَانِي

فقد تبيّن لك أنّ ما يُعطى التجنيس من الفضيلة أمرٌ لم يتمّ إلاّ بنُصرةِ المعنى،
إذ لو كان باللفظ وحده لَمَا كان فيه مُستَحَسَن، ولَمَا وُجِدَ فيه إلاّ مَعِيبٌ مُسْتَهْجَن،
ولذلك ذمّ الإكثارُ منه والوُلُوعُ به، وذلك أنّ المعاني لا تدين في كلّ موضعٍ لما
يَجْذِبُهَا التّجنيسُ إليه . . .».

وهكذا أعطى «الشيخ عبد القاهر الجرجاني» الجنسَ قيمته، فلم يبخسهُ
حقّه، ولم يغلُ فيه.

وقد اعتنى علماء البديع بتقسيم الجنس إلى أنواع، اعتماداً على استقراء
الأمثلة، والنظر الفكري في احتمالات التقسيم، إلاّ أنهم أسرفوا في وضع أسماء
لكلّ فرع من فروع أنواعه، وهو أمرٌ يُرْهَقُ محلّلَ النصوص، ويصرفه عن تذوّق
الجمال الأدبي، ليهتمّ بالتحليل الآلي، وتذكّر الاسم الخاصّ بكلّ فرع من هذه
الفروع، وإني أوردها لا لأكلف الدارس حفظها وتطبيقها على ما يشرحه من الأمثلة
في دراساته الأدبية، متذكراً ما وُضِعَ لكلّ فرع منها من اسم خاصّ به، ولكن
ليكتشف مدى الدقّة التي كانت لدى علمائنا الأقدمين، فيما قدّموه من دراسات
تفصيلية، وليكون لديه تصوّرٌ عامٌ يَسْتَفِيدُ منه لدى دراساته للنصوص الأدبية.

* * *

أنواع الجنس وفروعها:

قسّم علماء البديع الجنس إلى ستة أنواع ذوات فروع:

النوع الأول: «الجنس التام»:

وهو ما اتفق فيه اللفظان في أربعة أمور:

(١) في نوع الحروف.

(٢) وفي هيئتها (أي: في حركاتها وسكناتها).

(٣) وفي عددها.

(٤) وفي ترتيبها.

مثل: «يَحْيَا» فعلاً مضارعاً مصدره الحياة، و «يَحْيَى» اسماً علماً لإنسان،
ومثل: «جَنَى» بمعنى ارتكب جناية، و «جَنَى» بمعنى قطف ثمرة من شجرتها.

واشتقوا من هذا النوع الأوّل خمسة فروع، وهي ما يلي:

الفرع الأوّل: «المماثل» وهو الجنس التام الذي يكون اللَّفظان المتشابهان
فيه من نوع واحد من أنواع الكلام، كاسمين، أو فعلين، ومن أمثله ما يلي:

(١) قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الروم / ٣٠ مصحف / ٨٤ نزول):

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ...﴾ [الآية ٥٥].

المراد من لفظ «الساعة» ساعةُ البعثِ إلى يوم الحساب والجزاء، والمراد من
لفظة «ساعة» أنهم ما لبثوا في البرزخ بين الموت والبعث غير مدة زمنية من أزمان
النهار والليل المقسّم إلى (٢٤) ساعة أو نحوها.

(٢) وقول أبي تمام يصف فرساناً ممدوحيه:

إِذَا الْخَيْلُ جَابَتْ قَسَطَلَّ الْحَرْبِ صَدَعُوا صُدُورَ الْعَوَالِي فِي صُدُورِ الْكَتَائِبِ

جَابَتْ قَسَطَلَّ الحرب: أي: اخترقت وقطعت غبار موقعة الحرب من وسطه.

صَدَعُوا: أي: كسروا. صُدُورَ الْعَوَالِي: أي: المتقدم من الرماح مما هو

قريبٌ من السَّنان، فالعالية: هي النَّصْفُ الذي يلي السَّنان من قناة الرَّمح، وجمعها
العوالي. وَصُدُورِ الْكَتَائِبِ: هي صدور أفراد الجيش المحارب.

صُدُورِ وَصُدُورِ: اسمان.

(٣) قول أبي نواس يمدح عبّاس بن فضل الأنصاري الذي ولي قضاء

الموصل في عهد الرشيد، ويمدح الفضل بن الربيع بن يونس وزير الرشيد، ثم
وزير الأمين، ويمدح الربيع بن يونس، وزير المنصور العباسي، في بيت واحد:

عَبَّاسٌ عَبَّاسٌ إِذَا اخْتَدَمَ الْوَعَى وَالْفَضْلُ فَضْلٌ، وَالرَّيْعُ رَيْعٌ

الفرع الثاني: «المُسْتَوْفَى» وهو الجنس التام الذي يكون اللفظان المتشابهان فيه من نوعين مختلفين من أنواع الكلام، كأن يكون أحدهما اسماً والآخر فعلاً، ومن أمثله ما يلي:

(١) قول أبي تمام:

مَا مَاتَ مِنْ كَرَمِ الزَّمَانِ فَإِنَّهُ يَحْيَا لَدَى يَحْيَى بْنِ عَبْدِ اللَّهِ

(٢) قول صانعاً مثلاً:

يَزِيدٌ لَهُ أَيَادٍ لَا تُبَارَى
«يَزِيدٌ» عَطَاؤُهُ مَا جِئْتَ تَرْجُو
وَيَسْبِقُ مَنْ رَجَاهُ لِمَا يُرِيدُ
نَدَاهُ بِكُلِّ أَوْنَةٍ يَزِيدُ

«يَزِيدُ» الأول اسم علم. و«يَزِيدُ» الثاني فعل مضارع.

الفرع الثالث: «المتشابه» وهو الجنس التام الذي يكون أَحَدُ اللَّفْظَيْنِ

المتشابهين فيه مركباً من كلمتين فأكثر مع اتفاقهما في الخط، ومن أمثله ما يلي:

(١) قول أبي الفتح البُستِي:

إِذَا مَلَكَ لَمْ يَكُنْ ذَا هِبَةٍ فَدَعَاهُ فَدَوَّلْتَهُ ذَاهِبَةً

«ذا هبة» الأول: أي: صاحب هبة. والثانية اسم فاعل من الذَّهَاب.

(٢) قول القاضي الفاضل:

عَضَّنَا الدَّهْرُ بِنَابِهِ لَيْتَ مَا حَلَّ بِنَابِهِ
لَا يُوَالِي الدَّهْرُ إِلَّا خَامِلاً لَيْسَ بِنَابِهِ

«بنابه» الأول: أي: بسننه المعروف بالنَّاب. و«بنا به» الثاني: الباء حرف جرّ

و«نا» ضمير، و«به» حرف وضمير متصل يعود على الدهر. و«بنابه» الثالث، الباء حرف جرّ، و«نابه» أي ذي شرفٍ وشُهرة.

(٣) قول بعض البلغاء: «يَا مَعْرُورُ أَمْسِكْ، وَقِسْ يَوْمَكَ بِأَمْسِكَ».

الفرع الرابع: «المفروق» وهو الجنس التام الذي يكون أحد اللفظين المتشابهين فيه مركباً من كلمتين فأكثر مع اختلافهما في الخط، ومن أمثله ما يلي:

(١) قول أبي الفتح البستي:

كُلُّكُمْ قَدْ أَخَذَ الْجَا مَ وَلَا جَا مَ لَنَا
مَا الَّذِي ضَرَّ مُدِيرَ الْجَا مَ لَوْ جَا مَلْنَا

الجام: إناء للشراب من فضة أو نحوها.

وَلَا جَا مَ لَنَا: أي ليس لنا هذا الإناء.

لَوْ جَا مَلْنَا: أي: لو عاملنا بالجميل.

(٢) قول أحدهم:

لَا تَعْرِضَنَّ عَلَيَّ الرُّوَاةَ قَصِيْدَةً مَالَمْ تُبَالِغْ قَبْلُ فِي تَهْذِيْبِهَا
فَمَتَى عَرَضْتَ الشُّعْرَ غَيْرَ مُهْذَبٍ عَدُوهُ مِنْكَ وَسَاوِسًا تَهْذِيْ بِهَا

«تهذي بها» الثاني من الهديان. والأول من التهذيب.

الفرع الخامس: «المرفوق» وهو الجنس التام الذي يكون أحد اللفظين المتشابهين فيه مركباً من كلمة وبعض كلمة أخرى، ومن أمثله ما يلي:

(١) قول الحريري:

وَالْمَكْرُ مَهْمَا اسْتَطَعْتَ لَا تَأْتِهِ لَتَقْتَنِي السُّوْدُدُ وَالْمَكْرُ مَةَ

(٢) وقوله أيضاً:

فَلَا تَلُهُ عَن تَذْكَارِ ذَنْبِكَ وَابْنِهِ بِدَمْعِ يُحَاكِي الْمُنْزَنَ حَالَ مَصَابِهِ
وَمَثَلِ لِعَيْنَيْكَ الْحِمَامَ وَوَقَعَهُ وَرَوْعَةَ مَلَقَاهُ وَمَطْعَمَ صَابِهِ

حَالَ مَصَابِهِ: أي: حَالَ انصِباهِ، تقول: صَابَ المَطْرُ، إِذَا انصَبَ. الحِمَام: الموت.

وَمَطَعَمَ صَابِهِ: أي: مَطَعَمَ شَجَرَتِهِ المُرَّةَ، الصَّابُ: شَجَرٌ مُرٌّ لَهُ عَصَارَةٌ بِيضَاءُ كَاللَّبَنِ بِالغَةِ المَرَارَةِ، إِذَا أَصَابَتِ العَيْنَ أَثْلَفَتْهَا.

(٣) ومنه قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول):

﴿ أَفَمَنْ أَتَسَسَّ بِئِنَّكُمُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَتَسَسَّ بِئِنَّكُمُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَاتَّهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾

* * *

النوع الثاني: «الجناس المحرّف»:

وهو ما اختلف فيه اللَّفظان في هيئة الحروف، واتفقا في نوعها وعددها وترتيبها.

مثل: «البُرْد» بمعنى الكِسَاء، وهو كِسَاءٌ مُخَطَّطٌ يُلتحف به، و«البُرْد» بمعنى انخفاض درجة الحرارة، و«البُرْد» بمعنى الماء الجامد الذي ينزل من السماء، إنَّ حروف هذه الكلمات متفقة في نوعها وعددها وترتيبها، لكنَّها مختلفة في هيئتها، فالباء مضمومة في الأولى ومفتوحة في الثانية مع سكون الراء، ومفتوحة في الثالثة مع فتح الراء.

ومثل: «الشُّرْك» بمعنى جعل شريك لله عزَّ وجلَّ، و«الشُّرْك» بفتح الشين والراء بمعنى الحبل الذي يضعه الصياد ويخفيه ليصيد به ما يترصد من حيوان الوحش، كخزال، وتيسٍ جبليّ.

ومن أمثلة الجناس المحرّف ما يلي:

(١) قولهم: «جُبَّةُ البُرْدِ جُنَّةُ البُرْدِ» فبين البُرْدِ والبُرْدِ جناسٌ مُحرّف.

(٢) وقولهم: «الْبِدْعَةُ شَرُّكَ الشَّرِّكَ».

(٣) قول المعري:

وَالْحُسْنُ يَظْهَرُ فِي بَيْتَيْنِ رَوْنَقُهُ
بَيْتٍ مِنَ الشُّعْرِ أَوْ بَيْتٍ مِنَ الشُّعْرِ
فبين الشُّعْرِ، والشُّعْرِ جناسٌ محرفٌ.

(٤) قولهم:

«لَا تُنَالُ الْغُرَرَ إِلَّا بِرُكُوبِ الْغُرَرِ»

الغُرَرُ: جَمْعُ أَعْرَى، وهو الحَسَنُ من كُلِّ شيءٍ.

الغُرَرُ: الحَظَرُ، والتعرُّضُ لِلْهَلَكَةِ.

(٥) قول ابن الفارض:

هَلَّا نَهَاكَ نُهَاكَ عَن لَوْمِ امْرِئٍ
لَمْ يُلَفَّ غَيْرَ مُنْعَمٍ بِشَقَاءِ
نَهَاكَ: ضِدُّ امْرَأِكَ. نُهَاكَ: التُّهْمَى: العقل، والمعنى: هَلَّا زَجَرَكِ عَقْلُكَ عَن
لَوْمِ امْرِئٍ... .

(٦) قول الحريري يصف هَيْامَ الجاهلِ بالدنيا:

مَا يَسْتَفِيقُ غَرَامًا بِهَا وَقَرِطُ صَبَابَةٍ
وَلَوْ دَرَى لَكَفَّاهُ مِمَّا يَرُومُ صُبَابَةً^(١)

* * *

النوع الثالث: «الجناسُ الناقصُ»:

وهو ما نقصت فيه حروف أحد اللفظين عن الآخر، مع اتفاق الباقي في النوع والهيئة والترتيب.

(١) الصُّبَابَةُ: يريد الميل الشديد إلى متاع الحياة الدنيا بشوق. الصُّبَابَةُ: البقية القليلة من الماء ونحوه.

مثل: «جَوَابٍ» و «جَوَانِحٍ». ومثل: «صَالِحٍ» و «صَوَالِحٍ». ومثل: «سَابِحٍ» و «مَسَابِحٍ».

واشتقوا من هذا النوع الثالث أربعة فروع، وهي ما يلي:

الفرع الأول: «الْمَرْدُوفُ» وهو ما كان الحرف الأول هو الناقص في أحدهما، مثل: «مَسَاقٍ» و «سَاقٍ». ومثل: «بَاحٍ — رِيَّاحٍ» و «جَاءَ — رَجَاءٌ» ومنه قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (القيامة/ ٧٥ مصحف/ ٣١ نزول):

﴿وَأَلْفَيْتَ السَّاقِ بِالسَّاقِ ﴿٢٦﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقِ ﴿٣٠﴾﴾.

ومنه: «كُلِّي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ».

ومثل: «سَاءَ مَسَاءُ الْمُجْرِمِ إِذْ ضَاءَ مَضَاءُ سَيْفِ الْجَلَادِ».

الفرع الثاني: «المكْتَفٍ» وهو ما كان الحرف الناقص في وسط أحدهما، مثل: «حَدِيقَةٌ مَطُوفَةٌ، وَثِمَارُهَا مَقْطُوفَةٌ» — «السُّكَّرَانِ بِلَذَاتِ دُنْيَاهُ هُوَ الْمَجْنُونُ، وَهُوَ لَا يَضْحُوقُ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ رَبُّبِ الْمُنُونِ» — «مَنْ فَقَدَ بِالسُّكْرِ عَقْلَهُ كُشِفَ سِتْرُهُ، وَاسْتَبِيحَ سِرُّهُ».

الفرع الثالث: «الْمُطْرَفُ» وهو ما كان الحرف الناقص في آخر أحدهما، مثل: «سَارٍ» و «سَارِقٍ». و «عَارٍ» و «عَارِفٍ». و «قَاضٍ» و «قَاضِمٍ». و «جَوَارٍ» و «جَوَارِحٍ»، ومنه قول أبي تمام:

يَمْدُونَ مِنْ أَيْدِ عَوَاصِمٍ عَوَاصِمٍ تَصُولُ بِأَسْيَافِ قَوَاضٍ قَوَاضِيٍّ
عَوَاصِمٍ: جَمْعُ «عَاصِيَةٍ» مِنْ: «عَصَاهُ» إِذَا ضَرَبَهُ بِالْعَصَا فَهُوَ عَاصٍ، وَهِيَ عَاصِيَةٌ.

عَوَاصِمٍ: جَمْعُ «عَاصِمَةٍ» وَهِيَ الْحَافِظَةُ الْحَامِيَةُ.

قَوَاضٍ: جَمْعُ «قَاضِيَةٍ» مِنْ «قَضَىٰ عَلَيْهِ» إِذَا قَتَلَهُ.

قَوَاضِيٍّ: جَمْعُ «قَاضِيَةٍ» مِنْ «قَضَبَ» بِمَعْنَى «قَطَعَ» أَي: قَوَاطِعٍ.

ومنه قول ابن الفارض:

أَشْكُو وَأَشْكُرُ فِعْلَهُ فَاعْجَبْ لَشَاكِ مِنْهُ شَاكِرُ

الفرع الرابع: «المُذَيَّل» وهو ما كان الناقص في آخر أحدهما أكثر من حرف، فيكون مقابله بمثابة ما له ذيل، مثل: «الجَوَى» و«الجوانح». و«الصِّفَا» و«الصِّفَانِح». و«القَنَا» و«القنابل» ومنه قول الخنساء من قصيدة ترثي فيها أخاها صخرًا:

إِنَّ الْبُكَاءَ هُوَ الشُّفَا ءُ مِنَ الْجَوَى بَيْنَ الْجَوَانِحِ

الجَوَى: الحرقَّة وشدة الوجد. الجوانح: الأضلاع التي تحت الترائب مما يلي الصدر.

ومنه قول حسَّان بن ثابت رضي الله عنه:

وَكُنَّا مَتَى يَغْزُ النَّبِيُّ قَبِيلَةَ نَصِلُ جَانِبِيهِ بِالْقَنَا وَالْقَنَابِلِ

القنا: جمع «القناة» وهي الرَّمح. القنابل: جمع «القنبلة» وهي الطائفة من الناس، ومن الخيل.

ومنه: ﴿وَانظُرْ إِلَى إِلْهِكَ﴾.

* * *

النوع الرابع: «الجناسُ المُضارع»:

وهو ما اختلف فيه اللفظان المتشابهان في نوع حرف واحدٍ منهما مع تقاربهما في النطق، في الأول أو الوسط أو الآخر.

مثل: «الخيل» و«الخير». و«دامس» و«طامس». و«البرايا» و«البلايا».

و«صالح» و«سالح» ومنه قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/

٦٠ نزول):

﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْمَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾﴾ .

«تفرحون» و «تمرحون» متشابهان باختلاف في حرف واحد هو «الفاء» في اللفظ الأول، و «الميم» في اللفظ الثاني، وهما حرفان متقاربان.

ومنه قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (القيامة/ ٧٥ مصحف/ ٣١ نزول):

﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ .

ومنه ما روي عن النبي ﷺ:

«الْخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ» .

ومنه قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوُونَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢١﴾﴾ .

* * *

النوع الخامس: «الجناس اللّاحق»:

وهو ما اختلف فيه اللفظان المتشابهان في نوع حرف واحد منهما غير متقاربين في التُّطق، في الأوّل أو الوسط أو الآخر.

مثل: «تَقْهَرُ» و «تَنْهَرُ» فالقاف والنون غير متقاربين في النطق. ومثل:

«تَلَاقٍ» و «تَلَافٍ» فالقاف والفاء غير متقاربين، ومثل: «هُمَزَةٌ» و «لَمَزَةٌ» .

● ومن هذا النوع قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الضحى/ ٩٣ مصحف/

١١ نزول):

﴿فَأَمَّا اللَّيْتِمُ فَلَا تَنْهَرُ ﴿١﴾ وَأَمَّا السَّائِلُ فَلَا تَنْهَرُ ﴿١٠﴾﴾ .

● وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الهمزة/ ١٠٤ مصحف/ ٣٢ نزول):

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾﴾ .

● وقول البحرني:

أَلِمَا فَاتَ مِنْ تَلَاقي تَلَافٍ؟ أَمْ لِشَاكٍ مِنَ الصَّبَابَةِ شَافٍ؟

* * *

النوع السادس: «الجناس المزدوج» ويُسمى «المكرر» و«المردد» وهو أن يلي أحد المتجانسين الآخر، ومنه ما يلي:

(١) قول الله تعالى في سورة (النمل / ٢٧ / مصحف / ٤٨ نزول) حكاية لما قال الهدهد لسليمان عليه السلام:

﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سِوَا بَنِي إِدْرِيْنَ﴾ [الآية ٢٢].

(٢) وقولهم: «مَنْ جَدَّ وَجَدَّ» - «من قرع باباً ولجَّ ولجَّ».

* * *

النوع السابع: «جناس القلب».

وهو ما اختلف فيه ترتيب حروف اللفظين، واتفقا في النوع والعدد والهيئة.
مثل: «حَتَفٌ» و«فَتَحٌ». ومثل: «عَوْرَةٌ» و«رَوْعَةٌ».

واشتقوا من هذا النوع ثلاثة فروع:

الفرع الأول: «قَلْبُ الْكُلِّ» وهو أن تكون حروف كلِّ منهما على عَكْسِ حروف الآخر، مثل: «فتح» و«حتف».

ومن أمثلة هذا الفرع قول الأحنف بن قيس:

حُسَامُكَ فِيهِ لِأَجْبَابٍ فَتَحُ وَرُمْنُكَ فِيهِ لِأَعْدَاءٍ حَتْفُ

ومثل: «وَرَبِّكَ فَكَبَّرُ».

الفرع الثاني: «قَلْبُ الْبَعْضِ» وهو أن يكون بَعْضُ حروفِ أَحَدِهِمَا على عَكْسِ

بَعْضِ حروفِ الْآخَرِ مِنْهُمَا، مثل: «عَوْرَاتٌ» و«رَوْعَاتٌ» ومنه قول الرسول ﷺ في

بعض أدعيته:

«اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِنَا وَآمِنْ رَوْعَاتِنَا».

الرَّوْعَةُ: المَرَّةُ مِنَ الرَّوْعِ، وَهُوَ الْخَوْفُ.

وَمِنْهُ قَوْلُ بَعْضِهِمْ: «رَحِمَ اللَّهُ امْرَأً أَمْسَكَ مَا بَيْنَ فَكَّيْهِ وَأَطْلَقَ مَا بَيْنَ كَفَّيْهِ».

أَي: أَمْسَكَ لِسَانَهُ وَحَفِظَهُ، وَجَادَ بِمَالِهِ.

الْفَرْعُ الثَّلَاثُ: «الْمَقْلُوبُ الْمَجْتَحُّ» وَهُوَ أَنْ يَكُونَ أَحَدُ اللَّفْظَيْنِ مِنْ «جِنَاسِ الْقَلْبِ» فِي أَوَّلِ الْبَيْتِ مِنَ الشَّعْرِ، أَوِ الْفَقْرَةَ مِنَ النُّثْرِ، وَالْآخِرُ فِي آخِرِ الْبَيْتِ، أَوْ فِي آخِرِ الْفَقْرَةِ.

● وَمِنْهُ قَوْلُ ابْنِ نُبَاتَةَ:

سَاقٍ يُرِينِي قَلْبُهُ قَسْوَةً وَكُلُّ سَاقٍ قَلْبُهُ قَاسٍ

أَي: وَكُلُّ لَفْظٍ «سَاقٍ» إِذَا قَلْبَتَهُ بِعَكْسِ حُرُوفِهِ فَهُوَ «قَاسٍ».

● قَوْلِي صَانِعًا مِثْلًا:

جَانٍ عَلَيْنَا فِي الْهَوَى ظَالِمٌ هَلْ هُوَ مِنْ نَارِ الْهَوَى نَاجٍ
قَالَ: فَهَلْ يَلْزَمُنِي وَضَلُّكُمْ؟ قُلْتُ: وَحَقُّ الْجَارِ وَاللَّاجِي؟
فَجَارُ ذِي الْحُسْنِ وَمَنْ عِنْدَهُ فَيَضُ عَطَاءٍ طَامِعٌ رَاجٍ

* * *

النَّوْعُ الثَّمَانِي: «الْجِنَاسُ الْمَصْحَفُ» وَيُسَمَّى «جِنَاسَ الْخَطِّ».

وَهُوَ أَنْ يَتَشَابَهَ اللَّفْظَانِ فِي الْكِتَابَةِ مَعَ اخْتِلَافٍ فِي نَقْطِ الْحُرُوفِ، مِثْلُ:

«يَسْقِي» وَ«يَشْفِي».

وَمِنْهُ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الشُّعْرَاءِ/ ٢٦ مَصْحَفٍ / ٤٧ نَزُولٍ) حِكَايَةَ

لِقَوْلِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ:

﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعَمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٦﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾.

ما يُلْحَقُ بِالْجِنَاسِ :

يُلْحَقُ بِالْجِنَاسِ مَا يُسَمَّى «الْجِنَاسَ الْمَطْلُوقَ» وَهُوَ قِسْمَانِ :

القسم الأول : «المتلاقيان في الاشتقاق» .

وهو أن يجمع بين اللَّفْظَيْنِ الْاِشْتِقَاقِ ، مثل قول الله عزَّ وجلَّ في سورة

(الروم / ٣٠ مصحف / ٨٤ نزول) :

﴿ فَأَقْرَبُ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَنِيمِ . . . ﴾ [الآية ٤٣] .

لفظ «أَقِم» ولفظ «الْقَنِيمِ» مشتقان من مادة لغوية واحدة ومنه : «تَأَخَّرَ كَلِيمٌ اللهُ

في رحلة الميعاد أياماً قليلة فَعَجَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ إِلَى عِبَادَةِ الْعِجَلِ» .

القسم الثاني : «المتلاقيان فيما يشبه الاشتقاق» .

وهو أن يجمع بين اللَّفْظَيْنِ مَا يَشْبَهُ الْاِشْتِقَاقَ ، مثل قول الله عزَّ وجلَّ في

سورة (الشعراء / ٢٦ مصحف / ٤٧ نزول) حكاية لما قال لوطٌ عليه السَّلام لقومه :

﴿ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴾ .

فعل «قال» مشتقٌّ من «القول» وكلمة «القالين» جمع «القالى» وهو المبغض

والهاجر ، من «قَلَاهُ قَلِيٌّ» إِذَا أَبْغَضَهُ وَهَجَرَهُ ، ولكن جمع بينهما ما يشبه الاشتقاق ،

فقد اشتركا في القاف والألف واللام ، وإن كانا مِنْ مَادَّتَيْنِ مُخْتَلِفَتَيْنِ .

ومنه : ﴿ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٌ ﴾ — ﴿ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي ﴾ — ﴿ وَإِنْ يُرَدِّكَ بِخَيْرٍ

فَلَا رَادَّ لَهُ ﴾ — ﴿ أَنَا قَاتِلُكُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ — ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى

الْإِنْسَانَ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ، وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴾ .

* * *

أمثلة مختلفة من أقسام الجناس وفروعها

(١) قال شاعر في رثاء ولده يحيى:

وَسَمَّيْتُهُ يَحْيَى لِيَحْيَا فَلَمْ يَكُنْ إِلَى رَدِّ أَمْرِ اللَّهِ فِيهِ سَيْلٌ

(٢) وقال الشاعر:

قَالَ لِي وَالذَّلَالُ يَعْطِفُ مِنْهُ هَلْ عَرَفْتَ الْهَوَى فَقُلْتُ وَهَلْ أُنْ
قَامَةً كَالْقَضِيبِ ذَاتَ لِيَانِهِ كِرُّ دَعْوَاهُ قَالَ: فَاحْمِلْ هَوَانَهُ

(٣) قول هارون لأخيه موسى عليهما سلام الله كما حكى الله عز وجل:

﴿خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾

(٤) قول أبي العلاء المعري:

لَمْ نَلْقَ غَيْرَكَ إِنْسَانًا يُلَادُ بِهِ فَلَا بَرِحْتَ لِعَيْنِ الدَّهْرِ إِنْسَانًا

(٥) قول أبي الفتح البستي:

فَهَمْتُ كِتَابَكَ يَا سَيِّدِي فَهَمْتُ وَلَا عَجَبٌ أَنْ أَهِيَمَا

(٦) قول ابن جبير الأندلسي:

فَيَا رَاكِبَ الْوَجْتَاءِ هَلْ أَنْتَ عَالِمٌ فِدَاؤُكَ نَفْسِي كَيْفَ تَلِكِ الْمَعَالِمُ

(٧) قول الله عز وجل في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ...﴾ [الآية ٨٣].

(٨) قول النابغة في الرثاء:

فَيَا لَكَ مِنْ حَزْمٍ وَعَزْمٍ طَوَاهُمَا جَدِيدُ الرَّدَى بَيْنَ الصَّفَا وَالصَّفَائِحِ

الصَّفَا: الحجارة العريضة الملساء، والواحدة منها صفاة.

الصَّفَائِحِ: جمع صفيحة، وهي كل عريض من حجارة أو لوح أو نحوهما،

وتطلق على السيف، لأنه حديدة عريضة.

(٩) قول الحريري :

«لَا أُعْطِي زِمَامِي مَنْ يُخْفِرُ ذِمَامِي ، وَلَا أُغْرِسُ الْأَيْدِي فِي أَرْضِ الْأَعَادِي» .
يُخْفِرُ : أي ينقض . ذِمَامِي : أي عهدي . الأيادي : أي النعم .

(١٠) قول البحري :

فَقِفْ مُسْعِداً فِيهِنَّ إِنْ كُنْتَ عَازِراً وَسِرْ مُبْعِداً عَنْهُنَّ إِنْ كُنْتَ عَازِلاً
عَازِلاً : أي : لائماً .

(١١) قول أبي تمام :

يَبِيضُ الصَّفَائِحِ لَا سُودَ الصَّحَائِفِ فِي مُتُونِهِنَّ جَلَاءُ الشُّكِّ وَالرَّيْبِ
الصَّفَائِحِ : يريد بها السيوف . ومَتْنُ السيف حُدُّه .

(١٢) قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول):

﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾﴾ .

(١٣) قول الشاعر :

إِلَى حَنْفِي سَعَى قَدَمِي أَرَى قَدَمِي أَرَاقَ دَمِي
فَمَا أَنْفَكُ عَنْ نَدَمِي وَهَانَ دَمِي فَهَانَ دَمِي

* * *

خاتمة :

يَحْسُنُ تَرْكُ الْجِنَاسِ وَإِنْ تَيْسَّرَ إِذَا اقْتَضَى مَعْنَى مَقْصُودٌ تَرْكُهُ وَعَدَمَ الْاِحْتِفَاءِ
به ، فمراعاة المعاني أولى من مراعاة الألفاظ .

● ومن الأمثلة الكاشفة ما جاء في قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (يوسف/

١٢ مصحف/ ٥٣ نزول) حكاية لما قال إخوة يوسف عليه السلام لأبيهم يعقوب
عليه السلام :

﴿ قَالُوا يَا بَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْعَيْنَا فَآكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ .

كان من الممكن أن يقولوا: وما أنت بمصدقٍ لنا وإن كنا صادقين، فيصنعوا جناساً.

لكن هذا الجناس يفوّث معنى قَصَدُوا التعبير عنه، وهو أنّ أباهم غير مطمئن لمشاعرهم تجاه أخيهم، إذ هو يعلم حسدَهم له، فلو كانوا صادقين حقاً وصدقهم لما وصل تصديقه إلى درجة الإيمان الذي يُحدِث في القلب الطمأنينة.

ومن الأمثلة الكاشفة أيضاً قول الله عزّ وجلّ في سورة (الصّافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول) حكاية لمقالة «إلياس عليه السلام» لقومه بشأن إلههم «بعل»:

﴿ أَنْدَعُونَ بَعْلًا وِتَدْرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ .

كان من الممكن أن يُستخدَم في هذا التعبير الجناس، بأن يُقال: أتدعون بعلاً وتدعون أحسن الخالقين.

لكن استخدام هذا الجناس يفوّث معنى مقصوداً، والدلالة عليه أولى من الاحتفاء بمُحسّنٍ لفظي، وذلك لأن كلمة «تَدْعُونَ» تدلّ على أنّ المتروك شيءٌ معنّى به، بشهادة الاشتقاق، إذ مادّة الكلمة ليست موضوعة لمطلق التّرك، بل هو ترك مقرون بالاعتناء بحال المتروك، ومنه ترك الوديعة، ولذلك يُختار لها من هو مؤتمنٌ عليها، وتودّع لتستعاد بعد حين.

والمخاطبون عبّادٌ «بعل» غير مهتمّين ولا معتنين بالله ربّ العالمين، أحسن الخالقين.

بخلاف عبارة: «تَدْرُونَ» فإنّ مادّتها موضوعة لمطلق التّرك أو للتّرك مع إغراض وإهمال وعدم اعتناء بالمتروك مطلقاً.

قال الراغب: يُقال: فلانٌ يَدْرُ الشيء، أي: يقدِّفه لقلَّة الاعتداد به، ومنه «الوَدْرَة» وهي القطعة الصغيرة من اللحم لا عظم فيها، لقلَّة الاعتداد بها.

ولمَّا كان سياق النصِّ يُناسبُه معنى: «وَتَدْرُونَ» دون «وَتَدْعُونَ» كان الاختيار القرآني مُرَجَّحاً جانب المعنى على جانب المُحَسِّن اللَّفْظِي، إذ حالُ المخاطبين من أهل الشرك والكُفر الذين كانوا يعبدون بعلًا حال المُدبر المتولِّي الذي بلغ الغاية في تولِّيه عن ربِّه وما جاء به الرسول.



السَّجْع

یقال لغة: سَجَعَتِ الحمامةُ أو النَّاقَةُ سَجْعاً، إذا رَدَدَتْ صَوْتَهَا على طریقةٍ واحدة.

ویقال: سَجَعَ المتكلمُ فی كلامه، إذا تكلمَ بكلامٍ له فواصل كفواصل الشعرِ مُقَفَّى غیر موزون.

والسَّجْعُ فی البدیع: هو تواطؤُ الفاصلتین من التَّشْرِ على حرف واحد، وهو فی النثر كالقافية فی الشعر.

وأفضل السجع ما كانت فقرأته متساويات، مثل:

(١) قول الرسول ﷺ فی دعائه المتضمن الحثَّ على الإنفاق فی الخیر، والتحذیر من الإمساك:

«اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقاً خَلْفاً، وَأَعْطِ مُمَسِكاً تَلْفاً».

(٢) وقول أعرابي ذهب السَّيْلُ بانيه:

«اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ قَدْ أْبَلَيْتَ، فَإِنَّكَ طَالَمَا قَدْ عَافَيْتَ».

یقال لغة: بَلَاهُ وأَبْلَاهُ، إذا اختبره، والمصائب من الأمور التي یختبر الله بها عباده كالنعم.

(٣) قولهم:

«الحرُّ إِذَا وَعَدَ وَفَى، وَإِذَا أَعَانَ كَفَى، وَإِذَا قَدَرَ عَفَا».

وقد جاء في كلام الرسول ﷺ النَّهْيُ عن سَجْعِ الكُهَّانِ، إبعاداً عن التشبُّهِ بهم، وهو غير السَّجْعِ الذي إذا كان تلقائياً غير متكلف ولا مُلتزَمٍ به في كلِّ الكلام، كان من المحسِّنات اللفظية، وكان من البديع، لوروده في القرآن وفي أقوال الرسول ﷺ.

والأَسْجَاعُ مبنيةٌ على سُكُونِ الأعْجَازِ (أي: الأواخر) مثل:
«مَا أَبْعَدَ مَا فَاتَ، وَمَا أَقْرَبَ مَا هُوَ آتٌ».

والأصل في السَّجْعِ، أن يكون في النثر، لكنَّه قد يأتي داخل فِقرَاتِ البيت من الشعر، فيزيده حُسناً إِذَا كان مستوفياً شروطه الفنيَّة غير متكلف.

وتأدَّب بعض العلماء^(١) فخصَّ ما هو ملاحظٌ في القرآن من سجع باسم «فواصل».

ويُطلق على الفِقرَةِ المنتهية بالفاصلة: «سَجْعُه» وجمعها «سَجَعَاتٌ» ويُطلق عليها «قَرِينةٌ» لمقارنتها لأختها، وتجمع على «قرائن» ويُطلقُ عليها «فِقرَةٌ» وجمعها «فِقرَاتٌ» و «فِقرَةٌ».

أقسام السجع:

من الدقة في التقسيمات والتفصيلات لدى علمائنا الأقدمين تقسيمُهُمُ السَّجْعِ إلى عدَّة أقسام هداهم إليها واقع الأمثلة التي نظروا في شرحها وتحليلها، مع النظر في الاحتمالات العقلية التي تتعرَّض لها الجُمَلُ المسجوعة في اللسان العربي.

فقسَّمُوا السَّجْعَ إلى عدَّة أقسامٍ، ووضعوا لها أسماء اصطلاحية وفيما يلي بيانها.

(١) منهم الباقلاني وابن الأثير.

أولاً:

فمن جهة بناء كلمات السجعتين واتفاقها في الوزن والحرف الأخير منها أو عدمه ظهرت لهم ثلاثة أقسام:

القسم الأول: «التَّرْصِيع» ويقال فيه: «السَّجْعُ المَرْصَعُ».

وهو أن تكون الألفاظ المتقابلة في السَّجْعَتَيْنِ متفقة في أوزانها وفي أعجَازِها، «أي: في الحرف الأخير من كلِّ متقابلين فيها» مثل ما يلي:

(١) قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الغاشية/ ٨٨ مصحف/ ٦٨ نزول):

﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿٦٦﴾﴾.

فالتقابلُ في كَلِمَاتِ الفِقرَتَيْنِ يُلاحَظُ فيه الاتِّفاقُ في الأوزان وفي الحرف الأخير.

إِنَّ - إِلَيْنَا - إِيَابَهُمْ - ثُمَّ.

إِنَّ - عَلَيْنَا - حِسَابَهُمْ.

أما كلمة «ثُمَّ» فهي بمثابة المشترك بين الفقرتين.

(٢) قول الحريري:

«فَهُوَ يَطْبَعُ الْأَسْجَاعَ بِجَوَاهِرِ لَفْظِهِ، وَيَقْرَعُ الْأَسْمَاعَ بِزَوَاجِرِ وَعْظِهِ».

التقابل في كلمات هاتين الفِقرَتَيْنِ تقابُلُ اتِّفاقٍ في الأوزان وفي الحرف الأخير:

فهو: يَطْبَعُ - الْأَسْجَاعَ - بِجَوَاهِرِ - لَفْظِهِ.

و: يَقْرَعُ - الْأَسْمَاعَ - بِزَوَاجِرِ - وَعْظِهِ.

ويُلاحَظُ فيهما مع التَّرْصِيعِ، تصعُّعُ الجناسِ الناقصِ.

القسم الثاني: «المتوازي» ويقال فيه: «السَّجْعُ المتوازي».

وهو أن تكون الكلمتان الأخيرتان من السجعتين متفقتين في الوزن وفي الحرف الأخير منهما، مع وجود اختلافٍ ما قبلهما في الأمرين، أو في أحدهما، مثل ما يلي:

(١) قول الله عزّ وجلّ في سورة (الغاشية/ ٨٨ مصحف/ ٦٨ نزول) في وصف الجنة:

﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۖ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۗ ۝١١﴾

كلمتا: «مَرْفُوعَةٌ» و «مَوْضُوعَةٌ» متفقتان في الوزن والحرف الأخير، لكنّ ما قبلهما وهما: «سُرُرٌ» و «أَكْوَابٌ» غير مُتَّفَقَتَيْنِ فيهما.

(٢) قول أبي منصور الثعالبي:

«الْحِقْدُ صَدَأُ الْقُلُوبِ، وَاللَّجَاجُ سَبَبُ الْحُرُوبِ».

اللَّجَاجُ: التماذي في الخصومة.

كلمتا: «القلوب» و «الحروب» متفقتان في الوزن والحرف الأخير، لكنّ كلمتي «صَدَأٌ» و «سَبَبٌ» مختلفتان في الحرف الأخير، وإن اتفقتا في الوزن، وكلمتي «الحقد» و «اللجاج» مختلفتان في الأمرين كليهما.

(٣) قول الحريري:

«ارْتِفَاعُ الْأَخْطَاذِ بِاِقْتِحَامِ الْأَخْطَاذِ»

الأخطاؤ الأولى: المنازل الاجتماعية.

والأخطاؤ الثانية: المهالك.

(٤) وقال أعرابي لرجلٍ سألَ لثيماً:

«نَزَلْتَ بِوَادٍ غَيْرِ مَمْطُورٍ، وَفِنَاءٍ غَيْرِ مَعْمُورٍ، وَرَجُلٍ غَيْرِ مَيْسُورٍ، فَأَقْدَمَ بِنَدَمٍ،

أَوْ ارْتَحَلَ بِعَدَمٍ».

(٥) وقال أعرابي:

«بَاكَرْنَا وَسَمِيَّ، ثُمَّ خَلَفَهُ وَلِيَّ، فَالْأَرْضُ كَأَنَّهَا وَشِيٌّ مَنْشُورٌ، عَلَيْهِ لَوْلُؤُ
مَنْشُورٌ، ثُمَّ أَتَتْنا عَيْوُمُ جِرَادٍ، بِمَنَاجِلِ حَصَاذٍ، فَجَرَدَتِ الْبِلَادُ، وَأَهْلَكَتِ الْعِبَادُ،
فَسُبْحَانَ مَنْ يُهْلِكُ الْقَوِيَّ الْأَكُولَ، بِالضَّعِيفِ الْمَأْكُولِ».

الوسمي: مطر الربيع الأول.

الولي: المطر يسقط بعد المطر.

القسم الثالث: «المطرّف» ويقال فيه: «السَّجْعُ الْمُطْرَفُ».

وهو أن تكون الكلمتان الأخيرتان من السَّجْعَتَيْنِ مختلفتين في الوزن،
متفقتين في الحرف الأخير، وعندئذ لا يُنظَرُ إلى ما قبلهما في الاتفاق
أو الاختلاف، مثل ما يلي:

(١) قول الله عز وجلّ في سورة (نوح/ ٧١ مصحف/ ٧١ نزول) حكاية لما

قال نوح عليه السلام لقومه:

﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ ﴾

كلمتا: «وَقَارًا» و «أَطْوَارًا» مختلفتان في الوزن، متفقتان في الحرف الأخير.

(٢) قَوْلِ أَحَدِ الْبُلْغَاءِ:

«الْإِنْسَانُ بِأَدَابِهِ لَا بَزِيَّةٍ وَبِيَابِهِ».

ثانياً:

والسَّجْعُ فِي الشَّعْرِ قَدْ يَأْتِي عَلَى وَجْهِ السَّجْعِ فِي النَّثْرِ، إِلَّا أَنَّهُ يَخْتَصُّ

بِقِسْمَيْنِ لَا يَوْجِدَانِ فِي النَّثْرِ، هُمَا: التَّصْرِيعُ، وَالتَّشْطِيرُ:

● فَالتَّصْرِيعُ: يَكُونُ بِجَعْلِ الْعُرُوضِ (وهي آخر المصراع الأول من البيت)

مَقْفَاةً تَقْفِيَةَ الضَّرْبِ (وهو آخر المصراع الثاني من البيت) ومنه أغلب أوائل

القصائد، مثل:

(١) قول امرئ القيس :

أَفَاطِمُ مَهْلًا بَعْضَ هَذَا التَّدْلِيلِ وَإِنْ كُنْتُ قَدْ أَرْمَعْتِ صَرْمِي فَأَجْمَلِي
صَرْمِي : أي : قطع وصالي .

وقوله :

قَفَا نَبِكِ مِنْ ذِكْرِي حَيْبٍ وَمَنْزِلِ بِسِقْطِ اللُّوئِ بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ
(٢) وقول أبي الطيب المتنبّي :

مَغَانِي الشُّعْبِ طِبَاءَ فِي الْمَغَانِي بِمَنْزِلَةِ الرَّبِيعِ مِنَ الزَّمَانِ
● والتَّشْطِيرُ : يكون بِجَعْلِ كُلِّ شَطْرٍ مِنْ شَطْرِي الْبَيْتِ مَسْجُوعاً سَجْعاً مُخَالَفاً
للسَّجْعِ فِي الشَّطْرِ الْآخَرَ ، مثل قول أبي تَمَّام :

تَذِيرٌ مُعْتَصِمٍ . بِاللَّهِ مُتَّقِمٍ لِلَّهِ مُرْتَغِبٍ . فِي اللَّهِ مُرْتَقِبٍ
فالسَّجْعُ فِي الشَّطْرِ الْأَوَّلِ عَلَى حَرْفِ الْمِيمِ ، وَفِي الشَّطْرِ الثَّانِي عَلَى حَرْفِ
الْبَاءِ .

أمثلة على السَّجْعِ مِنَ الشَّعْرِ :

(١) قول أبي تَمَّامِ يَمْدِحُ أَبَا الْعَبَّاسِ «نَصْرَ بْنَ بَسَّامٍ» :

سَأَحْمَدُ نَصْرًا مَا حَيَّيْتُ وَإِنِّي لِأَعْلَمُ أَنَّ قَدْ جَلَّ نَصْرٌ عَنِ الْحَمْدِ
تَجَلَّى بِهِ رُشْدِي وَأَثَرَتْ بِهِ يَدِي وَقَاضَ بِهِ ثَمْدِي وَأَوْرَى بِهِ زَنْدِي
ثَمْدِي : الثَّمْدُ : الْمَاءُ الْقَلِيلُ .

أَوْرَى الزَّنْدُ : خَرَجَتْ نَارُهُ ، وَالزَّنْدُ هُوَ الْعُودُ الْأَعْلَى الَّذِي تَقْدَحُ بِهِ النَّارُ .

(٢) وقول الخنساء :

حَامِي الْحَقِيقَةِ . مَحْمُودُ الْخَلِيقَةِ مَهْدِي الطَّرِيقَةِ . نَفَّاعٌ وَضَرَّارٌ

جَوَابُ قَاصِيَةٍ. جَزَارُ نَاصِيَةٍ عَقَادُ أَلْوِيَةٍ. لِلخَيْلِ جَرَارُ
ثالثاً:

والسَّجْعُ من جهة الطول والقصر ينقسم إلى ثلاثة أقسام:
القسم الأول: «السَّجْعُ القَصِيرُ».

ومنه قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول):

﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَأَلْغَصَتْ عَصْفًا ﴿٢﴾﴾.

القسم الثاني: «السَّجْعُ المتوسط».

ومنه قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول):

﴿أَقْرَبَ السَّاعَةِ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَعْتَبٌ ﴿٢﴾
وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ ﴿٣﴾﴾.

القسم الثالث: «السَّجْعُ الطويل».

ومنه قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الأنفال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول):

﴿إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَادَكُمُ كَثِيرًا لَفُتِنْتُمْ وَلَنْتَزَعْتُمُ فِي
الْأَمْرِ وَلَئِنْ أَسَلَمَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّيِّبَتُمْ فِي أعْيُنِكُمْ
قَلِيلًا وَيَقُولُ لَكُمْ فِي أعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَاتٍ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤١﴾﴾.

درجات السَّجْعِ فِي الحُسْنِ:

رتب علماء البديع السَّجْعِ من جهة الحُسْنِ فِي ثلاث دَرَجَاتٍ:

الدرجة الأولى «العليا»: مَا تَسَاوَتْ سَجْعَاتُهُ، مثل قول الله عزَّ وجلَّ فِي سورة

(الواقعة/ ٥٦ مصحف/ ٤٦ نزول):

﴿وَأَحْضَبُ اليمينِ مَا أَحْضَبُ اليمينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظَلِي

مَتَدُودٍ ﴿٣٠﴾﴾.

مَخْضُود: أي: متزوع الشوك.

وَطَلْحُ مَنْضُود: الطَّلْحُ: الموز.

منضود: أي: مضموم بعضه إلى بعض بتناسق.

الدرجة الثانية «الوسطى»: مَا طَالَتْ سَجْعَتُهُ الثَّانِيَةَ، أَوِ الثَّلَاثَةَ، مِثْلَ مَا يَلِي:

(١) قول الله عزّ وجلّ في سورة (النجم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول):

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾﴾

السجعة الثانية هنا أطول من الأولى.

(٢) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الحاقة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول) بشأن

من أوتي كتابه بشماله يوم الدين:

﴿حَذُوهُ فَعُلُوهُ ﴿٣١﴾ نُرِّبُكَ لِمِمَّا صَلُّوهُ ﴿٣٢﴾﴾

السجعة الثالثة هنا هي الأطول.

أقول:

هذه الدرجة الثانية قد تكون في موقعها الملائم مثل الدرجة الأولى في الحُسن، وطولُ السجعة الثانية أو الثالثة قد يزيد السَّجْعَ حُسْنًا، لأنّه يُخرجه عن التَّمْطِيَّةِ المتناظرة، فيكون أكثر تنبيهاً وإثارةً لنفس الأديب الذّواق للجمال، وكتابُ الله مُتَّشابه في الحُسن.

الدرجة الثالثة: مَا كَانَتْ سَجْعَتُهُ الثَّانِيَةَ أَقْصَرَ مِنَ الْأُولَى قِصْرًا كَثِيرًا، يُحَسِّنُ مَعَهُ الذَّوْقَ الْجَمَالِيَّ عِنْدَ الْأَدِيبِ بِأَنَّهُ كَالشَّيْءِ الْمَبْتُورِ الَّذِي قُطِعَ قَبْلَ أَنْ يَسْتَكْمَلَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَهُ.

أقول:

الْمُحَكَّمُ فِي كُلِّ ذَلِكَ الْحَسُّ الْجَمَالِيَّ لَدَى ذَوَاقِي الْجَمَالِ فِي الْكَلَامِ، لَا التَّسَاوِيَّ فِي الْفَقْرَاتِ الْمُقْتَرَنَاتِ، وَلَا طُولَ بَعْضِهَا وَقِصْرَ بَعْضِهَا.

على أنّ المعاني ينبغي أن تكون صاحبة الحظّ الأوفر من الاعتبار، وما
تستدعيه المعاني من تساوي الفقرات أو تفاضل فهو الذي يحسن أن يُصار إليه
دواماً، والقيود من وراء ذلك قيودٌ شكلية لا لزوم لها.

أخيراً:

قد يلجأ البليغ إلى بعض تصرّفٍ في الكلمة على خلاف قاعدتها في اللسان
العربي مراعاةً للسجع المتناظر، ومنه ما جاء في قول الرسول ﷺ لِلَّوَاتِي كُنَّ
يَخْرُجْنَ إِلَى الْمَقَابِرِ لِلنُّوَّاحِ عَلَى الْمَوْتَى:
«إِرْجِعْنَ مَأْزُورَاتٍ غَيْرَ مَأْجُورَاتٍ».

أصل «مأزورات» أن يقال فيها «مؤزورات» فحصل التصرف في الحرف
الثاني، لِنُتَاطَرِ الْكَلِمَةِ السَّجْعَةَ الثَّانِيَةَ «مَأْجُورَاتٍ».



الموازنة

الموازنة: هي تساوي الفاصِلَتَيْنِ في الوزن من الفِقرَتَيْنِ المقترنتين، مع اختلافهما في الحرف الأخير منهما « = القافية في الشعر » .
ولولا أَنَّ السَّجْعَ يُشْتَرَطُ فيه الاتِّفَاقُ في الحرف الأخير من سجعته لكانت الموازنة قِسْماً منه .

واشتق أهل البديع منها فرعاً أطلقوا عليه اسم «الممائلة» وهي الموازنة التي يكون كُلُّ مَا في إحدى الفقرتين المقترنتين أو مُعْظَمُهُ مِثْلَ مُقَابِلِهِ من الفقرة الأخرى في الوزن .

أمثلة:

(١) قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الغاشية/ ٨٨ مصحف/ ٦٨ نزول) في وصف الجنة:

﴿وَمَارِقٌ مَّصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾﴾ .

هذا مثال للموازنة، إذ اتَّفَقَتِ الكلمتان الأخيرتان في الوزن دون التقفية، فالأولى على الفاء، والثانية على التاء .

نمارقُ: جَمْعُ «نُمرُق»، وهي الوسادة الصغيرة يُتَكَأُ عليها، ويقال فيها: نَمْرُقَةٌ، ونُمرُقَةٌ، ونِمْرُقَةٌ .

زَرَابِيي: جمع «زَرَبِيَّة» وهي حَشِيَّةٌ تُبْسَطُ لِلجُلُوسِ عليها .

(٢) قول أبي تمام:

فَأَحْجَمَ لَمَّا لَمْ يَجِدْ فِيكَ مَطْمَعاً وَأَقْدَمَ لَمَّا لَمْ يَجِدْ عَنْكَ مَهْرَباً

هذا مثال للمائلة، إذ كُلُّ كلمات الفقرتين متفقات في الوزن.

فَأَحْجَمَ - لَمَّا - لَمْ - يَجِدْ - فِيكَ - مَطْمَعاً.

وَأَقْدَمَ - لَمَّا - لَمْ - يَجِدْ - عَنْكَ - مَهْرَباً.



رَدُّ الْعَجْزِ عَلَى الصَّدْرِ

يُكُونُ فِي النَثْرِ وَيَكُونُ فِي الشَّعْرِ:

● أَمَا فِي النَّثْرِ: فَهُوَ أَنْ يَجْعَلَ الْمُتَكَلِّمُ أَحَدَ اللَّفْظَيْنِ الْمَكْرَرَيْنِ، أَوْ الْمُتَجَانِسَيْنِ أَوْ مَا هُوَ مُلْحَقٌ بِالْمُتَجَانِسَيْنِ فِي أَوَّلِ الْفَقْرَةِ، وَالْآخَرَ فِي آخِرِهَا، مِثْلَ مَا يَلِي:

(١) قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الْأَحْزَابِ / ٣٣ مِصْحَفٍ / ٩٠ نَزُولٍ) خُطَابًا لِرَسُولِهِ ﷺ بِشَأْنِ تَرْوِجِهِ مِنْ زَيْنَبَ مُطَلَّقَةً مُتَبَّأَةً زَيْدًا:

﴿ وَتَخَشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ... ﴾ [الآية ٣٧].

هَذَا مِثَالُ اللَّفْظَيْنِ الْمَكْرَرَيْنِ.

(٢) قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (نُوحٍ / ٧١ مِصْحَفٍ / ٧١ نَزُولٍ) فِي حِكَايَةِ مَا قَالَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ:

﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبِّيَ إِنَّكُمْ كَانْتُمْ عَاقِلِينَ ﴾.

هَذَا مِثَالُ اللَّفْظَيْنِ الْمُتَلَاقِيَيْنِ فِي الْاِشْتِقَاقِ.

(٣) قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الشُّعْرَاءِ / ٢٦ مِصْحَفٍ / ٤٧ نَزُولٍ) حِكَايَةِ لِمَا قَالَ لُوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ:

﴿ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴾.

هَذَا مِثَالُ اللَّفْظَيْنِ الْمُتَلَاقِيَيْنِ فِيمَا يَشْبَهُ الْاِشْتِقَاقِ.

● وأما في الشعر: فهو أن يجعل المتكلم أحد اللفظين المكررين،
أو المتجانسين، أو ما هو مُلْحَقٌ بالمتجانسين في واحد من الوجوه التالية:

الوجه الأول: أن يكون أحدهما في آخر البيت والآخر في أول البيت، مثل
قول الأفيشر:

سَرِيحٌ إِلَى ابْنِ الْعَمِّ يَلْطُمُ وَجْهَهُ وَلَيْسَ إِلَى دَاعِيِ النَّدَى بِسَرِيحِ
الوجه الثاني: أن يكون أحدهما في آخر البيت والآخر في آخر الشطر الأول،
مثل قول أبي تمام:

وَمَنْ كَانَ بِالْبَيْضِ الْكَوَاعِبِ مُغْرَمًا فَمَا زِلْتُ بِالْبَيْضِ الْقَوَاضِبِ مُغْرَمًا
ال«كواعب»: جمع «كاعب» وهي الجارية حين يبدو ثديها.
بالْبَيْضِ الْقَوَاضِبِ: أي: بالسُّيُوفِ القواطع.

الوجه الثالث: أن يكون أحدهما في آخر البيت، والآخر في حشو الشطر
الأول، مثل قول الصّمة بن عبد الله القشيري:

أَقُولُ لِصَاحِبِي وَالْعَيْسُ تَهْوِي بِنَايَيْنِ الْمُنِيفَةِ فَالضَّمَارِ
تَمْتَعِ مِنْ شَمِيمِ عَرَّارٍ نَجْدٍ فَمَا بَعْدَ الْعَشِيَّةِ مِنْ عَرَّارِ
العَرَّار: وردة ناعمة صفراء طيبة الرائحة.

الوجه الرابع: أن يكون أحدهما في آخر البيت والآخر في أول الشطر الثاني،
مثل قول ذي الرّمة:

أَلَمَّا عَلَى الدَّارِ الَّتِي لَوْ وَجَدْتُهَا بِهَا أَهْلُهَا مَا كَانَ وَخْشًا مَقِيلُهَا
وَإِنْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا مُعَرَّجَ سَاعَةٍ قَلِيلًا فَإِنِّي نَافِعٌ لِي قَلِيلُهَا
أَلَمَّا: أي: انزلاً نزلوا قليلاً.

مُعْرَجٌ: يُقَالُ: عَرَجَ عَلَيْهِ، إِذَا مَالَ إِلَيْهِ. وَعَرَجَ بِالْمَكَانِ. إِذَا نَزَلَ بِهِ.
قَلِيلًا: أَي: إِلَّا مُعْرَجًا قَلِيلًا.

أمثلة متنوعة من ردّ العجز على الصدر:

(١) قال القاضي الأرجاني:

دَعَانِي مِنْ مَلَامِكُمْ سَفَاهًا فَدَاعِي الشُّوقِ قَبْلَكُمْ دَعَانِي

(٢) وقال الثعالبي:

وَإِذَا الْبَلَابِلُ أَفْصَحَتْ بِلُغَاتِهَا فَانَفِ الْبَلَابِلِ بَاخْتِسَاءِ بَلَابِلِ

البلابل: الأولى جمع «بُلبِل» وهو الطائر المعروف بالتغريد. والثانية جمع «بِلْبَال» وهو الحزن. والثالثة: جمع «بُلْبُلَّة» وهو إبريق الخمر.

(٣) وقال الحريري:

فَمَشْغُوفٌ بِآيَاتِ الْمُثَانِي وَمَفْتُونٌ بِرِثَاتِ الْمُثَانِي

المثاني: الأولى: آيات القرآن. والثانية: أوتار المزامير التي ضُمَّ طاقٌ منها

إلى طاق.

(٤) وقال القاضي الأرجاني:

أَمَلْتُهُمْ ثُمَّ تَأَمَلْتُهُمْ فَلَاحَ لِي أَنْ لَيْسَ فِيهِمْ فَلَاحَ

(٥) وقال البحري:

ضَرَائِبُ أَبْدَعْتَهَا فِي السَّمَاحِ فَلَسْنَا نَرَى لَكَ فِيهَا ضَرِيبًا

ضرائب: جَمْعُ «ضَرِيْبَة» وهي ما طُبِعَ عليه الإنسان.

ضَرِيْبًا: أَي مِثْلًا وَنَظِيرًا.

(٦) وقال أبو العلاء المعري:

لَوْ اخْتَصَرْتُكُمْ مِنَ الْإِحْسَانِ زُرْتُكُمْ وَالْعَذْبُ يُهْجَرُ لِلْإِفْرَاطِ فِي الْخَصْرِ

الْخَصْرُ: شِدَّةُ الْبُرُودَةِ.

(٧) وَقَالَ ابْنُ عُيَيْنَةَ الْمُهَلَّبِيُّ:

فَدَعَ الْوَعِيدَ فَمَا وَعَيْدُكَ ضَائِرِي أَطْنَيْنُ أَجْنَحَةَ الدُّبَابِ يَضِيرُ

(٨) وَقَالَ أَبُو تَمَّامٍ مِنْ قَصِيدَةِ يَرِثِي بِهَا مُحَمَّدَ بْنَ نَهْشَلٍ حِينَ اسْتُشْهِدَ:

وَقَدْ كَانَتْ الْبَيْضُ الْقَوَاضِبُ فِي الْوَعَى بَوَاتِرَ وَهِيَ الْآنَ مِنْ بَعْدِهِ بُتْرُ

الْبَيْضُ الْقَوَاضِبُ: السُّيُوفُ الْقَوَاطِعُ.

بَوَاتِرَ: أَيُّ: قَوَاطِعُ.

بُتْرُ: جَمْعُ «أَبْتَرٍ» وَهِيَ بِمَعْنَى: أَقْطَعُ، أَيُّ: مَقْطُوعٌ.



الانسجام

الانسجام: هو أن يكون الكلام في مفرداته وجمله منسباً أنساب الماء في مجاریه السهلة، متحدراً لينا، بسبب التلاؤم بين كلماته، وجمله، وعذوبة ألفاظه، وجمال تموجات فقراته، وخلوه من التعقيد والتنافر، وخلوه من كل ما يند عن النطق، وينفر منه السمع.

وإذا قوي الانسجام في التثر جاءت قراءته موزونة دون ترقيب ولا قصد ولا تكلف، بل يندفع بتلقائية الذوق الأدبي، والحس الجمالي المرهف.

والقرآن المجيد كله منسجم، قد يسره الله للذكر، وفيه فقرات موزونة وزناً شعرياً، وهي في مواضعها من القرآن ليست بشعر، ومن هذه الفقرات الموزونة ما يلي:

- (١) ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ شطر من «الطويل».
- (٢) ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ شطر من «المديد».
- (٣) ﴿فَأَصْبَحُوا لَا تَرَى إِلَّا مَسَاكِينَهُمْ﴾ شطر من «البيسط».
- (٤) ﴿وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾
ويخزهمو: على قراءة من يضم الميم مع الصلة. هذا بيت من «الوافر».

(٥) ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ .

متفاعل - متفاعل - متفاعل - متفاعل .

(٦) [دَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ قُطُونُهَا تَذْلِيلًا]

هذا بيت من الرجز .

إلى غير ذلك من أمثلة كثيرة في القرآن .



ائتلاف اللفظ مع اللفظ وائتلافه مع المعنى

● من المحسنات البديعية اللفظية أن يكون اللفظ مع اللفظ المجاور له في الكلام مؤتلفين، وهذا يلزم منه أن تكون الألفاظ في الكلام متألّفة يلائم بعضها بعضها.

ومن الائتلاف في الألفاظ أن يُنتقى في النص من الكلمات ما يكون من نوع من الكلام واحد، كأن تكون الكلمات من نوع الغريب، أو من نوع المتداول، أو مما يلائم العامة، أو مما يلائم الخاصة، أو مما يلائم مخاطبين مُعيّنين ذوي تخصص واحد من تخصصات المعارف والعلوم والصناعات والمهن.

● ومن المحسنات البديعية اللفظية أن تكون ألفاظ الكلام ملائمة للمعنى المراد منها، ومن هذه الملاءمة أن يحكي صوت الكلمة صوتاً يوجد فيما دلت عليه، مثل «حفيف» لحركة أوراق الشجر، و«فحيح» لصوت الأفعى، و«صرصر» لصوت الريح الشديدة، والهمز للصوت الذي يصدر عند إقفال القفل أو تحريك المزلاج في «مؤصدة» و«سلسبيل» لصوت الماء الذي يجري بيسر، و«خرير» للماء النازل في شلال، إلى أمثلة كثيرة.

وإذا كان المعنى جزلاً اختيرت له ألفاظٌ جزلةٌ ثلاثمه.

وإذا كان المعنى رقيقاً اختيرت له ألفاظ رقيقة ثلاثمه.

وإذا كان المعنى خشناً اختيرت له ألفاظ خسنة ثلاثمه.

وإذا كان المعنى غريباً اختيرت له ألفاظٌ غريبةٌ ثلاثمه .

وإذا كان المعنى متداولاً اختيرت له ألفاظٌ متداولةٌ ثلاثمه .

وإذا كان المعنى متوسطاً بين الغرابة والتداول اختير له ما يلائمه .

وإذا كان المعنى فخماً اختير له ألفاظٌ مفخمةٌ ثلاثمه .

وهكذا، فالألفاظُ الحبِّ والغزلِ، غير ألفاظِ العتابِ والشربِ، وألفاظِ المدحِ

غير ألفاظِ الهجاءِ .

إنه ليس من المستحسن في المدح أن يُقالَ: ثَقِيلُ الجودِ، ولا أن يقالَ في

الغزلِ: ثَقِيلُ الحبِّ، أو عَنِيفُ الهوى، ولا أن يقالَ في الإرهابِ: لطيفُ العبورِ

نافذُ الإرادةِ، إلّا في مُخَاطَبَةِ لَمَاحِي الذكاءِ، وعلى سبيلِ الإشارةِ، إلى غير ذلك

من اختيارِ ألفاظٍ غير ملائمةٍ للمعاني التي يُرادُ التأثيرُ بها .

أمثلة:

المثال الأول: قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (يوسف / ١٢ مصحف / ٥٣ نزول)

يحكي ما قال أولاد يعقوب عليه السلام بشأن يوسف عليه السلام:

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ تَقْتَوُا تَذَكَّرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ

الْهَالِكِينَ ﴿٥٥﴾ .

في هذا النص من الائتلاف جمع اللفظ الغريب مع اللفظ الغريب، وبيانه أن

«الْحَرَضَ» في اللغة هو الذي أضناه الحزنُ والعشقُ، فهو به شديد المرض، وهذا

اللفظ من الألفاظ الغريبة، وكان من فنية جمع الغريب مع الغريب اختيار أغرب

ألفاظ القسم، وهي «التاء» فإنها أقلُّ استعمالاً وأبعدُ عن أفهام العامة من القسم،

بحرف «الباء» أو حرف «الواو»، واختيار أغرب صيغ الأفعال التي ترفع الاسم

وتنصب الخبر من أخوات «كان» وهو فعل «تقتأ» وكان من الممكن اختيار فعل:

«ما تزال» فهو أقرب إلى الأفهام، وأكثر استعمالاً من فعل: «ما تفتأ» وهو بحذف

«ما» منه أشدَّ غرابة .

وهكذا رأينا أن من حُسْن الاختيار في نظم الكلام اختيار الألفاظ المتلائمة في الغرابة، توخياً لحسن الجوار كما يُجمَعُ في الحفل من الناس كلِّ صنف مع صنفه .

المثال الثاني: قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/

٧٠ نزول):

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدَّا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٨)

ألفاظ هذه الآية كُلُّهَا مُتداوِلة لا غرابة في كلمة منها، فكانت متلائمة حسنة التجاور .

المثال الثالث: قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فْتَمَسَّكُمُ النَّارُ...﴾ [الآية ١١٣].

في هذا النصّ تلاؤمٌ بديعٌ بين اللفظ والمعنى المراد، وبيانه أن الرُّكُونَ إلى الذين ظَلَمُوا نوعٌ من الميل إليهم والاعتماد عليهم، دون انغماس معهم في الظلم، فلام هذا المعنى أن يُختارَ في بيان العقاب لفظ ﴿فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ لأنَّ المسَّ فيه معنى ملاصقة النار دون الانغماس فيها .

أي: فعذاب من يركنُ إلى الظالمين هو من نوع عذاب الظالمين، لكنَّهُ دونه في الكيف والكمّ، إنّه للراكنين مسّ، لكنّه للظالمين انغماسٌ وحريق .

المثال الرابع: قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿لَا يَكْفُرُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا أُولَئِهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ...﴾ [الآية

. [٢٨٦]

جاء في هذا النصّ تلاؤمٌ بين اللفظ المختار والمعنى المراد به، إذ جاء فيه التفريق بين ما يدلُّ على فعل الحسنات وما يدلُّ على فعل السيئات، فاختير فيه فعلٌ

«كَسَبَ» الذي يُسْتَعْمَلُ في مكاسب الحياة الدنيا من مالٍ وغيره مراداً به فعل الحسنات والخيرات، لأنها ثَرَوَةٌ يَدَّخِرُهَا الإنسان، فتَنفَعُهُ في دنياه وأخراه، وإن شقَّ فعلُها على نفسه.

واختير فيه فعلُ «اكتَسَبَ» الذي فيه معنى تكَلَّفَ حَمْلَ العِبءِ مراداً به فعلُ السيئات والمعاصي والآثام، لأنها أوزارٌ وأحمالٌ ثَقِيلَةٌ تأتيه بأنواعٍ من العذاب في دنياه وأخراه، وإن جَلَبَتْ له لَذَّةٌ عاجلة، وهانَ فِعْلُها على نفسه.

المثال الخامس: قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) بشأن إدخال أهل جهنم فيها:

﴿ فَكَبِّجُوا فِيهَا هَمًّا وَالْفَاوِنَ ﴿١٥﴾ وَخُنُودًا يُلَيْسَ أَجْمَعُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ .

جاء في هذا النص اختيار لفظ [كَبِّجُوا] ملائماً تماماً للمعنى المراد منه، وذلك لأنَّ فعل: «كَبَّ» يَدُلُّ على المرَّة الواحدة، والمعنيون لا يُجْمَعُونَ وَيَكْبُونُ كَبَّةً واحدة. أمَّا فعل: [كَبَّكَبَ] فهو يَدُلُّ على معنى الكبِّ المتكرَّر المتتابع، وهو أمرٌ تدلُّ عليه الصيغة التي فيها تكرير للحروف كدلالة «الوسوسة» على التكرير، ودلالة «السلسلة» على تتابع الحلقات، ودلالة «الصلصلة» على تكرار الصوت، كصوت الجرس.

إنَّ الكَبِّكَبَةَ الجماعية المتكررة أدلُّ على الإهانة، وأكثر ملاءمةً للمعنى المراد.

المثال السادس: قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا... ﴾ [الآية ١٣٢].

جاء في هذا النص اختيار كلمة [اصْطَبِرْ] ملائماً للمعنى المراد، وهو تَكَلَّفُ الصَّبْرِ، بمغالبة النفس.

ولو اختير لفظ «اصبر» لما استفيد هذا المعنى .
إلى غير ذلك من أمثلة كثيرة .

* * *

خاتمة:

لذَوَاقِي التلاؤم والائتلاف بين الكلمات من كبار البلغاء حسُّ أدبي رفيع، قد لا يرقى إليه غيرهم من محبِّي الأدب، وعُشاقِ الكلامِ البليغ من شعري أو نثر .
وأذكر بهذه المناسبة ما رواه الواحدي في شرح ديوان المتنبي^(١) أن المتنبي
لَمَّا أَنشَد سيف الدولة قوله فيه:

وَقَفْتَ وَمَا فِي الْمَوْتِ شَكٌّ لِيُؤَقِّفِ كَأَنَّكَ فِي جَفْنِ الرَّدَى وَهُوَ نَائِمٌ
تَمُرُّ بِكَ الْأَبْطَالُ كُلَّمَا حَزِينَةٌ وَوَجْهُكَ وَضَّاحٌ وَتَغْرُكُ بِأَسْمِ

أنكر عليه سيف الدولة تطبيق عَجْزِي الْبَيْتَيْنِ عَلَى صَدْرَيْهِمَا، وقال له: كان ينبغي أن تجعلَ عَجْزَ الثَّانِي عَجْزَ الْأَوَّلِ، والعكس، وأنت في هذا مثل امرئ القيس في قوله:

كَأَنِّي لَمْ أَزَكِّبْ جَوَادًا لِلدَّةِ وَلَمْ أَبْطُنْ كَاعِبًا ذَاتَ خَلْخَالٍ
وَلَمْ أَسْبَأِ الرَّاحَ الْكُمَيْتَ وَلَمْ أَقُلْ لِخَيْلِي كُرِّي كَرَّةً بَعْدَ إِجْفَالٍ^(٢)

قال سيف الدولة: وَوَجْهُ الْكَلَامِ عَلَى مَا قَالَهُ الْعُلَمَاءُ بِالشَّعْرِ، أَنْ يَكُونَ عَجْزُ الْبَيْتِ الْأَوَّلِ لِلثَّانِي، وَعَجْزُ الْبَيْتِ الثَّانِي لِلأَوَّلِ، لِيَكُونَ رُكُوبُ الْخَيْلِ مَعَ الْأَمْرِ لِلْخَيْلِ بِالْكَرِّ، وَيَكُونَ سَبَاءُ الْخَمْرِ مَعَ تَبْطُنِ الْكَاعِبِ .

فقال أبو الطيب: «إِنْ صَحَّ أَنَّ الَّذِي اسْتَدْرَكَ عَلَى امْرِئِ الْقَيْسِ هَذَا أَعْلَمُ مِنْهُ

(١) عن تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور ج ٨ ص ٢٤٧ - ٢٤٨ .

(٢) سَبَاءُ الْخَمْرِ: أَي: اشترها ليشربها. الرّاح: الخمر. الْكُمَيْت: الخمر ذات اللّون الجامع بين السّواد والحمرة .

بالشعر فقد أخطأ امرؤ القيس وأخطأت أنا، ومولانا الأمير يعلم أن الثوب لا يعرفه
البزاز معرفة الحائك، لأنّ البزاز لا يعرف إلا جملة، والحائك يعرف جملة
وتفصيله، لأنه أخرجه من الغزلية إلى الثوبية، وإنما قرن امرؤ القيس لذة النساء
بلذة الرُّكوب للصيد، وقرن السباحة في شراء الخمر للأضياف بالشجاعة في منزلة
الأعداء.

وأنا لما ذكرت الموت في أول البيت أتبعته بذكر الردى لتجانسه، ولما كان
وجه المنهزم لا يخلو من أن يكون عبوساً، وعينه من أن تكون باكية، قلت:
«وَوَجْهَكَ وَضَاحٌ وَتَغْرُكُ بِاسِمٍ» لأجمع بين الأضداد في المعنى . . .

أقول:

لقد أدرك المتنبّي بما لديه من ذوق فني رفيع لدقائق الجمال في قرن الأشباه
والنظائر والأضداد، أن قرن الأضداد الفكرية في تتابع اللوحة البيانية، أجمل وأكثر
تأثيراً في النفس من قرن الأشباه والنظائر بعضها ببعض، لأنّ تخاطر الأضداد في
الأذهان أقرب من تخاطر الأشباه والنظائر.



التعائق

وهو قسمان:

القسم الأول: «اقتباس أوائل اللاحق من أواخر السابق» ويُطلق عليه «تشابه الأطراف».

وهو أن يوتى بآخر الفقرة السابقة من الكلام، أو بآخر الشطر الأولى من البيت، أو بآخر البيت، فيُجعلُ بدأً للكلام اللاحق، وقد يكرّرُ هذا في النص الواحد.

● فمنه قول ليلى الأخيلية في مدح الحجاج بن يوسف الثقفي:

إِذَا نَزَلَ الْحَجَّاجُ أَرْضاً مَرِيضَةً تَبَعَ أَقْصَى دَائِهَا فَشَفَاهَا
شَفَاهَا مِنَ الدَّاءِ العُضَالِ الَّذِي بِهَا غُلَامٌ إِذَا هَزَّ القَنَاةَ سَقَاهَا
سَقَاهَا فَرَوَّاهَا بِشَرْبِ سِجَالِهِ دِمَاءُ رِجَالٍ يَحْلُبُونَ صَرَاهَا

أي: إذا نزل بأرض فيها خارجون يُفسدون تَبَعَهُمْ حَتَّى قَتَلَ الهاريين والمتخفين ورؤوسَ الفتنة منهم، وأجهز عليهم.

بِشْرَبِ: أي: بِشِرَابِ.

سِجَالُهُ: السِّجَالُ جمع «السِّجْل» وهي الدَّلْوُ العظيمة، والصَّرْعُ العظيمة، ومرادها هنا الصروع، تشبيهاً لأوعية دماء الخارجين المسفدين بالصروع الممثلة المَصْرَاة (وهي التي حُبِسَ فيها لَبَنُهَا).

يَحْلُبُونَ صَرَاهَا: الصَّرَى ما طال مُكُثُهُ ففسد، تريد أن جنود الحجاج يستخرجون برماحهم وسيوفهم الدماء الفاسدة من الأشرار الخارجين المفسدين في الأرض.

● ومنه قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول):

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ... ﴾ [آية ٣٥].

يلاحظ في هذا النص ثلاث فقرات اشتملت على هذا النوع من أنواع البديع:

كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ.

الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ.

الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ.

* * *

القسم الثاني: «اقتباس الركايز».

وهو أن يؤتى من الجملة السابقة ما يُتَّخَذُ رَكِيزَةً في بناء الجملة اللاحقة.

الركيزة في اللغة: ما يُرْتَكِزُ عليه مما هو ثابت في الأرض وغيرها، يقال لغة:

رَكَزَ شَيْئاً في شيء إذا أثبت فيه. وركز السهم في الأرض إذا غرزَه فيها، ويقال:

ارتكز على الشيء إذا اعتمد عليه.

ومن «اقتباس الركايز» قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/

٧٤ نزول):

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿١٨﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا

النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْماً فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ

خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٩﴾ ﴾.

في هذا النص أُخِذَتِ الرِّكِيْزَةُ من جملة ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِيْنٍ﴾ وهي كلمة ﴿نُطْفَةٌ﴾ وَبُنِيَ عَلَيْهَا الْجُمْلَةُ التي بَعْدَهَا، وهي: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾، وَأَخِذَتِ الرِّكِيْزَةُ من هذه الجملة، وهي كلمة ﴿عَلَقَةٌ﴾ وَبُنِيَ عَلَيْهَا الْجُمْلَةُ التي بَعْدَهَا، وهي: ﴿فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ وَأَخِذَتِ الرِّكِيْزَةُ من هذه الجملة، وهي كلمة ﴿مُضْغَةٌ﴾ وَبُنِيَ عَلَيْهَا الْجُمْلَةُ التي بَعْدَهَا، وهي: ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا﴾ وَأَخِذَتِ الرِّكِيْزَةُ من هذه الجملة، وَأَخِذَتِ الرِّكِيْزَةُ من هذه الجملة، وهي كلمة ﴿عِظَامًا﴾ وَبُنِيَ عَلَيْهَا الْجُمْلَةُ التي بَعْدَهَا، وهي: ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾.

وهكذا تعانق النصّ باقتباس الرِّكَاثِ والبناء عليها، وساعد المعنى على إبداع هذا الفنّ.

وهو فنٌّ يصلح في مجال التعليم والتفهيم، وبناء الأفكار بعضها على بعض، وفي مجال الإقناع وتثبيت الأفكار، كما تقول في الحساب مثلاً:

خمسة أضف إليها خمسة تصير عشرة، عشرة اضربها بعشرة تصير مئة، مئة قسّمها على خمسة يكون الحاصل عشرين. عشرون إذا قسمناها على أربعة يكون الحاصل خمسة إذن: $(5 = 4 \div 5 \div 10 \times 5 + 5)$.



التفویت

وهو أن یأتي المتكلم بمعانی شتى من موضوعات مختلفات، كالممدح، والوصف، والإقرار، والإنكار، والنضح، والأمر، والنهی، وغير ذلك، ویجعل ذلك فی جُمْلٍ متفاصلة، مع تساويها فی الوزن بوجه عام.

ویكون فی الجمل الطویلة والمتوسطة والقصیرة.

ویبدو لی أن هذا العنوان الاصطلاحي مشتق من كلمة «الفوت» وهي الفرجة بین كل إصبعین، تشبیها للجمل المتفاصلة بأصابع الكف المتقاربة المتخالفة المتفاصلة.

والأمثلة علی هذا النوع من أنواع البديع فی القرآن كثيرة منها ما یلي:

المثال الأول: قول الله عزَّ وجلَّ فی سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/

٤٧ نزول) حكاية لأقوال إبراهيم علیه السلام لقومه:

﴿ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَامُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُؤَيِّسُ لِي مَخْرَجِي ثُمَّ يُمَيِّسُ لِي الْأَعْدَاءَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقِّقْ بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

المثال الثاني: قول الله عزَّ وجلَّ فی سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/

٨٩ نزول):

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦٦﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ

وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُهُمْ مِنْ شَيْءٍ يَتَّبِعُونَ حِسَابًا ﴿١٧﴾ .

المثال الثالث: قول الله عزَّ وجلَّ في سُورَةِ (الرحمن) / ٥٥ مصحف/

٩٧ نزول):

﴿ الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴿٥﴾ بِحُسْبَانٍ ﴿٦﴾ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٧﴾ ﴾ .

وهكذا إلى آخر السورة .

المثال الرابع: قول الرسول ﷺ في دعائه:

«اللَّهُمَّ احْفَظْنِي بِالْإِسْلَامِ قَائِمًا، واحْفَظْنِي بِالْإِسْلَامِ قَاعِدًا، واحْفَظْنِي بِالْإِسْلَامِ رَاقِدًا، وَلَا تُشِمِّتْ بِي عَدُوًّا وَلَا حَاسِدًا، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ خَزَائِنُهُ بِيَدِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ كُلِّ شَرٍّ خَزَائِنُهُ بِيَدِكَ» .

رواه الحاكم عن ابن مسعود

المثال الخامس: خطبة «قس بن ساعدة الإيادي» الذي كان أسقف نجران،

وخطيب العرب، وحكيمها وحكمها في زمانه، توفي سنة «٦٠٠م» .

قال في خطبته التي خطبها في سوق عكاظ:

«أَيُّهَا النَّاسُ اسْمَعُوا وَعُجُوا، إِنَّهُ مَنْ عَاشَ مَاتَ، وَمَنْ مَاتَ فَاتَ، وَكُلُّ مَا هُوَ آتٍ آتٍ. لَيْلٌ دَاجٌ، وَنَهَارٌ سَاجٌ، وَسَمَاءٌ ذَاتُ أَبْرَاجٍ، وَنُجُومٌ تُزْهِرُ، وَبِحَارٌ تُزْخَرُ، وَجِبَالٌ مُرْسَاةٌ، وَأَرْضٌ مُدْحَاةٌ، وَأَنْهَارٌ مُجْرَاةٌ، إِنَّ فِي السَّمَاءِ لَخَبْرًا، وَإِنَّ فِي الْأَرْضِ لَعِبْرًا. مَا بَالُ النَّاسِ يَذْهَبُونَ وَلَا يَرْجِعُونَ؟ أَرْضُوا فَأَقَامُوا؟ أَمْ تَرَكُوا فَنَامُوا؟ .

يَا مَعْشَرَ إِيَادَ، أَيَّنَ الْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ؟ وَأَيَّنَ الْفَرَاعِيَّةَ الشَّدَادِ؟ أَلَمْ يَكُونُوا أَكْثَرَ

مَنْكُمْ مَالًا؟ وَأَطْوَلَ أَجَالًا؟ طَحَنَهُمُ الذَّهْرُ بِكَلْكَلِهِ، وَمَزَقَهُمُ بِنَطَاوُلِهِ» .

بِكَلْكَلِهِ: أي: بصدرة .

التَّشْرِیع

ویسمی : « التوشیح »

وهو بناء البيت من الشعر على قافيتين أولى يصحُّ الوقوف عندها، فثانية يُوقَف عندها، ويطولُ بها البيت، وتشتمل الزيادة على إضافة معنى.

وهو فنٌ يحسنُ ما لم يكنُ مُتكلِّفاً تظهرُ فيه الصنعةُ التي قد تُعجبُ الفكر، لكن لا تستأنرُ بالحسنِ الأدبي الذَّوَّاق للجمال، ومتى كثرتِ الأبيات التي نُظمت على هذا المنوال من قصيدة واحدة ظهرت فيها الركاقة، وبدت ممجوجةً غير مُستساغة.

أمثلة:

(١) قول الحريري في بعض مقاماته:

يَا خَاطِبَ الدُّنْيَا الدُّنْيَا إِنَّهَا شَرُّكَ الرَّدَى. وَقَرَارَةُ الأَكْدَارِ
دَارٌ مَتَى مَا أَضْحَكْتَ فِي يَوْمِهَا أَبْكْتَ غَدًا. بُعْدًا لَهَا مِنْ دَارِ
غَارَاتِهَا لَا تَنْقُضِي وَأَسِيرُهَا لَا يُفْتَدَى. بِجَلَائِلِ الأَخْطَارِ

(٢) قول أحدهم:

اسْلَمَ وَدُمْتَ عَلَى الحَوَادِثِ مَارَسَا رُكْنَا ثِيْر. أَوْ هَضَابِ حِرَاءِ
وَنَلِ المُرَادَ مُمَكَّنَا مِنْهُ عَلَى كَرِّ الدُّهُورِ. وَفُزَ بِطُولِ بَقَاءِ

(٣) قول صانعاً مثلاً:

مَنْ رَامَ أَنْ يَنْجَحَ فِي. مَقْصُودِهِ. فَلْيَسْتَنْدِ. وَلْيَتَّقِ العَجَبَانَ.
وَلْيَمِشْ فِي صَبْرِ عَلَى. مِنْهَاجِهِ. وَلْيَسْتَنْدِ. لِلوَاحِدِ القَهَّازِ.
وَلْيَتَّخِذْ أَسْبَابَهُ. بِحَصَافَةٍ. وَلْيَسْتَفِذْ. مِنْ سَالِفِ الأَخْبَارِ.

لُزُومٌ مَا لَا يَلْزَمُ

هو فنٌ في الشعر وفي السجع يلتزم فيه الشاعر أو السَّاجع قبل الحرف الأخير من أبيات قصيدته، أو سجعاته ما لا يلزمه، كأن يكون الحرفان الأخيران متماثلين في كلِّ القوافي، أو الثلاثة الأخيرة، أو تكون الكلمات مع ذلك متماثلة الوزن، إلى غير ذلك من التزام ما ليس بلازم في نظام التقفيات.

قال «عبد القاهر الجرجاني»: لا يَحْسُنُ هذا النوع إلا إذا كانت الألفاظ تابعة للمعاني، فإنَّ المعاني إذا أُرْسِلَتْ عَلَى سَجِيَّتِهَا، وَتُرِكَتْ وَمَا تُرِيدُ طَلَبَتْ لَأَنْفُسِهَا الألفاظ، ولم تَكْتَسِرِ إِلَّا مَا يَلِيقُ بِهَا، فإن كان خلاف ذلك كان كما قال أبو الطيّب:

إِذَا لَمْ تُشَاهِدْ غَيْرَ حُسْنِ شِيَاتِهَا وَأَعْضَائِهَا فَالْحُسْنُ عَنكَ مُغَيَّبٌ^(١)

وقد يقع في كلام بعض المتأخرين ما حَمَلَ صاحبه عَلَيْهِ فَرَطُ شغفه بأمور ترجع إلى ماله اسمٌ في البديع، على أَنَّهُ نَسِيَ أَنَّهُ يَتَكَلَّمُ لِيُقْفَهُم، وَيَقُولُ لِيُبَيِّن، وَيُخَيِّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ إِذَا جَمَعَ عِدَّةً مِنْ أَقْسَامِ البديع فِي بَيْتٍ، فَلَا ضَيْرَ أَنْ يَقَعَ مَا عَنَاهُ فِي عَمِيَاءٍ، وَأَنْ يَجْعَلَ السامعَ يَتَخَبَّطُ خَبْطَ عَشْوَاءٍ هـ.

(١) شِيَاتِهَا: أي: ألوانها، الشِّيَاتُ: جمع «شِيَه» وهي اللون.

إنه يتحدث عن الخيل فيقول: إذا لم تَرِ مِنْ حُسْنِ الخيلِ إِلَّا حَسْنَ الألوانِ والأعضاءِ فلم تَرِ حُسْنَهَا، إِنَّمَا حُسْنُهَا فِي العَدُوِّ والجري.

أمثلة:

(١) قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾
وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٢﴾.

إن المماثلة بين: «مُبْصِرُونَ» و «يُقْصِرُونَ» في الوزن وحرفي الصاد والراء مع الواو والنون من لزوم ما لا يلزم، وقد جاء حسناً بديعاً، لأنه جاء سلساً غير متكلف، ولا مجلوب اجتلاباً، وجاء كلُّ من اللَّفْظَيْنِ ملائماً للمعنى المراد منه.

(٢) قول عبد الله بن الزبير الأسدي في مدح عمرو بن عثمان بن عفان رضي

الله عنهما:

سَأَشْكُرُ عَمْرًا مَا تَرَاخَتْ مَنِيَّتِي
فَتَى غَيْرُ مَحْجُوبِ الْغِنَى عَن صَدِيقِهِ
رَأَى خَلَّتِي مِنْ حَيْثُ يَخْفَى مَكَانَهَا
لَمْ تُمَنَّ: أي: لم تنقطع.

رَأَى خَلَّتِي: أي: رأى خصاصتي وفقري.

قَدَى عَيْنِيهِ: القذى جمع مفرد «القذاة» وهي ما يتكوَّن في العين من رميص
وغمص وغيرهما.

في هذه الأبيات التزم الشاعر ما لا يلزمه فجعل قبل حرف الروي وهو التاء،
حرفاً آخر يكرره مع كلِّ القوافي وهو اللام المشددة.

(٣) قول الحماسي:

إِنَّ الَّتِي زَعَمْتَ فُوَادَكَ مَلَهَا
يَبْضَاءُ بَاكِرَهَا النَّعِيمُ فَصَاغَهَا
خُلِقْتَ هَوَاكَ كَمَا خُلِقْتَ هَوَى لَهَا
بِلْبَاقَةِ فَادَقَهَا وَأَجَلَهَا

حَجَبَتْ تَحِيَّتَهَا فَقُلْتُ لِصَاحِبِي : مَا كَانَ أَكْثَرَهَا لَنَا وَأَقَلَّهَا
وَإِذَا وَجَدْتَ لَهَا وَسَاوِسَ سَلْوَةَ شَفَعَ الضَّمِيرُ إِلَى الْفُؤَادِ فَسَلَّهَا

فالتزم اللام المشددة قبل حرف الروي الذي هو «ها».

(٤) قول الفرزدق:

مَنَّعَ الْحَيَاةَ مِنَ الرَّجَالِ وَنَفَعَهَا حَادِقٌ تَقَلَّبَهَا النَّسَاءُ مِرَاضُ
وَكَأَنَّ أَفِيدَةَ الرَّجَالِ إِذَا رَأَوْا حَادِقَ النَّسَاءِ لِنَبْلِهَا أَغْرَاضُ

* * *

خاتمة:

رأى أبو العلاء المعري ما لديه من قدرة شعرية، وثروة لغوية واسعة، فاهتم لهذا الفن من فنون البديع، فجمع ما أملى من شعر فيه، ووضع في ديوان خاص بعنوان: «لزوم ما لا يلزم» ويعرف باللزوميات.

واعتنى المتأخرون بهذا الفن اعتناءً بلغ حد الإسراف، ولئن وجدنا فيه ما هو جيد، ففيه أيضاً الغث السمج.

فلا ينبغي تكلفه، ولا توجيه الاهتمام له، لكن إذا جاء تلقائياً مُنساباً على السجية كان فتناً بديعاً.

• • •

القلب

أو: العكس اللفظي

وهو أن يُقرأ الكلام من آخره إلى أوله كما يُقرأ من أوله إلى آخره، والمعتبر فيه الحروف المكتوبة لا الملفوظة.

وهو فن لا يعدو أن يكون مهارة شكلية لفظية، لا يرتبط به معنى، وتكلفه قد يُفسد المعاني المقصودة، أو يُلجئ إلى استجلاب معاني ليست ذات قيمة تُعتبر لدى أهل الفكر، أو تستحق تخصيصها بالذكر.

● ومن أمثله في القرآن مثالان لا ثالث لهما:

١ - ﴿كُلُّ فِي فَلَكٍ﴾.

٢ - ﴿رَبِّكَ فَكَبِيرٌ﴾.

● ومن الأمثلة قول بعضهم:

«أَرَأَا الْإِلَهَ هَلَالًا أَنَارًا».

● ومن الأمثلة قول القاضي الأرجاني:

مَوَدَّتُهُ تَدُومٌ لِكُلِّ هَوٍ وَهَلْ كُلُّ مَوَدَّتُهُ تَدُومٌ

وقد تفنن المتأخرون من الأدباء في صناعة أمثلة لهذا النوع الشكلي البحت، وللحريري في بعض مقاماته نثرٌ وشعر منه.

● ● ●

الاقْتِباس وما اشْتُقَّ منه من فروع

وهي : التضمين - العقد - الحل - التلميح

الاقْتِباس : أن يُضَمَّنَ المتكَلِّمَ كلامه من شعر أو نثر كلاماً لغيره بلفظه أو بمعناه، وهذا الاقتباس يكون من القرآن المجيد، أو من أقوال الرسول ﷺ، أو من الأمثال السائرة، أو من الحِكَم المشهورة، أو من أقوال كبار البلغاء والشعراء المتداولة، دون أن يعزو المقتبس القول إلى قائله.

والاقتباس منه ما هو حسن بديع يقوي المتكَلِّمَ به كلامه، ويُحْكِمُ به نظامه، ولا سيما ما كان منه في الخطب، والمواعظ، وأقوال الحكمة، ومقالات الدعوة والإرشاد، ومقالات الإقناع والتوجيه للفضائل في نفوس المؤمنين بكتاب الله وكلام رسوله.

وبعض الأدباء يقتبس من القرآن المجيد أو من أقوال الرسول مستنصراً بما اقتبس لتقوية فكرته، أو لتزيين كلامه في أغراض مختلفة كالمدح والهجاء والغزل والإخوانيات ونحو ذلك، فإذا لم يُحَرِّف في المعنى، ولم يكن في اقتباسه سوء أدب مع كلام الله أو كلام الرسول فلا بأس باقتباسه، وإذا كان في اقتباسه تحريف في المعنى، أو سوء أدب فهو ممنوع ويأثم به المقتبس، وقد يَصِلُ بعض الاقتباس إلى دركة الكفر والعياذ بالله.

أمثلة:

(١) قال عبد المؤمن الأصفهاني:

لَا تَغْرَبَنَّكَ مِنَ الظَّلْمَةِ كَثْرَةُ الجِيُوشِ وَالْأَنْصَارِ ﴿إِنَّمَا نُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ
الْأَبْصَارُ﴾ .

(٢) قول ابن نُبَاتَةَ فِي بعض خطبه :

فِيهَا أَيُّهَا الغَفْلَةُ الْمُطْرَقُونَ ، أَمَا أَنْتُمْ بِهَذَا الحَدِيثِ مُصَدِّقُونَ ، مَا لَكُمْ لَا
تُسْفِقُونَ ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾ .

(٣) قول ابن سَنَاءِ المُلْكِ :

رَحَلُوا فَلَسْتُ مُسَائِلًا عَنْ دَارِهِمْ أَنَا «بَاخِعٌ نَفْسِي عَلَى آثَارِهِمْ»
مقتبس من قول الله عزَّ وجلَّ لرسوله : ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ﴾ .
بَاخِعٌ نَفْسَكَ : أي : قاتل نفسك غمًا من أجلهم .

(٤) قول بديع الزمان الهمداني :

لِإِلٍ فَرِيغُونَ فِي المَكْرُمَا تِ يَدٌ أَوْلَاً وَاعْتِذَارٌ أَخِيرًا
إِذَا مَا حَلَلْتَ بِمَغْنَاهُمُو «رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا»
الشرطة الأخير مُقْتَبَسَةٌ مِنَ القُرْآنِ .

(٥) قول الحماسي :

إِذَا رُمْتُ عَنْهَا سَلْوَةٌ قَالَ شَافِعٌ مِنَ الحُبِّ مِعَادُ السُّلُوكِ المَقَابِرُ
سَتَبَقَى لَهَا فِي مُضْمَرِ القَلْبِ وَالْحَشَا سَرِيرَةٌ حُبٌّ «يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ»
«يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ» : عبارة قرآنية .

(٦) قول أبي جعفر الأندلسي :

لَا تُعَادِ النَّاسَ فِي أوطَانِهِمْ قَلَّمَا يُرْعَى غَرِيبُ الوَطَنِ
وَإِذَا مَا شِئْتَ عَيْشًا بَيْنَهُمْ «خَالِقِ النَّاسِ بِخُلُقِي حَسَنِ»
الشرطة الأخيرة مأخوذة من أقوال الرسول ﷺ .

(٧) قول الصّاحب بن عبّاد:

قَالَ لِي: إِنَّ رَقِيبِي سَيِّئُ الْخُلُقِ فَادَارُهُ
قُلْتُ: دَعْنِي «وَجْهَكَ الْجَنَّةُ حَقَّتْ الْمَكَارِهِ»

العبارة الأخيرة مقتبسة من قول الرسول ﷺ: حُقَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُقَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ.

ولست أرى استخدام مثل هذه المعاني الدنيّة في فانيات الدنيا ولو كانت خالية من المعصية، فلا يستقيم هذا إلاّ بتحريف في أصل المعنى.

(٨) قول الصّاحب بن عباد أيضاً:

أَقُولُ وَقَدْ رَأَيْتُ لَهُ سَحَابًا مِنْ الْهَجْرَانِ مُقْبِلَةً إِلَيْنَا
وَقَدْ سَحَّتْ غَوَادِيهَا بِهَطْلٍ «حَوَالَيْنَا» الصُّدُودُ «وَلَا عَلَيْنَا»

مقتبس من دعاء الرسول ﷺ: «اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا وَلَا عَلَيْنَا».

(٩) قول ابن الرومي:

لِنَنْ أَخْطَأْتُ فِي مَدْحِكَ مَا أَخْطَأْتُ فِي مَنْعِي
لَقَدْ أَنْزَلْتُ حَاجَاتِي «بِوَادِ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ»

مقتبس من دعاء إبراهيم عليه السلام كما جاء في القرآن: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ استعمله ابن الرومي مجازاً في رجل بخيل لا خير فيه ولا نفع.

(١٠) من كتاب لمُحْيِ الدِّينِ عَبْدِ الظَّاهِرِ (من الكتاب المقدّمين في دولة

المماليك):

لَا عَدِمَتِ الدَّوْلَةُ بِيضَ سَيْوفِهِ الَّتِي «تَرَى بِهَا الدِّينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وَجُوهَهُمْ

مُسَوَّدَةٌ».

(١١) قول عمر الخيام:

سَبَقْتُ الْعَالَمِينَ إِلَى الْمَعَالِي
وَلَا حَ بِحِكْمَتِي نُورُ الْهَدَى فِي
بِصَائِبِ فِكْرَةٍ وَعُلُوِّ هَمِّهِ
يُرِيدُ الْجَاهِلُونَ لِيُطْفِئُوهُ
لَيْالٍ لِلضَّلَالَةِ مُذْ لَهُمَّهْ
«وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتَمَّهْ»
الشطرة الأخيرة مُتَّبَسَّةٌ مِنَ الْقُرْآنِ.

* * *

ما اشتقَّ من الاقتباس من فروع

اشتقَّ البلاغيون من الاقتباس أربعة فروع، وهي:

(١) التضمين (٢) العَقْدُ (٣) الحَلُّ (٤) التلميح.

الفرع الأول: «التضمين» ومنه: «الاستعانة» و «الإيداع» و «الرفو».

التضمين: هو أن يُضْمَنُ الشاعر شعره شيئاً من شعرٍ غيرِه، مع التنبيه عليه إن لم يكن مشهوراً عند البلغاء، ودون التنبيه عليه إن كان مشهوراً.

● ومن هذا التضمين قول الحريري:

عَلَى أَنِّي سَأُنشِدُ عِنْدَ بَيْعِي
«أَضَاعُونِي وَأَيَّ فَتَى أَضَاعُوا»

الشطرة الأخير لِلْعَرَجِيِّ، وبيت العرجي هو:

أَضَاعُونِي وَأَيَّ فَتَى أَضَاعُوا
لِيَوْمِ كَرِيهَةٍ وَسِدَادِ ثَغْرِ

وقد نبّه الحريري على التضمين بقوله: «سَأُنشِدُ».

● ومن هذا التضمين قول ابن العميد:

وَصَاحِبٍ كُنْتُ مَغْبُوطاً بِصُحْبَتِهِ
هَبَّتْ لَهُ رِيحُ إِقْبَالِ فَطَارَ بِهَا
دَهْرًا فَعَادَرَنِي فَرْدًا بِلَا سَكَنِ
نَحْوَ السُّرُورِ وَالْجَانِي إِلَى الْحَزَنِ
كَأَنَّهُ كَانَ مَطْوِيًّا عَلَى إِحْنِ
وَلَمْ يَكُنْ فِي ضُرُوبِ الشَّعْرِ أَنْشَدَنِي

«إِنَّ الْكِرَامَ إِذَا مَا أَيْسَرُوا ذَكَرُوا مَنْ كَانَ يَأْلُقُهُمْ فِي الْمَنْزِلِ الْخَشِينِ»
البيت الأخير لأبي تمام، وقد نبّه ابن العميد على التضمين بقوله: «ولم يكن في ضروب الشعر أشدني».

وأحسن التضمين ما زاد على الأصل أمراً حسناً، كتورية، أو تشبيه، ومنه قول ابن أبي الإصبع مستغلاً شعر المتنبي لمعنى آخر غير الذي قصده:

إِذَا الْوَهْمُ أَبْدَى لِي لَمَاهَا وَثَغْرَهَا «تَذَكَّرْتُ مَا بَيْنَ الْعُذَيْبِ وَبَارِقِ»
وَيُذَكِّرُونِي مِنْ قَدَّهَا وَمَدَامِعِي «مَجْرٌ عَوَالِينَا وَمَجْرِي السَّوَابِقِ»

الشطران الثانيان مطلع قصيدة للمتنبّي يمدح بها سيف الدولة، ولم يُنبّه ابن أبي الإصبع على التضمين لأن قصيدة المتنبي مشهورة عند المشتغلين بالأدب.

العُذَيْبِ وَبَارِقِ: موضعان بظاهر الكوفة مَجْرٌ عَوَالِينَا: أي: مكان جرّ الرماح، وحرّكة جرّها. وَمَجْرِي السَّوَابِقِ: أي: مكان جري الخيل السوابق، وحرّكة جريها.

فأخذ ابن أبي الإصبع من «العُذَيْبِ» معنى عدوبة ريق صاحبتة، وأخذ من «بَارِقِ» البريق الذي يُرَى من ثغرها، على سبيل التورية.

وشبهه قدّها بحركة جرّ الرماح، وشبهه جريان دمعهِ بِجَرِي الخيل السوابق.
قالوا: ولا يَضُرُّ التّغيير اليسير عند التضمين.

والتضمين على حالتين:

- فإذا بلغ مقداره تضمين بيت فأكثر، فقد يُطلَق عليه لفظ «الاستعانة».
- وإذا كان مقداره شَطْرَ بَيْتٍ أَوْ دُونَهُ، فقد يُطلَق عليه «الإيداع» إذ الشاعر قد أودع شعره شيئاً من شعر غيره، وقد يُطلَق عليه «الرَّفْقُ» لأن الشاعر «رَفَأَ» خَرَقَ شِعْرَهُ بشيء من شعر غيره.

* * *

الفرع الثاني: «العقد»:

وهو أن ينظم الشاعر نثراً لغيره لا على طريقة الاقتباس.

● ومن العقد قول أبي العتاهية:

مَا بَالُ مَنْ أَوْلُهُ نُطْفَةٌ وَجِيفَةٌ آخِرُهُ يَفْخَرُ؟!!

عقد أبو العتاهية في هذا البيت قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

«وَمَا لِابْنِ آدَمَ وَالْفَخْرَ، وَإِنَّمَا أَوْلُهُ نُطْفَةٌ، وَآخِرُهُ جِيفَةٌ».

ومن العقد قول أبي العتاهية أيضاً:

وَكَانَتْ فِي حَيَاتِكَ لِي عِظَاتٌ وَأَنْتَ الْيَوْمَ أَوْعَظُ مِنْكَ حَيًّا

عقد في هذا البيت قول بعض الحكماء في الإسكندر لما توفي:

كَانَ الْمَلِكُ أَمْسٍ أَنْطَقَ مِنْهُ الْيَوْمَ، وَهُوَ الْيَوْمَ أَوْعَظُ مِنْهُ أَمْسٍ».

* * *

الفرع الثالث: «الحل»:

وهو أن ينثر الكاتب أو المتكلم شعراً لغيره، ويكون حسناً إذا كان سبك

الحلّ حسنَ الموقع، مستقراً غير قَلْبِي، وإفياً بمعاني الأصل، غير ناقص في الحُسنِ عن سبكِ أصله، أو أن يكون بمثابة الشرح لدقائقه، وإلا كان عملاً غير مقبول في الأعمال الأدبية.

● ومن أمثلة الحلّ التي ذكرها البلاغيون قول بعض المغاربة، يصفُ شخصاً

بأنه سيء الظنّ، إذ يقيسُ غيره على نفسه:

«فَإِنَّهُ لَمَّا قُبِحَتْ فَعَلَاتُهُ، وَحَنَظَلْتُ نَخَلَاتُهُ، لَمْ يَزَلْ سُوءُ الظَّنِّ يَعْتَادُهُ،

وَيُصَدِّقُ تَوْهَمَهُ فِي الَّذِي يَعْتَادُهُ».

حلّ بقوله قول المتنبّي:

إِذَا سَاءَ فِعْلُ الْمَرْءِ سَاءَتْ ظُنُونُهُ وَصَدَّقَ مَا يَعْتَادُهُ مِنْ تَوْهَمِ

أي: ما يتوهمه من أن الآخرين أساءوا يُصدِّقُ توهمه فيهم، لأنه يقيسهم على نفسه، وما يعتاده من سوء عمل.

● ومنه قول صاحب «الوشى المرقوم في حل المنظوم» يصف قلم كاتب:
«فَلَا تَحْظَى بِهِ دَوْلَةٌ إِلَّا فَخَرَتْ عَلَى الدُّوَلِ، وَغَنِيَتْ بِهِ عَنِ الخَيْلِ وَالخَوَلِ،
وَقَالَتْ: أَعْلَى المَمَالِكِ مَا يَبْنِي عَلَى الأَقْلَامِ لَا عَلَى الأَسَلِ».

العبارة الأخيرة حلّ لقول أبي الطيب مع ردّ لمقاله وجعل أعلى الممالك ما يبنى على الأقلام:

«أَعْلَى المَمَالِكِ مَا يَبْنِي عَلَى الأَسَلِ». وَالطَّغْنُ عِنْدَ مُحِبِّهِنَّ كَالْقَبْلِ.

* * *

الفرع الرابع: «التلميح»:

وهو أن يُشير الناثر أو الشاعر إلى قصة أو شعرٍ أو نثرٍ دون ذكر ما أشار إليه.

● ومنه قول أبي تمام:

لِحِقْنَا بِأَخْرَاهُمْ وَقَدْ حَوَمَ الهَوَى	قُلُوبًا عَهْدَنَا طَيْرَهَا وَهِيَ وَقَعُ
فَرُدَّتْ عَلَيْنَا الشَّمْسُ وَاللَّيْلُ رَاغِمٌ	بِشَّمْسٍ لَهُمْ مِنْ جَانِبِ الخِذْرِ تَطْلُعُ
نَصًا ضَوْوُهَا صَبِغَ الدُّجْنَةَ وَأَنْطَوَى	لِلهِجَتِهَا ثَوْبُ السَّمَاءِ المُجَزَّعُ
فَوَاللَّهِ مَا أَدْرِي أَأَحْلَامُ نَائِمٍ	أَلَمَّتْ بِنَا أَمْ كَانَ فِي الرِّكْبِ يُوْشَعُ

فقد أشار إلى قصة يوشع عليه السلام على ما روي أنه قاتل الجبارين يوم الجمعة، فلما أدبرت الشمس خاف أن تغيب قبل أن يفرغ منهم، ويدخل السبت فلا يحلّ له قتالهم، فدعا الله عزّ وجلّ فردّ له الشمس حتى فرغ من قتالهم.

ومنه قول أبي تمام أيضاً:

لَعَمْرُو مَعَ الرَّمْضَاءِ وَالنَّارُ تَلْتَطِي
أَرْقُ وَأَحْفَى مِنْكَ فِي سَاعَةِ الكَرْبِ

يشير إلى البيت المشهور:

المُسْتَجِيرُ بِعَمْرٍو عِنْدَ كُرَيْبِهِ كَالْمُسْتَجِيرِ مِنَ الرَّفْضَاءِ بِالنَّارِ
وقصة ذلك أن عمرواً ترصد كليباً حتى ابتعد عن الحمى، فركب فرسه فأتبعه
فرمى صلبه، ثم وقف عليه فقال له: يا عمرو أغثني بشرية ماء فأجهز عليه، فمات،
ف قيل هذا البيت.

ونشبت العداوة بين تغلب وبكر أربعين سنة، وكان سببها ناقة رماها كليب
فقتلها، وكان اسم هذه الناقة أو اسم صاحبتها «البسوس» وفيها قيل: «أشأم من
البسوس» وهذه الحادثة من حروب الجاهلية قبل الإسلام في قبائل العرب.



الفصل الثالث

ملاحق

وفيه ثلاث مقولات :

- المقولة الأولى : السرقات الشعرية وتوافق القرائح .
- المقولة الثانية : توجيه العناية في صناعة الكلام الأدبي للبدء - والتخلص - والختام .
- المقولة الثالثة : إعداد كلام أدبي في موضوع ما .

1874

1875

السراقات الشعرية وتوافق القرائح

كثيراً ما يحدث أن تتوافق قرائح الشعراء والكتّاب في إبداع فكرة، وفي أسلوب صياغتها، وقد يحدث أحياناً التوافق في الوزن والقافية وحرف الرّوي وكثير من الكلمات إذا كان الكلام من الشعر.

وقد حدث لي وأنا في نحو العشرين من عمري أنّي نظمت قصيدة في الغزل، مبنية على حوار: «قالت لي، وقلت لها» صَوَّرْتُ فيها تخيلاً مغامرة عاشق، اتفق مع معشوقته على أن يترصد غفلة الرّقيب في ليل سائر، وتمّ لهما اللقاء ثم تسلل إلى منزله دون أن يشعر بهما أحد.

وبقيت مدةً أقرؤها على أصدقاء المراهقة، وأنا أرى نفسي مبتكر طريقة الحوار ذي الفقرات القصيرات في قصيدة تزيد على عشرين بيتاً، مطلعها:

قالت لي الحسناء: هل أنت لي قُلْتُ لها: مِلْكُكَ لي ظاهرُ
قالت: وهل أنت مُطِيعٌ لَنَا قُلْتُ: وَهَذَا مَثَلُ سَائِرِ

وفي أحد الأيام أَخَذْتُ جزءاً من كتاب الأغاني من مكتبة أبي - تغمّده الله برحمته - وَجَعَلْتُ أَقْلُبُ فيه، فَفُوجِئْتُ بقصيدة على مثل قصيدتي وزناً وقافية وحرفاً رَوِيٍّ، وبعد أن استكملْتُ قراءتها وجدتها متماثلةً مع قصيدتي تماماً في موضوعها وأسلوبها وفي كثير جداً من عباراتها، وما كنت قبل ذلك قد قرأت هذه القصيدة ولا سمعتها من أحد، فقلتُ في نفسي: لو اطّلع أحد قارئ كتاب الأغاني على قصيدتي لقال: سارقٌ انتحل القصيدة وهي ليست له، فأهملتُ قصيدتي وطويتها خشية أن اتَّهَمَ بالسُّطُوِّ على شعر غيري.

مثل هذا قد يحدث على سبيل النادرة، ولكن الشعراء والكتّاب كثيراً ما يسرق بعضهم من بعض، ويدعون لأنفسهم أنهم مبتكرو الأفكار، ومبتكرو الصياغة الرفيعة، وليسوا ناقلين ولا مقلّدين ولا سارقين.

ونظير هذا يحدث في كلّ الإبداعات والابتكارات، كالألحان الموسيقية، والمكتشفات العلمية والصناعية، والمؤلفات من الكتب.

وقد اهتم علماء البلاغة بهذا الموضوع، فدوّنوا في علوم البلاغة بحثاً يتعلّق بالسّرقات الشعرية وتواطؤ القرائح واتفاقها، ورأوا أنّ التوافق له حالات ثلاث:

الحالة الأولى: «المُواردة»:

وهي أن يتفق المتكلّمان في اللفظ والمعنى، أو في المعنى وحده، ولا يُعلّم أخذ أحدهما من الآخر.

قالوا: إنّ مثل هذا يمكن أن يكون من اتفاق القرائح وتوارد الأفكار من غير أن يسرق أحدٌ من الآخر، ولو كان أحدهما متأخراً زمنياً. ومن أمثلة هذه الحالة أنّ ابن الأعرابي أنشد لنفسه قوله:

مُفِيدٌ وَمِثْلَافٌ إِذَا مَا أَتَيْتَهُ تَهَلَّلَ وَاهْتَزَّ اهْتِزَّازَ الْمُهَيَّبِ
فقيل له: أَيْنَ يَذْهَبُ بِكَ؟ هَذَا لِلْحُطَيْئَةِ.

فقال ابن الأعرابي: الْآنَ عَلِمْتُ أَنِّي شَاعِرٌ، إِذْ وَافَقْتُهُ عَلَى قَوْلِهِ وَلَمْ أَسْمَعْهُ إِلَّا السَّاعَةَ، أَي: لَمْ يَسْمَعْ قَوْلَ الْحُطَيْئَةِ إِلَّا فِي هَذِهِ السَّاعَةِ.

قالوا: وحين لا يُعلّم أخذ اللاحق من السابق فالعبارة المهذّبة التي لا اتهام فيها أن يُقال: قال فلانٌ كذا، وقد سبقه إلى هذا المعنى أو إلى نحوه فلان، فقال كذا.

الحالة الثانية: «الاشتراك العام»:

وهي التوافق في الأغراض وفي الأفكار والمعاني المتداولة، التي يشترك معظم الناس بإدراكها، سواء تناقلها بعضهم عن بعضٍ أو لم يتناقلوها.

وفي هذه الحالة لا يُعْتَبَرُ اللَّاحِقُ سَارِقاً من السابق، ولا معتدياً على حقّه الأدبي.

الحالة الثالثة: «السَّرقات الأدبيّة»:

وهي التي يَسْطُو فيها اللَّاحِقُ على ما أبدعه السابق، من المعاني والعبارات، والتشبيهات، والاستعارات، والمجازات، وغير ذلك من مبتكرات الأفكار. وهذه هي التي يُقال فيها: فلانُ السابق، وفلانُ سرَقَ منه، أو فلان السابق، وأخذ اللّذين جاؤوا من بعده فكرته، أو عبارته، أو أسلوبه، أو نحو ذلك. وهي التي يقال فيها: فلانُ جاء بفكرة كذا، وأخذها منه فلان، فزاد عليها، أو نقص، أو أحسن الصياغة أو أساءها، أو استغلّها في موضوع آخر غيرِ الموضوع الذي أوردتها فيه مبتكرها الأوّل.

ومن أمثلة الإبداع الذي لم يُسَبِّقْ إليه مُبْدِعُهُ من الشعراء، أن أبا تمام أنشد قصيدته السينية التي مطلعها:

مَا فِي وُقُوفِكَ سَاعَةً مِنْ بَاسٍ نَقْضِي حُقُوقَ الْأَزْبِجِ الْأَدْرَاسِ
حَتَّى وَصَلَ إِلَى قَوْلِهِ فِيهَا:

إِقْدَامُ عَمْرٍو فِي سَمَاحَةِ حَاتِمٍ فِي حِلْمِ أَحْنَفَ فِي ذِكَاةِ إِيَّاسِ
عندئذٍ قال الحكيم الكندي: وأيّ فخرٍ في تشبيه ابن أمير المؤمنين بأجلاف العرب؟! .

فأطرق أبو تمام ثم أنشد:

لَا تُنْكِرُوا ضَرْبِي لَهُ مِنْ دُونِهِ مَثَلًا شَرُودًا فِي النَّدَى وَالْبَاسِ
فَاللَّهُ قَدْ ضَرَبَ الْأَقْلَّ لِثُورِهِ مَثَلًا مِنَ الْمَشْكَاةِ وَالْتَبَّاسِ

فابتكر بهذا معنى لم يسبقه إليه أحد، فمن أتى بعده بهذا المعنى أو ببعضه عدّ سارقاً، أو مُقتبساً، أو مُقلّداً.

أقسام السرقات :

ونظر علماء البلاغة والأدب في مختلف السرقات الأدبية فأروا أنها تنقسم إلى ثمانية أنواع، ثلاثة منها ظاهرة، وهي «النسخ أو الانتحال - المسخ أو الإغارة - السَّلْخُ أو الإلمام». وخمسة منها غير ظاهرة، وهي «التشابه - النقل - التعميم - القلب - الالتقاط والإضافة» وفيما يلي شرح هذه الأنواع الثمانية:

أما الظاهرة من أقسام السرقات فهي الأنواع التالية:

النوع الأول: «النسخ» ويقال له «الانتحال».

وهو أن يأخذ أحد الشعراء أو الناثرين المعنى الذي سبق إليه الآخر ولفظه كله أو أكثره.

وهذا النوع يكون بثلاثة وجوه:

الوجه الأول: أن يأخذ المنتحل لفظ السابق ومعناه، ولا يخالفه في شيء ومن أمثلة هذا الوجه ما حكي أن «عبد الله بن الزبير» الشاعر، دخل على معاوية فأنشده:

إِذَا أَنْتَ لَمْ تُنْصِفْ أَخَاكَ وَجَدْتَهُ عَلَى طَرْفِ الْهَجْرَانِ إِنْ كَانَ يَعْقِلُ
وَيَرْكَبُ حَدَّ السَّيْفِ مِنْ أَنْ تَضِيْمَهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ عَنْ شَفْرَةِ السَّيْفِ مَزْمَلُ

فقال له معاوية: لَقَدْ شَعَرْتَ بَعْدِي يَا أَبَا بَكْرٍ.

ولم يفارق «عبد الله بن الزبير» الشاعر مجلس معاوية حتى دخل معن بن أوس المزني، فأنشده قصيدته التي يقول في مطلعها:

لَعَمْرُكَ مَا أَذْرِي وَإِنِّي لِأَوْجَلُ عَلَى أَيِّ تَعْدُو الْمَنِيَّةُ أَوَّلُ

حتى أتمها، وفيها البيتان اللذان أنشدهما «عبد الله بن الزبير». فأقبل «معاوية» على «عبد الله» وقال له: ألم تُخْبِرْنِي أَنَّهُمَا لَكَ؟! فقال «عبد الله»: المعنى لي، واللَّفْظُ له، وبعْدُ فهو أخي من الرضاعة، وأنا أحقُّ بشِعْرِهِ.

الوجه الثاني: أن يأخذ المنتحل لفظ السابق ومعناه، ولا يخالفه إلا بالقافية أو نحوها، ومن أمثلة هذا الوجه قول امرئ القيس:

وَقُوفاً بِهَا صَحْبِي عَلَيَّ مَطِيَّهُمْ يَقُولُونَ: لَا تَهْلِكْ أَسَى وَتَجَمَّلِ
هذا البيت سَطَا عليه «طَرْفَةُ بن العبد» فقال:

وَقُوفاً بِهَا صَحْبِي عَلَيَّ مَطِيَّهُمْ يَقُولُونَ: لَا تَهْلِكْ أَسَى وَتَجَلَّدِ
فغَيَّرَ الكلمة الأخيرة من البيت، ليوافق روي قصيدته.

الوجه الثالث: أن يأخذ المنتحل معنى السابق وأكثر ألفاظه، ومن أمثلة هذا الوجه ما رُوِيَ لِلأبيُّرِدِ اليربوعي:

فَتَى يَشْتَرِي حُسْنَ النَّاءِ بِمَالِهِ إِذَا السَّنَةُ الشَّهْبَاءُ أَعْوَزَهَا الْقَطْرُ
وما رُوِيَ لِأبي نُوَاس:

فَتَى يَشْتَرِي حُسْنَ النَّاءِ بِمَالِهِ وَيَعْلَمُ أَنَّ الدَّائِرَاتِ تَدُورُ
فالشطران الأولان من البيتين متطابقان، والآخران مختلفان.

* * *

النوع الثاني: «المَسْخُ» أو «الإِغَارَةُ».

وهو أن يأخذ المُغَيِّرُ بعض كلام السابق، ولهذا النوع ثلاثة وجوه أيضاً:

الوجه الأول: أن يكون ما جاء به المُغَيِّرُ أبلَغَ من كلام السابق، لما فيه من تجويد في سبك الكلام، أو اختصار، أو إيضاح، أو زيادة معنى، أو نحو ذلك.

وهذا الوجه مقبول ممدوح، ومن أمثلة هذا الوجه، قول الشاعر:

خَلَقْنَا لَهُمْ فِي كُلِّ عَيْنٍ وَحَاجِبٍ بِسُمْرِ الْقَنَا وَالْبَيْضِ عَيْنًا وَحَاجِبًا

أي: فقأننا عيونهم برماحنا فصارت كالعيون تنزف دماً، وضربناهم بالسُّيُوفِ على جباههم فجعلنا لهم مع كلِّ حاجِبٍ من الشَّعْرِ مثله من ضربة سَيْفٍ.

أخذ ابنُ نباته هذا البيت وصاغه صياغةً أخرى فقال:

خَلَقْنَا بِأَطْرَافِ الْقَنَا فِي ظُهُورِهِ عَيْونًا لَهَا وَقَعُ السُّيُوفِ حَوَاجِبُ

فزاد ابن نباتة معنى انهزامهم لشدة رُغبتهم، ومطاردتهم، ونقلَ من السابق فكرة فتح العيونِ ولكن في ظهورهم، ورسم الحواجب بالسُّيوفِ فوقها، فاستُحسِنَ عَمَلُ ابنِ نباته.

وقد يقال: إِنَّ بَيْتَ السَّابِقِ دَلٌّ عَلَى شِدَّةِ الْبَأْسِ، وَالسَّبْقُ إِلَى ضَرْبِ الْعَدُوِّ قَبْلَ أَنْ يَتِمَّكَنَ مِنَ الْإِنْهَزَامِ، وَهَذَا أَدَلُّ عَلَى الْجَرَأَةِ وَسُرْعَةِ الْإِقْدَامِ.

الوجه الثاني: أن يكون ما جاء به المغير مساوياً لما جاء به السابق في بلاغته.

وهذا الوجه غير ممدوح ولا مذموم، عل أن الفضل للسابق بلا ريب، ومن أمثلة هذا الوجه، قول أبي تمام وهو السابق:

لَوْ حَارَ مُرْتَادُ الْمَنِيَّةِ لَمْ يَجِدْ إِلَّا الْفِرَاقَ عَلَى الثُّفُوسِ دَلِيلًا
أَي: لو حار طالب المنية لأحدٍ في اتخاذ وسيلة لا تكلفه عتاً لم يجد إلا
وسيلة فراق الأحيّة.

أغار عليه المتنبي وصاغه بأسلوبه فقال:

لَوْلَا مُفَارَقَةُ الْأَحْبَابِ مَا وَجَدْتَ لَهَا الْمَنَايَا إِلَى أَرْوَاحِنَا سُبُلًا
قَالُوا: الْبَيْتَانِ مُتَكَافئَانِ فِي بِلَاغَتِهِمَا.

أقول: بيت المتنبي أدقُّ وأوضحُ وأشعرُ، فقد خصَّص الفراق بفراق الأحياب، ولم يتكلف كما تكلف أبو تمام بقوله: «مُرْتَادُ الْمَنِيَّةِ» والمنايا لا تحتاج دليلاً يدلُّها على النفوس إنما لها سُبلٌ، وهذا ما اختاره المتنبي، فهو في عمله مُغَيِّرٌ مُجِيدٌ، وَمُسْتَفِيدٌ مُحْسِنٌ.

الوجه الثالث: أن يكون ما جاء به المُغِيرُ دُونَ ما جاء به السابق في بلاغته، وهذا تقصير مذموم.

قالوا: ومن أمثلة هذا الوجه قولُ أبي تمام وهو السابق:

هَيْهَاتَ لَا يَأْتِي الزَّمَانُ بِمِثْلِهِ إِنَّ الزَّمَانَ بِمِثْلِهِ لَبَخِيلٌ
أغار عليه أبو الطَّيِّبِ فقال:

أَعْدَى الزَّمَانَ سَخَاؤُهُ فَسَخَا بِهِ وَلَقَدْ يَكُونُ بِهِ الزَّمَانُ بَخِيلاً

الشرط الثاني من بيت أبي الطَّيِّبِ مأخوذٌ من أبي تمام، إلا أن قول أبي تمام: «إِنَّ الزَّمَانَ بِمِثْلِهِ لَبَخِيلٌ» أبلغ من قول المتنبي: «وَلَقَدْ يَكُونُ بِهِ الزَّمَانُ بَخِيلاً» ففي عبارة: «وَلَقَدْ يَكُونُ» قُصُورٌ عن المعنى المجزوم به المؤكَّد في عبارة أبي تمام: «إِنَّ الزَّمَانَ بِمِثْلِهِ لَبَخِيلٌ» وهذا واضح.

أما الشرط الأول من بيت المتنبي فقد جاء بنحوه أبو تمام في قوله:

عَلَّمَنِي جُودَكَ السَّمِيحَ فَمَا أَبَقَيْتُ شَيْئاً لَدَيَّ مِنْ صِلَتِكَ
ولأبي تمام السبق.

* * *

النوع الثالث: «السَّلْحُ» ويقال له «الإلام».

وهو أن يأخذ السَّالِحُ المعنى فقط دون اللَّفْظِ، ولهذا النوع ثلاثة وجوه أيضاً:

الوجه الأول: أن يكون ما جاء به السَّالِحُ المُلْتَمُ أَحْسَنَ سَبْكَاً وبلاغةً ورسالةً تعبير، وهو عَمَلٌ رَشِيدٌ وَمَسْلُكٌ حَمِيدٌ، ومن أمثلته على ما ذكروا قول «البحري» وهو السابق:

تَصَدُّ حَيَاءً أَنْ تَرَكَ بِأَوْجِهِ أَتَى الذَّنْبَ عَاصِيهَا فَلَيْمَ مُطِيعُهَا

أي: من أجل ذنوب الوجوه العاصية تَلَامُ الوُجُوهَ المطيعة.

هذا المعنى أَلَمَّ به المتنبّي فأخذه وصاغه بأسلوب أحسن سبكاً وأجود تعبيراً

فقال :

وَجُرْمِ جَرِّهِ سَفَهَاءِ قَوْمٍ وَحَلِّ بَغْيِرِ جَارِمِهِ الْعَذَابِ

ولعله مع نظره إلى قول البحري نظر أيضاً إلى قول موسى لربه في رحلة

الوعد الثاني وعِد الاعتذار كما جاء في سورة (الأعراف/ ٧) :

﴿ . . . قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَلِيئِي أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السَّفَهَاءُ مِنَّا . . . ﴾

[الآية ١٥٥].

الوجه الثاني: أن يكون ما جاء به السالخ الملمّ مساوياً لما جاء به السابق في

بلاغته .

وهذا الوجه غير محمود ولا مذموم، ومنه كما ذكروا قول بعضهم يرثي ابناً

له :

الصَّبْرُ يُحْمَدُ فِي الْمَوَاطِنِ كُلِّهَا إِلَّا عَلَيْكَ فَإِنَّهُ مَذْمُومٌ

أَلَمَّ به أبو تَمَّام فقال :

وَقَدْ كَانَ يُدْعَى لِأَبْسِ الصَّبْرِ حَازِماً فَأَصْبَحَ يُدْعَى حَازِماً حِينَ يَجْزَعُ

ومن أمثله قول بعض الأعراب :

وَرِيحُهَا أَطْيَبُ مِنْ طِيهَافِهَا وَالطَّيْبُ فِيهِ الْمِسْكُ وَالْعَنْبَرُ

أَلَمَّ به بشار بن بُرْدٍ فأخذه وَقَصَّرَ عنه، فقال :

وَإِذَا أَدْنَيْتَ مِنْهَا بَصَافاً غَلَبَ الْمِسْكَ عَلَى رِيحِ الْبَصَلِ

* * *

وأما غير الظاهرة من أقسام السرقات فهي الأنواع التالية :

ومعظم هذه الأنواع مقبول، وبعضها ممدوح يستحق التقدير والإعجاب لما فيه من تصرف حسن، وحسن التصرف فيه يخرج من الاتباع إلى حيز الابتداع، وأكثره خفاء أكثره قبولاً.

* * *

النوع الرابع: «التشابه»:

وهو أن يتشابه النصان المأخوذ والمأخوذ منه، ولو كانا في غرضين مختلفين من الكلام، كالمدح والهجاء والنسب، ومنه على ما ذكروا قول الطرماح بن حكيم الطائي:

لَقَدْ زَادَنِي حُبًّا لِنَفْسِي أَنِّي بَغِيضٌ إِلَى كُلِّ أَمْرٍ غَيْرِ طَائِلٍ
غَيْرِ طَائِلٍ: أي: غير ذي نفع وفائدة.
أخذ فكرته المتنبي فقال، وأحسن:

وَإِذَا أَتَيْتَكَ مَذْمُوتِي مِنْ نَاقِصٍ فَهِيَ الشَّهَادَةُ لِي بِأَنِّي كَامِلٌ

* * *

النوع الخامس: «النقل»:

وهو أن ينقل الآخذ معنى المأخوذ منه إلى غير محله، ومن هذا النوع على ما ذكروا قول البحري، وهو السابق:

سَلِبُوا فَأَشْرَقَتِ الدَّمَاءُ عَلَيْهِمْ مُحَمَّرَةً فَكَأَنَّهُمْ لَمْ يُسَلِبُوا
أي: سلبوا ثيابهم، فكانت الدماء التي غطت أجسادهم بمثابة الثياب عليها، فكأنهم لم يسلبوا.

أخذ المتنبي هذا المعنى ونقله إلى السيف، فقال:

يَيْسَ النَّجِيعُ عَلَيْهِ وَهُوَ مُجَرَّدٌ عَنْ غَمْدِهِ فَكَأَنَّمَا هُوَ مُعَمَّدٌ
النَّجِيعُ: دَمُ الْجَوْفِ، يقال: طَعَنَهُ تَمُجُّ النَّجِيعِ، أي: تخرج دم الجوف.

* * *

النوع السادس: «التعميم»:

وهو أن يكون المعنى الَّذِي استفيد من كلام السابق أعمَّ وأشمل، ومنه على ما ذكروا قول جرير، وهو السابق:

إِذَا غَضِبْتَ عَلَيْكَ بَنُو تَمِيمٍ وَجَدْتَ النَّاسَ كُلَّهُمْ غَضَابًا

أخذ أبو نواس هذا المعنى واستفاد منه معنى عاماً شاملاً، فقال للرشيد يستعطفه لما سجن الفضل البرمكي:

وَلَيْسَ عَلَيَّ اللَّهُ بِمُسْتَكْرٍ أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمَ فِي وَاحِدٍ

وقد أجاد أبو نواس في هذه الاستفادة، وهي استفادة ذكية بارعة.

* * *

النوع السابع: «القلب»:

وهو أن ينظر الآخذ ممن سبقه في معنى كلامه ويستفيد نقيضه أو ضده، ومن هذا النوع على ما ذكروا قول أبي الشيص:

أَجِدُ الْمَلَامَةَ فِي هَوَاكَ لَدِيدَةً حُبًّا لِذِكْرِكَ فَلَيْلُمْنِي اللَّوْمُ

نظر في هذا المتنبي فقلبه واستفاد المعنى المضاد تماماً فقال:

أَحِبُّهُ وَأَحِبُّ فِيهِ مَلَامَةً؟! إِنَّ الْمَلَامَةَ فِيهِ مِنْ أَعْدَائِهِ

أي: كيف أحب في الملامة وأنا أحبُّ، والملامة في هي من أعدائه؟! هذه أمورٌ لا تجتمع، لتناقضها أو تضادها.

المتنبي ضمَّن كلامه الاعتراض على أبي الشيص.

* * *

النوع الثامن: «الالتقاط والإضافة»:

وهو أن يأخذ المستفيد بعض المعنى الذي سبق إليه غيره ويضيف إليه زيادة

حَسَنَةً، ومن هذا النوع على ما ذكروا، قولُ الأَفْوَهِ الأودِي يصف خروج قومه إلى الحرب:

وَتَرَى الطَّيْرَ عَلَى آثَارِنَا رَأَى عَيْنِ ثِقَةً أَنْ سَتَمَارُ
أي: إِنَّ الطَّيْرَ أَكَلَةَ اللَّحُومِ تَتَّبِعُ جَيْشَهُمْ الخارج إلى القتال لأنها واثقة بحسب ما اعتادت أنها ستُصِيبُ مِيرَتَهَا، أي: طعامها من لحوم القتلى الَّذِينَ يَقْعُونَ صرعى من الأعداء.

يقال لغة: مَارَ أَهْلُهُ إِذَا أَعَدَّ لَهُمْ مِيرَتَهُمْ، أي: موادَّ طعامهم.

نظر أبو تمام إلى هذا الشُّعْر فأخذ منه وأضاف فأحسن، فقال:

لَقَدْ ظَلَلْتُ عِقْبَانَ أَغْلَامِهِ ضُحَى بَعِيقَانَ طَيْرٍ فِي الدَّمَاءِ نَوَاهِلِ
أَقَامَتْ مَعَ الرَّايَاتِ حَتَّى كَانَتْهَا مِنْ الْجَيْشِ إِلَّا أَنَّهَا لَمْ تُقَاتِلِ
عِقْبَانُ أَغْلَامِهِ: أي: الأعلام التي تشبه العقبان، أو الأعلام التي عليها أمثلة العقبان.

العقبان: جمع مفردة «العقَاب» وهو من كواسر الطير، ذو مخالب قوية.

أهمل أبو تمام بعض ما جاء في كلام الأفوه الأودي، وأضاف أَنَّ العِقْبَانَ مقيمة مع الرَّايَاتِ حَتَّى كَانَتْهَا جزءٌ من الجيش، تترقَّبُ الصَّرْعَى من الأعداء لَتَنْقُضَ عليهم، فزاد الفكرة حسناً.



توجيه العناية في صناعة الكلام الأدبيّ للبدء – والتخلص – والختام

نظر علماء البلاغة إلى الكلام الواحد الذي له مقدّمة تمهيدية هي بدايته، وموضوع مقصود بالذات هو وسطه، وله مؤخّرة يكون بها ختامه، فأوا التّبييه على لزوم توجيه العناية لثلاثة أمور.

(١) البدء بالمقدّمة التي فيها براعة استهلال، وحُسنُ التأثير في المتلقّي، مع خلّوها ممّا يُستنكرُ أو يُنشأُ به وسمّوا حُسن اختيار البدء البديع: «براعة استهلال».

(٢) التخلص من المقدمة بأسلوب حَسَنٍ بديعٍ للدخول في الموضوع المقصود بالذات، وسمّوا حُسنَ الانتقال من المقدمة إلى الموضوع الرئيسي في الكلام: «حُسنَ التخلص».

(٣) الختام الذي ينقطع عنده الكلام، وسمّوا حُسنَ اختيار الختام الحَسَنِ الجميل الملائم: «براعة المقطع» أو «براعة الختام».

وقالوا: ينبغي للمتكلّم أن يتأنّق في مقدّمة كلامه، وفي التخلص منها إلى المقصود بالذات، وفي الختام.

ونلاحظ أنّ القرآن المجيد يتحلّى بأبدع وأنقِ بدايات، وأبدع وأنقِ أوساط، وأبدع وأنقِ نهايات.

فلنبحث بشيء من التفصيل في :

(١) براعة الاستهلال.

(٢) وحُسن التخلُّص.

(٣) وبراعة الختام.

أما براعة الاستهلال :

فتكونُ بالبدء بما يكون فيه إلماحٌ إلى المقصود الأول من النص الأدبي، وإبداعٌ يجذبُ الانتباه، ويأسرُ المتلقِّي سامعاً أو قارئاً، مع حُسنِ سَبْكِ، وعدوِّية لفظٍ، وصحَّةٍ معنَى، ومن البديع في البدء ذكرُ مُجْمَلِ الموضوع أو مجملِ القصة قبل التفصيل ومنه إجمال قصة أهل الكهف قبل تفصيلها في سورة (الكهف):

وينبغي للمتكلم أن يجتنب في بدء كلامه المواجهة بما يسوء، أو بما يُتَطَيَّرُ به، أو بما يُسْتَكْرَهُ لفظه أو معناه.

فإذا لم يكن في البدء إلماحٌ إلى المقصود الأول الذي قد يُخصُّ بعنوان «براعة الاستهلال» فلا أقلَّ من مراعاة الصفات الأخرى.

● ومن أمثلة البدايات الحسنة ما يلي :

١ - قولُ امرئ القيس في أوَّلِ معلقته :

قَفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلٍ بِسِقْطِ اللَّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلٍ
قالوا: إنه في هذه البداية البارعة وقفَ واستوقف، وبكى واستبكى، وذكرَ الحبيبَ ومَنْزِلَهُ فِي مِصْرَاعٍ وَاحِدٍ.

٢ - وقول النابغة الجعدي (شاعر مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام. وفدَّ

مَعَ قومه على الرسول ﷺ سنة تسع للهجرة مسلمين، وكان سيِّداً فيهم، وأنشدَ الرَّسُولَ شعراً فأعجبَ به):

كِلِينِي لَهُمْ يَا أُمَيْمَةَ نَاصِبٍ وَلَيْلِ أَقَاسِيهِ بَطِيءِ الْكَوَاكِبِ

٣ - وقول أبي تمام يهنئ المعتصم بفتح عمورية، بادئاً قصيدته باستهلال
بارع يرُدُّ فيه على مزاعم المنجمين الذين زعموا أن عمورية لا تفتح في ذلك الوقت
الذي تم فتحها فيه :

السيفُ أصدقُ أنباءٍ من الكُتُبِ في حده الحدُّ بينَ الجدِّ واللَّعبِ
بيضُ الصَّفائحِ لا سودُ الصَّحائفِ في مُونهنَّ جلاءُ الشكِّ والرَّيبِ
٤ - وقول أشجع السلمي :

قصرٌ عليه تحيةٌ وسلامٌ خلعتُ عليه جمالها الأيامُ
٥ - وقول المتنبّي :

أُراها لكثرة العُشاقِ تحسبُ الدَّمعَ خِلقةً في المآقي
٦ - وقول المتنبّي أيضاً يهنئ سيف الدولة بالشفاء من مرض ألمَّ به فيبدأ
قصيدته باستهلال بارع :

المجدُّ عوفي إذ عوفيت والكرمُ وزال عنك إلى أعدائك الألمُ
● ومن أمثلة البدايات السيئة ما يلي :

١ - قول ذي الرمة حين دخل على هشام بن عبد الملك بن مروان :
ما بال عينك منها الماء مُسكبُ كأنه من كلِّ مفرية سربُ
سرب : أي : قنأة تسيل .

وكان بعيني هشام رمشٌ فهي تدمعُ أبداً، فظنَّ أنه يُعرض به، فقال : «بل
عينك» وأمرَ بإخراجه .

٢ - وقيل : لما بنى المعتصم قصره بميدان بغداد، وجمع عظماء دولته،
وجلس فيه في يوم الاحتفال به، أنشدَه إسحاق الموصلي :

يا دارُ غيرك البلى ومحاك يا لئت شعري ما الذي أبلاك

فتطير المعتمِصم بهذا الابتداء وأمر بهدم القصر.

* * *

وأما حُسنُ التخلّص :

فهو أن ينتقل الشاعر أو الناثر من فنّ من فنون الكلام إلى فنّ آخر، أو من موضوع إلى موضوع آخر بأسلوبٍ حسنٍ مستطاب، غير مستنكر في النفوس ولا في الأبواب، وأحسنه ما لا يشعر المتلقي معه بالانتقال، لما أحدثه التمهيد المتدرّج من تلاؤم، أو لحسن اختيار المفصل الذي حصل عنده الانتقال، أو لغير ذلك، كاستغلال تقارب الأشباه والنظائر بعضُها من بعض، ومن الانتقال البديع ما يشبه الانتقال من فرع من فروع الشجرة إلى فرع آخر منها بينهما ملامسة أو تراكب، أو إلى فرع آخر من شجرة أخرى تلامست أغصانُهما أو تداخلت وتراكبت.

ولم يكن هذا الفنّ متبعاً عند شعراء وخطباء العرب القدماء، بل كانوا ينتقلون من الغزل أو وصف أرضهم وأنعامهم، أو الحديث عن قومهم أو بطولاتهم أو غير ذلك، إلى المدح أو الاستجداء أو غير ذلك مما هو مقصودهم الأساسي انتقالاً مفاجئاً، أو يفصلون بنحو قولهم: «دع ذا» أو «عدّ عن ذا» أو بغير ذلك ممّا يُشعرُ بانتهاء كلام سابق وابتداء كلام جديد في موضوع آخر، ويُسمّى هذا «اقتضاباً».

ومن الاقتضاب المحمود الفُصلُ بعبارة «أما بعد» بعد مقدّمة الحمد والثناء على الله عزّ وجلّ، والصلاة والسلام على نبيّه محمد ﷺ.

ومن الاقتضاب البديع الفصل بين قسمٍ وقسمٍ آخر باسم الإشارة «هذا» أو «هذا ذكرٌ» أو نحوهما ممّا يُشعر بالانتهاء من الكلام على القسم السابق للبدء بالكلام على قسمٍ آخر من أقسام موضوع كُليّ ذي أقسامٍ متعدّدة، ومن أمثله ما جاء في سورة (ص / ٣٨ مصحف / ٣٨ نزول) إذ جاء فيها بيان ثلاثة أصناف من الرسل، وقد يلحقُ بأصنافهم المحسنون والأبرار من غيرهم.

الصف الأول: صنف الأوابين، وقد عرضت السورة ثلاثة منهم، وهم: «داود وسليمان وأيوب» عليهم السلام والأواب هو سريع الرجوع إلى الاستقامة المطلوبة منه بعد انحرافه عنها.

الصف الثاني: صنف المصطفين الأخيار الذين لا يملأ ساحة تفكيرهم إلا ذكرى الدار الآخرة والعمل لأعلى منازل الجنة فيها، وعرض الله في السورة ثلاثة منهم، وهم «إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب» عليهم السلام.

الصف الثالث: صنف الأخيار، ومرتبهم وسطي بين الأوابين والمصطفين الأخيار، وعرض الله في السورة ثلاثة منهم، وهم «إسماعيل، واليسع، وذو الكفل» عليهم السلام.

وبعد أن انتهى الحديث عن مراتب الأنبياء ومن يلحق بهم من المحسنين والأبرار، واقتضت الحكمة الكلام عن المتقين من غير الأنبياء فصل الله تعالى بقوله: ﴿هَذَا ذِكْرٌ﴾ وبعده قال تعالى:

﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّاتٍ عَدْنٍ مُمْنَعَةٍ لَّهُمُ الْأَنْبُوبُ ﴿٥٠﴾ مُكَبَّرِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَنَكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ الْأَثْرَابُ ﴿٥٢﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَذَا لِرِزْقِنَا مَا لَكُمْ مِنْ تَفَادٍ ﴿٥٤﴾ .

وبعد وصف حالة المتقين في جنات عدن جاء دور الحديث عن الطاعين أهل جهنم، ففصل الله عز وجل بقوله: ﴿هَذَا﴾ وبعده قال تعالى:

﴿... وَإِنَّ لِلطَّاغِيْنَ لَشَرَّ مَآبٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا فَنَسَ الْهَادِ ﴿٥٦﴾ هَذَا فَلْيُدْوَ قُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقُ ﴿٥٧﴾ وَآخِرٌ مِنْ شَكْلِهِمْ أَرْوَاجٌ ﴿٥٨﴾ هَذَا فَوْجٌ مُقَدِّمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْجَأَ بِهِمْ إِلَيْهِمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْجَأَ بِكُمْ أَنْتُمْ قَدْ مَتَمُّوهُ لَنَا فَنَسَ الْأَصْرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرِّدْهُ عَذَابًا صِغْفَاءً فِي النَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَخَذْتَهُمْ سِحْرِيًّا أَمْ رَاضَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾ .

وقد علمنا الله عزّ وجلّ في أداب المناظرة أن نبدأ بالحمد لله فالسلام على عباده الذين اصطفى، وننتقل مباشرة إلى أوّل فقرة من فقرات المناظرة دون فاصل من الكلام، لأنّ عقد مجلس الحوار قد كان لإقامة مناظرة بين فريقين على موضوع معين، ولكن المسلم لا يبدأ بأيّ أمر ذي شأنٍ حتّى يحمّد الله ويُسَلِّم على رُسله، فإذا فعل ذلك بدأ موضوعه دون حاجةٍ إلى تمهيد، نظراً إلى أنّ النفوس مُهيأةٌ لاستقبال أوّل فقرات المناظرة، بعد مقدّمة الحمد لله والسلام على رُسله.

نجد هذا التعليم في قول الله عزّ وجلّ في سورة (النمل) / ٢٧ مصحف/

٤٨ (نزول):

﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ اللَّهُ خَيْرٌ مَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حُدُبًا ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَوَلَمْ مَعَ اللَّهُ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَادًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَوَلَمْ مَعَ اللَّهُ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُ لَكُمْ خُلَفَاءَ ۗ أَوَلَمْ أَعْلَمْ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيْحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَوَلَمْ مَعَ اللَّهُ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَوَلَمْ مَعَ اللَّهُ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ .

* * *

وأما براءة المقطع، أو «براعة الختام»:

فهي أن يختم المتكلّم كلامه بختام حسن، إذ هو آخر ما يطرق الأسماع، أو يقع عليه نظر القارىء، فيحسّن فيه أن يكون بمثابة أطيب لُقمة في آخر الطعام، أو بمثابة آخر اللّمسات الناعمات المؤثرات التي تعلق في النفوس، وتسكن عندها سُكون ارتياح، وتظلل لها ذكريات تُحرّك النفوس بالشوق إلى المزيد من أمثال ذلك الحديث.

ومن الحسن البديع في الختام أن يجمع خلاصة مختزلة لأمّهات الموضوع الذي سبق في الأوساط شرحه، مع التذييل بالعظة المقصودة، أو القاعدة الكلية الاعتقادية التي بُنيَ عليها الموضوع، أو اشتقَّ منها، أو اعتمد عليها.

ومن الحسن في الختام أن يشتمل على الثناء على الله والصلاة والسلام على نبيه، أو أن يكون مشعراً فكرياً بانتهاء الحديث عن الموضوع الذي يتحدث عنه المتكلم، كأن يكون شرحاً لآخر الأقسام، وقد استوفى الشرح المطلوب فيه.

وللبغاء فنونٌ مختلفة كثيرة يختمون بها شعرهم أو نثرهم، ويكون آخرُ كلامهم دالاً على أنَّهم قد وصلوا فعلاً إلى آخر ما يقصدون من قول، وتتفاضل الخواتيم بمقدار ما فيها من إبداع دالٍّ على أنها آخر القول.

● ومن أمثلة «براعة المقطع» ما يلي:

١ - قول أبي نواس من قصيدة يمدح فيها المأمون:

فَبَقِيَتْ لِلْعِلْمِ الَّذِي تَهْدِي لَهُ وَتَقَاعَسَتْ عَنِ يَوْمِكَ الْأَيَّامُ

٢ - وقول أبي تمام في آخر قصيدته في ممدوحه:

فَمَا مِنْ نَدَى إِلَّا إِلَيْكَ مَحَلُّهُ وَلَا رِفْعَةٌ إِلَّا إِلَيْكَ تَسِيرُ

٣ - وقول الأرجاني في آخر قصيدته في ممدوحه:

بَقِيَتْ وَلَا أَبْقَى لَكَ الدَّهْرُ كَاشِحاً فَإِنَّكَ فِي هَذَا الزَّمَانِ فَرِيدُ

كَاشِحاً: أي: عدوّاً مبغضاً.

٤ - وقول الآخر:

بَقِيَتْ بَقَاءَ الدَّهْرِ يَا كَهْفَ أَهْلِهِ وَهَذَا دُعَاءٌ لِلْبَرِيَّةِ شَامِلُ



إعداد كلام أدبي في موضوع ما

لا يُوجد هيكلٌ واحد أو هياكلٌ ذوات عدد محصور تُتخذُ نماذج ثابتة يُنتقى منها أحدها لتوضع على مُخطّطه أفكار وعبارات كلام أدبي في موضوع ما، شعراً كان أو نثراً، مهما اختلفت الموضوعات الفكرية، وتنوّعت أغراضها، ومقتضيات أحوالها.

وذلك لأنّ صور هياكل الكلام الأدبي تخضع للتجديد والابتكارات دون قَصْرٍ ولا حَصْرٍ، وشأنها كشأن لوحات الرّسّامين، ومخطّطات مهندسي الأبنية، فهي لا تقف عند حدود صورٍ معيّنة وهياكل لا تتعداها.

وعلى مقدار ما نجد في خلقِ الله من أشكال وصور مختلفة في أنواع الأشياء والأحياء، والأشجار والأزهار والثمار، نلاحظ أن الكلام الأدبي قابلٌ للتنوّع في صور لا حَصْر لها.

وللإبداع المقبول فيها شروطٌ عامّة لغويّة، وفكرية، وجمالية، وتلاؤميّة مع مقتضيات الأحوال.

● فالشروط اللّغوية تأتي من قواعد اللّغة، في بناء كلمتها، ونحوها، وصرّفها، وبناء الجملة فيها، وأساليب الكلام بها.

● والشروط الجمالية أمور خفية يصعب تحديدها، كما سبق في فصل «الجمال في الكلام» لكن يمكن استفادة عناصر كثيرة تكسب الكلام جمالاً أدبياً ممّا سبق بيانه في فنون «المعاني والبيان والبديع» وممّا جاء في فصل «الجمال في الكلام».

على أن ذواق الجمال الأدبي في الكلام يشعرون بتحقيق الشروط الجمالية في الكلام، أو بتحقيق قسم كبير منها، متى أحسوا بأذواقهم أنه كلام جميل، سواء استطاعوا أن يكتشفوا العناصر الجمالية التي أمتعتهم في الكلام، أو لم يستطيعوا اكتشافها.

● والشروط الفكرية ترجع إلى كون العناصر الفكرية في الكلام عناصر منسجمة مع أصول شجرات الأفكار التي فطر الله عز وجل عليها مدارك النفوس القابلة للعلوم والمعارف، أو إلى قدرة صاحب الكلام على ستر الثغرات التي تكون في أبنيته الفكرية، بالإيهام والتمويه وزخرف القول، حتى يبدو الباطل الذي يقدمه مُزَيَّنًا مَطْوِيَّ الثغرات، في صورة حق متعائن الفقرات، وهي في الحقيقة متباينات متضادات متناقضات.

● والشروط التلاؤمية مع مقتضيات الأحوال، ترجع إلى أن لكل مقام حالاً، وأن لكل حال مقالاً، وقد سبق بيان هذا في المقدمات العامة أول الكتاب.

وأنبه هنا على ضرورة التفريق بين الكلام الأدبي في الموضوعات الأدبية العامة، كالنسيب والمدح والهجاء والموعظة والنصيحة وما يتضمن استشارة للانفعالات والعواطف الإنسانية، وبين المقال الصحفي، والخطبة، والمقال العلمي، إذ لكل مجال من هذه المجالات أسلوب من الكلام يلائمه، وما يصلح في واحد منها قد لا يصلح في سائرهما.

إن جدول الماء مثلاً قد يراه العاشق في تعبيره الأدبي مثل مجرى دموعه، وتدفق أشواقه، ومثل لين جسد التي يعشقها، وهو مشوق لوصالها.

ويراه الأديب الوصاف فيصف انسيابه كالثعبان، وحركته الجمالية، ويصف ما يحيط به من نبات وحيوان، وما يتدلّى عليه من أغصان الشجر، وما يمتد إليه من أشعة وأنوار، وما يتناثر عليه من زهر، وما يتلأعب على سطحه وفي جوفه من سباح طير وسمك.

ويراه عالم الطبيعة من منظار ما درس في علوم الكيمياء والفيزياء والجغرافية وغيرها من علوم الطبيعة .

ويراه الزارع من منظار الاستفادة منه في الزراعة وسقي الحقول، والأنعام التي يرعاها ويستثمرها .

ويراه عالم الاقتصاد من منظار حاجة اقتصاديات البلاد إلى المياه ومصادرها .

ويراه الواعظ الديني من خلال ما يُلاحظ فيه من طهارة ونقاء، وما يرى في مائه من نعمة الله على عباده بالرّي والتطهير، وتكون تعبيراته بشأنه مشتملة على ما يثير العواطف الدينية الإيمانية، ويحثُّ على الالتزام بطاعة الله، والحرص على عدم إهدار نعمة الله والتبذير بها .

والصحفيّ في مقاله يراه من خلال المناسبة الصحفية الزمنية التي استدعت ذكره، ويكون تعبيره بأسلوب المحادث الذي يؤنس محدّثه، ولا يُجهدُ فكره، وينتقل به من فكرة إلى فكرة بحسب مجاري أفكاره .

ويشترط في كلّ كلام أدبي في أيّ مجالٍ من المجالات المختلفات أن يكون بمثابة شجرة أو عُصنٍ من أغصانها معلوم الارتباط بها، أو بمثابة كائن حيٍّ أو عضوٍ من أعضائه معلوم الارتباط به .

ومعلومٌ أنّ كلّ كائن حيٍّ له أركانٌ لكيّنونته تقع في المرتبة الأولى، وعناصر أخرى، منها ما يقع في المرتبة الثانية، ومنها ما يقع في المرتبة الثالثة، أو الرابعة، وله مظاهر جمالية تقع في المرتبة الأولى، وأخرى تقع في المرتبة الثانية، فالثالثة، فالرابعة . . .

فمن أركان الكائن الحيّ ذي الهيكل العظمي ما يلي :

١ - الروح .

٢ - الرأس .

- ٣ - القلب .
- ٤ - الجملة العصبية .
- ٥ - الهيكل العظمي العام .
- ٦ - الكسوة الأساسية المتممة للهيكل ، المألثة لأبوابه ومنافذه وعناصر قُوَّته .
- ٧ - الكسوة الجمالية التي تتكوّن من لحمه وشحمه وجلده وشعره وقسماته وألوانه .
- ٨ - الزينات الجمالية ، وهي الألبسة من حُلِّيِّ وحُلِّيِّ ، وما يُضَاف إلى الجسم من تحسين وتشذيب وتهذيب ونحو ذلك .

- فروح المقالة ما فيها من حياةٍ وحركةٍ يشعر بهما المتلقي .
- ورأسها ما فيها من نظامٍ فكريٍّ سَوِيٍّ وتعبيرٍ يَدُلُّ عليه .
- وقلْبُها الغرض الأكبر الذي يقصد المتكلم توصيله للمتلقّي .
- وجملتها العصبية هي الروابط الفكرية بين فقراتها وجملها ، ولو كانت روابط غيرَ مدلولٍ عليها بكلماتٍ في النصّ .
- وهيكلها العامُّ الوعاء اللّغوي الذي تتألف منه كلماتها وجملها .
- وكسوتها الأساسية هي الكلمات والجُمْلُ الفصيحة البليغة .
- وكسوتها الجمالية هي الاختيارات الأدبية الملائمة لمعانيها ، وللمقتضيات أحوال الموضوعات والمخاطبين .
- والزينات الجمالية ما تشتمل عليه المقالة من فنون جمالية تستحوذ على إعجاب ذواقي الجمال الأدبي .

ويتفاوت مؤلفو الكلام الأدبي في قدراتهم على صناعة الكلام الأدبي الرفيع ، ويتفاضلون في درجات ما يصنعون منه تفاضلاً كبيراً ، والارتقاء في هذه الدرجات يحتاج استعداداً فطرياً ، وممارسةً طويلة الأمد ، ونظراً تحليلياً مُتَّبِعاً لروائع النصوص الأدبية ، وكاشفاً للعناصر الجمالية فيها .

خاتمة الكتاب

هذا ما فتح الله به عليّ في تجديد هذا العلم النفيس (علم البلاغة العربية) الذي أسسه علماء المسلمين خدمة لكتاب الله المجيد المعجز في معانيه وفي مبانيه، وخدمة لأقوال الرسول محمد بن عبد الله ﷺ.

إنّه لما كانت شجرة هذا العلم قابلة للتنمية والإضافات الاستنباطية والابتكارية، وقابلة لتلقيح فروعها بلقاحات أشجارٍ أخرى عربية وغير عربية، طبيعية أو مُستنبَته بأعمالٍ تطويرية مختلفة.

ولما كان هذا العلم يخدم رسالتي الدعوة إلى دين الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ولما كانت لي اهتماماتٌ بهذا العلم منذ نشأتي مُتلقياً دروس البلاغة في حلقات مدرسة والذي تغمّده الله برحمته، ثم أستاذاً فيها لمادة «علم البلاغة» مقرراً لكتاب «تلخيص المفتاح» للعلامة الشيخ جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني الخطيب، الذي لخص فيه وهذب كتاب «المفتاح» في علوم البلاغة لأبي يعقوب يوسف السكاكي، ومنتبهاً شرح كتاب «التلخيص» وناظراً في كثير من كتب البلاغة والحواشي والتقارير.

ولما كانت لديّ بفضل الله موهبة فطرية موروثية في الشعر والأدب وشغفٌ بكتبيهما، وممارسةٌ للكتابة بهما، ثم كانت لي نظرات تدبّرية فكرية وبلاغية وأدبية في كتاب الله عزّ وجلّ، وروائع أقوال الرسول ﷺ، اهتديت من خلالها إلى

تطبيقات كثيرات، واكتشافات قيّمة لعناصر جمالية بلاغية وأدبية فيهما، كنت أدونها وأشرحها فيما أكتب من تدبّر لهما، وكنت أجمع ما أظفر به من متناثرات جمالية وبلاغية وأدبية تصلح لأن تُضاف إلى هذا العلم النفيس.

لما تجمعت لديّ كلُّ هذه العوامل والمُحرّضات، ورأيت معونة الله تُمدّني، وتوفيقه يرعاني، وجّهتُ عزيّمتي متوكّلاً عليه لكتابة هذا السّفر مُستَمِلاً على نُقَايَاتٍ مِنْ مُدَوَّنَاتٍ فُنُونِ عِلْمِ الْبَلَاغَةِ، وما فتح الله به عليّ مما يصلح لأن يُضاف إليه.

ولما فاض ما جمعتُ عمّا كنتُ أملُ رأيتُ أن أقتصر عليه، وأخرجه في هذا الكتاب، عسى أن ينفع الله به متدبّري كتابه المجيد، وأقوال رسوله الخاتم، وأن يُوفّق للاسترشاد به الدّعاة إلى سبيل ربّهم، والقائمين برسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتّى يُحسِنُوا استخدامَ وَسِيلَةِ الأدب الرفيع للتأثير فيمن يوجّهون لهم بياناتهم، ونصائحهم، ومواعظهم، بالحكمة والموعظة الحسنة.

اللّهم ربّ لك الحمدُ على ما وهبتَ. اللّهم ربّ أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمتَ بها عليّ وعلى والدَيّ، وأن أعملَ صالحاً ترضاه مخلصاً لك في أقوالي وأعمالي. اللّهم ربّ اغفر لي واجعل ما أكتبُ وأنشرُ وأبلّغُ خالصاً لوجهك الكريم بفضلِكَ ومَنّكَ وجُودِكَ، ربّ وزدني من فيوض عطاياك وفضلِكَ وجودِكَ في الدُّنيا وفي جنّاتِ النعيم، وأصلح أحوال الدّعاة والقائمين برسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وسائر المؤمنين المسلمين.

وآخر دعوانا أن الحمدُ لله ربّ العالمين، وسلامٌ على عباده الذين اصطفى.

مكة المكرمة في يوم السبت التاسع من ربيع الآخر لسنة ١٤١٤ هجرية.

الموافق للخامس والعشرين من ١٩٩٣/٩ ميلادية.

عبد الرحمن بن محمد الشيرازي

فَهْرَسْتُ الْجَزءِ الثَّانِي

الموضوع

الصفحة

الباب الخامس : الإيجاز الإطناب والمساواة

- الفصل الأول: نِسْبُ الكثافة بين الألفاظ والمعاني وملاءمتها لمقتضيات الأحوال ٧
- مقتضيات استعمال كل من الأقسام السوية ٨
- مجالات استعمال الأقسام السوية ١٣
- الفصل الثاني: المساواة بين الألفاظ والمعاني ١٦
- اختلاف مقادير الكلام في المساواة مع اتحاد المعنى المراد ١٨
- الفصل الثالث: الإيجاز ٢٦
- (١) التعريف ٢٦
- (٢) تقسيم الإيجاز ٢٩
- القسم الأول: إيجاز القِصْر ٢٩
- القسم الثاني: إيجاز الحذف ٢٩
- (٣) شرح إيجاز القِصْر ٢٩
- (٤) شرح إيجاز الحذف ٣٩
- أولاً: فوائد الحذف ٤٠
- ثانياً: شروط الحذف ٤٣
- ثالثاً: أنواع الحذف ٤٦

- شرح القسم الأول: الاقتطاع ٤٦
- شرح القسم الثاني: الاكتفاء ٤٨
- شرح القسم الثالث: التضمين ٤٩
- شرح القسم الرابع: الاحتباك ٥٤
- شرح القسم الخامس: الاختزال ٥٧
- الفصل الرابع: الإطناب ٦٠
- (١) التعريف ٦٠
- (٢) تقسيم الإطناب ٦٢
- الإطناب باليسط ٦٢
- الإطناب بالزيادة ٦٤
- (٣) طرائق الزيادات الإطنابية المفيدة ودواعيها البلاغية ٦٥
- الطريقة الأولى: «الإيضاح بعد الإبهام» ٦٦
- الطريقة الثانية: «ذكر الخاص بعد العام» ٦٩
- الطريقة الثالثة: «التكرير» لداعٍ بلاغي ٧١
- الطريقة الرابعة: «الإيغال» ٧٦
- الطريقة الخامسة: «الاعتراض» ٨٠
- الطريقة السادسة: «الاحتراس = التكميل» ٨٤
- الطريقة السابعة: «التذييل» ٨٦
- الطريقة الثامنة: «التميم» ٨٨
- الطريقة التاسعة: «الطرد والعكس» ٩١
- الطريقة العاشرة: «الاستقصاء» ٩٢
- الطريقة الحادية عشرة: «التعليل» ٩٣
- الطريقة الثانية عشرة: «التفسير» ٩٦
- الطريقة الثالثة عشرة: «وضع الاسم الظاهر موضع المضمرة» ... ٩٨

- الطريقة الرابعة عشرة: «التأكيد» ١٠٥
- ١٠٦ إجمال المؤكدات
- ١١١ دواعي التأكيد
- الطريقة الخامسة عشرة: «زيادة بعض التوابع في الكلام» ١١٤

«عِلْمُ الْبَيَانِ»

- مقدمة عامّة ١٢٣
- (١) الباعث والنشأة والتسمية ١٢٣
- واضح هذا العلم ١٢٥
- (٢) تعريفات ١٢٦
- (٣) الدلالات الوضعية اللفظية ١٢٩
- الفصل الأول: الكناية والتعريض ١٣٣
- المقولة الأولى: الكناية ١٣٥
- اقتراح للسكاكي حول تقسيم الكناية ١٤٠
- قيمة الكناية في الأدب ١٤١
- الأغراض البلاغية لاستخدام الكناية ١٤٣
- أمثلة من الكنايات ١٤٥
- المقولة الثانية: التعريض ١٥٢
- الأغراض البلاغية لاستخدام التعريض — أمثلة ١٥٤
- الفصل الثاني: التشبيه والتمثيل ١٥٩
- المقدمة: في التعريفات ١٦١
- المقولة الأولى: التشبيه ١٦٢
- (١) أركان التشبيه ١٦٢
- (٢) فنّ التشبيه ودواعيه ١٦٥

- دواعي التشبيه ١٦٧
- (٣) أغراض التشبيه ١٦٨
- (٤) صفات وخصائص التشبيهات المثلي ١٧١
- (٥) تقسيمات متعدّات لأنواع وصور التشبيهات ١٧٢
- التقسيم الأول: تقسيم التشبيه باعتبار ذكر أداة التشبيه
- ووجه الشبه أو عدم ذكرهما ١٧٢
- التقسيم الثاني: تقسيم التشبيه من جهة حسنه أو قبحه وقيّمته
- «القريب المبتذل والبعيد الغريب» ١٧٨
- التقسيم الثالث: تقسيم التشبيه باعتبار أحوال
- طرفيه (المشبه والمشبّه به) ١٨٥
- أولاً: التشبيه البسيط والتشبيه المركب «التمثيل» ١٨٦
- ثانياً: «كلُّ من ركني التشبيه إمّا أن يكون مُدركاً بالحسّ
- الظاهر أو غير مُدركٍ به» ١٩٣
- ثالثاً: «كلُّ من ركني التشبيه إمّا أن يكون متزعّاً
- من الواقع أو من الخيال» ١٩٥
- رابعاً: «تشبيه التسوية وتشبيه الجمع» ١٩٧
- خامساً: «التشبيه الملفوف والتشبيه المفروق» ١٩٩
- سادساً: «التشبيه المقلوب» ٢٠١
- سابعاً: «التشبيه الضمني» ٢٠٢
- ثامناً: «التشبيه المكني» ٢٠٤
- (٦) مختارات من التشبيهات والأمثال ٢٠٩
- الفصل الثالث: المجاز وهو قسمان: (الاستعارة والمجاز المرسل)
- وفيه مقدمة ومقولتان ٢١٥
- المقدمة ٢١٧

- (١) تعريفات ٢١٧
- (٢) أقسام الحقيقة والمجاز اللغوية والشرعية والعرفية ٢١٨
- (٣) تقسيم المجاز إلى مجاز لغوي ومجاز عقلي ٢٢١
- (٤) تقسيم المجاز إلى مجاز في المفرد، ومجاز في المركب،
ومجاز في الإسناد، ومجاز قائم على التوسع في اللغة
دون ضابط معين ٢٢٣
- (٥) تقسيم المجاز اللغوي إلى استعارة ومجاز مرسل ٢٢٤
- (٦) فنّ المجاز ودواعيه وأغراضه ٢٢٥
- المقولة الأولى: الاستعارة ٢٢٩
- المقدمة ٢٢٩
- (١) تعريفات ٢٢٩
- الفرق بين الاستعارة والتشبيه ٢٣٠
- (٢) هل الاستعارة مجاز لغوي أم مجاز عقلي؟ ٢٣٣
- (٣) تقسيم الاستعارة إلى استعارة في المفرد واستعارة
في المركب ٢٣٥
- «المبحث الأول»: الاستعارة في المفرد ٢٣٧
- (أ) تقسيمات الاستعارة في المفرد ٢٣٧
- التقسيم الأول: تقسيم الاستعارة في المفرد
إلى أصلية وتبعية ٢٣٧
- التقسيم الثاني: تقسيم الاستعارة في المفرد
إلى تصرّحية ومكنية ٢٤٢
- رأي السكاكي ٢٤٥
- أمثلة للاستعارة بقسميها التصريحية والمكنية ٢٤٦

- التقسيم الثالث: تقسيم الاستعارة إلى مرشحة ومجرّدة
ومطلقة ٢٥٢
- التقسيم الرابع: تقسيم الاستعارة في المفرد بالنظر إلى كون كلِّ
من ركنيها مما يُدرك بالحسّ الظاهر أولاً ٢٥٩
- التقسيم الخامس: تقسيم الاستعارة إلى وفاقية وعنادية ... ٢٦١
- (ب) قيمة الاستعارة في البيان ومراقبها ٢٦٣
- «المبحث الثاني» الاستعارة في المركب وهي: «الاستعارة
التمثيلية» ٢٦٥
- المقولة الثانية: المجاز المرسل ٢٧١
- المقدمة ٢٧١
- (١) التعريف ٢٧١
- (٢) تقسيم المجاز المرسل إلى مجاز في المفرد، ومجاز في المركب،
ومجاز عقليّ في الإسناد، ومجاز قائم على التوسّع
في اللّغة دون ضابط معيّن ٢٧١
- «المبحث الأول» شرح المجاز المرسل في اللفظ المفرد ٢٧٤
- علاقات المجاز المرسل ٢٧٥
- أمثلة تدريبية مختلفة للمجاز المرسل ٢٨٣
- «المبحث الثاني» شرح المجاز المرسل في اللفظ المركب ٢٨٩
- في المركّبات الخبرية ٢٨٩
- في المركّبات الإنشائية ٢٩٢
- «المبحث الثالث» المجاز في الإسناد وهو المجاز العقلي ٢٩٥
- تقسيم المجاز العقلي باعتبار طرفيه المسند والمسند إليه .. ٣٠٢
- أن يكون الطرفان حقيقتين ٣٠٢
- أن يكون الطرفان مجازيّين ٣٠٢

- أن يكون المسند حقيقةً والمسند إليه مجازاً ٣٠٣
- أن يكون المسند مجازاً والمسند إليه حقيقة ٣٠٣
- قرينة المجاز العقلي ٣٠٤
- قيمة المجاز العقلي في البلاغة والأدب ٣٠٤
- «المبحث الرابع» المجاز المرسل القائم على التوسع
- في اللّغة دون ضابط معين ٣٠٦
- الفصل الرابع: نظرات تحليلية إلى استخدام
- الأشباه والنظائر والمجاز في التعبيرات الأدبية ٣١١
- الفصل الخامس: منهج البيان القرآني في التنوع والتكامل
- وفي حكاية الأقوال والأحداث والقصص ٣١٩
- مقدمة ٣٢١
- المقولة الأولى: منهج البيان القرآني في التنوع والتكامل
- (١) التنوع في أساليب البيان القرآني ٣٢٢
- (٢) التكامل في أساليب البيان القرآني ٣٣٥
- المقولة الثانية: منهج البيان القرآني في حكاية الأقوال
- والأحداث والقصص ٣٤٦

«علم البديع»

وفيه مقدمة وثلاثة فصول

- المقدمة ٣٦٧
- (١) البواعث ٣٦٧
- (٢) تعريفات ٣٦٨
- (٣) واضع علم البديع ٣٦٩

- الفصل الأول: البدائع المشتملة على محسنات جمالية معنوية ٣٧١
- البديعة المعنوية (١): التورية وتُسمى «الإيهام» ٣٧٣
- البديعة المعنوية (٢): الطباق وتُسمى: ٣٧٧
- المطابقة – التكافؤ – التضاد ٣٧٧
- البديعة المعنوية (٣): مراعاة النظر، ومنها تشابه الأطراف وتُسمى: ٣٨٢
- التناسب – والتوفيق – والائتلاف ٣٨٢
- البديعة المعنوية (٤): الإِرصاد. وقد تسمى التَسْهِيم ٣٨٥
- البديعة المعنوية (٥): حُسْنُ التعليل ٣٨٧
- البديعة المعنوية (٦): تأكيد الفكرة بما يشبه تقرير ضدها ٣٩٢
- البديعة المعنوية (٧): تجاهل العارف ٣٩٦
- البديعة المعنوية (٨): الهزل الذي يراؤ به الجد ٣٩٨
- البديعة المعنوية (٩): القول الدال على المعنى وضده ويعبر عنه ٣٩٨
- بالتوجيه – وبالإيهام ٣٩٩
- البديعة المعنوية (١٠): الاستخدام ٤٠١
- البديعة المعنوية (١١): ذكر المتعدّدات مع ذكر ما يتعلّق ٤٠١
- بكلّ واحد منها: أمّا لف ونشر، وإمّا تقسيم ٤٠٣
- بدائع معنوية متجانسة (١٢): بدائع متجانسة حول أحوال روابط المعاني ٤١٥
- ووجه اجتماعها وافتراقها وتقسيمها وتفرّعها ٤١٥
- البديعة المعنوية (١٣): الإدماج ٤٢٧
- البديعة المعنوية (١٤): الاستبّاع ٤٢٩
- البديعة المعنوية (١٥): التجريد ٤٣١
- البديعة المعنوية (١٦): المزاج ٤٣٦
- البديعة المعنوية (١٧): المشاكلة ٤٣٨
- البديعة المعنوية (١٨): العكس المعنوي ويسمى: التبديل ٤٤٠

- البديعة المعنوية (١٩): الرجوع ٤٤٣
- البديعة المعنوية (٢٠): المذهب الكلامي ٤٤٦
- البديعة المعنوية (٢١): المُبالغة ٤٥٠
- بدائع معنوية متجانسة (٢٢): حول التتابع في المفردات والجمل ٤٥٨
- البديعة المعنوية (٢٣): المراوغة: بالمواربة، أو مجازاة ظاهر القول .. ٤٦٩
- البديعة المعنوية (٢٤): النزاهة ٤٧١
- البديعة المعنوية (٢٥): نفي الشيء بصيغةٍ تشعر بإثباته،
أو نفي الشيء بإيجابه ٤٧٢
- البديعة المعنوية (٢٦): الافتتان ٤٧٥
- البديعة المعنوية (٢٧): حُسن المراجعة ٤٧٦
- البديعة المعنوية (٢٨): التنكيت ٤٧٨
- البديعة المعنوية (٢٩): الإرداف ٤٨٠
- البديعة المعنوية (٣٠): الإبداع ٤٨٢
- الفصل الثاني: البدائع المشتملة على محسنات جمالية لفظية ٤٨٣
- البديعة اللفظية (١): «الجناس» ويُسمَّى: التجنيس ٤٨٥
- النوع الأول: «الجناس التام» وفيه فروع ٤٨٧
- النوع الثاني: «الجناس المحرّف» ٤٩١
- النوع الثالث: «الجناس الناقص» وفيه فروع: ٤٩٢
- النوع الرابع: «الجناس المضارع» ٤٩٤
- النوع الخامس: «الجناس اللاحق» ٤٩٥
- النوع السادس: «الجناس المزدوج» ٤٩٦
- النوع السابع: «جناس القلب» وفيه فروع: ٤٩٦
- النوع الثامن: «الجناس المصحّف» ويسمَّى: «جناس الخطّ» ٤٩٧
- ما يلحق بالجناس: «الجناس المطلق» ٤٩٨

- أمثلة مختلفة من أقسام الجناس وفروعها ٤٩٩
- خاتمة توجيهية حول الجناس ٥٠٠
- البديعة اللفظية (٢): «السَّجْع» وفيه ثلاثة أقسام: ٥٠٣
- (١) الترصيع .. ويقال فيه: «السَّجْع المرصع» ٥٠٥
- (٢) المتوازي .. ويقال فيه: «السَّجْع المتوازي» ٥٠٥
- (٣) المطرف .. ويقال فيه: «السَّجْع المطرف» ٥٠٧
- تقسيم السجع من جهة الطول والقصر إلى:
- (١) السجع القصير ٥٠٩
- (٢) السجع المتوسط ٥٠٩
- (٣) السجع الطويل ٥٠٩
- درجات السجع في الحسن
- البديعة اللفظية (٣): «الموازنة» ٥١٢
- البديعة اللفظية (٤): «ردّ العجز على الصدر» ٥١٤
- البديعة اللفظية (٥): «الانسجام» ٥١٨
- البديعة اللفظية (٦): «اتلاف اللفظ مع اللفظ
- واتلاف اللفظ مع المعنى» ٥٢٠
- البديعة اللفظية (٧): «التعاقب» وفيه قسمان: ٥٢٦
- (١) اقتباس أوائل اللاحق من أواخر السابق ٥٢٦
- (٢) اقتباس الركائز ٥٢٧
- البديعة اللفظية (٨): «التفويت» ٥٢٩
- البديعة اللفظية (٩): «التشريع» ويسمى «التوشيح» ٥٣١
- البديعة اللفظية (١٠): «لزوم ما لا يلزم» ٥٣٢
- البديعة اللفظية (١١): «القلب» أو «العكس اللفظي» ٥٣٥
- البديعة اللفظية (١٢): «الاقتباس» وما اشتق منه من فروع ٥٣٦

- الفصل الثالث: ملاحق، وفيه ثلاث مقولات: ٥٤٥
- المقولة الأولى: السرقات الشعرية وتوافق القرائح ٥٤٧
- أقسام السرقات وأنواعها: ٥٥٠
- النوع الأول: «النسخ» = «الانتحال» ٥٥٠
- النوع الثاني: «المسخ» = «الإغارة» ٥٥١
- النوع الثالث: «السِّلخ» = «الإلمام» ٥٥٣
- النوع الرابع: «التشابه» ٥٥٥
- النوع الخامس: «النقل» ٥٥٥
- النوع السادس: «التعميم» ٥٥٦
- النوع السابع: «القلب» ٥٥٦
- النوع الثامن: «الالتقاط والإضافة» ٥٥٦
- المقولة الثانية: توجيه العناية في صناعة الكلام الأدبي
- للبدء والتخلص والختام ٥٥٨
- براعة الاستهلال ٥٥٩
- حُسْنُ التخلُّص ٥٦١
- براعة المقطع — أو براعة الختام ٥٦٣
- المقولة الثالثة: إعداد كلام أدبي في موضوع ما ٥٦٥
- خاتمة الكتاب ٥٦٩
- فهرس الجزء الثاني ٥٧١

آثار المؤلف

أولاً

في سلسلة أعداد الإسلام

- (١) مكاييد يهودية عبر التاريخ ٤٤٠ صفحة
- (٢) صراع مع الملاحدة حتى العظم ٥٠٠ صفحة
- (٣) أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها.
«التبشير والاستشراق والاستعمار» ٦٨٠ صفحة
- (٤) الكيد الأحمر
«دراسة داعية للشبيوعية» ٤٠٠ صفحة
- (٥) غزو في الصميم.
«دراسة واعية للغزو الفكري والنفسي والخلقي
والسلوكي في مجالات التعليم المنهجي والتثقيف العام» ٣٣٤ صفحة
- (٦) كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة ٧٥٠ صفحة
- (٨) ظاهرة النفاق وخبائث المنافقين في التاريخ
مع دراسة شاملة للنصوص القرآنية في النفاق
والمنافقين مجلدان ١٤٠٠ صفحة
- (٩) أجوبة الأسئلة التشكيكية الموجهة من قبل إحدى المؤسسات التبشيرية
العاملة تحت تنظيم «الآباء البيض» رسالة ١١٨ صفحة

ثانياً

في طريق الإسلام

- (١) العقيدة الإسلامية وأسسها ٨٠٠ صفحة
- (٢) الأخلاق الإسلامية وأسسها مجلدان ١٥٠٠ صفحة
- (٣) براهين وأدلة إيمانية (مع ديوان آمنت بالله) ٥٠٠ صفحة
- (٤) الصيام ورمضان في السنّة والقرآن «دراسة في طريق بحوث فقه الكتاب والسنّة» ٤٨٠ صفحة
- (٥) أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها ٤١٢ صفحة
- (٦) روائع من أقوال الرسول ﷺ «دراسة لغوية وفكرية وأدبية» ٥٧٥ صفحة
- (٧) الأمة الرّبّانية الواحدة ١٢٢ صفحة
- (٨) ابتلاء الإرادة بالإيمان والإسلام والعبادة ٤٢٥ صفحة

ثالثاً

دراسات قرآنية

- (١) قواعد التدبّر الأمثل لكتاب الله عزّ وجلّ ٨٠٠ صفحة
- (٢) تدبر سورة (الفرقان) في وحدة موضوع ٤٥٠ صفحة
- (٣) تفسير سورة (الرعد) ٢٩٠ صفحة
- (٤) أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع ٤٠٠ صفحة
- (٥) نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد «دراسة في طريق التفسير الموضوعي» ٣٧٢ صفحة

رابعاً

سلسلة من أدب الدعوة الإسلامية

- (١) مبادئ في الأدب والدعوة ١٧٧ صفحة
- (٢) ديوان: «أمنت بالله» شعر ٨٠ صفحة
- (٣) ديوان: «ترنيمات إسلامية» شعر للنشيد ١٢٥ صفحة
- (٤) ديوان: «أقباس في منهاج الدعوة وتوجيه الدعاة» ٢٥٥ صفحة
- (٥) البلاغة العربية
«أسسها وعلومها وفنونها وصور من تطبيقاتها»
بهيكل جديد من طريف وتليد
مجلدان ١٢٠٠ صفحة

خامساً

كتب متنوعة

- (١) ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة ٤٧٠ صفحة
- (٢) بصائر للمسلم المعاصر
وغير ذلك من متفرقات ٤٥٥ صفحة

